الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

كلية أصول الدين والشريعة
والحضارة الإسلامية
قسم العقيدة و مقارنة الأديان
تخصص العقيدة

الرقم التسلسلي............
رقم التسجيل.............

دور القصص القرآني في تكوين عقيدة المسلم
قصة إبراهيم عليه السلام النموذج و المثال

مذكرة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة

إعداد الطالب
زكريا إبراهيم موسى الشلول

إشراف الدكتور
اسعيد عليوان

الاسم و اللقب	الصفة	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية
1ـ أ.د.عبد الرزاق قسوم	رئيس	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر
2ـ أ.د اسعيد عليوان	مشرفا و مقررا	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر
3ـ أ.د منصور كافي	عضو	أستاذ التعليم العالي	جامعة الحاج لخضر باتنة
4 د كمال معزي	عضو	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر
5ـ د.عبد الوهاب فرحات	عضو	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر
6ـ د.عمر لعويرة	عضو	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر

السنة الجامعية 1429/1430هـ الموافق لـ 2008ـ2009م.

الإهـــــــــــــــــــداء

إلى والدي ووالدتي ... وإلى أخواني وأخواتي

وإلى زوجتي وأولادي

وإلى أســـاتذتي وشيوخي .... وإلى الدعـــاة والمجاهدين

وإلى طلبة العلم وأهله

أهدي هذا الجهد المتواضع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكـــر وتقديـــر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين

أما بعد:

فإن الواجب يقتضي أن أشكر كل من مدَّ لي يد العون والمساعدة، حيث وفقت بحمد الله إلى إنجاز هذه الرسالة وإتمامها.

حيث أتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الدكتور اسعيد عليوان الـذي تفضل بقبول الإشراف على هذه الرسالة، وقدم لي كل النصح والتوجيه والتشجيع، كما لا أنسى ما لمسته فيه من رحابة الصدر وحسن التعامل، فجزاه الله عني كل خير.

كما أتقدم بالشكر الخالص إلى أعضاء لجنة المناقشة لتفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة، من أجل إثرائها بتوجهاتهم السديدة، وملاحظاتهم المفيدة، بما يزيد من قيمتها العلمية، فجزاهم الله عني كل خير.

كما يسعدني أن أخص بالشكر عطوفة رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور عبدالله بوخلخال ، لرعايته المسيرة العلمية في هذه الجامعة.

ثم الشكر إلى قسم العقيدة ومقارنة الأديان ممثلة برئيسها الحالي الدكتور كمال جحيش ورئيسها السابق عبد القادر بخوش وأعضاء الهيئتين التدريسية والإدارية.

ثم الشكر إلى عمادة البحث العلمي لما قدموه لطلبة العلم من عناية ورعاية في مجال البحث.

كما لا يفوتني أن أشكر كل أساتذتي الذين علموني في جميع مراحل حياتي الدراسية، وكل من علمني وأرشدني إلى طريق الحق ، كما أتوجه بالشكر والعرفان إلى والدي وأخواني جميعاً الذين كانوا سنداً وعوناً في إكمال دراستي. ثم الشكر الجزيل إلى شباب غزة الذين غمروني بالمودة والتقدير ، والدعم والمساندة. كما أشكر كل من ساهم في إظهار هذه الرسالة، وقدم لي النصح والمساعدة.

والحمـــد لله رب العالمـــين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خطـــــة البحـــــث

المقدمة :

الباب الأول: مفهوم العقيدة الإسلامية والقصص القرآني .

الفصل الأول : العقيدة الإسلامية

المبحث الأول : مفهوم العقيدة الإسلامية

المبحث الثاني : مقومات العقيدة الإسلامية [الأساسين: الفكري والنفسي]

المبحث الثالث: طريقة تأسيس المعتقد الإيماني .

الفصل الثاني: القصص القرآني :

المـــبحث الأول : مفهوم القصص القرآني

المـــبحث الثاني : أهداف القصص القرآني

المـــبحث الثالث : خصائص القصص القرآني

الباب الثاني : دور قصة إبراهيم في تكوين الأساس الفكري لعقيدة التوحيد

الفصـــــــل الأول : استدلال إبراهيم بقدرة الله تعالى على إلوهيته

المـــبحث الأول : دليل الخلق

المبحث الثاني : دليل الرزق

المبحث الثالث : دليل الضر والنفع

المـــبحث الرابع : دليل الإحياء والإماتة

المبحث الخامس: دليل البعث والحساب والجزاء

الفصـــل الثـــاني : استدلال إبراهيم بملك الله تعالى على إلوهيته

المبحث الأول: الاستدلال بملكه التام لجميع الخلائق

المبحث الثاني: الاستدلال بملكه ليوم الدين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث : استدلال إبراهيم بعلم الله تعالى على إلوهيته

المبحث الأول: الاستدلال بعلمه تعالى لعالم الغيب والشهادة

المبحث الثاني: الاستدلال بعلمه تعالى بالإنسان سره وجهره

المبحث الثالث: الاستدلال بعلمه تعالى بما يصلح الإنسان وينفعه

الفصل الرابع : استدلال إبراهيم برحمة الله تعالى على إلوهيته

المبحث الأول: الاستدلال برحمته تعالى في قضائه وقدره

المبحث الثاني: الاستدلال برحمته تعالى في تشريعه وحكمه

المبحث الثالث: الاستدلال برحمته تعالى في حلمه ومغفرته

المبحث الرابع : الاستدلال برحمته تعالى في ميزان الحساب

الفصل الخامس: استدلال إبراهيم بعدالة الله تعالى على إلوهيته

المبحث الأول: الاستدلال بعدالته تعالى في قضائه وقدره

المبحث الثاني: الاستدلال بعدالته تعالى في شرعه ودينه

المبحث الثالث: الاستدلال بعدالته تعالى في حسابه وجزائه

الفصل السادس: استدلال إبراهيم بإرادة الله تعالى على إلوهيته

المبحث الأول: الاستدلال بإرادته تعالى الكونية القدرية

المبحث الثاني: الاستدلال بإرادته تعالى الشرعية التكليفية

الفصل السابع : استدلال إبراهيم بكمال الله تعالى على إلوهيته

المبحث الأول: الاستدلال بإثبات كماله تعالى في أسمائه وصفاته على ألوهيته

المبحث الثاني: الاستدلال بإثبات النقص لكل ما سواه تعالى على ألوهيته .

المبحث الثالث: الاستدلال بنفي المماثلة مع الله في أسمائه وصفاته على ألوهيته

الباب الثالث : دور قصة إبراهيم في تكوين الأساس النفسي لعقيدة التوحيد

الفصل الأول : محبة الله تعالى

المبحث الأول: التأسيس الفكري لمحبة الله تعالى

المبحث الثاني: التربية النفسية لمحبة الله تعالى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصـــل الثـــاني : مخافة الله تعالى

المبحث الأول: التأسيس الفكري لمخافة الله تعالى

المبحث الثاني: التربية النفسية لمخافة الله تعالى

الفصـــل الثـــالث : رجاء الله تعالى

المبحث الأول: التأسيس الفكري لرجاء الله تعالى

المبحث الثاني: التربية النفسية لرجاء الله تعالى

الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات.

قائمة المصادر والمراجع .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ المقدمة :

الحمد لله الذي أنزل علينا القرآن هداية إلى الحق وعاصماً من الضلالةَ, وقص علينا أحسن القصص تثبيتاً لقلوبنا وعبرة ترفع عنا الغفلة والجهالة ، والصلاة و السلام على خاتم الأنبياء و المرسلين قدوتنا في الإيمان والاستقامة وعلى أصحابه الكرام الذين ضربوا المثل في السمع والطاعة.

أما بعد:

لقد نزل القرآن ليصنع أمة ويقيم نظاماً ويشيد حضارة , متجهة إلى الله، وتنهل من معين هداه, في وسط عالم جاهلي منقطع عن وحي السماء , وكانت مهمة النبي صلى الله عليه وسلم هي أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور ,وكانت أول مراحل خطواته هو استقطاب أصحاب الضمائر الحية والفطرة السوية ، ومن ثم يعمل على بناء العقيدة في نفوسهم بما يتنزل من القرآن, وكان ما يتنزل من القرآن الكريم متوافق مع طبيعة المرحلة الأولى وهي مرحلة البناء و التكوين ومن هنا قضى صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عام في العهد المكي في بناء العناصر الحية الصالحة لحمل رسالة الإسلام إلى العالم ، فقد كانت وظيفته الأولى فيها هو الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى وتربية المؤمنين تربية قرآنية وإعدادهم لبناء المجتمع والدولة . ومن ثم ينطلق إلى العالم يحمل لهم الإسلام . وعليه كان هدف القرآن هو بناء أمة تصل بها التربية إلى المستوى الذي يؤهلها إلى حمل أمانة دعوته ومنهجه, و من ثم قياد البشرية في طريقها إلى الله لبلوغ الكمال المقدر لها في الحياة ,وهذه الغاية تحدد المجال الأول للقرآن في داخل النفس، لقوله تعالى : { **إِنّ اللّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** } [الرعد: 11]. وهذا التغير هو الذي صبغه الرسول بالرعيل الأول حيث غيروا أنفسهم بالتربية وفق منهج القرآن فنقلهم نقله هائلة في جيل واحد من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام فكراً وتصوراً وعقيدة وخلقاً وسلوكاً ,وأما سر هذا التحول العجيب فهو بمنهج القرآن الذي يخاطب الكائن البشري كله,عقله وشعوره مستثمراً كل طاقاته ومواهبه وذلك حين ينفذ إلى أعماقه من كل منافذه ويؤثر فيه بكل المؤثرات، لأنه لا يقتصر على خطاب العقل الذي هو إحد منافذه ، بل يرتفع بأسلوبه إلى مجال الفطرة الشاملة قاصداً المنطقة الحارة الملتهبة في الإنسان، وموطن تحول الإرادة ليغرس فيها العقيدة الربانية لتنتج ثمراً يانعاً طيباً يؤتي أكله كل حين فهو لا يغرس العقيدة في منطقة باردة ولا يعتمد على الإقناع الذهني المجرد ولا على قضايا المنطق الجافة، بل هو حين يقيم الدليل على أخطر قضايا العقيدة وهي قضية التوحيد إنما يعتمد على منطق البداهة المستقرة في الفطرة والذي لا ينكره إلى جاحد ولا يماري فيه إلى مكابر.

إن المتدبر البصير في منهج القرآن الكريم في الدعوة والتربية يجد أنه يخاطب الفطرة المتركزة في كينونة الإنسان بعيداً عن أسلوب النظريات الفلسفية والمجادلة الكلامية ويضع له منهج التفكير ليفتح آفاق عقله وقلبه أمام كتاب الله المسطور وكونه المنظور قاعدة ينطلق بها إلى الإبداع والابتكار والاجتهاد ، يصنع من خلالها حضارة مهتدية بنور الوحي الإلهي ومن هنا كان من الطبيعي أن تأخذ القصة القرآنية مكانها وأن تقوم بدورها في هذا المجال ، وأن يعتني به القرآن تلك العناية البالغة وأن تكون من أعظم وسائله للدعوة والتربية, وبخاصة في العهد المكي فترة البناء والتكوين, حيث كان نزول القرآن متوافق مع طبيعة المرحلة ومصاحباً لها , ومن هنا ندرك الحيز الكبير والمساحة الواسعة الذي شغلته القصة القرآنية من كتاب الله تعالى ومن طبيعة المرحلة ،والذي عالج فيه كل ما يهدف القرآن للدعوة إلى تعميق الإيمان في قلوب المؤمنين وقد أدرك مشركو قريش ما للقصص القرآني من تأثير عجيب فاستعملوا القصص في مقاومة الدعوية الإسلامية ولكن شتان ما بين نبع الحكمة الإلهي الذي يقص أحسن القصص و بين إفرازات القصور الإنساني الذي يحكي الخرافات والأساطير ولنتأمل مثلاً واحداً لدور القصة القرآنية في مجال الدعوة والتربية لقصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء في قوله تعالى : { **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** } [**الشعراء: 69-83**]. فإبراهيم عليه السلام هو أصل شجرة النبوة و إمام الموحدين لمن جاءوا بعده , وهو جد العرب وكان مشركو قريش يعتزون بنسبهم إليه ويزعمون أهم على دينه وورثة رسالته وعقيدته وسدنة بيته الذي رفع قواعده مع ابنه إسماعيل , فالقرآن جاء بقصة إبراهيم عليه السلام ليخاطب ذريته كأنه جاء من ثنايا الماضي لينكر على أبنائه ما أحدثوه من وثنية ويعلن عن براءته منها ومن فعلهم , ومن ثم هو في نفس الوقت يلقن المؤمنين درساً في الإيمان والتوحيد وينشئ في قلوهم تصورا لحقيقة الصلة بالله عز وجل ,وهو درس خالد لجميع الأجيال , وكذلك فعل القرآن في الرد على تحريف اليهود والنصارى لعقيدهم من خلال قصة إبراهيم عليه السلام فقصته تمثل

قاعدة الإيمان وشجرته الممتدة التي ينتسب إليها موكب الإيمان عبر الأجيال المتلاحقة , هذا مثال لبيان عمل القصة القرآنية في الدعوة والتربية، وهنا يستطيع المتأمل البصير أن يدرك كيف تحقق أهدافها كاملاً في إعجاز لا تستطيع العبارات أن تصور حقيقته وعليه فإن القصص القرآني قد عالج موضوع العقيدة وقضاياها في مجال الدعوة والتربية، وإن قصة إبراهيم عليه السلام تعد نموذجا كاملا ومثالا واضحا لعمل القصة القرآنية في علاج العقيدة في هذا المجال.

أهمية الدراسة:

هذه الدراسة بعنوان " **دور القصص** القرآني **في تكوين عقيدة المسلم- قصة إبراهيم عليه السلام النموذج والمثال-** " .

وتظهر أهمية هذه الدراسة في النقاط التالية:

1. الحاجة إلى بيان دور القصص القرآني في تكوين عقيدة المسلم وفق قراءة جديدة للقصة القرآنية.
2. الكشف عن الحاجة الشديدة إلى قراءة جديدة للقصة القرآنية بما يساعد على تحقيق الغرض من القصة في بناء شخصية المسلم (عقله وشعوره).
3. تسهم هذه الدراسة في الكشف عن منهج القرآن في بناء العقيدة وتكوينها الإيماني بوصفه منهجا عاما وبيان موقع القصة في هذا المنهج والاستفادة من ذلك في مجالات العلوم الإنسانية سواء كانت علوم تربوية أو نفسية أو إنسانية أو اجتماعية.
4. كما تسهم هذه الدراسة في الكشف عن دور القصة القرآنية في البناء العقائدي في العهد النبوي وأهمية ذلك في تربية الفرد والمجتمع ، وهي محاولة تصب في جملة الجهود الإصلاحية للأمة .
5. ضرورة تناول العقيدة الإسلامية بصورها المؤثرة من خلال الكشف عن منهج الرسول في التربية العقدية وخاصة في الفترة المكية وبالأخص التربية العقدية التي كانت في بيت الأرقم ، أي هذه الدراسة محاولة للكشف عن (العقيدة الأرقمية) التي كان يربي بها الرسول الصحابة الكرام ، من خلال القرآن الكريم والذي كان القصص القرآني أبرز موضوعاته ،حيث أظهرت هذه التربية آثارها من خلال التحول العجيب في شخصياتهم ، فقد أنتجت هذه التربية رواد النهضة الإنسانية ، فكان البحث عن هذه التربية القرآنية والنبوية والكشف عن معالمها فريضة شرعية وضرورة واقعية ، حتى يحقق المسلم دوره وغايته في هذا الوجود وفق المنهج الذي اتبعه الرسول صلى الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عليه وسلم في بناء العقيدة الإسلامية الصافية وبعناصرها الإيمانية والشرعية والاستفادة من التراكم المعرفي الذي تحقق في الثقافة المعاصرة مع المحافظة على الأصالة المتمثلة في منهج الوحي الإلهي .

6. تسهم الدراسة في محاولة البحث عن علاج لحالة التردي التي أصاب الأمة الإسلامية بسبب الضعف الذي طرأ على الأمة في فهم عقيدتها لعدم تناولها من الوحي الإلهي، حتى أصبحت بحاجة إلى حركة إحياء وبعث من جديد لمفاهيمها وتصوراتها وفق المنهج القرآني بصورة مقنعة للعقل ومؤثرة في النفس ومحركة للسلوك. وهو ما طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم في سيرته العطرة وجسده الصحابة الكرامة في حياتهم .

إشكالية الدراسة .

سوف نستعرض مشكلة الدراسة التي استدعتها هذه الدراسة من خلال تحديد مشكلة الدراسة وبيان أسبابها وكيفية معالجتها ومساهمة الدراسة في حلها وذلك على النحو الآتي:

1. تحديد مشكلة الدراسة :

لقد حقق المسلمون في أول العهد نهضة حضارية في كل مجالات الحياة ، وذلك حينما كانت العقيدة راسخة في نفوسهم متمثلة في سلوكهم ، وأما اليوم فقد وصل حال المسلمين من التردي والهوان ما لا يخفى على أحد ، وذلك بسبب سوء فهمهم لعقيدتهم وضعفها في نفوسهم ، ومما يدل على ذلك أن فصلوا سلوكهم وحياتهم عنها، وبلغ حالهم أن تعالت كثير من الدعوات بالمطالبة بفصل الدين عن الدولة والسياسة . وقد انبرى ثلة من العلماء الربانين لتصحيح مسار الأمة وإنقاذها من حالة التردي والنهوض بها إلى مستواها الإنساني الذي يليق بها بوصفها أمة ربانية وحاملة رسالة عالمية ، ولكن ما زالت محاولات الإصلاح التي تسعى إلى النهوض بالأمة متواضعة بالنسبة إلى حجم المشكلة، كما أنها جهود مرتجلة ومشتتة وغير منظمة ولا تسير وفق برامج وخطط مدروسة ، وهي في أغلبها اجتهادات فردية ، أو جماعات وحركات ومدارس مختزلة في أفراد أو منبثقة عنها ، وبعيدة عن العمل الجماعي المؤسسي ، وهي في مجملها لم تصل إلى الآن لحالة التشخيص السليم للمشكلة علاوة على أن تقدم علاجاً ناجعاً لها وتسعى إلى تنفيذه . ويمكن أن نقول أن هذه المحاولات أخفقت في إحداث التغير والإصلاح المطلوب في الأمة، على مستوى الفردي والجماعي . وأن غياب الأمة الإسلامية عن مسرح الحياة الإنسانية أدى إلى تدهور كبير وانتكاسة لم يسبق لها مثيل في التاريخ الإنساني .

2. **بيان أسباب المشكلة :**

معلوم أن نهضة الأمة مرتبطة بنهضة الفرد المسلم ، وأن المسلم ينهض بمقدار قوة فهمه لعقيدته وتمسكه بها والتزامه بمقتضياتها ، وينحط بمقدار ضعف فهمه لها وتهاونه فيها . ومن هنا يتبين سبب إخفاق كثير من محاولات الإصلاح في إحداث النهضة للأمة الإسلامية ، أنها لم تعط الأولوية في عملية التغيير والإصلاح للفرد المسلم ، ولم تراع أهمية التربية العقدية في تغيير المحتوى الكلي للإنسان ، ودورها في عملية الإصلاح والتغيير ، كما أن كثيراً من الدراسات لم تنضبط بالمنهجية الإسلامية ، ونهجت مناهج ومباحث بعيدة كل البعد عن المنهج القرآني في بناء وتكوين المعتقد الإيماني للمسلم ، مما أدى إلى الاختلاف والاضطراب في قضية هي من البديهيات في الفكر الإسلامي .

3. **كيفية معالجتها :**

ومن أجل تحقيق نهضة الأمة الإسلامية فلا بد من التركيز على المقومات الأولى والأساسية لعملية التغيير والإصلاح وهو بناء الشخصية الإسلامية الصالحة والمصلحة ، والتي من أولوياتها تكوين عقيدة المسلم فكرياً ونفسياً وفق منهج الوحي الإلهي ، ولذلك كان لا بد من تأصيل الفكر وتأسيس المعتقد من خلال استحياء مقومات العقيدة واستقرائها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وخاصة الفترة المكية التي نزل فيها القرآن ، حيث اعتنى بصورة أساسية بالبناء العقائدي للشخصية الإسلامية ، كما شغل القصص القرآني وخاصة قصص الأنبياء والمرسلين مساحة واسعة من القرآن في هذه الفترة ، وقد كان لهذا القصص الدور الكبير في تكوين عقيدة المسلم من الوجهة الفكريةِ والنفسية . ومن خلال تكوين عقيدة المسلم عمل النبي عليه الصلاة والسلام على بناء المجتمع والدولة على أساس العقيدة الإسلامية ، ومنه انتقل إلى الإصلاح العالمي . وهذه طريقة الإسلام في معالجة مشكلاته حيث يمتاز بتجانس الفكرة والطريقة ، أي أن طريقة الإسلام في تحقيق أهدافه هي من جنس الفكرة ومنبثقة عنها، . وإن أي انفصال بين المنهج والفكرة هو خروج عن المنهج الإسلامي وإفشال لعملية التغيير والإصلاح ، فلا يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله. وان النهضة لا يمكن أن تتحقق إلا بإتباع المنهج الإلهي القويم الذي بينه سبحانه في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4. مساهمة الدراسة في معالجة المشكلة:

إن الخروج من حالة التخلف والتردي إلى النهضة والرقي مرتبط بنهضة الفرد المسلم ، كما أن نهضته مرتبطة بمدى وعيه وتمسكه بعقيدته ، فكانت العقيدة هي نواة التغيير والإصلاح ، والمصدر الأساسي لهذه العقيدة هو القرآن الكريم ، وتركزت العقيدة في موضوعاته في الفترة المكية والتي كان القصص القرآني هو أبرزها ، حيث كانت تلك الفترة هي فترة التربية العقدية للشخصية الإسلامية، وذلك لما تميزت به القصة من قوة التأثير ، فكانت هذه الدراسة تسعى إلى الكشف عن دور القصص القرآني في تكوين عقيدة المسلم من خلال قصة إبراهيم عليه السلام بوصفه أبو الأنبياء وخليل الرحمن ، والحليم المنيب ، والمفكر المستنير ذو القلب السليم ، وصاحب الحنيفية السمحة ، التي أمر تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بإتباع ملته ، بقوله تعالى : { **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** } [النحل: 123]. فقصته عليه السلام تمثل النموذج الحي والمثال الكامل التي تكشف عن دور القصص القرآني في تكوين العقيدة .

وعلية فإن موضوع البحث في هذه الرسالة والموسومة بـــ { دور القصص القرآني في تكوين عقيدة المسلم - قصة إبراهيم عليه السلام النموذج والمثال ــ } تعد من المواضيع التي تخدم الدراسات القرآنية المتعلقة بالقصص القرآني في موضوع العقيدة. وهذه الدراسة تعد من الأولويات التي يقتضيها واقعنا المعاصر، وخاصة والأمة تعيش اليوم أزمة حضارية بعد أن فقدت دورها الريادي بين الأمم , وأصبحت مهددة بفقدان هويتها الإسلامية بعد أن أصاب روحها الشعور بالانهزامية لتجعل منها أمة تابعة بين أهواء المصالح المتضاربة , وأنه لا سبيل للخروج من هذه الأزمة إلا بإرادة التغير التي تبدأ من داخل الفرد المسلم، وذلك بإعادة بنائه بناءً عقائدياً ينطلق من خلاله إلى التغير على المستوى الفردي والاجتماعي ثم الدولة التي أناط بها سبحانه مسؤولية حمل رسالة الإسلام إلى العالم . وعليه فإنه يمكن تحديد إشكالية الدراسة من خلال الأسئلة التالية :

أ. ما هو مفهوم العقيدة الإسلامية؟ وما هي مقوماتها؟ وما هو المنهج الذي اتبعه القرآن في تكوين عقيدة المسلم فكرياً ونفسياً؟

ب. ما هي حقيقة القصص القرآني ؟ وما هي أهدافه وخصائصه ؟

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ج. كيف يمكن للقصص القرآني أن يحقق دوره في المساهمة في تكوين عقيدة المسلم من الناحية الفكرية والنفسية؟

د. ما هو دور قصة إبراهيم عليه السلام التي بينها القرآن في تكوين عقيدة المسلم فكريا ونفسيا؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تعالج طبيعة الإشكالية لهذه الدراسة والتي تسهم من خلالها في معالجة عقيدة المسلم من الوجهة التربوية . في ضوء القصص القرآني بما يعزز جوانب الاعتقاد وتحقيق آثارها السلوكية في دائرة المنهج الرباني.

أسباب اختيار الموضوع .

أ. أسباب شخصية

وهو اعتقادي أن أول مراحل التغير تبدأ من النفس البشرية حينما تبني بناءً عقائدياً مؤثراً في السلوك من خلال المنهج القرآني وهو ما طبقة الرسول صلى الله عليه وسلم في جيل الصحابة ولقد دفعني هذا الاعتقاد إلى تركيز جهدي المتواضع في هذا المجال حيث قدمت مشروعي في رسالة الماجستير الموسومة بـ(أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني) مبينا فيها رؤية منهجية في ضوء القرآن الكريم لعملية تكوين عقيدة المسلم بمقوماتها ومؤثراتها الفكرية والنفسية ، لتحقق بذلك آثارها السلوكية في واقع حياته ، ومركزاً على أكثر جوانب العقيدة المؤثرة في السلوك وهما عقيدة التوحيد وعقيدة الآخرة إلا أنني رأيت أن هذا المشروع لا تتضح معالم رؤيته، ولا يؤدي ثماره المرجوة، ما لم يكتمل بالنموذج التطبيقي والعملي، وهذا لا يتحقق إلا من خلال القصص القرآني، الذي يقدم النموذج الكامل والمثال الحي، متجسداً في شخصية الأنبياء والرسل عليهم السلام، الذين قدموا القدوة الحسنة في صحة الاعتقاد تصوراً والتزاماً، وسلامة الممارسة الإيمانية تحقيقاً وتطبيقاً، بحيث تصلح منهجاً تربوياً في البناء والتكوين والتأسي والاقتداء.

ب. أسباب موضوعية وواقعية

إن العصر الذي نعيش فيه قد راجت فيه القصص والأفلام الخليعة والإباحية التي استقطبت عقول وقلوب الشباب المسلم، وكأنك تجد الزمان يعيد نفسه في محاربة الإسلام عندما حاول أعداء الإسلام قديماً ترويج القصص والأساطير لمعارضة القرآن الكريم، وها هم أعداء الإسلام حديثاً يستخدمون نفس الأسلوب في إفساد عقول الناس وضمائرهم بتقديم القصص والأفلام

القائمة على الخيال والانحلال والقيم الفاسدة، فكانت الرغبة في هـــذه الدراســـة في إعـــادة الفاعلية للقصص القرآني لتأخذ دورها ومكانتها في مجال الدعوة والتربية للشباب المسلم .

وكذلك هناك سبب لا يقل أهمية وهو محاولة أعداء الإسلام تفريغ المسلم مـــن عقيدتـــه ودوره المركزي على مستوى العالم، فكان التوجه في هذه الدراسة إلى عملية البناء والتكوين لعقيدة المسلم، وإعادة فاعليته المركزية بوصفه صاحب رسالة ربانية وعالمية، مـــن أولويـــات الدراسات الجادة التي تراعي فقه الواقع وفقه الأولويات في مجال الدراسة والبحث.

كما أن هناك محاولات مغرضة من أجل إحياء الخلافات العقدية ـــ التي أفرزهـــا عوامـــل تاريخية ـــ في الوسط الإسلامي على مستوى الأفراد والحركات والمؤسسات العلمية، وإعادة مدارسها القديمة إلى الساحة الإسلامية، قاصدين بذلك تمزيق مجتمعاتنا وإعاقتها عن النهوض .

إن بروز هذه الظاهرة وانتشارها يعد عائقا أمام وحدة الصف الإسلامي وقـــوة تماســـكه، كما يعد هدراً للطاقات الإسلامية، واستنزافاً لقدراتها، وتحويلاً لمسارها، لتنشغل عن هـــدفها ودورها الذي كلفه الله به، وجعله أمانة وعهداً مسئولاً، فكانت هذه الدراسة صرخة مدوية في أعماق الضمائر الحية للعودة إلى النقطة التي افترقنا منها وهي الرجوع إلى نبع الوحي الإلهي ننهل من معينه العذب الصافي منهج العقيدة بعيداً عن شوائب الطرح العقيم والفهم السقيم .

ج. أسباب علمية:

أما الأسباب المتعلقة بالجانب العلمي الأكاديمي فإنه يمكن أن أجمعها على النحو الآتي:

1. لم يسبق أن بحث هذا الموضوع مما استحق العناية والدراسة والاستقصاء

2. حاجة الأمة في واقعنا المعاصر إلى عملية بعث وإحياء لمقومات تصوراتها العقدية في ضوء المنهج القرآني وتطبيقاته النبوية , بما يحقق الفاعلية والتأثير في سلامة الممارسة الإيمانية بعيـــداً عن اجترار الماضي وسلبياته في تناول العقيدة، والتي أورثت هجيناً مختلطـــاً مـــن الأفكـــار والتصورات التي أفرزتها بعض المدارس الإسلامية .

3. السير في هدى المنهج القرآني وتماشياً مع طرقه وأساليبه في عرض العقيدة الإســـلامية في مجال الدعوة والتربية، والذي يعد القصص القرآني من أبرز أساليب القرآن الكـــريم في هـــذا المجال حيث نلاحظ الحيز الكبير الذي شغلته القصة القرآنية في كتاب الله وخاصة في الفتـــرة المكية فترة بناء وتكوين عقيدة المسلم، وهذا يعطي القصة القرآنية أهمية بالغة ودلالة واضحة في دورها الفعال والمؤثر في هذا المجال. ويمكن أن نجمل ما امتاز به القصص القرآني كما يلي:

جمعية عبد القادر العطوح الإسلامية

أ. صدقه وواقعيته وبعده عن الخيال والأسطورة فهو أحسن القصص لما تحمله من صدق العرض والأحداث ، وما تنشره من مبادئ الحق والعدل، فهو قول فصل وما هو بالهزل، وإن هدفه ليس المتعة أو التسلية أو المادة التاريخية، بل يهدف إلى أداء غرض ديني .

ب. اشتماله على عنصر التشويق والإثارة وجذب السامعين، فأسلوب القصص القرآني يلفت النظر من صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس وهي ظاهرة بارزة تستحق الدراسة

ج. مخاطبته العقل والعاطفة معاً، بحيث يعد من أقرب وسائل الإقناع إلى النفس الإنسانية .

د. مخاطبته العامة والخاصة بحيث يناسب أسلوبه كافة الناس على تفاوت مداركهم .

هـ. إنه يعرض العقيدة بصورتها العملية الواقعية بعيداً عن دواعي الجدل الفلسفي والكلامي

و. إنه يُعدُّ مصدراً أساسياً لاستقراء السنن الإلهية، لتفتح أمام العقل البشري مجالاً رحباً للاعتبار والقياس والاستنباط ، كما تؤسس منهجاً متكاملاً في قراءة حركة التاريخ الإنساني ونقده وتقويمه، بحيث يمكن استثمارها في عملية التغير والإصلاح نحو نهضة حضارية وفق المنهج الإلهي .

ز. إنه عالج كل قضايا العقيدة وكشف عن كثير من الانحرافات العقدية وبيّن زيفها وبطلانها

ح. إنه يحمل في ثناياه طبيعة الصراع العقدي بين الحق والباطل، وتبيّن الأساليب المتبعة من قبل أهل الباطل في مواجهة الحق وأتباعه. وهي بذلك تقدم منهجاً متكاملاً في عملية المواجهة والصراع مع أهل الباطل.

ط. إنه يكشف عن طبيعة المنهج الدعوي وأساليبه التي يمكن الاستفادة منها في مجال الدعوة إلى الله تعالى .

ي. إنه يكشف عن كثير من مجالات السلوك الإنساني، ويضبط الممارسة الإيمانية نحو خط الاهتداء .

ك. كما إنه يقدم النموذج الكامل والمثال الحي في صحة الاعتقاد وسلامة الممارسة الإيمانية متجسدة في الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، الذين كانوا على منزلة رفيعة من الطاعة، والترفع عن أهواء النفس والبعد عن المعاصي ، بحيث تعد نموذجا صالحا للتأسي والاقتداء.

4. إن قصة إبراهيم عليه السلام تعد نموذجاً كاملاً ومثالاً صالحاً في مجال تكوين عقيدة المسلم ويرجع ذلك إلى الأسباب التالية:

أ. مكانة إبراهيم عليه السلام عند معتنقي الديانات السماوية الثلاثة، وإجماعهم عليه وانتماؤهم إليه ديناً ونسباً .

ب. منزلة إبراهيم علية السلام عند ربه وهي منزلة الخلة فهو خليل الله تعالى : { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 125]. وتكريم الله تعالى إياه بالإمامة : { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } [البقرة: 124].

ج. صفات إبراهيم وفضائله وشمائله التي ذكرها القرآن وبينها لنا , فهو من أولي العزم من الرسل وهو أبو الأنبياء وهو الذي ابتلاه الله فوفى وزاد على الوفاء إحساناً، وهو الذي جعله الله إمام الموحدين، وهو صدّيق نبي، وهو أواه حليم منيب، وهو صاحب لسان صدق في العالمين، وهو في الآخرة من الصالحين، وهو مثال الصدق والإخلاص في محبة الله، وهو حنيف مسلم لله .

د. كما إن قصة إبراهيم هي من أوضح الأمثلة في معالجة قضايا العقيدة، وخاصة عقيدة التوحيد، حيث جاءت شاملة لكل قضاياها .

هـ. كما أن ذكر إبراهيم تكرر في القرآن كثيراً حيث ذكر في (25) سورة وذكر في (38) موضعاً في القرآن، وبلغت الآيات القرآنية لقصة إبراهيم وذكره أكثر من (224)آية بحيث تصلح موضوعاً لمادة الدراسة والبحث.

و. كما تمتاز قصة إبراهيم بالشمولية والتنوع والتشويق بحيث تحقق أثرها الإيجابي في تربية وتكوين عقيدة المسلم .

5. إسهام هذه الدراسة المتواضعة في تقديم لبنة جديدة في صرح العلم والمعرفة تضاف إلى المكتبة الإسلامية.

وعليه فإن القصص القرآني كان له دور كبير في التربية وتكوين عقيدة المسلم فكرياً ونفسياً، فقصة إبراهيم عليه السلام تعد نموذجاً كاملاً في هذا المجال.

الصعوبات .

إن من أهم الصعوبات في هذا البحث هي :

1. عدم دراسة الموضوع دراسة سابقة ومستقلة مما يجعله جديداً في حدود علمنا، وإن قلة الدراسات المتخصصة في هذا الموضوع يتطلب جهداً خاصاً ومميزاً في جمع المعلومات وفرزها وترتيبها وتحليلها ومن ثم صياغتها بما يخدم المحاور الأساسية للبحث.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2. صعوبة الحصول على المراجع والمصادر المطلوبة مما صعّب عملية الوصول إلى الأهداف والنتائج المرجوة .

3. صعوبة تحديد مفهوم العقيدة و مرد هذه الصعوبة يرجع إلى الاختلاف الحاصل بين العلماء مما يتطلب جهداً في تتبعها ومناقشتها ومحاولة الخروج بمفهوم يتناسب مع واقعها ومع طبيعة البحث، وبما جاء من دلالات النصوص الشرعية .

أهداف الدراسة:

1. إعادة الفاعلية والتأثير للعقيدة في مجال التطبيق والممارسة الإيمانية من خلال الفهم العميق للعقيدة الإسلامية وإدراك أبعادها التربوية ، وهذا من شأنه أن يعزز جانب الربط بين العقيدة والسلوك ويساهم في عملية التغيير والإصلاح نحو عودة صادقة للإسلام من جديد .

2. محاولة الاستفادة من القصص القرآني في مجال التربية العقدية للشخصية الإسلامية في ضوء ممارسات الأنبياء وخاصة أبو الأنبياء إبراهيم علية السلام في إطار تربوي يكفل لها تيسير الفهم والتطبيق، وسهولة العرض بصورة مشوقة تجذب المسلم إلى تمثل العقيدة فكراً والتزاماً وسلوكاً.

3. إبراز الجانب الفكري والنفسي للعقيدة الإسلامية ، وبيان ضرورة ترابطهما معاً لتحقيق أثرهما في السلوك وذلك من خلال ممارسة الأنبياء في القصص القرآني وخاصة قصة إبراهيم عليه السلام

4. الإسهام في تحقيق الهدف المنشود في إعادة الفاعلية للشخصية الإسلامية من خلال بناء القاعدة الصلبة المتمثلة في العقيدة الإسلامية ليتفاعل المسلم مع قضايا أمته وإقالتها من عثرتها.

5. الإسهام في تحقيق الجامعات الإسلامية دورها الريادي في عملية بعث وإحياء الأمة لتمارس نشاطها الحضاري القيادي .

الدراسات السابقة

لم أجد فيما اطلعت أحدا من الباحثين تناول هذه الدراسة الموسومة بـــ(دور القصص القرآني في تكوين عقيدة المسلم ــ قصة إبراهيم عليه السلام النموذج والمثال ــ) إلا أنه كانت هناك دراسات جادة ومفيدة في مجال الدراسات العقدية والقصص القرآني وقد استفدت منها في مجال دراستي ... ففي مجال القصص القرآني فهناك كتب من ذلك مثل الإمام ابن كثير في تاريخه الذي جعله سردا لقصص قد لا تخلو من بعض الدخيل والإمام

الواحدي المحدث المفسر الكبير والإمام الثعالبي ومن الكتاب المعاصرين فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار (قصص الأنبياء) والأستاذ المرحوم الشيخ محمد العدوي كتاب (دعوة الرسل إلى الله) وكذلك الداعية المرحوم جاد المولى والأستاذ البيجاوي وطنطاوي وأبو الفضل وغيرهم , إلا أن هذه المؤلفات قد شابها الكثير من التساؤل والغموض من حيث طريقة عرض القصص وقراءها التقليدية التي تمتاز بالتلقي دون إعمال فكر , وذلك بسبب فقدان التسلسل الحقيقي لأحداث القصة والذي ينبغي أن يركز في تسلسله على البعد الفكري أكثر من البعد الزمني مما أفقدها التأثير الحقيقي الذي يراد منه في عملية البناء الحقيقي للعقيدة الإسلامية لأن القصص القرآني سواء كانت قصة النشأة والتكوين للكون مروراً بقصة خلق الإنسان وصولاً لقصة النبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، كان المحور الأساسي لهذه القصص جميعها عقيدة الإسلام وهي الكلمة الطيبة الممثلة بـ{ لا اله إلا الله } فالقصص القرآني هو في الحقيقة قصة العقيدة الإسلامية وسيرها في حياة الناس منذ الزمن الأول للإنسان وما حدث فيه من محاولة الشيطان غواية آدم أبو البشر ، فكان القصص بعد ذلك الحدث تكراراً للصراع بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل ، وبين الإيمان بالله والتسليم المطلق له تعالى وبين الكفر بالله والمعصية لأوامره سبحانه .

وفي كل قصة من القصص القرآني سواء كانت موسعة مفصلة أو مختصرة مجملة، إنما تدور أحداثها حول عقيدة الإيمان والكفر، وسير الأحداث المتسلسل يجعل للقصة أثراً بالغاً في نفس الإنسان المسلم سواء كان لتحقيق العبرة منها أو لتثبيت الإيمان أو دعوة للتفكر والتفكير أو إقامة الحجة العملية فكرياً وشعورياً ونفسياً مما يشكل حالة من الترغيب بالإيمان والطاعة والترهيب من الكفر والعصيان.وهذا يقتضي قراءة جديدة للقصة القرآنية وفق منهج القرآن في التلاوة و الترتيل أي بيان تعاقب الأحداث وتسلسلها الدقيق لتحقيق الغرض منها، ولهذا كانت هذه الدراسة. ولا يزال الباب مفتوحاً واسعاً إلى المزيد من الأبحاث والدراسات حتى تبلغ مرحلة النضوج والاكتمال إن شاء الله .

وأما في مجال العقيدة، فهناك كتب كثيرة لا تحصى مثل كتاب شرح العقيدة الطحاوية لابن العز الحنفي، وكتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني، وكتاب العقيدة الإسلامية وأسسها لحبنكة، وكتاب عقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري، وكتاب عقيدة المسلم للغزالي، وكتاب العقائد الإسلامية لسيد سابق، ويلاحظ أن أكثر كتب العقيدة قد

غلب عليها الاهتمام بالجانب الفكري وأهملت الجانب النفسي من الوجهة العقدية مع أنها تعد من أكثر الدوافع المؤثرة في السلوك الإنساني، فكانت هذه الدراسة تهدف إلى إبراز الجانب النفسي من الناحية العقدية، وفاعليته من الوجهة التربوية في بناء الشخصية الإسلامية وأثره في ضبط الممارسة الإيمانية في ضوء القصص القرآني وممارسة الأنبياء والرسل .

وأما في مجال الجمع بين القصص القرآني والعقيدة فهناك دراسة جادة ومفيدة للدكتورة منى بنت عبدالله حسن بعنوان (منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء قصص القرآن) إلا أن هذه الدراسة اهتمت في الجانب الدعوي واقتصرت عليه في دراستها و لم تبحث الجانب التربوي في مجال العقيدة للقصص القرآني و لم أجد أحداً فيما أعلم قد أفرد لهذا البحث كما تقدمه هذه الدراسة .

المنهج المتبع في هذه الدراسة :

لقد اتخذت في هذا البحث منهجا معيناً توخيت فيه الوصول إلى الأهداف التي وضعتها ويمكن بيانها على النحو التالي :

1. استخدام المنهج الاستقرائي: حيث قمت بقراءة القرآن قراءة متأنية لأجمع مادة البحث موضوع الدراسة التي تلزمني من خلال استقراء موضوعات القصص القرآني المتعلقة بالجانب القرآني وخاصة قصة إبراهيم عليه السلام حيث جمعتها بصورة تامة وبعد الجمع قمت بترتيبها وصياغتها صياغة علمية موضوعية تنسجم مع خطة الدراسة وتوزيعها على فصولها ومباحثها

2. استخدام المنهج الاستنباطي التحليلي: فبعد استقراء موضوعات القصص القرآني المتعلقة بالجانب العقدي قمت بتحليلها بما يناسب خطة البحث واستنباط النتائج المفيدة التي تخدم أهداف الدراسة

3. لقد عملت في هذه الدراسة على ضبط المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالعقيدة، وذلك على النحو الأتي:

أ. قدمت مفهوماً للعقيدة يقوم على أساسين : فكري ونفسي .

ب. تبنيت مفهوماً للفكر، بحيث يحدد مجال إجراء العملية العقلية في موضوعات العقيدة تصديقاً وتسليماً، من أجل ضبط التعامل الصحيح مع العقيدة ، لأن الباحث يعتقد أنه ليس هناك ما يسمى إشكاليات عقدية ، وإنما هي إشكاليات عقلية (فكرية) أساساً ، وبتصحيح مفهوم التفكير ومناهجه، يتم معالجة كثير من الإشكاليات القائمة في ساحة الفكر الإسلامي.

ج. قدمت مفهوما للنفس الإنسانية يقوم على أساسين : فطري ومكتسب ، إي : الخصائص والوظائف ، وقدمت من خلال ذلك تصوراً متكاملاً لحقيقة النفس الإنسانية . ودورها الأساسي في تكوين العقيدة ،

د. ربطت الجانب النفسي بالجانب الفكري في بناء العقيدة ، لأن الباحث يعتقد أن الجانب النفسي هو الحلقة المفقودة في عملية البناء العقدي للشخصية الإسلامية ، فتغيب الجانب النفسي في البناء العقدي كان له سبب مباشر في عدم تحقيق العقيدة دورها وفاعليتها في حياة المسلم وواقعه.

هـ. قدمت دراسة تحليلية وتفصيلية لعملية تأسيس المعتقد الإيماني ،خدمة للعملية التربوية العقدية ، وخروجا من حالة التعميم والإجمال في أخطر وأهم قضية في حياة الإنسان ، وكذلك خروجا بالعقيدة من حالة الخلاف والاختلاف إلى حالة البناء والتكوين ، أي من الانفعالية إلى الفاعلية .

4. لقد قامت هذه الدراسة في بيان دور قصة إبراهيم عليه السلام في تكوين العقيدة من خلال ما يلي :

أ. اعتمدت على المنهج القرآني، حيث كان هو المادة الأساسية في هذه الدراسة، وذلك لأن القران الكريم فيه الكفاية في تقديم منهجا متكاملا في بناء الشخصية الإسلامية – فكرياً ونفسياً وسلوكياً- بما يستغني عن غيره من المناهج الأخرى. لذلك كانت الدراسة تقوم على أساس قاعدة { أنصت ودع القرآن يتكلم } . وذلك من أجل فهم الخطاب الإلهي دون المسابقة عليه بأفكار مسبقة تشوه الفهم وتحرفه عن مساره الطبيعي . وكذلك تفعيل دور الآيات القرآنية في دراسة العقيدة وبنائها الشخصية الإسلامية.

ب. اعتمدت هذه الدراسة على تكوين العقيدة على المقومات الأساسية للعقيدة وهما الأساسان الفكري والنفسي .

ج. ارتكزت هذه الدراسة في بيان دور قصة إبراهيم عليه السلام في تكوين العقيدة بجميع أركانها الستة من خلال عقيدة التوحيد ، من الوجهة الفكرية والنفسية ، لأن طبيعة قصة إبراهيم في القرآن الكريم ترتكز عليها .

د. ارتكزت هذه الدراسة على أبرز العواطف المؤثرة في حياة الإنسان وهي: المحبة والخوف والرجاء . كونها أبرز العواطف الإنسانية تأثيراً في حياة الإنسان .

هـــ. إبراز الشواهد القرآنية المتعلقة بالعقيدة في قصة إبراهيم ، ومن ثم دراستها من خلال كتب التفسير ، وحسن توظيف مناهج المفسرين المختلفة في تجلية المعنى العقدي وبيانه وصولا لأحسن الفهم .

و. قد يتكرر الشاهد في أكثر من موضع ، ولكن تكرار الشاهد لا يعني تكرار الاستشهاد ، فإن الشاهد مهما تكرر فإنه يوظف بحسب موقعه في الموضوعات العقدية .

5. تخريج الآيات القرآنية ووضعها بجانب الآية لسهولة الرجوع إليها .

6. تخريج الأحاديث النبوية من مظانها ، والاعتماد على الأحاديث الصحيحة غالباً .

7. دراسة الموضوع دراسة متأنية وبموضوعية وعلمية دون الدخول في القضايا الخلافية الـــتي تستنزف الموضوع وتعيد اجترار الماضي دون أن تفيد أو تقدم جديد.

8. ربط الموضوع بواقع الأمة . وذلك لتؤدي الدراسات الأكاديمية والأبحاث العلميـــة دورهـــا الفاعل في معالجة قضايا الأمة للوصول بها نحو النهضة والرقي والتقدم .

****

[البــــاب الأول]

مفهوم العقيدة الإسلامية

والقصص القــــرآني

والعلاقة بينهما

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ الفصل الأول ـــ

العقيـــــدة الإســــلاميــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

_ المبحث الأول _

مفهـــوم العقيـــدة الإسلاميـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ــ المطلب الأول : المعنى اللغوي للعقيدة:

من خلا ل الإطلاع على معاجم وقواميس اللغة لكلمة (**عقد**) نلاحظ أن معانيهـــا المتعـــددة تندرج تحت أربعة أصول أساسية تبرز بوضوح عند استعمالها وهي :

1- الربط 2- الشدة 3- التأكيد 4- التصديق.

1- أما الربط : فيندرج تحته من المعاني : الجمع، الوصل، الضم، الإلصاق، الإلزاق .

- والربط : هو نقيض الحل، قال تعالى : { وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي } [طه : 27].

كأنه أعقد فحلل الله عقدة لسانه، ويقال للرجل إذا سكن غضبه : قد تحلل من عقده، وفي الحديث : ((لأمرن براحلتي ترحل ثم لا أحل لها عقدة حتى أقدم المدينة)) . أي لا أنزل فأعقلـــها حتى أحتاج إلى حل عقالها [1].

- والعقد : الجمع بين أطراف الشيء، عقد الحبل جعل فيه عقدة، وطرفي الحبل أوصل أحدهما بالآخر بعقدة تمسكهما، ومنه قوله تعالى : { وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ } [الفلق:4]، أي السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن فيها .

- والعقد : الضم، يقال : عقد الزهر تضامت أجزاؤه فصار ثمراً، والعقد : المتراكم من الرمـــل، والعقد : الخيط ينظم فيه الخرز وجمعه عقود، والعقد : القلادة، والعنقود من العنب ونحوه ما انعقد وتراكم ثمره في أصل واحد، والعقدة : الأرض كثيرة الشجر، وتطلق العقدة على الجماعة وفي خطبة (علي) لأصحابه : (هذا جزاء من ترك العقدة)

- والعقد : الإلصاق والإلزاق، يقال : عقد البناء بالجض : ألزقه وألصقه [2].

---

[1] - أنظر الإمام ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، المكتبة العلمية بيروت، 1979م ج3، ص20 .،

[2] - أنظر مادة (عقد) لابن منظور لسان العرب، دار حاور، بيروت، ط1، ج9، ص309-311، والفيروز أبادي، القاموس المحيط ج1، ص437، وابن فارس معجم مقاييس اللغة، ج2، ص147-149، الزمخشري أساس البلاغة، ط1،ص 668-669.

2- **أما الشدة** : فيندرج تحته من المعاني : القوة، الصلابة، المتانة، والغلظة .

يقال : عقد العسل : أي اشتد، واعتقد الشيء : صلب واشتد، وعقد الرب وغيره: غلظ فهو عقيد، وعقدة اللسان : ما غلظ فيه، وجمل عقد : أي قوي، وقال ابن الأعرابي : العقد : الجمل القصير الصبور على العمل، وقالوا للرجل إذا لم يكن عنده غناء، فلان لا يعقد الحبل : أي أنه يعجز عن هذا على هوانه [3].

3- **أما التأكيد** : فيندرج تحته من المعاني : العهد، الاستيثاق، الإلزام، العزم، الإحكام، والإبرام.

- يقال : عقد العهد واليمين : أكدهما، ومنه قوله تعالى :{ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ } [النساء :33].
- ومعناه التوكيد والتغليظ كقوله تعالى : { وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا } [النحل:91]
- والمعاقدة : المعاهدة والميثاق، قال تعالى: { وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ }[المائدة:89]
- وقد أطلق العقد على العهد والجمع عقود وهي أوكد العهود وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ } [المائدة : 1] .

فإذا قلت عقدت فلانا وعقدت عليه فتأويله أنك ألزمته ذلك باستيثاق، وعقد قلبه على الشيء ألزمه، وفي الحديث : (الخيل معقود في نواصيها الخير)، أي ملازم لها كأنه معقود فيها، والعقد العزم وفي حديث الدعاء (لك من قلوبنا عقدة الندم) يريد العزم على الندامة وهو تحقيق التوبة, وكذلك استعمل العقد في البيع والنكاح، فيقال : عقد البيع وعقد النكاح . وعقدة كل شيء إبرامه وإحكامه ووجوبه ، ويقال للقرية كثيرة النخل : عقدة وكأنه إذا اتخذ الرجل ذلك فقد أحكم أمره عند نفسه واستوثق منه . ثم صيروا كل شيء يستوثق الرجل به لنفسه : عقدة [4].

4- **أما التصديق** : فيندرج تحته من المعاني : نفي الشك، التثبت، الإيمان. يقال أعقد الأمر : أي صدقه، واعتقد بينهما الإخاء : إذا صدق وثبت . واعتقد فلان الأمر : أي صدقه وآمن به وعقد عليه قلبه وضميره فلا ينزع عنه، والاعتقاد : عقد قلبه على الشيء وإثباته في نفسه، ويقال : ليس له معقود : أي رأي، وفي الحديث : (إن رجلا كان يبايع وفي عقدته ضعف)، أي في

---

[3] - أنظر ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص 309-311، وابن فارس معجم مقاييس اللغة، ج2، ص 147-149 .

[4] - انظر ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص 309-311، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج2، ص 147-149 .

رأيه ونظره في مصالح نفسه[5] . فالعقد أصله نقيض الحل ثم استعمل في العقود والبيوع ثم في التصميم والاعتقاد الجازم[6] .

والعقيدة : (هي ما يدين الإنسان به، فهي الإيمان بحقيقة معينة إيمانا لا يقبل الشك أو الجدل)[7]

* **نلاحظ** من خلال الاستعراض للمعاني اللغوية للعقيدة ما يلي :

1. أن العقيدة ترتبط بالإنسان من الناحية الفكرية في معنى التصديق وما يندرج تحته من المعاني من التثبت ونفي الشك والإيمان .
2. أن العقيدة ترتبط بالإنسان من الناحية النفسية في معنى التأكيد وما يندرج تحته من المعاني من الإلزام، والعزم، والاستيثاق .
3. أن العقيدة بمعناها اللغوي تتضمن الناحية الفكرية والناحية النفسية، وتكون طبيعة العلاقة بينهما هي الربط وما يندرج تحته من معاني الجمع والوصل والضم .
4. أن العقيدة هي ارتباط الناحية الفكرية بالناحية النفسية وتكون صفة العلاقة بينهما من حيث الارتباط هي الشدة وما يندرج تحته من معاني القوة والمتانة والصلابة .

وبناء على ما تقدم فإن العقيدة وفق المعنى اللغوي تتضمن : تصديق فكري والتزام نفسي . وتكون طبيعة العلاقة بين هذا التصديق الفكري والالتزام النفسي هي الارتباط وأما صفته فهي الشدة والقوة . أي أن العقيدة بالمعنى اللغوي هي حالة من الانعقاد الشديد والارتباط القوي بين التصديق الفكري والالتزام النفسي .

ولقد بين عبد الرحمن حبنكة هذا الارتباط الوثيق بين الناحيتين الفكرية والنفسية في المعنى اللغوي للعقيدة بقوله : (وألفاظ : (العقيدة، الاعتقاد، والعقد) تدل على معنى دقيق يلحظ من المادة التي اشتقت منها، الدالة على الربط والشدة بين الشيئين أو الأشياء والتفاعل الاندماجي بين العناصر، كالانعقاد الذي يحصل بين المربيات ومفردها (رب) وهو المعقود المختر المكثف من الأشياء، كعقد مخثرات عصير الفاكهة بالعسل أو بالسكر، وهذه معان لغوية أي : أن المفاهيم والحقائق الجذور التي صارت عقيدة راسخة قد انعقد بها التصديق الإرادي، والتسليم الاختياري لمطالبها، ثم انعقدت بها العواطف الموجهة للإرادة السلوكية المحددة للأعمال النفسية الداخلية على اختلاف

5- انظر الزمخشري، أساس البلاغة، ج1، ص 668-669، وابن منظور، لسان العرب، ج9، ص 309-311 .

6- الزبيدي، تاج العروس، دار إحياء التراث، بيروت، 1980م، ج1، ص 394 .

7- إبراهيم أنيس وزملائه، المعجم الوسيط، ج2، ص 264 .

مراكزها ومستوياتها أو الجسدية الظاهرة، إذ تتوهج العواطف الثابتة الراسخة باندفاعات حرارية مؤثرة في توجيه الإرادات وفي تحريض القوى للسلوك العملي النفسي أو الظاهر.

وهذه الألفاظ : (العقيدة – الاعتقاد – العقد) بمعنى الربط للإرادة القلبية بقضية فكرية له أصل من جهة المعنى المقتبس من التعبير القرآني في قوله عز وجل : { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ } [المائدة : 89] أي :(بما ربطتم إرادة قلوبكم بما حلفتم عليه بألسنتكم أيمانكم)[8]

إن هذا التحليل اللغوي يشير إلى دقة الفهم لحقيقة العقيدة وطبيعتها الواقعية من اشتمالها على باطن الإنسان فكره وشعوره وارتباطهما واندماجهما الشديد معا لتتولد منهما الإرادة الموجهة والدافعة إلى السلوك وتنفيذ العمل، كما يشير إلى طبيعة هذا الانعقاد من القوة والشدة والصلابة بحيث يحقق قاعدة إيمانية صلبة تصلح لبناء الإسلام عليها، ولقد عبر القرآن عن هذه القوة والشدة في قوله تعالى : { يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } (مريم : 12)، أي : (بجد وحرص واجتهاد)[9] والمراد بالقوة هنا القوة المعنوية من قوة الفهم وقوة الالتزام وقوة الأداء وقوة الدعوة[10] وكذلك أمر سبحانه وتعالى بني إسرائيل في قوله تعالى : { خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }[البقرة : 63] .

ــ المطلب الثاني : معنى العقيدة اصطلاحا:

إن المتتبع لمفهوم العقيدة عند كثير من أقوال العلماء والباحثين يجد اختلافا وتفاوتا بينها، ويرجع ذلك إلى اختلاف الاعتبارات لديهم. ولن نسعى إلى ترجيح أقوالهم، وإنما إلى تحديد الاعتبار الذي ننطلق منه في تعريف العقيدة بما يتلاءم مع وجهة البحث في هذه الدراسة . إن غاية الدراسة هو تكوين عقيدة المسلم فكريا ونفسيا وفق المنهج الإلهي من خلال القصص القرآني، وعليه فإن تحديد مفهوم العقيدة ينبغي أن يحقق صياغة الشخصية الإسلامية فكريا ونفسيا المؤدي إلى الممارسة الإيمانية المتأسي بالنموذج الأمثل من الأنبياء والأولياء الصالحين الذي عبر عنه القصص القرآني، لذلك لا بد أن يراعي التعريف لمفهوم العقيدة جوانب الشخصية الفكرية والنفسية، وأن يوافق مقررات الوحي

[8]- عبد الرحمن حبنكة الميداني، ابتلاء الإرادة، دار القلم، دمشق، ط1، 1995م ، ص 298 .

[9]- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص 111 .

[10]- انظر : صلاح الخالدي، القصص القرآني، دار القلم، دمشق، 1998م ، ط1، ج4، ص 148 .

جمعية أمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإلهي، وأن يعبر عن أقوال السلف على اختلاف عباراتهم، وأن يعني بالوجهة التربوية العملية ولا يقتصر على الناحية المعرفية النظرية وأن يكون مطابقا لواقعها بما يحقق وجودها عند المسلم بصورتها الإيجابية الفاعلة والمؤثرة في سلوكه وواقع حياته.

ولصياغة مفهوم للعقيدة وفق هذا الاعتبار لا بد من إثبات مرتكزات أساسية ينطلق منها هذا المفهوم ويستند إليها ، لما تقتضيه الموضوعية، والعلمية البحثية، والصحة المنهجية، من ضرورة تقديم الأدلة من المنقول والمعقول في تحديد مفهوم العقيدة، **وهذه المرتكزات هي :**

1. أن العقيدة مركزها القلب والذي يمثل الجانب الواعي والعاطفي .
2. أن العقيدة تقوم على أساسين فكري ونفسي.
3. أن العقيدة هي أصل الإيمان، فهي جزء منه وعنصر من عناصره الأساسية.
4. أن تحديد مفهوم العقيدة بهذا الاعتبار هو الذي يتلاءم مع الوجهة التربوية ومع منهج البحث .

أولا : العقيدة مركزها القلب :

إن العقيدة هي عمل باطني مركزها القلب الذي يمثل الجانب الواعي والعاطفي ولقد وردت كثير من الآيات والأحاديث التي تثبت أن العقيدة من حيث الاعتقاد بها محلها القلب ومن هذه النصوص نذكر منها :

- قال تعالى : { وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات : 14] .
- قال تعالى : { أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي }[البقرة : 260] .
- قال تعالى : { قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ }[المائدة : 41] .
- قال تعالى : { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ } [التغابن :11] .
- قال تعالى : { أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ } [المجادلة: 22] .
- قال صلى الله عليه وسلم : (لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ) [11] .
- قال صلى الله عليه وسلم : (يا معشر من آمن بلسانه و لم يدخل الإيمان قلبه) [12] .

إلى غير ذلك من النصوص التي تقطع بما لا يدع مجالا للشك أن العقيدة التي هي أصل الإيمان والتي هي جزء منه، وأن محلها القلب، فالقلب هو موطن الاعتقاد الإيماني وهو يشمل الجانب الواعي والعاطفي كما عبر عنه القرآن في كثير من آياته .

---

[11]- أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده 349/2، رقم(8577) علق عليه شعيب الأرنووط، قال:حديث حسن.

[12]- أخرجه أبي داود في سننه حديث رقم (4887) قال الشيخ الألباني حديث حسن صحيح .

ثانيا : العقيدة تقوم على أساسين فكري ونفسي :

لقد تقرر في المنقول والمعقول أن العقيدة لا بد أن تتضمن ركنين أساسيين وهما : الأساس الفكري والأساس النفسي، وأنه لا يغني أحدهما عن الآخر، ويلزم تحققهما مجتمعين في القلب ليدخل صاحبه في مسمى الإيمان أما الأدلة النقلية والعقلية نوردها على النحو الآتي :

1.الأدلة النقلية :

سنعرض الأدلة النقلية على أن العقيدة تقوم على أساسين فكري ونفسي من خلال ما يلي:

أ. التعبير القرآني للقلب تضمن الجانبين الواعي والعاطفي :

أثبتنا سابقا أن العقيدة مركزها القلب، وأن القرآن عبر عن القلب بالعنصر الواعي والعنصر العاطفي في كثير من آياته نذكر منها .

- **أما العنصر الواعي:** والذي يمثل : الفهم والتدبر والفقه والتفكر والتصديق والهداية .

- قال تعال ى :{ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد : 24]

- قال تعالى :{ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الأعراف : 179]

- قال تعالى :{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } [ق :37]

- **وأما العنصر العاطفي:** والذي يمثل معاني : الاطمئنان، الرأفة، الحب، والخشية إلى غير ذلك من المشاعر الوجدانية نذكر من هذه الآيات :

- قال تعالى : {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ } [الأنفال : 10]

- قال تعالى : {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً } [الحديد : 27]

- قال تعالى : {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } [المؤمنون:60]

- قال تعالى : {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ}[إبراهيم : 37].

وعليه فإن القلب هو القوة الواعية المدركة للخيرات والمتصفة بالعاطفة الشعورية وهو المهيمن على بقية الأعضاء يستعملها فيما يشاء وتكتسب منه الاستقامة أو الزيغ، قال تعالى :{فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[الصف : 5] . كما أنه محل الكسب في عقد العزم وحله، قال تعالى : { لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ } [

البقرة : 225]، فالقلب هو المدرك العالم من الإنسان والمخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب[13] .

ولقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم أن القلب هو مركز الصلاح أو الفساد لأنه المسئول عن قيادة الإنسان بقوله : (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[14] . يقول الغزالي : (فلنذكر ما يختص به قلب الإنسان، ولأجله عظم شرفه، واستأهل القرب من الله تعالى، وهو راجع إلى علم وإرادة، أما العلم : فهو العلم بالأمور الدنيوية والأخروية والحقائق العقلية، وأما الإرادة : فإنه إذا أدرك بالعقل عاقبة الأمر وطريق الصلاح فيه انبعث من ذاته شوق إلى جهة المصلحة وإلى تعاطي أسبابها والإرادة لها ، وذلك غير إرادة الشهوة ...)[15] . وعليه فإن العقيدة مركزها القلب وهو يتضمن (الجانب الواعي) ويتحقق بالتصديق الفكري، (والجانب العاطفي) ويتحقق بالإذعان النفسي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ب. النصوص الشرعية تشمل أمور : خبرية ، وطلبية .

من المعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء بأمور خبرية وأمور طلبية، أما الأمور الخبرية القطعية عن قضايا الغيب، فوجب علينا العلم بها ومعرفتها لقوله تعالى :{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } [محمد: 19]، وكذلك التصديق بها تصديقا جازما من غير شك ولا ريب لقوله تعالى :{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا }[الحجرات : 62]. وأما الأمور الطلبية التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنواهي فلا يكفي فيها مجرد التصديق، بل لا بد أن يصاحبه التسليم والالتزام بها وانقياد القلب لها عن محبة ورضى وخضوع، قال تعالى : {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب : 36]، وقال تعالى :{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }[النساء : 65].

وعليه فإن الاعتقاد في القلب لا بد أن يتضمن مستويين من التصديق وهما :

- **التصديق الخبري**: وهو التصديق الجازم بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب القطعية، وهذا يتعلق بالجانب الفكري ويتحقق بالتصديق .

---

[13]- أنظر أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين، دار الفكر، بيروت، ط2 ، 1998م ، ج3 ، ص3.

[14]- رواه مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث (1599)، ج3 ، ص1219 ، كتاب المساقات .

[15]- المصدر السابق، ج3 ، ص9 .

- **التصديق الطلبي:** وهو انقياد القلب ابتداءً بكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من أمور طلبية، وهذا يتعلق بالجانب النفسي ويتحقق بالإذعان .

ج. اشتراط النصوص الشرعية لصحة العقيدة أمرين : التصديق الفكري والإذعان النفسي.

لا يكفي لصحة المعتقد الإيماني مجرد التصديق الفكري ما لم يقترن بالإذعان النفسي من الاستسلام والخضوع والانقياد لأمر الله تعالى عن محبة ورضى وهذا ما دلت عليه النصوص الشرعية من القرآن والسنة النبوية وما عبر عنه السلف على اختلاف عباراتهم .

- **أما النصوص الواردة في التصديق الفكري والمتضمنة العلم والمعرفة والتصديق نذكر منها:**

- قال تعالى: { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } [محمد : 19] .
- قال تعالى: { فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ } [البقرة : 89] .
- قال تعالى: { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ } [الزمر : 33] .
- قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل : 14] .
- قال صلى الله عليه وسلم في حديث الدرجات: " بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين"[16].

- **وأما النصوص الواردة في الإذعان النفسي والمتضمنة : الاستسلام والخضوع والانقياد والمحبة والرضى والقبول، نذكر منها :**

- قال تعالى: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء : 65] .
- قال تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } [الأحزاب: 36] .
- قال تعالى: { لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } [الزخرف : 78] .
- قال تعالى: { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } [البقرة : 165] .
- قال تعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ } [البينة : 5].
- قال صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به" [17]

---

[16]- رواه البخاري في صحيحه، رقم الحديث (3256) ومسلم رقم (2831) .

[17] - انظر ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص386، قال : (حديث حسن صحيح)

- وقال أيضا : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)[18] .

- وقال أيضا : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[19] .

- وقال أيضا : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله)[20].

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تقرر أن العقيدة هي ارتباط التصديق الفكري بالإذعان النفسي وإلا كان هذا التصديق مفرغاً من محتواه العقائدي، ومعلوم أن العقيدة ليست مجرد معرفة ذهنية معزولة عن مضمونها العملي والمتمثل في عنصر الالتزام الإرادي لمتطلباتها الشرعية والاستجابة الشعورية لمقتضياتها الإيمانية بما يحقق الإذعان النفسي، وإن مجرد التصديق أو المعرفة بالله ورسوله دون المحبة والتعظيم والانقياد لهما لا يعتد به، وهذا ثابت في كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة، بل هو معلوم من الدين بالضرورة[21].

يقول ابن القيم : " ونحن نقول : الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد المخبر دون الانقياد له ، فالتصديق إنما يتم بأمرين : أحدهما : اعتقاد القلب ، والثاني : محبة القلب وانقياده" [22].

ويقول الإمام القسطلاني : (فليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى المخبر من غير إذعان وقبول، بل هو إذعان وقبول لذلك، بحيث يقع عليه اسم التسليم)[23] .

ويقول ابن تيمية : (فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد فيه من شيئين هما :

أ.تصديق القلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب .

ب.عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان)[24].

---

[18]- رواه مسلم في صحيحه رقم (2985) .

[19]- رواه البخاري في صحيحه رقم (15) ومسلم رقم (44) .

[20]- رواه البخاري في صحيحه رقم (16) ومسلم رقم (43) .

[21]- انظر ابن تيمية، الإيمان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1984م ، ص381 .

[22]- ابن القيم ، كتاب الصلاة حكم تاركها، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1996م، ص62 .

[23]- القسطلاني : إرشاد الساري، ج1، ص82 .

[24]- ابن تيمية : مجموع الفتاوي، ج2، ص87 .

- **كما نجد أن الله تعالى نفى الإيمان لمن حقق المعرفة والتصديق العقلي دون الإذعان النفسي، ومن ذلك :**

- وصف سبحانه إبليس – لعنه الله – بالكفر مع ما كان عنده من المعرفة والتصديق، قال تعالى: { إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [ص : 74] .

- كما وصف فرعون وقومه بالكفر مع ما حصل عندهم من اليقين، قال تعالى :{ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل : 14] وما جاء على لسان موسى لفرعون في قوله تعالى : { قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ } [الإسراء : 102] .

- وكذلك وصف اليهود بالكفر مع معرفتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه، قال تعالى : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 20] يقول ابن سلام : (لقد عرفت محمدا صلى الله عليه وسلم حين رأيته كما أعرف ابني ومعرفتي لمحمد أشد)[25]

- كذلك وصف سبحانه وتعالى مشركي العرب بالشرك رغم أنهم يعترفون بربوبيته في الخلق والرزق والملك ... فلم ينفعهم ذلك لعدم الإذعان لله بالألوهية، قال تعالى : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } [يونس:31] .

فإن مجرد علم القلب بالحق دون أن يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له وإتباعه لم ينفع صاحبه، وإلا فلو صدق قلبه بأن محمدا رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته لم يكن قد أمن قلبه .

2.الأدلة العقلية :

إن الأدلة من المعقول على أن العقيدة لا بد أن تشمل الجانبين الفكري والنفسي فيمكن أن نستعرضها من خلال الإجابة على تساؤلين وهما :

- الأول: ما هي الشخصية الإسلامية ؟
- الثاني: ما هو السلوك الإيماني ؟

[25]– تفسير الجلالين، ص28 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: الشخصية الإسلامية.

الشخصية: عند كل إنسان تتألف من العقلية والنفسية لا غير، (والعقلية) هي: الكيفية التي يجري عليها إدراك الشيء أو الكيفية التي يتم فيها ربط الواقع بالمعلومات أو المعلومات بالواقع بقياسها إلى قاعدة واحدة أو قواعد معينة. (والنفسية) هي : الكيفية التي يجري عليها إشباع الطاقة الحيوية أو الكيفية التي تربط فيها دوافع الإشباع بالمفاهيم لدى الشخص عن الحياة . وإن العقل والميول النفسية وإن كان كل منهما مفطور مع الإنسان إلا إن تكوين العقلية والنفسية يجري بفعل الإنسان وكسبه . وبما أن وجود قواعد معينة يجري عليها قياس المعلومات والواقع حين الربط هو الذي يبلور المعنى فيصبح (مفهوما) ، وبما أن الامتزاج بين الدوافع والمفاهيم هو الذي يبلور الدافع فيصبح (ميلا) فإن القواعد التي يقيس عليها الإنسان المعلومات والواقع حين الربط لها لأثر الأكبر في تكوين (العقلية والنفسية) أو (الشخصية) وتجعل لها تكوينا معينا، وحتى تكون الشخصية متميزة بلون خاص فينبغي أن تكون القواعد التي يجري عليها تكوين العقلية هي نفس القواعد التي يجري عليها تكوين النفسية وإن تكوين شخصية متميزة يكون بإيجاد أساس واحد للتفكير والميول لدى الإنسان ولا بد أن يكون هذا الأساس شاملا للفكرة الكلية عن الكون والإنسان والحياة بحيث تكون عقيدة عقلية يبنى عليها كل فكر وينبثق عنها تنظيم شؤون الحياة وسلوك الإنسان، ومن هنا يأتي اختلاف الشخصيات، كالشخصية الإسلامية، والشخصية الشيوعية، والشخصية الرأسمالية .

وعليه فإن العقلية الإسلامية هي التي تفكر على أساس الإسلام، والنفسية الإسلامية هي التي تجعل ميولها على أساس الإسلام، فيكون الإنسان حينئذ بهذه العقلية وهذه النفسية (شخصية إسلامية)[26] هذه هي طريقة تكوين الشخصية الإسلامية بالعقيدة الإسلامية وهذه هي نفسها طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان يدعو الناس للإسلام بدعوتهم إلى العقيدة الإسلامية حتى إذا أسلموا قوى في نفوسهم بهذه العقيدة ولاحظ التزام بناء تفكيرهم وميلهم على أساسها، قال صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[27] وبهذه الطريقة كون صلى الله عليه وسلم جيل الصحابة فكانت شخصياتهم أعلى مستوى بعد الأنبياء كما وصفهم تعالى بقوله : {

---

[26]- راجع، تقي الدين النبهاني، الشخصية الإسلامية، تحقيق هشام البدراني، دار الكتاب الثقافي، اربد، ص 17-32 .

[27]- ابن رجب، جامع العلوم والحكم، قال حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة للشيخ أبا الفتح المقدسي بإسناد صحيح .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... } [الفتح : 29]، بناء على ما تقدم فإن العقيدة الإسلامية لا تتحقق في الشخصية الإسلامية إلا عندما تكون هي الأساس الوحيد للعقلية والنفسية، أو التفكير والميول[28] .

ثانيا : السلوك الإيماني :

إن السلوك هو : (الفعل المقصود بنظام المعتقد)[29] وهو : أعمال تصدر عن الإنسان لإشباع طاقته الحيوية بحسب مفاهيمه عن الأشياء مرتبطة بمفاهيمه عن الحياة، وهو الذي يؤثر في السلوك في تحديد كيفية إشباع دوافعه الفطرية ، فالسلوك يتولد من : المفاهيم الفكرية والميول النفسية، فإذا كانت هذه المفاهيم والميول مقياسهما هو العقيدة الإسلامية وما ينبثق عنها من أحكام شرعية في معالجة سلوك الإنسان وأعماله الصادرة عن طاقته الحيوية من الحاجات والغرائز كان هذا السلوك إيمانيا لأنه يستند إلى العقيدة الإسلامية في تفكيره وميوله .

فالسلوك الإيماني هو الذي يسير في أعماله بأوامر الله تعالى ونواهيه بناء على إدراك صلته بالله يبتغي بذلك رضوان الله تعالى، فالسلوك الإيماني : سلوك ملتزم بالأحكام الشرعية وفق مراد الله التي تقوم على صحة الاعتقاد المهتدية بالوحي الإلهي في التلقي منه وحده جميع التصورات والمفاهيم سواء في نظرته إلى الوجود غيبه وشهوده أو في تلقي نظام الحياة . يقصد بذلك تحقيق مرضاة الله وحده . فسلوك الإشباع للدوافع الفطرية بالكيفية التي أنزلها الله على رسوله وهو الدين القيم المتمثل في الإسلام عقيدة وشريعة هو السلوك الإيماني مصداقا لقوله تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (الروم : 30) وعليه فإن السلوك الإيماني لا يتم إلا من خلال ضبط التفكير والميول بالمفاهيم الإسلامية عقيدة وشريعة .

بناء على ما تقدم بيانه فإنه يمكن أن نستخلص النتائج التالية :

1. **الشخصية الإسلامية هي التي تجعل الإسلام هو الأساس الوحيد في تكوين العقلية والنفسية لديها .**
2. **السلوك الإيماني هو السلوك الذي ينتج عن تفكير وميول منضبطة ومنبثقة من المفاهيم الإسلامية عقيدة وشريعة .**

---

[28]- راجع المرجع السابق ص17 - 34 .

[29]- زكريا الشلول، أثر العقيدة في السلوك ص38

3. إن جعل العقيدة الإسلامية هي الأساس الوحيد في تكوين المفاهيم الفكرية والميول النفسية هو الذي يحقق الشخصية الإسلامية ويوجد السلوك الإيماني .

في ضوء ما تقدم من نتائج فإنه لا يمكن تحقيق الشخصية الإسلامية وإيجاد السلوك الإيماني إلا بجعل العقيدة الإسلامية هي الأساس الوحيد في التفكير والميول، وعليه فإن العقيدة لا بد أن يتوفر فيها ركنين أساسين هما : الأساس الفكري ، والأساس النفسي، وأن الاعتقاد الصحيح والمقبول عند الله تعالى في المفهوم الشرعي لا يتم إلا بأمرين هما :

الأول : التصديق الفكري : من العلم والمعرفة والتصديق الجازم للقضايا العقلية، والتسليم المطلق للقضايا الخبرية، ويطلق عليه عدة تسميات منها : قول القلب، أو توحيد المعرفة والإثبات أو التوحيد العلمي (توحيد الربوبية) .

الثاني : الإذعان النفسي : من الاستجابة الشعورية لمقتضياتها الإيمانية كالحب والخوف والرجاء والتوكل على الله والإخلاص له تعالى ... والالتزام الإرادي لمتطلباتها الشرعية من الاستسلام والانقياد والخضوع لأوامر الله تعالى، ويطلق عليه عدة تسميات منها : عمل القلب، أو توحيد الإرادة والقصد أو التوحيد العملي (توحيد الألوهية) .

ومعلوم أن العبد لا يكون مؤمنا إلا بهما معا، وهما التصديق والإذعان، وإن الإذعان النفسي ركن تابع للتصديق وملازم له، وهو عنصر من أهم العناصر التي ينبغي التركيز عليها فهو صلب قضية الإيمان، وهي قضية الرسل مع أقوامهم من الدعوة إلى التسلم والانقياد والخضوع لله تعالى، فلم تكن قضية المعرفة والتصديق إلا مقدمة يبدأ بها الرسل لتذكير أقوامهم بالحق ثم يعرضون عليهم جوهر رسالتهم وهي قضية الإذعان للحق والانقياد له عن محبة ورضى .

- **صياغة مفهوم للعقيدة الإسلامية .**

تأسيسا على ما تقدم فإنه يتعين أن العقيدة الإسلامية هي حالة من الانعقاد الشديد والارتباط الوثيق بين التصديق الفكري والإذعان النفسي، وإن أي تعريف للعقيدة حتى يكون صحيحا ومقبولا عند الله وفق المفهوم الشرعي لا بد أن يشمل الناحية الفكرية والناحية النفسية، وعليه فإن تعريف العقيدة الإسلامية هو :

(التصديق العقلي الجازم المطابق للواقع عن دليل، المؤدي إلى التسليم النقلي تسليماً مطلقاً في كل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب إجمالاً، وما ثبت بالدليل القطعي

تفصيلا مع موافقة المشاعر النفسية لمقتضياتها الإيمانية، بما يحقق الالتزام الإرادي: من الاستسلام لله وحده في كل ما أمر بقصد الإتباع) .

إن هذا التعريف يجعل العقيدة أمرا باطنا متعلقا بالقلب ليشمل الناحية الفكرية والناحية النفسية معا، كما أن هذا التعريف يتضمن التوحيد بنوعيه العلمي والعملي وهما : توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، حيث يرتبط الأول بالتصديق العقلي والتسلم الخبري المتعلق بالناحية الفكرية، ويرتبط الثاني بالتصديق الطلبي أو الإذعان النفسي من الاستجابة الشعورية كالمحبة والتوكل والإخلاص، والالتزام الإرادي من الاستسلام والانقياد، والمتعلق بالناحية النفسية .

وعليه فإن العقيدة الإسلامية هي القاعدة الأساسية والوحيدة في تكوين الشخصية الإسلامية من خلال بناء العقلية والنفسية على أساسها، والتي من خلال هذا البناء والتكوين يتحقق السلوك الإعتقادي الإيماني ، لذلك لا بد لكل المهتمين بتربية المسلم تربية إسلامية من مراعاة تكوين العقيدة الإسلامية بمقوماتها الفكرية والنفسية معا لتحقق أثرها الإيجابي والفاعل في استقامة السلوك .

ثالثا : العقيدة ليست هي الإيمان بل هي أصله :

من الجدير بالذكر أن نبين أن هناك خلطا واضحا عند كثير من العلماء والباحثين المسلمين بين مفهومي العقيدة والإيمان، حيث يجعلون المفهومين بمعنى واحد وأنهما مترادفان، وفي حقيقة الأمر أن هناك اختلافا بين مفهوم العقيدة ومفهوم الإيمان، وأنه لا ترادف بينهما، وأنه يمكن إدراك حقيقة الفرق بينهما من خلال إدراك حقيقة العلاقة بين العقيدة والسلوك ومدى صلتهما بالإيمان .

فالإيمان بمعناه الشرعي يطلق على ثلاثة عناصر مجتمعة وهي:

- العنصر الأول: اعتقاد القلب.
- العنصر الثاني: الإقرار باللسان.
- العنصر الثالث: عمل الجوارح.

(فالعقيدة) تشمل العنصر الأول من عناصر الإيمان وهو (اعتقاد القلب) وهو يتضمن ركنين لا يغني أحدهما عن الآخر ويلزم تحققهما مجتمعين في القلب ليدخل صاحبه في مسمى الإيمان وهما:

الركن الأول: المعرفة والعلم والتصديق (قول القلب)

الركن الثاني: الالتزام والانقياد والتسليم (عمل القلب)

فالعقيدة تمثل أصل الإيمان وقاعدته الأساسية، فهو جزء من الإيمان وعنصر من عناصره الأساسية، وهي متعلقة بباطن الإنسان من علم القلب وحال القلب . (وأما السلوك)، فهو يشمل العنصر

الثاني والثالث من عناصر الإيمان، وهما إقرار اللسان وعمل الجوارح، وإقرار اللسان هـو التلفظ بالشهادتين، وهو ليس مقصودا لذاته، وإنما المقصود هو الإعلان عن تحقيق مدلولهما من الإقرار بالتوحيد والتبرؤ من الشرك والالتزام بشرائع الإسلام، فإذا لم تعبر هذه الشهادة عن نفس هذه المعاني لم تقبل من قائلها [30]. وأما عمل الجوارح فهذا العنصر يدخل في مسمى الإيمان دخولاً أولياً عند السلف وقد حكى غير واحد إجماع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان : قول وعمل، قال ابن عبد البر في التمهيد : (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل) [31]. وهذا العنصر من إقرار اللسان وعمل الجوارح متعلقان بظاهر الإنسان وسلوكه الخارجي .

- وعليه فإن الإيمان : هو ارتباط العقيدة بالسلوك بحيث يشمل باطن الإنسان وظاهره معا, وذلك على النحو الآتي:-

- الإيمان
  - عمل باطني
    - التصديق الفكري
    - الإذعان النفسي
    - *العقيدة (اعتقاد القلب قوله وعمله)
  - عمل ظاهري
    - إقرار اللسان
    - عمل الجوارح
    - * السلوك(العمل بالشريعة قولا وعملا)

فالإيمان إذن قيمة جامعة للاعتقاد والسلوك معا . فالإيمان له ظاهر وباطن، فظاهرة السلوك من قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه العقيدة من تصديق القلب وانقياده، وإن ارتباط الظاهر بالباطن أو العقيدة بالسلوك يثمر الإيمان بمفهومه الشرعي الذي أراده الله وأمر به عباده في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على كل أحد وفي كل وقت، وفي ذلك يقول ابن القيم : (الإيمان له ظاهر وباطن وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر

[30]- حقيقة الإيمان، محمد عبد الهادي المصري، ص35

[31]- ابن تيمية ، مجموع الفتاوي، 330/7

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعجز أو بإكراه وخوف هلاك فتخلف العمل الظاهر مع عدم المانع، دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته فالإيمان قلب الإسلام ولبه)[32] .

رابعا : مفهوم العقيدة الذي يتلاءم مع منهج البحث من الوجهة التربوية :

إن هذا المفهوم للعقيدة – الذي قدمناه سابقا – والذي يشمل الجانبين الفكري والنفسي هو المفهوم الذي يتلاءم مع منهج البحث لهذه الدراسة من الوجهة التربوية والتي تسعى إلى تكوين عقيدة المسلم فكريا ونفسيا من خلال القصص القرآني لتحقيق الممارسة الإيمانية وفق النموذج الأمثل من حياة الأنبياء والأولياء الصالحين، مصداقا لقوله تعالى :{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ } [الأنعام : 90] . حيث أن الأمة في واقعها المعاصر هي بأمس الحاجة إلى منهج تربوي متكامل يبدأ ببناء القاعدة الصلبة وهي العقيدة الإسلامية على أساسها فكريا ونفسيا وتفعيلها عمليا في واقع الحياة على الصعيد الفردي والجماعي والمجتمعي والعالمي، لتحقق رسالة الإسلام دورها الحضاري في تطبيق مضامين الرسالة الإلهية، وهذا يكون ابتداء من خلال إيجاد الشخصية الصالحة والمصلحة، التي هي نواة التغيير والمقومات الأولى للإصلاح وإن إيجاد هذه الشخصية الإسلامية الهادية والمهتدية هي من الأولويات التي يفرضها منطق البداهة والضرورة الواقعية علاوة على أنها ضرورة شرعية يفرضها الإسلام ويحتمها .

وعليه فإن أي مفهوم للعقيدة لا يتضمن الجانبين الفكري والنفسي، كأن يجعلها مقتصرة على الجانب النظري العلمي كما هو حاصل في كثير من الدراسات العقدية، فإن هذا يعد انحرافاً بالعقيدة عن منهج الوحي وعن دورها الطبيعي في تحقيق مضامين الرسالة الإلهية، لأنه يفرغ العقيدة من محتواها العملي ومضمونها النفسي من الاستجابة الشعورية والالتزام الإرادي والتي تعد قوة مؤثرة وفاعلة ومحركة للسلوك ودافعة للعمل، لذلك لا بد من تكوين العقيدة وفق منهج الوحي الإلهي، بحيث تتفاعل جميع العناصر الإيمانية الفكرية والنفسية والسلوكية من أجل تحقيق غاية واحدة، وهي مرضاة الله تعالى وحده التي هي غاية الغايات ومنتهى الإيرادات.

---

[32]- ابن القيم، الفوائد، ص 85.

-المبحث الثاني -

مقومات العقيدة الإسلامية.

ذكرنا – سابقا – أن العقيدة الإسلامية تقوم على أساسين لا يغني أحدهما عن الآخر وهما:-

1. **الأساس الفكري.**
2. **الأساس النفسي.**

إن الصحة المنهجية تقضي ضرورة بيان حقيقة كل منهما كمقدمة للبحث وتأسيسا له، وذلك من خلال الوقوف على حقيقة الأساس الفكري ومعرفة حقيقة التفكير مفهومه ومراتبه وطرقه ودوره في بناء العقيدة من خلال عدة مسالك ليصل إلى الحقيقة الإيمانية، وكذلك الوقوف على حقيقة الأساس النفسي ومعرفة حقيقة النفس الإنسانية مفهومها ومكوناتها وحالاتها ودورها في بناء العقيدة من خلال عدة مسالك ليصل بها إلى العواطف الدينية، ليكون هذا البيان مقدمة للبحث في تأسيس المعتقد الإيماني وتكوينه من الناحية الفكرية والناحية النفسية ليحقق هذا التأسيس والبناء العقائدي للشخصية الإسلامية أثرها الإيجابي والفاعل في استقامة السلوك، ومن ثم إدراك دور القصص القرآني في تكوين عقيدة المسلم فكريا ونفسيا وأثره في الممارسة الإيمانية .

- المطلب الأول: الأساس الفكري.

- أولا: مفهوم التفكير.

1.معنى التفكير لغة :

الفكر : هو أعمال الخاطر في الشيء، والجوهري : التفكير : التأمل[33] ، والفكرة : قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم، والتفكير : جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وقال بعض الأدباء : الفكر

---

[33]– انظر ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص65 .

مقلوب من الفرك لكن يستعمل الفكر في الأمور المعنوية وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى الحقيقة[34] .

2.معنى التفكير اصطلاحا:

الفكر والإدراك والعقل بمعنى واحد، وهي الخاصة التي أودعها الله تعالى في الإنسان، وهي ناتجة عن خاصة الربط الموجود في الإنسان وهي الحكم على الواقع .

التفكير هو : (نقل الإحساس بالواقع عن طريق الحواس إلى الدماغ مقترنا بمعلومات سابقة تعين على تفسير هذا الواقع)[35].

وهذا التعريف لعملية التفكير يبين وجود أربعة عوامل للتفكير وهي :

1. الواقع 2. الإحساس بالواقع 3. الدماغ 4. المعلومات السابقة .

3-إجراء عملية التفكير:

تجري العملية الفكرية: من نقل صورة الواقع المحسوس إلى الدماغ، وهذه الصورة للواقع تتبع الحاسة سواء كانت سمعا أو بصرا... الخ فيتركز الإحساس بالواقع في الدماغ فقط ولا ينشأ تفكير، فإن كان هناك معلومات سابقة ربطتها قوة الربط الدماغية بالواقع المحسوس الذي تركز في الدماغ لتتم العملية الفكرية وينتج عنه إدراك الشيء ومعرفته، والأصل في التفكير أن يكون في واقع محسوس أو محسوس أثره لا في شيء مقدر أو متخيل وجوده فهذه أبحاث لا يصح فيها التفكير، مثل البحث في ذات الله أو الأبحاث الفلسفية التي لا يقع عليها الحس، وأما المغيبات التي لا يقع عليها الحس فإنه ينظر فيها، فإن نقلت عن المقطوع بصدقه وثبت وجوده بالدليل القاطع فإنها تعد من الفكر ويجري فيها التفكير،

وأما إن نقلت عن غير المقطوع بصدقه أو وجوده فإنه لا يكون فكرا ولا يكون الاشتغال به تفكيرا وإنما هو فرض تخبل وأوهام.

وعليه فإن الفكر المنقول إن كان له واقع وتصور في الذهن للمنقول له، ثم صدقه وسلم به، فإنه يصبح لديه مفهوما يؤثر في سلوكه، لأن الذي يؤثر في السلوك ليس مجرد المعلومات المنقولة، وإنما المفاهيم التي أصبحت أفكاراً لها واقع في الذهن، ولهذا كان لا بد من معرفة ماهية التفكير من أجل

---

[34]- انظر الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ج1، ص384

[35]- تقي الدين النبهاني، التفكير، ط1، 1973م، ص26 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

معرفة كيف يؤثر الفكر في السلوك، لأنه إذا لم تحقق الأفكار في السلوك ذلك التأثير لا يكون ما ينقل للناس أفكار بل معلومات[36] . إن بيان حد التفكير ومفهومه هو الذي يضبط العملية الفكرية ضمن مجالها المحدد والمقدر له وهو الواقع المحسوس و المحسوس أثره، ليحدد مسار التفكير في الوصول إلى الهداية، ويحفظه من الزلل والضلال.

- **ثانيا: طريقة التفكير .**

طريقة التفكير: هي الكيفية التي تجري عليها العملية العقلية وهي تقسم إلى قسمين: 1. الطريقة العلمية 2. الطريقة العقلية .

1-الطريقة العلمية .

وهي تقوم على أساس : الملاحظة، التجربة، الاستنتاج . وهي منهج يسلكه الباحث للوصول إلى معرفة حقيقة الشيء عن طريق إجراء التجربة المخبرية على المادة بإخضاعها إلى عوامل وظروف غير عواملها وظروفها الأصلية، ومن ثم ملاحظة التغيرات والخروج بنتائج معينة، وهذه الطريقة تفرض على الباحث التخلي عن المعلومات السابقة عن الشيء الذي يبحث فيه وتكون أحكامها ظنية قابلة للخطأ والتغيير، فالطريقة العلمية خاصة بالعلوم الطبيعية المتعلقة بالمادة وقوانينها واستخدامها والتحكم فيها، والطريقة العلمية هي في الأساس أسلوب في التفكير، وإنما سميت طريقة تجوزا، كون أسلوبها يتصف بالديمومة في المعرفة العلمية التجريبية، وكذلك تميزا للمعارف العلمية عن المعارف العقلية لتباين موضوعاتها فكراً ومنهجاً[37] .

2-الطريقة العقلية .

وهي تقوم على أساس : الملاحظة، الاستنتاج .

وهي منهج للوصول إلى معرفة حقيقة الشيء عن طريق نقل الإحساس بالواقع بواسطة الحواس إلى الدماغ مع وجود معلومات سابقة تفسره بضرورة يتطلبها الواقع وتقضيها المعلومات في الربط بينها ليصدر عن هذا التفكير معنى يعبر عن الواقع والحكم عليه.

والمعرفة بهذه الطريقة إذا كانت حكما على وجود الشيء فهي فكرة قطعية حتما، وإن كان الحكم على صفة الشيء وحقيقته فإنها يمكن أن تعطي حكما ظنيا ولكنه يكون أقرب إلى الصواب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[36]- راجع سميح عاطف الزين، الإسلام وثقافة الإنسان، ص14-15 .

[37]- انظر المرجع السابق ص 17.

فيما هو ظني، وهي تبحث في المواد المحسوسة والأفكار وبها وحدها ينشأ الفكر . فبواسطتها تدرك الحقائق العلمية، وحقائق التاريخ، والفكرة الكلية عن الكون والإنسان والحياة . وهـي الطريقـة الطبيعية للإدراك وبمنهجها يدرك الإنسان أي شيء سبق إدراكه أو يريد إدراكـه . وعليـه فـإن للتفكير طريقتين اثنتين فقط، هما: الطريقة العلمية والطريقة العقلية . والأولى تفرض التخلـي عـن المعلومات السابقة، والثانية تحتم وجود المعلومات السابقة. والطريقة العلمية تعطي نتيجة ظنية عـن وجود الشيء وعن صفته، وأما الطريقة العقلية فإنها تعطي نتيجة قطعية عن وجود الشـيء وعـن صفات معينة له، وإن كانت تعطي نتيجة ضمنية عن كنه الشيء وحقيقة صفته، كما أن الطريقـة العلمية خاصة بالمادة والعلوم الطبيعية . أما الطريقة العقلية فإنها تشمل المعارف العلميـة والعقليـة، لذلك كان من الخطأ الفاحش أن تتخذ الطريقة العلمية أساسا في التفكير، لأن نتائجها ظنية وقابلة للخطأ وتفرض التخلي عن المعلومات السابقة، ومقتصرة على العلوم الطبيعية التي هي فـرع مـن فروع المعرفة، وفكر من الأفكار، وباقي معارف الحياة كثيرة وهي لم تثبت بالطريقة العلميـة بـل تثبت بالطريقة العقلية فالذي يجب أن يتخذ أساسا في التفكير هي الطريقة العقلية وحدها، ولا يعني هذا أن الطريقة العلمية خاطئة، بل الخطأ هو جعلها أساسا للتفكير، لأنها فرع للطريقة العقلية ولأن جعلها أساسا يخرج كثير من المعارف والحقائق عن البحث مع أنها موجودة بالفعـل، وملموسـة بالحس والواقع، ومن هنا كان من الخطأ اتخاذ الطريقة العلمية أساسا في التفكير وتعميمهـا علـى المعارف الإنسانية كما فعل الغرب في دراساتهم وأبحاثهم الذي نتج عنه انحراف كبير في التفكير في كثير من معارفهم وأبحاثهم التي توصلوا إليها، وإخراج كثير من المعارف والحقـائق الـتي ثبـت وجودها من دراستهم ومعارفهم، فكان لا بد من تصحيح الخطأ من اتخاذ الطريقة العقليـة هـي الأساس الوحيد للتفكير في الحكم على الأشياء وإدراك حقيقتها وصفاتها، فالطريقة العقليـة هـي طريقة القرآن في التفكير سواء في إقامة الأدلة والبراهين أو في بيان الأحكام التشريعية، وهي الطريقة التي تصلح إلى بناء الأساس الفكري للعقيدة من التصور الكلي عن حقائق الكون والإنسان والحياة . للوصول إلى التصديق الجازم بحقائق الإيمان وما ينبثق عنها من أحكام .

ثالثا: مراتب التفكير[38].

هناك ثلاثة مراتب للتفكير وهي: التفكير السطحي، والعميق، والمستنير.

1. **التفكير السطحي**: وهو النظر إلى الشيء والحكم عليه دون التعمق في فهمه.

[38]- راجع الدكتور محمود الخالدي، التفكير، ص59-69.

2. **التفكير العميق:** وهو التعمق في الإحساس بالواقع وفي المعلومات وفي الربط من خلال إعادة تكرارها ليخرج بعد ذلك بأفكار عميقة.

3. **التفكير المستنير:** وهو التفكير العميق مضافا إليه التفكر بما حول الواقع وما يتعلق به للوصول إلى غاية مقصودة ونتائج صادقة.

إن التفكير السطحي والتفكير العميق لا يكفيان للوصول إلى عملية الهداية، لأن الأول ينظر إلى سطح الأشياء ومظهرها، والثاني يبحث في ذات الأشياء وتركيبها، وأما التفكير المستنير فهو وحده الذي يمكن أن يصل به الإنسان إلى عملية الهداية، لأنه لا يكتفي بالتعمق في الواقع بل يبحث ما وراء الواقع وما يحيط بالأشياء وعن علاقتها بغيرها، ومن هذا النوع من التفكير نشأت الأسئلة الكبرى عند الإنسان وهي : من أين أتيت ؟ ولماذا أتيت ؟ وإلى أين المصير ؟ ومن خلال الإجابة على هذه التساؤلات تتكون لدى الإنسان القاعدة الفكرية أو العقيدة الفكرية، وهي تساؤلات ليست عن ذات الأشياء كما في التفكير العميق بل هي تساؤلات عما تلك الأشياء وعما بعدها وعن علاقتها بما قبل وبما بعد.

وعليه فإن الجواب لا يكون في ذات الأشياء ولا في مظهرها وإنما فيما وراء هذه الأشياء وهو موجدها وهو الله خالقها سبحانه وتعالى . ومن هنا كان التفكير المستنير هو أرقى أنواع التفكير، لأنه يصل بالإنسان إلى الحقيقة الإيمانية، وهذا النوع لا يقتضي وجود التعليم، فعالم الذرة الذي يعبد البقرة ليس مفكرا مستنيرا بينما الأعرابي الذي قال : البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير ، وأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج أفلا يدلان على اللطيف الخبير هو مفكر مستنير، ولذلك فإن عملية الهداية إلى الإيمان لا يمكن الوصول إليها إلا بالاستنارة التي تصل بالإنسان بخالقه والدينونة له بالعبودية[39] .

رابعا : دور الأساس الفكري في بناء العقيدة .

المقصود بالأساس الفكري : هي القاعدة الفكرية : أي الفكرة الكلية عن الكون والإنسان والحياة، وما قبلها وما بعدها، وليس مجرد أي فكرة، فإذا لم يكن فكرة كلية كان فرعيا، والفرع لا يصلح أن يكون أساسا، لذا كان لا بد للأساس الفكري من أن يكون فكرة كلية قادرة على حل كافة مشكلات الإنسان والإجابة على كافة تساؤلاته الكبرى (المصيرية) وهي : من أين أتيت ؟

[39]- راجع الدكتور محمود الخالدي، التفكير، ص59-69.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولماذا أتيت ؟ وإلى أين المصير ؟ ووفق الإجابة على هذه التساؤلات ينبثق عنها الحل لتساؤلاته الثانوية المتعلقة بحل مشاكل الإشباع للطاقة الحيوية، فالأساس الفكري هي الفكرة الكلية أو العقيدة العقلية التي تجعل الإنسان متميزا عن غيره تصورا وسلوكا، والتي من خلالها تتحدد معالم شخصيته. فبالأساس الفكري تتحول الأفكار من مجرد أفكار متناثرة ضعيفة التأثير إلى مفاهيم راسخة وثابتة، تصوب الشعور وتؤثر في السلوك، لأن الذي يؤثر في السلوك ليس مجرد الأفكار بل الأفكار التي اقتنع الإنسان بصحتها لتصبح لديه مفاهيم، فالمفاهيم هي الأفكار التي أصبح لمعانيها واقع متصور في الذهن يدركه الإنسان ويصدق به، لذلك حتى تصبح الأفكار مؤثرة في السلوك لا بد من تحويلها إلى مفاهيم من خلال إيجاد القناعة الفكرية بصحة هذه الأفكار[40].

1- صحة الأساس الفكري[41].

وحتى يكون الأساس الفكري صحيحا لا بد أن يتوفر فيه شرطان هما:

أ. القناعة الفكرية :

إن الوصول إلى القناعة الفكرية إنما يتم من خلال الطريقة العقلية بالتفكير المستنير، لأن التفكير السطحي والعميق لا يكفيان للوصول إلى الحقيقة الإيمانية لأن الأول ينظر إلى سطح الأشياء ومظهرها فقط، والثاني يبحث في ذات الأشياء وتركيبها لا غير، وأما التفكير المستنير فهو يتعدى إلى بحث ما يحيط بهذه الأشياء وما وراءها وعن علاقتها، ومنه نشأت الأسئلة الكبرى وهي تساؤلات ملحة تواجه الإنسان وتحتاج إلى إجابات صحيحة ومقنعة للعقل، وبناء على هذه الإجابات تتشكل العقيدة العقلية أو الأساس الفكري، وحتى يكون الحل الذي يقدمه الأساس الفكري صحيحا لا بد أن يكون مطابقا للواقع، وبإمكان العقل السوي أن يتأكد من صحته بالأدلة العقلية وإلا كان فرض تخيل وأوهام، فمثلا القول أن الكوكب هو الخالق فكر غير صحيح ومخالف للحقيقة، لأن واقعها لا يطابق صفة الخالق وإنما صفة المخلوق . والدليل يدحضها لأن الكوكب محدود ومفروض عليه نظام محدد لا يملك تغيره وهذا دليل عجزه واحتياجه، فثبت قطعا أنه مخلوق لخالق، وهذا أيضا ينطبق على كل الأشياء التي تقع تحت الحس من كون وإنسان وحياة، حيث يدل واقعها على أنها محدودة وناقصة وعاجزة ومحتاجة وأنها مخلوقة لخالق خارج عن هذه الأشياء وغيرها قطعا وهي محتاجة إليه وهو مستغن عنها وإنها تستند في وجودها إليه وهو لا يستند إلى شيء، لأنه

40- راجع أحمد عطيات، الطريق، ص.55-71.

41- راجع المرجع السابق، ص 72-79

موصوف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص، وهكذا من خلال التفكير المستنير وصلنا أن هناك خالقا خلق هذا الوجود، وإن هذا الوجود بما فيه من النظام والانتظام وعظيم الصنعة والإبداع وبما فيه من العناية والقصد قد دلنا على إدراك وجوده وعلى صفات كماله التي يوجبها العقل، وأنه منزه عن صفات النقص التي تستحيل عليه عقلا وإنه يكفي لفت النظر إلى أي شيء في الكون والإنسان والحياة ليستدل به العقل على وجود الخالق وكماله المطلق، ولذلك كان الإيمان بوجود الله عقليا، وأما حقيقة الذات الإلهية وصفاتها وكيفيات أفعالها، فهذه مما لا تدركه الأبصار ولا تحيط به العقول، كما أن العقل لا يدرك مراد الله مستقلا بذاته! لا عن طريق الخبر الصادق، كما لا يدرك المصير الذي ينتهي إليه وما وراء هذا الوجود من عالم الغيب التي يستحيل على العقل إدراكها بمعزل عن الوحي الإلهي، وعليه فإن الفطرة الإنسانية هي التي تدفع العقل للبحث عن خالقها طلبا للأمن والطمأنينة، والعقل هو الذي يوصل إلى الوحي، والوحي هو الذي يقدم المعرفة اليقينية لحقائق الغيب لتكتمل المعرفة بالحقيقة الإيمانية والتي تصل بالإنسان إلى التصديق الجازم، والقناعة العقلية اليقينية .

ب. موافقة الفطرة:

والفطرة هي خواص الإنسان الموجودة فيه بناء على كونه موجودا على الشكل والترتيب الذي هو عليه، حيث أودع الله تعالى في الإنسان طاقة حيوية من الحاجات العضوية والغرائز، وهي تدفع بالإنسان إلى سلوك طريق الإشباع بكيفية معينة منتظمة بمفاهيمه عن الحياة، وبمقدار رقي الضوابط المفهومية أو انخفاضها يمتاز الإنسان عن غيره بهذا السلوك رقيا أو انخفاضا تبعا لها، فالذي يعين كيفية سلوك الإشباع هو الأساس الفكري لدى الشخص . حيث أن ما يقع تحت حس الإنسان من أشياء هي الكون والإنسان والحياة . ومن خلال النظر في هذه الأشياء عن طريق التفكير المستنير تنشأ تساؤلات ملحة تواجه الإنسان وهذه التساؤلات نوعان:

- النوع الأول: تساؤلات كبرى تتركز حول وجود الإنسان ومصيره والغاية من وجوده، وهي تسبب له عقدة كبرى وقلق دائم حتى يحصل على إجابة صحيحة ومقنعة.
- والنوع الثاني: تساؤلات ثانوية مرتبطة بحل مشاكل الإشباع للطاقة الحيوية.

ونلاحظ أن النوع الأول مرتبط بالناحية الفكرية التي ينتج عنها المعتقد الإيماني وأما النوع الثاني فهو مرتبط بالناحية الفطرية التي ينتج عنها سلوك الإشباع وإنه بحل العقدة الكبرى تتشكل العقيدة والأساس الفكري لدى الإنسان ومن ثم يتعين على أساسه كيفية سلوك الإشباع للغرائز والحاجات،

فإن كان الحل لهذه التساؤلات جميعها حلا صحيحا ومقنعا للعقل وموافقا للفطرة فإنه يتحقق الاطمئنان والاستقرار بصورة دائمة ومستمرة يحول دون رجوع التساؤلات مرة أخرى، والعقيدة الإسلامية وحدها هي العقيدة العقلية الصحيحة التي تقرر ما في فطرة الإنسان من عجز واحتياج ونقص، وتضع لها الأنظمة المناسبة لإشباع دوافعها الفطرية بما يحقق لها الطمأنينة والراحة، بحيث تنظم غرائزه ولا تكبتها، وتنسقها ولا تطلقها ، وتحقق له إشباع جميع جوعاته إشباعا متناسقا يوافق الفطرة الإنسانية، وإن هذا النظام إذا ترك للإنسان فإنه يؤدي إلى الشقاء، لأنه عرضة للتفاوت والاختلاف والتناقض والتأثر بالبيئة، علاوة على ما فيه من قصور وميل للهوى، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية وما ينبثق عنها من نظام لإشباع الدوافع الفطرية للإنسان هي وحدها العقيدة الصحيحة وهي وحدها تصلح أن تكون أساسا صحيحا للتفكير والميول النفسية .

2. مسالك بناء الأساس الفكري للعقيدة [42] .

لقد سلك المنهج القرآني عدة مسالك لتأسيس المعتقد الإيماني وبناؤه، حيث يبدأ بالفطرة الإنسانية ثم يسلك مسلك المعقول والمنقول.

ومعلوم أن العالم بالنسبة للإنسان ينقسم إلى عالم داخلي يدركه بوجدانه الفطري، وعالم خارجي مشهود يدركه إدراكا حسيا، وعالم غيبي يدركه بآثاره بالاستدلال العقلي من حيث وجوده أما من حيث حقيقته وصفته فهذا لا يملك العقل الوصول إليه إلا عن طريق الخبر النقلي المقطوع بصحته، وهذه هي المسالك الأربعة التي سلكها القرآن في بناء وتأسيس الأساس الفكري للعقيدة، وهي :

أ. المسلك الفطري.

لقد خلق الله الإنسان وفي أعماقه شعور كامن بوجوده سبحانه، مصداقا لقوله تعالى : {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ }[الأعراف : 172] . وهذا الدليل الفطري يدركه الإنسان من خلال الشعور الوجداني بالعجز والنقص والاحتياج إلى قوة معينة يلجأ إليها لتحقق له الطمأنينة والسكينة، وهذا الدليل الفطري بمثابة إضاءة للعقل في طريق معرفة الله تعالى، وهو دليل ذاتي طبيعي يجده الإنسان في نفسه ولا يصلح أن يقيمه على الآخرين كالدليل العقلي ،وغاية ما تثبته

---

[42]- راجع: زكريا الشلول أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني، ص 89 – 122 .

الفطرة هو حاجتها إلى قوة معينة تنفرد في هيمنتها على الوجود لتطمئن إليها وتتوجه إليها بالتقديس والعبودية وهي إن لم تنضبط بالمسار الفكري الصحيح تنحرف في توجهاتها الشعورية، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها من جدعاء)[43] ، وقوله أيضا فيما يرويه عن ربه : (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا)[44] ، إن هذه العوامل الطارئة على الفطرة من البيئة والتقليد بفعل التنشئة الاجتماعية والغفلة والشرود عن الله بفعل هوى النفس وإتباع الشيطان هي التي تؤدي إلى انحراف الفطرة عن خالقها، ولكنها سرعان ما تتكشف وتزول في اللحظات الحرجة مصداقا لقوله تعالى : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ } [الإسراء : 67]. وهذه اللحظة الحرجة من الكرب والشدة كشفت عن حقيقة هذه الفطرة المتأصلة في النفس من إيمانها بالله تعالى، ولكنها لا تثبت إلا إذا صاحبها التصديق الفكري والانقياد القلبي لله تعالى، مصداقا لقوله: { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ }[يونس : 12] ولذلك لا بد من تصويب توجهات الفطرة الشعورية بسلامة التفكير الاعتقادي، قال تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الروم : 30]. فالفطرة الإنسانية إذا لم يصاحبها بناء فكري صحيح للعقيدة فإنها تضل وتنحرف عن خالقها، ولقد سلك المنهج القرآني مسلك الفطري في تأسيس المعتقد الإيماني وتكوينه، واتبع عدة أساليب لاستجاشة كوامنها الحيوية، ليوقظها ويردها إلى أصالتها، ليثير فيها نوازع الاستجابة إلى بارئها، وتتجه إليه وحده بأشواقها ومشاعرها في العبودية والإذعان .

ب + ج – مسلكي الإدراك الحسي والاستدلال العقلي.

الإدراك الحسي : هو إدراك الجزئيات بتوسط أعضاء جسمه هي الحواس الظاهرة والباطنة حيث يعمل العقل على ترجمة أثاره ومؤثراته[45].

43– رواه البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث 1319–ج1،ص 465 كتاب الجنائز .

44– صحيح مسلم، رقم الحديث، 2865–ج4،ص2127 كتاب الجنة .

45– راجع الدكتور عبد الكريم العثمان، الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي لوجه خاص، ص 277 .

أما الإدراك العقلي : فهو إدراك الكليات المجردة أو تجريد معطيات الحواس تجريدا كاملا دون توسط عضو جسمي، وعن طريقه يتلمس العقل الظاهر ويستنبط عظمة القوة الخلاقة لهذا الكون[46].

والاستدلال : هو تقرير الدليل لإثبات المدلول سواء الأثر على المؤثر أو العكس [47].

فيستدل بما كان خافيا على ما هو معلوم ظاهر، ولقد استخدم المنهج القرآني هذين المسلكين في مخاطبة العقل بحسب إدراكه حيث ينتقل به من معنى ظاهر معلوم ومفهوم إلى معنى آخر توصلا إلى الحقيقة الإيمانية [48]. فمنهج القرآن لا يتألف برهانه الاستدلالي كما هو عند الفلاسفة وغيرهم، فلا يتعرض لألفاظهم أو يحاول أن يثير المشاكل العقلية . وإنما يعتمد على القدر المشترك بين الناس من العقل ليلفت نظره إلى أي شيء في العالم المحسوس ليستدل به على الإيمان بالله تعالى من غير تكلف أو عناء فإن مجرد النظر إلى أي مظهر من مظاهر الكون أو الحياة أو الإنسان وما فيها من انتظام وإحكام ليدل دلالة قاطعة من غير شك إلى وحدانية الله تعالى وحكمته في إيجاد هذا الوجود وانتظامه، حيث أن العقل الإنساني المتصل بالتجسيدات المادية والتجريدات العقلية، فإذا أحسن استخدامها فإنه لا بد أن يصل الإيمان بالله، ليدرك كل شيء في الله، ويدرك الله في كل شيء، ونجد أن المنهج القرآني قد صوب مسار التفكير للوصول إلى الحقيقة الإيمانية، حيث عمل ابتداء على إزالة كل المعوقات التي تحول دون سلامة التفكير كالتقليد الأعمى، وإتباع الظن والهوى، والأثر السلبي للألف والعادة الذي يمنع من إدراك المعجزات الكونية، ثم عمل على توجيه العقل إلى استخدام هذين المسلكين من الإدراك الحسي والاستدلال العقلي من خلال استنفار العقل للنظر والتفكر لآيات الكون المبثوثة في الأنفس والآفاق، قال تعالى : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت : 53]

وقال تعالى : { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 20-21]

---

[46]- راجع الدكتور عبد العلي الجسماني، القرآن وعلم النفس (الإدراك الإنساني) ص27، والدكتور عبد الكريم العثمان، الدراسات النفسية، ص 277.

[47]- محمد المنشاوي، التعاريف، ج1، ص56

[48]- د. عبد العلي الجسماني، القرآن وعلم النفس (الإدراك الإنساني) ص 10 .

ومن الآيات التي تدعو إلى النظر في آيات الأنفس قال تعالى : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ }[الطارق : 5-7]

وقال تعالى : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ }[الواقعة : 58 -59]

وقال تعالى : { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [يس : 77] ومن الآيات التي تدعو إلى النظر في آيات الآفاق، قال تعالى : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ } [الغاشية : 17-20]

وقال تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ }[الشعراء : 7-8]

وقال تعالى : { أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }[النحل : 79]

إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو العقل البشري إلى النظر والتأمل في آيات الأنفس والآفاق حيث يستخدم المنهج القرآني هذا المسلك من الإدراك الحسي كمنبهات موقظة للعقل، عندما يوجه بصره إلى هذه المشاهد الكونية المألوفة لديه، وما فيها من آيات معجزة ليجعل منها دليلا موحيا ومؤثرا يوقظ العقل . ويهز المشاعر وينبه الحس في طريق إنشاء العقيدة وترسيخها في نفسه, ولقد صور لنا سيد قطب هذا المعنى بقوله: (إن هذا القرآن ليجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى، يكشف بها عن النواميس الإلهية في الوجود، ولينشئ عقيدة ضخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود .

كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكر، وحياة للأرواح والقلوب ويقظة لظواهر الوجود، التي تطالع الناس وهم غافلون عنها، يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم التي يروها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها... يأخذهم ليفتح عيوهم عليها، فتطلع على السر الهائل المكنون فيها، سر القدرة المبدعة، وسر وجود الوحدانية المتفردة... ومن هذه المشاهدات التي رآها كل الناس ينشئ القرآن العقيدة)[49]

هذا هو المنهج القرآني في إنشاء العقيدة، فهو منهج عقلي يبدأ بالإدراك الحسي لاستقبال المؤثرات الكونية وظواهرها من خلال الاتصال بالواقع مباشرة ولفت الانتباه إليها ليجعل منها مقدمات أولية

[49]- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج7 ، ص 699-700 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

للاستدلال العقلي عن طريق هذه المخلوقات على وجود الخالق ووحدة النظام والانتظام في الكون على وحدة المنظم، وعظمة الوجود على عظمة الموجد، قال تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران : 190- 191] ،

إن هذا المنهج القرآني منهج فريد في الوصول إلى الحقيقة الإيمانية من خلال إثارة قوى الإدراك الإنساني كلها انطلاقا من المشاهد الكونية المحسوسة كمرحلة أولية لتهيئة العقل ليقوم بدوره في الاستدلال العقلي ليصل إلى الإيمان بالله تعالى، فأدلة الإقناع القرآني أدلة بديهية فطرية تقوم على مبادئ يقينية لا تثير الشك بحيث تؤدي إلى حقائق يقينية راسخة وهي أدلة بعيدة عن طرق الاستدلال المنطقي التي وضعها الفلاسفة أو طريقة المتكلمين، فطريقة الاستدلال القرآني تتلاءم مع كافة المستويات الفكرية لأنه جاء خطابه للناس كافة، قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [سبأ : 28]، فجاءت طريقة القرآن فيها الكفاية من حيث الكم والكيف بحيث لا تحتاج إلى غيرها من الطرق الاستدلالية الأخرى [50] .

ومما يجدر الإشارة إليه أن العقل البشري مهما بلغ من العبقرية وسداد الفكر وسلامة المنهج فهو عاجز عن الوصول إلى حقائق الغيب استقلالا ذاتيا.

لأن مسلك الإدراك الحسي مجاله الواقع المحسوس، ومسلك الاستدلال العقلي مجاله الواقع المحسوس أثره من حيث وجوده أما من حيث حقيقته وصفته فهذا لا مجال للعقل أن يبلغه إلا عن طريق الخبر النقلي المقطوع بصحته ، وهذا محصور بالوحي الإلهي الذي يأتي عن طريق الأنبياء والرسل المؤيدين بالأدلة الحسية والعقلية التي تثبت صدق إرسالهم من عند الله تعالى . مما يقتضي التسليم بما يخبروه عن الله من أمور الغيب تسليما مطلقا .

د- مسلك الخبر الصادق. (الوحي الإلهي)

إن من فضل الله تعالى على الإنسان أن وفقه بتقدير أسباب الهداية من العقل المدرك، والفطرة الباحثة عن الأمان والاطمئنان، وعلى الرغم من وضوح الأدلة ووثاقة الفطرة ، فإن الله تعالى لم يشأ أن يكل الناس إلى فطرتهم وحدها، ولا إلى عقلهم وحده، ولا إلى خطاب الدلائل الكونية للفطرة

---

[50]- انظر الدكتور عبد المجيد النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، ص61 ، وفاطمة إسماعيل، القرآن والنظر العقلي، ص 115- 117 .

والعقل، بل من رحمته سبحانه أن وفقهم توفيقا آخر بأن هيأ لهم أسباب الهداية بالفكرة عن طريق النقل الخبري الصادق، الذي مصدره الله تعالى، وأداته السمع، وناقله الوحي، ومتلقيه ومبلغه الرسول صلى الله عليه وسلم، ودليله المعجزة، ومضمونه الرسالة الإلهية من القرآن والسنة، وغايته هداية الناس إلى الحقيقة الإيمانية عقيدة وشريعة لتصل بالله وحده، قال تعالى : {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء : 165] وقال تعالى :{مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء : 15]، فإن العقل إذا سار بخطواته المنهجية التي أشار إليها القرآن الكريم من مسلكي الإدراك الحسي والاستدلال العقلي، فإنه يصبح مهيئا إلى استقبال وحي السماء والاتصال بعالم الغيب وتلقي الخبر من الوحي الإلهي في مجال العقيدة والشريعة، لأن هذا المسلك من الخبر الصادق ضرورة حتمية لاكتمال المعرفة الإنسانية بحقائق الغيب التي لا سبيل للعقل معرفتها مستقلا بذاته إلا عن طريق الوحي الإلهي الذي وجه خطابه للعقل وجعله مناط التكليف ومحل المسؤولية، حيث حدد المنهج القرآني دور العقل ووظيفته في التعامل مع الوحي الإلهي، فيبدأ بالعقل من حيث انتهى، أي من التفكير العقلي إلى التلقي الفكري، حيث ينتهي دور العقل من الحكم لينتقل إلى الفهم , أي فهم النصوص الإلهية ودلالاتها وليس الحكم عليها [51] . ويمكن أن نبين دور العقل في التعامل مع الوحي في تلقي الخطاب الإلهي عن طريق مسلك الخبر الصادق من عدة خطوات منهجية وهي :-

1. التثبت من صحة المصدر وصدق الخبر .
2. التصديق الجازم والتسليم المطلق لمقررات الوحي .
3. الفهم السليم لنصوص الخطاب الإلهي .

أولا : التثبت من صحة المصدر وصدق الخبر .

لقد وضع المنهج القرآني في تلقي الأخبار النقلية في مجال العقيدة شرطين أساسيين هما :

1. صحة المصدر الخبري (الإسناد)
2. صدق المضمون الخبري (المتن)

[51] - راجع عز الدين البدراني، منهاج الإيمان في الإسلام، ص27، سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص 271 .

1- صحة المصدر الخبري (الإسناد)

وهو التثبت من نسبة النص الخبري إلى قائله وإسناده إليه، ويمكن التحقق والتثبت من هذا من خلال مسلكين:

أ. التثبت من صحة نسبة النقل عن الله تعالى .

لقد طالب القرآن كل من يدعي النقل عن الله أن يقدم الحجة والبرهان الذي يقوم على (الدليل الإعجازي) وهو أن يستصحب الرسول معه أشياء لا يملكها إلا الله وحده، ولقد أيد الله رسله بالمعجزات على صدق دعواهم فيما ينقلونه عن الله من أخبار، قال تعالى : { وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ } [البقرة : 253]. وقال تعالى : { وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً } [هود : 64]. ولقد كانت معجزات الأنبياء معجزات حسية مادية إلا معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت معجزة معنوية عقلية لا تنتهي بموت الرسول كالمعجزات الأخرى، فكانت المعجزة القرآنية هي الدليل على صدق الرسول بأنه مبلغ عن ربه في كل ما يخبر عنه، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} [النساء : 174] .

ب. التثبت من صحة النقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا المسلك يتعلق من حيث موضوع الأخبار المنقولة إلى أمرين هما :

***التثبت من الأخبار المتعلقة بالعقيدة**[52].

وهذه يجب أن تكون أدلتها قطعية وحقائق يقينية عن طريق التواتر، بحيث تفيد العلم اليقيني المؤدي إلى التصديق الجازم المنافي للظن والوهم والشك، مصداقا لقوله تعالى : { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة : 2]، وقوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا }(الحجرات : 15)، وأما الظن وما دونه فلا يصلح دليلا لليقين ويستحيل أن يحدث جزما، ولقد جاءت الآيات في النهي عن إتباع الظن في العقيدة في معرض الذم، قال تعالى : { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم : 23]

---

[52]- راجع، تقي الدين النبهاني، الشخصية الإسلامية، ص 89-90، عبدالرحمن حنبكة، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 41 .

وقال تعالى : { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا }[النجم : 28] ، وعلى هذا لا بد أن يكون دليل العقيدة يقينيا أي دليلا قطعيا، لأن العقيدة قطع وجـزم ويقين، وهذا لا يتحقق إلا أن يكون قرآنا أو حديثا متواترا، وأن يكون كل منهما قطعي الدلالـة، أما إذا كان الدليل ظنيا كخبر الآحاد، فإن كان صحيحا فإنه يفيد غلبة الظن، فتصدق العقائد التي جاء بها تصديقا ظنيا لا جازما، ولا يجوز تكذيبه أو وإلا لجاز تكذيب الأحكام الشرعية التي أدلتها ظنية، ولم يقبل ذلك أحد من المسلمين[53] .

***التثبت من الأخبار المتعلقة بالأحكام الشرعية .**

وهذه يكفي فيها الدليل الظني، لأنها مستثناة من عموم الآيات التي تنهي عن إتبـاع الظـن في العقيدة، ولقد جاءت الأدلة بالتخصيص، حيث اعتبر الشرع قبول خبر الآحاد في الشهادة بـنص القرآن، وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة الواحد، وأرسل رسولا لعدة ملوك لدعوتهم للإسلام، وهذا لا يستدل به في قبول خبر الآحاد في العقيدة، بل يدل على خبر الواحد في التبليـغ سواء تبليغ الأحكام الشرعية أو الإسلام . ولقد وضع الإسلام منهجا سديدا لتحري الصـدق في الأخبار، ولقد التزم المسلمون بهذه المنهجية كما يظهر واضحا في منهج المحدثين، حيـث كانـت الرواية الصحيحة هي القاعدة التي انطلقت منها مناهج البحث في الحديث وعلومه .

2-صدق المضمون الخبري (المتن)

لقد كان الناس قبل الإسلام رهن الأساطير والخرافات، وظن العرب بداية أن القرآن ضرب من هذا النوع من الأساطير قال تعالى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنفال : 31]، والأسطورة خيال كاذب، والقرآن هدى ونور، قال تعالى : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } [النساء : 82]

والمعنى : (لو كان ما تخبرون به من عند غير الله لاختلف، فإنه ليس من متكلم يتكلم كلاما كثيرا إلا وجد في كلامه اختلاف كبير، إما في الوصف واللفظ، وإما في جودة المعنى، وإما في التنـاقض وإما في الكذب، فأنزل الله عز وجل القرآن وأمرهم بتدبره لأنهم لا يجدون فيه اختلافا في وصـف ولا ردا له في معنى، ولا تناقضا، ولا كذبا فيما يخبرون به من عيوب)[54] .

---

[53]- المرجع السابق، ص 89-90

[54]- انظر الدكتور همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين، ص 24-25 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تسليم لأمر الله تعالى، فعاقبه الله باللعنة وعذاب مقيم، و لم ينفع إبليس علمه وتصديقه بالله تعالى لعدم تسليمه لأمره، وهذا الوصف ينطبق على كل من تلقى خبرا أو أمرا من الله ثم يسلم به وجعل له رأيا ونظر من عند نفسه، فإن هذا الكفر بعينه ولو تحقق معه العلم والتصديق بالله تعالى، لأنه حين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر ويبطل التفكير ويتعين التسليم المطلق ويتحتم الطاعة والتنفيذ[56] .

ثالثا – الفهم السليم لنصوص الوحي الإلهي

الفهم هو (تصور المعنى من لفظ المخاطب)[57] والفهم المراد هنا : هو تحصيل العلم بقصد العمل به الذي يهيمن عليه مناخ الإيمان وإدراك الصلة بالله تعالى والفهم في الدين هو الفقه المراد بقوله تعالى : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر : 28] والمعرفة الإنسانية تحقق كمالها حينما يلتقي المعقول والمنقول، ويهتدي العقل بنور الوحي الإلهي ويسلم له زمام القيادة، ويصبح دور العقل هو الوصول إلى الفهم أحسنه وأصوبه، ومن أجل تحقيق الفهم السليم لفحوى الخطاب الإلهي فإنه يحتاج إلى ما يلي :

1- العلم باللغة التي نزل بها الوحي .

لقد أنزل الله القرآن{ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } [الشعراء : 194] وخاطب به العقل لفهم مراده من أجل العمل به قال تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [يوسف : 2] وقوله تعالى : {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [فصلت : 3] وعليه فإنه لا يتحقق الفهم السليم لمعاني الخطاب الإلهي إلا بالعلم بلسان العربية من ألفاظها ومعانيها وأساليبها يقول الشافعي : (وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه وجماع معانيه وتفرقها ومن علمه انتفت الشبه التي دخلت على من جهل لسانها)[58] فإن الجهل بلسان العرب يؤدي إلى سوء الفهم لخطاب الله تعالى، وفي الحديث : (الكفر في العجمة فإذا استعجم عليهم أمرا تكلفوا أو

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[56]- راجع الدكتور عبدالرحمن الزنيدي، مناهج البحث في العقيدة الإسلامية، ص313، سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص477

[57]- محمد المناوي، التعاريف، ج1، ص567 .

[58]- الشافعي، الرسالة، ص50 .

ابتدعوا)[59] وقال الحسن البصري (إنما أهلكتهم العجمة يتأولون عن غير تأويله)[60] فعلى الناظر إلى الخطاب الإلهي والمتكلم فيه أصولا وفروعا أمران : الأول : أن يكون عالما بلسان العرب، والثاني : إذا أشكل عليه لفظ أو معنى فليستظهر غيره ممن هو أعلم منه[61] .

2- العلم بالإسلام وكلياته المنهجية .

إن من مقتضيات الفهم السليم لخطاب الله العلم بكتابه وسنة نبيه ، وأن تفهم النصوص من خلالهما قال تعالى : { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء : 59] وقال صلى الله عليه وسلم : (تركت فيكما ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني ...)[62] وقد أجمع المحققون من أهل العلم أن من أراد تفسير كتاب الله فليطلبه من القرآن نفسه فإن لم يجده فمن السنة فإن لم يجده فليرجع إلى أقوال الصحابة ويلحق بذلك أقوال التابعين، فإن أعياه ذلك فليطلبه من اللغة العربية ولسانها وأساليبها وإلا فمن معنى الكلام وسياقه أو المقتضب من قوة الشرع[63] .

وكذلك من آفات الفهم لخطاب الله غياب الفهم الشمولي أو جزئية الفهم للإسلام، بأن يتناول أحدهم جزئية ويفصلها عن موقعها من البناء الكلي للإسلام، فيؤديه ذلك إلى سوء الفهم وعدم إدراك مقصد الشارع الحكيم ومراده سبحانه وتعالى .

3-العلم بموقع العقل من الوحي الإلهي .

إن الله جعل للعقول حدا تنتهي إليه ولا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلا لإدراك كل مطلوب[64] ولقد جاء خطاب الله لعباده منه ما تفهمه العقول على اختلافها، ومنه من تقصر عنه الهمم لتفاوت مداركها، ومنه ما تعجز عنه لقصور في طبيعتها، وفي ذلك يقول ابن عباس — رضي الله عنهما – : (أنزل القرآن على أربعة وجوه، حلال وحرام لا يسع الناس جهله، وتفسير يعلمه العلماء، وعربية تعرفها العرب، وتأويل لا يعلمه إلا الله، يقول الراسخون في العلم آمنا به كل من عند ربنا)[65] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

59- الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص244 .

60- السيوطي، صون المنطق والكلام، ص22 .

61- انظر أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، ص 45 .

62- صحيح مسلم : رقم 4604 ص200 .

63- راجع الدكتور صلاح الخالدي، مناهج المفسرين، ص59-60 .

64- انظر أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، ص 464 .

65- الحارث، فهم القرآن ومعانيه، ص 246 .

وعليه فإنه على العقل وما ركب فيه من قصور أن لا يتقدم على الوحي وما فيه من إحاطة وشمول قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }[الحجرات : 1] فإن من شروط الفهم السليم إدراك موقع العقل من الوحي، فإن إدراك أنه لا وجه للمقارنة بين علم الله الشامل المطلق وبين علم الإنسان القاصر المحدود أداه ذلك إلى تسليم زمامه لقيادة الوحي ليكون العقل تابعا له لا متقدما عليه، وفي ذلك يقول سيد قطب : (إن من شأن هذه الحقيقة بأن جعل الله حجته على عباده في الرسل والنذارات، ولم يجعلها في شهادة الفطرة ولا حكم العقل ليكون (النص) لا (العقل) هو الحكم، وأن يكون دور العقل هو تفهم النص والتقيد به، لا الحكم على مدلوله بالصحة أو عدم الصحة، أو الحكم بقبوله أو رفضه أو تعديله، فإن هذا لله وحده وليس لأحد من خلقه[66] وعليه فإن الناظر في الشريعة يلزمه أمران[67] أحدهما : أن ينظر اليهما بعين الكمال لقوله تعالى : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ }[المائدة : 3] وثانيهما : أن يوقن أن لا تضاد بين آيات الله ولا سنة نبيه ولا بين أحدهما مع الآخر، فإن أداه بادي الرأي إلى ظاهر اختلاف، فوجب عليه أن يعتقد انتفائه، وليقف على وجه الجمع أو التسليم من غير اعتراض، فإن تعلق بحكم عملي فليجد له مخرج حتى يقف على دليل .

4.التجرد في طلب الحق وتقوى الله تعالى .

إن التجرد في طلب الحق وحسن القصد وخشية الله وتقواه تعد عاملا مهما لحسن الفهم والوصول إلى الحق، ولقد نبه سبحانه إلى أهمية ذلك بقوله تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ } [سبأ : 46] والمعنى : " إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم، وهي : أن تقوموا لوجه الله خالصا لا لحمية ولا عصبية ، بل لطلب الحق فتقوموا مثنى وفرادى ثم تتفكرون ... فإن فعلتم بان لكم وجه الحق وظهر[68] .

كما أن أهل التقوى والخشية مهيئون أكثر من غيرهم لفهم كتاب الله ومراده تعالى لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } [الأنفال : 29] وقال أيضا : { إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ

---

[66]- سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي، ص 272 .

[67]- أبو إسحاق الشاطبي، الاعتصام، ص 458 .

[68]- تفسير النسفي، ج3، ص 332، وابن كثير، تفسير ابن كثير، ج2، ص271 .

اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ } [يس : 11] كما ربط سبحانه بين الخشية من الله والعلم بقوله تعالى : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر : 28]

وعليه فإن حسن القصد والتجرد للحق وقبوله وخشية الله توصل إلى حسن الفهم لخطاب الله تعالى[69] ,هذه هي المسالك الأربعة التي يقررها المنهج القرآني في تأسيس المعتقد الإيماني لبناء الأساس الفكري، ابتداء من المسلك الفطري الذي يثير في الإنسان أسباب البحث عن الخالق طلباً للاطمئنان والأمان إلى مسلك الإدراك الحسي بالنظر إلى صفحات الوجود وما فيها من آثار دالة على عظمة الخالق وكماله التي يتوصل إليها من خلال مسلك الإستدلال العقلي ليدرك عالمه المشهود وربه المعبود وليتهيأ لاستقبال خبر السماء المنقول بالوحي الإلهي الثابت، ليتعرف من خلاله على عالم الغيب وحقائقه، كما أن هذه المسالك تتكامل جميعها من غير تعارض بين معقول أو منقول، فلا يستبد العقل لفهم مراده في معرفة الغيب، ولا يستغني الوحي عن العقل في الفهم والاستدلال وأعمال الفكر وصولا إلى أحسن الفهم وأصوبه لتتظافر جميعها في تلبية الفطرة الإنسانية وإشباعها بالكيفية الصحيحة التي تحقق لها الاستقرار والطمأنينة وتؤدي إلى استقامة السلوك .

ـــ المطلب الثاني : الأساس النفسي .

ـــ أولا : مفهوم النفس الإنسانية :

1-المعنى اللغوي للنفس :

من أهم التعريفات التي قيلت في النفس في معاجم اللغة هي [70]

- النفس: الروح، يقال خرجت نفسه.
- النفس: الدم، وإنما سمي الدم نفسا لأن النفس تخرج بخروجه.
- النفس: يعبر بها عن الإنسان جميعه، كقولهم : عندي ثلاثة أنفس : أي رجال .
- النفس: أي الشيء عينه وذاته، يقال : رأيت فلانا نفسه.

---

[69]- أنظر الحارث، نهج القرآن، ص 323 – 324 .

[70]- راجع ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص233، والراغب الأصفهاني غريب ألفاظ القرآن ص50، محمد الرازي، مختار الصحاح، ص280 .

وأما في القرآن فقد استعملت كلمة النفس بأشكال مختلفة هي ومشتقاتها لتدل على معاني متعـــددة أهمها [71]

الدلالة على الذات بجملتها، قال تعالى : { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ } [النور : 61] والدلالة على الذات الإلهية، قال تعالى : { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّـهُ نَفْسَـهُ } [آل عمـران : 30] والدلالة على أصل واحد للبشرية وهو آدم عليه السلام، قال تعالى : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } [الأعراف : 189] والدلالة على ضمير الإنسان وطويته، قال تعالى : { رَبُّكُمْ أَعْلَـمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ } [الإسراء : 25] والدلالة على أمر خاص في الإنسان قائما بذاتـه أو تعـبير مجازي عن ماهيته، قال تعالى : { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } [القيامة : 2] والدلالة عن الروح، قال تعالى :{ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ }[الأنعام:93] .

ونلاحظ أن كلمة نفس في القرآن أكثر ما تدل على الإنسان ككائن حي من أصـل واحـد، يتكاثر ويكسب ويشتهي ويغضب، ثم يجازي على عمله أخيرا، كما وردت أحيانا لدلالة على طوية الإنسان وجوهره، أو للدلالة على عين الشيء، حتى الذات الإلهية .[72]

2-المعنى الإصطلاحي للنفس :

لقد وردت تعاريف كثيرة للنفس الإنسانية قديما وحديثا، إلا أننا نجد الاختلاف فيها كـان كبيرا ومتفاوتا ومشتتا ومتناقضا أحيانا و ذلك إلا أنهم خاضوا في الجانب الغيبي في ماهيتها الـتي لا تدرك بالحس، كما لم يأتي فيها نقل صريح، و لم يقدم العقل فيها دليلا قاطعا، فكان مقتضى الصحة المنهجية هو الوقوف عند حدود المعقول والمنقول في معرفة حقيقة النفس وتحديد مفهومهما.

وفي ضوء الإطلاع على معنى النفس لغة، واستعمالاتها في القرآن، وبيانه لكثير من حقائقها، وطبيعة نشاطها، وكذلك الوقوف على بعض التعاريف للعلماء والباحثين في ذلك، فإنه يترجح لدينا مفهوم النفس الإنسانية : (**بأنها ذات مخلوقة غير مدركة ماهيتها بالحس، وإنما بآثارها الحية عند اقترانها بالروح والبدن، بصفة طاقة حيوية كامنة في بنية الكيان الإنساني، والتي تنشط بالعوامل المـثيرة**

[71]- انظر عبد الكريم العثمان ، الدراسات النفسية عند المسلمين، ص54-55 .

[72]- ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص233 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بفاعلية الإحساس الغريزي، ليتولد عنها مظاهر شعورية معينة مرتبطة بالمفاهيم تنزع به باتجاه الإشباع بكيفية تتلاءم مع ميوله)[73]

- **خصائص التعريف** [74] .

إن هذا التعريف للنفس الإنسانية يراعي ما جاء في النصوص الشرعية عن حقيقة النفس، وما هو مدرك من آثارها الواقعية بالحس بالطريقة العقلية، حيث لم يتعرض إلى ماهيتها، وإنما اكتفى بما يعرف منها عن طريق المعقول والمنقول، حيث بين هذا التعريف الأمور التالية :

أولا : كشف هذا التعريف أن النفس الإنسانية لها جانبين هما :

1-جانب غيبي: وهذا الجانب لا يدركه العقل لأن ماهيته لا يقع عليها الحس، و لم يأت فيه نقل مقطوع فيه يعتمد عليه، ولذلك لم يتعرض التعريف إلى ماهية النفس، وإنما اكتفى بالإشارة إلى (أنها ذات مخلوقة)، مصداقا لقوله تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا } [الشمس : 7] وقوله تعالى : { مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ } [الكهف : 51] وأما القول بأنها (غير مدركة ماهيتها بالحس) فهو رد على كل ما قيل في ماهية النفس وما ورد فيها من اختلافات، لأن كل ما قيل في ماهية النفس هو مجرد افتراضات لا تستند إلى معقول أو منقول يقطع بصحتها .

2-جانب مشاهد: وهذا الجانب مدرك من حيث آثارها ومظاهرها الحية، فهي مدركة بالعقل، وقد دعى القرآن إلى التفكر والتبصر فيها قال تعالى :{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ } [الروم : 8] وقال تعالى :{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الذاريات : 20 – 12] فالعقل يمكن أن يدرك النفس بآثارها ومظاهرها الحية من خلال الإحساس بواقعها المباشر وتمثله في الذهن، ولقد وردت كثير من النصوص الشرعية تبين حقيقة النفس الإنسانية بما يدركه الإنسان منها، ومن هذه الحقائق التي كشفها القرآن يمكن إجمالها بما يلي :

1.لقد ذكر القرآن أن النفس هي مستقر الدوافع الفطرية من الطاقة الحيوية (الحاجات العضوية والغرائز) كالحاجة إلى الطعام في قوله تعالى : { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ } [آل عمران : 93] وقوله تعالى : { وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ } [

73- زكريا الشلول، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني، ص128 .

74- راجع المرجع السابق ، ص 128 – 150 .

الزخرف:70] ومظهر غريزة النوع في قوله تعالى : { وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ } [يوسف: 32] وغريزة التدين في قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا } [الأعراف : 172] ومظهر غريزة البقاء كالخوف في قوله تعالى : " فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى " [طه : 67] .

2.كما ذكر أنها موطن العواطف والانفعالات، قال تعالى : { وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } [النجم : 23]

وقوله تعالى : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 2] وقوله تعالى : {حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ } [البقرة : 109] .

3. وذكر أيضا أن النفس مركز الإحساس المادي والمعنوي: قال تعالى :{ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ } [النحل : 7] وقوله تعالى : { وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ } [التوبة : 118]

4. وذكر أن النفس فيها الاستعداد للمعرفة والتمييز، قال تعالى : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا } [النمل : 14] وقوله تعالى : { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ } [السجدة : 17] .

5. وذكر أن النفس مركز الإرادة والنوايا والهواجس، قال تعالى : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ } [المائدة : 30] وقوله تعالى : { أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ } [البقرة : 235] .

6. وذكر أن النفس مصدر اكتساب الأعمال ومنبع السلوك، قال تعالى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة : 286] وقال تعالى : { يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا } [آل عمران : 30] .

7. والنفس أيضا هي محل التكليف والمسؤولية والمحاسبة والجزاء، قال تعالى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة : 286] وقال تعالى : { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } [المدثر : 38] وقال تعالى :{ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [البقرة : 281] .

إلى غير ذلك من الآيات التي تبين كثيراً من حقائق النفس وطبيعة نشاطها وهي كافية للتعريف بحقيقة النفس، علاوة على إدراك العقل لواقعها بآثارها الحية .

ثانيا- كما بين التعريف عناصر الكيان الإنسان وهي : البدن، النفس، والروح، وأن النفس **هي عنصر من عناصره الأساسية قال تعالى : { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } [ص : 71-72] فبين القرآن عناصر مكونات الإنسان حيث عبر عن الجانب المادي وهو البدن بالخلق في قوله تعالى : { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ } [الرحمن : 14] وعبر عن النفس بالتسوية في قوله تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا } [الشمس : 7] وعبر عن الروح بالنفخ لتعلقها بالأمر لقوله تعالى : { قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي } [الإسراء : 85] وهذا التعبير القرآني الدقيق لحقيقة الإنسان ومكونات عناصره لتبين الفرق بينها، فجعل الله الجسد آلة النفس ومتهيئة للحياة بالروح، فإذا اقترنت الروح بالجسد ظهرت النفس بأثارها ومظاهرها الحية، وإذا نام الإنسان اختفت هذه المظاهر للنفس مع وجود الحياة فيه لبقاء الروح، فإذا مات الإنسان اختفت مظاهر الروح والنفس معا، ولقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله تعالى : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الزمر : 42] تبين الآية الكريمة أن النفس تتوفى في حالتين : الأولى : في حالة الموت والثانية : في حالة النوم، والمقصود بالوفاة للنفس هنا هو أن تفقد فاعليتها ونشاطها الوظيفي فلا تعمل، فأما المقصود من حالتي الإمساك والإرسال للنفس: فأنه في حالة الإمساك للنفس : هو أن تقبض الروح ويتحقق الموت، وفي حالة الإرسال للنفس : فهو اليقظة من النوم وتستمر حتى انتهاء الأجل، وهذه المسألة يدركها الإنسان في نفسه وفي الآخرين ليميز واقع النفس في حالتي الموت والحياة، والنوم واليقظة، وذلك من خلال توقف مظاهر النفس من الطاقة الحيوية والذهنية عن العمل في حالتي الموت والنوم ومن ممارسة نشاطها الوظيفي في حالتي الحياة واليقظة، ولقد بين ابن عباس – رضي الله عنهما – طبيعة الارتباط بين مكونات الإنسان البدن والروح والنفس في معرض تفسيره للآية بقوله : (يوجد في بني آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتميز، والروح التي بها التنفس والتحرك، فإذا نام الإنسان قبض الله سبحانه نفسه و لم يقبض روحه، وإذا مات قبض الله سبحانه نفسه وروحه)[75] ، ويؤكد هذا المعنى أيضا الإمام محمد الباقر بقوله : (ما من إنسان ينام إلا وتعرج نفسه إلى سماء الله وتبقى روحه في بدنه، ويصير بينهما شعاع كشعاع الشمس، فإذا أذن الله بقبض الروح أجابت النفس، وإذا أذن الله ببقاء الروح رجعت النفس)[76] ، وعليه فإن هناك فرقا واضحا بين مكونات عناصر الإنسان من البدن والنفس والروح، أما الفرق

---

[75]- سميح عاطف الزين، علم النفس، ص 128 .

[76]- المرجع السابق نفسه .

بين البدن والنفس فظاهر، وأما الفرق بين النفس والروح، فإنه علاوة على ما بيناه فإن القرآن أسهب في ذكر النفس وبيان حقيقتها وما فيها من دوافع فطرية وإدراك وإرادة وعواطف، بينما الروح فلا نجد مثل هذه الأوصاف لها، وإنما اكتفى ببيان سرها بأنها من الأمر الإلهي أودعه الله في الإنسان فهي لفظ يدل على سر الحياة، وطوى عن الإنسان حقيقتها فلا يعلمه إلا الله وحده، كما صرح بذلك القرآن في قوله تعالى :{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء : 85] ولذلك لا يمكن أن نجري مقارنة بين النفس والروح أمام هذا الإجمال لحقيقة الروح والتفصيل لحقيقة النفس إلا أننا نعلم أنهما مرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا في حياة الإنسان[77].

ثالثا- كما كشف التعريف أن النفس تتكون من قوتين هما :

1- القوى الفطرية (الكامنة) 2- القوى الكسبية (الفاعلة)

حيث أن النفس الإنسانية تتكون من قوى فطرية كامنة في بنية الكيان الإنساني والمتمثلة بالطاقة الحيوية من الحاجات العضوية والغرائز، والطاقة الذهنية من الإحساس والشعور والإدراك، وكذلك قوى كسبية فاعلة تمارس نشاطها الوظيفي باتجاه سلوك الإشباع لهذه الدوافع الفطرية والمتمثلة بالمفاهيم الفكرية؛ والميول النفسية والتي تتكون بفعل الإنسان وكسبه . فهذا التعريف يربط بين خاصية النفس وعملها الوظيفي، إذا علمنا أن الخاصية هي الطاقة الكامنة في الشيء متمثلة بقدرة موجودة فيه لمفرده تتشكل بها ماهيته كونه فردا قائما بذاته، وأما الوظيفة : فهي الفاعلية المترتبة على ظهور الطاقة الكامنة بنسق مخصوص يفرضه عليه نظام الوجود لتوفر عنصر ينشطها من كمونها ويظهره بعمل معين[78] ولقد بين القرآن الفرق الواضح بين مكونات النفس الإنسانية من القوى الفطرية والقوى الكسبية، في قوله تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس: 7-10] ففي هذه الآية بين سبحانه وتعالى النفس كفطرة أصيلة في الإنسان وكقوة كامنة فيه، وأشار اليها بقوله: { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } كما بين نشاطها الوظيفي باتجاه الإشباع وقدرتها الكسبية في

77- زكريا الشلول، أثر العقيدة، ص 129 .

78- راجع هشام البدراني، مفاهيم علماء النفس، ص 133 – 134 .

تحديد كيفية سلوك الإشباع والتي أشار إليها بقوله: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا }

وعليه فإن هذا التعريف للنفس الإنسانية يتضمن قوى النفس الفطرية الكامنة في بنية الكيان الإنساني، وقوى النفس الكسبية التي يتعين من خلالها كيفية سلوك الإشباع لهذه الدوافع الفطرية، وأما حقيقة هذه القوى في النفس هذا ما سنبينه عند الحديث عن مكونات النفس الإنسانية .

رابعا- إن هذا التعريف يبين كيفية تفاعل قوى النفس مع بعضها البعض وتأثير وتأثر كل منهما بالآخر ليتعين على ضوئها كيفية الإشباع للدوافع الفطرية، وهي تمر في ثلاثة مراحل:

1. مرحلة الكمون 2. مرحلة الظهور 3. مرحلة الاكتساب

1- مرحلة الكمون .

وهي القوى الفطرية الكامنة في بنية الكيان الإنساني والمتمثلة بالطاقة الحيوية والطاقة الذهنية، وهذه الطاقات الفطرية مودعة في الإنسان بصفته البشرية وهي ثابتة مستقرة لا تتغير ولا تتبدل، وهي شاملة وعامة لكل الكيان البشري لا يتخلف عنها أحد قال تعالى: { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } [الروم : 30] وهذه الفطرة هي الخواص الموجودة في الإنسان بتقدير من الله تعالى، وفق الشكل والترتيب الذي هو عليه والمفروض عليه بنظام الوجود، وهي قوى أصيلة في بنية الإنسان الحي وماهيته البشرية لا تنفك عنه، وهي لا بد أن تظهر بأي مظهر من مظاهرها المختلفة .

2-مرحلة الظهور .

وهي الفاعلية المترتبة على ظهور الطاقة الفطرية الكامنة بنسق مخصوص يفرضها عليها نظام الوجود بتوفر عنصر ينشطها من كمونها ويظهرها بعمل معين، فالطاقة الحيوية تنشط من كمونها بفاعلية الإحساس الغريزي بالعوامل المثيرة ليتولد من هذا الإحساس الغريزي بفعل العوامل المثيرة مظاهر شعورية داخلية معينة يترتب عليها ميل وجداني باتجاه الإشباع وهو الدافع لسلوكه، ويسمى الرجع الغريزي الوجداني وهو نتيجة ظهور الطاقة الكامنة الحيوية بنشاط وفاعلية مخصوصة، حيث تظهر قوة ونوعا بحسب الطاقة الحيوية نوعا ومظهرا مما يستلزم الإشباع حتما أو تمكينا لها في الإشباع، فتدفع بالإنسان إلى البحث والتنقيب عن الوسائل التي تناسبه لإشباع هذه الطاقة الحيوية، وأما هذه العوامل المثيرة التي تظهر الطاقة الحيوية فهي تنقسم إلى قسمين هما[79] :

---

[79]- راجع المرجع السابق، ص 136 – 138 .

أ.**العوامل الداخلية**: وهي التي تثار من داخل الإنسان باحتياج أعضائه الجسمية، وتسمى حاجات عضوية، كالجوع والعطش والنعاس وغيرها، مما يكون الإحساس بها داخليا، أي أن الإثارة الحسية المغروزة في هذه البنية، تتحرك بعوامل داخلية، فهي ترتبط بالإحساس الغريزي داخلية وتتحرك خارجيا في طلب الإشباع، لأن سلوك إشباعها من خارج البنية الجسمية .

ب.**العوامل الخارجية**: وهي تثار من خارج الإنسان، ويكون الإحساس بها داخليا والإشباع خارجيا، وهي تسمى الغرائز، كالبقاء والنوع والتدين، وهي تظهر من كمونها نتيجة لوجود ما يثيرها من خارج البنية الجسمية للإنسان، لهذا ارتبط إثارة الغرائز وإشباعها بعوامل خارجية، وذلك عن طريق الإحساس الواقعي الذي يؤثر بالطاقة الحيوية من الغرائز ليتولد عنه شعور داخلي من تأثير الواقع المثير بحركة الإحساس الغريزي مما يدفع لإشباعها بكيفية الضوابط المفهومية .

- أما ظهور فاعلية الطاقة الذهنية وممارسة نشاطها الحسي والشعوري والإدراكي فهو على النحو الآتي[80] :

– **الإحساس** : تقوم الحواس بقدرتها على التحسس بعملية نقل الحس بالواقع إلى المراكز الحسية الدماغية، وبوجود خاصة الإحساس البشرية يظهر الواقع المحسوس في الذهن بوصفه إحساسا أو إحساسا متميزا (التميز الحسي) .

– **الشعور**: تتحرك القدرة الشعورية عند انطباق الإحساس الواقعي على الإحساس الغريزي لتنشط الطاقة الكامنة الفطرية وتظهر بصفتها الشعورية داخليا. فتندفع لطلب الإشباع نتيجة حركة الشعور الذي هو أثر الإحساس بالواقع في الطاقة الحيوية.

– **الإدراك**: عند توفر عناصر التفكير من الواقع المحسوس والمعلومات السابقة تتحرك الطاقة الكامنة للعقل في ربط الإحساس الواقعي بالمعرفة المنظمة له لتأليف معنى في الذهن .

فالإنسان كائن حي يحس ويشعر ويفكر وهذه ماهيته الطبيعية، وبنيته البشرية، لأن حركة الطاقة الحيوية بالدوافع تظهر أثارها الشعورية بمظاهر انفعالية وسلوكية معينة، وهذه المظاهر السلوكية هي الأعمال التي تقتضيها معالجة ما ينتج عن الطاقة الحيوية من مشاعر اتجاه واقع محرك لها بالعوامل المثيرة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[80]- المرجع السابق ص 107 – 116 .

3-مرحلة الاكتساب[81]

إن الطاقة الحيوية والطاقة الذهنية تظهر صفة الحياة في الإنسان، وبفاعليتها يتولد سلوكه باتجاه إشباع دوافعه الفطرية، على أن الإنسان في سيره وسلوكه يتميز عن غيره من الكائنات الحية بأنه ينتظم في سلوكه بنظم الأفكار والمفاهيم التي تستند على أساس عقائدي وما ينبثق عنها من أحكام ونظم في معالجة سلوكه في إشباع طاقته الحيوية، على المستوى الفردي ومعالجة مشكلات الحياة ومستجداتها على المستوى الجماعي، ويسير الإنسان بنسق الضوابط المفهومية التي تنظم سير سلوكه، وإن ارتباط الإنسان بمفاهيمه ارتباطا حتميا لا ينفصل عنه، وهو سائر في إشباع ميوله سيرا حتميا أيضا، وعليه فإن السلوك لا ينفصل عن عقلية الشخص، والعقلية هي المفاهيم المرتبطة بطاقته الحيوية، وميوله لهذا لا يمكن للإنسان أن يتجرد عن عقله وميوله أو تفكيره وعاطفته، وبارتباط دوافع الإشباع بالمفاهيم تتكون النفسية، التي هي مصدر الدوافع السلوكية ومصدر اكتسابها وهي المسؤولة عن جميع أفعالها خيرا وشرا، وبمقدار رقي هذه المفاهيم والضوابط وانخفاضها عند الإنسان يمتاز عن غيره .

وعليه فإن المفاهيم الفكرية والميول النفسية هي التي تحدد كيفية سلوك الإشباع للدوافع الفطرية عند الإنسان واكتسابه، فينتج بهذا التفكير وتلك الميول حالة تكتنف الشخصية داخليا في بنائها العقلي والنفسي، وخارجيا في سلوكها وتصرفها اليومي.

- إن هذا التعريف لمفهوم النفس الإنسانية كشف عن حقيقتها من خلال صفاتها الظاهرة بآثارها الواقعية المدركة بالعقل وبما يوافق النصوص الشرعية بحيث لم تخرج عن حدود المعقول والمنقول.

ـ ثانيا: مكونات النفس الإنسانية :

تتكون النفس الإنسانية من قوتين هما[82] :

أولاً : قوى النفس الفطرية .

وهذه القوى الفطرية قوة كامنة في بنية الكيان الإنساني وهي من خواص الإنسان بصفته البشرية، والمفروضة عليه بنظام الوجود، وهي لا تتغير ولا تتبدل وتتصف بالعموم والشمول بحيث

---

[81]- المرجع السابق، ص 95 – 129 .

[82]- راجع زكريا الشلول، أثر العقيدة في السلوك، ص 131 – 150 .

لا يخلو منها أحد من البشر، قال تعالى : { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } [الروم:30] . وإن هذه القوى الفطرية تتكون من عنصرين هما :

العنصر الأول: الطاقة الحيوية.

وهذه الطاقة الحيوية من حيث الإشباع تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يطلب الإشباع الحتمي (الحاجات العضوية).

وهذه الحاجات العضوية سميت بذلك لارتباطهما بنشاط الأعضاء الجسمية وديمومة فاعليتها فكان الاحتياج لها عضويا. وهذه الحاجة العضوية إن لم يقم الإنسان بإشباعها يؤدي به إلى الموت حتما، لذا فهي تستوجب الإشباع لديمومة حياة الإنسان ويستدل على هذه الحاجة من مظهرها، فالجوع مظهر للحاجة إلى الطعام والعطش مظهر للحاجة إلى الشراب ... وهكذا سائر الحاجات العضوية .

القسم الثاني: يطلب الإشباع تمكينا وليس حتما (الغرائز)

وهذه الغرائز تتطلب الإشباع ولكنه ليس حتما، أي لا يؤدي إلى الموت وإنما إلى القلق والانزعاج، وهي لا تقع تحت الحس مباشرة، وإنما نحس لوجودها من خلال مظاهرها، فالغريزة هي جزء من ماهية الإنسان وهي طاقة أصيلة فيه، وهي غير مظاهر الغريزة، حيث خلط علماء النفس بينها وبين مظاهرها فجعلوا للإنسان غرائز كثيرة لا حصر لها، فجعلوا الخوف والتملك والجنس ... من الغرائز وهي في حقيقتها مظاهر للغريزة، لأنها ليست جزء من ماهية الإنسان فهي يمكن علاجها ومحوها وكبتها بخلاف الغرائز فإنه لا يمكن ذلك لأنها جزء من ماهية الإنسان، وهي لا بد أن تظهر بأي مظهر من مظاهرها، وهذه الغرائز ترجع إلى ثلاثة فقط وهي :

1.غريزة البقاء:

وهي إحساس غريزي للحفاظ على الذات بصفتها الفردية، وهي تظهر بمظاهر شعورية متعددة منها : الخوف، الغضب، والتملك ... الخ .

2.غريزة النوع :

وهي إحساس غريزي للإبقاء على النوع الإنساني بصفته النوعية البشرية، ومن مظاهرها: الميل الجنسي، العطف والحنان، والأمومة... الخ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3.غريزة التدين:

وهي غريزة طبيعية ثابتة في الإنسان، وهي إحساس غريزي بالعجز والنقص والاحتياج للقـــوى المدبرة لهذا الكون، بقطع النظر عن تفسيرها، وهو شعور حتمي يخلق مع الإنسان قال تعالى:
{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا } [الأعراف : 172]

ومن مظاهرها: التقديس، الخشوع، التعظيم، الخشية، والحب... الخ.

العنصر الثاني: الطاقة الذهنية.

وهي قدرات بشرية تكتنف الكائن الحي وتصنفه بالإنسانية وهي صفات خاصة به تكشف عن طاقة أصيلة فيه تتكون بها ماهيته البشرية، ويمكن إدراك هذه الطاقة الذهنية وخواصها من الحـــس مباشرة وتميزها من خلال جريانها في الذهن عند ظهور آثارها من نشاط فاعليتها في الماهية البشرية عند توفر عناصرها، وهي خاصة بالإنسان بصفته البشرية وليس للأعضاء أو البنية الجســـمية . وإن كانت هذه الأعضاء هي أحد مقومات نشاطها الحيوي، وأما حقيقة هذه الطاقة الذهنيـــة فهـــي : الإحساس، الشعور، والإدراك .

1.الطاقة الحسية

إن الإحساس بالواقع هي خاصة الكائن البشري الحي، وهذا الإحساس هي فاعلية ذهنية يجري عملها بجهد ونشاط ذهني نتيجة نقل الإحساس بالواقع عن طريق الحواس وتمركزه بالدماغ، ليحرك خاصة الإحساس الموجودة في الإنسان ليأتي به إحساس واقعي مجرد، فإذا تكرر نشأ عنه تميز حسي، وهذا الإحساس غير الشعور وغير الإدراك، وهي فعاليات ذهنية تتميز بصفات نوعية مختلفة .

2.الطاقة الشعورية

وهو أثر الإحساس بالواقع على الطاقة الحيوية ليتولد منه شعور معين، والإحساس إن لم يـــرتبط بالطاقة الحيوية فإنه يبقى مجرد إحساس وهذه العملية الشعورية لا يصدر عنها فكـــر وإدراك، وإن كان يمكن أن يحصل منه (تميز غريزي) بتكراره، ويترتب عن هذه المشاعر ميل وجـــداني باتجـــاه الإشباع وهو الدافع لسلوكه، فالدافع هو رجع غريزي لحركة الشعور نتيجة ظهور الطاقة الحيويـــة بفاعلية مخصوصة[83] .

---

[83]- انظر هشام البدراني، مفاهيم علماء النفس، ص 70 – 82 .

3.الطاقة الإدراكية

والإدراك وإن كان فاعلية ذهنية كالإحساس والشعور إلا أنه يتميز عنهما بصفات نوعية مختلفة عند وجود المعلومات السابقة، لتتحول في ذهنه من حالها الحسي أو الشعوري إلى حالة دلالية تعبر عن الواقع بتأليف معنى في الذهن يفسر أو يعبر عنها بحكم، فالعملية الإدراكية لا تتم إلا بتوفر أربعة عناصر وهي : الواقع، الحواس، الدماغ، والمعلومات السابقة، فبوجود الواقع المحسوس، والمعلومات السابقة، وتوفرهما في الذهن تتم العملية الإدراكية وتنتج الأفكار وتتبلور المعاني والمفاهيم,وهذا يتضح لنا صفة النفس الفطرية بمعرفة طاقاتها الطبيعية من الطاقة الحيوية

من (الحاجات العضوية والغرائز) والطاقة الذهنية من (الإحساس، الشعور، والإدراك) فتكون الطاقة الحيوية والطاقة الذهنية هي مكونات قوى النفس الفطرية القائمة في البنية الجسمية له بوصفه كيانا بشريا متميزا بين جنس الكائنات الحية[84].

ثانيا : قوى النفس الكسبية .

فالقوى الكسبية في النفس هي قدرتها في تحديد كيفية الإشباع للدوافع الفطرية المتمثلة بالطاقة الحيوية، ولقد بين القرآن طبيعة هذه القوى الكسبية في النفس في قوله تعالى : { الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ } [غافر : 17] وقوله تعالى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ } [البقرة : 286]

وقوله تعالى : { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } [المدثر : 38] إلى غير ذلك من الآيات التي تقطع بهذه الحقيقة وهي أن النفس هي مصدر اكتساب السلوك، وهي التي تحدد كيفية سلوك الإشباع لدوافعها الفطرية، ومن ثم فهي المسؤولة والمحاسبة عن أفعالها وهي من يتحمل تبعاته من الجزاء، قال تعالى : { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا } [آل عمران:30]

فالنفس هي من يملك اكتساب الفعل بمنطوق القرآن، وهي وحدها من يعين كيفية الإشباع، وذلك من خلال ارتباط الدوافع الفطرية بالمفاهيم عن ذات الأشياء مرتبطة بمفاهيم الإنسان عن الحياة،

---

[84]- المرجع السابق، ص 127 – 129.

وبهذا الارتباط بين دوافع الإشباع والمفاهيم تتكون ميوله والذي من خلاله تتشكل نفسيته.ويتحدد سلوكه وفق هذه المفاهيم الفكرية والميول النفسية .
أما ما هي هذه المفاهيم ومما تتكون، وما هي نتائجها ؟ وما هي هذه الميول، وما الذي يحدثها، وما هو أثرها ؟ فذلك ما نبينه فيما يلي .

1.المفـــاهيم [85].

- المفاهيم هي معاني الأفكار لا معاني الألفاظ، فاللفظ كلام يدل على معاني قد تكون موجودة في الواقع وقد لا تكون موجودة، فقول الشاعر:

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق

فالمعنى في الشطر الأول مدرك حسيا بالواقع، وأما الثاني لا وجود له في الواقع المحسوس، فيبقى معنى اللفظ دون إدراك تصور له في الذهن.
أما معاني الأفكار فهو ما يتضمنه اللفظ من واقع يقع عليه الحس أو يتصوره الذهن حتى يكون مفهوما، فالمفهوم هو إدراك معنى الفكر على قصد الحقيقة وليس مجرد إدراك معنى اللفظ فقط.
- تكوين المفاهيم : تتكون المفاهيم من ربط الواقع بالمعلومات أو العكس، فحين يدرك العقل الواقع ويتمثل في الذهن شيئا محسوسا ويجري التصديق به يكون هذا المعنى مفهوماً عند من أحسه وعقله وصدقه، ولا يكون مفهوما عند من لا يحسه ولا يعقله، فالمفاهيم هي المعاني التي يدرك لها واقع في الذهن وإلا كان مجرد معلومات أو تصورات خاطئة لا تولد تصديقا ينهض بالعقلية إلى مهام طبيعية تتميز بها الشخصية الحاملة لها، لهذا ينبغي تحصيل المفاهيم بطريقة تقصد المعاني إدراكا يتمثل واقعها في الذهن لتنشأ به عقلية معينة، فالعقلية هي : الكيفية التي تدرك بها المعاني، لهذا وجدت عقليات مختلفة : كالعقلية النفعية، والعقلية الشيوعية، والعقلية الرأسمالية،والعقلية الإسلامية.

- نتائج المفاهيم : إن نتائج هذه المفاهيم هي الأحكام التي يصدرها التفكير على الواقع، فيتم تعين تلك الأفكار وفق وجهة النظر في الحياة التي يترتب عليها سلوك معين، كما يترتب على ضوئها سير الميول في اتجاه الواقع المعين من الإقبال عليه أو الإعراض عنه، مما يجعل ميلا معينا وخاصا، ينتج عنه

[85]- راجع سميح عاطف الزين، علم النفس، ص 462 – 466، الإسلام وثقافة الإنسان، ص 91، 92 .

سلوك يتصف بصفته العقلية ومفهوميتها . وبمقدار رقي هذه الضوابط والمفاهيم وانخفاضـــها عنـــد الإنسان يمتاز عن غيره .

2. الميـــول :

وهي مشاعر داخلية منتظمة بمفاهيم الإنسان بكيفية تحتمها عملية الانتظام لسلوك الإشـــباع[86] فعملية الربط بين دوافع الإشباع والمفاهيم هي الميول، فهي دوافع فطرية تدفع بالإنسان إلى إشـــباع طاقته الحيوية من حاجات عضوية وغرائز مربوطة بالمفاهيم المتبناه لدى الإنسان عن الحياة ووقـــائع الإشباع، وهذه الميول هي التي تكون النفسية، فالنفسية هي : الكيفية التي يجري عليها إشباع الطاقة الحيوية أو كيفية ارتباط الدوافع بالمفاهيم، فحين يجري هذا الربط بين الدوافع والمفاهيم على أساس قاعدة فكرية معينة، فإنها تجعل النفسية تتصف بصفة خاصة، ينتج عنها سلوك مخصوص بها ومتعين من خلالها، ومع أن إجراء التفكير والميول هي أمور تجري فطريا في الإنسان حتى وإن لم يقصدها، إلا إن العقلية والنفسية تجري بفعل الإنسان من حيث الإنشاء والتكوين والاتجاه المعين فيها، فينـــتج بهذا التفكير وتلك الميول حالة تكتنف الشخصية داخليا في بناءها العقلي والنفسي، وخارجيـــا في سلوكها وتصرفها اليومي[87].

وبذلك يتضح أن بناء الشخصية الإسلامية وتكوينها إنما يتحقق بإيجاد العقيدة الإسلامية لتكون هي الأساس الوحيد لعقلية الإنسان ونفسيته. ومعلوم أن الكيفية التي تجري فيها عملية الربط بين دوافع الإشباع للطاقة الحيوية والمفاهيم هي التي تحدد طبيعة الحالة النفسية التي يكون عليهـــا الإنســـان في كونها: نفس مطمئنة أو إمارة بالسوء أو لوامة .

ثالثا : أحوال النفس الإنسانية[88] .

لقد بين الله تعالى أن النفس الإنسانية فيها استعداد فطري للخير والشر مصداقا لقوله تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } [الشمس : 7-8] كما بين سبحانه أن هذه النفس فيها قابلية التغير كما في قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ }[

---

[86]- تقي الدين النبهاني، الشخصية، تحقيق : هشام البدراني ، ص 8-9 .

[87]- أنظر تقي الدين النبهاني، الشخصية، ص 8-9 .

[88]- راجع زكريا الشلول، أثر العقيدة الاسلامية في السلوك، ص 151 – 159 .

الرعد : 11] وهذا يجعل للنفس ثلاث حالات، الفجور والتقوى والتردد بينهما باتجاه أصل فطرتها الخيرة، وهذه الأحوال الثلاث التي تكشف النفس الإنسانية عبر عنها القرآن الكريم: بالنفس المطمئنة، والنفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة .

والذي يحدد حالة النفس من : الصحة والنضج النفسي والكمال، إلى حالة المرض والارتكاس والهبوط والانحطاط، إلى حالة الصراع الداخلي بين الجانبين باتجاه الصحة النفسية والرجوع إلى حالة النضج والتعقل، هو كيفية الإشباع للطاقة الحيوية ومدى ارتباطها بالمفاهيم الإسلامية . ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي :

1.النفس المطمئنة.

وهي حالة النضج والتعقل، وذلك حين تعمل على إشباع دوافعها الفطرية للطاقة الحيوية بالمفاهيم الإسلامية عقيدة وشريعة، عندما تحقق النفس الطمأنينة والسكينة والاستقرار، لينطبق عليها الوصف القرآني بالنفس المطمئنة مصداقا لقوله تعالى :{ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي }[الفجر:27-30] فهذه النفس جعلت ميولها النفسية تقوم على أساس العقيدة الإسلامية وما ينبثق عنها من نظام وأحكام، مصداقا لقوله تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء:65] وقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[89] فعندما يكون ميل النفس تابعا لأوامر الله تعالى ونواهيه ومحورها العقيدة الإسلامية فسرعان ما يباشرها روح الطمأنينة والسكينة، والانتساب إلى عباد الرحمن والدخول في جنة الرضوان، قال تعالى : { وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ } [الرعد :27-29]

وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } [فصلت : 30] . فهذا هو الطريق إلى النفس المطمئنة، الإنابة إلى الله، والاستقامة على منهجه . وهذا هو الجزاء من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة . لأنها

[89]- ابن رجب، جامع العلوم والحكم، قال حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة للشيخ أبا الفتح.

نفس عابدة طائعة، تقية زكية، تنورت بنور العقيدة، والتزمت بأحكام الشريعة، وانخلعت من الشرك، وعارضت الشهوات والأهواء فاستقرت إلى جناب بارئها، واطمأنت إلى ركنه الشديد، فأمنت من كل خوف، وسكنت من كل رعب، فأصبحت نفساً صحيحة سليمة من الأمراض والعلل، قال تعالى : { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ } [المعارج : 19-27].

2.النفس الأمارة بالسوء .

وهي حالة الهبوط النفسي وغياب التعقل، وهي أدنى حالات النفس عندما تسيطر عليها الشهوات والملذات، وتكون ميولها النفسية في إشباع دوافعها الفطرية غير مرتبطة بالعقيدة الإسلامية، ومخالفة للأحكام الشرعية، قال تعالى : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم : 23] إن الاستجابة لداعي الهوى في إشباع الدوافع الفطرية من غير ضوابط المفاهيم الإسلامية عقيدة وشريعة يجعل الإنسان يعيش أسير ملذاته وشهواته أو كما عبر عنها القرآن بحالة الاستمتاع أو الاستهواء النفسي، قال تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ } [محمد : 12] وقال تعالى : { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا } [الفرقان : 43-44] فهذه النفس الأمارة بالسوء يتحكم بها عامل الهوى الذي يأمرها بالسوء والفحشاء ليصل بها إلى أدنى من مستوى الحيوانية، قال تعالى : { وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [يوسف : 53] فهذه النفس إن تجاوزت حدود الشرع، واستجابت لداعي الهوى فعندها تستحق هذه النفس العقوبة والذم ووصفها بالسوء حتى ترجع عن غيها، وتخالف أهوائها، فالنفس فيها نزوع طبيعي إلى إشباع دوافعها الفطرية الغريزية، ولكن فيها أيضا القابلية للتغير وقوة المجاهدة لهوى النفس باتجاه طريق التقوى الذي يضبط ميولها بميزان الإسلام الذي يزكي النفس ويبلغ بها درجة العبودية الخالصة لله وحده .

3.النفس اللوامة.

حمو بلعيد عبد القادر للعلوم الإسلامية

هي حالة من اليقظة تكتف النفس ترجع بها عن سنة الغفلة كلما صدرت منها سيئة بحكم جبلتها الفطرية، فهي حركة وجدانية مضادة لنوازع النفس وشهواتها، وهي لحظة صدق مع الذات تجاوزت مرحلة التحايل أو التبرير للأثام أو تأويلها أو التنصل منها وتحويلها على الغير، فهي نقد للذات نتيجة الشعور بالندم، وهي محاسبة للنفس ولومها على ما فرطت في جنب الله ليرجع تائبا مستغفراً ليصحح مسيرة حياته على منهج الله تعالى وشرعه، وطاعته ورضوانه . فهذه النفس اللوامة نفس عزيزة كريمة عند الله ولقد أقسم بها في كتابه مما يوحي بقيمتها في ميزانه، قال تعالى :{ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } [القيامة : 1-2] وذلك لأنها هي بوابة الخروج من المعصية إلى الطاعة، ومن الكفر إلى الإسلام، ومن الضلال إلى الهدى، فهي الخطوة الأولى نحو الإصلاح والتغير قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد : 11] فالنفس اللوامة هي حالة صحية في حياة الإنسان فمن خلالها يتعرف على مواطن الخلل والتقصير ليتداركه بالعلاج فهي حالة الخروج عن العجز والضعف إلى الثورة والغضب لرفض كل منكر ورذيلة لتعيدها إلى نصاب الحق وميزان العدل، قال تعالى : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [آل عمران : 135] فالنفس اللوامة منهج للتغير وقاعدة للإصلاح وهي حماية للنفس من الأمراض والعلل لتتجه إلى الشفاء والصحة، والسلوك القويم على منهج الله تعالى .

هذه هي أحوال النفس الثلاثة التي ذكرها القرآن: المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة.

وهي تمثل النفس في حالاتها المختلفة : من حالة النضج النفسي إلى حالة الهبوط والإرتكاس أو حالة الصراع بينهما لتردها إلى أصالتها وتحفظها من غوائل التدمير والهلاك , وهذه الحالات النفسية ناتجة عن كيفية اشباع الدوافع الفطرية للطاقة الحيوية من الحاجات والغرائز ومدى ارتباطهما بالمفاهيم الاسلامية . فمن خلال هذا الارتباط بين الدوافع الفطرية والمفاهيم تتكون الميول العاطفية وتتشكل النفسية من حيث الإقبال أو الأعراض.

ومن هنا نجد اهتمام القرآن في عملية بناء الأساس النفسي على أساس العقيدة التي تعمل على تصويب توجهات الفطرة الشعورية لتتجه إلى الله تعالى وحده في ميولها النفسية، وتحقق استقامة السلوك .

رابعا : دور الأساس النفسي في بناء العقيدة .

المقصود بالأساس النفسي : هو ارتباط الميول النفسية من المشاعر الوجدانية بمفاهيم العقيدة الإسلامية وما ينبثق عنها من أحكام شرعية، بما يحقق الإذعان النفسي من الاستجابة الشعورية لمقتضياتها الإيمانية والالتزام الإرادي لمتطلباتها الشرعية .

فمعلوم أن الكيفية التي يتم بها ربط دوافع الإشباع لطاقة الحيوية بالمفاهيم الموجودة لدى الإنسان عن الحياة هي التي تكون نفسيته، فالنفسية التي تجعل العقيدة الإسلامية هي الأساس الوحيد لميولها هي نفسية إسلامية، لأن الأساس النفسي لديها مرتبط بالإسلام عقيدة وشريعة .

لذلك كان الأساس النفسي هو أحد ركني العقيدة ومقوماتها الأساسية. فهو الذي يعطي العقيدة عنصرها الإلزامي لتأخذ بعدها الديني كمظاهر لغريزة التدين المستقرة في فطرة الإنسان، وبعدها الروحي في صلتها بالله تعالى، لتكون هذه العواطف الناتجة عن غريزة التدين هي العواطف السائدة والمهيمنة على سائر العواطف الأخرى ولتنتظم بها وفق المفهومية الإسلامية, فبالأساس النفسي تتحول المشاعر من الغريزة العمياء المفرغة من محتواها الروحي والعقائدي ذات التأثير السلبي في حياة الإنسان، إلى مشاعر دينية وروحية لارتباطهما بالعقيدة الإسلامية، ليجعل من هذه المشاعر الدينية ضمانات عملية لأداء مشاق التكاليف والنهوض بأعباء الرسالة الإلهية، لتغدو هذه المشاعر الدينية دوافع قوية ومؤثرة في السلوك باتجاه الاستقامة، ومصدر خير ونفع وسعادة للإنسان والبشرية .

لذلك لا بد أن يكون هذا الأساس النفسي موافقا للفطرة وملبيا لحاجاتها حتى يكون الأساس النفسي صحيحاً .

1. صحة الأساس النفسي .

إن الذي يدل على صحة الأساس النفسي أمرين هما:

أ. استنادها على عقيدة عقلية صحيحة عن الكون والإنسان والحياة .

ب. موافقتها لفطرة الإنسان، أي تقرر ما في غريزة التدين من العجز والنقص والاحتياج إلى الخالق المدبر وتلبية حاجاتها الفطرية بما يحقق لها الطمأنينة والاستقرار الدائم .

ومن المعلوم أن العقيدة الإسلامية هي وحدها العقيدة العقلية الصحيحة التي تقدم تصورا شاملا ومقنعاً عن الكون والإنسان والحياة، وإجابة صحيحة عن الأسئلة المصيرية الكبرى الملحة، وهي وحدها التي تعالج أعمال الإنسان الصادرة عن طاقته الحيوية من الحاجات العضوية والغرائز

بالأحكام الشرعية المنبثقة عن العقيدة الإسلامية معالجة صادقة تنظم الغرائز ولا تكبتها وتنسقها ولا تطلقها، وتهيئ إشباعا متناسقا لجميع حاجاتها الفطرية يؤدي إلى الطمأنينة والسكينة بصورة مستمرة.

2.مسالك بناء الأساس النفسي للعقيدة .

لقد سلك المنهج القرآني بإسلوبه التربوي الفريد في معالجة النفس الإنسانية منهجا في غاية الدقة والإحكام في ضوء معرفته بالنفس وما ينتابها من مشاعر الحب والخوف والرجاء وغيرها ليتخذ منها طريقا نافذا إلى الفطرة الإنسانية في بناء الأساس النفسي للعقيدة . ليصوب توجهات الفطرة الشعورية بمفاهيم العقيدة الإسلامية ليحدث في النفس حالة تأثيرية غلابة من شأنها أن تحقق الإذعان النفسي من الاستجابة الشعورية لمقتضياتها الإيمانية والالتزام الإرادي لمطالبها الشرعية بما يحقق أثرها الفاعل في سلوك الإنسان واستقامته، أما حقيقة هذه المسالك فيمكن أن نجملها فيما يلي :

المسلك الأول: الحب والكره.

المسلك الثاني: الخوف والرجاء.

المسلك الثالث: الترغيب والترهيب.

وأصل هذه المسالك هي : الحب، الخوف، والرجاء، قال تعالى :{ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً } [الاسراء : 57]

فهذه الآية جمعت العواطف الثلاث من الحب والخوف والرجاء، وفي ذلك يقول ابن القيم : (فابتغاء الوسيلة إليه : طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاث التي عليها بناؤه : الحب، الخوف، والرجاء)[90] ويقول أيضا : (وهذه الثلاثة التي تضمنتها هذه الدرجة وهي : الحب والخوف والرجاء، هي التي تبعث على عمارة الوقت بما هو الأولى لصاحبه والأنفع له وهو أساس السلوك والسير إلى الله)[91]

[90]- ابن القيم، مدارج السالكين، ج2، ص35 .

[91]- المرجع السابق، ص133 .

وهذه العواطف الثلاث وما ينبثق عنها من مشاعر وجدانية تتكامل عواطف النفس الإنسانية حينما ترتبط بمفاهيم العقيدة الإسلامية لتبلغ هذه النفس رشدها وفلاحها تهذيبا وتربية وتزكية مصداقا لقوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } [الشمس : 9] .

المسلك الأول : الحب والكره .

إن الحب والكره يعدان من أوسع المشاعر مساحة في النفس الإنسانية والحياة البشرية، حيث يظهران بمظاهر مختلفة، فالإنسان مفطور على حب نفسه فيحرص على بقائه ودوامه، قال تعالى : { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ }[العاديات : 8] كما يحب أن يستمتع بألوان الملذات الحسية والمعنوية، قال تعالى:{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ } [آل عمران : 14] وهو مقابل ذلك يكره كل ما من شأنه تهديد بقائه ودوامه أو ما يحول دون تحقيق رغباته، قال تعالى : { وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [فصلت : 51] .

والقرآن بمنهجه الفريد في ضوء معالجته للنفس ومعرفته بطبيعتها يدخل إليها بما جبلت عليه الفطرة من محابها وأشواقها ليصوب توجهاتها الشعورية من الحب والكره من خلال ربطها بمفاهيم الإسلام عقيدة وشريعة، توجيها وتنظما وتربية، لا كبتا ومصادرة ليحقق الإنسان تعقله وصلاحه واستقامة سلوكه، فإن مشاعر الحب والكره الفطرية إن تركت حرة طليقة من ضوابط العقيدة وتكاليفها الملزمة فإنها حينئذ تصبح تحت تأثير الغريزة العمياء لتجعل من الإنسان عبدا لهواه منقادا لشهواته ضعيفا عن القيام بواجبه التعبدي مهزوما أمام قوى الفساد والطغيان، قال تعالى : { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا }[الفرقان : 43-44] وقال تعالى :{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } [الأعراف :175-176].

لذا جاءت التوجهات القرآنية لتصويب توجهات الفطرة الشعورية من الحب والكره من خلال ربطها بالعقيدة ليقضي على منازع الهوى وسبل الغواية وبواعث التردد والتقهقر، ووقاية لها من الهبوط والإخلاد إلى الأرض والانسلاخ عن الدين، قال تعالى : { إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22) الَّذِينَ هُمْ عَلَى

صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (23) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (26) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ } [المعارج : 19-26] .

فعندما تكون العقيدة هي مصدر هذه المشاعر من الحب والكره لا الغريزة العمياء فإنها تصبح عواطف دينية ملزمة وطاقة روحية فاعلة ومؤثرة في سلوك الإنسان طريق الاستقامة.

وإن هذا الامتزاج المؤتلف بين حقائق الوحي القاطعة وبين مقومات الفطرة الثابتة، هو رفع لشأنها وإعلاء لقدرها، ومساندة لها في تأدية وظيفتها التعبدية، لتكون على مستوى التكريم الإلهي لها.

كما أنه يولد حالة من الفرقان النفسي على حد تعبير القرآن في قوله تعالى : { إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } [الأنفال:29] ليزود الفطرة بملكة مدركة مميزة بين الحق والباطل للقيام بدورها على الوجه الأكمل دون تحايل أو تحريف أو تنقيص بل امتثالا عن طواعيه ومحبة ورضى. ولكي يحقق المنهج القرآني مقصده من تصويب مشاعر الحب والكره إلى وجهتها الصحيحة بما يليق بكرامة الإنسان ويحقق غاية وجوده .

فقد ربط مشاعر الحب بالله تعالى فهو واهب الحياة والمنعم والمتفضل على سائر خلقه، وإن ما يملكه الإنسان من مواهب وطاقات ومزايا هي من عطاء الله تعالى وفضله، قال تعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } [الإسراء : 7] وهو الذي يسر للإنسان كل الإمكانيات اللازمة في هذه الحياة، قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحج : 56] .

ثم إن محبة الله تعالى المرتبطة بعقد الإيمان لا تتحقق دون مقتضياتها الإيمانية من محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ومحبة الإسلام والمسلمين جميعا، قال تعالى : { فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الأعراف : 157] وقال تعالى :{ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات : 7] وقال تعالى : { وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحشر : 10]،

كما أن التوجيه القرآني يعقد الألفة بين المسلم والكون الذي يعيش فيه وما حوله من الكائنات الحية وإلى بني جنسه من البشر قال تعالى :{ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الجاثية: 13] وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات : 13] وهكذا يوجه القرآن مشاعر الفطرة إلى هذا الحب الصافي والمناسب من محبة الله تعالى ونبيه ورسوله ودينه والمسلمين والكون والإحياء ليضع مشاعر الفطرة ضمن وضعها الصحيح ويحفظها من الانحراف والزلل ليحقق لها التكامل والتوازن النفسي لتؤدي دورها اللائق وفق مراده سبحانه وتعالى . وأما مشاعر الكره فإن الإسلام يوجهها نحو قوى الشر بجميع أشكاله وصوره والمتمثلة بدين الكفر واتباعه والمعاصي وأصحابها وفي مقدمتهم الشيطان الذي هو جماع الشر كله والداعية إليه، لذا ينبغي أن توجه طاقة الكره الفطرية إلى كراهية الشر ومن يمثله، قال تعالى: { وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ } [الحجرات : 13] . وقال تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } [الأنعام : 112-113] . وقال تعالى: { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } [يس: 60-61] .

وهكذا عمل القرآن على تصويب توجهات الفطرة الشعورية بما ينتابها من مشاعر الحب والكره من خلال ربطها بالعقيدة الإسلامية وتكاليفها الملزمة لتأخذ هذه العواطف بعدها الديني والروحي المتصلة بالله تعالى في التجرد له بالمحبة وما ينبثق عنها من سائر المحاب الأخرى، وبغض ما يبغضه الله تعالى لتصبح هذه العواطف إستجابة لمقتضيات الإيمان، بما يحقق الإلتزام الإرادي لمتطلباتها الشرعية وهذا من شأنه المسارعة إلى الطاعات والتنافس على القربات، والمبادرة إلى التضحيات، والصبر والثبات في أشد الأزمات، بما يحقق مضامين الرسالة الإلهية بحيث لا تقوى الشهوات الرخيصة والمطامع الشخصية وغرور الشيطان وسائر الإعتبارات المادية من أن تصد المؤمن المحب لربه وما يقتضيه من بغض إعدائه عن المضي في تحقيق ذلك المقصد الأسمى .

وبهذا الامتزاج المؤتلف والارتباط الوثيق بين مشاعر الفطرة من الحب والكره وبين العقيدة الإيمانية وتكاليفها الملزمة، تتولد عاطفة دينية روحية عقائدية من شأنها أن تحمل صاحبها على أداء التكاليف الشاقة وتحمل أعباء الرسالة وتبعاتها محبة واختيارا لا مصادرة وتحكما، ومن شأنها أيضا تغليب تلك العواطف الدينية على منازع الهوى أو تضعف أثرها في إحباط قوى العقل المهتدي بالوحي، ومن شأنها أيضا أن تحمي الفطرة من عوامل الفساد والتدمير ومن تدنيسها بالمعاصي

تبصيرا لها بحالات الغواية وانتهاك الحرمات وكبائر الإثم والنقائص ليردها إلى سلامتها وأصالتها، ومن شأنها أن تحقق لها وعيا ذاتيا وكونيا من التبصرة لمركزها النفسي ودورها وغاية وجودها .وهذا بجملته تنمية لملكاتها، واستثمارا لطاقاتها، وهذا ضرب من معالجة النفس الإنسانية توجيها وتنظيما وتربية [92].

المسلك الثاني : الخوف والرجاء

وهذا المسلك متعلق بعقيدة التوحيد، من الإيمان بالله تعالى وحده. ولقد سلك المنهج القرآني في ضوء معرفته بالنفس الإنسانية بما ينتابها من مشاعر الخوف والرجاء ليجعل منها عواطف دينية وروحية متصلة بالله تعالى لتأخذ بعدها العقائدي في سبيل تحقيق مضامين الرسالة الإلهية بحيث تحررها من أسر الهوى ومتاع الأرض وغواية الشيطان، وتثورها في مواجهة قوى الفساد والطغيان ومقارعه الأهوال والتضحية والاستشهاد في سبيل إعلاء المبادئ السامية والقيم العليا التي كلفه بها الإسلام .

ولذلك عمد المنهج القرآني بعقيدته الإيجابية وتكاليفه الملزمة في معالجة النفس الإنسانية .بما يتعاورها من مشاعر الخوف والرجاء ليصوب توجهات الفطرة الشعورية من الخوف والرجاء .بمفاهيم العقيدة وما ينبثق عنها من أحكام شرعية، تربية وتوجيها واستثمارا لطاقاتها ووقاية لها من العماية والانحراف .بما يحقق للإنسان تعقله واستقامته من الوعي لغاية وجوده، وقيامه بوظيفته العقدية تنمية وعمارة للحياة، ولتحقيق ذلك فقد عمل المنهج القرآني.

أولا : إلى إزالة كل المشاعر الزائفة من الخوف الفاسد والرجاء المنحرف.

ثانيا : عمل على تصويب توجهاتها الشعورية لوجهتها الصحيحة لتجعل خوفها من الله وحده ورجائها كذلك .

أما إزالة المشاعر الزائفة للخوف والرجاء، فمعلوم أن النفس منذ نشأتها ينتابها شعور الخوف والرجاء، فهي ترجو ما تحب وتخاف ما تكره، وهذان الاستعدادان يظهران في حياة الإنسان .بمظاهر مختلفة نوعا وقوة، ولهما تأثر كبير في تحديد سلوكه واتجاهاته في الحياة، ومن أبرز هذه المشاعر ظهوراً قوة ونوعا هي القضايا المتعلقة ببقاء الإنسان ودوامه، وسعادته وشقائه، وهي تنتظم في ثلاثة أمور هي :

---

[92]- راجع: فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، دار قتيبة، ط1، دمشق، 457-471 . محمد قطب، منهج التربية الإسلامية 1/140-148 وابن تيمية، قاعدة في المحبة،ص49-68 ،

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1. الموت 2. الرزق 3. الضر والنفع .

فالإنسان بطبعه الفطري أنه يخاف الموت ويرجو الحياة، ويخاف الفقر ويرجو الغنى، ويخاف الضر ويرجو النفع، وهي ذات تأثير بالغ في توجيه سلوكه بحيث تشكل ضغوطا نفسية تؤثر على سير حياته سلبا وإيجابا، فهي تتجه فطريا إلى من يحقق لها الأمن من جميع مخاوفها، والأمل المرجو في تلبية مطامعها، وهي بذلك عرضة للانحراف عن مسارها إذا تركت لمجرد الغريزة العمياء بعامل الاستهواء النفسي وشبه الظنون العارضة مصداقا لقوله تعالى : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم : 23] مما يشكل خطرا كبيرا على سلوك الإنسان وحياته، لأن الأهواء والأوهام تجعله نهبا لغواية الشيطان وشهوة الجنان وسطوة السلطان، ليقع فريسة سهلة للاستعباد والاستبداد مؤداه استلاب لعقله وعماية لوعيه، وتبديد لطاقاته وملكاته، وهدر لكرامته وإنسانيته، وهذا في جملته تعطيل لدوره وغاية وجوده، وتخلف عن النهضة في جميع ميادين الحياة، ولنبذ هذه السلبية المفرطة بسبب انحراف توجهات مشاعر الخوف والرجاء وخاصة فيما يتعلق بالموت والرزق والضر والنفع إلى غير من يستحقها ومن ثم استغلاله من خلالها، فقد حشد القرآن كثير من آياته في تعرية هذه المشاعر من الخوف الفاسد والرجاء المنحرف، بإزالة التصورات الزائفة ليحرر الإنسان من تلك الضغوط النفسية التي تصيبه بالشلل والعجز، فبين بصورة حاسمة وقاطعة أن هذه الأمور من الموت والرزق والضر والنفع وسواها مما يختص بالله تعالى لا يملكه أحد من الخلق أو البشر قال تعالى: { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا } [الفرقان : 3] وقال تعالى :{ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [العنكبوت : 17] فالقرآن بهذا الإنكار والبطلان بإن أحدا من البشر وغيرهم لا يملك هذه الأمور يزيل كل مشاعر الخوف والرجاء المنحرفة ويبددها ليتحرر من عبودية أمثاله من الخلق والبشر .

أما تصويب توجهات الفطرة الشعورية في خوفها ورجائها إلى الله تعالى وذلك بتقرير هذه الأمور من الموت والرزق والضر والنفع وسائر الأمور الكونية بأن مالكها الحقيقي هو الله تعالى وحده قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا } [آل عمران : 145] وقال تعالى : { هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ } [فاطر :3] وقال تعالى : { مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ } [فاطر : 2] وغيرها كثير من الآيات التي تقتضي من العباد أن تتجه مشاعرهم خوفاً ورجاءً إلى من بيده الملك والتصرف في ملكوت هذا الوجود كله بقدرته المطلقة ومشيئته النافذة، فهو وحده سبحانه من يملك أمور البشر من موت وحياة، ومن يقدر الرزق بين عباده، ومن بيده الضر والنفع، وإنه لمن الجهل والحماقة أن تتجه مشاعر الخوف والرجاء إلى أحد سواه . فهو سبحانه وحده من يستحق أن يخاف ويرتجى. قال تعالى:{ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران:172-175] وقال تعالى : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء:104] .

وبهذا التصويب لمشاعر الفطرة في خوفها ورجائها إلى الله تعالى وحده، ترد الفطرة إلى معدنها الأصيل ليحفظها من العطب والفساد وعوامل التدمير، ويقضي على كافة منازع الجبلة من الخوف والجبن، وبواعث التردد والنكوص، ويعدها لمواجهة الصعاب وتحمل مشاق التكاليف وذلك من خلال إثارة العاطفة الدينية خوفا ورجاء من الله تعالى لتحقق الالتزام الإرادي لأوامر الله تعالى طوعاً واختياراً، والحرص على عدم الإخلال أو التهاون فيها أو التنقيص منها . بل يؤديها بمنتهى الكمال على وجه الإخلاص والتجرد لله تعالى .

وهكذا يصوب المنهج القرآني بأسلوبه التربوي مشاعر الخوف والرجاء إلى الله تعالى جمعا وتوسطا أي يجمع بينهما معا في النفس ثم يسلك سبيلا قاصدا وسطا من الموازنة بينهما وترجيح أحدهما على الآخر بحسب مقتضى الحال والمقام، قال تعالى : { نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } [الحجر : 49-50] وقال تعالى : { يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } [السجدة : 16] وقال تعالى : { وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ } [الإسراء : 57] وآيات القرآن دائرة بينهما على هذا الوزن، ليحقق التوازن والتكامل النفسي، مساندة للفطرة وتقوية لها في القيام بواجب الاستخلاف والعبودية لله تعالى عن طواعية واقتناع لا إكراها أو تحكما أو مصادرة للإرادة الإنسانية الحرة .

وبهذا الارتباط الوثيق بين مشاعر الفطرة من الخوف والرجاء وبين العقيدة الإسلامية تتولد طاقة روحية من شأنها أن تمسك بزمام الخوف من الله تعالى لتزجرها من المعاصي وسيء الأعمال، وأن تمسك بخطام الرجاء في الله تعالى لتقودها إلى الطاعات وصالح الأعمال، إن هذا الامتزاج بين المشاعر الفطرية والقيم الروحية ضرورة حيوية وحتمية لتحقيق مقتضيات الإصلاح الذاتي توصلا إلى مهمته الكبرى من الإصلاح العالمي[93].

المسلك الثالث : الترغيب والترهيب.

وهذا المسلك متعلق بعقيدة الآخرة بما فيها من وعد ووعيد الله تعالى حيث اتخذ المنهج القرآني من (الترغيب والترهيب) أبان معالجته للنفس الإنسانية، طريقا نافذا إلى الفطرة الإنسانية بما جبلت عليه من مشاعر الخوف والرجاء، ليصوب توجهاتها الشعورية من خلال ربطها بالعقيدة الإسلامية وتوجهاتها، ليجعل من هذه المشاعر الفطرية الطبيعية عواطف دينية وروحية متصلة بالله تعالى من وعده ووعيده في الآخرة لتكون ضمانات عملية لأداء التكاليف الشرعية والنهوض بأعباء الرسالة، لتغدو هذه المشاعر مصدر خير ونفع للإنسان والبشرية، وذلك حين تكون العقيدة هي مصدر هذه المشاعر لا الغريزة العمياء، لأنها حين تستند إلى مجرد هذه الغريزة الفطرية فإنها تكون مفرغة من محتواها الروحي والعقائدي مما يجعل تأثيرها بالضرورة تأثيرا سلبيا سواء في حالة وجود مشاعر الخوف والرجاء أو انتفائها، ففي حالة وجود الرجاء الغريزي المجرد من العقيدة فإنه يكون أماني باطلة وغرور وأما في حالة انتفائه فيأس وقنوط،، وكلا الحالتين شر وفساد يعطل الطاقات ويصرف عن سنن الوجود، وكذلك الخوف الغريزي المجرد من العقيدة، ففي حالة وجوده فإنه يكون هلع وجبن ومهانة وذل، وأما في حالة انتفائه فطغيان وظلم وفساد كبير .

ومن هنا يظهر جليا أثر العقيدة ودورها الإيجابي في تحقيق التكامل والتوازن النفسي من خلال ربط هذه المشاعر من الخوف والرجاء بالعقيدة الإيمانية رغبة ورهبة بوعد الله ووعيده في الآخرة ، ثم الجمع والمزاوجة بينهما أي الترغيب والترهيب بحيث لا ينفرد أحدهما دون الآخر في النفس بل يجمع بينهما وقد يغلب أحدهما على الآخر بحسب المواطن ومقتضيات الأحوال وصولا إلى

93- راجع : دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، فتحي الدريني، ج2، ص 451 -558 . ومحمد قطب، منهج التربية الإسلامية 1/129-131، يوسف القرضاوي ،الإيمان والحياة، 151-153 ، محمد الصباغ، الإنسان في القرآن الكريم ، 62-68.

التكامل والتوازن النفسي، وبما يحقق لدى المسلم عنصر الالتزام لأوامر الله تعالى ولتكون طاقة روحية هائلة من شأنها أن تحمل الإنسان على أداء التكاليف الشاقة بجد ونشاط وتلذذ واشتياق، ومقارعة الأهوال والصبر والثبات في المواقف الحيوية الحاسمة من غير وهن أو تردد أو تقاعس قال تعالى : { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [السجدة : 15-17] وقال تعالى : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء : 104] وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ } [التوبة :38]. وقال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة:11].

ونلاحظ هذا الربط الوثيق بين التكاليف الشرعية وبين مشاعر الترغيب والترهيب في كثير من آيات القرآن ليكشف عن منهجه المكرر تكرارا تتلازم في أعماق النفس مما يوحي هذا الربط المكرر بمقصده الأسمى بأنه لا يكتفي بمجرد المعرفة النظرية ولا مجرد التأثيرات العاطفية لتبقى مجرد وعيا ذاتيا وشعورا وجدانيا مفرغا من محتواه العملي ومقتضياته التعبدية،وإنما قصد من هذه المؤثرات الفكرية والنفسية هي أن تحدث آثارها السلوكية لتكو سلوكا اعتقاديا وممارسة إيمانية واقعية .

ولذلك نجد القرآن بمنهجه التربوي القويم عمل على تفعيل العقيدة عمليا وواقعيا حين ربط مشاعر الترغيب والترهيب بمقتضاها العملي التعبدي عقد الشرط بالجزاء مصداقا لقوله تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا }[الكهف:110]. وقال تعالى : { فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } [النازعات:37-41] .

وان هذا الربط المكرر في القرآن بمنطقه ومفهومه بين مشاعر الخوف والرجاء العقائدي من الترغيب والترهيب بوعد الله ووعيده في الآخرة وبين العمل الصالح الذي يقوم على اقتران الشرط بالجزاء ليدل على أن الإنسان في ضوء الحكمة القرآنية إنه يحيا للأمل المشوب بالخشية والعمل

الصالح: أشرفه وأحسنه وأجوده ليكون تعبيرا واقعيا عن المثل العليا وأمهات الفضائل التي صدق بها فكرياً وأذعن لها نفسيا مصداقا لقوله تعالى: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل:5-10] .

وعليه فإنه بمقتضى المنطق القرآني ليس هناك رجاء يرتجى فيستجاب أو خوفاً يحقق الأمن إذ كان مقطوعاً عن أساسه من العمل الجاد المثمر، وإلا كان مفرغا من محتواه القرآني الذي أفاده النص، ومضمونه العقائدي المقترن اقتران الشرط بالجزاء، ليصبح ضربا من الأماني الكواذب التي تعطل الطاقات الإنسانية، وملهاة تصرفها عن تعقل سنن الحياة والوجود، لذا فإن العمل الصالح والذي عبر عنه القرآن بالعطاء المطلق هو المسوغ للاستجابة لهذا الرجاء والأمل وهو مبرر الاستحقاق للعون الإلهي من التيسير لليسرى أو الجنة، كما أن التحول عن العمل الصالح والعطاء المطلق إلى النقيض من العمل السيئ والبخل والأنانية هو في المفهوم القرآني أثم كبير وفساد عريض معطل للطاقات والسنن، لذا جاء التخويف مقارنا له من سوء العاقبة وهو التيسير للعسرى أو النار[94] .

وهكذا هو منهج القرآن في معالجة النفس الإنسانية يسلك بأسلوبه التربوي مسلك الترغيب والترهيب بوعد الله ووعيده في الآخرة تأديبا وتربية، وتوجيها وتوعية، استثمارا لطاقاتها وتنمية لملكاتها من خلال ما جبلت عليه الفطرة الإنسانية من الرجاء المشوب بالخشية والحذر المترقب لتقوم بأداء التكاليف وتنهض بالمسؤولية عن طواعية واقتناع، وليس تحكما ولا مصادرة لحرية النفس وإرادتها، وإنما هي سنة الابتلاء التي قدرها الله في حياة البشر لحكمة إلهية يقصد من ورائها ثمرة عملية سلوكية خالصة له وحده تعالى ، وموافقة لمراده توصلا إلى أحسن الأعمال مصداقا لقوله تعالى : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الملك : 2] .

[94]- راجع : دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، فتحي الدريني،ص 450-503 . ومحمد الغزالي ، مع الله في الدعوة والدعاة، ص433 ، محمد قطب، منهج التربية الإسلامية ، 129-131 ، الشاطبي ، الموافقات 3/355-361

- المبحث الثالث -

طريقة تأسيس المعتقد الإيماني

إن العقيدة التي تحظى بالرضي والقبول عند الله تعالى وبها ينال العبد الفوز والنجاة,هي العقيدة الصادرة من مقررات الوحي الإلهي، والمتمثل في القران والسنة، وعليه فان مقتضى الحكمة ومنطق البداهة يستوجب لمن أراد أن يلقى الله بمعتقد صحيح مرض ، فعليه أن لا يتلقى مقرراتها إلا من لسان الشارع, ليكون هو وحده الناطق بمدلولها والمعبر عن حقيقتها والمبين لعناصرها والضابط لحدودها والموضح لمضامينها، حتى إذا تأسست في قلب العبد معتقداً إيمانياً وأثمرت سلوكاً إسلامياً وفق هذه الاعتبارات المحددة بنصوص الوحي الإلهي ، ثم وضعت في ميزان الشرع كانت مطابقة ومستوفية لشروطها محققة لمضامينها. فإذا لقينا الله بها حظيت عنده سبحانه وتعالى بالرضي والقبول وحققنا الفوز والفلاح وإلا صدق علينا قوله تعالى : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا } [الكهف:103-104] ومن هنا تظهر اهمية هذه القضية و خطورتها لارتباطها بحياة الإنسان ومصيره,ولأثرها الكبير على واقع الحياة الإنسانية ، لذا فان منطق الضرورة يقتضي دراستها دراسة تحليلية بجميع عناصرها ومراحلها, ومعرفة طبيعة كل عنصر ومرحلة من حيث قيمته ودوره وموقعه ضمن المنظومة العقدية المتكاملة, ومراعاة ذلك حين تأسيس المعتقد الإيماني وبنائه حيث أن العقيدة منظومة متكاملة الحلقات مترابطة العناصر متصلة الأجزاء بحيث لا يمكن الاستغناء عن احدها بحال وإلا أصابها الخلل والانحراف وكانت مرفوضة عند الله تعالى و لم تصمد أمام وقائع الحياة، ومشاق التكاليف ، مصداقاً لقوله تعالى : { أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [التوبة :109] . فالعقيدة في مفاد النص القرآني منظومة متكاملة البناء تقوم على أسس ثابتة لتشمل الكيان الإنساني كله فكره وشعوره بحيث تحقق أثرها الفاعل في السلوك مصداقا لقوله تعالى : { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى }[الليل:5-10].

وعليه فان العقيدة بمقتضى المنطق القرآني الذي أفادته النصوص القاطعة يقوم على التصديق الفكري أولاً : كما في قوله : { وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} . والإذعان النفسي ثانيا : كما في قوله : { وَاتَّقَى } وإن العمل الصالح أو العطاء المطلق : كما في قوله : { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى } هو ثمرة هذا البناء المتين والأساس القويم ، وهو مسوغ الاستجابة لهذه العقيدة وهو المبرر لاستحقاق العون الإلهي من التيسير لليسرى وهي مرضاة الله وثوابه من الخلود في نعيم الجنة . كما أن التحول عن العمل الصالح والعطاء المطلق الى النقيض من العمل السيء والذي هو نتاج مرض نفسي وانحراف فكري من البخل والأنانية ، والتكذيب للحق ورفضه ، فهذا يعدّ إثم كبير وتعطيل لسنن الحياة ، لذا كانت مسوغ لسوء العاقبة والمصير .

فالعقيدة ليست مجرد معرفة تصديقيه لا تتفاعل مع حركة الشعور والوجدان أو مقطوعة الصلة من محتواها العملي ومقتضياها التعبدية أو معزولة عن الحياة وواقع البشر, بل هي حالة من الانعقاد الفكري والنفسي لتنتج طاقة روحية هائلة من شانها أن تحمل صاحبها على أداء تكاليفها وتطبيق مضامينها و تحمل تبعاها عن طواعية ومحبة ورضي واقتناع .

نخلص من هذا إلى أن العقيدة بناء محكم متين يقوم على أسس ثابتة ويستند على أصول قاطعة فإذا ما تكونت في قلب العبد فكريا ونفسيا بصورها الصحيحة وفق منهج الوحي الإلهي أنتجت سلوكا مستقيما مثمرا , وإذا تحققت في الأمة مجتمعا ودولة , أفرزت نهضة وحضارة .

ولقد حققت العقيدة دورها وفاعليتها في جيل الصحابة حينما كان استمدادهم لهذه العقيدة من مقررات الوحي الإلهي وكان الرسول صلى الله عليه وسلم هو القدوة والمربي وان مجرد النظر إلى سر التحول العجيب والى تلك النقلة النوعية البعيدة الأثر التي شكلت حياهم وغيرت واقعهم يمكن أن ندرك مدى الأثر والفاعلية للعقيدة في نفوسهم والتي صنعوا بهذه التربية الإيمانية العظيمة تاريخا مشرقا وحضارة مجيدة . لأن عقيدهم كانت تستمد من مشكاة القرآن وتستضيء بسراج النبوة ، لذلك كانت عقيدة فيها حرارة الإيمان ونور الإسلام وليست عقيدة باردة مظلمة .

وبناء على ذلك كان التركيز على عملية التأسيس والبناء للعقيدة بصورها الفاعلة والمؤثرة في سلوك المسلم وواقع حياته ضرورة يفرضها منطق العقل والواقع ، وهذا يتطلب دراسة تحليلية لمدلول العقيدة وعناصرها في ضوء مقررات الوحي الإلهي وتتبع سير حركتها داخل النفس بجميع مراحلها

مما يعيننا في كيفية تأسيس المعتقد الإيماني للشخصية الإسلامية فكريا ونفسيا لتحقيق آثارها السلوكية في استقامة الفرد والمجتمع .

ويمكن دراسة العقيدة دراسة تحليلية من خلال مفهوم العقيدة الذي قدمناه - سابقا - وهو { التصديق الجازم } المطابق للواقع عن دليل المؤدي الى التسليم المطلق لكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب إجمالا وما ثبت بالدليل القطعي تفصيلا مع موافقة المشاعر النفسية لمقتضياها الإيمانية المؤدي إلى الالتزام الإرادي لكافة متطلباها الشرعية على وجه الإخلاص والإتباع } ومن خلال هذا التعريف لمفهوم العقيدة يمكن تحليل عناصر العقيدة وما يتفرع عنها ، وبيان مراحلها وفق خطواها المتدرجة ، بحيث تتضح المنظومة العقدية بصورها المتكاملة ونتعرف على الحقيقة الإيمانية التي ينبغي أن تتحقق في الشخصية الإسلامية تأسيساً وبناءً وتكويناً ، لتحقق بذلك أثرها وفاعليتها في سلوك الفرد وواقع الحياة الإسلامية والإنسانية .

- نظرات تحليلية لمفهوم العقيدة الإسلامية لبيان طريقة تأسيس المعتقد الإيماني فكريا ونفسيا.

ويمكن بيان هذه العناصر من خلال النظر للشكل المرفق لتوضيح المنظومة العقدية بجميع عناصرها ، ثم الشروع في بيان هذه العناصر بنوع من التفصيل الموجز على النحو الآتي :

- أولا : التصديق الفكري، وهو يتضمن :

أ . التصديق بالمعقول : وهو يتعلق بالمحسوس والمحسوس أثره بحيث تشمل :

1- العلم : المنافي للجهل .

2- المعرفة : المنافية للإنكار والجحود .

3- التصديق : المنافي للتكذيب .

4- الجزم : المنافي للظن والشك والوهم المتعلق في المعقولات .

5- مطابقة الواقع : المنافي للفساد ومخالفة الحقيقة .

6- الدليل العقلي : المنافي للتقليد في الأمور العقلية .

ب . التسليم بالمنقول : وهو المتعلق بالغيب (غير المحسوس ولا المحسوس أثره) وهو يشمل :

1- الدليل النقلي : المنافي للتقليد في الأمور النقلية الغيبية .

2- الجزم : المنافي للظن وما دونه المتعلق في المنقولات .

3- التسليم : المنافي للاعتراض .

4- الكلية : المنافي للتجزئة .

5- الفهم : المنافي للجهل .

- ثانيا : الإذعان النفسي، وهو يتضمن :

أ . الاستجابة الشعورية للمقتضيات الإيمانية، ومن أبرزها :

1- المحبة : المنافي للبغض .

2- الخوف : المنافي للأمن .

3- الرجاء : المنافي لليأس .

ب . الالتزام الإرادي للمتطلبات الشرعية، وهو يتضمن :

1- القبول : المنافي للإعراض .

2- الخضوع : المنافي للكبر .

3- الرضى : المنافي للسخط .

- ثالثا : شروط صحة المعتقد الإيماني :

1- الإخلاص : المنافي للشرك والنفاق .

2- الإتباع : المنافي للمخالفة من البدع الكفرية [95].

---

[95] - (انظر الشكل -1-)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الشكل -1- :

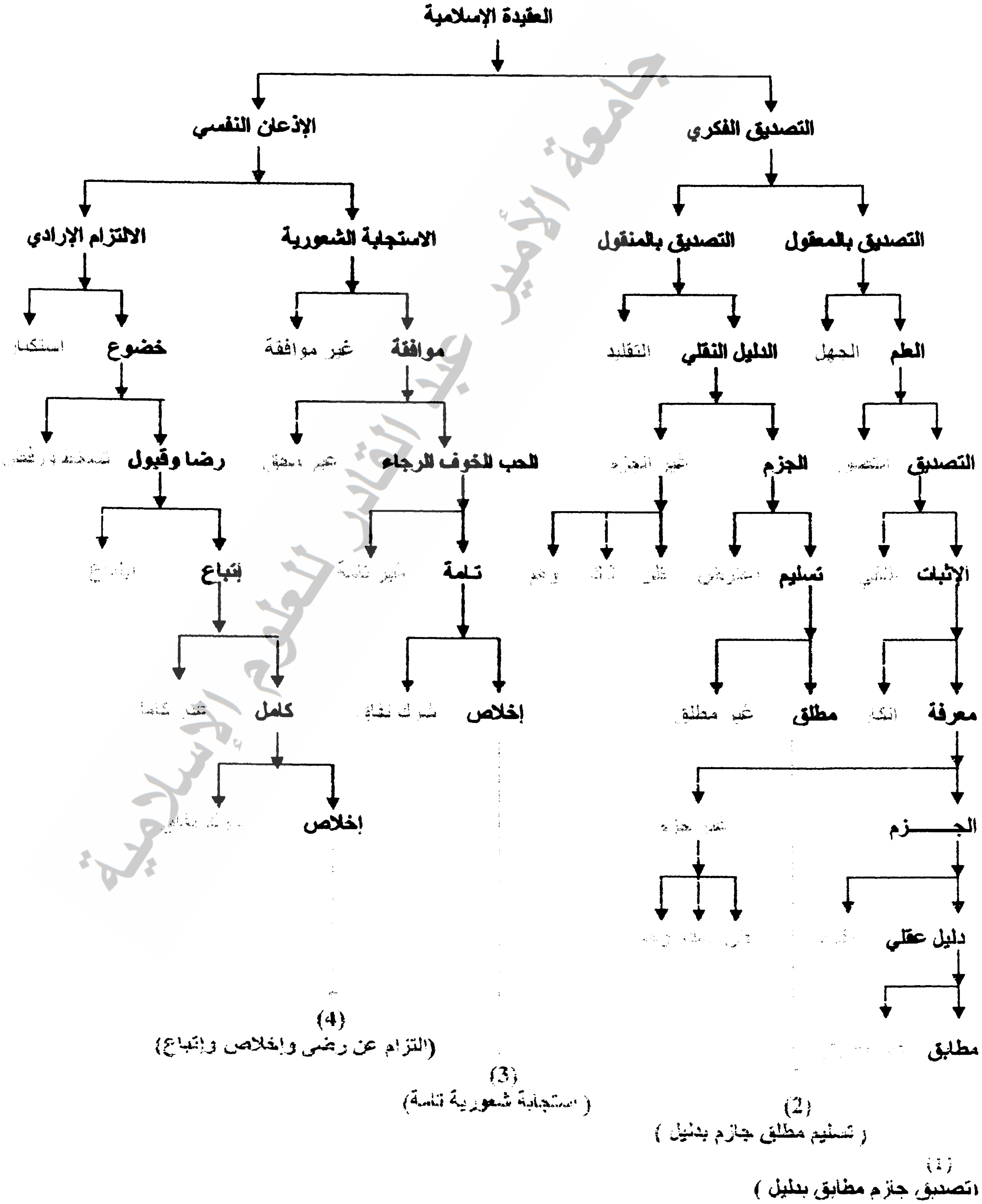

رسم توضيحي لبيان طريقة تأسيس المعتقد الإيماني فكرياً ونفسياً

– المطلب الأول : تأسيس المعتقد الإيماني فكريا .

إن الإسلام عقيدة وأحكاما كله أفكار لها مفاهيم يدركها العقل مباشرة، أو يدرك ما دل عليها قطعا. فلا يوجد في الإسلام أي فكر إلا وله مفهوم، أي واقع في الذهن، مدرك عقلاً، أو مسلم به تصديقاً جازماً وله واقع في الذهن مدرك ما دل عليه عقلاً , ولذلك لا توجد في الإسلام مغيبات بحته، والمغيبات التي أمر الإسلام بالإيمان بها ليست غيبية بحتة، وإنما هي مغيبة موصولة بالعقل، بإدراك العقل لما دل عليها وهو القرآن والحديث المتواتر، وعلى ذلك كان الإسلام كله واقعا موجوداً في الحياة الدنيا، لأن لكل فكر فيه واقعاً في ذهن الإنسان، مستنداً إلى الحس، مستنداً إلى العقل .

ومن هنا كان العقل هو الأساس الذي يبني عليه الإسلام عقيدة وأحكاماً، وكانت عقيدته وأحكامه أفكاراً لها واقع، أي يدركها العقل إدراكاً واقعياً لا فرق في ذلك بين المغيبات والمحسوسات، ولا بين الأحكام على الأشياء وهي الأفكار، وأحكام الأشياء وهي المعالجات، أو الإخبار بالأشياء أو عن الأشياء . فالأفكار والمحسوسات كلها وقائع لها واقع في الذهن مستنداً إلى العقل أو الإدراك أو الفكر .

فالعقيدة الإسلامية كلها مفاهيم قطعية الوجود، قطعية الدلالة، لها واقع في ذهن المسلم يحس به، أو يحس بما يدل عليه، وبهذا يكون لها التأثير الفعال عليه. وأما الأحكام الشرعية فهي مفاهيم لها واقع في الذهن، لأنها علاج محسوس، لواقع محسوس فُهم من نص محسوس، فهي مفاهيم, وعلى هذا فإن العقيدة الإسلامية والأحكام الشرعية، ليست معلومات للحفظ ولا أفكار مجردة للمتعة العقلية، وإنما هي مفاهيم دافعة للعمل، وجاعلة سلوك الإنسان متقيداً بها، متكيفاً بحسبها، ومن هنا كان الإسلام كله مفاهيم تعالج الإنسان وسلوكه وليست مجرد معلومات [96].

وعليه فإن الوصول إلى الحقيقة الإيمانية لا بد أن يستند إلى أسس عقلية صحيحة من أجل تحقيق القناعة الفكرية اليقينية، وذلك ابتداء من التصديق بالمعقول فيما هو مقدور العقل أن يدركه مباشرة، إلى التسليم بالمنقول فيما يعجز العقل عن إدراكه مباشرة وإنما تستند إلى ما دل العقل عليها جزماً دون أي ارتياب، وبذلك يتحقق تأسيس المعتقد الفكري الذي يقوم على الأدلة اليقينية من

[96]– راجع محمد محمد اسماعيل، ايقاظ الفكر، تحقيق هشام البدراني، دار السلام، الزرقاء، 2005، ص 107-109 .

المعقول والمنقول والذي من خلالهما تكتمل المعرفة الإنسانية بالحقيقة الإيمانية، أما كيفية تحقيق القناعة الفكرية أو المعرفة التصديقية للعقيدة فهذا ما سنبينه على النحو الآتي .

- **التصديق الفكري.**

إن تأسيس المعتقد من الناحية الفكرية يبدأ بالعقل من حيث انتهى أي من التفكير العقلي المؤدي إلى التصديق إلى التلقي الفكري المؤدي إلى التسليم.

فمعلوم أن هناك فرقا واضحا بين التصديق بالمعقول والتصديق بالمنقول.

ـــ أما التصديق بالمعقول : وهو الذي في مقدور العقل إدراكه مباشرة، وهو يكون مجاله في الواقع المحسوس أو المحسوس أثره، فأما المحسوس فيتم بالإدراك الحسي وأما المحسوس أثره فيتم بالاستدلال العقلي، وعليه فإن موضوعات العقيدة التي لها واقع محسوس أو محسوس أثره يكون دليلها دليلا عقلياً وهو قابل للمنازعة الفكرية والمحاكمة العقلية لأن طريقه هو البحث والنظر والاستدلال، فإذا كانت أدلتها قطعية تحققت القناعة الفكرية والتصديق العقلي بها، وأما موضوعات العقيدة التي يكون دليلها عقلياً وتتم عن طريق التصديق العقلي فهي : وجود الله ووحدانيته، وكون القرآن هو كلام الله المعجز، وأن محمد هو رسول الله، فهذه الثلاثة يدركها العقل مباشرة [97] . ويتحقق التصديق العقلي الجازم بها من خلال أدلتها العقلية القطعية، ومن ثم تصبح واقعاً موجوداً في الذهن مستنداً إلى العقل، وأنه لا ينكرها إلا من خرج عن منطق البداهة ومقتضى العقل، ولذلك نجد أن القرآن قد جادل فيها وعمل على إثباتها وتقريرها، وقدم للعقل نموذجا فريداً في المجادلات العقلية، توصل العقل إلى القناعة اليقينية بأسهل الطرق وأقواها وأقصرها وأثبتها من غير تكلف وعناء، بحيث يستوعبها كل العقلاء، فكان فيها الكفاية والاستغناء عن غيرها في إقامة الحجة وبيان المحجة .

ـــ أما التصديق بالمنقول : وهو الذي لا يكون في مقدور العقل إدراكه مباشرة، وإنما يدركها بما دل عليه عقلاً، لأن مجاله عالم الغيب الذي هو وراء الحس، فالعقل يعجز لأنه لا يملك أدوات الوصول إليه بذاته مستقلاً إلا عن طريق الخبر النقلي الثابت من الوحي الإلهي المقطوع بوجوده وصدقه بدلالة العقل، فالمغيبات في الإسلام ليست مغيبات بحتة، وإنما هي مغيبة موصولة بالعقل، بإدراك العقل لما دل عليها وهو القرآن والحديث المتواتر، وهذه المغيبات التي لا يدركها العقل مباشرة هي بقية أركان الإيمان من الإيمان بالملائكة والكتب السماوية غير القرآن والأنبياء والرسل

---

[97] - راجع المرجع السابق، ص 108 .

غير محمد صلى الله عليه وسلم، واليوم الآخر، فهذه موضوعات العقيدة الغيبية التي لا يدركها العقل مباشرة لذلك فهذه أدلتها أدلة نقلية يتم التصديق بها بإخبار القرآن والحديث المتواتر بها الذي شهد العقل لهما بالثبوت والصدق، وعليه فإن موضوعات العقيدة المتعلقة بعالم الغيب يتم التصديق بها عن طريق ثبوت الخبر المنقول عن المقطوع بوجوده وصدقه ويحصل هذه التصديق بها تسليماً بالأدلة النقلية الثابتة وهي غير قابلة للمحاكمة العقلية والمنازعة الفكرية لأن العقل تلقاها بالتسليم والقبول بعد ثبوت سندها ولا مجال للعقل فيها بالبحث والنظر لأنها من قضايا الغيب، حيث ينتهي دور العقل بعد التصديق العقلي الجازم بصحة مصدرها من الحكم إلى التسليم والفهم [98].

فبمجرد الانتهاء من مرحلة التفكير العقلي والانتقال إلى مرحلة التلقي الفكري يصبح دور العقل هو الفهم لفحوى الخطاب الإلهي ودلالته وليس له منازعته أو الحكم عليه، لأن هذا هو مقتضى الإيمان بالغيب وهي الصفة الأولى للمؤمنين كما في قوله تعالى : { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة : 2-3] ولا يتحقق هذا الإيمان إلا بالتسليم المطلق في تلقي مقررات الوحي الإلهي من غير محاكمة ولا منازعة عقلية، قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا }[الأحزاب : 36] وقال تعالى :{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء :65] .

وبناء عليه فإن تأسيس المعتقد الإيماني لا يتحقق من الناحية الفكرية إلا بالتصديق الجازم والتسليم المطلق، وليس أي تصديق أو أي تسليم بل لا بد من الجزم والقطع من غير احتمال الريب أو الشك فيها، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان الدليل نفسه دليلاً قاطعاً وجازماً موصلاً إلى اليقين سواء كان دليلا عقلياً أو نقلياً، وهذا ليس محض رأي أو اجتهاد بل هو ما قطع به القرآن في كثير من نصوصه, قال تعالى : { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } [البقرة : 4] . وقال تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } [الحجرات : 15].

فهذا هو مسلك القرآن في تأسيس المعتقد الإيماني من الناحية الفكرية حيث يسلك طريق المعقول والمنقول وذلك بحسب موضوع العقيدة، فموضوع العقيدة هو الذي يعين نوع الدليل عقلياً أو نقلياً، فإن كان موضوع العقيدة مما له واقع محسوس أو محسوس أثره ويدركه العقل مباشرة فإن

98- راجع : عز الدين هشام، مناهج الأدلة في بحث أسماء الله وصفاته، دار الكتاب الثقافي، ص 124 .

دليله يكون دليلاً عقلياً، كالإيمان بالله وبالقرآن وبنبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فهذه الثلاثة دليلها عقلي . لأن العقل يدرك واقعها مباشرة بالحس قطعا، ولها واقع محسوس بالذهن ويكون التصديق بها تصديقاً عقلياً. وأما إن كان موضوع العقيدة مما لا يقع عليها الحس ولا يدركها العقل مباشرة فإن دليلها يكون دليلاً نقلياً، كالإيمان بالملائكة والكتب والأنبياء واليوم الآخر، فهذه الأمور يكون دليلها نقلياً بإخبار القرآن والحديث المتواتر المقطوع بهما، ووجب التسليم المطلق بكل ما ورد فيهما من أخبار من غير نزاع عقلي أو نظر واستدلال لأنها من الأمور الغيبية التي لا مجال للعقل إدراكها إلا بالخبر الصادق الذي قطع العقل بصحة مصدره وصدقه .

فحقيقة العقيدة من الناحية الفكرية أنها تصديق جازم لما يقوم بالعقل من براهين قاطعة وأدلة ثابتة، وتسليم جازم لما يقوم بالنقل والسمع من أدلة قاطعة عن طريق صحة السند وثبوته.

وعليه فإن العقيدة الإسلامية كلها مفاهيم قطعية الوجود قطعية الدلالة لها واقع في الذهن يحس بها المسلم أو يحس بما يدل عليه، وبهذه المفاهيم العقدية تتكون عقلية المسلم ويكون لها تأثير فاعل في شعوره وسلوكه تصويباً وتوجيهاً واستقامةً ، لتحقق أثرها الإيجابي في واقع حياته . وعلى هذا فإن التصديق الفكري في تأسيس المعتقد الإيماني ينقسم إلى قسمين وهما :

أولاً : التصديق بالمعقول : (التصديق العقلي الجازم) .

ثانياً : التسليم بالمنقول : (التسليم النقلي المطلق) .

أولاً : التصديق بالمعقول .

لقد خص الله الإنسان بميزة العقل ، وجعله مناط التكليف، وسبباً في اكتساب العلم، وأداة في تكوين المعرفة، وطريقاً لتأسيس الاعتقاد من خلال تحصيل الأدلة القطعية، ابتداء من المدركات الحسية للمشاهدات الواقعية من الدلائل الكونية، قال تعالى :{ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون } [الذاريات:20-21]. ومن قرأة الآيات المعجزة في الكون ينتقل العقل من الإدراك الحسي إلى الإدراك العقلي، حيث يترجم العقل هذه المدركات الحسية إلى حقائق يقينية من خلال الاستنتاج والاستدلال ليصل بها إلى المعرفة التصديقية الجازمة المستندة إلى الدليل العقلي القطعي مع مطابقتها للواقع، وصولا إلى الحقيقة الإيمانية فيما يتعلق بموضوعات العقيدة التي طريقها العقل من الإيمان بالله ومعجزة القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا استخدم العقل الأسس المنهجية الصحيحة في التفكير تحقق له التصديق الجازم المطابق للواقع على دليل، وهذه

القناعة الفكرية يستلزم التسليم المطلق لمقررات الوحي الإلهي قرآناً وحديثاً متواتراً ، لينتقل العقل من التفكير العقلي إلى التلقي الفكري أي من التصديق الجازم إلى التسليم الجازم .

وبناء عليه فإن التصديق بالمعقول هي المقدمة الضرورية ليصل منها إلى التسليم بالمنقول . أما الأول وهو التصديق بالمعقول فهو قابل للمنازعة الفكرية لأن مجاله الواقع المحسوس والمحسوس أثره حيث يجري التفكير العقلي بالإدراك الحسي للواقع المحسوس من كون وإنسان وحياة ليستدل بالإدراك العقلي من خلالها باعتبارها دلائل كونية حسية مدركة بالحس والعقل على موجدها وخالقها من حيث وجوده ووحدانيته قطعا، أما من حيث حقيقة هذا الخالق ومراده فهذا لا مجال للعقل من إدراكه مستقلا بذاته إلى من خلال طريق النقل الخبري من جهته سبحانه وتعالى، وذلك لأن مجالها عالم الغيب الذي هو خارج دائرة المحسوس والمحسوس أثره ، فكان العقل بذلك عاجزا عن إدراكه إلا بالخبر النقلي الصادر عن الخالق لهذا الكون، ومن هنا أصبح طريق النقل حاجة يفرضها المنطق العقلي والواقعي بداهة ، لاكتمال المعرفة الإنسانية للحقيقة الإيمانية مما اقتضى إرسال الرسل المؤيدين بالمعجزات ، وهذه الوساطة الخبرية مجالها الحس والعقل أي صدق النبوة والمعجزة المؤيدة له ، وهذا يمكن التحقق منها بوساطة العقل لذلك كانت المعجزة القرآنية مدركة بالحس والعقل الدالة على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أي أن الإيمان بالله تعالى والقرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم قد حصل بناء على إدراك العقل حسا بوجود الله ووحدانيته وإدراك العقل حسا أن القرآن كلام الله تعالى ، وإدراك العقل حسا بأن محمدا نبي الله ورسوله بإدراكه حسا أنه هو الذي جاء بالقرآن كلام الله المعجز للبشر فهذه الأشياء الثلاثة قد أدرك العقل مباشرة واقعها بواسطة الحس والعقل قطعا [99] . وهي تخضع للعملية العقلية المحضة حيث يجري فيها التفكير من خلال الإدراك الحسي والاستدلال العقلي بالبحث والنظر ، لذا فهي قابلة للمنازعة الفكرية والمحاكمة العقلية حتى تتم القناعة الفكرية من المعرفة التصديقية الجازمة المطابقة للواقع عن دليل ، ولذلك نجد أن القرآن قد جادل فيها وعمل على إثباتها وتقريرها كما هو معلوم في كثير من آياته ، حيث دعا العقل إلى النظر والاستدلال من خلال الوقع المحسوس في الكون ونظامه لدلالة على وجود الله تعالى ووحدانيته والنظر والاستدلال من خلال الواقع المحسوس للقرآن بما فيه من إعجاز لدلاله على أنه كلام الله تعالى ، والنظر والاستدلال من خلال الواقع المحسوس لنبوة محمد في كونه من جنس البشر فهو عاجز مثلهم في الإتيان بمثل القرآن وأنه جاء بالقرآن من عند الله ،

---

[99] - راجع : إيقاظ الفكر ، محمد محمد إسماعيل ، ص 108 .

فكانت معجزة القرآن دالة على صدق نبوته فيما يبلغ عن الله تعالى ، قال تعالى : { أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا } [النساء : 82] .

ومن هنا فان الكون المنظور والكتاب المسطور هما منافذ العقل ليصل من خلالهما إلى التصديق العقلي الجازم المطابق للواقع عن دليل بوجود الله تعالى ووحدانيته وإلى أن القرآن منزل من عند الله تعالى, بعد ثبوت معجزته للعقل ليدل دلالة قاطعة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وثبوت رسالته، ليقوده هذا التصديق العقلي الجازم إلى التسليم النقلي المطلق لمقررات الوحي الإلهي بما تضمنه من إخبار عن أمور الغيب التي يعجز العقل عن معرفتها إلا من هذا الطريق الثابت، ويقتضي هذا من العقل التسليم من غير منازعة ولا نظر بكل ما يخبر به الوحي عن أمور الغيب من ملائكة مطهرة وكتب منزلة، وأنبياء مرسلة ويوم الآخرة، وهذه الأخبار الغيبية، في حقيقتها ليست مغيبات بحتة وإنما هي مغيبات مستندة إلى العقل أي بإدراك العقل لما دل عليها وهو القرآن المعجز والحديث المتواتر، وعلى ذلك كان الإسلام عقيدة وشريعة كله واقعاً موجوداً ، وكله أفكار وهذه الأفكار لها مفاهيم أي واقع في الذهن مدرك عقلاً أو مسلم به تصديقاً جازماً وله واقع في الذهن مدرك ما دل عليه عقلا [100] .

وعليه فإن التصديق (بالمعقول) مقدمة ضرورية لحصول التسليم (بالمنقول) والذي هما فقط تكتمل المعرفة الإنسانية بما يحقق القناعة الفكرية أو التصديق الفكري الجازم في تأسيس المعتقد الإيماني تصديقا وتسليما من الناحية الفكرية ووصولا إلى الإذعان النفسي استجابة والتزاماً، من الناحية النفسية، وحتى يتم هذا التصديق العقلي بصورته اليقينية الجازمة والمطابقة للواقع بدليل، كان لا بد من توافر عدة عناصر أساسية لا يمكن الاستغناء عنها من أجل تحقيقه وهذه العناصر هي :

1. العلم المنافي للجهل .
2. المعرفة المنافية للإنكار أو الجحود .
3. التصديق المنافي للتكذيب .
4. الجزم المنافي للظن وما دونه .
5. المطابقة المنافية للفساد .
6. الدليل المنافي للتقليد .

[100] - راجع : المرجع السابق نفسه، ص 107 .

إن هذه العناصر الستة عناصر ضرورية لتحقيق التصديق العقلي، حيث نبين كل عنصر من هذه العناصر والكشف عن دوره في تأسيس المعتقد الإيماني من الوجهة الفكرية .

1. **العلم** : وهو نقيض الجهل [101] . وهو إدراك الشيء على حقيقته أي (إدراك ما من شأنه أن يعلم على ما هو به في الواقع [102] . فهو ما يحصل في الذهن من تمثل الواقع المحسوس أو المحسوس أثره بالحكم عليه وهو على ضربين [103]:

الأول : التصور [104] أو الإدراك الحسي: وهو تمثل الواقع في الذهن من غير أن يحكم عليه بنفي أو إثبات، فهذا النوع من العلم يضاده الجهل، وأما مجاله فهو الواقع المحسوس، وطريق تحصيل العلم به هو الإدراك الحسي .

الثاني : التصديق [105] أو الإدراك العقلي (المعرفي): وهو تمثل الواقع في الذهن والحكم عليه بالنفي أو الإثبات، وهذا النوع من العلم هو المعرفة ويضاده الجحود أو الإنكار القلبي [106] وهذا مجاله الواقع المحسوس أثره، وطريق تحصيل العلم به الإدراك العقلي من النظر والاستدلال , فالعلم هو أول طريق الإيمان مصداقا لقوله تعالى :{ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** } [محمد:19] فكان لا بد من إتمام العملية العقلية حين تأسيس المعتقد الإيماني من توافر العلم أو المعلومات السابقة حتى توجد المعرفة الإيمانية التي يتحقق بها التصديق والقناعة العقلية واتخاذ القرار [107] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

101 - الجهل : هو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع، وقيل هذا الجهل المركب وأما الجهل البسيط فهو عدم العلم بالشيء

102 - محمد المحلى الشافعي، توضيح المشكلات، المشهور بشرح المحلى على الورقات، تحقيق هشام البدراني، دار الكتاب الثقافي، اربد، 2003، ص 112 .

103 - انظر هشام البدراني، مناهج الأدلة في بحث أسماء الله وصفاته، ص 87-88 .

104 - التصور : هو إدراك أي مفرد من مفردات الأشياء، كالصخرة، أو القسوة، أي إدراك الجزئيات .

105 - التصديق : هو إدراك العلاقة أو النسبة بين مفردين فأكثر نفيا أو إثباتا، كالحكم على العلاقة بين الصخرة والقسوة، أن الصخر قاسي، فهذا تصديق، أي إثبات الحكم على العلاقة بين الصخرة والقسوة، فهذا تصديق في إثبات الحكم سبقه تصور غير مقترن بحكم وعليه فإن كل تصديق لا بد أن يسبقه تصور، راجع عبد الرحمن حبنكة، ضوابط المعرفة، ص 18-19 .

106 - يلاحظ أن المعرفة يضادها الجحود أو الإنكار القلبي، لأن المعرفة هي حصول القناعة بالعلم واليقين به من غير إعلان باللسان، أما الإقرار فيضاده الإنكار، لأنه حصول القناعة بالمعرفة على سبيل الإعلان الذي يظهر العزم على أمرها . فكان الإنكار نفي القلب واللسان لهما . راجع هشام البدراني، تبصرة الافهام، دار الكتاب الثقافي، اربد، ص 242-245 .

107 - راجع، محمد تقي الدين، تبصرة الافهام، ص243-248،عبد الكريم البدراني، مناهج الأدلة، ص 87-95 .

فكان العلم لا بد منه وهو ليس أي علم مجرد أو بوصفه معلومات محضة ، وإنما هو نوع من العلم الذي يتوصل بصحيح النظر فيه إلى الفكر الذي يمكنه من الحكم على الواقع بنفي أو إثبات وهذا النوع من العلم هو المعرفة ، الذي هو أخص أنواع العلم ، الذي به يتحقق التصديق العقلي المعرفي للحقيقة الإيمانية ، لذلك كان لا بد من العناية بالعلم بقصد الوصول إلى المعرفة لإيجاد التصديق.

2. المعرفة[108] : وهي نقيض الجحود والإنكار القلبي ، وهي : العلم بالشيء على سبيل معين ، فهي أخص أنواع العلم ، حيث أن العلم أعم من المعرفة [109] لأنها تشمل إدراك الشيء تصورا (حسيا) وتصديقا (معرفياً) ، فكانت المعرفة أخص من العلم لأنها تقتصر على التصديق ، لذلك فإن المعرفة هي المعتبرة من العلم كما أن التصديق هو المعتبر من المعرفة ، ويسقط التصور من الاعتبار ولا يعتد به ، لأنه لم يثبت في الذهن بحكم و لم ينف ضده ، لذا فهو لا قيمة فكرية له إلا من حيث كونه مقدمة لتحقيق المعرفة التصديقية حيث أن كل تصديق لا بد أن يسبقه تصور ، لذا لم يصلح التصور حتى صار التصديق أي المعرفة [110]. **فإذا علم أن العلم هو إدراك الشيء كما هو في الواقع** تصورا أو تصديقا، فإن المعرفة تختص بالنوع المنتج من العلم وهو التصديق، والتصديق هو المعتبر في

---

[108]- **(أنظر الشكل المرفق –2–)**

[109]– الفرق بين العلم والمعرفة: من حيث اللفظ والمعنى .

أ . أما من حيث اللفظ : ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد: نقول: عرفت زيدا وفي قوله تعالى : (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) (البقرة:146) وأما فعل العلم فيقع على مفعولين تقول : علمت زيدا مجتهدا، وفي قوله تعالى: (فإن علمتموهن مؤمنات) (الممتحنة :10) وأما ان وقع على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كقوله تعالى: (وآخرين من دونهم لا تعلموهم الله يعلمهم) (الأنفال:60) .

ب. وأما الفرق من حيث المعنى فمن عدة وجوه منها .

1. العلم أعم والمعرفة أخص ومعناها أدق وأتم .
2. العلم مسبوق بجهل وأما المعرفة فمسبوقة بعلم .
3. العلم يضاده الجهل، والمعرفة يضادها الجحود أو الأنكار القلبي .
4. المعرفة تتعلق بالذات وما يدل على آثارها، فتقول عرفت الله ولا تقول علمته، وأما العلم فتعلقه بالأحوال، فتقول: علمت الله رحيما حليما لطيفا .
5. المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره وهو راجع إلى إدراك الذات وصفاتها، وأما العلم يفيد تمييزا ما يوصف به عن غيره وهو راجع إلى تخليص الذات وصفاتها عن غيرها

راجع : ابن القيم، تهذيب مدارج السالكين ص 416-561، ومفاتيح الغيب، للرازي، ج1، ص283.

[110]– **انظر عز الدين هشام البدراني، مناهج الأدلة، ص 88-98 .**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المعرفة، فهي لا تحصل إلا بعد انقضاء مرحلة التصور أو الإدراك الحسي، حيث تتحول المعلومات في الذهن إلى صفة الإثبات أو النفي عن طريق الأدلة المعتبرة في الموضوع بما يحقق القناعة والتصـــديق العقلي، بحيث يتحول العلم إلى معرفة تصديقية ، وهذه المعرفة تصدر من إدراكه للأشياء حين العلم بها وهو يقصد التعلم والفهم .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الشكل -2- :

نظرية المعرفة الإنسانية بحسب خطواتها المرحلية المتدرجة للوصول للحقيقة الإيمانية

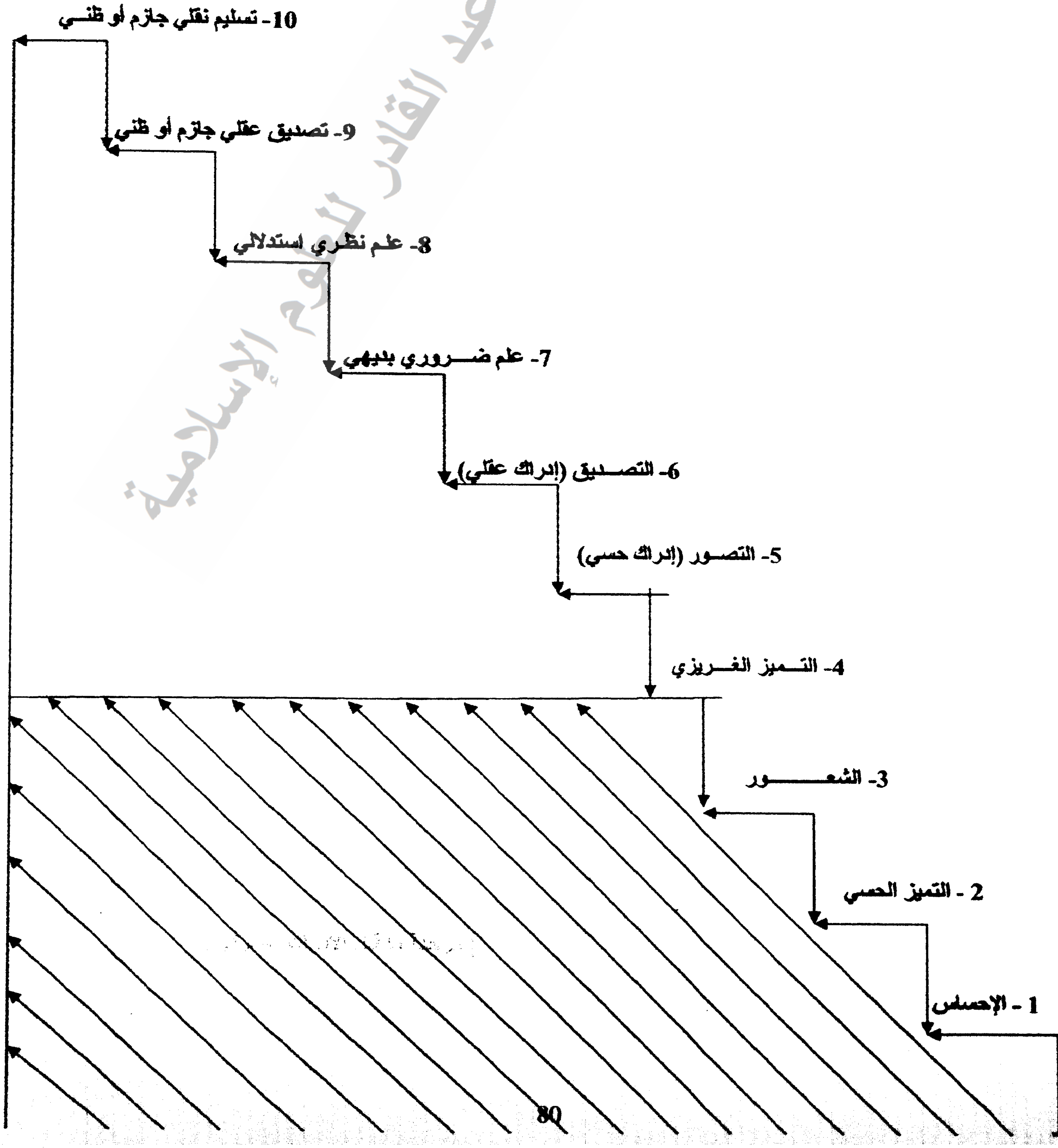

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبناء على هذا فإن الإدراك العقلي هو الإدراك المعرفي الذي يتأتى في الذهن من إلحاق المعلومات السابقة بالواقع المحسوس لإصدار الحكم عليه بإثبات لوجود ونفي لعدم، أو إثبات لصفة تنفي ضدها، أو نفي لوهم يثبت حقيقة، أو نفي لخطأ يثبت صوابا، أو إثبات لا يقابله نفي لأنه لا يضاده، أو نفي لا يقابله إثبات لأنه استغنى به، وهو في كل أحواله تصديق [111]. وهذا العمل المعرفي في الإدراك مع أنه يجري طبيعيا في ذهن الإنسان ولكنه لا يكون محمودا ولا يعتد به إلا عند القصد فيه فهو يحتاج إلى تركيز الذهن بتفكر وتدبر حتى يتحول الفكر المكتسب في الذهن إلى قناعة، ومعرفة يقين، أو معرفة غلبة ظن، أو معرفة ظن، وإلا حصل التصور دون ذلك، وهو لا يغني عن التصديق شيئا في الإيمان والعمل [112].

وعلى هذا فإن الإدراك المعرفي يحتاج إلى حركة العقل بربط الواقع المحسوس بالمعلومات السابقة، ربطا يلحقها به على وجه التفسير وإيجاد العلم المخصوص ليتعامل العقل مع الواقع الحسي للوصول إلى معرفة حقيقتها لأن المعتبر في العلم هو المعرفة، كما أن المعتبر بالمعرفة هو التصديق حيث أن هناك ترابطاً عضوياً بين المعرفة والتصديق، فالذي يعرف يكون قد وصل إلى مرحلة التصديق إلا أنه يمكن أن يجحد، فمعلوم أنه ليس كل من علم عرف، ولا كل من عرف صدق، ولا كل من صدق سلم، ولا كل من سلم أذعن وأمن، ولا كل من أمن أقر، فهذه أحوال يدركها الإنسان في نفسه وفي الواقع، كما بينها القرآن وفصلتها السنة، قال تعالى : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل : 14] وقال تعالى :{ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ } [النحل : 83] وقال تعالى : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام :20] إلى غير ذلك من الآيات التي تبين الجحود والإنكار مع تحقق المعرفة.

وعلى هذا لا يعد إطلاق المعرفة إيماناً، وإنما هو أحد عناصر الإيمان الضرورية والمعتبرة لتحققه ولكنه لا يعبر وحده عن حقيقة الإيمان ، لأن الإيمان عناصر متكاملة البناء، وحلقات متصلة مترابطة يتبع بعضها في أثر بعض حتى تكتمل بصورتها النهائية ، لذا كانت المعرفة مختصة في التصديق التي توجد القناعة الفكرية والتي هي تصديق مقصود بحقائق الإيمان، وذلك حين يتحول الفكر من معرفة محضة إلى معرفة تصديقية ، ومفاهيم إيمانية تهيمن بمناخها الروحي في حركتي العقل والشعور لتكون

---

[111] - محمد تقي الدين، تبصرة الافهام، ص 249 .

[112]- انظر هشام البدراني، مناهج الادلة، ص 89 .

طاقة هائلة مؤثرة في السلوك باتجاه أحسن الأعمال مصداقاً لقوله تعالى :{ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ }[المائدة:83] .

لذلك فإن المعرفة المحضة أو التصويرية منها لا تقوى على إيجاد التفكير ولا على تقوية التفكير عند الإنسان ،وإنما الذي يحقق ذلك هو التصديق المقصود، أي القناعة الفكرية ، وهي الإيمان بالفكر الأساس، فهي التي تنهض بالإنسان على المستوى الفكري والنفسي وتدفع به نحو الممارسة الإيمانية، لذا كان لا بد من المعرفة التصديقية بالحقيقة الإيمانية حتى تثمر وتحقق المطلوب [113]. قال تعالى :{ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام : 122] .

3. التصديق: المنافي للتكذيب ، والصدق لغة : ضد الكذب، وهو يطلق على ما يدل على الكمال والخلوص والشدة والصلابة [114] (ويستعمل في كل ما يحق ويحصل قولا وفعلا) [115]. واصطلاحا : وهو مطابقة القول المخبر عنه والضمير أي مطابقة الواضع والاعتقاد معا حتى يكون صدقا تاما [116] لذلك فقد كذب الله تعالى المنافقين في اعتقادهم مع مطابقة قولهم للواقع في قوله تعالى { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } [المنافقون : 1] . فلا بد للصدق أن يكون مطابقا للاعتقاد والواقع معاً [117]. وأما التصديق : فهو نسبة الصدق بالقلب أو باللسان إلى القائل، وقيل : هو أن تنسب باختيارك الصدق إلى الخبر [118] .

---

113 - راجع: تقي الدين، الشخصية الإسلامية، ص 475-478 ، وتبصرة الافهام، ص242-249، هشام البدراني، مناهج الأدلة،ص87-91 .

114- انظر، مذكرة محمد عارف: الصدق في القرآن الكريم، مكتبة الرشيد، الرياض،ص16-17

115- انظر، الزبيدي، تاج العروس، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج6، ص 403-404،واحمد رضا، معجم متن اللغة، مكتبة الحياة، بيروت، 1958، ج3، ص434 .

116- انظر الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص208-209 .

117- راجع: علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار الكتاب العربي، ط1، 1405 ،ص82، والمعجم الوسيط، 510/1، والمعلم بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، ص1172 .

118- راجع، مذكر محمد عارف، الصدق في القرآن الكريم، ص23.

فالعلاقة بين التصديق والصدق ظاهرة، وهو التلازم بينهما، فإن تصديق الصدق بالقول وبالفعل، واجب عقلاً وفعلا . أما منطق العقل فإنه يوجب على العاقل أن يتحرى الصدق في كل ما يسمع ويقرأ من أقوال في كونها مطابقة للواقع، فإذا تحققت المطابقة وجب عليه الاقتناع بصدقها ولزمه العمل بمقتضاها. ولولا التزام المسلمين في صدر الإسلام بهذه الفضيلة وهو تصديق الصدق قولاً وفعلاً ،والدعوة والجهاد في سبيل تحقيقه لما ذاع وغلب[119] .

قال تعالى : { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر : 33] . فلم يكن تصديقهم بالحق مجرد قول وإنما حققوا مقتضاه بالفعل والتطبيق مصداقا لقوله تعالى :{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ } [الأحزاب: 23] . وفي قوله تعالى : { لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا } [الأحزاب: 8] أي يسأل من صدق بلسانه عن صدق فعله، تنبيهاً أنه لا يكفي الاعتراف بالحق دون تحريه بالفعل[120] . قال تعالى : { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [العنكبوت : 2-3] .

وعليه فالتصديق يتحقق من خلال مطابقة العلم في الذهن بواقعه الخارجي مما يحول المعرفة الشخصية بوصفها فكرة خاصة إلى قناعة تفرض قيمها على التفكير والخطاب الفكري، والمراد من هذا التصديق اليقيني هو التصديق العقلي لا النقلي والذي مجاله في الواقع المحسوس والمحسوس أثره وطريقه هو النظر والاستدلال وهو قابل للمنازعة الفكرية . لذلك كان لا بد من التفريق هنا بين التصديق القابل للمنازعة الفكرية المؤدي إلى (التصديق) والتصديق غير القابل للمنازعة الفكرية المؤدي إلى (التسليم) لأن عدم التفريق بينهما أدى الى وقوع كثير من العلماء والباحثين في مسائل العقيدة في منزلقات خطيرة مما أدى إلى اضطراب في التفكير في مباحث العقيدة تتعارض مع سلامة المنهج الإسلامي أولا، والخروج بنتائج تتصادم مع نصوص الوحي الإلهي ثانيا، وتعرض المسلمين إلى فتن ومنازعات وهدر للطاقات بما لا يتفق مع مضامين الرسالة الإسلامية ثالثا، لذا كان هذا التفريق ضرورة تفرضه صحة التفكير وسلامة المنهج للوصول إلى الحقيقة الإيمانية وفق منهج الوحي الإلهي .

فأما التصديق القابل للمنازعة فهو الإثبات الذي يقابله النفي، ويدور الحكم على الواقع في الذهن بطريقة مطابقة الفكر للواقع، حيث يتكون من عملية الفكر هذه نتائج إثبات الفكر أو نفيه.

---

[119]- راجع الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص208-209.

[120]- راجع، مذكر محمد عارف، الصدق في القرآن الكريم، ص23.

لهذا فهو قابل للمنازعة العقلية بإنزال الأفكار على الوقائع والأحداث، أو إنزال الأفكار على الواقع المحسوس حتى يصل الإنسان إلى فكر مقنع لعقله يعين له سبيل التعامل مع الحياة. ومثاله في قضايا المعتقد الإيماني هو الإيمان بالله تعالى، وصدق المعجزة القرآنية، واثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما التصديق غير القابل للمنازعة فهو التسليم الذي يتأتى من قبول العلم الخبري عن طريق الثقة بصدق المخبر وصحة الخبر، ويقابله الإنكار الذي هو التكذيب فلا يحتمل وجها آخر، فتأتى بالتسليم تصديقا من نوع آخر من حيث طبيعة الإثبات والحكم، ومن حيث المنازعة، أما من حيث الإثبات والحكم، فهو غير قابل للإثبات والحكم على واقعه مباشرة لأنه مما لا يقع عليه الحس وإنما يدل عليه العقل بعد ثبوت مصدر الخبر، لذلك كانت المنازعة فيها تختلف عن التصديق العقلي القابل لها من مطابقة الفكر للواقع المحسوس مباشرة، وإنما المنازعة في التسليم النقلي في إثبات سند المخبر ولا يقبل المنازعة بعد ذلك الإثبات، حيث يثبت التسليم بمجرد ثبوت سند المخبر الذي يحمل العلم ويقابله رد الرواية والطعن بالسند الذي يحمل عليه الخبر والعلم، وعليه فإن التصديق العقلي يقبل المنازعة الفكرية، والتسليم ألنقلي لا يقبل المنازعة الفكرية مع أنه يقبل المنازعة في السند، فتختلف المحاكمة الفكرية في كل من التصديق والتسليم، فالمحاكمة الفكرية في التصديق محاكمة عقلية، والمحاكمة في التسليم محاكمة رواية وسند [121].

وبناء على ذلك كانت المعرفة بإطلاق غير الإيمان، لأن الإيمان أصله (تصديق وتسليم) يؤثر في حركة العقل والقلب، وتكوين العقلية والنفسية فهي معرفة مؤدية إلى التصديق عقلا ونقلا، وهذه المعرفة التصديقية هي القناعة التي هي تصديق مقصود يتحقق به أصل الإيمان، حين يتحول الفكر في الذهن من معرفة محضة إلى تصديق وتسليم مقصود يؤدي إلى نقلها في شخصية المرء إلى صفة مفاهيم ومقاييس يضعها في حيز التنفيذ والممارسة حتما .

فأصل الإيمان هو القناعة الفكرية، باعتقاد صواب الفكر جزما، بحيث تتحول في ذهنه من صفة العلم المجرد والمعلومات المحضة إلى صفة المعرفة التصديقية بالحكم على الواقع بدليل الإثبات والنفي للضد، أو بدليل التسليم لقبول الفكر من غير منازعة لصدق المخبر وثبوت السند، فإذا تحولت

---

[121] -راجع، محمد تقي الدين، الشخصية الإسلامية، ص477، وتبصرة الافهام، ص222، عز الدين هشام، مناهج الأدلة، ص124 .

الفكرة في الذهن بهذه الصفة تحقق أصل الإيمان تصديقا وتسليماً ، لهذا لا بد من إيجاد الفكر في الأذهان بطريقة التركيز المنتج في أخذ الفكر بقوة وعزم مصداقا لقوله تعالى :{ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة : 63] . ومن ضرورات القوة: العزم على الأمر والمحافظة عليه، أي عقد القلب على الأمر وإمضاؤه كما هو في حقيقته بالقيام به قال تعالى : { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } [آل عمران : 159] . فلا يتفق الأخذ بقوة دون الممارسة والقيام بمهمات الفكرة ومستلزماتها العملية، وهذا كله يستند إلى الإيمان، لذلك كان لا بد من النظر حين أخذ الفكرة وإيجادها في الذهن بضرورتها الحكمية تصديقا بإثبات أو نفيا بتكذيب، أو تسليما لضرورة صدق المخبر من غير منازعة في الأمر أو مجادلة فيه ، وإنما فهم دلالة الخطاب الإلهي وتحصيلها بهذا المستوى يجعلها لا تطيق أن تبقى حبيسة من غير أن تتفاعل مع الإحساس والشعور بالواقع والفكر لديه، لتنطلق في التعبير عن حقيقتها بالعرفان الصادق في مناخ الإيمان، وأجواء إدراك الصلة بالله تعالى، في مجال الممارسة الفردية أو التعامل مع الجماعة والمجتمع .

وعليه فإن العلم المجرد (التصور) والمعرفة المحضة، لا يؤدي إلى إيجاد تفكير ولا تقوية التفكير، وإنما الذي يؤدي إلى ذلك هو التصديق المقصود من القناعة الفكرية التي تهيمن بمناخها الإيماني على الفكر والشعور حين الممارسة سواء على المستوى الشخصي كقوله تعالى : { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى } [الليل : 5-7] . أو على المستوى السياسي في صراع الأفكار ونشر الإسلام [122], قال تعالى : { قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا } [طه: 72]. وقال تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا } [الأنفال : 74] .

والتصديق إما أن يكون جازما أو غير جازم، فإن كان غير جازم فهو الظن أو الشك أو الوهم، وأما إن كان جازما فإما أن يكون مطابقا للواقع أو غير مطابق، فإن كان غير مطابق فهو الجهل المركب، وأما إن كان مطابقا للواقع إما أن يكون بدليل أو بغير دليل، فإن كان بغير دليل فهو التقليد، فقد خرج بالقسمة، تصديق جازم مطابق بدليل وهو التصديق اليقيني الذي تميز عن الظن

[122] - راجع، محمد تقي الدين، الشخصية الإسلامية، ص478، تبصرة الافهام، ص222 .

جمعية الأستاذ عبد القادر للعلوم الإسلامية

وما دونه بالجزم وعن الجهل المركب بالمطابقة، وعن التقليد بالدليل [123]. وهذا التصديق اليقيني هو الذي يصلح لتأسيس المعتقد الإيماني لا غير [124].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[123] – راجع، عضد الدين عبد الرحمن الآيجي، كتاب المواقف .

[124] – (**أنظر الشكل المرفق –3–**)

* الشكل -3- :

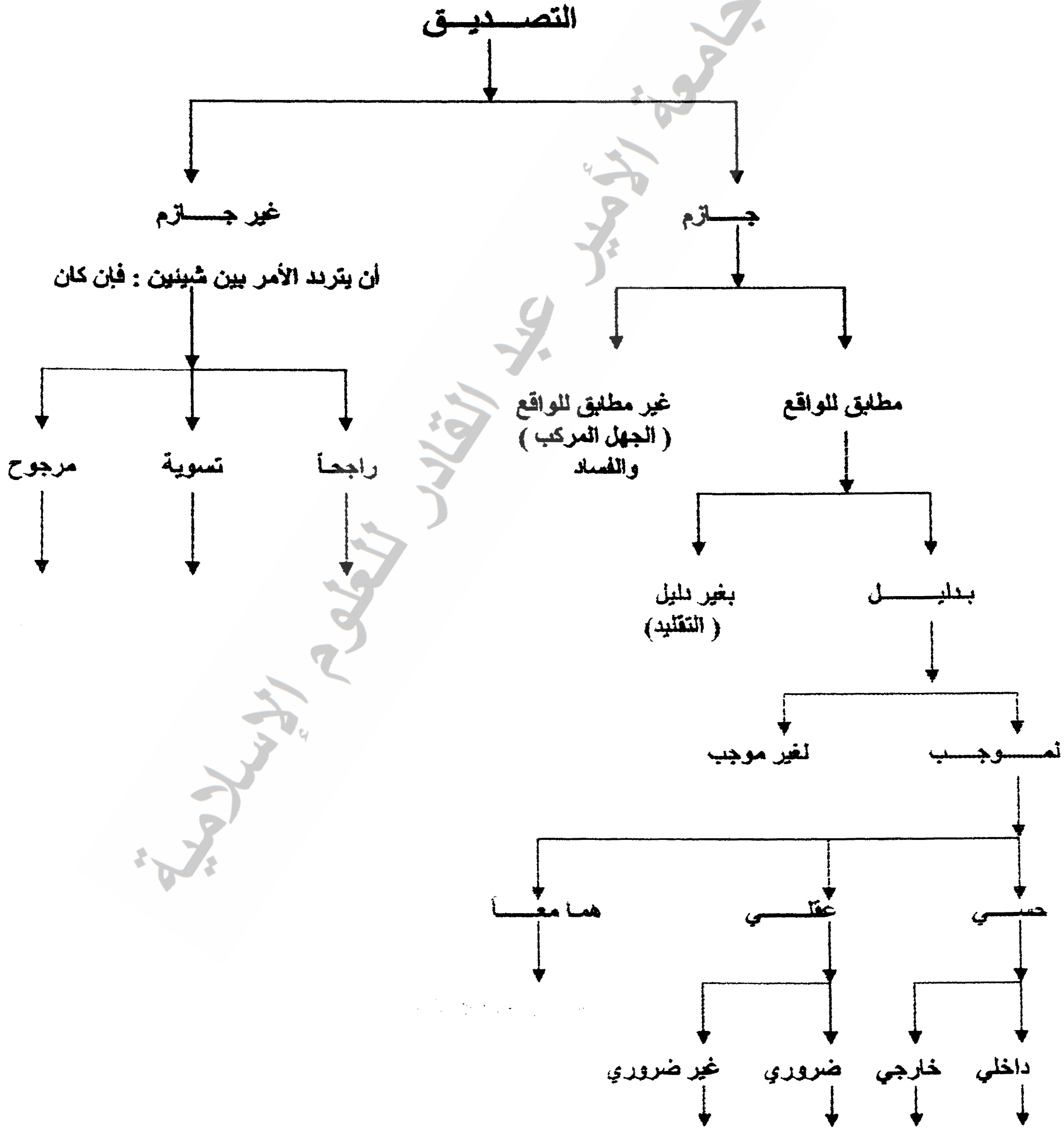

- **التصديق يشمل :**

1- الوجدانيات . 2. الحدسيات . 3- الحسيات . 4- البديهيات . 5- المتواترات . 6- المجربات . 7- النظريات .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4. **الجــــزم** : المنافي للظن والشك والوهم ، لأن التصديق إما أن يكون جازما أو غير جازم ، فإن كان غير جازم فهو الظن أو الشك أو الوهم ، وهذه لا تصلح دليلاً للـيقين ويسـتحيل أن تحدث جزماً، فلا بد أن تكون العقيدة تصديقاً يقينياً جازماً ، والجزم المقصود به هنا هو التصـديق اليقيني بالمعقولات، وقد جاءت الآيات القرآنية صريحة في ذلك . كما في قوله تعـالى : { قَـالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) }[الشعراء: 23-24] . و قال تعالى : { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُـؤْمِنِينَ (3) وَفِـي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الجاثية:3-5] .

وعليه فإن العقيدة المتعلقة بالمعقولات يجب أن تكون حقائق يقينية ، وأن يكون التصديق بها تصديقاً جازماً منافيا للشك والظن والوهم مصداقا لقوله تعالى قال تعالى :{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } [الحجرات: 15] . وقال تعالى : { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُـدًى لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة :2] .

وقال تعالى : { وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُـمْ إِلَّـا يَخْرُصُونَ } [يونس: 66] . وقال تعالى : { أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّـمَاوَاتِ وَالْـأَرْضِ } [إبراهيم: 10].وعلى هذا فلا بد أن يكون دليل العقيدة يقينياً أي دليلاً قطعياً،لأن العقيـدة قطـع وجزم ويقين، وهذا لا يتحقق إلا بالدليل العقلي القطعي, وهذا الجزم المراد به هنا هـو الجـزم في المعقولات ، وهو غير الجزم في المنقولات ، لأن لكل منهما مقتضـى غـير الآخـر ، فـالجزم في المعقولات يقتضي إقامة الدليل العقلي القاطع عن طريق الإدراك الحسي والعقلي ، بما ينتفي به الظن وما دونه ، فإذا تحقق الجزم بطريق المعقول وجب التصديق اليقيني ، وأما الجزم في المنقولات فهـو يقتضي إقامة الدليل ألنقلي القاطع عن طريق الوحي الصادق من القرآن والسنة المتواترة بما ينتفـي بهما الظن وما دونه ، فإذا تحقق الجزم بطريق المنقول وجب التصديق اليقيني المـؤدي إلى التسـليم المطلق بمقررات الوحي من غير منازعة .

5. **مطابقة الواقع** : المنافي للفساد ومخالفة الحقيقة . فالتصديق وإن كان جازما فهو إما أن يكون مطابقا للواقع أو غير مطابق، فإن كان غير مطابق فهو الجهل المركب، وعليه فإن العقيدة إن كانت مطابقة للواقع وقد أثبت الواقع صحتها ، كانت عقيدة صحيحة، وإلا فهي فرض تخيل وأوهام غير حقيقية ، فالقول مثلاً : إن الكوكب هو الخالق فهذا فكر قد وقع وحصل عند كثير مـن النـاس

جمعية الإمام عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولكنه فكر غير صحيح لعدم انطباقه على الواقع ، لأن الكوكب محدود ومفروض عليه نظام محدد لا يملك تغيره وهذا دليل عجزه ونقصه واحتياجه وهذه الصفات لا تنطبق على واقع الخالق وإنما على الأشياء المخلوقة، فثبت قطعاً أنه مخلوق، وهذا أيضاً ينطبق على كل الأشياء التي تقع تحت الحس من كون وإنسان وحياة، حيث يدل واقعها على أنها محدودة وناقصة وعاجزة ومحتاجة فثبت أنها مخلوقة لخالق لأن صفاتها تنطبق على صفات المخلوقات وليس على صفات الخالق سبحانه وتعالى الذي هو خلقها وأوجدها من عدم . ويمكن التحقق من صدق كل القضايا العقدية المتعلقة بالمعقول ، مثل الإيمان بالله تعالى والقرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهذه الثلاثة قد أدرك العقل مباشرة واقعها بواسطة الحس والعقل وقطع بصحتها ، فإذا تحققت المطابقة وجب على العاقل الاقتناع بصدقها ولزمه العمل بمقتضاها [125] .

6. الدليل العقلي : المنافي للتقليد . فالتصديق العقلي الجازم إن كان مطابقا للواقع فهو إما أن يكون بدليل أو بغير دليل، فإن كان بغير دليل فهو التقليد ، وقد نهى القرآن عن التقليد وذمه في تأسيس المعتقد الإيماني ،

كما في قوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [الأنبياء:51-56] . فقد أوجب سبحانه تأسيس الاعتقاد من خلال تحصيل الأدلة القطعية، ابتداء من المدركات الحسية للمشاهدات الواقعية من الدلائل الكونية، قال تعالى : { وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون} [الذاريات: 20-21] ومن قراءة الآيات المعجزة في الكون ينتقل العقل من الإدراك بالمحسوس إلى الإدراك بالمعقول، الذي يترجم هذه المدركات الحسية إلى حقائق يقينية من خلال الاستنتاج والاستدلال ليصل بها إلى المعرفة التصديقية الجازمة المستندة إلى الدليل العقلي القطعي مع مطابقتها للواقع، وصولا إلى الحقيقة الإيمانية فيما يتعلق بموضوعات العقيدة التي طريقها العقل ، فقد أدراك العقل حسا بوجود الله ووحدانيته، وأدراك العقل حسا أن القرآن كلام الله تعالى ، وأدراك العقل حسا بأن محمدا نبي الله ورسوله، بإدراكه حسا أنه هو الذي جاء بالقرآن كلام الله المعجز للبشر ، فهذه الأشياء الثلاثة قد أدرك العقل مباشرة واقعها بواسطة الحس والعقل قطعاً .

[125]- راجع : سميح الزين، علم النفس ،262-283، زكريا الشلول ، أثر العقيدة 78 ، 87

وهي تخضع للعملية العقلية المحضة حيث يجري فيها التفكير من خلال الإدراك الحسي والاستدلال العقلي بالبحث والنظر ، لذا فهي قابلة للمنازعة الفكرية والمحاكمة العقلية حتى تتم القناعة الفكرية من المعرفة التصديقية الجازمة المطابقة للواقع عن دليل ، ولذلك نجد أن القرآن قد جادل فيها وعمل على إثباتها وتقريرها كما هو معلوم في كثير من آياته ، حيث دعا العقل إلى النظر والاستدلال من خلال الواقع المحسوس في الكون ونظامه لدلالة على وجود الله تعالى ووحدانيته والنظر والاستدلال من خلال الواقع المحسوس للقرآن بما فيه من إعجاز لدلاله على أنه كلام الله تعالى، والنظر والاستدلال من خلال الواقع المحسوس لنبوة محمد في كونه من جنس البشر، فهو عاجز مثلهم في الإتيان بمثل القرآن وأنه جاء بالقرآن من عند الله ، فكانت معجزة القرآن دالة على صدق نبوته فيما يبلغ عن الله تعالى ، قال تعالى : { أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا } [النساء : 82] .

ومن هنا فان الكون المنظور والكتاب المسطور هما منافذ العقل ليصل من خلالهما إلى التصديق العقلي الجازم المطابق للواقع عن دليل بوجود الله تعالى ووحدانيته وإلى أن القرآن منزل من عند الله تعالى بعد ثبوت معجزته للعقل ليدل دلالة قاطعة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وثبوت رسالته، ليقوده هذا التصديق العقلي الجازم إلى التسليم النقلي المطلق لمقررات الوحي الإلهي بما تضمنه من إخبار عن أمور الغيب التي يعجز العقل عن معرفتها إلا من هذا الطريق الثابت، ويقتضي هذا من العقل التسليم من غير منازعة ولا نظر بكل ما يخبر به الوحي عن أمور الغيب من ملائكة مطهرة وكتب منزلة، وأنبياء مرسلة ويوم الآخرة.

وهذه الأخبار الغيبية، في حقيقتها ليست مغيبات بحتة وإنما هي مغيبات مستندة إلى العقل أي بإدراك العقل لما دل عليها وهو القرآن المعجز والحديث المتواتر، وعلى ذلك كان الإسلام عقيدة وشريعة كله واقعا موجودا ، فكله أفكار وهذه الأفكار لها مفاهيم أي واقع في الذهن مدرك عقلا أو مسلم به تصديقا جازما وله واقع في الذهن مدرك ما دل عليه عقلا[126]. وحتى يتم هذا التصديق العقلي بصورته اليقينية الجازمة والمطابقة للواقع بدليل، كان لا بد من توافر هذه العناصر الستة التي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

126- راجع أحمد عطيات ، الطريق ، ص 55-71. الدكتور محمود الخالدي ، التفكير ، ص 59- 69، سميح عاطف الزين، الإسلام وثقافة الإنسان ، ص 20-21، أحمد عطيات ، الطريق، ص62-64،ايقاظ الفكر ، محمد محمد إسماعيل ، ص 108

هي عناصر ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها ، لأن كل عنصر من هذه العناصر له دوره وقيمتـــه في تحقيق التصديق العقلي لتأسيس المعتقد الإيماني .

ثانياً . التصديق (التسليم) النقلي :

وهو الذي لا يكون في مقدور العقل إدراكه مباشرة، وإنما يدركها بما دل عليه عقلا، لأن مجاله عالم الغيب الذي هو وراء الحس، فالعقل يعجز عن إدراكه لأنه لا يملك أدوات الوصول إليه بذاته مستقلا إلا عن طريق الخبر النقلي الثابت من الوحي الإلهي المقطوع بوجوده وصدقه بدلالة العقل ، فالمغيبات في الإسلام في حقيقتها ليست مغيبات بحتة وإنما هي مغيبات مستندة إلى العقل أي بإدراك العقل لما دل عليها وهو القرآن المعجز والحديث المتواتر .

وهذه المغيبات التي لا يدركها العقل مباشرة هي بقية أركان الإيمان من: الإيمان بالملائكة والكتب السماوية غير القرآن، والأنبياء والرسل غير محمد صلى الله عليه وسلم، واليـــوم الآخـــر، فهـــذه موضوعات العقيدة الغيبية التي لا يدركها العقل مباشرة ، لذلك فهذه أدلتها أدلة نقلية يتم التصديق بها بإخبار القرآن والحديث المتواتر بها الذي شهد العقل لهما بالثبوت والصدق.

وعليه فإن موضوعات العقيدة المتعلقة بعالم الغيب يتم التصديق بها عن طريق ثبوت الخبر المنقول عن المقطوع بوجوده وصدقه ويحصل هذه التصديق بها تسليما بالأدلة النقلية الثابتة وهي غير قابلـــة للمحاكمة العقلية والمنازعة الفكرية لأن العقل تلقاها بالتسليم والقبول بعد ثبوت سندها ولا مجـــال للعقل فيها بالبحث والنظر لأنها من قضايا الغيب، حيث ينتهي دور العقل بعد التصـــديق العقلـــي الجازم بصحة مصدرها من الحكم إلى التسليم والفهم[127].

فبمجرد الانتهاء من مرحلة التفكير العقلي والانتقال إلى مرحلة التلقي الفكري يصبح دور العقل هو الفهم لفحوى الخطاب الإلهي ودلالته، وليس له منازعته أو الحكم عليه، لأن هذا هو مقتضـــى الإيمان بالغيب وهي الصفة الأولى للمؤمنين كما في قوله تعالى : { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ } [البقرة: 2-3] ولا يتحقق هذا الإيمان إلا بالتسليم المطلق لمقررات الوحي الإلهي من غير محاكمة ولا منازعة عقلية، قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

[127]- إيقاظ الفكر ، محمد محمد إسماعيل ، ص 108 .

مُبِينًا } [الأحزاب : 36]. وقال تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء:65].

وعليه فإن التسليم بالمنقول أو التصديق النقلي إنما يتعلق بالغيب مما هو غير محسوس ولا محسوس أثره ، وحتى يتحقق بصورته الصحيحة ، ويؤدي دوره بفعالية ، لا بد أن يسير بخطواته المرحلية بجميع عناصره بصورة متكاملة ، وأما هذه العناصر الأساسية التي يتكون منها التصديق النقلي فيمكن بيانها على النحو الآتي:

1. **الدليل النقلي** : المنافي للتقليد في الأمور النقلية الغيبية .

إن العقيدة التي يكون موضوعها مما لا يقع عليها الحس ولا يدركها العقل مباشرة كالإيمان بالملائكة والكتب والأنبياء واليوم الآخر، فهذه الأمور يكون دليلها دليلا نقليا بإخبار القرآن والحديث المتواتر المقطوع بهما، والذي شهد العقل لهما بالثبوت والصدق، ووجب التسليم المطلق بكل ما ورد فيهما من أخبار من غير نزاع عقلي أو نظر واستدلال لأنها من الأمور الغيبية التي لا مجال للعقل إدراكها إلا بالخبر الصادق الذي قطع العقل بصحة مصدره وصدقه , وقد أوجب الله علينا طلب الدليل ونهى عن التقليد ، قال تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة: 111] . فإذا ثبت النص القاطع وجب التصديق به تسليما ، قال تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [البقرة: 285] .

وعليه فإن موضوعات العقيدة المتعلقة بعالم الغيب يتم التصديق بها عن طريق ثبوت الخبر المنقول عن المقطوع بوجوده وصدقه ويحصل هذه التصديق بها تسليما بالأدلة النقلية الثابتة ، وقد أمر الله بإتباع الدليل ونهى عن التقليد في كثير من آياته ، قال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } [البقرة: 170] . وهذا البطلان للتقليد هو في الأصول وليس في الفروع[128].

[128]- راجع : تفسير الرازي 17/3 ، وعز الدين هشام، مناهج الأدلة،124

2. الجزم : المنافي للظن وما دونه المتعلق في المنقولات.

فحقيقة العقيدة من الناحية الفكرية أنها تصديق جازم لما يقوم بالعقل من براهين قاطعة وأدلة ثابتة، وتسليم جازم لما يقوم بالنقل والسمع من أدلة قاطعة عن طريق صحة السند وثبوته، وهذا لا بد فيه من صحة صدق الخبر عن طريق الخبر المتواتر ، الذي يفيد العلم اليقيني الذي لا مجال فيه للتكذيب ويكفر جاحده، لأنه قطعي الثبوت عن الرسول ρ، وشأنه في إفادة العلم شأن ما يفيده الحس بالمشاهدة ، وهذا المسلك أصل مقطوع به شرعاً وعقلاً، وبه حفظ الله القرآن الكريم من التحريف والتبديل إذ تكفل بحفظه[129] لقوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر: 9] . وعليه فإن العقيدة يجب أن تكون حقائق يقينية ، وأن يكون التصديق بها تصديقاً جازماً منافيا للشك والظن والوهم مصداقا لقوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } [الحجرات: 15] . وقال تعالى : { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: 2] وأما الظن فلا يصلح دليلاً لليقين ويستحيل أن يحدث جزماً، فالاستدلال بالظن على العقيدة هو إتباع للظن، وقد جاءت الآيات القرآنية صريحة في ذمه قال تعالى : { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى }[النجم : 23] . وقال تعالى { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } [النجم: 28] . قال تعالى : { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام:116] .

فاعتبر سبحانه أن الضلال هو الكفر الحاصل من إتباع الظن، وهذه الآيات التي تنهى عن إتباع الظن متعلق موضوعها في العقائد دون الأحكام الشرعية فهي مستثناة من عموم الآيات التي تنهي عن إتباع الظن في العقيدة ، فلقد جاءت الأدلة بالتخصيص، حيث اعتبر الشرع قبول خبر الآحاد في الشهادة بنص القرآن، وقضى الرسول ρ بشهادة الواحد، وأرسل رسولاً لعدة ملوك لدعوتهم للإسلام، وهذا لا يستدل به في قبول خبر الواحد في العقيدة، بل يدل على خبر الواحد في التبليغ سواء كان في تبليغ الأحكام الشرعية أو تبليغ الإسلام، وعلى هذا فلا بد أن يكون دليل العقيدة يقينياً أي دليلاً قطعياً ، لأن العقيدة قطع وجزم ويقين، وهذا لا يتحقق إلا بالدليل القطعي، ولهذا لا بد أن يكون قرآنا أو حديثاً متواتراً، على أن يكون كل منهما قطعي الدلالة، ويجب أخذه في العقائد والأحكام الشرعية، ويكفر منكره، أما إذا كان الدليل خبر آحاد فإنه لا يكون قطعياً، فإن

[129]– انظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها ، ص 41 ، ، انظر: المرجع السابق، ص 89 ص 89 .

كان صحيحاً فإنه يفيد غلبة الظن، فتصدق العقائد التي جاء بها تصديقاً ظنياً ، لا تصديقاً جازماً، ولا يجوز أن يكذب أو يرد لأنه لو جاز تكذيبه لجاز تكذيب جميع الأحكام الشرعية المأخوذة من الأدلة الظنية، و لم يقل بذلك أحد من المسلمين [130] , وهذا لا يعني أن خبر الآحاد لا يدخل في الاعتقاد كما ظن البعض ، فإنه عند التحقيق في مجمل النصوص نجد أن قضايا العقيدة تنقسم إلى قسمين وهما :

الأول : قضايا تتعلق في تأصيل العقيدة وتأسيس المعتقد الإيماني وهذا لا يصلح فيه غير الدليل القطعي ، والتصديق بها تصديقا يقينيا ، وهذا ما دلت عليه النصوص المتضافرة من القرآن والسنة المطهرة ، وعليه يحمل أقوال العلماء في نفي الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة ، وتوجه إليه أدلتهم في ذلك .

الثاني : قضايا تتعلق في الشرح والتفصيل والبيان لحقائق العقيدة ، وهذه لا يمنع من الأخذ بالظن أو بخبر الآحاد في العقيدة ، لأنها جاءت لمزيد بيان وتوضيح لما تأسس من العقيدة والمعتقد أصلا . فهي لا تقدم معتقدا جديدا ولا تؤسسه ابتداء ، وإنما تبينه وتوضحه ، فعقيدة الآخرة وما فيها من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار ، قد تأسست بنصوص قاطعة من القرآن والسنة المتواترة ، وجاءت كثير من النصوص الظنية من السنة النبوية في شرحها وتفصيلها وبيانها , وعلى هذا المعنى تحمل أقوال العلماء الذين قالوا بالأخذ بالظن أو بحديث الآحاد في العقيدة ، وعلى ذلك توجه أدلتهم . وهذا هو التوجيه الذي يتوافق مع مجمل النصوص الشرعية ، ويجمع بين أقوال أهل العلم على اختلافها ، ويبرر ذلك الخلاف المحتدم والطويل بين الفرق الإسلامية .

3. **التسليم** : المنافي للاعتراض .

إن موضوعات العقيدة المتعلقة بعالم الغيب يتم التصديق بها عن طريق ثبوت الخبر المنقول عن المقطوع بوجوده وصدقه ، وبعد ثبوت صدق الخبر يتم التصديق به تسليما بالأدلة النقلية الثابتة وهي غير قابلة للمحاكمة العقلية والمنازعة الفكرية لأن العقل تلقاها بالتسليم والقبول بعد ثبوت سندها ولا مجال للعقل فيها بالبحث والنظر لأنها من قضايا الغيب، حيث ينتهي دور العقل بعد التصديق العقلي الجازم بصحة مصدرها من الحكم إلى التسليم[131] فهذا النوع من التصديق يقابله الإنكار الذي هو التكذيب فلا يحتمل وجها آخر . وهو نوع آخر من التصديق من حيث طبيعة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[130] – انظر تقي الدين النبهاني ، الشخصية الإسلامية ، ط4، 1994م، ج1، ص 89-90.

[131] – راجع: عز الدين هشام، مناهج الأدلة في بحث أسماء الله ص124

الإثبات والحكم، ومن حيث المنازعة، أما من حيث الإثبات والحكم، فهو غير قابل إلى الإثبات والحكم على واقعه مباشرة لأنه مما لا يقع عليه الحس وإنما يدل عليه العقل بعد ثبوت مصدر الخبر، لذلك كانت المنازعة فيها تختلف عن التصديق العقلي القابل لها من مطابقة الفكر للواقع المحسوس مباشرة، وإنما المنازعة في التسليم النقلي في إثبات سند المخبر ولا يقبل المنازعة بعد ذلك الإثبات، حيث يثبت التسليم بمجرد ثبوت سند المخبر الذي يحمل العلم ويقابله رد الرواية والطعن بالسند الذي يحمل عليه الخبر والعلم، وعليه فإن التصديق العقلي يقبل المنازعة الفكرية، وأما التسليم النقلي فلا يقبل المنازعة الفكرية مع أنه يقبل المنازعة في السند، فتختلف المحاكمة الفكرية في كل من التصديق والتسليم، فالمحاكمة الفكرية في التصديق محاكمة عقلية، والمحاكمة في التسليم محاكمة رواية وسند[132] .

فبعد ثبوت صحة الخبر وصدقه، فإنه يقتضي أن يتحقق التصديق الجازم ، لقوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } [الحجرات: 15] . وأن يتحقق التسليم المطلق للوحي لقوله تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } (النساء : 65) .

وإن التصديق الجازم والتسليم المطلق للوحي الإلهي ، هو معنى العقيدة التي هي أصل الإيمان وأساسه الذي لا يتحقق الإيمان إلا به ، وإن مجرد الشك في صحة الوحي وخبره أو العدول عنه إلى غيره من المصادر البشرية هو هدم لهذا الإيمان وانتفائه. لان مقتضى الإيمان بالوحي هو الاستمداد منه وحده كل المفاهيم العقدية ، والأحكام الشرعية ، وأن يستقل به ويستغني عن غيره . فالتصديق الجازم والتسليم المطلق للوحي هي السمة الإيمانية الأولى للمؤمنين والتي ليس بعدها إيمان، فهذا إبليس - لعنه الله - جعل له رأياً مع النص، وجعل لنفسه حقاً في أن يحاكم أمر الله وفق ما يراه من سبب وعلة في قوله تعالى : { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } [ص : 75-76] فكان هذا منه استكباراً على الله وأمره، فكانت عاقبته من الله اللعنة والطرد من رحمته، وتوعده بعذاب مقيم يوم القيامة، فلم ينفع إبليس علمه بالله واعتقاده بوجوده وصفاته، وهذا الوصف ينطبق على كل من يتلقي أمر الله تعالى ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه، أو محاكمة قضاء الله ليرده برأيه، فإن هذا هو الكفر بعينه حتى لو تحقق معه علم بالله وتصديق بوجوده

[132]- راجع: تقي الدين ، الشخصية الإسلامية ص478، وعزالدين هشام ، مناهج الأدلة ص124-126

لأنه حين يوجد النص القاطع والآمر الجازم ، ينقطع النظر ويبطل التفكير ويتعين التصديق والتسليم ، ويتحتم الطاعة والتنفيذ[133].

4. **الكلية** : المنافي للتجزئة . مصداقا لقوله تعالى : { أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ } [البقرة: 85] ، فالاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكام الله تعالى بالإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر . ففي الآية الكريمة دليل واضح على أن الذي يؤمن ببعض ما تقرر في الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه ، يدخل في زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ .

ثم بين سبحانه العقاب في الدنيا والآخرة الذي استحقه أولئك المفرقون لدين الله تعالى . ولعل بيان جزائهم بطريق القصر على ما ذكر لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب وإظهار انه لا اثر له أصلا مع الكفر بالبعض . إن هذا التفرق والاختلاف يوجب الشرك وينافي حقيقة التوحيد الذي هو إخلاص الدين كله لله كما قال تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [الروم: 30-32] . فإقامة وجهة الدين حنيفا وعبادة الله وحده لا شريك له يجمع الإيمان بكل ما أمر الله به وأخبر به ليكون الدين كله لله . لأن توحيد الدين وعدم تفرقه يؤدي إلى وحدة الأمة وتماسكها ، وتفرق الدين هو في حقيقته تفريق للأمة وتمزقها، لذلك حذر سبحانه المسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقا كل فريق يتعصب لما معه من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق بل الدين واحد والرسول واحد والإله واحد[134].

فلا مبرر للتفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية أو فروع خلافية يضلل بها بعضهم بعضا، ويتميز بها بعضهم عن بعض . والأخوة الإيمانية قد عقدها اللّه وربطها أتم ربط، قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } [الأنعام:159] .

---

[133]- انظر سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج3، ص477. وتفسيرطنطاوي ، 14/1

[134]- راجع : تفسير السعدي 640

5.الفهم : المنافي للجهل .

فإنه بعد ثبوت السند لقضايا العقيدة بالصدق والصحة ، فلا مجال بعد ذلك للعقـل بالبحـث والنظر فيها ، وينتهي دور العقل بعد التصديق العقلي الجازم بصحة مصدرها من مرحلة الحكـم ، إلى مرحلة التسليم والفهم ، فبمجرد الانتهاء من مرحلة التفكير العقلي والانتقال إلى مرحلة التلقي الفكري يصبح دور العقل هو الفهم لفحوى الخطاب الإلهي ودلالته وليس له منازعته أو الحكـم، لأن هذا من بديهيات الإيمان قال تعالى : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد: 24] . وقال تعالى{ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ليـدبروا آيَاتِـهِ وَلِيَتَـذَكَّرَ أُوْلُـو الألبـاب } [ص : 29] . وإن دور العقل هو تفهم النص والتقيد به، لا الحكم على مدلوله بالصحة أو عدم الصحة، أو الحكم بقبوله أو رفضه أو تعديله، فإن هذا لله وحده وليس لأحد من خلقه" [135]

وعليه فإن تأسيس المعتقد الإيماني لا يتحقق من الناحية الفكرية إلا بالتصديق الجازم والتسـليم المطلق، وليس أي تصديق أو أي تسليم بل لا بد من الجزم والقطع من غير احتمال الريب أو الشك فيها وهذا لا يتحقق إلا إذا كان الدليل نفسه دليلا قاطعا وجازما موصولا إلى اليقين سواء كان هذا الدليل دليلا عقليا أو نقليا .

ـــ المطلب الثاني : تأسيس المعتقد الإيماني نفسياً .

إن الأساس النفسي هو أحد ركني العقيدة، ومقوماته المؤثرة في السلوك الإنساني، وهو الـذي يعطي العقيدة عنصرها الإلزامي من الإذعان النفسي والانقياد القلبي، لمجموعة العواطف والمشـاعر الوجدانية لتأخذ بعدها الديني كمظاهر لغريزة التدين المودعة في الفطرة الإنسانية، ولتكـون هـي العواطف السائدة والمهيمنة على جميع العواطف الأخرى، وإن المتأمل في المنهج القرآني وطريقته في بناء الأساس النفسي للعقيدة يجده يستثمر هذه العواطف الثلاث كطاقات محركة ودافعة للسـلوك. مسترشدة بتوجهات الأساس الفكري للعقيدة، لتحقق من خلاله فاعليتها وإيجابيتها ، وإن الجانب النفسي وما يتضمنه من مشاعر دينية هو أصل التوحيد العملي، وهو أصل التأليه والعبادة لله وحده كما أنه أصل الشرك العملي ، وهو الإشراك بالله مما لا ينبغي أن يتوجه به الإنسـان في شـعوره وميوله إلا لله وحده تعالى كالمحبة والخوف والرجاء وغير ذلك.

---

[135] - سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي ، ص 272.

حيث أن التوحيد قسمين: علمي وعملي وهما أصل الإيمان من قول القلب وعمله، فأما قول القلب فهي الأقوال الدينية التي أخبر الله بها عن توحيد ربوبيته وأسمائه وصفاته، والأصل فيها هو التصديق الفكري ، وأما عمل القلب، فهي الأعمال التي أمر الله بها في توحيد ألوهيته، والأصل فيها هو الإذعان النفسي من الاستجابة الشعورية والالتزام الإرادي . وهو أصل الإيمان[136] وهي العقيدة أيضاً والمتمثلة بالتصديق الفكري والإذعان النفسي، لأن العقيدة -كما بينا سابقاً- هي حالة من الانعقاد الوثيق بين الأساس الفكري والأساس النفسي بحيث لا ينفصل أحدهما عن الآخر وإلا خرجت عن كونها عقيدة، وهذا ما جاء يؤكده إبراهيم الخليل عليه السلام في قوله : { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ } [الأنعام: 76] حيث قدم البرهان التوحيدي من ارتباط الفكر بالشعور ، وتلازم توحيد الربوبية بتوحيد الأولوهية، وهو أن الرب الحقيقي هو وحده من يستحق المحبة لا أحد سواه، فهذه المحبة لله هي توحيد الألوهية من شهادة أن لا إله إلا الله، فإن المشركين لم ينكروا تفرد الله بالخلق والربوبية وإنما تفرده بالمحبة والتأليه والعبادة. فهذا ما جاء به الرسل يدعون أقوامهم إليه من محبة الله وتأليهه[137].

وهذا الجانب النفسي لم يأخذ حقه من البحث والتأصيل والتفصيل والتطبيق في مجال تكوين العقيدة ، مما جعل العقيدة لا تحقق أثرها الإيجابي والفاعل من الناحية العملية الواقعية ،حيث أن هذا الجانب هو أحد الحلقات الأساسية المفقودة في تكوين العقيدة وبناء الشخصية من الوجهة التربوية ، لذلك فإنه لا بد من إعادة ربطه بالجانب الفكري ليكونا معاً العقيدة بصورتها الصحيحة والفاعلة والمؤثرة ، ويكونا بذلك الشخصية الإسلامية الصالحة والمصلحة ، لأنه بارتباطهما معاً وتحققهما في القلب تتحقق العقيدة وفق مراد الله تعالى ، لتحضى بالقبول والرضى عند الله ، وذلك أن الإسلام عالج بالعقيدة أفكار الإنسان ، وعالج سلوكياته الصادرة عن ميوله النفسية بالإحكام الشرعية المنبثقة عن العقيدة نفسها، فكانت العقيدة الإسلامية هي الأساس في تكوين عقلية المسلم ونفسيته ، أو بناء الشخصية الإسلامية .

وعليه فإن الإذعان النفسي هو أحد مقومات العقيدة الأساسية ، وهو لا يتحقق إلا من خلال توفر عنصرين والذي بهما يتشكل الأساس النفسي ، وهما :

---

[136]- راجع: ابن تيمية، قاعدة في المحبة، ص 49، 68.

[137]- راجع: المصدر السابق، ص 14.

الأول : الاستجابة الشعورية للمقتضيات الإيمانية بحيث توافق الميول النفسية كل حقائق الإيمان وتنسجم معها.

الثاني : الالتزام الإرادي لمتطلباتها الشرعية بحيث تحقق كل مضامينها من الوجهة العملية والواقعية.

أولاً : الاستجابة الشعورية للمقتضيات الإيمانية .

إن العقيدة حتى تكون عقيدة صحيحة فلا بد من موافقةَ المسلم في مشاعره من الحب والخوف والرجاء وغيرها من المشاعر لكل مقتضيات الإيمان ومتطلباته ، فيكون الله أحب إليه مما سواه ، فيحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه ، ولا يخشى ولا يرجو سواه تعالى ، فعلى المسلم أن تكون مشاعره كلها تبعاً لمراد الله ، الذي بينه على لسان أنبيائه ورسله عليهم السلام ، قال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [آل عمران: 31]. وقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :{ لا يُؤمِنُ أَحدُكُم حتّى يكونَ هَواهُ تَبعاً لِما جِئتُ بِهِ } [138] . ويدل الحديث ، على أنَّ الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعةً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأوامر والنَّواهي وغيرها ، فيحبُّ ما أمر به ، ويكره ما نهى عنه .وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع . قال تعالى : { فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [النساء: 65] وعن زهرة بن معبد عن جده قال : { كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ قَالَ عُمَرُ فَلَأَنْتَ الْآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآنَ يَا عُمَرُ } [139] .

والعقيدة الصحيحة تقتضي المتابعةَ والموافقةَ لمرادات الله عز وجل في كل شيء . فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى تكون مشاعره تابعة لمراد الله تعالى ، وليس من الإيمان مخالفة مراده سبحانه . فالاستجابة الشعورية للمقتضيات الإيمانية التي بيّنها تعالى في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام هي من

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[138] - ابن رجب، جامع العلوم والحكم ، دار المعرفه-بيروت، ط1، 1408هـ، ص 386، قال حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة للشيخ أبا الفتح المقدسي بإسناد صحيح ، وأخرجه النووي في الأربعين ، وقد صححه ، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنن ج1، ص 121.

[139] - رواه البخاري في صحيحه (257ن)

قضايا العقيدة الأساسية ، وهي أحد ركني الجانب النفسي ، وبتحققه يتحقق الركن الثاني من أركان الجانب النفسي ، وهو الالتزام الإرادي لمتطلباتها الشرعية . ومن أبرز المشاعر التي على المسلم أن يوافق بها مقتضيات الإيمان ، نذكر أبرزها والتي تدور عليها أكثر المشاعر الدينية وتنبثق عنها ، وهي :

1. المحبة : المنافية للبغض .

أي محبة ما يقتضي العقيدة وبغض ما يناقضها ، قال تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } [البقرة: 165]. فإن المشركين أحبوا من لا يستحق من الحب شيئا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره. وان الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله :{ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } أي: الذين آمنوا وأخلصوا لله العبادة أشد حباً لله من كل ما سواه ، ومن حب المشركين للأنداد ، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية ، والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة. لذلك صرح بالأشدية ولم يقل أحب ، لأنه ليس المراد الزيادة في المحبة بل المراد الرسوخ والثبات ، فمحبته تعالى هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه .

ومع هذا البيان التام فمن يتخذ من المخلوقين أندادا لله أي: نظراء ومثلاء يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة، فهو معاند لله مشرك به . وإن المحبة الصادقة توجب على العبد أنْ يُحبَّ ما يُحبُّه الله ، ويكره ما يكرهه[140] .

وقد ذمَّ سبحانه من كانت مشاعره مخالفة لمراد الله تعالى، فكره ما أحبَّه الله ، أو أحبَّ ما كرهه الله، مصداقا لقوله تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } [محمد: 9]. وقوله تعالى: { ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } [محمد : 28] .

فعلى كلِّ مؤمن أنْ يُحِبَّ ما أحبَّه الله ، وأنْ يكره ما كرهه الله تعالى. وقد ثبت في " الصحيحين " عنه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: " لا يؤمن أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه وولده وأهله والنّاس أجمعين "[141] .

---

[140] - راجع:ابن تيمية، قاعدة في المحبة، 95-102 ، وابن القيم ، مدارج السالكين ج3/ص21، وطريق الهجرتين632

[141] - صحيح البخاري (15) وصحيح مسلم(178)

وهكذا نجد أنه تعالى عمل على تصويب توجهات الفطرة الشعورية بما ينتابها من مشاعر الحب والكره من خلال ربطها بالعقيدة الإسلامية وتكاليفها الملزمة لتأخذ هذه العواطف بعدها الديني والروحي المتصلة بالله تعالى في التجرد له بالمحبة وما ينبثق عنها من سائر المحاب الأخرى، وبغض ما يبغضه الله تعالى لتصبح هذه العواطف استجابة لمقتضيات الإيمان .

2.الخوف : المنافي للأمن .

إن الخوف من الله تعالى ليس المقصود به الخوف الطبيعي وإنما المقصود هو الخوف العقائدي الذي يشوبه معاني التقديس والتنزيه والتعظيم والإجلال المقرون بالمحبة لله تعالى وهو الذي يورث الانكسار والذل والخضوع والإشفاق والخشوع في القلب، ومن ذلك قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون:61] . إن الخوف من الله تعالى هو متعلق بعقيدة التوحيد في أن يكون الخوف خالصاً لله وحده مصداقاً لقوله تعالى : { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } [البقرة : 40]. وقال تعالى : { وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } [الأحزاب : 39] . إن الخوف من غير الله تعالى يوقع في الخوف الشركي، وهو أن يخاف الإنسان الضر من غير الله تعالى، ويعتقد أن هذا الغير قادر على النفع والضر، وهذا النوع من الخوف لا يجوز أن يعلق بغير الله تعالى، لأنه من لوزام توحيد الألوهية، فالذي بيده النفع والضر هو الله وحده لا شريك له فمن جعل مع الله نداً يخاف منه هذا الخوف فقد أشرك بالله العظيم، وهو معتقد المشركين في أصنامهم وآلهتهم، حيث كانوا يخافون منها ويخوفون الناس بها كما حصل مع إبراهيم عليه السلام في هذا الشأن عندما خوفه قومه بآلهتهم أن تصيبه بسوء كما في قوله تعالى : { وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأنعام: 80-82] . فإبراهيم عليه السلام رد عليهم تخويفهم له بهذه الآلهة بأنها مخلوقات الله وإنها لا تضر ولا تنفع . وإن الذي ينبغي أن يخشى ويخاف منه هو الله تعالى وحده. ومن الخوف الشركي كذلك هو أن يترك الإنسان مأمورات الله تعالى خوفاً من وقوع الضر عليه من الناس مثل

ما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وهذا ما أكده القرآن في قوله تعالى: { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران : 173] . فالمؤمن لا يخاف المشركين ولا يرهبهم ما دام طائعاً لله، وإنما هو يخاف أن يعصي ربه ويخالف أمره لأن هذا هو مقتضى توحيده الإيماني [142] .

وفي هذه الآية تأكيد على أن المؤمن لا يخاف أحداً إلا الله وإن الخوف من غيره إنما هو لعدم كمال توحيده بسبب إتباعه للشيطان في تخويفه من دون الله تعالى وهذا هو الخوف الشركي الذي نهى عنه تعالى، في قوله : { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران : 175] .

وإن مقتضى الخوف من الله تعالى ، هو أن يخاف مما خوفه الله تعالى وتوعد به كل من عصاه ولقد جاءت الآيات لتربط بين مخافة الله تعالى والخوف من عذابه، قال تعالى: { قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأنبياء: 48-49] .إن هذه الآيات جاءت حاسمة وقاطعة في بيان حقيقة الخوف الشركي المنافي لكمال التوحيد , وهكذا عمل القرآن على تصويب التوجهات الشعورية للفطرة في ما ينتابها من خوف لوجهتها الصحيحة لتجعل خوفها من الله وحده . لأن المؤمن الموحد لا يخاف إلا الله، قال تعالى : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر: 36] .

3.الرجاء : المنافي لليأس .

إن رجاء الله يستند إلى عقيدة التوحيد من الإيمان بالله تعالى والثقة بوعده ، فهو ثمرة اليقين الجازم بأن الله تعالى هو وحده الخالق المالك والقادر على الضر والنفع وأنه هو الفعال لما يريد، قال تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } [الإسراء : 57] .

إن حقيقة الرجاء في الله نابع من العقيدة الخالصة ، ومصدره الإيمان بالله وتوحيد أسمائه وصفاته وأفعاله استلزاماً حتمياً، إذ لا يتصور عقلاً إيمان صادق بالله دون الرجاء فيه أو حسن الظن به أو أمل مستبشر في رحمته وفضله وإحسانه، والطمع فيه على وجه الافتقار إليه في قضاء حوائجه ونصره وعونه وتأييده ، إذ لا يتصور خلو نفس المؤمن من الأمل المرجو في الله تعالى مغفرةً،

---

[142] –راجع: الطبري، تفسير الطبري، ج4، ص 184.

ورحمةً، ونصرةً، وعوناً، وإنعاماً، فإن خلت هذه البواعث والآمال من القلب فإن ذلك يرجع إلى أمور منها :

– ضعف الثقة بالله تعالى وعدم اليقين بوعده ، قال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ } [الجاثية : 31] . وهذا ينافي صدق الإيمان ومقتضاه .

– ومنها : الاستغناء عن الله وعدم الافتقار إليه، قال تعالى: { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى } [العلق: 6-7] . وقال تعالى : { فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام: 42-43]. وهذا طغيان يناقض مقتضى التوحيد الخالص لله تعالى .

– ومنها : تمكن اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، وهذا كفر وضلال ، قال تعالى : { وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف : 87] . وقال : { وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر : 56] .

وهذه الأسباب يكفي كل واحد منها لدخول صاحبها في الكفر والخروج من الإسلام. وقد فرق به سبحانه بين المؤمنين والكافرين بقوله تعالى: { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:104].

فالرجاء في الله هو مظهر للعبودية الصادقة، وهو من صميم الاعتقاد بالله تعالى وحسن الظن به والافتقار إليه. على أن هذا الرجاء ليس استبشاراً خالصاً بل هو مشوب بالخشية من الله وقاراً، لإيمان المسلم بحتمية لقاء ربه يوم الحساب قال تعالى: { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ } [المؤمنون: 60] . وقوله تعالى في تضمينه الرجاء بمعنى الخشية: مصداقاً لقوله تعالى : { مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا } [نوح: 13-14] .

فالرجاء في الله نابع من عقيدة التوحيد الخالص مشوباً بالخشية والمهابة من الله، واستشعار عظمته سبحانه. علاوة على أنه يثمر عملاً إيجابياً منتجاً. مصداقا لقوله تعالى: { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف:110] . فلقد حدد القرآن مفهوم الرجاء العقائدي وجعله معقوداً بالعمل الصالح مرتبطاً به ارتباط الشرط بالجزاء . وعليه فإن الرجاء في الله هو علامة على صحة الاعتقاد وصدق الإيمان وهو مسوغ الاستجابة والقبول من الله بمقتضى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعده الحق وسننه الإلهية الثابتة ,إن مقتضى توحيد الله تعالى والاعتقاد به هو أن لا يرجو العبد في قضاء حوائجه إلا الله تعالى وحده، وأن يتوجه له وحده في الافتقار في القصد والطلب والسؤال والدعاء والاستعانة والاستعاذة والشفاعة والتوسل والتقرب، وإلا فهو الشرك في العبودية لغير الله، وهذا النوع من الشرك في الرجاء يقع فيه كثير من الناس مصداقاً لقوله تعالى : { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [فاطر: 15] .

ثانياً : الالتزام الإرادي للمتطلباتها الشرعية .

إن الحب التام مستلزم للإرادة التامة الموجبة للفعل مع القدرة، فإذا كان العبد قادرا علي محبات الحق ولا يفعلها فلضعف محبتها في قلبه أو وجود ما يعارض الحق مثل محبته لأهله وماله فإن ذلك قد يمنعه عن فعل محبوب الحق ، كما قال تعالى : { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة: 24] . وقال النبي عليه الصلاة والسلام : { لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين }[143] , وعليه فإن تصويب مشاعر الفطرة الإنسانية في محابها ومخاوفها ورجائها إلى الله تعالى وحده، يرد الفطرة إلى معدنها الأصيل ، لتتحول هذه المشاعر من الغريزة العمياء المفرغة من محتواها الروحي والعقائدي ذات التأثير السلبي في حياة الإنسان، إلى مشاعر دينية وروحية مرتبطة بالعقيدة ، وهذا من شأنه أن يحمل صاحبها على الالتزام الإرادي لمتطلباتها الشرعية ، طوعاً واختياراً، على وجه الإخلاص والتجرد لله تعالى.

وهكذا يصوب المنهج القرآني بأسلوبه التربوي مشاعر الفطرة الإنسانية إلى الله تعالى ، ويعمل على تكوين الأساس النفسي الذي هو أحد ركني العقيدة ومقوماتها الأساسية . فهو الذي يعطي العقيدة عنصرها الإلزامي لتأخذ بعدها الديني كمظاهر لغريزة التدين المستقرة في فطرة الإنسان، وبعدها الروحي في صلتها بالله تعالى، لتكون هذه العواطف الناتجة عن غريزة التدين هي العواطف السائدة والمهيمنة على سائر العواطف الأخرى ولتنتظم بها وفق المفهومية الإسلامية . حيث تقوم

143- أخرجه البخاري في صحيحه رقم (15)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العواطف الدينية بمساعدة الإرادة في توجيه السلوك حيث إن العواطف تتأثر بالوجدانيات وتؤثر فيها وتتأثر بالعقيدة وتؤثر فيها فيعمل على مساعدة الإرادة في توجيه السلوك وفق الأوامر والنواهي المنبثقة من العقيدة التي تحول تلك المشاعر الوجدانية من البهيمية إلى الكمال الإنساني ، فإن العواطف الوجدانية عند ارتباطها بالعقيدة فإنه يكون لها التأثير البالغ على السلوك الإنساني الإيماني ويمكن تحليل أثر هذه المشاعر في السلوك الباطن والظاهر، فهذا الأثر هو المعبر في السلوك عن المشاعر التي هي ردود أفعال النفس الفطرية الأخلاقية السوية، تجاه التصورات الإيمانية، المتأثرة بملاحظة صفات الجمال والجلال للخالق سبحانه وتعالى .

فإن هذا الامتزاج المؤتلف والارتباط الوثيق بين المشاعر الفطرية والقيم الروحية ضرورة حيوية وحتمية لتحقيق مقتضياتها العملية من أداء مشاق التكاليف والنهوض بأعباء الرسالة الإلهية [144]. لتغدو هذه المشاعر الدينية دوافع قوية ومؤثرة في السلوك باتجاه الإستقامة، ومصدر خير ونفع وسعادة للإنسان والبشرية .

وهذا الالتزام الإرادي يتضمن عدة عناصر وهي :

1 . الانقياد والخضوع : المنافي للترك والاستكبار .

والعقيدة التي هي أصل الإيمان تتضمن : التصديق الفكري والإذعان النفسي ، وإن مجرد التصديق لا يكفي لتحقيق معاني العقيدة في نفس المؤمن ، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر ، وكلام الله خبر وأمر ، فالخبر يستوجب تصديق المخبر والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام ، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع و الانقياد للأمر ، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل الإذعان النفسي الذي هو أحد عنصري العقيدة وتحقق بذلك أصل الإيمان في القلب، وأما المقصود بهذا الانقياد ، فهو الانقياد القلبي ، والذي هو نتاج التصديق الفكري والاستجابة الشعورية ، فإن عقد القلب على الإذعان والخضوع لله والتسليم لأمره والموافقة له ابتداء وعلى الإطلاق ، هو عنصر من العناصر الأساسية للمعتقد الإيماني من الناحية النفسية كما قال إبراهيم عليه السلام : { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام: 79] .

144- انظر: المرجع السابق ، ص 56 ، انظر: المرجع السابق ، ص 56 انظر،عبد الرحمن حبنكة،العقيدة الإسلامية وأسسها ،ص54،

فمن التصديق بالله يكون الخضوع لله ، وعن الخضوع تكون الطاعات وأول ما يكون عن خضوع القلب لله الذي أوجبه التصديق هو الإقرار باللسان ، لأنه لما صدق الإنسان بأن الله ربه خضع له بالعبودية باطنا، ثم أعلن الخضوع ظاهرا ، فابتداء من أعمال الجوارح باللسان فأقر بالعبودية مخلصا ، كما قال الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام : { أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة: 131] . أي انقاد لله وأذعِنْ وأخلص له دينك ، فبادر عليه السلام بالامتثال على الفور دون تريث ، وإنما قال لرب العالمين ليكون قد أتى بالإسلام وبدليله ، فإن إبراهيم كان قد علم أن لهذا العالم خالقاً عالماً فلما أوحى الله إليه بالإيمان صادف ذلك قلباً سليماً من العقل الراشد والفطرة السليمة . سارع بالمبادرة إلى الإذعان والانقياد لما أُمر به وإخلاصِ سرِّه على أحسنِ ما يكون حين طلب منه تعالى الامتثال لله ، لأنه عليه السلام بهذا التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد لأوامره تعالى ابتداءً ، قد حقق عنصراً أساسياً للمعتقد الإيماني ، قال تعالى :{ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [لقمان :22.] .

وهذا العنصر من إسلام الوجه لله تعالى متعلق بالجانب النفسي من الالتزام والانقياد القلبي لله ابتداء وعلى الإطلاق لكل ما يأمر ويحكم به تعالى ، ولكل ما يقضي ويقدر ، لأنه بغير هذا الخضوع القلبي لا تصح عقيدة المؤمن ، ثم يوصي ذريته بإسلام الدين كله لله وحده ، كما في قوله تعالى : { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة : 132] . وأمر الله تعالى الناس كذلك بإتباع إبراهيم والاقتداء به في ذلك ، في قوله : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } [النساء: 125] .

والدين مصدر دان يدين دينا إذا خضع وذل، ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه إلها آخر لم يكن مسلما ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما ، والإسلام هو الاستسلام لله والخضوع والعبودية له، فالإسلام في الأصل من باب العمل الذي يشمل عمل القلب والجوارح . فدين الإسلام يتضمن معنى عبادة الله وطاعته، والخضوع والذل له تعالى ، ومن لم يخضع قلبه لما عرفه من عقائد الإسلام لم تفده تلك المعرفة و لم يكن بها من المسلمين ، لقوله تعالى : { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام :20] . والاعتراف بالحق الذي يعلم والشهادة به والخضوع لصاحبه لا بد منه في الإيمان ،

وهذا هو بعينه كفر إبليس فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولا ولكن لم ينقد للأمر و لم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافرا ، كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: 34] . وكذلك فرعون ومن اتبعه كفروا للعناد والاستكبار وقال تعالى : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل : 14] . فمن تمكن الاستكبار في قلبه ، ولم يخضع لله ويترك التمرد والإباء والعناد ، فهو كافر مستحق لعذاب الله ، قال تعالى: { إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } [الصافات : 34-35] .

وكذلك من علم معنى لا إله إلا الله، وأيقن بها، وقبلها، ولكنه لم ينقد لها، ولم يعمل بمقتضاها فإن ذلك لا ينفعه، كما هي حال أبي طالب، فهو يعلم أن دين محمد حق، بل إنه ينطق بذلك ويعترف، حيث يقول مدافعاً عن الرسول :

ولقد علمت بأن دينَ محمدٍ من خير أديان البرية دينا

لولا الملامةُ أو حِذارُ مسبةٍ لوجدتني سمحا بذاك مبينا

فما الذي نقص أبا طالب ؟ الذي نقصه هو الإذعان والاستسلام. وكذلك الحال للذين يعجبون بالإسلام، ويوقنون بصحته ويعترفون بذلك، فإن إعجابَهم ويقينَهم واعترافَهم لا يكفي، بل لابد من الانقياد لله في كل ما يأمر وينهى ، وتجريد التلقي عن الكتاب والسنة وعدم الالتفات إلى غيرهما وإتباعهما وترك ما سواهما ، وخلع القيود التي توهن الانقياد في تعظيم الأمر والنهي فلا يعارضهما بترخيص جاف ولا بتشديد غال ولا بعلل واهية توهن الانقياد لله ورسوله، قال تعالى: { وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [النور: 47-50] . وأما المؤمن فإنه يخضع لأمر الله وحكمته ممتثلا ما أمر به سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر فان ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على مزيد الانقياد والبذل والتسليم ولا يحمله ذلك على ترك دينه والانسلاخ منه[145]. كما في قوله : { إِنَّمَا

[145]- راجع : تفسير الجلالين 138/1، تفسير أبو السعود 208/1 ، تفسير ابن عاشور 488/1 ، ابن تيمية ، مجموع الفتاوي 45/1، 263/7 ، ابن باديس ، العقائد الإسلامية 35 ، 43 ، 48 ، أبو المظفر منصور السمعاني ، الانتصار لأصحاب الحديث، 80 .

كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور:51-52].

2.القبول والرضي المنافي للإعراض والتسخط .

والقبول والرضى يعني أن يقبل دين لله بقلبه ولسانه، فيصدق بالأخبار، ويطيع الأوامر، ويؤمن بكل ما جاء عن الله وعن رسوله"، ويقبل ذلك كله، ولا يرد منه شيئاً، قال تعالى واصفاً المؤمنين بامتثالهم، وقبولهم، وعدم ردهم : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: 285] . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا }[146].

ومدار رحى الإسلام على هذا المعاني الثلاث التي ذكرها الحديث، أما الرضا بالله رباً فإنه يتضمن أنواع التوحيد ، من توحيد أسمائه وصفاته تعالى وربوبيته وألوهيته , فإن الرضى بالله ربا يستلزم الرضى بربوبيته وهو الرضى به خالقا ومدبرا وآمرا وناهيا وملكا ومعطيا ومانعا وحكما ووكيلا ووليا وناصرا ومعينا وكافيا وحسيبا ورقيبا ومبتليا ومعافيا وقابضا وباسطا ، وإن الرضا بالله رباً هو الإيمان بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأنه تعالى له الأسماء الحسنى وصفات الكمال المنزه عن كل صفات النقص , ومن الرضا بالله رباً: تحقيق العبودية له، وهي تعني: ألَّا تعبد غيره، فترضى به إلهاً معبوداً، ومن المعلوم أن الألوهية: هي توحيد الله تعالى بأفعال العباد؛ فتدرك أنه لا يجوز صرف العبادة لغير الله تعالى، ثم تحقق هذا في نفسك، فتعبد الله وحده لا شريك له، وهذا يتطلب من كل مسلم أمرين: الأمر الأول:الكفر بالطواغيت وهو أن يترك ويسخط عبادة ما دون الله من الآلهة الباطلة ، ويعبد الله وحده حباً ، وخوفاً ، ورجاء ، وتعظيماً ، وإجلالاً . فجميع أقوال اللسان وأعماله ، وأقوال القلب وأعماله ، تنبني على توحيد الله وعبادته ، وسخط عبادة ما سواه .

والرضا بالله رباً متضمنا كذلك الرضا بالقضاء والقدر ، ومستلزما له ؛ لأنه إذا رضي بالله رباً : رضي بأمره ونهيه ، ويستلزم ذلك أن يرضى بما يقسمه له ويقدره عليه ، ويعطيه إياه ، ويمنعه عنه ، فمن لم يرض بذلك كله لم يرض بالله رباً من جميع الوجوه . وهذا باعتباره فعلا واقعا من الله لا

---

[146]- صحيح مسلم رقم الحديث (34) وسنن الترمذي (2623)

باعتباره مفعولا له . وهذه الأمور هي أركان التوحيد : ألا يتخذ سواه رباً ، ولا إلهاً ، ولا غيره حكماً . قال تعالى : { أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا } [الأنعام: 114] . وقال تعالى : { أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا } [الأنعام:14]. وقال تعالى: { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ } [الأنعام: 164] .

وأما الرضا بمحمد صلى الله عليه وسلم : هو الرضا به نبياً ورسولا وهذا يتضمن الإيمان بنبوته ورسالته وطاعته ووجوب إتباعه صلى الله عليه وسلم والإقتداء به، قال تعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً } [الأحزاب:21] . وأما الرضا بالإسلام فيعني الإيمان بالإسلام وتطبيقه والاحتكام إليه والرضا به ديناً وأنه هو النظام والدين الوحيد الذي لا يقبل الله تعالى من أحدٍ ديناً سواه، ولا ينجو في الآخرة ويدخل الجنة إلا أهله. قال تعالى : { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [المائدة:50] . فلا يتم إيمان العبد إلا إذا آمن بالله ورضي حكمه في القليل والكثير، وتحاكم إلى شريعته وحدها في كل شأن من شئونه، ومن أبغض شيئا من حكم الله مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو عمل به فقد كفر ؛ لقوله تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } [محمد: 9]. وقوله تعالى :{ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ } [غافر : 12]

وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا بها وعليها ، فالرضا به سبحانه يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله والرضى بمحمد رسولا يتضمن شهادة أن محمدا رسول الله والرضى بالإسلام دينا : يتضمن التزام عبوديته وطاعته وطاعة رسوله فجمعت هذه الثلاثة الدين كله ، وبهذا الرضى نطق التنزيل ، قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } [الأحزاب:36] .

فاختياره تعالى لعبده نوعان : أحدهما : اختيار كوني قدري لا يسخطه الرب كالمصائب التي يبتلى الله بها عبده فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه ويدفعها ويكشفها وليس في ذلك منازعة للربوبية وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر . النوع الثاني : اختيار ديني شرعي فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له ربه وخالقه. قال تعالى : { فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } [النساء: 65]. أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسما مؤكدا بالنفي قبله على

عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج وهو ضيق الصدر وتنشرح صدروهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الانفساح وتقبله كل القبول، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضا حتى يضاف إليه مقابلة حكمه، الرضى والتسليم وعدم المنازعة وانتفاء المعارضة والاعتراض، فهنا قد يحتكم إليه وينتفي الحرج عنه في تحكيمه ولكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضى بحكمه، فقد ينتفي الحرج ويبقى القلب فارغ الانقياد والرضى به والتسليم له[147].

ثالثاً. شروط صحة المعتقد الإيماني :

بعد أن ذكرنا مقومات المعتقد الإيماني وأركانه وما يتفرع عنها من عناصر أساسية ،لا بد من توفرها جميعا حتى يكون المعتقد صحيحا ومقبولا عند الله تعالى ، سنبين الشروط الذي لا تتم صحة هذا المعتقد إلا بتوفر شرطين أساسين هما :

1- الإخلاص لله تعالى . 2- المتابعة والموافقة لشرع الله .

إن كل دين وطاعة ومحبة لا بد فيها من شيئين **أحدهما** : الدين المحبوب المطاع وهو المقصود المراد . **والثاني** : نفس صورة العمل التي تطاع ويعبد بها وهو الطريق والشريعة والمنهاج . وقد ابتلى الله تعالى العباد بالشريعة ؛ ليظهر منهم حسن العمل، فقال تعالى : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الملك: 2] وفسر الفضيل بن عياض حسن العمل بقوله: ((أخلصه وأصوبه))، وقال: العمل لا يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، الخالص : إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنة [148].

فهكذا هو الدين يجمع هذين الأمرين المعبود والعبادة . والمعبود اله واحد والعبادة طاعته وطاعة رسوله. فهذا هو دين الله الذي ارتضاه كما قال تعالى : { وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة : 3] . وهذا هو دين المؤمنين من الأولين والآخرين وهو الدين الذي لا يقبل الله من أحد غيره، وكل دين غيره هو دين فاسد باطل كمن عبد من لا تصلح عبادته أو عبد بما لا يصلح أن يعبد به .

---

[147]- راجع : ابن تيمية ،مجموع الفتاوى 327/10 ، ابن قيِّم الجوزية ، مدارج السالكين ، 2/183-189 ، الشنقيطي ، أضواء البيان 327/3 ، شذرات وقطوف، نجوى محمد الدمياطي، مجلة البيان 29- قعدة – 1410 ،23/29 ، الرضا بالقضاء ، د. سالم بن محمد القرني ، مجلة جامعة أم القرى العدد (21) 5/350-4455

[148]- معالم التنزيل للبغوي : 8 / 176

لأن العبادة مبناها على أصلين **أحدهما** : أن لا يعبد إلا الله وحده. فلا نعبد من دونه شيئا لا ملكا ولا نبيا ولا صالحا ولا شيئا من المخلوقات. **والثاني** : أن نعبده بما أمرنا به على لسان رسوله لا نعبده ببدع لم يشرعها الله ورسوله. ومن الآيات الجامعة لهذين الشرطين من الإخلاص والمتابعة ، قوله تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف : 110]. أما إنِ اختلّ شرطٌ من هذين الشرطين فليس عملاً صالحاً، وإنما هو عملٌ باطل. فإن اختلّ شرط الإخلاص، صار العمل حابطاً لما دخله من الشرك . وإنِ اختلّ شرط المتابعة صار بدعاً ومحدَثات ومخالَفات فهو مردود باطل [149].

1. الإخلاص : المنافي للشرك والنفاق .

إن أهم الأمور التي يجب على كل مكلف أن يأخذ نفسه بها، ويقيم أعماله عليها ، هو إخلاص القصد لله في سائر أحواله الظاهرة والباطنة، قال تعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ } [البينة : 5] ، وقال صلى الله عليه وسلم : { إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى } [150].

وضد الإخلاص الشرك والنفاق والرياء، وابتغاء غير وجه الله. فإن فقد العبد أصل الإخلاص ووقع في الشرك والنفاق فإن الشهادة لا تنفعه أبداً، قال تعالى : { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً } [الفرقان: 2] . والإخلاص في العبادة لله وحده هو حقيقة الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي لا نجاة لأحد إلا بالدخول فيه لقوله تعالى : { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام : 162-163] .

والإخلاص: هو تصفية الإنسان عمله بصالح النية من جميع شوائب الشرك والنفاق ، ومن فقد الإخلاص بهذا المعنى لا ينفعه حينئذ أي عمل يعمله؛ لأنه فقد الأصل، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً } [النساء :

---

[149] – راجع : ابن تيمية ، منهاج السنة 488/2 ، وقاعدة في المحبة 40 ، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد لشيخ صالح بن فوزان الفوزان ، ص94

[150] – رواه البخاري في صحيحه برقم (1) ومسلم في صحيحه برقم (1907)

48] . قال صلى الله عليه وسلم : " قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه " [151] . والقرآن والسنة حافلان بذكر الإخلاص، والحث عليه، والتحذير من ضده، ومن ذلك قوله تعالى :{ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ } [الزمر : 3] . وقوله تعالى : { قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي }[الزمر : 14] .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه " [152]. وفي الصحيحين : " فإن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله " [153].

ويدخل في ذلك الإخلاصُ إتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك بالاقتصار على سنته وتحكيمه، وترك البدع، والمخالفات، ونبذ ما يخالف شرعه من التحاكم إلى ما وضعه البشر من عادات، وقوانين؛ فإن رضيها أو حكم بها لم يكن من المخلصين.

2. الإتباع : المنافي للمخالفة من البدع الكفرية .

ونقصد بالإتباع هو المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الله لا يقبل من العمل إلا الموافق لهديه عليه الصلاة والسلام ، وعدم الزيادة والنقصان فيه . بل إتباع الرسول والبعد عن الابتداع ، قال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } [آل عمران :31] . وقال تعالى : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا }[الحشر : 7] ، وقوله صلى الله عليه وسلم: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " [154].

أي مردود عليه . فلا عبرة بالعمل ما لم يكن موافقا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن دلائل شرط المتابعة قوله تعالى : { أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الملك : 2] والعمل الحسن هو أخلصه وأصوبه فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه على متابعة أمره، عدا ذلك فهو مردود على عامله وهذان الشرطان في الحقيقة متلازمان؛ فإن من الإخلاص لله أن تتبع النبي . وإتباعه عليه الصلاة والسلام مستلزم للإخلاص ، ومما يدل على أهمية شرط المتابعة هو أن الله اختص نفسه بالتشريع، فهو حقه وحده، قال تعالى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

[151] - رواه مسلم برقم (2985)

[152] - رواه البخاري في صحيحه برقم (99)

[153] - رواه البخاري في صحيحه برقم (2697)ومسلم في صحيحه برقم (33)

[154] - أخرجه البخاري برقم (2697) ومسلم برقم (4493)

جمعه عبد القادر للعلوم الشرعية

إِلَيْكَ } [الشورى: 13]. وقال: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } [الأنعام: 153]. ومن تَعبَّد الله بغير ما شرع فقد شارك الله عز وجل في تشريعه، فقد أنكر سبحانه على من يشرع من عند نفسه ، قال تعالى : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ } [الشورى: 21] . وذلك أن الله أكمل لنا الدين، ورضيه لنا، في قوله تعالى : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً} [المائدة : 3] .

فالابتداع في الدين إنما هو في الحقيقة استدراك على الله وعلى رسوله واتهام للدين بالنقص . وكل عمل بلا متابعة لرسوله فإنه لا يزيد عامله إلاّ بعدًا من الله تعالى ، قال تعالى : { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النور : 63]. فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالأهواء والآراء . قال صلى الله عليه وسلم : " مَن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء المهديِّين الراشدين، تَمسَّكوا ها وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور؛ فإنَّ كلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة " [155]. ثم أرشد صلى الله عليه وسلم إلى ما فيه العصمة والسلامة ، وهو في الإتباع وترك الابتداع قال صلى الله عليه وسلم: " أمَّا بعد، فإنَّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها،وكلَّ بدعة ضلالة " [156].
وقال أيضا : " فمَن رغب عن سنَّتي فليس منِّي " [157].

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : " خط لنا رسول الله خطاً، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: (هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } [الأنعام : 153] " [158].

وقد اشتد غضبه وإنكاره صلى الله عليه وسلم في مسألة من الأساسات ، ما حصل في قصة عمر رضي الله عنه في قضية مصدر التلقي فقد روى أحمد في مسنده عَنْ جَابِرٍ : " أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

---

[155]- رواه أبو داود برقم (4607) ـــ وهذا لفظه ـــ والترمذي برقم (2676) ، وابن ماجه برقم (43 ــ 44) وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح)

[156]- رواه مسلم في صحيحه برقم (867)

[157]- رواه البخاري برقم (5063)ومسلم برقم (1401)

[158]- رواه ابن ماجة في سننه برقم (11) قال الشيخ الألباني : صحيح ، والحاكم في مستدركه برقم (2938) وقال: حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه

وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَقَالَ أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِي "[159].

فإن المسلم لا يصير مسلما حتى يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أقواله وأفعاله حسب علمه واستطاعته ، وإتباع الرسول صلى الله عليه وسلم مثل محبته من حيث كونه مقترنا بشواهد تؤكده ومظاهر عملية تحدده وبدونها يصير الإتباع دعوى مجردة عن الدليل . ومن أبرز مظاهر الإتباع التي إذا تحققت تحقق الإتباع وصدقت المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم والتأسي به : قال تعالى : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب :21] .

وإن مما يؤكد صدق الإتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحكيم سنته والتحاكم إليها وجعلها الميزان الذي توزن به الأقوال والأفعال والأحكام فما وافقها قبل وما خالفها رد ، كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } [النساء : 59]. وفي الأمر بالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله دلالة صريحة على أهما كافيان لفصل النزاع وتقديم الحل لكل مشكلة تقع بين المسلمين . قال تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء :65] أقسم سبحانه بذاته على أنه لا يثبت للمؤمنين الإيمان حتى يحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في موارد النزاع في كافة الأمور ، وأن هذا التحكيم غير كاف حتى يجتمع إليه الرضى بحكمه والتسليم لأمره مع انشراح صدورهم وطيب نفوسهم بقضائه وحكمه ، دون أن يعارضه بالشبهات والشكوك ، والشهوات والأهواء أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهاهم ، فنوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما نوحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل .

فإن تجريد المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، هو مقتضى شهادة أنَّ محمداً رسول الله ، وهو أحد نوعي التوحيد فإن التوحيد نوعان : توحيد المُرْسِل وهو الله وتوحيد متابعة الرسول . قال ابن أبي العز : " فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما ، توحيد المرسِل ، وتوحيد متابعة

[159]- مسند أحمد رقم 387/3وحسنه الألباني بشواهده في الإرواء رقم 1589 ومعنى متهوكون أي : متحيرون رقم 387/3

الرسول ، فلا يحاكم إلى غيره ، لأن التحاكم إلى غير ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو خروج عن مقتضى الإيمان " [160] .

هذه هي المنظومة العقدية بعناصرها الأساسية وفق مقررات الوحي الإلهي ولا بد تحققها كاملا عند تأسيس المعتقد الإيماني لدى المسلم حتى يكون اعتقاده صحيحا ومقبولا عند الله تعالى، وإن مجرد الإخلال بأي عنصر من عناصرها يؤدي بالضرورة إلى الخلل في المنظومة العقدية كلها، مما يجعلها عقيدة مردودة على صاحبها، ومرفوضة عند الله تعالى، تؤدي به إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، لأنها لا تنهض به إلى مقام العبودية الحقة الخالصة الواجبة على كل أحد وفي كل وقت . كما لا يقوى على مواجهة الصعاب أو الصمود في المواقف الحيوية الحاسمة، أو القيام بأعباء التكاليف، قال تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } [الحج : 11] .

فالعقيدة إن لم تؤسس بجميع عناصرها كما قرره الوحي الإلهي، فهي سرعان ما تتهاوى أمام المحن والابتلاءات، فسنة الابتلاء الإلهي لا تترك عقيدة منحرفة أو إيماناً مدخولاً دون أن تكشف حقيقته، قال تعالى : { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [العنكبوت : 2-3] .

فالإيمان ليست دعوى انتساب لا يستند إلى أساس عقائدي سليم ولا ينبثق عنه ممارسة إيمانية، ولذلك فإن الله اقتضت سنته الحكمية كما قررها في كتابه أن يميز صدق الإيمان وصحة المعتقد من عدمه من خلال وقائع الحياة العملية .

فإن كان الإيمان مدخولاً والمعتقد منحرفاً فلا بد أن يتبدى وينكشف عند الممارسة والتطبيق في ميادين الحياة، قال تعالى :{ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } [التوبة : 75-77].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[160]- مؤلفات د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني 14/13 ، شرح الرسالة التدمرية، الشيخ عبدالرحمن بن ناصر البراك 436 ، حلية الأولياء 8 / 95 ، سائل الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد في العقيدة 11/2 ، توحيد الألوهية، للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد 9/1 ، شرح الطحاوية في العقيدة السلفية ، بن أبي العز الحنفي ، تحقيق أحمد محمد شاكر، محبة الرسول بين الاتباع والابتداع ، عبد الرءوف محمد عثمان 167، اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، محمد بن عبد الرحمن الخميس 81 ، الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة 3/1

وقال تعالى : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا } [النساء : 142-143] . إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف عن الحقيقة الإيمانية وما يلابسها من إيمان دخيل ومعتقد وفاسد، وإن ظاهرة النفاق من الظواهر القرآنية التي تستحق التأمل والتدبر لمالها من دور بارز في تحديد الضوابط الفاصلة للحقيقة الإيمانية مما قد يلابسها من دخن وغبش، وهي ظاهرة خطيرة كونها هجين مختلط بين الكفر والإيمان مصداقا لقوله تعالى : { هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } [آل عمران : 167] .

ولذلك نجد أن القرآن جاءت آياته حاسمة وقاطعة وحاشدة في فضح المنافقين وذكر العلامات الفارقة لأحوالهم وصفاهم بشواهد ظاهرة تعرية لهم وحماية للمجتمع الإسلامي من خطرهم وصيانة للحقيقة الإيمانية مما قد يخالطها من عماية وتدسية، لتبقى واضحة ناصعة من كل ما يعتريها من غبش ويخالطها من لبس، قال تعالى : { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام : 55] .

فآيات القرآن جاءت في تقرير الحقيقة الإيمانية وتفصليها وذلك من خلال بيان المنظومة العقدية المتكاملة بجميع عناصرها ومقتضياها ومستلزماها وبيان كل ما يناقضها بصورة واضحة وقاطعة بما لا يتطرق إليها احتمال أو يقبل الاختلاف، كما بين أثارها من الوجهة العملية والواقعية وما يترتب عليها من نتائج مستقبلية قريبة وبعيدة، لذلك كان من الأمانة بيان حقيقة هذه المنظومة العقدية المتكاملة وما يقتضيها من مستلزمات وفق مسارها القرآني والنبوي والواقعي، وإن العدول عنها إلى ظنون العقول ونزعات الهوى لهو جناية بحق هذا الدين، وتضليل للعباد وخروج عن نهج الله تعالى وعماية عن مراده .

ولقد كان لهذا الانحراف عن منهج الوحي الأصيل بفعل الارتداد الواقعي في التاريخ الإسلامي بعوامله المختلفة دور كبير في جعل العقيدة مبتورة الأوصال عن مقوماها وعناصرها، مفرغة من مضامينها ومقاصدها، بعيدة عن تحقيق أهدافها، معزولة عن حياة الإنسان وسلوكه وعن واقع البشر ونظامهم ، حتى أصبحت تائهة بين أقلام الخصوم ومذاهب الفرق، حائرة بين جدل الأفكار ومنازعة الآراء، حتى هوكت الأمة هوك اليهود والنصارى ـــ أي متحيرون في دينهم ـــ فبعد أن كانت عقيدهم نقية صافية، أصبحت عقيدة عقيمة لا تثمر، هزيلة لا تصمد، مضطربة لا تتمالك،

لأنها انحرفت عن منهج الوحي الإلهي وما كان عليه جيل الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان . فحينما كان الصحابة ينهلون عقيدتهم من نبع القرآن ومعين النبوة، أثمرت نباتا طيبا بإذن ربها، واستحقوا بذلك الوصف القرآني كما في قوله تعالى: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح : 29] . فبهذا الاعتقاد السلوكي والسلوك الاعتقادي قام الإسلام أفراداً ومجتمعاً ودولة وحضارة، ومن غير تأسيس العقيدة وفق مقررات الوحي الإلهي لن يحقق المسلم دوره وفاعليته، ولن تنهض الأمة الإسلامية في ممارسة دورها الحضاري والريادي في قيادة العالم .

قد يستهين البعض بهذه الحقيقة وبأهمية دور عقيدة التوحيد وفاعليتها في الحياة ، ولكنها هذه الحقيقة المطلقة التي يقررها القرآن بنصوصه القاطعة، وهي الحقيقة الثابتة التي يكشفها قانون التاريخ الإنساني عبر مسيرته الطويلة، وهي الحقيقة التي يدركها العقل وفق منطق الحكمة والرشد .

فبهذا المعتقد الإيماني الذي يقوم على أساس التوحيد، توحد كيان الإنسان ـــ فكره وشعوره وسلوكه تحت عنوان العبودية لله وحده ـــ وتوحد كيان الأمة ـــ شعباً وقيادة تحت عنوان الحاكمية لله وحده ـــ ومن ثم حققت العقيدة دورها وفاعليتها وإيجابيتها على مستوى الفردي والجماعي والعالمي .

ومن هنا ندرك حالة الضعف والتردي الذي أصاب الأمة وأفرادها في واقعنا المعاصر بسبب حالة الانفصام النكد بين الإنسان وخالقه، حيث لم تعد عقيدة التوحيد هي المهيمنة على الحياة الإسلامية، فأصبحت العقيدة في كيان الفرد المسلم مفصولة عن واقعه ونظام حياته ، وأصبحت في كيان الأمة مجرد مظاهر دينية مفصولة عن جميع ميادين الحياة ومجالاتها، حتى أصبحت الأمة الإسلامية شعوبا وأفرادا تغشاها ظلمات بعضها فوق بعض مصداقا لقوله تعالى :{ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } [النور : 40] . وإن الخروج من هذه الظلمات المتراكمة لن يكون إلا بنور الوحي الإلهي، حينما يكون هو وحده مصدر التلقي في العقائد والشرائع .

وعليه فإن الإصرار على هذا الانحراف عن منهج الله تعالى على رغم قواطع الأدلة من العقل والنقل والواقع ، هو في حقيقته عماية وجهالة وعين المكابرة، ومن رحمة الله وعنايته أنه لا يستأصل هذه الأمة إذا انحرفت عن منهجه سبحانه ، وإنما يربيها بالمصائب حتى ترجع إليه متضرعة تائبة. مصداقا لقوله تعالى: { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم : 41] . فإن لم نرجع إلى دين الله تعالى حق علينا سنة الاستبدال مصداقا لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [التوبة : 38-39] وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة : 54] .

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ الفصل الثاني ـ

القصــص القــرآنــي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد :

إن القصة على العموم هي المُشكل الأول لعقل الطفل ولغته ، والمُكون الأساسي لثقافة الإنسان، ومن هنا ندرك أهمية هذا الفن . فالقصة تربط الماضي بالحاضر لتصنع المستقبل لأنها حوار بين الذات والتاريخ . وبإهتماماً بالقصة الجادة نواجه النص الضد ، ونحصن عقولنا من التلوث الفكري، وأدب السوق الرخيص الذي يزاحم الفضيلة ويتمدد على حساب قيمنا، وكذلك نصد عدونا مما يريده بنا .

فالقصة مدرسة مفتوحة تكسر حدود العرف، وتتخطى حواجز الزمن والمكان ، وتستخدم اللغة وتخدمها وتعلم الأمة وتمتعها، وتنقل عبر هذه الوسيلة المثيرة تجارب الآخرين الناضجة .

ولئن كانت القصة بهذه المنزلة فإن توظيفها يغدو مسؤولية شرعية ، وقدوة حسنة بكتاب الله تعالى، لا سيما أن القرآن قد وظف القصة في تحقيق أغرضه الدينية كما سنبيّنه في هذه الدراسة ، لأنه من الضروري أن نكشف عن دور القصة في هذا المجال من أجل محاولة إعادة القصة القرآنية إلى مسارها الطبيعي في تحقيق دورها التربوي للمعتقد والسلوك الإيماني، بعدما انحرفت عن وجهتها الحقيقية ، وأصبحت في مركب السرد التاريخي .

ولا يخفى على المتدبر البصير آثار هذا التحول الخطير على واقع الفرد المسلم والحياة الإسلامية . فكان من الضروري بيان دور النموذج القرآني في القصة ومدي فاعليته في صناعة المسلم وصياغة الحياة الإسلامية [161].

إن القصة القرآنية وإن كانت تتمحور حول حدث من الماضي ، فهي قادرة على تحريك الزمن، ومن ثَمَّ الملتقى في كل اتجاه ، بوصفها بنية عقدية تشريعية ، تربوية ، تاريخية ، زمانية ، مكانية ، أداتها اللغة، وقراؤها لأداء العبادة في الصلاة والتلاوة تعلماً وتعليماً يعدون بمئات الملايين، فمن حق هؤلاء أن تكون بين أيديهم قراءة واعية وعميقة للقصص القرآني وصولاً إلى الفهم الحقيقي الشامل لخطاب الله تعالى، وتأسيساً لمعرفة قرآنية إسلامية تعطي النص الإسلامي دوره المطلوب في تكوين المعتقد الإيماني للمسلم من تشكيل عقله وبنائه النفسي، وكذلك في صياغة الأمة الإسلامية كونها وارثة لواء النبوة عبر مسيرتها الطويلة . والقيِّمة على الحضارة الإنسانية في

---

[161] – مقدمة في بناء الرواية (1)، خواطر عن القصة في القرآن الكريم , د . مصطفى السيد ، مجلة البيان ، 42/33

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نشر قيم الحق والعدل ، وهي قوامة رعاية وعطاء، لا قوامة تسلط واستغلال . فالقصص القرآني ليست قصة فرد أو قصة أمة (بل قصة البشرية جميعاً) [162] .

فالمسلم يدرك بتأمل القصص القرآني عموماً أنه سليل أمة متميزة بعقيدتها، ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، قادتها الأنبياء ، وهويته العقيدة ، كما في قوله تعالى: { إنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء 92] . كما يدرك أوجه الشبه بين دعوة رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم وإخوته من الأنبياء السابقين عليهم السلام [163] . فيعلم ديمومة الصراع القائم بين الحق والباطل، وأن شرف الجندية لخدمة هذه الدعوة المباركة من أعظم ما صرفت فيه الأعمار [164]. قال تعالى: { ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وعَمِلَ صَالِحاً وقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [فصلت 33] .

إن دراسة القصة القرآنية يجب أن تتم قراءتها وفق منهجية دراسة القرآن نفسه، والتعامل معها بوصفها وحياً إلهياً، والتي من أبجديات هذه المنهجية هو : " أنصت ودع القرآن يتكلم " فلا نشاغب عليه بأصوات عقولنا القاصرة المحدودة ، فنحرم فهم مراد الله تعالى ، وتتبدد جهودنا في مساحة الحياة القصيرة في هذه الدنيا، بينما نجد كيف كانت البركة في حياة الصحابة الكرام الذين أحدثوا انقلاباً عاماً في واقع البشرية كلها، وبدلوا موازين القوى العالمية في سنوات معدودة ، وغيروا مسار التاريخ الإنساني، لأن منهجيتهم في التعامل مع كتاب الله هو: " أفهم واعمل " ففهموا أحسن الفهم وعملوا أحسن العمل، فكان لهم خير الجزاء في الدنيا والآخرة .

لذلك ينبغي أن يكون حالنا مع كتاب الله هو حال المتلقي لرسالة ربه بتلهف شديد وأدب جمّ، فلا نقدم آراءنا المهزولة على من بلغ غاية الإعجاز في قوله لفظاً ومعنى . ثم نحاول فهمها باستنارة فكرية مع وقائع حياتنا المتجددة لنصل إلى أحسن الفهم، ثم نترجمه في ساحة الميدان واقعاً ينبض بالحياة .

إن غياب دراسة القصة القرآنية دراسة جادة وفق مقاصد القرآن وأهدافه، اقفل الباب على وسيلة مهمة من وسائل الفهم للخطاب الإلهي، وحرم الأمة من رافد مهم من روافد التربية

---

[162] – أنظر : د. مصطفى السيد، مقدمة في بناء الرواية (2) ، البيان الأدبي, مجلة البيان ، 53/65، الكريم ، وثروت أباظة، السرد القصصي في القرآن ، ص10

[163] – سيكولوجية القصة في القرآن ، د تهامي نقرة، الشركة التونسية للتوزيع، ص 124،

[164] – مقدمة في بناء الرواية (2) ، البيان الأدبي , د . مصطفى السيد ، مجلة البيان ، 53/65

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإسلامية، وحجب الدعوة الإسلامية من فقه سنن التاريخ، إلى غير ذلك من الآثار السلبية في واقع الأمة والحياة الإسلامية .

إننا يجب أن نعيد قراءة القصة القرآنية ببعدها التربوي العقدي والسلوكي، لنتمكن من تشييد فضاء واسع يتجلى في منظومة متكاملة تحقق للسلم فهماً شاملاً وكاملاً للقصص القرآني ، بحيث تؤدي فاعليتها ودورها الذي أراده سبحانه وتعالى، وتعيد للأمة سالف مجدها وعزها .

فمن المعلوم لكل متتبع لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يربي العصبة المؤمنة في الفترة المكية، فترة البناء والتكوين العقدي على القصص القرآني ، ثم صنع بهذه التربية القرآنية معجزة أخرى تضاف للمعجزة القرآنية ، وما زالت المعجزة قائمة تنتظر الرجال الذين يكونون أهلاً لهذه المعجزة . وتنتظر من يجيب!

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ المبحث الأول ـ

مفهـــوم القصـــص القـــرآنـــي

– المطلب الأول : المعنى اللغوي والاصطلاحي للقصص .

أولاً : المعنى اللغوي للقصص .

لقد وردت مادة (قصص) في معاجم وقواميس اللغة ، نذكر أهم ما جاء فيها علـى النحـو الآتي:

1. قال ابن فارس في مقاييس اللغة : (قص) القاف والصاد أصلٌ صحيح يدلُّ على تتبُّع الشَّيء ، من ذلك قولهم : اقتصَصْتُ الأثَر ، إذا تتبَّعتَه . ومن ذلك اشتقاقُ القِصاص في الجِراح، وذلـك أنَّه يُفعَل بهِ مثلُ فِعلهِ بالأوّل، فكأنَّه اقتصَّ أثره. ومن الباب القِصَّة والقَصَص، كلُّ ذلـك يُتَتَبَّـع فيذكر. وأمَّا الصَّدر فهو القَصُّ، وهو عندنا قياسُ الباب، لأنَّه متساوي العِظام، كأنَّ كلَّ عظـم منها يُتْبع للآخَر. ومن الباب: قَصَصت الشّعر، وذلك أنَّك إذا قَصَصْتَه فقد سوَّيتَ بينَ كلِّ شعرةٍ وأُختِها، فصارت الواحدةُ كأنَّها تابعةٌ للأخرى مُسَاويةٌ لها في طريقها[165] .

2. قال الإمام الراغب في مفرداته : القص تتبع الأثر ، يقال قصصت أثره .والقصص: الأثر، والقصص: الأخبار المتَتَبَّعة [166]، قال تعالى: { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ } [آل عمران: 62] .

3. وقال أبو البقاء في الكليات : القصة هي الأمر والخبر وقصصت الحديث رويته على وجهه، ومعنى قوله : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } [يوسف:3] . نحن نبين لك أحسن البيان ، وقَصَّ عليه الخبر قَصَصاً بفتح القاف ، والقِصَص بكسر القاف ، جمع قِصة .

4. وقال ابن منظور في اللسان كلاما فيه تفصيل وإطالة واستشهد بالقرآن والسنة والأخبـار والأمثال والنقول والأقاويل ونوجز ما قاله في القصة : قال الأَزهري القصُّ إتِّباع الأَثـر ويقـال خرج فلان قَصَصاً في أَثر فلان وقَصّاً وذلك إذا اقْتَصَّ أَثره ، والقَصِيصَةُ البعيرُ أَو الدابةُ يُتَّبع بهـا الأَثرُ. ويقال قَصَصْت الشيء إذا تتبَّعْت أَثره شيئاً بعد شيء ومنه قوله تعالى : { وَقَالَتْ لِأُخْتِـهِ

---

[165] – أنظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، 5/7-8

[166] – مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ،671

قُصِّيه } [القصص: 11]. أي اتّبِعي أَثَرَه ، وقَصَّ آثارَهم يَقُصُّها قَصّاً وقَصَصاً وتَقَصّصَها تتبّعها بالليل وقيل هو تتبع الأثر أيَّ وقت كان ، قال تعالى : { فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا } [الكهف: 64]. ومعنى فارتدّا على آثارهما قَصَصاً أي : رَجَعا من الطريق الذي سلكاه يَقُصّان الأَثر أي يتّبعانه ، وقال أُمية بن أَبي الصلت : قالت لأُخْتٍ له قُصِّيهِ عن جُنُبٍ ... وكيف يَقْفُو بلا سَهْلٍ ولا جَدَدِ؟

وقيل القاصُّ يَقُصُّ القَصَصَ لإتْباعه خبراً بعد خبر وسَوْقِه الكلامَ سوقاً وتَقَصّصَ الخبر تتبّعه والقِصّة الأَمرُ والحديثُ واقْتَصَصْت الحديث رَوَيْته على وجهه ، والقاصُّ الذي يأْتي بالقِصّة على وجهها كأَنه يَتَتَبّع معانيَها وأَلفاظَها . والقصّة معروفة ويقال في رأْسه قِصّةٌ يعني الجملة من الكلام ونحوُه قوله تعالى : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ } [يوسف:3]. أي نُبَيّن لك أَحسن البيان[167] .

بعد الإطلاع على معاجم وقواميس اللغة والوقوف على أقوال أهل اللغة في تعريفاتهم لمادة (قصص) وتتبع معناها اللغوي من خلال النظر في تعريفاتها واشتقاقاتها واستعمالاتها يلاحظ أن معنى القصص يقوم على أمرين مترابطين ومتداخلين وهما :

الأول : المتابعة والاقتفاء .

الثاني : المطابقة والمساواة .

فإن الدلالات اللغوية لمادة (قصَّ) تعني في الأصل: (التتبع) سواء كان التتبع ، مادياً كقص العظام ، وقص الشعر ، وقص الأثر ، أو كان التتبع معنوياً كقص الأخبار ، وقص الكلام . ولا يكفي مجرد التتبع بل لا بد أن يكون هذا التتبع والاقتفاء (مطابقاً أو مساوياً) في الماديات والمعنويات ، فأما المساواة في الجانب المادي فهو وضع الجميع على مقاس واحد لا يطول ولا يقصر كما في قص الشعر والحجر والعظم إلى غير ذلك، وأما المساواة في الجانب المعنوي فهو أن يكون الخبر مرويا كما هو من غير إضافة على الأصل ولا نقصان ، فعلى القاص أن يكون كلامه مطابقاً للواقع فيتحرى فيه الصدق ويجتنب الكذب . لذلك لا بد من تحقيق التتبع والمطابقة أو المساواة في كل رواية أو إخبار عن أحداث السابقين ، ووقائعهم . وقد أسس القرآن المنهج القويم في رواية التاريخ ، من حسن التتبع والجمع ، قال تعالى : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[167]- أنظر : لسان العرب ، ابن منظور ، 7/73-74

الْقَصَصِ } [يوسف : 3] .وحسن التساوي بين الرواية والحدث السابق[168] ، قال تعالى: { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ } [آل عمران: 62] .

ثانياً : المعنى الاصطلاحي للقصص .

لقد وردت كثير من التعريفات لمفهوم القصة في الاصطلاح ، وقد ذكر العلماء تعريفاتهم المتعددة باعتبارات وحيثيات مختلفة ، يمكن بيانها على النحو الآتي :

1. عرف بعضهم القصة من حيث أنواعها بقولهم : " أنها أخبار عن أحوال الأمم الماضية والوقائع الحاضرة والحوادث السابقة " [169].

حيث أن القصص في القرآن يشتمل على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : قصص الأنبياء ، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم ، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين . كقصة نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون ، وعيسى ، ومحمد ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام .

النوع الثاني : قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة ، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . وطالوت وجالوت ، وابني آدم ، وأهل الكهف وذي القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبت ، ومريم ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله كغزوة بدر وأُحد في سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك في التوبة ، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب ، والهجرة ، والإسراء ، ونحو ذلك[170] .

2. ومنهم من عرف القصة باعتبار الغاية منها ، ومن ذلك ما ذكره الرازي بأنها : " مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة " [171].

3. ومنهم من عرف القصة تعريفاً جامعاً لعناصرها بقوله : القصة هي : " خبر عن حوادث حسية ونفسية تدور حول شخوص محدودة الزمان والمكان والمراد بالخبر هو العلم المنقول حكاية

---

[168]- راجع : د.صلاح الخالدي ، القصص القرآني ،ج1/19-21

[169]- علوم القرآن مناع قطان،316/1

[170]- أنظر : القصص في القرآن الكريم ، إسلام محمود دربالة ، ص2

[171]- تفسير الرازي، 245/4، سورة القصص دراسة تحليلية، الدكتور محمد مطني 10/1

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ورواية، والحوادث هي الظواهر المحسوسة أي المدركة بحاسة من الحواس المعروفة، والحوادث النفسية هي الباطنة في الضمائر والنيات والمشاعر، والشخوص هي الشخصيات أفراداً وجماعات، وحدود الزمان هي البداية والنهاية المحدودة بوحدة زمنية كاليوم والشهر والسنة، وحدود المكان المساحة من طول وعرض مع الارتفاع في الحجم " [172].

4. ومنهم من عرف القصة من حيث خصائصها ، بقوله : " هي أنباء وأحداث تاريخية لم تلتبس بشيء من الخيال و لم يدخل عليها شيء غير الواقع ومع هذا فقد اشتملت على ما لم يشتمل عليه غيرها من قصص من الإثارة والتشويق مع قيامها على الحقائق المطلقة ، الأمر الذي لا يصلح عليه القصص الأدبي بحال أبداً " [173].

***التعريف المناسب لمفهوم القصص القرآني .**

بعد الاطلاع على ما ورد من تعاريف القصص القرآني يمكن أن نقدم تعريفاً جامعاً ومبيناً لحقيقته : (**بأنه إخبار القرآن عن الحوادث التاريخية بصورة انتقائية لتحقيق غرض ديني ، تشكل بمجموعها نموذجاً واقعياً ومثالياً ومتكاملاً لحقائق الإيمان**) .

وهذا التعريف يمتاز بما يلي :

أ. انه يحدد مفهوم القصص بالإخبار الذي هو ركن أساسي في القصة

ومعلوم أن هناك فرق بين القصص والحديث والإخبار ، فالقصص أخص من الحديث والإخبار ؛ فالقصص ما كان طويلا من الأحاديث متحدثا به عن سلف ، وسمي الخبر الطويل قصصا، لان بعضه يتبع بعضا حتى يطول وإذا استطال السامع الحديث قال هذا قصص، وأما الحديث يكون عمن سلف وعمن حضر ويكون طويلا وقصيرا . ويمكن أن يقال القصص هو الخبر عن الأمور التي يتلو بعضها بعضا، والحديث يكون عن ذلك وعن غيره [174].

ب. وأن هذا الإخبار متعلق بالحوادث التاريخية الماضية التي تشمل جميع أنواع القصص من إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، فالقرآن الكريم قد اشتملت قصصه على ما حدث من أخبار القرون الأولى في مجالات الرسالات السماوية ، وما

---

[172]- علي بن نايف الشحود ، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ،335/5.

[173]- عبد الكريم الخطيب ، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه ص49

[174]- أنظر : الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، رقم (1732) ص430

كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال . والذي يبدو أن التعريف الاصطلاحي للقصص يعني أحاديث الأخبار الماضية ، أو غير المرتبطة بزمن محدد . ولكنها في القُرْآن الكَرِيم دالة على التاريخ الماضي حصراً .

ج. أنه ربط هذا الإخبار بالقرآن بحيث يأخذ حكمه في كونه كلام الله ، المتعبد بتلاوته ، المعجز ببلاغته والذي تحدى به خصومه ، ليكون دليلاً قاطعاً على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، كونه صادراً من عند الله ودالاً على سعة علمه وبالغ حكمته وعظيم قدرته وواسع رحمته ، وهذا يعني أن أخباره وقصصه لا يتطرق إليها شك مطلقاً.

لأنه بلغ أعلى درجات الصدق من اليقين الجازم ، وهو كذلك جاء محققاً لأهداف القرآن ومقاصده .

د. وأما القول بأن إخباره عن الحوادث التاريخية { انتقائية } وهو أن القرآن ليس كتاباً تاريخياً ، وأن الأخبار التاريخية المذكورة في القرآن ليست مقصودة لذاتها، وإنما المقصود هو تحقيق غرض ديني ، لذلك فإن المتتبع للقصص في القرآن يلاحظ أنه يختار من الأحداث والوقائع والأشخاص التاريخية ما يصلح نموذجاً مثالياً لتحقيق أهدافه ومقاصده .

هـ. وأما ذكر الغرض الديني في التعريف لأنه هو المقصود من ذكر القصة في القرآن ، فهو يوظف القصة توظيفاً دينياً لما امتازت به القصة من تأثير بالغ في النفوس .

و. إن هذه القصص في القرآن متصلة الحلقات بحيث تشكل بمجموعها منظومة متكاملة للحقيقة الإيمانية متجسدة في واقع حركي ملموس ، فهي منظومة متكاملة للعقيدة ، متمثلة في نموذج واقعي ، ومثال حي ، وهي صالحة لتكوين المعتقد الإيماني وتأسيسه بصورة فاعلة ومؤثرة . من خلال طرح أفضل النماذج التاريخية وأمثلها لتجسيد الحقيقة الإيمانية في واقع حي ومثال صادق . بحيث تقيم الحجة ، وتحقق العبرة بصورة فاعلة ومؤثرة . لأنه لا يطرح العقيدة طرحاً نظرياً بارداً ، بل يطرحها طرحاً عملياً فاعلاً متجسداً في أحداث واقعية وشخوص حقيقية .

فالقصص القرآني قد اشتمل على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد والديار. وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه . وهناك قاعدة رائعة تتكرّر في القرآن ، وهي أن كل قصة نبي من أنبياء الله تختتم بآية أو بمجموعة آيات تبين العبرة من القصة . إن الموعظة الخطابية تسرد سرداً لا يجمع العقل أطرافها ولا يعي جميع ما يلقى فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرء إلى سماعها، ويصغي إليها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات، وقد أصبح أدب القصة اليوم فناً خاصاً من فنـــون اللغة وآداها، والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل، ويصوره في أبلغ صورة [175].

إلا أن هناك فرقاً واضحاً بين القصة الأدبية والقصة القرآنية : فالقصة: هي أحد أنواع النثـــر الفني، ونمط من أنماط الأساليب الجمالية، تقوم على عوامل كثيرة، مـــن التشـــويق، والحـــوار، والحبكة، والوحدة الموضوعية، وحل المشكلات عن طريق تسلسل الأحداث وربـــط المشـــاهد بعضها ببعض ، والقصة عامة كونها لون من ألوان الأدب قديما وحديثا تقدم الحقائق المختلفـــة، كما تقدم الخيالات والمبالغات والأساطير ، وما إليها. وقد يكون هـــدفها التعـــبير، والنصـــح، والتوجيه ، كما قد يكون هدفها مجرد المتعة الذهنية والعاطفية ، وقد تتخذ وسيلة للحق والخير ، وقد تتخذ وسيلة للباطل والشر.

لكن القصة في القرآن الكريم تتميز عن سائر أنواع القصص بأنها منزهـــة عـــن أي نقـــص في شكلها وفي مضمونها، ومنزهة عن الخيالات والأوهام، والأساطير، والأباطيل ، وهـــي عفيفـــة الأسلوب، طاهرة اللفظ والمعنى، حيية السياق والعرض ، بارعة التركيب، سامية القصد، حســـنة الهدف.

وهي تضم إلى جانب الإيضاح، والتعليم، والنصح جوانب الإقناع الذهني والنفسي والعلمي والأدبي، وتضم إلى جانب عرض الحقائق الدينية الحقائق التاريخية والاجتماعية والثقافية . ومن هنا جاءت القصة في القرآن الكريم تحمل لواء الدعوة إلى الإسلام وتعرض مبادئه، وكانت أسلوبا من أساليب الدعوة إلى الله [176]، قال تعالى : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَـــانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُـــونَ } [يوسف : 111] .

ومن أوجه الاختلاف بين القصة الدينية والقصة الفنية، أن القصة القرآنية تشيع فيها التعليقات التي تلخص مغزى القصة، التي تسبق سرد أحداث القصة، أو تلحق السرد، أو تأتي خلاله لتفسر أسباب تلك الأحداث بما يبررها حتى يكون لها وقعها في النفوس بما يستخدم في التعقيب عليها من أساليب التذكير والوعظ والزجر، ومن الأمثلة على ذلك طريقة عرض قصة أهل الكهف إذ

175 - أنظر : موسوعة البحوث والمقالات العلمية- قصص الأنبياء ، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود ص1ـــ2

176 - أنظر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد 52، 370/23

تلتقي بملخصها في ثلاث آيات ثم يأتي التفصيل. فالقصة القرآنية تحرص على إبراز المغزى في حين لا يجوز ذلك في القصة الفنية .

فالقصة القرآنية قصة إيمان وهدفها تربية العقيدة في الوجدان الإنساني، والقرآن الكريم جاء لكل العقول والاتجاهات، وبعض الناس قد لا يستطيع استنتاج العبرة من القصة، فكان لابد من إرشاده إلى الغرض الذي تجسده بأسلوب يغلب عليه التبسيط أحياناً لتوضيح العبرة ليفهمها كل إنسان. ولكن هذا لا يعني أن القصة القرآنية تأخذ بالتقرير والمباشرة وإنما هي تهتم بالتصوير والتجسيم والاستحضار والإيحاء . فسورة يوسف من أولها إلى آخرها لم تقل شيئاً عن وسامة يوسف عليه السلام ، لكننا نرى الوسامة الأخاذة في أعين النسوة اللائي عندما رأينه ، قطعن أيديهن لفرط الذهول من وسامته . فحقيقة جمال ووسامة يوسف قدمت لنا مجسمة تكاد تنطق في قوله تعالى : { فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } [يوسف: 31] . والتضعيف في الفعل (قَطَّعن) أسهم في إيضاح الموقف وتصويره بحيث يمكننا تخيل مشهد النسوة وهن يقمن بتقطيع أيديهن، فتشبيه يوسف بالملك الكريم يعني أن جماله فاق الوصف [177].

[177]– القصة في القرآن الكريم.. الخصائص والدلالات، د. إبراهيم الصعبي ص8

ــ المبحث الثاني ــ

أهــداف القصــة القــرآنيــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن القصص له تأثير عظيم في نفوس المخاطبين لذا تجد أن القرآن وظفه في تحقيق أهدافه في تأسيس المعتقد الإيماني، من حيث البناء الفكري والبناء النفسي للشخصية الإسلامية , وصولاً للممارسة الإيمانية ، ثم ينتقل من بناء الأفراد إلى البناء الجماعي على مستوى الأمة ، ومن ثم تنطلق الدعوة الإسلامية إلى الغير في نشر لإسلام للعالم وفق منهجه وسننه،

فالقصص القرآني هو من أكثر الأساليب تأثيراً في ترسيخ مفاهيم العقيدة وتثبيتها في النفوس، وقد ربى الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة رضى الله عنهم من خلاله على معاني الإسلام كلها: عقيدةً وعبادةً وخلقًا وسلوكًا، وكان القصص القرآني بمثابة جذب لذاكرة النبي صلى الله عليه وسلم نحو عبر الماضي؛ لينتفع بها في الحاضر، فالتجربة البشرية واحدة ، والتاريخ يعيد نفسه ، يقول تعالى: { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ } [الذاريات: 52]. قد مرت آيات فيها دعوة للرسل إلى تذكر التاريخ ، وتذكير أممهم به ، مثل قوله تعالى لنبيه موسى : { وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ } [إبراهيم: 5]. كما يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [هود: 120]. وفي تذكير البشر بالقرون السابقة يقول تعالى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ } [ق: 37]. بعد قوله تعالى: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ } [ق: 36].

فالتاريخ ذاكرة البشر ومُلهم المواعظ ، وكلما عرفت الأمم ماضيها أقامت على أصح التجارب مستقبلها ، ولذلك عني القرآن الكريم بدعوة الأمم إلى السير في الأرض والنظر في أخبار السابقين، ولكن القصص في القرآن لا يرد لمجرد القصص، وإن كان مشتملا من الناحية الفنية الجمالية على عناصر الجمال الفني التي تجعل له مدخلا لطيفا إلى النفس، فيكون أبلغ تأثيرا فيها، مما لو كان مجرد فكرة أو قضية تخاطب العقل وحده ولا تخاطب الوجدان، ولكن الروعة في هذا

القصص أنه – مع جماله الفني – يؤدى هدفاً دعوياً مما يشتمل عليه كتاب الدعوة الأعظم ، في تناسق كامل بين الهدف الدعوى والجمال الفني .

وإذ كانت الأهداف الدعوية كثيرة ومتعددة ومختلفة، يجئ القصص القرآني في صورة مختلفة في كل مرة، متناسقة مع الهدف المقصود من إيراد القصة، مع توافر الجمال الفني في كل مرة.

فالقرآن لم يتناول القِصّة باعتبار أنّها عمل فني مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيها. كما أنّه لم يأت بها من أجل الحديث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونهم، أو من أجل التسلية والمتعة كما يفعل المؤرخون أو القصّاصون، فالتحديد التاريخي ليس هدفاً من أهداف القصة القرآنية؛ ولا يزيد في دلالتها شيئاً. وإنّما كان الغرض من القِصّة في القرآن الكريم هو: المساهمة مع جملة الأساليب العديدة الأُخرى التي استخدمها القرآن الكريم؛ لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء من أجلها، وكانت القِصّة القرآنية من أهمّ هذه الأساليب.

فالقصص القرآني أجلّ وأسمى من أن يكون هدفه السرد التاريخي للمتعة والتسلية وإضاعة الوقت. فتلك غاية الروايات، وكتب الحكايات، بل إن الناقد المنصف يجد أن أي نص من نصوص آيات قصص القرآن الكريم، له علاقة وطيدة بالغايات الروحية والتربوية والخلقية . فالجوانب التربوية في القصص القرآني تتأثر بالنواحي الإيمانية المنصوص فيها، وبالجوانب الأخرى التي تستنبط منها، وفيها دلالات واسعة يزداد المسلم معرفة وإيمانا ويقينا بربه .

فالقرآن الكريم يمثّل رسالة دينية تهدف إلى إيجاد عملية التغيير بأبعادها المختلفة، خلق القاعدة الثورية القادرة على تحمّل المسؤولية ، من أجل تحقيق التغيير الجذري للأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية ، من خلال بيان المنهج الصحيح للحياة الإنسانية الذي يتمّ على أساسه هذا التغيير، والذي يعبّر عنه القرآن الكريم بـــ (الصراط المستقيم). وقد تأثرت القِصّة في القرآن بهذه الأهداف العامة من نزول القرآن [178].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[178] – راجع : الوجيز في مقومات الداعية، السيد مختار ، ص 23، التربية القرآنية وأثرها على الفرد والمجتمع، : د. محب الدين بن عبد السبحان، ص26 ، تفسير الظلال 409/5 ، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم،د . عبد الراضي محمد عبد المحسن ،85-89 ، النسيان والذكر في القرآن الكريم، الدكتور السيد رزق الطويل، مجلة البحوث الإسلامية ، العدد 13/ ص174، خصائص القصص القرآني، المجيب د.محمد بن السريّع، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود ، 5/ 334، القصة القرآنية ، موسوعة البحوث والمقالات العلمية، جمع وإعداد،علي بن نايف الشحود ص1-2

وعلى هذا لا بدّ حين دراسة القِصّة القرآنية أن نضع أمامنا هذه الأهداف القرآنية العامة ؛ والتي يمكن أن نستعرضها على النحو الآتي :

أولاً : بناء الشخصية الإسلامية.

ثانيا: بناء الأمة الإسلامية (البعد الحضاري):

ثالثاً : الدعوة إلى الله تعالى .

رابعاً : بيان السنن الإلهية .

ــ المطلب الأولً : بناء الشخصية الإسلامية .

إن أهداف القصص لا تخرج عن أهداف القرآن ، بل هي أهداف القرآن ذاتــه ، حيــث أن القرآن يوظف القصص في تحقيق مقاصده وأهدافه، والتي من أبرزها بناء الشخصية الإسلامية من خلال تكوين المعتقد الإيماني فكرياً ونفسياً ، والتربية السلوكية وصولاً إلى الممارسة الإيمانية وفــق النموذج الأمثل، والمتمثل في حياة الأنبياء والصالحين ، حيث يعمل ابتداءً على ترســيخ المفــاهيم الفكرية للعقيدة الإسلامية ، ومن ثم يعمل من خلالها على تصويب العواطف الدينية والتأثير على مراكز الإرادة ، والتي بدورها تدفع السلوك باتجاه الاستقامة ، وإلى أحسن الأعمال وأفضلها .

فالقصص القرآني يساهم بدور كبير في تغير المحتوى الكلي للإنسان وبناء شخصيته من خلال تكوين المعتقد الإيماني فكرياً ونفسياً ، والتربية السلوكية لتحقيق الممارسة الإيمانية .

أولاً: تكوين المعتقد الإيماني فكرياً ونفسياً .

للقصة القرآنية أهداف حرص القرآن على أن يحققها في شخصية المسلم من تربية عقولهم وعواطفهم . من خلال تكوين الجانبين : الفكري والنفسي ، وذلك على النحو الآتي :

الجانب الأول: التكوين الفكري للمعتقد الإيماني .

لقد صرح لقرآن بهذا الهدف من إيراد القصص كما في قوله تعالى: { فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف: 176]. وقوله تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } [يوسف : 3] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن المتدبر للقرآن يجد جانبا كبيرا من آياته وسوره قد اشتملت على قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعلى قصص غيرهم من الأخيار والأشرار. ويجد ذلك بصورة أكثر تفصيلا في السور المكية، التي كان نزولها قبل الهجرة، لأنها في الأعم والأغلب اهتمت في البناء العقائدي ، بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وعلى أن البعث وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب حق وصدق ، وهذه الأدلة ساقتها السور المكية تارة عن طريق قصص الأنبياء مع أقوامهم، وتارة بغير ذلك من الطرق الأخرى .

وللقصة القرآنية وظيفتها التعليمية التي لا يحققها لون آخر من ألوان الأداء اللغوي ذلك أنها تمتاز بميزات جعلت لها آثارًا نفسية وتربوية بليغة ومحكمة وثابتة على مر الأزمان مع ما تثيره من حرارة العاطفة تدفع إلى تغيير السلوك وتجديد العزيمة .

فالقصة القرآنية تمتاز بالإقناع الفكري والدعوة إلى التفكير والتأمل : فالقصص القرآني لا يخلو من محاورات فكرية ينتصر فيه الحق، ويصبح مرموقًا محفوفًا بالحوادث والنتائج التي تثبت صحته ، وعظمته في النفس وأثره في المجتمع ، وتأييد الله له . ففي قصة يوسف نجد حوارًا يدور بينه وبين فتيين عاشا معه في السجن فدعاهما إلى توحيد الله . وقصة نوح كلها حوار بين الحق والباطل ، وكذلك قصة شعيب وصالح وسائر الرسل : حوار منطقي مدعوم بالحجة والبرهان يتخلل القصة ، ثم تدور الدوائر على أهل الباطل ويظهر الله الحق منتصرًا في نتيجة القصة ، أو يهلك الباطل وأهله ، ويمكن أن نجمِل باقتضابٍ بعضَ قضايا العقيدة التي كان للقصص القرآني دوراً في تكوين المعتقد الإيماني من الناحية الفكرية، نذكر منها :

1. الاستدلال على وحدانيّة الله تعالى :

وهو من أهم أهداف القصص القرآني، كما في قصَصِ إبراهيم ونوح وموسَى وعيسى وغيرِهم من الأنبياء والرسلِ عليهم الصلاة والسلام. وكل هذه القصص تعرض دعوة الحق والتوحيد، وتقيم الأدلة على صحتها وسلامتها، وتبين آثارها ونتائج الأخذ بها واعتناقها. كما تعرض العقائد الفاسدة من عبادة الأوثان والأصنام، واتخاذ الآلهة مع اللّه، وتقيم البراهين على فساد هذه العقائد، وما حل بالكافرين والمشركين والعصاة من عذاب وعقاب . كالقصة التي جمعت سليمان عليه السلام، والهدهد وملكة بلقيس. والتي تظهر هذه القصة إثبات الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته،

والدعوة إلى العقيدة الصحيحة التي يمثلها سليمان وجنوده، وهي عقيدة التوحيد، ونبذ غيرها من سائر العقائد الفاسدة كعقيدة الشرك التي تمثلها بلقيس وقومها قبل إسلامهم .

وقد حقق القصص القرآني هدفه التربوي في بناء الأساس الفكري للعقيدة، حيث استدل على توحيد الله من خلال :

أ. إظهار قدرة الله تعالى المطلقة، وذلك في باب الخلق من عدم كقصة خلق آدم ، أو الخلق من أم بلا أب كقصة مريم وابنها المسيح عيسى عليهما السلام .

ب. بيان سعة علمه وحكمته تعالى فيما تضمنته هذه القصص والأخبار من الحكم البليغة والعظات الواضحة، ما يزجر المشركين عن ارتكاب الشرور ، وما فيه إنذار لهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى غيهم لقوله تعالى : { وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ } [القمر:4-5]

ج. بيان نعمة الله تعالى وفضله ورحمته على عباده ، قال تعالى : وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [يوسف : 111]. كيف كان أنبياء الله يذكرون أقوامهم بنعم الله الكثيرة ولفت النظر إليها في أنفسهم وفي الكون من حولهم ، ومما جاء في التذكير بنعم الله في القصص ، قصة صالح في قوله : { وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } [الأعراف: 74] . وقصة موسى في دعوته فرعون لدلالة على نعم الله والاستدلال بها على توحيده تعالى فقال : { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى } [طه : 53-54] .

2. ومن أهداف القصة القرآنية إثبات الوحي والرسالة :

وتحقيق القناعة بأن محمد وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يعرف عنه أنه يجلس إلى أحبار اليهود والنصارى ، يتلو على قومه قصص من أعذب الكلام وأبلغه في أسلوبه ونظمه وفي غاياته ومقاصده، فهو في موضوعه نسيج من الصدق الخالص، وعصارة الحقيقة المصفاة ، لا تشوبه شائبة من وهم أو خيال لأنه بناء شامخ من لبنات الواقع، وهو نقل حي لها، حتى لكأنها تتجسد في الزمان والمكان اللذين حملاها لحظة حدوثها، فتظهرها دائمًا وكأنها في ساعة مولدها، لا يختلف يومها عن أمسها ولا يفقد من يشهدها اليوم أو غدًا شيئًا مما شهده عليها المشاهدون ساعة مولدها . وهذا الإعجاز الذي نشهد بعض أسراره في كلمات القرآن الكريم، الأمر الذي لا

يشبهه شيء من أعمال الناس وآثارهم ، بحيث لا يشك عاقل في أنها وحي من الله ، وأن محمدا رسول الله يبلغ رسالة ربه ، والقرآن ينص على هذا الغرض نصًا في مقدمات بعض القصص أو في أواخرها فقد جاء في أول سورة يوسف : { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هذا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ } [يوسف: 2-3] وجاء في سورة هود بعد قصة نوح : { تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نوحيها إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } [هود : 49] وقال في موضع آخر : { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عِمران: 44]، وفي هذا برهانٌ قاطع على صِدقه عليه الصلاة والسلام، وأنّه أتى بالدِّين الكامل الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ من الوجوه، قال تعالى : { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص:44-46] .

3. تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم والإقتداء بهم :

قال تعالى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى: 13]. وقال تعالى : { أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ } [إبراهيم: 9].

4. إثبات البعث والنشور:

كقصة إبراهيم مع الطير ، في قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [ألبقرة: 260].

وقصة الذي أماته الله مائة عام [179]، قال تعالى: { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة: 259] .

الجانب الثاني: التكوين النفسي للمعتقد الإيماني .

ومن أهداف القصص التربية النفسية لعقيدة المسلم من خلال بيان قدرة الله تعالى وعظمته بيانًا يثير انفعال الدهشة والخوف من الله لتربية عاطفة الخشوع والخضوع والانقياد ونحوها من العواطف الربانية . قال تعالى : { ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ (100) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (101) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ } [هود : 100 ــ 103] . فالقصة القرآنية تربي العواطف الربانية وذلك [180] :

أ. عن طريق إثارة الانفعالات كالخوف والترقب ، وكالرضا والارتياح والحب ، وكـــالتقزز والكره ، كل ذلك يثار في طيات القصة بما فيه من وصف رائع ووقائع مصطفاة ، فقصة يوسف مثلاً تربي الصبر والثقة بالله ، والأمل في نصره ، بعد إثارة انفعال الخـــوف علـــى يوســـف ، ثم الارتياح إلى استلامه منصب الوزارة .

ب. وعن طريق توجيه جميع هذه الانفعالات حتى تلتقي عند نتيجة واحدة هي النتيجة التي تنتهي إليها القصة ، فتواجه مثلاً حماسة قارئ القصة نحو يوسف وأبيه ، حتى يلتقيا في شكر الله

---

[179]– راجع: تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلومه في وسائل الإعلام ، د . محمد حسن محمد سبتان ص33 ، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، د . عبد الراضي محمد عبد المحسن 89/85 ، مجلة المدينة عدد 52 ، 23، 370، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام 335/5، وموسوعة البحوث والمقالات العلمية،جمع ،القصة القرآنية ص1-5 ، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود ، منهج الدعوة في القصة القرآنية، عمر البطايحة ص75-76

[180]– أنظر : القصص في القرآن الكريم ، إسلام محمود دربالة ص8-9

في آخر القصة ، ويوجه بُغْض الشر الذي صدر عن إخوة يوسف حتى يعترفوا بخطئهم ويستغفر لهم أبوهم في آخر القصة، وهكذا .

ج. وعن طريق المشاركة الوجدانية حيث يندمج القارئ مع جو القصة العاطفي حتى يعيش بانفعالاته مع شخصياتها ، ففي قصة يوسف يعتري القارئ خوف أو قلق عندما يراد قتل يوسف ، وإلقاؤه في الجب ، ثم تنشرح العواطف قليلاً مع انفراج الكربة عنه ، ثم يعود القارئ إلى الترقب عندما يدخل يوسف دار (العزيز) وهكذا يعيش القارئ مع يوسف في سجنه وهو يدعوا إلى الله ، حتى يفرح بإنقاذه ، ثم بتوليه وزارة مصر ، وبنجاة أبيه من الحزن ، وهو في كل ذلك رسول الله والداعية إلى دينه .

وقد صرح القرآن ببعض هذه الأهداف المتعلقة بالجانب النفسي ، ومن ذلك :

1. تثبيتُ الرسول والمؤمنين على الحق الذي يدعون إليه في خضَمٍّ ما يلاقونَه من أعدائهم من شِدّةٍ وعناد وصدٍّ عن سبيل الله واستهزاءٍ به وبدينه، وتسليته عما أصابه من قومه وتبشيره بأن العاقبة الطيبة ستكون له ولأصحابه . أما تثبيت فؤاده عن طريق قصص الأنبياء السابقين، فنراه في آيات كثيرة: منها قوله تعالى : { وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [هود: 120]. والمعنى كل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك أيها الرسول الكريم ونخبرك عنه من أجل تثبيت قلبك، وتقوية يقينك، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك، عما لحقكم من أذى في سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس . وأما التسلية عن طريق قصص الأنبياء السابقين، والتسرية عن قلبه صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى الاقتداء بهم في صبرهم .. فكل ذلك نراه في آيات كثيرة منها قوله تعالى: { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ 52 أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ 53 فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ 54 وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ 55 } [الذاريات: 52-55].

والمقصود بالآية الكريمة: تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما أصابه من مشركي قريش، إذ بين له سبحانه أن ما أصابه قد أصاب الرسل من قبله، والمصيبة إذا عمت خفت. وشبيه بهذه الآيات في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من أذى، قوله تعالى: { وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج: 42 ـــ 44] . وكما

قَالَ تَعالَى: { وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون } [الأنبياء: 41]. ولَيس أَنبَل ولا أسلَى من قصةٍ تثبِّت فؤاد داعيةٍ إلى الله على بَصيرة، وتكـون عِظَة وذكرَى للمؤمنين المستضعفين، تبعَث في نفوسهم الأملَ واليقين بأنَّ الله غالبٌ على الأمـر، وأنّ الفرجَ يعقب الشدَّةَ، وأنَّ مع العسر يسرًا[181]، ، قال تعالى : { حَتَّى إِذَا اسْـتَيْئَسَ الرُّسُـلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ } [يوسف: 110 ــ 111].

2. كذلك من أهداف القصة في القرآن الاعتبار والاتعاظ . قال تعالى : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف: 111] . ويمكن القول : إن معظم قصص القرآن يُقصد به العظة والاعتبار من باب: إما قياس الطرد وإما قياس العكس، فما يحيق بالمشركين وبمخالفي الرسل هو جزاء كل من جاء بمثل فعلهم، أما من جاء بعكس فعلهم فله عكس جزائهم, ولذلك حينما يورد القرآن قصص الفساد الأخلاقي لدى الأمم السابقة، يقرن ذلك بما تلاه من جزاء ومصير ناله المفسدون، ويصدّر ذلك بطلب النظر والتأمل في التلازم بين الذنب والعقاب للاعتبار والتخويف، يقول تعالى عقب قصة قوم لوط : { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } [الأعراف: 84]. ويعقّب القرآن على قصة ثمود بالترهيب من جزاء من يفعل السيئات مثلهم ، وبالترغيب في ثواب من آمن واتقى من قوم صالح . قال تعالى : { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [النمل :51ــ53] .

والعبر والعظات التي نأخذها من قصص القرآن الكريم، لها صور شتى :

منها: بيان حسن عاقبة المؤمنين، الذين ثبتوا على الحق، وابتعدوا عن الباطـل، وتـابوا إلى الله تعالى توبة صادقة، وشكروا الله تعالى على نعمه، بأن استعملوها فيما يرضيه لا فيما يسـخطه . ونرى نماذج لذلك في قصة سليمان عليه السلام الذي آتاه الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحـد مـن بعده، فلم يبطره هذا الملك، ولم يشغله عن ذكر الله تعالى بل قال كما حكى القرآن عنه: { قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ } [النمل: 40]. ونرى نماذج لذلك في قصـة ذي

[181]- راجع : الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم د . عبد الراضي محمد عبد المحسن،85-89

القرنين، الذي مكن الله تعالى له في الأرض، فاستعمل ما آتاه الله من قوة في الخير لا في الشر، وفي الإصلاح لا في الإفساد. ونرى نماذج لذلك في قصة أصحاب الكهف، الذين آمنوا بربهم، وزادهم الله تعالى إيمانا على إيمانهم، بسبب ثباتهم على الحق. ونرى نماذج لذلك في قصة قوم يونس عليه السلام الذين استجابوا لدعوة الحق، وصدقوا نبيهم فيما أخبرهم به، وأخلصوا دينهم لله تعالى: { فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } [يونس: 98] . والمعنى: فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم، فآمنوا بالحق الذي جاءتهم به رسلهم، فنجوا بذلك من العذاب، كما نجا منه قوم يونس عليه السلام بسبب ندمهم على ما فرط منهم، وإيمانهم إيمانا صادقا، وتوبتهم توبة نصوحاً، فعاشوا آمنين إلى حين انقضاء آجالهم في هذه الدنيا.

ومنها: بيان سوء عاقبة المكذبين، الذين أصروا على كفرهم، ولم يستمعوا لنصائح أنبيائهم، واستحبوا العمى على الهدى، وجحدوا نعم الله تعالى واستعملوها في المعاصي لا في الطاعات. ونرى نماذج لذلك في قصة قارون الذي آتاه الله تعالى من النعم ما أتاه، فلم يشكر الله تعالى على نعمه، بل قال بكل غرور وصلف: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي} [سورة القصص: 78]. كما نرى نماذج لذلك في قصة أهل سبأ الذين قال الله تعالى في شأنهم : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ 15 فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } [سورة سبأ: 15 ــ 17].

والمتدبر للقرآن الكريم يراه قد ساق لنا كثيرا من قصص الجاحدين، ثم بين لنا سوء مصيرهم. ومن ذلك أنه سبحانه بعد أن ذكر لنا جانبا من قصص نوح وإبراهيم ولوط، وشعيب، وهود، وصالح وموسى ... مع أقوامهم، عقب على ذلك[182]. بقوله تعالى : { فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت: 40] .

[182]- راجع: الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، د . عبد الراضي محمد عبد المحسن، 85-89 ، تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلومه في وسائل الإعلام ص35، د . محمد حسن محمد سبتان، القصص في القرآن الكريم، إسلام محمود دربالة

ثانياً: التربية السلوكية وتحقيق الممارسة الإيمانية .

أ. تعليم المسلم فضائل الأخلاق وأحسنها .

إن الأخلاق ليست شيئًا ثانويًا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إنما هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح؛ لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب، إنما هو عمل سلوكي ظاهر ، ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطًا قويًا، وكذلك نجد التربية النبوية للصحابة رضي الله عنهم للأخلاق منبثقة عن العقيدة ، فقد ربى الصحابة على أن العبادة نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم, وكلها من مكارم الأخلاق، فكانت أخلاق الصحابة ربانية، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة وغرضها رضوان الله ومثوبته .

فالأخلاق في التربية النبوية شيء شامل يعم كل تصرفات الإنسان وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق هي: الخشوع، والكلام له أخلاق هي: الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق, هي: الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي: التوسط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق, هي: أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق, هي: العفو والصفح، ووقوع العدوان من الأعداء يستتبعه أخلاق هي : الانتصار أي رد العدوان ، وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تكيفه ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة .

إن الله سبحانه وتعالى، قد جعل التوحيد، أي: إفراد الله بالعبادة على رأس هذا المنهج الخلقي الذي رسمته آيات سورة الإسراء ، في قوله : { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إلى قوله وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا } [الإسراء: 38 ـــ 23] . لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي أصيل ، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف، والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول، مثل الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن إتباع الرسل غرورًا وأنفة، أو الولوع بالمراء والجدل بالباطل

مغالبة وتطالعًا للظهور، أو تقليدًا وجمودًا على الإلف والعرف مع ضلاله وبهتانه، وكلها - وأمثالها- أخلاق سوء تهلك أصحابها، وقد استخدم النبي صلى الله عليه وسلم أساليب التأثير والاستجابة, والالتزام في تربية الصحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرآني الغني بالمواعظ والحكم والأصول العقدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب .

فإن من أهداف القصص القرآني التذكير بالأخلاق الرفيعة التي تفيد الفرد، والأسرة، والجماعة والدولة، والأمة، والحضارة، كما أن من أهداف القصص القرآني التنفير من الأخلاق الذميمة التي تكون سببًا في هلاك الأمم والشعوب، فالعلاقة بين القصص القرآني والأخلاق متينة.

ومن ذلك قصة يوسف عليه السلام الذي حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين، وجمع بين الملك والنبوة، وقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هديًا لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال، ومقياساً في فضائل الأخلاق ، والتي يمكن أن نذكر جانباً من هذه الأخلاق الفاضلة التي جسدها عليه السلام في سيرته العطرة، لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبيهًا للمتعلمين الساعين للفضائل، ومرشداً للمصلحين الهادين إلى الخير . ومن أهم هذه الأخلاق ما يلي[183] :

1. العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية: { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } [يوسف: 24].

2. الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه { قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ } [يوسف: 77].

3. وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: { وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ.فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ } [يوسف: 59 _ 60]. فبداية الآية لين، ونهايتها شدة.

4. ثقته بنفسه بالاعتماد على ربه: { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف: 55].

5.قوة الذاكرة, ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات، ويعرف للناس أعمالهم: { وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ } [يوسف: 58].

[183]- انظر البناء العقدي في العهد المكي موسوعة البحوث والمقالات العلمية جمع و إعداد علي بن نايف الشحود ص 7

6. استعداده للعلم، وحبه له، وتمكنه منه: { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ } [يوسف: 38] { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [يوسف: 101].

7. شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [يوسف: 39] وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما بقوله: { قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ } [يوسف: 37] والثاني بقوله: { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [يوسف:37] وشهدا له بقولهما: { نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [يوسف: 36].

8. العفو مع المقدرة: { قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [يوسف: 92].

9. إكرام العشيرة: { اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ } [يوسف: 93].

10. قوة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على الحكمة والعلم: { فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف: 54].

11. حسن التدبير ، والاقتصاد في المعيشة : { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ } [يوسف: 47] .

وكذلك في قصة شعيب عليه السلام مع قومه نموذج في الدعوة إلى الخير وحسن المعاملة ، قال تعالى : { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [الأعراف: 85-86] . لقد دعا شعيب قومه إلى الإقلاع عن المفاسد والمنكرات وأمرهم بحسن المعاملة وإيفاء الكيل والميزان ، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم ، وعن الفساد في الأرض،

والابتعاد عن قطع الطريق ، وعن سعيهم الخبيث في تشويه دعوته ، فتضمنت هذه الآيات جملة من التوجيهات لضبط السلوك وفق منهج الله تعالى وخاصة في الجانب الاقتصادي والمالي ، مما يعني أن الدين لا ينفصل عن الحياة كما يدعي بعض المهزومين عقلياً ونفسياً ، فالدين مرتبط بحياة الإنسان ارتباطاً شمولياً في كل مجالات السلوك ، فهذا لوط ينهى قومه عن الفساد الخلقي ولاجتماعي ، ويأمر قومه بتقوى الله وطاعته ، في قوله تعالى : { اذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ } [الشعراء : 161-166] .

فالقصة القرآنية تمد المسلم بمجموعة من المعاني والقيم ، وتوجهه إلى سلوك الطريق المستقيم ، وتجنبه الانحراف، وفي القصص المثال الكامل للسلوك النموذجي الذي يجب على المسلم التحلي به، وقد استخدم المنهاج النبوي القصص القرآني في تربيته للصحابة، لكي يحول الخلق من دائرة النظريات إلى صميم الواقع التنفيذي والعمل التطبيقي، سواء كانت اعتقادية كمراقبة الله تعالى ورجاء الآخرة، أو عبادية كالشعائر التي تعمل على تربية الضمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النفس، وهذا يوجب على المؤمنين الإقتداء بالرسول والسير على نهج سلف الأمة في إتباعهم لنبيهم والتأسي به عليه الصلاة والسلام وبالأنبياء السابقين[184] .

ب. **الاقتداء بالأنبياء والأولياء الصالحين** .

إن التربية بالقدوة من أهم وسائل التربية لاكتساب مكارم الأخلاق ، وذلك لأن الناس يتأثرون بالأفعال أكثر من تأثرهم بالأقوال، وتبرز خصوصية القدوة العملية في عدة مزايا : منها : أن الفعل لا يرد عليه شبهة التطبيق، ومنها : أن القدوة العملية تترجم القول إلى فعل ، والعلم إلى عمل، ومنها : أن القدوة العملية تقطع عن العمل شبهه المثالية ، أو الخيالية .

لذلك فإن التربية بالقدوة لها أثر عظيم يفوق الكلام النظري بكثير. وقد جعل الله تعالى الأنبياء هم القدوة للبشر في الخير ، فهم أكمل الناس في سيرتهم ، المصطفون في أخلاقهم ، وما تقرير القرآن بشرية هؤلاء الرسل إلا ليلزم الناس بالاقتداء بهم ويبطل حجة المعاندين المراوغين عن الحق،

[184]- أنظر : البناء العقدي في العهد المكي (1-2) موسوعة البحوث والمقالات العلمية جمع وإعداد علي بن نايف الشحود ص5-8 منهج الدعوة في القصة القرآنية عمر البطايحة، 123-126

فأمر الله تعالى نبيه والمؤمنين بالاقتداء بالأنبياء والمرسلين في سورة الأنعام بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أسماء ثمانية عشر نبياً، ، في قوله تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ } [الأنعام: 90].

وقد فصل القرآن في ذكر صفات هؤلاء الرسل، وذكر أخلاقهم وسجاياهم وأعمالهم وصبرهم، وأكد القرآن على أن جاذبية هؤلاء الرسل لا تنبعث من مغريات مادية، وإنما من قوة إيمانهم وشدة التزامهم بأوامر الله تعالى ، وصبرهم على تحمل تبعات الدعوة في سبيله ، فهم هداة الناس إلى كل خير، وقادة الأمم إلى ما فيه صلاحهم ، وقد حكى القرآن قصصهم في كثير من آياته وسوره ، وكشف عن حقيقة ممارستهم الإيمانية بوصفهم نماذج بشرية بلغت المنزلة الرفيعة في سموهم الأخلاقي فاستحقوا بذلك أن يكونوا قدوة لغيرهم مصداقاً لقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة: 24]. لذلك فقد أقامهم القرآن في مقام القدوة والأسوة وخص بذلك إبراهيم عليه السلام ليشعرنا بأن لنا في بناء الحق وهدم الباطل أصلاً عريقاً ونسباً طويلاً عريضاً ، في قوله تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ } [الممتحنة: 4].

ولذلك فإن الدعوة إلى الله تعالى تستوجب اقتداء الدعاة بالأنبياء والرسل، وفي مقدمتهم الرسول القدوة عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب: 21]. وتتجلى الدعوة إلى الله تعالى بالقدوة في إعطاء المثل علماً وعملاً، إيماناً ودعوة، قولاً وسلوكاً، مصداقاً لقول الله تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [فصلت: 33] .

إن الدعوة إلى كلمة التوحيد هي أحسن كلمة تُقال في الأرض، ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة، ومع الاستسلام لله الذي تتوارى معه الذات فتصبح الدعوة خالصة لله . والدعوة إلى الله بالقدوة الحسنة تصلح النيات، وتوفر الأوقات، وتختزل الطاقات، وتمكّن الداعية من أداء أدوار عدة متكاملة من أهمها: تطبيق الإسلام خُلقاً ومعاملة وعفة لجذب الناس إليه بالأمثلة الحية، فقد كانت القدوة الحسنة هي أساس التأثير في انتشار الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وكم من إنسان دخل في هذا الدين بسبب تأثره بأخلاق المؤمنين، وتتمثل الدعوة إلى الله تعالى بالقدوة الحسنة في الكلام، والسلوك، والقول، والعمل والحال والمقال، والتطابق والتكامل في كل ذلك. وفي حال التناقض السلوكي يحل غضب الله ومقته، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ

مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ } [الصف: 3] وقد وصف القرآن الكريم سلوك علماء بني إسرائيل الشاذ بقوله: { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [البقرة: 44].

إن من واجب الدعاة إلى الله في العصر الحاضر القيام بالدعوة الإسلامية عن طريق القدوة الحسنة لأنها من خير السبل لهداية الناس، وإصلاح أحوالهم الدينية والدنيوية، ولن يتحقق ذلك إلا بالعلم النافع، والعمل الصالح، والصبر على الدعوة، وعلى أذى الناس[185].

– المطلب الثاني : بناء الأمة الإسلامية (البعد الحضاري):

يقوم مفهوم الأمة الإسلامية وفق التأسيس القرآني من خلال تلمس خصائص الأمة المميزة لها، والوظيفة المكلفة بها ، حيث بينها سبحانه في قوله : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران : 110]. فبين سبحانه أبرز خصائص هذه الأمة الذاتية وهي الخيرية: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى ، وبين أهم وظائفها التكليفية التي أناطها بها وهي الدعوة للخير : { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } وأكد سبحانه ذلك المفهوم لحقيقة الأمة الأسلامية من حيث الخصائص الذاتية والوظيفة التكليفية كذلك في قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } [البقرة : 143]. فمن خصائص هذه الأمة الوسطية ومن وظيفتها الشهود الحضاري.

وهذه الخيرية والوسطية للأمة الإسلامية منبثقة من عقيدة التوحيد ، وهذا التوحيد يمثل قاعدة بناء الأمة الإسلامية، فانطلاقا منه تتحدد ماهيتها ومرجعيتها وضوابط وحدتها، قال تعالى : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء : 92]. فالتوحيد هو السبب في وحدة هذه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[185]– أنظر : ، عبدالرحمن الميداني: بصائر للمسلم المعاصر، ص 23 ، تفسير الظلال، سيد قطب 3121/5 , تفسير طنطاوي 1496، منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني،د.مني بنت عبدالله 139-140 ، خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة، عبد الغني أحمد جبر مزهر 131،129 ، من صفات القادة كما عرضها القرآن الكريم، محمد العبدة، موسوعة البحوث والمقالات العلمية ص1، الدعوة بالقدوة, موسوعة البحوث والمقالات العلمية جمع وإعداد علي بن نايف الشحود ص1 فن الوعظ أهميته وضوابطه، عبد الحكيم بن محمد بلال ، بجلة البيان عدد(97) ص8

الأمة وتماسكها، قال تعالى : {لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} [الأنفال:63].

وعليه فإن الأمة الإسلامية مفهوم أسسه القرآن الكريم ، وانتقل في السنة النبوية إلى مستوى الواقع الذي يمثل النموذج التأسيسي. فقد أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم نواة الأمة الإسلامية في مكة من مجموعة الصحابة الذين صدقوا واتبعوا قبل أن يأتي النموذج العملي من خلال التوثيق الدستوري في العهد النبوي المدني ، ثم من خلال الأفعال والأقوال النبوية التي أعطت للجماعة المسلمة في المدينة بعد الهجرة سمات الأمة الواحدة المترابطة بروابط العقيدة والتصور ووحدة القيم والرسالة والمشروع الحضاري، فهذه الأمة التي امتدت مع تاريخ الإنسان كله في الأرض، تمثل موكب الإيمان ، وموكب الرسالات ، وموكب الرسل ، منذ أول رسول آدم عليه السلام إلى هذه الرسالة الأخيرة . رسالة النبي الأمي إلى البشر أجمعين ، وقد كشف القرآن عن قصصهم ، فعرض قصة الدعوة إلى الله وموقف البشرية منها جيلاً بعد جيل؛ كما عرض طبيعة الإيمان في نفوس النخبة المختارة من البشر ، وكشف عن حقيقة التصور الإيماني وميزه في الحس من سائر التصورات الدخيلة . ومن ثم كان القصص شطراً كبيراً من القرآن جمع من خلاله بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان؛ وكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان؛ وربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول ، في الطريق اللاحب الطويل .

وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه . وأنه من هذه الأمة المؤمنة بالله ، تجمعها آصرة المنهج الإلهي ، على اختلاف الزمان والمكان ، واختلاف الأوطان؛ والألوان وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين في كل جيل ، ومن كل قبيل ، وبهذا تكون الأمة المسلمة ، وارثة العقائد السماوية ، ووارثة النبوات منذ فجر البشرية ، والحفيظة على تراث العقيدة وتراث النبوة ، وحادية موكب الإيمان في الأرض إلى آخر الزمان ، انطلاقا من المعنى القرآني الذي يشير إلى القرآن كمصدق لرصيد الوحي في الرسالات السابقة، قال تعالى : { وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [فاطر : 31 -32].

وسوف نبين دور القصص القرآني في بناء الأمة باعتباره هدفا من أهدافه ، وذلك من خلال الكشف عن حقيقة وحدة الأمة الإسلامية منذ فجر التاريخ حتى انتهت وراثتها لهذه الأمة ،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكذلك الكشف عن طبيعة صراعها المرير مع قوى الباطل عبر مسيرتها التاريخية ، وكذلك الكشف عن الحكم الفصل في مواضع الاختلاف مع أهل الكتاب . بما تملكه من حقائق يقينية ، مما يعني أحقية هذه الأمة بميراث النبوات وجميع الرسالات [186]. وبيان ذلك على النحو الآتي:

أولاً. وحدة الأمة .

إن أول مقومات الأمة الإسلامية هو تكوين بنيتها العقلية والنفسية على أساس العقيدة الإسلامية ، وضبط سير حركتها في كل مجالات الحياة وفق الأحكام الشرعية . وهي ذات المقومات الأولى لبناء الشخصية الإسلامية ، ومن أجل ذلك كان بناء الأمة الإسلامية على الإسلام وجوانبه المتكاملة التي تكوّن خصائص الإنسان المسلم العقلية والنفسية ، هو السبب في وحدة هذه الأمة ، قال تعالى : { وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } [المؤمنون :52] . وهو السبب أيضًا في تميزْها: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران : 110]. إلا أن الأمة لا بد فيها من الوحدة والتماسك في نظام سياسي وكيان دولة حتى تحافظ على كيانها وهويتها وخصائصها ، وتحقق فاعليتها ، وتقوم بدورها الذي كلفها به رب العزة ، من حفظ الدين وجماعة المسلمين ؛ وأهم واجباتها ، العمل على نشر الإسلام ، بجوانبه جميعًا ، وبكل الطرق والوسائل المشروعة. والذي كان ذلك من أول الضروريات التي ينبغي على الدولة الإسلامية الوفاء به .

فالأمة المسلمة الواحدة تقوم على(التوحيد) بامتداد معانية ومداه إلى جميع آفاق الحياة الدنيا، فهو جوهر قيام الأمة المسلمة الواحدة، وهو جوهر لقاء المؤمنين على امتداد تاريخ الإنسان كله في الأرض، لتمثل أشرف انتساب، وأعز أرومه، فقد خاطب الله تعالى جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم بقوله : { إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدونِ } [الأنبياء: 92] . فتبين بهذه الآية الكريمة تقرير الغرض الأصيل من هذا الاستعراض الطويل لقصص القرآن، وهو أن جميع الأنبياء قد أرسلهم الله تعالى برسالة واحدة في أصولها ألا وهي كلمة التوحيد ، وقد وردت آيات كثيرة تدل على أنها كانت أول كلمة قالها كل رسول لقومه، حيث أمرهم بعبادة الله تعالى وحده ، ونهيهم عن عبادة أحد سواه. فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه : { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } [الأعراف: 59]. وهذا هود عليه السلام يقول لقومه : { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا

---

[186]- تفسير الظلال12/1 ، 314/2 ، الأمة الإسلامية مفهوماً وخصائص، د. سمير بودينار ، لماذا يحرق القرآن الكريم ، أعداد علي بن نايف الشحود ص41، مسؤولية الدول الإسلامية عن الدعوة ، عبد الله بن عبد المحسن التركي ص21

لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } [الأعراف: 65]. وهذا صالح عليه السلام يقول لقومه : { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } [الأعراف: 73]. وهذا شعيب عليه السلام يقول لقومه : { يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } [الأعراف: 85]. فهذه الآيات الكريمة حكاية لما وجهه هؤلاء الأنبياء لقومهم بكل لطف وأدب: بأن يعبدوا الله وحده لا شريك له، لأنه هو وحده المستحق للعبادة، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً .

وقد بيّن سبحانه أن جميع الرسل قد أمروا أقوامهم بإخلاص العبادة لله ، ونبذ الشرك والشركاء ، فقال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء: 25]. وهذا توجيه للنبي في السير على خطى الأنبياء السابقين في الدعوة إلى توحيد الله، وبأنه لا يستحق العبادة والطاعة سواه ، وأن يسخر كل مقومات الأمة، ويوجه طاقاتها إلى تحقيق هذه الغاية، قال تعالى : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الأنفال:39] . وأن يصبغ أبناء الأمة بالصبغة الربانية العالمية : قال تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران: 110] .مما يؤكد هذا المعنى في القصص القرآني قصة سليمان عليه السلام الذي آتاه الله الملك وسخر له الرياح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص وجمع له الإنس والجن والطير والحيوانات والحشرات، وهو عالم بلغات هؤلاء وهؤلاء { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ, وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } [النمل:16-17]. فهو قادر على سماع كل ما يدور في مملكته وقادر على سماع حديث النملة، ومعرفة لغتها، وهو يبتسم ضاحكا من قولها لبني قومها تنصحهم بدخول مساكنهم حتى لا يحطمهم سليمان وجنده . ثم هو يرجع الفضل في هذه النعمة وغيرها إلى صاحب الفضل اعترافا منه بعظيم منّه وكرمه سبحانه وتعالى عليه، وهو يرجوه توفيقه لينال رضاه : { حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } [النمل: 18-19] . وهو يوظف هذا الملك لخدمة دين الله والدعوة إليه . ويظهر ذلك من موقف الهدهد الذي أنفق جهده ووقته في البحث عما يخدم العقيدة ويعلي أمرها، ويعزز شأنها : { أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ

وَمَا تُعْلِنُونَ } [النمل: 25]. وهكذا عرضت هذه القصة العقيدة الصحيحة وأقامت الدليل عليها على لسان الهدهد ، وكشف عن العقيدة الفاسدة : { وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ } [النمل: 24]. وانتهت مشاهد القصة بغلبة الحق وأهله، وهزيمة الباطل وجنده، واستسلام الملكة أخيرا للحق[187] : { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [النمل: 44] .

ثانياً. الكشف عن الصراع التاريخي بين الحق والباطل .

فالصراع بين الحق والباطل سنة إلهية نافذة ، فقد اقتضت حكمة الله أن يوجد الصراع بين الحق والباطل على هذه الأرض منذ أن أُهبط آدم عليه السلام وإبليس اللعين إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، وقد جعل الله لهذا الصراع والمدافعة سننا ثابتة لا تتغير ولا تتبدل: { فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً } [فاطر: 43].

ومن السنن التي أوضحها القرآن الكريم سنة التدافع بين الحق والباطل فهي سنة ماضية عبر التاريخ الإنساني الطويل ، وتاريخ الأنبياء حافل بالصراع بينهم وبين الكافرين أولياء الشيطان منذ أن بعث الله آدم عليه السلام ومن لدن نوح عليه السلام حتى ختم الله الرسالة والنبوة، بمحمد وهداه إلى الإسلام ، وستظل هذه الحرب باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } [هود : 118-119]. ويحتدم الصراع نتيجة هذا الاختلاف لإقرار الحق أو إقرار الباطل: { الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً } [النساء : 76] . وهذا التدافع هو الذي عناه الله بقوله: { وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }[البقرة : 251] . وهذا الصراع حتمي بين الحق وأهله من جهة والباطل وأهله من جهة أخرى؛ وهي سُنَّة إلهية لا تتخلف؛ ووقائع التاريخ القديم والحديث تشهد على ذلك، وهذه المدافعة وهذا الصراع بين الحق والباطل إن هو إلا مقتضى رحمة الله وفضله، وهو لصالح البشرية وإنقاذها من فساد المبطلين .

187- راجع : القصة القرآنية .. لها مقصد وهدف، موسوعة البحوث والمقالات العلمية جمع وإعداد، علي بن نايف الشحود ص1 ، البعد الإنساني للأمة المسلمة الواحدة، د.عدنان علي رضا النحوي، موسوعة البحوث والمقالات العلمية جمع وإعداد، علي بن نايف الشحود ص1-2، مسؤولية الدول الإسلامية عن الدعوة ، عبد الله بن عبد المحسن التركي ص22

يقول صاحب الظلال : ويقطع النص القرآني بأنه ليس من شأن الله سبحانه وليس من مقتضى ألوهيته، وليس من فعل سنته، أن يدع الصف المسلم مختلطاً غير مميز، يتوارى المنافقون فيه وراء دعوى الإيمان، ومظهر الإسلام، بينما قلوبهم خاوية من بشاشة الإيمان، ومن روح الإسلام؛ فقد أخرج الله الأمة المسلمة لتؤدي دوراً كونياً كبيراً، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً، ولتنشئ في الأرض واقعاً فريداً، ونظاماً جديداً، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والصفاء والتميز والتماسك، ويقتضي ألا يكون في الصف خلل، ولا في بنائه دَخَل، وبتعبير مختصر يقتضي أن تكون طبيعة هذه الأمة من العظمة بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدره الله لها في هذه الأرض، وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة. وكل هذا يقتضى أن يصهر الصف ليخرج منه الخبث، وأن يضغط لتتهاوى اللبنات الضعيفة، وأن تسلط عليه الأضواء لتتكشف الدخائل والضمائر، ومن ثم كان شأن الله سبحانه أن يميز الخبيث من الطيب و لم يكن شأنه أن يذر المؤمنين على ما كانوا عليه قبل هذه الرجة العظيمة [188]. ولذلك ختم الله تعالى آية المدافعة في سورة البقرة بقوله : {وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [البقرة: 251]؛ حيث لم يجعل الباطل وأهله ينفردون بالناس، بل قيَّض الله له الحق وأهله يدمغونه حتى يزهق؛ فالله تعالى يقول : { بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } [الأنبياء: 18]. وهذا الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة) [189].

وهذه الطائفة المنصورة تجتمع فيها أسباب النصر المعنوية والمادية التي خلقها الله من علم صحيح ، وسلوك مستقيم ، وأخذ بالمقدمات التي جعلها الله وسيلة موصلة إلى نتائجها المرجوة ؛ وإلا فإن مجرد الإيمان دون الأخذ بأسباب التمكين ومقدماته المادية ، ودون الالتزام بسنن الله الكونية الصارمة لا يضمن النصر ولا يكفل الظهور والتمكين في الأرض الذي وعد الله به عباده الصادقين [190] .وقد أوضح الله عز وجل أن الجهد الإنساني للمؤمنين هو الذي يحسم الصراع بقدر من الله لصالح المؤمنين : { وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج : 40] .إن التدافع الذي يعنيه القرآن الكريم من خلال هذه السنة هو الذي يكون لخير

---

[188]- تفسير الظلال لسيد قطب6/2

[189]- أخرجه مسلم في صحيحه برقم (156)

[190]- محمد عبد الهادي المصري : أهل السنة والجماعة ، ص 52

البشرية ، وبه يتحقق السلام العالمي ، بتحقيق العبودية لله وحده في الأرض ، وإزالة كل طاغوت يُعبد من دون الله ، قال تعالى : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } [الأنفال : 39] . فالبشرية بدون العبودية لله لا تستطيع أن تسلك قاعدة عليا من الحق ؛ لأن لكل معبود من الشركاء قاعدته الخاصة وسبيله المختلف ، ولا سبيل أبداً لتوحيد هذه القواعد إلا بالتخلص من الشركاء جميعاً ، والاتجاه لله وحده. كما بيّن القرآن الكريم أن عاقبة الصراع تكون دائماً للمؤمنين مهما طال الطريق وعصف بهم طغيان المشركين : { وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ } [القصص : 5]. وقال تعالى : { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } [الأنبياء : 105] .والهدف من هذا البيان هو شد عزائم الجماعة المؤمنة لتعي وتفقه طبيعة الصراع بين الإيمان والكفر ، ولتعد نفسها إعداداً كاملاً ، علماً وتربية وتخطيطاً وتنظيماً لمواجهة أعداء وعوائق الطريق وكثرة الأعداء من الداخل والخارج ، فهذا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه جاءتهم البشرى بحسم الصراع لفائدتهم واستخلافهم في الأرض من خلال ما قدموه من تضحيات في الأموال والأنفس وهجرة الأوطان والأهل ، كما في قوله تعالى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ } [النور : 55] .

إن الذين يطمعون في الإصلاح ودرء الفساد عن الأمة بدون هذه السُّنَّة ـــ أعني سنة المدافعة مع الباطل وأهل الفساد ـــ إنهم يتنكبون منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله عز وجل الذي ارتضاه واختاره لهم، وإن الذين يؤْثرون السلامة والخوف من عناء المدافعة مع الفساد وأهله، إنهم بهذا التصرف لا يسلمون من العناء والمشقة، بل إنهم يقعون في مشقة أعظم وعناء أكبر يقاسونه في دينهم، وأنفسهم، وأعراضهم، وأموالهم، وهذه هي ضريبة القعود عن مدافعة الباطل، وإيثار الحياة الدنيا. والمدافعة بين الحق والباطل تأخذ صوراً متعددة: فبيان الحق وإزالة الشُّبه ورفع اللبس عن الحق وأهله مدافعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مدافعة، وبيان سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين مدافعة، والصبر والثبات على ابتلاء الأعداء من الكفرة والظلمة مدافعة، ويأتي الجهاد والقتال في سبيل الله على رأس وذروة هذا المدافعات لكف شر الكفار وفسادهم عن ديار المسلمين ودينهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم .

واليوم لم يعد خافياً على كل مسلم ما تتعرض له بلدان المسلمين قاطبة من غزو سافر وحرب شرسة على مختلف الأصعدة؛ وذلك من قِبَل أعدائها الكفرة، وأذناهم المنافقين ، مما يوجب نصرهم ما أمكن ذلك لقوله تعالى : { انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [التوبة: 41].

هذا فيما يتعلق بقتال الدفع عن المسلمين الذين احتل الكفار ديارهم وغزوهم في عقر دارهم، أما البلدان التي غزاها الكفار في عقر دارها عقدياً واجتماعياً وإعلامياً واقتصادياً وثقافياً، وتعاون معهم إخوانهم المنافقون في تنفيذ مخططاتهم فهذا النوع من الغزو لم يسلم منه بلد من بلدان المسلمين، وقد تسارع الغزاة في تنفيذ مخططهم الإفسادي بشكل لافت وخطير؛ والعجيب أن يتظاهر هؤلاء الطواغيت المفسدون في الأرض أنهم أهل خير وصلاح، متهمين الدعاة وحملة الشريعة بأنهم يظهرون في الأرض الفساد. وهذا من قلب الحقائق والمعاني، فإن الدعاة والمصلحين وحملة الدين هم المصلحون، والطاغوت وأعوانه وأنصاره هم المفسدون. فهذا هو منطق فرعون ومنطق كل الفراعنة في كل زمان ومكان، ليس أمامهم خيار إلا أن يبطشوا بالصالحين وبأولياء الله المتقين، قال تعالى : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ } [القصص : 26] . ولذلك وجب على جميع المسلمين في هذه البلدان لمدافعة هذا الغزو الخطير هو الجهاد بالبيان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمدافعة والتحصين على كل قادر من المسلمين كل بحسبه، وإن التقاعس أو التشاغل أو التخذيل لهذا الضرب من الجهاد يُخشى أن يكون من جنس التولي يوم الزحف، وتقديماً للدنيا الفانية على محبة الله عز وجل ورسوله والجهاد في سبيله تعالى . وقد يغيب عن بال المسلم طبيعة الصراع بين الحق والباطل، ويرى اليوم نشوة الباطل، وانتفاخه، وقوة صولجانه، وضعف الحق، وقلة أنصاره، وانزوائه، فيظنها سنة عامة مضت بها كل العصور، وستبقى كذلك إلى آخر الزمان، وحينئذ يبتلى بالتشاؤم . ولعل هذا هو الهدف من اشتمال القرآن الكريم على قصص الماضين وما يحمله هذا القصص من عظات وعبر : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 137-138].

جمعية عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولنا في قصة أصحاب الأخدود عبرة، فإنهم ساوموهم في دينهم، فما نكصوا ولا استكانوا، وفضلوا الموت في سبيل الله على أن يقدموا التنازل لكافر أو طاغية[191]. قال تعالى: { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ(5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [البروج : 8-4] .

ثالثاً :الحكم الفصل في مواضع الاختلاف مع أهل الكتاب .

لقد فصل القرآن في مواضع الاختلاف والتضارب في قصص التوراة والإنجيل، مصداقاً لقوله تعالى : { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النمل : 76] . وهكذا فقد حدد القرآن الكريم موقفه من كتب أهل الكتاب ومعتقداتهم بوضوح وجلاء ، متمثلاً في[192]:

أ. الهيمنة عليها، قال تعالى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ } [المائدة : 48] .

ب. أفضليته وكماله، قال تعالى: { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ } [الزمر : 23] . وترجع أفضلية القرآن على غيره من الكتب إلى كماله من جهتين :

أولاهما : تبيانه لكل شيء، قال تعالى: { مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ } [الأنعام : 38] . وقال تعالى : { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ } [النحل : 89] .

ثانيهما : إرشاده إلى غاية ما يصبو إليه الإنسان وما يحقق له كمال الدنيا والدين، قال تعالى: { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [الإسراء : 9] .

ج. كشف القرآن التحريف والتبديل الواقع في كتبهم: بالإخفاء والكتمان : { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا } [الأنعام : 91] . أو بالنسيان : { وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا

---

[191]- راجع: محمد عبد الهادي المصري : أهل السنة والجماعة ، ص 52 ، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد محمد الصلابي ، 424/1 ، كيف ندعو الناس،محمد قطب ، مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي ، سنن الإعداد والتدافع، د .محمد أمحزون العدد 118/ص8 ، الأحداث المعاصرة في ضوء السنن الربانيةعبد العزيز بن ناصر الجليل، موسوعة البحوث والمقالات العلمية 6/1

[192]- أنظر : الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، د.عبد الراضي محمد عبد المحسن ص15-16 ، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ،جمع وإعداد علي بن نايف الشحود 335/5

ذُكِّرُوا بِهِ } [المائدة : 14] . أو بالوضع : { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ } [البقرة : 79] . أو بالتغيير المتعمد : { أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [البقرة : 75] . وقارعهم بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى ، وتحداهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل ، كقوله تعالى : { كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [آل عمران : 93]. ورفض القرآن زعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وبكّتهم وذمَّ أخلاقهم وفضح خطيئاتهم بما يعنيه ذلك من طعن في مشروعية امتلاك حق مقدس في قيادة البشرية, قال تعالى : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ } [المائدة : 18]. وأنكر عليهم دعواهم صلب المسيح : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء: 157 ـ 158]. وكفّر الذين قالوا ببنوة المسيح وألوهيته : { وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [التوبة : 30] . وقال تعالى : { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ } [المائدة : 17] .

وهذا الهدف الذي حدده القرآن لقصصه يعد أبلغ رد وأوقع دليل على تهافت دعوى الجدليات التنصيرية بأن القرآن تكرار للقصص في التوراة والإنجيل؛ لأنه يتضمن التفسير المقنع لمواضع التشابه بين القصص القرآني وقصص الكتب السابقة، فما جاءت به الكتب السابقة في مقام ادعاء المدعي، أما قصص القرآن فهو حقيقة الحدث الذي جرى يحكيه القاضي الفاصل في دعوى المدّعي، مبيِّنا به وجه الخطأ والصواب في مزاعم الادعاء ومقررًا الحقيقة التاريخية في الحدث لكل العالمين .

كما أن القرآن قد انفرد بقصص كاملة كقصة صالح وهود وشعيب وذي القرنين . وذكر بعض التفاصيل الدقيقة التي في القصص المتناظرة مما لم تذكره كتب العهدين أو خالف فيها

كتبهم. مثل[193] أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وامتناع إبليس عن هذا السجود. وتحطيم إبراهيم الأصنام ، ومحاولة قومه إحراقه في النار، وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله الحرام، واشتراكه هو وابنه إسماعيل في بناء الكعبة ... الخ.

إن هذا المنهج المقارن بين نصوص القصص القرآني ونصوص القصص في التوراة والإنجيل تُعَدُّ معيارًا موضوعيًّا يكشف عن اختلافات وفوارق تفصيلية وجوهرية بين متون القصص في الكتب الثلاثة، بحيث يبيّن تهافت مزاعم الجدليات التنصيرية بتكرار القصص القرآني لقصص العهد القديم والجديد، ويحسم بشكل جليّ وقاطع أمر الاقتباس والمتابعة .

كما أن هناك اختلافاً واضحاً بين أهداف القصص في القرآن الكريم وبين أهداف القصص في التوراة والإنجيل[194].

وذلك أن الهدف من القصة في التوراة والإنجيل هو هدف تاريخي ، حيث يمثل العهد القديم والجديد سجلا تاريخيًّا لحياة الشعب الإسرائيلي والنصراني، فهو كتاب تاريخ وتأريخ للاعتقاد والرؤساء والأنساب والتقاليد والنظم الاجتماعية والعلاقات الشخصية؛ لذلك جاءت عناوين الأسفار ملخّصة لمضمون تاريخها، مثل سفر التكوين الذي يؤرخ لبدء الخليقة، وسفر الخروج الذي يؤرخ لخروج اليهود من مصر، وسفر العدد الذي يحصي أعدادهم، وسفر اللاويين الذي يؤرخ لأحكام الكهنة من بني لاوي، وسفر التثنية الذي يعيد الأحكام والفروض والوصايا.

ولما كان الهدف من الكتابين التأريخ جاءت القصص فيهما في إطار الهدف العام، فجاءت سردية تأريخية متنوعة ما بين التأريخ للأنساب كما في الإحصاءات التي يقوم بها العهد القديم لأعداد بني إسرائيل الداخلين إلى مصر والخارجين منها والداخلين إلى فلسطين والمهجّرين منها.... إلخ . وكذلك التأريخ لنسب المسيح كما في شجرتي النسب الشهيرتين لدى متى ولوقا في العهد الجديد. وما بين التأريخ للسير الذاتية والتيارات الأدبية، كما في خطابات بولس الشخصية

---

[193]- أنظر : عبد الجواد المحص، أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، ص 46 ــ 48، الدار المصرية. الإسكندرية 1420هـ ــ 2000م.

[194]- الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، د.عبد الراضي محمد عبد المحسن 83-84

لأصدقائه. تيموتاوس العهد الجديد، رسالة بولس الأولى إلى تيموتاوس[195] ، فيلمون[196] ، وكما في التأريخ لقصائد داود في المناسبات المختلفة[197] .

وما بين القصص التاريخي للأحداث، مثل إنجيل لوقا الذي يصرح مؤلفه أن قصصه تأريخ لأحداث جرت بذكرها الألسنة. يقول لوقا : ((إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدّاما للكلمة. رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبّعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس ؛ لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمْتَ به، كان في أيام هيرودس ملك اليهودية.....))[198] . وفي سفر أعمال الرسل يخبر الكاتب أن قصصه تكملة لمشروع القصص التأريخي الذي بدأه في كتابه إلى ثاوفيلس وتوقف فيه عند رفع المسيح[199] . وربما يكون هذا الهدف التأريخي أحد أهم أسباب مجيء القصص التوراتي والإنجيلي سرديًّا باردًا غير مؤثر وجدانيًّا في المتلقي أو مشوق له.

وأما القصص القرآني ليس مسوقًا لذاته، بل لأجل غايات وأهداف كثيرة وهي محصورة كلها في تحقيق الغرض الديني، وقد ذكر القرآن بعضها صراحة كقوله تعالى: {وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} [هود :120]. وقوله تعالى : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [يوسف: 111]. وبعضها يمكن إدراكها بالتفكير والتأمل في القصص؛ في قوله تعالى : { فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف: 176].

وعليه فإن القرآن يضع القصة في إطار ديني تنفذ منه أشعة روحية إلى النفس ببيان العبرة التربوية والأخلاقية التي من أجلها أنزل الله القصة، أما العهد العتيق فقد وضع القصة في إطار عائلي، يحمل طابع السرد التاريخي المجرد، دون أن يشير إلى ما وراء الأحداث من عبر وعظات[200] .

ومعلوم أن قضية الصراع بين النصرانية والإسلام وبين اليهودية والإسلام هي قضية الصراع بين الحق والباطل منذ أشرقت أنوار الحق ، وجاء نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة الصافية

---

[195]- العهد الجديد، رسالة بولس الثانية إلى تيموتاوس.

[196]- العهد الجديد، رسالة بولس إلى فيلمون.

[197]- العهد القديم، سفر المزامير، مزمور رقم: 45، 52، 54، 85، 89. وانظر: سفر الأمثال، الإصحاح الأول.

[198]- إنجيل لوقا (1 / 1 ــ 5).

[199]- العهد الجديد، سفر أعمال الرسل (1 / 1 ــ 9).

[200]- أحمد نوفل، سورة يوسف: دراسة تحليلية، ص 60 ــ 66، دار الفرقان. عمّان 1409هـ ــ 1989م.

النقية ، من عند الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور . فهم يريدون صد المسلمين عن دينهم إن استطاعوا ، ويريدون مباعدة الناس عن الاتجاه نحو الإسلام ، ويريدون جذب المسلمين أيضا إلى ديانتهم الباطلة ليتساووا في الضلال ، وليسيروا سويا في طريق الابتعاد عن منهج الله لتكون لهم الغلبة بالقوة المادية والقدرات المختلفة .

ويكشف سبحانه وتعالى عن عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولدينه وأمته،ويحذر من ترك هدى الله وإتباع أهواءهم وضلالهم ، بقوله تعالى : { وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [البقرة: 120] . والذي يقرأ تاريخ الحروب الصليبية ، وما دار خلالها من معارك استمرت طويلا في ديار الشام وفي الأندلس يرى نماذج شديدة من عداوتهم للإسلام[201].

وقد كان هذا الموقف القرآني الدقيق من العهدين القديم والجديد ومعتقداتهما جدارًا صلبًا أمام نجاح الفكر التنصيري أو ما يرتبط به من رؤى حضارية في اختراق الحياة الروحية أو صمود العقيدة الإسلامية،[202].

– المطلب الثالث : الدعوة إلى الله تعالى .

أولاً : إيضاح أسس الدعوة .

لقد كان للقصص القرآني دوراً بارزاً في إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الدين التي بعث بها كل نبي ، قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء: 25].

– **الأساس الأول** : توحيد الله تعالى ، وهو مضمون دعوة الأنبياء والرسل جميعاً . قال تعالى : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل : 36] .

– **الأساس الثاني** : العلم والبرهان : وكذلك من أسس الدعوة التي أكد عليها القصص القرآني العلم والبرهان، قال تعالى: { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي }

201– التبشير في منطقة الخليج والجزيرة العربية، د. محمد بن سعد الشويعر، بحلة البحوث الإسلامية العدد9/ ص291

202– التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي (الترجمة الكاملة لأعمال مؤتمر كلورادو التبشيري) ص 188، 203.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[يوسف:108]. فإن هذه الدعوة قائمة على الحجة والبرهان والبلاغ المبين، بعيدًا عن القهر والإكراه والتخويف؛ ولذا كان قوله تعالى : { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: 256] . هو من أظهر أسس الدعوة وأعظمها دلالة على ذلك. فالإسلام يدعو إلى سبيل العقل، في حدود أصول العقيدة، كما يدعو إلى سبيل الضمير والحق . ومن هنا كانت الدعوة إلى النظر، وإلى المعرفة، أساسا من أسس الدعوة الإسلامية . الذي يصل بالإنسان إلى الاقتناع عن حب واختيار. كما في قول نوح لقومه : { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف :61-62] . وقال أيضاً : { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } [هود : 28]. وقال تعالى : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } [مريم: 42-43].

– **الأساس الثالث** : الدعوة إلى الإصلاح والخير ، كما في قوله تعالى : { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران: 104] . ونجد هذا واضحاً في دعوة شعيب لقومه، بقوله : { إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود: 88]. وكما جاء في قوله تعالى : { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [الأعراف: 85] .

– **الأساس الرابع** : الرحمة بالخلق : فهذه الرحمة منطلق أساسي من منطلقات الدعوة الربانية ، قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: 107]. وقد أكد القصص القرآني ذلك في قوله تعالى: { هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } [الحج: 78]. فهذا نوح يقول لقومه : { أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأعراف: 63] وقال صالح لقومه ثمود : { قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النمل : 46] .

فالقصص القرآني يعدّ من أسباب تيسير الهدى والرحمة كما بينّ تعالى ذلك في قوله : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف: 111] . فقد تضمنت هذه القصص حقائق الإيمان متجسدة في نماذج بشرية من الواقع لتكون باعثا على الإيمان والعمل الصالح ، لأنه يسوق العقيدة في صورة واضحة حية واقعية ، مما يجعل التفاعل مع القصة سبيلاً لتيسير الهدى وترسيخ معاني العقيدة في النفس ، وتطبيق مضامينها ، ونيل مرضاة الله والفوز بنعيم الآخرة ، فيكون هذا هو عين الرحمة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة .

– **الأساس الخامس** : تبليغ الدعوة ، فالواجب في الدعوة أن تعرض على كل فرد وفي أي مكان، ولهذا حمّل الله تعالى رسوله مسئولية إبلاغها إلى الناس ، ونشرها بينهم فقال :{ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } [النحل : 125]. كما ألزم أتباعه المؤمنين بأن يقوموا بنشرها ، ودعوة الناس إليها ، قال تعالى : { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران: 104] . فهذا نوح يصرح بذلك في قوله تعالى : { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (61) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف: 61-62]. وهذا هود يبين وظيفته البلاغية لقومه عاد ، في قوله تعالى : { قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } [الأعراف:67] . وقد أكد القرآن في قصصه على ضرورة البلاغ والنصح للآخرين من خلال قصة سليمان مع النملة التي قامت بدور النصح لجماعتها ، كما في قوله تعالى : { حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } [النمل: 18-19] . وذكر القرآن قصة الرجل المؤمن الذي قدم روحه في سبيل الله لتبليغ كلمة الحق من توحيد الله ونبذ الشرك ، كما في قوله تعالى : { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23)

إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ } [يس: 20-27] .

فهذه بعض من أسس الدعوة التي كان للقصص القرآني دور كبير في إيضاحها وبيانها ، مما يضبط مسيرة الدعوة في الاتجاه السليم ، ويرسم للداعية الطريق الصحيح لتتضح له معالم الدعوة حتى لا يضل السبيل . لأن المعرفة بأصول الدعوة وفروعها وأهدافها وغاياتها شرط أساسي في نجاح الداعي ، وفوزه في دعوته، ليكون على بصيرة من دعوته[203] مصداقاً لقوله تعالى : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي } [يوسف : 108] .

ثانياً : مدرسة لتخريج الدعاة .

إن القصص القرآن يُعدّ مدرسة ثرية لتخريج الدعاة إلى الله تعالى ، فالدعوة إلى الله مهمة عسيرة وشاقة والذي يقوم بها يحتاج إلى الثقة بالله والحزم والعزم والقدرة على تحمل تبعاتها ، لأن الداعية إلى الله معرض للعنت من خصومه، لأنهم لا يقبلون الخضوع لمنطق الحق فيلجأون إلى شتى الأساليب للقضاء على دعوته، وقد يصل الأمر إلى درجة التصفية الجسدية .

والمتتبع للدعوة الإسلامية منذ بداية ظهورها يدرك الدور الفاعل والكبير الذي أداه القصص القرآني في تكوين المعتقد الإيماني وتحقيق الممارسة الإيمانية لدى الصحابة خاصة في الفترة المكية، فقد بذل رسول الله صلى الله عليه وسلم جهوداً خارقة في تربية الصحابة في مكة على مدى ثلاثة وعشرين عاماً من خلال البناء العقدي وكانت مادة البناء هو القرآن الكريم ، وكان ما ينزل من آيات القرآن في تلك الفترة المكية متوافقاً مع طبيعة المرحلة ومصاحباً لها ، وهي مرحلة الصراع الفكري لمقارعة قوى الكفر الذي يمتلك القوى المادية ، فكان لا بد من مواجهته بالصبر والثبات مع الحذر من الانزلاق في المواجهة المادية حتى لا يتحول الصراع من صراع فكري مبدئي إلى صراع على مصالح مادية ذاتية ، مما يعطي للكافر مبررات إجهاض الدعوة أو احتوائها ، ومن ثم تحويل أهدافها وطمس فكرها ، وهذا ما يغفل عنه كثير من الحركات الإسلامية التي حملت الإسلام بغير طريقته فتم تجميدها واحتواؤها وتميع أفكارها لأنها لم تحمل الإسلام فكرة وطريقة ،

---

[203]– راجع: منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د.منى بنت عبدالله ص136-137 ، قصص الأنبياء، قسطاس إبراهيم النعيمي ، موسوعة البحوث والمقالات العلمية، جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة ، علي بن نايف الشحود، ص2، أسس الدعوة وآداب الدعاة، الشيخ أبو بكر الجزائري، موسوعة البحوث والمقالات العلمية،جمع وإعداد، علي بن نايف الشحود، ص1-2 ،الحضارة الإسلامية، الشيخ أحمد عبد الرحيم السايح،مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 458/14

ولكن النبي المؤيد بالوحي الإلهي كشف كل المحاولات التي أرادت تغيير وجهة الصراع ، وكانت هذه المرحلة تقتضي منه ومن أتباعه الصبر والمصابرة والثبات في مواجهة رد الفعل العنيف من قوى الكفر ، وكانت التربية القرآنية التي أسسها النبي للصحابة هي العنصر المفاجئ في معركة الصراع مع الكفر ، وهذه التربية كانت متصلة بالوحي اتصالاً مباشراً من التوجيه القرآني والذي كان يقدم لهم فيه النموذج الحي والمثال الواقعي من قصص الأنبياء والصالحين ، والتي شكلت هذه القصص مساحة كبيرة من القرآن لتوافق طبيعة المرحلة ، وتحقق الهدف القرآني في نجاح الدعوة ، فكانت هذه الطريق التي سار بها النبي صلى الله عليه وسلم هو والصحابة الكرام هي الطريق في حمل الإسلام في تلك الظروف، وهي طريقة ملزمة لا يجوز العدول عنها ، تحت جملة من المبررات المتهافتة، للهروب من القضايا الأساسية والمفصلية في العقيدة ، والتي تقتضي منهم الكفاح والتضحية والجهاد ، فيتذرعون بقضايا فرعية وجانبية ، هروبا من ساحة الصراع بين الحق والباطل، وذلك طلباً للسلامة وإيثاراً للراحة ، وقد يبلغ بهم التنازل عن دينهم بالكلية مقابل مكاسب دنيوية رخيصة فانية .

إن التربية النبوية للصحابة في تكوين العقلية والنفسية على أساس العقيدة الإسلامية من خلال القصص القرآني كان هو السلاح الحاسم في معركة الصراع الفكري بين الحق والباطل ، فقد كانت الممارسة الإيمانية لديهم تحاكي قصص الأنبياء بكل تفاصيله ، وكانت الأجواء الإيمانية المصاحبة لهم منسجمة مع مناخ الجو القصصي القرآني ، فإن القصص القرآني غني بالمواعظ والحكم والأصول العقدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب . وقد كان النبي يوصي أصحابه بالإقتداء بمن كان قبلهم على الإيمان في مواجهة الكفر وأهله والصبر والثبات على الدين والتضحية في سبيل إظهار الحق ودحر الباطل ، فعن خباب بن الأرت قال: (شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا ؟ قال : " كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه . ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون) [204]. وفي قصة أصحاب الأخدود موقف حي ومؤثر من مواقف التضحية في سبيل

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[204]- رواه البخاري في صحيحه برقم : 3416 ، 3639 ، 6544

العقيدة والدفاع عنها والاستشهاد من أجلها قال تعالى : { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [البروج: 4-8]. لقد كانت هذه القصة وأمثالها في القرآن كثير ، تعد من محركات التثوير والمقاومة في مواجهة الباطل وأهله والثبات على الحق والتضحية بالنفس من أجله ، تحقيقاً لقيم العدل ومبادئ الحق . وفي هذا المجال أيضاً قصة مؤمن آل فرعون نموذج للبطولة في وجه الطغيان والكفر وما هذه التضحية إلا نتاج سلامة المعتقد الذي أورث صحة الممارسة على أعلى المستويات . قال تعالى : { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ } [غافر: 28] . إن مؤمن آل فرعون لم يكن من المضطهدين بل كان من عليّة القوم ولكنه تنازل عن كل هذه المكتسبات وضحى بنفسه لأجل مرضاة الله في نصرة الحق والمدافعة عن أهله ، إن مفاهيم العقيدة المتمثلة في قصص الأنبياء والصالحين تجعل المسلم حارساً أميناً على قيم الحق والعدل في هذه الحياة ، وتحمله المسؤولية عن الغير ولو كلفه هذا الأمر أن يدفع روحه ثمناً لذلك ، ولو كان هذا الغير هو عدوه الذي يحرص على النيل منه . فهو حريص على قتلك وأنت حريص على هدايته ونجاته ، فهذا الحبيب المصطفى صلوات الله عليه في يوم أحد ومشركو قريش يحملون عليه بكل قوتهم للنيل من الرسول ، حتى كسرت رباعيته و شج في جبهته فجعلت الدماء تسيل على وجهه فقال له الصحابة : يا رسول الله ادع الله عليهم فقال صلى الله عليه و سلم : (إن الله تعالى لم يبعثني طعانا و لا لعانا و لكن بعثني داعية و رحمة)[205] وهو يقول مقابل هذا كله : (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[206] ويقول عليه الصلاة والسلام : (يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[207] هكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يجسد معاني القران وحياة الأنبياء من قبله ، وبهذا المثال الحي والواقعي الذي يطبقه النبي لأصحابه وقصص الأنبياء والصالحين التي قصّها عليهم القرآن كان النبي يربي أصحابه التربية الإيمانية التي تؤسس العقيدة على أرض صلبة لا تجرفها السيول ، ولا تحتملها الرياح . كان يربي فيهم الحماسة لهذه العقيدة ، والتضحية لهذا الدين ، فقد

---

[205]- شعب الإيمان للبيهقي رقم (1447)

[206]- أخرجه البخاري (3290) ومسلم في صحيحه برقم (1792)

[207]- رواه البخاري : (3224)

استخدم المنهاج النبوي القصص القرآني في تربيته الصحابة، لكي يحول حقائق الإيمان من دائــرة المعرفة النظرية إلى الواقع التطبيقي .

وعليه فإن القصص القرآني الذي أخرج أفضل جيل عرفته البشرية ، هو وحده القادر أن يخرج نموذجاً فريداً من الدعاة الربانين ، ليكونوا نواة النهضة الإسلامية. وهو الأمر الذي أراده الله بقوله تعالى : { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران: 104] . وتحقيقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) [208]. فالقصص القرآني يمد الدعاة والمربين بأكبر قدر ممكن من التوجيهات والخيارات والتجارب والنماذج ، وتزويدهم بقدر معتبر من المعطيات الدعوية، والملابسات التنظيرية، ليتمكنوا من إيجاد موقف دعوي متزن وفعال وشامل، وإيجاد أكبر قدر من الخيارات والبدائل والحلول؛ ولنا في القرآن والسنة أسوة حسنة؛ فقد أخبرنا القرآن الكريم عن الأمم السابقة وما جرى لها للاطلاع على أكبر قدر من التجارب والتطبيقات الدعوية وأخذ العبرة. فاخبرنا بنماذج أقوام ونفسياتهم، كطبيعة ونفسية بني إسرائيل بعدما عصوا الرسل، وكيف صارت كما وصفها الله بأنها نفسية ضربت عليها الذلة والمسكنة، وعرَّفنا بنفسية قوم عاد المتجبرة، وعرَّفنا بأشخاص الأنبياء ونفسياتهم التي جاءت مواتية لمتطلبات الدعوة في قومهم؛ فشخصية موسى الذي أخذ برأس أخيه يجره إليه، ولما ذهب عنه الغضب : { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [الأعراف: 151]، غيَّر شخصية إبراهيم الذي قال لأبيه الذي صدع بالشرك وتحدى ابنه : { قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي } [مريم: 47]، ثم تبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله. والسيرة النبوية مليئة بمثل هذه النماذج؛ فكل هذه التجارب تمثل توسعة آفاق للدعاة وعبرة لأولي الألباب. فالقصص القرآني يعدّ تربة خصبة تعين المربين على النجاح في مهمتهم الدعوية إن أحسنوا قراءتها وتطبيقها [209].

---

[208]- أخرجه البخاري برقم (6881) ومسلم (1920)

[209]- راجع : القصة في القرآن، محمد قطب،ص204-207، أثر العقيدة ، زكريا الشلول، 67 ، قصص القرآن، سعيد يوسف أبو عزيز، ص9 ، في رحاب قصص الأنبياء والرسل ص5، منهج الدعوة في القصة القرآنية، عمر البطايحة ص136، البناء العقدي في العهد المكي، موسوعة البحوث والمقالات العلمية علي بن نايف الشحود ص6-7 ، وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين، للشيخ حسن السيد متولي بمجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 15، 31/6 ، أسس ترشيد رد الفعل الدعوي في ضوء القرآن والسنة، د جمال أحمد بادي بمجلة البيان ، 8/201 ، رحلة طويلة، إبراهيم المزاع، بمجلة البيان، عدد4 ص 134

ثالثاً : تثبيت حملة الرسالة والدعوة .

وقد كشف القصص القرآني عن الموقف الموحد الذي تقفه الجاهليات جميعاً من رسلهم الذين أرسلوا إليها ، قال تعالى : { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ } [الذاريات: 52-53] . فهذا إبراهيم يقول له أبـــوه مهدداً : { قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا }[مريم : 46] . ويجمع قومه عزمهم على حرقه وهو الناصح الأمين لهم : { قَــالُوا حَرِّقُــوهُ وَانْصُــرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } [الأنباء : 68] . وهذا فرعون يجهز الرأي العام لقتــل موســى ، ويقلب الحقائق ويدلس على قومه ويستخف بعقولهم، مدعياً حرصه عليهم ، كما في قوله تعالى : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ } [غافر : 26] . إن هذا البلاء لا ينفك عن الدعاء إلى الله عز وجل، كما قال ورقة بن نوفل للنبي صلى الله عليه وسلم: لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي [210]. فالعداء ملازم لدعوة الأنبياء، فيحتاج الأمر إلى الصبر على الناس والصبر على العذاب، والثقة بالله واليقين بوعده : { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص: 83] . فأراد الله من ذكر القصص القرآني تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب أصحابه وأتباعه ، وقلوب أمته في كل زمان ومكان وصرح بـــذلك في قوله تعالى : { وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَــذِهِ الْحَــقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } [هود: 120] . والتثبيت : حقيقته التسكين في المكــان بحيــث ينتفي الاضطراب والتزلزل . وتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم زيادة يقينه ومعلوماته بمــا وعده الله لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكرا وعلما بــأن حاله جار على سنن الأنبياء وازداد تذكرا بأن عاقبته النصر على أعدائه وتجدد تسلية على ما يلقاه من قومه من التكذيب وذلك يزيده صبرا . والصبر : تثبيت الفؤاد، وان المصــارعة بــين الحــق والباطل شأن قديم وهي من النواميس التي جبل عليها النظام البشري ، وأن إخبار الــنبي عليــه الصلاة والسلام بهذه القصص وما فيها من تماثل أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها، تجعله لا يحزن من مخالفة قومه عليه ويزيده يقيناً وطمأنينة ، وثباتاً بما يسمع من أخبار الأنبياء السابقين ، ومــا جرى لهم مع قومهم ، وما لقوا من الأذى منهم ، فتتسلى نفسه بذلك، وتثبت على أداء الرسالة ، واحتمال أذى الكفار ، والقصص القرآني يحقق الهدف نفسه لكل من سار في طريق الــدعوة إلى

---

[210] - دلائل النبوة للبيهقي 8/2

الله ، حينما يسمع قصص الأنبياء والصالحين ، فهذا نوح عليه السلام يخبرنا تعالى قصته مع قومه وكفاحه الطويل الذي دام تسعمائة وخمسين عاماً ، قال تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ } [العنكبوت: 14-15]. وقد سلك نوح في دعوته لقومه مختلف الأساليب التي من شأنها الاستجابة للهدى ، ولكنهم صدوه وكابروا ، وتواصوا فيما بينهم في الإعراض عن دعوته ، فما كان منه إلا الصبر والتوجه لربه في الشكوى من حالهم فقال :{ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا } [نوح: 5-7] . فقصة نوح في القرآن تعرض صورة تجربة مريرة وجهد مضنٍ ، وصورة كفاح طويل لإقرار حقيقة عقيدة التوحيد وما يصاحبها من قضايا الإيمان ، وتكشف عن مواقف البشر من العناد والكفر أمام دعوة الحق ، وتبين صورة الكفاح والإصرار والثبات ، كما تبين العناية الربانية بالمؤمنين ، وانتقامه من الكافرين ، إن هذه القصة تثبت حقائق الإيمان في النفس ، وتزيد القلب يقيناً وطمأنينة مهما تأخر النصر ، فلا تتسرب للنفس اليأس ، وتجعله يصبر على مشاق الدعوة وتبعاتها . اقتداء بمن سبقه من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين . فهذا شعيب يلقى من قومه السخرية والتهديد بالقتل : { قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ } [هود: 91]. وهذا لوط يهدده قومه بالطرد ، لأنه يدعوهم إلى طاعة الله وطهارة النفس من الشذوذ الذي انتشر بينهم ، ومن شدة انطماس فطرتهم أنهم يعيرونه بعفته وطهارته ، يقول تعالى عن حاله مع قومه : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النمل: 56] . ورصيد الدعوة من أمثال هذه القصص القرآنية فيه الكفاية الذي يعين الداعية المسلم في القيام بمهمته الدعوية التبليغية خير قيام إن أحسن قراءتها والتعامل معها [211].

[211]- راجع: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، 191/6، البحر المديد، ابن عجيبة 85/3، منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د.منى بنت عبدالله ص142-145 ، القصص القرآني، د.صلاح الخالدي ص35-36 ، القصة في القرآن، محمد قطب،ص190-193، قصص القرآن، سعيد يوسف أبو عزيز، ص7، في رحاب قصص الأنبياء والرسل ص5، منهج الدعوة في القصة القرآنية، عمر البطاينة ص133، القصص القرآني بين الآباء والأبناء عماد زهير حافظ، 14

رابعاً :-الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث وتثبيت أسس العقيدة .

لقد كان للقصص القرآني دوراً كبيراً في تثبيت أسس العقيدة في النفوس ، فالإيمان بالله ، والإيمان باليوم الآخرة ، والإيمان بالكتب والرسل والوحي ، هي من الموضوعات التي تناولتها القصة القرآنية وكلها مرتبطة بالعقيدة . إلا أن قضية التوحيد كانت هي الموضوع الرئيس والأساسي في الدعوة للعقيدة وخاصة في القصص القرآني المكي، وعند تتبع قصص الأنبياء نلاحظ هذا واضحاً ، ونبين من ذلك ما يلي :

أ. **نوح عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته** . قال تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ } [هود: 25-26] .

ب. **هود عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته** . قال تعالى : { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ } [هود: 50] .

ج. **إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته** . قال تعالى : { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [العنكبوت: 16] .

د. **موسى عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته** . قال تعالى : { إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } [طه: 98] .

ه. ومن الأولياء الصالحين :

الرجل المؤمن من آل فرعون يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته . قال تعالى : { وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ } [غافر: 28] . الرجل المؤمن في (سورة يس) يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى وعبادته . قال تعالى :{ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ } [يس: 22-24] .

وهكذا كانت دعوة جميع الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين دعوة واحدة على مر العصور والأزمان، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك ، قال تعالى : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل : 36] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والمتتبع للقصص القرآني يجد أنه لا تخلو قصة في القرآن من موضوع عقدي تقوم عليه ، بحيث استوعبت أركان الإيمان كلها ، وأسهمت في تثبيت أسس العقيدة في النفوس .

وعليه فإن من أهداف القصة القرآنية بيان الأصل المشترك بين الإسلام خاتم الرسالات وبين الأديان جميعاً، ولقد أبرزت القصة القرآنية هذا الهدف بصورة واضحة في جميع الرسالات، قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء :25] . وكذلك صاحب ذكر قضية التوحيد في القصص قضايا العقيدة الأخرى ، كقضية البعث كما في قوله تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى : 16-19] . فالقرآن الكريم يرد المسلمين هنا إلى سنن الله في الأرض يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها الأمور ، فهم ليسوا بدعا في الحياة ; وهو يقدم من خلال قصصه منهجاً متكاملاً في قراءة حركة التاريخ الإنساني ونقده وتقويمه ، بحيث يمكن استثمارها في عملية التغيير والإصلاح وفق منهج الله تعالى[212] .

- المطلب الرابع : بيان السنن الإلهية .

إن القصص القرآني يعد مصدراً أساسياً لاستقراء السنن الإلهية، وهذه السنن نوعان:

1.السنن الخارقة:

قال تعالى: { قَالَ أَلْقِهَا يا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } [طه: 19- 20]. وقال تعالى : { قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُواْ ءالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء: 68-69].

2.السنن الجارية: وهي ثلاثة أقسام :

أ. سنن متعلقة بدين الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده.

قال تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [النساء: 26].

---

[212]- راجع: منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د.مي بنت عبدالله ص142-145 ، القصة في القرآن، محمد قطب،ص190-193، منهج الدعوة في القصة القرآنية ص5، عمر البطايحة ص85، القصص القرآني بين الآباء والأبناء عماد زهير حافظ، 14 ، قصص القرآن سعيد يوسف ص7

ب. سنن متعلقة بالأمور الطبيعية:

كسنة الله في تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر، فهي تجري وفق ناموس محدد قدره الله لها. قال تعالى : { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }[يس: 37-40].

ج. سنن متعلقة بالأمور الاجتماعية :

وهذه السنن يخضع لها البشر باعتبارهم أفراد وأمماً وجماعات ، خضوعاً متعلقاً بتصرفاتهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج : كالسعادة والشقاء ، والعز والذل ، والقوة والضعف ،والنصر والهزيمة، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا. وما يترتب على عليها من جزاء ، وهناك سنن كثيرة بينها سبحانه في كتابه ، منها: سنة نصرة الله للمؤمنين وأن العاقبة لهم، كما في قوله تعالى : { إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } [محمد: 7]. وقد ورد هذا المعنى في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى : { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الأعراف: 128] . ومنها سنة الله في الأسباب والمسببات كما في قصة ذو القرنين ، في قوله تعالى : { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا [الكهف:84-85] . ومنها سنة التغيير ، كما في قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد: 11] . في قوله تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ } [الأنفال: 53-54] . إلى غير ذلك من السنن الكثيرة ، وما يهمنا هنا هو الوقوف عند بعضها[213] وهي :

أولاً : سنة الله تعالى في سوء عاقبة الكافرين .

[213]- راجع: منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د.منى بنت عبد الله ص28-36

لقد كان من أبرز أهداف القصص القرآني بيان سنة الله في الدعوات ولفت النظر إلى سنة الله في رسالاته , وإلى بعض آيات الله في الأرض من مصائر السابقين . . إن محمدا ليس بدعا من الرسل , ورسالته ليست بدعا من الرسالات . وهذه عواقب الذين كذبوا من قبل , آيات معروضة في الأرض . قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [يوسف: 109] . إن النظر في آثار الغابرين يهز القلوب . حتى قلوب المتجبرين فتجعلهم يدركون أن مصيرهم كمصيرهم ; وأن سنة الله الواضحة في آثار الغابرين ستنالهم ،ثم دعاهم إلى تعقل هذه السنن بقوله:{أفلا تعقلون} فتتدبروا سنن الله في الغابرين فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير ? ثم يصور ساعات الحرج القاسية في حياة الرسل , قبيل اللحظة الحاسمة التي يتحقق فيها وعد الله , وتمضي فيها سنته التي لا تتخلف ولا تحيد : { حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف: 110-111] . إنها صورة ترسم مبلغ الشدة في حياة الرسل , وهم يواجهون الكفر والجحود . إنها ساعات حرجة , والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر . والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض . فتهجس في خواطرهم الهواجس ، وفي هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب بالرسل , يجيء النصر كاملا حاسماً فاصلاً :{ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [يوسف: 110]. تلك سنة الله في الدعوات . لا بد من الشدائد , ولا بد من الكروب , حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس . يجيء النصر من عند الله , فينجو الذين يستحقون النجاة , ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين , وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون .ويحل بأس الله بالمجرمين مدمرا ماحقا لا يقفون له , ولا يصده عنهم ولي ولا نصير . لقد أشار القرآن إلى السنن الإلهية الجارية في معاقبة المكذبين على مدار التاريخ من خلال استعراض تلك السنن في القصص القرآني، قال تعالى : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 137-138] .

وجاء في سورة العنكبوت لمحة خاطفة عن قصة كل نبي ، مختومة بالعذاب الذي عذب به المذنبون من قومه حتى ختمت جميع القصص المجملة بقوله تعالى : { فَكُلاً أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مِنْ خَسَفْنا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا ، وَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ } [العنكبوت : 40] فعلى العاقل أن يأخذ الموعظة والعبرة من كل قصة للعمل بمقتضاها . والحذر من مشابهة أفعالهم المنكرة ليتجنبوا مصيرهم السيئ . ولا تجري فيه سنة الله الثابتة والمطردة قال تعالى : { فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً } [فاطر: 43]. إن سنة الله ثابتة لا تتخلف ، ومطردة لا تتبدل ، وإن مجرد النظر بتدبر وتبصر إلى سنة الله بالكافرين في عاجل الدنيا بما نزل بهم من أليم العقاب، تجعل أصحاب القلوب الحية يرتدعوا عن الكفر وينزجروا عن المعاصي ، حتى لا يحلّ به من العقاب مثل الذي أحلّه الله تعالى بمن قبلهم من أشكالهم من الأمم . وفي هذه السنة الماحقة بالكافرين تحقيق للعدالة الإلهية للخارجين عن أوامر الله المحاربين لأوليائه، وشد لأزر المؤمنين ، وتسلية لهم عما يلاقون من الهموم والمصائب، وتأثير في نفوس من يدعوهم القرآن إلى الإيمان وأنهم إن لم يؤمنوا لا محالة هالكون، وموعظة وذكرى للمؤمنين[214]. قال تعالى : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران:137- 138]. وقد بيّن سبحانه سوء عاقبة المكذبين، الذين أصروا على كفرهم، ولم يستمعوا لنصائح أنبيائهم، واستحبوا العمى على الهدى، وجحدوا نعم الله تعالى واستعملوها في المعاصي لا في الطاعات. ونرى نماذج لذلك في قصة قارون الذي آتاه الله تعالى من النعم ما أتاه، فلم يشكر الله تعالى على نعمه، بل قال بكل غرور وصلف: { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص: 78]. كما نرى نماذج لذلك في قصة أهل سبأ الذين قال الله تعالى في شأنهم : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ(15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ 16 ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } [سبأ: 15ــ17] . والمعنى: لقد كان لقبيلة سبأ في مساكنهم ، علامة واضحة على فضل الله . وقال الله تعالى لهم على ألسنة الصالحين منهم:

---

[214]- أنظر : تفسير الطبري 146/22، في ظلال القرآن: 1/ 281 ، المفصل في فقه الدعوة إلى الله تعالى، جمع وأعداد : علي بن نايف الشحود 1/ 325 ، منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د.منى بنت عبدالله ص35-36

كلوا من رزق ربكم واشكروا له نعمه، فأنتم تسكنون في بلدة طيبة، فيها كل ما تحتاجونه، وقد منحها لكم الله الرحيم بكم، الغفور لذنوبكم، فاشكروه على ذلك .{فأعرضوا} أي: فأعرضوا عن نصح الناصحين، وجحدوا نعم الله، فكانت نتيجة ذلك، أن أرسل الله تعالى عليهم السيل المدمر، وتحولت البساتين اليانعة إلى أماكن ليس فيها سوى الثمار والأشجار التي لا تسمن ولا تغني من جوع .هذا الذي فعلناه بهم، سببه جحودهم وبطرهم، ومن سنتنا أننا لا نعاقب بهذا العقاب الرادع إلا من جحد نعمنا، وفسق عن أمرنا.

والمتدبر للقرآن الكريم يراه قد ساق لنا كثيرا من قصص الجاحدين، ثم بين لنا سوء مصيرهم. ومن ذلك أنه سبحانه بعد أن ذكر لنا جانبا من قصص نوح وإبراهيم ولوط، وشعيب، وهود، وصالح وموسى .. مع أقوامهم، عقب على ذلك بقوله تعالى : { فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت: 40]. أي: فكلا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط .. أخذناه وأهلكناه، بسبب ذنوبه التي أصر عليها ولم يرجع عنها. فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا أي ريحا شديدة رمته بالحصاة كقوم لوط عليه السلام. ومنهم من أخذته الصيحة الشديدة المهلكة كقوم صالح وشعيب عليهما السلام ومنهم من خسفنا به الأرض وهو قارون. ومنهم من أغرقناه كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه. وما كان الله تعالى مريدا لظلمهم، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، وأوردوها موارد المهالك، بسبب إصرارهم على كفرهم وجحودهم.

هذه بعض الأهداف والمقاصد التي من أجلها ساق القرآن ما ساق من قصص، امتاز بسمو غايته، وشريف مقاصده، وعلو مراميه[215].

ثانياً : سنة الله تعالى في حسن عاقبة المؤمنين .

ومن الأهداف التي أفادها القصص القرآني بيان حسن عاقبة المؤمنين، الذين ثبتوا على الحق، وابتعدوا عن الباطل، وتابوا إلى الله تعالى توبة صادقة، وشكروا الله تعالى على نعمه، بأن استعملوها فيما يرضيه لا فيما يسخطه. ونرى نماذج لذلك في قصة سليمان عليه السلام الذي آتاه الله تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، فلم يبطره هذا الملك، ولم يشغله عن ذكر الله تعالى

---

[215]- أنظر : القصة القرآنية ، موسوعة البحوث والمقالات العلمية ، جمع وإعداد ،علي بن نايف الشحود، ص4-5

بل قال كما حكى القرآن عنه : { قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ } [النمل: 40] .

ونرى نماذج لذلك في قصة ذي القرنين، الذي مكن الله تعالى له في الأرض، فاستعمل ما آتاه الله من قوة في الخير لا في الشر، وفي الإصلاح لا في الإفساد، قال تعالى : { قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا } [الكهف: 94].

ونرى نماذج لذلك في قصة أصحاب الكهف، الذين آمنوا بربهم، وزادهم الله تعالى إيمانا على إيمانهم، بسبب ثباتهم على الحق. قال تعالى :{ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا } [الكهف: 16] .

نرى نماذج لذلك في قصة قوم يونس عليه السلام الذين استجابوا لدعوة الحق، وصدقوا نبيهم فيما أخبرهم به[216]، وأخلصوا دينهم لله تعالى : { فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ } [يونس: 98]. والمعنى: فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم، فآمنوا بالحق الذي جاءهم به رسلهم، فنجوا بذلك من العذاب، كما نجا منه قوم يونس عليه السلام بسبب ندمهم على ما فرط منهم، وإيمانهم إيمانا صادقا، وتوبتهم توبة نصوحاً، فعاشوا آمنين إلى حين انقضاء آجالهم في هذه الدنيا[217] .

يخبر القرآن في كثير من قصصه حكاية عاقبة المؤمنين المصدقين وأنهم في النعيم المقيم ، وهذا من شأنه أن يعلق القلب بالرغبة في الجنة، والشوق إلى لقاء الرب تعالى، ليكون داعيا لإصلاح العمل، وقوة الرجاء، والبعد عن طريق الفساد ، قال تعالى: { وَمَا تُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ } [الصافات: 39-49]. وذكر لنا القرآن قصة الرجل المؤمن في (سورة يس) الذي فاز بنعيم الجنة جزاء دعوة قومه لتوحيد الله ، فاعرضوا عنه

216- أنظر : القصة القرآنية ، موسوعة البحوث والمقالات العلمية، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود، ص4

217- تفسير طنطاوي: 1262

وكذبوه وقتلوه[218]. قال تعالى : { إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ } [يس : 27]

ثالثاً : سنة الله تعالى في نصرة المؤمنين .

إن الرسل قد كذبتهم أقوامهم وأنزلت بهم الأذى ، ولقد صبروا على التطاول والسفه فكانت نتيجة صبرهم أن آتاهم الله النصر والظفر ، وقد وردت كثير من الآيات ، نذكر منها ، قوله تعالى : { وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ } [الأنبياء: 77] . وقوله تعالى : { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: 68-71] . وقوله تعالى : { ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ } [يونس: 103] . فليس بدعا أن يصيب النبي عليه الصلاة والسلام من أعدائه ما أصاب الأنبياء من قبله .

وقد جاءت البشرى للنبي صلى الله عليه وسلم عن طريق قصص الأنبياء السابقين بأن النصر سيكون له ولأتباعه، فنراه في آيات كثيرة: منها قوله تعالى: { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ } [الأنعام: 34]. أي: ولقد كذب الأقوام السابقون رسلا كثيرين جاءوا لهدايتهم، فكان موقف هؤلاء الرسل من هذا التكذيب والأذى الصبر والثبات، واستمروا على صبرهم وثباتهم حتى أتاهم نصرنا الذي اقتضته سنتنا وأحكامنا التي لا تتخلف. ولقد جاءك أيها الرسول الكريم من أخبار إخوانك الأنبياء السابقين ما فيه العظات والعبر، فعليك أن تستبشر بأن النصر سيكون لك ولأتباعك. ومن الآيات التي بشرت النبي صلى الله عليه وسلم بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه، كما كانت للأنبياء السابقين وأتباعهم قوله تعالى: { كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [المجادلة: 21] .

إن هذه الأمة أمة منصورة من ربها، موعودة بالتمكين والاستخلاف في الأرض بوعد الحق الذي لا تخلف، في آيات كثيرة من القرآن، كما قال الله تعالى : { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ

[218]- راجع تفسير ابن كثير 571/6

الْمُؤْمِنِينَ } [الروم: 47] . وقال : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ(171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } [الصافات: 171- 173] . ويرى المحققون من العلماء أن المراد بكلمات الله : شرائعه ، وصفاته ، وأحكامه ، وسننه في كونه ، ويدخل فيها دخولا أوليا ما وعد الله به أنبياءه وأولياءه من النصر والظفر . وهذا الرأي أرجح من سابقه لأنه أعم وأشمل . وقال : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ } [غافر: 51]. وقال :{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا } [النور: 55] .وإن هذه الأمة مهما تكالب أعداؤها، وأحكموا كيدهم، وأجمعوا أمرهم؛ لإطفاء نور الحق والهدى فلن يحظوا بذلك، وقد قال الله : { يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [التوبة:32-33] . وقد بشرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الدين سينتشر في أنحاء الأرض قاطبة حتى يدخل كل بيت كما في حديث تميم الداري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيزاً أو بذل ذليلاً، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر [219].

إن هذه النصوص المبشرة جزء من عقيدتنا التي يجب أن نؤمن بها إيماناً تاماً لا تخالطه الشكوك ولا تساوره الظنون مهما طال ليل المحنة؛ فإن وعد الله آتٍ عما قريب : { أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة: 214] . بل إن هذا اليقين الكامل بنصر الله هو أحد عوامل النصر المهمة، ولذا ترى النبي صلى الله عليه وسلم حينما تشتد الكروب وتلم الخطوب يُذكّر بهذه الحقيقة؛ فذلك يبعث الأمل ويحيى الهمم، ويجدد العزم على العمل، كما فعل في غزوة الأحزاب وقد رمتهم العرب عن قوس واحدة؛ فقد بشر أصحابه بفتح بلاد فارس والروم، كما بشر في حادثة الهجرة وهو مطارد خائف بفتح بلاد فارس، وكما طمأن صاحبه الصدِّيق - رضي الله عنه - وهما في الغار بقوله : { لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } [التوبة: 40][220] .

---

[219]- رواه أحمد في مسنده ، (16998) والحاكم في مستدركه (8326) تعليق شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم

[220]- أنظر: عوامل النصر في القرآن الكريم، عبد العزيز التميمي ، مجلة البيان، 5/202

وعليه فإن النواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافا إنما هي تتبع هذه النواميس فإذا أهل العلم وأصحاب الدعوة إلى الله درسوها وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين ; بدون الأخذ بأسباب النصر وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول ، والسنن الربانية التي قررها تعالى في كتابه وأوردها في قصصه ليوجه أبصارهم إلى سننه الثابتة على مدار التاريخ ، ويرسم لهم طريق النصر ويبين معالمه، ويحذرهم من الهزيمة ويكشف لهم أسبابها[221].

فإن واقع الأمة العصيب ، والأزمات المتلاحقة التي تمر بها ، يحتم معرفة فقه السنن الإلهية وخاصة السنن الاجتماعية التي تنطبق على أي واقع إذا وجدت أسبابها وظروفها زماناً ومكاناً وأشخاصاً وأفكاراً . ومن ثم يمكن التفاعل معها ، وحسن تسخيرها في المهمة الإنسانية الاستخلافية ، وفي عملية التغيير أو التبادل الحضاري ، خاصة في المواجهة الحضارية المعاصرة، وحسن عرض وتقديم المشروع الحضاري الإسلامي. ومن هنا يظهر أهمية دور القصة القرآنية في استخلاص هذه السنن ، والكشف عن عوامل النهضة وأسباب النصر ، وكيفية الخروج من الأزمات ، وذلك إذا ما أحسنا قراءتها وتوظيفها كي تساهم في عملية البناء الفكري للأمة. فالفكرة هي المنطلق الأول في عملية النهوض الحضاري . والقصة تؤدي دوراً خطيراً في عملية البناء الفكري ، والبناء الفكري هو مرتكز التحول النفسي للفرد والأمة ومنطلق التحول الحضاري[222].

---

[221]- راجع : سنة الله في الابتلاء والتمحيص والتداول، سيد قطب، موسوعة الخطب والدروس ،جمعها ورتبها الشيخ علي بن نايف الشحود، ص1-3

[222] - المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، جمع وإعداد:علي بن نايف الشحود 132/1

ـ المبحث الثالث ـ

خصــائص القصــة القــرآنيــة

– المطلب الأول : الخصائص الذاتية للقصة القرآنية .

أولاً– الربانية .

إن مصدر هذه القصص هو الله تعالى ، فالذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشراً ، فلا بد عقلاً أن يكون القرآن وحيا . والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة ،قال تعالى : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } [النساء: 82]. وفي هذا العرض منتهى الإكرام والنصفة للإنسان وإدراكه حينما يجعل الاحتكام في أمر القرآن إلى تدبر عقله . لأن العقل البشري بإمكانه أن يدرك أنه من عند الله ، وقد عين القرآن له منهج النظر الصحيح للوصول لذلك؛ من خلال إدراك ظاهرة عدم الاختلاف أو التناسق . وهي ظاهرة واضحة كل الوضوح في القرآن لا يخطىء من اتبعها ، فظاهرة عدم الاختلاف والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً، والتي تتجلى ابتداء في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية الذي يحمل طابع الصنعة الإلهية؛ كما تتجلى كذلك في ذات المنهج سواء منهج التربية للنفس والمجتمعات البشرية ومنهج التنظيم للنشاط الإنساني ومنهج التقويم للإدراك البشري ذاته! وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة الإنسان واضحاً كل الوضوح في جانب التعبير اللفظي والأداء الفني ، فإنه أوضح من ذلك في جانب التفكير والتنظيم والتشريع . فما من نظرية بشرية ، وما من مذهب بشري ، إلا وهو يحمل الطابع البشري القاصر والمحدود ، وما فيه من المتناقضات والنقائص والاختلاف ، الناشئة من طبيعة الإدراك البشري ، وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل ، الثابت الأصول؛ وإلى هذا القدر من الإدراك المشترك يكل إليهم الحكم على هذا القرآن ، لأن هناك ظواهر يسهل إدراكها؛ وهي كافية بذاتها للدلالة على أن هذا الدين من عند الله . ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلماً بها ، أصبح من منطق هذا الإدراك ذاته أن يسلم بعد ذلك تلقائياً بكل ما ورد في هذا القرآن والذي يعد القصص جزءً منه . فهي من وحي الله

تعالى، فهي قصص ربانية المصدر والمنهج ، ربانية الهدف والموضوع ،: كما في قوله تعالى : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } [يوسف: 3]. أي: فبإيحائنا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص وهو أحسن القصص وهو جزء من القرآن الموحى به . فالقصة القرآنية هي من نوع الأحداث التي تسير وفقاً للتدبير الرباني والإشراف الإلهي المباشرين نحو غاية معينة، ولذلك فلا عجب أن يتدخل الإمداد الغيبي واللطف الإلهي في تسيير الكثير من حوادثها وسوقها باتجاه هدف معين يخدم الرسالة والدعوة الإلهية[223].

ثانياً– الغـــيبية .

إن القصص الواردة في القرآن هي من قضايا الغيب التي لا علم للنبي صلى الله عليه وسلم بها ، وإنما هي من إخبار الله عز وجل له ، قال تعالى : { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران :44]. وقال تعالى : { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ } [هود: 49]. فهذه الأخبار والقصص هي من وحي الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام . حجة على نبوته وتحقيقاً لصدقه ، وإقامة الحجة على من أنكر رسالته من كفار أهل الكتاب [224]. وكذلك إطلاع الرسول والمؤمنين على المسيرة الطويلة لموكب الإيمان وصراعه مع الباطل ، وسنة الله تعالى الجارية في نصرة الحق وأتباعه، وهزيمة الباطل وأهله.

إن العامل الغيبي في القصة القرآنية يلعب دوراً مصيرياً حاسماً في تشكيل الأحداث وتغييرها وأحياناً قلبها رأساً على عقب، وعادة ما يكون مصحوباً بعنصر المفاجأة سواء كان متمثلاً في عذاب أو إمداد ولطف أو معجزة خارقة، أما العذاب، كقوله تعالى : { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ } [الأنعام: 44]. وبالمقابل وفي نفس السياق القصصي نجد أن اللطف الإلهي المنقذ لأنبيائه وأتباعهم لا ينزل هو الآخر إلا عندما تبلغ القلوب الحناجر، وعندما يوشك المؤمنون على الاستيئاس،

---

[223] - راجع: ، تفسير الظلال 291/4، ومنهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د. منى بنت عبدالله ص 145، 170

[224] - أنظر : منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ، د.منى بنت عبدالله ص171-172، تفسير الطبري 255/2

كقوله تعالى : { حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [يوسف: 110]. وقوله : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيب } [البقرة: 214]. والمقصود بالطابع الفجائي للعامل الغيبي، هو دلالة الظروف والملابسات المادية الظاهرية كلها على نتيجة معينة لابد حسب المعادلات المادية من أن تنتهي إليها، وفي غمرة هذه التوقعات بالضبط يتدخل العامل الغيبي ليقلب مجرى الأحداث قلباً جذرياً أو ليغير اتجاهها، ومثاله في قصة موسى عليه السلام الذي يتجسد فيه هذا العامل بتلك المواصفات : { فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ } [الشعراء: 60-63]. المعادلات المادية ترسمها لنا عبارة{ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } والعامل الغيبي غير المتوقع يتمثل في نزول الوحي الإلهي بغتة بالنسبة لبني إسرائيل على موسى في تلك الظروف العصيبة حاملاً البشرى بالخلاص : { فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ } [الشعراء: 63].

وهكذا تتغير مجريات الأحداث بتدخل هذا العامل الغيبي بل تسير في اتجاه معكوس فالشواهد المادية تقتضي أن يُدرك موسى وأتباعه، ومعنى تصفيتهم تصفية كاملة وانتصار فرعون وجنوده، ولكن العامل الغيبي جاء ليقلب هذه النتيجة في اتجاه معاكس تماماً. هذا فيما يتعلق بالإمداد الغيبي، أما فيما يتعلق بالعذاب فمن الأمثلة على ذلك: معظم أنواع العذاب الذي نزل على الأمم التي كذبت الرسل وآذتهم شاهداً على عنصر المفاجأة في العامل الغيبي . ومن هذه الشواهد: شاهد يتمثل في قصة صاحب الجنتين : { فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا } [الكهف: 34-35] .

فالقصة من المنظور المادي تنتهي بإثراء صاحب الجنتين ثراءً فاحشاً بعد أن أنتجت الجنتان ذلك المحصول الوافر الذي بلغ من الضخامة حداً دفع صاحبه إلى أن يستشعر في نفسه الغرور والاستغناء عن الله تعالى، ولكن العامل الغيبي يأتي ليقلب مجرى الأحداث وليوصلها إلى نتيجة مباغتة عكسية؛ إنها الفقر المدقع، والشعور القاتل بالندم : { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا } [الكهف: 42] . وهذا العنصر الغيبي المفاجئ الذي تتميز به القصة القرآنية من شأنه أن يجذب القارئ إلى أحداث القصة إلى أبعد الحدود، كما ومن شأنه أيضاً أن يمنح

الأحداث حركة عنيفة، ويملؤها بالصراع والتحركات التي تخرج الأحداث من حالة الرتابة والروتينية. والحقيقة أن هذه الميزة التي تنفرد بها القصة القرآنية تعد من آيات إعجاز القرآن التعبيري، فهي تجمع بين الواقعية والإثارة، فالقصة القرآنية قد جمعت بإعجاز وبراعة بين الواقعية المحضة وبين عامل الشد والإثارة، ومثل هذا الجمع هو من شأن الإعجاز البلاغي القرآني وحسب.

النوع الآخر من العناصر الغيبية التي تنفرد بها القصة القرآنية هو عنصر المعاجز والآيات؛ ومن الأمثلة في هذا المجال هو تلك المنازلة التي حدثت بين موسى وبين سحرة مصر، والتي جرت أمام فرعون وأمام تلك الجموع الغفيرة من الناس : { قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى* فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى* قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى } [طه : 57-59] .هذه الآيات تثير عوامل التطلع الممزوج بالشوق والرغبة الشديدة إلى ما سيحدث فيها : { قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى* قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى } [طه: 65-66]. الحبال والعصي تتحول في لمحة بصر إلى ثعابين تملأ المكان رعباً، وحتى موسى نفسه يستولي عليه الإشفاق، ويتسرب إليه الخوف البشري الفطري الذي وصفه القرآن بأنه عظيم : { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى } [طه: 67]. وفي هذه اللحظة بالذات يتدخل (العامل الغيبي) ليقلب مجرى الأحداث ، وليصرفها عن المسار الذي تتوقع الأذهان في تلك اللحظات التي كانت الظروف فيها في غير صالح موسى، أن تتحرك فيه : { قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } [طه: 68 ــ 69]. وهكذا يسدل الستار على هذا الحدث الرهيب المثير الذي انتهى بانتصار العامل الغيبي الذي يضع القصة القرآنية في مكان متميز متفرد [225].

ثالثاً- المصداقية .

إن ما ورد من أخبار في القصص القرآني هي أخبار حق وصدق قطعاً ، كونها صادرة من عند الله أصدق القائلين ، قال تعالى : { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا } [النساء: 87] . وقال تعالى : { وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا } [النساء: 122] . والاستفهام للإنكار والنفي أي : لا يوجد في هذا الوجود من هو أصدق من الله في حديثه وخبره ووعده ووعيده ، فحديثه وأخباره وأقواله

---

[225] - راجع : قصص الانبياء إعداد/قسطاس ابراهيم النعيمي موسوعة البحوث والمقالات العلمية جمع وإعداد علي الشحود ، ص5-

سبحانه وتعالى في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها ، وكل خبر ثبت وروده عن الله نصدقه تصديقاً جازماً وكل ما خالفه فهو باطل لمناقضته للخبر الصادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقًّا وهي صادقة كذلك كونها مطابقة للواقع ، قال تعالى : { لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف: 111]. وقال تعالى : { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ } [آل عمران: 62]. فقد جاءت هذه الآية في معرض الرد على افتراءات النصارى بألوهية عيسى ، فبين سبحانه أن قولهم هذا كذب واختلاق ، ثم بين تعالى حقيقة عيسى بأنه عبد الله ورسوله. قال تعالى : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [آل عمران : 59]. فالحقيقة المطابقة للواقع هو ما قصّه القرآن لا ما يدعيه النصارى في أمر عيسى، بقوله : { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران:62].[226]

وهذه القصص التي أخبرنا الله تعالى بها هي أحداث وقعت ، لأن وقوعها ممكن ليس فيها محال ، بل هي تسير موافقة لسنن التاريخ الإنساني التي قدرها الله تعالى . ومن ثم فإن أخبار الله عن الأمم السابقة ، وسننه الجارية في الواقع يصدق بعضها بعضا ، فإن ترتب الآثار على الواقعات ترتب طبيعي، فمن شأنها أن تترتب أمثالها على أمثالها كلما حصلت في الواقع . فمن سنة الله تعالى أن يهلك القرى الظالمة ، قال تعالى : { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } [الإسراء: 16]. ووقعت هذه السنة الإلهية في سبأ ، بقوله تعالى : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } [سبأ: 15-17]. وهذه السنة الجارية متكررة في كثير من وقائع الحياة ، يسمع الناس أخبارها الماضية ، ويشاهدون أحداثها المعاصرة ، وكلها تصدق ما يخبر به تعالى ليكون لهم بها آية وعبرة[227] .

---

[226] - راجع: تفسير طنطاوي 1017، وتفسير السعدي 191

[227] - راجع:منهج لدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ،ص172، تفسير جزءعم للشيخ مساعد الطيار ص 95، وتفسير الطبري 476/6

والقرآن وإن لم يقصد من ذكر قصصه السرد التاريخي إلا أنها بلغت من الدقة في النقل أعلى درجات الإتقان .

وقد وردت إشارات دالة على هذه الدقة البالغة مما أعتبره أهل العلم من باب الإعجاز القصصي في القرآن ، ومن هذه الإشارات أنه عبر عن حاكم مصر في زمن يوسف بالملك في قوله تعالى : { مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ } [يوسف: 76]. وعبر عنه في زمن موسى بفرعون ، وفي هذا إشارة إلى اختلاف مراحل الحكم والجماعات التي حكمت مصر ، ففي زمن يوسف سماه القرآن ملكا و لم يسمه فرعون لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط وإنما كان ملكا لمصر أيام حكمها الهكسوس فكان التعبير بالملك دون التعبير بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر في زمن موسى عليه السلام بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي . ونص القرآن فيه دقة ومطابقة للتاريخ حيث أن مصر مرت بمرحلتين في الحكم ، وهي مرحلة الملوك ، وهم من يطلق عليهم في التاريخ المصري الهكسوس ، ومرحلة الفراعنة .

ولا نجد مثل هذه الدقة في العهدين القديم والجديد فقد وقع في التوراة إذ عبر فيها عن ملك مصر في زمن يوسف عليه السلام بفرعون، ففي الإصحاح (45) من سفر التكوين أن يوسف عليه السلام قال لإخوته حينئذ : وهو – أي الله – قد جعلني أبا لفرعون وسيدا لكل بيته ومتسلطا على كل أرض مصر وما هو بفرعون [228] . والدراسات التاريخية جاءت موافقة لقصص القرآن ، بينما لا يوجد هذا في العهدين القديم والجديد ، فالتوراة والإنجيل ليست مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص التاريخي، علاوة على ما أحيط بها من الأساطير التي لا شك في كونها أساطير . وشحنت كذلك بالروايات التي لا شك في أنها مزيدة على الأصل الموحي به من الله، وإذن فلم يبقى مصدراً موثوقاً به إلا القرآن . الذي حُفظ من التحريف والتبديل . وهو المصدر الوحيد الثابت لما ورد فيه من القصص التاريخي . بل هو حاكم على التاريخ وليس محكوماً به ، فإنه من البديهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين :

أولهما : أن التاريخ مولود حديث العهد ، فاتته أحداث لا تحصى في تاريخ البشرية ، لم يعلم عنها شيئاً . والقرآن يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لها لدى التاريخ علم عنها!

وثانيهما : أن التاريخ وإن وعى بعض هذه الأحداث هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف.

---

[228] – أنظر: تفسير طنطاوي، 3212، وتفسير ابن عاشور: سورة يوسف آية:43

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فإن الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل . وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن ، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء . إنما هو مراء [229]. بل إنه كلما اتسعت المعرفة الإنسانية عن طريق الأبحاث العلمية ، أعلنت خضوعها للحقيقة القرآنية القاطعة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فإن نتائج العلم الحديث من خلال علم (الاحفوريات الحديثة) جاءت لتؤكد ما جاء به القرآن الكريم من أخبار الأمم السابقة وأنبيائها[230].

وعليه فإن الزعم بوجود الأساطير في القصص القرآني إنما هو فرية من المستشرقين وقد أعانهم عليها بعض بني جلدتنا [231] . والقائلين بهذه الفرية على اختلاف مشاربهم يؤدي إلى مناقضة نتائج العلم الحديث، وفي ذلك يقول بعض الباحثين : " لقد تبين أن النظريات التي تبناها نولدكه وجولدزيهر وطه حسين وإسماعيل مظهر وأمين الخولي ومحمد أحمد خلف الله وسيد القمني التي تتلخص بعدم وجود حقائق تاريخية في آيات وسور القرآن الكريم هي نظرية متهافتة ساقطة مردودة لأن العلم الحديث أثبت وجود كلّ الأمم التي قصها القرآن الكريم ، ووجود أسماء أنبيائهم على ما ذكره القرآن الكريم مما يجعل القرآن الكريم مهيمناً على التوراة والإنجيل المحرفين اليوم في قصص الحق "[232] .

ثم إن القول : إن في القرآن الكريم أساطير هو تكذيب لله تعالى وقد قال : { إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقّ } [آلِ عِمْرَانَ : 62]. وقوله تعالى : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَق } [الكَهْفِ: 13]. وقوله : { نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ } [الْقَصَصِ: 3]. وقوله : { فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَق } [هُودْ: 17]. فالذي يقول بأن في القرآن أساطير كافر بالقرآن ، وقد توعده الله بقوله : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [آلِ عِمْرَانَ: 4].وقال تعالى : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلوبِهِمْ أَكِنَّة أن

---

[229] - أنظر: تفسير الظلال 78/5

[230] - راجع : علم الجيولوجيا والقرآن الكريم . موريس بوكاي . ترجمة : رشوان غالب . الطبعة الثانية . الدار الأكاديمية . قطر . 1412 هـ : ص78

[231] - أنظر: في الشعر الجاهلي . طه حسين . ط1 . دار المعارف بمصر . 1924 م : ص31، المستشرقون . نجيب العقيقي . ط4 . دار المعارف بمصر 1985 ــ 1987 م : 213/11 ، وكتابه اسمه (تاريخ القُرآن)

[232] - في التراث والحداثة : ص 193

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } [الأَنْعَامِ: 25]. فقصص القرآن كلها حق وليس فيه أساطير، لأن الأسطورة هي عبارة عن قصص خيالية وأوهام استقرت في أذهان الشعوب . وحاشا أن يكون في كتاب الله مثل ذلك ، والذي يعتقد بأن في القرآن أساطير وقصص خرافية لا فرق بينه وبين كفار قريش في رميهم القُرْآن بأنه (أساطير الأولين) وهو حديث النضر بن الحارث ، وأبي جهل [233].

وعليه فإن القرآن الكريم أدق وثيقة سماوية بين يدي المجتمع البشرى. وبالتالي فهو أصدق مصدر للتاريخ ، وان ما جاء في القرآن من قصص تاريخية هو ما وقع فعلاً في التاريخ ، وحدثنا به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو أصدق القائلين في القُرْآن الكَرِيم، ومن هنا ففي وسع المؤرخين على مر العصور أن ينهلوا من معينه الثر الذي لا ينضب. كيف لا وهذا الكتاب الحكيم الذي لا تحصى عجائبه قد حوى بين دفتيه عيون أخبار الأمم السالفة[234]. وفي هذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: " ستكون فتن قيل وما المخرج منها؟ قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم " [235].

رابعاً- الواقعية .

يمتاز القصص القرآني بأنه يعرض القصة الواقعية بكل صورها، وبكل ملامح حياتها، مع أنه لم يتخل في موقف واحد من مواقف القصة عن الأسلوب الجميل النظيف الطاهر، الذي يهدف إلى تربية القلب والعقل والروح والبدن ، وتبرز سمة الواقعية للقصص القرآني في جانبين[236]

1. واقعية الحدث :فالقصص القرآني تمثل أحداثه مجريات الحياة الاعتيادية بكل واقعية ويظهر ذلك في قصة موسى عليه السلام ، حيث جاء تصوير الأحداث بحسب ما جرت ووقعت فعلاً من حاله لما دخل مدين ، وحال ابنتي شعيب معه ، وقضية الماء والمرعى وكيف سقى لهما ، ، ثم مقابلته لأبيهما ، ثم زواجه من إحداهم ا: { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ

233 - ينظر سيرة ابن هشام : 2 /41.) .(ينظر دفاع عن القرآن : ص 21

234 - عودة الله منيع القيسي: صحة الحدث التاريخي في القصص القرآني. المصدر السابق. ص 106.

235 - أخرجه الترمذي في سننه برقم (2906) .

236 - راجع : منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د. منى بنت عبدالله ص201-202، وبناء الشخصية في القصة القرآنية، مصطفى عليان ص32-37 ، الرسل والرسالات ، عمر الأشقر ص97

امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ } [القصص: 22-27] .

إن القصص القرآني جسد هذه الأحداث في واقعية طبيعية دون تكلف أو تزييف، ولكنه جاء بها في أسلوب قصصي ليحقق من خلاله أهدافه الدينية والدعوية ، لما تحمله هذه القصة من معاني كثيرة وحكم جليلة ، تتمثل فيها الأمانة والقوة والصلة بالله تعالى والخشوع والتضرع إليه والحياء والعفة والطهر والشرف .

2. واقعية الشخصية ، وهي واضحة في شخصية الأنبياء على الرغم من عصمتها ورفعتها ، فهي شخصية مثالية ولكنها مثالية واقعية وليست خيالية ، والقصة القرآنية كانت واقعية في عرضها لهذه الشخصيات النبوية سواء في جانب العصمة أو في جانب التميز والرفعة في الممارسة والتطبيق ، وما يعتريه كذلك من عواطف وانفعالات .

وإن قصة يوسف مثال حي على ذلك[237]. فقصة يوسف هي القصة الوحيدة في القرآن التي وردت بالتفصيل في سورة واحدة ، والتي تتجسد فيها كل ملامح الواقعية في كل شخصية، وفي كل موقف . وقد عرضت القصة شخصية يوسف عليه السلام بكل واقعية ابتداءً بفتنة الإلقاء في غيابة الجب ومروراً بفتنة البيع بثمن بخس : { وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ } [يوسف: 20]. ومروراً بأعصف فتنة مرت بهذه الشخصية الطاهرة الكريمة، إنها فتنة الشهوة، وفتنة اجتماع النسوة عليه، وكانت الفتنة في أول الأمر تتمثل في امرأة واحدة، ثم بعد ذلك تضخمت الفتنة فاجتمعت عليه نسوة، فالتجأ إلى الله وقال : { وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [يوسف: 33-34]. ومروراً بفتنة السجن : { ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا

---

237 – أنظر : الواقعية في القصص القرآني وبيان ذلك في قصة يوسف، محمد بن إبراهيم بن حسان ، سلسلة التربية لماذا، المصدر : دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، ص5-6

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ } [يوسف: 35-36]. ومروراً بفتنة الملك والوزارة : { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف: 54].

وبعد ذلك تنهي القصة الحديث عن هذه الشخصية الفذة، وعن هذا العبد الصالح، وكيف نجاه الله من كل هذه الفتن، وهي تسلط عليه الضوء وهو يضرع إلى الله جل وعلا بهذا الدعاء الخاشع الأواب المنيب : { رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [يوسف: 101].

فالقصة ما تخلت عن طابعها النظيف الطاهر في أي موقف من هذه المواقف أبداً، إنها قمة النظافة قمة الإبداع قمة الجمال التعبيري. وبالإضافة إلى هذه الشخصية الرئيسية هناك شخصية الأب الملهوف، والنبي الموصوف، إنه نبي الله يعقوب، قدمته القصة بكل واقعية حينما قال لولده يوسف : { قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [يوسف: 5]. ومروراً بحالة الخوف وهو يقول لبنيه : { قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ } [يوسف: 13]. ومروراً بالحالة القاسية وهو يبكي بالليل والنهار ويقول لبنيه : { قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ } [يوسف: 86]. ويوصي أبناءه بالرجاء وأن ينطلقوا ليبحثوا عن أخيهم وعن ابنه الذي أحبه من كل قلبه : { يَا بَنِيَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87]. وانتهاءً بهذا المشهد الكريم الذي تجسد فيه القصة فرحة هذا الأب الكريم حينما يأتي البشير ليلقي قميص يوسف على وجه يعقوب عليه السلام، فيرد الله إليه بصره : { فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يوسف: 96-98]. إنها قمة الواقعية! وجسدت القصة أيضاً صورة شخصية أخرى رئيسية، ألا وهي شخصية امرأة العزيز، بمنتهى الواقعية، ولم تتخل القصة عن الأسلوب الجميل الطاهر النظيف حتى في لحظات التعري النفسي والجسدي، يوم أن تقدمت المرأة وقد تجردت من كل حياء أنثوي، ومن كل كبرياء نفسي، ومن كل مركز اجتماعي؛ لتعلن عن شهوتها الجامحة بكل قوة وبكل جرأة وهي تقول : { وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ } [يوسف: 32].

وانظر إلى كيد المرأة الرهيب، وكيف فكرت في أن ترد الكيد والتهمة عن نفسها قالت : { مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [يوسف: 25]. بكل واقعية تعرض القصة شخصية هذه المرأة، حتى في اللحظات الأخيرة وهي تعترف في تبتل وخشوع وهي تقول : { الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [يوسف: 51-53].

وإلى جانب هذه الشخصيات هناك إخوة يوسف، فقد عرضتهم القصة أيضاً بكل واقعية، وعرضت كيف نما الحقد في قلوبهم، وكيف حجبت الكراهية قلوبهم وضمائرهم عن هذه الجريمة البشعة النكراء، وهم يلقون أخاهم في غيابة الجب ، بل وهم يقولون في وجهه : { إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ } [يوسف: 77]. بل وهم يصرخون بين يديه ويعترفون بأن الله قد أعزه عليهم، وبأن الله قد رفع درجته عليهم: { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ } [يوسف: 91]. فيرد عليهم يوسف برحمة وشفقة وحنان : { قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [يوسف:92] إلى آخر كلماتهم في القصة : { قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يوسف: 97-98]. وإلى جانب هذه الشخصيات هناك شخصية العزيز، وهناك شخصية الملك، بل وهناك البيئة التي جسدتها القصة تجسيداً دقيقاً حتى بملامحها التاريخية، ذلكم هو الإبداع الرباني والقرآني في القصة القرآنية؛ لأنه كلام الحق جل وعلا.

وعليه فإن القصة القرآنية لا تتعالى على الإنسان وحاجاته وأشواقه وأماله ، بل ترتفع به ليبلغ بها إلى أقصى درجات الكمال المقدر له ، فهي ليست غريبة عن الطبيعة البشرية ، ولا محلقة في جو ملائكي محض ، لأنها إنما جاءت علاجًا لواقع البشر ، وعلاج الواقع البشري لا يتم إلا بذكر جانب الضعف والخطأ في طبيعته ، ثم بوصف الجانب الآخر الواقعي المتسامي الذي يمثل الرسل المؤمنون ، والذي تؤول إليه القصة بعد الصبر والمكابدة والجهاد والمرابطة ، أو الذي ينتهي عنده المطاف لعلاج ذلك الضعف والنقص ، والتردي البشري في مهاوي الشرك أو حمأة الرذيلة ، علاجًا ينهض بالهمم ، ويدفع بالنفس للسمو ، ما استطاعت ، إلى أعلى القمم ، حيث تنتهي

القصة بانتصار الدعوة الإلهية، ووصف النهاية الخاسرة للمشركين الذي استسلموا إلى الضعف والنقص ، و لم يستجيبوا لنداء رهم ، فيزكوا أنفسهم بالتوبة والإنابة .

ويمكن القول أن القصص القرآني قد جمع بين المثالية والواقعية ، ليبلغ في النفس غاية التأثير ، ليحقق من خلاله أهدافه ومقاصده الدينية التي ترتقي بالإنسان وبالمجتمعات البشرية [238].

خامساً- الإعجاز القصصي .

إن العرض القرآني لقصص السابقين يتميز بأسلوب فريد بديع معجز، لا تستطيع فطرة أي إنسان إنكاره، ومن الظلم نقد أحد من البشر لكلام الله جل جلاله، مستخدماً معايير نقدية للقصص ناقصة ومتغيرة، لا يمكن الاتفاق عليها بين كل النقاد وضعها مخلوقون مجبولون على النقص والخطأ والهوى. والإعجاز القصصي في القرآن الكريم هو معجزة القرآن نفسه ، وما رموه به أعداءه من التكرار في القصص ، ظناً منهم أنها مثلبة هو في الحقيقة إعجاز تنطوي فيه كثير من الأسرار والحكم ، وقد تمحورت آراء العلماء في ذلك حول عدة أهداف يمكن بيانها على النحو الآتي[239]:

1. بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة ، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها بل تتجدد في نفسه معان لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى ، فالتكرار القصصي يضفي على أسلوب القرآن جمالية وروعة وبياناً لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله. وبالرغم من تكرار القصة عبر سور القرآن الذي استمر نزوله فترة 23 عاماً، لا نجد أبداً أي تناقض أو نقص أو خلاف، إذن نحن هنا أمام معجزة لغوية وبيانية تشهد على أن القرآن كتاب الله تعالى. فإن إيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي والإعجاز .

2. الحكمة من تكرار القصة القرآنية في مواضع متعددة من كتاب الله تعالى هي زيادة العبرة والموعظة ولتذكير المؤمن دائماً بعاقبة المكذبين من الأمم السابقة، ليبقى في حالة يقظة وخشية

---

[238]- أنظر : القصص في القرآن الكريم ، إسلام محمود دربالة ، ص8

[239] - أنظر : مباحث علوم القرآن، مناع القطان ، ص307، تيسير المنان في قصص القرآن ، أحمد فريد ، ص18-19، الإعجاز القصصي في القرآن الكريم ،المهندس عبد الدائم الكحيل ، 344/5

مستمرة وخوف من عذاب الله تعالى.ومن جهة ثانية ليبقى في حالة سرور وتفاؤل برحمة الله ووعده وأنه ينجي عباده المؤمنين. فالتكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام لتمكين عبرها في النفس .

3. إن من حكمة الله تعالى في ذكر القصة ذاتها في عدة سور هو استكمال جوانب القصة، فتُذكر القصة مختصرة جداً أحياناً وأحياناً مطوَّلة، وأحياناً تُذكر أحداث جديدة في كل مرة. إذن هنا القصة لا تتكرر إنما تتكامل.

4. إن تكرار القصة في القرآن لا يكون الهدف منها واحد ، وإنما يختلف المقصد والهدف في كل مرة ترد فيه القصة ، فيكون التكرار لاختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة ، فتذكر بعض معانيها الوافية للغرض في مقام ، وتبرز معانٍ أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال .

سادسا–الصلاحية الدائمة .

ونعني بذلك أن القصص القرآني فيه صلاحية دائمة على صعيد الأهداف والمقاصد ، وعلى صعيد الموضوعات التي تضمنها في أخباره ، فأهداف القصص القرآني ليست أهداف أنية ووقتية بل هي أهداف ثابتة ودائمة في كل زمان ومكان ، وقد أكتسب هذه الصفة من مصدرها الرباني ، المحفوظة بحفظه تعالى : لقوله سبحانه : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر: 9]. فهو ليس فقط صالح لكل زمان ومكان ، بل إن الزمان والمكان لا يصلح إلا به ، والقصص هو جزء من القرآن لا ينفصل عنه ، وقد أكسبه ذلك الصلاحية الدائمة ليكون وسيلة من وسائله الدعوية المؤثرة في نفوس الناس والفاعلة في حياقم ، ، فنلاحظ مثلاً أن التثبيت هو من أهداف القصص القرآني ، فالداعية يحتاج إلى ما يثبته على الحق ويقوي عزيمته وصبره في المواجهة مع قوى الباطل الغاشمة ، وهذا النبي عليه الصلاة والسلام عندما واجه المشركين في دعوته هو وأصحابه ، كان يجد منهم صنوف العذاب والشدائد ، فأمره تعالى أن يسير على نهج من سبقه من المرسلين ، الذين قابلوا ذلك بالصبر والتحمل، قال تعالى: { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } [الأحقاف: 35] . وذكر له قصصهم في قوة عزيمتهم وصبرهم فيما جرى معهم من شدائد ، حتى أن النبي كان يستخف بما يلاقيه من أعدائه حينما يسمع أخبارهم ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر [240].

---

[240] – صحيح البخاري برقم (3224،2981) .

فكان في ثباتهم وصبرهم فيما يكتنف الدعوة إلى الله من تبعات وتكاليف شاقة ، قدوة صالحة للنبي عليه الصلاة ة السلام والصحابة الكرام ، وتثبيتاً وتسلية فيما يلاقونه من شدة المواجهة مع الكفار ، وهذا ينسحب كذلك لأمته من بعده ولجميع الدعاة المخلصين في كل زمان ومكان ، وبذلك يكون هدف التثبيت على الحق من ورود قصص الأنبياء في القرآن ذا فاعلية وصلاحية دائمة ، واما في مجال الموضوعات فإن القصص القرآني يستمد موضوعاته من موضوعات هذا الدين ، والذي كان القصص القرآني إحدى براهينه على إمكانية تطبيق هذا الدين في الواقع البشري وبيان آثاره العظيمة في حياة الناس عل مستوى الأفراد والجماعات وما صاحب ذلك من رقي ونهضة ، وكذلك تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة ، وستظل القصص القرآنية بما تحويه من أخبار السابقين معين لا ينضب في إمداد الحياة البشرية بموضوعات دينية تصوب مسيرتها وتضبط حركتها وفق المنهج الإلهي في كافة مناحي الحياة ومجالاتها سواء في مجال الفكر والاعتقاد أو في مجال الاجتماع والأخلاق ، أو في مجال السياسة والاقتصاد ...الخ [241].

سابعا- الانتقائية .

القصة القرآنية ليست عرضاً مجرداً لحقائق التاريخ ، بل هي انتقائية لجوانب من التاريخ إيجابية كانت أو سلبية ، لتحقيق أهداف القصة المراد بلوغها . فيستدعي من التاريخ البشري ما يصلح لهذه المهمة ، ويختار من ذلك أحسن القصص ، ولذلك تسمى القصص القرآنية أحسن القصص ، مصداقاً لقوله تعالى : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ } [يوسف: 3]. فهي تعتمد على حسن الاختيار بعرض الوجه الأحسن من القصة والإعراض عما لا نفع فيه ، وهذه ميزة للقرآن بخلاف المعهود المعدود في الكتب الأخرى كالتوراة والإنجيل حيث تعرض القصة كاملة بخيرها وشرها ، ولقد حوت قصص أهل الكتاب نتيجة لذلك على كثير من الجوانب الضارة في التعليم والتربية. أما في القرآن فقد جاءت المادة التاريخية موجَّهة تسيطر عليها الأغراض الدينية، لتكون في خدمة الدعوة الإسلامية، والحياة الإنسانية ، والتوجيه واضح في تحديد غرض أو أغراض القصة القرآنية من حيث التكليف للدعوة والتعليم والتربية، لذا نجدها تركز على الرقي المادي وأسباب القوة ، لأن هذه المادة عنصر أساسي في مقومات هذا الإنسان ، ونجدها كذلك تركز على ما هو مكمل لجانبه المادي للقيام بوظيفته في الأرض ، وهو التدين والعبودية لله تعالى التي هي الغاية من وجوده ، وهي بذلك تجمع بين

[241] - راجع : منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د. منى بنت عبدالله ص151-152 ، 183

عناصر تكوينه المادي والروحي ، الذي بهما تكتمل سعادة الإنسان ، وكذلك تكتمل عناصر النهضة الحضارية . وبذلك تسهم القصة في تحقيق تلك الأهداف النبيلة، لذلك فإن القصة القرآنية تنتقي المشاهد الملائمة لسياق الآيات الكريمة وشخصية السورة الكريمة المذكورة فيها، لتقدم دليلاً عملياً صادقاً ومثالاً حياً لقيم الخير والحق ممثلة في حياة الأنبياء والمرسلين ، وأولياء الله الصالحين على. ليكون تسلية وتثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم والدعاة المخلصين ، وموعظة وهدى ورحمة لمن تدبرها ونهج طريقها، كل ذلك من محاسن القصص القرآني وصدقها، وحسن انتقاء ما يوافق من أحداثها لما يهم المسلم في كل عصر ومصر. ومن هنا نجد القرآن الكريم يقدم من خلال قصصه الحق، طرق معالجة مجرَّبة للواقعَ الذي كان يعيشه المرسلين والصالحين، فيذكر ما يتطابق من الأحداث مع هذا الواقع من ناحية، كما يعالج الواقع الذي تعيشه الأجيال والعصور الإنسانية المستقبلية من ناحية أُخرى.[242]

ثامنا– حسن الاستشهاد [243] .

إن من خصائص القصة القرآنية أنها صالحة للاعتبار والاستشهاد في كل زمان ،ولا عجب فهي جزء من هذا القرآن الذي هو موعظة دائمة ، ورسالة خالدة لا تنفد خزائنه ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد . ومثال ذلك من القصة القرآنية قصة أصحاب الجنة الذين غرهم المال ، وغيرهم الجشع والطمع ، فمنعوا حق المساكين الذين كان والدهم يوصله إليهم ، فلقد كان للمساكين نصيب من العطاء عندما كان صاحب تلك الجنة حيا ، ثم لما مات تآمر أبناؤه فيما بينهم واستكثروا ما ينقطع لهؤلاء المساكين من مالهم ، فاتفقوا على أن يقطعوا الثمر في وقت مبكر من النهار حيث يأمنون تعرض المساكين لهم في هذا الوقت الباكر . وأقسموا اليمين على ذلك دون استثناء ، فباتوا على كيد وغدوا على حرد ، وإذا بطائف من الله تعالى يطوف عليها شجرة شجرة ، وثمرة ثمرة ، فلا يبقي منها باقية ، فكأنه سبقهم إليها وأهلك ثمارها كلها وأتى على ثمارها كلها .

فانظر كيف قوبل مكرهم وشدة تعميتهم وتبييتهم لسوء النية بهذا الانتقام الإلهي السريع ثم تخلص القصة إلى العبرة العظيمة : { كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [

242 – أنظر : قصص القرآن الكريم ، أ.د . فضل حسن عباس ، ص46 ، القصة القرآنية، شبهات حول القران الكريم (1) ، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام جمع وإعداد، علي بن نايف الشحود 342/5

243 – خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة ، عبد الغني أحمد جبر مزهر ، ص37/1

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القلم : 33] . ألا ترى أن القصة في أحداثها وعبرها تصلح أن تكون تذكارا صارخا في كل جيل لأولئك الذين بطروا نعمة الله ، وبدلوها جحودا وكنودا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ووسع عليهم من فضله ، وبسط لهم الرزق ، فأمسكت أيديهم ، وشحت قلوبهم ، ومنعوا حق الله عباد الله ، وأخفوا الشر ومنعوا الخير . إنه نموذج من الكنود البشري المتكرر ، تصلح له هذه التذكرة القرآنية في كل عصر ، وهكذا كل القصص القرآني ، فإنه يصلح أن يكون عظة بليغة وتذكرة نافعة إذا أحسن ربطه بالواقع ، بأسلوب موجز ، وعرض محكم [244].

– **المطلب الثاني : الخصائص الفنية للقصة القرآنية .**

للقصة القرآنية خصائص فنية راقية فهي تجمع إلى سمو الهدف وصدق المضمون رقيا في البناء الفني ، ومن الخصائص الفنية التي تمتاز بها القصة القرآنية يمكن أن نوجزها بما يلي [245] :

1. تنوع طرق العرض.

فالقرآن لا يجري في أسلوبه على نمط واحد مخصوص في قصصه كلها ، بل تتنوع طرائقه تبعا لتنوع الأغراض ، وتتنوع الأساليب البيانية تبعاً لتنوع الطرائق :

* فالقصة القرآنية تمتاز بالتنويع في المقدمات : فسورة الكهف ابتدأت بذكر ملخص كامل لوقائعها، ولكن هل أشبع هذا الملخص الرغبة في معرفة تفاصيل هذه القصة؟ والإجابة: كلا،.. بدليل قوله تعالى بعد ذلك: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى } [الكهف: 13]. فالقارئ والمستمع يتلهف لمعرفة سبب ذهاب الفتية إلى الكهف وما حدث لهم بعد ذلك.

* والقصة القرآنية تمتاز كذلك بالبداية المشوقة كما في سورة الفيل التي ابتدأت بسؤال مثير للاهتمام : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1)} . فالعرب يعرفون أن لعنة الله قد حلت بأصحاب الفيل ولكنهم بحاجة إلى مزيد من التفاصيل، ثم ذكرت نهاية القصة في بدايتها: { أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) } ، وما زال الاستفهام قائماً. وكيف كان ذلك؟ فجاءت

[244] – أنظر تفسير طنطاوي 4290 ، وتفسير السعدي 880 .

[245] – أنظر : التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ، والبيان القرآني لمحمد رجب البيومي ، والبيان القصصي في القرآن الكريم ، د . إبراهيم عوضين ، قصص القرآن الكريم ، أ.د . فضل حسن عباس 47-49

حمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإجابة في ثلاث آيات قصيرات مركزات: { وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5) }. وهكذا وصفت واقعة الفيل أبلغ وصف، واختتمت بنهاية محكمة أشد الإحكام. وروعة هذه القصة القرآنية ليست في جِدَّةِ موضوعها فهي قصة معروفة عند العرب متداولة بينهم، ولكن روعتها تكمن في المضمون الذي تناولته وهو البعد العقدي ، والقالب الجديد التي عرضت من خلالها وفي أسلوبها الموجز البليغ، فهي تتحدث عن واقعة عظيمة قدمت مختصرة في خمس آيات.

* وقد يمهد للقصة بمقدمة توحي بخاتمتها قبل عرض الحدث كما في قصة يوسف عليه السلام حيث ابتدأت بالتشويق الذي بلغ أعلى درجات الإثارة، ففي مستهل القصة وصف الله تعالى القصص القرآني بأحسن القصص الذي يخرج الناس من غفلتهم، ثم انتقلت للحديث عن الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام وهذا وحده كفيل بإثارة اهتمام القارئ والمستمع وشوقه لمعرفة تفسير تلك الرؤيا، ثم تحدثنا الآيات عن تحذير يعقوب عليه السلام لابنه من رواية تلك الرؤيا لإخوته. وبعد هذا الاستهلال الرائع للقصة تعود بنا الآيات إلى الماضي لتحدثنا عن تآمر إخوة يوسف عليه، ثم تتسلسل الآيات في رواية قصته كاملة منذ طفولته.

* وقد يذكر القصة بلا مقدمات أو تمهيد مكتفيا بالإيحاء إلى محور القصة مثل قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ .

* وقد يقدم أحداث القصة وفق ترتيب ما ليعجل لنا بالكشف عن مفاجأتها كما في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم ، وقد يمزج البيان القرآني الشخصية بالحدث مزجاً تاماً ثم يدير المشاهد في ذلك الفلك حسبما يقتضيه الغرض التوجيهي، فهو يمزج الشخصية بالحدث لينتج من هذا المزيج مركزٌ هو البطل الجديد الذي تدور حوله المشاهد، ذلك أن الشخصية في القصة القرآنية وسيلة لا غاية ن فهي مجرد شواهد إنسانية في مختلف حالاتها من خير أو شر أو قوة أو ضعف [246].

2. إقامة العرض على التصوير.

فالقصة القرآنية تقيم العرض القصصي على طريقة القرآن في التصوير ، وهذا الأسلوب التصويري هو طريقة القرآن في التعبير ، فالقرآن يتخيّر من ألوان التصوير لكل قصة ما يتناسب

---

[246] - أنظر : قصص القرآن ، أ .د . فضل حسن عباس، 47-48 ، القصة في القرآن الكريم.. الخصائص والدلالات، د. إبراهيم الصعيي ،ص2

معها في موطنها ، فمن خلال التصوير والتجسيم والاستحضار والإيحاء يوصل القرآن المعنى ويحقق الأثر في النفس ، بأفضل الطرق ، فسورة يوسف من أولها إلى آخرها لم تقل شيئاً عن وسامة يوسف عليه السلام، لكننا نرى الوسامة الأخاذة في أعين النسوة عندما رأينه، قطعن أيديهن لفرط الذهول من وسامته. فحقيقة جمال ووسامة يوسف قدمت لنا مجسمة تكاد تنطق في قوله تعالى : { فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ } [يوسف : 31]. والتضعيف في الفعل (قَطَّعن) أسهم في إيضاح الموقف وتصويره بحيث يمكننا تخيل مشهد النسوة وهن يقمن بتقطيع أيديهن، فتشبيه يوسف بالملك الكريم يعني أن جماله فاق الوصف [247].

وكذلك في قصة إبراهيم، وهو يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل، وكأنما نحن نشهدهما يبنيان ويدعوان الآن ، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان. { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127] . لقد انتهى الدعاء ، وانتهى المشهد، وسدل الستار. هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء ، هي التي أحيت المشهد وردته حاضرا، فالخبر: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) كان كأنما هو الإشارة برفع السّتار ليظهر المشهد : البيت ، وإبراهيم وإسماعيل، يدعوان هذا الدعاء الطويل . وكم في الانتقال من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز، يزيد وضوحا لو فرضت استمرار الحكاية، ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان : ربنا....الخ. إنها في هذه الصورة حكاية، وفي الصورة القرآنية حياة . وهذا هو الفارق الكبير. إن الحياة في النص لتثب متحركة حاضرة . وسّر الحركة كلّه في حذف لفظة واحدة . وذلك هو الإعجاز [248].

3. عدم التزام السرد القصصي .

إن القصص القرآني يعرض المشاهد منفصلة غير متصلة وغير متسلسلة ، وهذا يعني عدم مراعاة التسلسل التاريخي والترتيب الزمني لحوادث القصة كما هو شأن كتب التاريخ وكما هو حال التوراة والإنجيل. وهذا راجعٌ إلى منهج القرآن الكريم في قصصه حيث إنه لا يذكر التفصيلات التي لا تفيد في القصة؛ لأن غرض القرآن الكريم ليس السَّرد القصصي، وإنما العبر والفوائد التي

---

247 - القصة في القرآن الكريم، الخصائص والدلالات،د. إبراهيم الصعي ص7، قصص القرآن، أ .د.فضل عباس ص48

248 - راجع : تفسير الظلال ، 88/1

تخدم الهدف الأساسي للقرآن الكريم، وهو تعريف الخلق بخالقهم الكريم، وربطهم به . فهو لا يتبع السرد القصصي إلا إذا كان هذا السرد يوصله للغاية من القصة، كما في قصة يوسف عليه السلام . فقد جاءت كاملة الأحداث والمواقف في معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب [249].

4. اختلاف مواقع المفاجأة .

تتميز القصة القرآنية بتنوع الأساليب التي كانت تقدم من خلالها ومنها عنصر المفاجأة واختلاف مواقعها ، فالقصة القرآنية لا تسير على نظام واحد في تقديم الحدث المفاجئ الذي يسهم في النهاية ويحرك القصة إلى حل عقدتها الرئيسة ، كما تراعي إظهار المفاجأة في الزمان والمكان المناسبين ، فالهيئة التي تقدم بها القصة في مجال العقيدة غير الهيئة في مجال التطبيق العملي ، ففي قصة أصحاب الجنة تأتي المفاجأة بعد بدء القصة مباشرة ، فبينما هم منشغلون بالتخفي والاستتار عن المحتاجين للهرب بمحصول جنتهم تأتيهم المفاجأة بخرابها أمام سخرية النظارة ، ذلك أن القصة مبنية على نزوة نفسية هي الطمع والشح ، أما قصة صاحب الجنتين فالمفاجأة فيها تأتي في ختام الأحداث وبعد حواره مع صاحبه المؤمن ، ذلك أن القصة مبنية على نزوة عقلية هي الاغترار والتكبر ، وفي هاتين القصتين يجهل القارئ المفاجأة قبل حدوثها ، بينما في قصة ملكة سبأ كان السر معروفاً للقارئ في كيفية مجيء العرش إلى سليمان عليه السلام بينما هي لم تكن تعرف، والدليل على ذلك قولها عندما رأته (كأنه هو): لأنها لمست تشابهاً كبيراً بينه وبين عرشها، ، وأما في مشهد إدخالها الصرح تكون هي والقارئ سواء في الجهل بالمفاجأة ، فسرد هذه الأحداث بهذه الطريقة فيه إثارة لاهتمام القارئ كما في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح فقد كتم القرآن سر المفاجأة حتى تكشفت في نهاية القصة، وفي هذا تشويق للقارئ حتى يتم القصة ويعرف نهايتها [250] .

---

[249] – راجع: في ظلال القرآن/سيد قطب 55/1 ، والقصص القرآني: إيحاؤه ونفحاته/د. فضل حسن عباس ص49، ودراسات تاريخية من القرآن الكريم، د. محمد بيومي مهران 39-40

[250] – قصص القرآن الكريم: د. فضل حسن عباس ص48-49، القصة في القرآن الكريم، الخصائص والدلالات،د. إبراهيم الصعبي ص7 .

5. تنوع وسائل ربط المشاهد .

من أبرز الخصائص الفنية للقصة القرآنية عدم الاستقصاء في عرض مشاهد القصة ارتفاعاً بها عن وهدة السرد التاريخي المعتاد ، وليس كما هو في قصص الكتاب المقدس عند أهل الكتاب، الذي فيه الكثير من الإطالات التي لا فائدة منها، ومعلومات تاريخية لا قيمة لها، ولا علاقة لها بالوحي الإلهي، بل هي أقرب إلى السرد التاريخي من القصص الهادف.

ومن الإطالات بلا داعٍ في كتبهم المقدسة ما ورد في سفر صموئيل "فبادرت أبيجال وأخذت مائتي رغيف خبز وزقي خمر، وخمسة خرفان مهيئة، وخمس كيلات من الفريك، ومائتي عنقود من الزبيب، ومائتي قرص من التين، ووضعتها على الحمير "[251] . وفي سفر عزرا قائمة بأسماء العائدين من بابل حسب عائلاتهم، وأعداد كل عائلة إضافة لأعداد حميرهم وجمالهم ..[252] الخ . كما ثمة قوائم أخرى بأعداد الجيوش والبوابين من كل سبط، وعدد كل جيش [253].. الخ . إلى غير ذلك من الأخبار التي لا تُفيد معرفتها بشيء ولا يضر الجهل بها ، كما لا تتفق مع جلال الرسالة الإلهية . ومثل هذا لا تجده في الأسلوب القرآني، بل من أبرز خصائصه رعاية مقتضى الحال. فلم يكن القرآن الكريم قد بلغ الغاية في التأثير في النفوس إلا لكونه قد بلغ الغاية في رعاية مقتضى الحال [254]. ولينظر مثلاً إلى القصة القرآنية كيف يوجز عرضها في موضع ويطنب في موضع آخر، ويعبر عنها بلفظ في موضع، وبلفظ آخر في غيره، مراعاة لما يقتضيه المقام. و لم يقدم لفظ على آخر في موضع، ويؤخر عنه في موضع آخر، إلا لما يقتضيه المقام في هذا وذاك. وقل مثل ذلك في الحذف والذكر، والإظهار والإضمار، والتصريح والكناية، والحقيقة والمجاز، وغير ذلك من أساليب البلاغة [255]. وتأمل في قوله تعالى : { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } [الشعراء: 75-82]. ففي هذه الآيات

---

251 - سفر صموئيل الأول 18/25

252 - سفر عزرا 1/2-67 .

253 - انظر الأيام 1/23 - 34/27 .

254 - أثر تعلم القرآن الكريم في اكتساب الملكات اللسانية - يوسف العليوي ص30

255 - أنظر: أهداف التربية الإسلامية وغاياتها، لمقداد يالجن: 68، والاتجاهات الحديثة في طرائق تدريس التربية الدينية، لمصطفى موسى: 357. طرق تدريس القرآن الكريم، للزعبلاوي: 17 .

ترد التساؤلات التالية: لم اختير لفظ رب ولم يختر لفظ إله مع أنه هو المتبادر إلى الذهن، لكون إبراهيم يتحدث عن العبودية؟ ولم أضيف الرب إلى العالمين، ثم قصر أفعاله عليه وحده؟ ولم اختير تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي؟ ولم أسند المرض إلى نفسه وهو من تقدير الله مع أنه أسند بقية الأفعال إلى الرب؟ ولم عطف بين الأفعال مرة بالفاء ومرة بالواو ومرة بثم؟ وما سر الترتيب بين هذه الأفعال؟ ولم جاء الضمير هو مع الأفعال إلا في الإماتة والإحياء؟، ولم كرر اسم الموصول إلا مع المرض والشفاء، مع أن الظاهر يقتضي العطف من غير تكرار؟ ولم جاء فعل الخلق بصيغة الماضي والأفعال الأخرى بالمضارع؟ ولم أطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع؟ [256]. كل ذلك ولا شك جاء مراعاة للمقام [257].

فالأسلوب القرآني يتفاوت في عرضه للقصة طولاً وقصراً مراعياً محاولة التأثير النفسي والروحي في المخاطبين، والمراحل التي مرت بها الرسالة الإسلاميّة ، مما جعل أسلوب القرآن الكريم أسلوباً يختلف فيه عن كل من النثر والشعر العربي . فمثلاً سورة نوح في قصة واحدة وهذه القصة ذكرت في آية واحدة هي قوله : { إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ } [الحاقة: 11]. وتجد بعض المشاهد متتابعة في القصة ، وبعضها فيه فجوة تترك لخيال القارئ ليملأها ، ففي قصة أصحاب الكهف يتتابع المشهد الأول والثاني ، إذ هما استمرار للحوار الدائر بينهم بشأن موقف قومهم من العقيدة ، لكن هناك فجوة بين المشهد الثاني والثالث هي الفاصل بين استقرار أمرهم على الإيواء إلى الكهف وبين وقوفنا أمام الكهف حيث نرى الشمس تطلع عليهم وتغرب وهم في فجوة منه [258]؛ وكذلك في قصة الرجل المؤمن في سورة يس لم يبين السياق ما جرى له ، وتركها فجوة فنية ، وترك لخيال القارئ أن يملأها ، من خلال تصوره أو توقعه ما سيصيبه ، وإن ما جرى له معروف من خلال الجو الذي يعيشه ، إنهم سيرجمون الرجل الذي تجرأ وتحداهم [259].

6. دقة اختيار الكلمات التي تحمل دلالات عميقة .

ويمتاز القرآن الكريم بالدقة في اختيار الكلمات التي تحمل دلالات عميقة، وتعبر عن أحداث كثيرة بأقل عدد من الكلمات كما في كلمة (تذودان) الواردة في قوله تعالى : { وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ

[256] – القصة القرآنية : المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود ، 336/5

[257] – ينظر على سبيل المثال في بلاغة هذه الآيات: "الكشاف" للزمخشري، و"روح المعاني" للآلوسي، و"التحرير والتنوير" لابن عاشور في سورة الشعراء الآيات 75-82 .

[258] – قصص القرآن الكريم: د. فضل حسن عباس ص48-49،

[259] – قطوف تربوية حول قصة أصحاب القرية، د. حمدي شعيب ، مجلة البيان ، العدد 193ص28 ,

مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ } [القصص: 23] . فهذه الكلمة بينت أن الفتاتين كانتا تحبسان أغنامهما وتمنعانها من الاختلاط بأغنام الآخرين، حتى لا يدعي أحدهم أنها له، وهذا يعني أنهما كانتا تنتظران - لضعفهما - حتى يخف الزحام فتسقيان أغنامهما، وأن أغنامهما كانت تريد الذهاب إلى مورد الماء مع سائر الماشية فكانتا تمنعانها وهذه الكلمة ساهمت في تخيلنا للموقف وما فيه من حركة، والدوافع النفسية التي تدفعهما للتصرف بهذه الطريقة، كل ذلك لخصه القرآن الكريم في كلمة واحدة هي تذودان ولاشك أن هذه الكلمة تكشف عن نفسية هؤلاء القوم الذين كان يسيطر عليهم حب الذات، والحرص على مصالحهم الخاصة بهم دون الالتفات إلى حاجة الآخرين للماء، وعدم مراعاتهم لضعف هاتين الفتاتين وكبر سن والدهما، ولذلك لفت هذا المشهد انتباه موسى عليه السلام وأثار تعجبه، ولما عرف القصة سقى لهما، وهذا يدل على حسن خلقه.

ونجد الأمر نفسه في قوله تعالى : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [عبس: 24-32] . حيث جمعت هذه الآيات في سرد رائع كل ما يمكن أن ينبت على وجه الأرض من مزروعات تفيد الإنسان، والدواب التي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان، فكلمة (الحب) تشمل القمح والشعير والذرة، أما القضب فهو كل ما يقضب من النبات كالقثاء وسائر البقول، والأب كل ما تنبته الأرض من عشب سواء ما يأكله الناس كالحصيد أو ما تأكله الدواب. ودلالة العنب والزيتون والنخيل واضحة ومفهومة، أما الحدائق بما فيها من أشجار غليظة وغير غليظة، فالآيات السابقة تبين لنا كل ما يحتاجه الإنسان من طعام حياته وحياة دوابه، وكذلك الفاكهة على مختلف أنواعها وكذلك الراحة النفسية والتمتع بالجمال. ومما يثبت أن القرآن الكريم يميل إلى اختيار الألفاظ القليلة ذات المعاني والدلالات الكثيرة، أننا نجد قصة قصيرة بليغة مركزة على قوم عاد في قوله تعالى :{ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ } [القمر : 18-20]. فهذه الآيات القصيرة تحدثنا عن تكذيب قوم عاد، والعذاب الذي حل بهم نتيجة لتكذيبهم والذي لم يبق على أحد منهم جزاء وفاقا. وقد نستغرب احتجاج الملائكة بأن نسل آدم سيفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء وهذا الأمر ما زال في علم الغيب في ذلك

الوقت عندما أخبرهم الله تعالى أنه سيجعل آدم خليفة له في الأرض، كما اتضح ذلك من قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة : 30]. ولعل في ذكرهم لسفك الدماء ما يتصل بصلة وشيجة بالدم المسفوك في قصة البقرة، ولذلك ذكرت هذه الجزئية من قصة آدم في هذه السورة فقط. وهذا ما تحقق بالفعل عندما قتل قابيل أخاه كما حدثتنا عن ذلك سورة المائدة . وقد ورد اسم الفاعل{جاعل} بتنوين الضم في الآية السابقة ليدل على الاستقبال غير المنقطع مما يوحي بأن الذي سيجعله خليفة ليس فرداً وهو (آدم) فقط وإنما هو ونسله لذلك لم يقل: (سأخلق) وإنما قال: {خالق} ومما يؤكد هذا التفسير أنه لم يقل: {خالق آدم} بل: {خالق بشراً} في قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر: 28-29] . كذلك نلاحظ تنكير كلمة: {بشر} لتشمل كل كائن وليس كائناً واحداً محدداً، وعندما جعل الله سبحانه وتعالى خليفة في الأرض أيضاً لم يقل إني: {جاعل آدم خليفة} وإنما قال: {إني جاعل في الأرض خليفة}[260].

7. ارتباط القصة بالقرآن أسلوبا ومضمونا .

إن أسلوب القرآن الكريم تأثر بالهدف العام لنزول القرآن الكريم، فإن هذا الهدف كما كان له تأثير على المضمون القرآني ، كان له تأثير على أسلوب القرآن الكريم أيضًا. وجاء الأسلوب أداة موظفة لتحقيق هذا الهدف العام . كما نلاحظ دائماً بأن ذكر القصة في القرآن الكريم يأتي دائماً مرتبطاً بسياقها والآيات السابقة أو اللاحقة لها أو كليهما، وهذا يعني أن القصة ترتبط بشكل مباشر وتفصيلي بالقرآن الكريم أسلوباً ومضموناً. فالارتباط هنا والتفاعل ليس على المستوى العام للهدف فحسب، بل هو ارتباط على مستوى التفاصيل في تطبيقات هذا الهدف أيضاً. ويتضح هذا المعنى في سورة مريم ، والذي كان القصص هو مادة هذه السورة . فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى . فقصة مريم ومولد عيسى . فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه . ثم تعقبها إشارات إلى بعض النبيين. ويستهدف هذا القصص إثبات الوحدانية والبعث ، ونفي الولد والشريك ، وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين . ومن ثم بعض مشاهد القيامة ،

---

[260] – القصة في القرآن الكريم.. الخصائص والدلالات ، د. إبراهيم الصعي ص3-6

وبعض الجدل مع المنكرين للبعث . واستنكار للشرك ودعوى الولد؛ وعرض لمصارع المشركين والمكذبين في الدنيا وفي الآخرة.

وكله يتناسق مع اتجاه القصص في السورة ويتجمع حول محورها الأصيل . وللسورة كلها جو خاص يظللها ويشيع فيها ، ويتمشى في موضوعاتها. فسياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية ، الانفعالات في للنفس البشرية وللكون من حولها . فهذا الكون الذي نتصوره جماداً لا حس له يعرض في السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات ، تشارك في رسم الجو العام للسورة . حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكاراً : { تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا } [مريم: 90-91]. أما الانفعالات في النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهي مع ختامها . والقصص الرئيسي فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة . وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى . والظل الغالب في الجو هو ظل الرحمة والرضى والاتصال . فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا : { ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا } [مريم: 2] . وهو يناجي ربه : { إذ نادى ربه نداء خفياً } . . ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيراً . ويكثر فيها اسم { الرحمن } . ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ود : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } [مريم: 96]. ويذكر من نعمة الله على يحيى أن آتاه الله حناناً : { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا } [مريم: 13]. ومن نعمة الله على عيسى أن جعله براً بوالدته وديعاً لطيفاً : { وَبَرًّا بِوَالِدَتِهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا } [مريم: 14]. وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال . كما تحس انتفاضات الكون وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته . كذلك تحس أن للسورة إيقاعاً موسيقياً خاصاً . فحتى جرس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق : رضيا . سريا . حفيا . نجياً . . فأما المواضع التي تقتضي الشد والعنف ، فتجيء فيها الفاصلة مشددة دالاً في الغالب . مدّاً . ضداً . إدّاً ، هدّاً ، أو عزّا . أزّاً . وتنوع الإيقاع الموسيقي والفاصلة والقافية بتنوع الجو والموضوع يبدو جلياً في هذه السورة ، هكذا تشترك ظلال التعبير مع دلالته في رسم الجو العام للسورة، ولخدمة الهدف العام الذي أرادت تحقيقه ؛ فجاء الأسلوب أداة موظفة لتحقيق هذا الهدف العام [261].

[261] - أنظر : تفسير الظلال 87/5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن أسلوب القصة في القرآن الكريم جاء منسجماً مع الأسلوب العام للقرآن الكريم ، ومنسجماً كذلك مع تحقيق أهدافه وتلك طريقة انفرد بها القرآن الكريم عن غيره [262].

8. بروز عنصر العقدة في القصة .

تشد القصة القارئ، وتوقظ انتباهه، دون توان أو تراخٍ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها، والتأثر بشخصياتها وموضوعها حتى آخر كلمة فيها. ذلك أن القصة تبدأ غالبًا، وفي شكلها الأكمل، بالتنويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر، أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصة، وقد تتراكم، قبل الوصول إلى حل هذه العقدة، مطالب أو مصاعب أخرى، تزيد القصة حبكًا، كما تزيد القارئ أو السامع شوقًا وانتباهًا، وتلهفًا على الحل أو النتيجة. ففي مطلع قصة يوسف مثلاً، تعرض على القارئ (رؤيا يوسف عليه السلام) يصحبها وعد الله ، على لسان أبيه ، بمستقبل زاهر ، ونِعَم من الله يسبغها على الأسرة الفقيرة المتعثرة ، الداعية إلى الله . وتتتابع المصائب والمشكلات على بطل القصة (يوسف عليه السلام) ويتابع القارئ اهتمامه ينتظر تحقيق وعد الله ، ويترقب انتهاء هذه المصائب والمشكلات بشوق وتلهف [263].

ويمتاز القصص القرآني بتنوع الصِّيَغ التي كان يقدم من خلالها الإنذار للأقوام التي تستحق العذاب، بعد استنفاد وسائل الإصلاح كلها، ففي سورة هود تلاحظ صيغ الإنذار التي وردت على لسان نوح وهود ولوط وصالح وشعيب، عليهم السلام، وعند قراءة هذه الصيغ المتعلقة بالإنذار نلاحظ المضمون نفسه ولكن الشكل الفني الذي قدم من خلاله كان يختلف باختلاف القوم، بحيث لا يدع مجالاً للشك بأن القرآن الكريم كلام الله، سبحانه وتعالى، ولهذا كان الإعجاز البلاغي هو مناط التحدي كما يتضح لنا كذلك أن الله سبحانه وتعالى ينصر أنبياءه والمؤمنين معهم وينجيهم، وينزل عقابه بمستحقيه .

وللإنذار أهمية بالغة في القصة القرآنية لأنه مرتبط بعنصر العقدة لهذا كان الإنذار الأخير في كل قصة قرآنية يشير إلى الذروة في تأزم الأحداث، والوصول إلى الذروة يعني قرب حدوث الحل الذي كان يأتي في القصص القرآني من خلال معجزة إلهية ترمي إلى إنزال الهلاك التام بالقوم

---

[262] - راجع : تكرار القصة في القرآن الكريم ، محمد باقر الحكيم ،، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، جمع وإعداد:علي الشحود، 362/5

[263] - أنظر : القصص في القرآن الكريم :إسلام محمود دربالة ص7

المفسدين. ولهذا كان المشهد الأخير من كل قصة قرآنية يتميز بإنزال كارثة بالمكذبين الذين كانوا يستحقون العقوبة مثل: الطوفان أو الزلزال أو العاصفة المدمرة أو الصيحة، لإظهار أن القوة لله جميعاً، وتحذر مشركي مكة من ملاقاة المصير نفسه، مع الحرص على ربط طرق الإهلاك مع نوعية الذنب المرتكب من قبل المكذبين بالدين بقصد الاعتبار. وينتهي هذا المشهد بانتصار الرسول صلى الله عليه وسلم والفئة المؤمنة من قومه، وفي ذلك رفع للروح المعنوية للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وللدعاة من بعدهم [264].

– المطلب الثالث : الخصائص الغرضية للقصة القرآنية .

إن أهداف القصة القرآنية تتميز عن غيرها من أهداف المناهج الأخرى ، مما أكسبها خصائص عديدة يمكن أن نجملها فيما يلي :

أولا. تربوية الوجهة :

مما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، وتسترسل مع سياقها المشاعر لا تمل ولا تكل ، ويرتاد العقل عناصرها من غير مشقة ولا كلفة . لأن الدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل، ويجد المرء صعوبة في تتبعها واستعاها . ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعًا، وأكثر فائدة.

والمعهود أن تميل النفس إلى سماع القصص لما فيها من عناصر التشويق والإثارة . هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم، لا سيما التهذيب الديني، الذي هو لب التعليم، وقوام التوجيه فيه. وفي القصص القرآني تربة خصبة تساعد المربين على النجاح في مهمتهم، وتمدهم بزاد تهذيبي، من سيرة النبيين، وأخبار الماضين وسُنة الله في حياة المجتمعات، وأحوال الأمم [265]. فالقصص القرآني لها دور عظيم في مجال التربية، حيث يشتمل على طرق شتى في التربية والتهذيب، تارة عن طريق الحوار، وأحيانا عن طريق سلوك طريق الحكمة والاعتبار، وطورا عن طريق التخويف والإنذار ، ذلك أن من أهم غايات القصة القرآنية : التربية الخلقية عن طريق علاج النفس البشرية علاجًا واقعيًا . فالقصة القرآنية من الوجهة الإسلامية وظيفة تربوية ،

---

[264] – أنظر : القصة في القرآن الكريم.. الخصائص والدلالات ، د. إبراهيم الصعي ص3-6

[265] – مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان ، ص 321

وهي تمتاز بميزات جعلت لها آثارًا نفسية وتربوية بليغة، محكمة، بعيدة المدى على مر الزمن، مع ما تثيره من حرارة العاطفة ومن حيوية وحركية في النفس، تدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه وتجديد عزيمته بحسب مقتضى القصة وتوجيها وخاتمتها، والعِبرَةِ منها. وتتجلى أهم المميزات التربوية للقصص القرآني فيما يلي[266] :

أ. التربية بالقصص القرآني له أسلوبه الخاص في التربية، عن طريق إثارة الوجدان والمشاعر والترقب والتخوف والمراقبة للقصة من البداية إلى النهاية، فالقصص القرآني له وظيفة تربوية لا يمكن على الإطلاق أن يحل محلها أي لون من ألوان الأداء اللغوي الآخر أبداً، فالقصص القرآني له أسلوب فريد، فأول القصة يشد الانتباه، ويحرك الوجدان خوف ترقب انفعال معين بالرضا أو بالسخط، فتعيش مع أحداث القصة وكأنك تراها . فتشد القصة القارئ، وتوقظ انتباهه، دون توان أو تراخٍ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها، والتأثر بشخصياتها وموضوعها حتى آخر كلمة فيها. ذلك أن القصة تبدأ غالبًا، وفي شكلها الأكمل، بالتنويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر، أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصة، وقد تتراكم، قبل الوصول إلى حل هذه العقدة، مطالب أو مصاعب أخرى، تزيد القصة حبكًا، كما تزيد القارئ أو السامع شوقًا وانتباهًا، وتلهفًا على الحل أو النتيجة. ومن ذلك قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح في سورة الكهف ، فحينما نتابع سياق القرآن أمام مفاجآت عجيبة ومتوالية لا نعلم لها سراً . ويكون موقفنا من التعجب والاستغراب منها كموقف موسى عليه السلام ، وتكملة للجو الغامض الذي يحيط بالقصة . لم يذكر القرآن اسم العبد الذي لقيه موسى، وهذا يتفق مع الشخصية المعنوية التي يمثلها . لأنه يمثل الحكمة الإلهية العليا ، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة ، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة .وإن القوى الغيبية لتتحكم في القصة منذ نشأتها . فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود بعد عناء ومشقة . ثم يصاحبه فيرى منه مفاجآت متوالية لا يعلم لها سراً ولا تفسيراً ، حتى أرهقه ذلك ثم يأخذ السر في التجلي وينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف ، كما انكشف عن غيب الله الذي لا يطلع عليه أحداً إلا من ارتضى . ويشارك اللفظ في صناعة الجو العام للقصة وبما ينسجم

---

266 - أنظر : تفسير الظلال لسيد قطب ، ص 1949-1951 . القصص في القرآن الكريم، إسلام محمود دربالة ، ص6-11.

مع المؤثرات والتأثيرات النفسية فيها ، ويظهر هذا الأمر بوضوح في تصوير حالة موسى ، فعندما عجز عن إدراك مجريات الأحداث التي مر بها ، وأرهقه ذلك لعدم قدرتها على تفسيرها ، جاء التعبير القرآني عن هذه الحالة بلفظ : { تَسْتَطِيعَ } كما في قوله : { إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا } [الكهف: 67]. وقوله : { قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا } [الكهف: 72] . وبعدما أخبر العبد الصالح موسى بما وراء تلك الأحداث التي أدهشته وأثارت إستغرابه استراح موسى من الإرهاق النفسي الذي أصابه ، فجاء التعبير القرآني عن هذه الحالة بلفظ { تَسْطِعْ } كما في قوله : { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف: 78]. وقوله : { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف: 82] . فجاء اللفظ منسجماً مع حالة موسى النفسية فعندما اشتد الإرهاق النفسي على موسى زاد المبنى : { تَسْتَطِيعَ } . وعندما خفّ عنه الإرهاق خفّ المبنى : { تَسْطِعْ }. وهكذا تترك القصة أثرها التربوي ، في التسليم للحكمة الإلهية في كل ما يجري من أقدار الله التي يعجز العقل البشري المحدود عن إدراكها[267]. وكذلك في قصة يوسف عليه السلام نجد في مطلع القصة عرض لرؤيا يوسف عليه السلام، ويصحبها وعد الله على لسان أبيه بمستقبل زاهر ، ونِعَم من الله يسبغها على الأسرة الفقيرة المتعثرة ، الداعية إلى الله . وتتتابع المصائب والمشكلات على يوسف عليه السلام ، ويتابع القارئ اهتمامه ينتظر تحقيق وعد الله ، ويترقب انتهاء هذه المصائب والمشكلات بشوق وتلهف كبير . ويتحقق وعد الله تعالى بالفرج في نهاية القصة . وتترك هذه القصة أثرها التربوي لتزيد من ثقة المؤمن بربه في حصول الفرج مهما زادت المحن واشتدت عليه الخطوب [268].

ب. تتعامل القصة القرآنية مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة ، متمثلة في أهم النماذج التي يريد القرآن إبرازها للكائن البشري ، ويوجه الاهتمام إلى كل نموذج بحسب أهميته ، فيُعرض عرضًا صادقًا يليق بالمقام ويحقق الهدف التربوي من عرضه ، ففي قصة يوسف يعرض نموذج الإنسان الصابر على المصائب في سبيل الدعوة إلى الله (في شخص يوسف) ، ونموذج المرأة المترفة تعرض لها حبائل الهوى فملأ قلبها الحب والشهوة ، ويدفعها إلى محاولة ارتكاب الجريمة ، ثم إلى سَجن إنسان بريء مخلص لا ذنب له إلا الترفع عن الدنايا والإخلاص لسيده ، ومراعاة أوامر ربه .ونموذج إخوة يوسف : تدفعهم هواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ومواجهة

---

[267] – راجع تفسير الظلال 75/5

[268] – القصص في القرآن الكريم، إسلام محمود دربالة ، ص6-11،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

آثار الجريمة والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة . ونموذج يعقوب : الوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول . يعرض القرآن كل هذه النماذج البشرية عرضًا واقعيًا نظيفًا من غير إفحاش ولا إغراء بفاحشة أو جريمة ، كما يفعل مؤلفو القصص المعاصرون فنراهم قد اتجهوا اتجاهاً سيئاً؛ بحجة الكمال الفني للأداء، وبحجة الواقعية الكاملة لأشخاص القصة ومواقف القصة! فتراهم يعزفون على وتر الجنس والعنف والدم ، وابتزاز غرائز القراء بأسلوب متدن هابط، ابتداءً من العنوان، وانتهاءً بالمضمون، بحجة الكمال الفني للأداء، وبحجة الواقعية الكاملة للقصة، مع أن القرآن قد ذكر القصة بكل واقعيتها ولم يتدن في جملة، بل ولا في لفظة، بل ولا في حرف، حتى في لحظات التعري الجسدي والنفسي لم ينزل القرآن في كلمة واحدة عن أسلوبه الطاهر النظيف؛ لأنه ابتداءً وانتهاء كلام الله خالق الإنسان. ففي قصة يوسف، لحظة التعري الجسدي تجد قمة السمو، قمة الجلاء، قمة الروعة، تقف مع هذه المواقف ومع الشخصيات وكأنها تتحرك أمام عينيك وبين يديك، ومع ذلك لم تتحرك الغرائز الهاجعة، ولم تتحرك الشهوات الكامنة، أسلوب طاهر نظيف نقي، في كل لحظة من لحظات القصة، وفي كل موقف من مواقفها، بل ومع كل شخصية، بل ومع كل كلمة [269].

جـ. تمتاز القصة القرآنية بالإقناع الفكري بموضوع القصة .

1- عن طريق الإيحاء ، والاستهواء والتقمص ، فلولا صدق إيمان يوسف لما صبر في الجب على الوحشة ، ولما ثبت في دار امرأة العزيز على محاربة الفاحشة والبعد عن الزلل ، هذه المواقف الرائعة توحي للإنسان بأهمية مبادئ بطل القصة وصحتها ، وتستهويه صفات هذا البطل وانتصاره بعد صبر ومصابره طويلة ، فيتقمص هذه الصفات حتى إنه ليقلدها ولو لم يقصد إلى ذلك ، وحتى إنه لَيردّدُ بعض هذه المواقف ويتصورها ويسترجعها من شدة تأثره بها .

2- عن طريق التفكير والتأمل : فالقصص القرآني لا يخلو من محاورات فكرية ينتصر فيه الحق ، ويصبح مرموقًا محفوفًا بالحوادث والنتائج التي تثبت صحته ، وعظمته في النفس وأثره في المجتمع ، وتأييد الله له . ففي قصة يوسف نجد حوارًا يدور بينه وبين فتيين عاشا معه في السجن فدعاهما إلى توحيد الله . وقصة نوح كلها حوار بين الحق والباطل ، وكذلك قصة شعيب ، وصالح وسائر

---

269 - راجع : سلسلة التربية لماذا ، محمد بن إبراهيم بن حسان ، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية ، http://www.islamweb.net .

الرسل : حوار منطقي مدعوم بالحجة والبرهان يتخلل القصة ، ثم تدور الدوائر على أهل الباطل ويظهر الله الحق منتصراً في نتيجة القصة ، أو يهلك الباطل وأهله ، فيتظاهر الإقناع العقلي المنطقي والإثارة الوجدانية ، والإيحاء وحب البطولة (الاستهواء) والدافع الفطري إلى حب القوة وتقليد الأقوياء ، تتظاهر كل هذه العوامل وتتضافر ، يؤيدها التكرار مرة بعد مرة ، فما أكثر تكرار بعض قصص القرآن حتى تؤدي بمجموعها إلى تربية التصور الرباني للحياة وللعقيدة واليوم الآخر وإلى معرفة كل جوانب الشريعة الإلهية معرفة إجمالية وإلى تربية العواطف الربانية من حب في الله ، وكراهية للكفر وحماسة لدين الله ولحماته ، ولرسل الله ، وولاء الله وانضواء تحت لوائه ، وإلى السلوك المستقيم وفق شريعة الله ، والتعامل حسب أوامره ، وبهذا تحيط القصة القرآنية نفس الناشئ بالتربية الربانية من جميع جوانبها العقلية والوجدانية والسلوكية . فالقصص القرآني يحتوي على قيم تربوية وسلوكية ، ولو أننا درسناها دراسة تحليلية ، ومن ثم عملنا مقارنة مع ما توصل إليه العلم الحديث من نظريات عصرية جديدة ، لتصاغرت أمام هذه القيم التربوية العظيمة التي أسسها المنهج القرآني في آياته وقصصه ، ومن أجل فهم أدق وأشمل لتلك المقارنة في الجوانب التربوية والسلوكية [270] :

– ما جاء في قصة موسى والعبد الصالح في سورة الكهف ، والتي فيها دلالة على طلب العلم ، كما في قوله تعالى : { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا } [الكهف: 66]. فهذه القصة تقدم المنهج السديد في طلب العلم وأسسه ومصدره ومنطلقاته وغاياته وآدابه وضروراته ، وسبل الوصول إليه ، وتحمل المشاق في طلبه ، والتي تعجز كل النظريات الحديثة على أن تقدم مثلها أو قريب منها علاوة على أن تجمعها في قصة قد تضمنت كل عناصر التشويق والإثارة [271].

– وكذلك ما جاء في قوله تعالى : { وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ } [القصص: 22]. فهذه الآية فيها دلالة على أن الخروج لطلب العلم والمعرفة والفهم تكمن في النفسية التي تستطيع بشخصيتها أن تستهدي بالله سبحانه وتعالى ، لأن الهداية الإلهية

---

[270] – سورة القصص دراسة تحليلية ، الدكتور محمد مطني، ص137-139

[271] – أنظر : التربية في القرآن الكريم د . عبد الحميد سليمان . الطبعة الأولى . دار الرياض . جدة . 1411 هـ : ص 232 - 235 .

أساس طلب العلم ، وهذا من أهم مبادئ السلوك التربوي الحديث التي سبقت نظريات التربية الحديثة .

– وأما فيما يخص أخلاقيات المرأة فنجد القرآن يكشف عن الأساس الخلقي للمرأة ويجمعها في أهم خصلة من خصال الأخلاق وهو الحياء ، وكشف عنه من خلال المرأة التي جاءت تدعو موسى لأبيها ، في قوله تعالى : { فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ } [القصص:25]. فالحياء خصلة جامعة لكل الأخلاق ، وهذا ما أكده النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستحي فاصنع ما شئت [272] .

وهذا الخلق ضروري للرجل والمرأة معاً إلا أنه للمرأة آكد ، فالحياء التربوي أساس من أساسيات السلوك العام والخاص ، كما قال علماء النفس والسلوك : في أن الحياء خصلة من خصال التربية التي لا يمكن إقامة نظام تربوي متكامل إلا بها ، لأن الحياء في أساسه أساس فعل كل شيء ، أو الامتناع عن فعل كل شيء [273] . ولكنهم لم يضبطوا هذا الحياء وفق تصور سليم وإطار محكم كما ضبطه القرآن الكريم وأطره بصورته العملية الواقعية : { تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ }. فالحياء ليست نافلة أو زينة يمكن الاستغناء عنه بل هو مرتبط بالإيمان ارتباطاً عضوياً لا ينفصل عنه وفق مفهومه العقدي والشرعي الذي قررته نصوص الشريعة ، قال صلى الله عليه وسلم : الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان [274] .

– ويكشف القرآن عن مصدر الانحراف الأخلاقي الذي يكمن في إتباع الهوى ، وذلك من خلال قصة العالم الذي اتبع هواه في قوله تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف : 175-176]. إن هذه الآية تكشف أن المعرفة غير كافية لتحقيق العنصر الخلقي ، بل لا بد من التربة الخلقية والتزكية ، وهذا ما كشفته كثير من الدراسات المعاصرة ، وقرره علماء التربية الحديثة ، وهو أن المعرفة وإن كانت ضرورية في تحصيل الأخلاق إلا أنها غير كافية من غير التربية الخلقية ، إلا ان هذا يبقى مجرد كشف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

272 - أخرجه البخاري في صحيحه (3296) ومسلم (6362)

273 - أنظر التربية في القرآن الكريم،د.عبد الحميد سليمان.ط1.دار الرياض.جدة. 1411هـ:ص232-235

274 - أخرجه البخاري في صحيحه (9) ومسلم (35).

تنظيري فقط ، لأنهم من حيث تحديد المفهومية للمعرفة والتربية وطرقهما ، ومقوماتهما والعلاقة بينهما ، وتطبيقهما من الوجهة العملية ، ما زالوا يتخبطون في ضلال فرضياتهم ، وتيه مناهجهم المادية التجريبية .

– ثم يقدم لنا القرآن الدراسة التحليلية للموقف الإنساني وأبعاده الخلقية وآثاره السننيّة من خلال موقف قارون ، في قوله تعالى : { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص: 78].

إن هذا الموقف الخلقي السلبي يتضمن مجموعة من الأمراض النفسية والانحرافات السلوكية ، وقد كشف القرآن عن هذا الموقف من خلال مقولة قارون ولكن السياق العام للقصة يجعل هذه المقولة موضع دراسة للتحليل العقلي واستنتاج جملة من الأخلاق السلبية التي تضمنها هذا المنطق المنحرف ، فمن ذلك القياس الخاطئ والجهل المطبق والغرور والكبر والطغيان والظلم والعُجب وحب الظهور وطلب الشهرة ونكران النعمة والكفر بالمنعم والاعتماد على الأسباب والاستغناء عن الله والتنصل من تبعات النعمة والحقوق المترتبة عليها ...ألخ . ثم نهاية قارون السيئة بالخسف تجعل العبرة المستخلصة ذات أثر كبير في تزكية النفس ، فقد جعل القرآن النتيجة التي انتهت بها القصة عاملاً مساعداً للكشف عن تلك الأمراض والانحرافات ، والبعد عنها والحذر منها .

وهذا الدراسة التحليلية للموقف الإنساني المنضبطة في إطار ربط الأسباب بالمسببات ، والأفعال بالنتائج ، والسنن بالوقائع المتكررة هي التي تجعل التحليل والنتائج المستخلصة تسير في الاتجاه السليم وتحقق المنفعة للإنسان . بينما تلك التحليلات النفسية التي تسير دون ضوابط ومصدرها الفرضيات والتوهمات وفق تصورات ناتجة من تجارب شخصية خاصة وفي الغالب تجد أصحابها ذو ميول منحرفة، وقد أوقعت نظرياتهم البشرية في التيه والضلال ، حتى أوصلتهم إلى هذا الانحطاط الخلقي الذي يعيشون فيه . ومن هؤلاء صاحب نظرية التحليل النفسي فرويد الذي كانت نظرياته تستند إلى فرضيات وهمية أسطورية عن الكبت واللاشعور ، والتي تجعل الغريزة الجنسية أهم دوافع السلوك ، فكانت تجربته نتاج تجربة شخصية منحرفة ، وحاول إثباتها من خلال أشخاص منحرفين غير أسوياء ، لذلك كانت أطروحاته تتسم بالسطحية ونتائجه هي أقرب لتوهمات منها للفرضيات [275] .

ثانيا. الصبغة الدينية .

[275] – راجع : أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، زكريا إبراهيم الشلول ، ص23

يمتاز القصص القرآني عن غيره من القصص في نقطة مركزية، هي: قضية الهدف والغرض الذي جاء من أجله القصص في القرآن، وتنعكس هذه النقطة على خصائص وميزات أخرى .

فالقرآن لم يتناول القِصّة باعتبار أنّها عمل (فني) مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيها.

كما أنّه لم يأت بها من أجل الحديث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونهم، أو من أجل التسلية والمتعة كما يفعل المؤرخون أو القصّاصون ، وإنّما كان الغرض من القِصّة في القرآن الكريم هو: المساهمة مع جملة الأساليب العديدة الأُخرى التي استخدمها القرآن الكريم؛ لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء من أجلها، وكانت القِصّة القرآنية من أهمّ هذه الأساليب [276] .

فالقرآن الكريم يمثّل رسالة دينية تهدف إلى إيجاد عملية التغيير بأبعادها المختلفة، والتي يمكن أن نوجزها بالأمور التالية [277]:

أ. إيجاد التغيير الجذري على المستوى الفردي والاجتماعي.

ب. بيان المنهج الصحيح للحياة الإنسانية الذي يتمّ على أساسه هذا التغيير، والذي يعبّر عنه القرآن الكريم بـــ (الصراط المستقيم).

ج. خلق القاعدة الثورية القادرة على تحمّل المسؤولية.

وقد كان لهذا الهدف آثار ونتائج متعدّدة انسحبت على أساليب ومناهج القرآن، والتي من أبرز هذه الأساليب القصص القرآني ، فقد تأثر هذا القِصّص في القرآن بالهدف العام من نزول القرآن ، لذا لا بدّ حين ندرس القِصّة القرآنية، ونتعرّف على مزاياها وخصائصها الرئيسة أن نضع أمامنا هذا الهدف القرآني العام؛ لنتعرّف من خلاله على الأسلوب الذي اتّبعه القرآن، والمضمون الذي تناوله في عرضه القِصّة القرآنية مساهمة منه في تحقيق هذا الهدف.؟

ثالثا. الشمولية .

تمتاز هذه الأهداف المتعلقة بالقصص القرآني بخاصية الشمول ، وهي تشمل ما يلي [278]:

أ. المحتوى الكلي للإنسان فكره وشعوره وسلوكه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[276] - أنظر : خصائص القصص القرآني،د.محمد بن السريّع، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود ، 5/ 334 .

[277] - أنظر : المرجع السابق نفسه .

[278] - أنظر : منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ، د. منى بنت عبدالله ، ص147-150

فالقصة القرآنية تتناول (المجال الاعتقادي) والمتمثل في العقلية والنفسية ، والتي هي المقومات الأساسية للشخصية الإسلامية ، كما تتناول (المجال العملي) والمتمثل في الممارسات السلوكية ، وهذان العنصران : الاعتقادي والسلوكي ، هما متلازمان في تحقيق الإيمان بمفهومه الشرعي ، إذ لا انفصال بين المعتقد والسلوك ، ومن ثم فإن الأهداف المراد تحقيقها من إيراد القصص القرآني لا بد أن تشملهما لتحقيق مضامين رسالة الإسلام ، والأهداف في كلا المجالين ، تفيد بعضهما بعضاً فمثلاً ، تحقيق هدف الإقتداء بالأنبياء يقتضي أولاً الاعتقاد الجازم بصدقهم وبعصمتهم في التبليغ عن الله تعالى ، ومن ثم يكون الإقتداء بهم ذا فاعلية وتأثير ، فمن أعظم الاقتداء بالأنبياء أنهم يوحى إليهم ، قال تعالى : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } [الأنبياء: 73].والأئمة هم الرؤساء يُقتدى بهم في الخيرات ، وأعمال الطاعات بما أنزل عليهم من الوحي [279] .

وهذه الأهداف وإن نالها التقسيم في مجالي المعتقد والسلوك إلا إنها تبقى متكاملة مترابطة محققة للشمولية المطلوبة في تكوين عقيدة المسلم، وضبط ممارسته وفق نظام معتقده، بحيث يشمل هذا التكوين والبناء للمسلم فكره وشعوره وسلوكه . والمتتبع لدعوة الأنبياء يلاحظ أن دعوتهم تشمل تلك العناصر الثلاث ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 16].

ب. تكوين الشخصية الصالحة والمصلحة. كقول شعيب: { إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود: 88]. وبناء الأمة الهادية المهدية . قال تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } [البقرة : 183]. وقال تعالى : {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران: 110]. فغاية الإسلام هو الاهتداء وحمل الهدى إلى الناس ، دون إكراه أو إجبار ، وإن هذا هو الهدف العام كما قرره المنهج القرآني في آياته وقصصه ، وإن الخروج عن هذا الهدف هو انحطاط وتراجع عن المنهج الإسلامي ، بينما لا نجد مثل هذه الغاية في غير دين الإسلام ،فهي لا تهتم بمسألة الهداية والاهتداء ، ولا تحمل مهمة جدية أو مسؤولية عن الغير ، ولا تجعل مثل هذا المطلب أمراً أساسياً في غايتها ولا تنضبط به في مسيرتها ، بل تجد أن من أهداف أي أمة من الأمم غير الإسلام ، تكون غايتها هو إيجاد المواطن الصالح ، وهذا الهدف يحصر أمر الصلاح في حدود

[279] – الشوكاني : فتح القدير 416/3

الوطن فقط ، بينما تجده خارج وطنه مستعمر مستبد لا يراعي حقوق الآخرين ، بينما الهدف الإسلامي هو إيجاد الإنسان الصالح والمصلح ، فهو يهتم بإيجاد الإنسان وليس المواطن ، وذلك ليعم صلاحه جميع الناس سواء كانوا من أمته أم لا ، وكذلك إيجاد الإنسان الصالح والمصلح، فهو يتحمل مسؤولية الغير، ومهمته تحقيق الهدى والاهتداء [280].

ج. **الحياة الدنيا والحياة الآخرة** . إن القصص القرآني يسعى إلى تحقيق سعادة الإنسان ، لتشمل هذه السعادة دنياه وآخرته ، وهذا واضح في موضوعات العقيدة الواردة في القصص ، ومن ذلك ما جاء في معرض قصة قارون في قوله تعالى : { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا } [القصص: 77]. وكذلك ما جاء على لسان بني إسرائيل في قوله تعالى : { وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ } [الأعراف: 156]. فليس الدنيا في حياة المؤمن معزولة عن الآخرة ، بل الدنيا هي الطريق ألتي يعبر من خلالها إلى الآخرة ، قال تعالى : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الملك: 2].

رابعا. الفاعلية.

تميزت القصة القرآنية بالفاعلية فهي ذات تأثير كبير في حياة الأفراد والجماعات . فهي ليست أخباراً واردة للتسلية والمتعة ، وليست هدفاً لذاتها . بل هي وسيلة لتحقيق أهداف سامية . فالقصص القرآني من أهم وسائل التثبيت وبث والصبر في النفوس ، فقصة نوح تركز في أحداثها مراراً على طول الصبر في الدعوة لله تعالى . قال تعالى مبيناً ذلك : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } [العنكبوت : 14]. ثم بين تعالى خاتمة صبره بالفرج والنجاة ، ومبيناً سنته في نصرة عباده المؤمنين حيث عقب على إهلاك قوم نوح ونجاته هو ومن معه من المؤمنين في سورة هود ، بقوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [هود:49] .

فالتثبيت وبث الصبر من الأهداف ذات الفاعلية القوية في بناء الشخصية الإسلامية ، وذات تأثير واضح في منهج الدعوة إلى الله ، فهي من أهم عوامل النصر والتمكين، والقصص القرآني من

---

[280] – راجع : أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، زكريا الشلول ، ص24

أكثر الوسائل تأثيراً في تحقيق هذه العوامل . حيث تكون قصص الأنبياء والمؤمنين دافعاً فاعلاً وقوياً في تحقيق مضامين الرسالة الإلهية وتحمل مشاق التكاليف في سبيل ذلك [281].

– المطلب الرابع : الخصائص الموضوعية للقصة القرآنية .

أولا. الوحدة الموضوعية .

فالقصة في القرآن الكريم تتميز بأنها تمتزج بموضوعات السورة التي ترد فيها امتزاجاً عضوياً لا مجال فيها للفصل بينها وبين غيرها من موضوعات السورة، بحيث لو حذفنا القصة من موقعها الوارد في السورة لاختل المعنى، لأن القصة تسهم في بيان مضمون النص وإيضاحه للقارئ، فلو حذفنا على سبيل المثال، قصة الغراب التي وردت أثناء الحديث عن قصة ابني آدم (قابيل وهابيل) لما استقام المعنى، لأن الغرض من ذكر الغرابين كان لحكمة إلهية لبيان حكمة دفن الموتى .

ولا ترد القصة في القرآن الكريم إلا إذا تطلبها المقام واقتضت البلاغة ذكرها، ويذكر الجزء الذي له علاقة بموضوع السورة، ولا تذكر القصة كاملة، ولهذا خلت سورتا الأعراف و هود من الحديث عن قصة إبراهيم على الرغم من أن السورتين تحدثتا عن قصص الأنبياء ، وقد يكون الدافع من ذكر القصة في السورة هو بيان قدرة الله سبحانه وتعالى كما في قصة أهل الكهف، وقصة إحياء الموتى كما في سورة البقرة، فاستدعى المقام التذكير بقدرة الله ، وقد جاء الحديث عن قدرة الله سبحانه وتعالى ضمن السياق والجو العام الذي يتناسب مع موضوع السورة.

وإذا ما تأملنا مقدمة القصة القرآنية فإننا نجد أن الخطاب في الغالب يكون موجهاً للنبي عليه الصلاة والسلام دلالة على أن هذه القصة تساق لأجله ولأجل دعوته إما لتثبيته ولتأكيد دعوته بسوق معجزة جديدة من خلال هذه القصة، إما لردع معانديه وتخويفهم، كما في قوله تعالى : { نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [القصص : 3]. ومن خلاله عليه الصلاة والسلام كان الحديث يوجه لعامة المؤمنين [282].

---

281 – أنظر : منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ، د. منى بنت عبدالله ،ص 174-175 .

282 – القصة في القرآن الكريم.. الخصائص والدلالات، د. إبراهيم الصعبي ، ص1

يقول الدكتور عبد الرحمن الميداني: "فعلى متدبر كلام الله أن يوجه عنايته ما استطاع لاكتشاف وحدة موضوع السورة القرآنية وارتباط المعاني التي اشتملت عليها جملها بهذا الموضوع الكلي"[283].

وإن المتأمل في كتاب الله تعالى يجد هذه الظاهرة القرآنية واضحة كل الوضوح ، بحيث لا يجد أية صعوبة في استشعار هذه الوحدة الموضوعية في أي سور من سور القرآن ، كسورة يوسف وسورة ق وسورة الرحمن حيث تبرز وحدة موضوع السورة بروزًا لا يخفى على الناظر. ولئن كانت هذه الظاهرة القرآنية واضحة في كل سور القرآن على تفاوتٍ بينها ، فإنك تجد هذه الوحدة الموضوعية في سورة إبراهيم تمام الوضوح ، فأنت تقرأ السورة من أولها إلى آخرها وأنت تعيش جوًا واحدًا وتستشعر معنى واحدًا لا تأخذك التفريعات بعيدًا عنه ولا تسمح السورة لذهنك بالشرود عنه..ومن خلال الوقوف على وحدة الموضوع في سورة إبراهيم ، الذي هو الدعوة إلى التوحيد ، نلاحظ ما يلي[284]:

أ. إن تأمل هذه الوحدة الموضوعية في سورة متكاملة من سور القرآن المكي يشير إلى الأهمية القصوى التي أولاها القرآن الكريم لموضوع التوحيد، لا سيما وأن هذه السورة ليست الوحيدة التي تتفرغ لموضوع التوحيد فها أنت أمام سور كالإخلاص والكافرون وغيرها، والشاهد أن إفراد السور القرآنية على تنوعها في الطول والقصر بموضوع التوحيد تأكيد على أهمية وأولوية هذه الموضوع في الخطاب القرآني.

ب. إن تأمل التنوع الأسلوبي الذي سلكته السورة في أدائها للخطاب الدعوي تؤكد على ضرورة مراعاة هذا التنويع عند خطاب المكلفين بحيث يراعى أحوال المدعوين والشبهات السائدة والعوائق المانعة من قبول الدعوة.

ج. إن الوحدة الموضوعية في سورة إبراهيم ظلت بارزةً في السورة كلها من أولها إلى آخرها وكأنها تشير للدعاة إلى مبدأ منهجي مهم وهو عدم تجاوز مسألة تقرير العقيدة والتوحيد إلى أي شيء البتة حتى يتم الفراغ من تقرير الأساس العقدي.

---

283 – قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله – عبد الرحمن حبنكة ، ص 30

284 – أساليب التربية والدعوة والتوجيه من خلال سورة إبراهيم، د. وسيم فتح الله ، ص8-10

د. إن الوحدة الموضوعية في هذه السورة ظهرت أيضًا في السياق التاريخي الذي سردته السورة من وقائع الأمم السابقة والرسل السابقين لتؤكد مرةً أخرى على وحدة رسالة الرسل وأن دينهم التوحيد من أولهم إلى آخرهم.

هـ. إن الوحدة الموضوعية لسورة إبراهيم تعين المتدبر على فهم الجزئيات المذكورة في السورة ضمن هذا السياق الذي يقرر الفاصل والفارق بين الإيمان والكفر؛ بحيث إن كل انقياد لأمر وارد في هذه السورة يمثل طريقا لتحقيق الإيمان، تمامًا كما أن كل مخالفة لأمر وارد أو تلبُّسٍ بمنهيٍ عنه في السورة يشكل موردًا من موارد الكفر إن لم يكن كفرًا بعينه.

فالموضوعات الواردة في القصص القرآني ذات أصول عقدية واحدة رغم تنوعها كما وكيفا حسب البيئة التي أرسل إليها النبي ، مع ملاحظة أن موضوع الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر كان أبرز المواضيع التي جاءت في هذه القصص ، خاصة توحيد الألوهية ، وما حواه من أعمال قلبية ، لدرجة أن بعض هذه الأصول العقدية جاء موحداً مبنى ومعنى ، كعبادة الله وحده لا شريك له ، وتقواه وطاعته ، قال تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ } [المؤمنون: 23]. وقال تعالى : { إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [العنكبوت: 16]. قال تعالى : { وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } [المائدة: 72]. فالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له واحدة بين الأنبياء جميعاً ،ولا غرو أن كررت الألفاظ نفسها في قصص الأنبياء لتضيف مزيد دلالة عل وحدة ما جاء به الرسل[285].

وكذلك تجد هذه الوحدة الموضوعية في سورة العنكبوت والتي فيها بعض قصص أولي العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام . والسورة تتناول حقيقة الإيمان ، وسنة الله في الابتلاء والفتنة ، وتتحدث عن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس ، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على المكاره في طريق هذه الكلمة المحفوفة بمشاق التكاليف يقول تعالى في مبدأ السورة : { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [العنكبوت: 2-3]. وفي معرض هذا التناول تستعرض السورة قصص الأنبياء نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، استعراضاً يصور ألواناً من العقبات والفتن في طريق الدعوة

---

285 - منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د. منى بنت عبدالله، ص **183-185**

إلى الإيمان ، على امتداد الأجيال ، فمثلا في قصة نوح بالرغم من طول مدة الدعوة فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً إلا إنه لم يؤمن له إلا القليل فقد كانوا عتاة متكبرين على الحق لقي منهم عليه السلام مشقة وابتلاءات كثيرة في سبيل دعوتهم إلى الحق : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ } [العنكبوت: 14-15].

ثم يأتي التعقيب على هذه القصص ، وما تكشفه فيه من قوى مرصودة في وجه الحق والهدى ، بالتصغير من قيمة هذه القوى والتهوين من شأنها ، وقد أخذهم الله جميعاً : { فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [العنكبوت: 40]. ويضرب لهذه القوى كلها مثلا مصوراً يجسم وهنها وتفاهتها : { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [العنكبوت:41] .

ويمضي السياق في تناول بقية معاني السورة من ربط بين الحق الذي في الدعوات ، وأنها جميعها من عند الله تعالى وغيرها من المعاني ، ليختم السورة بتمجيد المجاهدين في الله وطمأنتهم على الهدى وتثبيتهم : {وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت: 69]. وهذا التجانس والترابط الملحوظ بين آيات السورة التي وردت فيهم القصة ، يوحد النظرة الموضوعية لمضامين القصة ، بل ولا يفصلها عن باقي آيات السورة التي وردت فيها ، ولا غرو في ذلك ، فوحدة المصدر الرباني تقتضي هذه الوحدة الموضوعية [286] .

وجاءت خاتمة السورة التي تضمنت تلك الجولات حول العقيدة في مسائلها الرئيسية الكبيرة : من توحيد الله ونفي الشركاء . والوحي وصدقه ، والحق الخالص الذي جاء به ، والبعث واليوم الآخر والجزاء .هذه القواعد الرئيسية للعقيدة التي دار حولها سياق السورة كله ، وسيقت القصص لإيضاحها ، وضربت الأمثال لبيانها، فهذه الوحدة الموضوعية جاءت متناسقة مع سياق السورة العام الذي ترد فيه القصة القرآنية بحيث تكون معه تكاملا موضوعياً ، فهي ترد متجانسة مع موضوع السورة العام [287] .

---

[286] - مهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د. منى بنت عبدالله، ص 183-185

[287] - أنظر تفسير الظلال ، 187/4، 448/5, 474 ،

ثانيا. التنوع في موضوعات القصص القرآني [288].

فالقصص القرآني وإن كانت القاعدة العامة لجميع موضوعاته هي القاعدة العقدية ، إلا أنه يمتاز بتنوع موضوعاته فمنها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدعوية والجهادية ..إلخ .

فمن القاعدة العقدية تنطلق مختلف الموضوعات الأخرى وتنبثق عنها ، فالموضوعات العقدية تمثل الأركان الأساسية التي توجه جميع الموضوعات الأخرى ، وتربطها برباط رباني متين لا تنفك عنه مطلقاً . وهذا التنوع العام لمختلف الموضوعات يشمل بداخل كل منها تنوع خاص ، فالمواضيع الاجتماعية منها ما يتعلق بالمجتمع ومنها ما يتعلق بالأسرة ، كما نلاحظ أن كل نبي بجانب دعوته للعقيدة برز في القصص في موضوع معين . ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي :

أ. **الموضوعات العقدية** . وهي تعد القاعدة العامة لجميع موضوعات القصص القرآني ، فلا تخلو قصة في القرآن من موضوع عقدي تقوم عليه ، بل إن أحداث القصة تدور حوله . وقد تناول القصص القرآني جميع أركان الإيمان الستة التي تضمنتها العقيدة الإسلامية ، ومن الأنبياء الذين برزوا في هذا الجانب هو إبراهيم عليه السلام فقد احتوت قصته في القرآن على تأسيس المعتقد الإيماني للشخصية الإسلامية ، فهو إمام الأنبياء وصاحب الحنيفية السمحة ، قال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 120].

ب. **الموضوعات الدعوية**: وهي وظيفة الأنبياء والمرسلين ، وقد كان كل نبي له طريقة وأسلوب في الدعوة ، ومن أبرز قصص الأنبياء في هذا المجال أولي العزم التي حوت قصصهم طرائق الدعوة ومتعلقاتها ، ومنهم نوح عليه السلام الذي برز في هذا الجانب فقد سلك مع قومه شتى الأساليب والوسائل في دعوته لقومه إلى توحيد الله ، قال تعالى : { قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا } [نوح: 5- 10].

ج. **الموضوعات الجهادية**: فقد تناول القتال في سبيل الله تعالى وبين عوامل النصر والهزيمة ، وما تضمنته هذه الأحداث من جوانب تربوية وعقدية ودعوية وغيرها مما يمكن استنباطها . ومن

[288] - راجع : منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني، د. منى بنت عبدالله، ص154-169 ، 185-186

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأنبياء الذين برزوا في هذا الجانب داود وسليمان عليهما السلام ، قال تعالى : { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } [البقرة: 249-252]. وقال تعالى : { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } [النمل: 16-17]. وقال تعالى : { اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ } [النمل: 28-30] .

د. الموضوعات الاجتماعية . ومن أبرزها

1. المتعلقة بالناحية الأسرية: وبرز هذا الجانب في قصة يوسف عليه السلام وأخوته . قال تعالى : { لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [يوسف: 7-8].

2. المتعلقة في المجتمع : وبرز هذا الجانب في قصة بني إسرائيل، قال تعالى : { وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (12) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [المائدة: 12-13].

ه. الموضوعات الاخلاقية . وبرز هذا الجانب في قصة لوط عليه السلام

قال تعالى : { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ } [النمل: 54-58].

ي. **الموضوعات السياسية** . وبرز هذا الجانب في قصة موسى عليه السلام، في مواجهة الطغيان السياسي الذي تمثل في فرعون ، واستبداده ببني إسرائيل فقد سامهم سوء العذاب ، قال تعالى : { إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ } [القصص: 4-6]. لقد علا فرعون وتجبر بسلطانه، وادعى الربوبية، واستعبد أهلها، وفرقهم شيعاً ليضرب بعضهم ببعض ويسهل التحكم بهم ، وكانت الطائفة المستضعفة هي طائفة بني إسرائيل ، وكان فرعون يسخرهم للخدمة في الأعمال الشاقة ، وكان يضعفهم عن طريق قتل أبنائهم واستحياء نسائهم ، فكان مثالا للحاكم الظالم المستبد لدرجة أنه ادعى الربوبية ، فانتقم الله منه هو وجنوده [289]: { وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ } [القصص: 38-40].

و. **الموضوعات الاقتصادية** . وذلك من حيث ما يلي :

1. **المعاملات المالية** . فقد برزت في قصة شعيب عليه السلام ، في مسألة التطفيف في المكيال والميزان، وتبخيس أشياء الناس، وقطع الطريق عليهم، قال تعالى : { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } [الأعراف: 88]. وقد

---

[289] - راجع : تفسير ابن عاشور 10/ص66-70

خوف شعيب قومه بعذاب الله تعالى لكي يتقوا الله ويشكروه فيما رزقهم باجتناب الفساد في معاملاتهم المالية [290].

2.التدبيرات الاقتصادية . والتي برزت في قصة يوسف عليه السلام ، وقد كشف من خلال القصة عن كيفية التدبير الاقتصادي وحسن الإدارة من قبل يوسف عليه السلام ، ومعالجة المشاكل الاقتصادية قبل وقوعها ، بأخذ كافة التدابير الاحتياطية لتجنب الأخطار بصورة وقائية . قال تعالى : { قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ } [يوسف: 47-49]. فقد استخدم يوسف عليه السلام طريقة مثلى في تخزين المحصول ، وهو ادخاره في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن التسويس والتلف ، وحسن توزيعه بين الناس مع ترشيد الاستهلاك ، ولمواجهة الأزمة المنتظرة، وضع خطة متوازنة طويلة الأجل [291].

ثالثا. الشمولية.

لقد تنوعت موضوعات القصص القرآني إلا أنها مع تنوعها مرتبطة بالقاعدة العقدية ارتباطا عضوياً لا تنفصل عنها ، وقد تناول القصص هذه الموضوعات على اختلافها في إطار العقيدة بشمولية كاملة ، بحيث لم تترك موضوعاً من مواضيع العقيدة إلا وعرضته ، فكانت بذلك شاملة لجميع قضايا العقيدة ، وهذه خاصية بارزة من خصائص موضوعات القصص القرآني ، فموضوع العقيد جاءت شاملة لكل أركانها من: الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، وقدره، واليوم الآخر . وكذلك كل ما يتفرع عنها من قضايا وتفصيلات فقد تضمنها القصص القرآني وبينها ، وهو بذلك حقق الشمولية الكاملة لقضايا العقيدة من خلال عرضها عبر الموضوعات المختلفة بكافة جوانبها وتفصيلاتها ، ويمكن بيان ذلك من خلال ما يلي :

أ- **عرض العقيدة من الناحية الاجتماعية** ، ليتضح كيف تجلت العقيدة من هذه الناحية لتشمل كل جوانبها، فكشف عن طبيعة العلاقة بين العقيدة والوشائج الاجتماعية المختلفة ومن ذلك :

---

[290] - راجع : أحسن القصص ، زاهية الدجاني ، ص87-88 ،

[291] - راجع: الدلالات الاقتصادية من قصة يوسف عليه السلام ، زيد الرماني ، مجلة النور ، عدد96،138م ، ص32-33

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ **العقيدة والعلاقة الأبوية** .وتتجلى هذه العلاقة في قصة إبراهيم عليه السلام مع والده الكافر ، كما في قوله تعالى : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 11]. إنما كان استغفار إبراهيم لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمان فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار بل تبرأ منه واعتزله [292].

ـــ **العقيدة وعلاقة البنوة** . وقد تجلت طبيعة هذه العلاقة من خلال قصة نوح عليه السلام مع ولده الكافر ، قال تعالى : { نَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [هود: 42-47]. هذه الآية تدل على أن رابطة الإيمان أعظم من رابطة النسب ، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو قوله : { إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ } . لأن مدار الأهلية مبنى على القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالكفر فلا علاقة بين مسلم وكافر [293].

ـــ **العقيدة والعلاقة الزوجية** . ضرب القرآن المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه ، وذلك فيما كان بين نوح وامرأته ، و لوط وامرأته . وفي الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون و فرعون [294]، قال تعالى : { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [التحريم: 10-11].

---

292 - راجع : تفسير الرازي 318/10

293 - راجع : تفسير الرازي ، وتفسير طنطاوي .

294 - أنظر تفسير الظلال . 226/4

ـــ **العقيدة والعلاقة القومية والوطنية وسائر الوشائج الأخرى** . فقد ضربَ القرآن من خلال قصصه المثل الواقعي متجسداً في حياة الأنبياء والمؤمنين فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم وأموالهم ، ومصالحهم وماضيهم ومصيرهم . وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم . وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم . قال تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [الممتحنة: 4]. و قال تعالى : { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا } [الكهف:13-16]. وكذلك نجد إبراهيم عليه السلام يهجر وطنه في سبيل دينه وعقيدته كما في قوله تعالى : { وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [العنكبوت: 26]. إن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين عن غيرها ، فهذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب ؛ وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة . إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بينما الرابطة التي لا تنقطع فهي رابط الدين والعقيدة ، وهذا هو مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط ، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة التي تخالف مخالفة أصيلة لدين الإسلامي [295].

ب- **عرض العقيدة والحياة الإنسانية بمراحلها الدنيوية والأخروية** ، فقد تناول القصص القرآني ذكر الدنيا والآخرة في معرض دعوة الرسل لأقوامهم . ومن شواهد ذلك مما يتعلق بالحياة الدنيا ، ما ورد في قصة نوح عليه السلام ، فقد دعا قومه إلى عبادة الله الواحد وطاعته وجعل ثواب ذلك سعادتهم في الدنيا، كما في قوله تعالى : { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا

---

[295] – أنظر : المرجع السابق نفسه

(10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: 10-12].

لقد استخدم نوح في خطابه لقومه كافة الأساليب منها : ترغيبهم بطاعة الله تعالى بنزول المطر وكثرة الخير والنعم عليهم ، وزيادة في الأولاد والأموال، ويلاحظ أنها جميعاً متعلقة بالجزاء الدنيوي ، فخاطبهم عليه السلام بالجزاء المادي القريب العاجل ، وذلك كي يسارعوا بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى، وأما الآخرة ومتعلقاتها من الجزاء سواء كان ثواباً أو عقاباً ، فقد ورد في قصة موسى عليه السلام بعد إيمان السحرة بموسى وكفرهم بفرعون ، قالوا : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [طه: 73-76]. كما نجد الجمع بين جزاء الدنيا وجزاء الآخرة في قول مؤمن آل فرعون في قصة موسى عليه السلام ، وهو يذكر قومه بالله وما أعده من جزاء في الآخرة ، فرهبهم من انتقامه وعذابه بقوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: 32-33]. ثم رغبهم فيما أعده الله تعالى للمؤمنين من نعيم الآخرة بقوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: 39-40].

وهكذا سائر القصص القرآني لا تخلو من ذكر الدنيا والآخرة ، وذكر الجزاء المترتب على طاعة الله تعالى فيهما ، فهو لا يهمل الدنيا ولا يغفل عن الآخرة ، بينما لو نظرنا إلى أسفار موسى الخمسة وأسفار يوشع والقضاة، وإلى الفكر الديني عند بني إسرائيل في القرون الأولى من حكم الملوك، لما وجدنا أية إشارة إلى مفاهيم أخروية محددة حقيقية. فعند هَدْم الهيكل، أي في تاريخ متأخر نسبياً، كان هناك فريق كبير من اليهود (الصدوقيون) لا يزال ينكر البعث. أما الأسينيون، فمع أنهم اهتموا بالتفكير الأخروي وجعلوه محور رؤاهم، فإن الآخرة بالنسبة إليهم كانت في هذه الدنيا، ولا يوجد أي ذكر للبعث في المخطوطات التي خلفوها، فمخطوطات البحر الميت تتحدث عن النهاية ولا تتحدث قط عن جنة أو جهنم ، فقد كان يدور الحديث عن الموت كعقاب أزلي للآثمين، وعن الحياة الأزلية للصالحين .وتشكل واقعة السبي نقطة تحوُّل في تاريخ الأفكار الأخروية

عند بني إسرائيل ، إذ تكتسب فكرة العودة وإعادة بناء الهيكل مركزية حقيقية تظهر في سفر حزقيال.

وإن مفهوم الآخرة أخذ في الظهور التدريجي وتطوّر في فترة ما بعد السبي البابلي حين ظهرت فكرة الثواب والعقاب الفرديين ، وإن مفهوم يوم الحساب، لم يستقر بصورته الجديدة إلا بعد المرحلة البابلية، واكتسب كثيراً من ملامحه بعد العودة من بابل، ثم صار إحدى الأفكار الدينية الأساسية في التلمود . ومع هذا، يمكن القول بأن ثمة عناصر أخروية تسم الفكر الديني اليهودي في مرحلة ما قبل السبي [296]. وأما محاولتهم إلى إرجاع مفاهيم الآخرة التي حرفوها وأخفوها وأغفلوها، بعد السبي البابلي ، لأنهم أدركوا قيمتها التربوية في التحفيز على الجهاد والمقاومة ، ومدى فاعليتها في التغيير والإصلاح ، والتي تدفع بالفرد نحو الفداء والتضحية لأجل الدين وصيانة الكرامة الإنسانية . وما سر الهزائم وضياع الكرامة والأوطان والتخاذل والهوان إلا للغفلة عن مفهوم الآخرة ، فحينما كان مفهوم الآخرة حاضراً في نفوس الجيل الأول من المسلمين ، كانت العزة والكرامة سهمهم والانتصارات المتلاحقة نصيبهم ، حتى دانت لهم الأرض راغمة وخضعت لهم الرقاب صاغرة .

ج. **عرض العقيدة من خلال الفرد والجماعة** [297]. فالقصص القرآني تضمن كل من الفرد والجماعة ، الفرد ممثلا في شخصية الداعية وهو النبي ، ومنهج إعداده وتربيته ، ليكون نموذجاً صادقاً ومثالاً حياً لتطبيق منهج الله ، فيكون أهلاً للإقتداء والتأسي به ، وأما الجماعة فممثلة باتباع النبي ، إذ يتولاهم الله تعالى بالتربية والإعداد ليكونوا أهلا لتحمل تكاليف هذا الدين ونصرته ، ومن صور هذه التربية والإعداد الابتلاءات التي يمر بها النبي وأتباعه . فهذا إبراهيم عليه السلام يبتلى بإلقائه في النار : { قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ } [الصافات: 97-98] . وكذلك يُبتلى بالأمر في ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام : { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ

---

[296] - راجع : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري ، 14/ 255-257 ، 271

[297] - راجع : منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ، د. منى بنت عبدالله ، ص 178-183 .

الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } [الصافات: 102-107]. فكان موقفهما مثالاً رفيعاً في الصبر والتوكل على الله .

وكذلك من مظاهر تربية الجماعة وإعدادهم ما ورد في قصة طالوت وداوود عليه السلام : قال تعالى : { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ } [البقرة: 249-252]. هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل . إنه مقدم على معركة؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة ، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة . وهو يواجه جيش أمة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة . هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة . الإرادة التي تضبط الشهوات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها الشاقة . فلا بد للقائد المختار أن يبلو إرادة جيشه وصبره . واختار هذه التجربة وهو أنه أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده ، تبل الظمأ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، وصحت فراسته فشربوا وارتووا وخالفوا أمره وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم ، لأنهم لا يصلحون للمهمة ، فهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة . وتمضي القصة . فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، هي التي تقرر مصير المعركة وتنتصر بإذن الله [298].

وهكذا تقدم القصة القرآنية نموذجاً فريداً في الإعداد التربوي والنفسي للجماعة في الصبر والتوكل على الله تعالى والثقة بنصره ، وترسم طريق النصر مصحوباً بنتائجه في تجربة واقعية عملية ، وذلك كي تستفيد الجماعة المسلمة في مواجهة أعدائها والخروج من أزماتها . بتوفر القيادة المخلصة الرشيدة ، والجماعة الصابرة المطيعة . تلتقي على الإيمان بالله والثقة بنصره .

---

298 - راجع : تفسير الظلال 250/1-251

وهكذا تناولت أحداث القصص القرآني الفرد والجماعة بالتربية والإعداد لتحقق رسالة ربها وتتحمل التكاليف في سبيل تطبيقها على أرض الواقع . فجاءت القصة القرآنية شاملة لجميع جوانب الحياة، مصداقاً لقوله تعالى : { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل: 89]. فوافقت بين روح الإنسان وجسده وبين فرديته وجماعته وبين دنياه وآخرته، فلا تنشطر سريرته وحياته أشطاراً مختلفة كما هو الحال في الثقافات الأخرى. قال تعالى : { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } [القصص: 77]. وأساس هذا الشمول والكمال هو الإسلام بمناهجه المتعددة في العقيدة والشريعة ونظم الحياة [299]. فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين فقد جاءت رسالته عامة شاملة لكل أسس التقويم والهداية التي جاءت في الكتب السماوية وزائدة عليها حتى تكون صالحة لكل زمان ومكان، كما قال الله تعالى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ } [المائدة: 48].

وعلى هذا فالإفادة والاعتبار بقصص الأمم الغابرة ونحوها، هي خاصية القصة القرآنية التي تمتاز بالشمول في طرح الموضوعات المختلفة في شتى شؤون الحياة . لأن الدين جاء ليحكم شئون الحياة كلها ، على مستوى الفرد والجماعة ، وفي الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية وسواها ، وقد عاب الله تعالى على بني إسرائيل ووبخهم [300]. بقوله : { فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } [المائدة : 14] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[299]- انظر: المرتكزات الأساسية في الثقافة الإسلامية ص44 ، والسلام العالمي والإسلام سيد قطب ص13 .

[300] - أنظر:الثقافة الإسلامية في مواجهة الغزو الثقافي، أ. رائد طلال شعث 141-190، من أخلاق الداعية ، سلمان بن فهد العودة ، ص47 .

[الباب الثاني]

دور قصة إبراهيم عليه السلام في بناء الأساس الفكري لعقيدة التوحيد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* تمهــــــيد :

يمكن أن نمهد لهذا الفصل من خلال المطالب التالية :

ـــ المطلب الأول : إبراهيم عليه السلام : صفاته وذكره في القرآن [1].

إنّ الإسلام في حد ذاته منبع نور وهداية للبشرية ، يرى وجوبا أن تتم الدعوة إليه من خـــلال التطبيق الصحيح له قبل الدعوة إليه بالقول ، ويقتضي ذلك الالتزام التام بــه ظـــاهرا وباطنـــا ، والتمسك به علماً وعملاً، والتحلي بصفاته وآدابه تطبيقا واقتداءً ، والدعوة إليه بذلا ونصحا. هذه الدعوة جاءت واضحة المعالم من خلال دعوة الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم كما قال تعالى: { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَـــا مِـــنَ الْمُشْـــرِكِينَ } [يوسف: 108] . وكان مما اعتنى به القرآن الكريم ذكر قصص دعوات الأنبياء، وتصويرها بأبلغ أسلوب، وعرضها بأدق عبارة، حتى أصبحت أخبارهم في القرآن نماذج حيّــة يحتـــذيها الـــدعاة ويقتبسون من نورها، ويهتدون بهداها: { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام: 90].

فقد أمر سبحانه نبيه محمد عليه الصلاة والسلام وأمته بإتباع طريقهم والسير علـــى نهجهـــم ، وخصوصاً أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، كما في قوله تعالى : { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّـــةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 123] . وأمر سبحانه أن يعلن ذلك بقوله تعالى : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام:161] . وأمر جميع الخلق بإتباع ملته عليه السلام ، بقوله تعالى: { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }[آل عمران: 95] . وإن من أســـباب مقـــت الله وغضبه مخالفة منهج الخليل إبراهيم عليه السلام ، كما صرح سبحانه ذلك عن أهل الكتاب ومـــن سار على نهجهم ، فقال تعالى: { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)} [آل عمران: 67] . ونفى سبحانه عنهم الهدى وجعلـــه في ملـــة إبراهيم، قال تعالى: { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [البقرة : 135] . وذم سبحانه كل من يرغب عنها بقوله تعالى: { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ

[1] - راجع : منهج إبراهيم في الدعوة كما عرضه القرآن الكريم ، : مجلة جامعة أم القرى ، العدد 14، ص73 ، محمد بن عبد العزيز الخضيري دعوة إبراهيم عليه السلام في القرآن المفصل في فقه الدعوة إلى الله تعالى45/17

مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [البقرة: 130] . ومدح سبحانه كل من يتبع ملته عليه السلام ، بقوله تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } [النساء: 125] . لقد بلغ نبي الله إبراهيم عليه السلام هذه المنزلة العظيمة عند الله تعالى ، لتمام عبوديته لله تعالى قولاً وعملاً ، وقد أجمع عليه المسلمين واليهود والنصارى، فاسمه يذكر دائماً مقروناً بالإكرام والدعاء والإجلال، فهو من أولي العزم من الرسل، جاهد في سبيل الله والدعوة إلى عبادة الله وحده وقاوم الشرك والمشركين ، معرضاً نفسه للهلاك مضحياً بكل شيء في سبيل الإيمان والتوحيد . كانت حياة نبي الله إبراهيم عليه السلام مليئة بالتضحية والتجرد لله رب العالمين .

أولاً : من صفات إبراهيم عليه السلام في القرآن :

وقد وصف سبحانه تعالى خليله إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم بجملة من الصفات الجليلة العظيمة التي اتسم بها ، وسنقتصر على ذكر بعض من هذه الصفات التي لها صلة ظاهرة بدعوته عليه السلام ، وله أثر ظاهر في الاهتداء والاقتداء به ، ويمكن بيانها على النحو الآتي [2]:

1- « أمة » .

قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } [النحل: 120] . وهو الجامع لخصال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس، فهو إمام الخير ومعلمه الذي يقتدى به في الخير كان يوحد الله من بين سائر الناس، وعاملا بما علَّمه الله من الشرائع [3]. فهو كما قال ابن عباس رضى الله عنهما: "كان عنده من الخير ما كان عند أمة وجماعة كثيرة ". فإطلاقها عليه لاستجماعه كمالات لا تكاد توجد إلا متفرقة في أمة كثيرة، وكل هذه المعاني تنطبق عليه [4]. فهو خير أهل دينه، جمع من خصال الخير وكمالاتها الحسية والمعنوية ما يعدل بها أمة كاملة . وهو من قد نصب أدلة التوحيد ورفع أعلامها وخفض رايات الشرك .

2- « قَانِتًا » .

قال تعالى: { قَانِتًا لِلَّهِ } [النحل: 120] . والقنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع ، أي: مطيعا خاضعا قائما بأمر ربّه على الوجه الأكمل والأمثل مؤمنا وحده والناس كلهم كفار، داعية إليه

---

[2] - المرجع السابق نفسه .

[3] - انظر جامع البيان للطبري ج190/14، وأحكام القرآن للقرطبي ج197/10.

[4] - روح المعاني للألوسي ج249/5.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مستجمعا لشروط الكمال في نفسه داعيا إليها غيره، مستقيما على دين ربّه حنيفا غير مشرك مثل قومه [5]. ويؤيد هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنه قال: " يرحم الله معاذا !، كان أمة قانتا، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله عزوجل بهذا إبراهيم ، فقال ابن مسعود: إن الأمة الذي يعلم الناس الخير، وإن القانت هو المطيع [6].

3- « حَنِيفًا » .

قال تعالى: { حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل:120] . والحَنَف: الميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنيفُ: المائل والجنف: ضده. والأحنف: مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً، وقيل لمجرد الميل . قال ابن كثير: الحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد. وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين، قال تعالى: (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، وقال: (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) [7]. فكان أهلاً للدعوة إلى الله لاستقامته في نفسه ومقيما غيره على ملة الإسلام استقامة تامة كاملة بعيدا عن الهوى والمطالب النفسية، فهو ، لم يمل إلى دين سوى دين الإسلام، و لم يشرك بالله قط [8].

4- « شَاكِرًا » .

قال تعالى: { شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [النحل: 121] . أي قائماً بشكر نعم الله عليه (وأصل الشكر) ظهور آثر الغذاء في أبدان الحيوان ظهوراً بيناً. يقال: شكرت الدابة: أي سمنت وظهر عليها العلف، وكذلك حقيقته في العبودية: ظهور آثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافا، وعلى قلبه: شهودا ومحبة، وعلى جوارحه: انقيادا وطاعة . والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه، وأن لا يستعملها فيما يكره، فإن نعمة الاستقامة على التوحيد والسلامة من الشرك ليستوجبان شكر الله تعالى، فإذا مَنّ الله على العبد بنعم وجب عليه شكرها وتوجيهها إلى منعمها ، وقد كان إبراهيم عليه السلام شاكرا شكرا دائما كاملا موصولا مستزيدا غير مودع ولا معرض عما أنعم الله عليه، ونتيجة جهاده في الله حق جهاده، وقنوته وإخلاصه وشكره لربّه، زاده الله من كل ضروب الخير

---

[5] - أحكام القرآن للقرطبي ج86/2، 197/10، وفتح القدير للشوكاني ج133/1، 202/3.

[6] - معاني القرآن للفراء ، 111/4 .

[7] - تفسير ابن كثير ، 610/4

[8] - تفسير لطبري ج190/14، 191،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والفضل والنعم، كما قال تعالى: { وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [النحل: 122]. أي: وهبه حسنات كثيرة عامة شاملة. فمن هذه الحسنات الموهوبة: الولد الصالح، والثناء الحسن في الدنيا حتى إن أهل الأديان يتولونه ويثنون عليه، وأما لسان الصدق والنبوة فلا يوازيهما حسنة، كما قال تعالى حكاية عنه: { رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ } [الشعراء: 83-84] . ومن هذه الحسنات الموهوبة: شكر الخليل نعم ربّه ابتداءً وختاما ظاهرا وباطنا سرا وعلنا، خالصا مخلصا موصولا عدلا خضوعا واستكانة لرب العالمين مولي النعم، غير مشرك في شكره شريكا من الآلهة والأنداد كما يفعل المشركون، سائلا ربّه في أن يوفقه لذكره وشكره وحسن عبادته حتى يكون أهلا لجنته ودار كرامته التي لا لغو فيها ولا تأثيم قائلا: { وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ } [الشعراء:85]. نعمة ونعيما وحبرة وقرة عين بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين [9].

5- « حَلِيمًا » .

قال تعالى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود: 75] . والحلم: ضبط النفس والطبع عن الهيجان عند الاستثارة. والحليم: الكثير الحلم وموقف إبراهيم من مقالة أبيه ((لَأَرْجُمَنَّكَ)) ومن العتاة قوم لوط حينما مرت به الملائكة وأخبرته بأمر الله، قال: { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:74-75] . ولم يكن حلم إبراهيم ذريعة يتذرع للسكوت عن المنكر بل كان يعلن الحق وينكر الباطل ((وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ)). ولما كان المقام مقام دعوة وإرشاد ، فكان الخليل أقدر على حزم نفسه وضبط أعصابه، ليصفح عن جهالات الناس ويصبر على أذاهم، فهو لم يعاقب قط إلا في الله ولم ينتصر إلا لله، لأنه طبع على أحب الصفات إلى الله وهي: الحلم وكرم الأخلاق والطمأنينة والتؤدة، فأصبحت من صفاته الخِلْقية والخُلُقية . فالحلم سيد الأخلاق ومن لوازم الدعوة الأناءة والصبر، والتحمل من أصولها. ومن آثار حلمه: توجعه وتألمه على كفر أبيه وقومه وأذيتهم له ، ولم يستعجل لهم بالعقوبة والعذاب على حين أن حالهم يستوجب إحلال العذاب بهم [10] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[9] - (1) انظر جامع البيان للطبري ج14/190- 193، وأحكام القرآن للقرطبي ج86/2، 133، 197/10، 198، وفتح القدير للشوكاني ج133/1، 202/3.

[10] المصدر السابق نفسه .

6- « أوّاهٌ » .

كما وصفه تعالى بأنه: { أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود:75] . قال الراغب الأصفهاني: "الذي يكثر التأوه ، وكل كلام يدل على حزن يقال له التأوّه، ويعبر بالأوّاه، عمن يظهر خشـية الله تعـالى" [11] .

والذي يتحقق من معنى الأوّاه أنه الخاشع الدعّاء المتضرع، وكثرة تأوّه إبراهيم وتضرعه بين يدي ربه ، كما يظهر في دعاء إبراهيم لربه: { رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَـا وَإِلَيْـكَ الْمَصِـيرُ } [الممتحنة: 4] . فهو عليه السلام حين يتذكر حرمان أبيه وقومه من نعمة الإيمان ومن نعمة نعيم الجنة، يتذكر عاقبة الذين أساؤوا من قومه فتذهب نفسه عليهم حسرات، يتوجع على عاقبتـهم بدخولهم النار ويتأوه على سماجة رأيهم وسفاهة عقلهم، ولكن لا ينفع الأسى على قوم كافرين، فيطلب من ربّه تبارك وتعالى الصبر والسلوان بكثرة تلاوة كتابه والإنابة والخشوع له، ويبتـهل بالدعاء والتضرع إليه سبحانه وتعالى مقرا بالضعف والاستكانة [12] .

7- « مُنِيباً » .

كما وصفه تعالى بأنه : { مُنِيبٌ } [هود:75] . إنابة وافتقار إلى الله تبارك وتعالى في طلب المدد والعون والسداد في كل الشئون، وتفويض حال قومه إلى الله، فإنه لا غنى للعبد عن مولاه طرفـة عين ، لا سيما في أمر الدعوةِ إلى الله . فمهما بلغ تمكن العبد وتمكينه ومهما أعطي من قوة وإقدام واستكملت لديه قوام الحياة وعناصر السعادة، فلا يزال الضعف والعجز يلازمه، ومهما بلغ مـن العلم والفهم والذكاء فإن النقص لا يفارقه، إلا من ركب مركب الصدق وتوجه بـه إلى الله في مغالبة الصعاب بعزيمة صادقة ونية خالصة [13] .

9- «خليل ارحمن» .

قال تعالى { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 125] . منزلة الخلة منزلة رفيعـة عظيمـة عالية، وهي والصدق توءمان كل منهما يختبيء في الآخر لينوب عنه، ولم تحصل هذه المرتبـة إلا للخليلين: محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام . وهذه الصفة العظيمة مـن معانيهـا الجليلـة وأسرارها اللطيفة: هو السخي الكريم، وهو الذي أحب الله حبا حتى تخلل قلبه بمحبة الله فلم يدع فيه فراغا إلا ملأه بحب الله حتى أحبه الله، فوالى في الله وعادى في الله، روي أنه لما رمي في النـار

---

[11] - الراغب الأصفهاني ، مفردات القرآن ، 75/1

[12] - انظر : تفسير للقرطبي ج275/8.

[13] - تفسير الكشاف للزمخشري ج17/3.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالمنجنيق وصار في الهواء، أتاه جبريل (فقال: ألك حاجة ؟، قال: أما إليك فلا) [14]. فلما تأتي النتائج مرضية والعواقب حميدة، فتجيش رحمة الله على عباده بالإنعام والتفضل والاكرام، فإبراهيم ، يحوز عمله القبول وجهاده الرضى، فيفيض المولى عليه بخِلع الرحمة والرضوان والقبول، قال تعالى: { وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [الصافات:104-105] . فيمنح الجليل الجزيل: فيتخذ إبراهيم خليلا .

10- « الكرم والسخاء » .

قال تعالى: { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) } [الذاريات:24-27] . فذكر أن الضيف مكرمون لإكرام إبراهيم لهم، ولم يذكر استئذانهم ليدل على أنه قد عرف بإكرام الضيفان، مع أنهم قوم منكرون لا يعرفهم فقد ذبح لهم عجلاً واستسمنه، ولم يعلمهم بذلك بل راح: أي ذهب خفية حتى لا يُشعر به تجاوباً لأضيافة، فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيئاً للضيفان، وخدمهم بنفسه، فجاء به ومرّ به إليهم ولم يقربهم إليه، وتلطف مبالغة في الإكرام فقال: ((ألا تَأْكُلون)). قال ابن القيم: "فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات التي هي تَخَلف وتكلف: إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم، وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين" فالضيافة من مكارم الأخلاق ومن آداب الإسلام، ومن خُلق النبيين والمرسلين وعباد الله الصالحين، وهي كرم وبذل وحفاوة وتكريم، تستمال بها النفوس وتجتذب وتعطف بها القلوب وتؤلف، والدعوة كذلك بذل للمعروف، لين في الكلام، سخاء في الأخلاق، والضيف عزيز كريم. ولذا كان إكرام بعض الناس في العطاء سببا في إسلامهم [15]. كما روي عن أنس : " أن رجلا سأل النبي غنما بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال: أي قوم ! أسلموا فوالله إنّ محمدا ليعطي عطاءً من لا يخاف الفقر، فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها [16]. وأعطى يوم حنين

[14] – أنظر: تفسير الطبري ج45/17، وتفسير القرطبي في أحكامه ج400/5 ، وفتح القدير للشوكاني ج519/1، 87/5، تفسير ابن كثير ج235/4، روح المعاني للالوسي ج11/9، في ظلال القران لسيد قطب ج3382/6.

[15] انظر أحكام القرآن للقرطبي ج64/9، 68، 17/44، 45، روح المعاني للالوسي ج250/5، 11/9، في ظلال القرآن لسيد قطب ج3382/6.

[16] – (1) صحيح مسلم ج1806/4.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صفوان بن أمية ، مائة من الغنم، ثم مائة، ثم مائة، فقال صفوان: والله لقد أعطاني رسول الله ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يُعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ "[17] .

11- « الصبر والتحمل » .

قال تعالى { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} [الأحقاف:35] .

إنّ الصبر والتحمل من أبرز صفات الداعية وأوجبها ومن أصول منهج الدعوة وأسسها وآدابها ، فمن فقد الصبر فقد الدعوة، فلا يكمل الداعية ولا تتم الدعوة بدون صبر واصطبار. والصبر أنواع أشده صبر عباد الله المخلصين على حقوق الله وحدوده حين يعتدى عليها. لقد ناظر إبراهيم قومه في بطلان أمر آلهتهم وألزمهم الحجة وعجزوا عن الجواب، ولكن نظراً لمكانة الآلهة وعظيم شأنها عندهم، ونظراً إلى كبير ما ارتكبه إبراهيم في حق آلهتهم في نظرهم، قالوا: { حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68)} [الأنبياء 68] . شعور بالعجز والضعف أمام الحق، وتلك سمة الطغاة قديماً وحديثاً، فالذي يتعدى على الآلهة يعاقب بأفظع العقاب وأشده وهو النار . ذكر ابن كثير عن بعض السلف أنه عرض لإبراهيم جبريل وهو في الهواء فقال: ألك حاجة ؟ فقال: أمّا إليك فلا وأمّا إلى الله فبلى، وروي أنه قال: (اللهم! أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس أحد يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل)، وفي رواية قال: (لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك) [18]. وهنا تتجلى شخصية إبراهيم المطبوعة على الحلم والصفح والصبر والتحمل، فإن القوم لم يتركوا باباً من الأذية والتعذيب إلا طرقوه، ولكنه لم يغضب فيفقد برّه وأدبه مع أبيه، و لم يَدْعُ على قومه بالهلاك مع استحقاقهم لذلك، ولكن فوض أمرهم وأمره إلى الله تعالى. فكان عليه السلام مثلاً يحتذى في الصبر حتى استحق أن يكون من أولي العزم من الرسل .

12- « توكله على الله » .

قال تعالى { رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [الممتحنة: 4] . لا حول ولا قوة للعبد مطلقاً لا سيما فيما لا يقدر عليه غير الله، من: الهداية والإيمان والرزق والنفع والحياة السعيدة، ويتجلى هذا الخلق النبيل في حياة إبراهيم حينما يفوض أمر دفع ضّر المرض وجلب نفع

---

17 - صحيح مسلم ج1806/4.

18 - تفسير ابن كثير ج184/3.

الشفاء وأمر الرزق والمعاش وأمر الحياة والأجل والعمر إلى ربّه سبحانه بقوله: { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء: 78- 80] . أي : أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم فهو أعلم بحقيقتي وتكويني، وحالي ومآلي، ويرشدني وحده إلى كل ما يهمني ويصلحني من أمور مصالح الدين والدنيا والمعاش والمعاد، هداية متصلة من حين نفخ الروح إلى منتهى أجلي، {والذي هو يطعمني ويسقين} فهو الكفيل بأمر الرزق وهو الذي يطعم ويسقي اختصاصاً وملكاً ولا أحد سواه، وإذا مرضت فهو يشفين، أدب مع الله فلا ينسب مرضه إلى ربّه وهو يعلم أنه بمشيئة ربّه يمرض ويصح، ولكنه يذكر ربّه في مقام الإنعام والإفضال، ولا يذكره في مقام الابتلاء والامتحان ، والذي يميتني ثم يحيين، ونسب الموت لربه لأن قومه كانوا ينسبون الموت إلى الأسباب، إنه التوكل والاستسلام المطلق الشامل واليقين الكامل من قلب قوي قد امتلأ صدقاً وطمأنينة وثقة بالله [19] . وإن من آثار توكله على ربّه المحض قوله حين ألقي في النار « حسبي الله ونعم الوكيل » [20] . فكانت نتيجة هذا التوجه العظيم إلى الله في أشد حالات الكرب والشدة: { قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء: 69] .

13- « برّه ورعايته لأهله » .

قال تعالى { ووَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ } [البقرة:132] . لم يكن إبراهيم ممن يلتفت إلى الناس بدعوته ويترك أهله، بل بدأ بهم وخصهم بمزيد الرعاية والعناية وقد قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : { وأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ } [الشعراء : 214] . وكذلك كان إبراهيم، فدعا أباه : { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ } [مريم:43] . يظهر من خلال هذه الصورة كمال برّ إبراهيم وحلمه، في ألفاظه وتعبيراته وفي تصرفاته في مواجهة قسوة أبيه، حين يخاطبه بألفاظ تُنبيء عن غاية الشفقة والعطف والبر والتعظيم، إلا أن هذه الدعوة بأحبّ الألفاظ وأرقها لا تجد منفذاً إلى القلب القاسي، بل تقابل بالاستنكار والتهديد . فيظل الرضّي الحليم حليماً ليكون قدوة حسنة ومثالاً يحتذى به في البرّ والدعوة، مجانبا لأسباب الغضب غير جبان أو خائف فيلين جانبه للتهديدات [21]. وهو عليه السلام يوصي أبناءه بالتمسك بالدين { ووَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ

---

[19] – انظر في ظلال القرآن لسيد قطب ج2603/5.

[20] – صحيح البخاري برقم ، 4197 ، 4198

[21] – انظر تفسير ابن كثير ج123/3.

ويَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } [البقرة:132] .
وكان يدعو { واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ } [إبراهيم :35] . ويتضرع بقوله: { رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم:37] .

14- « الشجاعه » .

قال تعالى { وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } [الأنبياء: 57] . واجه إبراهيم قومه ولم يخش كيدهم وقال مقسماً: { وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم } . وقوله لهم: { أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ..)). [الأنبياء 67] . وكان ذلك لعلم إبراهيم بأن معه القوة التي لا تهزم ، وأن ما أصابه لم يكن يخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه فرسم للدعاة منهجاً في الشجاعة المنضبطة بضوابط الشرع بلا تهور يحتذونه في مواجهة الباطل من إقرار الحق . فإن الشجاعة للرجال من أوصاف الكمال والجمال لا سيما الأنبياء والرسل منهم، وإن تغيير المنكر يحتاج إلى قوة وشجاعة وثبات ولربما لحق الداعية من الضرر والأذى إذا كان الخصم جباراً غشوماً ظلوما، فإذا ما وقف العناد والمكابرة في وجه الحِيَلِ والطرق المؤدية إلى بيان الحق فلا مفر من إثبات الحق وإعلائه ولا محيد عن إبطال الباطل ودحضه وإلزام الخصم وإفحامه. فلما تبين آخر المطاف رفض قوم إبراهيم قبول الحق، قارعهم وأعلن الحرب عليهم ونازلهم، فلم يهب من الطغاة الجبابرة بطشهم وجبروتهم في إبلاغ دين الله، بل أعلن بكل شجاعة وإقدام وقوة وبسالة، مُوطنا نفسه على مقاساة المكاره للذب عن دين الله، غير مبالٍ بنفسه .

15- « الصدّيقية »

قال تعالى { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا } [مريم: 41] .
لا عجب أن يذكر الله تعالى خليله إبراهيم في معرض كمال الصدق ونهايته، كما يُفهم من معاني الآية الكريمة حيث عبر بصيغة المبالغة، فقال:{ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا } فإنَّ الصدق ملاك أمر النبوة ومن لوازم الدعوة ومن أخص صفات الداعية، وقد جعله الله من كمال الإيمان ، فقال: { وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ } [الحديد: 19] .
وجعله من مؤيدات النبوة والرسالة، فقال: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ} [الحديد 25] وقال: { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ } [يوسف 108]. وأمر به فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } [التوبة :119] . لأن الصدق هو مفتاح الخلة وباب الرضى والثقة والمودة.

قال الزمخشري أي: " كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء وبليغا في الصدق "[22]. وذكرت هذه الصفة هنا مقترنة مع النبوة لكونه كما قال الراغب: " صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله "[23]

16- « سلامة القلب » .

قال تعالى: { إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الصافات: 84] . وسلامة القلب نوعان: كلاهما داخل في مضمون الآية، أحدهما: في حق الله وهو سلامة قلبه من الشرك، وإخلاصه العبودية لله، وصدق التوكل عليه. والثاني: في حق المخلوقين بالنصح لهم وإيصال الخير إليهم، وسلامة القلب من الحقد والحسد وسوء الظن والكبر وغير ذلك.

17- تحقيقه الكامل لعقيدة الولاء والبراء :

قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ } [الزخرف: 26-27] . فكل عدو لله وإن قربه النسب تجب البراءة منه، وكل ولي لله وإن باعدت به الأوطان والأزمان تجب موالاته ومحبته وقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم في ذلك: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ } [الممتحنة:4] .

18- « الوفاء » .

قال تعالى: { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } [النجم: 37] . أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه . وقد بين سبحانه ذلك في قوله تعالى : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } [البقرة: 124] . فقوله : { فأتمهن } أي: أتم ما ابتلاه الله به وأكمله ووفاه . لذا مدحه الله بقوله : { وإبراهيم الذي وفّى } فبين تعالى ما منّ به على إبراهيم من الكرامة ورفعة المقام ، بعد أن ذكر أنه عامله معاملة المختبر له ، إذ كلفه بأمور شاقه فأحسن القيام بها ، فشكر الله له ذلك، فقال : { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } فجعله الله رسولا يقتدي به الناس في أصول الدين

22 - تفسير الكشاف للزمخشري ج17/3.

23 - مفردات ألفاظ القرآن للراغب (479).

ومكارم الأخلاق . وذكر الإمامة دون الرسالة ، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء ، وفي استحقاقه عليه السلام الإمامة للناس كافة بسبب وفاءه بعهد الله [24] .

فهذه جملة مختصرة من الصفات الجلية التي اتصف بها إبراهيم عليه السلام ، بحسب ما ورد في القرآن الكريم . والذي مدحه الله تعالى في آيات كثيرة، قال تعالى: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } [النحل:120]، وقال تعالى: { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء:125]، وقال تعالى: { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } [البقرة:124]، وقال تعالى:{ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } [النجم:37] . كل هذه أوصاف إبراهيم عليه السلام، الذي جعله سبحانه وتعالى أسوة وقدوة لمن بعده . في قوله تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ } [الممتحنة: 4] .

ثانياً : أسباب حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام .

لقد توسع القرآن في الحديث عن إبراهيم عليه السلام ، ويمكن أن نذكر بعض الأسباب لهذا التوسع وهي[25]:

1- كان إبراهيم عليه السلام يعتبر لدى كل من المشركين واليهود والنصارى ، أبا لجميع الأنبياء ويحظى باحترام الجميع له.

2- إن تأكيد القرآن ارتباط الإسلام وشعائره بإبراهيم له أهمية خاصة في إعطاء الرسالة الإسلاميَة جذراً تاريخياً ممتداً إلى ما هو أبعد من الديانتين اليهودية والنصرانية، ويحقق لها الاستقلال عنهما من ناحية، والوحدة مع هذه الديانات في المصدر التشريعي لها وهو الله تعالى من ناحية أخرى.

3- إعطاء فكرة «التوحيد» التي طرحها القرآن على المشركين أصلاً وانتماءاً يرتبط به هؤلاء المشركون في تاريخهم بحيث يكون الشرك والوثنية انحرافاً عن هذا الأصل الصحيح، وبذلك يعالج القرآن الكريم الحاجز النفسي الذي كان يعيشه المشركون في موضوع العدول عن دين الآباء والأجداد . قال تعالى: { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ

---

24 - راجع : تفسير الطبري 22/546-548 ، وتفسير الالوسي 19/20 -30 ، وتفسير طنطاوي 4011

25 - أنظر : محمد باقر الحكيم . تكرار القصة في القرآن الكريم ص 5-6 . وراجع : كتاب التصوير الفني في القرآن الكريم نسيد قطب، 128 ــ 134. وانظر علي بن نايف الشحود . المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، 5/ 360-361،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (78)} [الحج: 78] .

4- ويتجلى هذا الربط التاريخي بشكل أوضح عندما يصبح إبراهيم عليه السلام هو المبشر بالنبي العربي الأمي، حيث يكون هذا الرسول هو الأمل المنقذ، وتكون بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام وذلك في مثل قوله تعالى: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [البقرة: 129] .

5- إعطاء الرسالة الإسلاميّة شيئاً من الاستقلال عن اليهودية والنصرانية يحرر القاعدة التي يتفاعل معها القرآن من الشعور بالتبعية روحياً ومعنوياً ودينياً لعلماء اليهود والنصارى، لأنها كانت تنظر إلى علماء اليهود والنصارى بأنهم أهل الذكر والكتاب والمعرفة بالأديان والرسالات السماوية، أو ترى أن الأصل في الديانات هو اليهودية والنصرانية ، كما أشار في قوله تعالى: { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 67-68] . وقوله تعالى: { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [البقرة: 135] .

وبذلك يظهر أهمية تأكيد القرآن قصة بناء إبراهيم للكعبة، وندائه بالحج، لأن هذه الشعائر الدينية ليس لها وجود في الديانة اليهودية والمسيحية من ناحية، وللموقع الخاص الذي كانت تحتله الكعبة بين العرب عامة من ناحية أخرى، وللقرار الذي كان القرآن قد اتخذه بجعل الكعبة قبلة للمسلمين، تأكيداً لاستقلالية الرسالة في كل معالمها من ناحية ثالثة. صرف الأنظار عن الأرض المقدسة وبيت المقدس، الذي يحظى بالقدسية الخاصة بسبب نشوء الديانات المختلفة فيه، ووجود إبراهيم وأنبياء بني إسرائيل كلهم في هذه الأرض، يحتاج إلى إعطاء هذه الأهمية للبيت والكعبة المشرفة وهذا الانتساب الأصيل إلى إبراهيم عليه السلام .

المطلب الثاني : التوحيد مفهومه وأنواعه :

أولاً : مفهوم التوحيد :

أ – تعريف التوحيد لغة :

فإن معاني التوحيد في اللغة تدور حول : الوحدة، والانفراد، ونفي العدد ، وعدم النظير" وتوحيد الله : هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، ومن صفاته تعالى :" الواحد" و "الأحد" فالواحد : منفرد بالذات في عدم المثل والنظير ، والأحد منفرد بالمعنى، والفرق بينهما : أن " الأحد" مبني لنفي ما يذكر معه من العدد، نقول : " ما جاءني أحد " "والواحد" اسم بني لمفتتح العدد، نقول: "ما جاءني واحد من الناس" ولا نقول "جاءني أحد" وأما اسم الله تعالى "أحد" فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره، فلا يقال : رجل أحد كما يقال رجل واحد ، أي فرد،لأن" أحد" صفة من صفات الله تعالى التي استخلصها لنفسه ، ولا يشاركه فيها شيء[26] .

ب – المعنى الاصطلاحي للتوحيد :

توحيد الله تعالى : هو الإيمان بأن الله واحد لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، المستحق وحده للعبادة[27] وقيل التوحيد :" هو إفراد الله تعالى بما يختص به ويجب له " [28] . فهو سبحانه رب العالمين المتفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير، وله وحده صفات الكمال والعظمة والجلال، المتفرد بالأمر والنهي والطاعة والعبادة،[29] . وهذا المعنى للتوحيد يشمل أنواع التوحيد الثلاث : الربوبية، والألوهية، والاسماء والصفات، وهي متلازمة مترابطة لا يصح إيمان العبد إلا بها كاملة [30].

جـ – مدلول كلمة التوحيد :

إن كلمة التوحيد هي " شهادة أن لا إله إلا الله " وهي تجمع كل قضايا العقيدة ومسائلها من : آلهيات، ونبوات، وسمعيات[31] . وتتحقق شهادة التوحيد بالإتيان بمدلولها : علما وإرادة وعملا ،

---

[26] – انظر ابن منظور لسان العرب، ج3، ص450، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج6، ص90، والأصفهاني، مفردات الفاظ القرآن، ص514.

[27] انظر: محمد مكي، البيان في أركان الإيمان، دار نور المكتبات جدة، 1999م، ص40.

[28] – محمد بن صالح العثيمين، مجموع فتاوي ورسائل، ج1، ص26

[29] – انظر عثمان الضميرية، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، مكتبة السواري-جدة، ط2، 2002م، ص 105.

[30] – انظر المرجع السابق نفسه.

[31] – انظر المرجع السابق، ص106-107.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتخليص القلب عما يضاد هذا المعنى وهو ما دل عليه قوله تعالى : { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: 256]. وهذا يعني أن كلمة التوحيد يتحقق معناها بأمرين هما : استجماع شروطها، وانتفاء موانعها ، وذلك على النحو الآتي[32] :

1. العلم المنافي للجهل بمعناها نفياً و إثباتاً ، فال تعالى : { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ } [محمد: 19].

2. اليقين المنافي للشك، قال تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ } [الحجرات: 15].

3. الصدق المنافي للنفاق، قال تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } [البقرة: 8-9].

4. الإخلاص المنافي للشرك، قال تعالى : { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ }[البينة: 5].

5. المحبة المنافية للبغض، أي محبة ما يقتضيها وبغض ما يناقضها، قال تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } [البقرة: 165].

6. القبول المنافي للإعراض، قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } [الأحزاب36]. وقال تعالى: { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ } [الصافات: 35].

7. الانقياد المنافي للترك، أي الإستسلام لشرع الله تعالى ، لقوله عز وجل : { وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى } [لقمان: 22]. وأما الفرق بين الانقياد والقبول : " هو أن الانقياد فعل الجوارح، وأما القبول فهو فعل القلب "[33].

ثانياً : أنواع التوحيد :

ينقسم التوحيد باعتبار ما يجب على الموحدإلى قسمين هما[34] :.

---

[32]- راجع حافظ الحكمي، معارج القبول ، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم- الدمام، ط1، 1990م، ج1، ص377-384

[33]- الدكتور : ابراهيم البريكان، المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، دار السنة، دار ابن عفان-الخبر، القاهرة ط5، 1997م، ص128.

1- التوحيد العلمي (توحيد الربوبية)

2- التوحيد العملي (توحيد الألوهية)

1 – التوحيد العلمي (توحيد الربوبية):

أ – **الربوبية لغة** : مأخوذ من لفظ الرب، " والرب" يطلق في اللغة على : المالـك، والسـيد، والمدبر، والمربي، والقيم ، والمنعم،[35]

ب – **توحيد الربوبية، معناه:** " هو الإعتقاد الجازم بإن الله وحده هو رب كل شيء ومليكـه وهو الخالق والرازق والمحي والمميت والضار النافع والمتصرف في هذا الكون وما فيه بمشيئته المطلقة، وأنه ليس معه أحد يشاركه في فعله "[36]. فالربوبية هي الوصف الجامع لكل صفات الله تعالى ذات العلاقة والأثر في مخلوقاته والتي تشمل الإيجاد والإمداد سواء بخلقها ابتداء أو برعايتها ومتابعة بقاءها وإمدادها، ولذلك كان هو سبحانه "رب العالمين"[37]. ومن جنس هذا التوحيد: توحيـد الأسمـاء والصفات، ولذا أطلق بعض أهل العلم عليهما اسماً واحداً وهو توحيد المعرفة والإثبات[38].

والقلوب مفطورة على الاعتراف بربوبيته سبحانه أكثر من أي شيء آخر لأن دلائـل ربوبيتـه تعالى واضحة في كل شيء، ولقد كان المشركون مقرين بهذا النوع من التوحيد لقوله تعـالى: { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ (25) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }[لقمان: 25]. ولذلك لم يكن توحيـد الربوبية هو موضع النزاع والإنكار وإنما هو في توحيد الألوهية[39].

2– التوحيد العملي (توحيد الألوهية)

---

[34] – راجع، د. محمد ملكاوي، عقيدة التوحيد، دار ابن تيمية–الرياض، ط1، 1985م، ص108–109، عبد الحميد السائح، عقيدة المسلم، ص20.

[35] – انظر ابن منظور ، لسان العرب، ج13، ص1546.

[36] – راجع ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص78–80، أبي بكر الجزا[36]– الدكتور : ابراهيم البريكان، المـدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، دار السنة، دار ابن عفان–الخبر، القاهرة ط5، 1997م، ص128.

[36] – راجع، د. محمد ملكاوي، عقيدة التوحيد، دار ابن تيمية–الرياض، ط1، 1985م، ص108–109، عبد الحميد السائح، عقيدة المسلم، ص20.

[36] – انظر ابن منظور ، لسان العرب، ج13، ص1546.

ئري: عقيدة المؤمن، مكتبة العلوم والحكم– المدينة المنورة، ط1، 1999م، ص55-56، نعيم ياسين ، الايمان، دار عمر بـن الخطاب، ص4-7

[37] – راجع حنبكة الميداني، ابتلاء الإرادة، دار القلم– دمشق، ط1، 1995م، ص165-167.

[38] – انظر: د. إبراهيم البريكان، المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، ص 109.

[39] – راجع ، ابن ابي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص79، دكتور محمد ملكاوي، عقيدة التوحيد، ص110-112.

أ – **الألوهية لغة:** مأخوذ من إله ، و " الإله" هو المعبود المطاع بحق [40].

ب– توحيد الألوهية معناه: الإعتقاد الجازم بإن الله تعالى هو المستحق لجميع أنواع العبادات مع القيام بصرف هذه العبادة له وحده دون سواه [41] . وهو توحيد الله بأفعال عباده من العبادة والولاء والاستعانة والتسليم والرجاء والشكر والخوف والمحبة والتعظيم والتنزية...إلى غير ذلك من أنواع العبادات التي يقوم بها العبد كونها طاعة لله تعالى على الوجه الذي أمر به ونهى عنه طلباً لمرضاته [42].

جـ – أهمية هذا التوحيد ودعوة الرسل إليه . فهذا النوع من التوحيد هو الذي جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب، وعليه الثواب والعقاب ولقد جاءت الشرائع في تفصيله وبيان حقوقه، فهو أعظم أنواع التوحيد، ويتضمنها جميعاً إذ به تساس الحياة وعليه تبنى الشريعة ، ولأجله شرع الجهاد ، فهو أول واجب يدعى العباد إليه لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : " فليكن أول ما تدعوهم إليه ان يوحدوا الله "[43]. فكان أول ما دعت الرسل أقوامهم إليه هو عبادة الله وحده قال تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء: 25]. ودعوهم إلى ترك عبادة الطواغيت قال تعالى : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل: 36]. وفي هذا دليل على أن الرسل إنما بعثوا لتعبيد الناس لإلههم الحق ونبذ ما يعبد من دونه من تلك الالهة المزعومة، ومن هنا وقع النزاع بين الرسل وأممهم حينما أنكروا توحيد الإله المعبود بقولهم : { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص :5]. ومن هنا وقع النزاع بين الرسول صلى الله عليه وسلم ومخالفيه، ولو كان المقصود هو توحيد الربوبية لأجابوا دعوته لإقرارهم به، وإنما كان موضع إنكارهم ونزاعهم مع الرسول هو توحيد الألوهية قال تعالى : { إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ } [الصافات: 35-36]. فلم ينفعهم إقرارهم بتوحيد الربوبية مع إنكارهم لتوحيد الألوهية قال تعالى : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف: 106].

[40] – انظر، ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص115.

[41] – انظر ابن القيم مدارج السالكين، ج1، ص25، ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص81، نعيم ياسين ، الإيمان، ص7.

[42] – انظر الدكتور إبراهيم البريكان، المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، ص111.

[43] – أخرجه البخاري، في صحيحه، رقم الحديث(6937)، ج6، ص2685، كتاب التوحيد.

لأن مجرد الإقرار بإن الله هو رب كل شيء ومليكه وخالقه لا يكفي لدخول عقد الإيمان والنجاة من النار ما لم يقترن بالإقرار بإن الله وحده هو المستحق للعبادة [44] .

ثالثاً : العلاقة بين نوعي التوحيد :

ولإدراك طبيعة العلاقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية لا بد من الوقوف على حقيقة الفرق بينهما ويمكن أن نجملها كما يلي[45] :

1. اختلافهما في الاشتقاق، فالربوبية مشتقة من اسم "الرب" وهي في اللغة: المالك والسيد والمدبر والمربي والمنعم، وأما الألوهية، فهي مشتقة من لفظ "الإله" وهو في اللغة : المعبود المطاع[46].
2. متعلق الربوبية الأمور الكونية كالخلق والرزق، وأما الألوهية فمتعلقها في الأوامر والنواهي.
3. الربوبية أقر بها المشركون وأما الألوهية أنكروها ونازعوا فيها.
4. الربوبية تستلزم الألوهية، والألوهية متضمنة للربوبية.
5. توحيد الربوبية لا يكفي الإقرار به دخول الإسلام أما توحيد الألوهية فيدخل من آمن به الإسلام.
6. توحيد الربوبية مدلوله علمي وأما الألوهية مدلولها عملي.
7. الربوبية توحيد الله بأفعاله وأما الألوهية فتوحيد الله بأفعال عباده.

بعد استعراض الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية يمكن أن ندرك طبيعة العلاقة بينهما من حيث ارتباطهما ببعضهما ومن حيث علاقتهما بالعقيدة .

أما من حيث ارتباطهما ببعضهما : فإن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية : أي إن الإيمان بواحدانية الرب الخالق الرازق المحي المميت، والإيمان بكافة اسمائه وصفاته يستلزم من الموحد أن يعبد الله وحده ، وأما توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية والاسماء والصفات أي: أن تقديم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[44] - راجع ، ابن تيمية ، اقتضاء الصراط، تحقيق محمد الفي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط2، 1369هـ، ص459-461، ابن القيم ن مدارج السالكين، ج1، ص25، ج3، ص443، ابن ابي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص79-88، سليمان عبدالله ، شرح كتاب التوحيد، ص17-18، د.محمد ملكاوي، عقيدة التوحيد، ص110-113.

[45] - انظر، الدكتور ابراهيم البريكان، المدخل لدراسة العقيدة الاسلامية، ص113

[46] - انظر ابن منظور لسان العرب، ج3، ص1546، ج1، ص114.

العبادة لله لا تحصل إلا بالإقرار أن الله هو رب العالمين، المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل نقص[47].

أما من حيث علاقتهما بالعقيدة : فإن توحيد الربوبية ، يمثل الجانب العلمي من المعرفة والإثبات لتعلقة بالإخبار التي يصدقها العقل، وهو يتم عن طريق الأساس الفكري، واما توحيد الألوهية فهو يمثل الجانب العملي من الإرادة والقصد لتعلقه بالقضايا الطلبية التي ينقاد لها القلب بالتسليم والقبول عن إرادة ومحبة وهو يتم عن طريق الأساس النفسي .

والعقيدة تتكون من الأساسين الفكري والنفسي، فبالأساس الفكري يتحقق التصديق بتوحيد الربوبية، وبالأساس النفسي يتحقق الانقياد بتوحيد الألوهية، وإن اجتماعهما معاً في قلب المسلم يشكلان مفهوم العقيدة والتي هي أصل الإيمان من (اعتقاد القلب) أي : قول القلب وعمله .

ولقد عمل المنهج القرآني على تقرير عقيدة التوحيد بناء على هذه العلاقة بين نوعي التوحيد، حيث احتج بتوحيد الربوبية الذي يقر به عامة الناس كونه مقرر بمنطق العقل ومركوز بالفطرة على توحيد الألوهية ومطالباً بلازمها من العبودية.

ـ المطلب الثالث : دور قصة إبراهيم في بناء الأساس الفكري لعقيدة التوحيد :

من المعلوم أن القرآن كله في " التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم"[48] فقضية التوحيد هي القضية الأساسية والمحورية التي تدور حولها موضوعات القرآن، متضمنه لنوعي التوحيد : الربوبية والألوهية، ولقد عنى المنهج القرآني في تقرير عقيدة التوحيد وتوكيدها في الضمير البشري من خلال الربط بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، مستخدماً (مسلك التقرير والإلزام)، حيث يأخذ عليهم، إقرارهم بتوحيد الربوبية ليلزمهم بمقتضى هذا الإقرار من توحيد الألوهية، وهي طريقة القرآن في بناء الأساس الفكري لعقيدة التوحيد حيث يرتب النتائج وفق تسلسلها المنطقي والعقلي، عندما يقيم عليهم الحجة بلازم إقرارهم ويطالبهم بمستلزمات هذا الإقرار، قال تعالى : { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى

---

[47] – انظر، الدكتور محمد ملكاوي، عقيدة التوحيد، ص122.

[48] – ابن ابي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص89.

تُسْحَرُونَ } [المؤمنون: 84-89] وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّـذِي خَلَقَكُـمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }[البقرة:21-22].

وهذه هي طريقة القرآن في كثير من آياته حيث يسلك مسلك التقرير والإلزام في تقرير عقيـدة التوحيد ونفي ما يناقضها من الشرك بالإنكار والبطلان [49].

والمتتبع للمنهج القرآني يجد أنه استخدم توحيد الربوبية كمقدمة معلومة وثابته ومتفـق عليهـا ومسلم بها ، للاستدلال بها على لازمها من توحيد الألوهية أي : أنه استدل بتوحيد الربوبية الـذي لا ينازع فيه أحد من العقلاء لثبوته بالأدلة القاطعة واستقراره بالفطرة، على توحيد الألوهية الـذي وقع فيه النزاع والإنكار [50].

يقول ابن القيم: " والإلهية التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب هي العبادة والتأليـة ومـن لوازمها توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون، فاحتج الله عليهم به، فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الألوهية "[51].

* وسوف نحاول التعرف على دور قصة إبراهيم عليه السلام في بناء الأساس الفكري لعقيـدة التوحيد وذلك من خلال الاستدلال على توحيد الألوهية وحق الله في العبودية بتوحيـد الربوبيـة المتمثلة في :

(1) قدرتة المطلقة.
(2) ملكه التام .
(3) علمه الشامل
(4) رحمته الواسعة .
(5) مشيئتة النافذة.
(6) عدالتة المطلقة.
(7) كماله في اسمائه وصفاته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[49] - راجع الدكتور محمد هراس ، عقيدة القرآن والسنة، ص28-45، سيد قطب، مقومات التصور الإسلامي،دار الشروق - بيروت، ص116.

[50] - راجع الدكتور محمد هراس، عقيد القرآن والسنة، ص51-52.

[51] - ابن القيم الجوزية، إغاثة اللهفان، ج2، ص135.

- الفصل الأول -

استدلال إبراهيم عليه السلام بقدرة الله تعالى المطلقة على ألوهيته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* **تمهيد :**

لقد احتج إبراهيم عليه السلام بقدرة الله تعالى المطلقة في الخلق والرزق ، والضر والنفع ، والإحياء والإماتة ، والبعث والحساب والجزاء ، على تفرده تعالى بالألوهية واستحقاقه للعبودية الخالصة .

- قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [الشعراء: 69 ـ 83].

دعا إبراهيم عليه السلام أباه وقومه إلى استخدام عقولهم بالنظر والاستدلال ونبذ تقليد الأباء في أخطر قضية في حياة الإنسان وتقرير مصيره ، وقد أرسى منهج الاستدلال العقلي في تأسيس المعتقد الإيماني واستخدم هذا المنهج في اثبات عقيدة التوحيد من خلال مسلكين همـــــا :

المسلك الأول:

الإنكار والبطلان في ما يناقض عقيدة التوحيد من الشرك ، حيث عمل على إبطال إلهية الأصنام وانحطاط رتبتها عن استحقاقها للعبادة وذلك كونهـــــا :

1. لا تسمع دعاء من يدعوها ويرجوها .
2. عدم قدرتها على الضر والنفع .

فهي عاجزة عن سماع دعاء من يدعوها حتى تستجيب له ، ولو سمعت فهي غير قادرة على أن تنفع من يرجوها أو تدفع عنه الضر .

وزيادة في إقامة الحجة وإلزامهم بها ، فإن إبراهيم عليه السلام يقول لهم متحديا إن كانت الهتكم هذه التي تعبدونها من دون الله تقدر على شيء فلتخلص إلي بالمساءة فإني أبارزها العداوة ولا أبالي بها ، وقد تقرر لهم من حالها عجزها عن ذلك ، إلا أنهم عطلوا عقولهم بالتقليد المحض الخالي من

أدنى نظر عقلي ، كما تفعل البهائم في تبعها لأولها ، مما يحط من رتبة الإنسان الذي اكرمه الله بالعلم واستخلفه في الأرض وإن تعليل هذه الجناية من تقليد الأباء بكونهم أسبق منهم في الوجود ، لا يعفي من مسؤولية النظر في تحري الصواب في أخطر قضية مصيرية في حياة الإنسان ، كما لا يعد دليلا ، لأن التقدم والأولوية لا تكون برهانا على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقا بالقدم ، وذلك مراده من قوله " وأباؤكم الأقدمون " معرضا بهم تعطيل عقولهم وتقليد أباءهم ، ومنكرا عليهم أن يكون لهم رتبة الصدارة والصحة بسبب الأقدمية .

المسلك الثاني:

التقرير والإلزام في إثبات عقيدة التوحيد ، حيث يأخذ عليهم إقرارهم بتوحيد الربوبية ليلزمهم بهذا الإقرار بتوحيد الألوهية ، فمن تفرد بخصائص الربوبية فهو من يستحق أن يتفرد بخصائص الألوهية ، وهو من يستحق جميع انوع العبادة دون سواه .

ثم يأخذ إبراهيم عليه السلام في صفة ربه . رب العالمين ؛ وأنه يصفه كأنه يراه ، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه ، حيث وصفه بما يستحق العبادة لأجله ، واستدل عليه السلام على تفرده تعالى بالألوهية بتفرده بصفات الربوبية وبقدرته المطلقة والمتمثلة بما يلي:

1. الخلق ، في قوله تعالى : { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ }
2. الرزق ، في قوله تعالى : { وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ }
3. الضر والنفع ، في قوله تعالى : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }
4. الإحياء ولإماتة ، في قوله تعالى : { وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ }
5. البعث والحساب والجزاء ، في قوله تعالى: { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ }[52].

وهذا الإستدلال من ابراهيم عليه السلام موافق للمنهج القرآني في الإستدلال بقدرة الله تعالى المطلقة ومن ذلك[53].

قوله تعالى : { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا } [الفرقان: 3].

[52] – هذه الآيات من سورة الشعراء : من آية 78- 82

[53] – راجع : تفسير السعدي ، 592 ، وتفسير البقاعي ، ج6 / 70 ، وتفسير الظلال ، 5 /352

وقوله تعالى : { قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [يونس : 31-34].

وسوف نستعرض طريقة ابراهيم عليه السلام في التأسيس الفكري لعقيدة التوحيد وذلك من خلال الاستدلال بقدرة الله المطلقة في الخلق والرزق والضر والنفع والإحياء والإماتة والبعث والحساب والجزاء ، على تفرده تعالى بالألوهية والعبادة ، وذلك على النحو الآتي:

– المبحث الأول –

دليـــــــل الخلـــــق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فلمّا كان الله خالق كلّ شيء وربّه فلا حقّ لغيره في أن يعبده الخلائق ، وعبادة غيره ظلم عظيم ، وكفر بنعمة الربوبيّة ، والخلق هو مبداء النعم وأعظمها ، لأنّ الخلق إيجاد، والوجود أفضل من العدم ، فإنّ مجرد الخلق موجب للعبادة لأجل العبوديّة ، وهذا الدليل من أوضح الأدلة وأكثره استخداما في القرآن ، وقد استخدمه ابراهيم عليه السلام واحتج به على وجوب تفرده تعالى بالعبادة ، ومن ذلك :

*** الشاهد الأول:**

قال تعالى: { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : 79] .

إن ابراهيم عليه السلام لما أقام الحجة على قومه ببطلان إلهية الأجرام العلوية التي هي من مخلوقات الله ، وانكر عليهم بذلك عبادتهم إياها ، وبراءته من معبوداتهم واعراضه عنها ، ليعلن توجهه بالعبادة الخالصة والطاعة المطلقة لله وحده ، ومبينا علة توجهه وعبادته له ، في كونه سبحانه وتعالى هو خالق الكون المشهود من السماوات والأرض. فتبراء من الشرك وأذعن بالتوحيد ، وأقام على ذلك البرهان ، أي : أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن ، إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها ، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه[54]، كما قال تعالى: { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الاعراف: 54] .

---

[54]- راجع تفسير الطبري ، 11 / 478 ، وتفسير ابن كثير ، 3 / 292 ، وتفسير ابن عاشور 5 /4

* **الشاهد الثاني :**

قال تعالى: { قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء : 75 ــ 78].

استدل ابراهيم عليه السلام على أبيه وقومه في كونه تعالى هو الخالق له وللوجود كله بأمرين:

أحدهما : اعلان الولاية لله تعالى وحده ، والعداوة لكل معبود سواه .

ثانيهما : قصر الهداية من عند الله وحده ، واختصاصه تعالى بها دون سواه .

وهذا كقوله تعالى : { أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ } [الأعراف : 54]. **قال القرطبي:** " صدق الله في خبره فله الخلق ، وله الأمر ، خلقهم وأمرهم بما أحب وهذا الأمر يقتضي النهي"[55] وقال الخازن : " يعني : له الخلق لأنه خلقهم وله أن يأمر فيهم بما أراد وله أن يحكم فيهم بما شاء وعلى هذا المعنى الأمر هنا الذي هو نقيض النهي "[56]. وقال ابن القيم : " وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية فيقرر كونه معبودا وحده بكونه خالقا رازقا وحده "[57].

فمن تفرد بالخلق هو من يجب أن يعبد ويطاع فيما يأمر وينهى ، وهو من له الحق أن يقرر أن هذا حلال وهذا حرام ، وهذا حسن وهذا قبيح ، وهذا صواب وهذا خطأ ، كل ذلك لأنه تعالى هو الخالق الذي خلق الإنسان والكون والحياة ، وهذا الإنسان ليس له أن ينازع الله في حق التشريع والقضاء والحكم والسلطان أو أن يعارضه في التصورات والقيم والموازين ، أو أن يجعل لنفسه رأيا أو اجتهادا مع الله أو يقدمه عليه ، فهو لم يخلق نفسه ولا غيره ، ولم يرزق نفسه ولا غيره ، إنما هو عالة على خالقه في كل شيء في حياته ، فأيهما إذن هو الذي يقرر ؟ الذي يخلق أم الذي لا يخلق ؟ وهذا المعنى الذي دلت عليه الآيات الكريمة ، كقوله تعالى : { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [النحل : 17]. وقوله تعالى : { أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } [

---

[55]- تفسير القرطبي ، 7 / 195

[56]- لباب التأويل في معاني التنزيل ، للخازن ، 3 /39

[57]- ابن القيم ، التبيان في أقسام القرآن ، 258

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأعراف : 191]. وقوله تعالى : { واتخذوا مِن دُونهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ } [الفرقان: 3]، إلى غير ذلك من الآيـــات .

والمقصود من ذلك هو لفت النظر إلى أن الآلهة المزعومة التي يعبدها الناس من دون الله لا تستحق العبادة لأنها لا تخلق فضلا على أنها مخلوقة ، وهذا الأمر ينطبق على كل مدع للألوهية، وكل من يزاول حق التشريع ، أو يجعل نفسه مصدرا لتلقي القيم والموازين ، وكل من يفعل ذلك فإنما يجعل نفسه نـــــدا لله ، والذين يتبعونه اتخذوه نـــدا لله ، كما قال الله تعالى في حق اليهود والنصارى : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } [التوبة : 31]. فقال عدي بن حاتم : " يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم ! فقال عليه الصلاة والسلام : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ قال : فقلت : بلى ! قال : فتلك عبادتهم "[58] .

إن مصدر التشريع والقيم والموازين حق خالص لله تعالى خالق الوجود ومبدعه ومدبر أمره ، وليس لأحد من خلقه مهما كانت منزلته أو رتبته أن ينازعه في هذا الحق أو يدعيه لنفسه ، لأنه يعد تأليا على الله ومناقض لمبداء التوحيد من أساسه[59].

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، واسترساله في تصوير صلته به ، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه ، وأنه يتطلع إليه بثقة ، ويتوجه إليه في حب ، ويستدل في كونه متفردا بالخلق على وجوب عبادته وموالاته وتلقي منه وحده طريق الهداية للصواب في القول والعمل والرشاد في مصالح الدين والدنيا ، { الذي خلقني فهو يهدين } الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني ، ووظائفي ومشاعري ، وحالي ومآلي : { فهو يهدين } إليه ، وإلى طريقي الذي أسلكه ، وإلى نهجي الذي أسير عليه . وكأنما يحس إبراهيم عليه السلام أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع ، يصوغها كيف شاء، على أي صورة أراد . إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين[60] .

فالذي خلق الإنسان هو الذي يختص بالعبادة وحده ، وهو الذي يختص بالهداية وحده، وهي هداية شاملة في كل ما ينفع الإنسان ويصلحه في أمور المعاش والمعاد ، وهي هداية متدرجة من

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[58]- تفسير الطبري 6 / 353 ، والترمذي حديث رقم (3020)

[59]- راجع ، محمد قطب ، لا إله إلا الله ، ص 68 ــ 69

[60]- راجع . تفسير الطبري ، 19 / 363 ، وتفسير الظلال ، 3 / 353 ، وفتح القدير ، 3 / 315 ، وتفسير ابن عاشور216/5

مبداء إيجاده إلى منتهى أجله ، ليتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره إما طبعا وإما إختيارا، مبدؤها بالنسبة إلى الإنسان هداية الجنين لامتصاص غذاءه ، ومنتهاها إلى طريق الجنة [61] .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الزخرف : 26 – 28]

إن ابراهيم عليه السلام يعلن لأبيه وقومه إنه بريء من جميع معبوداتهم التي يعبدوها من دون الله أي : أنه بريء من عبادة كل معبود إلا المعبود الذي خلقه وأوجده ، فهو وحده معبوده ، وهو وحده من يهديه إلى سبيل الحق والرشاد ، وهذا إستدلال منه عليه السلام على انه لا يستحق العبادة والطاعة فيما يامر وينهى إلا الخالق وحده سبحانه وتعالى.

وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد في قوله : [إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ] باقية في ذريته حيث وصى بها بنيه كما أشار تعالى إلى ذلك بقوله : { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 132] لتبقى هذه الكلمة الإيمانية ممتدة عبر الأجيال من بعده يتوارثونها عنه ويقتدون به فيها ويذكرون منهجه القويم في التعامل معها والذي يقوم على النفي والإثبات :

* أما النفي فهو البراءة من كل المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات، في قوله : [إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ] وهي جاريا مجرى (لا إله)

* وأما الإثبات فهو افراد الله وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله ، في قوله : [إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ] وهي جاريا مجرى (إلا الله) فكانت هذه البراءة وهذه الموالاة من إبراهيم عليه السلام هي التفسير لحقيقة كلمة التوحيد وهي : [لا إله إلا الله] والتعبير الحقيقي لمنهجه التوحيدي من الحنيفية السمحة التي أمرنا الله بإتباعه والإقتداء به ، كما في قوله تعالى: { فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [آل عمران : 95]. وقوله تعالى: { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 123]. وهذا المنهج على بساطته ووضوحه هو المحور الأساسي الذي يدور حوله القرآن كله ، وهي القضية

---

[61]- انظر تفسير ابو السعود ، 5 /144

الأساسية في حياة الإنسان والبشرية جميعا ، ومحور الصراع والتدافع بين الحق والباطل ، والكفر والإيمان عبر التاريخ الإنساني ، فالقضية ليست قضية المعبود أو العبادة كما يتصورها البعض أو كما يريدها ، وإنما القضية هي قضية المعبود الحق والعبادة الصحيحة ، والمتمثلة بالخالق سبحانه وأمره ومنهجه ، ومن ثم رفض كل معبود سوى الخالق سبحانه وتعالى ، ورد كل امر ومنهج لا يصدر عنه ، وعلى أساس هذه القضية يتحدد منهج حياة الناس في الأرض ويتقرر مصيرهم في الآخرة ، ومن هنا تكمن خطورة هذه القضية التي تجمع في طياتها قضايا الوجود كله [62] .

* الشاهد الرابع :

قال تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } [الأنبياء : 51- 57].

إن الله تعالى قد أعطى إبراهيم عليه السلام رشده من قبل النبوة للنظر والاستدلال على الحق ، حيث استدل على أبيه وقومه بقدرة الله على الخلق على وجوب عبادته بعد أن استنكر عليهم أن يعكفوا على تلك التماثيل بالعبادة ، حيث انكبوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم ، وتعلقوا بعبادة تماثيل هم صنعوها بأيديهم ، فكان جوابهم وحجتهم أن { قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين } وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد في مقابل حرية الإيمان وانطلاقه للنظر والتدبر ، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية ، فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية ، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل .

وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة في التقدير ، وبهذه الصراحة في الحكم ، حيث سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آلهتهم ، راحوا يسألون على وجه الاستغراب والاستعظام لما قال : { قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين؟ } . وهو سؤال الذي لا يطمئن إلى حقيقة معتقده ،

---

[62] - راجع تفسير الرازي 13 /472 ، وتفسير أضواء البيان ، لشنقيطي ، 7 /201-202 ، ومحمد قطب ، لا إله إلا الله ، 21 ــ 22 ، والألوسي 18 / 347 ، التوحيد ، محمد عبد الوهاب ، 92

لأنه لم يتدبره و لم يتحقق منه بتأثير الوهم والتقليد ، والعبادة تقوم على اليقين لا على الوهم الذي لا يستند إلى دليل! فأما إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه ، وهي محاولة منهم لتميع الفواصل العقدية ، وجعل القضية على جديتها وخطورتها موضع هزل ، فإن القوم لما أوهموا أنه يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام ما يعلمون به أنه مجد في إظهار الحق الذي هو التوحيد وذلك بالقول أولا وبالفعل ثانياً ،

* **أما الطريقة القولية:** فهي قوله: انظروا إلى هذه العظيمة وهي أنكم تتركون عبادة خالقكم ومالك أمركم ورازقكم ومالك العالمين والذي فطر ما أنتم لها عاكفون وتشتغلون بعبادتها دونه فأي باطل أظهر من ذلك وأي ضلال أبين منه { بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السموات والأرض الذي فطَرَهُنَّ } أي أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدون من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه وهذا انتقال عن تضليلهم في عبادة الأصنام ونفى عدم استحقاقها لذلك ، إلى بيان الحق وتعيين المستحق للعبادة ، فهذه التماثيل ليست أرباباً بل ربكم وخالقكم هو الذي يستحق منكم اختصاصه بالعبادة ، وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقهما لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبد لأن من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع في الدار الآخرة بالعقاب والثواب . فيرجع حاصل هذه الطريقة إلى الطريقة التي ذكرها لأبيه في قوله: { ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً } [مريم : 42], أما قوله:{ وَأَنَاْ على ذلكم مّنَ الشاهدين } ادعاء أنه قادر على إثبات ما ذكره بالحجة ، وأني لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة ، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم و لم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم ، فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي .

ـــ **أما الدليل العقلي:** فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده، الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن، بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفطورا مدبرا متصرفا فيه، ودخل في ذلك، جميع ما عبد من دون الله.

أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقا متصرفا فيه، لا يملك نفعا، ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟

ـــ **أما الدليل السمعي:** فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك فلهذا قال

إبراهيم: { وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ } أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل { مِنَ الشَّاهِدِينَ } وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصا أولي العزم منهم خصوصا خليل الرحمن ، وهذا فيه بيان لأهمية الشهادة وفضلها في مواطن تعز فيها ويحتاج إليها .

* **وأما الطريقة الفعلية**: فهي قوله عليه السلام: { وتالله لأكِيدَنّ أصنامكم بَعْدَ أن تُولُوا مُدْبِرِينَ } فإن القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية إذ لم يكونوا من أهله نزل بهم من الدليل العقلي على تحقيق الحق إلى الدليل الحسي على إبطال الباطل فلم يكتف بالمحاجة باللسان بل كسر أصنامهم وهو واثق بالله تعالى موطن نفسه على مقاساة المكروه في الذب عن الدين ، وإبراهيم عليه السلام قد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها ، وليحملهم على التفكير في أن الذي يجب أن يكون معبودا ، إنما هو الله الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء[63] .

* **الشاهد الخامس :**

قال تعالى: " فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) " [الصافات : 91-96] .

عندما انتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وجاء قومه من رحلتهم ، ووجدوا أصنامهم قد تحطمت ، وعرفوا من الفاعل ، فأقبلوا إليه يسرعون الخطى ويحدثون حوله زفيفا ، وهم جمع كثير غاضب هائج ، وهو فرد واحد ، ولكنه فرد مؤمن ، فرد يعرف عقيدته واضح التصور لإلهه ، ويرى آثار قدرته في الكون من حوله . فهو أقوى من هذه الكثرة الهائجة المائجة ، المدخولة العقيدة ، المضطربة التصور ، ومن ثم يجابههم بالحق الفطري البسيط لا يبالي كثرهم وهياجهم وزفيفهم.

إن إقبال القوم إلى إبراهيم بحالة تنذر بحنقهم وإرادة البطش به يثير في نفس السامع تساؤلا عن حال إبراهيم في تلقيه باولئك وهو فاقد للنصير معرض للنكال ، ولكنه لم يتلق القوم بالاعتذار ولا بالاختفاء ، بل أنحى عليهم باللائمة والتوبيخ وتسفيه أحلامهم ، وذلك منبىء عن رباطة جأش

---

[63]- راجع : تفسير القرطبي 11 / 260 ، وتفسير الالوسي ، 17 /60 ، وتفسير البقاعي ، 5 / 310 ، وتفسير الرازي ، 11 / 31 ، وتفسير الظلال لسيد قطب ، 5 / 160 ، وتفسير طنطاوي ، ص2910 ، وتفسير السعدي ، 525 ، ايسر التفاسيرللجزائري : 2 / 477

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إبراهيم ، فقال لهم مستنكرا :{ أتعبدون ما تنحتون } هكذا وقد رد عليهم رداً منطقياً سليما إنه منطق الفطرة يصرخ في وجههم ، إذ بلغوا من السخافة أن يعبدوا صوراً نحتوها بأيديهم أو نحتها أسلافهم ، ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والإصلاح ما كان معبوداً للإنسان ألبتة ، فإذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه إلا آثار تصرفه، فمن المنكر أن يعبدوا أصناماً هم نحتوها وكان الشأن أن تكون أقلّ منهم ، أي أن شأن المعبود أن يكون فاعلاً لا منفعلاً والحال أن فعلهم تسلط على معبوداتهم بالنحت والصناعة ، وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل ، فقد احتج عليهم بأنَ العابد والمعبود جميعاً خلق الله ، فكيف يعبد المخلوق المخلوق ، فضلا على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله ولما كان المتفرد بالنعمة هو المستحق للعبادة ، وكان الإيجاد من أعظم النعم ، قال عليه السلام موبخاً إياهم على عبادة الأصنام أن الله هو وحده خلقهم وخلق ما يعملونه من الأصنام وأنه لا مدخل لمنحوتاتهم في الخلق ، فلا مدخل لها في العبادة ، والله هو المتفرد بجميع الخلق فهو المستحق للعبادة دون المخلوق ، ومعلوم أنه لا يعبد إلا من كان كذلك لأنه لا يجوز لعاقل أن يشكر على النعمة إلا ربها .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء ، واندفع أصحاب الأمر والنهي فيهم يزاولون طغيانهم في صورته الغليظة لما أعجزتْهم الحيلة ولزمتْهم الحجة { قالوا : ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم } .إنه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة منطقاً سواه؛ عندما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل . وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين[64] .

*** الشاهد السادس :**

قال تعالى : { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } [الأعلى: 1-3].

هذا الذي ورد في هذه السورة وهو يتضمن أصول العقيدة الكبرى . هذا الحق الأصيل العريق . هو الذي في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى : { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18)

[64]- الرازي ،136/13 ، البقاعي ، 138/6 ، الزمخشري ،475/5 ، ابن عاشور 135/12 طنطاوي ، 3580 ، جزائري ، 3/ 380 ، الظلال 186/6

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى: 18- 19] . ووحدة الحق ، ووحدة العقيدة ، هي الأمر الذي تقتضيه وحدة الجهة التي صدر عنها . ووحدة المشيئة التي اقتضت بعثة الرسل إلى البشر . إنه حق واحد ، يرجع إلى أصل واحد . تختلف جزئياته وتفصيلاته باختلاف الحاجات المتجددة ، والأطوار المتعاقبة .ولكنها تلتقي عند ذلك الأصل الواحد . الصادر من مصدر واحد . من ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ، واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ، أنه قال : { الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء : 78] وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى وهرون عليهما السلام : { فمَن رَّبُّكُمَا ياموسى } [طه : 49]. قال موسى عليه السلام : { رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى } [طه : 50]. وأما محمد عليه السلام فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله : { اقرأ باسم رَبّكَ الذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ } [العلق :2-1].

هذا إشارة إلى الخلق ، ثم قال : { اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم الذي عَلَّمَ بالقلم } [العلق : 4-3]. وهذا إشارة إلى الهداية ، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة ، فقال : { الذي خَلَقَ فسوى والذي قَدَّرَ فهدى } وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيراً لما ذكرنا أن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر ، ومشاهدة الإنسان لها ، واطلاعه عليها أتم ، فلا جرم كانت أقوى في الدلالة.

وإن هذه الصفات التي تلي الأمر بالتسبيح . لتحيل الوجود كله معبداً يتجاوب جنباته بتلك الأصداء؛ ومعرضاً تتجلى فيه آثار الصانع المبدع : { الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى } . والتسبيح هو التمجيد والتنزيه واستحضار معاني الصفات الحسنى لله ، الذي خلق كل شيء فسواه، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه . والذي قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه إلى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده؛ وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه أيضاً .

والكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة . هذه الحقيقة يدركها القلب البشري جملة حين يتلقى إيقاعات هذا الوجود؛ وحين يتدبر الأشياء في رحابه بحس مفتوح . وهذا الإدراك الإلهامي لا يستعصي على أي إنسان في أية بيئة ، وعلى أية درجة من درجات العلم الكسبي ، متى تفتحت منافذ القلب ، وتيقظت أوتاره لتلقي إيقاعات الوجود ، كي تشاهد كل شيء مسوى في صنعته ، كامل في خلقته . معد لأداء وظيفته . مقدر له غاية وجوده ، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق . وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق ، ميسرة لكي تؤدي في تجمعها دورها

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجماعي؛ مثلما هي ميسرة فرادى لكي تؤدي دورها الفردي ، فأمر الله عباده بأن يحمدوه ويسبحوه على نعمه عليهم وأفضاله . وحينما نزلت هذه الآية : { سبح اسم ربك الأعلى } . قال عليه السلام : « اجعلوها في سجودكم » وحينما نزلت قبلها : { فسبح باسم ربك العظيم } قال : « اجعلوها في ركوعكم » . فهذا التسبيح في الركوع والسجود كلمة حية ألحقت بالصلاة وهي دافئة بالحياة . لتكون استجابة مباشرة لأمر مباشر [65].

* الشاهد السابع :

قال تعالى: { وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى } [النجم : 45-46] .

وهذا مما أوحاه الله تعالى في صحف إبراهيم كما أشار في قوله تعالى : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى " [النجم : 36] . والمراد بالزوجين : الذكر والأنثى من خصوص الإنسان لأن سياق الكلام للاعتبار ببديع صنع الله وذلك أشد اتفاقاً في خلقة الإنسان ، ولأن اعتبار الناس بما في أحوال أنفسهم أقرب وأمكن ، ولم يؤت في هذه الجملة بضمير الفصل كما في اللتين قبلها لعدم الداعي إلى القصر إذ لا ينازع أحد في أن الله خالق الخلق وخالق الإنسان فهو المتفرد بخلقه ، { مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى } وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجده من نطفة ضعيفة . وهي الحقيقة الهائلة الواقعة المتكررة في كل لحظة . فينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه ، كيف تمت هذه العجيبة التي لم تكن - لولا وقوعها - تخطر على الخيال؟ تلك النطفة التي انبثقت عنها خصائص الذكر وخصائص الأنثى وأعلنت عن نفسها في الجنين في نهاية المطاف ، فإذا هي في تدبير الله بشرا سويا ! وأي قلب بشري يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة ، ثم يتمالك أو يتماسك ، فضلاً على أن يجحد ويتبجح ، ويقول : إنها وقعت هكذا! وسارت في طريقها هكذا ! لولا أن هنالك إرادة مدبرة من ورائها تريد أمراً ، وتقدر عليه ، وترسم له الطريق؟!

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من الاستدلال بخلق النوعين ، أعني الذكر والأنثى من النطفة جاء موضحاً في غير هذا الموضع ، وأنه يستدل به على أمرين : هما قدرة الله على البعث ، وأنه ما خلق

---

[65]- الظلال، 8 / 11 - 13 ، وتفسير الرازي 16 /460

الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه ، وقد جمع الأمرين قوله تعالى : { أَيَحْسَبُ الإنسان أن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى } [القيامة :36- 46] فذكر دلالة ذلك على البعث في قوله :{أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى } ، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء ، منكراً على من ظن ذلك بقوله : { أَيَحْسَبُ الإنسان أن يُتْرَكَ سُدًى } أي مهملاً من التكليف والجزاء .

ففي هذا دليل على كمال اقتداره في خلقه للإنسان من نطفة ضعيفة ، ودليل على أن عبادته هي الحق وعبادة غيره باطلة .

فكان الواجب على العباد أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم ذابين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية. وذلك حين عبدوا أصناما وطواغيت وجعلوها أندادا لخالقهم[66]. مصداقا لقوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ } [يس : 77] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

66- راجع : تفسير ابن عاشور ، 14 / 205 ، وتفسير الظلال ، 7 /65 ، تفسير السعدي ، 822

- المبحث الثاني -

دليـــــل الـــــرزق

إن قضية الرزق لها مساس مباشر في حياة الناس وبقائهم ، وهي مشغلة النفوس ، وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان، وإن الانحراف في مفهوم الرزق كان له آثاره السيئة في حياة الافراد والشعوب لذلك فقد عني المنهج القرآني بتجلية حقيقة الرزق ، حيث قرر أن الرزق هو من خصائص القدرة الإلهية ، قال تعالى : { هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [فاطر:3]، وأن الرزق مكفول مضمون من الله لجميع خلقه قال تعالى: { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [هود: 6] وهذا المفهوم لحقيقة الرزق يحفظ للإنسان تعقله وطاقته وكرامته ، ويتحرر من عبودية البشر لتكون عبوديته لله وحده . قال تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات: 56- 58] .

وقد كان المشركون يقرون بإن الله هو الرزاق وليست أصنامهم ، فاستدل سبحانه بهذا الإقرار على تفرده بالألوهية واستحقاقه لجميع أنواع العبودية من الحمد والشكر والحب والرجاء والقصد والطلب . لأنه وحده المستحق لذلك ، كونه المتفضل على عباده بالرزق والإنعام: قال تعالى: { أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [النمل: 61- 62]. وقال تعالى : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } [الحج: 26-28].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد استخدم إبراهيم عليه السلام دليل الرزق في تقرير عقيدة التوحيد ونفي الشرك ، حيث استدل بقدرة الله في الرزق على وجوب تفرده تعالى بالعبادة ، ونفى استحقاق غيره من الألهة المزعومة كونها لا تملك القدرة على رزق نفسها فضلا عن رزق غيرها ، وقد سلك إبراهيم مسلك الاستدلال بالنعم الحسية لأن إثباتها أقرب إلى أذهان العموم ، ومن ذلك :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [العنكبوت : 16-17].

فأنت ترى أن إبراهيم عليه السلام قد بدأ دعوته لقومه يأمرهم بإخلاص العبادة لله تعالى وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع ، الذى يتنافى مع الجهل . . وفي الخطوة الرابعة بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه :

أولها : أنهم يعبدون من دون الله أوثاناً والوثن : التمثال من الخشب وهي عبادة سخيفة ، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله . . فقال إبراهيم : { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أوثانا } إشارة إلى أنها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثاناً لا شرف لها .

وثانيها : أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل ، وإنما يخلقون إفكاً وينشئون باطلاً ، يخلقونه خلقاً بلا سابقة أو مقدمة ، وينشئونه إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة .

وثالثها : أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعاً ، ولا ترزقهم شيئاً :{ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً }. إشارة إلى عدم المنفعة في الحال وفي المآل ، وهذا لأن النفع ، إما في الوجود ، وإما في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود ، لأن وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ، ولا نفع في البقاء لأن ذلك بالرزق ، وليس منهم ذلك ، وهذه الآية أفادت التوبيخ على شكر ما لا يستحقّ الشكر ، فإن العبادة شكر ، فهم عبدوا ما لا يستحقّ العبادة ولا بيده نعمة ، وهو الأصنام ، لأنها لا تملك ما يأتيهم من الرزق لاحتياجها، ولا تستطيع رزقهم لعجزها . فلا يصح أن يعبد إلا من يرزق الخلق . لأن أكلهم رزقه ، وعبادتهم غيره كفر ظاهر لكل عاقل .

وفي الخطوة الخامسة يوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق . الأمر الذي يهمهم ويمس حاجتهم : ثم بين أن ذلك كله حاصل من الله فقال : { فابتغوا عِندَ الله الرزق } فقوله : { الله } إشارة إلى استحقاق عبوديته لذاته وقوله : { الرزق } إشارة إلى حصول النفع منه عاجلاً وآجلاً { فابتغوا عِندَ الله الرزق } أي اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله فهو الذي عنده الرزق كله ، فاسألوه من فضله ووحدوه دون غيره ، فلا يشغلكم ابتغاء الرزق بالأسباب الظاهرة عن عبادته ، فإنها هي الأسباب الحقيقية للرزق ، وأن لا يعتقد أنه لا محالة في السبب ، وإنما الأمر مع ذلك بيده ، إن شاء أنجح وإن شاء خيب ، وإن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفوس . وفي النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم ، ليعبدوه ويشكروه:{ واعبدوه واشكروا له }. ثم قال:{ فاعبدوه } أي اعبدوه لكونه مستحقاً للعبادة لذاته واشكروا له أي لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق{ واشكروا لَهُ }أي على نعمائه ، فإن الشكر موجب لبقائها وسبب للمزيد عليها . وأخيراً يكشف لهم أنه لا مفر من الله ، فمن الخير أن يثوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين[67].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } [الشعراء : 75- 79].

أتى إبراهيم عليه السلام بالصفات التي يكون المتصف بها يستحق الألوهية وهي الأوصاف الفعلية التي تخص البشر ، ومنها قوله :{ يطعمني ويسقين } تعديد للنعمة في الرزق ، وأتى بهذين الصفتين بعدما تقدم لما أن دوام الحياة وبقاء نظام خلق الإنسان الغذاء والشراب يكون أشد احتياجا إليهما منه إلى غيرهما. وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لأجله ، وهو الرزق في قوله : { والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } أي : هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل

---

[67]- راجع : تفسير الشنقيطي ، 46/3 ، وتفسير الرازي ، 142/12 ، وفتح القدير ، 5 /434 ، وتفسير طنطاوي ، 3300 ، وأيسر التفاسير ،3 /196 وتفسير السعدي ، 628 ، وتفسيرالظلال ، 5 /465

الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسي كثيرا وهو الذى أنعم عليّ بالطعام والشراب ، وأقدرني على تناولهما والانتفاع بهما ، حفظاً لحياتي . وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق ، وذلك لأنه سبحانه إذا خلق له الطعام وملكه ، فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه النعمة ، وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ما عداهما، وليس الإطعام والسقي هو مجرد خلق الطعام والشراب له أو تمليكهما اياه بل يدخل فيهما إعطاء جميع ما يتوقف الانتفاع بالطعام والشراب عليه كالشهوة وقت المضغ والابتلاع والهضم والدفع ونحو ذلك ، وهذه كلها نعم يجب على المنعم عليه ببعضها فضلاً عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها ، وأولاها العبادة ، فهو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تطعم ولا تسقي ، ودخول هذه الضمائر في صدور هذه الجمل للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره[68] .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى } [النجم : 48].

وهذا مما أوحاه الله تعالى في صحف إبراهيم كما أشار في قوله تعالى : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ موسى * وإبراهيم الذى وفى } [النجم: 36]. وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته تعالى وانفراده بالعطاء والرزق فهو أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأقنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى ، ولهذا استدل بذلك على تفرده بالعبادة ومما يستوجب على العباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له ، والإتيان بضمير الفصل لِقصر صفة الإغناء والإقناء عليه تعالى دون غيره وهو قصر ادعائي لِمقابلة ذهول الناس عن شكر نعمة الله تعالى بإسنادهم الأرزاق لوسائله العادية ، مع عدم التنبه إلى أن الله أوجد مواد الإرزاق وأسبابها وصرف موانعها ، وهذا نظير ما تقدم من القصر[69] في قوله تعالى: { الحمد لله رب العالمين } [الفاتحة : 2].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[68]– راجع تفسير : الرازي ، 11 / 484 ، وتفسير ابن كثير : 6 / 146 ، وفتح القدير ، 5/ 315 ، وتفسير البقاعي ،69/6، وتفسير الألوسي ، 14 / 250 ، السعدي ، 592 ، طنطاوي ، 3165

[69]– راجع تفسير السعدي : 822 ، وتفسير ابن عاشور ، 14 / 209

* الشاهد الثالث :

قال تعالى : { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى } [الأعلى : 1- 5].

الآية الأولى تضمنت الأمر بتنزيه اسم الله والأربع بعدها في التعريف به سبحانه وتعالى حتى يعظم اسمه وتعظم ذاته وتنه عن الشريك والصاحبة والولد ، وبدء السورة بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسبح اسمَ ربه ، والتسبيح : التنزيه عن النقائص ، وإذْ عُدِّي فعلُ الأمر بالتسبيح هنا إلى اسْم فقد تعين أن المأمور به قول دال على تنزيه الله بطريقة إجراء الأخبار الطيبة أو التوصيف بالأوصاف المقدسة لإثباتها إلى ما يدل على ذاته تعالى من الأسماء والمعاني . ثم أجري على لفظ { ربك } صفة { الأعلى } وما بعدها من الصلات الدالة على تصرفات قدرته ، فهو مستحق للتنزيه لصفات ذاته ولِصفات إنعامه على الناس بخلقهم في أحسن تقويم ، وهدايتهم ، ورزقهم ، ورزق أنعامهم ، للإيماء إلى موجب الأمر بتسبيح اسمه بأنه حقيق بالتنزيه استحقاقاً لذاته ولوصفه بصفة أنه خالق المخلوقات خلقاً يدل على العلم والحكمة وإتقان الصنع ، وبأنه أنعم بالهدى والرزق الذين هما استقامة حال البشر في النفس والجسد ، ولما كانت دلائل التوحيد تارة بالنفس وتارة بالآفاق ، ونبه بآيات النفس ، فلم يبق إلا آيات الآفاق ، وكان النبات من آياتها : { والذي أَخْرَجَ المرعى . فَجَعَلَهُ غُثَآءً أحوى } فالمقصود هو بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته تعالى ، التي لا يعجزها شئ ، والإرشاد إلى تنوع نعمه سبحانه، حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وحتى يعود الكافرون إلى رشدهم بعد هذا البيان الواضح الحكيم . والذي فيه دلالة على استحقاق الله تعالى للتنزيه ، فهو القادر على إنبات العشب لا الأصنام التي عبدها المشركون .

إن قضية الألوهية مرتبطة بقضية التشريع . والمنطق الذي ترتكن إليه الألوهية في الاختصاص بتنظيم حياة البشر هو منطق الحق والبداهة ، وهو أن الله هو خالق هؤلاء البشر ورازقهم . فهو وحده صاحب الحق إذن في أن يحل لهم ما يشاء من رزقه وأن يحرم عليهم ما يشاء . وهو منطق قائم بين البشر أنفسهم . فصاحب المال والرزق هو صاحب الحق في التصرف فيه . والخارج على هذا المبدأ البديهي معتد لا شك في اعتدائه! قال تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى

اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ } [يونس: 59-60].

والقرآن يعرض هذه القضية في وضوح منطقي لا يجادل فيه إلا معتد مفتر على الله ، فالله هو صاحب الفضل والنعمة والرزق ، وهو من يستحق الشكر والحمد والثناء ، وهو من يحق له أن يحل من رزقه ما يشاء ويحرم ما يشاء ، وليس لأحد من البشر أن يدعي لنفسه هذا الحق ، وليس لأحد أن يقره على ذلك ، وإلا كان هذ إعتداء على حق الله واعتداء على أخص خصائص ألوهيته تعالى ، وهي قضية عامة تقرر مبدأ عاماً يتعلق بحق الألوهية في رقاب العباد؛ وإن مقتضى الإيمان بالله أن يسلك المؤمنين في هذه القضية سلوك الخضوع والإنقياد لأمره فيما يشرع لهم من تحليل وتحريم في معاشهم وأرزاقهم ، والذي يخرج عن ذلك يعتدون بطبيعة الحال على حق الله . ولا يجتمع الاعتداء على الله والايمان به في قلب واحد على الإطلاق![70].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[70]- راجع تفسير ، الرازي ، 462/16 ، وتفسير ابن عاشور ، 16 /212 ، وتفسير ثبقاعي 9 / 397 طنطاوي ، 4487 ، أيسر التفاسير للجزائري ،4 /390 ، وتفسير الظلال ، 8 / 11 ، وطريق الدعوة في ظلال القرآن ،أحمد فايز 181/2

– المبحث الثالث –

دليـــل الضُـــر والنفـــع

إن القرآن حينما يقرر حقيقة تفرد الله تعالى في التصرف بهذا الوجود كله ، وإنه لا يقع فيه شيء إلا بإذنه، وإن الإنسان لا يصيبه من ضر ولا نفع إلا بأمره ، إنما يستدل بذلك على توحيد ألوهيته ووجوب عبادته قال تعالى : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يونس: 106- 107].

إن تقرير هذه الحقيقة في الضمير البشري من أنه لا ضار ولا نافع إلا الله من شأنه أن يصوب توجهات الفطرة الشعورية بكليتها إلى الله تعالى وحده ، فلا ترجو سواه ، ولا تخشى غيره ، ولا تتوكل إلا عليه .

قال تعالى : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } [الإسراء: 56 – 57].

وبهذا الحقيقة واستقرارها في الضمير يتجرد الإنسان من كل صور الشرك المتعلقة بالضر والنفع ، ويتحرر من كل عبودية لغير الله تعالى .قال تعالى : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } [الزمر: 38 – 39].

وهكذا نجد القرآن في معرض تقريره لعقيدة التوحيد وإلزام الناس بمقتضياتها التعبدية ، فإنه يكشف معتقدات المشركين الباطلة ، ومعبوداتهم الزائفة ، وبعجزها عن النفع والضر ، وإنه من الحماقة والضلال أن ترجى وتخشى أوتقصد بأي نوع من العبادات ، وإنما الذي يستحق ذلك دون سواه هوالله تعالى الذي بيده وحده الضر والنفع ، وقد عمل المنهج القرآني والذي يعد القصص القرآني جزءاً منه ، على تأكيد هذه الحقيقة وتعميقها في الضمير البشري سواء في مجال الاستدلال

العقلي لإثباتها تقريرا وإلزاما ، أو في مجال الممارسة الإيمانية تحقيقا لمفاهيمها العقيدية وتطبيقا لمقتضياتها التعبدية .

* وقد تجلت مظاهر قدرته تعالى في الضر والنفع بدلائلها العقلية وتطبيقاتها العملية من خلال قصة إبراهيم عليه السلام والتي سوف نستعرضها على النحو الآتـــي :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم : 41 – 42].

لقد سلك إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه أحسن منهاج واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق لئلا يركب متن المكابرة ولا ينكب بالكلية عن سبيل الرشاد ، حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به كل عاقل ويأبى الركون إليه ، فضلاً عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم ، مع أنها لا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق المحيء المميت المثيب المعاقب ، ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشيء لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً قادراً على النفع والضر ، لاستنكف ذو العقل السليم عن عبادته ، وإن كان أشرف الخلائق لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة ، فما ظنك بجماد مصنوع ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر .

وإنما أورد إبراهيم عليه السلام هذه الدلالة بسبب الإعتقاد أن عبادتها تفيد نفعاً إما على سبيل الخاصية الحاصلة من الطلسمات أو على سبيل أن الكواكب تنفع وتضر ، فبين إبراهيم عليه السلام أنه لا منفعة في طاعتها ولا مضرة في الإعراض عنها فوجب أن لا تحسن عبادتها .وها هو عليه السلام يصف الأوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة في الإلهية وبيان ذلك من وجوه :

الأول: أن العبادة غاية التعظيم فلا يستحقها إلا من له غاية الإنعام وهو الإله الذي منه أصول النعم وفروعها كما في قوله : { وإنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعبدوه } [مريم : 36]. وقال : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم } [البقرة : 28]. وكما يعلم بالضرورة أنه لا يجوز الاشتغال بشكرها ما لم تكن منعمة وجب أن لايجوز الاشتغال بعبادتها .

الثاني: أنها إذا لم تسمع ولم تبصر ولم تميز من يطيعها عمن يعصيها فأي فائدة في عبادتها ، وهذا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ينبهك على أن الإله يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات حتى يكون العبد آمناً من وقوع الغلط للمعبود.

الثالث: أن الدعاء مخ العبادة فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي فأي منفعة في عبادته وإذا كانت لا تبصر بتقرب من يقترب إليها فأي منفعة في ذلك التقرب .

الرابع: أن السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عارياً عن كل ذلك ، والإنسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالأفضل عبادة الأخس .

الخامس: إذا كانت لا تنفع ولا تضر فلا يرجى منها منفعة ولا يخاف من ضررها فأي فائدة في عبادتها.

السادس: إذا كانت لا تحفظ أنفسها عن الكسر والإفساد على ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه كسرها وجعلها جذاذاً فأي رجاء للغير فيها .

وأما الصفات الثلاثة التي وصف بها إبراهيم عليه السلام الأصنام وكل واحد منها قادح في الإلهية أحدها : لا يسمع . وثانيها : لا يبصر . وثالثها : لا يغني عنك شيئاً ، والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى . وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان وأسنى . فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان . بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضراً ولا نفعاً ، فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلا وشرعا. ودل بتنبيهه وإشارته، أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى ، كأنه قال له : بل الإلهية ليست إلا لربي فإنه يسمع ويجيب دعوة الداعي ويبصر ، كما قال : { إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى } [طه: 46]. ويقضي الحوائج : { أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ } [النمل: 62] وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا يستحقها إلا من له ولاية الإنعام وله أوصاف الكمال وهو الله تعالى فلا يستحق العبادة إلا هو[71] .

[71]- راجع : تفسير الرازي 10/311-312 ، وتفسيرالطبري 18/203 وتفسيرالخازن 4/348، وتفسير ابن عاشور 8/480 ، وتفسير الالوسي : 11/194 ، وتفسير السعدي 494 ، وتفسير الظلال 5/98

* الشاهد الثاني :

قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء: 69-80].

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، أمر الله رسوله محمدا، صلوات الله وسلامه عليه، أن يتلوه على أمته، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نَشأ وشَب، أنكر على قومه عبادة الأصنام ، بقوله { إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ } .

فقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام؛ ولكنه سألهم على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء . فأجابوه بقولهم : { نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ } وكان يكفيهم فى الجواب أن يقولوا : نعبد أصناما ، ولكنهم لغبائهم وجهلهم قصدوا التباهى والتفاخر بهذه العبادة الباطلة أى : نعبد أصناما منحوتة من الحجر أو مما يشبهه ، ونداوم على عبادتها ليلا ونهارا ، ونعكف على التقرب لها كما يتقرب الحبيب إلى حبيبه .

وهكذ عندما تنحط الأفهام تتباهى بما يجب البعد عنه ، وتفتخر بالمرذول من القول والفعل . وقد دعاهم إلى الاستدلال على انحطاط الأصنام عن مرتبة استحقاق العبادة ليكون إيمان الناس مستنداً لدليل الفطرة ، ولما كان شأن الرب أن يُلجأ إليه في الحاجة وأن ينفع أو يضر ألقى إبراهيم عليهم استفهاماً عن حال هذه الأصنام هل تسمع دعاء الداعين وهل تنفع أو تضر تنبيهاً على دليل انتفاء الإلهية عنها . بما يوقظهم من جهلهم لو كانوا يعقلون ، وينبه عقولهم المتبلدة ، إلى هذا السخف الذي يزاولونه دون وعي ولا تفكير ، فقال منبهاً على فساد مذهبهم أى : على سبيل التنبيه والتبكيت { هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } فإذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ، ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه؟ فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه

الحجة فعدلوا إلى أن قالوا : { وَجَدْنَا ءابَاءنَا كَذَلِكَ يَفعَلُونَ } أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو نفع أو ضر اعترافاً بما لا سبيل لهم إلى إنكاره واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد فكان جوابهم إياه رجوع عن محجود ، حيث عدلوا عن جوابهم لسؤاله الذي حاجهم به إلى غيره ليكون تعليلا لعبادتهم الأصنام، و{ بل } في حكاية جواب القوم لإضراب الانتقال من مقام إثبات صفاتهم إلى مقام قاطع للمجادلة في نظرهم وهو أنهم ورثوا عبادة هذه الأصنام ، فلما طوَوا بساط المجادلة في صفات آلهتهم وانتقلوا إلى دليل التقليد تفادياً من كلفة النظر والاستدلال بالمصير إلى الاستدلال بالاقتداء بالسلف .

فكأنهم قالوا : لا يسمعون ولا ينفعوننا ولا يضرون وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم، فقد كان فعل الآباء لأمر كفيلاً باعتباره دون بحث.

وهكذا تقوم مثل هذه الاعتبارات الجوفاء في وجه الحق ، فيؤثرونها على الحق ، في فترات التحجر العقلي والنفسي والانحراف التي تصيب الناس ، فيحتاجون معها إلى هزة قوية تردهم إلى التحرر والانطلاق والتفكير . والكشف عن ذلك التحجر الذي يصيب المقلدين بلا وعي مع أنهم لو سلكوا طريقاً حسية حصل لهم منها ضرر حسي ما سلكوها قط ، ولكن هذا الدين يهون على الناس فيه التقليد بالباطل قديماً وحديثاً ، وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال.

وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم على حلمه وأناته إلا أن يهزهم بعنف ، ويعلن عداوته للأصنام وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات! فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله : { أَفَرَءيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمُ الأقدمون } والكلام إنكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها وأن عبادتها ضلال قديم لا فائدة في قدمه إلا ظهور بطلانه كما يؤذن بهذا وصف آبائهم بالأقدمين ، أراد به أن الباطل لا يتغير بأن يكون قديماً أو حديثاً ، ولا بأن يكون فاعليه في كثرة أو قلة .{ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى } قيل : تعليل لما يفهم من ذلك من إني لا أعبدهم أو لا تصح عبادتهم؛ وهكذا لم يمنعه أن أباه وأن قومه يعبدون ما يعبدون ، أن يفارقهم بعقيدته ، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم وكذلك يعلم القرآن المؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا لقوم؛ وأن الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هي قيمة الإيمان . وأن ما عداه تبع .

كيف يكون الصنم عدواً مع أنه جماد؟ وجوابه: إن الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها في طلب المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الأحياء العقلاء في اعتقاد الكفار ، ثم إنها صارت أسباباً

لانقطاع الإنسان عن السعادة ووصوله إلى الشقاوة ، فلما نزلت هذه الأصنام منزلة الأحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرة لا جرم جرت مجرى الأعداء ، فلا جرم أطلق إبراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو، أو أن المراد في قوله : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي } أي : عداوة من يعبدها ، والصواب إن العداوة لا بد أن تشمل كل ما يعبد من دون الله لأن التوحيد لا يستقيم إلا بالمولاة وهي لا تتحقق من غير البراءة من الشرك والمشركين ، سواء كان عابدا أو معبودا . واستثنى إبراهيم { رب العالمين } من عدائه لما يعبدون هم وأباؤهم الأقدمون :{فإنهم عدو لي إلا رب العالمين}.

فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عبد الله ، قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف؛ وقد يكون من عبد الله ولكن أشرك معه آلهة أخرى مدعاة .

فهو الاحتياط إذن في القول ، والدقة الواعية في التعبير ، الجديران بإبراهيم عليه السلام في مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق. اعلم أنه تعالى لما حكى عنه أنه استثنى رب العالمين ، حكى عنه أيضاً ما وصفه به مما يستحق العبادة لأجله ، وهو أن ربي هذا الذي بيده نفعي وضرّي، وله القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي، ولا ينفع ولا يضرّ. وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على قومه، في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يطيق نفعا ولا ضرّا.

ومن هذه الأفعال التي ذكرها ومتعلقها النفع والضر ، قوله : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }. فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية ، الرفيقة الودود ، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض . ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه، ويشفيه، ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه ، كما أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم ، والمرض مكروه وليس من النعم ، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم ، ونسبة المرض الذي هو نقمة إلى نفسه والشفاء الذي هو نعمة إلى الله جل شأنه لمراعاة حسن الأدب مع الله [72] .

ويختصر الزمخشري ذلك كله بمعنى جميل بقوله : "وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين ، حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرّر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم

---

[72]- راجع ، تفسير الطبري، 364-362/19 ، وتفسير ابن كثير ،145/6، وتفسير الرازي 482/11 ، وتفسير البقاعي 70/6 ، وتفسير الألوسي ، 251-241/14 ، وتفسير ابن عاشور ، 180-173/10 ، وتفسير طنطاوي ،3165-3167 ، وتفسيرالظلال ، 352-351/5 ، وتفسير السعدي ، 592

فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة ، ثم صوّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا ، فعظم شأنه وعدّد نعمته ، من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوّابين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذٍ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا "[73].

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء : 57 – 70].

إن إبراهيم عليه السلام كان هو المَثَل الأول قبل مجيء الإسلام في مقاومة الشرك إذ قاومه بالحجة وبالقوة وبإعلان التوحيد ، فالقوم لما أوهموا أنه يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام ما يعلمون به أنه مجد في إظهار الحق الذي هو التوحيد وذلك بالقول أولاً وبالفعل ثانياً :

أما الطريقة القولية : فهي قوله لأبيه : { ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً } [مريم: 42]. وقوله أيضا لأبيه وقومه : { بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السموات والأرض الذي فطَرَهُنَّ } وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقهما لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبد لأن من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع في الدار الآخرة بالعقاب والثواب .

[73]- الزمخشري : 20/5

وأما الطريقة الفعلية : فهي قوله : { وتالله لأَكِيدَنَّ أصنامكم بَعْدَ أن تُوَلُّواْ مُدْبرينَ } . وقال تعالى في موضع أخر : { فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آَلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ } [الصافات: 83 – 93].

فإن القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل إلى أن أراهم عدم الفائدة في عبادتها ، حيث انتقل عليه السلام من تغيير المنكر بالقول إلى تغييره باليد معلناً عزمه على ذلك ومؤكداً بالقسم ، وقد نفذ إبراهيم ما توعد به الأصنام ، فقد انتهز فرصة ذهاب قومه بعيدا عنها فحطمها ، وقد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة ، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها ، وليحملهم على التفكير فى أن الذى يجب أن يكون معبوداً ، إنما هو الله الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، ثم إن إبراهيم عليه السلام كسرها مع أنه ما ناله منها ألبتة ضرر فكان فعله دالاً على فساد مذهبهم من هذا الوجه .

وسمى تكسيره الأصنام كَيْداً على طريق الاستعارة أو المشاكلة التقديرية لاعتقاد المخاطبين أنهم يزعمون أن الأصنام تدفع عن أنفسها فلا يستطيع أن يمسها بسوء إلا على سبيل الكيد{ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً } وهذا جمع لا يليق إلا بالناس ، جوابه : من حيث اعتقدوا فيها أنها كالناس في أنها تعظم ويتقرب اليها ، ولعل كان فيهم من يظن أنها تضر وتنفع .

وتحولت الآلهة المعبودة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة إلا كبير الأصنام فقد تركه إبراهيم { لعلهم إليه يرجعون } فيسألونه كيف وقعت الواقعة وهو حاضر فلم يدفع عن صغار الآلهة! لعلهم حينئذ يراجعون القضية كلها ، فيرجعون إلى صوابهم ، ويدركون منه ما في عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت ، وليعتبروا ويعلموا أنها إذا لم تدفع عن نفسها ، فهي من أن تدفع عن غيرها من أرادها بسوء أبعد، فيرجعوا عما هم عليه مقيمون من عبادتها إلى توحيد الله، والبراءة من الأوثان ، ولكنهم لم يرجعوا إلى كبيرهم يسألونه ولا إلى أنفسهم يسألونها : إن كانت هذه آلهة فكيف وقع لها ما وقع دون أن تدفع عن أنفسها شيئاً . وهذا كبيرها كيف لم يدفع عنها؟ لم يسألوا أنفسهم هذا السؤال ، لأن الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير ، ولأن التقليد قد غل أفكارهم عن التأمل والتدبر . فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينتقموا على من حطم آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع :{ قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين } . عندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه عبادة هذه التماثيل ، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها!{ قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبرهيم } .

إن القوم لما شاهدوا كسر الأصنام ، وقيل إن فاعله إبراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم : { فَأْتُواْ بِهِ على أَعْيُنِ الناس }أي يحضرون فيبصرون ما يصنع به فيكون ذلك زاجراً لهم عن الإقدام على مثل فعله . أما قوله تعالى : { قَالُواْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هذا } فاعلم أن في الكلام حذفاً، وهو: فأتوا به وقالوا أأنت فعلت ، طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على إيذائه ، فظهر منه ما انقلب الأمر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه ، فقال : { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا } .

وقد سلك عليه السلام في الجواب مسلكاً تعريضياً يؤدي به إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه يحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقي من الكذب ، وقيل إنه عليه السلام لم يقصد بذلك إلا إثبات الفعل لنفسه على الوجه الأبلغ مضمناً فيه الاستهزاء والتضليل ، وأنها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها ولو كان كبيرهم كبير الآلهة لدفع عن حاشيته وحرفائه ، ولذلك قال:{ فاسألوهم إن كانوا ينطقون } تهكماً بهم وتعريضاً بأن ما لا ينطق ولا يعرب عن نفسه غير أهل للآلهية . وشمل ضمير { فاسألوهم } جميع الأصنام ما تحطم منها وما بقي قائماً . والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم من قبل إلا أن إبراهيم أراد أن يقنعهم بأن حدثاً عظيماً مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعلَه بهم .{ فَرَجَعُواْ إلى أَنفُسِهِمْ } فتفكروا وتدبروا وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودا .

فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم ، رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : أنتم الظالمون على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق حيث عبدتم مالا يستطيع الدفاع عن نفسه ، لا من ظلمتموه حين قلتم : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . وكانت بادرة خير أن يستشعروا ما في موقفهم من سخف ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم . وأن تتفتح بصيرتهم لأول مرة فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم ، وذلك الظلم الذي هم فيه سادرون .

ولكن هذا الأثر ، وهذا اللوم لأنفسهم ، لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد ، بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم ، فقد صور القرآن حالهم بعد ذلك فقال : { ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ } . وحقاً لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس ، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس؛ كما يقول التعبير القرآني المصور العجيب. كانت الأولى حركة في النفس للنظر والتدبر . أما الثانية فكانت انقلاباً على الرأس فلا عقل ولا تفكير . وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم . وأية حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون؟! ومن ثم يجابههم بعنف على غير عادته

وهو الصبور الحليم . لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم : { قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون؟! } . وهي قولة يظهر فيها ضيق الصدر ، وغيظ النفس ، والعجب من السخف الذي يتجاوز كل مألوف ، أي : قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا : أتتركون عبادة الله الذي خلقكم ، وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشيء من النفع ، ولا تضركم بشيء من الضر ، ثم يضيف إلى هذا التبكيت لهم ، الضجر منهم ، فيقول : { أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } . و " أف " اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر . وأصله صوت المتضجر من استقذار الشيء . واللام في قوله:{ لَّكُمْ } لبيان المتضجر لأجله .أي : سحقا وقبحا لكم ، ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين بها عبادة الله عن جهل وسخف وطغيان . { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ما أنتم فيه من ضلال واضح ، فترجعون عنه إلى عبادة الواحد القهار .

وعندما وصل إبراهيم في توبيخهم وتبكيتهم إلى هذا الحد أخذتهم العزة بالإثم ، شأنهم في ذلك شأن كل طاغية جهول ، يلجأ إلى القوة الغاشمة بعد أن تبطل حجته ، ويعوزه الدليل ، فقالوا فيما بينهم: { حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ } . فيا لها من آلهة ينصرها عبادها ، وهي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً؛ ولا تحاول لها ولا لعبادها نصراً! {قالوا حرِّقوه } ولكن كلمة أخرى قد قيلت فأبطلت كل قول ، وأحبطت كل كيد . ذلك أنها الكلمة العليا التي لا ترد:{ قلنا : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم }. و{ كوني } هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس : { إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون } .[يس: 82]. فلا نسأل : كيف لم تحرق النار إبراهيم ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية؟ فالذي قال للنار : كوني حارقة . هو الذي قال لها : كوني برداً وسلاماً . وهي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول . مألوفاً للبشر أو غير مألوف . وإن هي إلا رمز للكلمة التي تبطل كل قول ، وتحبط كل كيد ، لأنها الكلمة العليا التي لا ترد! { وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين } .

وتحولت النار إلى برد وسلام على إبراهيم ، وأراد الكافرون به كيدا ، أى إحراقا بالنار " فجعلناهم " بإرادتنا وقدرتنا " الأخسرين " حيث لم يصلوا إلى ما يريدون ، ولم يحققوا النصر لآلهتهم ، بل رد الله تعالى كيدهم فى نحورهم ، فالكيد الذي أرادوه به إحراقه بالنار نصراً منهم لآلهتهم في زعمهم ، وجعله تعالى إياهم الأخسرين . أي الذين هم أكثر خسراناً لبطلان كيدهم

وسلامته من نارهم . وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضاً في سورة « الصافات » في قوله : { فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأسفلين } [الصافات: 98]. وكونهم الأسفلين واضح لعلوه عليهم وسلامته من شرهم . وكونهم الأخسرين لأنهم خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

وقال البخاري في صحيحه : عن ابن عباس « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النّار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا : { الذين قَالَ لَهُمُ الناس إنّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } [آل عمران: 173]. وعن ابن عباس قال : كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: « حسبي الله ونعم الوكيل »[74] وقيل: "أتى جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ، فقال له : ألك حاجة؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم!! فقال له جبريل: فلم لا تسأله؟ فقال إبراهيم عليه السلام: حسبي من سؤالي علمه بحالي ".[75]. والنتيجة أن الله قد أنجى إبراهيم من الكيد الذي أريد به ، وباء الكائدون له بخسارة ما بعدها خسارة { فجعلناهم الأخسرين } هكذا على وجه الإطلاق دون تحديد!

وفي هذه القصة بيان واقعي لحقيقة الضر والنفع بأنه بيد الله وحده وليس لأحد من البشر ، بل كلهم خاضعين لقهره وسلطانه ، فلا الألهة التي يعبدونها ويعظمونها استطاعت أن تدفع عن نفسها الضر وهي عن دفعه عن غيرها أعجز ، ولا حتى عابديها استطاعوا أن يمنعوا عنها الضر عندما حطمها إبراهيم عليه السلام ، وحتى أنهم عجزوا عن نصرة ألهتهم حينما أرادوا الأنتقام ممن حطمها ، بينما نجد أن الله نصر نبيه إبراهيم من كيدهم وأنجاه من النار المحرقة لتكون عليه بردا وسلاما بأمره وقدرته تعالى ، وفي هذا عبرة ودرس إيماني في العقيدة من الوجهة العملية الواقعية ، تجعل من المسلم طاقة هائلة من الشجاعة والقوة والثبات على الحق ، بحيث لا يخشى في الله لومة لائم [76].

*** الشاهد الرابع :**

قال تعالى: { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا

74- البخاري برقم ، 4197 ، 4198

75- القرطبي 303/11

76- راجع تفسير الطبري 459/18- 468 ، وتفسير الرازي 11/ 29 - 40 ، وتفسير الظلال 161/5-164 ، وتفسير الألوسي 411/12- 426 ، وتفسير ابن عاشور 174/9-183 ، الزمخشري ، 237/4- 244 وتفسير الشنقيطي، 2910- 2914

تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) } [الأنعام : 80 – 83]

لما أقام إبراهيم الدليل على بطلان عبادة غير الله تعالى وتبرأ من الشرك والمشركين حاجه قومه فى ذلك فقال منكراً عليهم ذلك : { أتحاجوني في الله وقد هدان } أي كيف يصح منكم جدال لي في توحيد الله وعبادته وترك عبادة من سواه من الآلهة المدعاة وهي لم تخلق شيئاً ولم تنفع ولم تضر ، ومع هذا فقد هدانى إلى الدين الحق وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ وتيئيسهم من رجوعه إلى معتقداتهم ، ولا شك أنهم لما تبرأ من آلهتم خوفوه بها وذكروا له أنها قد تصيبه بمكروه ونظيره ما حكاه الله تعالى في قصة قوم هود : {إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ } [هود: 54] وأجاب عن حجتهم وهي : أنهم خوفوه بالأصنام بقوله : { وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ } لأن الخوف إنما يحصل ممن يقدر على النفع والضر ، والأصنام جمادات لا تقدر ، ولا قدرة لها على النفع والضر ، فكيف يحصل الخوف منها؟

وكيف يخاف من وجد الله؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف؟ وكل قوة – غير قوة الله – هزيلة وكل سلطان – غير سلطان الله – لا يُخاف؟!

ولكن إبراهيم في عمق إيمانه ، واستسلام وجدانه ، لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكناً إلى مشيئة الله الطليقة ، وإلى علم الله الشامل :{ إلا أن يشاء ربي شيئاً . وسع ربي كل شيء علماً } . أي إلا وقت مشيئته ربي بأن يلحقني شيئاً من الضرر بذنب عملته فالأمر إليه ، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التي لا تضرّ ولا تنفع . والمعنى : على نفي حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال ، وإثبات الصرر والنفع لله سبحانه ، وصدورهما حسب مشيئته ، وفي هذا الاستدراك زيادة نكاية لقومه إذ كان لا يخاف آلهتهم في حين أنّه يخشى ربّه المستحقّ للخشية ، فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته؛ ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئا ، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته . ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاءه الله ، ووسعه علمه الذي يسع كل شيء .

وقوله { أَفلاَ تَتَذَكَّرُونَ } أي تعرضون ايها الغافلون عن التأمل والتذكر بعد أن أوضحت لكم بما لا يقبل مجالا للشك أن الله وحده هو المستحق للعبادة وأن هذه المعبودات التي سواه لا تملك لنفسها

نفعا ولا ضرا ، فالاستفهام للإنكار والتوبيخ لعدم تذكرهم مع وضوح الدلائل ، وفى إيراد التذكر دون التفكر ونحوه إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركوز في العقول ولا يتوقف إلى على التذكير ، وهو تذكر صفات آلهتهم المنافية لمقام الإلهية ، وفي صفات الإله الحقّ التي دلّت عليها مخلوقاته .

ثم حكى القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه بعد أن صارح قومه بأنه لا يخشى آلهتهم ، أخذ فى التهكم بهم والتعجب من شأنهم لأنهم يخوفونه مما لا يخيف فقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ . أي : كيف ساغ لكم أن تظنوا أني أخاف معبوداتكم الباطلة وهى مأمونة الخوف لأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنتم لا تخافون إشراككم بالله خالقكم دون أن يكون معكم على هذا الإشراك حجة أو برهان من العقل أو النقل .

إن القوم قالوا له : أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لأجل أنك شتمتهم . فقال لهم : أفلا تخافون أنتم حيث أقدمتم على الشرك بالله وسويتم في العبادة بين خالق العالم ومدبره وبين الخشب المنحوت والصنم المعمول؟

والتقدير : وكيف أخاف الأصنام التي لا قدرة لها على النفع والضر ، وأنتم لا تخافون من الشرك الذي هو أعظم الذنوب .

إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود . إنه إن كان أحد قمينا بالخوف فليس هو إبراهيم وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق ، وكيف يخاف آلهة عاجزة كائنة ما كانت هذه الآلهة ، والتي تتبدى أحيانا في صورة جبارين في الأرض بطاشين؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون! كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء؟ وأي الفريقين أحق بالأمن؟ الذي يؤمن به ويكفر بالشركاء؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة؟ أي الفريقين أحق بالأمن ، لو كان لهم شيء من العلم والفهم؟!

فالاستفهام للإنكار التعجبي من إنكارهم عليه الأمن في موضع الأمن ، وعدم إنكارهم على أنفسهم الأمن في موضع أعظم المخوفات وأهوالها وهو إشراكهم بالله ، فأي الفريقين أحق وأولى بالأمن من لحوق الضرر به فريق الموحدين أم فريق المشركين؟ . إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني به وأظهروه بالدلائل والحجج .

فجواب الشرط محذوف تقديره أخبروني بذلك ، وهذا لون من إلجائهم إلى الاعتراف بالحق إن كانوا ممن يعقل أو يسمع ، وحث لهم على الإجابة . واسم التفضيل على غير بابه ، فالمراد أينا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حقيق بالأمن ، ولكنه عبر باسم التفضيل ناطقا فى استنزالهم عن منتهى الباطل وهو ادعاؤهم أنهم هم الحقيقون بالأمن وأنه الحقيق بالخوف إلى الوسط النظرى بين الأمرين؛ وهو أى الفريقين أحق ، واحترازا عن تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله كله " .

ونكتة عدوله عن قوله { فأينا أحق بالأمن } إلى قوله { فأى الفريقين } هى بيان أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك من حيث إن أحد الفريقين موحد والآخر مشرك ، لا خاصة به وبهم ، فهى متضمنة لعلة الأمن . وقيل إن نكتته الاحتراز عن تزكية النفس ، ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله : { الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُون } وهذا من تمام كلام إبراهيم في المحاجة ، والمعنى : أن الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين : أولهما : الإيمان وهو كمال القوة النظرية . وثانيهما : { وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ } وهو كمال القوة العملية ، أى : الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك كما يفعله فريق المشركين حيث إنهم عبدوا الأصنام وزعموا أنهم ما عبدوها إلا ليتقربوا بها إلى الله زلفى ، أولئك المؤمنون الصادقون لهم الأمن دون غيرهم لأنهم مهتدون إلى الحق وغيرهم في ضلال مبين ".

*** الشاهد الخامس :**

قال تعالى : { وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [العنكبوت: 22].

والمعجز حقيقته : هو الذي يجعل غيره عاجزاً عن فعل ما، وهو هنا مجاز في الغلبة والانفلات من المكنة ، والمعنى ماأنتم بمُعْجزِينَ ربكم أي لا تفوتونه إن هربتم من إجراء حُكمه وقَضائه عليكم وما أنتم بغالبين ولا فائتين بالتَّواري في الأرض أو الهبوطِ في مَهَاويها ، أي لا تجدون موئلاً ينجيكم من قدرتنا عليكم في مكان من الأرض سهلها وجبلها ، وبدْوها وحضرها كقوله تعالى : { وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ } [النساء: 78] . يعني : لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع في

[77]- راجع تفسير الطبري 18/459- 468 ، وتفسير الرازي 11/ 29 - 40 ، وتفسير الظلال 5/161-164 ، وتفسير الألوسي 12/411- 426 ، وتفسير ابن عاشور 9/174-183 ، وتفسيرالزمخشري ، 4/237- 244 وتفسير الشنقيطي، 2910- 2914 .

الإعجاز بالهرب ، ولا بالتَّحصُّن في السَّماء التي هي أفسحُ منها لو استطعتُم الرُّقيَّ فيها كما في قولِه تعالى : { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ } [الرحمن: 33]. أي : فليس لكم من قوة في هذا الوجود تمتنعون بها من الله . لا من قوتكم في الأرض ، ولا من قوة ما تعبدونه أحياناً من الملائكة والجن وتحسبون له قوة في السماء .

وأين من دون الله الولي والنصير؟ أين الولي والنصير من الناس؟ أو من الملائكة والجن؟ وكلهم عباد من خلق الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فوق أن يملكوا لسواهم شيئا؟ وعطف { ولا في السماء } على { في الأرض } احتراس وتأييس من الطمع في النجاة وإن كانوا لا مطمع لهم في الالتحاق بالسماء . وأما بالثبات فكذلك لأن الإعجاز إما أن يكون بالاستناد إلى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال ، فإنكم مالكم من دون الله ولي يشفع ولا نصير يدفع فلا إعجاز لا بالهروب ولا بالثبات فلهذا قال : { وما لكم من دون الله من ولي } يشفع { ولا نصير } يدفع .

ولما اخبرهم أنهم مقدور عليهم ، وكان ربما بقي احتمال أن غيرهم ينصرهم ، صرح بنفيه فقال : { وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ } يتولاكم، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم، { وَلَا نَصِيرٍ } ينصركم، فيدفع عنكم المكاره.

ولما آيسهم من الانفلات بأنفسهم في جميع الأمكنة أعقبه بتأييسهم من الانفلات من الوعيد بسعي غيرهم لهم من أولياء يتوسطون في دفع العذاب عنهم بنحو السعاية أو الشفاعة ، أو من نصراء يدافعون عنهم بالمغالبة والقوة . فلا يحسب المكذبون، المتجرءون على المعاصي، أنه مغفول عنهم، أو أنهم معجزون الله في الأرض أو في السماء، فلا يغتروا بقدرتهم وما زينت لهم أنفسهم وخدعتهم من النجاة من أمر الله وقدره وعذابه ، فليسوا بمعجزين الله في جميع أقطار العالم. وليس لهم من ولي يتولاهم ولا نصير ينصرهم من الله تعالى [78].

[78]- ،اجع تفسير الرازي : 147/12 ، وتفسير ابو السعود ، 254/5 ، وتفسير السعدى ، 628 ، وأيسر التفاسير للجزائري 3/ 198 ، وتفسير الظلال ، 459/5 ، وتفسير ابن عاشور 481/10 ، وتفسير الزمخشري 198/5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الشاهد السادس :

قال تعالى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى } [النجم: 43].

وهذا كما ـــ ذكرنا سابقا ـــ مما أوحاه الله تعالى في صحف إبراهيم حيث أشار في قوله تعالى : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } [النجم: 36-37]. فإن كانت مما شملته صحف إبراهيم كانت حكاية لقوله : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء: 80]. فالآية الكريمة انتقال من وجوب الاعتبار بأحوال الآخرة إلى وجوب الاعتبار بأحوال الإنسان ، وبما يحيط به من مؤثرات تارة تضحكه وتارة تبكيه ، وكذلك الاعتبار بانفراد الله بالقدرة على إيجاد أسباب المسرة والحزن ، حيث أنشأ للإنسان دواعي الضحك ودواعي البكاء وجعله - وفق أسرار معقدة فيه - يضحك لهذا ويبكي لهذا حسب المؤثرات الواقعة عليه ، فهو سبحانه الذى أوجد فى هذا الكون ما يحيط بالإنسان من مؤثرات ومن مشاعر مختلفة : تارة يضحك وتارة يبكى ، وما أكثر هذه المؤثرات والأحوال والاعتبارات والدوافع في حياة الإنسان .

فقد أودع سبحانه في هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء ، وهما سر من أسرار التكوين البشري ، وهما حالتان لا تخلو من إحداهما نفس الإنسان ، لأنه إذا لم يكن حزينا مغموما كان مسروراً لأن الله خلق السرور والانشراح ملازماً للإنسان بسبب سلامة مزاجه وإدراكه لأنه إذا كان سالماً كان نشيط الأعصاب وذلك النشاط تنشأ عنه المسرة في الجملة وإن كانت متفاوتة في الضعف والقوة ، فذكر الضحك والبكاء يفيد الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن ويذكر بالصانع الحكيم ، ويشير إلى أن الله هو المتصرف في الإنسان لأنه خلق أسباب فرحه ونكده وألهمه إلى اجتلاب ذلك بما في مقدوره وجعل حدا عظيما من ذلك خارجا عن مقدور الإنسان وذلك لا يمتري فيه أحد إذا تأمل وفيه ما يرشد إلى الإقبال على طاعة الله والتضرع إليه ليقدّر للناس أسباب الفرح ، ويدفع عنهم أسباب الحزن وإنما جرى ذكر هذا في هذا المقام لمناسبة أن الجزاء الأوفى لسعي الناس : بعضه سارٌّ لفريق وبعضه محزن لفريق آخر . وأفاد ضمير الفصل قصراً لصفة خلق أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى لإبطال الشريك في التصرف فتبطل الشركة في الإلهية ، وهو قصر إفراد لأن المقصود نفي تصرف غير الله تعالى وإن كان هذا القصر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالنظر إلى نفس الأمر قصراً حقيقياً لإبطال اعتقاد أن الدهر متصرف . وإسناد الإضحاك والإبكاء إلى الله تعالى لأنه خالق قوتي الضحك والبكاء في الإنسان ، وذلك خلق عجيب ولأنه خالق طبائع الموجودات التي تجلب أسباب الضحك والبكاء من سرور وحزن . وأسند سبحانه الفعلين إليه؛ لأنه هو خالقهما ، وهو الموجد لأسبابهما ، ولم يذكر مفعول { أضحك وأبكى } لأنهما هما المقصودان بالذات ، لدلالتهما على كمال قدرته تعالى ، فهو وحده الذي أوجد في الإنسان الضحك والبكاء ، فالفعلان منزلان منزلة الفعل اللازم .

ولما كان هذا الغرض من إثبات انفراد الله تعالى بالتصرف في الإنسان بما يجده الناس في أحوال أنفسهم من خروج أسباب الضحك والبكاء عن قدرتهم ، تعين تفرده بالألوهية واستحقاقه تعالى للعبودية وحده ، وفي الاعتبار بخلق الشيء وضده إشارة إلى دقائق حكمة الله تعالى ، وتقديم الضحك على البكاء لأن فيه امتنانا بزيادة التنبيه على قدرة الله ، مما يستوجب الحمد والثناء والشكر له تعالى [79].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[79]- راجع : تفسير ابن عاشور 203/14 ، وتفسير الظلال 65/7 ، وتفسير طنطاوي 4015 ، وتفسير السعدي 821 ، وتفسير الالوسي 26/20 ، وتفسير البغوي 418/7

- المبحث الرابع -

دليل الإحيـــاء والإمــاتة

إن حب الحياة والحرص على البقاء غريزة أصيلة في الإنسان ، لذا فإنه يخاف من كل ما يهدد حياته ، ولكنه حينما يعتقد أن حياته مرهونة بيد أحد من الخلق أو البشر فإنه ينشأ من فساد هذا الاعتقاد انحراف في وجهة الشعور بالخوف مما لا يملك حقيقة أمر أجله ، يصل إلى حد الجبن والهوان والذل ، يتولد عنه سلوك سلبي أمام مواقف الحياة المختلفة من العجز والقعود والإنهزامية أمام قوى الطغيان ، وانعدام إرادة التغير والإصلاح للفساد ، فحينما يستخف الطغاة والمستبدين بالناس لفرط جهلهم بحقائق الوجود وفساد معتقدهم لحقائق الإيمان ، فإنهم يستلبون عقولهم ويستعبدون رقابهم بالتعريض والتلويح بالإيذاء والقتل ، وإيقاعه بمن لا يسترق ولا يخنع لهم .

وفي القرآن شواهد حية وواقعية لمثل هذه المواقف ، فهذا النمرود يأمر بإلقاء إبراهيم في النار لأنه أعلن توحيد العبودية لله تعالى وتبراء من الشرك وكل مظاهره وصوره الفاسدة والقائمة في مجتمعه فقال : {" حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ } [الأنبياء: 68]. وهذا فرعون يقول : { وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ }[غافر : 26] وهؤلاء زعماء قريش يتأمرون على قتل النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [الأنفال: 30]. وكذلك في قصة قتل سحرة فرعون بعدما أعلنوا إيمانهم وكفرهم بفرعون في قوله تعالى : { فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } [طه: 70-71].

وكذلك في قصة أصحاب الأخدود ، قال تعالى : { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [البروج: 4-8].

إن هذا السلاح لا يصلح إلا لمن لديهم القابلية للإستعباد بسبب فساد معتقدهم بينما أصحاب العقائد السليمة فإنهم لم يذلوا ولم يخنعوا للباطل وأهله لأنهم يعلمون أن أمر الحياة والموت هو بيد الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وحده وليس لإحد من البشر أي سلطان فيه، وهذه حقيقة إيمانية ثابتة لا ريب فيها ، وقد جاءت النصوص القرآنية قاطعة وحاسمة في تقريرها في كثير من الآيات:

- قال تعالى : { وَمَا كانَ لِنَفسٍ أنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلا } [آل عمران: 145].

- وقال تعالى : { وَلِكلِّ أمَّةٍ أجَلٌ فإِذا جَاء أجَلهُمْ لا يَسْتأخِرُون سَاعَة وَلا يَسْتَقدِمُون } [الأعراف: 34].

إن استقرار هذه الحقيقة في ضمير المسلم تحرره من العبودية لغير الله وليس مجرد التلفظ بكلمة التوحيد ، لأن جميع المسلمين يتلفظون بها ولكن لم يتحرر منهم إلا القليل القليل ، فالمسلم الذي يعتقد أن الموت بيد الله وحده فقد تحرر من عقدة الخوف على أجله من أي أحد من البشر مهما بلغ سلطانه وبلغت قوته ، لأنه لا يخاف أحدا إلا الله ، فلا يجبن عند لقاء الأعداء ، ولا يخضع لقوى الفساد ، ولا يذل لأحد سوى الله ، وبهذا المعتقد الإيماني السليم يكمن سر نهضة الأمة الإسلامية وعزها وقوتها ، لأن هذا المعتقد حول الأمة إلى طاقة هائلة وقوة دافعة لتقديم موكب الشهداء في سبيل الله لرفع رآية الإسلام لتسود حضارة الحق والعدل قال تعالى : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا }[الأحزاب: 23].

وحينما خبت معاني العقيدة في نفوسهم ومنها هذا المعتقد خبت حضارتهم وتفرقت كلمتهم وتسلط عليهم أعداؤهم حتى ذلوا رقابهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يوشك ان تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الآكلة على قصعتها قال قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن قال قلنا وما الوهن قال حب الحياة وكراهية الموت "[80] فغياب هذا المعتقد يؤدي إلى الانحطاط والذل والهوان ، قال تعالى : { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [آل عمران: 168].

فقد كاد ضعاف الإيمان بسبب فساد معتقدهم لحقيقة الموت وسببه أن يرجفوا بالمسلمين وفي عصر النبوة ، لأن هذه النفوس الضعيفة لم تعتقد حقيقة أن الموت بيد الله وحده ، وإن ساعة الأجل إذا جاءت فلا مفر منها ولا مهرب ، قال تعالى : { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } [النساء: 78].

80- مسند أحمد بن حنبل حديث رقم (22450) تعليق شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن

هكذا يصحح القرآن المفهوم عن حقيقة الموت وأسبابه الظاهرة والمضمرة ورد الأمر كله إلى قدرته تعالى وتدبيره ومشيئته ، ونفي كل ظن يوهم بأن أحدا من البشر يملك القدرة على أن يوهب الحياة أو ينهي الأجل ، وبما أن الله هو وحده من يملك أمر الحياة والموت للناس جميعا فهو وحده من يستحق أن يرجى ويخشى ويعبد دون سواه ، قال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [التوبة: 116]. وقد استدل القرآن على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة بقدرته على الإحياء والإماتة ومن ذلك :

قال تعالى : {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) } [البقرة: 28].

وقال تعالى: { أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ } [يونس: 31-32].

وقال تعالى: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الروم: 40].

ونجد أن قضية الحياة والموت ترد في القرآن بصيغة الإستفهام التقريري لأن المشركين كانوا يسندون ذلك لله تعالى وحده ، فطالبهم بمقتضى هذا الإسناد والإقرار بما يلازمه من عبادة الله وحده[81].

وقد استخدم إبراهيم عليه السلام دليل قدرة الله في الإحياء والإماتة باستحقاقه للألوهية من العبادة والطاعة والخضوع لأمره والتوجه إليه بالخشية والرجاء والتوكل وسائر أنواع العبادة . ومن هذه الاستدلالات القرآنية الواردة في قصة إبراهيم عليه السلام نذكر منها :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة: 258].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[81]- انظر : د. محمد ملكاوي ، عقيدة التوحيد ص 285

إن قضية التوحيد هي أساس دعوة إبراهيم عليه السلام والتي واجه بها الشرك وكل مظاهر الجاهلية في أسرته ومجتمعه بالمجادلة والمنافحة حتى تحولت قضيته إلى قضية سياسية ـــ كما ينبغي لها أن تكون ـــ حيث وصلت أصداؤها إلى مسامع ملك زمانه ، فاستدعاه عندما علم خطورة دعوته على سلطانه ومملكته ، لأن منهج إبراهيم في التعامل مع عقيدة التوحيد لا يجعل منها مجرد ناحية روحية ولا قضية شخصية ولا عزلة اجتماعية ولا فصل بين دين ودنيا ـــ ما لله وما لقيصر لقيصر ـــ إنما هي ثورة على الجهل والتخلف ، وثورة على الظلم والإنحطاط ، وثورة على الأوضاع الفاسدة والقيم الهابطة ، وهي بذلك كله ثورة على الشرك والكفر بكل مظاهره وصوره ، من خلال عقيدة التوحيد التي هي في حقيقتها تحرير البشر من كل عبودية لغير الله ، وتحريرهم من كل أنواع الإستبداد ومظاهر السلبية ، لتنتقل بهم إلى أعلى مراتب الإنسانية واقصى ما قدر لهم من الكمال ، وإلى سعادة الدنيا والآخرة ، وذلك حينما ينعمون في رحاب الله ومنهجه القويم .

وقد أسس إبراهيم عليه السلام حضارة التوحيد والإيمان وجعل لها قبلة تتجه الأنظار والقلوب إليها وتسير الأقدام نحوها ، فإذا هم أمام معالم قد تجسدت فيها كل معاني التوحيد والإيمان ، وهي حضارة تقوم على منطق العقل السليم والفطرة السليمة ، وما قصة إبراهيم وملك زمانه إلا واحدة من تلك المعاني العظيمة التي قدمها عليه السلام لحقيقة التوحيد وتأسيس بنيانها وفق أسس فكرية ثابتة تدحض منطق الكفر وتهدم أركانه . وذلك من خلال حقيقة من حقائق الإيمان وهي حقيقة الحياة والموت والتي تؤلف جانبا من جوانب التصور الإسلامي ؛ وهي تمثل جانبا من جوانب الجهد الطويل المتجلي في القرآن الكريم لإنشاء التصور الصحيح لحقائق هذا الوجود في ضمير المسلم وفي إدراكه . الأمر الذي لا بد منه للإقبال على الحياة بعد ذلك إقبالا بصيرا ، منبثقا من الرؤية الصحيحة الواضحة ، وقائما على اليقين الثابت المطمئن .

فنظام الحياة ومنهج السلوك وقواعد الأخلاق والآداب ، ليست بمعزل عن التصور الاعتقادي؛ بل هي قائمة عليه ، مستمدة منه . وما يمكن أن تثبت وتستقيم ويكون لها ميزان مستقر إلا أن ترتبط بالعقيدة ، وبالتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطاته بخالقه الذي وهبه الوجود . ومن ثم هذا التركيز القوي على إيضاح قواعد التصور الاعتقادي الذي استغرق القرآن المكي كله؛ وما يزال يطالع الناس في القرآن المدني بمناسبة كل تشريع وكل توجيه في شؤون الحياة جميعا .

والآية تحكي حواراً بين إبراهيم عليه السلام وملك زمانه يجادله في الله . وإن هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكراً لوجود الله أصلاً إنما كان منكراً لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده ، كما كان بعض المنحرفين في الجاهلية يعترفون بوجود الله ولكنهم يجعلون له أندادا ينسبون إليها فاعلية وعملا في حياتهم ! وكذلك كان منكرا أن الحاكمية لله وحده ، فلا حكم إلا حكمه في شؤون الأرض وشريعة المجتمع .

إن هذا الملك المنكر المتعنت إنما ينكر ويتعنت للسبب الذي كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر. هذا السبب هو { أن آتاه الله الملك } . وجعل في يده السلطان! لقد كان ينبغي أن يشكر ويعترف ، لولا أن الملك يُطغي ويبطر من لا يقدرون نعمة الله ، ولا يدركون مصدر الإنعام . ومن ثم يضعون الكفر في موضع الشكر؛ ويضلون بالسبب الذي كان ينبغي أن يكونوا به مهتدين ! فهم حاكمون لأن الله حكمهم ، وهو لم يخولهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع من عندهم.

فهم كالناس عبيد لله ، يتلقون مثلهم الشريعة من الله ، ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا اصلاء! ومن ثم يعجب الله من امره وهو يعرضه على نبيه :{ الم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ان اتاه الله الملك؟ } .الم تر؟ إنه تعبير التشنيع والتفظيع؛ وإن الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظي وبنائه المعنوي سواء . فالفعلة منكرة حقا : ان ياتي الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء! وان يدعي عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب ، وان يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون ان يستمد قانونه من الله .

وقوله : { إذ قالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتَ } حكاية لما قاله إبراهيم عليه السلام لذلك الملك في مقام التدليل على وحدانية الله وأنه سبحانه هو المستحق للعبادة أي قال له : أي ربي هو الذي يحيى الناس ويميتهم كما ترى ذلك مشاهدا في كثير من الأوقات ، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع وأن تقلع عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال . {رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ } إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجيء ذكرها كثيرا في القرآن الكريم كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء في معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية ، وآثارها الدالة على وحدة الخالق ، لينتهي منها إلى ضرورة وحدة المعبود ، الذي يدين له العباد؛ بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، والطاعة لربوبيته وحده ، والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية ، والتلقي منه وحده في منهج الحياة كله ، والدينونة لشريعته كذلك وحدها . وهذه الدلائل لا تذكر في القرآن الكريم

في صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية! إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر في قضايا لاهوتية ونظريات فلسفية . إنما يهدف إلى تقويم تصور البشر – بإعطائهم العقيدة الصحيحة – لينتهي إلى تقويم حياة البشر الباطنة والظاهرة ، وذلك لا يكون أبدا إلا بردهم إلى عبادة الله وحده وإخراجهم من عبادة العباد ، وإلا أن تكون الدينونة في الحياة الدنيا وفي شئون الحياة اليومية لله وحده ، وإلا أن يخرج الناس من سلطان المتسلطين الذين يدعون حق الألوهية ، فيزاولون الحاكمية في حياة البشر ، ويصبحون آلهة زائفة وأربابا كثيرة؛ فتفسد الحياة ، حين يستعبد الناس فيها لغير الله!

وفي هذا القول الذي حكاه إبراهيم عليه السلام أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة ، وهو دليل في غاية الصحة ، وذلك لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بواسطة أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد ، والإحياء والإماتة كذلك ، لأن الخلق عاجزون عنهما ، وقدم ذكر الحياة على الموت هنا . لأن من شأن الدليل أن يكون في غاية الوضوح والقوة ، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر ، واطلاع الإنسان عليها أتم فلا جرم وجب تقديم الحياة ها هنا في الذكر . وعبر بالمضارع في قوله : { الذي يُحيِي ويُميتُ } لإفادة معنى التجدد والحدوث الذي يرى ويحس بين وقت وآخر ، فالإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان في كل لحظة ، المعروضتان لحس الإنسان وعقله . وهما السر الذي يحير ، والذي يلجيء الإدراك البشري الجاء إلى مصدر آخر غير بشري . وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق . ولا بد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذي يعجز عنه كل الأحياء .

ومن ثم عرّف إبراهيم عليه السلام ربه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد ، ولا يمكن أن يزعمها أحد ، وقال وهذا الملك يسأله عمن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره . قال:{ ربي الذي يحيي ويميت } فهو من ثم الذي يحكم ويشرع .وما كان إبراهيم عليه السلام ليعني من الإحياء والإماتة إلا إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء . فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه .ولكن الذي حاج إبراهيم في ربه رأى في كونه حاكما لقومه وقادرا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهرا من مظاهر الربوبية . فقال لإبراهيم : أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف في شأنهم ، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له ، وتسلم بحاكميته:{ قال: أنا أحيي وأميت } ! أي قال ذلك الطاغية : إذا كنت يا إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذي يحيي ويميت فأنا أعارضك في ذلك لأني أنا أيضا أحيي وأميت ، وما دام

الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية ، إذ زعم أنه يعمد إلى من حكم عليه بالموت فيعفو عنه ، وإلى بريء فيقتله ، كذا نقلوه . ويجوز أن يكون مراده أنّ الإحياء والإماتة من فعله هوَ لأنّ أمرهما خفي لا يقوم عليه برهان محسوس . وواقع الأمر أن البشر وإن صدر منهم الإحياء والإماتة بواسطة الاستعانة بالأسباب التي قدرها الله بين عباده إلا أن هذه الأسباب ليست واقعة بقدرتهم ، لأنه لا قدرة للبشر على خرق الأسباب وهي مفروضة عليهم من الله قسراً ، فثبت أن الإحياء والإماتة الصادرين عن البشر ليست على ذلك الوجه ، وأنه لا يصلح نقضاً عليه ، فالإحياء والإماتة وإن حصلا بواسطة الأسباب إلا أن الفاعل المدبر لتلك الأسباب هو الله تعالى ، فكان الإحياء والإماتة من الله تعالى .

فهو لفرط جهله ومكابرته لم يفرق بين السبب والمسبب ، صحيح أنه قد يأمر بإعدام وقتل شخص فيموت ، ولكن من هو المسبب والمريد والمقدر في ذلك ؟ ومن الذي أماته في الحقيقة ؟ إنه الله رب العالمين . ولقد كان في استطاعة إبراهيم عليه السلام أن يبطل قوله ، بأن يبين له بأن ما يدعيه ليس من الأحياء والإماتة المقصودين بالاحتجاج، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت ، ولكن إبراهيم عليه السلام لم يرد أن يسترسل في جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة . حقيقة منح الحياة وسلبها . هذا السر الذي لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئا . فعندما أنكر هذه السنة الكونية الخفية ، قرره بسنة أخرى ظاهرة مرئية بطريقة التحدي ، وذلك عندما أنكر وتعنت وجادل في الله ، بل كابر وادعى أفعال الربوبية ملزما نفسه بإثبات ما لا قدرة عليه ظنا منه أن ذلك يعفيه من مقتضى الإقرار بربوبية الله ، حينها طالبه إبراهيم بموجب دعواه الإلهية بخرق الأسباب وإثبات القدرة على التحكم بنظام الوجود وتغيير سنة الله في الكون ؛ ليريه أن الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض ، إنما هو مصرف هذا الكون كله .

ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم . فإن من تأمل موقع الحجاج وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد فقد أحيا هذا وأمات هذا فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة ، فإن كان صادقا فليتصرف في الشمس تصرفا تصح به دعواه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو ، ولما انبثق النبت والشجر ، من الحب والنوى . إنه كون مقدر بحساب دقيق . ومقدر فيه حساب الحياة ، ودرجة هذه الحياة ، ونوع هذه الحياة . إن معجزة انبثاق الحياة من الموات ولو على مستوى حبة واحدة من النبات كحبة القمح مثلا يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون لتسخر أجرامه وظواهره في إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة وهواء. والناس يسمعون كلمة " الحياة " فلا يتبادر إلى أذهانهم إلى أن أقل نوع من أنواع الحياة في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات الآلاف من الموافقات المتواكبة المتناسقة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود ؛ ولم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد .

ويكفي ما ذكرته الآيات من تسخير الأجرام والظواهر ليدرك الإنسان كيف هو مكفول محمول بيد الله ، قال تعالى : { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ } [إبراهيم: 32-33]. والشمس والقمر لا يستخدمهما الإنسان مباشرة ، ولكنه ينتفع بآثارهما ، ويستمد منهما مواد الحياة وطاقاتها . فهما مسخران بالناموس الكوني ليصدر عنهما ما يستخدمه هذا الإنسان في حياته ومعاشه بل في تركيب خلاياه وتجديدها .

وعليه فإن الذي بيده أمر الحياة والموت هو الذي بيده أمر حركة الشمس والناموس الكوني كله ، والذي يقدر على الإحياء والإماتة فلا بد أن يكون قادرا على أن يأتي بالشمس من المغرب . فهذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما ، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة لإيجاد الحياة واستمرارها . وإذا عرفت هذا فقوله { إنّ الله يَأْتِ بالشمس مِنَ المشرق } ليس دليلاً آخر ، بل تمام الدليل الأول ، فهو حينما أستدل عليه السلام بقدرة الله على الإحياء والإماتة ، لم يعدل عنه إلى دليل أوضح منه كما ظن البعض ، وإنما جعل الدليل الثاني مكملا لمعنى الدليل الأول ومبينا ومقررا له ، لتضمن الدليلين على قدرة الله في أفعاله التي تفرد بها ، والتي استدل بهما على إبطال ألوهية غير الله تعالى .

ثم تأمل ما في هذه المناظرة من حسن الاستدلال بأفعال الرب المشهودة المحسوسة التي تستلزم وجوده وكمال قدرته ومشيئته وعلمه ووحدانيته من الإحياء والإماتة المشهودين الذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده وإتيانه تعالى بالشمس من المشرق لا يقدر أحد سواه على ذلك وهذا برهان لا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقبل المعارضة بوجه ، وإنما لبّس عدو الله وأوهم الحاضرين أنه قادر من الإحياء والإماتة على ما هو مماثل لمقدور الرب تعالى فقال له إبراهيم فان كان الأمر كما زعمت فأرني قدرتك على الإتيان بالشمس من المغرب لتكون مماثله لقدرة الله على الإتيان بها من المشرق فأين الانتقال في هذا الاستدلال والمناظرة بل هذا من أحسن ما يكون من المناظرة فكان الدليل الثاني مكمل لمعنى الدليل الأول لتضمن الدليلين أفعال الرب الدالة عليه وعلى وحدانيته وانفراده بالإلهية . { فبهت الذي كفر } . فالتحدي قائم ، والأمر ظاهر ، ولا سبيل إلى سوء الفهم ، أو الجدال والمراء . وكان التسليم أولى والإيمان أجدر . ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر ، فيبهت ويبلس ويتحير . ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية ، ولم يرغب في الحق؛ ولم يلتزم القصد والعدل :{ والله لا يهدي القوم الظالمين }. أي : لا يهديهم إلى طريق الحق . ولا يلهمهم حجة ولا برهاناً . بسبب ظلمهم وطغيانهم وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن .

ويمضي هذا الجدل الذي عرضه الله على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى الجماعة المسلمة . مثلاً للضلال والعناد؛ وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين؛ وفي ترويض النفوس على تعنت المنكرين! كذلك يمضي بتقرير تلك الحقائق التي تؤلف قاعدة التصور الإيماني الناصع: { ربي الذي يحيي ويميت } . { فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب } . حقيقة في الأنفس وحقيقة في الآفاق . وهما حقيقتان كونيتان هائلتان؛ مكرورتان معروضتان للبصائر والأبصار آناء الليل وأطراف النهار . لا تحتاجان إلى علم غزير ، ولا إلى تفكير طويل .

فالله أرحم بعباده أن يكلهم في مسألة الإيمان به والاهتداء إليه ، إلى العلم الذي قد يتأخر وقد يتعثر ، وإلى التفكير الذي قد لا يتهيأ للبدائيين . إنما يكلهم في هذا الأمر الحيوي الذي لا تستغني عنه فطرتهم ، ولا تستقيم بدونه حياتهم ، ولا ينتظم مع فقدانه مجتمعهم . ولا يعرف الناس بدونه من أين يتلقون شريعتهم وقيمهم وآدابهم . يكلهم في هذا الأمر إلى مجرد التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع ، والتي تفرض نفسها فرضاً على الفطرة ، فلا يحيد الإنسان عن إيحائها الملجيء إلا بعسر ومشقة وتعنت وعناد! والشأن في مسألة الاعتقاد هو الشأن في كل أمر حيوي تتوقف عليه حياة الكائن البشري . فالكائن الحي يبحث عن الطعام والشراب والهواء – كما يبحث عن التناسل والتكاثر – بحثاً فطرياً ولا يترك الأمر في هذه الحيويات حتى يكمل التفكير وينضج ، أو حتى ينمو العلم ويغزر ، وإلا تعرضت حياة الكائن الحي إلى الدمار والبوار . والإيمان

حيوي للإنسان حيوية الطعام والشراب والهواء سواء بسواء . ومن ثم يكله الله فيه إلى تلاقي الفطرة بآياته المبثوثة في صفحات الكون كله في الأنفس والآفاق [82] .

* **الشاهد الثاني :**

قال تعالى : {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: 260].

تجيء تجربة إبراهيم ، فتضاف إلى رصيد أصحاب الدعوة الجدد ، وإلى رصيد التصور الإيماني الصحيح . وتقرر حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله ، وهي بهذا تؤلف جانبا من جوانب التصور الإسلامي؛ يضاف إلى القواعد التي قررتها الآيات السابقة منذ مطلع هذا الجزء ؛ والتي ساقها الله تعالى كدليل على توحد قدرته على الإحياء والإماتة وعلى صحة البعث والنشور. فرتب سبحانه وتعالى ذكر المعاد في ثلاثة أحوال :

أحدها : حال الجاحد : { أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ } . الذي انتهت غايته إلى بهت .

ثانيها : حال المستبعد : { أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا } . الذي انتهت غايته إلى علم وإيمان .

وثالثها: أنهى الخطاب إلى حال المؤمن : { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى } . الذي انتهى حاله إلى يقين وطمأنينة ورؤية ملكوت في ملكوت الأرض .

وقد استولى الترتيب والتعبير في هذه الآيات الثلاث على الأمد الأقصى من الحسن ، فإنها بدئت بمن أراد أن يخفي ما أوضحته البراهين من أمر الإله في الإحياء بأن ادعى لنفسه المشاركة بإحياء مجازي تلبيساً بلفظ إلى الدال على بعده ولعنه وطرده ، ثم بمن استبعد إحياء القرية فأراه الله سبحانه وتعالى كيفية الإحياء الحقيقي آية له وتتميماً للرد على ذلك مع الإقبال عليه بالمخاطبة ولذة الملاطفة ثم بمن سأل إكرام الله تعالى له بأن يريه كيف يحيي: فيثبت ، ثم أثبتت ، ثم أكدت . فالمراد التحذير عن حال الأول والندب إلى الارتقاء عن درجة الثاني إلى مقام الثالث الذي حقيقته الصدق في

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[82]- راجع : تفسير الظلال / 1/276-278 /287 ، 3/106 ، 4/ 409 ،ابن عاشور 2/441 ، الرازي 3/461-467 ، طنطاوي / 1/477 – 478 السعدي / 111 ،معارج القبول، للحكمي1/107-108 ، الصواعق المرسلة لابن القيم 2/490 ، ومفتاح السعادة 2/203-204 ، القصص القرآني ،د. صلاح الخالدي 1/ 339

الإيمان لرجاء الحيازة مما أكرم به ، ولذلك عبر في قصته بقوله : { وإذ } ولم يسقها مساق التعجيب كالأول .

وفي قوله : (رب) أي أيها المحسن إليّ وهو تصريح بكمال أدبه مع خالقه فهو قبل أن يدعوه يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة ، والألوهية التامة ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى{ أرني كيف تحيي الموتى } . وفي هذه القصة مسائل ، نبينها على النحو الآتي :

– نفي الشك عن إبراهيم عليه السلام :

وقد حرر بعض المحققين في هذا المقام وبسطه في الذب عن الخليل عليه السلام من الكلام ، وهو أن السؤال لم يكن عن شك في أمر ديني والعياذ بالله ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليحيط علماً بها وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورها ، فالخليل عليه السلام طلب علم ما لا يتوقف الإيمان على علمه ، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة { كَيْفَ } وموضوعها السؤال عن الحال ، ونظير هذا أن يقول القائل : كيف يحكم زيد في الناس فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته ، ولو كان سائلاً عن ثبوت ذلك لقال: أيحكم زيد في الناس؟

ولما كان الوهم قد يتلاعب ببعض الخواطر فتنسب إلى إبراهيم الشك قطع القرآن بنفي ذلك تصريحاً بقوله: « بلى » وتلويحاً بكون هذه الآية عقب آية محاجته لذلك الذي بهت ، وقطع كذلك النبي صلى الله عليه وسلم دابر هذا الوهم بقوله على سبيل التواضع :« نحن أحق بالشك من إبراهيم »[83] وقيل : إن الكلام مع أفعل جاء هنا لنفي المعنى عن الحبيب والخليل عليهما الصلاة والسلام أي لا شك عندنا جميعاً ، وإذا انتفى الشك عن الأحق انتفى الشك عن غيره من باب الأولى . ثم إن واقع الحال لإبراهيم عليه السلام من استدلاله بقدرة الله على الإحياء والإماتة من خلال دعوته لأبيه وقومه ومجادلته للملك ، علاوة على ما وقع معه من نجاته من النار لتكون عليه بردا وسلاما ينسف دعوة حصول الشك من إبراهيم من أساسه ، فهو لم يشك في قدرة الله ولا في صحة البعث مطلقا ، وإنما الباعث له على هذا الطلب هو زيادة في اليقين وطمأنينة القلب ، وليس إزالة الشك .

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال له { أَوَلَمْ تُؤْمِن } وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً؟ قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين . فسؤال الله له { أَوَلَمْ تُؤْمِن } يكشف عن معنى دقيق وهو أن قضايا العقيدة قاطعة حاسمة لا تقبل الظن والتوهم . فكان سؤاله تعالى وهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور دفعا لتوهم وإزالة للإشكال من أن إبراهيم

[83]– صحيح البخاري : برقم (3192) وصحيح مسلم برقم (152)

كان سؤاله عن شك في قدرة الله ، فأراد سبحانه لما علم براءة الخليل عن الحوم حول حمى هذا المعنى أن ينطقه في الجواب بما يدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى ليكون إيمانه مخلصاً بعبارة تنص عليه يفهمها كل من يسمعها فهماً لا يتخالجه فيه شك ، قال الماوردي : وليست الألف في قوله : { أَوَلَمْ تُؤْمِن } ألف الاستفهام ، وإنما هي ألف إيجاب وتقرير : كما قال جرير :
أَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا ... وَأَنْدَى العَالَمِين بُطونَ رَاحِ .

– لماذا أراد إبراهيم رؤية كيفية إحياء الموتى :

لقد كشف إبراهيم علة طلبه في رؤية كيفية إحياء الموتى بقوله:{ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي }. فقد طلب المعاينة لما جُبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ليس الخبر كالمعاينة "[84].

فقد تشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية ، في أثناء وقوعه العملي ، وكان ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد قدرة الله وهي تعمل؛ واطمئنان التذوق للسر المحجب وهو يجلى ويتكشف . ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله . ولكنه سؤال الكشف والبيان ، والتعريف بهذا الشوق وإعلانه ، لينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان .

فإن العيان يغرس في القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان ، فقد سأل ليزداد يقينا إلى يقينه وطلب ما هو أهله ، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول ، وكيف هنا إنما هي استفهام عن هيئة الإِحياء والإِحياء متقرر عند السائل أي بصرني كيفية إحيائك للموتى ، فطلب من ربّه أن يريه طريقة الإِحياء كيف تتم هل هي جارية على نواميس معيّنة أم هي مجرد قدرة يقول صاحبها للشيء كن فيكون .

فإنّ إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني ، إلى العلم الضروري ، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس . و { بلى } إيجاب لما بعد النفي معناه : بلى آمنت . وقوله : { وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } أي ليزداد سكوننا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة – أي علم المشاهدة – إلى علم الاستدلال الذي يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري ، فأراد بطمانينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك والذي يتحقّق فيه العلم وينتقل من معالجة الفكر والنظر إلى بساطة الضرورة بيقين المشاهدة وانكشاف المعلوم انكشافاً لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال ودفع الشُبه عن العقل ، بحيث يستقر العلم في النفس وتنتفي معالجة الاستدلال

84 – صحيح ابن حبان ، برقم (6213)

بالاضطراب والحركة ، ومعنى الطمأنينة حينئذ سكون القلب عن الجولان في كيفيات الإحياء المحتملة بظهور التصوير المشاهد ، وعدم حصول هذه الطمأنينة قبل لا ينافي حصول الإيمان بالقدرة على الإحياء على أكمل الوجوه ، ورؤية الكيفية ما زادت في إيمانه المطلوب منه عليه السلام شيئاً وإنما أفادت أمراً لا يجب الإيمان به .

والقلبُ مراد به العلم إذ القلب لا يضطرب عند الشك ولا يتحرك عند إقامة الدليل وإنّما ذلك للفكر ، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس وانشراح النفس به وقد دلّه الله على طريقة يرى بها إحياء الموتى رأي العين ، فلما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام متهيئاً لقبول الطمأنينة قذف في قلبه طلبها،فإنما ينبني يقين العيان على تحقيق الإيمان .

وهناك معنى دقيق وهو ما اعتقده في طلب إبراهيم عليه السلام وهذا الاعتقاد موافق لحاله ومقامه عند ربه ، وهو أنه أراد أن يكون شاهدا لربه عند خلقه في قدرته تعالى على الإحياء والإماتة ، شهادة عيان لا شهادة بيان واستدلال ، فشهادة المعاين ليست كشهادة المستدل ، وفي الحديث: " يا ابن عباس لا تشهد إلا على ما يضيء لك كضياء هذا الشمس " [85].

وعن ابن عباس أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الشهادة فقال: " هل ترى الشمس ؟ على مثلها فاشهد أو دع "[86] . لأن شهادة العيان ليست كشهادة البيان ، والترقي في الشهادة هو ترقي في الرتبة ، قال تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: 18]. فحكم الله تعالى لنفسه : أنه الإله المعبود لعلمه بذاته ، وأما الملائكة بما عاينوا من عظيم قدرته [87]، وأما الأنبياء والعلماء بما شاهدوا من آثارها ليستدلوا بها على توحيده وكمال صفاته .

والترقي في أعلى مراتب الشهادة هو عين ما طلبه إبراهيم عليه السلام من ربه ، وهو أن يقدم لقومه شهادة عيان , ومما يؤكد هذا المعنى هو قوله لقومه : { قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) } [الأنبياء:56] . والله أعلم .

[85]- رواه الحاكم في مستدركه ، برقم (7045)

[86]- كنز العمال (17782)

[87] - أنظر تفسير النسفي : 145/1

- **استجابة الله لإبراهيم طلب الرؤية :**

وقد استجاب الله لهذ الشوق والتطلع في قلب إبراهيم ، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة: بقوله:{ فخذ أربعة من الطير }وجيء بمن للتبعيض لدلالة على أنّ الأربعة مختلفة الأنواع ، والظاهر أنّ حكمة التعدّد والاختلاف زيادة في تحقّق أنّ الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون بعض، وقوله:{فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ}أي: فاضممهن إليك . ويقال: أيضاً صار الشيء بمعنى قطعه وفصله والمعنى : قال الله تعالى لإبراهيم: إذا أردت معرفة ما سألت عنه فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن ، ثم اذبحهن ومزق أجسادهن وجزئهن أجزاء ثم اجعل على كل مكان مرتفع من الأرض جزاء من كل طائر من تلك الطيور لأنّ وضعها على الجبال تقوية لتفرق تلك الأجزاء؛ فإنها فرقت بالفصل من أجسادها وبوضعها في أمكنة متباعدة وعسرة التناول .

وقوله:{ ثُمَّ ادعهن يَأْتِينَكَ سَعْياً } وفعل إبراهيم ما أمره الله فقطع أعضاءهاه ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها ببعض وفرق أجزاء الطير على الجبال المحيطة ، ثم قال لهن تعالين بإذن الله . فتجمعت أجزاؤهن مرة أخرى وانضم كل جزء إلى أصله ، وارتدت إليهن الحياة فأقبلن إليه ساعيات ، والسعي من أنواع المشي لا من أنواع الطيران ، فكأنه قيل : يأتينك إتياناً سريعاً ، فجعل ذلك آية على أنّهنّ أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة ، لئلا يظن أنهن لم يمتن تماماً . ثم ختم سبحانه الآية بقوله:{ واعلم أنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } أي واعلم أن الله تعالى غالب على أمره ، قاهر فوق عباده ، حكيم في كل شئونه وأفعاله وبذلك نرى أن الآية الكريمة من أبلغ الأدلة والشواهد على قدرة الله في الإحياء والإماتة وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع ، وعلى أن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه .

وهكذا رأى إبراهيم سر هبة الحياة يقع بين يديه . وهو السر الذي يقع في كل لحظة . ولا يرى الناس إلا آثاره بعد تمامه . رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه ، طيور تدب فيها الحياة وتعود إليه سعياً ، بعدما فارقتها الحياة ، وتمزقت وتفرقت في أماكن متباعدة ، ليكون شاهدا على قدرة الله تعالى.

أما كيف تم ذلك ؟ فهذا هو السر الذي يعلو على التكوين البشري إدراكه . إنه قد يراه كما رآه إبراهيم . وقد يصدق به كما يصدق به كل مؤمن . ولكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته . إنه من أمر الله . والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . وهو لم يشأ أن يحيطوا بهذا الطرف من علمه ، لأنه أكبر منهم ، وطبيعته غير طبيعتهم . ولا حاجة لهم به في خلافتهم . إنه الشأن الخاص

للخالق . الذي لا تتطاول إليه أعناق المخلوقين . فإذا تطاولت لم تجد إلا الستر المسدل على السر المحجوب . وضاعت الجهود سدى ، جهود من لا يترك الغيب المحجوب لعلام الغيوب! وفي هذه القصة تقرير صريح في عجز العقل عن إدراك كيفيات أفعال الله ولكن يمكن أن تدرك أثرها بالأشياء بحيث تدرك صورة الفعل بالشيء لا حقيقه الفعل ، وحتى إدراك صورة الفعل هذه لا يصل العقل فيها إلى قطع الاحتمالات إلا بالمشاهدة الحسية وهذا عين ما طلبه ابراهيم وهذا حقيقة ما جرى لمن تدبر القصة وتمعن فيها . وهذه التجربة العملية والمشاهدة الحسية أصبح إبراهيم شاهد عيان على قدرة الله تعالى في إحياء الموتى عند خلقه ، وعلى أن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه ، وعلى أنه هو وحده المستحق للعبادة ، وهي شهادة نبي أجمع عليه كل أتباع الديانات السماوية وتشرفوا بالانتساب إليه [88] .

*** الشاهد الثالث .**

قال تعالى : { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء: 75-81].

جاهر إبراهيم عليه السلام أبيه وقومه بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم ، وقال لهم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأقدمون إنها عدو لي لأن عبادتها باطلة لكن الله رب العالمين هو وليي وصاحب الفضل علي في الدنيا والآخرة ، فلذا أعبده وحده . وذلك كونه موصوفا بصفات العظمة والجلال ، وقد ذكر إبراهيم صفة ربه وجمع فيها عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين . والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض ، والتي منها الإحياء والإماتة : { والذي يميتني ثم يحيين } . أي : الذي أخلص له العبادة هو رب العالمين الذي بقدرته وحده أن يميتني عند حضور أجلي ثم يعيدني إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب ، فربي هذا الذي بيده وحده نفعي وضرّي ، ومحياي ومماتي ، المتفرد بالقدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، ، هو وحده من يجب أن يفرد بالعبادة والطاعة،

---

[88]- راجع : تفسيرابن كثير 689/1 ، وتفسير البقاعي 423/1 ، وتفسيرالألوسي 340/2 ، وتفسير ابن عاشور 2 / 445 – 446 ، وتفسيرطنطاوي 1/ 483-485 ، وتفسيرالظلال 1/ 276 ، 281-282 ، وأيسر التفاسير للجزائري 133/1

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وتترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب .

وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على قومه، في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن يعجز عن ذلك كله . فقد جمعت كلمات إبراهيم عليه السلام مع دلالتها على انفراد الله بالتصرف في تلك الأفعال دلالة أخرى على جميع أصول النعم من أول الخَلْق إلى الخَلْق الثاني وهو البعث ، فذكر الموت الذي هو خاتمة الحياة الأولى ، وأعقبه بذكر الحياة الثانية للإشارة إلى أن الموت حالة لا يظهر كونها نعمة إلا بغوص فكر ولكن وراءه حياة هي نعمة لا محالة لمن شاء أن تكون له نعمةً [89].

*** الشاهد الرابع :**

قال تعالى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [النجم: 44].

فإن كان مضمونها مما شملته صحف إبراهيم كان المحكي بها من كلام إبراهيم ما حكاه الله عنه بقوله : {والذي يميتني ثم يحيين } [الشعراء: 81]. فقد انتقل من الاعتبار بانفراد الله بالقدرة على إيجاد أسباب المسرة والحزن { وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى } إلى العبرة بانفراده تعالى بالقدرة على الإحياء والإماتة { وَأَنَّهُ أَمَاتَ وَأَحْيَا } ، وهما حالتان لا يخلو الإنسان من إحداهما فإن الإنسان أول وجوده نطفة ميتة ثم علقة ثم مضغة (قطعة ميتة وإن كانت فيها مادة الحياة إلا أنها لم تبرز مظاهر الحياة فيها) ثم ينفخ فيه الروح فيصير إلى حياة وذلك بتدبير الله تعالى وقدرته .{ أمات وأحيا }: أنشأ الموت والحياة ، وقضى أسبابهما ، وإن رأيت أسباباً ظاهرية فإنه لا عبرة بها أصلاً في نفس الأمر بل هو الذي خلقها ولا يقدر على ذلك غيره تعالى ، فهو خلق نفس الموت والحياة ، كما في قوله : { خَلَقَ الموت والحياة } [الملك: 2]. وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعهما المتكرر . ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافي على الأحياء . فما الموت؟ وما الحياة؟ ما حقيقتهما ؟ كيف دبت الحياة في الكائن الحي؟ وما الموت؟ وكيف كان قبل دبيب الحياة . وبعد مفارقتها للأحياء؟ إنه السر الخافي وراء الستر المسبل ، بيد الله! و { أمات

---

[89]- راجع : تفسير الطبري 19 /363 ، تفسير السعدي 592 ، تفسير طنطاوي 3167 ، تفسير ابن عاشور 177/10 ، تفسير الظلال 352/5-353

وأحيا } منزلان منزلة اللازم إظهاراً لبديع القدرة على هذا الصنع الحكيم مع التعريض بالاستدلال على كيفية البعث وإمكانه حيث أحاله المشركون وأنكروه ، ودليله في خلق أنفسهم .

وتقديم ضمير الفصل وتكرير الإسناد للحصر أي أنه تعالى فعل ذلك لا غيره سبحانه ، وكذا في أنه { هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } فلا يقدر على الإماتة والإحياء غيره عز وجل ، وهذا القصر رداً على أهل الجاهلية الذين يسندون الإحياء والإماتة إلى الدهر فقالوا : { وما يهلكنا إلا الدهر } [الجاثية: 24]. فليس المراد الحياة الآخرة لأن المتحدث عنهم لا يؤمنون بها ، ولأنها مستقبلة والمتحدث عنه ماض . فهو المتفرِّد سبحانه بالإحياء والإماتة. وهو والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم ، وسيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في الدنيا ، فمن أطاعه أستحق ثوابه ، ومن عصاه فقد استوجب العقوبة [90] .

* الشاهد الخامس :

قال تعالى : { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء: 68- 70].

وقال تعالى : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت: 24].

لم تحرق النار إبراهيم عليه السلام ، وقد أظهر الله تلك المعجزة لإبراهيم إذ وَجّه إلى النار تعلّقَ الإرادة بسلب قوة الإحراق ، وأن تكون برداً وسلاماً ، لتكون دليلا على قدرة الله في الإحياء والإماتة ، وتنبيه الحس الذي تبلد بفعل الألف والعادة إلى تلك المعجزات المبثوثة في الكون ، وإيقاظ الفكر الذي أصابته الغفلة بفعل الأسباب إلى الفاعل الحقيقي وهو الله تعالى ، فمعجزة إبراهيم جاءت من أجل تصحيح التصور عن الموت والحياة ، وأسبابهما الظاهرة ، وحقيقتهما المضمرة؛ ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة . والاطمئنان إلى قدر الله فيهما . والمضي في حمل التكاليف والواجبات دون هلع ولا جزع ، وإن الحذر من الموت لا يجدي؛ وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً ، ولا يردان قضاء؛ فالمقدر كائن ، والموت والحياة بيد الله .

---

[90] - راجع : تفسير البقاعي 8/ 254 ، وفتح القدير7/82 ، وتفسير الالوسي 27/20 ، وتفسير ابن عاشور204/14 ، وتفسير الظلال 7/65-66 ، وتفسير السعدي 821

إن تجربة إبراهيم عليه السلام تقدم التصور الإيماني الصحيح . وتقرر حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله ، وذلك لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب ، فأمر الله تعالى النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام فكانت كذلك ، وكانت آية دالة على قدرة الله .{ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون } .

الآية الأولى : هي تلك النجاة من النار ، لتكون برهانا على أن أمر الحياة والموت بيد الله وحده.

الآية الثانية : هي عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد أو قتله يريد الله له النجاة وفي ذلك دليل واضح على عجز البشر جميعا عن ذلك .

والآية الثالثة : هي أن الخارقة لا تهدي القلوب الجاحدة . ذلك لمن يريد أن يتدبر تاريخ الدعوات وتصريف القلوب ، وعوامل الهدى والضلال .

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض ، وعلى الطمع ، في المثوبة والخوف من السلطان ، وما يملك القلب البشري ان يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان والذي أبان حقيقة الموت والحياة بوضوح جلي ، فلم يعد لهذا التهديد بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة؛ ويسلطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ، ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة . قوة الوحوش في الغابة القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال ، ولا تفرق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب ، أي قيمة أو أثر أمام هذه القوة الإيمانية التي تستمد قوتها من الله .

فالمؤمن الذي لا تحجبه الأسباب عن طلاقة المشيئة والقدرة الإلهية تصبح عنده القوى الأرضية كلها ضئيلة . والحياة الأرضية كلها زهيدة ويهزأ بتهديد الطغيان الجائر ، ويواجهه بكلمة الإيمان القوية . وباستعلاء الإيمان الواثق .يجب أن تتحقق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان . وقد تجسد هذا في موقف إبراهيم عليه السلام الذي دفع بحياته في سبيل الله وإعلاء كلمته وإعزاز دينه وسلطانه في الأرض ورفض كل عبودية وحاكمية وتشريع لغير الله تعالى . إنه مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود ، كان بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة ، فعندما ينتصر الإيمان في داخلنا فلا تتسرب إلى عقولنا عقلية الجهل والخرافة ، ولا تنتاب مشاعرنا حالة الرعب والخوف من التهديد

والوعيد ، حينها ننتصر في عالم الواقع . وذلك لا يكون إلا بتصيح مفاهيم العقيدة ومنها حقيقة الموت والحياة .

فحينما يعتقد الإنسان أن أمر الموت والحياة بيد الله وحده وتستقر هذه الحقيقة في الفكر والشعور فلا يخاف إلا الله ولا يرجو سواه ولا يتوكل إلا عليه ، عندها ينتصر الإيمان في نفوسنا ويتهيأ لينتصر في دنيا الناس . ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية ، والخلافة الأرضية بكل مقوّماتها ، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله .

وأن لا وجود إلا وجوده . وأن لا فاعلية إلا فاعليته . ولا يريد طريقاً غير هذا الطريق! من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات: منهج لعبادة الله وحده.الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته [91].

[91]- راجع : تفسير الظلال 246/1 ، 281 ، 474 ، 363/3 ، 129/5 -130 ، 274/7 ، 128/8 ، وتفسير ابن عاشور 9/ 182 ، وأيسر التفاسير للجزائري 2/ 479- 480

– المبحث الخامس –

دليل البعث والحساب والجزاء

إن قضية البعث والحساب والجزاء هي من قضايا العقيدة الأساسية التي لا يقوم الدين إلا بها وذلك لقوة تأثيرها في سلوك الإنسان وواقع الحياة ، ولأهمية هذا المعتقد فقد عمل القرآن على إثباته أولا بإيراد الأدلة العقلية والسمعية ثم تقريره للإستدلال به على مقتضياته التعبدية .

وقد استخدم القرآن هذا الدليل من قدرة الله على البعث والحساب والجزاء على تفرده تعالى بالألوهية واستحقاقه العبودية في كثير من آياته ، فمن كان يملك يوم الدين والحساب والقادر على البعث والجزاء ، فهو من يستحق أن يعبد ويطاع ، وهو من يجب أن يخشى ويرجى وهو من يقصد ويدعى ، ويتضرع إليه ويستعان به ، وبما أن الله هو الباعث المحاسب المجازي لعباده على أعمالهم في الدنيا .

فمقتضى منطق العقل والرشد أن يكون منهج حياتهم وأحكامهم وشرائعهم في الدنيا مطابقا لما سيكون عليه حسابهم وجزاؤهم في الآخرة ، وإنه لمن الحماقة وعين الجهل أن يأتوا ربهم يوم القيامة بمناهج وشرائع وأحكام تخالف ما قرره عليهم وتتناقض بما طالبهم به ، قال تعالى : { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران: 85]. إن إخلاص العبادة لله وفق مراده وشرعه هو شرط القبول والاستجابة عنده تعالى ، وهو مسوغ النجاة من عذابه ونيل ثوابه ، وإن هذا الاستسلام لله مالك يوم الدين بالعبادة الخالصة والإحتكام إلى شرعه ضرورة لازمة يفرضها منطق العقل السليم والفطرة الباحثة عن الآمان من هول الإنذار الرهيب المتحقق عقلا وفعلا والذي لا يملك أحد القدرة على دفعه ، قال تعالى : { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ } [الطور: 7-8].

وقد إستدل القرآن بعقيدة الآخرة على ألوهيته تعالى ومن ذلك :

ـــ قال تعالى : { يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [إبراهيم: 48-52].

ـــ وقال تعالى : { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا } [الفرقان: 3].

ـــ قال تعالى : { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِوَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ } [الزمر: 64-70].

وقد استخدم إبراهيم عليه السلام دليل قدرة الله تعالى في البعث والحساب والجزاء على وجوب انفراد ألوهيته واستحقاقه العبودية الخالصة والتوجه إليه بالقصد والطلب والدعاء على وجه الرغبة والرهبة والخوف والرجاء وما يصاحبه من التعظيم والإجلال مع غاية الحب والامتنان ، ومن هذه الإستدلالات بهذا الدليل نذكر منها :

* الشاهد الأول :

قال تعالى : { وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [العنكبوت: 17-23].

وهكذا نرى إبراهيم عليه السلام قد سلك في دعوته لقومه إلى الحق أبلغ الأساليب وأحكمها ، حيث أمرهم بعبادة الله وتقواه ، وبين لهم منافع ذلك ، وحرضهم على سلوك طريق العلم لا طريق الجهل ، ونفرهم من عبادة الأوثان ، حيث بين لهم تفاهتها وحقارتها وعجزها ، وحضهم على

طلب الرزق ممن يملكه وهو الله عز وجل الذي إليه المرجع والمآب ، ثم أخذ يحذر قومه من الاستمرار فى تكذيبه ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابا وثوابا وعقابا وبعثا ، وأن عليهم أن يتعظوا بمن قبلهم ، فسلك عليه السلام مسلك الاستدلال بالنعم الحسية لأن إثباها أقرب إلى أذهان العموم .

ثم استدل على الوحدانية المستلزمة للقدرة على المعاد بإبطال إلهية معبوداهم المستلزم لإبطال كل ما شاكلها ، ليتجه بهم إلى واهب الأرزاق المتفضل بالنعم ، ليعبدوه ويشكروه ، بقوله : { واعبدوه واشكروا له } .أي اعبدوه واشكروا له وحده لا شريك له لكونه مستحقاً للعبادة لذاته ولكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير، فجميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ، فهو من يثيب العابد له ، ويعاقب الزاهد فيه ، في الدنيا والآخرة ، فإن من يكون كذلك فهو المستحق للعبادة والمخصوص بالشكر ، والمتوسل إليه بهما بالمطالب تقيدا لنعمه ودفعا لنقمه واستجلابا لمزيد فضله ونعمه .

وجملة { إليه ترجعون } تعليل للأمر بعبادته وشكره ، أي لأنه الذي يجازي على ذلك ثواباً وعلى ضده عقاباً فهو المستحق وحده للعبادة والشكر ، إذ إلى الله لا إلى غيره مرجعكم بعد الموت ، فلا حكم في الحقيقة لأحد سواه في الدنيا والآخرة فيثيب الطائع ويعذب العاصي في الدارين ، والمعنى : إليه تعالى لا إلى غيره مصيركم أجمعين فيسألكم عما أنتم عليه من عبادتكم غيره وأنتم عباده وخلقه وفي نعمه تتقلبون ورزقه تأكلون فيجازيكم على أعمالكم وينبئكم بما أسررتم وأعلنتم فاستعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر وافعلوا ما أمركم به ، وفي هذا إدماج تعليل بالعبادة بإثبات البعث .

لما فرغ إبراهيم من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد , يحذر قومه من الاستمرار في تكذيبه ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابا وثوابا وعقابا وبعثا ، وان عليهم أن يتعظوا بمن قبلهم وما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل وتكذيبهم ، فإن كذبوا بعد ذلك كله فإن عاقبة المكذبين الخسران ، ثم بين لهم إبراهيم عليه السلام وظيفته فقال : { وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين } أى : لقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، وتلك هى وظيفتى التى كلفنى بها ربى ، وليس على سواها ، أما الحساب والجزاء فمرده إلى الله تعالى وحده .

والعاقل هو الذي يحرص أن يكون عمله في الدنيا موافقًا لمطلوب الله وعين ما سوف يحاسب عليه في الآخرة ليكون عمله مقبولاً ومأجورًا . ولما بين عليه السلام الأصل الأول وهو التوحيد

وأشار إلى الأصل الثاني وهو الرسالة بقوله : { وَمَا عَلَى الرسول إلاَّ البلاغ المبين } شرع في بيان الأصل الثالث وهو الحشر ، إثباتاً وتقريراً وإستدلالاً ، ليحتج به على تفرد ألوهيته تعالى وقصده بالعبادة ، لا لمجرد الإثبات والتقرير النظري وحسب.

ــ **أما الإثبات:** ففي قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) } هذه الآيات ، من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام يحتج عليهم لإثبات المعاد ، ثم ذكر ما يدل على أن البعث حق ، وأنه تعالى لا يعجزه شئ وجاء بالاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعقلهم لما يدل عليها دلالة واضحة .

والمعنى : ألم ينظر هؤلاء المشركون المنكرون للبعث ، ويعلموا كيف خلق الله تعالى الخلق ابتداء فهم يرون كيف يبدئ الله الخلق فى النبتة النامية ، وفى الشجرة الباسقة، ، ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة ، وهى أهون عليه . فكيف أنكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى ، مع أنه من المسلم عند كل ذى عقل ، أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء؟ ثم يدعوهم إلى السير في الأرض ، وتتبع صنع الله وآياته في الخلق والإنشاء ، في الجامد والحي سواء ، ليدركوا أن الذي أنشأ يعيد بلا عناء .

فيكون السير في الأرض لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة ، ودعوتها إلى التأمل والتدبر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ، فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فالذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب أن لا تُعجزه الإعادة . فكأنه قال : ثم ذاك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة .

ــ **أما التقرير** : ففي قوله تعالى : { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (22) } ومن قدرة الله على كل شيء : تعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء ، وإليه وحده المآب؛ لا يعجزه أحد ، ولا يمتنع عليه أحد ، وهذه فائدة وحكمة البعث الآخرة وهي المجازاة على العمل في هذه الحياة فيعذب أهل الكفر به وبرسوله والذين لم يزكوا أنفسهم بالإيمان وصالح الأعمال فيدخلهم جهنم دار الشقاء والعذاب ويرحم أهل الإيمان والتقوى الذين زكوا أنفسهم بالإيمان والصالحات . فإن إليه إيابكم وعليه حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم ، ولهذا قال بعدها { وَمَا أَنتم بِمُعْجِزِينَ }

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يعني لا تفوتون الله فأنتم مقهورون له خاضعون لسلطانه لا يمكنكم الهرب منه ولا الخلاص بحال من الأحوال .

ــ **وأما الإستدلال** : ففي قوله تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة ، وإثابة أهل الإنابة فضلاً ورحمة ، فالذين كفروا بدلائل الله على وحدانيته ، وكذَّبوا برسله وكتبه ، وأنكروا البعث والحساب . هؤلاء ليس لهم مطمع فى رحمة الله ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه ، وينقطع ما بينه وبين ربه . وكذلك هو لا يكفر إلا وقد يئس من اتصال قلبه بالله ، وجفت نداوته ، ولم يعد له إلى رحمة الله سبيل . والعاقبة معروفة فأولئك لهم عذاب شديد مؤلم .

هكذا يقيم إبراهيم عليه السلام حجته على قومه ويقدم الدليل على توحيد الله وذلك بعد إثبات الميعاد من : البعث والحساب والجزاء . وتقرير حقائقه من : الثواب والعقاب ، حيث يثيب تعالى الطائع بنعيم الجنة ويعاقب العاصي بعذاب النار ، يستدل بذلك كله على وجوب تفرده تعالى بالألوهية وجميع أنواع العبودية من الطاعة والخضوع لأمره وحكمه ، وتصديق رسله وإتباعهم ، وعدم تكذيبهم ومخالفتهم[92] .

والمتتبع لطريقة القرآن يجد هذا الأمر واضحًا جليا في كثير من آيات القرآن ومن ذلك : قوله تعالى : { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [المائدة: 48]. وقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [الأنفال: 24].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي

---

[92]- راجع : تفسيرابن عاشور 10 /473 - 476 ، وتفسير طنطاوي 3300 -3304 ، وتفسير الظلال 5/475- 460 وتفسير الرازي 142/12 – 148 وتفسير الالوسي 250/15 وتفسير البقاعي 236/6 -240

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء: 82-88].

أتى إبراهيم عليه السلام في هذه الأوصاف التي وصف الله عز وجل بها بالصفات التي يستحق المتصف بها الألوهية وهي الأوصاف الفعلية التي تخص البشر ، أى : أخلص عبادتي لرب العالمين الذي أوجدني بقدرته ، والذي يهديني وحده إلى ما يصلح شأني في دنياي وفي آخرتي . والذي بيده نفعي وضرّي، وله القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي، ولا ينفع ولا يضرّ .

وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على قومه، في أنه لا تصلح الألوهية، ولا ينبغي أن تكون العبودية إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يطيق شيء من ذلك . واعلم أن إبراهيم عليه السلام جمع في هذه الألفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار الآخرة ، ومن بين هذه الأوصاف الفعلية التي إستدل بها إبراهيم على وجوب عبادته تعالى ، قدرته على البعث والحساب والجزاء كما في قوله : { والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } والمراد بالإحياء إعادة الحياة إلى الميت يوم القيامة والمجازاة أى : ومن صفات رب العالمين الذى أخلص له العبادة ، أنه سبحانه الذى بقدرته وحده أن يميتني عند حضور أجلى ، ثم يعيدني إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب . فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت ، وهو الإيمان بالبعث والنشور مما يقضي طاعة أمره وإتباع شرعه وحكمه باستسلام ورضى عميق ، ورفض كل أمر أو حكم أو شرع صادر من عند غير الله .

وفي إسناد الإماتة إليه تعالى حسن الأدب مع الله ، ولأن الأحياء بدءاً وإعادة وأمور الآخرة جميعاً من خصائصه تعالى ، وكذلك ليصلح الاستدلال بتفرده في العبادة في مقابل تفرده بالإماتة . ثم ختم إبراهيم هذه الصفات الكريمة بقوله : { والذي أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين } أي : وهو وحده الذي أطمع أن يغفر لي ذنوبي يوم ألقاه لأنه لا يقدر على ذلك أحد سواه عز وجل وفى هذه الآية أسمى درجات الأدب من إبراهيم مع ربه سبحانه ، لأنه يوجه طمعه في المغفرة إليه وحده ، ويستعظم عليه السلام ما صدر منه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، ويعتبرها خطايا ، هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن تجتنب المعاصي ، وأن تكون منها على حذر وأن تفوض رجاءها إلى الله تعالى وحده .

وكان عليه السلام لشدة إيمانه وتوكله على ربه شديد الفرار عن الالتفات إلى الوسائط ، ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام : «ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا» فهنا قال : { أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين } أي لمجرد عبوديتي لك واحتياجي إليك تغفر لي خطيئتي لا أن تغفرها لي بواسطة شفاعة شافع .

وأطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع تواضعاً لله تعالى ومباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة وإنما طمع في ذلك لوعد الله بذلك . فهو لا يبرئ نفسه ، وهو يخشى أن تكون له خطيئة ، وهو لا يعتمد على عمله ، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً ، إلا أنه يطمع في فضل ربه ، ويرجو في رحمته ، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة ، إنه شعور التقوى ، وشعور الأدب ، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة ، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل ، وهذا دليل على شدة خوفه مع منزلته وخلته .

وتعليق المغفرة بيوم الدين مع أن الخطيئة إنما تغفر في الدنيا لأن أثرها يتبين يومئذ ولأن في ذلك تهويلاً لذلك اليوم ، وفي هذا إشارة إلى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص من العذاب والفوز بالثواب ، لأنه إن لم تغفر الذنوب وقع الجزاء يوم الدين . وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين . والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم . وتفرده بتلك الأفعال وفي ذلك دلالة على جميع أصول النعم من أول الخَلْق إلى الخَلْق الثاني وهو البعث .

فذكر خَلق الجسد وخَلق العقل وإعطاءَ ما به بقاء المخلوق وهو الغذاء والماء ، وما يعتري المرء من اختلال المزاج وشفائه ، وذكر الموت الذي هو خاتمة الحياة الأولى ، وأعقبه بذكر الحياة الثانية من البعث والحساب والجزاء بعد الموت ، للإشارة إلى أن الموت حالة لا يظهر كونها نعمة إلا بغوص فكر ولكن وراءه حياة هي نعمة لا محالة لمن شاء أن تكون له نعمةً .

وهذا الكلام من إبراهيم خبر يتضمن تعريضاً بالدعاء والتلطف بأبيه وقومه في الدعوة قصداً لاستجلاب إيمانهم إن راموا الاهتداء . ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب في دعاء رخي مديد ، يتوجه به إلى ربه في إيمان وخشوع؛ والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض؛ ولا حتى صحة البدن . إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى؛ تحركه مشاعر أصفى . ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح يحتقر ما عداه . والذي ذاق فهو يطلب المزيد؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد .

ـــ مطالب إبراهيم في دعاءه لربه :

لما ذكر إبراهيم لهم من صفات الله تعالى مما يدل على كمال لطفه به حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لجلب المزيد من فضله العظيم . وجهر بذلك في ذلك الجمع لأنه عقب الانتهاء من أقدس واجب وهو الدعوة إلى الدين ، فهو ابتهال أرجى للقبول لأنه كان حينئذ في حال قرب من الله .كالدعاء عقب الصلوات وعند إفطار الصائم ودعاء يوم عرفة والدعاء عند الزحف ، وكلها فراغ من عبادات .

ونظير ذلك دعاؤه عند الانتهاء من بناء أساس الكعبة المحكي في قوله تعالى: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ } إلى قوله: { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ... إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: 127-129]. وقد قابل إبراهيم في دعائه النعم الخمس التي أنعم الله بها عليه المذكورة في قوله : { الذي خلقني فهو يهدين } إلى قوله : { يوم الدين }. الراجعة إلى مواهب حسية بسؤال خمس نعم راجعة إلى الكمال النفساني كما أومأ إليه قوله : { إلا من أتى الله بقلب سليم } وأقحم بين طِلْباته سؤاله المغفرة لأبيه لأن ذلك داخل في قوله: { ولا تخزني يوم يبعثون } . وبعد أن أثنى إبراهيم عليه السلام على ربه بهذا الثناء الجميل ، أتبع ذلك بتلك الدعوات الخاشعات ومن الأمور التي طلبها في الدعاء وهي مطاليب :

المطلوب الأول : قوله : { رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين } والمراد بقوله : { رب هب لي حكماً } أي الحكمة التي هي كمال القوة العلمية بأن يكون عالماً بالخير لأجل العمل به ، وقيل : الأولى أن يفسر بكمال العلم المتعلق بالذات والصفات وسائر شؤنه عز وجل وأحكامه التي يتعبد بها . والمراد بقوله : { وَأَلْحِقْنِي بالصالحين } طلب كمال القوة العملية بأن يكون موفقاً لأعمال ترشحه للانتظام في زمرة الكاملين الراسخين في الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها . وإنما قدم قوله : { رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً } على قوله : { وَأَلْحِقْنِي بالصالحين } لأن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف ، وذلك ليكون عاملاً بالخير فإن كمال الإنسان أن يعرف الحق لأجل العمل به والمراد بطلبه من الله أن يلحقه بالصالحين أن يكون علمه وعمله مقبولين ، لأنه إذ لم يقبلا لا يلحق صاحبهما بالصالحين ولا تجعل منزلته كمنزلتهم ولقد أجابه الله تعالى حيث قال : { وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين } [البقرة: 130].

المطلوب الثاني : قوله : { واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الأخرين }أى : واجعل لى ذكرا حسنا ، وسمعة طيبة ، وأثرا كريما فى الأمم الأخرى التى ستأتى من بعدى . وقد أجاب سبحانه له هذه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدعوة ، فجعل أثره خالداً ، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهذه الدعوة تدفعه إليها الرغبة في الامتداد ، لا بالنسب ولكن بالعقيدة؛ فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق ، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم.

المطلوب الثالث : قوله : { واجعلني مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم } أى : واجعلنى فى الآخرة عندما ألقاك - يا ربى - للحساب ، من عبادك الذين أكرمتهم بدخول جنتك وبوراثتها فضلا منك وكرما . فهو عندما طلب سعادة الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهي جنة النعيم ، وشبهها بما يورث لأنه الذي يغتنم في الدنيا ، فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا .

المطلوب الرابع : قوله : { واغفر لأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين } لما فرغ من طلب السعادات الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأشد الناس التصاقاً به وهو أبوه فقال : { واغفر لأَبِى } فسأل المغفرة لأبيه قبل سؤال أن لا يخزيه الله يوم القيامة لأنه إذا جيء بأبيه مع الضالّين لحقه انكسار ولو كان قد استجيب له بقية دعواته ، فكان هذا آخر شيء تخوف منه لحاق مهانة نفسية من جهة أصله لا من جهة ذاته . ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم عليه السلام من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد . ولكنه كان قد وعده أن يستغفر له ، فوفى بوعده . وقد بين القرآن فيما بعد أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى؛ وقرر أن إبراهيم استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه ، ثم إن المغفرة مشروطة بالإسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله : { واغفر لأَبِى } يرجع حاصله إلى أنه دعاء لأبيه بالإسلام فلما أصر على الكفر رجع عنه إبراهيم عليه السلام ، كما قال تعالى : { وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 114]. لأن القرابة ليست قرابة النسب ، إنما هي قرابة العقيدة . وهذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة . فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله ، ولا تقوم صلة بين فردين من بني البشر إلا على أساسها . فإذا قطعت هذه الصلة انقطعت سائر الوشائج؛ وكانت البعدى التي لا تبقى معها صلة ولا وشيجة .

المطلوب الخامس : قوله : { وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ } قيل: الإخزاء من الخزي وهو الهوان ، أو من الخزاية وهي الحياء : وندرك من قوله هذا مدى شعوره بهول اليوم الآخر؛ ومدى حيائه من ربه ، وخشيته من الخزي أمامه ، وخوفه من تقصيره وهو النبي الكريم . كما ندرك من قوله : { يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم } . مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم . وإدراكه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كذلك لحقيقة القيم . فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص . إخلاص القلب كله لله ، وتجرده من كل شائبة ، ومن كل مرض ، ومن كل غرض ، وصفائه من الشهوات والانحرافات . وخلوه من التعلق بغير الله . فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً { يوم لا ينفع مال ولا بنون } ؛ ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة ، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض؛ وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير! وقد أكرمه تعالى بهذا الوصف حيث قال : {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإبراهيم * إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الصافات :83 ، 84]. والقلب : الإدراك الباطني ، والسليم : الموصوف بقوة السلامة ، والمراد بها هنا السلامة المعنوية المجازية ، أي الخلوص من عقائد الشرك مما يرجع إلى معنى الزكاء النفسي . وضدُّه المريض مرضاً مجازياً قال تعالى : { في قلوبهم مَرض } [البقرة: 10].

والاقتصار على السليم هنا لأن السلامة باعث الأعمال الصالحة الظاهرية وإنما تثبت للقلوب هذه السلامة في الدنيا باعتبار الخاتمة فيأتون بها سالمة يوم القيامة بين يدي ربّهم . فلا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ بالله ، وإخلاص الدين له ، والتبري من الشرك؛ وقصد عليه السلام بهذا إظهار أن الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم . فلا يقي المرء من عذاب الله ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا: { وَلاَ بَنُونَ } ولو افتدى بِمَنْ في الأرض جميعا، وفي ذلك تذكير قومه بأن أصنامهم لا تغني عنهم شيئاً .

وهكذا نرى في قصة إبراهيم : الشجاعة في النطق بكلمة الحق ، حيث جابه قومه وأباه ببطلان عبادتهم للأصنام ، فلما نهضت الحجة على بطلان إلهية أصنامهم انتصب لبيان الإله الحق رب العالمين ، الذي له صفات التصرف في الأجسام والأرواح ، تصرف المنعم المتوحّد بشتّى التصرف إلى أن يأتي تصرفه بالإحياء المؤبد وأنه الذي نطمع في تجاوزه عنه يوم البعث فليعلموا أنهم إن استغفروا الله عما سلف منهم مِن كُفْر فإن الله يغفر لهم ، وأنهم إن لم يقلعوا عن الشرك لا ينفعهم شيء يوم البعث .

ثم صور لهم عاقبة حالَي التقوى والغواية بذكر دار إجزاء الخير ودار إجزاء الشر : { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ } ويرد مشهد من مشاهد القيامة يرسم ذلك اليوم الذي

يرجوه ويتقيه إبراهيم؛ فكأنما هو حاضر ، ينظر إليه ويراه ، ويرغب قومه بنعيم الآخرة ويحذرهم من أهوال يوم القيامة لعلهم يعتبروا ومع ذلك فإن أكثر قوم إبراهيم ما كانوا مؤمنين[93] .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى: { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } [مريم: 45].

بهذا الأسلوب الحكيم الهادىء الرقيق ، خاطب إبراهيم أباه ، وهو يدعوه إلى عبادة الله وحده ، وبعد أن كشف عما في عبادة الأصنام من نكارة ، وبيان المصدر الذي يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه في دعوة أبيه . نهاه عن عبادة الشيطان ، لأنها جهل وانحطاط فى التفكير . والمراد بعبادة الشيطان عبادة الأصنام؛ عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحاً عن فسادها وضلالها ، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر ، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم : { إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون } [الزخرف: 23].

فإن عبادة هذه الأصنام هي عبادة وطاعة للشيطان الذي هو عدو الإنسان ، لأن من عبد غير الله، فقد عبد الشيطان وطاعته في الكفر والمعاصي . فذلك شرك طاعة ، إذ هو الذي يسولها لك ويغريك عليها ، كما قال تعالى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعبدوني هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [يس: 60-61]. ثم علل له هذا النهى بأن الشيطان الذي أغراك بعبادة هذه الأصنام كان للرحمن عصيا، أي : كثير العصيان ، لا يهدى الناس إلى طاعة الله ، وإنما يهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه .

فنفره بهذه الصفة عن القبول منه ، لأنه أعظم الخصال المنفرة ، وأيضاً فإن معصية الله تعالى لا تصدر إلا عن ضعيف الرأي ، ومن كان كذلك كان حقيقاً أن لا يلتفت إلى رأيه ولا يجعل لقوله وزن . فهو تعليل لموجب النهي وتأكيد له ببيان أنه مستعص على من شملتك رحمته وعمتك نعمته . ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص وكل من هو عاص حقيق بأن تسترد منه النعم وينتقم منه ،

[93] – راجع : تفسير الطبري 363/19 ، وتفسير ابن كثير 149/6 ، وتفسير الرازي 485/11 -493 ، وتفسير الألوسي 252/14-256 ، وتفسير ابن عاشور 170/10 – 188 ، وتفسير السعدي 592-593 ، وتفسير ابن عطية 5 /137-139 ، وتفسير طنطاوي 3361 3170 ، وتفسير الظلال 351/5-356

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وللإشارة إلى هذا المعنى جيء بالرحمن . وفيه أيضاً إشارة إلى كمال شناعة عصيانه . وفي الاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لأنه ملاكها أو لأنه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام فتذكيره داع لأبيه عن الاحتراز عن موالاته وطاعته ، والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير . وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن ، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله ، وتغلق عليه أبوابها . كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته ولهذا ختم هذا النداء بما يدل على حبه ، وشفقته عليه فقال : { ياأبت إني أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } أي : يا أبت إني أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، وبذلك تصبح قريناً للشيطان فى العذاب بالنار ، لأنك انقدت له ، وخالفت طريق الحق . وإظهار الرحمن للإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما في قوله عز وجل : { مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم } [الانفطار: 6]. والخوف كما قال الراغب توقع المكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة فهو غير مقطوع فيه بما يخاف .

والتعبير بالخوف الدال على الظن دون القطع تأدب مع الله تعالى بأن لا يُثبت أمراً فيما هو من تصرف الله، وإبْقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلّص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان. واعلم أن من يظن وصول الضرر إلى غيره فإنه لا يسمى خائفاً إلا إذا كان بحيث يلزم من وصول ذلك الضرر إليه تألم قلبه كما هو حال الأنبياء مع أقوامهم ، كقوله تعالى : { فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } [فاطر: 8]. وقوله تعالى : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } [الكهف: 6]. لا جرم أنه لما قرر له أن عبادته الأصنام اتّباع لأمر الشيطان ومعصية للرحمان انتقل إلى توقع حرمانه من رحمة الله بأن يحلّ به عذاب من الله ، فحذره من عاقبة أن يصير من أولياء الشيطان الذين لا يختلف البشر في مذمتهم وسوء عاقبتهم ، ولكنهم يندمجون فيهم عن ضلال بمآل حالهم .

وللإشارة إلى أن أصل حلول العذاب بمن يحلّ به هو الحرمان من الرحمة في تلك الحالة؛ عبر عن الجلالة بوصف الرحمان للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم إنما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته مَن شأنه سعة الرحمة . والولي : الصاحب والتابع ومن حالهما حال واحدة وأمرهما جميع؛ فكني بالولاية عن المقارنة في المصير .

وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله ولياً للشيطان وتابعاً . فهداية الله لعبده إلى الطاعة نعمة؛ وقضاؤه عليه أن يكون من أولياء الشيطان نقمة . نقمة تقوده إلى عذاب أشد

وخسارة أفدح يوم يقوم الحساب .انظر كيف رتب إبراهيم الكلام مع أبيه في أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعماله المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن :

أولاً نبّه على ما يدل على المنع من عبادة الأوثان ، وموقظ لإفراطه وتناهيه حيث عبد ما ليس به حس ولا شعور ، **ثم ثنى** بدعوته إلى الحق وإتباع النظر والاستدلال وترك التقليد ، فلم يصف اباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن معى طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك ، **ثم ثلث** بتثبيطه ونهيه عما كان عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل منبهاً له أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول ، **ثم ختم** الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام على ما لا ينبغي بتخويفه سوء العاقبة ، وما يجره ما هم فيه من الوبال .

ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له ، وأن العذاب لاصق به ، فإن قوله في مقدمة كل كلام{ يا أبت }. دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب، وختم الكلام بقوله :{ إِنِّي أَخَافُ } وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بهدايته لأبيه وعنايته به ، وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : { ياأبت } توسلا واستعطافاً ، ولكن هذه النصيحة الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه ، لم تصادف أذناً واعية ولم تحظ من أبيه بالقبول بل قوبلت بالاستنكار والتهديد فقد قال: { أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي ياإبراهيم لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً } .

وكان هذا الإنذار من عذاب الله يقتضي الاعتبار بالعاقبة ، كما أن هذا الربط بين ربوبية الله ليوم الدين وما فيه من نعيم وعذاب وبين ألوهيته وعبوديته بالخوف من عذابه ورجاء النجاة منه ، هو من أجل أن يقيم المرء منهج حياته على أساس العبودية الخالصة لله والاحتكام لشرعه ودينه .

وإن هذا الاستسلام لمالك يوم الدين الذي يثيب فيه الطائع ويعاقب العاصي ، هي ضرورة لازمة يفرضها منطق العقل السليم والفطرة الباحثة عن الآمان من هول هذا الإنذار الرهيب المتحقق عقلاً وفعلاً والذي لا يقدر أحد على رده أو دفعه[94] ، قال تعالى : { إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ } [الطور: 7-8] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[94]– راجع : تفسير البقاعي 205/5 ، وتفسير ابن عاشور 483/8 ، وتفسير الرازي 313/10-315 ، وتفسير البقاعي 205/5 الألوسي 499/11-500 ، الشنقيطي 486/3 ، وتفسير الظلال 99/5 . وتفسير طنطاوي 2782 ، وتفسير السعدي 494

* الشاهد الرابع :

قال تعالى: { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } [العنكبوت: 25].

وقال إبراهيم لقومه : إنكم اتخذتم هذه الأوثان معبودات لكم من دون الله ، لا اعتقاداً واقتناعاً بأحقية هذه العبادة ؛ إنما يجامل بعضكم بعضاً ، ويوافق بعضكم بعضاً ، على هذه العبادة؛ أي ما اتخذتم أوثاناً إلا لأجل مودّة بعضكم بعضاً . ووجه الحصر أنه لم تبق لهم شبهة في عبادة الأوثان بعد مشاهدة دلالة صدق الرسول الذي جاء بإبطالها، وفعل { اتخذتم } مراد به الاستمرار والبقاء على اتخاذها بعد وضوح حجة بطلان استحقاقها العبادة . فتمحض أن يكون سبب بقائهم على عبادة الأوثان هو مودة بعضهم بعضاً الداعية للموافقة وعدم المخالفة .

فيكون الذي دعاهم إلى اتخاذها بأن بعض من يودّونه عبدها فعبدوها موافقة له لمودتهم إياه ، وهذا كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئاً فيفعله مودّة له ، والمودة : المحبة . فهؤلاء القوم يحب بعضهم بعضاً فلا يخالفه وإن لاح له أنه على ضلال ، ويحبون الأوثان فلا يتركون عبادتها وإن ظهرت لبعضهم دلالة بطلان إلهيتها قال تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } [البقرة: 165]. فهم يتوادون ويجتمعون على عبادتها ويتفقون في أمرها بالتناصر والتعاضد كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم على حساب الحق والعقيدة! وهذا شأنهم في الدنيا ، أما يوم القيامة فيتبدل الحال ، فإذا المودة التي يخشون أن يمسوها بالخلاف على حساب الحق ، والتي يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليها . إذا هي يوم القيامة عداء ولعن وانفصام ، فهذه المودة قد زالت لأنها مودة باطلة ، حيث يتبرأ القادة من الأتباع ، والأتباع من القادة ، ويكفر الأولياء بالأولياء ، ويتهم كل فريق صاحبه أنه أضله ، ويلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه! وفي ذلك تنبيهاً لسوء عاقبة هذه المودة وإزالة للغرور والغفلة ، ليعلموا أن اللذات العاجلة لا عِبرة بها إن كانت تَعقِب ندامة آجلة .

وهذ مما لا ينبغي أن يكون لمن له أدنى مسكة عقل . ثم بين منزلهم الذي يأوون إليه هم وأصنامهم يوم القيامة ، هي النار التي أرادوا أن يحرقوه بها ، فنصره الله منها ونجاه . فأما هم فلا نصرة لهم ولا نجاة! فنفى عنهم جنس الناصر . وهو من يزيل عنهم ذلك الخزي . وجيء في نفي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الناصر بصيغة الجمع لأنهم لما تألبوا على إبراهيم وتجمعوا لنصرة أصنامهم كان جزاؤهم حرمانهم النصراء مطابقة بين الجزاء والحالة التي جوزوا عليها . والمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن هؤ المشركين لم يتخذوا الأصنام آلهة ، وهم يعتقدون صحة ذلك اعتقادا جازما ، وإنما اتخذوها في الل آلهة تارة على سيل التواد فيما بينهم ، وتارة على سبيل التقليد والمسايرة لغيرهم . أما في الآ فستتحول تلك المودات والمسايرات والتقاليد إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات ، ثم لا يجدي ذ الكفر والتلاعن شيئاً ، ولا يدفع عن أحد عذاباً .

لقد أنكر إبراهيم على قومه كل محبة غير محبة الله تعالى وكل رابطة غير رابطة العقيدة و مولاة غير مولاة أهل الإيمان ، مستدلاً بذلك بيوم القيامة الذي يرجع فيه الناس جميعا إلى الله تعال حيث تنقطع فيه كل الوشائج الدنيوية من : محاب وأهل وأصحاب وعشيرة ، وكل الروابط التي تقوم على أساس الإيمان بالله ، وأما الروابط القائمة على أساس محبته تعالى ، فهي التي تبقى وتن نعيما لا ينقطع ، وأما غيرها فيزول ويورث حسرة وندامة وعذاب لا ينتهي [95] .

*** الشاهد الخامس :**

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة: 260].

إن إبراهيم عليه السلام بعد أن شهد لله شهادة بيان واستدلال ، كما في قوله تعالى: { قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [الأنبياء: 56]. طلب الترقي إلى مرتبة شهادة العيان بعد شهادة البيان وهي مرتبة الملائكة المقربين في شهاد بتوحيد الله عز وجل كما في قوله تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [آل عمران: 18]. والشاهد هو الذي يعلم الشيء ويب ، فشهادة الله تحقيقه وحدانيته بالدلائل التي نصبها على ذلك بأفعاله الخاصة التي لا يقدر عليها غ وما نصبه من الدلائل التكوينية في الآفاق والأنفس وبما أوحى من آياته الناطقة بذلك كسو

[95] - راجع : تفسير الرازي 152/12 وتفسير الالوسي 260/15 وتفسير الظلال 460/5وتفسير طنطاوي 3305-3306 وتفسير البقاعي 240/6 - 241 وتفسير السعدي 629 وتفسير ابن عاشور 484/10

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإخلاص ، وآية الكرسي وغيرهما فشبه سبحانه تلك الدلالة الواضحة بشهادة الشاهد في البيان والكشف ، وشهادةُ الملائكة تحقيقهم ذلك بما عاينوا من عظيم قدرته تعالى ، وقدم الملائكة لأن المقام للعلم لمن هم أعلم به سبحانه وتعالى ممن أطلعهم من الملك والملكوت على ما لم يطلع عليه الإنسان فعلمهم كله ضروري بخلاف البشر فإن علمهم ضروري واكتسابي ، والملائكة هم العباد المقربون المنزهون من أدناس البشر ، ولا شاغل لهم من شهوة ولا حظ ولا فتور ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولما خص أهل السماوات عم فقال : { وأولوا العلم } وشهادة أولي العلم تحقيقهم ذلك بالحجج والأدلة وهم الأنبياء والعلماء الذين عرفوه تعالى بالأدلة القاطعة ففعلوا ما فعل العظيم من الشهادات ليكون ذلك أدعى لغيرهم إليه وأحث عليه ، ولما كانت الشهادة قد تكون على غير وجه العدل نفى ذلك بقوله : { قَائِمًا بالقسط } بيان لكماله تعالى في أفعاله إثر بيان كماله في ذاته أي : مقيماً للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال ويثيب ويعاقب ، وما يأمر به عباده من إنصاف بعضهم لبعض والعمل على السوية فيما بينهم ، ووجه الترتيب شهادة الله بمعنى الدلالة ونصب الأدلة ، وشهادة الملائكة إقرار بما عاينوه من سائر كمالاته ، وشهادة أولي العلم احتجاج بما عرفوه من الأدلة على توحيده .

ومن هنا ندرك حقيقة طلب إبراهيم من ربه أن يطلعه على عالم الغيب المحجوب وهو رؤية كيفية إحياء الموتى ومعاينته واقعياً بل مارسه عملياً لينتقل بذلك من علم اليقين بالأدلة القاطعة إلى عين اليقين بالمعاينة والمشاهدة إلى حق اليقين بالممارسة العملية حيث أجرى الله على يده عملية إحياء الموتى ، وبذلك إطمئن قلبه حيث إنتقل من العلم النظري إلى العلم الضروري ،لأن العلم بالعيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال ، فكانت شهادته من شهادة بيان إلى شهادة عيان نظير ذلك قول الحواريّين : {قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ } [المائدة: 113]. { وتطمئنّ قلوبنا } أي بمشاهدة هذه المعجزة فإنّ الدليل الحسي أظهر في النفس ، { ونعلم أن قد صدقتنا } ، أي نعلم علم ضرورة لا علم استدلال فيحصل لهم العلمان ، { ونكون عليها من الشاهدين } ، أي من الشاهدين على رؤية هذه المعجزة فنبلّغها من لم يشهدها . فهذه أربع فوائد لسؤال إنزال المائدة ، كلّها درجات من الفضل الذي يرغب فيه أمثالهم ، فجعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام آية ناطقة للناس تدل على صدق البعث ، فقدم لهم شهادة حق بما عاينه ومارسه عملياً بإذن الله ، بأن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه وبأن الله هو المستحق للعبادة والخضوع ، وكان حاله بالشهادة كحال شهادة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملائكة لله من تفرده بالربوبية والألوهية ، وقد شهد إبراهيم لقومه وللناس جميعا أن الله هو ربه ، وأنه لا يتحاكم إلا إليه ، ولا يخضع إلا لأمره ، وهو أولى من يوجهه إلى حيث يختار . أي : بعد شهادته أن الله هو القادر على إحياء الموتى والذي يملك الحياة والموت للناس جميعاً ، شهد بعد هذا أن الله هو وحده المستحق للألوهية ، فالكل له عبيد . وهو الذي يستحق أن يدين الناس بدينه ، الذي يبلغه إليهم رسوله . . فهو تعريف للناس بحقيقة ربهم ، لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له ، وطاعتهم لرسوله .

وبما أن الله هو رب الناس جميعا وإليه مرجعهم وهو الذي يحاسبهم ويقرر مصيرهم فهو وحده الذي يختار للناس منهج حياتهم . والله وحده هو الذي يسن للناس شرائعهم . والله وحده هو الذي يضع للناس موازينهم وقيمهم وأوضاع حياتهم وأنظمة مجتمعاتهم ، لأن قانون الحساب والجزاء في الآخرة يخضع لهذه القوانين والموازين والشرائع التي سنها الله في الدنيا . وليس لأحد غيره شيء من هذا الحق ، لأن هذا الحق هو مقتضى ربوبيته والمتمثلة بقدرته على البعث والحساب والجزاء . والإيمان بالآخرة ، عنصر أصيل في العقيدة ، لا يستقيم منهجها في الحياة إلا بها. فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك . واستقرار هذه الحقيقة في ضمير المؤمن يسكب فيه الطمأنينة إلى طريقه ويشعره بالثقة بمنهجه ، فلا يجد أن هناك منهجاً آخر أو طريقاً يصح أن يتلفت إليه؛ ولا يجد أن هنالك حكما غير قول الله وحكمه يرجع عند الاختلاف إليه[96] .

* **الشاهد السادس :**

قال تعالى : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [النجم: 36-44].

[96] - راجع : تفسيرالظلال 303/3 ، وتفسير السعدي 1 / 321 ، وتفسير البقاعي 419/1 . وتفسير ابن كثير 689/1 ، وتفسير ابن عاشور 445/2 ، وتفسير النسفي 149/1 ، وتفسيرطنطاوي 567 ، الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى ،المؤلف : سعيد بن علي بن وهف القحطاني 500/1

وقوله تعالى : { وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى } [النجم: 47] .

لقد تقدم هذه الآيات الكلام عن علم الله وقدرته ، ووعده المسيء والمحسن بالجزاء ، وأن المحسن هو الذي يجتنب كبائر الإثم ، فلم يكن الإنسان مستغنياً عن سماع كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن تولى ولم يؤمن به ، فهل طلب علم ذلك من الرسل السابقين فينبئه العالمون بذلك ، فحجهم بذكر ما تضمنته صحف إبراهيم وموسى ، وإنما خصهما بالذكر لأن مآثر شريعة إبراهيم مأثور بعضها عند العرب ، وشريعة موسى معلومة عند اليهود ، وهذا الدين قديم ، موصولة أوائله وأواخره ، ثابتة أصوله وقواعده ، يصدّق بعضه بعضاً على توالي الرسالات والرسل : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ موسى وإبراهيم الذى وفى } .

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى ، وما في تلك الصحف من أصول الدين ، وتقرير ربوبية الله تعالى وإثبات ألوهيته بالبراهين والحجج التي لا ترد بحال . ومن ذلك الاستدلال بتفرده تعالى بالبعث والحساب والجزاء على تفرد ألوهيته ووجوب عبادته ، والإستقامة على منهجه وشرعه بإتباع رسله والاستجابة لهم وعدم تكذيبهم ومخالفتهم ، والمبادرة في الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا ، فهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة للإنسان ليعمل ويسعى ، فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل ، ولا يحسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله فيها ــ وهذا لا يعني انقطاع أثر العمل وثوابه بعد الموت أو الانتفاع بعمل الغير فهي من سعيه أو من آثار عمله كما دلت النصوص على ذلك ــ ولن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرئ جزاء سعيه وافياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظلم ، وأن عمله سوف يعلن ، فيُرى يوم القيامة تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسئ ،كما قال تعالى : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } [الزلزلة: 7 – 8]. ومن لم يعمل صالحاً لا ينال خيراً ، وكل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، كما قال : { وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } [فاطر: 18]. { مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا } [فصلت: 46]. وقوله : { وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ } [الروم: 44]. والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة .

وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة . إلى جانب عدالة الجزاء . فتتحقق للإنسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسؤولاً مستخلفاً في الأرض لإقامة منهج الله فيها وفق عهده

وشرطه ، مؤتمناً على نفسه؛ تتاح له الفرصة للعمل ثم يحاسب ويجازى على عمله حينما تنقضي الحياة الدنيا وينتهي مصيره عند ربه:{ وأن إلى ربك المنتهى }. أي: وأن إلى ربك وحده لا إلى غيرها انتهاء الخلق ومرجعهم ومصيرهم فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الإنسان وتصوره وسلوكه ، فحين يحس أن المنتهى إلى الله فإنه يستشعر من أول الطريق ، نهايته التي لا مفر منها ولا محيص عنها ، ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة؛ أو يحاول في هذا ما يستطيع ، ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق! وفي هذا الخطاب تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن ، لأن قوله : أيها السامع كائناً من كان إلى ربك المنتهى يفيد الأمرين إفادة بالغة حد الكمال ، فهو سبحانه يقرر حقيقة البعث {وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا} فهو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

ويؤكد ذلك أيضاً بالإستدلال بالبداءة على الإعادة، فقال: { وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأخْرَى } فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات . وهو حين يقرر هذه الحقيقة يستدل به على أمرين : هما قدرة الله على البعث ، وأنه ما خلق الإنسان إلا ليكلفه ويجازيه ، وقد جمع الأمرين قوله تعالى : { أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى } [القيامة: 36-46]. فذكر دلالة ذلك على البعث في قوله : { أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى } ، وذكر أنه ما خلقه ليهمله من التكليف والجزاء ، منكراً على من ظن ذلك بقوله : { أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى } أي مهملاً من التكليف والجزاء .

فجاءت هذه الآيات لتقرير ربوبية الله تعالى وإثبات ألوهيته واستحقاقه للعبادة ، من خلال عدالته في الحساب والجزاء وانتهاء أمر الخلق جميعاً بالرجوع إليه ، مما استوجب عليهم أن يخلصوا له بالعبودية والطاعة المطلقة لينجوا من عذابه الرهيب ويفوزوا بنعيمه العظيم [97] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[97]- راجع : تفسير ابن عاشور 194/14 -209، وتفسير الرازي 444/14 ، وتفسير الطبري 546/22-548 ، وتفسير طنطاوي 4011 ، وتفسير الالوسي 19/20 -30 . وتفسير الشنقيطي 52/8 ، وتفسير الظلال 63/7 -67 ، وتفسير السعدي 821

– الفصل الثاني –

استدلال إبراهيم عليه السلام بملك الله تعالى التام على ألوهيته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* **تمهيد :**

إن الله تعالى هو المتفرد بخصائص الربوبية التي لا ينازعه فيها أحد من الخلق ، فضلا على أن يدعيها لنفسه ، وكل من حاول أن يدعي شيئاً من ذلك ، فسرعان ما انكشفت دعواه لعجزه عن إثباتها ، وكان محل سخرية الساخرين ، كدعوى الملك القدرة على الإحياء والإماتة عندما حاجه إبراهيم وبهته ، وهذا الوجود كله مربوب لله تعالى ، وهو مخلوق مملوك له ، خاضع لسلطانه ، وهي ملكية شاملة مطلقة لا يرد عليها قيد ولا شرط ولا فوت ولا شركة . فهو سبحانه المتفرد بالخلق وهو المتفرد بالملك ، وبعد أن تقرر أن الله وحده هو الخالق ، وأن الله وحده هو المالك ، يجيء الاستنكار العنيف في توجيه العبودية لغير الله ، ويتقرر أن هذا هو الشرك وأنه مناقض لحقيقة الإسلام لله تعالى ، كما أنه مناقض لحقيقة الملكية ومعناها السائد والقائم بين الناس، وهو قانون ثابت مقرر عندهم لا يقبل النقض بحال ، لأنه به يتم صيانة حقوقهم وحفظها ، وعليه يتم ضبط تصرفاتهم ومعاملاتهم فيما بينهم .

ومن هذه المقررات الثابتة والقائمة بين الناس لحقيقة الملكية : أن من يملك شيئا له الحق في التصرف بملكه ، وله أن يملكه لغيره أو يجعله عنده عارية يستردها منه متى يشاء . والعارية ليست تمليكاً ولا ملكية أصيلة يتصرف فيها المستعير على هواه ، إنما هي ملكية معارة له خاضعة لشروط المملك الأصلي وتعليماته؛ فإذا تصرف المستعير فيها تصرفاً مخالفاً لشرط المالك وقع هذا التصرف باطلاً . وللمالك أن يجعل له وكيلا ينوب عنه في صيانة ملكه وتطبيق شروطه .

ومن هذه المقررات والوقائع الجارية بين الناس يصنع القرآن العقيدة ، ومن هنا ندرك أثر هذه الحقيقة ودورها الكبير في إنشاء العقيدة وتأسيس بنائها من الوجهة الفكرية والنفسية تقريراً وإلزاما ، وذلك من خلال معنى الملكية القائم في دنيا الناس .

وعليه فإنه إذا تقررت الملكية الحقيقية لله ، لم يكن للناس ملكية ابتداء لشيء . إنما كان لهم استخلاف من المالك الواحد الأصلي الذي يملك كل شيء . ومن ثم وجب أن يخضعوا في خلافتهم لشروط المالك المستخلف في هذه الملكية . وشروط المالك المستخلف قد بينها لهم في شريعته؛ فليس لهم أن يخرجوا عنها؛ وإلا بطلت ملكيتهم الناشئة عن عهد الاستخلاف ، ووقعت تصرفاتهم باطلة لا شرعية فيها ، ووجب على المؤمنين بالله في الأرض رد هذه التصرفات إلى منهج الله وشريعته لأنهم إنما هم وكلاء مستخلفون وأمناء في تطبيق منهج الله في الأرض . وهكذا نجد أثر هذا التصور الإسلامي واضحاً في واقع الحياة الإسلامية ، وفي حركة التاريخ الإسلامي وفتوحاته ورعايته العالمية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

للأمم والشعوب . كما يظهر أثر هذه الحقيقة واستقرارها في تصور الإنسان وشعوره ، وهي حقيقة ملكية الله الشاملة لما في السماوات وما في الأرض ، وخلو يده هو من ملكية أي شيء مما يقال : إنه يملكه؛ ورد هذه الملكية لصاحبها الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، وإحساسه بأن ما في يده عارية لأمد محدود ، ثم يستردها صاحبها الذي أعارها له في الأجل المرسوم . . إن مجرد استحضار هذه الحقائق والمشاعر كفيل وحده بأن يخفف من حدة الشره والطمع ، وحدة الشح والحرص ، وحدة التكالب المسعور . وكفيل كذلك بأن يسكب في النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق؛ والسماحة والجود بالموجود؛ وأن يفيض على القلب الطمأنينة في حالتي الوجدان والحرمان سواء .

وبعد تقرير حقيقة أن الله وحده هو المالك لهذا الوجود ، ملكية شاملة مطلقة ، تأتي المطالبة بمستلزماتها من حق تفرده بالعبودية وما يصاحبه من الاستنكار في توجيه العبودية لغير الله ، قال تعالى : { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ } [المؤمنون: 84-89].

ولقد كان مشركو العرب مضطربي العقيدة ، لا ينكرون الله ، ولا ينكرون أنه مالك السماوات والأرض ، مدبر السماوات والأرض ، المسيطر على السماوات والأرض ، ولكنهم مع ذلك يشركون معه آلهة مدعاة ، يقولون : إنهم يعبدونها لتقربهم من الله ، وينسبون له البنات . سبحانه وتعالى عما يصفون : فهو هنا يأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها ، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة ، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه مسلماتهم ، لو كانوا يستقيمون على الفطرة ولا ينحرفون .

وهذا الجدال يكشف عن مدى الاضطراب الذي لا يفيء إلى منطق ، ولا يرتكن إلى عقل؛ ويكشف عن مدى الفساد الذي كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه في الجزيرة عند مولد الإسلام .{ قل: لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ }. فهو سؤال عن ملكية الأرض ومن فيها: { سيقولون: لله }. ولكنهم مع ذلك لا يذكرون هذه الحقيقة وهم يتوجهون بالعبادة لغير الله :{ قل : أفلا تذكرون؟ } . { قل: من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم }. فهو سؤال عن الربوبية المدبرة ؛ المصرفة للسماوات السبع والعرش العظيم { سيقولون : لله } ولكنهم مع

ذلك لا يخافون صاحب العرش ، ولا يتقون رب السماوات السبع ، وهم يشركون معه أصناماً مهينة ، ملقاه على الأرض :{ قل: أفلا تتقون } . { قل: من بيده ملكوت كل شيء؟ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟ }. فهو سؤال عن السيطرة والسطوة والسلطان . سؤال عمن بيده ملكية كل شيء ملكية استعلاء وسيطرة . ومن هو الذي يجير بقوته من يشاء فلا يناله أحد؛ ولا يملك أحد أن يجير عليه ، وأن ينقذ من يريده بسوء من عباده . . من؟ { سيقولون : لله } فما لهم يصرفون عن عبادة الله؟ وما لعقولهم تنحرف وتتخبط كالذي مسه السحر : { قل : فأنى تسحرون؟ } . ألا إنه الاضطراب والتخبط الذي يصاب به المسحورون! حينما يخالفون المعقول ويدعون لله تعالى الولد والشريك من غير برهان ولا دليل ، فيأتي القرآن ليردهم إلى منطق الرشد والعقل وليقرر حقيقة التوحيد مستدلاً على ذلك بتفرده تعالى بملكه الشامل لهذا الوجود ، وبطلان ما يدعونه من الولد والشريك لعدم مشاركته بشيء قال تعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الاحقاف: 4].

إنها الحجة القرآنية التي يواجه بها القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح الذي لا يقبل الجدل والمغالطة ، والذي يخاطب الفطرة بمنطقها بما يصعب التغلب عليها ومغالطتها : { أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ } . ولن يملك إنسان أن يزعم أن تلك المعبودات الباطلة قد خلقت شيئاً ، إن منطق الفطرة . ومنطق الواقع . يصيح في وجه أي ادعاء من هذا القبيل :{ أم لهم شرك في السماوات؟ } . ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك المعبودات شركة في خلق السماوات أو في ملكيتها . ونظرة إلى السماوات توقع في القلب الإحساس بعظمة الخالق ، والشعور بوحدانيته؛ وتنفض عنه الانحرافات والترهات . والله منزل هذا القرآن يعلم أثر النظر في الكون على قلوب البشر؛ ومن ثم يوجههم إلى كتاب الكون ليتدبروه ويستشهدوه ويستمعوا إلى إيقاعاته المباشرة في القلوب . ثم يأخذ الطريق على ما قد يطرأ على بعض النفوس من انحراف بعيد . فقد يصل بها هذا الانحراف إلى أن تزعم هذا الزعم أو ذاك بلا حجة ولا دليل . يأخذ عليها الطريق ، فيطالبها الحجة والدليل؛ ويعلمها في الوقت ذاته طريقة الاستدلال الصحيح؛ ويأخذها بالمنهج السليم في النظر والحكم والتقدير :{ ائتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين } . فإما كتاب من عند الله صادق . وإما بقية من علم مستيقن ثابت . وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع المدبر المقدر؛ وليس فيها من كتاب يقر خرافة الآلهة المتعددة ، أو يقول بأن لها في

الأرض خلقاً أو في السماوات شركاً! وليس هنالك من علم ، ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت ، وهكذا يواجههم القرآن بشهادة هذا الكون . وهي شهادة حاسمة جازمة . ويأخذ عليهم طريق الادعاء بلا بينة . ويعلمهم منهج البحث الصحيح . في آية واحدة قليلة الكلمات ، واسعة المدى ، قوية الإيقاع ، حاسمة الدليل .

إن القرآن حينما يقرر ملكية الله تعالى التامة لكل شيء ، وأنه المتصرف بملكه كيف يشاء ، إنما يقرر ذلك ليستدل به على تفرد ألوهيته واستحقاقه وحده للعبودية ، وليس لأحد ممن هو مخلوق مملوك له أن يأتي وينازعه في خصائص ألوهيته سواء في حكم أو قضاء أو تشريع ، قال تعالى : { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [الشورى: 12-13].

إن القرآن كثيراً ما يربط بين ملكيته تعالى الشاملة للوجود وتفرده في التصرف فيه كيف يشاء وبين حقه في التشريع وتفرده في ذلك ، لأن مقتضى ملكية الله التامة لهذا الوجود ، أن يكون هو وحده صاحب الحق في التصرف بملكه في سن القوانين والأحكام والتشريعات ، يقول القرطبي : " أي الذي له مقاليد السموات والارض شرع لكم من الدين ما شرع لقوم نوح وإبراهيم "[98]. فما دام أن الله هو المالك المتصرف للوجود فهو من يملك دون غيره أن يصرف شؤون الناس ، ويشرع لهم القوانين ، ويضع لهم منهج حياتهم ، وليس لأحد أن ينازعه في ذلك أو يتصرف بملكه بغير إذنه ، قال تعالى : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الشورى: 21]. وكثيراً ما يُخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئاً ، لمجرد أنهم يجدون أشياء في أيديهم ، مسخرة لهم ، ينتفعون بها ، ويستخدمونها فيما يشاءون . ولكن هذا ليس ملكاً حقيقياً . إنما الملك الحقيقي لله الذي يحكم طبائع الأشياء ، ويصرفها وفق الناموس المختار ، فتلبي وتطيع وتتصرف وفق ذلك الناموس . وكل ما في السماوات وما في الأرض ملك لله لا يشاركه فيه أحد سواه ، ومتى استقرت هذه الحقيقة استقراراً صادقاً في الضمائر ، عرف الناس إلى أين يتجهون فيما يطلبون لأنفسهم من رحمة وخير ونفع ورزق ، قال تعالى : { قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ

---

[98]- تفسير القرطبي : 10/16

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام: 12-14].

إنه موقف المواجهة للبيان والتقرير ، ثم المفاصلة . . ومن ثم يبدأ بتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه المواجهة . مواجهة المشركين بالسؤال عن الملكية لكل ما في السماوات والأرض، مع تقرير الحقيقة التي لم يكونوا هم يجادلون فيها؛ والتي حكى القرآن في مواضع إقرارهم الكامل بها : { قل : لمن ما في السماوات والأرض؟ قل : لله } . ولقد كان العرب في جاهليتهم أرقى من الجاهلية الحديثة فقد كانوا يعرفون ويقررون أن لله ما في السماوات والأرض . ولكنهم ما كانوا يرتبون على هذه الحقيقة نتائجها المنطقية؛ بإفراد الله سبحانه بالحاكمية فيما يملك ، وعدم التصرف فيه إلا بإذن الله وحده وشرعه . وبهذا اعتبروا مشركين ، وسميت حياتهم بالجاهلية! فكيف بمن يخرجون الحاكمية في أمرهم كله من اختصاص الله سبحانه؛ ويزاولونها هم بأنفسهم؟! بماذا يوصفون وبماذا توصف حياتهم؟ لا بد من إعطائهم صفة أخرى غير الشرك . . فهو الكفر والظلم والفسق كما يقرر الله سبحانه . . أياً كانت دعواهم في الإسلام وأياً كانت الصفة التي تعطيها لهم شهادات الميلاد! وإن هذا الكفر بالله خالقهم ومالكهم ورازقهم ومدبر أمورهم لن ينقص من ملكه شيئاً . ولن يضروه في شيء ابداً وإنما يضرون أنفسهم .

وقد بين سبحانه مدى ضآلة شأن اؤلئك الذين يكفرون بالله في ملكه ؛ وهو أن أمرهم عليه سبحانه؛ وقدرته على الذهاب بهم والمجيء بغيرهم ، قال تعالى : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (132) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا } [النساء: 131-133]. وبعد تعيين من له ملكية السماوات والأرض تأتي الوصية بالتقوى ، وذلك أن المالك هو من له حق الوصية في ملكه ، فصاحب السلطان الحقيقي هو الذي يُخشى ويُخاف . وتقوى الله هي الكفيلة بصلاح القلوب ، وحرصها على منهجه في كل جزئياته . وهي وصية الرسل والأنبياء جميعا من السابقين واللاحقين ، وهي تتضمن الإقرار لله رب العالمين ومالك الخلائق أجمعين بالوحدانية والإستسلام له بالطاعة والعبادة الخالصة ، وقد سجل القرآن وصية ابو الأنبياء إبراهيم عليه السلام لبنيه ، ثم تواصوا بها من بعده . قال تعالى : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 131-133] . وإذا توحدت الملكية لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتجهون إليه ، ولا يخدمون غيره . فالرجل لا يخدم سيدين في وقت واحد : { مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } [الأحزاب: 4] وإفراد الله سبحانه بالألوهية يصاحبه في القرآن كثيراً إفراده سبحانه بالملك والهيمنة – والسلطان والقهر ، فالتوحيد الإسلامي ليس مجرد توحيد ذات الله . وإنما هو توحيد إيجابي . توحيد الفاعلية والتأثير في الكون ، وتوحيد السلطان والهيمنة أيضاً ، ومتى شعرت النفس أن لله ما في السموات وما في الأرض ، وأنه بكل شيء محيط ، لا يند شيء عن علمه ولا عن سلطانه . . كان هذا باعثها القوي إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والعبادة؛ وإلى محاولة إرضائه باتباع منهجه وطاعة أمره . . وكل شيء ملكه . وكل شيء في قبضته . وهو بكل شيء محيط[99]. إن المتدبر لكتاب الله تعالى يجد أن هناك آيات استخدمها القرآن في الاستدلال بملكية الله الشاملة للدنيا والآخرة على تفرد ألوهيته ووجوب عبوديته تعالى والتي ذُكر فيها إبراهيم عليه السلام بصورة مباشرة ، ومن هذه الآيات التي استدل بها تعالى في ذلك نذكرها على النحو الآتي :

ـــ **قال تعالى** : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا } [النساء: 125-126].

ـــ **قال تعالى** : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون } [البقرة: 131-132].

ـــ **قال تعالى** : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[99]- راجع : تفسير الظلال 266/1 ، 255/2 ، 490/2 ، 243/5 ، 302/5 ، 307/6 وتفسير القرطبي 10/61 ، وطريق الدعوة في ظلال القرآن ، أحمد فايز ،93-97 ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، زكريا الشلول 174-175

كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [الأنعام: 161-164].

ـــ قال تعالى : { أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } [النساء: 53-54].

ـــ قال تعالى : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [التوبة: 113-116].

ـــ قال تعالى : { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى: 12-13].

وقد استخدم إبراهيم عليه السلام دليل ملكية الله تعالى الشاملة والتامة والمطلقة لكل شيء في هذا الوجود على تفرده تعالى بالألوهية واستحقاقه للعبودية ، مقرراً أن من يملك هو من يحق له أن يتصرف بملكه ، ولا يحق لغيره أن يتصرف بهذا الملك إلا بإذن مالكه ، وإلا كان هذا التصرف باطلاً وغير شرعي ، وعليه فإن هذ الوجود كله لله فهو خالقه ومالكه ومدبره ، وليس لأحد أن يتصرف بملكه من حكم أو قضاء أو تشريع من غير أمره وإذنه أو أن يجعل لنفسه الحق في وضع قيم أو موازين من عند نفسه ، إن هذه التصرفات من غير إذن الله مالك كل المخلوقات هي تصرفات باطلة علاوة على إنها شرك عظيم . وسوف نبين كيف استدل إبراهيم عليه السلام بملكية الله الشاملة على ألوهيته تعالى من خلال ما يلي :

أ. الاستدلال بملكه تعالى التام لجميع الخلائق .

ب. الاستدلال بملكه تعالى ليوم الدين .

- المبحث الأول -

دليل ملكية الله تعالى لجميع الخلائق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن إبراهيم عليه السلام يقرر قومه ابتداءً بحقيقة ملكية الله الشاملة لكل شيء، ليقررهم بعد ذلك بحقيقة توحيد ألوهيته تعالى ، وبطلان ما يدعونه من الشرك ، وحقيقة ملكية الله لجميع الخلائق حقيقة لا يملك المشركون أن ينكروها ، ولكنهم كانوا يشركون معه آلهة مدعاة ويقولون: إنهم يعبدونها لتقربهم من الله ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، فكان عليه السلام يأخذ عليهم الإقرار بملكية الله لكل شيء ؛ ليواجههم بها فيما يجعلونه للشركاء بغير إذن من الله . أي يأخذهم بمسلماتهم التي يقرون بها ، ليصحح ذلك الاضطراب في العقيدة ، ويردهم إلى التوحيد الخالص الذي تقود إليه ملسماتهم ، ولو أنهم استخدموا عقولهم وصلحت فطرتهم لاهتدوا ، ولكنهم زاغوا فزاغت قلوبهم . إن تقرير هذه الملكية الخالصة تستوجب العبودية الخالصة لله وحده ، وكذلك يعقبه الاستنكار للشرك وكل عبودية لغير الله تعالى . وقد استدل إبراهيم بملكية الله لجميع الخلائق على ألوهيته وعبوديته المتفردة ، ومن ذلك :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض الَّذِي فطرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [الأنبياء: 56].

وكان من الظاهر أن يجيبهم عليه السلام بقوله بل أنا من المحقين ولست من اللاعبين فجاء بقوله : { بَلِ رَبُّكُمْ } الآية لينبه به على أن إبطالي لما أنتم عاكفون عليه وتضليلي إياكم مما لا حاجة فيه لوضوحه إلى الدليل ولكن انظروا إلى هذه العظيمة وهي أنكم تتركون عبادة خالقكم ومالك أمركم ورازقكم ومالك العالمين والذي فطر ما أنتم لها عاكفون وتشتغلون بعبادتها دونه فأي باطل أظهر من ذلك وأي ضلال أبين منه. بل ربكم الذي يستحق منكم اختصاصه بالعبادة والتعظيم والخشوع هو مالك السماوات والأرض الذي خلقهنّ وأنشأهن بما فيهن من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يَحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه ، فكان قَولُه إضرابا عما بنوا عليه

مقالتَهم من اعتقاد كونها أربابا لهم ، وهذا انتقال عن تضليلهم في عبادة الأصنام ونفي عدم استحقاقها لذلك إلى بيان الحق وتعيين المستحق للعبادة . ووصفه تعالى بإيجادهن إثر وصفه سبحانه بربوبيته لهن تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل عن الربوبية التى هى منشأ استحقاق العبادة ، فهو رب واحد . وهو رب الناس ورب السماوات والأرض . وربوبيته ناشئة عن كونه الخالق . فهما صفتان لا تنفكان ، فكان وصفه بالربوبية إيذاناً بأن ما لا يخلق ولا يربى بالنعم على الإطلاق بعيد عن الألوهية . فإبراهيم عليه السلام قد جمع لهم بين الدليل العقلى، والدليل السمعى:

ــ **أما الدليل العقلي** : فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده، هو المالك لجميع المخلوقات التي خلقها، من بنى آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن، بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مملوك مفطورا مدبرا متصرفا فيه، ودخل في ذلك، جميع ما عبد من دون الله. فهل يليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز ، أن يدع عبادة الخالق المالك الرازق المدبر؟ . ويعبد مخلوقا متصرفا فيه، لا يملك نفعا، ولا ضرا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا، وما هى إلاّ مربوبة مخلوقة وليست أربابا ولا خالقة .

ــ **أما الدليل السمعي**: فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصا أولي العزم منهم خصوصا خليل الرحمن . فلهذا قال إبراهيم: ﴿ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ وهو تذييل المقصود به : تأكيد ما أخبرهم به ، وما دعاهم عليه . أى : وأنا على أن الله هو ربكم ورب كل شىء وأنه وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل . وأنا من العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه ولست من اللاعبين ، فإن الشاهد على الشىء من تحققه وحققه ووثق فى صدق ما يقول ثقة لا يشك فى صحته ، وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليها وإثباته بها .

وإبراهيم عليه السلام لم يشهد خلق السماوات والأرض ، ولم يشهد خلق نفسه ولا قومه . ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد أن يشهد المؤمنون عليه واثقين . وإن الإنسان ليهتف بكل كيانه بوحدانية الخالق المالك المدبر ، والإقرار بوحدة الناموس الذي يدبر الكون ويصرفه . وإن كل ما في الكون لينطق بوحدة الخالق المالك المدبر ، لأن هذا الكون بما فيه ومن فيه مخلوق مملوك

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مربوب لله ، فهو كون مسلم طائع لربه ومليكه ، تسجد له خاشعة ، وتسبح له عابدة ، كما شهدت بذلك النصوص القرآنية المتنوعة :

ــ **قال تعالى** : { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [التغابن: 1].

ــ **قال تعالى** : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } [النحل: 49-50].

ــ **قال تعالى** : { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا }[الإسراء: 44]. وهو كون مؤمن عابد لمولاه ، يغار على جلاله ، وينتفض لمهابته ، ويغضب للشرك به حين يقع من المشركين الجهال :

ــ **قال تعالى** : { تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا } [مريم: 90-93].

وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض ، وترتعش وترتجف من سماع تلك القولة النابية وهي تمس بقداسة الذات العلية ، إنها انتفاضة كونية من الغضب والغيرة لبارئه ومالكه، وهو يحس بتلك الكلمة المنكرة ، تصدم كيانه ؛ وتجافي القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها ، فهل يعقل أن يكون الكون كله هذا حاله من الغضبة الكونية لجلال الله وعظمته من الخشوع والتصدع والارتجاف ، في مقابل هذا الجحود والكفر والعصيان من البشر الذين منحهم الله طاقة عقلية ، وكتلة من المشاعر والأحاسيس، تجد منهم هذه القسوة والجفوة والبلادة، في تعاملهم مع خالقهم ومالكهم ورازقهم .

إن هذا الكون العابد المؤمن الخاضع لأمرالله ، حجة يحتج بها تعالى على عباده في وجوب عبادته والاستجابة له والخضوع لأمره وحده ، فهو خالقهم ومالكهم ومربيهم بنعمه وفضله ، وهو من يستحق وحده أن تصرف له العبادة من : الطاعة ، والشكر ، والمحبة ، والرجاء ، والخشية ، والخشوع ، والتعظيم ... إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصرف إلا إليه وحده سبحانه ، فالرب المعبود لابد أن يكون خالقاً ، ولا بد أن يكون مالكاً [100]

[100] - راجع : تفسير الجلالين 38/6 ، وتفسير الألوسي 12/ 410 ، وتفسير السعدي 525 ، وتفسير طنطاوي 2910 ، وتفسير ابن عاشور 176/9 ، وتفسير الظلال 161/5 وتفسير الطبراني 289/4 ، وتفسير اطفيش 6/ 225 ، القصص القرآني ، د. صلاح الخالدي 334/1

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ــ **قال تعالى** : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } [فاطر: 13-14].

ــ **وقال تعالى** : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ } [سبأ: 22].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: 75-76].

وقد رد إبراهيم عليه السلام على قومه بما يوقظهم من جهلهم لو كانوا يعقلون ، وها هو يعلن عداوته لهم ولمعبوداتهم الباطلة ، ويجاهرهم بأن عبادته إنما هي لله تعالى وحده فيقول لهم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه الأصنام التي عبدتموها أنتم وآباؤكم الأقدمون من دون الله إنها عدو لي وأنا منها بريء لا أعبدها، وأعمل على إبطالها ومحقها وأعادي كل من عبدها لأن عبادتها باطلة لا تصح لكن الله تعالى رب العالمين مالك الخلائق ومربيهم أجمعين ، ومدبر هذه الأكوان كلها والمتصرف فيها ، فإنه ليس بعدوي ، بل هو وليّي ومعبودي؛ لأن الكل تحت ملكوته مفتقر إليه تعالى في ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعها .

فقوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام مع الله تعالى فقال إبراهيم كل ما تعبدون أعداء لي وأنا بريئ منها لأنهم مخلوقين مملوكون لله عز وجل فلا يستحقون هذه العبادة على الاطلاق وإنما المستحق لها هو الخالق والمالك والمدبر لهذا الكون كله ، ولذلك استثنى إبراهيم عليه السلام مما يعبدون رب العالمين جل جلاله ، فهم يعلمون أن الله تعالى هو ربهم وأنه خلقهم ، وأنهم عباده ، وهذا حال كثير من الخلق كقوله تعالى : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف: 106]. فكثير مما يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أن الله ربه وأن الله خالقه ومالكه ورازقه ومع ذلك فهو يشرك به .

ثم شرع يصف معبوده الذي يستحق العبادة بما هم به عالمون من أنه على الضد الأقصى من كل ما عليه أصنامهم ، فهو : الخالق ، الرازق ، الضار النافع ، المحيي المميت ، والباعث والمحاسب والمجازي عباده جميعا على أعمالهم يوم الدين . وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على

قومه، في أنه لا تصلح العبودية إلا لرب العالمين مالك هذا الكون كله ، فكيف تعبدونها وأنتم وهي من سائر ملكه تعالى؟ وهذا من إبراهيم استنكاراً وتأنيباً لقومه ليوقظهم من جهلهم ومن عماية التقليد[101] .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا } [العنكبوت: 17].

إن إبراهيم دعى قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له وتوحيد في الشكر فإنه وحده خالقهم ومن يملك أمر أرزاقهم ومعاشهم ، وكان قوم إبراهيم يعترفون في كونه تعالى هو خالقهم ومالكهم ومالك أرزاقهم وبيده ملكوت كل شيء ، ولكنهم يجعلون له شركاء في العبادة ليكونوا لهم شفعاء كحال مشركي العرب ، فبين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة وقدم لهم الدليل على بطلان ألوهية أصنامهم من وجهين :

ـــ **الأول** : بين لهم أن ما يعبدونه من دون الله تعالى إنما هي مجرد أوثان وهي في نفسها تماثيل مصنوعة وليس فيها وصف غير ذلك ، فهم من صنعوها لأنفسهم بقصد عبادتها وسموها آلهة وادعوا أنها شفعاؤهم عند الله سبحانه ، وهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل ، وإنما يخلقون إفكاً وينشئون باطلاً من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة ، ويخلقونه خلقاً بلا سابقة أو مقدمة ، وهو استدلال على جريرة ما هم عليه من حيث إنه زور وباطل .

ـــ **الثاني** : ثم بين عجزها بأن هذه الأوثان التي عبدوها من دون الله تعالى لا تملك لهم رزقا ، لذلك فإن عبادتهم لها باطلة { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا } وحقيقة معنى الملك التمكن من التصرف بدون معارض ثم أطلق على استطاعة التصرف في الأشياء بدون عجز

كما قال قيس بن الخطيم : ملكت بها كفي فأنهر فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها

فإن كفه مملوكة له لا محالة ولكنه أراد أنه تمكن من كفه تمام التمكن فدفع به الرمح دفعة عظيمة لم تخنه فيها كفه . ومن هذا الاستعمال نشأ إطلاق الملك بمعنى الاستطاعة القوية الثابتة على سبيل المجاز المرسل كما وقع في هذه الآية ونظائرها ،كقوله تعالى : { وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا

[101]– راجع : تفسير الطبري 312/19 ، 532/4 ، 313/7 ، وتفسير الالوسي 26/9 ، وتفسيرطنطاوي 3165 ، وتفسير البقاعي 6/ 69 ، اطفيش 156/7 ، ابو السعود 248/6

وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا } [الفرقان : 3] . وقوله تعالى : { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [النحل: 73-75]. هذه الآية أفادت التّوبيخ على شكر ما لا يستحقّ الشكر ، فإن العبادة شكر ، فهم عبدوا ما لا يستحقّ العبادة ولا بيده نعمة ، وهو الأصنام ، لأنها لا تملك ما يأتيهم من الرزق لاحتياجها ، ولا تستطيع رزقهم لعجزها. وكونهم أشركوا بالله وأثبتوا للأصنام صفات الإلهية وشبّهوها بالخالق على سبيل ضرب المثل ، فعارضهم تعالى بضرب مثل لنفي الشريك عنه ، ثم دعاهم لإعمال النّظر الصحيح ليصلوا إلى العلم البريء من الأوهام في قوله تعالى:{وأنتم لا تعلمون}. ثم أعقب زجرهم عن أن يشبّهوا الله بخلقه أو أن يشبّهوا الخلق بربّهم بتمثيل حالهم في ذلك بحال من مثل عبداً بسيّده في الإنفاق ، فشبه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرف في نفسه ولا يملك مالا وشبه شأن الله تعالى في رزقه إياهم بحال الغني المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره . ومعرفة الحالين المشبهتين يدل عليها المقام والمقصود نفي المماثلة بين الحالتين فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية ولذلك أعقب بجملة (هل يستوون) فبيّن غرض التشبيه بأنّ المثل مراد منه عدم تساوي الحالتين ليستدلّ به على نفي الشريك عن الله بعدم المساواة بين الله تعالى وبين آلهتهم المزعومة كما يفهم ذلك من وجه الشبه وهو المعنى الحاصل في حال المشبّه به من الحقارة وعدم أهليّة التصرّف والعجز عن كل عمل ، ومن حال الحرية والغنى والتصرّف كيف يشاء ، والاستفهام مستعمل في الإنكار .

والمقصود من ذلك أنه تبيّن من المثل اختصاص الله بالإنعام فوجب أن يختصّ بالشكر وأن أصنامهم لا تستحقّ أن تشكر ، وهذا ما قرره إبراهيم عليه السلام في قوله : { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا} ووجه الاستدلال في الآية وهو أن معبوداتهم لا تملك لهم رزقا مطلقاً فهي لا تستحق العبادة بالكلية ، لأن العبادة لا تكون إلا لمن يملك الرزق ويقدر عليه ، وبما أن المالك للرزق هو الله وحده ، فإن العبادة لا تكون إلا له وحده ، فهو من يملك الرزق وهو من يطلب ويقصد ويرجى في تحصيله ، وهو من يستحق أن يعبد ويشكر لأنه المتفضل على عباده بالأرزاق والنعم ، فهو مالكهم ومالك أرزاقهم ، وله ملكوت السموات والأرض وما فيهما ، وهذا استدلال آخر على جريرة ذلك من حيث إنه لا يجدر صدوره من عاقل .

وبعد ابطال ما هم عليه من الشرك ببيان عجز ألهتهم في نفسها ، ثم عجزها عن نفع غيرها ورزقه ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، فكيف ترزقهم وهي لا تملك الرزق مطلقاً ، شرع بعد ذلك في مطالبتهم بمقتضيات العبودية لله تعالى بعد تقرير حقيقة أنه تعالى هو وحده من يملك الرزق لعباده ، ومن هذه المقتضيات التعبدية التي طالبهم بها هي :

1. إبتغاء الرزق عند الله وحده لأنه هو من يملكه دون سواه ، بقوله : { فابتغوا عند الله الرزق} أي : كله فإنه المالك له.

2. التوجه إلى الله وحده في العبادة من الشعائر والشرائع لأنه المتفضل عليهم بالرزق وهو مالكه وواهبه لهم ، بقوله : { وَاعْبُدُوهُ } أي : متوسلين إلى مطالبكم بعبادته تعالى.

3. شكر الله على ما رزقهم وأنعم عليهم لأن كل ماهم فيه من نعم وخير ورزق فهو منه تعالى ، فوجب عليهم أن يشكروه لاستحقاقه ذلك ، بقوله : { وَاشْكُرُوا لَهُ } أي : مقيدين لما حفكم من النعم بشكره . أو مستعدين للقائه بالعبادة والشكر فإنه : { إليه ترجعون } وهو تعليل للأمر بعبادته وشكره أي لأنه الذي يجازي على ذلك ثوابا وعلى ضده عقابا إذ إلى الله لا إلى غيره مرجعكم بعد الموت . وفي هذا إدماج تعليل العبادة بإثبات البعث وقد سلك إبراهيم عليه السلام بذلك مسلك الاستدلال بالنعم الحسية لأن إثباتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، ومعلوم أن الرزق من أكثر القضايا تأثيراً على حياة الإنسان وبقائه ، لذلك استدل إبراهيم بملكه تعالى لأرزاق العباد وبإنعامه عليهم جميعاً على تفرد ألوهيته ووجوب عبادته سبحانه وتعالى[102] .

*** الشاهد الرابع :**

قال تعالى : { وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الصافات: 83-87].

إن إبراهيم من شيعة نوح على تباعد الزمان بينهما ، ولكنه المنهج الإلهي الواحد الذي يرتبطان به ، ويبرز من صفة إبراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير وبهذا القلب السليم ،

102– راجع : تفسير الألوسي 145/20 ، وتفسير الزمخشري 949/1 ، وتفسير ابن عاشور 473/10 ، 8/ 90-91 ، 263/14 ، وتفسير البيضاوي 311/1 ، ومختصر تفسير ابن كثير 39/3

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

استنكر ما عليه قومه واستبشعه :{ إِذْ قالَ لأبيهِ وقومهِ ماذا تعبدون } . وهذا استفهام على معبوداهم وأراد به التمهيد إلى المحاجّة فصوره في صورة الاستفهام لسماع جواهم فينتقلَ إلى إبطاله ، ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخا آخر فقال لهم : { أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ } والإفك أسوأ الكذب . يقال لمن اشتد كذبه . و{آلهة } بدل منه .وجعلت الآلهة نفس الإفك على سبيل المبالغة. أى : أتريدون إفكا آلهة دون الله؟ إن إرادتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم .

وقد صبّ إبراهيم إنكاره على قومه بابتغائهم آلهة مكذوبة يقصدونها بالعبادة والتأليه من دون الله ، لأن ما يعبدونه ليس من شأنه أن يعبد ، ولا أن يكون له عابدون! وما يعبده الإنسان في شبهة من حق . إنما هو الإفك المحض . والافتراء الذي لا شبهة فيه : { أإفكا آلهة دون الله تريدون؟ } فهل أنتم تقصدون إلى الإفك قصداً وإلى الافتراء عمداً وما هو تصوركم لله؟ وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوى الذي تنكره الفطرة لأول وهلة .

ثم حذرهم من السير فى طريق الشرك فقال : { فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين} وهو استفهام توبيخ وتحذير وتوعد من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا فى عبادتهم لغير الله ، والاستفهام أريد به الإنكار والتوقيف على الخطأ ، وهي كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة ، وهي تطلع على الأمر البين الذي يصدم الحس والعقل والضمير . وأريد بالظن الاعتقاد الخطأ ، وسمي ظناً لأنه غير مطابق للواقع و لم يسمه علماً لأن العلم لا يطلق إلا على الاعتقاد المطابق للواقع .

وكثر إطلاق الظن على التصديق المخطىء والجهل المركب كما في قوله تعالى : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام: 116]. وقوله : { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } [يونس: 36].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث"[103] . والمعنى : أن اعتقادكم في جانب رب العالمين جهل منكر . وقال تعالى : { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ } [فصلت: 23]. أي ظن ظناً ملصقاً بالله ، أي مدّعى تعلقه بالله وإنما يناسب ذلك ما ليس لائقاً بالله .

والمعنى : فما ظنكم السيّىء بالله ، ولما كان الظن من أفعال القلب فتعديته إلى اسم الذات دون إتباع الاسم بوصف متعينة لتقدير وصف مناسب . فاعتبار الوصف على وجهين :

103- صحيح البخاري حديث رقم (4849)

أحدهما : أن يعتبر فيه معنى المالكية وهي أحد معنيي الربّ وهو مستلزم لمعنى القهر والقدرة على المملوك ، فيكون التقدير : فما ظنكم ماذا يفعل بكم من عقاب على كفرانه وهو مالِككم ومالك العالمين.

وثانيهما : المعنى المشتق منه الرب وهو الربوبية وهي تبليغ الشيء إلى كماله تدريجاً ورفقاً فإن المخلوق محتاج إلى البقاء والإمداد وذلك يوجب أن يَشكر المُمَدّ فلا يصد عن عبادة ربه ، فيكون التقدير : فما ظنكم أن له شركاء وهو المنفرد باستحقاق الشكر المُتمثل في العبادة لأنه الذي أمدكم بإنعامه . وأما جواز اعتبار حقيقة رب العالمين وكنهه . فالتقدير فيه : فما ظنكم بكنهِ الربوبية فإنكم جاهلون الصفات التي تقتضيها وفي مقدمتها الوحدانية .

وحاصل المعنى : فما ظنكم بمن هو يستحق لأن تعبدوه لكونه رباً للعالمين ومالككم ومالك الخلق جميعاً أشككتم فيه حتى تركتم عبادته خاصَّةً وأشركتُم به أخسَّ مخلوقاته وعدلتم به الأصنام ، فهل تظنون برب العالمين أنه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في المعبودية ، أو فما ظنُّكم به أعلمتم أي شيء هو حتى جعلتُم الأصنام له أنداداً ، فهل تظنون برب العالمين أنه من جنس هذه الأجسام حتى جعلتموها مساوية له في المعبودية ، وفي هذا تنبيه أنه { ليس كمثله شيء} ، أو فما ظنكم أن يفعله بكم خالقكم ومالككم ورازقكم حتى اجترأتم على الإفك عليه تعالى و لم تخافوا عذابه إذ قد عبدتم غيره؟ إنه لاشك سيحاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ، ويعذبكم عذابا أليما ، وما دام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة الزائفة وأخلصوا عبادتكم له تعالى وحده . والمقصود إنكار ما يوجب ظناً فضلاً عن قطع يصد عن عبادته ، أو يبيح الإشراك به أو يقتضي الأمن من عقابه على طريقة الإلزام وهو كالحجة على ما قبله .

إن إبراهيم يعلم علم اليقين أن الشرك مبني على سوء الظن بالله تعالى ولهذا قال للمشركين : { أإفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين } أي : ما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم أو أن للمخلوق عليه حقا فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه ويتوسل إليه بذلك المخلوق، أم هو قاس فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده أم ذليل فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلة ويتعزز به من الذلة أم يحتاج إلى الولد فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليه . فكان شرك قوم إبراهيم بسوء ظنهم

بالله رب العالمين ومالكهم حتى عبدوا معه غيره لأن المشرك بسوء ظنه بربه يظن به خلاف كماله المقدس وما يناقض أسماءه الحسنى وصفاته العليا ، فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه والتنقص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفر الشرك وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم ويجعله أشقى البرية ، وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية وتنقيص لعظمة الألهية وسوء ظن برب العالمين ، قال تعالى : { وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [الفتح: 6]. فلم يجمع الله تعالى على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك فإنهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده ولذلك أشار في مطلع هذه الآيات إلى إبراهيم بقوله : {إذ جاء ربه بقلب سليم} وفي هذا دلالة إلى ضرورة الإقبال على الله بقلب نقي طاهر خالٍ من الشوائب ، خالص من الشرك والشبه، والشهوات المانعة من تصور الحق، والعمل به[104].

*** الشاهد الخامس :**

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الانعام: 74-79].

إن إبراهيم بفطرته السليمة بين لأبيه خطأه في عبادة الأصنام الأرضية وتنكر أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها هو وقومه آلهة ، فالإله الذي يعبد لا يمكن أن يكون صنماً من حجر ، أو وثناً

[104]- راجع : تفسير ابن عاشور 131/12 ، وتفسير الألوسي 153/17، وتفسير الرازي 132/13 ، وتفسير ابوالسعود 445/5 ، وتفسير السعدي 705 ، وتفسير طنطاوي 3375 ، وتفسيرالظلال 185/6، إغاثة اللهفان ، لأبن القيم 61/1-62 ، ومدارج السالكين 348/3 ، والجواب الكافي 96/1

من خشب فما هي بالتي تستحق أن تعبد؛ وما هي بالتي تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد! وكلمة الحق يقولها إبراهيم لأبيه لأن العقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة .

وبذلك استحق إبراهيم بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الدلائل الكامنة في ملكوت الله في هذا الكون الواسع العريض ليصل به إلى يقين التوحيد :{ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين }. بمثل هذا القلب السليم ، من الإخلاص للحق ، ومن إنكار الباطل ، نري إبراهيم حقيقة هذا الملك . ملك السماوات والأرض ، ونكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود ، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب . لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة ، إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق .

إن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لأن ملكوت السموات والأرض عبارة عن الملك ، ولمّا كان فيه زيادة تفيد المبالغة فسر بالملك العظيم والسلطان القاهر : ومُلْك الله وملكوته، المراد : ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانه .

والإراءة : بمعنى الكشف والتعريف ، فتشمل المبصرات والمعقولات المستدلّ بجميعها على الحق وهي إراءة إلهام وتوفيق ، تبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله، عَزَّ وجل، في ملكه وخلقه، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله تعالى : { قلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [يونس: 101]. وقال تعالى : { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } [الأعراف: 185] . كما قال في حق هذه الأمة: { سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِي الأفاق وَفِي أنفسهِمْ } [فصلت : 53]. أي : ليرى ببصيرته ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوبا ومملوكا له تعالى ، ليستدل بما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على توحيده وعبادته ، فإنه ليس المقصود من إراءة الله إبراهيم ملكوت السموات والأرض هو مجرد أن يرى إبراهيم هذا الملكوت ، بل المقصود أن يراها فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقدسه وعلوه وعظمته . فيتوجه له بالعبادة الخالصة إيجابا واستحقاقا .

والمعنى نكشف لإبراهيم دلائل مخلوقاتنا أو عظمة سلطاننا كشفا يطلعه على حقائقها ومعرفة أن لا خالق ولا متصرف فيما كشفنا له سوانا.{ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } والموقن هو العالم علما لا يقبل الشكّ ، فإنه بحسب قيام الأدلة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب ، والمراد الإيقان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في معرفة الله تعالى وصفاته بحيث نريه مظاهر ربوبيتنا ، ومالكيتنا للسموات والأرض ، ونطلعه على حقائقها . ليزداد إيمانا على إيمانه وليكون من العالمين علما كاملا لا يقبل الشك بأنه على الحق وأن مخالفيه على الباطل . ولما ذكر تعالى هذه الإراءة في أول الآية على سبيل الإجمال وهو قوله :{ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم } ثم فسرها بعد ذلك بقوله : { فلمّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل رَأَى كَوْكَبا } [الأنعام: 76]. فجرى ذكر هذا الاستدلال كالشرح والتفسير لتلك الإراءة فوجب أن يقال إن تلك الإراءة كانت عبارة عن هذا الاستدلال والنظر الصحيح للوصل إلى الحقيقة الإيمانية اليقينية .

ولما تم الاستدلال بالنجم والقمر والشمس قال بعده : { إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السموات والأرض } فحكم على السموات والأرض بكونها مخلوقة لأجل الدليل الذي ذكره في النجم والقمر والشمس . وإن ذلك الدليل كان عاما فكان ذكر النجم والقمر والشمس كالمثال لإراءة الملكوت .

فوجب أن يكون المراد من إراءة الملكوت تعريف كيفية دلالتها بحسب تغيرها وإمكانها وحدوثها على توحيد الله المتفرد بهذا الملكوت ، فتكون هذه الإراءة بالقلب لا بالعين .

إن إبراهيم بقطع النظر أنه كان ناظرا أو مناظرا فهو يؤسس منهج النظر الفكري في تأسيس المعتقد الإيماني ابتداء من المشاهدات الحسية الكونية التي يتوصل بها إلى الاستدلال العقلي على بطلان ألوهية هذه الأفلاك لما فيها من عجز ونقص وصفات تتناقض مع صفات الربوبية وخصائص الألوهية ، فبين لقومه بطلان ما كانوا عليه من فساد العقيدة ، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الكواكب ، وعدم صلاحيتها للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، ولا تملك لنفسها تصرفا، وهي تغيب عن الأبصار .

فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، قال أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية أن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس ، فإن الإله المعبود لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده، ومدبرا له في جميع شئونه ، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟! وهل اتخاذه إلها إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟!

فإن قيل : فَلِمَ كان أفولها دليلا على أنه لا يجوز عبادها وقد عبدها مع العلم بأفولها خلق من العقلاء؟ قيل لأن تغيرها بالأفول دليل على أنها مُدَبَّرة محدثة ، وما كان بهذه الصفة استحال أن يكون إلهاً معبوداً ، وإنما احتج بالأفول دون البزوغ ، مع أنه تغير؛ لأن الأفول أظهر في الدلالة؛ لأنه انتقال مع اختفاء واحتجاب .

ولما كانت الأمور السماوية مشاهدة لجميع الخلق : دانيهم وقاصيهم ، وهي أشرف من الأرضية ، فإذا بطلت صلاحيتها للإلهية بطلت الأرضية من باب الأولى؛ نصب لهم الحجاج في أمرها ، فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئا منها ليس بإله لقيام دليل العجز والنقص فيها .

فقد جادلهم عليه السلام مجادلة أقام بها الحجة عليهم، وبين لهم بالبرهان أن آلهتهم لا تستحق العبادة، وأن الذي يستحق العبادة وحده هو الله المالك لجميع المخلوقات والمتصرف فيها والخاضعة لحكمه وسلطانه. فإن ملك الله الشامل والواسع والظاهر في هذا الكون من السموات والأرض وما بينهما هوالطريق الموصل إلى اليقين والذي يستدل به على وجوب عبادته بالطاعة والخضوع والخشية والمهابة والتقديس والتعظيم .. وسائر العبادات وأنواع القرابات[105] .

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[105]- راجع : تفسير ابن كثير 3/290 -292 ، وتفسير الظلال 3/ 88 -89 وتفسير حقي 3/ 467 ، وتفسير الماوردي 1/419 ، وتفسير السعدي 262 ، وتفسير طنطاوي 1484 ، وتفسير البقاعي 3/73 ، وتفسير الألوسي 5/392 ، وتفسير الرازي 6/343 ، وتفسير ابن عاشور 4/495- 5/10

– المبحث الثاني –

دليل ملكية الله تعالى ليوم الدين

إن تفرد الله تعالى بملكه ليوم الدين وتجريد البشر من كل ملكية كانت لهم في الدنيا ، ثم يحشرهم جميعاً بين يديه ليحاسبهم على ما استخلفهم فيه ، ثم يجازيهم فيثيب من أطاعه ويعاقب من عصاه ، يعد دليلاً قوياً ومؤثراً على وجوب إخلاص العبادة لله تعالى ، والانقياد لأمره ، والرغبة بنعيمه بالمسارعة إلى الطاعات ، والرهبة من عذابه باجتناب المعاصي والمنكرات ، قال تعالى : { يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [غافر: 16-17]. إن مقتضى ملكية الله ليوم الدين وتفرده فيه أن يكون القانون الذي ينظم حياة الناس في الدنيا موافقاً لقانون الحساب والجزاء في الآخرة ، لأنه لن يقبل منهم قانوناً غير قانون الله ، وتشريعاً غير تشريع الله ، وحكماً غير حكم الله ، قال تعالى : { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85) } [آل عمران : 85] إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة ، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا؛ ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم ، وهم إنما يحاسبون يوم القيامة على أساس هذه الشريعة لا على غيرها ؛ وتوحد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس .

وهذه الحقيقة تستوجب على البشر أن ينظموا حياتهم وفق شريعة الله في الدنيا ، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه يوم القيامة . وأنهم يومئذ سيحاسبون إن لم يتخذوا الله إلهاً في الأرض؛ واتخذوا من دونه أرباباً متفرقة . وأنهم سوف يحاسبون على الكفر بألوهية الله والشرك به باتباعهم شريعة غيره في جميع مجالات الحياة . كما أن المنهج القرآني يربط بين ملكية الله تعالى المتفردة لهذا الوجود كله وبين ملكه ليوم الدين وما فيه من فصل وحساب وجزاء ليستدل بذلك على ألوهيته وعبادته ، قال تعالى : { وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى } [الليل: 13-18]. وقال تعالى : { لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } [الحديد: 5] ويجيء هنا ذكر ملكية الله تعالى في معرض رجعة الأمور كلها إلى الله وهي متصلة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بملكية الله للسماوات والأرض ومكملة لحقيقتها ، وشعور القلب بهذه الحقيقة يجعله يحرس من كل لفتة لغير الله في أي أمر ، ويحميه من التطلع لغير الله في أي طلب ، ومراقبة غير الله في أي عمل ، ويقيمه على الطريق إلى الله في سره وعلنه ، وحركته وسكونه ، وخوالجه ونجواه . وهو يعلم أن لا مهرب من الله إلا اليه ، ولا ملجأ منه الا الى حماه! وقال تعالى : { رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُون مِنْهُ خِطَابًا (37) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَة صَفًا لَا يَتَكَلَّمُون إِلَّا مَنْ أَذِن لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَال صَوَابًا (38) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاء اتَّخَذ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (39) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءِ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُول الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا } [النبأ: 37-40].

إن القرآن حين يقرر ملكية الله الشاملة للدنيا والآخرة ويستدل بهما على لازمها من العبودية لله تعالى ، إنما يؤسس قاعدة من قواعد العقيدة على أساس فكري قوي ومؤثر ، وملزم للنفس في إقامة نظام الحياة على أساس منهج الله تعالى ، الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة ولا نجاة إلا به ، وقد استدل إبراهيم عليه السلام بملكية الله ليوم الدين على ألوهيته تعالى[106] ، ومن ذلك :

* الشاهد الأول :

قال تعالى : { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُون (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَال وَلَا بَنُون (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْب سَلِيمٍ } [الشعراء: 87-89].

ونستشعر من قول إبراهيم عليه السلام : { ولا تخزني يوم يبعثون } مدى شعوره بهول اليوم الآخر؛ ومدى حيائه من ربه ، وخشيته من الخزي أمامه ، وخوفه من تقصيره . فقوله : { وَلَا تُخْزِنِي } الإخزاء من الخزي وهو الهوان ، أو من الخزاية وهي الحياء : أي : ولا تهني بما يوجب التوبيخ على بعض الذنوب، والعقوبة عليها والفضيحة ، بل أسعدني في ذلك اليوم واسترني واجبرني وتجاوز عن تقصيري . ولا تُلحق بي هواناً أو خجلا بين الناس{ يوم يبعثون } أي: يوم يخرج هؤلاء المنكرون للبعث من القبور للحساب والجزاء على أعمالهم ، وكأن هذا الدعاء كان بحضورهم في الإنكار عليهم في عبادة الأصنام ، وزجرهم وتحذيرهم من عذاب الله يوم القيامة فيما هم متلبسون فيه من الشرك ، الذي هو أعظم الظلم وأكبر الكبائر .{ يوم لا ينفع مال ولا بنون }. فيوم القيامة

[106]- راجع : أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، زكريا الشلول ، 176-177 ، وتفسير الظلال ، 71/3 ، 126/7

لا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة ، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض؛ وهي لا تزن شيئا في الميزان الأخير! فلما نبه على أن المقصود هو الآخرة ، صرح بالتزهيد في الدنيا بتحقير أجل ما فيها من المال والبنون ، فقال : { يوم لا ينفع مال ولا بنون } أي : يوم لا ينفع أحداً مال يفتدي به أو يبذله لشافع أو ناصر مقاهر ، ولا بنون ينتصر بهم أو يعتضد فكيف بغيرهم ، ويمكن أن نحمل الكلام ونجعل المال والبنين في معنى الغنى كأنه قيل يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه . أو على معنى لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله تعالى ، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين ، ويجوز على هذا { إِلا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ } أي سليم من فتنة المال والبنين . والاقتصار على المال والبنين في نفي النافعين جرى على غالب أحوال القبائل في دفاع أحد عن نفسه بأن يدافع إما بفدية وإما بنجدة (وهي النصر) ، فالمال وسيلة الفدية ، والبنون أحق من ينصرون أباهم ، ويعتبر ذلك النصر عندهم عهداً يجب الوفاء به .

قال قيس ابن الخَطِيم:ثأرتُ عَدِيًّا والخَطِيمَ و لم أضِع ... وَلاية أشياخ جُعلت إزاءَها

واقتضى ذلك أن انتفاء نفع ما عدا المال والبنين من وسائل الدفاع حاصل بالأَوْلى بحكم دلالة الاقتضاء المستندة إلى العُرف . فالكلام من قبيل الاكتفاء ، كأنه قيل : يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء آخر .

فتحصل أن التقدير : يوم لا ينفع أحداً شيء يأتي به للدفع عن نفسه ، وقصد به إظهار أن الالتجاء في ذلك اليوم إلى الله وحده ولا عون فيه بما اعتاده الناس في الدنيا من أسباب الدفع عن أنفسهم ، كقوله تعالى : { هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ } [المائدة: 119].وفيه أيضاً تذكير إبراهيم لقومه بأن أصنامهم لا تغني عنهم شيئاً ، ونفي نفع المال صادق بنفي وجود المال يومئذ لأنه لا ملك في ذلك اليوم إلا لله قال تعالى : { لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لِلهِ الوَاحِدِ القَهّارِ } [غافر: 16] . { إلا من أتى الله } أي الملك الأعظم ، ومالك يوم الدين الذي له الغنى المطلق في هذا الموطن وهو يوم القيامة ، والذي يتجرد فيه البشر من كل ملك وسلطان كان لهم في الدنيا ، ويكونوا فيه ضعاف مهازيل ، لاحول لهم ولا قوة ، وهو يوم يرفع الله فيه أهل طاعته ويذل أهل معصيته . كما ندرك من قوله : { يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم } . مدى إدراك إبراهيم عليه السلام لحقيقة ذلك اليوم . وإدراكه كذلك لحقيقة القيم . فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص . إخلاص القلب كله لله ، وتجرده من كل شائبة ، ومن كل مرض ،

ومن كل غرض ، وصفائه من الشبهات والشهوات والتي هي الطريق لكل الانحرافات . وخلوه من التعلق بغير الله . فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً ، والسليم : الموصوف بقوة السلامة ، والمراد بها هنا السلامة المعنوية المجازية ، أي الخلوص من عقائد الشرك مما يرجع إلى معنى الزكاء النفسي . وضدّه المريض مرضا مجازيا قال تعالى : { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } [البقرة: 10]. والاقتصار على السليم هنا لأن السلامة باعث الأعمال الصالحة الظاهرية وإنما تثبت للقلوب هذه السلامة في الدنيا باعتبار الخاتمة فيأتون بها سللة يوم القيامة بين يدي ربّهم . والقلب يشمل أمرين هما :

1. الإدراك العقلي .

2. والشعور النفسي .

والسلامة تشملهما على النحو الآتي :

ــ **أما السلامة من حيث الإدراك العقلي** : فهو سلامة القلب عن الجهل وخلوه من الشبهات والظنون والشك والأوهام ، وكذلك حصول ما ينبغي له وهو العلم واليقين بالله وسلامة القلب من الشكّ في توحيده . فالقلب السليم من الناحية العقلية : هو القلب الخالي عن كل العقائد الفاسدة والتصورات المنحرفة ، والخالي من الدنس والشرك .

ــ **أما السلامة من حيث الشعور النفسي** : فهو الذي سلم في شعوره وأعمال قلبه من الإرادة والمحبة وتوابعها مما سوى إرادة الله أو مما سوى محبة الله , أو سلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص وهوى يعارض الاتباع من الميل إلى شهوات الدنيا ولذاتها .

فالقلب السليم من الناحية الشعورية هو القلب السليم من محبة الشر والإصرار على البدعة والذنوب ويلزم من سلامته مما ذكر اتصافه بأضدادها من الإخلاص ومحبة الخير وتزيينه في قلبه وأن تكون إرادته ومحبته تابعة لمحبة الله وهواه تابعا لما جاء عن الله ، فهو القلب الذي خلصت عبوديته لله تعالى : إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة وإخباتا وخشية ورجاء . فإن قيل فظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان ناجيا وأنه لا حاجة فيه إلى سلامة اللسان واليد جوابه : أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليماً لكانا سليمين لا محالة ، وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب إذ من علامة سلامة القلب تأثيرها في الجوارح من الأعمال الصالحة .والأمر الجامع لمعنى القلب السليم : أنه الذي قد سلم من كل شبهة تعارض خبر الله ، ومن كل شهوة تخالف أمره ونهيه ، فسلم من عبودية ما سواه ومن تحكيم غيره فسلم في محبة الله وفي خوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والذل له وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق ، مع تحكيمه

لشرعه فيكون الحاكم عليه في ذلك كله هو ما جاء به الرسول ، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى : { يَاَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ } [الحجرات: 1]. أي لا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر، فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام والاقتداء به ، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده ، وزوال أحد تلك الأمور عن القلب عبارة عن مرضه ، فأما الذنوب فلا يسلم منها أحد فالقلب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى : { فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ } [البقرة: 10].

والقلب السليم : هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجب اتباع الظن ومرض الشهوة التي توجب اتباع ما تهوى الأنفس فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذ ، قال تعالى : { إِن يَتَّبِعُون إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى } [النجم: 23]. فمن كان مؤمنا وأقبل على الله بقلب برئ من مرض الكفر والنفاق والرياء، فهذا الذي ينفعه عند الله وهذا الذي ينجو به من العقاب ويستحق جزيل الثواب وهذا الذي ينفعه عمله الصالح لخلوه مما يحبطه وهو الشرك والكفر الظاهر والباطن .وقيل : القلب السليم هو الفطرة الأولى التي فطره الله عليها ، وهي الإسلام الذي رأسه التوحيد ، والاستقامة على فعل الخير ، وحفظ طريق السنة الخالي من البدعة .

وقد صوب سبحانه وتعالى استثناء الخليل إكراما له ثم جعله صفة له في قوله : { وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبراهيم إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الصافات: 84]. وقد ظهرت هذه الصفة في دعاءه هذا وهو يدعو ربه { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُون يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُون إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } أى : واسترنى – يا إلهى – ولا تفضحنى يوم القيامة ، يوم لا ينتفع الناس بشىء من أموالهم ولا من أولادهم ، ولكنهم ينتفعون بإخلاص قلوبهم لعبادتك . بسلامتها من كل شرك أو نفاق ، وبصيانتها من الشهوات المرذولة . والأفعال القبيحة . فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة من عذاب الله والسعادة بنعيمه ، لذلك ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم وما فيه من الثواب والعقاب[107] فقال: { وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين }.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[107]– راجع : تفسير الطبري 366/19 ، وتفسير الرازي 489/11 ؛ وتفسير الخازن 53/5 ؛ وتفسير النسفي 475/2 ، وتفسير الألوسي 258/14–275 ، وتفسير البقاعي 72/6 ، وتفسير السعدي 593 ، وتفسير طنطاوي 3168 –3170

* الشاهد الثاني :

قال تعالى : { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ } [الشعراء: 94-104].

فالذين امتثلوا أوامر ربهم واجتنبوا زواجره واتقوا سخطه وعقابه في ذلك اليوم ، قربت لهم الجنة ودخلوها بسلام ، والذين أسرفوا في معاصي الله وتجرأوا على محارمه وكذبوا رسله وردوا ما جاءوهم به من الحق ، برزت لهم الجحيم واستعدت بجميع ما فيها من العذاب ، وألقوا في النار هم وما كانوا يعبدون من الأصنام وغيرها من المعبودات التي عبدها الناس من دون الله ، فإن مذلة الأصنام وحضورها معهم وهم في ذلك العذاب أقوى شاهد على أنها لا تملك شيئاً لهم ولا لأنفسها. وهم في ذلك اليوم يعجبون من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم في المعونة والنصر بحجارة لا تغني عنهم شيئاً . وهذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ قبلوا هذا الضلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مُسكة من عقل .

ولما لاحت خسارتهم وفضيحتهم وبان ندمهم وضل سعيهم قال العابدون لمعبوديهم من الأصنام على سبيل المخاصمة لهم ، والتبرؤ منهم: { تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} والتسوية : المعادلة والمماثلة ، أي إذ نجعلكم مثل ربّ العالمين مالك الخلائق جميعاً في العبادة والمحبة والخوف والرجاء ، وندعوكم كما ندعوه فتبين لهم حينئذ ضلالهم وأقروا بعدل الله في عقوبتهم وأنها في محلها، وهم لم يسووهم برب العالمين إلا في العبادة لا في الخلق بدليل قولهم :{برب العالمين } إنهم مقرون أن الله رب العالمين وهو مالكهم كلهم الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم فقد جعلوهم مثله مع الاعتراف بالإلهية وهو ظاهر حال إشراكهم كما تقدم في قوله : { فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين } [الشعراء: 77]. وصيغة المضارع في { نسويكم } لاستحضار

- - وتفسير الظلال 354/5 ، وتفسير ابن عاشور 180/10- 188 ، مجموع الفتاوى لابن تيمية 10/ 337 ، والعبودية 42/1 ، الروح ، لابن القيم 244 ، وإغاثة اللهفان 7/1

الصورة الماضية العجيبة حين يتوجهون إلى الأصنام بالدعاء والنعوت الإلهية. أي : تالله لقد كنا في غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أو لأنا سويناكم أيها الأصنام في استحقاق العبادة برب العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم . وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم في التأسف ، حيث نفوا – أولا – أن يكون لهم من يملك أن ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ونفوا – ثانيا – أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ، ويتوجع لهم ، أو يخلصهم.

ثم فرعوا على هذا التحسر والندامة تمنّي أن يعادوا إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم في الإيمان بالله وحده ربهم ومالكهم ويؤدوا له حق العبودية . ثم ختمت قصة إبراهيم بقوله تعالى : { إِن فِي ذَلِكَ لآيَة وَمَا كَان أَكثرُهُم مُؤْمِنِينَ . . .} . إن في كلام إبراهيم عليه السلام مع قومه ومع أبيه عن ملكية الله تعالى لجميع الخلائق وملكيته ليوم الدين وما فيه من أهوال ، دليلاً بيّناً على وحدانية الله تعالى وعلى بطلان إلهية الأصنام ، وحجة وعظة لمن أراد أن يؤمن ويعتبر ومع ذلك فإن أكثر قوم إبراهيم ما كانوا مؤمنين[108] { وَإِن رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم } .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { قَدْ كانَتْ لكمْ أُسْوَة حَسَنَة فِي إِبْرَاهِيمَ وَالذِينَ مَعَهُ إِذ قالوا لِقوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكمْ وَمِمَّا تَعْبُدُون مِنْ دُونِ اللهِ كفرْنَا بِكمْ وَبَدَا بَيْننا وَبَيْنكمُ العَدَاوَة وَالبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا باللهِ وَحْدَهُ إِلا قوْل إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتغْفِرَن لكَ وَمَا أَمْلِكُ لكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْء رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكلنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ } [الممتحنة: 4].

هذا بيان لحال إبراهيم عليه السلام ومن معه في المجاهدة لأعداء الله عز وجل ، والبراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم ، وهذه العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان ، ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين . فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه : { لأستغفرن لك } . فذكر الله عذر إبراهيم في ذلك بقوله :

[108]- راجع : تفسير الرازي 492/11 ، وتفسير النسفي 476/2 ، وتفسير الألوسي 270/14- 275 ، وتفسير البقاعي 74/6 ، وتفسير السعدي 594 ، وتفسير طنطاوي 3170 ، وتفسر الظلال 356/5 ، وتفسير ابن عاشور 10/ 188

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

{ وَمَا كان استغفارُ إبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فلمَّا تَبَيَّنَ لهُ أنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبرَّأَ مِنْهُ إن إبراهيم لأواه حليم } [التوبة : 114].

ولما وعد إبراهيم أباه بالاستغفار ترغيباً له وأملا فى هدايته ، رهبه لئلا يترك السعي في النجاة والأخذ بأسبابها ، لأن أمرها ليس بيده ولا في ملكه وقدرته ، فقال له : (وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) . وهذا فيه إظهار للعجز، وتفويض الأمر كله لله تعالى ،أي أنه ليس في يدي غير الاستغفار ، أي : لأستغفرن لك حالة كونى لا أملك من أمر المغفرة أو غيرها شيئا ، ولا أملك دفع عذاب الله عنك وعقوبته لك ، إن هو عاقبك على كفرك به ، ولا أغني عنك منه شيئا . وإنما الذى يملك ذلك كله هو الله إن شاء عذبك وإن شاء عفا عنك ، فهو الملك الأعلى المحيط بنعوت الجلال الذي بيده ملك الدنيا والآخرة .

وهذا ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية { وأنذر عشيرتك الأقربين } [الشعراء: 214]. قام النبي صلى الله عليه وسلم فنادى : " يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك من الله شيئا "[109] . وذلك حتى يحثهم على العمل ، وعدم التفريط فيه ، اتكالاً على قرب النسب منه صلى الله عليه وسلم .

وقال أيضاً : "ولا يأتي أحدكم يوم القيامة بشاة يحملها على رقبته لها يعار فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئا ، قد بلغت "[110]. فمن الحقائق المقررة في أصول العقيدة الإسلامية مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان ، وكل نفس مسؤولة عن نفسها ، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً.

وحقيقة فردية التبعة وانتهاء الخلق إلى ربهم ، ودقة الحساب ، وعدالة الجزاء ، ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي ، وفي السلوك العملي سواء . فشعور كل فرد بأنه مجزيٌّ بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً .

وهذا من أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته ، بحيث تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره ، وحين يستيقن القلب هذه الحقيقة من شأنها أن تجعل كل فرد وحدة إيجابية فلا يتنازل عن عقيدته

---

[109] – رواه البخاري في الأدب المفرد، برقم (48) وقال الألباني: صحيح

[110] – صحيح البخاري ، (1337)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تجاه كل إغراء ، ويقف في وجه كل طغيان ، وكل إضلال ، وكل إفساد مدافعاً عن حق الله ، ومن ثم يستأسد في الدفع عن نفسه والدفاع عن حق الله فيها ، ما دام هو الذي سيلقى جزاءه مفرداً وحيداً! فهو مسؤول عن نفسه هذه وعن حق الله فيها .

فمن مقتضيات الإيمان أن ينهض كل فرد في الجماعة بحق الجماعة عليه ، بوصفه طرفاً من حق الله في نفسه . فهو مأمور أن يتكافل مع الجماعة في ماله وكسبه ، وفي جهده ونصحه ، وفي إحقاق الحق في المجتمع وإزهاق الباطل ، وفي تثبيت الخير والبر وإزاحة الشر والمنكر ، وكل أولئك يحسب له أو عليه في صحيفته الخاصة يوم يلقى الله فرداً ، فيتلقى هنالك جزاءه! ، فلا يحيل على أحد ، ولا ينتظر عون أحد .

فلا شفاعة تنفع يومئذ من لم يقدم إيماناً وعملاً صالحاً؛ ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته وأنه ليس بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل إلا الدعوة والبيان ، وأمرهم بعد ذلك إلى الله . مالك أمرهم كله والمتصرف فيهم تصرف المشيئة المطلقة، فما من ناصر يعصمهم من الله ، وينجيهم من عذابه ، ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وكل نفس بما كسبت رهينة . كقوله : { يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفعُ نَفسا إِيمَانُهَا لَمْ تَكنْ آمَنَتْ مِن قبْل أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانهَا خَيْرا } [الأنعام: 158]. ، وقوله : { يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفسٌ لِنَفسٍ شَيْئا وَالأمر يَوْمَئِذٍ لِلهِ } [الانفطار: 19]. وهذا التسليم المطلق لله هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم عليه السلام . وقد قدم في دعاءه ونجواه لمولاه إثباتاً وتجسيداً لهذه الحقيقة ، حيث فوض الأمر كله لله ، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال : { ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير } .

فهذا الدعاء من إبراهيم وأصحابه حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير ، فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها ، وتعليماً للمؤمنين أن يقولوا هذا الكلام ويستحضروا معانيه ليجري عملهم على وفقه ويَصرفوا توجههم إلى الله بإرضائه . وتتميماً لما وصاهم به من قطع العلائق بينهم وبين الكفرة ، والبراءة منهم ، وهو أيضاً تنبيهاً على الإنابة إلى حضرة الله تعالى ، والاستعاذة به .

كما أن هذا الدعاء يتطابق فيما حكاه الله عن إبراهيم من قوله : { الَذِي خَلقنِي فهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالذِي هُوَ يُطعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذا مَرِضْتُ فهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالذِي يُمِيتُنِي ثمَّ يُحْيِينِ (81) وَالذِي أَطمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئتِي يَوْمَ الدِّينِ } [الشعراء: 78- 82].

لذلك نجد أن إبراهيم عليه السلام يربط بين العلم والأفول للأجرام السماوية ، حيث ربط بين كل أفول ونوع من أنواع العلم الذي يقتضيه المقام ، فقد كان متعلق العلم بالأفولات الثلاثة يختلف باختلاف كل جواب يتلو هذا الأفول من إبراهيم عليه السلام ، وبيان ذلك على النحو الآتي :

1. الأفول الأول : غياب المتابعة والرعاية.

في قوله تعالى : { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ } فالغياب في هذه لآية هو غياب رعاية ومتابعة ، وهذ يتطلب علم تام بحال من يرعاه لحصول القيومية وهو مفقود هنا ، فناسب التعبير عنه هنا بقوله : { لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ } . واستدل بهذا الأفول على علم الله تعالى ، ومتعلقه هنا بعلم الله هو علمه بالإنسان في جميع أحواله في سره وجهره ، وما ينفعه وما يصلحه ، فهو سبحانه وحده من يتحقق فيه هذا العلم الذي به تحصل القيومية للإنسان خاصة وللخلق عامة . يقول ابن عاشور " ووجه الاستدلال بالأفوال على عدم استحقاق الإلهية أنّ الأفول مغيب وابتعاد عن الناس ، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده فلمّا أفلّ النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطّلاع على النّاس ، وقد بنَى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيباً عن هذا العالم ، يعني أنّ ما يغيب لا يستحقّ أنْ يُتّخذ إلهاً لأنّه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه . وليس الاستدلال منظوراً فيه إلى التغيّر لأنّ قومه لم يكونوا يعلمون الملازمة بين التغيّر وانتفاء صفة الإلهية[113].

2. الأفول الثاني : غياب الهداية والإرشاد.

في قوله تعالى : { فلمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغا قال هَذا رَبِّي فلمَّا أفل قال لئِنْ لمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالينَ } والغياب هنا غياب هداية وإرشاد وهذا يتطلب علم شامل وكامل لكل شيء والذي يغيب لا يكون له مثل هذا العلم فلا يرجى منه هذه الهداية بحال . فناسب التعبير عنها هنا بقوله : { لئِنْ لمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالينَ } واستدل بهذا الأفول على علم الله ومتعلقه هنا بعلم الله هو علمه بعالم الغيب والشهادة . فهو سبحانه وحده من يتحقق فيه هذا العلم الذي به تحصل الهداية للإنسان لسلوك طريق الرشاد.

3. الأفول الثالث : غياب الربوبية الشاملة ، وانتفائها من جهة المخلوقين.

في قوله تعالى : { فلمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغة قال هَذا رَبِّي هَذا أكبَرُ فلمَّا أفلتْ قال يَا قوْمِ إِنِّي بَرِيء مِمَّا تُشْرِكون إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِي فطرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ حَنِيفا وَمَا أنا مِنَ

---

[113] - التحرير والتنوير ، لابن عاشور 1/5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الْمُشْرِكِينَ} والغياب هنا غياب انتفاء الربوبية مطلقا لكل ما هو داخل في هذا الوجود ، بانتفاء أكبرها في السماء بدليل أفوله ، كما نفى أكبرها في الأرض بدليل عدم نطقه ، بقوله :{ فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون } وبهذا ثبت عجزها وجهلها ، وانتفى بانتفاء أكبرها ربوبية هذه المخلوقات جميعا ، فناسب التعبير عنها هنا ، بقوله : { يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} واستدل بهذا الأفول على علم الله ، ومتعلقه هنا بعلم الله هو تفرده تعالى بهذا العلم الشامل والمطلق وانتفاء مشاركة غيره به ، ومن ثم تعين انقطاع الرجاء من هذه المخلوقات في أن يصل من جهتها شيء من الرعاية أو الهداية مطلقا ، وتوجب بمقتضى العقل ومنطق الرشد الانتقال إلى وجهة خارج هذا الوجود لأن حصول الرعاية والهداية منها أمر مستحيل ، لذلك قال : { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } وهذا توجه في طلب الهداية ممن هو حقيق بها وهو خالق هذا الوجود كله ، بعدما انتفى حصولها من المخلوقات جميعها ، وهذا في حقيقته نفي الشرك وإثبات التوحيد ابتداءً بدلالة العقل فيما هو مشاهد معلوم . وإعلان العجز التام في إدراك حقيقة ما وراء هذا الوجود فيما هو مغيب مجهول مستقلاً بعقله وبمعزل عن الخالق علام الغيوب .

ومن هنا كان ضلال الفلاسفة بأنهم ظنوا حصولها لهم بقدراتهم الذاتية فضلوا بظنونهم وأوهامهم وأضلوا بتخيلاتهم وأساطيرهم . وسوف نستعرض معالم المنهج القرآني وبيان معالمه في الاستدلال بعلم الله تعالى الشامل والمحيط بكل شيء ، على تفرد ألوهيته من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ، والتي تشمل المسالك الثلاثة وهي : علمه تعالى لعالم الغيب والشهادة ، وعلمه بالإنسان سره وجهره ، وعلمه بما يثقله ويصلحه ، والاستدلال بها على لوازمها التعبدية ، وذلك على النحو الآتي :

– المبحث الأول –

دليل علمه تعالى لعالم الغيب والشهاده

إن الله تعالى هو الذي يعلم وحده كل شيء علماً مطلقاً شاملاً كاملاً . وهو من وهب الإنسان المعرفة منذ أراد إسناد الخلافة في الأرض إليه . لأن الإنسان وإن كان لديه القابلية لكسب العلم إلا أنه ليس هو من أنشأ العلم إبتداءً :{ وعلم آدم الأسماء كلها } . وإنما اكتسبه من عند الله تعالى سواء في عالم الشهادة أو عالم الغيب:{ علم الإنسان ما لم يعلم } .

أما في عالم الشهادة : فإن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار . ونحن نعرف منها القليل ، ونجهل منها الكثير . وفي كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار بما هو في حدود طاقتنا البشرية ، وفي دائرة ما سخره الله لنا ليكشف لنا عن أسراره ، في الأنفس والآفاق ما يزيدنا يقيناً ، لقوله تعالى : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ } [فصلت: 53]. فكشف سبحانه عن بعض القوى والطاقات والقوانين الكونية لنقوم بواجب الخلافة ، ولا تتعدى معرفتنا وكشوفنا ما نحتاجه للخلافة في هذه الأرض ، وفق حكمة الله وتقديره . ومهما كشفنا من معرفة ستظل في حدود قول الله تعالى : { وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً } قليلاً بالقياس إلى ما في هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا الله ، ومع ذلك يفتن هؤلاء الجهال المتعالمون بذلك الطرف من العلم ، الذي أحاطوا به بعد الأذن . ويحسبون أنهم قد علموا شيئاً كثيراً! فيقودهم غرورهم إلى إنكار أن لهذا الكون إلهاً! ولكن ليطامن الإنسان من غروره العلمي ، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه وما يطيق تلقيه وتسجيله من علم ضئيل قليل ، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود ، فليس لنا – والحالة هذه – أن نجزم بوجود شيء أو نفيه . من عالم الغيب المجهول ، ومن أسرار هذا الوجود وقواه ، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا المشهودة . ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها ، فضلاً على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا! وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلة في برنامج ما يكشف لنا عنه أصلاً . لأن هذا لا يفيدنا في وظيفة الخلافة في الأرض ، فإذا كشف الله لنا من هذه الأسرار والقوى بالقدر المقسوم لنا، عن طريق الوحي الإلهي لا عن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه تعالى أيضاً ، فسبيلنا في هذه الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم لا بالتبجح والجحود . نتلقاها كما هي فلا نزيد عليها ولا ننقص منها . لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة . وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار .

وأما عالم الغيب : فبعد هذا الفتح الإلهي من علمه تعالى للبشر في الآفاق وفي أنفسهم ، وما فيها من دلائل الإيمان وإثبات الوحدانية ونفي الشرك . يفتح لهم جانبا من علم الغيب المستور بالقدر الذي يطيقونه وبالقدر الذي ينفعهم في القيام بواجب الخلافة في الأرض ومن الحقائق الثابتة والمقررة نقلا وعقلا أن الطريق الوحيد إلى معرفة عالم الغيب هو الله وحده ، فقد قرر القرآن أن هناك غيباً لا يعلم مفاتحه إلا الله :{ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو } [الأنعام: 59]. وأن الغيب كله لله ، وأن الذي يعلم الغيب هو الذي يرى : { أم عنده علم الغيب فهو يرى؟ } [النجم: 35]. ويقرر أن ما أوتيه الإنسان من العلم قليل : { وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً } [الإسراء: 85]. وهذا القليل إنما آتاه الله له بقدر ما يعلم من طاقته ومن حاجته . وأن الناس لا يعلمون فيما وراء العلم الذي أعطاهم الله إياه إلا ظناً ، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً . { إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى } [النجم: 29]. وهذه نصوص قاطعة لا تبقى بعده دعوى لمدع ، ولا يبقى معه مجال للوهم والخرافة . وبعد هذا التعميم في نفي علم الغيب يخصص في أمر الآخرة لأنها القضية التي عليها النزاع مع المشركين بعد قضية التوحيد . { قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ } [النمل: 65-66] .

وقد وقفت البشرية موقفاً عجيباً من قضية البعث ، على بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت. ولم تكن معجزة بدء الحياة الواقعة التي لا ينكرها أحد توقظ البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تستطرد في الكفر والتكذيب عبر الأجيال المتلاحقة حتى في وقتنا المعاصر من دعاة « الاشتراكية العلمية » الذين يريدون أن يلغوا الغيب والآخرة من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا؛ ويحلوا محله تصوراً كافراً جاهلاً مطموساً يسمونه : « العلمية » . من أجل أن ينطلق السعار المجنون الذي لا يكبحه إلاّ ذلك اليقين ، كي ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع والطغيان ، وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة في كل مجال ، إن « العلمية » التي تناقض « الغيبية» جهالة قد رجع عنها «العلم البشري »

ذاته ، ولم يبق يرددها إلا الجهال فقط! لأنها جهالة تناقض فطرة « الإنسان » ومن ثم تفسد « الحياة » ذلك الإفساد الذي يهدد البشرية بالدمار! ولو كان العقل هو الذي يحكم لا الهوى ، ولو كان العلم الحق لا الجهالة التي تسمى العلم هو الذي يقضي . لما حصل هذا الشغب على عالم الغيب والآخرة ، ولكنها العبثية أوالفوضى التي يراد لها أن تسود العالم وتحكمه بعيدا عن كل منطق للعقل أو الدين تحت مسمى العلمية وهي منهم براء .

ومعلوم أن الإيمان بالغيب نقلة ضخمة في حياة الإنسان؛ نقلة من دائرة الحس الحيواني إلى مجال الإدراك الإنساني ، وأن إغلاق هذا المجال دون الإدراك الإنساني نكسة به إلى الوراء؛ وهو ما تحاوله تلك المذاهب المادية الحسية تحت شعار العلمية والتقدمية .

والآخرة من الغيب يشهد المنطق والبداهة والفطرة بضرورته؛ ويعجز الإدراك والعلم البشري عن تحديد موعده ، فيقرر تعالى أن الآخرة غيب ، وموعد البعث من الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله . وأن علمهم عن الآخرة منته محدود ، لا ينفذ إليه علمهم ، ولا يعرفوا مما وراء الستر المسدل ، إلا بقدر ما يكشف لهم منه علام الغيوب . وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله ، ولكن كل من في السماوات والأرض من خلق الله . من ملائكة وجن وغيرهم ممن علمهم عند الله . فكلهم موكلون بأمور لا تستدعي انكشاف ستر الغيب لهم ، فيبقى سره عند الله دون سواه . قال تعالى : { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا } [الجن: 26-27].

فالغيب علمه من اختصاص الله تعالى وحده ، وحقيقة الغيب من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية؛ ومن قواعد « الإيمان » الرئيسية ومصدره الوحيد هو الوحي الإلهي لا غير ، فالأمر الغيبي كله من شأن الله ، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل ، فإذا أخبر الله عنه خبراً فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة ، وشأن البشر هو تلقي هذا الخبر بالتسليم ، والاطمئنان إلى أن الخبر في ذكر هذا الطرف وحده ، بالقدر الذي ذكره ، وأن لا مجال للجدل فيه . إن تقرير هذه الحقيقة ، حقيقة علم الله تعالى المطلق لعالم الغيب والشهادة ، يقتضي أن نتلقى حقائق الوجود غيبه وشهوده من عند الله تعالى بوصفها حقائق ثابتة لا شك فيها ، وأن نستقل في تلقي أخبار الغيب من المصدر الوحيد الموثوق بصحته ، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه . فما

يقوله هو كلمة الفصل في مثل هذا الموضوع ، ورفض كل مصدر سواه [114]. قال تعالى : { أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُون أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُون إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الإنعام: 114-116].

وقد استدل القرآن بحقيقة علم الله تعالى المطلق والشامل لعالم الغيب والشهادة على ألوهيته وما يستلزمها من مقتضيات العبادة بما يناسبها ، من وجوب تلقي قضايا الغيب ومسائل الإيمان من الله وحده ، وذلك أنه من كان هو المتفرد بالعلم المطلق لعالم الغيب والشهادة ، فهو وحده من يستحق أن يتلقى منه حقائق الوجود غيبه وشهوده بصفة الوثوق والجزم ، وكذلك الإستقلال به عن كل ما سواه في تلقي قضايا الغيب لأنه هو المصدر الوحيد لها ، وهو من يملك أمر الهداية إلى حقائق الغيب والإيمان ، وكل مصدر غيره هو وهم وافتراء ، وشرك وضلال ، لأنه يدعي أمراً تفرد به الله سبحانه وتعالى : قال تعالى : { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(35)وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [يونس: 35-36]. وهذا استدلال بنقصان آلهتهم عن الإرشاد إلى الحق ، وبأن الله تعالى هو الهادي إلى الحق ، وقَصْر صفة الهداية إلى الحق على الله تعالى دون آلهتهم .

ومعلوم أن منة الهداية إلى الحق أعظم المنن لأن بها صلاح المجتمع وسلامة أفراده ، ولولا الهداية لكانت نعمة الإيجاد مختلة التوازن ، وقد أتبع الاستدلال على كمال الله ببدء الخلق وإعادته ، بالاستدلال على كماله بالهداية كما في قول إبراهيم عليه السلام : { الذي خلقني فهو يهدين } [الشعراء: 78]. وقول موسى عليه السلام : { ربّنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هَدى } [طه: 50] وقوله تعالى : { سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدّر فهدى } [الأعلى: 1 3]. ثم أكد بقصر الهداية إلى الحق على الله تعالى دون آلهتهم المزعومة بالإستفهام التقريري ، بقوله :{ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع } وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه أهل العقول بأن الذي يهدي إلى الحق هو من له حق الإتباع وحق تقرير طريق الهداية . ومعلوم أن العقول عرضة

---

[114] - راجع تفسير الظلال 462/2 ، 59/3 ، 84/5 ، 396/5 ، 424/6 ، 355/7 ، وطريق الدعوة ،لأحمد فايز 368/1 ، وأثر العقيدة الإسلامية في السلوك ، زكريا الشلول ، 177-179

للاضطراب والخطأ فاحتاجت النفوس إلى هدي يتلقى من الجانب المعصوم عن الخطإ وهو جانب الله تعالى ، فلذلك كان الذي يهدي إلى الحق أحق أن يتبع لأنه مصلح النفوس ومصلح نظام العالم البشري ، فاتباعه واجب عقلاً واتباع غيره لا مصحح له ، إذ لا غاية ترجى من اتباعه . وأفعال العقلاء تصان عن العبث . وقوله : { أمّن لا يَهدّي إلا أن يُهدى }.أي : كيف يهدي غيره من لا يهتدي ، فضلاً عن أن يَهدي غيره ، فلا يحق له أن يتبع . والمراد به : الأصنام فإنها لا تهتدي إلى شيء ، كما قال إبراهيم : { يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً } [مريم: 42]. إن منطق البداهة يقضي أن من يعلم الحق هو من يهدي إليه وهو من يتبع ، وهذا يوجب أن نستمد كل حقائق الغيب من الله تعالى وأن نقتصر عليه بالهداية ، ونستغني به عن غيره بالكفاية ، وأن نتقبلها منه بثقة ويقين ، من غير ريب ولا شك ، لأنها صادرة من عالم الغيب والشهادة [115].

قال تعالى : { ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران: 44]. إن هذا القصص الحكيم هو من أنباء الغيب التي لا يعلمها أحد سوى الله تعالى ، ولا مجال إلى معرفتها إلا عن طريق الوحي الإلهي ، ونظيره : { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى } [القصص: 44]، { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطور } [القصص: 46]، { وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم } [يوسف: 102]، { وَمَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا } [هود: 49]، أي : ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد إنما هو من إخبار الغيب فلا يمكنك أن تعلمه إلا بالوحي وقد أخبرناك بها لتكون دليلا على صدقك فيما تبلغه عن ربك ولتكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون .

فهي موجبة عل سامعها أن يتنبه من غفلته ويستيقظ من رقدته ، لأنها منبهة بنفسها للمنصف الفطن على أن الآتي بها صادقاً لا مرية في صدقه في كل ما يدعيه عن الله سبحانه وتعالى ، وكان من حق من يتنبه أن يبادر إلى الإذعان فيصرح بالإيمان ، لأنه لا وجه له إلى علم ذلك إلا بأن يكون معهم إذ ذاك ، أو أخذ ذلك عن أهل الكتاب ، أو بوحي من الله؛ ومن الواضح الجلي إنتفاء الإحتمال الأول والثاني ، فانحصر إخباره بذلك في وحي الله تعالى ، وقد استدل القرآن بعلم الله الشامل للغيب والشهادة على تفرد ألوهيته في تلقي مسائل الإيمان والعقيدة من مصدر الوحي المعصوم ، ورفض كل مصدر سواه ، في معرض ذُكر إبراهيم عليه السلام ، وهذه الاستدلالات في

---

[115] - راجع : تفسير ابن عاشور 6/ 478 ، وتفسير السعدي 364 ، وتفسير الظلال 4/ 144 وتفسير طنطاوي 2111 ، وتفسير البقاعي 68/4 ، وتفسير الرازي 277/8

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

غاية الأهمية ، لأنها تؤسس منهج الفكر والنظر في تلقي حقائق العلم والمعرفة وقضايا الإيمان والعقيدة ، كما في قوله تعالى :{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } وقوله :{ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ } وقوله: { أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى} وهي تُعد قواعد أساسية في علم الاستدلال عامة وفي الاستدلال بعلم الله تعالى على ألوهيته خاصة ، ومن هذه الآيات التي استدل بها تعالى في ذلك نذكرها على النحو الآتي :

1- قال تعالى : { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 65-66] .

لما زعم اليهود أن إبراهيم كان يهوديا، والنصارى أنه نصراني، توصّلاً إلى أنّ الذي يخالف دينهم لا يكون على دين إبراهيم كما يدّعي النبي محمد صلى الله عليه وسلم فالمحاجة فرع عن المخالفة في الدعوى . وهذه المحاجة يقصدون منها إبطال مساواة دينه لدين إبراهيم ، بطريقة قياس المساواة في النفي ، وجادلوا على ذلك ، فأنكر تعالى محاجتهم الباطلة للمسلمين ومجادلتهم فى شأن إبراهيم من وجهين :

الوجه الأول : السند التاريخي ، فحجتهم تخالف ما علم من التاريخ ، في قوله : { لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ } فالاستفهام لتوبيخهم وتجهيلهم فى دعواهم أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا .أي : لا يسوغ لكم يا معشر اليهود والنصارى أن تجادلوا فى دين إبراهيم وشريعته فيزعم بعضكم أنه كان يهودياً ، ويزعم البعض الآخر أنه كان نصرانياً ، على حين أن إبراهيم سابق للتوراة والإنجيل . وهما ما أنزلا إلا من بعده، إن هذه المحاجة منكم فى شأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد ، فكيف تنسبون إبراهيم إليكم وهو متقدم عليكم، والحجاج في ذلك على هذا النحو مراء لا يستند إلى دليل .

وقوله :{ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } أى أفلا تعقلون يا أهل الكتاب هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا للشىء المتأخر عنه؟

الوجه الثاني : السند العلمي ، المحاجة بغير علم ومخالفة من يعلم ، في قوله:{ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } . ثم بين الله تعالى مظهرا آخر من مظاهر مخالفة أهل الكتاب لمقتضيات العقول السليمة وهو أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم، فلا

يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في أمر هم أجانب عنه ، ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم ، أي : أنتم يا معشر أهل الكتاب جادلتم وبادلتم الحجة سواء أكانت صحيحة أم فاسدة فى أمر لكم به علم فى الجملة ، ولكن كيف أبحتم لأنفسكم أن تجادلوا فى أمر ليس لكم به علم أصلا ، وهو جدالكم فى دين إبراهيم وشريعته؟ لأنه من البديهى أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة . وإذن فجدالكم فى شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة ، والنفوس المستقيمة . وقوله تعالى :{ والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } تذييل قصد به تأكيد علم الله الشامل ، ونفى العلم عن أهل الكتاب فى شأن إبراهيم .أي : والله تعالى يعلم حال إبراهيم ودينه ، ويعلم كل شيء فى هذا الوجود ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، فإن مجادلتهم في الحقيقة إنما هي مع الله سبحانه وتعالى ، عالم الغيب والشهادة المحيط علمه بجميع ما جادلوا فيه وهم ليس لهم علم أصلاً إلا ما علمهم الله ، فأنكر سبحانه عليهم مجادلتهم لأنها تخالف صريح العقل ، وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، المحيط بكل شيء الذي يعلم الأمور على حقائقها ولا تخفى عليه خافية [116].

2- قال تعالى:{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) } [البقرة :140] .

أمر تعالى رسوله أن ينكر على أهل الكتاب جدالهم في الله تعالى إذ ادعوا أنهم أولى بالله من الرسول والمؤمنين وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه ، فعلّم الله رسوله كيف يرد عليهم منكراً عليهم دعواهم الباطلة . كما أفحمهم وقطع حجتهم في دعواهم أن إبراهيم والأنبياء بعده كانوا هوداً أو نصارى ، والمراد من الاستفهام أمرين : إنكار حجاجهم في دين الله ، وإنكار ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء المذكورين ،والمعنى : لا تجادلوننا في دين الله بغير حق ، ولا تقولوا إن الأنبياء كانوا على دينكم ، فإن مجادلتكم وأقوالكم من قبيل المزاعم الباطلة التي لا سند لها من عقل أو نقل . والأمة إذا انغمست في الجهالة وصارت عقائدها غروراً ومن دون تدبر اعتقدت ما لا ينتظم مع

[116]- راجع : تفسير طنطاوي 635-638 ، وتفسير ابن عاشور 120/3 ، وتفسير الرازي 249/4 ، وتفسير البقاعي 73/2 ، وتفسير الظلال 380/1 ، وتفسير ابن كثير 58/2

الدليل واجتمعت في عقائدها المتناقضات ، لذا فقد وبخهم الله منكراً عليهم مبلغهم من الجهل بتاريخ شرائعهم حيث زعموا أن إبراهيم وأبناءه كانوا على اليهودية أو على النصرانية ، فرد الله تعالى عليهم بأبلغ حجة وأبطل زعمهم بأقطع محجة وذلك من وجهين :

الوجه الأول :{ إثبات الأعلمية لله } أي : التقدم برتبة العلم وذلك بالمقارنة بين العلم البشري النسبي والمحدود ، وبين العلم الإلهي المطلق واللا محدود ، بقوله : { أأنتم أعلم أم الله } } ويصور تعالى سعة علمه الذي ليست له حدود قياساً بالعلم البشري المحدود بمثال محسوس ليقربه إلى تصور البشر القاصر في قوله تعالى : { قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا } [الكهف: 109].

فالسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارته في صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه؛ فإذا البحر ينفد وكلمات الله لا تنفد . ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله ، ثم إذا البحر الآخر ينفد كذلك وكلمات الله تنتظر المداد! والبحر في هذا المثال يمثل علم الإنسان الذي يظنه واسعاً غزيراً . وهو على سعته وغزارته محدود . وكلمات الله تمثل العلم الإلهي الذي لا حدود له ، والذي لا يدرك البشر نهايته؛ بل لا يستطيعون تلقيه وتسجيله . فضلاً على محاكاته .

إن ما يطيق الإنسان تلقيه وتسجيله من علم ضئيل قليل ، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود إنه مشهد منتزع من معلومات البشر ومشاهداتهم المحدودة ، ليقرب إلى تصورهم معنى سعة علم الله الذي ليس له حدود ، ومع هذا المثال التقريبي فإن تصورهم البشري يبقى عاجزا عن إدراك مجرد المثال ! فكيف لهم بلوغ حقيقة علمه تعالى ؟ . وكيف للمحدود أن يدرك المطلق ؟ { قل أنتم أعلم أم الله } وهو سؤال لا جواب عليه! وفيه من الاستنكار ما يقطع الألسنة دون الجواب عليه! فلا يمكنهم أن يقولوا : نحن أعلم لأنهم إن قالوا نحن أعلم ، كفروا ، وإن قالوا : الله أعلم منا ، انقطعوا ، وبطل ما ادعوا ولزمتهم الحجة ، ووجب عليهم قبول الداعي بهذا القرآن الذي ثبت صدقه بثبوت رسالته ، وثبتت رسالته بظهور معجزته وإلا كان قبول بعض من ثبت له هذا الوصف دون البعض تحكما واتباعاً للهوى ، وكانت دعواهم لا أساس لها من الصحة وبذلك تكون الجملة الكريمة {أنتم أعلم أم الله } قد قطعت حجتهم بأجمع بيان وأحكمه . ومعلوم أن الله تعالى أخبر أن إبراهيم ومن معه من الأنبياء المذكورين كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية كما قال تعالى : { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [آل عمران: 67]. ومثل قوله : { يا أهل الكتاب لِمَ تُحَاجُّون في إبراهيم وما أُنْزِلَتْ التوراة والإنجيل إلا من

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعدِهِ أَفَلا تعقلون } [آل عمران: 65]. وأن يعقوب عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه بأن يموتوا على الإسلام ، وأن التوراة والانجيل ما أنزلا إلابعد أولئك الأنبياء جميعا ، لذلك كانت صورة الجواب مبهم : { قل ءأنتم أعلم أم الله } وهذا في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه – من وضوحه – لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد ، وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هودا ولا نصارى . لذلك أمر تعالى النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ذلك تذكيراً لهم بالعهد الذي في كتبهم عسى أن يراجعوا أنفسهم ويعيدوا النظر إن كانوا مترددين أو أن يفيئوا إلى الحق إن كانوا متعمدين المكابرة .

الوجه الثاني : { كتمان الشهادة } أي : إنكار العلم والمعرفة بذلك ،ثم القول بخلافه مما يوافق أهوائهم الباطلة ومذاهبهم الفاسدة ، فكتموا شهادة التوراة والإنجيل على أن الأنبياء كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية على التوحيد والحنيفية الأولى ، ولديهم كذلك شهادة في كتبهم أنه سيبعث نبي في آخر الزمان دينه الحنيفية ، دين إبراهيم. ولكنهم كتموا هذه الشهادة أيضاً ، وقد استفيد من التقرير في قوله : { قل أأنتم أعلم أم الله } أنه أعلمهم بأمر جهلته عامتهم وكتمته خاصتهم ولذلك قال : " ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله " يشير إلى خاصة الأحبار والرهبان الذين تركوا عامة أمتهم مسترسلين على عقائد الخطأ والغرور والضلالة وهم ساكتون لا يغيرون عليهم إرضاء لهم واستجلاباً لمحبتهم وذلك أمر إذا طال على الأمة تعودته وظنت جهالتها علماً فلم ينجع فيها إصلاح بعد ذلك لأنها ترى المصلحين قد أتوا بما لم يأت به الأولون فقالوا : { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ } [الزخرف: 23].

ولما كان العلم عندهم عن الله بأن إبراهيم ومن ذكر معه من الأنبياء على دين الإسلام ، وكانوا يكتمون ما عندهم من ذلك ، مع تقرير الله لهم واستخبارهم عنه ونهيه لهم عن كتمانه وما يقاربه بقوله : { ولا تلبسوا الحق بالباطل } [البقرة : 42] وكان التقدير : فمن أظلم ممن ادعى أنه أعلم من الله بدعواه ذلك صريحاً أو لزومه له بإخباره بخلاف ما ثبت في كتبه المنزلة ومنها القرآن المعلوم صدقه بإعجازه! ثم هددهم تعالى بجريمتهم الكبرى وهي كتمانهم الحق وجحودهم نعوت الرسول والأمر بالأيمان به عند ظهوره فقال :{ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وما الله بغافل عما تعملون }. والله مطلع على ما يخفون من الشهادة التي ائتمنهم عليها ، وما يقومون به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها : فإن الله سوف يستخبرهم عنها مع علمه من كتمانهم لها ، لأنه

المحيط بكل شيء قدرة وعلما العالم بالسرائر . فإنه فاضحهم يوم القيامة ، ومعذبهم على جريمتهم الشنعاء [117].

3- قال تعالى: { أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } [النجم: 35-37].

والآية تدل على أن سبب النزول جاء رداً حاسماً على من تجرئ على الله بالتقول كذباً في أمور الغيب ، لأن فاعل ذلك ليس عنده علم من الغيب مطلقاً حتى يخبر الناس بما هو مستور في علم الله ، فجاء الإنكارعلى عدم علمه بالغيب بقوله : { أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب } فقد ذكره تعالى في مواضع كثيرة كقوله تعالى : { أَمْ عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ } [الطور: 41، والقلم: 47]. وقوله : { أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً } [مريم: 78]. وقوله { وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب } [آل عمران: 179] وقوله تعالى : { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ } [الجن : 26 - 27] وقوله تعالى : { قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله } [النمل: 65].

والآيات بمثل هذا كثيرة معلومة، والاستفهام في الآية لنفى علمهم بالغيب مطلقاً ، وكذلك الإنكار على زعمهم معرفة شيء من ذلك ، وهذا الخبر كناية عن تخطئة لكل متقول على الله في معرفة العوالم المغيبة ، وقدم {عنده} لإفادة الاهتمام بهذه العندية التي من أعجب العجب ادعاؤها ، وللإشعار بأنه بعيد عن هذه المنزلة ، وقوله : { فَهُوَ يرى } أى : أعند هذا المدعي الذى أعرض عن الرشد ، علم الغيوب المستترة عن الأعين والنفوس ، فهو وحده يراها ويشاهد أمور الغيب ويطلع عليه بحيث عاقد على التعارض في حقوقها . كلا إنه لا علم عنده بشيء من ذلك ، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه ، لذلك أضرب بقوله : { أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفَى .. } للانتقال إلى متعجَّب منه ، وإنكارٍ آخَر على ذلك المدعي بعلم الغيب ، وهو جهله بما عليه أن يعلمه الذين يخشون الله تعالى من عِلم ما جاء على ألسنة الرسل الأولين ، ولما جاء زمان محمد امتنع عن الإيمان ، فلما أنذره بعذاب الله ، قابله بمقالة يتحلل بها من عذاب الآخرة ،

---

[117]- راجع : تفسير السعدي 62 ، وتفسير طنطاوي 221 ، وتفسير الظلال 93/1 ، وتفسير ابن عاشور 4/2 ، وتفسير البقاعي 197/1 ، وتفسير الرازي 380/2 ، وتفسير ابن كثير 451/1

فزعم شيئاً لم يرد في كتبهم و لم ينزل عليهم في الصحف المتقدمة ، فكان الرد عليه في غاية الإفحام : فهو إن كان لا يؤمن بمحمد فهلاّ تطلب ما أخبرت به الرسل من قبلُ ، طالما ذكَر هو وقومه أسماءهم وشرائعهم في الجملة ، وطالما سأل هو وقومه أهل الكتاب عن أخبار موسى ، فهلاّ سأل عمّا جاء عنهم في هذا الغرض الذي يسعى إليه وهو طلب النجاة من عذاب الله فينبئه العالمون ، فإن مآثر شريعة إبراهيم مأثور بعضها عند العرب ، وشريعة موسى معلومة عند اليهود .

ووصفُ إبراهيم بذلك تسجيل على المشركين بأن إبراهيم بلّغ ما أوحي إليه إلى قومه وذريته ولكن العرب أهملوا ذلك واعتاضوا عن الحنيفية بالإشراك ، فلو أنهم علموا الغيب من مصدره الموثوق مما يعترفون به هم أنفسهم ، ووجدوا فيها بأن كل واحد يؤاخذ بفعله ويجازى بعمله ولا تتحمل نفس ذنب نفس أخرى .

ويبطل بذلك كل توهم عن حقيقة الغيب والحساب والجزاء في الآخرة ، ويتم تصحيح مفاهيم الغيب عن العبث والخطل ، لأن أمر الغيب لله . لا يراه أحد سواه . فلا يأمن الإنسان ما خبئ فيه؛ وعليه أن يواصل عمله وبذله ، وأن يعيش حذراً موفياً طوال حياته؛ وألا يبذل ثم ينقطع ، ولا ضمان له في الغيب المجهول إلا حذره وعمله ووفاؤه ، ورجاؤه بهذا كله في مغفرة الله وقبوله . ولا يكون مثل هذا الذي آمن نفسه من تبعة التولي عن الإسلام بالتقول على الله كأنه يعلم الغيب ويشاهد أن ذلك يدفع عنه العقاب فقد كان ظنه الذي حمله على التولي سبباً لهلاكه[118] . قال تعالى : { وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) } [فصلت:22- 23].

وقد استدل إبراهيم عليه السلام بعلم الله الشامل لعالم الغيب والشهادة على ألوهيته تعالى وما يلازمها من مقتضيات العبادة ، والتي توجب على العاقل والمؤمن أن يتلقى كل قضايا الغيب ومسائل الإيمان من مصدرها الوحيد من عند الله تعالى ، وأن يقتصر عليه وحده في استمداد كل ما يحتاجه من اعتقاد صحيح ومرضٍ لله تعالى ، وذلك أن منطق البداهة يقضي أن طلب العلم لا يكون إلا من أهله لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وان من يعلم حجة على من لا يعلم ، فلا يطلب من جاهل جواب ، وأن التقدم للأعلمية وإن الله جعل فوق كل ذي علم عليم ، فالعلم درجات ، والحكمة توجب أن يتقدم الأعلم على من دونه ، ومن هذه البديهيات العقلية يؤسس المنهج القرآني المعتقد

[118]- راجع : تفسير الرازي 443/14 ، وتفسير الشنقيطي 52/8 ، وتفسير ابن عاشور 193/14 ، وتفسير الظلال 63/7 ، وتفسير طنطاوي 4011 ، تفسير السعدي 821

الإيماني ، بحيث تنتفي فيه المحتملات ، ويسد باب الخلاف والمجادلات ، فعلى ما أتفقت عليه العقول السليمة يبني الإسلام العقيدة ، وبهذا تستند العقيدة على تأصيل فكري لكل قضاياها . وإنما ينحصر الجهد البشري في تجلية هذه الحقيقة من مصدره القرآني باستنطاق حقائقه الكامنة فيه ، واستخراجها من نصوصه الثابتة والقاطعة التي تحسم بنصاعتها ووضوحها كل نبتة خلاف في مهدها إن وجدت بل لا يمكن أن توجد في ضوء هذه المنهجية مادة الخلاف والاختلاف في قاموسها مطلقاً . وبهذه المنهجية القرآنية سار جميع الأنبياء والمرسلين ، لأنه منهج رباني أصيل ثابت لا يتغير مع متغيرات الزمن .

وقد استخدم إبراهيم هذا المنهج الرباني في تأسيس المعتقد الإيماني من الوجهة الفكرية ، مستدلاً بعلمه تعالى على وجوب انحصار التلقي منه وحده تعالى لطريق الهداية وحقائق الإيمان ، وثبوت عجز العقل البشري الذي هو أرقى الكائنات على هذه الأرض من الاستقلال بذاته عن الله في الوصول إلى الحقيقة الإيمانية ومعرفة حقائق الغيب . وقد ثبت ذلك من الوجهة الواقعية في تلك العبقريات البشرية من الفلاسفة القدماء الذين لم يستطيعوا بعقولهم الفذة أن يصلوا إلى شيء من ذلك بل كل ما قدموه للبشرية في جانب علم الغيب لا يخرج عن الأوهام والخرافات ، التي معظمها يبعث على الضحك وما تبقى منها مهيج للبكاء . ونقف مع إبراهيم في استدلاله بعلم الله تعالى في حسم قضية مصدرية المعرفة ورسم طريقها الصحيح ضمن خطواتها المنهجية التي لا يخرج عنها إلا من خرج عن دواعي العقل ومنطق الرشد . ومن هذه الاستدلالات الإبراهيمية ما يلي :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } [الأنعام: 77].

إن الناظر المتدبر لقصة إبراهيم عليه السلام يلاحظ أنه يؤسس منهج الفكر والنظر للمعتقد الإيماني من خلال قضية أساسية ومحورية وهي مصدرية المعرفة ، ومنهج التلقي المعرفي لقضايا الغيب وحقائق الإيمان ، وهي قضية شغلت أصحاب الفكر على إختلاف العصور فيما يسمى نظرية المعرفة التي لم تتفق عليها الأنظار ، وإن المتتبع البصير لقصة إبراهيم عليه السلام يجد أنه أسس معالم المنهج المعرفي العقلي والنقلي في تأسيس المعتقد وفق أصوله السليمة ، والتي سجل القرآن له هذه الميزة

الخاصة ، بقوله تعالى : { إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الصافات: 84] وهي : السلامة العقلية والنفسية معاً لأن القلب يشملهما ، وهذه العقلية والنفسية السليمة هي التي أعطته الحصانة من عوامل التدمير للكيان الإنساني ، والمحافظة على أصالة الفطرة . ولذلك نجد إبراهيم يرفض ابتداءً أن يجعل مصدر المعرفة هو التقليد المستمد من موروثات الأباء والأجداد بحجة الأسبقية لا الأعلمية ، كما يرفض أن يجعل مصدر المعرفة هي البيئة الإجتماعية المستمدة من الأعراف السائدة والأوضاع القائمة ، بحجة المألوف والعادة ، ثم وظف طاقته العقلية توظيفاً سليماً في النظر بمدركاته الحسية إلى المشاهدات الكونية ليستدل بها على كونها مخلوقة لخالق ، وإن هذا الخالق هو غيرها وخارجها قطعاً. فأثبت وجود الخالق ثم أمسك عن الخوض في حقيقته ومراده ، لأنه من المغيبات التي يعجز العقل عن إدراكها مستقلاً بذاته ، فوقف عند حدود قدرة العقل البشري و لم يتجاوزها بحجة الفضول المعرفي والبحث عن المجهول .

فكان تعامله عليه السلام مع قضية المعرفة لحقيقة الوجود غيبه وشهوده تعاملاً سليماً يقوم على منطق الحكمة والرشد كما سجل القرآن له ذلك أيضاً بقوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ } [الأنبياء: 51]. وهذا يُعد من أعظم المواقف التي تسجل لإبراهيم في تاريخ الإنسانية قاطبة ، لأنه أسس قاعدة المعرفة وفق مصادرها الصحيحة ومجالاتها المعتبرة ، حيث فرق بين ما يعرف بالعقل وما يعرف بالنقل ، وفرق أيضاً بين مصدر المعرفة لكل منهما ومجاله وطريقه للمعرفة .

فنحن إذاً أمام مدرسة رائدة لتأسيس منهج الفكر والنظر في المعرفة الإنسانية ، لم تستوف حقها في الدراسة والبحث ، وخاصة في مجال التأسيس العقائدي ، فطريقة إبراهيم توافق الفطرة السليمة في بنائها المعرفي التي أقرها الوحي الإلهي ، وكذلك يحطم كل النظريات المعرفية السابقة واللاحقة التي تخالف مبادئ الفكر والنظر ولا تستند على منهجية صحيحة في التعامل مع قضية المعرفة ، وذلك مثل النظريات المعرفية التي يقدمها الفلاسفة ، حيث لم يتعاملوا معها وفق منطق الحكمة ، فلم يفرقوا بين ما هو منقول وما هو معقول ، وبين مصدر كل منهما ومجاله ، فبحثوا قضايا الغيب التي مجالها النقل بطريق العقل ، فكانت أبحاثهم من حيث المحتوى عبارة عن فرضيات وخيالات وهمية لا واقع لها ، ومن حيث المنهجية تتسم بالسطحية وعدم الصحة ،حيث أقحموا العقل في غير مجاله ، و لم يدركوا ان المصدر الوحيد للمعرفة الغيبية هو الوحي الإلهي ولا سبيل للعقل إليها إلا باخبر الصادق من عند الله تعالى ، وهذا هو منهج إبراهيم في التعامل مع القضايا الغيبية حيث توقف عن

البحث فيما وراء الوجود ، وقرر أن مصدره الوحيد هو الخبر الصادق عن طريق الوحي الإلهي وهذا ما قصده في قوله : { لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } وهو في هذه الآية أضاف الهداية إلى الله تعالى مما يدلُّ على أن الهدايةَ ليست إلاَّ منه وحده ، ولا يمكن حمل لفظ الهداية هنا على نصب الأدلة ، لأن ذلك كان حاصلاً له ، ولا على التمكن في معرفة الاستدلال فإنه عارف به ، فالهداية التي كان يطلبها بعد حصول تلك الأشياء لا بد وأن تكون زائدة عليها ، ألا وهي المعرفة الغيبية التي لا تعرف إلا بخبر الوحي .

فكان وجه الاستدلال في هذه الآية : هو أن الهداية إلى الحق في معرفة الأمور الغيبية لا تكون إلا من عند رب هذا الوجود الذي فطر السماوات والأرض ، لأنه هو وحده عالم الغيب والشهادة بدليل خلقه المحكم والمتقن ، وبكونه أعلم بخلقه وبنفسه ، لذلك فهو المصدر الحقيقي والصادق والموثوق الذي يهدي للحق ، وكل طريق للهداية من عند غيره هو تيه وضلال . وإنما استدل على بطلان كون القمر إلها بعد أفوله ، ولم يستدل على بطلان ذلك بمجرد ظهوره ، لأنه أقوى وأقطع لحجة الخصم حيث أراد أن يقيم استدلاله على نفي العلم عنه وإثبات الجهل له بأفوله وغيابه ، والغياب هنا غياب هداية ورشاد وهذا يتطلب علم شامل وكامل لكل شيء والذي يغيب لا يكون له مثل هذا العلم فلا يرجى منه هذه الهداية بحال ، لأنه لا يرجى من جاهل علم أو هدى ، لذلك ناسب عند أفوله ، قوله : { لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } وهو حين نفى ربوبيتها بالأفول فقد نفى ربوبيتها بعدم حصول الهداية منها ، ومن ثم أثبت الربوبية لخالقه وحصر حصول الهداية منه وحده ، كما في قوله : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء: 78].

لذلك أعلن أنه مفتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه واستعجز نفسه عن معرفة الغيب دونه فاستعان به في درك الحق ، لأنه لا يهتدي إليه إلا بعونه وتوفيقه ، لذلك توجه إلى استلهام الحقيقة وطلب الهداية من صاحب العلم المطلق والمعبود الحق ، ومائلاً عن الشرك ومعرضاً عن كل معبود غيره لا يهدي للحق ، والذي عبر عنه بصدق التوجه لربه خالق هذا الوجود بقوله : { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ }. وفي ذلك إرشاداً منه عليه السلام إلى الطريق الصحيح لمعرفة الغيب وتنبيهاً للنظر في معرفة الربّ الحقّ وأنّه واحد ، وأن هذه المخلوقات القاصرة العاجزة عن الهداية لا تصلح للربوبية ولا تستحق الألوهية أو أن تقصد في طلب الهداية ، وأن من اتخذها آلهة تعبد أو يرتجى منها الهدى فهو مشرك ضال جائر في الحكم ، لأن هذا

يعد خروجاً عن مقتضى الشرع والعقل ، قال تعالى : { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [يونس: 35]. وهكذا يؤسس إبراهيم عليه السلام قاعدة من قواعد التوحيد متعلقة بعلم الله تعالى وفق تأصيل فكري متين ، وليس من الحكمة الدخول في تفصيلات الخلاف في كون إبراهيم كان ناظراً أو مناظراً ، في الوقت الذي نهمل فيه المنهج القويم الذي جاء إبراهيم عليه السلام ليؤسسه في مناهج الفكر والنظر ، وأصول المعرفة والإعتقاد[119] .

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } [الأنعام: 80].

في هذه الآية الكريمة يذكر إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى قد هداه إلى الحق وهو الذي كان يبحث عن هذه الهداية الغيبية ، في قوله : { لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } [الأنعام: 77].

وبذلك اكتملت دائرة المعرفة الإنسانية لدى إبراهيم عليه السلام ، غيبها وشهودها ، بعدما تكامل العقل والنقل معاً في الوصول إلى الحقيقة الإيمانية ، فقد عرف عليه السلام عالم الشهادة بطريق المعقول ، قال تعالى : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } [الأنعام: 75]. حيث عرف هذه المخلوقات بالإدراك الحسي ، وعرف خالقها بالإستدلال العقلي ، ووقف على عتبات عالم الغيب معلناً عجزه عن إدراكه مستقلاً بقدراته العقلية ، فهو في مجال عالم الشهادة وصل إلى المعرفة بطريق المعقول ، ووظف طاقته العقلية بصورة صحيحة ، واتبع الخطوات المنهجية السليمة التي أثبت فيها أن هذا العالم ليس خالقاً ، وإنما هو مخلوق لخالق ، وأثبت أن هذا الخالق موجود قطعاً ، وأثبت أن إدراك حقيقة هذا الخالق ومراده لا تدرك بطريق المعقول وإنما بطريق المنقول ، لأنها من الغيب المستور وليس مجاله العقل وإنما هو النقل ، وهذا ما عبر عنه بقوله : {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} فأثبت التوحيد ونفى

---

[119]- راجع : تفسير ابن عاشور 2/5 ، وتفسير فتح القدير 436/2 ، وتفسير الرازي 344/6 ، وتفسير بيضاوي 172/2 ، وتفسير طنطاوي 1484

الشرك ، بطريق العقلِ إبتداءً ، وانتهى دور العقلِ في التفكير بعد عالم الشهادة عند حدود عالم الغيب ، فأعلنِ عجزه عن معرفته وتوجه بالتسليم المطلق إبتداءً إلِى الوجهة التيِ فطرت هذا الوجود ، وهذا ما عبر عنه بقوله : { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وهذه الحالة الطبيعية للمعرفة الإنسانية التي عبر عنها إبراهيم ، وهي معرفة صحيحة وفق منهجية سليمة وهي تعبر عن حالة الرشد كما وصفه تعالى بها بقوله : { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ } [الأنبياء: 51]. وهذه حالة الفطرة السليمة عندما تستقيم باستنارة الفكر ، وسلامة النفس ، تعلن التوحيد والبراءة من الشرك و يكون في حالة طلب الهداية من مصدرها الموثوق ، وهي حال كل إنسان يريد الحقيقة ويتقصدها وفق خطواتها المنهجية الصحيحة .

وقد وجد في التاريخ مثل هؤلاء : كقس بن ساعدة وزيد بن عمرو ، ولكن معرفتهم بالله لم تكتمل ، لأنها لم تصل إلى المعرفة الغيبية التي تصلهم بالله ، وهذه ليس طريقها العقل وإنما النقل الذي لا يتحقق إلا بالوحي الإلهي ، وهذا لم يتحقق لهم ، أما ابراهيم فقد جاءه الوحي من عند الله تعالى بقوله : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة: 131]. وبذلك اكتملت المعرفة لدى إبراهيم بعالم الغيب والشهادة ، وانتقل من حالة التفكير العقلي إلى حالة التلقي الفكري ، وأصبح دور العقل هو فهم مراد الله والتسليم المطلق لأمره بعد بيان طريق الهداية من الوحي الإلهي ، وتعينت صلته بالله تعالى التي تقوم على الإسلام ، قال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [النحل: 120-121].

وبعدما تحققت الهداية من عند الله تعالى لإبراهيم وقد أطمأن قلبه باليقين وانشرح صدره بالإيمان ، يجيء قومه وهم على ذلك الوهن في معتقداتهم والضلال المبين ، ليحاجوه ويخاصموه ، وقد شرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد فأوردوا عليه حججاً على صحة أقوالهم وقد دل عليها رد إبراهيم ، وهي تتضمن أمرين :

الأول : المجادلة من غير علم وذلك بإيراد أدلة فاسدة واقعة فى حضيض التقليد ، كقولهم : { إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا على أُمَّةٍ } [الزخرف: 23].

والثاني : بالتهديد والتخويف من جهة آلهتهم أن تنزل به سوء ، ونظيره في قصة قوم هود : { إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ } [هود: 54].

فكان رد إبراهيم عليه السلام على كل حجة من حججهم الواهية النابعة من فساد معتقدهم ، في غاية الوضوح والحسم وذلك على النحو الآتي :

– **أما الرد على حجتهم الأولى** : وهي المجادلة في الله بغير علم ولا برهان . فقد أنكر عليهم محاجتهم له مع قصورهم عن تلك المرتبة وعزة المطلب وقوة الخصم ووضوح الحق ، بقوله: { أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ } والاستفهام للانكار والتوبيخ وتيئيسهم من رجوعه إلى معتقداقم . وصرح باسم {الله} المستجمع لصفات الكمال ، وهذا التصريح باسمه تعالى جاء بعد هداية الوحي حين قال له: { أسلم } . في حين لم يصرح باسمه قبل الهداية حيث عبر عنه بقوله: { للذي فطر السماوات والأرض }، وهذا يدل على أن أسماء الله توقيفية وإن معرفتها لا يكون إلا من طريق الوحي وهدايته ، ثم أكد الإنكار بقوله:{ وَقَدْ هَدَانِ } يعني : ، كيف أترك من يعلم كل شيء ومن بيده الهداية وألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟! في شأن وحدانيته تعالى في كونه لا شريك له ولا ندّ ولا ضدّ ، والحال أنه قد وفقني لمعرفة وحدانيته وهداني إلى الدين الحق وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة . وعصمني أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية فلا جدوى من محاجتكم إياي بعد أن هداني الله إلى الطريق المستقيم . وهذا يوجب عليهم الكف عن محاجته كونه مهدياً من جهة الله ومؤيداً من عنده سبحانه . كقوله تعالى : { قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام: 71].

– **وأما الرد على حجتهم الثانية** : وهي تخويفهم له بالأصنام فقد كان جوابه لهم يسير وفق تسلسل منطقي مترابط الحلقات تتكامل في ثلاث خطوات :

الأولى : إثبات العجز لآلهتهم بنفي الخوف المستلزم لنفي القدرة على الضر. بقوله : { وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ } لأن الخوف إنما يحصل ممن يقدر على النفع والضر ، والأصنام جمادات لا قدرة لها على النفع والضر ،فلا يحصل الخوف منها ، وذلك دال على أن الله تعالى أهل لأن يخاف منه لا أصنامهم .

والثانية : أثبات القدرة لله على الضر والنفع ، بعدما نفاه عن آلهتهم. وعلق قدرته على ذلك بمشيئته تعالى، بقوله: { إلا أن يشاء ربي شيئاً } فإنّه لمّا نفى خوفه من إضرار آلهتهم ، وقد يتوهّم

السّامعون منه أنّه لا يخاف شيئاً استدرك عليه بالاستثناء . وفي هذا زيادة نكاية لقومه إذ كان لا يخاف آلهتهم لثبوت عجزها ، في حين أنّه يخشى ربّه المستحقّ للخشية كونه القادر على كل شيء .

والثالثة : بعد إثباته قدرة الله على الضر والنفع وتعليقها على مشيئته ربط ذلك بعلمه تعالى الذي وسع كل شيء ، ليدل على أن قدرته ومشيئته إنما يصدران عن علم شامل وتام ، وفي هذا مبعث آمن للطائع ، وخوف للعاصي ، لقوله تعالى : { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [القلم: 7]. فكان علمه تعالى بأفعال عباده مصدراً للآمن لأبراهيم القائم على التوحيد ، ومصدراً للخوف للمشركين بالله ، وفي ذلك تلويحاً لهم بأن العاقل ينبغي له أن لا يخالف من يقدر على ضره في حال أنه مطلع عليه عالم باحواله ، فهم في مخالفتهم لله في غاية من الخطر ، لا يرتكبها عاقل .

وكذلك استدل إبراهيم عليه السلام بسعة علمه تعالى لكل شيء على أنه هو وحده سبحانه من يهدي للحق ، وأن الله قد هداه إليه ، ومقتضى ذلك أنه يجب عليهم بدل محاجته بالباطل أن يستجيبوا له ، وأن يخافوا الله المستحق لأن يخاف منه لا أصنامهم ، لذلك قال لهم :{ أفلا تَتَذَكَّرُونَ } فالاستفهام للإنكار والتوبيخ لعدم تذكرهم مع وضوح الدلائل .وفى إيراد التذكر دون التفكر ونحوه إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركوز فى العقول ولا يتوقف إلى على التذكير والتذكر في صفات آلهتهم المنافية لمقام الإلهية ، وفي صفات الإله الحقّ التي دلت عليها مصنوعاته . والمعنى : أفلا تعتبرون، أيها الجهلة، فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من عبادتكم صورة مصوّرة وخشبة منحوتة، لا تقدر على ضر ولا على نفع، ولا تفقه شيئا ولا تعقله ، وتركّكم عبادةَ من خلقكم وخلق كلّ شيء، وبيده الخير، وله القدرة على كل شيء، والعالم بكل شيء .فهو المستحق للعبادة وليس هذه المعبودات الباطلة .

وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود، عليه السلام، على قومه عاد، فيما قص عنهم في كتابه ، حيث يقول : { قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56) } [هود: 53 -56]. وهكذا نجد أن إبراهيم عليه السلام أجابهم بأحسن جواب وأتمه ، فقد أنكر عليهم محاجته له بالباطل كونه مهدياً من جهة الله تعالى ، ثم نفى الخوف المستلزم لنفي القدرة على حصول ضرر

من معبوداتهم على كل حال ، ثم عمل على إثبات الضرر والنفع لله سبحانه ، ثم بين صدورهما حسب مشيئته ، ثم علل ذلك بقوله : { وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً } مشيراً إلى أن العاقل لا يخالف تعاليم هدى علام الغيوب ، لأنه مطلع عليه فيحل عليه غضبه وعقوبته ، وليس كالآلهة التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تفهم شيئاً، ولا يرجى منها خير ولا هدى[120].

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } [مريم: 42-43].

توجه إبراهيم إلى أبيه في الخطاب بوصف الأبوة إيماء إلى أنه مخلص له النصيحة ، فدعاه إلى الهدى الذي هداه الله إليه وعلمه إياه ، وبين ضلاله واحتج عليه أبلغ احتجاج برفق وحسن أدب ، حيث لم يصرح بضلاله بل ألقى إليه حجّة فساد عبادته في صورة الاستفهام بطلب العلة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصريح ويأبى الركون إليه ، فضلاً عن عبادته التي هي غاية التعظيم ، ولا تحق إلا لمن له الاستغناء التام ، والإنعام العام ، ونبه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يفعل لغرض صحيح ، والمخلوق لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضر لاستنكف العقل القويم من عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة المطلقة فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان . بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، إلى جمادٍ لا يسمع ولا يبصر ، ولا يملك ضراً ولا نفعاً ، ويلاحظ أن إبراهيم عليه السلام قد أقام الحجة على أبيه من وجهين:

الوجه الأول : نفى العلم عن آلهته وأثبت لها الجهل المطبق ، والذي يستحيل معه حصول الهداية منها مطلقاً ، مما يستلزم ببداهة العقل تركها وعدم إتباعها ، لأنه لا يستحق الإتباع إلا من له صفة الكمال في العلم وغاية الإحاطة ، وهو الإله الذي وسع علمه كل شيء ، لا هذه الأصنام العاجزة التي لا يرجى منها خير ولا هدى ، وكيف تهدي وهي قد انتفى عنها العلم مطلقاً ، فقد وصف إبراهيم الأوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة في الإلهية وذلك من ثلاثة أوجه :

---

[120]- راجع : تفسير الطبري 488/11 ، وتفسير ابن كثير 293/3 ، وفتح القدير 437/2 ، وتفسير الرازي 356/6 ، وتفسير البقاعي 78/3 ، الألوسي 403/5 ، وتفسير طنطاوي 1488

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أحدها : لا يسمع.

ثانيها : لا يبصر.

وثالثها : لا يغني شيئاً.

وهذا تنبيهٌ على أن الإله يجبُ أن يكون عالماً بكُلِّ المعلومات ، محيط بكل الموجودات ، فإن السامع المبصر الضار النافع أفضل ممن كان عارياً عن كل ذلك ، والإنسان موصوف بهذه الصفات فيكون أفضل وأكمل من الوثن فكيف يليق بالأفضل عبادة الأخس . لذا بين إبراهيم عليه السلام بنفي السمع والبصر شنعة الرأي في عبادتها وفساده ، فلا ينبغي لعاقل أن يعبد أصناما ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع وتبصر، ولا تكفي عابدها وتغنيه ، فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلا وشرعا. وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا يستحقها إلا من له ولاية الإنعام وله أوصاف الكمال ، والذي لا ينال العباد هداية ولا نعمة إلا منه وهو الله تعالى فلا مستحق للعبادة سواه .

الوجه الثاني : أثبت العلم لله تعالى ، حيث تلقى منه الهداية إلى دين الحق ، وإلى الطريق المستقيم ، فقد سبق الآية التي خاطب بها أبيه ما دل على أنه منبأ من جانب الله تعالى بقوله : { إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } فدل قوله لأبيه أنه صادر عن وحي من الله ليبلغ قومه إبطال عبادة الأصنام . وكذلك قوله { قد جاءني } يدل على أن هذه المقاولة هي بعد أن نبئ ، فهو لا يقول هذا من نفسه ، إنما هو العلم الذي جاءه عن طريق الوحي الإلهي ، وذلك أنه لما نبه أبيه على أن ما يعبده لا يستحق العبادة ، بل لا تجوز عبادته ، لنقصه مطلقا ثم نقصه عن عابده ، ولن يكون المعبود دون العابد أصلا ، وكان أقل ما يصل إليه بذلك مقام الحيرة ، نبهه على أنه أهل للهداية لأنه قد اطلع من علم الله على ما لم يعلمه ولا اطلع عليه ، فدعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى الحق القويم والصراط المستقيم لما لم يكن محظوظاً من العلم الإلهي مستقلاً بالنظر السوي ، فقال : يا أبى ، لقد جاءنى من طريق الوحى الإلهى ما لم يأتك من العلم بالله ، والمعرفة بما يلزم الإنسان نحو ربه ، فاتبعنى فيما أدعوك إليه من الإيمان ، أدُلَّك على الطريق المستقيم ، الذى يوصلك إلى الحق والسعادة . وتفريع أمره بأن يتبعه على الإخبار بما عنده من العلم دليل على أن أحقية العالِم بأن يُتبع مركوزة في غريزة العقول لم يزل البشر يتقصّون مظانّ المعرفة والعلم لجلب ما ينفع واتقاءِ ما يضر ، قال تعالى : { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل: 43].

وهذا يقتضي منه إتباعه والإستجابة لدعوته ، لأن من يعلم حجة على من لا يعلم ، وهو عنده علم من الله تعالى لم يصل إليه ، فينبغي عليه أن يتبع الحجة وينقاد لها ويتلقى منه الهداية إلى الطريق المستقيم ، فالهداية إلى الحق يستند إلى العلم ، كما أن الشرك بالله ناتج عن الجهل كما في قوله تعالى : { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ } [الزمر: 64]. وهكذا كشف إبراهيم عليه السلام عما في عبادة الأصنام من نكارة وجهالة ، وبيان مصدر العلم الموثوق الذي يستمد منه علم الغيب وحقائق الإيمان . وهو مصدر الوحي المعصوم الصادر من عند الله تعالى الذي يعلم الغيب والشهادة ، والذي وسع كل شيء علما، فهو المصدر الجازم والكامل والشامل الذي يقدم للإنسان كل ما يحتاجه من حقائق الوجود والإيمان ، ويرسم له منهج حياته بما يحقق له الإطمئنان والكفاية في تكوين معتقده الإيماني ومنهجه السلوكي ، وبما يغنيه عن كل مصدر سواه[121] .

* الشاهد الرابع :

قال تعالى : { أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآَلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء: 62-66].

قال تعالى : { فَرَاغَ إِلَى آَلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ } [الصافات: 91-93].

إن إبراهيم عليه السلام في إنكاره أن يكون هو الفاعل أراد إلزامهم الحجة على انتفاء ألوهية الأصنام ، وأنها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها ، وعلمت ما جرى لها ، فالتهكم في جوابه : { بل فعله كبيرهم هذا } واضح فيه السخرية . وليس في قوله هذا مثلبة يراد دفعها عنه أو تبريرها له ، وإنما هي مكرمة تضاف إلى جملة خصاله الحميدة ، وهي تدل على قوة حجاجه عليه السلام وتمكنه من فنون الجدل في إدراك المطلوب ، وإقامة الحجة ، وإفحام الخصم بأيسر الطرق وأقصرها ،

[121]- راجع : تفسير الرازي 310/10 ، وتفسير البقاعي 205/5 ، وتفسير الخازن 347/4 ، وتفسير عطية 367/4 ، وتفسير طنطاوي 2782 ، وتفسير بيضاوي 56/4 ، وتفسير المنتخب 11/3 ، وتفسير السعدي 494 ، وتفسير الظلال 98/5، وتفسير ابن عاشور 479/8 ، وتفسير البحر المحيط 25/8

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهو من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق ، فإن ذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته ، فهو أراد أن يقول لهم : إن هذه التماثيل عاجزة ولا تدري من حطمها . فهي جماد لا تقدر ولا تعلم شيئا . ولذلك قال { فاسألوهم إن كانوا ينطقون } تهكما وتعريضا بهم ، فأنت ترى أن إبراهيم لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذى حطمها ، أو سؤالهم للأصنام عمن حطمها ، وإنما الذى يقصده هو أن يبين لهم أن من لا يدافع عن نفسه ولا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة ، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله . فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة ، لأنهم إذا قالوا : إنهم لا ينطقون ، قال لهم : فكيف تعبدون من يعجز عن النطق ، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟ ونلاحظ أن إبراهيم عليه السلام قد كشف ضلالهم، وزيف ألوهية أصنامهم وإبطال عبوديتها من طريقين:

الأول : نفي القدرة عن آلهتهم وإثبات العجز لها ، وذلك حين قام عليه السلام بتكسير الأصنام ، كما في قوله :{ فجَعَلَهُمْ جُذاذًا } وفي هذا دليل على عجزها حيث لم تقدر أن تدفع عن نفسها الأذى ، وكذلك في قوله : { ألا تأكلون }، حيث كانوا يحضرون الطعام إليها ، وهي لا تأكله ليس تنزها وإنما عجزاً عن الإنتفاع به ، وهذا دليل عجزها عن نفع نفسها فضلاً عن نفع غيرها ، لأنها جماد ساكن لا يتحرك .

الثاني : نفي العلم عنها وإثبات الجهل التام لها ، كما في قوله : { ما لكم لا تنطقون } وقوله : { فاسألوهم إن كانوا ينطقون } لأن النطق هو واسطة الإفهام ، ومن لا يستطيع الإفهام تبين أنه معدوم العقل وتوابعه من العلم والإرادة والقدرة . وأما قوله : { إن كانُوا يِنْطِقون } دون إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وإن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل ، وقد حصل ذلك لهم .

وقد جعل إبراهيم عليه السلام عدم استطاعة أصنامهم النفع والضر ملزوما لعدم النطق . فكان إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطا بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين . وبذلك أبطل ألوهيتها بإثبات العجز التام والجهل المطلق لها ، وهذا موافق للمنهج القرآني في الاستدلال ، فقد ضرب الله مثلاً في ذلك ، كقوله تعالى : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَم لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [النحل: 76-77].

إن الله تعالى أبطل قول عبدة الأوثان بهذا المثل فيما تقرر في أوائل العقول أن الأبكم العاجز لا يكون مساوياً في الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية ، فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساوياً لرب العالمين في المعبودية كان أولى . فذكر الله تعالى هذا المثل ليستدل به على وحدانيته من جانبين متقابلين ، مع وضوح الفرق بينهما عند كل ذى قلب سليم :

– **الجانب الأول** : وهو وصف الله تعالى لرجل الأول بأربع صفات ، تدل على سوء فهمه ، وقلة حيلته ، وثقله على ولى أمره ، وانسداد طرق الخير فى وجهه . ويمكن جمعهما في صفتين متقابلتين :

الأولى : { الأبكم } : الذي لا يستطيع النطق أو الكلام ، ضعيف الفهم والتفهيم لغيره . ويقابلها : {أينما يوجهه لا يأت بخير} وهو الذي يرسله مولاه لقضاء أمر من الأمور يعود خائباً ، لعجزه ، وضعف حيلته ، وقلة إدراكه .. وهذا إشارة إلى الجهل التام ، وعدم العلم .

والثانية : {لا يقدر على شيء} : وهو الذي لا يقدر على فعل شئ من الأشياء المتعلقة بنفسه و بغيره . وقابلها : {كل على مولاه} فالكل هو الإنسان العاجز الضعيف الذى يكون محتاجا إلى من يرعى شؤونه . وهذا إشارة إلى العجز التام ، وعدم القدرة .

– **وأما الجانب الثاني** : وهو وصف الله تعالى لرجل الآخر بأنه : { يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم } ومعلوم أن الآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفاً بالنطق وإلا لم يكن آمراً ويجب أن يكون قادراً ، لأن الأمر مشعر بعلو المرتبة وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادرا ، ويجب أن يكون عالما حتى يمكنه التمييز بين العدل وبين الجور . فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادرا عالما ، وهما صفتان يضادان الصفتين في الرجل الأول من عدم القدرة وعدم العلم ، لأن حاصل أوصاف الأول أنه غير مستحق لشئ ، وحاصل أوصاف الثانى أنه مستحق لكل فضل وخير . إذا ثبت هذا فنقول : ظاهر في بديهة العقل أن الأول والثاني لا يستويان فى عقل أى عاقل ، إذ أن أولهما أبكم عاجز خائب . . وثانيهما منطيق ، ناصح لغيره ، جامع لخصال الخير فى نفسه . ولما انكشف ضلالهم في تسويتهم الأوثان الذين لاعلم لهم ولا قدرة ، بالله الذي له الإحاطة بكل شيء قدرة وعلما ، جاء بعدهما بالاستفهام الإنكاري التوبيخي فقال : { هل يستوي } أي : كيف سويتم – أيها المشركون الضالون المكذبون – فى العبادة بين الله تعالى القدير العليم ، وبين تلك

جمعية إحياء عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابديها شيئا ، فهل يستوى في عرفكم أو في عرف أي عاقل . بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف ، الهادي إلى الصراط المستقيم؟ ولما أتم هذا المثل ، الدال على تمام علمه وشمول قدرته ، والقاضي بأن غيره عدم ، ذكر في الآية التي تليها بيان كونه كاملاً في العلم والقدرة ، أما بيان كمال العلم فهو قوله : { ولله غيب السموات والأرض } وأما بيان كمال القدرة فقوله : { وما أمر الساعة إلا كلمح البصر }. هذا هو المثال الذى ذكره الله تعالى للاستدلال على بطلان التسوية بين عبادة الله تعالى القادر العالم . وبين عبادة غيره من الأصنام والجمادات التي لا تقدر ولا تعلم شيئاً . وهو عين الاستدلال الذي استدل به إبراهيم عليه السلام على قومه من بيان الفرق الشاسع بين ذات الله تعالى القدير العليم ، وبين تلك المعبودات الباطلة التي أشركها الضالون في العبادة مع الله عز وجل . والتي منها تحطيم الأصنام ، لإثبات عجزها بعدم دفع الأذى عن نفسها ، وترك تكسير صنمهم الكبير لإثبات جهله بعدم النطق حينما يطلب منهم أن يسألوه ،كما في قوله تعالى : { لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } أي لأجل أن يرجعوا إليه، ، ويستمعوا حجته، ويلتفتوا إليها ولا يعرضوا عنها ولهذا قال في آخرها: { فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ } وذلك أنهم تنبهوا وفهموا عند هذه المقاولة بينهم وبين إبراهيم بما أورده عليهم من أدلة على قبح طريقهم ، مما اضطرهم الدليل إلى أن تحققوا أنهم على محض الباطل ، وثابت عليهم عقولهم، وعلموا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ، فضلا على أن لا يعلم من فعل به ذلك ، يستحيل أن يكون مستحقا للعبادة ، فعلموا أنهم على غرور وجهل في عبادة الأصنام ، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك ، فقال بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته المتفطن لصحة حجة خصمه المراجع لعقله : أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادة هذه الجمادات التي لا تقدر ولا تنطق ، وليس إبراهيم فإنه على صواب . فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل وأن فعلهم كفر وظلم ، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، فلم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ، مصداقا لقوله تعالى : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل: 14].

ولما كان رجوعهم إلى الضلال بعد هذا الإقرار الصحيح الصريح في غاية البعد ، عبر عن ذلك بقوله : { ثم نكسوا } استعارة للذي يرتطم في غيه كأنه منكوس على رأسه فهي أقبح هيئة للإنسان وكذلك أسوأ حالات النظر ، حيث انقلبوا من الرشاد الطارئ إلى الضلال ، ورجوع عن الفكرة المستقيمة الصالحة في تظليم أنفسهم إلى الفكرة الفاسدة في تجويز عبادتها مع الاعتراف بتقاصر حالها عن الحيوان فضلا أن تكون في معرض الإلهية ، غير مستحيين مما يلزمهم من الإقرار

بالسفه برجوعهم عن الحق إلى الباطل . والمعنى : ثم تغيرت آراؤهم بعد أن كادوا يعترفون بحجة إبراهيم فرجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام ، وقلبوا في الحجة واحتجوا على إبراهيم بما هو الحجة لإبراهيم عليهم ، فقالوا : { لقدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقون }.

فكانوا بما قالوا ظانين أنه ينفعهم ، فأقروا بهذه الحجة التي لحقتهم حين نفوا عنها القدرة على النطق . كما أن اعترافهم بعدم نطق الآلهة المدعاة إنتكاس منهم إذ اعترفوا ببطلان تلك الآلهة ومع ذلك أصروا على باطلهم . بقولهم له : أنت تعلم أن هؤلاء الأصنام لا تنطق فما أردت بقولك هذا إلا التنصل من جريمتك . فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجة ، ووقفهم موبخا إياهم ومنكرا عليهم عبادتهم تماثيل لا تنفع بذاتها ولا تضر ، ومنبها لهم على أن جميع الرتب تتضاءل دون رتبة الإلهية بقوله : { من دون الله } .

ولما أثبت أن معبوداتهم هذه في حيز العدم ، فكانوا لعبادتها دونها ، استأنف تبكيتهم لذلك بأعلى كلمات التحقير التي لا تقال إلا لما هو غاية في القذارة في قوله : { أف لكم } حيث أبدى لهم التضجر منهم ومن معبوداتهم ، ومن إصرارهم على الباطل بعد انقطاع العذر ووضوح الحق ، وفرّع على الإنكار والتضجر استفهاماً إنكارياً عن عدم تدبرهم في الأدلة الواضحة من العقل والحس فقال : { أفلا تعقلون } .تنبيهاً على آن فساد ما هم عليه يدرك ببديهة العقل ولأن هذا من الوضوح ما لا يقر به عاقل .

فلما الزمهم الحجة وعجزوا عن الجواب ، اخذتهم العزة بالإثم كما تاخذ الطغاة دائماً حين يفقدون الحجة ويعوزهم الدليل ، فيلجأون إلى القوة الغاشمة والعذاب الغليظ : { قَالُواْ حَرِّقُوهَ وانصروا آلِهَتَكُمْ } . هكذا استدل إبراهيم عليه السلام بعلم الله تعالى الشامل على ألوهيته ، وما يقتضيها من وجوب التلقي منه وحده حقائق الوجود غيبه وشهوده ، وقضايا الإيمان والعقيدة ومنهج السلوك لحياة الإنسان ونظامه على هذه الأرض ، ونبذ كل مصدر سواه في تلقي القيم والموازين ، والأنظمة والشرائع ، لأن هذا هو مقتضى الإيمان والخروج عنه كفر ، وهو موجب التوحيد والهدى ومخالفته شرك وضلال[122] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[122]– راجع : تفسير الرازي 34/11 ، وتفسير الزمخشري 239/4، وتفسير الألوسي 419/12 ، 247/10 ، وتفسير البقاعي 485/4 ، 311/5 ، 135/7 ، وتفسير فتح القدير 63/5 ، 203/6، وتفسير البحر المحيط 170/8 ، وتفسيرابن عاشور 179/9، 92/8 ، 123/12، وتفسير السعدي 525، 705، وتفسير طنطاوي 2911 ، 3577 ، وتفسير الظلال 478/4 ، 186/162،6/5 ، وتفسير البيضاوي 363/3 ، 207/4، وتفسير اللباب 311/11

– المبحث الثاني –

دليل علمه تعالى بالإنسان سره وجهره

إن علم الله تعالى ، علم مطلق وشامل ، يشمل كل شيء في هذا الوجود ، وعلمه يشمل الإنسان سره وجهره ، وهو محيط به مطلع على كل سكناته وحركاته، لا يخفى عليه شيء من ظاهره وباطنه ، قال تعالى : { قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ } [آل عمران: 29]. وقال تعالى : { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } [غافر: 19]. وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب المؤمن ، يمنحه جانباً من التصور الإيماني لحقيقة علم الله . والذي يؤثر في مشاعره واتجاهاته؛ فيشعر بأنه مكشوف كله لعلم الله . فليس له سر يخفى عليه ، وليس له نية غائرة في الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور . ليعيش بها الإنسان مدركاً لحقيقة وجوده . ووجود الكون كله ، وصلته بخالقه ، وأدبه مع ربه ، وخشيته وتقواه ، في كل حركة وكل اتجاه . والذي يحول الحياة كلها صلة بالله ، وشعورا بجلاله ، ومراقبة له في السر والعلانية .

إن هذه الحقيقة عندما تستقر في ضمير الإنسان تجعله يكف عن الشر في الحالات التي لا يراها الناس ، ولا تتناولها يد القانون . وما يمكن أن يقوم القانون وحده بدون هذه الرقابة ؛ فلا صلاح للنفس وللمجتمع بلا رقابة غيبية وراءه ، وبلا سلطة إلهية يتقيها الضمير . وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب ، وتقل التقوى ، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص ، ويراد التفلت من ظاهر النصوص! إن القانون لا تحرسه نصوصه ، ولا يحميه حراسه . إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته ، فتحرس هي القانون وتحميه . ولن تستطيع الدولة أن تضع على رأس كل فرد حارسا يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته؛ ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس ، ومراقبتهم له في السر والعلن .

من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية . وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله . . ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها . وتعجز الملاحقة والمراقبة التي تتابع الأمور من

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سطوحها ! إن التذكر الدائم لحقيقة علمه تعالى بالإنسان ، والاستحضار الدائم لجلاله سبحانه ، ومراقبته في السر والعلن ، وفي الصغيرة والكبيرة ، وفي الحركة والسكنة ، وفي العمل والنية . هي التي تولد يقظة دائمة في ضمير المؤمن تمنعه عن كل الشرور والمنكرات ، وتلك اليقظة التي يفرضها الإسلام على قلب المسلم . والتي يستجيشها الإيمان بمجرد استقراره في القلوب. ليست أمراً فوق الطاقة ، وليست تكليفاً فوق الاستطاعة . إنما هي الحساسية الناشئة من الشعور بالله والاتصال به؛ ومراقبته في السر والعلن؛ وهي في حدود الطاقة الإنسانية ، وذلك حينما تستقر هذه الحقيقة في ضميره وتتولد منها هذه اليقظة الإيمانية . إن القرآن حينما يعرض حقيقة الألوهية ممثلة في إحاطة علمه تعالى بسر الناس وجهرهم. لا يعرضها لمجرد التقرير اللاهوتي أو الفلسفي النظري السلبي . ولكن لتقرير مقتضيات هذه الحقائق في الحياة الإنسانية . من إسلامها بجملتها لله وحده ، ومن إقرارها بشمول الألوهية لشئون الكون ولشئون الحياة الإنسانية في السر والجهر . ومن ترتيب النتائج الطبيعية لهذه الحقائق في الاستسلام لحاكمية الله وحده في شؤون الحياة الأرضية كالاستسلام لهذه الحاكمية في الشؤون الكونية .

فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة . ما دام أنه لا إله غيره . فالإله هو الذي يستحق أن يكون حاكما ومشرعا وموجها وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافاً جوهريا عن كل حياة تقوم على قاعدة حاكمية العباد للعباد وهو اختلاف يتناول كل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء[123].

وقد استدل القران على علمه تعالى بالإنسان سره وجهره على ما يلازمها من مقتضياتها التعبدية ، والتي تقضي من الإنسان الإخلاص لله تعالى في العبادة من غير شرك ولا نفاق ولا رياء ، فهو سبحانه مطلع على باطنه لا يخفى عليه منه شيء ،قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك: 12–14]. وقال تعالى : { يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } [آل عمران: 167]. وقال تعالى : { يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا } [النساء: 108]. كما تقضي من الإنسان أن يراقب الله تعالى في كل أفعاله وتصرفاته ، فهو مطلع عليها شاهد عليه ، قال تعالى : { وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ

---

[123]– راجع : تفسير الظلال ، سيد قطب ، 2/357 ، 482 ،3/ 308 ،7/223

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [فصلت: 22-23]. وقوله تعالى : { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [يونس: 61]. كما تقضي منه أيضاً أن يتوجه إلى الله تعالى بالحمد والثناء ، والطلب والدعاء ، والإستعانة والإستعاذة ، فهو السميع البصير ، الذي يسمع عبده حين يناجيه ، ويستجيب له حين يناديه ، فلا مجيب إلا الله وحده ، قال تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة: 186]. وقال تعالى : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } [آل عمران: 38]. وقال تعالى : { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ } [المجادلة: 1]. وقال تعالى : { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [فصلت: 36]. فالعبد حينما يعلم أن الله تعالى مطلع عليه في سره وجهره ، فإن ذلك يستدعي منه أن يتقي الله تعالى في سره وعلنه ، وأن يحسن العمل ويسارع إلى فعل الخيرات ، ويبادر إلى الطاعات ، ويكثر من القربات ، لأنه يستشعر رقابة الله عليه ويعلم أنه لن يضيع عند الله أجر عمله، قال تعالى : { وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء: 128].وقال تعالى: { وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ(114)وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 114-115].

وقد استدل إبراهيم عليه السلام بعلمه تعالى بالأنسان سره وجهره على ألوهيته وما يستلزمها ويناسبها من مقتضيات العبادة الخالصة لله تعالى ، ومن ذلك :

* الشاهد الأول :

قال تعالى : { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } [إبراهيم: 38-39] .

وقال تعالى : { إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى } [الأعلى: 7] .

وهذا دعاء آخر من تلك الدعوات الماضية التي اشتملت على ذكر ضلال كثير من الناس ، وذكر من اتبع دعوته ومن عصاه ، وذكر أنه أراد من إسكان أبنائه بمكة رجاء أن يكونوا حراس بيت الله ، وأن يقيموا الصلاة ، وأن يشكروا النعم المسؤولة لهم ، ثم جاء بعدها بهذه ، الدعوة الخاشعة التي تضرع بها إبراهيم إلى ربه جامعا لما في ضميره . . مسجلا فيها لعلم الله الذي يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكر ودعاء وإخلاص . فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء . إنما هو توجه القلب إلى الله ، فقال : { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } أي : يا ربنا إنك وحدك العليم بما تخفيه نفوسنا من أسرار؛ وما تعلنه وتظهره من أقوال ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليك سواء ، فأنت يا إلهى لا يخفى عليك شئ من الأشياء ، سواء أكان هذا الشئ فى الأرض أم فى السماء أم فى غيرهما . وإنما ذكر السماء والأرض لأنهما المشاهدتان للناس ، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما فى هذا الكون . وقدّم ما نخفي على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان في علم الله سبحانه ، وإشارة إلى عموم علمه .

والمقصود من فحوى كلامه عليه السلام ان إظهار هذه الحاجات ليس لكونها غير معلومة لك فإنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا وأرحم بنا منا بأنفسنا ، فلا حاجة لنا إلى الطلب لكنا ندعوك إظهارا لعبوديتك والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وافتقارا إلى رحمتك واستعجالا لنيل ما عندك ، فبين أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور في المستقبل ، وأنه تعالى هو العالم بها المحيط بأسرارها ، فوكل أموره التي يعلمها والتي لا يعلمها إلى تدبيره وتيسره لما هو مقتضى علمه ورحمته ، وهذا ما علمه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، ففي حديث جابر رضي الله عنه قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلم السورة من القرآن ، يقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، و أستقدرك بقدرتك ، و أسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر و تعلم و لا أعلم و أنت علام الغيوب ، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر ثم يسميه بعينه ، خيرا لي في عاجل أمري و آجله أو قال في ديني و معاشي و عاقبة أمري ، فاقدره لي و يسره لي ثم بارك لي فيه ، اللهم و إن كنت تعلم أنه شر لي في ديني و معاشي و عاقبة أمري أو قال في عاجل أمري و آجله فأصرفني عنه ، وأقدر لي الخير حيث كان ، ثم ارضني به "[124] . والمتبصر بدعاء إبراهيم عليه السلام

[124]- رواه البخاري ، برقم (1109)

لربه وتوجهه إليه يجد فيه دروساً عظيمة من دروس الإيمان ، نذكر منها ما هو متعلق بعلمه تعالى بسر الإنسان وجهره ، وهي :

1. **التعريض بعبادة الأصنام** ، بعد طلبه من الله أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام في قوله : { وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ } [إبراهيم: 35-36]. فكان تضمينه لدعاءه أن الله سميع ومن شأنه إجابة الدعاء ، تعريضا بالأنداد في عدم استحقاقها للعبادة ، كونها لا تعلم شيئا ولا تسمع من يدعوها ولا تستجيب له ، وإنما المستحق لذلك هو الله تعالى وحده ، لأنه لا يجيب سواه.

2. **تعليم أهله وأتباعه حقائق الإيمان** والتي منها حقيقة علمه تعالى بالإنسان سره وجهره ، حتى يراقبوه في جميع الأحوال ، ويخلصوا النية إليه ، ولا يتوجهوا إلى غيره في الدعاء والطلب ، وقد بين لهم عليه السلام كيفية التوجه في الدعاء إلى الله تعالى بأحسن الطرق لتحصيل الإستجابة ، وهي :

أ. **استجلاب فضله تعالى بالمحامد والثناء عليه بما يليق به سبحانه** ، فالله هو المستحق للحمد والثناء لأن كل نعمة صادرة عنه سبحانه ، فقد حمد الله على ما رزقه من الولد بعد الكبر ، وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء وذلك يدلّ على أن الاشتغال بالثناء عند الحاجة إلى الدعاء أفضل من الدعاء ، قال عليه السلام حاكياً عن ربه أنه قال : " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين "[125] .

ب. **التوسل إليه تعالى في الإستجابة له بسابق نعمته عليه** . فقوله : { إن ربي لسميع الدعاء } تعليل لجملة { وَهَبَ لِي عَلَى الكبر } أى : وهب لى على الكبر هذين الولدين ، لأنه سميع الدعاء ، سمع دعائى وتقبله ، وأجاب طلبى دون أن يخيبنى ، وكنى بسميع الدعاء على سبيل المجاز فى إجابة المطلوب ، وجاء بصيغة المبالغة ليدل على كثرة إجابته وأن ذلك شأنه ، تمهيدا لإجابة دعوته هذه وتأكيدا للطلب بتذكير ما عهد من الإجابة له سلفا ، ومتوسلا إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى عليه.

ج. **اعترافه بنعمته تعالى عليه**. ولما كان إتيان الولد له في سن لا يولد فيه لمثله ، وجميع ما دعا به من الخوارق فوجوده لا يكاد يصدق ، أشار إلى ذلك بتأكيد قوله : { إن ربي } أي المحسن إلي مع كبر سني ويأسي عن الولد ، وإنما قيد الهبة بحال الكبر لأمرين :

---

[125]- شعب الإيمان ، للبيهقي : برقم (598)

استعظاماً للنعمة : لأنّ المنة فيها بهبة الولد أعظم من حيث أنّ الكبر مظنة اليأس من الولد ، فإنّ مجيء الشيء بعد الإياس أحلى في النفس وأبهج لها وفيه إشعار بأنه دعا ربه وسأل منه الولد فأجابه ووهب له سؤله حين ما وقع اليأس منه ليكون من أجل النعم وأجلاها .

وإظهارا لشكرها : فلما تم ما دعا به من النزاهة عن رجاسة الشرك وتبين بتقديمه أن أهم المهمات البراءة منه ، أتبعه الحمد على ما رزق من النعم وما تبع ذلك من الإشارة إلى وجوب الشكر فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر : فقال : { الحمد لله } وهذا مقام الشكر الذي هو عامل من عوامل الإستجابة تحقيقاً لوعده تعالى : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم: 7]. ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديماً للشكر . فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يصرفه عنها صارف ، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه : { رب اجعلني مقيم الصلاة . ومن ذريتي . ربنا وتقبل دعاء } .وفي هذا الدعاء الذي لم يقصد به عليه السلام إلا الخير وكثرة الشكر لله رب العالمين. فإبراهيم يقرر حقيقة علمه تعالى لسر الإنسان وجهره ، ومقتضياتها التعبدية ، فإن الله وحده من يسمع الدعاء ، ويعلم أسبابه وبواعثه النفسية ، وهو وحده من يستجيب ، وهو كذلك يطلع على أفعال عباده ، ويشاهد المحسن والمسيء ، فلا يضيع أجر المحسن ولا يفوته عقاب المسيء ، ولا نجاة للعبد من عذابه تعالى إلا بالإخلاص في طاعته[126] ، قال تعالى : { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ } [البقرة: 235].

* الشاهد الثاني :

قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } [الشعراء: 69-73] .

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة : أى شيء هذا الذى تعبدونه من دون الله تعالى؟ فأجابوه بقولهم : { نَعْبُدُ أَصْنَاما فَنَظَل لهَا عَاكِفِينَ } وهم كانوا يسمون أصنامهم آلهة ، ولم يكونوا يملكون إنكار أنها أصنام منحوتة من الحجر ، وأنهم مع ذلك

[126]_ راجع : تفسير الرازي 262/9 ، وتفسير الألوسي 397/9، وتفسير الظلال 412/4 ، وتفسير ابن عاشور 443/7 ، وتفسير طنطاوي 2437، وتفسير السعدي 427، وتفسير بيضاوي 269/3

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يعكفون لها ، ويدأبون على عبادتها ، وكان يكفيهم في الجواب أن يقولوا : نعبد أصناما ولكنهم لغبائهم وجهلهم قصدوا التباهي والتفاخر بهذه العبادة الباطلة أي : نعبد أصناما منحوتة من الحجر أو مما يشبهه ، ونداوم على عبادتها ليلا ونهارا ، ونعكف على التقرب لها . وهذه نهاية السخف. ولكن العقيدة متى زاغت لم يفطن أصحابها إلى ما تنحط إليه عبادتهم وتصوراتهم ومقولاتهم! فتتباهى بما يجب البعد عنه ، وتفتخر بالمرذول من القول والفعل . وقد رد عليهم إبراهيم عليه السلام بما يوقظ قلوبهم الغافية ، وينبه عقولهم المتبلدة ، إلى هذا السخف الذي يزاولونه دون وعي ولا تفكير : فقال لهم مبينا فساد معتقدهم ، ومنبها على دليل انتفاء الإلهية عنها ، بطريق الاستفهام عن أوصاف يلجئهم السؤال إلى الاعتراف بسلبها عنهم ، الذي لو أنصف كل عاقل إذا تعقل أن لا تصح رتبة الإلهية مع فقدها ، فكيف مع فقد كل أوصاف الألوهية ؟ . فقال لهم على سبيل التنبيه والتبكيت : { هل يسمعونكم } وقيل : السماع هنا بمعنى الإجابة كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أعوذ بك .. من دعاء لا يسمع "[127]. ومنه قوله عز وجل : { إِنَّكَ سَمِيعُ الدعاء } [آل عمران: 38]. فأقل ما يتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع كعابده الذي يتوجه إليه بالعبادة والتقدير : هل تسمع دعاءكم إذا دعوتموها وأراد إبراهيم فتح المجادلة ليعجزوا عن إثبات أنها تسمع وتنفع ، ثم صور لهم حالهم ليمعنوا الفكر فيه ، فقال معبرا بظرف ماض وفعل مضارع تنبيها على استحضار جميع الزمان ليكون ذلك أبلغ في التبكيت : { إذ تدعون } أي استحضروا أحوالكم معهم من أول عبادتكم لهم وإلى الآن : هل سمعوكم وقتا ما؟ ليكون ذلك مرجيا لكم لحصول نفع منهم في وقت ما ، فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه . قال تعالى : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غافِلون } [الاحقاف: 5].

وتقرير هذه الحجة التي ذكرها إبراهيم عليه السلام أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجيء إليه في المسألة، وأن يكون فيه صفة العلم ليعرف مراده إذا سمع دعاءه ثم يستجيب له في بذل منفعة أو دفع مضرة ، فقال لهم فإذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ، ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه؟ فبعد أن ألقمهم حجرا بنصاعة حجته ، لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة ، فعدلوا إلى مقام قاطع للمجادلة في نظرهم وهو أنهم ورثوا عبادة هذه الأصنام من آبائهم ، فقالوا : { وَجَدْنَا ءابَاءنَا

[127] - رواه ابو داود ، برقم(1548) والنسائي ، برقم(5467) ، قال الشيخ الألباني : حسن صحيح

كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } أى : قالوا له : إن هذه الأصنام هى كما قلت يا إبراهيم لا تسمع دعاءنا ، ولا تنفعنا ولا تضرنا ، ولكننا وجدنا آباءنا يعبدونها ، فسرنا على طريقتهم فى عبادتها ، فطوَوا بساط المجادلة في صفات آلهتهم وانتقلوا إلى دليل التقليد تفاديا من كلفة النظر والاستدلال إلى الإقتداء بالسلف ، وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال [128].

* **الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم: 42] .

ولما كان شأن الرب أن يعلم حال من يعبده ، وأن يُلجأ إليه في الحاجة وأن ينفع أو يضر ، ألقى إبراهيم عليه السلام على أبيه استفهاما عن حال هذه الأصنام هل تسمع دعاء الداعين وهل تبصر من يطيعها ومن يعصيها ، وهل تكفي من يعبدها وتغنيه بجلب نفع أو دفع ضر ، تنبيها على دليل انتفاء الإلهية عنها . وعدم استحقاقها للعبادة ، فقد وصف إبراهيم الأوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة في الإلهية وذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : { لا يسمع } : أي ليس عنده قابلية السمع فيسمع صوتا أو أي شيئا من المسموعات . فأقل ما يتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع كعابده الذي يتوجه إليه بالعبادة والابتهال! وهذه الأصنام لا تسمع عبادها وهم يتوجهون إليها بالعبادة ، ويدعونها للنفع والضر . كما في قوله تعالى: { إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [فاطر: 14-15]. فيقول عليه السلام : يا أبت لماذا تعبد شيئاً لاَ يَسْمَعُ ثناءك عليه عند عبادتك له وجؤارك إليه ، ولا يسمع من يناديه ، فإذا لم يسمع الوثنُ دعاءَ الدَّاعي ، فأيُّ منفعةٍ في عبادته؟ وما تصنع بعبادة ما هذه صفته؟ اعبد الذي إذا ذكرته سمع ذكرك ،. وإذا دعوته سمع دعاءك فيجيبك إذا ناديته حالاً أو مآلا .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

128- راجع : تفسير الرازي 482/11 ، وتفسير السعدي 592 ، وتفسير طنطاوي 3165 ، وتفسير الظلال 351/5 ، وتفسير ابن عاشور 175/10 ، وتفسير البقاعي 69/6

ثانيها : { لا يبصر } . أي ليس عنده قابلية الرؤية ، فلا يبصر شيئاً من المبصرات ، ويقول أيضاً : وكيف تعبد من لا يبصر خضوعك وخشوعك بين يديه ، فيعرف حالك وإذا لم يبصرْ تقرُّبَ من يتقرَّب إليه ، فأيُّ منفعةٍ في ذلك التَّقرُّب وهذه العبادة؟ إنما اعبد من يراك وأنت في خدمته فيجازيك ، وإذا أحيط بك أبصرك فنصرك .

وثالثها : لا يغني عنك شيئاً ، ولما كان الأعمى الأصم قد ينفع بكلام أو غيره ، قال : { ولا يغني عنك شيئاً } من الإغناء ، أي : يكفيك شيئاً في جلب منفعة إليك ، وإذا نزل بك ضرّ دفعه عنك . فالمعبود إذا لم يسمع ، ولم يُبْصر ، ولم يُميِّز من يطيعه عمَّن يعصيه ، فأيُّ فائدةٍ في عبادته ، وهذا ينبهك على أن الإله يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات حتى يكون العبد راجياً خيره وفضله ، وآمناً من ضره وعقابه .

كأنه قال لأبيه : بل الإلهية ليست إلا لربي فإنه يسمع ويجيب دعوة الداعي ويبصر ، كما قال : { إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى } [طه: 46]. ويقضي الحوائج : { أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذا دَعَاهُ } [النمل: 62].

فإن كانت هذه الأصنام لا تسمع من يدعوها ولا تبصر لتعلم حال من يعبدها ، وعاجزة لا تقدر على نفع أو ضر ، فعلى أي أساس استندت عبادتهم لها ، وهي لا تتصف بأي وصف من أوصاف الألوهية حتى تستحق هذه العبادة [129]. قال تعالى : { لهُ دَعْوَةَ الحَقِّ وَالذِينَ يَدْعُون مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُون لهُمْ بِشَيْءٍ إِلَا كَبَاسِطِ كفَيْهِ إِلى المَاءِ لِيَبْلغَ فاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ إِلَا فِي ضَلَالٍ } [الرعد: 14].

*** الشاهد الرابع :**

قال تعالى: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127].

يذكر تعالى حالة رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت تنفيذا للأمر الذي تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للعبادة ، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العمل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[129]- راجع : تفسير الرازي 310/10 ، وتفسير البقاعي 205/5 ، وتفسير طنطاوي 2782 ، وتفسير السعدي 494 ، وتفسير ابن عاشور 479/8 ، وتفسير الظلال 351/5

دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل فيه النفع العميم . ويظهر في ثنايا الدعاء الأدب والإيمان والشعور بقيمة العقيدة في هذا الوجود . وهو الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء ، وأن يعمق في قلوبهم ومشاعرهم جملة من المعاني الإيمانية ومنها حقيقة علمه تعالى ومراقبته لأفعال عباده وما ورائها من بواعث نفسية لا يطلع عليها سواه تعالى ، فكان هذا الدعاء الذي توجه به إبراهيم وابنه إلى الله تتجلى فيه هذه الحقيقة من خلال عدة معاني :

1. أنهما دعوا بذلك الدعاء وقت أن شرعا في رفع القواعد وأتيا بتلك العبادة مخلصين فيها لله تعالى ، لأن الدعاء وقت التلبس بالطاعة من مسوغات الاستجابة والقبول عند الله تعالى .

2. وتصدير الدعاء في ندائهما بلفظ {ربنا} تلطف واستعطاف بذكر هذه الصفة الدالة على التربية والإصلاح بحال الداعي . وهو مظهر من مظاهر خضوعهما ، وإجلالهما لمقامه ، الذي هو من آسنى الآداب التي تجعل الدعاء بمقربة من الاستجابة ايضا .

3. ثم طلب القبول من الله تعالى لطاعتهما له ،فهذه هي الغاية المرتجاة.

وفي اختيار صيغة التفعل اعتراف بالتقصير في العمل ، ولما فيه من البعد عن المنة ، والإشعار بالتكلف في القبول ، لأن غاية ما يقصده المخلصون أن تقع أفعالهم موضع القبول ، وليس الثواب مما يخطر لهم ببال ، ولعل هذا هو الأنسب بحال الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام ، مصداقا لقوله تعالى : { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون: 60-61]. وسألت عائشة رضي الله عنها الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقالت : " هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال : لا يا بنت الصديق! ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات"[130].

ومن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب ، من التحرج مهما ينهض بالواجبات والتكاليف والتطلع إلى الكمال . لأنهم يشفقون من ربهم خشية وتقوى؛ لإحساسهم بالتقصير في جانب الله ، بعد أن بذلوا ما في طوقهم ، وهو في نظرهم قليل . لأن المؤمن يستشعر رقابة الله عليه . ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة . ومن ثم يستصغر كل عباداته ، ويستقل كل طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه . ومن ثم يشعر بالهيبة ، ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه ، لم يوفه حقه عبادة وطاعة و لم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً .

130- رواه الترمذي برقم (3175) وصححه الألباني

وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة ، بهذه اليقظة ، وبهذا التطلع ، وبهذا العمل ، وبهذه الطاعة الموافقة لأمره الله تعالى ، والتوجه إليه في خشوع وإخلاص ، يكون قد استوفى شروط القبول والرضى من الله . والرجاء في قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء . عليم بما وراءه من النية والشعور ، لذلك تأتي الخطوة الآخيرة متممة لهذا الدعاء .

4. وقد ختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى بقوله : { إِنَّكَ أنتَ السميع العليم } وهو تعليل لاستدعاء القبول ، ونفي السمعة والرياء عن الدعاء والعمل الذي هو شرط القبول ، وليؤكدا أن رجاءهما في استجابة دعائهما وثيق ، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول . لأن من كان سميعا عليما بنيات الداعين وصدق ضمائرهم ، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين في طاعته غير بعيد .

وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب ، إذ صدر منهما عمل وتضرع سؤال ، فهو السميع لضراعتهما وتسالهما التقبل ، وهو العليم بنياهما في إخلاص عملهما ، وكانه بهذا التعقيب في الدعاء يقول : ، يا ربنا تقبل منا طاعتنا إليك فانت تسمع دعاءنا وتضرعنا ، وتعلم ما في قلبنا من الإخلاص وترك الالتفات إلى احد سواك . وما مسالتنا إياك قبول عملنا في بناء بيتك الذي امرتنا ببنائه إلا لانك العليم بما في ضمائر نفوسنا من الإذعان لك في الطاعة، وما فيه لك من الرضا والمحبة، فجاءت الجملة بصيغة تفيد الحصر والمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدم . وهذا يستلزم منا ان نخلص لله في اعمالنا ، ونراقبه في السر والعلن ، وان تتجه قلوبنا إليه وحده في القصد والطلب في الأمور كلها ، فلا نرجو سواه ولا نخشى غيره ولا نتوكل إلا عليه [131].

إن هذه الحقيقة من علمه الشامل سبحانه وتعالى وغيرها من الحقائق الإيمانية من قدرته المطلقة ومشيئته الطليقة ورحمته الواسعة .. إلى غير ذلك من الحقائق ، التي جاء القرآن ليقررها هي التي صنعت جيل الصحابة ، فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا ، واقتلع جراثيم الجاهلية وجذورها . وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وأصبح الواحد منهم رجلا غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن

---

[131]– راجع : تفسير الطبري 73/3 ، وتفسير الرازي 347/2 ، وتفسير الألوسي 6/2 ، وتفسير طنطاوي 207 ، وتفسير الظلال 88/1 ، 237/5 ، وتفسير ابن عاشور 481/1 بيضاوي 156/1 البحر 8/2 السعدي 66

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق ، وقد سجل التاريخ الإسلامي من المواقف والممارسات الإيمانية ، ما يعجز التاريخ البشري عن نظائره ، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ، ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان ، وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ، ولا يقرون بنظام ، ولا ينخرطون في سلك ، يسيرون على الأهواء ، ويركبون العمياء ، ويخبطون خبط عشواء . فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها .

فهذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملي على صاحبها الفضائل الخلقية من إرادة وقوة نفس ، ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية؛ حتى إذا جمحت البهيمية في حين من الأحيان ، تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة ، ووخزا لاذعا للضمير ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئنا مرتاحا ، تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة . وكان هذا الإيمان حارسا لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه أمام المطامع والشهوات الجارفة؛ وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحدا . ونظافة المشاعر هذه تجيء نتيجة مباشرة للشعور برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر .

والمؤمن يحس وقع نظر الله سبحانه في طوية نفسه فيطهر قلبه وينظفه من كل الارجاس والأدناس ، فلا يجعل فيه شرك ولا نفاق ولا رياء ، ولا يدخله خبث ولا حقد ولا حسد! والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عليم رقيب ، سميع بصير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . إنها التبعة المترتبة على شمول الرقابة الإلهية ، وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية ، فهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لا يتملص ولا يتفلت ، وتحت رقابته التي لا تفتر ولا تغفل . وإنها لرقابة رهيبة تملأ الحس رهبة ويقظة . وكيف بإنسان في قبضة الجبار ، المطلع على ذات الصدور؟ الذي لا ينسى ولا يغفل ولا ينام! قال تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق: 16-18].

إن الإنسان مكشوف لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره . وكل ما في نفسه من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، ثم يعبر عن الرقابة المباشرة . بقربه من الإنسان بما يجري في دمه.

وهو الوريد ، والقرب هنا كناية عن إحاطة العلم بالحال لأن القرب يستلزم الإطلاع ، ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه ، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان ، إلا حينما يتصور هذه الحقيقة ويستحضرها القلب فأنه لا يجرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها . بل لا يجرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال القبول .

وإن هذه الحقيقة وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم ويقظة لا تغفل عن المحاسبة ، ولكن القرآن يستطرد في إحكام الرقابة ، فإذا الإنسان يعيش ويتحرك بين ملكين موكلين به ، عن اليمين وعن الشمال ، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها لتكون في سجل حسابنا ، بين يدي الله الذي لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير .

إن مجرد استقرار هذه الحقيقة في معتقد الإنسان ، سرعان ما يتطهر باطنه وظاهره ، وتستقيم حياته في السر والعلن ، ويشعر بتبعة المسؤولية . وهي ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هي كذلك تبعة جماعية ، وتبعة تجاه الخير في ذاته ، وإزاء البشرية جميعا أمام الله ، فهو كائن له قيمة وعليه تبعة في نظام هذا الوجود . وهذا التصور والشعور من شأنه أن يؤدي إلى استقامة الحياة البشرية أفرادا وجماعات حينما تراقب الله في كل أحوالها وتنضبط في سيرها بما يحبه تعالى ويرضاه [132].

---

[132]- راجع : تفسير الظلال ، 231-230/6 ، 16/7 ، 90/8،وتفسير ابن عاشور 59/14

– المبحث الثالث –

دليل علمه تعالى بالإنسان ما يصلحه وينفعه

إن الله تعالى هو العليم الخبير بعباده ، البصير بما فيه صلاحهم فيما يشرع لهم من أحكام ويسن من قوانين، أو فيما يقدره عليهم من أقدار ، وما ينزله عليهم من سراء أو ضراء ، وكل هذا يجري وفق مقتضى علمه وحكمته ، قال تعالى : { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف: 52]. وقال تعالى : { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ } [الشورى: 27]. إن الله تعالى هو أحكم الحاكمين والعالم بكل شيء ومن هذا شأنه لم تخرج أفعاله وأوامره قط عن الحكمة والرحمة والمصلحة وما يخفى على العباد من معاني حكمته في صنعه وابداعه وامره وشرعه فيكفيهم فيه معرفته بالوجه العام ان تضمنته حكمة بالغة وإن لم يعرفوا تفصيلها وأن ذلك من علم الغيب الذي استأثر الله به فيكفيهم في ذلك الاسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة التي علموا ما خفي منها بما ظهر لهم ، هذا وأن الله تعالى بني امور عباده على ان عرفهم معاني جلائل خلقه وأمره دون دقائقهما وتفاصيلهما وهذا مطرد في الاشياء اصولها وفروعها .

* **أما علمه تعالى بما يصلح الإنسان وينفعه فيما يشرع من أحكام وقوانين :**

فإن الله تعالى لم يشرع شيئا سدى ولا خلوا من حكمة بالغة، بل في طوايا ما شرعه وأمر به من الحكم والأسرار التي تبهر العقول ما يستدل به الناظر فيه على ما وراءه فيسجد القلب خضوعا وإذعانا ، قال تعالى : { إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [الأسراء: 9]. هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم من بشر وفيما يهديهم من منهج :

ـــ يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق .

ـــ ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله ، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم ، متطلعة إلى أعلى وهي

مستقرة على الأرض ، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله ، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعاً بالحياة.

. ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء . ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار . ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .

ـــ ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض : أفرادا وأزواجا ، وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا ، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى؛ ولا تميل مع المودة والشنآن؛ ولا تصرفها المصالح والأغراض . الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقه ، وهو أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل ، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ـــ ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها ، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرماتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووئام .

فإن هذا القرآن قد جاء ليربي أمة وينشئها على منهج عقلي سليم ، لذلك فهو يؤسس المعتقد الإيماني وفق تأصيل فكري ، ليشمل كل قضايا العقيدة ومنها عقيدة التوحيد ، وهو حين يقرر حقيقة علمه تعالى بالإنسان فيما يصلحه وينفعه ، إنما يستدل بذلك على ما يقتضيها من موجبات تفرض على العباد أن يستمدوا منهج حياتهم وأحكامهم وتشريعاتهم ممن خلقهم ويعلم حقيقة تكوينهم ومن ثم يعلم النظام الذي يناسبهم ويحقق مصالحهم ، قال تعالى : { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطِيفُ الخَبِيرُ } [الملك: 14].

وعليه فإن حق التشريع لله تعالى إنما يستند إلى دليل عقلي وتأصيل فكري ، وهو أن الله خالق البشر هو وحده الذي يشرع لهم شريعته مبرأة من الهوى ، مبرأة من الجهل والقصور فهو الذي خلقهم وهو أعلم بمن خلق وهو العليم الحكيم . يشرع عن علم وعن حكمة، ويأمر بما يناسب طاقة البشر وما يصلحهم . وإن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده لأنهما أخص خصائص الألوهية . وليس لأحد غيره أن يشرع في هذا وذاك وليس لأحد أن يدعي هذا الحق . لأن هذا مرادف تماما لدعوى الألوهية! والقرآن يربط ربطا دقيقا بين التنظيمات التشريعية ، وبين الأصل الأول للإيمان : وهو أن هذه التنظيمات صادرة من الله . العليم الحكيم . كما في قوله تعالى : {

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 216]. وقوله تعالى : { ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 232].

* **فالأمر** في هذا المنهج الإلهي كله هو قبل كل شيء أمر العلم الشامل الكامل ، والحكمة المدركة البصيرة . فالله الخبير البصير الذي يعلم من أمر الناس ما لا يعلمون ، يضع لهم منهجا واقعيا لنظام حياتهم ، وهي مقتضى ألوهيته . فأخص خصائص الألوهية هو الحاكمية ، والتشريع للبشر ، ووضع الأسس التي تقوم عليها حياتهم وارتباطاتهم! فهو الذي خلق ، والذي يعلم من خلق ، والذي يعلم ما يصلح لخلقه ، في كل حالة وفي كل آن؟ وعندما ينزل الله على عباده شريعته ، ويخبرهم بالغيب ، فمن الواجب أن يترك العبيد لحكمته وعلمه تفصيل تلك الشريعة وكشف هذا الغيب ؛ وأن يقفوا هم في هذه الأمور عند الحدود التي أرادها العليم الخبير . والله أعلم بطاقة البشر واحتمالهم ، فهو يشرع لهم في حدود طاقتهم ، ويكشف لهم من الغيب ما تدركه طبيعتهم ، فالله يصنع القلوب التي يشرع لها؛ ويصنع المجتمع الذي يقنن له . صنعة إلهية متكاملة متناسقة . تربية وتشريع . وتقوى وسلطان .

* **والأمر الآخر** هو أن منهج الله هذا أيسر على الإنسان وأخف وأقرب إلى الفطرة ، من المناهج التي يريدها البشر ويهوونها ، وأنه من رحمة الله بضعف الإنسان أن يشرع له هذا المنهج ، الذي تكلفه الحيدة عنه عنتا ومشقة ، فوق ما تكلفه من هبوط وارتكاس . ومن هنا شقوة الإنسان في الأرض كلما حاد عن منهج العليم الحكيم ، وراح يخبط في التيه بلا دليل ، ويزعم أنه قادر ، بجهله وطيشه وهواه ، أن يختار لنفسه ولحياته خيرا مما يختاره الله!! إن شريعة الله تمثل منهجا شاملا متكاملاً للحياة البشرية؛ يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية؛ في جميع حالاتها ، وفي كل صورها وأشكالها .لذلك لا وجه للمقارنة بين ما يشرعه البشر وما يشرعه الله تعالى ، وإن اعتبار الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس ، وقد أشار القرآن إلى هذه الأفضلية بقوله تعالى : " ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ " والاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله ، هو كذلك داخل في قضية الكفر والإيمان . فما يملك إنسان أن يدعي أن شريعة أحد من البشر ، تفضل أو تماثل شريعة الله ، ثم يدعي – بعد ذلك – أنه مؤمن بالله ، وأنه من المسلمين . لأنه بذلك يدعي أنه أعلم من الله بحال الناس؛ أو يدعي أن أحوالاً وحاجات جرت

في حياة الناس ، وكان الله غير عالم بها وهو يشرع شريعته؛ أو كان عالماً بها ولكنه لم يشرع لها! ولا تستقيم مع هذا الادعاء دعوى الإيمان والإسلام . مهما قالها باللسان . فالذي يقرر الشرائع والأحكام ، هو الذي خلق . وهو أعلم بمن خلق . وكل جدال بعد قول العليم الخبير مهاترة؛ وكل تمرد على اختيار الخالق وعدم تسليم به ، مفض إلى الخروج من مجال الإيمان كله . والله يقف الناس على مفرق الطريق . وهم بعد ذلك بالخيار! يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية؛ وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله في قوله تعالى : { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُون وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُون } [المائدة: 50].

من ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم ، خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟ أيستطيع أن يقول : إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول : إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول : إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟ ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية . وحكم الجاهلية؛ ويجعل هواه هو أو هوى شعب من الشعوب ، فوق حكم الله ، وفوق شريعة الله؟ ما الذي يستطيع أن يقوله وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! هل هي الظروف ، أم الملابسات ، أم عدم رغبة الناس ، أم الخوف من الأعداء؟ . ألم يكن هذا كله في علم الله؛ وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته ، وأن يسيروا على منهجه ، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله؟ أم هل هو قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والاحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك في علم الله؛ وهو يشدد هذا التشديد ، ويحذر هذا التحذير؟ يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء ، ولكن المسلم أو من يدعون الإسلام ما الذي يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شيء من الإسلام؟

إنه مفرق الطريق ، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية . إن هذه القضية يجب أن تكون واضحة وحاسمة في ضمير المسلم؛ وما لم يحسم ضمير المسلم في هذه القضية ، فلن يستقيم له ميزان؛ ولن يتضح له منهج ، ولن يفرق في ضميره بين الحق والباطل؛ ولن يخطو خطوة واحدة في الطريق الصحيح . وإن الرد على كل معترض على تطبيق شريعة الله ، أو متهاون في ذلك بدعوى أنها ليست صالحة للظروف التي يعيش ذلك المعترض أو هذا المتهاون فيها ، هو قوله تعالى : { والله يعلم وأنتم لا تعلمون } لأن شرع الله فيه النفع الدائم والمصلحة الحقيقية ، والنتائج المرضية ، لأنه شرع من يعلم كل شيء ولا يجهل شيئا ، ويعلم ما هو الأنفع والأصلح للناس في كل زمان ومكان

، ولم يشرع لهم سبحانه إلا ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم ، وما دام علم الله تعالى هو الكامل ، وعلم الإنسان علم قاصر ، فعلينا أن نتبع شرع الله في كل شئوننا ، والمقصود من هذا تعليم المسلمين تلقي أمر الله تعالى باعتقاد أنه هو الذي فيه الصلاح والخير ، ولو لم تتبين لنا صفته من الأفعال المكلف بها نوقن بأن فيه صفة مناسبة لحكم الشرع فيه ، لأن الله تعالى لا يجري أمره ونهيه إلا على وفق مقتضى علمه وحكمته[133].

*** وأما في مجال علمه تعالى بما يصلح الإنسان فيما يقدره عليه من سراء وضراء .**

فإن له تعالى في كل ما خلق وقضى وقدر وشرع من الحكم البالغة والعواقب الحميدة ما اقتضاه كمال حكمته وعلمه وهو العليم الحكيم فما خلق شيئا ولا قضاه ولا شرعه الا لحكمة بالغة وان تقاصرت عنها عقول البشر فهو العليم الحكيم ، وعلى كل شيء قدير . قال تعالى : { وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [الذاريات: 28-30]. وقال تعالى : { يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [الشورى: 50-49]. فله في كل ما خلقه وقدره وقضاه حكمة بالغة ، فإن الإنسان حين يتأمل في تجاربه الخاصة يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العميم . ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم . وكم من مطلوب كاد الإنسان يذهب نفسه حسرات على فوته؛ ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذا من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه . وكم من محنة تجرعها الإنسان لاهثا يكاد يتقطع لفظاعتها . ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل . إن الإنسان لا يعلم ، والله وحده يعلم ، والإنسان العاقل هو من يستسلم لأمر الله وقدره .

فإن المنهج التربوي القرآني يأخذ النفس البشرية . لتؤمن وتسلم وتستسلم في أمر الغيب المخبوء ، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف ، وأن تعلم أن ما يقع عليها من الابتلاء إنما يجيء لحكمة لا يعلمها إلا الله وحده ،وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير . فإن من الأقدار ما هو شاق على النفس؛ ولكن وراءه حكمة تهون مشقته ، وتسيغ مرارته ، وتحقق به خيرا مخبوءا قد لا يراه النظر الإنساني القصير . . عندئذ يفتح للنفس البشرية نافذة جديدة تطل منها على الأمر؛

---

[133] – راجع : تفسير الظلال 320/1 ، 82/2 ، 2/ 365، 384، 443 ، 402/6 ، وتفسير ابن عاشور 262/2 ، 352، وتفسير طنطاوي 274 ، 419 ، وابن القيم ، مفتاح دار السعادة 305/1 ، وبدائع الفوائد 422/2

ويكشف لها عن زاوية أخرى غير التي تراه منها . إنه من يدري فلعل وراء المكروه خيراً . ووراء المحبوب شراً . قال تعالى : { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 216]. إن العليم بالغايات البعيدة ، المطلع على العواقب المستورة ، هو الذي يعلم وحده . حيث لا يعلم الناس شيئاً من الحقيقة . إن هذه اللمسة الربانية للقلب البشري لتفتح أمامه عالماً آخر غير العالم المحدود الذي تبصره عيناه . ولكن يرد الأمر كله لليد الحكيمة والعلم الشامل ، وهو راض قرير . فما تستشعر النفس حقيقة السلام إلا حين تستيقن أن الخيرة فيما اختاره الله . . وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم؟ والله يعلم والناس لا يعلمون! إن النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة قد تكره أمرا ويكون فيه الخير كل الخير ، وقد تحب النفس أمراً وتتهالك عليه . وفيه الشر كل الشر ، وقدر الله لا يخضع للهوى والجهل والقصور البشري ، وإنما يستند إلى مطلق علمه تعالى وحكمته ، فإن الله يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم الناس من أمر الغيب المحجوب؟

من ذلك كله ندرك كيف كان الله يربي هذه الأمة بالأحداث والقرآن في آن ، كان يأخذهم بالتجارب الواقعية ، والابتلاءات التي تأخذ منهم وتعطي؛ وكل ذلك لحكمة يعلمها الله ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير . ويربي نفوسهم كذلك على الاستجابة لأوامر الله العليم بالغايات المطلع على العواقب ، الخبير بما فيه خيرهم ومصلحتهم ، وبهذه التربية الحكيمة بذل المؤمنون نفوسهم وأموالهم في سبيل رضا خالقهم عن طواعية واختيار ، لا عن قسر وإجبار[134].

وفي ضوء هذه الحقيقة من علمه تعالى بحقيقة الإنسان وما يصلحه وينفعه في شرعه وحكمه ، فقد أقام المنهج القرآني الحجة على العباد في حق الله تعالى وحده في إصدار الأحكام والتشريعات ، والتحليل والتحريم كونه هو خالق الإنسان والعليم به والخبير بما يصلحه وينفعه ، وذلك بوجوب تلقي التوجيهات والتنظيمات والقوانين من الله تعالى وحده ومن ثم تلقيها بالقبول والتسليم والرضى النفسي لقوله تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: 65]. والإلتزام بها وتطبيقها عمليا ، وتحكيمها في واقع الحياة وعدم تنحيتها والقبول بغيرها لأن مجرد الخروج عنها يُعد خروج من الإيمان ، قال تعالى : { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة: 44].

134- راجع : تفسير الظلال 1/202-204، 6/50 ، وتفسير طنطاوي 274، وابن القيم ، مفتاح دار السعادة :1/305 ، مدارج السالكين ، 1/ 416

وقد جاءت النصوص القرآنية حاسمة وقاطعة في تأكيد هذه الحقيقة في كثير من الآيات ، كقوله تعالى : { أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام: 114-116]. وقوله تعالى : { قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الزمر: 64-66].

وكذلك التسليم لله ، والرضى بقدره ، وحسن الظن بقضائه ، ، والشكر على نعمائه ، والصبر على ابتلائه. واعتقاد الخير في كل ما يقضي ويقدر لأنه صادر عن علمه الشامل والمحيط بكل شيء ، وعدم التسخط والاعتراض عليه قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 30]. وقال تعالى : { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } [الأعراف: 12] قال تعالى: { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } [النساء: 54]. وقال تعالى : { وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ } [الأنفال: 7].

إنه ليس كل ما يوده الناس فيه كمال مصلحتهم ، وإن الله يختار لهم ما فيه كمال مصلحتهم ، وإن كان يشق عليهم فإنهم لم يطّلعوا على الأصلح بهم . والله يريد بهم الخير فهو يختار لهم الأصلح عن علم وعن بصر ، وهذا من لطف الله بعباده ، فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق . وهو بصير بهم ، ظاهرهم وخافيهم ،. ولن يضيعهم ، ولن يضيع عليهم شيئاً . وأن الخيرة ما اختاره الله .

فالمسلم الصادق يرضى بما قدره الله له وعليه . ويرضى بما يجد من سراء وضراء . يرضى فلا يقلق ولا يضيق ، لأنه يعلم أن قدره تعالى يجري عن علم وحكمة ورحمة بعباده . وانه مأجور في كل

الأحوال[135] ، وفي الحديث الصحيح : "عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له "[136] .

وقد استدل القران الكريم في معرض ذكر إبراهيم عليه السلام بعلم الله تعالى بما يصلح الإنسان وينفعه فيما يشرع ويقدر على ألوهيته تعالى وما يقتضي ذلك من موجبات العبادة التي لا تصح إلا له سبحانه وتعالى ، فهو خالق الإنسان والأعلم بما يصلحه وينفعه ، ومن ذلك :

1- قال تعالى : { لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12) شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى: 12-13].

وقال تعالى: { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الشورى: 21].

فإن الله هو رازقهم فلمن غيره يتجهون إذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه؟ وإنما يتجه الناس إلى الرازق الكافل المتصرف في الأرزاق. الذي يدبر هذا كله بعلم وتقدير : { إنه بكل شيء عليم }.

والذي يعلم كل شيء هو الذي يحكم وحكمه العدل ، وحكمه الفصل . ثم انتقل من الامتنان بالنعم الجثمانية إلى الامتنان بالنعمة الروحية للتنويه بدين الإسلام وللتعريض بالكفار الذين أعرضوا عنه . فجاء بإشارة إجمالية إلى وحدة المصدر ، ووحدة المنهج ، ووحدة الاتجاه. ثم يفصل هذه الإشارة؛ ويقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو في عمومه ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى .

والمراد المماثلة في أصول الدين بما شرعه على ألسنة هؤلاء الرسل وأن الإسلام لا يخالف هذه الشرائع المسماة ، وقد أوصى الله بها كلّ رسول من الرسل الذين سماهم . وهذا الوجه يقتضي أن ما حكي شرعه في الأديان السابقة هو هذا المعنى وهو إقامة الدّين المشروع كما هو ، والإقامة مجملة يفسرها ما في كل دين من الفروع ، وإقامة الشيء : جعله قائماً ، للحرص على العمل به ، والمراد بإقامة الدين : التزام أوامره ونواهيه ، وطاعة الرسل فى كل ما جاءوا به من عند ربهم طاعة تامة .

135- راجع : تفسير الظلال 37/4، 356 ، ابن عاشور 285/6

136- رواه البخاري برقم (64) ، وابن حبان برقم (2896)

ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به؛ وذكر سبب تفرقهم وهو لأجل العداوة بينهم ، وأنهم لم يحافظوا على وصَايَا الرّسل . وهذا تعريض بالمشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام لعداوتهم للمؤمنين ، وتحذير للمؤمنين من مثل ذلك الاختلاف . وهي دعوة لتمسك بإقامة دين الله الواحد ، وعدم التفرق فيه . ويرتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهي القديم ، دون التفات إلى أهواء المختلفين . ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم ، ودحض حجة الذين يحاجون في الله ، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد .

وبعدما قرر تعالى ان ما شرعه للامة المسلمة هو ما وصى به لاولئك الرسل ، يتساءل في استنكار عما هم فيه وما هم عليه ، من ذا شرعه لهم ما دام الله لم يشرعه؟ وهو مخالف لما شرعه منذ أن كان هناك رسالات وتشريعات؟ :{ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟ } . وهو إضراب انتقالي من الكلام على تفرق أهل الشرائع السالفة في شرائعهم مَن انقرض منهم ومن بقي كأهل الكتابين إلى الكلام على ما يشابه ذلك من الاختلاف على أصل الديانة ، وتلك مخالفة المشركين للشرائع كلها وتلقيهم دين الإشراك من أئمة الكفر وقادة الضلال . ومعنى الاستفهام للتقريع والتهكم ، فالتقريع راجع إلى أنهم شرعوا من الدّين ما لم يأذن به الله والتهكم راجع إلى من شرعوا لهم الشرك ، فسئلوا عمن شرع لهم دين الشرك : أهم شركاء آخرون اعتقدوهم شركاء لله في الإلهية وفي شرع الأديان كما شرع الله للناس الأديان؟ وهذا تهكّم بهم لأن هذا النوع من الشركاء لم يدّعِه أهل الشرك من العرب ، والمقصود : فضح فظاعة شركهم بعروه عن الانتساب إلى الله ، وعدم مشروعيته لأنه لم يصدر من الإله الحقّ ، وإنما من شرعه الآلهة الباطلة وهي الشركاء . وأن تلك الآلهة لا تصلح لتشريع دين لأنها لا تعقل ولا تتكلم ، فتعين أن دين الشرك دين لا مستند له مطلقا . وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائنا من كان؛ فالله وحده هو الذي يشرع لعباده . بما أنه سبحانه هو مبدع هذا الكون كله ، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له .

والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير ، فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس؛ ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس . وكل من عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال . فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور . ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البداهة؛ فإن الكثيرين يجادلون فيها ، أو لا يقتنعون بها ، وهم يتجرءون على استمداد التشريع من غير ما شرع الله ، زاعمين أنهم يختارون الخير لشعوبهم ، ويوائمون بين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ظروفهم والتشريع الذي ينشئونه من عند أنفسهم . كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله! أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله! وليس أخيب من ذلك ولا أجرأ على الله! لقد شرع الله للبشرية ما يعلم سبحانه ، أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها وطبيعة الكون الذي تعيش فيه وفطرته . ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها ، والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى . شرع في هذا كله أصولا لتبقى ميزانا يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق في حدود المنهج الكلي والتشريعات العامة ، وبذلك يتوحد مصدر التشريع ، ويكون الحكم لله وحده . وهو خير الحاكمين . وما عدا هذا النهج فهو خروج على شريعة الله ، وعلى دين الله ، وعلى ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم الصلاة والسلام"[137] .

2- قال تعالى : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [الأنعام: 161-164].

لقد جاءت هذه الآيات بعد تقرير إثبات التوحيد بالأدلة القاطعة، والرد على القائلين بالشركاء والأنداد والنافين للقضاء والقدر ، والرد على جميع أديان الضلال ووصفها بتفرق أهلها الدال على بطلانها واعوجاجها ،

ثم بعد ذلك شرع سبحانه في تقرير جملة من الحقائق فيما يتعلق بقضية الهداية إلى الدين الحق ، من بيان مصدرهذه الهداية ، ومن ثم وصف حقيقتها ، وتقرير مدى شمولها واستيعابها لحياة الناس ، **وبيان أهم مقتضياتها التعبدية ،والتي سوف نبينها على النحو الآتي :**

أولاً. بيان مصدر الهداية الحقيقي ابتداءً ، وأنه لايكون إلا من عند الله رب الناس ورب العالمين ، الذي خلقهم وأوجدهم ، ويعلم ما ينفعهم ويصلحهم ، فهو وحده من يملك أن يضع لهم تشريعاً يحقق حاجاتهم ويلبي مطالبهم ، بصورة متوازنة وكاملة وشاملة ، وبعيداً عن القصور والجهل والهوى ، فقال : { إِنَّنِى هَدَانِى رَبّى إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ } ونسب هذه الهداية إلى ربه ثم عرفه بالإضافة بقوله : {هَدَانِى رَبّى} للاعتزاز بمربوبيته لله تعالى ، وتعريضاً بالمشركين الذين أضلّهم

[137]- راجع : تفسير الظلال 321/6 ، 257/7 ، طنطاوي 3758 ، وتفسير ابن عاشور 94/13

أربابهم ، ولو وحّدوا الربّ الحقيق بالعبادة لهداهم ، ومبيناً أنّ هذا الدّين إنّما جاء به بهدي من الله ، ودلالة على أن الهداية لا تحصل إلا منه وحده تعالى لأنه لا هدى إلا هداه ، قال تعالى : { قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام: 71]. فكان كلامه عليه الصلاة والسلام إعلاناً يوحي بالشكر على هذه الهداية ، ويفيض باليقين ، والثقة بصلة الربوبية الهادية الموجهة المهيمنة الراعية .

ثانيا. **بيان حقيقة هذا الهدى الذي جاءه من عند الله تعالى** ، حيث وصف دينه الذي شرعه له وهداه إليه بما فيه من المحاسن تحبيبا فيه وحثا عليه **بثلاثة أوصاف وهي** :

الوصف الأول : وهو في قوله : **{ صراط مُستقيم }** وحقيقة الهداية التّعريف بالطّريق ، وحقيقة الصّراط الطّريق الواسعة . وقد صحّ أن تستعار الهداية للإرشاد والتّعليم ، والصّراط للدين القويم ، ووُصف الصّراط بالمستقيم، أي: الذي لا خطأ فيه ولا فساد ، قال تعالى: " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ " [الأنعام : 153] . والمقصود إتمام هيئة التّشبيه بأنّه دين لا يتطرّق متّبعه شكّ في نفعه كما لا يتردّد سالك الطّريق الواسعة التي لا انعطاف فيها ولا يتحيَّر في أمره . أى : هدانى ربى ووفقنى إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم ، الذي لا التواء فيه ولا عوج.

الوصف الثاني : وهو في قوله : **{ دِينًا قِيَمًا }** والدين : حقيقته في الأصل الجزاء ، وسمّي الدين دينا لأنّه يترقب منه مُتّبعُهُ الجزاء عاجلا أو آجلا ، ثم صار حقيقة عرفية يطلق على : مجموع العقائد والأعمال ، والدين هو السّيرة التي يتّبعها النّاس والمراد به : الملة والشرع { دينا قيما } أي : الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون ، ويحسن جعل القيم للمبالغة في القيام بالأمر . القيام للكفاية بما يحتاج إليه والوفاء بما فيه صلاح المقوّم عليه ، فالإسلام قيّم بالأمّة وحاجتها قال تعالى : { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [الروم: 30].

الوصف الثالث : وهو في قوله : **{ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }** فهذا مدح لهذا الدين الذي هدى الله إليه محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام ، وبياناً لأنه الذي اختاره سبحانه لخليله إبراهيم عليه السلام ، وترغيباً في هذا الدين لأن جميع المخالفين يتشبثون بأذيال إبراهيم عليه السلام من العرب وأهل الكتابين ، ومعنى كون الإسلام ملّةَ إبراهيم : أنّه جاء بالأصول التي هي شريعة إبراهيم وهي : التّوحيد ، ومسايرة الفطرة ، والشّكر ، والسّماحة ،

وإعلان الحقّ ... وأنّه جعله ديناً قيّماً متفق مع قواعد ملّة إبراهيم عليه السّلام ، قال تعالى : { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [آل عمران: 67]. ثم قال في صفة إبراهيم :

* { حنيفا } الأصل في الحنيف الميل وهو ميل عن الضلالة إلى الاستقامة والعرب تسمي كل من اختتن أو حج حنيفا تنبيها على أنه دين إبراهيم عليه السلام ، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركين. والمعنى هداني ربي وعرفني ملة إبراهيم حال كونها موصوفة بالحنيفية ، وهو الميل عن كل دين باطل إلى دين الحق .

* { وما كان من المشركين } إن إبراهيم عليه السلام ما كان أبدا مِنَ المشركين مع الله آلهة أخرى فى شأن من شئونه . لا كما يزعم المشركون وأهل الكتاب أن إبراهيم كان على دينهم .وفي هذا رد عليهم لأنهم يزعمون أنهم على دين إبراهيم فأخبر الله تعالى أن إبراهيم لم يكن من المشركين وممن يعبد الأصنام ، قال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كان أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 120].

ثالثا. بيان شمول هذه الهداية كل جوانب الحياة الإنسانية ، فهو دين شمولي لأنه صادر من عند الله تعالى ، كما في قوله : { صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي } فقد شملت الهداية سائر أعمال الإنسان وكل مراحل عمره من حياته حتى مماته ، فهي العبودية الكاملة والشاملة ، التي تشمل كل حياة الإنسان وكل كيانه ، بحيث تشمل كل خالجة في القلب وكل حركة في الحياة . وبعد هذا العموم ، خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: { قل إِن صَلاتِي وَنَسكِي } وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى ، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله. وقوله: { وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي } أي: ما آتيه في حياتي، وما يجريه الله عليَّ، وما يقدر عليَّ في مماتي ، فهي عبودية شاملة تشمل الشعائر التعبدية ، والحياة الواقعية ، والممات وما وراءه .

رابعا. بيان المقتضيات التعبدية لهذه الهداية والتي من أهم مقوماتها هو :

1. الإخلاص لله تعالى في العبادة ، فإنّه بعد أن هداه الله إلى طريق الحق ثم ألهمه الشّكر على هذه الهداية بأن يجعل جميع طاعته وعبادته خالصا لله تعالى .كما في قوله : { لِلهِ رَبِّ العَالمِينَ } واللام للتعليل أي لأجل الله . قوله : { إن صلاتي ونسكي } دليل على أن جميع العبادات يؤديها

العبد على الإخلاص لله ويؤكد هذا قوله لله رب العالمين ، وجعل صلاته لله دون غيره تعريضاً بالمشركين إذ كانوا يسجدون للأصنام . ولذلك أردف بجملة { لا شريك له } للردّ على المشركين بأنّهم ما أخلصوا عملهم للذي خلقهم ، وبأنّهم أشركوا معه غيره في الإلهيّة . والنّسك حقيقته العبادة ومنه يسمى العابد الناسك . وبقوله : { ومحياي ومماتي لله رب العالمين } تحقّق معنى الإسلام الذي أصله الإلقاء بالنّفس إلى المَسْلَم له ، وهو المعنى الذي اقتضاه قوله : { فَقَلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ } [آل عمران: 20]. وهو معنى الحنيفية الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السّلام في قوله : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة: 131]. وقوله : { رب العالمين } صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته خالصًا له وحده لا لغيره ، فهو من له عليهم نعمة الإيجاد والهداية ، لذلك فهو من له التجرد الكامل بكل خالجة فى القلب ، وبكل حركة فى هذه الحياة .

2. الإتباع : في قوله : { وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } ولما دل على ذلك ببرهان العقل ، أتبعه بجازم النقل فقال عاطفا على ما تقديره : إلى ذلك أرشدني دليل العقل : { وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ } أي الأمر العالي من توجيه أموري إليه على وجه الإخلاص . فهذا الدين لو لم يرد به أمر كان ينبغي للعاقل أن يدين به ولا يعدل عنه لشدة ظهوره وانتشار نوره بما قام عليه من الدلائل ودرج على اتباعه من الأفاضل والأماثل ، فكيف إذا برزت به الأوامر الإلهية ودعت إليه الدواعي الربانية { وأنا أول المسلمين} فهو الإقرار والإذعان والخضوع لأمر الله تعالى والإمتثال له والثبات عليه والاغتباط به ، لأنَ من أحبّ شيئاً أسرع إليه فجاءه أوّل النّاس ، وهذا بمنزلة فعل السبق إذ يطلق في كلامهم على التمكّن والترجّح ، كقوله تعالى : { قَلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ } [الزمر: 11-12]. أي أول المنقادين لما يدعو إليه داعي الله في هذا الدين من هذه الأمة ، وفيه دليل على أن جميع العبادات لا تؤدى إلا على وجه التمام والكمال لأن ما كان لله لا ينبغي أن يكون إلا كاملا تاما مع إخلاص العبادة له فما كان بهذه الصفة من العبادات كان مقبولا.

خامساً. الاستنكار على المشركين أنْ يَعْبُد غير الله تعالى لأنّهم كانوا يرغبوه أن يعترف بربوبية أصنامهم ، فقال لهم على سبيل التعجب من حالهم ، والاستنكار لواقعهم : { قَلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ } لما أمر الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بالتوحيد المحض ، وهو أن يقول :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

{ إنّ صلاتي ونسكي .. لله رب العالمين} أمره بأن يذكر ما يجري مجرى الدليل على صحة هذا التوحيد ، وتقريره من وجهين :

الوجه الأول : إن أصناف المشركين كلهم معترفون أن الله هو الخالق لكل شيء وخالق هؤلاء الشركاء ، فقال لهم : { أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا } مع أن هؤلاء الذين اتخذوا ربا غير الله تعالى أقروا بأن الله خالق تلك الأشياء ، وهل يدخل في العقل جعل المخلوق شريكا للخالق ، وجعل العبد شريكا للمولى ؟ ولما كان الأمر كذلك ، ثبت بهذا الدليل أن اتخاذ رب غير الله تعالى قول فاسد ، ودين باطل .

الوجه الثاني : إن صريح العقل يُنكر أن يَعْبُد غير الله تعالى لأن واهب النّعم هو مستحقّ الشّكر ، والعبادة جماع مراتب الشّكر ، وفي هذا رجوع إلى بيان ضلالهم إذ عَبدوا غيره ، وجعلوا المربوب شريكا للرب فهذا هو المراد من قوله : { قل أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كل شَيْءٍ } . فجملة { وَهُوَ رَبُّ كل شَيْءٍ } حال في موضع العلة لإنكار ما هم عليه من ضلال . والدليل له أي وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية ، وهي كلمة تتقصى كل مخلوق وتجمع كل حادث . ثم تظللها كلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن في هذا الكون الهائل؛ وتعبدها كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة . وإنّما قيل: { وهو رب كل شيء }. ولم يقل: وهو ربّي ، لإثبات أنّه ربّه بطريق الاستدلال لكونه إثباتَ حكم عام يشمل المقصودَ الخاصّ ، ولإفادة أن أربابهم غير حقيقة بالربوبيّة لأنّها مربوبة أيضا لله تعالى . ثم بين سبحانه أن كل إنسان مجازى بعمله وكل مرتكب لإثم فهو وحده المعاقب به[138] .

3- قال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 120-123].

[138]- راجع : تفسير الطبري 281/12، وتفسير الألوسى 96/6 ، وتفسير الرازي 28/7 ، وتفسير البقاعى 170/3 ، وتفسير الخازن 490/2 ، وتفسير السعدي 282 ، وتفسير الظلال 182/3 ، ابن عاشور 211/5 ، وتفسير طنطاوي 1579 ، وتفسير البيضاوي 229/2

لقد جاء إيراد هذه الآيات في معرض الرد على التشريعات الباطلة التي كان يشرعها المشركون ويزعمون نسبتها إلى إبراهيم عليه السلام ، فناسب ذكره هنا عقيب ذكر ادعاء مشركي قريش أنهم على ملة إبراهيم فيما يحرمونه على أنفسهم ويجعلونه للآلهة ، وما حرم الله على اليهود خاصة ، كما في قوله تعالى : { وَلَا تَقولوا لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذا حَلَالٌ وَهَذا حَرَامٌ لِتَفترُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ إِنَ الذِينَ يَفتَرُونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ لَا يُفلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل: 117- 118].

فإنه تعالى لما بين حال المشركين وأجرى ذكر اليهود بين طريقة إبراهيم عليه السلام ليظهر الفرق بين حاله وحال المشركين وحال اليهود ، وللإيذان بأحقية دين الإسلام وبطلان الشرك . وردا على قريش حيث يزعمون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام ، فالقضية هنا هو زعمهم بأنهم يستندون فيما يعتقدون ويشرعون إلى المصدر الإلهي حينما ينسبون أنفسهم إلى ملة إبراهيم ، إن مجرد ادعاء النسبة إلى الله تعالى فيما عليه الناس من معتقدات وشرائع ليس كافيا لشرعيتها ، وإنما لا بد من إثبات هذه النسبة إلى الله ، وأن تكون مطابقة لدينه الذي أنزله على رسله ، ولذلك فقد أبطل الله تعالى زعمهم ، ببيان حقيقة ما كان عليه إبراهيم عليه السلام من سلامة المعتقد واستقامة الطريق ، حيث عرج السياق بذكر إبراهيم يجلو حقيقة ديانته ، ويربط بينها وبين الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويبين ما اختص به اليهود من المحظورات التي لم تكن على عهد إبراهيم ، وبهذا ينتفي زعمهم ، ويثبت بطلان مذهبهم وفساده ، وهذ ما قرره تعالى في معرض ذكر إبراهيم عليه السلام ، من خلال ما يلي :

أولا. بيان صفات إبراهيم عليه السلام ، والتي تتنافى مع ما عليه المشركون من الفساد والضلال ، فهو عليه السلام نموذجا للهداية والطاعة والشكر والإنابة لله ، فقد وصفه الله تعالى بجملة من الصفات الفاضلة . والمناقب الحميدة ، لتكون كل صفة من هذه الصفات ردا حاسما وقاطعا على إدعاء المشركين وفساد مذهبهم :

الصفة الأولى : أنه كان أمة واللفظ يحتمل معنين :

الأول : إنه وحده يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة .

والثاني : إنه كان إماما يقتدى به في الخير. من أمّه إذا قصده أو اقتدى به فإن الناسَ كانوا يقصِدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى :{ إِنّي جاعلك لِلنّاسِ إِمَامًا }

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وفي كلا المعنين حجة على أهل الشرك ،

فعلى المعنى الأول : فإن أنفراده بالحق واهتداؤه إليه وهو واحد ، حجة عليهم في تجمعهم على الباطل ، وضلالهم وعدم اهتدائهم للحق على كثرتهم ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أي كان عنده عليه السلام من الخير ما كان عند أمة وهي الجماعة الكثيرة ، فإطلاقها عليه عليه السلام لاستجماعه كمالات لا تكاد توجد إلا متفرقة في أمة جمة : وليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد وقال مجاهد : سمي عليه السلام أمة لانفراده بالإيمان في وقته مدة ما ، وقوله عليه السلام لسارة : " ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك "[139] ، وقوله صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو بن نفيل : " يبعثه الله أمة واحدة "[140] ،

وعلى المعنى الثاني : فإن إبراهيم كما تقرر هو رئيسُ الموحدين وقدوة المحققين الذي نصب أدلة التوحيد ورفع أعلامها وخفض رايات الشرك وجزم ببواتر الحجج هامها ، وإيرادُ ذكره عليه السلام عَقيبَ تزييفِ مذاهبِ المشركين من الشرك والطعنِ في النبوة وتحريمِ ما أحله الله تعالى ، حجة عليهم للإقتداء به في توحيده وإسلامه ، وترك ما هم عليه من الشرك ، وهم يزعمون أنهم ينتسبون إليه وأنهم على دينه .

الصفة الثانية : كونه قانتا لله ، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع أى مطيعا لله ، خاضعا لأوامره ونواهيه ، قائماً بأمره تعالى مخلصا له الدين، وهذا فيه تعريض بالمشركين كونهم قائمين على الشرك ومخالفة أمره تعالى فيما يقضي ويشرع . وليلزمهم الحجة في الإقتداء بحاله .

الصفة الثالثة : كونه حنيفا وهو المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق { حَنِيفا } مقبلا على الله بالمحبة، والإنابة والعبودية معرضا عمن سواه. ليصير ذلك حاملاً لهؤلاء المشركين على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك .

الصفة الرابعة : بأنه منزه عن الإشراك بالله تعالى في قوله وعمله، وجميع أحواله. لأنه إمام الموحدين الحنفاء { وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين } في أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا ، صرح بذلك ردا على كفار قريش في قولهم : نحن على ملة أبينا إبراهيم ، وللرد على اليهود المشركين بقولهم : { عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ } [التوبة: 30]. في افترائهم وزعمهم أنه عليه السلام كان على ما هم عليه كقوله تعالى : { مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيًا وَلاَ نَصْرَانِيًا وَلَكِن كَانَ حَنِيفا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ المشركين } [

---

[139] - صحيح البخاري ، برقم : 2104

[140] - المستدرك على الصحيحين للحاكم ، برقم : 5851

آل عمران: 67]. ولما كانوا مشركين هم وكثير من أسلافهم ، قبح عليهم ذلك بأن أعظم من يعتقدون عظمته من آبائهم وهو إبراهيم ليس من ذلك القبيل .

الصفة الخامسة : معترفا بفضل الله عليه ، ومستعملا نعمه فيما خلقت له ، ومؤديا حقوق خالقه فيها . بالقول والعمل . للإيذان بأنه عليه السلام لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بأنه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بأنعم الله تعالى فهو ليس كهؤلاء المشركين الذين يجحدون نعمة الله قولا ، ويكفرونها عملا ، ويشركون في رزقه لهم ما يدعون من الشركاء ، ويحرمون نعمة الله عليهم اتباعا للأوهام والأهواء .هذا هو حال إبراهيم وهذه خصاله التي كان عليها وهي في حقيقتها حجة على أهل الشرك ورداً عليهم ، وخاصة أن الجميع ينتسبون إليه فكان في مخالفتهم له نقضاً لدعواهم بأنهم على دينه ، وكشفاً لباطلهم .

ثانياً. اصطفاء الله تعالى لإبراهيم بالرسالة ، وهدايته بالوحي ، ليكون إمام الموحدين الحنفاء ، وجامعا لخصال الخير هاديا مهتديا ، وليكون قدوة للحق وحجة على الباطل وعلى كل من خالفه . فإنه نتيجة لهذه الخصال الفاضلة التي تحلى بها إبراهيم { **اجْتَبَاهُ** } ربه واصطفاه للنبوة واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين . { **وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** } أى : وأرشده إلى الطريق القويم ، الذى دعا الصالحون ربهم أن يرشدهم إليه ، حيث قالوا فى تضرعهم : { اهدنا الصراط المستقيم } وهو الهداية إلى التوحيد ودين الحنيفية . وهو طريق الإسلام ، وليست نتيجة هذه الهداية كما في إرشاد العقل السليم بمجرد اهتدائه عليه السلام بل مع إرشاد الخلق أيضا إلى ذلك والدعوة إليه بمعونة قرينة الاجتباء . { **وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا حَسَنَةً** } أى : وجمعنا له خير الدنيا من كل ما يحتاج المؤمن إليه ليحيا حياة طيبة ، كهدايته إلى الدين الحق ، ومنحه نعمة النبوة ، وإعطائه الذرية الصالحة ، والسيرة الحسنة من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى إنه ليس من أهل دينٍ إلا وهم يتولّونه كما فى قوله : { واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الاخرين } فكان له لسان الصدق وإمامته لجميع الخلق ،وذلك آن كل آمة متشرعة فهي مقرة آن إيمانها إيمان إبراهيم وآنه قدوتها وأنه كان على الصواب . وقوله { لمن الصالحين } آي : من آصحابِ الدرجات العالية في الجنة.

ثالثاً. آمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بإتباع ملة إبراهيم ، مما يعني أن ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم موافقاً لملة إبراهيم ، ومخالفاً لما عليه المشركون وأهل الكتاب . فبعد أن ختم الله ذكر النعم التي منحها لإبراهيم ، يأمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملة إبراهيم ،

بقوله : { ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين } . فكان ذلك وصل ما انقطع من عقيدة التوحيد ، والمراد بملة إبراهيم : شريعته التي أمره الله باتباعها في عقيدته وعبادته ومعاملاته ، وهي شريعة الإسلام ، التي عبر عنها آنفا بالصراط المستقيم في قوله: { اجتباه وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }.

والمراد باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم له في ذلك : الاقتداء به في التوحيد وفي أصول الدين ، الثابتة في كل الشرائع ، لا الفروع الشرعية التي تختلف من شريعة إلى أخرى ، بحسب المصالح التي يريدها الله لعباده . فهو يشرع لهم ما تقتضيه مصالحهم من الأمر والنهي بنسخ أو بغيره مراعيا في تحقيقها اختلاف الزمان والمكان والأجناس أي : ثم أوحينا إليك بأن تتبع في عقيدتك وشريعتك { مِلَّة إِبْرَاهِيمَ حَنِيفا } أي : شريعته التي هي شريعة الإسلام . فهذا هو المصدر الحقيق بالاتباع ، فالاتباع هنا متعين بالأمر الصادر من صاحب الأمر المطاع . فهو الذي يوحي عن علم وخبرة بما فيه الخير والمصلحة؛ لأنه هو الذي يعلم حقيقة الإنسان والمنهج الذي يلائمه ،. لذلك فلا بد من رد الأمر إلى الله الذي يصرفه بعلمه وحكمته وخبرته ، وهذه هي القاعدة الثابتة المطمئنة التي يفيء إليها القلب؛ فيعرف عندها حدوده ، وينتهي إليها؛ ويدع ما وراءها لصاحب الأمر والتدبير ، في ثقة وفي طمأنينة وفي يقين .

رابعا. تقديم شاهد واقعي من شرائع اليهود ، ليجري مجرى الدليل على بطلان دعواهم .

فلما نفى سبحانه أن يكون إبراهيم عليه السلام من المشركين ردّا على مزاعم العرب المشركين أنهم على ملّة إبراهيم ، انتقل إلى إبطال زعمهم أن ملّة اليهودية هي ملّة إبراهيم ، في قوله تعالى : { إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [النحل: 124]. فهذه الآية مثل قوله تعالى: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [آل عمران: 65-66]، فذلك دالّ على أن هؤلاء الفرق الثلاث اختلفوا في إبراهيم ، فكل واحدة من هؤلاء تدّعِي أنها على ملته إلا أنه اقتصر في هذه الآية على إبطال مزاعم المشركين بأعظم دليل ، وهو أن دينهم الإشراك وإبراهيمُ عليه السلام كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . وعقب ذلك بإبطال مزاعم اليهود بأنهم على ملة إبراهيم ودينه العظيم ، إذ تعظيم السبت لم يكن من دين إبراهيم ، ومعلوم أن كل حكم

حدث بعده ليس من ملته، وموقع هذه الآية ينادي على أنها تضمّنت معنى يرتبط بملّة إبراهيم وبمجيء الإسلام على أساسها . قال تعالى: { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } [النحل: 68]. إن أمر إيراد التحريم والتحليل ينتظم بعقيدة التوحيد وانتفاء ما يناقضه من الشرك . فقضية التوحيد وما ينبثق عنها من حقائق ومنها حقيقة علمه تعالى بما ينفع الإنسان ويصلحه تقضي لزوما أن يكون أمر التحليل والتحريم لله تعالى وحده ، وليس لأحد سواه أن يدعي لنفسه هذا الحق أو يمارسه ، ثم يدعي أنه على الإيمان ، فإن من أولى خصائص الألوهية هو التحليل والتحريم .

وهذا ما جاءت تؤكده هذه الايات في معرض ذكر إبراهيم عليه السلام حيث وردت وسط آيات التشريع ، واستنكار الله تعالى على المشركين ممارستهم أمر التحليل والتحريم من دون إذنه تعالى، ثم تعليلهم كذبا وافتراء بأنها من عند الله ونسبتها إلى إبراهيم. فجاء الرد عليهم في نفي الشرك عن إبراهيم ونفي نسبة شريعتهم إليه ، وذلك أن إبراهيم كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين بالله تعالى ، وهذا يقتضي أن لا يقبل حكما ولا شرعا ، غير حكم الله وشرعه تعالى ، فكانت هذه الأدلة قاطعة في بطلان معتقدهم وفساد شرائعهم التي لا تستند إلى دليل شرعي ولا عقلي ، وإنما هو إتباع الظن والهوى ، الذي لا يوصل إلى طريق الهدى بل إلى التيه والضلال [141] .

ـــ قال تعالى : { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم: 23].

4- قال تعالى: { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [آل عمران: 83-85].

لقد سبق ذكر هذه الآيات الرد على على أهل الكتاب من نصارى نجران يذكرهم بما أخذ الله على النبيين وأممهم من ميثاق أنه متى جاءهم رسول مصدق لما معهم من النور والهدى ليؤمننّ به

---

[141]- راجع : تفسير الرازي 484/9 ، وتفسير الألوسي 332/10، وتفسير البقاعي 11/5، وتفسير السعدي 451 ، وتفسير طنطاوي 2580، وتفسير ابي السعود 161/4، وتفسير الظلال 491/4، وتفسير ابن عاشور 154/8

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولينصرنه على أعدائه ، فأخذ عليهم موثقاً رهيباً جليلاً كان هو شاهده وأشهد عليه رسله ، فقال تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [آل عمران: 81-82]. وقد نقض هذا الميثاق كلٌ من اليهود والنصارى ، إذ لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به وقد أخذ عليهم الميثاق بالإيمان به وبنصره ، فكفروا به وخذلوه ، فكانوا بذلك الفاسقين المستوجبين لعذاب الله.

فجاءت هذه الآيات في حجاج أهل الكتاب في وجوب اتباع دين الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، تصحيحا لمعتقداتهم المحرفة ونسخا لشرائعهم ، **وقد تضمن الرد عليهم بما يلي :**

1. **الإنكار على مَنْ يَعْرِض عن دين الله الإسلام** . مع أن الكون كله خاضع منقاد لأمر الله ومجاري أقداره مسلم له . أنه تعالى إنما ذكر حكاية أخذ الميثاق حتى يبين أن اليهود والنصارى يلزمهم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما أصروا على كفرهم قال على جهة الاستنكار والتوبيخ :{ أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُون وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعا وَكَرْها وَإِلَيْهِ يُرْجَعُون } والمعنى : أيتولون عن الإيمان بعد هذا البيان فيبغون دينا غير دين الله الذى هو الإسلام ، والحال أن كل من فى السموات والأرض قد انقادوا وخضعوا لله تعالى ، إما عن طواعية واختيار وإما عن تسخير وقهر ، فظاهر أن إسلام الكائنات الكونية هو إسلام الخضوع للأمر ، واتباع النظام ، وطاعة الناموس . وأما البشر المكلفون فالمسلمون ينقادون لله طوعا فيما يتعلق بالدين ، وراضون بقضائه وقدره فى كل الأحوال ، ومستجيبون له فى المنشط والمكره والعسر واليسر ، وأما الكافرون فهم مع كفرهم وعدم انقيادهم لدين الله لا يستطيعون دفع قضائه تعالى ، لأنهم واقعون تحت سلطانه العظيم وقدرته النافذة، وإنه لا سبيل لأحد إلى الامتناع عليه في مراده تعالى . ثم يحذرهم سبحانه من الإعراض عن دينه ، لأنه ما دام مرجع الخلق جميعا إليه فعلى العاقل أن يسلم نفسه إلى خالقه اختيارا قبل أن يسلمها اضطرارا ، وأن يستجيب لأوامره ونواهيه ، حتى ينال رضاه .

2. **اعلان النبي صلى الله عليه السلام ومن تبعه الإيمان بالله تعالى وما أنزل على رسله ، والإستسلام لأمره تعالى** . ولما كانت هذه الأمة المسلمة هي الأمة المدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله ، وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه ، وحقيقة الموكب الذي حمل هذا المنهج وبلغه ، فإن الله

يأمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يعلن إيمانه هو وأمته بجميع الرسالات ، واحترامهم لجميع الرسل :{ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم }. هذا هو الإسلام في توحيده لدين الله كله ، وشموله لكل الرسالات وولائه لكافة الرسل ، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد ، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده ثم التعقيب على هذا الإيمان بقوله : { ونحن له مسلمون } أي : نحن خاضعون له وحده بالطاعة وإخلاص العبودية ، ومستجيبون له فى كل ما أمرنا به وما نهانا عنه . لا لغيره كائنا من كان هذا الغير . فهذا الإقرار بالإسلام له مغزاه . بعد بيان أن الإسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس . ومن ثم تتجلى عناية الله تعالى ببيان معنى الإسلام وحقيقته في كل مناسبة . كي لا يتسرب إلى ذهن أحد أنه كلمة تقال باللسان ، أو تصديق يستقر في القلب ، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله ، وتحقيق هذا المنهج في واقع الحياة .

وحاصل المعنى : { قل } يا محمد لأهل الكتاب الذين جادلوك بالباطل وجحدوا الحق مع علمهم به ، قل لهم ولغيرهم : آمنت أنا وأتباعى بالله ووحدانيته ، واستجبنا له فى كل ما أمرنا به أو نهانا عنه . وآمنا كذلك بما أنزل علينا من قرآن يهدى إلى الرشد ، وآمنا أيضاً بما أنزله من وحى على رسله ، وآمنا أيضاً بما آتاه الله لموسى وعيسى من التوراة والإنجيل وغيرهما من المعجزات ، وبما آتاه لسائر أنبيائه من وحى وآيات تدل على صدقهم . وفي قوله : { آمنا } تنبيهاً على أن هذا التكليف ليس من خواصه بل هو لازم لكل المؤمنين كما قال : { والمؤمنون كُلٌّ ءامَنَ بالله وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رُّسُلِهِ } [البقرة: 285]. وإنما أوجب الله تعالى الإقرار بنبوّة كل الأنبياء عليهم السلام لفوائد إحداها : إثبات كونه عليه السلام مصدقاً لجميع الأنبياء ، لأن هذا الشرط كان معتبراً في أخذ الميثاق وثانيها : التنبيه على أن مذاهب أهل الكتاب متناقضة ، وذلك لأنهم إنما يصدقون النبي الذي يصدقونه لمكان ظهور المعجزة عليه ، وهذا يقتضي أن كل من ظهرت المعجزة عليه كان نبيا ، وعلى هذا يكون تخصيص البعض بالتصديق والبعض بالتكذيب متناقضا ، بل الحق تصديق الكل والاعتراف بنبوّة الكل وثالثها : إنه قال قبل هذه الآية { أفغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُون وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السموات والأرض } وهذا تنبيه على أن إصرارهم على تكذيب بعض الأنبياء إعراض عن دين الله ومنازعة مع الله ، فههنا أظهر عليه الصلاة والسلام الإيمان بنبوّة جميع الأنبياء ، مخالفاً هو وأمته ، ما وصف به أهل الكتاب من منازعة الله في الحكم والتكليف . فكأن قولهم:{ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } تعليل لما قبله أي : إن إقرارنا بنبوّة هؤلاء الأنبياء إنما كان لأجل كوننا

منقادين لله تعالى مستسلمين لحكمه وأمره . وفيه تعريض بأهل الكتاب لنقضهم العهد والميثاق لعدم إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وشريعته .

3.لا يصح الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض، كما لا يصح ايمان ببعض ما أنزل الله تعالى على رسله والكفر ببعض . فالله تعالى يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبر عن نفسه وعمن معه بأنهم آمنوا بالله وبكتبه وبرسله جميعا بدون تفرقة بينهم ، لأنها شرائع الله التى أنزلها على أنبيائه ، كلها مرتبط بعضها ببعض ، وكلها تتفق على كلمة واحدة هى إفراد الله بالعبودية والطاعة وقوله : { لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ } بيان لثمرة الإيمان الحق الذى رسخ فى قلوب المؤمنين ، لأن هذا الإيمان الحق جعلهم يصدقون بأن رسل الله جميعا قد أرسلهم سبحانه بالدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، وإذا وجد تفاضل أو اختلاف فهذا التفاضل والاختلاف يكون فى أمور أخرى سوى الإيمان بالله وإفراده بالعبودية ، سوى ما اتفقت عليه الشرائع جميعها من الدعوة إلى الحق وإلى مكارم الأخلاق . وقد جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة للرسالات ، وجامعة لكل ما فيها من محاسن ، فوجب الإيمان بها ، وإلا كان الكفر بها كفرا بجميع الرسالات السابقة عليها .

4. بطلان سائر الأديان والملل سوى الدين الإسلامى وملة محمد صلى الله عليه وسلم: { ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين } . إن دين الإسلام الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده كما في قوله تعالى : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة: 3]. ولأنه هو الدين الذى ختم الله به الديانات ، وجمع فيه محاسنها . وإنه لا سبيل مع هذا الحسم والوضوح لتأويل حقيقة الإسلام ، ولا لِلَيِّ النصوص وتحريفها عن مواضعها لتعريف الإسلام بغير ما عرفه به الله ، الإسلام الذي يدين به الكون كله . في صورة خضوع للنظام الذي قرره الله له ودبره به . ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين ، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها . وهي توحيد الألوهية وتوحيد القوامة . ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه . ودون أن يتبع شهادة أن محمدا رسول الله معناها وحقيقتها . وهي التقيد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة ، واتباع الشريعة التي أرسله بها ، والتحاكم إلى الكتاب الذي حمله إلى العباد . ولن يكون الإسلام إذن تصديقا بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله . دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملي وحقيقته الواقعية . ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات ، أو إشراقات وسبحات ، أو تهذيبا خلقيا وإرشادا روحيا . . دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج

للحياة موصول بالله الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر ، والإشراقات والسبحات ، والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد . فإن هذا كله يبقى معطلاً لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصب اثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في إطاره النظيف الوضيء .

هذا هو الإسلام كما يريده الله؛ ولا عبرة بالإسلام كما تريده أهواء البشر في جيل منكود من آجيال الناس! ولا كما تصوره رغائب أعدائه المتربصين به ، وعملائهم هنا أو هناك! فأما الذين لا يقبلون الإسلام على النحو الذي أراده الله ، بعدما عرفوا حقيقته ، ثم لم تقبلها أهواؤهم ، فهم في الآخرة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بحرمانهم من ثواب الله ، واستحقاقهم لعقابه جزاء ما قدمت أيديهم من كفر وضلال . وفي هذا تأييس لأهل الكتاب من النجاة في الآخرة ، وردّ لزعمهم أنهم على ملة إبراهيم ، وأنهم ناجون على كل حال .

وبعد أن عظم سبحانه شأن الإسلام ، وبين أنه هو الدين المقبول عنده ، أتبع ذلك ببيان أن سنته جرت فى خلقه بأن يزيد الذين اهتدوا هدى ، أما الجاحدون للحق عن علم ، والمتبعون لأهوائهم وشهواتهم ، فلن يهديهم الله ، ولن يعفيهم من العذاب ، قال تعالى : { كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ } [آل عمران: 86]. لقد جاءت هذه الآيات لتبطل إدعاءات أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فقد كانت كل واحدة منهم تدعي أنها هي وحدها المهتدية؛ وأن الله لا يرضى إلا عنها ، وأن جميع الأديان باطلة وجميع الأمم ضالة عداها .

فكان الرد القرآني عليهم حاسما وقاطعا حيث قرر أن الدين الحق الذي لا يقبل الله دينا غيره هو الإسلام ، وهو دين الأنبياء جميعا ، من حيث الأصول الثابتة في كل الشرائع ، وأما الفروع الشرعية التى تختلف من شريعة إلى أخرى فقد جاءت شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ناسخة لكل الشرائع السماوية المنزلة من عند الله تعالى ، فإن الإسلام منهج . وهو منهج ذو خصائص متميزة : من ناحية التصور الاعتقادي ، ومن ناحية الشريعة المنظمة لارتباطات الحياة كلها . ومن ناحية القواعد الأخلاقية ، التي تقوم عليها هذه الارتباطات ، ولا تفارقها ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية .

وهو منهج جاء لخير البشرية ولتحكيمه في واقع حياتهم ، والبشرية بمجموعها تعاني من النظم والمناهج التي انتهت إليها ما تعاني . وليس هناك منقذ إلا هذا المنهج الإلهي ، المتمثل بالإسلام الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وهو وحده الدين المقبول عند الله ، وإن كل الاديان سوى الإسلام باطلة ، وكل من جاء الله يوم القيامة بدين غيره فهو في خسران مبين .

فعلى العاقل الذي يرجو الفوز والفلاح أن يبتغي الإسلام له ديناً ولا يرضى دينا غيره ولا شريعة سواه ، لأنه دين الله الذي إختاره وارتضاه لعباده، وهو وحده الذي يحقق نفعهم وصلاحهم لأنه دين صادر من رب الإنسان وخالقه والعالم به، وإن العدول عن دين الله إلى غيره من الأديان والشرائع هو عدول عن منطق العقل والعدل، وإتباع للظن والهوى، وهي تبعة خطيرة على مصير الإنسان في الدنيا والاخرة [142].

وقد استدل إبراهيم عليه السلام بعلم الله تعالى بما يصلح الإنسان وينفعه على تفرده بالألوهية واستحقاقه للعبودية ، فإن مقتضى العقل والشرع أن يكون الله وحده هو مصدر التلقي لكل الشرائع والقوانين ، ليشمل سلطانه في كل مجالات الحياة الإنسانية ، لأن هذا هو مقتضى الإيمان بالله تعالى ، وسوف نستعرض استدلال إبراهيم عليه السلام بعلمه تعالى بالإنسان بما ينفعه ويصلحه ، على تفرد ألوهيته وعلى لوازمها التعبدية ، وذلك على النحو الآتي :

*** الشاهد الأول :**

*** قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الزخرف: 26-28].**

*** وقال تعالى : { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء: 75-78].**

*** وقال تعالى : { فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الصافات: 98-99].**

*** وقال تعالى : { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } [الأعلى: 1-3].**

---

[142]- راجع : تفسير الرازي 4/283-285 ، وتفسير ابن عاشور 3/147 ، وتفسير الظلال 1/ 396 ، 408 ، وتفسير طنطاوي 662 ، أيسر التفاسير : 1/181 ، وتفسير الألوسي 3/112

إن حقيقة الهداية هي الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المقصود . ولذلك اختصت بالخير ، والهداية في اصطلاح الشرع حين تسند إلى الله تعالى هي الدلالة على ما يرضي الله من فعل الخير ويقابلها الضلالة . وهذا النوع من الهداية لا يحصل إلا من الله تعالى وحده . قال تعالى : { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون } [الأعراف: 178]. فطريق الهداية الكاملة هو ما جاء من عند الله تعالى عن طريق رسله عليهم السلام من التعاليم والأحكام المتضمنة لمصالح العباد ، وهي دليل على أنها من ربّ حكيم عليم بمصالح خلقه ، قال تعالى : { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ } [المائدة: 3]. لذلك فالهداية لا يرجى فيها إلا الله وحده ، وفي الحديث القدسي " يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم "[143]. فكل أحد مضطر إلى هداية ربه في جميع أحواله ، بأن يسدده في أخلاقه وأقواله وأفعاله ، سواء كان ذلك هداية في المنافع الدنيوية ، وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز المنافع عن المضار أو في المنافع الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر .

فبين إبراهيم عليه السلام بذلك أنه سبحانه هو الذي خلقه بسائر ما تكامل به خلقه في الماضي دفعة واحدة ، وأنه يهديه إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة . وقبل أن نحدد نوع الهداية التي كان يقصدها إبراهيم عليه السلام سوف نطلع على أنواع الهداية ، وهي على كثرتها تندرج تحت أربعة أجناس مترتبة وهي :

الأولى : الاهتداء الفطري إلى انتظام وجود ذات الإنسان ، وتبتدىء من إلهام الصبي التقام الثدي والبكاء عند الألم إلى غاية الوجدانيّات التي بها يدفع عن نفسه : كإدراك هول المهلكات وبشاعة المنافرات ، ويجلب مصالحه الوجودية : كطلب الطعام والماء ، ونهايتها أحوال الفكر وهو حركة النفس في المعقولات أعني ملاحظة المعقول لتحصيل المجهول في البديهيات وهي القوة الناطقة التي انفرد بها الإنسان المنتزعة من العلوم المحسوسة . وهي هداية العلوم الضرورية .

الثانية : نصب الأدلة الفارقة بين الحق والباطل والصواب والخطأ ، وهي هداية العلوم النظرية .

الثالثة : الهداية إلى ما قد تقصُر عنه الأدلة أو يفضي إعمالها في مثله إلى مشقة وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب وموازين القسط وإليها الإشارة بقوله تعالى في شأن الرسل : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } [الأنبياء: 73]. وقوله تعالى في صفة الكتب : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ } [الشورى: 52]. وهذه هي هداية الوحي

143- رواه مسلم في صحيحه برقم (2577)

الإلهي . كقوله تعالى : { وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى } [الضحى: 7]. أي : ووجدك غافلاً عن الشرائع التي لا تهتدي إليها العقول ، كما في قوله تعالى : { مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب } [الشورى: 52] وقوله سبحانه : { وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين } [يوسف: 3]. فهداك إلى مناهجها في تضاعيف ما أوحى إليك من الكتاب المبين وعلمك ما لم تكن تعلم .

الرابعة : أقصى أجناس الهداية وهي كشف الحقائق العُليا وإظهار أسرار المعاني التي حارت فيها ألباب العقلاء إما بواسطة الوحي والإلهام الصحيح أو التجليات ، وقد سمى الله تعالى هذا هدى حين أضافه للأنبياء فقال : { أولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ } [الأنعام: 90].

فإذا عرفنا أنواع الهداية ، فيمكن تحديد نوع الهداية التي كان يطلبها إبراهيم عليه السلام وهي هداية الوحي الذي كان موصولاً به ليكشف له مراد الله ويرسم له طريق السلوك أثناء سيره إليه ، ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الأدلة وإزاحة الأعذار ، لأن كل ذلك قد حصل في الزمان الماضي ،كما في قوله تعالى : { قال أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ } [الأنعام: 80]. وقوله تعالى : { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } [مريم: 43]. ويبعد أيضاً حمله على الهداية في الدين ، لأنه كان على الدين في ذلك الوقت كما في قوله تعالى : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة: 131]. فوجب حمل الهداية على الزيادة في الهدى ، وهو تلقي أوامر الله من تعاليم الشريعة وإقامة الدين ، فهو ما زال موصولاً بالوحي غير منقطع عنه. كما في قوله تعالى : { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا } [البقرة: 128]. وقوله تعالى : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } [الحج: 26-27]. وهي تتضمن كذلك هداية الثبات عليه ، وهداية التوفيق والمعونة لتحقيق المطلوب وبلوغ الهدف ، ويحمل كذلك على الاهتداء إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في أمر الدين ، كقوله تعالى : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قال إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } [البقرة: 124]. وقوله تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّة إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 125]. والمراد منها طلب الحصول بالمزيد مع طلب الدوام بطريقة الالتزام ولا محالة أن المقصود هو طلب الهداية الكاملة . والناظر في استدلال إبراهيم عليه السلام على ألوهيته تعالى بعلمه

بما ينفع الإنسان ويصلحه ، من خلال هدايته تعالى إلى ما فيه خيره في الدنيا والآخرة ، يلاحظ أنه قد ربط الهداية بأمرين هما :

1. ربط الهداية بالخلق .

ووجه الإستدلال أن من خلق أعلم بخلقه وهو من يملك أن يضع لهم المنهج الذي يحقق منفعتهم ومصلحتهم لقوله تعالى : { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الملك: 14]. وذلك أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه فقد ظهر أن صلاح الحال في هذه الأشياء لا يتم إلا بالخلق والهداية . أما الخلق فبتصييره موجوداً بعد أن كان معدوماً ، وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة للمنافع والدفاعة للمضار فثبت أن قوله : { خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ } كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع في الدنيا والدين . وكما هو ظاهر فإن الاستدلال بالخلق والهداية هي طريقة معتمدة عند إبراهيم عليه السلام ، وهي أيضاً طريقة الأنبياء عليهم السلام ، كما في جواب موسى عليه السلام لفرعون حينما سأله : { قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } [طه: 49-50]. وكما أنزل على محمد عليه السلام في قوله : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } [العلق: 1-2] هذا إشارة إلى الخلق ، ثم قال : { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } [العلق: 3 -4]. وهذا إشارة إلى الهداية ، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في سورة الأعلى في قوله:{ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قدَّرَ فهدى } . ثم بين في آخرها بقوله : { إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى: 18-19]. تأكيد على إعتبار هذه الطريقة الاستدلالية عند الأنبياء عليهم السلام ، لأن مشاهدة الإنسان لها أكثر ، واطلاعه عليها أتم ، لذلك كانت أقوى في الدلالة . ويمكن معرفة ارتباط الهداية بالخلق من قوله تعالى : " أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ " وهو أن الوجود يقوم على الخلق والأمر فالخلق هو إيجاد المخلوق بعد أن كان معدوماً ، والأمر هو النظام الذي وضعه الله لهذا المخلوق ويستجيب له إما طوعا أو كرها [144]، أي أن الأمر الإلهي بالنسبة للمخلوقات كلها ينقسم إلى قسمين هما :

ـــ الأمر الكوني القدري .

ـــ والأمر االشرعي التكليفي .

---

144 ـ لقد أدى عدم التفريق بين الخلق والأمر إلى إشكالية عقدية عند المعتزلة بقولهم : أن القرآن مخلوق ، فلو أدركوا الفرق بينهما . لعلموا أن القرآن من الأمر وليس من الخلق ، فعدم تفريقهم بينهما أوقعهم بهذا المنزلق الخطير .

وكل من الأمرين القدري والشرعي يتطلب الهداية من الله تعالى ، وعليه فتكون الهداية بالنسبة لأمر الله تعالى هما نوعين من الهداية وكل نوع من الهداية لها مقتضياتها التعبدية التي تناسبها ، وهما :

أولاً. هداية قدرية . وهي الهداية الفطرية التسخيرية المفروضة على الخلق بنظام الوجود ، قال تعالى : { وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ } [الرعد: 15]. ومن مظاهر تقدير الله وهدايته ، قوله تعالى : { الذي خَلَقَ فسوى . والذي قَدَّرَ فهدى } أى : الذى خلق كل شئ فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذى يناسبه ، والذى قدر لكل مخلوق وظيفته وطريقته وغايته ، فهداه إلى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه . وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة فى كل شئ فى هذا الوجود ، ويشهد بها كل شئ فى رحاب هذا الكون ، من الكبير إلى الصغير . من الأجرام السماوية الضخمة ، كما في قوله تعالى : { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس: 38-40]. إلى عالم الحشرات الصغير كما في قوله تعالى : { وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [النحل: 68-69]. فالنحلة تهتدى إلى خليتها ، مهما طمست الريح كل دليل يرى فى هبوبها على الأعشاب والأشجار . فلو تتبعت أحوال النباتات والحيوانات لرأيت في كل منها ما تحار فيه العقول وتضيق عنه دفاتر النقول وأما من عظيم هداياته سبحانه وتعالى للإنسان على الخصوص ففوق ذلك بمراحل لا يكاد يعلمها إلا اللطيف الخبير

أتزعم إنك جرم صغير . . . وفيك انطوى العالم الأكبر .

فالخلق لا بد له من التسوية ليحصل الاعتدال ، والتقدير لا بد له من الهداية ليحصل الكمال . فقد جعل الله الأشياء على مقادير مخصوصة فى أجناسها ، وفى أنواعها ، وفى أفرادها . وفى صفاتها وأفعالها . . وهدى كل مخلوق إلى ما ينبغى له طبعا واختيارا ، ووجهه إلى الوظيفة التى خلقه من أجلها ، بأن أوجد فيه العقل والميول والإلهامات والغرائز والدوافع التى تعينه على أداء تلك الوظيفة . وهناك رصيد كبير من الملاحظات تشير إلى تلك الحقيقة الشاملة لكل ما في الوجود . فالكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة . وهذه الحقيقة يدركها القلب البشري جملة حين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يتلقى إيقاعات هذا الوجود؛ وحين يتدبر الأشياء في رحابه بحس مفتوح . وهذه الحقيقة لها مقتضياتها التعبدية من الحمد والشكر والثناء على الله تعالى ، قال تعالى : { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } [إبراهيم: 39]. وقال تعالى : { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الجاثية: 12]. وكذلك الرضى والقبول بقدره تعالى لأنه يصدر عن علمه المطلق وحكمته البالغة التي لا يحيط بها المخلوق المحدود ، قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 30]. وقال تعالى : { وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [الذاريات: 28-30].

ثانياً. هداية شرعية : وهي هداية الله تعالى عباده إلى شرعه ودينه الذي ارتضاه وأراده لهم ، كما في قوله تعالى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [الشورى: 13]. واستدل إبراهيم على قصر الهداية من عند الله تعالى وحده كونه الخالق العليم بخلقه ، حيث ربط الخلق بالهداية قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ }. وقال تعالى : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } . أي : الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم؛ فهو أعلم بماهيتي وتكويني ، ووظائفي ومشاعري ، وحالي ومآلي : { فهو يهدين } إليه ، وإلى طريقي الذي أسلكه ، وإلى نهجي الذي أسير عليه . وكأنما يحس إبراهيم عليه السلام أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع ، يصوغها كيف شاء ، على أي صورة أراد . إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين .

والمعنى أن من خلق شيئاً لا بد وأن يكون عالماً بمخلوقه ، وهذه المقدمة كما أنها مقررة بهذا النص فهي أيضاً مقررة بالدلائل العقلية ، وإن المقتضى التعبدي لهذه الحقيقة ، هوالاستجابة لأمر الله تعالى وطاعته والقيام به على وجه الرضى والتسليم ، لقوله تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: 65]. وقال تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب: 36].

وقد استدل إبراهيم بعلمه تعالى بما يصلح الإنسان وينفعه فيما يشرع ويقدر على نوعي الهداية القدرية والشرعية ، لأنه تعالى هو الذي خلق وهو أعلم بمن خلق وبما يصلح خلقه ، فمن حقق له الخير والنفع في نظامه الكوني الفطري والمفروض عليه بالقهر والتسخير هو وحده من يملك أن يضع له نظامه الشرعي التكليفي والمطلوب منه بالإرادة والإختيار ، بما يحقق له الخير والصلاح في حياته كلها .

وقد استدل سبحانه بانتظام العالم وصلاحه وعدم فساده على ألوهيته ، كما في قوله تعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنبياء: 22]. فإن مقتضى صلاح العالم وانتظامه بالإرادة الكونية كونه يجري وفق مقتضى علمه وقدرته ومشيئته تعالى ، يوجب انتظام البشر بالإرادة الشرعية ، بطاعة أوامر الله تعالى الذي فيه صلاح معاشهم وحياقم ، قال تعالى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف: 96]. فإن الخير والصلاح في إتباع منهج الله وطاعة أمره تعالى ، وإن الشر والفساد في مخالفة منهجه ورفض دينه ، يقول تعالى : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم: 41]. فليس من منطق العقل والإنصاف أن يستنكف الإنسان عن الهداية الشرعية ، الصادرة من خالقه الخبير به والعليم بما يصلحه ، في حين أنه خاضع للهداية القدرية بالتسخير الفطري وقد ثبت له فيها المصلحة من كل الوجوه ، ومعلوم أن كل من الهداية الشرعية والقدرية يصدران من مشكاة واحدة ، وهو خالق الإنسان والخبير به والعليم بما يصلحه وينفعه ، قال تعالى : { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } [آل عمران: 83]. وقال تعالى مبيناً استنكار الهدهد وهو من العجماوات من اشراك البشر بالله وهو رازقهم والعليم بهم وباحوالهم: { أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [النمل: 25].

2. ربط الهداية بالمفاصلة العقدية من البراءة والهجرة .

ووجه الاستدلال أن الإنسان ليس في غنى عن هداية الله له في حياته كلها وأن تحصيلها له أسبابه ودوامها له أسبابه ، ومن أسباب دوامها المجاهدة في سبيل الله تعالى ،كما في قوله تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } [العنكبوت: 69] قال السدي وغيره : نزلت هذه الآية قبل فرض القتال ، إذ لم يكن يومئذ جهاد القتال ، وقال الضحاك : معنى الآية { والذين جاهدوا } في

الهجرة، وهم الذين هاجروا في سبيل اللّه، وجاهدوا أعداءهم، وبذلوا مجهودهم في اتباع مرضاته{ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } إيماء إلى تيسير طريق الهجرة التي كانوا يتأهبون لها أيام نزول هذه السورة ، والهداية : الإرشاد والتوفيق بالتيسير القلبي والإرشاد الشرعي ، أي لنزيدنهم هُدى إلى سبل العقائد النيرة والثبوت على الإيمان ، من إصلاح النية في الأعمال وحب التزيد والتفهيم ، وهذا هو أن يجازى العبد على حسنة بازدياد حسنة وبعلم يقتدح من علم متقدم وهي حال من رضي الله عنه ، والسبل » ها هنا سبل الأعمال الموصلة إلى رضاه وثوابه المؤدية إلى طرق الجنة ومسالكها . فالمجاهد للأعداء يفتقر إلى ناصر ومعين ، فناسب تذييل الآية بالتوكيد محلى باسم الذات ليؤذن بأن من جاهد بكليته في ذاته تعالى تجلى له في صفة النصرة والإعانة والهداية تجلياً تاماً ، ودل هذا، على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه اللّه ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم .

وإن المتدبر البصير في استدلالات إبراهيم عليه السلام في الهداية يلاحظ أن الهداية التي يرجوها عليه السلام من ربه جاءت عقيب المفاصلة العقدية مع قومه من البراءة وإعلان العداوة، والعزلة وإعلان الهجرة ، وهذا فيه دلالة واضحة على إن التخلي قبل التحلي ، فلا بد من ترك الضلال لتلقي هدى الإيمان ، فالهداية لها أسبابها وهي لا تتحقق إلا بالمفاصلة العقدية للكفر، وإلا فهو الضلال والخذلان ، والتيه والحرمان ، لأنه بدون هذه الفواصل العقدية فإنه يؤدي إلى تميع هذا الدين ، فأمر العقيدة لا رخاوة فيه ولا تميع ، ولا يقبل أنصاف الحلول ولا الهزل، وليس معنى هذا هو التشدد والتعنت والتعقيد ! فهذا ليس من طبيعة دين الله . ولكن معناه الجد والهمة والحسم والوضوح . وإن تميز المسلم بعقيدته في المجتمع الجاهلي ، لا بد ان يتبعه حتماً تميزه بتجمعه الإسلامي وقيادته وولائه ، وليس في ذلك اختيار ، إنما هي حتمية من حتميات التركيب العضوي للمجتمعات ، هذا التركيب الذي يجعل التجمع الجاهلي حساساً بالنسبة لدعوة الإسلام القائمة على قاعدة عبودية الناس لله وحده؛ وتنحية الأرباب الزائفة عن مراكز القيادة والسلطان . كما يجعل كل عضو مسلم يتميع في الجاهلية خادماً للتجمع الجاهلي لا خادماً لإسلامه كما يظن ممن لا يدركون حقيقة الإسلام ، ولا حقيقة التركيب العضوي للمجتمعات ، ويبرروا اندماجهم في ملتهم بحجة مزاولة الدعوة ، وخدمة العقيدة والدين من خلالهم .

ولذلك نجد أن الرسل الكرام لم يقبلوا أن يندمجوا في التجمع الجاهلي ، ولا أن يذوبوا فيه ، ولا أن يفقدوا شخصية تجمعهم الخاص . وهذا التجمع الذي يقوم على قاعدة أخرى غير القاعدة التي يقوم عليها التجمع الجاهلي الذي لا يقبل من الرسل والذين آمنوا معهم ، أن يتميزوا وينفصلوا بعقيدهم وبقيادهم وبتجمعهم الخاص . إنما يطلبون إليهم أن يعودوا في ملتهم ، ويندمجوا في تجمعهم ، ويذوبوا في هذا التجمع . أو أن يطردوهم بعيداً وينفوهم من أرضهم ، كما في قوله تعالى : { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } [الأعراف: 88-89].

وهذا هو حال كل الرسل في مواجهة كفر وضلال أقوامهم بما هداهم الله إليه من الحق ، كما في قوله تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ } [إبراهيم: 13-14]. ثم تبقى الحقيقة القدرية ، وهي أن تحقيق وعد الله لأوليائه بالنصر والتمكين؛ والفصل بينهم وبين قومهم بالحق ، لا يقع ولا يكون ، إلا بعد تميز أصحاب الدعوة ومفاصلتهم لقومهم على الحق الذي معهم ، فذلك الفصل من الله لا يقع وأصحاب الدعوة متميعون في المجتمع الجاهلي ، ذائبون في أوضاعه عاملون في تشكيلاته . وكل فترة تميع على هذا النحو هي فترة تأخير وتأجيل لوعد الله بالنصر والتمكين . وهي تبعة ضخمة هائلة يجب أن يتدبرها أصحاب الدعوة إلى الله ، ويقتدوا بإبراهيم عليه السلام في مواقفه الإيمانية الذي قدم للأجيال من بعده دروساً في عقيدة التوحيد ، وفي البراء والولاء . قال تعالى : { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } [مريم: 48-50].

وهذا الدرس العقائدي الإيماني تجده واضحا في سيرة الأنبياء والمرسلين ، حيث كان طلب الهداية يأتي عقيب البراءة من الشرك وأهله ، والهجرة من دار الكفر إلى دار أخرى يتمكنوا فيها من إقامة دين الله ، وذلك لأن هذه المفارقة تشمل مفارقة المجتمع الجاهلي بكيانه المادي أولاً . ومفارقة القيم القائمة والنظم الفاسدة فيه ثانياً ، فكان طرح المنهج البديل هو الوضع المناسب الذي تقتضيه هذه

الحالة من المفارقة المادية والمعنوية ، أما البديل للمفارقة للقوى المادية فهى المعية الإلهية وأما البديل للمفارقة للنظم والقيم المعنوية فهى الهداية الربانية ، والمدقق يلاحظ هذا المعنى في إعلان إبراهيم لقومه بالهجرة إلى الله من خلال تذييل الآية ، في قوله تعالى : { فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [العنكبوت: 26]. فقوله : { العزيز الحكيم } واقعة موقع التعليل لمضمون :{ إنى مهاجر إلى ربى } وهذا التذييل جاء مطابقاً للمفارقة المادية والعقدية لقومه ، أما المفارقة للقوى المادية لتجمعهم الجاهلي وكيانهم الإجتماعى ، فناسب قوله : { العزيز } . وهو الذي له القوة فلا يغلب ، أي : والذي يَمْنَعُنِي مِمَّا يُرِيدُهُ بِي أَعدَائي عن إيذائي بعونه وقوته ، لأن من كان عزيزاً يعتز به جاره ونزيله ، وأما المفاصلة لمعتقداتهم وشرائعهم الباطلة فناسب قوله : { الحكيم } وَهُوَ الحَكِيمُ فِي شَرْعِهِ وَتَدْبيرِهِ ، أي : فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي ونفعي . لأنه تعالى لا يفعل فعلاً ولا يأمر أمراً إلا بما يوافق الحكمة وفيه مصلحة . وقد جمعهما موسى عليه السلام بصورة واضحة عند خروجه من مصر هارباً بدينه هو ومن معه من سطوة فرعون وجنوده ، فقال رداً على أصحابه ، في قوله تعالى : { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء: 62-63].

فقد ناسب حاله من مفارقة الوطن والمفاصلة في الدين ذكر المعية والهداية ، لأن المعية الإلهية هى البديل بعد تلك المفارقة لمجتمعه بكيانه وقوته المادية ، والهداية الربانية هى البديل بعد تلك المفاصلة لقيمه ونظمه السائدة ، فهو عليه السلام في معية الله في مقابل القوة المادية التى يتفاخر بها فرعون ، وهو متصل بهدي الوحى الإلهى غير منقطع عنه ، وهو الذي سيهديه إلى سبيل النجاة والرشاد ، في مقابل سيرهم لطريق الهلاك والضلالة . والمعنى الذي ينبغى أن لا نغفل عنه ، هو أن الوضع الصحيح أن يكون إعتماد المؤمن على رب الأسباب لا على تلك الأسباب المادية ، وأن يستمد هديه في طريق سيره في الحياة من منهج الله تعالى وحده العليم والخبير بعباده ، لا من تلك المناهج البشرية القاصرة المحدودة ، وحتى يتضح المعنى أكثر ونتعرف على طبيعة هذا المنهج نستحضر هجرة النبى الحبيب عليه الصلاة والسلام ، لنجد أن التاريخ يعيد نفسه ، ليتكرر الموقف ذاته معه صلى الله عليه وسلم ، فقد أيّدَه الله كذلك بنصره وهداه سبيل النجاة والرشاد وذلك حينما اضطره الذين كفروا من زعماء قريش إلى الخروج من مكة . وليس معه إلا رفيقه أبو بكر ، وبينما هما فى الغار مختفين من المشركين الذين يتعقبونهما خشى أبو بكر على حياة الرسول ، فطمأن الرسول صاحبه ، في قوله تعالى : { إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ

يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: 40].

لاحظ كذلك تذييل الآية {عزيز حكيم} جاء مناسب لحال الهجرة من الوطن ومفارقة دين قومه . فتحققت له المعية الإلهية من النصر والتأييد ، وجعل هديه ودينه الذي ارتضاه هو المهيمن على الدين كله ، إن ذكر المعية الإلهية في القران في ثلاثة مواقف متشابهة وهو خروج إبراهيم وموسى ومحمد عليهم السلام من أرضهم ومفارقة أوطانهم بعد إرادة قومهم لقتلهم ، ثم ربط هذه المعية بالهداية له دلالته التي تستحق الوقوف عندها . وهذه الدلالة في حقيقتها ترتكز إلى تحكيم شريعة الله تعالى دون حساب للقوى المادية ، أو خشيتها في تبليغ أحكام الله ، مصداقاً لقوله تعالى : { الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا } [الأحزاب: 39].

وقد رد إبراهيم على تهديد قومه في تبليغه دين ربه ، في قوله تعالى : { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنعام: 80-81]. وقد كشف سبحانه عن تلك النفوس المريضة التي تحاول أن تميع الدين وفق مصالحها ، وتقدم الأعذار وتضع المبررات في إتباع أهل الكفر وموالاتهم والمسارعة إليهم ، كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } [المائدة: 51-52]. وقبل أن نختم الحديث عن هذه الآيات المتعلقة بهداية الله تعالى ، نقف عند قوله تعالى : { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } فالرجوع المقصود به هنا هو {المرجعية} وهذه الكلمة تحوي دلالة عظيمة في الإشارة إلى قيمة المدرسة التوحيدية الحنيفية التي أرسى قواعدها وحدد معالمها إبراهيم عليه السلام وفق تأصيل فكري لتأسيس المعتقد الإيماني ، فكانت هذه المدرسة هي المرجعية التي يثوب إليها الناس كلما طال بهم العهد ، حتى جاء محمد عليه الصلاة والسلام بالقرآن الكريم ، وكشف عن معالم منهج إبراهيم عليه السلام ، فكان حقاً رائد المدرسة التوحيدية ، وقد جعلها الله هي المرجعية التي يثوب إليها الموحدون ويقتدي بها المؤمنون ، كما في قوله تعالى : { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ

إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ } [آل عمران: 95-96]. وقوله تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 125]. وكذلك أمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو خاتم الأنبياء والمرسلين أن يتبع ملة إبراهيم ، كما في قوله تعالى : { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 123].

وهذا الأمر الإلهي للنبي في إتباع إبراهيم فيه دلالة إلى أهمية هذه المدرسة التوحيدية كمرجعية في مجال تأصيل الفكر وتأسيس المعتقد الإيماني وفق أصوله وقواعده الأصيلة التي أقرها وقررها المنهج القرآني وعرضها بصورة شاملة وكاملة مبيناً معالمها وموضحاً لحقيقتها[145] .

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } [الأنعام: 76-77] .

لقد بنى إبراهيم عليه السلام استدلاله في هذه الآيات على ألوهية الله تعالى وحاكميته وسلطانه ، بعلمه تعالى بما يصلح الإنسان وينفعه فيما يشرع ويقدر ، من خلال إبطال ألوهية الأجرام السماوية الثلاث ، وذلك بعلة أفولها وغيابها في ثلاثة مراحل متدرجة وهي :

الأولى : قوله : {فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } .

ووجه الاستدلال بالأفوال على عدم استحقاق المحبة التي هي أصل الإلهية والعبادة ، هو أنّ الأفول مغيب وابتعاد عن الناس ، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة والاطّلاع على أحول عباده للقيام بمصالحهم وتدبير أمورهم ، فلمَّا أفلّ النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطّلاع على النَّاس والعلم باحوالهم ، وإنّ ما يغيب لا يستحقّ أنْ يُتّخذ إلهاً لأنّه لا يغني عن عباده فيما يحتاجون

---

[145]- راجع : تفسير الرازي 335/11، 484 ، 137/13، 471 ، وتفسير الألوسي ، 249/14، 263/15، 195/17، 347/18، 363/22، 12/23، وتفسير البقاعي 69/6، 138/7، 456 ،398/9 ، وتفسير الظلال 48/1 ، 383/4 ، 353/5 ، 461 ، 178/6 ، 349، 14/8، وتفسير طنطاوي 3165، 3578، 3793، 4486، وتفسير ابن عاشور 43/1، 177/10، 486، 138/12، 197/13، 354، 487، وتفسير السعدي 592، 705، 764، وتفسير ابن عطية 340/5، وتفسير الشنقيطي 203/7 ، وتفسير 3248 ، الحكمة في الدعوة إلى الله 452/1

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حين مغيبه . وإن إبراهيم عليه السلام قد بنَى هذا الاستدلال من كون أفول النجم مغيباً عن هذا العالم ، هو انتفاء عموم العلم الذي بانتفائه تنتفي ربوبية الأجرام السماوية وعدم استحقاقها للألوهية بعلة غيابها وانتفاء قيامها بمصالح الخلق ورعايتهم ، وهذا ما قصده عليه السلام من الغياب في قوله : { فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } . هو غياب الرعاية والمتابعة والتي لا تتم من غير علم تام بحال من يراد رعايته ، لحصول القيومية وهو مفقود هنا ، فناسب التعبير عنه هنا بقوله : { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } . لأن المحبة متولدة عنها ، فمعلوم أن القلوب مفطورة على حب من يحسن إليها ويقوم على مصالحها ، فإن انتفاء المحبة لهذه الأجرام مترتب على انتفاء القيومية عنها التي هي من خصائص الربوبية . فعمل إبراهيم عليه السلام على إبطالُ استحقاق آلهة المشركين وصف الإلهية لانتفاء القوامة عنهم كما قال إبراهيم عليه السلام : { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم: 42].

وقد أورد تعالى على المشركين هذا الدليل أيضاً ليكون توبيخاً لهم وتعجيباً من عقولهم في قوله تعالى : { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ } [الرعد: 33]. والمراد بالقيام هنا : الرقابة والرعاية والهيمنة على جميع شئون الخلق ، فيشمل الحفظ والإبقاء والإمداد ، وأصله من القيام وهو الملازمة. ويجيء من معنى القائم أنه العليم بحال كل شيء لأن تمام القيومية يتوقف على إحاطة العلم . فمعنى قائم على كل نفس مُتوليها ومدبّرها في جميع شؤونها في الخلق والأجل والرزق ، والعالم بأحوالها وأعمالها ، والمشركون لا ينازعون في انفراد الله بهذا القيام ولكنهم لا يراعون ذلك في عبادتهم غيره ، فمن أجل ذلك لزمتهم الحجة ، وجاء بالاستفهام للإنكار عليهم تلك التسوية ، وتخطئة لأهل الشرك في تشريك آلهتهم لله تعالى في الإلهية ، ونداء على غباوتهم إذ هم معترفون بأن الله هو الخالق . والعالم بجميع أحوال النفوس ، والقادر على تحصيل مطالبها من تحصيل المنافع ودفع المضار ومن إيصال الثواب إليها على كل الطاعات ، وإيصال العقاب إليها على كل المعاصي وما ذاك إلا الحق سبحانه ، ولمراعاة هذا المعنى تعلق قائم بقوله: { على كل نفس } ليعم القيام سائر شؤونها . والباء في قوله: {بما كسبت} للملابسة . وهي في موقع الحال من { نفس } أو من { قائم } باعتبار ما يقتضيه القيام من العلم ، أي قياماً ملابساً لما عملته كل نفس ، أي قياماً وفاقاً لأعمالها من عمل خير يقتضي القيامَ عليها باللطف والرضى فتظهر آثار ذلك في الدنيا والآخرة لقوله : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: 97]. أو من عَمل

شراً يقتضي قيامَه على النفس بالغضب والبلايا . ففي هذه الصلة بعمومها تبشير وتهديد لمن تأمل من الفريقين . وجملة : { وجعلوا لله شركاء } في موضع الحال ، أي والحال جعلوا له شركاء . والتقدير : أفمن هذه صفاته ، وهو أن الله وحده القائم بتدبير الخلق كمن ليس كذلك ، والحال أن هؤلاء الأغبياء قد جعلوا له شركاء في العبادة وغيرها. فالمقصود زيادة توبيخهم ، وتسفيه أفكارهم وعقولهم . والمعنى : إن الله هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التي لا يشاركه فيها سواه ، وهو المعبود بحق وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق ورعايتهم ، فهي القوامة لا على البشر وحدهم ، ولكن على كل شيء كذلك . . بما أنه هو خالق كل شيء . فالعبد لا غنى له عن ربه طرفة عين والذي أينما كان فهو معه وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة بل هي فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة لهذا قال إمام الحنفاء : { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } . واستدل بهذا الأفول على علم الله تعالى ، ومتعلقه هنا بعلمه تعالى هو علمه بالإنسان في جميع أحواله في سره وجهره ، وما ينفعه وما يصلحه ، فهو سبحانه وحده من يتحقق فيه هذا العلم الذي به تحصل القيومية للإنسان خاصة وللخلق عامة ، فربط عليه السلام بين الأفول وانتفاء المحبة لعدم حصول القيومية ، لأن المحبة : هي أصل التوحيد ، وأصل التأليه والعبادة ، وبما أن القيومية هي من اختصاصه تعالى وحده ، وأنه لا مدبّر غيره ، فإنه يقتضي اختصاصه بالإلهية والمحبة والعبادة وحده سبحانه وتعالى.

وهذا هو المقصود من تقرير تلك القاعدة ، التي لم يكن المشركون في جاهليتهم يجحدونها . ولكنهم ما كانوا يسلمون بمقتضاها وهو الخضوع والطاعة لحاكمية الله وحده والدينونة لسلطانه بلا شريك . فالتصور الإسلامي يقوم على أساس أن الله سبحانه قائم على كل شيء وأن كل شيء ، قائم في وجوده على إرادة الله وتدبيره . . ومن ثم يظل ضمير المسلم وحياته ووجوده ووجود كل شيء من حوله مرتبطا بالله الواحد؛ الذي يصرّف أمره وأمر كل شيء حوله ، وفق حكمة وتدبير ، فيلتزم الإنسان في حياته بالمنهج المرسوم القائم على الحكمة والتدبير؛ ويستمد منه قيمه وموازينه ، ويراقبه وهو يستخدم هذه القيم والموازين . وحقيقة القيام على هذا الوجود بكلياته وجزئياته في كل وقت وفي كل حالة . حقيقة هائلة حين يحاول الإنسان تصورها ، في هذا الكون الهائل؛ ويتصور قيام الله عليها؛ وتعلقها في قيامها بالله وتدبيره . إنه أمر لا يحيط به الإدراك الإنساني . وما يتصوره منه إلا يسير وهذا اليسير يحير العقول ، وتطمئن به القلوب . وعن هذا التصور تنشأ قاعدة : الحاكمية لله وحده . فيكون الله وحده هو المشرع للعباد؛ ويجيء تشريع البشر مستمداً من شريعة

الله . وإن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به .

الثانية : قوله : { فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } .

ووجه الاستدلال على بطلان كون القمر إلها هو نفي العلم عنه وإثبات الجهل له بأفوله وغيابه ، والغياب هنا غياب هداية ورشاد وهذا يتطلب علم شامل وكامل لكل شيء والذي يغيب لا يكون له مثل هذا العلم فلا يرجى منه هذه الهداية بحال ، لذلك ناسب عند أفوله ، قوله : { لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } وهو حين نفى ربوبيتها بالأفول فقد نفى ربوبيتها بعدم حصول الهداية منها ، ومن ثم أثبت الربوبية لخالقه وحصر حصول الهداية منه وحده تعالى ، كما في قوله : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء: 78]. إن إبراهيم عليه السلام ، يحدد المصدر الصحيح والوحيد لتلقي الأحكام والتشريعات هو الوحي الإلهي ، وهذا ما قصده في قوله : { لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } فبعدما أثبت الأفول والغياب للقمر، أضاف الهداية إلى ربه، وحصر تلقي هذه الهداية منه وحده، فهو سبحانه وحده من يتحقق فيه العلم الشامل الذي به تحصل الهداية للإنسان لسلوك طريق الرشاد .

الثالثة : قوله : { فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } .

ووجه الاستدلال هو أن الغياب هنا غياب انتفاء الربوبية مطلقا لكل ما هو داخل في هذا الوجود ، بانتفاء أكبرها في السماء وهي الشمس بدليل أفوله ، لذلك أعلن أن الهداية إلى الحق في معرفة الأمور الغيبية لا تكون إلا من عند رب هذا الوجود وهو الذي فطره ، لأنه هو وحده عالم الغيب والشهادة بدليل خلقه المحكم والمتقن ، وبكونه أعلم بخلقه وبنفسه ، لذلك فهو المصدر الحقيقي والصادق والموثوق الذي يهدي للحق ، وكل طريق للهداية من عند غيره هو تيه وضلال . لذلك أعلن أنه مفتقر إلى هداية ربه ، لذلك توجه إلى طلب الهداية من صاحب العلم المطلق والمعبود الحق ، ومائلاً عن الشرك ومعرضاً عن كل معبود غيره لا يهدي للحق ، والذي عبر عنه بصدق التوجه لربه خالق هذا الوجود بقوله : **{ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ }** وهذا توجه في طلب الهداية ممن هو حقيق بها وهو خالق هذا الوجود كله ، بعدما انتفى حصولها من المخلوقات جميعها ، ومن ثم تعين انقطاع الرجاء في أن يصل من جهتها الهداية مطلقاً ، وتوجب التوجه في طلب الهداية من رب هذا الوجود ، وهو الله تعالى . فهو عليه السلام يبين الطريق الصحيح في طلب الهداية في معرفة الغيب وتلقي التشريعات في

سلوك طريق الرشاد الذي يحقق النفع والخير للإنسان ، وتنبيه أصحاب العقول إلى أن هذه المخلوقات القاصرة والعاجزة والمحدودة لا تملك للإنسان الهداية مطلقاً ، لذلك فهي لا تصلح للألوهية ، أو أن تقصد في طلب الهداية [146].

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 127-128].

قال تعالى : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة: 131].

إن إبراهيم عليه السلام كان هو المَثَل في تأسيس أركان التوحيد ، وهدم أركان الشرك ، فقد قاومه بالحجج العقلية ، وبالقوة المادية وبإعلان المفاصلة بين الكفر والإيمان ، حيث أقام للتوحيد هيكلاً بمكة هو الكعبة بأمر الله تعالى ليكون آية للتوحيد ومثابة للناس لحصول منافعهم الدينية والدنيوية ، فيقصده الناس بالتعظيم ويأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم ، قال تعالى : { جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [المائدة: 97]. اقتضت حكمة الله ورحمته بعباده أن جعل الكعبة قائماً معظماً يأمن الناس فيه ، ليكون فيه قوامهم في إصلاح أمورهم دينا ودنيا . ثم علل تعالى في جعله الكعبة قياماً للناس ، في قوله : { ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ووجه دلالة جَعْل الكعبة قياماً للناس ، على كونه تعالى يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وأمّا دلالة ذلك على أنّه بكلّ شيء عليم فهو ما دبر جعل الكعبة قياماً وما نشأ عن ذلك إلاّ عن عموم علمه بالأشياء ولولا عمومه ما تمّ تدبير ذلك المقدّر . والمعنى : فعل الله ذلك لتعلموا أنه يعلم علما تاما شاملا ما في السموات وما في الأرض ، ولتوقنوا بأنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات نفوسهم ، وهتاف أرواحهم . لأن في تشريع

---

[146]- راجع : تفسير الرازي 344/6، 184/9،وتفسير الزمخشري 137/2 ، وتفسير البقاعي 76/3 ، وتفسير الألوسي 397/5 ، وتفسير الظلال 265/1 ،117/3، وتفسير طنطاوي 2389،469 ، وتفسير ابن عاشور 429/2 ، 500/4 ، وابن القيم ، طريق الهجرتين ، ص100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار ولجلب المصالح الدينية والدنيوية دليل على أنه تعال يعلم ما في السموات وما في الأرض . وعلى أنه بكل شيء عليم دون أن تخفى عليه خافية مما في هذا الكون . فالله تعالى هو العليم بما يصلح الإنسان وينفعه في كل ما يشرع ويقدر له . ومقتضى هذه الحقيقة يتوجب أن يتجه الإنسان إلى ربه فيتلقى منه وحده التشريعات والأوامر ، وأن يستقبل كل ما يجريه من الأقدار والأحكام بالقبول والرضى ، لأن كل ما يصدر عنه تعالى إنما يصدر عن علم شامل وحكمة بالغة ، ولذلك نجد هذه الحقيقة يقررها إبراهيم عليه السلام بعد تنفيذ أمر ربه ببناء الكعبة ، وهو التوجه إلى الله تعالى بالدعاء في طلب الهداية إلى تعاليم الدين ومناسك العبادة ، بقوله : { وأرنا مناسكنا } . أي : علمنا وعرفنا شرائع ديننا وأعلام حجنا. وأصل النسك العبادة، والناسك العابد ، والعبادة لا تكون إلا وفق ما أمر الله به عباده . لذا كان التوجه إلى الله وحده في طلب الهداية إلى سلوك طريق السير إليه تعالى ، وسؤاله لإرشادهم لكيفية الحج الذي أمرا به من قبل أمراً مجملاً ، فأجاب الله تعالى دعاءهما فبعث جبريل فأراهما المناسك في يوم عرفة .

والمعنى : علمنا شرائع حجنا إذ أمرتنا ببناء البيت لنحجه وندعوا الناس إلى حجه ، فعلمنا شرائعه وما ينبغي لنا أن نأتيه فيه من عمل . قال عليه السلام:«خذوا عني مناسككم »[147]. وأظهرها لأعيننا مواضعها حتى نراها . قال الله تعالى : { لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ } [الحج: 67]. وإن جبريل عليه السلام أرى إبراهيم المناسك كلها ، حتى بلغ عرفات ، فقال : يا إبراهيم أعرفت ما أريتك من المناسك؟ قال : نعم فسميت عرفات [148].

فيكون حاصل دعائهما، يرجع إلى التوفيق للعلم النافع ، والعمل الصالح، وأن الهدى هداه وحده . وبذلك يتوحد مصدر التشريع ، ويصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله ويكون الحكم لله وحده . وما عدا هذا النهج فهو خروج على شريعة الله ، وعلى دين الله ، وعلى ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام . وإن العبادة تعبير عن العقيدة؛ فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة؛ وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست بشيء ما لم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيماني الصحيح ، وبالعمل الواقع الصريح ، وبالتجرد لله في العمل والعبادة على السواء . فهو الإستسلام الكامل والمطلق لله تعالى في كل مجالات الحياة ، : قال تعالى : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة: 131]. والإسلام وحدة متكاملة يجمع الشعائر

147– رواه مسلم في صحيحه برقم (1297) ومالك في الموطأ رقم (465)

148– مصنف ابن أبي شيبة رقم (14131)4/358

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والآداب والأخلاق والتشريعات والنظم كلها في نطاق العقيدة . ولكل منها دور تؤديه في تحقيق هذه العقيدة؛ وتتناسق كلها في اتجاه واحد؛ ومن هذا التجمع والتناسق يقوم الكيان العام لهذا الدين . وبدونهما لا يقوم هذا الكيان . فالدين منهج حياة . منهج يشمل العقيدة المستقرة في الضمير ، والعبادة الممثلة في الشعائر ، والعبادة التي تتمثل في إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج . ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية ، عن الشعائر التعبدية ، عن القيم الخلقية ، عن الشرائع التنظيمية ، في أي دين يريد أن يصرّف حياة الناس وفق المنهج الإلهي . وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة؛ ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله[149] .

الشاهد الرابع :

قال تعالى : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [التوبة: 114-115].

إن في قوله تعالى : { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ } وقوله :{حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} دليل واضح على أن بيان الأحكام والتشريعات هو من إختصاص الله تعالى وحده ، وأن بيانه محصور عن طريق الوحي ، وليس لأحد أن ينازع الله في ذلك ، وإن كل شرع أو بيان من غيره تعالى فهو مرفوض غير مقبول ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد "[150] . والخروج عن هذا الأمر هو مشاقة لله ورسوله لقوله تعالى : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [النساء: 115]. وهو ضلال عن هدى الله ، قال تعالى : { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [النساء: 176]. وهي صيغة جامعة شاملة لكل الأحكام والتشريعات ، فإما اتباع بيان الله في كل شيء ، العليم بكل شيء وإما الضلال في اتباع ما شرعه الإدراك البشري النسبي المحدود المجال . فهما طريقان لا ثالث لهما : طريق بيان الله فهو الهدى . وطريق من عداه فهو الضلال . وليس بعد الحق إلا الضلال . فأما الكفار المعاندين فيركبون مركب اللجاج والشقاق ، وأما الذين آمنوا فهم

[149]- راجع : الطبري 76/3 ، الرازي 347/2 ، ابن عاشور 482/1 ، طنطاوي 1382،208، ظلال1/87، 371، 3/2،490/259 ، 80/6، منتخب 195/1، منهاج السنة ، ابن تيمية 45/3، مجموع الفتاوي 368/27

[150]- صحيح البخاري : رقم (2499) ، وصحيح مسلم رقم (3242)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خاضعون لما بينه الله وفرضه عليهم وهداهم إليه والتسليم بأنه هو وحده الذي يعلم « الحق » كله ، وأن الهدى هو هداه الذي بينه عن طريق الوحي منذ أنزل آدم عليه السلام إلى الأرض ، قال تعالى : { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } فلما كانت الغاية الأساسية من وجود الإنسان في حياته الدنيا هي طاعة أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه ، وكانت رسل الله تعالى هي المبينة لتلك الأحكام والمبلغة عن الله تعالى حتى تقوم الحجة على الناس كما قال الله تعالى : { رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا } [النساء: 165].

وهذه الوظيفة تقتضيها حكمة الله تعالى وكمال عدله ولطفه بعباده ؛ إذ إنه لا يتركهم سدى حتى يبين لهم ما يتقون فلا يؤخذون على حين غرة وغفلة بل كما قال الله تعالى : { لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: 42]. ولهذا قال الله تعالى : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء: 15]. فإن الله لا يحاسب الناس إلا على ما بين لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه . فبين ما نهى عنه وما أمر به بياناً واضحاً . ذلك أن الله هو العليم بكل شيء ، ومنه البيان والتعليم .

ومن ثم فليس لأحد من الخلق أن يحرم أو يحلل شيئاً لم يبينه الله تعالى لعباده . وهذا ما قرره الله تعالى في حكايته عن إبراهيم لما استغفر لأبيه ، في قوله: { فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه } . وطريق تبين أنه عدو لله هو الوحي بأن نهاه الله عن الاستغفار له ، ثم يقرر تعالى قاعدة إسلامية أنه لا عقوبة بغير نص؛ ولا جريمة بغير بيان سابق على الفعل ، بقوله تعالى:{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ }. فإنه ليس من سنته تعالى أن يكتب الضلال لقوم بعد إذ هداهم للإيمان واهتدوا إليه لعمل عملوه حتى يبين لهم أنه لا يرضى بذلك العمل .

وبناء على ذلك فإن الله لا يؤاخذ إبراهيم عليه السلام ولا المسلمين باستغفارهم لمن استغفروا له من قبل ورود النهي وظهور دليل اليأس من المغفرة ، لأن الله لا يؤاخذ قوماً هداهم إلى الحق فيكتبهم ضُلالاً بالمعاصي حتى يبين لهم أن ما عملوه معصية . وقوله : { إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تعليل مناسب لما قبله ، فلكمال علمه وعمومه ، فقد علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون . فالتقدير : أن من كان عالماً بكل شيء فوجب أن يكون تلقي الهداية منه وحده ، وهذا يقتضي أنه تعالى هو وحده من يملك أمر بيان الهداية والإرشاد إلى طريق الحق ، لأن علمه تعالى مطلق وشامل لكل شيء .

كما أن هذه الآيات تقرر أن القبح والحسن يعرفان بالشرع لا بالعقل ، ومقتضى هذا أن يستغني العبد بهدى الله الذي جاء به على لسان وحيه ، وأن يكون دور العقل محصوراً في فهم مراد الله . والاجتهاد في تطبيق النص العام على الحالة الجزئية؛ لا في قبول المبدأ العام أو رفضه ، تحت أي مقولة من مقولات العقل! فليس للعقل أن يقول : ولكنني أرى المصلحة في كذا وكذا مما يخالف أمر الله ، أو فيما لم يأذن به الله ولم يشرعه للناس . فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب ، وتدفع إليه الشهوات والنزوات .

وما يقرره الله سبحانه لا يحتمل إلا الصحة والصلاح . وما قرره الله سبحانه من العقائد أو من منهج الحياة ونظامها ، فليس للعقل أن يتقدم على قول الله ورسوله برأي أو قول أو عمل قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الحجرات: 1]. لأن هذا التقدم يعد جرأة على الله ، ورمي علمه بالنقص والقصور ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً . والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله .

فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري ، ولا حتى فطرتهم . لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن الفطرة وحدها تنحرف . وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة ، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي ، وهو النور والبصيرة . فالعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير ، وبترك وحي الله وهداه أعمى ، قال تعالى: { إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام: 50]. فالتفكر مطلوب ، والحض عليه منهج قرآني؛ ولكنه التفكر المضبوط بضابط الوحي ، الذي يمضي معه مبصراً في النور؛ لا مطلق التفكر الذي يخبط في الظلام، أعمى بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير .

فإذا وصل العقل البشري إلى مرحلة إدراك المدلولات وفهم المقررات لم يعد أمامه إلا التسليم بها ، فإن سلم فهو مؤمن ، وإن لم يسلم بها فهو كافر . وليس هو حكماً على صحتها أو بطلانها . وليس هو مأذوناً في قبولها أو رفضها ، كما يقول من يبتغون أن يجعلوا من هذا العقل إلهاً ، يقبل من المقررات الدينية الصحيحة ما يقبل ، ويرفض منها ما يرفض ، فإذا قرر الله أمراً في الفرائض ، أو في النواهي . . فهذا الذي قرره الله واجب القبول والطاعة ممن يبلغ إليه .

فالله سبحانه هو الذي يعلم الأمر كله؛ والطاعة لأمره واجبة ، وهذا مقتضى ألوهيته تعالى ، والعقل ليس هو الحكم في الأمر؛ وما يراه علة قد لا يكون هو العلة . والأدب مع الله يقتضي تلقي

أحكامه بالقبول والتنفيذ ، سواء عرفت حكمتها أو علتها أم ظلت خافية . لأن الله يعلم والبشر لا يعلمون . فإذا أمر الله أو نهى فقد انتهى الجدل ولزم الأمر أو النهي . فأما إذا ترك الحكم للعقل البشري فمعنى ذلك أن الناس هم المرجع الأخير في شرع الله . وبذلك تنتفي العبودية لله . لأن العمل بشريعة الله يقوم ابتداء على الطاعة لله إظهاراً للعبودية له سبحانه . فهذا هو الإسلام بمعنى الاستسلام لأمر الله وطاعته.

وبعد الطاعة يجوز للعقل البشري أن يتلمس حكمة الله فيما يشرع بقدر ما يستطيع . ولا يفهم من هذا أن الإسلام ينتقص من قيمة العقل ودوره في الحياة البشرية . بل هو يحفظ العقل من تبديد طاقته فيما لا يملك الوصول إليه بوسائله الخاصة ، ويحفظ للإنسان جهده في تيه التجارب القاسية بحثاً عن منهج يوافقه ، حين يخبط في التيه بلا دليل! ويكفي العقل البشري أن يجرب في ميدان الإبداع المادي ما يشاء ، فهو مجال فسيح له . ويكفيه كذلك أن يحاول تطبيق نصوص الوحي على الحالات المتجددة بعد أن ينضبط هو بمنهج الله وتعليمه الذي بينه لهم ، لا كما تبتغي الشهوات والأهواء التي تضل العقل وتغطي الفطرة بالركام ، قال تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } [النساء: 26-28]. يجيء التعقيب الشامل على تلك الأحكام؛ وعلى تلك التنظيمات التي شرعها الله في المنهج الإسلامي ، ليرفع بها المجتمع المسلم من وهدة الحياة الجاهلية ؛ وليرفع بها مستواه النفسي والخلقي والاجتماعي إلى القمة السامقة النظيفة الوضيئة التي رفعه إليها . يجيء التعقيب ليكشف للجماعة المسلمة عن حقيقة ما يريده الله لها بهذا المنهج وبتلك الأحكام والتشريعات والتنظيمات؛ وفي المقابل يكشف لهم عن حقيقة ما يريده بها الذين يتبعون الشهوات ويحيدون عن منهج الله .

إن الله يتلطف مع عباده؛ فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم ، ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريده لحياتهم من خير ويسر، ويبين لهم حكمة ما يشرعه لهم؛ وليقول لهم: { يريد الله ليبين لكم}.

يريد الله ليكشف لكم عن حكمته؛ ويريد لكم أن تروا هذه الحكمة ، وأن تتدبروها ، وأن تقبلوا عليها مفتوحي الأعين والعقول والقلوب؛ فهي ليست معميات ولا ألغازاً ؛ وهي ليست تحكماً لا علة له ولا غاية ؛ وأنتم أهل لإدراك حكمتها؛ وأهل لبيان هذه الحكمة لكم . وهو تكريم

للإنسان ، يدرك مداه من يحسون حقيقة الإلوهية وحقيقة العبودية ، فيدركون مدى هذا التلطف الكريم .{ ويهديكم سنن الذين من قبلكم } .

فهذا المنهج هو منهج الله الذي سنه للمؤمنين جميعاً . وهو منهج ثابت في أصوله ، موحد في مبادئه ، مطرد في غاياته وأهدافه . هو منهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيمان على مدار القرون . وبذلك يجمع القرآن بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان؛ ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان؛ ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيماني الموصول . وهي لفتة تشعر المسلم بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه . إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله ، تجمعها آصرة المنهج الإلهي ، على اختلاف الزمان والمكان ، واختلاف الأوطان؛ والألوان وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين في كل جيل ، ومن كل قبيل : { ويتوب عليكم } . فهو سبحانه يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ليرحمكم وليأخذ بيدكم إلى التوبة من الزلل ، والتوبة من المعصية . ليمهد لكم الطريق ، ويعينكم على السير فيه : { والله عليم حكيم } . فعن العلم والحكمة تصدر هذه التشريعات . ومن العلم والحكمة تجيء هذه التوجيهات . العلم بنفوسكم وأحوالكم . والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم . والحكمة في طبيعة المنهج وفي تطبيقاته على السواء : { والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً } .

وتكشف الآية عن حقيقة ما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته ، وحقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات ، ويحيدون عن منهج الله ، فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام ، وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع ، وشهوة تطاع ، وانحراف وفسوق وضلال .

إن الله يريد بالناس حين يبين لهم منهجه ويشرع لهم سنته أن يتوب عليهم . يريد أن يهديهم ويجنبهم المزالق ويعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة . وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ، و لم يشرعها لعباده؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنهج الراشد ، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم . واللمسة الأخيرة في التعقيب تتولى بيان رحمة الله بضعف الإنسان ، فيما يشرعه له من منهج وأحكام . والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه ، ومراعاة اليسر فيما يشرع له ، ونفي الحرج والمشقة والضرر والضرار : { يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفاً } . فإرادة التخفيف في التشريعات والأحكام الذي يمثله المنهج الإلهي لحياة البشر تبدو واضحة؛ بمراعاة فطرة الإنسان وطاقته وحاجاته الحقيقية؛ وإطلاق كل طاقاته البانية . ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال ، وكثيرون يحسبون

أن التقيد بمنهج الله شاق مجهد . والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح! وهذا وهم كبير .

فإطلاق الشهوات من كل قيد؛ وتحري اللذة وحدها في كل تصرف واقصاء الواجب . إن هذه كلها تبدو يسراً وراحة وانطلاقاً ، ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد وثقلة . ونتائجها في حياة المجتمع وفي حياة كل فرد نتائج مؤذية مدمرة ماحقة . والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي « تحررت! » من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة ، يكفي لإلقاء الرعب في القلوب . وإن مجرد النظر إلى مخالفة حكم من أحكام الله تعالى على مستوى العلاقات الجنسية تجد آثارها الخطيرة والمدمرة للأفراد والمجتمعات .

فقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الأول الذي حطم الحضارات القديمة : فحطم الحضارة الإغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية . وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة؛ وقد ظهرت آثار التحطيم في دول الحضارة الحديثة .

إن كل مخالفة لمنهج الله تعالى لا بد أن تظهر آثارها المدمرة ونتائجها الوخيمة في حياة البشر ، قال تعالى : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ } [الروم: 41-43]. وإن الله تعالى قد تمم إحسانه على عباده، ومنَّ عليهم بالهداية ، ولم يتركهم ضالين ، جاهلين بأمور دينهم ، فبين لهم جميع ما يحتاجون إليه ، وتدعو إليه ضرورقم ،وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم ، ومن كمال علمه تعالى ورحمته بعباده أن شريعته جاءت موافقة للفطرة الإنسانية وملبية لجميع متطلباقا ، وجاءت كذلك وافية بجميع ما يحتاجه العباد ، في أصول الدين وفروعه[151] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[151]- راجع : تفسير الطبري 536/14، وتفسير الرازي 165/8 ، وتفسير الألوسي 384/7-388 ، وتفسير طنطاوي 2053، وتفسير ابن عاشور 393/6-394 ، وتفسير ابن عطية 325/3 ، وتفسير الظلال 96/2-98، 284-288، 304، 433، 42/3 ، 90/4-91 ، 207/5، وتفسير السعدي 353 ، عبد العزيز الراجحي ، اسئلة واجوبة في الإيمان والكفر 41/1

* **الشاهد الخامس**

قال تعالى : { فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [الذاريات: 29-30].

إن هذا الجانب يمثل علمه تعالى بما يصلح الإنسان وينفعه فيما يقضيه ويقدره عليه عز وجل ، وقد كانت هذه البشرى هي استجابة الله تعالى لدعوة إبراهيم ، فقد سبق هذه البشرى دعاءه عليه السلام لربه في طلب الذرية الصالحة ، بقوله : { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ } [الصافات: 99- 101]. وقد سبق هذا الدعاء ، الهجرة إلى الله والتي كانت من مسوغات الاستجابة ، فقد جرى قدر الله في استجابة دعوة خليله إبراهيم بعلمه تعالى بحاله ، مصداقاً لقوله تعالى : { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام: 124]. وقوله تعالى : { وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [الدخان: 32].

فإن هذه الاستجابة القدرية مرتبطة بعلم الله ، إشارة إلى أن قدر الله إنما يجري وفق علمه وحكمته ، كما في قوله تعالى : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ } [ابراهيم: 37-40].

وهذه الدعوة الخاشعة التي تضرع بها إبراهيم عليه السلام إلى ربه ، مسجلاً فيها لعلم الله الذي يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكر ودعاء وإخلاص ، ومبيناً أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور في المستقبل ، وأن الله وحده هو العالم بها المحيط بأسرارها ، فوكل أموره التي يعلمها والتي لا يعلمها إلى تدبيره تعالى وتيسره لما هو مقتضى علمه ورحمته ، وأثنى عليه سبحانه بأنه سميع الدعاء فقوله : { إن ربي لسميع الدعاء } تعليل لجملة { وَهَبَ لِي عَلَى الكبر } أى : وهب لى على الكبر هذين الولدين ، لأنه سميع الدعاء ، سمع دعائى وقبله ، وأجاب طلبى دون أن يخيبنى . فإبراهيم يقرر حقيقة علمه تعالى بعباده ، ومقتضياتها التعبدية ، فإن الله وحده من يسمع الدعاء ، ويعلم أسبابه وبواعثه النفسية ، وهو وحده من يستجيب ، ومقتضى هذا هو رد كل ما يجري من أقدار وأحداث في هذا الكون إلى مقتضى علمه تعالى وحكمته ، وإلى مقتضى فضله ورحمته ، وإلى

مقتضى عدله تعالى ، وهنا رد الملائكة على سارة زوجة إبراهيم بما يزيل تعجبها واستغرابها واستبعادها لأن يكون لها ولد وذلك لوصفين من اجتماعهما فيها . أحدهما : كبر السن . والثاني : العقم ، لأنها كانت لا تلد في صغر سنها ، وعنفوان شبابها ، ثم عجزت فاستبعدت ذلك لأن كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت مانعاً ثالثاً في سورة هود بقولها : { وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ } [هود: 72]. وبهذه الموانع الثلاث أيست من أن تلد .

ولكن الملائكة دفعوا استبعادها هذا بقولهم :{ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم }. فقد ردوها إلى الحقيقة الأولى . حقيقة القدرة المطلقة التي لا يقيدها شيء ، وحقيقة المشيئة النافذة التي يستجيب لها كل شيء إذا قيل له: {كن فيكون}. ولكن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري ، وتحدان من تصوراته . فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له؛ ويعجب كيف يكون! والمشيئة المطلقة ماضية في طريقها لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود؛ تبدع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود! والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم : { قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم } . أى : قال الملائكة لامرأة إبراهيم : لا تتعجبى من أن يكون لك غلام فى هذه السن ، فإن هذا الحكم هو حكم ربك . وهذا القول الذى بشرناك به هو قوله سبحانه ، وقوله لا مرد له .

فهو سبحانه الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، الحكيم في تدبيره وتصريفه شؤون عباده . الذي يضع الأشياء في أحق مواضعها . والعليم بأحوال خلقه ، العليم بما يصلح لهم وما لا يصلح فليفوض الأمر إليه ولا يعترض عليه ، فاقبلي البشرى واحمديه واشكريه على نعمته فهو العليم بما تستحقون من الكرامة والفضل . كما في قوله تعالى : { قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود: 73].

وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فعليها أن تسبح الله وتمجده ، وَقِيل لَمَّا جَاءَتْ الملائكة، إبراهيم تبشره بهلاك قوم لوط فضحكت سارة استبشارًا منها بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغِلَظ كفرهم وعنادهم ، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

وجملة { رحمت الله وبركاته عليكم } تعليل لإنكار تعجبها ، لأن الإنكار في قوة النفي ، فصار المعنى : لا عجب من أمر الله لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة ، فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها وأنتم أهل لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندكم . ووجه تعليل نفي العجب بهذا أن

التعجب إمّا أن يكون من صدور هذا من عند الله وإما أن يكون في تخصيص الله بفضله لإبراهيم عليه السّلام وامرأته .

فكان قولهم { رحمت الله وبركاته عليكم } مفيداً تعليل انتفاء العجبين . وقوله ههنا : {الحكيم العليم} وفي سورة هود : {إِنَّهُ حَمِيدٌ مجيدٌ} . لأن الحكاية في هود أبسطُ فذكروا ما يدفع استبعادها بقولهم : { أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله } [هود: 73]. ثم لما صدقت أرشدوهم إلى القيام بشكر نعم الله ، وذكروهم بنعمته بقولهم : { حَمِيدٌ } فإن الحميد هو الذي يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم : { مَّجِيدٌ } إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل ، وإنما يحمد لذاته .

وههنا لما لم يقولوا : { أَتَعْجَبِينَ } إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التنبيه بقولهم : « حكيم عليم » وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين ، فالحميد يتعلق بالفعل ، والمجيد يتعلق بالذات ، وكذلك الحكيم هو الذي فعله قاصداً إليه ، والعليم صفة راجعة إلى الذات ، فقدم وصف الفعل وارتقى درجة إلى وصف الذات إشارة إلى أنه يستحق الحمد بمحده وإن لم يفعل فعلاً .

وجملة { إنّه حميد مجيد } تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأنّ الله يحمد من يطيعه ، وبأنّه مَجِيدٌ ، أي عظيم الشأن لاَ حَدّ لِنِعَمِهِ فلا يعظم عليه أن يعطيها ولداً ، وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم عليه السّلام وأهله . وهو تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله فهو المستحق للحمد لكثرة نعمه ، وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل .

وجملة { إنه هو الحكيم العليم } تعليل لِجملة { كذلك قال ربك } المقتضية أن الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلا تبليغاً من الله وأن الله صادق وعده وأنه لا موقع لتعجب امرأة إبراهيم لأن الله حكيم يدبر تكوين ما يريده ، وعليم لا يخفى عليه شيء ، وإن قدر الله تعالى يمضي بالناس عن حكمة وعن علم ، فهو عليم بأحوال عباده وصفاتهم وطباعهم ، حكيم في توزيع المواهب والخصائص والاستعدادات ، وتنويع الأجناس والشعوب والبيئات .

فنحن نسلم بأن كل ما يقع في هذا الكون إنما يقع عن تدبير ، وكل حدث لا بد وراءه من حكمة ولا بد فيه من مصلحة . وسواء علمنا أو جهلنا فإن هذا لا يؤثر في الأمر شيئاً ولا ينقص من وجوب الطاعة والتنفيذ مع الرضى والقبول . ورد الأمر كله لله . الذي يدبر الأمور بحكمته ، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر ، فما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال ، مرده

كله إلى الله ، يصرفه كيف شاء ، وفق حكمته ووفق مراده . وما الأحداث إلا آثار لهذه الإرادة المطلقه ، التي ليس عليها من سلطان؛ ولا يدري احد ما وراءها من الحكمة؛ ولا يعرف مصادرها ومواردها إلا الله .

وإذن فالتسليم والاستسلام هو أقصى بما يملكه البشر أمام الأحوال والأحداث التي يجريها الله وفق قدر مرسوم . ونشاهد هذا الإيمان والتسليم لقدر الله ، وتلك الطاعة المطلقة لأمره تعالى متمثلة في قصة إبراهيم ، في قوله تعالى : { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات: 102]. فهذا الشيخ المقطوع من الأهل والقرابة ، المهاجر من الأرض والوطن ، قد رزق في كبره وهرمه بغلام حليم ، طالما تطلع إليه ، وما يكاد يأنس به ويبلغ معه السعي ، حتى يرى في منامه أنه يذبحه .

ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية ، فما يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم .

وهي مجرد إشارة . وليست وحياً صريحاً ، ولا أمراً مباشراً ، وهذا يكفي ليلبي ويستجيب . ودون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه . وهو لا يلبي في انزعاج ، ولا يستسلم في جزع ، ولا يطيع في اضطراب . كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب : { قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك . فانظر ماذا ترى } . فيكون جواب الغلام جواباً يرتقي فيه إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه :{ قال : يا أبت افعل ما تؤمر . ستجدني إن شاء الله من الصابرين } .

إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب ، ولكن في رضى كذلك وفي يقين . ولم يأخذها شجاعة واندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة . ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجماً ولا وزناً . إنما أرجع الفضل كله لله إنه هو أعانه على ما يطلب إليه ، وأصبره على ما يراد به : { ستجدني إن شاء الله من الصابرين } . إنه الأدب مع الله! وروعة الإيمان . ونبل الطاعة . وعظمة التسليم : { فلما أسلما وتله للجبين } . فهذا هو الإسلام في حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم وتنفيذ . وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم . فالتصور الإسلامي تصور إيجابي لا سلبي . يقوم على أساس أن الله سبحانه قائم على كل شيء وأن كل شيء ، قائم في وجوده على إرادة الله وتدبيره . ومن ثم يظل ضمير المسلم وحياته ووجوده ووجود كل شيء

من حوله مرتبطا بالله الواحد؛ الذي يصرّف أمره وأمر كل شيء حوله ، وفق حكمة وتدبير ، فيلتزم الإنسان في حياته بالمنهج المرسوم القائم على الحكمة والتدبير؛ فهو الذي يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، وهو الذي يختار لها وفق علمه ومعرفته بالأصلح والأوفق من حالات العطاء والحرمان وكل هذه الأحوال خاضعة لمشية الله . لا يتدخل فيها أحد سواه . وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته في موعده الذي أراده الله وقدره وفق حكمته . واستعجال الناس به لا يعجله كي لا تبطل الحكمة المقصودة من تأجيله .

وقد كانت دعوة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام في ظل البيت ، في قوله تعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [البقرة: 127-129]. كانت هذه الدعوة من وراء الغيب ، ومن وراء القرون ، محفوظة عند الله لا تضيع ، حتى يجيء موعدها المقدور في علم الله ، وفق حكمته؛ وحتى تتحقق في وقتها المناسب في قدر الله وتنسيقه ، حتى تؤدي دورها في الكون حسب التدبير الإلهي الذي لا يستقدم معه شيء ، ولا يستأخر عن موعده المرسوم .وتحققت هذه الدعوة وفق قدر الله وتدبيره ، في قوله تعالى : { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [الجمعة: 2-3].

ونلاحظ أن التعقيب في صفة الله : { العزيز الحكيم } جاءت في دعاء إبراهيم ، وفي التذكير بمنة الله وفضله في بعثة رسوله ، وهو تذييل المقصود به بيان أن قدرته تعالى لا يعجزها شيء ، وأن حكمته هى أسمى الحكم الذي يوقع كل ما أراده في أحكم مواقعه وأتمها وأتقنها ، فهو تعجيب من هذا التقدير الإلهي لانتشار هذا الدين في جميع الأمم ، وفي تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم ، وتأييده عليه ، واختياره إياه من بين كافة البشر . فهو سبحانه القادر الذي لا يغلب على أمره ، العالم الذي يدبر الأمور على وفق المصلحة ، ومن كان قادراً على كل ما يريد، عليما بوجوه المصالح ، كانت استجابته قريبة من دعاء الخير الصادر عن إخلاص وابتهال . فبعث الله هذا الرسول

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الكريم، الذي رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: " أنا دعوة أبي إبراهيم "[152]

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون . فالدعوة المستجابة تتحقق في أوانها الذي يقدره الله بحكمته . غير أن الناس يستعجلون! وغير الواصلين يملون ويقنطون! كما أن هذا الدعاء فيه حجة ملزمة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى في الرضى والتسليم لأمر الله فيما قدر من إصطفاء محمد خاتم الأنبياء والمرسلين مما يوجب اتباعه وعدم الاعتراض على اختيار الله وتقديره ، وهذا الدعاء له دلالته ووزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الأطراف . إن إبراهيم وإسماعيل اللذين عهد الله إليهما برفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلين ، إنهما يقولان باللسان الصريح : { ربنا واجعلنا مسلمين لك } . . { ومن ذريتنا أمة مسلمة لك } . كما يقولان باللسان الصريح : { ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم } .

وهما بهذا وذاك يقرران وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ، ووراثتها للبيت الحرام سواء . وإذن فهو بيتها الذي تتجه إليه ، وهي أولى به من المشركين . وهو أولى بها من قبلة اليهود والمسيحيين! وإذن فمن كان يربط ديانته بإبراهيم من اليهود والنصارى ، ويدعي دعاواه العريضة في الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة ، ومن كان يربط نسبه بإسماعيل من قريش . فليسمع : إن إبراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والإمامة ، قال له ربه : { لا ينال عهدي الظالمين } . ولما أن دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خص بدعوته : { من آمن بالله واليوم الآخر } .

وحين قام هو وإسماعيل بأمر ربهما في بناء البيت وتطهيره كانت دعوتهما: أن يكونا مسلمين لله ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبعث في أهل بيته رسولاً منهم . فاستجاب الله لهما ، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله ، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله . الوارثة لدين الله . فإن ما تضمنته قصة إبراهيم من دلالات إنما تواجه أولئك الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامة؛ وينازعون الرسول صلى الله عليه وسلم النبوة والرسالة؛ ويجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة . ولذلك قال تعالى عقيب الآيات : { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ

---

[152]- رواه الحاكم في مستدركه ، برقم (3566) صحيح : تعليق الذهبي في التلخيص

فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 130-132]. هذه هي ملة إبراهيم ، الإسلام الخالص الصريح .

ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها في عقبه ، وجعلها وصيته في ذريته ، لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها . معترض على قدر الله واختياره ، فكانت وصية يعقوب لبنيه ، تأكيداً على المحافظة على ميراث دين إبراهيم وهو الإسلام ، والتي كررها في آخر حياته ليسمعها بنو إسرائيل ، في قوله تعالى : { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 133]. وقد ذكر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم في اختياره الدين لهم : { يا بني إن الله اصطفى لكم الدين } . فهو من اختيار الله . فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه . وأقل ما توجبه رعاية الله لهم ، وفضل الله عليهم ، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه ، والحرص على ما اختاره لهم ، والاجتهاد في ألا يتركوا هذه الدنيا إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم : { فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون } .

وها هي ذي الفرصة سانحة ، فقد جاءهم الرسول الذي يدعوهم إلى الإسلام ، وهو ثمرة الدعوة التي دعاها أبوهم إبراهيم . ولكنهم قد بلغ بهم الحسد والغيظ إلى مودة أن يرجع المسلمون إلى الشرك ولا يبقوا على هذه الحالة الحسنة الموافقة لدين موسى في معظمه نكاية بالمسلمين وبالنبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى : { وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة: 109]. وقال تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا } [النساء: 54-55].

إن مقتضى الإيمان : التسليم لله ، والرضى بقدره وقسمته واختياره ، واعتقاد الخير فيه ، ورد الأمر كله لله ، وأن الخيرة ما اختاره الله ، فهو يختار لعباده عن علم وعن حكمة . وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل ، فإذا قدر الله أمراً ففيه كل الخير والصلاح ، وشأن البشر هو الرضى والتسليم والاطمئنان إلى أن الخير فيما قدره تعالى لأن كل ما يصدر عنه تعالى إنما يصدر عن علم وحكمة . فهو الحكيم في تدبيره خلقه العليم بمصالحهم الذي يضع الأشياء في أليق مواضعها . وإن الله أسس نظام هذا العالم على قوانينَ عامةٍ وليس من حكمته أن يخص أولياءه

وحزبه بنظام تكويني دنيوي ولكنه خصهم بمعاني القرب والرضى والفوز في الحياة الأبدية . وربما خصّهم بمَا أراد تخصيصهم به مما يرجع إلى إقامة الحق[153] . وعليه فإن شريعة الله تمثل منهجا شاملا متكاملا للحياة البشرية؛ وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني ، والحاجات الإنسانية ، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان؛ وبطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الكينونة الانسانية .

ومن ثم لا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة؛ ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنساني؛ ولا أي تصادم مدمر بين هذا النشاط والنواميس الكونية؛ إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق . الأمر الذي لا يتوافر أبدا لمنهج من صنع الإنسان الذي لا يعلم إلا ظاهرا من الأمر؛ وإلا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة؛ ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنساني؛ ولا يخلو من التصادم المدمر بين بعض ألوان النشاط وبعض والهزات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم .

وهو منهج قائم على العدل المطلق . أولا : لأن الله يعلم حق العلم بم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق . وثانيا : لأن الله رب الجميع؛ فهو الذي يملك أن يعدل بين الجميع؛ وأن يجيء منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف ، كما أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط . الأمر الذي لا يمكن أن يتوافر في أي منهج أو في أي شرع من صنع الإنسان ، ذي الشهوات والميول ، والضعف والهوى ، فوق ما به من الجهل والقصور ، سواء كان المشرع فردا ، أو طبقة ، أو أمة ، أو جيلا من أجيال البشر .

فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها؛ فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى في الحالة الواحدة في الجيل الواحد . وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله . لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله . صانع الكون وصانع الإنسان . فإذا شرع للإنسان شرع له كعنصر كوني ، له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه؛ بشرط السير على هداه ، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التي تحكمها . ومن هنا يقع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[153]- راجع : تفسير الطبري 428/22 ، وتفسير ابن كثير 333/4، وتفسير الزمخشري 56/7، وتفسير الرازي 262/9، 297/14، وتفسير الألوسي 384/19 ، وتفسير البقاعي 203/8، وتفسير ابن عاشور 14/13، 105/124، 78/15، وتفسير اللباب 386/14، وتفسير البيضاوي 293/5، وتفسير الظلال 89/1 ، 265، 412/4، 89/6، 188، 7/ 33 ،171، 202، وتفسير السعدي 809 ، وتفسير طنطاوي 209، 3957

التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه؛ وتأخذ الشريعة التي تنظم حياته طابعاً كونياً ، ويتعامل بها لا مع نفسه فحسب ، ولا مع بني جنسه فحسب! ولكن كذلك مع الأحياء والأشياء في هذا الكون العريض ، الذي يعيش فيه ، ولا يملك أن ينفذ منه ، ولا بدّ له من التعامل معه وفق منهاج سليم قويم .

ثم إنه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان. فالمنهج الإسلامي هو وحده الذي يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك . إن أخص خصائص الألوهية هي الحاكمية . والذي يشرع لمجموعة من الناس يأخذ فيهم مكان الألوهية ويستخدم خصائصها .فهم عبيده لا عبيد الله ، وهم في دينه لا في دين الله .

والإسلام حين يجعل الشريعة لله وحده ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويعلن تحرير الإنسان من حكم إنسان مثله؛ إن هذه القضية هي أخطر وأكبر قضايا العقيدة . إنها قضية الألوهية والعبودية . وهي من أجل هذا كله كانت قضية الكفر أو الإيمان ، وقضية الجاهلية أو الإسلام . والجاهلية ليست فترة تاريخية؛ إنما هي حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام . وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر ، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة . ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد ، أو أهواء طبقة ، أو أهواء أمة ، أو أهواء جيل كامل من الناس . فكلها أهواء ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله .

فحينما يشرع فرد لجماعة أو طبقة لسائر الطبقات أو ممثلوا جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمه لأنفسهم فإذا هي جاهلية . لأن أهواء الناس ومصالحهم هو القانون ، ولأن رأي الفرد أو الأغلبية البرلمانية أو رأي الشعب هو القانون ، فلا فرق إلا في العبارات . وحينما يشرع خالق الأفراد ، وخالق الجماعات ، وخالق الأمم والأجيال ، للجميع ، فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد . لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة ، ولا لجيل من الأجيال . لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء . ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع ، فلا يفوته سبحانه أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكِتاب بالحق مصدقًا لِما بين يديهِ مِن الكِتاب ومهيمِنا عليهِ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءكَ مِنَ الحَقِ لِكلٍ جعلنا مِنكمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُم فاستبقوا الخيراتِ إلى اللهِ مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فِيهِ تختلِفون (48) وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتِنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [المائدة: 48-50]. فعندما يشرع الله للناس . فإذا هم كلهم أحرار متساوون ، لا يحنون جباههم إلا لله ، ولا يعبدون إلا الله . وعندما يشرع غير الله للناس . فإذا هم عبيد من يشرع لهم . كائناً من كان . فرداً أو طبقة أو أمة أو مجموعة من الأمم . ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان ، وفي نظام الكون كله . مصداقاً لقوله تعالى : { وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ } [المؤمنون: 71]. فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان .

ولو اتبع الحق الذى جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم أهواء المشركين ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالتوحيد وهم يريدون الشرك ، وجاءهم بمكارم الأخلاق ، وهم يريدون ما ألفوه من شهوات ، وجاءهم بالتشريعات العادلة الحكيمة ، وهم يريدون التشريعات التي ترضى غرورهم وأوضاعهم الفاسدة ، وإن كراهة أكثرهم للحق الذي جاءهم به عليه السلام كونه مخالفاً لأهواءهم ، كما في قوله تعالى : { بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ } [المؤمنون: 70].

إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده لأنهما أخص خصائص الألوهية . فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله . فالله وحده هو الذي يحل ويحرم . وليس لأحد غيره أن يشرع في هذا وذاك وليس لأحد أن يدعى هذا الحق . لأن هذا مرادف تماماً لدعوى الألوهية! ذلك أن الإسلام وهو يشرع للحياة كلها قد راعى كل ملابساتها؛ وكانت شريعة عملية واقعية لا تعقيد فيها ، ولا تعويق لجريان الحياة في مجراها . فالله الخبير البصير ، الذي يعلم من أمر الناس ما لا يعلمون[154] .

154- راجع تفسير الظلال 218/1، 2/ 80 ، 367-368 ، وتفسير طنطاوي ، 3029، وتفسير ابن عاشور ، 9/ 387

– الفصل الرابع –

استدلال إبراهيم عليه السلام برحمة الله تعالى الواسعة على ألوهيته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

*** تمهيد :**

إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة تفضلاً منه وإحساناً ، لم يوجبها عليه موجب قال تعالى : { كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } [الإنعام: 12]. وقال صلى الله عليهِ وسلّم : " إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي " [155].

ورحمة الله من السعة والشمول بحيث تغمر الوجود كله ، قال تعالى : { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا } [غافر: 7]. فبهذه الرحمة الإلهية يقوم نظام الوجود وبقائه ، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [فاطر: 41]. وبها أيضاً تقوم الحياة بجميع أشكالها ، قال تعالى : { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } [الأنبياء: 30].

ورحمة الله تفيض على عباده جميعاً؛ وتسعهم جميعاً؛ وبها يقوم وجودهم ، وتقوم حياتهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جعل الله الرحمة مائة جزء . فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » [156]. وعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي . فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها ، إذ وجدت صبياً في السبي ، فأخذته ، فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال صلى الله عليه وسلم : أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟ قلنا : لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه . قال : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » [157].

ورحمة الله تعالى حقيقة واقعة منظورة ، لا تحتاج إلى أكثر من النظر والتدبر لآثارها الظاهرة في كل أرجاء الكون ، قال تعالى : { فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } [الروم: 50]. فهي تتجلى بمظاهرها المتعددة والمشهودة في واقع الناس وحياتهم .

---

155 – رواه البخاري في صحيحه :برقم (7015)

156– صحيح البخاري رقم (5654) وصحيح مسلم رقم (2752)

157– أخرجه الشيخان: صحيح البخاري رقم (5653) وصحيح مسلم رقم (2754)

وإن تقرير القرآن لهذه الحقيقة إنما هو ليلزمهم بمقتضاها التعبدي من تفرده بالألوهية والدينونة لله تعالى وحده ، وهي طريقة الجدل القرآني ، الذي يتخذ من مشاهد الكون المنظورة ، وواقع الحياة المشهودة ، مادته وبرهانه؛ ويجعل من ساحة الكون العريض مجاله وميدانه ، وهي طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في تعليمه لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية ، بهذا الأسلوب الموحي ، فقد كان يؤسس لهم منهج الفكر والنظر ، في تقرير حقائق الإيمان ومقتضياته التعبدية ؛ ثم يجعل من سيرته العطرة ، قدوة عملية لتطبيق هذا المنهج الإيماني في أرض الواقع .

وهكذا كانت طريقته عليه الصلاة والسلام في في تقرير رحمة الله تعالى والاستدلال بها على مقتضاها التعبدي ، وتطبيق مبدأ الرحمة في سيرته ، ثم يطالبهم ليتخلقوا بصفة رحمته تعالى ، ليتراحموا فيما بينهم وليرحموا الأحياء جميعاً؛ ولتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة وهم يتعاملون بها ، كما تذوقتها في معاملة الله لهم بها من قبل . فعن ابن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الراحمون يرحمهم الله تعالى . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »[158] . وعن جرير – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس »[159] . وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : قال صلى الله عليه وسلم : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي »[160] .

فالرحمة في المنطق الإسلامي ليست نافلة من النوافل ، بل هي فريضة واجبة ، وتبعة ملزمة من تبعات الحياة ، لذلك كانت الرحمة نهجاً سائداً في الحياة الإسلامية ، وشاملاً لكل جوانبها ، فلم يكن صلى الله عليه وسلم يقف في تعليمه لأصحابه – رضوان الله عليهم – عند حد الرحمة بالناس. وقد علم أن رحمة ربه وسعت كل شيء .

وأن المؤمنين مأمورن أن يتخلقوا بصفات الله من الرحمة والرأفة؛ وأن الإنسان لا يبلغ تمام إنسانيته إلا حين يرحم كل حي تخلقاً بصفة الله سبحانه ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل : لقد بلغ

---

[158]– رواه الترمذي في سننه برقم (1924) وابي داود في سننه برقم (4941) قال الشيخ الألباني : حديث صحيح

[159] – أخرجه الشيخان صحيح البخاري رقم (6941) وصحيح مسلم رقم(2319) والترمذي في سننه رقم (1922 ، 2381)

[160]– أخرجه الترمذي في سننه برقم(1923) وأبي داود برقم (4942)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقي ، فسقى الكلب . فشكر الله تعالى له فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال : في كل كبد رطبة أجر »[151] . وهكذا علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه هدى القرآن . ليتذوقوا رحمة الله من خلال مزاولتهم للرحمة .

فإن استقرار هذه الحقيقة في تصور المسلم لينشيء في حسه وفي حياته وفي خلقه آثاراً عميقة ؛ فإن الشعور بهذه الحقيقة ليسكب في قلب المؤمن الطمأنينة إلى ربه ، حتى وهو يمر بفترات الابتلاء بالضراء ، لأنه يستيقن أن الرحمة وراء كل محة ، و كل حالة ، و كل وضع؛ وهذه الطمأنينة إلى رحمة الله تملأ القلب بالثبات والصبر ، وبالرجاء والأمل ، وبالهدوء والراحة .

والشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يستجيش في حس المؤمن الحياء من الله . فإن الطمع في المغفرة والرحمة لا يجرىء على المعصية ، إنما يستجيش الحياء من الله الغفور الرحيم . والقلب الذي يجرئه الرحمة على المعصية هو قلب لم يتذوق حلاوة الإيمان ، فإن الشعور بهذه الحقيقة على هذا النحو يؤثر تأثيراً قوياً في خلق المؤمن ، وهو يعلم أنه مأمور أن يتخلق بصفة رحمة الله سبحانه وهو يرى نفسه مغموراً برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه .

فيعلمه ذلك كله كيف يرحم ، و كيف يعفو ، و كيف يغفر . كما رأينا في تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه؛ مستمداً تعليمه لهم من هذه الحقيقة الكبيرة .

والمنهج القرآني يقرر حقيقة رحمة الله الواسعة بآثارها المشهودة في حياة الناس والتي تتجلى بمظاهرها المختلفة ، من رحمته تعالى بقضائه وقدره ، ورحمته في تشريعه وحكمه ، ورحمته في حلمه ومغفرته ، ورحمته في حسابه وجزاءه ، وهذا التقرير القرآني لرحمة الله تعالى ليس للتقرير النظري ، وإنما ليطالبهم بمقتضى هذا الإقرار لتأسيس منهج الفكر والنظر ، لتكوين المعتقد الإيماني ، وليلزمهم بمقتضياتها التعبدية ، من سلوك طريق الرحمة كممارسة إيمانية ، وسلوك اعتقادي ، فالرحمة في المنطق الإسلامي ليست نافلة من النوافل ، بل هي فريضة واجبة ، وتبعة ملزمة من تبعات الحياة ، فهي ضريبة الوجود الإنساني وأولى تبعاته ، وليست هي مجرد موقف نفسي أو شعور وجداني يتصدق بها صاحبها على الآخرين .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[151] - أخرجه مالك برواية يحي برقم (1661) والشيخان : أخرجه البخاري حديث رقم (2234) ومسلم رقم (2244)

لذلك كانت الرحمة نهجاً سائداً وعاماً في الحياة الإسلامية ، وشاملاً لكل جوانبها ، وسمة من سماها الظاهرة التي تعبر عن حالة الرشد والتكامل والتكافل الإنساني [454] .

قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى " [455] .

وسوف نستعرض المنهج القرآني في الاستدلال برحمة الله تعالى على وجوب تفرده بالألوهية ، من خلال قصة إبراهيم عليه السلام وذلك من خلال المباحث التالية :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[454] - راجع تفسير الظلال : 2 / 483-488 ، أثر العقيدة ، زكريا الشلول : 180-182 ، إسلاميات ، خالد محمد خالد : 307-309

[455] - أخرجه البخاري في صحيحه برقم (5665) صحيحه ومسلم برقم (2586)

– المبحث الأول –

رحمة الله تعالى في قضاءه وقدره

إن رحمة الله تعالى هي قاعدة قضائه في خلقه ، وقاعدة معاملته لهم في الدنيا والآخرة . وهذه القاعدة تدخل في مقوّمات المعتقد الإيماني ، فرحمة الله بعباده هي الأصل ، حتى في ابتلائه لهم أحياناً بالضراء . فهو يبتليهم ليعد طائفة منهم بهذا الابتلاء لحمل أمانته ، بعد الخلوص والتجرد والمعرفة والوعي والاستعداد والتهيؤ عن طريق هذا الابتلاء؛ وليميز الخبيث من الطيب ، وليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه؛ وليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة .

فإن لله تعالى رحمة عامة تشمل جميع الخلائق في تدبير معاشهم وتقسيم أرزاقهم ، بما يحقق مصالحهم ، ويقيم حياتهم ، قال تعالى : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [الزخرف: 32].

فإن الله تعالى يقسم الأرزاق بين عباده بما تقتضيه الحكمة في تحقيق مصالح العباد من الشمول والتكامل والتوازن وفي هذا عين الرحمة والرفق بالعباد ، قال تعالى : { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ } [الشورى: 28]. وقال تعالى : { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } [الشورى: 19]. بسط الله الرزق مع رحمته فإذا هو متاع طيب ورخاء؛ وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة . ويمسك رحمته ، فإذا هو مثار قلق وخوف ، وإذا هو مثار حسد وبغض ، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض ، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار .

فالمال والولد ، والصحة والقوة ، والجاه والسلطان . تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله . فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان . قال تعالى : { مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [فاطر: 2]. وما من نعمة يمسك الله معها رحمته حتى تنقلب هي بذاتها نقمة . وما من محنة تحفها رحمة الله حتى تكون هي بذاتها نعمة . ينام الإنسان على الشوك مع رحمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الله فإذا هو مهاد . وينام على الحرير وقد أمسكت عنه فإذا هو شوك القتاد . ويعالج أعسر الأمور برحمة الله فإذا هي هوادة ويسر . ويعالج أيسر الأمور وقد تخلت رحمة الله فإذا هي مشقة وعسر . ولا ضيق مع رحمة الله . إنما الضيق في إمساكها دون سواه . لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن ، أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك . ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم ، وفي مراتع الرخاء . فمن داخل النفس برحمة الله تتفجّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة . ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة! ويمنح الله الذرية مع رحمته فإذا هي زينة في الحياة ومصدر فرح واستمتاع ، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله . ويمسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء ، وسهر بالليل وتعب بالنهار! ويهب الله الصحة والقوة مع رحمته فإذا هي نعمة وحياة طيبة ، والتذاذ بالحياة . ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلطه الله على الصحيح القوي ، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح ، ويدخر السوء ليوم الحساب!

ويعطي الله السلطان والجاه مع رحمته فإذا هي أداة إصلاح ، ومصدر أمن ، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر . ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوتهما ، ومصدر طغيان وبغي بهما ، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر له معهما قرار ، ولا يستمتع بجاه ولا سلطان ، ويدخر بهما للآخرة رصيداً ضخماً من النار!

ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك . ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة . ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة . وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة . والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها . وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبداً : { إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون } ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال . وجدها إبراهيم عليه السلام في النار . ووجدها يوسف عليه السلام في الجب كما وجدها في السجن . ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ثلاث . ووجدها موسى عليه السلام في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة ، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه . ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور . فقال بعضهم لبعض : { فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته } ووجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في

الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار . ووجدها كل من آوى إليها يأساً من كل ما سـواها . منقطعاً عن كل شبهة في قوة ، وعن كل مظنة في رحمة ، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب .

وحقيقة الاختصاص بالرحمة ، إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها . ومتى أمسكها فلا مرسل لها . ومن ثم فلا مخافة من أحد . ولا رجاء في أحد . ولا مخافة من شيء ، ولا رجـاء في شيء . ولا خوف من فوت وسيلة ، ولا رجاء مع الوسيلة . إنما هي مشيئة الله . ما يفتح الله فلا ممسك . وما يمسك الله فلا مرسل . والأمر مباشرة إلى الله .وما بين النـاس ورحمـة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه ، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجـاء وفي ثقـة وفي استسلام .

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : " كنت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات : إحفظ الله يحفظك إحفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعـوك إلا بشئ قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف " [164].

إن رحمة الله لا يمسكها شيء إذا أراد الله أن يفتحها على من يشاء . وإنه ليس للبشر شيء من ملك السماوات والأرض ، وإنما يفتح الله من رزقه ورحمته على من يشاء . ورحمة الله من الفتح والإمساك إنما تجري بموجب الحكمة ، وإنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير ، ويـنعم عليهم بشتى الإنعامات بلا قيد ولا حد ولا حساب .

وهكذا أنشأ القرآن بمثل هذه المعاني وهذه الحقائق الصحابة الكرام ، ليكونوا أداة من أدوات القدرة الإلهية ، ويقروا في الأرض ما شاء الله من عقيدة وتصور ، وقيم وموازين ، ونظم وأوضاع . ذلك أنها لم تكن تتعامل مع ألفاظ هذا القرآن ولكنها كانت تتعامل مع الحقيقة التي تمثلها آيات القرآن ، وتعيش في واقعها بها ولها .

وما يزال هذا القرآن قادراً على أن ينشئ بآياته جيلاً وأفراداً كالصحابة ، تمثل قدر الله تمحـو وتثبت في الأرض بإذن الله ما يشاء الله . ذلك حين تستقر هذه الحقائق الإيمانيـة في القلـوب ،

---

[164] – رواه الترمذي في سننه : برقم (2516) . واحمد في مسنده : برقم (2669) قال الألباني : صحيح ، انظر المشكاة (5302) وظلال الجنة (316 – 318)

وتطبقها في الواقع وتتمثلها حقاً . وحقيقة رحمة الله تعالى هي جزء من هذه الحقائق الإيمانية التي تسكب حقيقتها في الروح وتحقق معناها في الواقع ، لتكون رحمة الله بذاتها تفسيراً واقعياً للحقيقة الإيمانية ، حينما تتمثل في نماذج بشرية تترجمها ممارسة إيمانية[165] .

وقد استدل إبراهيم عليه السلام برحمة الله تعالى في قضاءه وقدره واختصاصه بها ، على تفرده تعالى بالألوهية واستحقاقه العبودية ، ومن ذلك :

الشاهد الاول :

قال تعالى : { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [الشعراء: 78-83].

إن إبراهيم عليه السلام جمع في هذه الآيات جميع نعم الله تعالى وتجليات رحمته بعباده من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار الآخرة ، ليستدل بها على وجوب تفرده تعالى بالعبادة ، ونفي الإلهية عن سواه ، فقد استدل عليه السلام برحمة الله تعالى الواسعة فيما يقضي ويقدر على ألوهيته ، وما يقتضي هذه الرحمة من مستلزمات وما يلائمها من مقتضيات العبادة ، والتي تتجلى بما يلي :

1. رحمته تعالى بنعمة الخلق والإيجاد ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية ، كما في قوله : { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } . فقد استدل عليه السلام برحمة الله تعالى في وجوده ووجود البشر ابتداء وبإعطائه نعمة العقل والقدرة على التفكير والاستعداد للمعرفة ، كما في قوله تعالى : { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } [العلق: 1-5]. فقد منح الله تعالى الإنسان من خصائص التكريم والتفضيل على سائر المخلوقات ، كقوله تعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } [الإسراء: 70].

وموجب هذه الرحمة الإلهية المتمثلة بخلق الإنسان ، هو الدينونة لله تعالى وحده بالعبادة والطاعة والثناء والحمد والشكر ، قال تعالى : { ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ

[165]- راجع : تفسير الظلال ، 6/131-134 ، وتفسير الألوسي ، 16/345

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } [السجدة: 6-9]. وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } [الانفطار: 6-8]. وقال تعالى : { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا } [الكهف: 37-38].

كما أن رحمة الله تعالى المتمثلة في منح الإنسان الاستعداد للمعرفة تلك الطاقة الواعية التي يستطيع من خلالها الإدراك والتميز والحكم على الأشياء ، قال تعالى : { وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل: 78].

وإن هذه الرحمة التي كرم الله بها الإنسان وفضله على كثير من مخلوقاته ، تقضي منه أن يشكر الله على هذه النعمة العظيمة من خلال التفكر في آيات الله المبثوثة في الكون والأحياء ، والمسطورة في كتابه العزيز ، قال تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران: 191]. وقال تعالى : { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر: 21].

كما تقضي منه أن لا يعطل هذه الطاقة الخلاقة عن القيام بعملها وفق ما أمر الله ، وتوجيهها إلى ما فيه الخير والصلاح ، ومنعها عن الشر والفساد . وقد جاءت النصوص القرآنية في تقرير هذه الحقائق وتوكيدها في كثير من آياته . قال تعالى : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [الاعراف: 179]. وقال تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ: 46]. كما تقضي كذلك الاعتبار بالعاقبة والنذر ، قال تعالى : { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الزمر: 9]. إلى غير ذلك من مقتضيات العبادة التي توجب

العبد أن يشكر الله على نعمه وفضله ورحمته ، وان يستعين بها على طاعته ، ويوظفها توظيفاً صحيحاً بما يحقق الخير والصلاح في الأرض ، وبما يحقق غاية وجوده وهو مرضاة ربه عز وجل .

2. رحمته تعالى في إمداد الإنسان بالرزق الذي به دوام الحياة وبقاء نظام حياة الإنسان وهو الغذاء والماء ، كما في قوله تعالى : { وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } . فقد استدل بربوبية الله بإمداده الرزق من الطعام والشراب ، وذلك بتسخير قوى الكون وطاقته للإنسان ، وإمداده بكل أسباب الحياة ، ووسائل العيش بما يكفل بقاءه ويحفظ حياته ، وليس الإطعام والسقي عبارتين عن مجرد خلق الطعام والشراب له أو تمليكهما إياه بل يدخل فيهما أيضاً إعطاء جميع ما يتوقف الانتفاع بالطعام والشراب عليه كالشهوة وقت المضغ والابتلاع والهضم والدفع ونحو ذلك .

وهذا يستوجب على الإنسان أن يقابل رحمة الله وفضله تعالى بالحمد والشكر قولاً وعملاً ، وليس بالكفر والجحود والعصيان ، قال تعالى : { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [النحل: 4-7]. إلى قوله : { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [النحل: 14-18]. وقوله تعالى : { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [القصص: 73]. وقال تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الروم: 46].

3. رحمته تعالى فيما يعتري المرء من اختلال المزاج وشفائه ، كما في قوله : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } . فإذا نزل بالإنسان مرض في جسمه فالله وحده من يملك الشفاء ، لذلك فعلى العبد أن يأخذ بإسباب الشفاء ، ويفوض الأمر إليه وحده ، بتيسير أسبابه ، فإبراهيم في الصحة والمرض يحس بتلك الكفالة المباشرة الحانية الراعية، الرفيقة الرحيمة، ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح ، إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والأفضال ، إذ يطعمه ويسقيه ، ويشفيه . ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فالإنسان يتقلب في رحمة الله تعالى في حالة السراء والضراء ، وهذه الحقيقة لا يدركها إلا أصحاب الإيمان ، الذين لا تنحصر مداركهم في ظاهر الحياة الدنيا ، بل تخترق حجب الغيب فيدركون ما لا يدركه أولئك السطحيون ، ففي الحديث الشريف : " عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له "[166]. وإن العبد لا ينفك عن مقام الرجاء في رحمة الله تعالى سواء في السراء والضراء ، لأنه يحسن الظن بالله ، فهو في السراء يرجو رحمة ربه ، من أجل عونه وتوفيقه على حمده وشكره ، ودوام نعمته وفضله ، وفي الضراء فهو يرجو رحمته ، ليعفو عنه ، ويكشف له ضره .

والمتأمل في قصص الأنبياء عامة وقصة إبراهيم خاصة يجد هذه الحقيقة واضحة ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 83-90]. وقوله تعالى : { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } [يوسف: 56]. وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : { فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } [مريم: 50]. وقوله تعالى : { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ } [الأنبياء: 68-72].

---

[166] – أخرجه أحمد (333/4 ، رقم 18959) ، ومسلم (2295/4 ، رقم 2999) ، والدارمي (409/2 ، رقم 2777) ، وابن حبان (155/7 ، رقم 2896) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4. رحمته تعالى بتقدير الموت الذي هو خاتمة الحياة الأولى ، ثم الحياة الثانية كما في قوله : { والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ } . وذلك للإشارة إلى أن الموت حالة لا يظهر كونها نعمة إلا بغوص فكر ، فالموت يعني التخلص عن آفات الدنيا وعقوباتها ، وكذلك وراءه حياة هي نعمة لا محالة لمن شاء أن تكون له نعمةً ، فتقدير سنة الموت والحياة بين العباد يجري وفق الحكمة الإلهية التي أشار إليها تعالى بقوله : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ } [الملك: 2] .

وتتجلى هذه النعمة والرحمة من الله تعالى بعباده الذين استقاموا على منهجه ، من نزول رحمته وفضله عليهم عند الموت وما بعده ، كما في قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ } [فصلت: 30-32]. لأن الموت لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب الأبدية التي يستحقر دونها الحياة الدنيوية . وفيه تخليص الإنسان من اكتساب المعاصي ، وكفران نعمة الله ، قال تعالى : { قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (18) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (22) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ } [عبس : 17- 23].

5. رحمته تعالى بتقدير المغفرة للذنوب التي تصدر من الخلق ، كما في قوله : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } . حيث قدر سبحانه على الإنسان القابلية للهدى والضلال ، والطاعة والمعصية ، لقوله تعالى : { فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } [الشمس: 8]. وقوله تعالى : { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا } [الإنسان: 3]. ولذلك أظهر إبراهيم عليه السلام نعمة الله في جبر الذنوب التي تصدر من البشر فيما قدره من رحمته بمغفرة الذنوب ومحوها ، فضلاً منه ورحمة بعباده .

فقد استدل إبراهيم عليه السلام بالصفات التي يستحق المتصف بها الألوهية وهي الأوصاف الفعلية التي تخص البشر ، وذلك بتعديد نعمه تعالى وفضله وواسع رحمته على عباده ، تعريفاً بربهم الحق وتذكيراً لأولئك الجهلة المشركين ، فحاصل معنى قوله : فأنا اعبد رب العالمين الذي خلقني وتكفّل برعايتي ، وهداني الى الدين الذين يدلّني على أسلوب الحياة الصحيح . انه هو الذي يسّر لي الرزقَ وأنعم عليّ بالطعام والشراب ، وهو الذي ينعم علي بالشفاء إذا مرضتُ ، وهو الذي يميتني

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اذا حلّ أجَلي ، والذي يحييني مرةً أخرى للحساب والجزاء ، وأنا أطمع ان يغفر لي ذنوبي يوم القيامة ، فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب ، فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة، لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد .

ونلاحظ من ذكر إبراهيم لربه إنما يذكره في مقام الإنعام والإفضال والرحمة الواسعة التي تتجلى في كل حركة وفي كل حاجة وغاية ، وإن شعوره بهذه الرحمة والعناية الإلهية ، تجعله يعيش بكيانه كله مع ربه ، ويتوجه إليه في حب وامتنان ، وشكر دائم واستسلام مطلق ؛ وهو يحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه .

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين . والإقرار بفضل الله ورحمته بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض . وفي البعث والحساب بعد الموت . وهي العناصر التي ينكرها قومه ، وينكرها المشركون . لذلك فقد استدل ابراهيم برحمة الله الواسعة التي تتجلى في حياتهم بما يقرون بها ولا يملك عاقل على إنكارها ، ليطالبهم بلازم إقرارهم ، فعندما قرر أن النعم كلها من عند الله وحده دون غيره ، بين لهم ما يجب على المنعم عليه ببعضها فضلاً عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها ، وأولاها العبادة .

والمتتبع للمنهج القرآني يجد هذه الطريقة من الاستدلال برحمة الله في الخلق والإيجاد ، وإمداد الإنسان بكل أسباب الحياة ، وتسخير كل طاقات الكون له ، وتفضيله على سائر المخلوقات ، على وجوب القيام له تعالى بحق العبودية من المحبة الخالصة والشكر قولاً وعملاً[167] ، طريقة واضحة في كثير من آياته ، كما في قوله تعالى : { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ

[167]- راجع تفسير الظلال ،5/352-352 ، وتفسير الألوسي ،14/253 ، وتفسير الرازي ، 11/484، وتفسير ابن عاشور ، 10/177، وتفسير السعدي ، 593 ، وتفسير ابن عطية ، 5/137، وايسر التفاسير ، الجزائري ، 3/108، ومنهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ، د . منى بنت عبد الله ، 57-58

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } [البقرة: 163-165].

الشاهد الثاني :

قال تعالى : { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر : 54-56].

لقد وردت قصة إبراهيم عليه السلام لتقرير حقيقة من حقائق الإيمان . وهي حقيقة رحمة الله تعالى ، وذلك من خلال الاستدلال بها على ما يلازمها من المقتضيات التعبدية ، والتي من أبرزها رجاء الله تعالى ، وعدم القنوط من رحمته ، فجاءت هذه القصة بعد قوله تعالى : { نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ } [الحجر: 49-50].

لتكون قصة إبراهيم وما بعدها تجسيداً عملياً لهذه الحقيقة الإيمانية ، التي تقرره هاتين الآيتين ، فأنت ترى أن الله تعالى قد جمع فيهما بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبيان سنته فى خلقه ، ولكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يقنط من رحمة الله ، ولا يقصر فى أداء ما كلفه ربه به .

وقد قدم سبحانه نبأ الغفران والرحمة ، على نبأ العذاب والانتقام ، جريا على الأصل الذي ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت انتقامه . ومقتضى هذه الحقيقة هو أن لا يقنط الإنسان من هذه الرحمة الإلهية الواسعة ، وقصة إبراهيم تجسد هذا المعنى واقعياً ، فقد تجلت رحمة الله تعالى على إبراهيم وأهل بيته بإعطائهم الولد على خلاف السنن الجارية ، ومع انقطاع الأسباب المادية ، ومعلوم أن قدرة الله تعالى هي التي تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج ، وتغير الواقع كما تغير الموعود .

وإن هذه الأسباب إنما تجري وفق أمر الله ومشيئته ، وهذه المشيئة الإلهية المطلقة النافذة ، حينما تجري في دنيا الواقع ويجهل الإنسان ما وراثها من قصد وحكمة ، فإن المقتضى الإيماني يوجب ردها إلى مقتضى عدله تعالى ، وإلى مقتضى علمه وحكمته ، وإلى مقتضى رحمته وفضله ، وهذا ما فعله الملائكة من أمر خبر البشرى لإبراهيم وزوجه ، وإزالة الدهشة والتعجب عنهما برد الأمر إلى مشيئته ومقتضى علمه وحكمته ورحمته ، فعندما جاءت الملائكة إلى إبراهيم وزوجه بالبشرى التي

تخرج عن السنن الجارية ومألوف البشر ، أخذهما المفاجأة العنيفة ، وقد ظهر ذلك من استفهام إبراهيم عليه السلام للملائكة بقوله : { فَبِمَ تُبَشِّرُونَ } فهو استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى ونفاذ أمره ، حيث وهبه هذا الغلام في تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته ، والتي جرت العادة أن لا يكون معها إنجاب الأولاد . ويدل لذلك أنه تعالى ذكر أن ما وقع له وقع نظيره لامرأته حيث قالت { أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ } . وقد بين تعالى أن ذلك الاستفام لعجبها من ذلك الأمر الخارق للعادة في قوله : { قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله } [هود: 73]. ويدل له أيضاً وقوع مثله من نبي الله زكريا عليه السلام ، فقد عجب من كمال قدرة الله تعالى ، فقال : { قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر وامرأتي عَاقِرٌ } [آل عمران: 40]. ومقصودهم من هذا هو استعظام نعمته تعالى عليهم في ضمن التعجب العادي المبني على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده ، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته جل جلاله ، فهو استبعاد باعتبار العادة دون القدرة ، فإن الأنبياء عليهم السلام أجل قدراً من ذلك .

فعندما أخذت المفاجأة إبراهيم وزوجه ، عندئذ ردهما المرسلون إلى الحقيقة الأولى . حقيقة القدرة التي لا يقيدها شيء ، فكل شيء يكون بقوله : { كن } . وإن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري ، وتحدان من تصوراته . فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له؛ ويعجب كيف يكون؛ وقد يتبجح فينكر أن يكون! ولكن المشيئة الإلهية المطلقة لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود؛ فهي ماضية في طريقها تبدع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود! والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم ، ورحمة ولطف ، وهذا ما أخبرت به الملائكة ، حينما ردت أمر الله تعالى إلى مقتضى حكمته وعلمه : { قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [الذاريات: 30].

وكذلك ردت الأمر كله لله تعالى ، وجريانه وفق مقتضى رحمته ، التي اختص بفضله إبراهيم وأهل بيته ، كما في قوله تعالى : { قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود: 73].

فقد عللت الملائكة إنكارهم على زوجة إبراهيم بما يزيل تعجبها لأن يكون لها ولد ، بشمول رحمة الله تعالى لهم ، والمعنى : لا عجب من أمر الله لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة ، فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها وأنتم أهل لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندكم . ووجه تعليل نفي العجب بهذا أن التعجب إمّا أن يكون من صدور هذا من عند الله وإما أن يكون في تخصيص الله بفضله لإبراهيم عليه السّلام وامرأته فكان قولهم { رحمت الله وبركاته عليكم } مفيداً

تعليل انتفاء العجبين . فقد استبعد إبراهيم عليه السلام في أول الأمر أن يرزق بولد وقد مسه الكبر وزوجته كذلك عجوز عقيم ، وأكد هذا التعجب بالاستفهام الثاني بقوله : { فَبِمَ تُبَشِّرُونِ } استفهام تعجب . نُزل الأمر العجيب المعلوم منزلة الأمر غير المعلوم لأنه يكاد يكون غير معلوم .

وقد علم إبراهيم عليه السلام من البشارة أنهم ملائكة صادقون فتعين أن الاستفهام للتعجب ، فرده الملائكة إلى اليقين ، بأنهم بشّروه بالخَبَر الثابت الذي لا شك فيه :{ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين } . أي من اليائسين . فقد نهوه عن استبعاد ذلك بأنه استبعاد رحمة القدير بعد أن علم أن المبشّرين بها مرسلون إليه من الله فاستبعاد ذلك يفضي إلى القنوط من رحمة الله فقالوا : { فلا تكن من القانطين } . ذلك أنه لما استبعد ذلك استبعاد المتعجب من حصوله كان ذلك أثَراً من آثار رسوخ الأمور المعتادة في نفسه بحيث لم يقلعه منها الخبر الذي يعلم صدقه فبقي في نفسه بقية من التردّد في حصول ذلك فقاربتْ حاله تلك حال الذين يَيأسون من أمر الله .

ولما كان إبراهيم عليه السلام منزّهاً عن القنوط من رحمة الله جاءوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب ، فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين تحذيراً له مما يدخله في تلك الزمرة ، ولم يفرضوا أن يكون هو قانطاً لرفعة مقام نبوته عن ذلك . وهو في هذا المقام كحاله في مقام ما حكاه الله عنه من قوله : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة: 260]. وقوله : فلا تكن من القانطين . لا يدل على أنه كان كذلك ، بدليل أنه صرح في جوابه لهم بما يدل على أنه ليس كذلك فقال : { وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون } ومعلوم أن نهي الإنسان عن الشيء لا يدل على كون المنهى فاعلاً للمنهي عنه كما في قوله : { وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ } [الأحزاب: 1]. وفيه جواب آخر ، وهو أن الإنسان إذا كان عظيم الرغبة في شيء وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه ، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوي كالمدهش له ، فلعله يتكلم بكلمات مضطربة في ذلك الفرح في ذلك الوقت ، كحديث الذي أضلّ بعيره بأرض فلاة فقال من شدة الفرح " اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح " [168].

فقد كان استعجاب إبراهيم عليه السلام ودهشته هو وزوجه باعتبار العادة دون القدرة ولذلك : { قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون }. وهو استفهام إنكار في معنى النفي ، ولذلك استثنى منه { إلا الضالون } . يعني أنه لم يذهب عنه احتناب القنوط من رحمة الله ، ولكنه امتلكه المعتاد

168 - رواه مسلم في صحيحه ، برقم (2747)

فتعجب فصار ذلك كالذهول عن المعلوم فلما نبّهه الملائكة أدنى تنبيه تذكّر مقاماً نسيه فآب سريعا ، ونفى عن نفسه القنوط من رحمة الله بأبلغ وجه فهو عليه السلام ليس به قنوط من رحمته تعالى ، وليس حاله كحال الذين لا علم لهم بربهم ، وكمال اقتداره . لأن من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً . وبرزت كلمة { الرحمة } في حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع المقدمة في هذا السياق؛ وبرزت معها الحقيقة الكلية : أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور :

أحدها : أن يجهل كونه تعالى قادراً عليه .

وثانيها : أن يجهل كونه تعالى عالماً باحتياج ذلك العبد إليه .

وثالثها : أن يجهل كونه تعالى منزهاً عن البخل والحاجة والجهل .

فكل هذه الأمور سبب للضلال ، فلهذا المعنى قال : {وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلون}. أي : الضالون عن طريق الله ، الذين لا يستروحون روحه ، ولا يحسون رحمته ، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته . فأما القلب الندي بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد والخطوب ، ومهما غاب وجه الأمل في ظلال الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر ، فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين . وأما الكفرة المخطئون فهم الذين يقنطون من رحمة الله تعالى ، ويضلون طريق معرفة الله تعالى فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى .

وهذا المعنى قاله أيضاً يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لبنيه في قوله : { يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87] . أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه ، فقد جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين . إذ فيه إما التكذيب بالربوبية ، وإما الجهل بصفات الله تعالى . فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته ، وعن ابن مسعود قال : " أكبر الكبائر : الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله " [169].

فإن أريد باليأس إنكار سعة الرحمة للذنوب أو تفريج الكروب ، وبالأمن اعتقاد أنه لا مكر ، فكل منهما كفر اتفاقاً ، لأنه رد للقرآن العظيم ، وينافي حقيقة التوحيد ، وإن أريد استعظام

[169] - رواه عبد الرزاق في مصنفه برقم:(19701)

الذنوب واستبعاد العفو عنها استبعاداً يدخل في حد اليأس وغلبة الرجاء المدخل له في حد الأمن فهو كبيرة اتفاقاً ، وهو ينافي كمال التوحيد . وليس لأحد حجة في القنوط أو اليأس من روح الله تعالى ، وقد فتح الله تعالى أبواب رحمته الواسعة لعباده ، قال تعالى : { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ } [الشورى: 28]. وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له «اشتد القحط وقنط الناس فقال : إذن مطروا» أراد هذه الآية[170] .

وقصة ابتلاء أيوب وغيره ممن الأنبياء ، ورحمة الله بهم ، ورعايته لهم في الابتلاء . وتفريج الكروب من أوضح الأدلة على سعة رحمة الله تعالى بعباده والاستدلال بها على وجوب التعلق بها وعدم القنوط منها بحال ، قال تعالى : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (86) وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [النبياء: 90].

فالمؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق . وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه ، وفي أنس من صلته بربه ، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو في أشد الكروب . فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيّأ لها أسبابها ، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يُحيل مثل ذلك فحقّه أن يأخذ في سببه ويعتمد على الله في تيسيره ، وأما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها . لأن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال أو غير عالم بجميع المعلومات أو ليس بكريم وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، لذلك فقد بث سبحانه روح الأمل والرجاء

170- الطبراني، 537/20.

بسعة رحمته تعالى ، وتعلق القلب بها في كشف الضر وتفريج الكروب ، ليحفظ للنفس أصالتها ، ويقيها من عوامل التدمير ويعدها لمواجهة الصعاب وتحمل مشاق التكاليف [171] .

الشاهد الثالث :

قال تعالى : { قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود: 72-73].

لقد تضمنت قصة إبراهيم في هذه الآيات الكريمة مظهراً من مظاهر الرحمة الإلهية وبيان ما يلازمها من مقتضياتها التعبدية ، والتي وردت في معرض رد الملائكة على سارة زوجة إبراهيم حين تعجبت من البشرى التي جاءت على خلاف المعهود ، حيث ردوا الأمر إلى ما خصهم الله بواسع رحمته ومزيد فضله ، في قوله : {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ }. وبيان ما يقتضي هذا الاختصاص بالرحمة والفضل من وجوب مقابلتها بالحمد والشكر لله تعالى ، والثناء عليه بما يستحق من التعظيم والتمجيد ، في قوله : { إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } .

ففي هذه القصة دلالة واضحة على وجود رحمة خاصة يختص الله تعالى بها عباده المؤمنين من الأنبياء والأولياء والصالحين ، كما في قوله تعالى : { قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [آل عمران: 74]. فالله يختص برحمته من علم أنه حقيق بها لا سيما الرحمة المراد منها النبوة فإن الله يختص بها من خلقه قابلاً لها فهو يخلقه على صفاء سريرة وسلامة فطرة صالحة لتلقي الوحي شيئاً فشيئاً ، قال تعالى : { وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [يوسف: 22]. وقال : { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام: 124] .

ولذلك لم تكن النبوة حاصلة بالاكتساب لأن الله يخلق للنبوة من أراده لها لخطر أمرها بخلاف غيرها من الفضائل فهو ممكن الاكتساب كالصلاح والعلم وغيرهما ، ولما كانت الاستعدادات لمراتب الرحمة من النبوة فما دونها غير بادية للناس طوى بساط تفصيلها لتعذره ووكل إلى مشيئة الله

---

[171]- راجع : تفسير الرازي ، 9/ 320-321 ، وتفسير البحر المحيط لابو حيان ، 198/7 ، وتفسير الألوسي ، 115/9 ، 29/10 ، وتفسير السعدي ، 433، وتفسير طنطاوي ، 2475 ، وتفسير ابن عاشور ، 485/7-486 ، وتفسير الظلال ، 442/4-444 ، فتح المجيد ، لمحمد عبد الوهاب ، 346 ، القصص القرآني لصلاح الخالدي ، 424-426

التي لا تتعلق إلا بما علمه واقتضته حكمته سبحانه رفقاً بأفهام المخاطبين . كقوله تعالى : { وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف: 82]. وقوله : { قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [البقرة: 32]. إن إفراد الله بعض عباده بالرحمة منوط بمشيئته وحدها ، وليس لأحد كائناً من كان أي تأثير في ذلك ، فهو سبحانه المتفضل بأنواع التفضلات على سائر عباده فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً ، ويود عدم إصابة خير له ، والكل غريق في بحار فضله الواسع الغزير ، كما في قوله تعالى : { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [البقرة: 105].

وقوله : { والله ذو الفضل العظيم } تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة ، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتحلى عليه بصفة الفضل والرحمة فيتخلى عن المعاصي والخبائث ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه وفي الحديث الصحيح " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة "[172].

فهو سبحانه صاحب الجود العميم والفضل العظيم ، فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله تعالى على خلقه ، وإنما هو وحده صاحب النعم التي لا تحصى على عباده ، فعليهم أن يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع . واختصاص الله برحمته وفضله على بعض عباده فيه مزيد امتنان عليهم ، مما يوجب عليهم مزيد شكره وطاعته .

وقد استدل تعالى باختصاص رحمته لبعض عباده على وجوب التوجه لله تعالى وحده بالحمد والتمجيد ، كما في قصة إبراهيم حينما قالت الرسل لزوجته : { أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ } . فقد أنكروا عليها تعجبها لأنها كانت فى بيت النبوة والآيات ، ومهبط الوحي والمعجزات ، ومحل خوارق العادات ، فكان حقها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب . وإلى ذلك أشارت الملائكة فى قولهم { رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت } . أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمهم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليس بمكان عجب ، والكلام مستأنف علل به إنكارا التعجب ، لأن الإنكار في قوة النفي ، فصار المعنى : لا عجب من أمر الله لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة ،

[172]– رواه أحمد في مسنده، برقم (2804) والحاكم في مستدركه، برقم (6303)

فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها وأنتم أهل لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندكم . ووجه تعليل نفي العجب بهذا أن التعجب إمّا أن يكون من صدور هذا من عند الله وإما أن يكون في تخصيص الله به إبراهيم عليه السّلام وامرأته فكان قولهم { رحمت الله وبركاته عليكم } مفيداً تعليل انتفاء العجبين .

ثم أكدوا ذلك بقولهم : { إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ } . وهو تذييل حسن لبيان أن مقتضى حالها هو وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل . فهو فاعل ما يستوجب به الحمد والتمجيد من عباده لكثرة نعمه وسعة كرمه وإحسانه عليهم .

والمقصود من هذا الكلام ذكر ما يزيل ذلك التعجب ، فلا عجب من أمر الله . فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل . وعندما يشاء الله لحكمة يريدها وهي هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه يقع ما يخالف العادة ، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التي لا نعلم حدودها ، والذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله سبحانه في كتابه ، وليس للعقل البشري قول في ذلك ، فمشيئة الله سبحانه طليقة وراء ما قرره الله سبحانه من نواميس . ولا تتقيد هذه المشيئة بالنواميس .

ذلك أن الناموس الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق ، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق . وعندما يختص سبحانه عبداً من عباده بواسع رحمته وفضله ، وبره وإحسانه ، فإن مقتضى هذه الرحمة الخاصة ، هو مزيد من الحمد والشكر لله ، والتعظيم والتمجيد بما يستحق من أنواع العبادة والثناء عليه ، فهو أهل لأن يحمد ويشكر ، وأن يعظم ويمجد ، وأن يعبد ويطاع ، ومن أعظم الظلم أن يكون ذلك لأحد سواه[173] .

الشاهد الرابع :

قال تعالى : { فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } [مريم: 49-50].

---

[173]- راجع : تفسير الرازي، 260/1، 443/8،وتفسير الالوسي،8/1،307/453،وتفسير البقاعي 178/4،وتفسير الظلال 253/4-254، وتفسير ابن عاشور، 324/4 ، 172/7 ، وتفسير السعدي 386 ، وتفسير طنطاوي ، 645، 2234، وتفسير اللباب، 136/9

إن الرحمة تذكر هنا لأنها السمة البارزة في جو السورة ، فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا : { ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا } [مريم: 2]. ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيراً . ويكثر فيها اسم { الرحمن } . ويصور النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ود : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } [مريم: 96]. ويذكر من نعمة الله على يحيى أن آتاه الله حناناً : { وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا } [مريم: 13]. ومن نعمة الله على عيسى أن جعله براً بوالدته وديعاً لطيفاً : { وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا } [مريم: 32].وإنك لتحس لمسات الرحمة والرضى والاتصال ودبيبها اللطيف في الكلمات والعبارات والظلال : { كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا } [مريم: 21]. { وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا } [مريم: 53].

ويذكر سبحانه رحمته الواسعة في هذه الآيات ليبين موجبات رحمته التي خصها لعباده المتقين ، مستدلاً بذلك على سلوك طريق الاستقامة بإتباع منهج الله تعالى لنيل رحمته الخاصة التي كتبها للموصوفين بصفات تؤذن باستحقاقها ، مصداقا لقوله تعالى : { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ } [الأعراف: 156-157]. إن رحمة الله من شأنها أن تعم في الدنيا الخلق صالحهم وطالحهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فالرحمة الدنيوية عامة وأما الرحمة الأخروية فهي خاصة لمن يستحقها عنده .

فقد بين تعالى بهذه الآية من هم أهل لرحمته ورضوانه ، وأن هذه الرحمة لا يفوز بها إلا من اتقى وآتى الزكاة وآمن وكان متبعاً للنبي الأمي في شرائعه . فجعل سبحانه هذه الأشياء موجب لنيل تلك الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة .

وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى شمول رحمة الله تعالى ونيل فضله ورضوانه ، وإلى تحصيل السعادة الدينية والدنيوية ، وما أصدق قوله تعالى : { فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } . وقد رتّب سبحانه جزاء إبراهيم على نبذه أهل الشرك ترتيباً بديعاً إذ جوزي بنعمة الدنيا وهي العقب الشريف ، ونعمة الآخرة وهي الرحمة ، وبأثر تينك النعمتين وهو لسان الصدق ، إذ لا يذكر به إلا من حصل النعمتين ، ومعلوم أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، فما خسر على الله أحد ، فإن إبراهيم عليه السلام لما اعتزلهم في دينهم وفي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بلدهم واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره لم يضره ذلك ديناً ودنيا ، بل نفعه فعوضه أولاداً أنبياء ولا حالة في الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعله الله رسولاً إلى خلقه ويلزم الخلق طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة فصار جعله تعالى إياهم أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة ، ثم بين تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي وهب لهم من النبوة ما وهب ويدخل فيه المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ، فكل من اعتزل الخلق طلباً للحق ، ورجح مرضاة الله على كل من سواه ، فلا بد أن تفيض عليه رحمة الله العظيمة وفضائله الجليلة .

وقصة إبراهيم هنا شاهد على هذه الحقيقة الإيمانية التي تبرز بوضوح ليوجه إليها قلوب المسلمين كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه ، فقد مر إبراهيم بالتجربة التي يعانيها كثير من المسلمين المهاجرين لله ، قال تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ } [الممتحنة: 5]. فهي البراءة من القوم ومعبوداهم وعباداهم . وهو الكفر بهم والإيمان بالله . وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان .

وهذه المفاصلة العقدية الشعورية يجب أن تتم منذ اللحظة الأولى . لأن هذه المفاصلة بين التوحيد والشرك ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل في الاعتقاد ، وأصل التصور ، وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق . إن التوحيد منهج ، والشرك منهج آخر لا يلتقيان . التوحيد منهج يتجه بالإنسان مع الوجود كله إلى الله وحده لا شريك له . ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان ، عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله ، الله وحده بلا شريك . ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس . غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية . والفارق بين الجاهلية والإسلام بعيد ، والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته . والانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية : تصوراً ومنهجاً وعملاً . الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق . والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام . لا ترقيع . ولا أنصاف

حلول . ولا التقاء في منتصف الطريق . مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان! وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس . شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء . لهم دينهم وله دينه ، لهم طريقهم وله طريقه . لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم . ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو ، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير .

شعاره هو : { لكم دينكم ولي دين } . فهي البراءة الكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم . ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة ، وأنه ليس هناك أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق ، ولا إصلاح عيوب ، ولا ترقيع مناهج . إنما هي الدعوة إلى الإسلام والتميز الكامل عن الجاهلية : { لكم دينكم ولي دين } . وهذا هو الدين القائم على التوحيد الخالص الذي يتلقى تصوراته وقيمه ، وعقيدته وشريعته ، كلها من الله وحده في كل نواحي الحياة والسلوك . وبغير هذه المفاصلة سيبقى الغبش وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع . والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة . إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح .

وهذا هو طريق الدعوة الأول : { لكم دينكم ولي دين } . وهذه القاعدة الإيمانية من الهجرة والمفاصلة المنبثقة عن الولاء والبراء .

وقد جاء إبراهيم عليه السلام وهو القدوة والأسوة كي يؤسس بنيانها لمن بعده من الأنبياء والصالحين ، ويقرر حقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال ! والذي يوحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده ليس لأحد فيه شيء . ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه، من أشق شيء على النفس، لأمور كثيرة معروفة، ومنها انفراده عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه، واعتزل إبراهيم قومه ، فحصل له هبة هؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين . ووهب لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون. { وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } وهذا أيضا من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له ثناء صادقا بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق ، فذكرهم ملأ الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت بها الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين،.ولا تزال أذكارهم في سائر العصور، متجددة، وذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم . ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التي أعطاها الله تعالى إياه بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء ، ولبيان موجبات رحمته الواسعة التي خصها لأهل طاعته ، وحجبها عن أهل معصيته .

والمتتبع للمنهج القرآني يجد مصداق ذلك في كثير من الآيات نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر:

1- نوال رحمة الله تعالى بالإحسان والإصلاح وعدم الفساد ، قال تعالى : { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [الأعراف: 56].

2- نوال رحمة الله تعالى بالصبر على أمر الله وقضائه وتحمل مشاق التكاليف، قال تعالى : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ } [البقرة: 155-157].

3- نوال رحمة الله تعالى بالشكر على نعمته وعدم جحود فضله ، قال تعالى : { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا } [الكهف: 37-40].

4- نوال رحمة الله تعالى بالاستقامة على منهج الله ، قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ } [فصلت: 30-32].

5- نوال رحمة الله تعالى بالإكثار من الأعمال الصالحة والقربات ، قال تعالى : { وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة: 99]. وقال تعال : { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الزمر: 9].

6- نوال رحمة الله تعالى برجائه بالإيمان والعمل الصالح لا بالأماني الخادعة والظنون الكاذبة ، قال تعالى : { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف: 110]. وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة: 218]. وقال تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122) لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 125]. وقال تعال : { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ } [الجاثية: 30]. وقال تعال : { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } [النساء: 175].

هذه بعض الآيات التي تبين الطريق الموصل إلى نيل رحمة الله تعالى ، والتي جاءت قصة إبراهيم لتأكيد هذه الحقيقة الإيمانية من خلال الاستدلال بها تقريراً وإلزاماً ، أي يقرر حقيقة رحمة الله تعالى الواسعة وموجباتها ، ليستدل بها على لوازمها التعبدية لسلوك طريق الاستقامة وفق منهج الله تعالى[174].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[174]- راجع : تفسير الطبري 308/18 ، وتفسير الالوسي 384/6، 8/13-9 وتفسير البقاعي 307/5، وتفسير الرازي 364/7، 319/10 ، وتفسير طنطاوي 1701، 2784، وتفسير السعدي 299، 494، وتفسير بن عطية 369/4، وتفسير ابن عجيبة 467/3، وتفسير الظلال 289/4 ، 87/5، 99 ، 181/7-186، 389 ، 118/8 ، وتفسير ابن عاشور 488/8

– المبحث الثاني–

الاستدلال برحمة الله تعالى في تشريعه وحكمه

لقد شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى وللضلال ، وأن يدع مشيئتهم حرة في اختيار أي الطريقين؛ ومنحهم بعد ذلك العقل يرجحون به أحد الاتجاهين ، بعد ما بث في الكون من آيات الهدى ما يلمس الحس والعقل والقلب . فمن فضله تعالى على الإنسان أن وفقه بتقدير أسباب الهداية ، من العقل المدرك ، والنفس الباحثة عن الأمان ، وعلى الرغم من وضوح الأدلة وقوة البرهان ووثاقة الفطرة ، فإن الله تعالى من رحمته بعباده لم يشأ أن يكلهم إلى فطرتهم وحدها حتى لا تنحرف ، ولا إلى عقولهم وحدها حتى لا تضل ، ولا إلى خطاب الدلائل الكونية للفطرة والعقل ، و لم يشأ أن يجعل حسابهم مرتكناً إلى هذه الدلائل بذاتها ، بل وفقهم توفيقاً آخر بأن هيأ لهم أسباب الهداية عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب قال تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الدخان: 3-6]. وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس: 57-58].

فمن رحمته تعالى أنه أناط بالرسل والرسالات مهمة استنقاذ الفطرة من الركام ، واستنقاذ العقل من الانحراف ، واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس . وجعل العذاب مرهونا بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار . قال تعالى : { ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } [الأنعام: 131]. وقال ايضا : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء: 15]. وهذه الحقيقة كما أنها تصور رحمة الله بهذا الإنسان وفضله ، كذلك تصور قيمة المدارك البشرية من فطرة وعقل؛ وتقرر أنها وحدها لا تعصم من الضلال ، ولا تهدي إلى يقين ، ولا تصبر على ضغط الشهوات . ما لم تساندها العقيدة وما لم يضبطها الدين .

فمن رحمة الله بالناس ، ألا يحق عليهم القول إلا بعد أن يرسل إليهم رسولاً . وبعد أن يبين لهم الهدى . وهي رحمة الله الواسعة الحانية على هذا المخلوق الضعيف . فإذا تبين له الهدى . أي إذا علم أن هذا المنهج من عند الله . ثم شاق الرسول و لم يتبعه ويطعه ، و لم يرض بمنهج الله الذي تبين

له ، فعندئذ يكتب الله عليه الضلال ، ويلحقه بالكفار والمشركين الذين توجه إليهم . ويحق عليه العذاب كما في قوله تعالى : { وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [النساء: 115].

وقد اقتضت رحمة الله وعلمه وعدله أن يرسل إلى عباده رسلاً ، وأن ينزل على بعض الرسل كتباً ، ليحاولوا جميعاً هداية البشرية إلى بارئها ، واستنقاذ فطرتها من الركام الذي يرين عليها ، ويغلق منافذها ، ويعطل أجهزة الالتقاط والاستجابة فيها ، قال تعالى : { ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأنعام: 154-155] .

وتتجلى رحمة الله بالبشر في تنزيل شرائع الدين باليسر ورفع الحرج الذي يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم بسهولة ، لأنه يلبي متطلبات واحتياجات النفس الإنسانية ويحقق لها النفع والمصلحة . فهو ينزل للناس ما يصلح لهم ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم . فإذا أحست قلوب الناس رحمة الله في شريعته؛ وتذوقت جمال هذا التطابق بينها وبين فطرتهم العميقة علموا أن الله بكل شيء عليم . وعلموا مقدار سعة رحمته تعالى .

فهو دين عجيب في توافيه الكامل مع ضرورات الفطرة البشرية وأشواقها جميعاً؛ وفي تلبيته لحاجات الحياة البشرية جميعاً . إن تصميمه يطابق تصميمها؛ وتكوينه يطابق تكوينها ، بحيث تتجاوب معه الفطرة ، وتجد فيه من الجمال والتجاوب والأنس والراحة ما لا يعرفه إلا من ذاق!

كما وضع سبحانه لهذا العقل ميزاناً ثابتاً في شرائعه التي جاءت بها رسله ، يثوب إليه العقل كلما غم عليه الأمر ، ليتأكد من صواب تقديره أو خطئه عن طريق الميزان الثابت الذي لا تعصف به الأهواء .قال تعال : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا } [النساء: 82]. إن كل أحد مستطيع عند التدبر وفق منهج مستقيم أن يدرك ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق المطلق الشامل الكامل التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً ، وتتجلى ظاهرة التناسق المطلق الشامل الكامل ، وظاهرة عدم الاختلاف ــ بعد التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية ــ في جانب التفكير والتنظيم والتشريع التي تشمل محتويات هذا المنهج وجوانبه الكثيرة ، سواء في منهج التربية للنفس والمجتمعات البشرية ، ومنهج التنظيم للنشاط الإنساني للأفراد وللمجتمع ، ومنهج التقويم للإدراك البشري ذاته وتناول شتى قواه وطاقاته وإعمالها

معاً في عملية الإدراك ، ومنهج التنسيق بين الكائن الإنساني بجملته في جميع مجتمعاته وأجياله ومستوياته وبين هذا الكون الذي يعيش فيه؛ ثم بين دنياه وآخرته ؛ وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة الإنسان واضحاً كل الوضوح في جانب التعبير اللفظي والأداء الفني ، فإنه أوضح من ذلك في جانب التفكير والتنظيم والتشريع . فما من نظرية أو مذهب بشري ، إلا وهو يحمل جزئية النظر والرؤية ، والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية ، وعدم رؤية المتناقضات في النظرية أو المذهب ؛ التي تؤدي إلى الاصطدام بين مكوّناتها – إن عاجلاً وإن آجلاً – إلى جانب عشرات ومئات من النقائص والاختلاف ، الناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود ، وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل .

فلا يملك أحد من البشر أن يقدم منهج الهداية إلى البشرية إلا الله وحده خالق الإنسان والعالم بما يصلحه وينفعه وبما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة ، وقد دعا الله الإنسان أن يحكم عقله في النظر إلى هذه الحقيقة ، وهو أن الله وحده من يملك منهج الهداية الذي أنزله على عباده بواسطة رسله ، ومقتضى هذه الحقيقة أن المستحق للطاعة والإتباع هو الله وحده ، قال تعالى : { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [يونس : 35-37]. فمن رحمته تعالى السابغة العميقة الدائمة وعلمه المطلق تنبثق كل التشريعات والتكاليف .

وهذا الكون كله شاهد بالوحدانية وبالرحمة الإلهية التي يفرضها سبحانه على الإنسان في خلافته للأرض؛ وفي ابتلائه في أثناء الخلافة؛ وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف .

ورحمة الله وعدله في التكاليف التي يشرعها للإنسان ، تجعله يطمئن إلى رحمة الله وعدله في هذا كله؛ فلا يتبرم بتكاليفه ، ولا يضيق بها صدراً ، ولا يستثقلها كذلك ، وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته ، ولو لم تكن في طاقته ما فرضها عليه .

ـــ قال تعالى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا

تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [البقرة: 286].

ومن شأن هذا التصور فضلاً عما يسكبه في القلب من راحة وطمأنينة وأنس ، أن يستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكاليفه ، وهو يحس أنها داخلة في طوقه؛ ولو لم تكن داخلة في طوقه ما كتبها الله عليه؛ فإذا ضعف مرة ، أدرك أنه الضعف لا فداحة العبء! واستجاش عزيمته ونفض الضعف عن نفسه وهمّ همة جديدة للوفاء ، ما دام داخلاً في مقدروه! وهو إيحاء كريم لاستنهاض الهمة كلما ضعفت على طول الطريق!

فهي التربية كذلك لروح المؤمن وهمته وإرادته؛ فوق تزويد تصوره بحقيقة إرادة الله ورحمته به في كل ما يكلفه . فالمؤمنون يدعون ربهم ألا يحمل عليهم أثقالاً كالتي حملها على الذين من قبلهم وقد بعث الله النبي الأمي يضع عن المؤمنين به من البشر كافة : { إصرهم والأغلال التي كانت عليهم } فجاءت هذه العقيدة سمحة ميسرة ، هينة لينة ، تنبع من الفطرة وتتبع خط الفطرة ، وقيل للرسول صلى الله عليه وسلم { ونيسرك لليسرى } على أن الإصر الأكبر الذي رفعه الله عن كاهل الأمة المسلمة، والذي حمله الله على عاتق الأمم التي استخلفها في الأرض قبلهم فنقضت عهد الاستخلاف وحادت عنه .

فهذه الرحمة الإلهية تتولى ضعف الإنسان ، فيما يشرعه له من منهج وأحكام . والتخفيف عنه ممن يعلم ضعفه ، ومراعاة اليسر فيما يشرع له ، ونفي الحرج والمشقة والضرر والضرار ، مصداقاً لقوله تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } [النساء: 26-28].

يكشف سبحانه وتعالى للجماعة المسلمة عن حقيقة ما يريده لها بهذا المنهج وبتلك الأحكام والتشريعات والتنظيمات؛ وعن حقيقة ما يريده بها الذين يتبعون الشهوات ويحيدون عن منهج الله ، فيكشف ما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته ، فهو يريد أن يرفع بها المجتمع المسلم من وهدة الحياة الجاهلية؛ وليرفع بها مستواه النفسي والخلقي والاجتماعي إلى القمة السامقة النظيفة الوضيئة التي رفعه إليها ، فيبين لهم حكمة تشريعاته لهم ، ويطلعهم على ما في المنهج الذي يريده لحياتهم من خير ويسر . ليبين لهم حكمة ما يشرعه لهم؛ ويهديهم سنن الذين من قبلهم ، فمعنى [ويهديكم سنن

الذين من قبلكم] . أي : الهداية إلى أصول ما صلح به حال الأمم التي سبقتنا من كليات الشرائع ومقاصدها . قال الفخر : " فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة في نفسها إلا أنها متفقة في باب المصالح "[175] . وذلك كقوله تعالى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [الشورى: 13]. ودين الإسلام لم يخل عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقا وتوسيعا وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام وسد الذرائع والأمر بالنظر في الأدلة وبرفع الحرج وبالسماحة وبشدة الاتصال بالفطرة ، وفي هذا تكريم للإنسان ، يدرك مداه من يحسون حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فيدركون مدى هذا التلطف الكريم . وهذه الرحمة الواسعة .

فعن العلم والحكمة والرحمة تصدر هذه التشريعات وهذه التوجيهات . العلم بنفوسكم وأحوالكم . والعلم بما يصلح لكم وما يصلحكم . والحكمة في طبيعة المنهج وفي تطبيقاته على السواء . والرحمة واللطف بكم ليمهد لكم الطريق ، ويعينكم على السير فيه من غير عنت ولا حرج ، وليأخذ بيدكم إلى التوبة من التقصير أو من الزلل والمعصية .

وكذلك يكشف عن حقيقة ما يريده بهم الذين يتبعون الشهوات ، ويحيدون عن منهج الله ، فليس هنالك إلا منهج واحد هو الجد والاستقامة والالتزام ، وكل ما عداه إن هو إلا هوى يتبع ، وشهوة تطاع ، وانحراف وفسوق وضلال . فماذا يريد الله بالناس ، حين يبين لهم منهجه ، ويشرع لهم سننه؟ إنه يريد أن يتوب عليهم . يريد أن يهديهم . يريد أن يجنبهم المزالق . يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة . وذلك من خلال إرادة التنظيم ، وإرادة التطهير ، وإرادة التيسير ، وإرادة الخير بالجماعة المسلمة على كل حال . وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ، و لم يشرعها لعباده؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنهج الراشد ، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم . إنهم يريدون أن يطلقوا الغرائز من كل عقال : ديني ، أو أخلاقي ، أو اجتماعي . وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله شاق مجهد . والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح ! وهذا وهم كبير .

فإطلاق الشهوات من كل قيد؛ وتحري اللذة وحدها في كل تصرف؛ واقصاء « الواجب » الذي لا مكان له إذا كانت اللذة وحدها هي الحكم الأول والأخير؛ والتحرد من كل قيد أخلاقي ، ومن كل التزام اجتماعي . إن هذه كلها تبدو يسراً وراحة وانطلاقاً ، ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد

175 - تفسير الرازي، 171/5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وثقلة . ونتائجها في حياة كل فرد وفي حياة المجتمع مؤذية ومدمرة . والنظر إلى الواقع في حياة المجتمعات التي تحررت من قيود الدين والأخلاق والحياء يكفي لإلقاء الرعب في القلوب .

إن منهج الله هذا أيسر على الإنسان وأخف وأقرب إلى الفطرة ، من المناهج التي يريدها البشر ويهوونها ، وأنه من رحمة الله بضعف الإنسان أن يشرع له هذا المنهج ، الذي تكلفه الحيدة عنه عنتاً ومشقة، فوق ما تكلفه من هبوط وارتكاس .

فإرادة التخفيف في التشريعات والأحكام والتوجيهات الصادرة من الله تعالى واضحة؛ فهي تتمثل في الاعتراف بدوافع الفطرة ، وتنظيم الاستجابة لها وتصريف طاقتها في المجال الطيب المأمون المثمر ، وفي الجو الطاهر النظيف الرفيع؛ دون أن يكلف الله عباده عنتاً في كبتها حتى المشقة والفتنة؛ ودون أن يطلقهم ينحدرون في الاستجابة لها بغير حد ولا قيد .

وأما في المجال العام الذي يمثله المنهج الإلهي لحياة البشر كلها فإرادة التخفيف تبدو كذلك واضحة؛ بمراعاة فطرة الإنسان ، وطاقته ، وحاجاته الحقيقية؛ وإطلاق كل طاقاته البانية . ووضع السياج الذي يقيها التبدد وسوء الاستعمال . فالله لا يُريد أن يجعل على عباده فيما شرعه لهم من حرج أو أدنى ضيق وأقل مشقّة ، لأنه تعالى غنّي عنهم، رءوف رحيم بهم ، فهو لا يشرع إلا ما فيه الخير والنفع لهم ،ولهذا قال عليه السلام : " بعثت بالحنيفيَّة السمحة "[176]. وقوله : " إن هذا الدين يُسْر ، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا "[177]. وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: " بشّرا ولا تُنفّرا ويسّرا ولا تُعسّرا "[178]. والأحاديث في هذا كثيرة .

قال الشاطبي : إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع ، أي اليقين ، وقد سمّى الله هذا الدين الحنيفية السمحة ، لما فيه من التسهيل والتيسير[179] .

وهذا أمر قد قرّره القرآن في أكثر من موضع، كقوله تعالى : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " [الحج: 78]. وقوله : { لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ " [الفتح: 17]. وقوله: { ُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } [النساء:28].

---

[176]- أخرجه الإمام أحمد في مسنده ،266/5 برقم (22345) ، والطبراني في معجمه الكبير ، برقم (7883)

[177]- أخرجه البخاري في صحيحه برقم (39) والنسائي في سننه برقم (5034)

[178]- أخرجه مسلم في صحيحه برقم (2001)

[179]-[الموافقات 1 / 240]

وقوله : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة: 185]. وقوله : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة: 286].

وقد اتضح مما سبق أن آيات التخفيف والتيسير ورفع الحرج دليل واضح وبرهان قاطع على رحمة الله تعالى بعباده في تشريعه وتكاليفه . فهذه الآيات تبيّن أن الله أراد بهذه الأمّة اليسر والتّخفيف، ونفي إرادة العسر والمشقّة ، وعدم التّكليف إلا في حدود القدرة والميسرة، كما في قوله تعالى { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة: 286]. إلا أن الله تعالى قد أعقب هذه الجملة بدعاء على لسان عباده المؤمنين بقوله:{ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا }[البقرة: 286]. وذلك لبيان ما امتنّ به تعالى على هذه الأمّة من التخفيف ، والتيسير والتسهيل، يقول تعالى في وصف نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في كلامه عز وجل مع قوم موسى : { وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ } [الأعراف: 157].

وهذا تقرير لمنهج الرحمة في التشريع والتكاليف التي امتنّ الله بها على هذه الأمّة في الكتاب العزيز بأن وضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على من قبلها، ولم يحملها ما حَمَّل من قبلها، فكان ذلك مظهرًا من مظاهر رحمته تعالى .

فدين الإسلام سمح سهل مرن معتدل متوسط بين الإفراط والتفريط ، وليس الإسلام متشدداً ضيقاً حرجاً ، فلا إعنات ولا مشقة ولا إحراج في تعاليم الإسلام وأحكامه كلها ، سواء منها أحكام العقائد أو العبادات والمعاملات ونظام الأسرة وجميع التكاليف الشرعية ، وكذلك مبادئ الاقتصاد في الكسب والادخار والتوزيع والإنفاق تقوم على التوسط بين الإسراف والتبذير ، وبين الشح والبخل والتقصير . والأخلاق والسلوكيات فيه أيضاً وسط ، تتميز بالسماحة والتخفيف واليسر ، وترك التنطع والتشدد ، والغلظة والاستكبار .

لذا لم يُمدح نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام بمثل ما مدح بصفة الخلق والرحمة ، فقال الله تعالى عنه : { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم: 4]. وقال سبحانه واصفاً رسالته ومهامه : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: 107]. وقال تعالى : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة: 128]. فهو عليه الصلاة والسلام يشق عليه عنتكم ومشقتكم . فلا يلقي بكم في المهالك ، ولا يدفع بكم إلى المهاوي ، فإذا هو كلفكم الجهاد ، وركوب الصعاب ، فما ذلك من هوان بكم عليه ، ولا بقسوة

في قلبه وغلظة ، إنما هي الرحمة في صورة من صورها . الرحمة بكم من الذل والهوان ، والرحمة بكم من الذنب والخطيئة ، والحرص عليكم أن يكون لكم شرف حمل الدعوة ، وحظ رضوان الله ، والجنة التي وعد المتقون . فليس في التكاليف الإسلامية شيء من الحرج والشدة وليس في أحكام الفقه شيء مما يعسر على الناس وتضيق به صدورهم, فمن تتبع أحكام الفقه الإسلامي وجد مظاهر رفع الحرج جلية واضحة ووجد أن جميع التكاليف في ابتدائها ودوامها قد روعي فيها التخفيف والتيسير على العباد, فقد أوجب الله الصلاة على المكلف في اليوم خمس مرات لا يزيد وقت كل صلاة عن دقائق قليلة, وأوجب عليه أن يؤديها قاعدًا إذا لم يستطع القيام, وكذلك الصيام ، فرضه شهرًا في السنة ، فالمشقة فيه لا تصل إلى درجة العسر والحرج ومع ذلك فقد أباح الفطر في حالتي السفر والمرض, وقد حرم الميتة لكنه أباحها عند الضرورة . وشرع الكفارات لتمحو آثار الذنوب, إلى غير ذلك مما يدل على مراعاة السهولة ورفع الحرج في التشريع حتى لا يضعف الناس عن أداء ما أوجبه عليهم وتضعف عزائمهم إزاء ما شرعه لمصالحهم.

والواجبات في الفقه الإسلامي قليلة يمكن العلم بها في زمن وجيز ، وليست كثيرة التفاصيل والتفاريع ليسهل علمها والعمل بها يشهد بذلك قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ } [المائدة: 101-102]. فإن الله تعالى ينهانا عن التعمق في المسألة والتشديد فيها لئلا يكون ذلك سببًا في فرض أحكام لم تكن مفروضة فنعجز عن الامتثال لكثرة الفرائض فنهلك مع الهالكين فهذه الآية تشير إلى أن الله تعالى قد راعى قلة التكاليف حتى يسهل علينا الامتثال وحتى لا نقع في العنت والمشقة ، وإن ما ينزله تعالى للناس إنما ليربيهم به ، وهو طرف من ربوبيته للكون كله ، وطرف من نواميسه التي تصرف الكون.فهي ربوبية شاملة تقوم على الرحمة والرفق ، والرعاية والعناية .

وهي رحمة تستحق الثناء والحمد ، والشكر والطاعة مصداقاً لقوله تعالى في مفتتح كتابه : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } [الفاتحة: 2-7]. وقال تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة: 185]. فإن الله تعالى شرع من الأحكام الميسرة والرخص المخففة ، لأنه يريد أن ييسر على عباده الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم

تيسير، ويسهلها أشد تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في السهولة في أصله. وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهَّله تسهيلا آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات ، فهو وحده الذي هدى عباده إلى تلك الأحكام النافعة التي فيها صلاحهم وسعادتهم ، ويريد منهم مقابلة هذه الرحمة بأن يشكروه ويثنوا عليه ، وأن يستعملوا نعمه فيما خلقت له، فهو سبحانه الرءوف الرحيم بعباده ، حيث شرع لهم ما فيه اليسر ورفع الحرج والمشقة ، قال تعالى : { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [المائدة: 6]. فعبر سبحانه عن نفي الحرج بنفي إرادته ، مبالغة في بيان رأفته بعباده ، ورعايته لمصالحهم . فليس من شأنه تعالى مع عباده أن يشرع لهم ما فيه مشقة أو حرج . بل شرع لهم من أحكام ميسرة ومن آداب عالية ، ومن تكاليف جليلة لكي يشكروه على نعمه وإحسانه وتشريعاته ، لأنهم متى شكروه زادهم من فضله ومننه . فقوله : { ولكن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } استدراك قصد به بيان بعض مظاهر رحمته تعالى بالمؤمنين ومحبته لسعادتهم ولتزكية نفوسهم وتطيرها من الذنوب والأدران، كما قصد به حضهم على مداومة شكره حتى يزيدهم من فضله .

فالآية الكريمة أوجبت على المؤمنين التنبه إلى رحمة الله ونعمه وعلى رأس هذه النعم نعمة الهداية إلى دين الإسلام، ومداومة شكره سبحانه على ذلك . وعبر هنا بالشكر لأن هذه الآية موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد ، فينبغي على العبد أن يتدبر الحِكَم والأسرار في شرائع الله، ليزداد معرفة وعلما، ويزداد شكرا لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة ، فالشكر هو علة الإنعام وهو طريق النجاة من النار ، ولكن أكثر الناس لا يتلقون هذا الفضل بالشكر بل بالكفر والجحود الذي يؤدي إلى نقمة الله وعذابه ، قال تعالى : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } [النساء: 147]. فهذا استفهام تقرير معناه : أنه تعالى لا يعذب الشاكر المؤمن فإن تعذيبه لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبته لا ينقص من سلطانه، لأنه الغني الذي لا يحتاج إلى شيء من ذلك ، فإن عاقب أحداً فإنما يعاقبه لأمر أوجبه العدل والحكمة ، فإن قام العباد بشكر نعمته وآمنوا به فقد أنقذوا أنفسهم من عذابه .

وقد استدل سبحانه برحمته الواسعة في حكمه وتشريعه والتي تتجلى بإرسال الرسل وإنزال الكتب لبيان طريق الهداية للناس ليكون لهم خيراً ورحمةً وشفاءً وسعادةً ، وليعصمهم من الضلال والهلاك ، وهذه الرحمة الإلهية تقتضي منهم أن يقابلوها بالشكر ظاهراً وباطناً ، قولاً وعملاً ، وذلك

من خلال التصديق بالرسل وإتباعهم والإقتداء بهم ونصرتهم وتأييدهم ، والتصديق برسالتهم وبدعوتهم ، والتسليم بما جاءوا به عن قبول ورضى ، والالتزام والانقياد لأوامرهم ، وإتباع تعاليمهم ، وهذه المستلزمات لرحمة الله تعالى في حكمه وشرعه ، وما يستوجب ذلك من مقتضيات تعبدية ، قد قررها القرآن في كثير من آياته ، وطالب الناس بتطبيقها في واقع حياتهم ، وأما هذه المقتضيات التعبدية نذكر منها ما يلي :

1. الإيمان والتصديق بالرسل وبما أنزل عليهم من كتب وشرائع ، وعدم تكذيبهم والإعراض والاستكبار عن الحق الذي معهم .

ـ قال تعالى : { وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (8) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحديد: 8-9].

ـ قال تعالى : { وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [التوبة: 61].

ـ قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الحديد: 28] .

2. الاستماع للوحي الإلهي وتدبر نصوصه وفهم فحوى خطابه وإدراك مقاصده والاعتبار بنذره وفقه أحكامه والالتزام بها .

ـ قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس: 57- 58].

ـ قال تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص: 43].

ـ قال تعالى : { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأعراف: 204].

ـ قال تعالى : { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا } [النساء: 83].

جمعية عبد القادر للعلوم الإسلامية

3. طاعة الرسل والالتزام بما جاؤا به من عند الله تعالى من تعاليم وشرائع ، والاحتكام إليها ، وتطبيقها في واقع حياقم .

ـ قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: 64-65].

ـ قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ } [الأنبياء: 107-109].

ـ قال تعالى : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة: 128-129].

ـ قال تعالى : { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي } [طه: 90] .

4. إتباع الرسل ولإقتداء والتأسي بمم في تطبيق منهج الله تعالى .

ـ قال تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الاعراف: 203].

ـ قال تعالى : { ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الانعام: 155-154].

ـ قال تعالى : { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } [غافر: 7].

ـ قال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ " [آل عمران: 31-32] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ــ قال تعالى : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب: 21].

5. تبليغ ما جاء به الرسل من تعاليم إلهية ، والدعوة إليها ، وعدم كتمانها .

ــ قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 159-160].

ــ قال تعالى : { وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: 71] .

6. نصرة رسل الله ودينه الحق، والجهاد في سبيل ذلك بالنفس والمال.

ــ قال تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [آل عمران: 81].

ــ قال تعالى : { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } [الفتح: 8-9].

ــ قال تعال : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحديد: 25].

وقد جمع سبحانه في كتابه كثير من هذه المقتضيات التعبدية[180]. في قوله تعالى : { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ

180- راجع : تفسير الرازي، 171/5، وتفسير الطنطاوي 3158، 1194 ، 1627، وتفسير السعدي، 222 ، وتفسير الظلال ، 326/1-329، 82/2، 240،97، 439، 86/3، 148، 314، 118/4، 465، 383/6، وتفسير الخازن، 197/2، وأيسر التفاسير للجزائري ، 333/1 ، وتفسير ابن عاشور ، 390/3 ، وسطية الإسلام وسماحته، أ.د وهبة الزحيلي ،38/1 ، الفقه والشريعة ، 23/1 ، الوسطية في ضوء القرآن الكريم ، ناصر بن سليمان العمر ، 179-183 ، 186-191

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الأعراف: 156- 157].

وأما ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام من الاستدلال برحمة الله تعالى في حكمه وشرعه على ما يلازمها من مقتضيات العبادة ، فقد ورد في القرآن الكريم جملة من الاستدلالات في هذا المجال ، نذكر منها على النحو الآتي :

*** الشاهد الاول :**

قال تعالى : { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } [مريم: 43-45].

يبين إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات أن العلم الذي جاءه ليس من عنده ، بل هو من عند الله تعالى وهذا من رحمة الله بعباده ، أنه لم يكلهم إلى عقولهم ، ولا إلى فطرتهم للوصول إلى حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ، التي تتضمن الرحمة للإنسان حينما تقدم له معتقد صحيح عن حقائق الوجود ، ونظام سليم لمنهج حياته ، بما يحقق له السعادة في الدارين ، وبذلك يريحه من العناء ومن تبديد الطاقة في محاولة الوصول إلى تلك الحقائق التي لا يصلح كيانه وفطرته بدون معرفتها ، ولا يطمئن باله ولا يقر قراره قبل الحصول عليها، ولا سبيل للإدراك البشري أن يعرفها بذاته ، بوسائله الحسية والعقلية المهيأة له .

ومن ثم شاءت رحمة الله بالإنسان – وهو فاطره وهو العليم بتكوينه وأشواقه وما يصلح له ويصلحه – أن يمده بطرف من الحقائق الغيبية هذه ، ويعينه على تمثلها ، ومقتضى هذه الرحمة الإلهية أن تتلقى ما جاء به الرسل من تعاليم وشرائع ، بالرضا والقبول ، والانقياد والطاعة ، وعدم الإعراض والاستكبار على منهج الله تعالى ، . قال تعالى : { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [العنكبوت: 16]. فكل ما جاء به الرسل من تعاليم وشرائع فهو من عند الله تعالى .

فقوله : { جَاءنِي } ظاهر في أن هذه المحاورة كانت بعد أن نبيء عليه السلام ، والذي جاءه قيل العلم النافع الذى علمه الله إياه من طريق الوحي الإلهي ، فهو لا يقول هذا من نفسه ، إنما هو العلم الذي جاءه من الله فهداه إلى الحق. الذي يقتدر به على إرشاد كل ضالّ ، فأخبر أنه قد وصل إليه نصيب من العلم بالله والمعرفة بما يلزم الإنسان نحو ربه لم يصل إلى أبيه، وهذا من فضل الله ورحمته يختص بها من يشاء من عباده . وهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه الذي لم يتلق هذا العلم ، يحاول أن يهديه إلى طريق الرحمن الذي هداه الله إليه ، وعلمه إياه ، ليتبعه في طريق الخير والهدى والرحمة ، ولهذا أمره باتباعه . فأخبره بعلمه لطريق الهداية ، وأن ذلك موجب لإتباعه ، وأنه إن أطاعه اهتدى إلى الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه ولا اضطراب ، وهو طريق الإيمان من عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال ، وهو طريق الرحمة الذي يوصل إلى الحق والسعادة . والنجاة من الضلال والهلاك . قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم: 35-37].

وبعد هذا الكشف عما في عبادة الأصنام من نكارة ، وبيان المصدر الذي يستمد منه إبراهيم ويعتمد عليه في دعوة أبيه . يبين له أن طريقه هو طريق الشيطان ، وجملة إن الشيطان كان للرحمن عصياً تعليل للنهي عن عبادته وعبادة آثار وسوسته بأنه شديد العصيان للرب الواسع الرحمة . فإنه لا يأمر إلا بما ينافي الرحمة ، أي بما يفضي إلى النقمة ، وللإشارة إلى هذا المعنى جيء بالرحمن من بين صفات الله تعالى تنبيهاً على أن عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفضي إلى الحرمان من رحمته ، وتغلق أبوابها ، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته .

وفيه أيضاً إشارة إلى كمال شناعة عصيانه ، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يتبع ، فكان تذكيره داع لأبيه عن الاحتراز عن موالاته وطاعته ، لذلك نهاه عن عبادة الشيطان ، لأنها جهل وانحطاط فى التفكير .

ثم علل له هذا النهى بقوله : إن الشيطان الذى أغراك بعبادة هذه الأصنام كان للرحمن كثير العصيان ، لا يهدى الناس إلى طاعة الله ، وإنما يهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه . فإن عبادتك لهذه الأصنام هي عبادة وطاعة للشيطان الذى هو عدو الإنسان . كما قال تعالى : { أَلَمْ

أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعبدوني هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [يس: 60-61]. فهو الذي يغري بعبادة الأصنام من دون الله ، فالذي يعبدها كأنما يتعبد الشيطان والشيطان عاص للرحمن . وإبراهيم يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله ولياً للشيطان وتابعاً له . فيقوده ذلك إلى عذاب الله ونقمته إن أقام على حاله . وللإشارة إلى أن أصل حلول العذاب بمن يحلّ به هو الحرمان من الرحمة في تلك الحالة؛ عبر بوصف الرحمن للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم إنما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته مَن شأنه سعة الرحمة . وللإشعار بأن وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما في قوله عز وجل : { مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم } [الانفطار: 6]. وللدلالة على أنه ليس على وجه الانتقام بل ذلك أيضاً رحمة من الله تعالى على عباده وتنبيه على سبق الرحمة الغضب وإن الرحمانية لا تنافي العذاب , ولأنه مقام إظهار مزيد الشفقة ومراعاة الأدب وحسن المعاملة جاء بصفة الرحمن . وهذا فيه أيضاً دلالة على أن الله تعالى لا يريد بعباده المشقة والعذاب وإنما يريد بهم كل خير ورحمة ، ولكنهم هم من يعرض عنها ، قال تعالى : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } [النساء: 147].

فقد تدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنك إن أطعتني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن بقي على كفره وضلاله ، ولكن هذه الدعوة اللطيفة بأحب الألفاظ وأرقها لا تصل إلى القلب المشرك الجاسي ، فإذا أبو إبراهيم يقابله بالاستنكار والتهديد والوعيد :{ قال : أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك . واهجرني مليا} . فتبجح بآلهته التي هي من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم . فعلى العاقل أن يستجيب لله تعالى لأن في ذلك سعادته في الدنيا ولآخرة [181]، مصداقاً لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال: 24].

---

[181]- راجع : تفسير الألوسي 498/11، وتفسير الظلال 323/1، 98/5 ، وتفسير السعدي 494، وتفسير المنتخب 11/2، وتفسير طنطاوي 2782، وتفسير ابن عاشور 482/8،وتفسير فتح القدير 459/4

* **الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [البقرة: 128-130].

لما تقرر بالعقول السليمة أن الله خالق الإنسان هو وحده العليم بمصالحه ومنافعه ، كان هو المقصود في طلب الهداية إلى طريق السلوك في هذه الحياة ، فالله تعالى لا يشرع لعباده إلا ما كان فيه الخير والرحمة وما يحقق لهم النفع والسعادة ، ويرفع عنهم المشقة والحرج ، ومن هنا نجد أن إبراهيم عليه السلام يتجه إلى ربه الخبير الرحيم ، في طلب الهداية عن طريق الوحي ، ويظهر ذلك من خلال ما يلي :

1. طلب الهدى له ولإبنه إسماعيل عليهما السلام ، بقوله : { وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا } . وهي هداية الله تعالى بالوحي من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإياها عنى بقوله : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ } [الأنبياء: 73]. وقوله : { إِنَّ هذا القرءان يَهْدِى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمِ} [الإسراء: 9]. وهي الهداية إلى أصول ما ينفع العباد وما يصلحهم من كليات الشرائع ومقاصدها . فعن العلم والحكمة والرحمة تصدر هذه التشريعات وهذه التوجيهات ليمهد لهم الطريق ويعينهم على السير فيه من غير عنت ولا حرج ، قال تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [النساء: 26].

والمعنى : يريد الله تعالى بما شرع لكم من أحكام ، وبما ذكر من محرمات ومباحات أن يبين لكم أصلح السبل لما فيه خيركم وصلاحكم وسعادتكم ، وأن يميز لكم بين الحلال والحرام والحسن والقبيح . فهذه الآية قد بينت جانبا من مظاهر فضل الله ورحمته بعباده ، حيث كشفت للناس أن الله تعالى يريد بإنزاله لهذا القرآن أن يبين لهم التكاليف التي كلفهم بها ليعرفوا الخير من الشر ، وأن يرشدهم إلى سبل من تقدمهم من أهل الحق ، ويدلهم على سنن الأنبياء والصالحين في الحلال والحرام .

وليس المراد أن جميع ما شرعه من حلال أو من حرام كان مشروعا بعينه للأمم السابقة . بل المراد أن الله كما قد شرع للأمم السابقة من الأحكام ما هم فى حاجة إليه وما اقتضته مصالحهم ، فكذلك قد شرع لنا ما نحن فى حاجة إليه وما يحقق مصالحنا ، فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة فى ذاتها إلا أنها متفقة فى باب المصالح . فهو يريد منهم أن يفعلوا ما يجعلهم أهلا لمغفرته ورضوانه وما يفضى بهم إلى قبول توبتهم ، وارتفاع منزلتهم عنده ، لذلك فهو سبحانه لم يشرع لهم ما فيه حرج ومشقة عليهم بل شرع لهم ما فيه تيسير وسهولة لهم ، وتخفيف عليهم ، وقد خلق الله الإنسان ضعيفاً أمام غرائزه وميوله ، فيناسبه من التكاليف ما فيه يسر وسعة . وذلك هو ما يكلف الله عباده رحمة بهم وفضلاً وتيسيراً .

وبذلك نرى أن بيان الله تعالى لعباده منهج حياتهم هو من مظاهر فضل الله عليهم ورحمته بهم ، لكي يزدادوا له شكرا وطاعة وخضوعا . فمن سنة الله تعالى العامة فى خلقه ، أنه لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب . وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، وهى سنة تدل على سعة رحمته ، ووافر عدله ، كما في قوله تعالى : { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [التوبة: 114–115]. أى : وما كان من شأنه تعالى فى لطفه وعدله أن يصف قوما بالضلال عن طريق الحق { بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ } إلا الإسلام ، لمجرد قول أو عمل صدر عنهم عن طريق الخطأ فى الاجتهاد . وإنما يصفهم بالضلال بعد أن يبين لهم ما يجب اتقاؤه من الأقوال والأفعال ، فلا يطيعون أمره ، ولا يستجيبون لتوجيه سبحانه .

وقوله :{ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تعليل لما سبق أي إن الله تعالى عليم بجميع الأشياء التي من جملتها حاجتهم إلى البيان فيبين لهم ، ولذلك كانت حجة الرسل على أقوامهم هو ما معهم من الهدى والبينات من عند الله تعالى ، وقد ورد ذلك على لسان بعض الرسل ، قالها نوح عليه السلام : { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ } [هود: 28]. وقالها صالح عليه السلام : { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ } [هود: 63]. وقالها شعيب عليه السلام : { قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا } [هود: 88]. وقالها يعقوب عليه السلام لبنيه : { قَالَ أَلَمْ أَقُلْ

لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [يوسف: 96]. وقالها إبراهيم عليه السلام : { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ } [الأنعام: 80]. وهي الحقيقة التي يأمر الله نبيه أن يجهر بها في مواجهة المشركين المكذبين ؛ فهو تعبير موحد عن حال واحدة للرسل الكرام مع ربهم ، تصور حقيقة ما يجدونه في أنفسهم من رؤية قلبية مستيقنة لحقيقة الألوهية في نفوسهم؛ ولصدق اتصال ربهم بهم عن طريق الوحي أيضاً . فهو الحق الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً ، والذي أسلم عليه المسلمون من أتباع الرسل جميعاً .

والمراد بتلك الرحمة هي النبوة والرسالة التي هي الطريق الوحيد إلى السعادة والنجاة في الدارين . وهي لا شك رحمة عظيمة ، لا يدركها إلا أصحاب البصائر لأنهم متهيئين لإدراكها والإيمان بها والإذعان لها . قال تعالى : { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [النحل: 64]. وما أنزلنا عليك القرآن إلا لتبين به للناس الحق فيما كان موضع خلافهم من الدين من أمور العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام، وبذلك يعرفون الحق من الباطل ، والخير من الشر . ليكون هداية تامة ، ورحمة عامة لقوم يؤمنون بالله وبالكتاب الذى أنزله . يهتدى به المؤمنون الى سبل سعادتهم ونجاحهم ، ورحمة تحصل لهم بالعمل به عقيدة وعبادة وخلقاً وأدباً وحكماً، فيعيشون متراحمين تسودهم الأخوة والمحبة وتغشاهم الرحمة والسلام.

فالقرآن أهم مقاصده هذه الفوائد الجامعة لأصول الخير ، وهي كشف الجهالات والهدى إلى المعارف الحقّ وحصول أثر ذينك الأمرين ، وهو الرحمة الناشئة عن مجانبة الضلال وإتباع الهدى . فالله هو الهادي والراحم بالقرآن ، وكل من البيان والهدى والرحمة حاصل بالقرآن فآلت الصفات الثلاث إلى أنها صفات للقرآن . ولكل الكتب المنزلة من عند الله تعالى أيضاً .

وقد شرع سبحانه في تعداد النّعم على المؤمنين من نعم الإرشاد ونعم الجزاء على الامتثال وبيان بركات هذا الكتاب المنزّل لهم . وخصّ بالذّكر الهدى والرحمة والبُشرى لأهميتها؛ فالهدى ما يرجع من التّبيان إلى تقويم العقائد والأفهام والإنقاذ من الضلال . والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والأخرى ، والبُشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين الدنيوية والأخروية . وكل ذلك للمسلمين دون غيرهم لأن غيرهم لما أعرضوا عنه حَرموا أنفسهم الانتفاع بخواصّه كلها .

وقد بين سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام مناسك العبادة وتعاليم الدين ، كما في قوله : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا

مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ } [الحج: 26-28]. وهي استجابة لدعوقمما لله تعالى بأن يريهم جميعاً مناسكهم ، ويبين لهم عباداتهم ، وأن يتوب عليهم . بما أنه هو التواب الرحيم . إنه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام؛ ومعرفة شرائعه ، وأن الهدى هداه ، وأنه لا حول لهما ولا قوة إلا بالله ، فهما يتجهان ويرغبان ، والله المستعان .

2. دعوقمما الله ألا يتركهم بلا هداية في أجيالهم البعيدة : { ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم } . ويكشف هذا الدعاء عن حاجة الناس إلى الرسل في معرفة حقائق الإيمان والغيب ، وبيان منهج حياهم وطريق سيرهم فيها ، لأنهم عاجزون عن إدراكها مستقلاً عن الوحي الإلهي ،وهذه الدعوة في حقيقتها طلب رحمته الواسعة وفضله العظيم من إرسال الرسل وإنزال الكتب التي فيها الهدى والنور ، والشفاء والرحمة .

والمعنى : ونسألك يا ربنا أن تبعث في الأمة المسلمة ، أو في ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك ، ويعلمهم كتابك بأن يبين لهم معانيه ، ويرشدهم إلى ما فيه من حكم ومواعظ وآداب ، كما يهديهم إلى الحكمة التي تتمثل في إتباع سنة نبيك والتي بها يتم التفقه في الدين ومعرفة أسراره وحكمه ومقاصده ، والتي يكمل بها العلم بالكتاب إنك يا مولانا أنت العزيز الحكيم . أي القادر الذي لا يغلب على أمره ، العالم الذي يدبر الأمور على وفق المصلحة ، ومن كان قادراً على كل ما يريد ، عليما بوجوه المصالح ، كانت استجابته قريبة من دعاء الخير الصادر عن إخلاص وابتهال . وقد جاءت ترتيب هذه الجمل في أسمى درجات البلاغة والحكمة؛ لأن أول تبليغ الرسالة يكون بتلاوة القرآن ثم بتعليم معانيه ، ثم بتعليم العلم النافع الذي تحصل به التزكية والتطهير من كل ما لا يليق التلبس به في الظاهر أو الباطن .

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون . فاستجاب الله لهما ، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله ، وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله . الوارثة لدين الله ، الذي رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة ، مصداقاً

لقوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: 107]. وقوله صلى الله عليه وسلم : " إنما أنا رحمة مهداة "[182] . ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: "أنا دعوة أبي إبراهيم " [183] .

وعند هذا المقطع من قصة إبراهيم ، يلتقط السياق دلالته وإيحاءه ، ليواجه بهما الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامة؛ وينازعون الرسول صلى الله عليه وسلم النبوة والرسالة؛ ويجادلون في حقيقة دين الله الأصيلة الصحيحة ، قال تعالى : { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 135-137].

هذه هي ملة إبراهيم الإسلام الخالص الصريح . لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها . كما اخبر تعالى : { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 133].

فقد اصطفى سبحانه إبراهيم في الدنيا إماماً ، وشهد له في الآخرة بالصلاح . اصطفاه { إذ قال له ربه أسلم } . فلم يتلكأ ، ولم يرتب ، ولم ينحرف ، واستجاب فور تلقي الأمر : { قال : أسلمت لرب العالمين }. هذه هي ملة إبراهيم . الإسلام الخالص الصريح . ولم يكتف إبراهيم بنفسه إنما تركها في عقبه ، وجعلها وصيته في ذريته ، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه تذكيراً لهم بنعمة الله عليهم في اختياره الدين القويم لهم : { يا بني إن الله اصطفى لكم الدين } . فهو من اختيار الله . فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه . وأقل ما توجبه رعاية الله لهم ، وفضل الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[182]- أخرجه الحاكم في مستدركه ، برقم (100) ، والدارمي في سننه ، برقم (15) وقال حسين سليم أسد : إسناده صحيح ولكنه مرسل

[183]- أخرجه الحاكم في مستدركه برقم (3566) والطبراني في مسند الشاميين برقم (1455)

عليهم ، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه ، والحرص على ما اختاره لهم ، والاجتهاد في ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم :{ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون } .

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوي الإيحاء ، عميق التأثير . فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ما هي التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم في محضر ، يسجل فيه كل التفصيلات؟ . إنها العقيدة . هي التركة . وهي القضية الكبرى ، وهي الشغل الشاغل ، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت : { ما تعبدون من بعدي } . هذا هو الأمر الذي جمعتكم من أجله . وهذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها . وهذه هي الأمانة والذخر والتراث . { قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . إلهاً واحداً . ونحن له مسلمون } . إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه . إنهم يتسلمون التراث ويصونونه . وهذا هو التصور الإيماني لمفهوم الأمة فهي : الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض؛ وليست هي الجماعة التي تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة .

وهذا هو التصور اللائق بالإنسان ، الذي يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية ، لا من التصاقات الطين الأرضية! فالإيمان والطاعة المطلقة لله وحده هو ما يجب أن يقابل به العباد رحمة الله تعالى بهم من إرسال الرسل وإنزال الكتب[184]. مصداقاً لقوله تعالى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ } [القصص: 43]. وقوله تعالى : { أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت: 51]. و قوله تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الاعراف: 203] .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

[184]– راجع : تفسير الرازي 171/5 ، وتفسير كثير 276/2 ، وتفسير الألوسي، 26/4 ، 389/7 ، طنطاوي 208 ، 2054 ، وتفسير الظلال 88/1-91 ، 204/4 وتفسير ابن عاشور 482/1-484 ، 73/8 ، 110 ، وتفسير المنتخب 30/1 وتفسير السعدي 66، أيسر التفاسير للجزائري 55/1 ،2307

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [مريم: 78].

لقد بين سبحانه في هذه الآيات المقتضيات التعبدية لسعة رحمته وعظيم فضله ، وذلك من خلال مطالبة عباده المؤمنين بالجهاد في سبيله ، فقوله : { هُوَ اجتباكم } لبيان علة الأمر بالجهاد فإن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته ، فإن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد ، فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته ، فأي رتبة أعلى من هذا ، ففيها تنبيه على المقتضى للجهاد ، فقوله : { وجاهدوا في الله حق جهاده } . هو تعبير شامل جامع دقيق ، يصور تكليفاً ضخماً ، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد . والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء ، وجهاد النفس ، وجهاد الشر والفساد . . كلها سواء . . ، أى : جاهدوا – أيها المؤمنون – من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنه سبحانه هو الذي اختاركم للذب عن دينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه ، وجدير بمن اختاره الله واصطفاه أن يكون مطيعا له . فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة ، واختاركم لها من بين عباده : ويحمل قوله { هو اجتباكم } على معنى التفضيل على الأمم ، وقد تقدم مثل هذين المحملين في قوله تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران: 110]. وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة ، ولا يجعل هنالك مجالاً للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء! فهو اختاركم لتلقي دينه ونشره ونصره على معانديه . فيظهر أن هذا موجّه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصالة ويشركهم فيه كل من جاء بعدهم بحكم اتّحاد الوصف في الأجيال كما هو الشأن في مخاطبات التكليف التشريعي .

فهو تكليف محفوف برحمة الله : { وما جعلنا عليكم في الدين من حرج }. فقد اجتباكم الله وخصكم بالهداية والمعونة والتيسير ، وهذا من مظاهر لطفه بعباده ، فقد أعقب ذلك بتفضيل هذا الدّين المستتبع تفضيل أهله بأن جعله ديناً لا حرج فيه لأنّ ذلك يسهل العمل به مع حصول مقصد الشريعة من العمل فيسعد أهله بسهولة امتثاله ، فمن مظاهر رحمته تعالى بعباده المؤمنين أنه لم يشرع فى هذا الدين الذى يدينون به ما فيه مشقة أو ضيق ، وإنما جعل أمر هذا الدين ، مبنى على اليسر والتخفيف ورفع الحرج ، ومن قواعده التى تدل على ذلك : أن الضرر يزال . وأن المشقة تجلب

التيسير : وأن اليقين لا يرفع بالشك ، وأن الأمور تتبع مقاصدها ، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب .

وقد امتنّ الله تعالى بهذا المعنى في آيات كثيرة من القرآن ، منها قوله تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة: 185]. ووصفهِ الدين بالحنيف ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « بُعِثت بالحنيفيّة السّمحة » [185].

فالإسلام دين رحمة ومودة ، ورفق ولين ، ودعوة حسنة ، وهو دين يسر وسماحة ، لا دين عسر ومشقة ، أو تشدد وغلو ، أو تنطع وتزمت ، فهو دين وسط واعتدال ورحمة مهداة للعالمين ، وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته . ملحوظ في تلبيته تلك الفطرة . وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء . وهو منهج عريق أصيل في ماضي البشرية ، موصول الماضي بالحاضر:{ملة أبيكم إبراهيم } وهو منبع التوحيد الذي اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم عليه السلام ، وإنّ الإسلام قد احتوى على دين إبراهيم واشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من الشرائع الأخرى ، حيث وسع تعالى على أمة محمد في دينها توسعة ملة أبيهم إبراهيم .

واعلم أن المقصود من ذكره التنبيه على أن هذه التكاليف والشرائع هي شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام . والعرب كانوا محبين لإبراهيم عليه السلام لأنهم من أولاده ، فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين . فكان إخباره تعالى انه يسر عليهم دينه غاية التيسير و لم يجعل عليهم فيه من حرج البتة لكمال محبته لهم ورأفته ورحمته وحنانه بهم ليستدل بذلك على وجوب لزوم مله إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم والحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والتفويض والاستسلام فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره ، أي : جاهدوا فى سبيل إعلاء كلمة اللّه وابتغاء مرضاته حتى تنتصروا على أعدائكم وشهواتكم ، لأنه سبحانه قربكم إليه ، واختاركم لنصرة دينه ، وجعلكم أمة وسطا ، و لم يكلفكم فيما شرعه لكم ما فيه مشقة عليكم لا تحتملونها ، ويسر عليكم ما يعترضكم من مشقة لا تطيقونها . بما فرضه لكم من أنواع الرُّخص ، فالزموا دين أبيكم إبراهيم فى مبادئه وأسسه .

185_ أخرجه الإمام أحمد في مسنده ،266/5 برقم (22345) ، والطبراني في معجمه الكبير ، برقم (7883)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد جاءت كثير من الآيات التي تطالب المسلمين بإتباع ملة إبراهيم عليه السلام القائمة على الحنيفية السمحة ، ومن ذلك :

ـ قال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 120-123].

ـ وقال تعالى : { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } [آل عمران: 95-97].

ـ وقال تعالى : { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 135-137].

ـ وقال تعالى : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 125].

فقد حكم سبحانه بأنه أحسن الأديان ولا أحسن من حكمه ولا أصدق منه قيلا ، وكيف لا يميز من له أدنى عقل يرجع إليه بين دين قام أساسه وارتفع بناؤه على عبادة الرحمن والعمل بما يحبه ويرضاه مع الإخلاص في السر والإعلان ومعاملة خلقه بما أمر به من العدل والإحسان مع إيثار طاعته على طاعة الشيطان ، وبين دين أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار بصاحبه في النار ، أسس على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وإتباع الهوى والشيطان ، وطاعة البشر وعصيان الرحمن .

والحق الذي يجب اعتقاده أن الله سبحانه إنما أرسل رسوله رحمة للعالمين وان إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة عامة للخلق ثم إنه سبحانه لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه بل أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم . فدين الله تعالى مبني على

التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج ، والذين يجدون فيه ضيقا وحرجا ، هم الناكبون عن هديه ، الخارجون على تعاليمه .

وهو سبحانه الذي سمى هذه الأمة بالمسلمين في الكتب المنزلة السابقة ، بقوله : { هو سماكم المسلمين } . والإسلام إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك . فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات . حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحتى سلمت إليها الأمانة ، وعهد إليها بالوصاية على البشرية . فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله:{ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهدآء على الناس}. فالرسول صلى الله عليه وسلم يشهد على هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها . وهي تشهد على الناس بمثل هذا ، فهي القوّامة على البشرية بعد نبيها؛ وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة . ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج ، المختار من الله .

وقد بين سبحانه أسباب هذا الاجتباء والاصطفاء فقال : { لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس } . والمراد بشهادة الرسول على أمته : الإخبار بأنه قد بلغهم رسالة ربه . والمراد بشهادة هذه الأمة على غيرها من الناس : الإخبار بأن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى هؤلاء الناس ، قد بلغوهم رسالة ربهم ، ونصحوهم بإخلاص العبادة لله وحده .

والمعنى : فعلنا ما فعلنا من اجتبائكم ، والتيسير عليكم ، وتسميتكم بالمسلمين ، ليكون الرسول شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أمر بتبليغه إليكم ، ولتكونوا أنتم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم رسالة ربهم . فيكونون مشهودا لهم بشهادة الرسول شاهدين على الأمم بقيام حجة الله عليهم . وإذا كان الله قد خصكم بهذه الميزات كلها ، فمن الواجب عليكم أن تقابلوها بالشكر والطاعة له ، فتقيموا الصلاة على أتم وجوهها ، وتعطوا الزكاة لمستحقيها ، وتتوكلوا على الله فى كل أموركم ، وتستمدوا منه العون . فهو معينكم وناصركم . فنعم المولى ونعم النصير . لأنه لما اجتباكم وخصكم برحمته ، كان حقيقاً بالشكر له بتلك الخصال المأمور بها . والتي هي المقتضى التعبدي لهذه الرحمة الإلهية [186] .

---

[186]- راجع : تفسير الطبري 191/9، وتفسير الألوسي 150/13، وتفسير الرازي 158/11، وتفسير البقاعي نظم الدرر 388/5-389 ، وتفسير الظلال 219/5 ، وتفسير طنطاوي 2996 ، وتفسير ابن عاشور 326/9، وتفسير السعدي 546 ، وتفسير المنتخب 75/2 ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، لابن القيم 4/ 133، هداية الحيارى في أجوبة اليهود

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قال تعالى : { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } [يوسف: 38]. وقال تعالى : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام: 161-163] .

* الشاهد الرابع :

قال تعال : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى :13] .

لقد انتقل سبحانه من الامتنان بالنعم الجثمانية إلى الامتنان بالنعمة الروحية بطريق الإقبال على خطاب الرّسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للتنويه بدين الإسلام وللتعريض بالكفار الذين أعرضوا عنه. فذكر في معرض المنّة على عباده أنه أرشدهم إلى هذا الدين القويم ، الذي يقتضي منهم أن يسلموا لله تعالى ويخضعوا لأمره ، قال تعالى : { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 136]. فإن أكبر منة أنعم الله بها على عباده، أنه شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، وهو دين الإسلام ، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون مناسبا لأحوالهم، موافقا لكمالهم، بل إنما كملهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به .

فلولا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب. قال تعالى : {

والنصارى، لابن القيم 3/1 ، قاعدة في المحبة، لابن تيمية 1/ 183 ، وسطية الإسلام وسماحته ودعوته للحوار ، أ.د. محمد بن أحمد الصالح 66/1 ، الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان ، بكر بن عبد الله أبو زيد 65/1

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا } [النساء:163].

ومعلوم أن ما شرعه سبحانه لعباده فهو صادر عن كمال العلم والحكمة والرحمة ، كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه ديناً قديماً أجمع عليه الرسل ، والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام ، أي : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ومن بعده من أرباب الشرائع وأولي العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمراً مؤكداً ، والاقتصار على ذكر دين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى النّاس ، فدينه هو أساس الدّيانات ، قال تعالى : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } [النساء: 163]. ولأن دين إبراهيم هو أصل الحنيفية وانتشر بين العرب بدعوة إسماعيل إليه فهو أشهر الأديان بين العرب ، وكانوا على أثارة منه في الحجّ والختان والقِرى . ودين موسى هو أوسع الأديان السابقة في تشريع الأحكام ، وأما دين عيسى فلأنه الدّين الذي سبق دين الإسلام و لم يكن بينهما دين آخر ، وليتضمنَ التهيئةَ إلى دعوة اليهود والنصارى إلى دين الإسلام .

فكان تخصيص المذكورين بالذكر لما أشير إليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الأتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم ، وإلا فما من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الإعصار من أصول الشرائع والأحكام كما ينبيء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به .

والمراد بما شرعه سبحانه على ألسنة هؤلاء الرسل : أصول الأديان التي لا يختلف فيها دين عن دين ، أو شريعة عن شريعة ، كإخلاص العبادة لله والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر ، والتحلي بمكارم الأخلاق بحسب المعروف . وتقْوى الله بامتثال أمره واجتناب نَهْيِه على العموم ، قال تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى: 14-19].

أما ما يتعلق بفروع الشرائع ، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم ، وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم فهذا لا يدخل فى الأصول الثابتة فى جميع الأديان ، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال . ويؤيد ذلك قوله تعالى : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } [المائدة:48].

وقوله سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام : { وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } [آل عمران: 50].

ولما كان أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحدًا ، وإنما تنوعت الشرائع ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء إخوة لعلّات ، أمّهاتهم شتّى ودينهم واحد »[187] . ويقول سبحانه : { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ } [الحج: 67].

قال ابن القيم رحمه الله : " الشرائع كلها في أصولها وإن تباينت متفقة ، مركوز حسنها في العقول ، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة والمصلحة والرحمة ، بل من المحال أن تأتي بخلاف ما أتت به : { وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ } [المؤمنون: 71]. وكيف يجوز ذو العقل أن ترد شريعة أحكم الحاكمين بضد ما وردت به "[188]. فهو يشرع لهم من الحقوق ما يجب عليهم القيام بها ، ويكفل لهم من الواجبات ، ويمدهم بالوسائل التي تبلغهم هذه الغاية ، ليتحقق لهم رضى الله ، وسعادة الدارين وفق منهج إلهي لا يمزق العبد كل ممزق ، ولا يصيب شخصيته بداء الفصام النكد الذي ينتهي به إلى التصادم بين فطرته وروحه والكون من حوله . فجميع الرسل يدعون إلى الدين الإلهي الذي يقدم للبشرية الأساس العقدي الذي تؤمن به ، والشريعة التي تسير عليها في حياتها .

فلذا كانت التوراة عقيدة وشريعة ، وكلف أهلها بالتحاكم إليها ، قال تعالى : { إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ } [المائدة: 44]. ثم جاء المسيح عليه السلام ومعه الإنجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، قال جل ثناؤه : { وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ } [المائدة: 46].

ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالشريعة الخاتمة والملة الكاملة ، مهيمنة على ما قبلها من الشرائع وناسخة لها ، وآتاه الله القرآن مصدقا لما بين يديه من الكتب ، قال تعالى : { وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ } [المائدة: 48].

---

[187]- صحيح البخاري (3443) ، وصحيح مسلم (2365)

[188]- مفتاح دار السعادة ، جـ 2 ، ص : 383

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ودين الإسلام لم يَخْلُ عن تلك الأصول التي جاء بها جميع الأنبياء والرسل وإن خالفها في التفاريع تضييقاً وتوسيعاً ، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام وسدّ الذرائع والأمر بالنظر في الأدلة وبرفع الحرج وبالسماحة وبشدة الاتصال بالفطرة .

وإذا كان الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . فلم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي يحملها رسولهم الأخير؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع : { أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه } . وهو تفصيل وتوضيح لما شرعه سبحانه لهؤلاء الكرام ، ولما أوصاهم به من إقامة الدين وعدم التفرق فيه ، فالمراد بإقامة الدين : هو أن يقوموا بتكاليفه من الالتزام بأوامره ونواهيه ، وطاعة الرسل في كل ما جاءوا به من عند رهم طاعة تامة ، والمحافظة على ما اشتمل عليه دين الله من عقائد وأحكام وآداب .

والمراد بعدم التفرق فيه : هو أن لا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به؛ ويقفوا تحت رايته صفا ، وهي راية واحدة ، رفعها جميع الأنبياء صلوات الله عليهم حتى انتهت إلى محمد صلى الله عليه وسلم في العهد الأخير . فيجب الاتفاق على أصل الدين وعدم الاختلاف فى أحكامه التى لا تقبل الاختلاف . وعدم التفرق في إقامته بأن ينشط بعضهم لإقامته ويتخاذل البعض ، إذ بدون الاتفاق على إقامة الدّين يضطرب أمره ، ويشمل التفرق بين الذين آمنوا بأن يكونوا نِحَلاً وأحزاباً ، وذلك اختلاف الأمة في أمور دينها ، أي في أصوله وقواعده ومقاصده ، فإن الاختلاف في الأصول يفضي إلى تعطيل بعضها فينخرم بعض أساس الدّين .

ووجه ذلك أن تأثير النفوس إذا اتفقت يَتوارد على قصد واحد فيقوَى ذلك التأثير ويسرع في حصول الأثر إذ يصير كل فرد من الأمة مُعِيناً للآخر فيسهل مقصدهم من إقامة دينهم . أما إذا حصل التفرق والاختلاف فذلك مُفضٍ إلى ضياع أمور الدّين في خلال ذلك الاختلاف ، ثم هو لا يلبث أن يُلقِيَ بالأمة إلى العداوة بينها وقد يجرّهم إلى أن يتربص بعضهم ببعض الدوائرَ ، ولذلك قال الله تعالى : { ولا تَنَازَعُوا فتفشَلُوا وتَذهَبَ رِيحُكم } [الأنفال: 46].

وأما الاختلاف في فروعه بحسب استنباط أهل العلم بالدّين فذلك من التفقّه الوارد فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم « من يُرِدِ الله به خيراً يفقِهْه في الدّين »[189]. ثم بين سبحانه موقف المشركين من الدين الحق فقال : { كَبُرَ عَلَى المشركين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ } . أى : شق وعظم على المشركين

189- صحيح البخاري رقم (71) وصحيح مسلم رقم (100)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دعوتكم إياهم إلى وحدانية الله تعالى وإلى ترك ما ألفوه من شرك ، ومن تقاليد فاسدة ورثوها عن آبائهم ، كما قال عنهم : { وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } [الزمر: 45]. فوقف مشركوا قريش من دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام ، موقف العداوة والخصومة . وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام . وقد كبر عليهم ذلك من ثلاث جهات :

ــ **جهة الداعي** : لأنه بشر مثلهم قالوا : { أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } [الإسراء: 94]. ولأنه لم يكن قبْل الدعوة من عظماء القريتين قالوا : { لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف: 31]. فكبرعليهم أن يتنزل الوحي على محمد من بينهم؛ وكانوا يريدون أن يتنزل على صاحب سلطان من كبرائهم ولم تكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ، ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت في قريش . ما كان هذا كله يعدل في نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان!

ــ **وجهةِ ما به الدعوة** : فإنهم حسبوا أن الله لا يخاطب الرّسل إلا بكتاب ينزله إليه دفعة من السماء فقد قالوا : { وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ } [الإسراء: 93]. { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا } [الفرقان: 21]. { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ } [البقرة: 118]. والقائلون هم المشركون .

ــ **وجهة ما تضمنته الدعوة** : مما لم تساعد أهواؤهم عليه قالوا : { أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ } [ص: 5]. { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } [سبأ: 7]. فقد كبر عليهم أن ينتهي سلطانهم الديني بانتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التي يقوم عليها هذا السلطان؛ وتعتمد عليها مصالحهم الاقتصادية والشخصية . فتشبثوا بالشرك وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذي دعاهم إليه الرسول الكريم . وكبر عليهم أن يقال : إن آباءهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية؛ فتشبثوا بالحماقة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم ، على أن يوصم آباؤهم بأنهم ماتوا ضالين .

والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذي يصطفي ويختار من يشاء؛ وأنه كذلك يهدي إليه من يرغب في كنفه ، ويتوب إلى ظله من الشاردين : **{ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب } . وهذا بيان لكمال قدرته تعالى ونفاذ مشيئته . ومعنى الاجتباء : الاصطفاء والاختيار . أي**

: إن الله تعالى يطصفى ويختار بإرادته وحكمته لرسالته من يشاء من عباده ، ويهدى إلى الحق من ينيب إليه ، وهذا السبب الذي يتوصل به العبد إلى هداية الله تعالى ، وهو إنابته لربه ، وانجذاب دواعي قلبه إليه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى : { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ } [المائدة: 16]. وقيل أن هذا الاجتباء فيه وجهان :

الأول : أنه تعالى لما أرشد أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بالدين المتفق عليه بيّن أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير ، لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة . فقد اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم للرسالة . واجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

الثاني : أنه إنما كبّر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبراً وأنفة فبيّن تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم ، أي ثقلت عليهم رسالتك وعظم لديهم تخصيصنا إياك بالرسالة والوحي دونهم وقوله تعالى : { اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ } رد عليهم على نحو { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام: 124]. فلا يعتبر الحسب والنسب والغنى ، بل الكل سواء في أنه يلزمهم إتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى إليه وقربهم منه تقريب الإكرام والرحمة ، وعليه فإن الله تعالى يقرر أن ما شرعه للمسلمين هو في عمومه ما وصى به سائر الأنبياء . وهو أن يقيموا دين الله الواحد ، ولا يتفرقوا فيه . ويرتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهي القويم ، دون التفات إلى أهواء المختلفين . ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم ، ودحض حجة الذين يحاجون في الله ، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد .

فإن مقتضى هذه الرحمة الإلهية والعناية الربانية في اصطفاء الله تعالى لعباده هذا الدين القيم العظيم ، واختيار الخيرة من الخلق لتبليغه من قبل الأنبياء والمرسلين ، هو مقابلة هذه النعمة الجليلة بشكر الله تعالى عليها قولاً وعملاً ، وذلك من خلال التصديق بالرسل وإتباعهم ، والتسليم والإذعان بما جاؤا به من أوامر من عند الله ، وتطبيقها في واقع حياتهم ، كما في قوله تعالى : { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [

يوسف: 38-40]. وقوله تعالى : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: 70-71].

فلا يجوز لبشر من أفراد الخلائق أن يتعبد الله بشريعة غير شريعة الإسلام . فإن الشرائع وإن تعددت وتنوعت ، فإن شريعة الإسلام هي خاتمة الشرائع ، وهي ناسخة لكل شريعة قبلها ، . قال تعالى : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام: 161-163].

فلا ينبغي الخلط بين دين الإسلام الحق ، وبين غيره من الشرائع الدائرة بين التحريف والنسخ ، وأنه لم يبق إلا الإسلام وحده ، والقرآن وحده ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم لا نبي بعده ، وأن شريعته ناسخة لما قبله ، ولا يجوز اتباع أحد سواه . قال تعالى : { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 67-68].

وهكذا يجد المتأمل في كتاب الله تعالى التنبيه في كثير من الآيات إلى أن هذا القرآن ما أنزل إلا ليجدد دين إبراهيم ؛ حتى دعاهم بالتسمية التي يكرهها اليهود والنصارى : " ملة إبراهيم " قال تعالى : { هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ } [الحج: 78].

والخلاصة : أن لفظ : " الإسلام " له معنيان ، معنى عام : يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من أنبياء الله الذي بعث فيهم ، فيكونون مسلمين ، حنفاء على ملة إبراهيم بعبادتهم لله وحده واتباعهم لشريعة من بعثه الله فيهم ، فأهل التوراة قبل النسخ والتبديل ، مسلمون حنفاء على ملة إبراهيم ، فهم على " دين الإسلام " ، ثم لما بعث الله نبيه عيسى عليه السلام فإن من آمن من أهل التوراة بعيسى ، واتبعه فيما جاء به فهو مسلم حنيف على ملة إبراهيم ، ومن كذبه منهم فهو كافر لا يوصف بالإسلام ؛ ثم لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وهو خاتمهم ، وشريعته خاتمة الشرائع ، ورسالته خاتمة الرسالات ، وهي عامة لأهل الأرض وجب على أهل الكتابين ، وغيرهم ، إتباع

شريعته ، وما بعثه الله به لا غير ، فمن لم يتبعه فهو كافر لا يوصف بالإسلام ولا أنه حنيف ، ولا أنه على ملة إبراهيم ، ولا ينفعه ما يتمسك به من يهودية ، أو نصرانية ، ولا يقبله الله منه .

فبقي اسم : " الإسلام " عند الإطلاق منذ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، مختصا بمن يتبعه لا غير . وهذا هو معناه الخاص الذي لا يجوز إطلاقه على دين سواه ، فكيف وما سواه دائر بين التبديل والنسخ ؟ قال تعالى : { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة:135- 136].

فقد أمر الله المسلمين أن يقولوا لأهل الكتاب : { بل ملة إبراهيم حنيفا }. ولا يوصف أحد اليوم بأنه مسلم ، ولا أنه على ملة إبراهيم ، ولا أنه من عباد الله الحنفاء إلا إذا كان متبعا لما بعث الله به خاتم أنبيائه ورسله محمدا صلى الله عليه وسلم . وقال تعالى في حق نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا } [الجاثية: 18].

ولذا فإن شريعة الإسلام ، هي آخر الشرائع ، باينت جميع الشرائع في عامة الأحكام العملية ، والقولية ، والأوامر والنواهي ؛ لما لها من صفة الدوام ، والبقاء ، وأنها آخر شريعة نزلت من عند الله ، ناسخة لما قبلها من شرائع الأنبياء . فوجب الإيمان به وإتباعه صلى الله عليه وسلم ، استجابة لأمر الله تعالى . وشكراً له بإرساله نبي الرحمة ، وإنزاله دين المرحمة [190].

* الشاهد الخامس :

قال تعالى : " أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا " [مريم: 58-59].

[190] - راجع : تفسير الألوسي 247/18، وتفسير الرازي 423/13، وتفسير ابن عاشور 94/13-98، وتفسير الظلال 315/6-316، وتفسير طنطاوي 2759، وتفسير السعدي 754 ، وتفسير أيسر التفاسير 494/3، وتفسير المنتخب 344/2، مجموع الفتاوي 230/8 ، الرسالة التدمرية 108 ، الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان ، بكر بن عبد الله أبو زيد ص45-65 ، الإسلام أصوله ومبادؤه ، محمد بن عبد الله بن صالح السحيم ، ص126

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يمتن الله تعالى على عباده بما أنعم عليهم من واسع رحمته وعظيم فضله في إرسال الرسل وإنزال الكتب، مصداقاً لقوله تعالى : { أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [الدخان: 5-6]. وقوله : { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [الأعراف: 52].

وهذه الرحمة الإلهية لها مستحقاها على العباد التي تلزمهم القيام بمقتضياها التعبدية ، تصديقاً وتسليماً ، والتزاماً وتطبيقاً ، ونصرة وتبليغاً ، وهذا ما تقرره هذه الآية الكريمة في معرض امتنانه تعالى بإنعامه على عباده من النبوة والهداية والاجتباء ، ومن ثم بيان حالهم في مقابلة رحمة الله وفضله عليهم ، وذلك من خلال نموذجاً حياً ، ومثالاً واقعيا ، تمثل في خيرة الخلق من الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والصالحين ، وتمثل في أعلى صور العبادة ، وهما : السجود الذي يدل على الخضوع ، والبكاء الذي يدل على الخشوع ، فهما تعبير حقيقي للعبادة الخالصة لله تعالى . وهذا الاستحقاق لرحمة الله تعالى ينبغي أن يقابله العباد بالشكر لله عز وجل قولاً وعملاً .

والمتتبع لسورة مريم يلاحظ أن الرحمة هي السمة البارزة في جو السورة ، فقد ابتدأت بقوله : { ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا } [مريم: 2]. وتتابع بعد ذلك ذكر الأنبياء وقد أثنى تعالى على كل واحد منهم بما يخصه من الثناء ثم جمعهم آخراً فقال : { أُولَئِكَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم } . واسم الإشارة فيه معنى البعد للإشعار بعلو مرتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل ، فهم أحرياء بنعمة الله عليهم وكونهم في عداد المهديين المجتبيْن وخليقين بمحبتهم لله تعالى وتعظيمهم إياه . وقوله تعالى : { الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم } . فقد بين سبحانه في سورة النساء من أنعم عليهم بصورة أكثر شمولاً فقال : { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } [النساء: 69]. وبين في سورة الفاتحة في قوله : { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } [الفاتحة: 6-7].

فأنت ترى أن الله تعالى قد جمع لهؤلاء المنعم عليهم جملة من المزايا منها : أعمالهم الصالحة ، ومناقبهم الحميدة التي سبق الحديث عنها ، ومنها : كونهم من نسل هؤلاء المصطفين الأخيار ، ومنها أنهم ممن هداهم الله تعالى واصطفاهم لحمل رسالته ، وقوله : { وممّن هدينا واجتبينا } . فإن ذلك أحسن جزاء على ما قدموه من الأعمال ، وبإسناد تلك العطايا إلى الله فيه مزيد فضل وتشريف ، أي : ومن جملة من أنعم الله عليهم ، أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق واجتبيناهم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

واخترناهم لحمل رسالتنا ووحينا . قال تعالى : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } [الأنبياء: 73]. وقال تعال : { وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } [مريم: 50]. أي : جعلناهم أنبياء ومنحناهم الكثير من فضلنا ، ومعلوم أن النبوة من باب الرحمة التي يختص الله بها من يشاء ، قال تعالى : { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [يوسف: 6].

ومعلوم أن النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحق وآل يعقوب عن سائر البشر ليس إلا النبوة ، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة . فكان مقتضى هذه الرحمة الإلهية من العناية والهداية والاصطفاء ، أن تقابل بالشكر ، فبين سبحانه حال أولئك النبيين ومعهم من هدى الله واجتبى من الصالحين من ذريتهم . أن صفتهم البارزة عند تلاوة آيات الرحمن عليهم : { خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، فالجملة استئناف مسوق لبيان عظم خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له سبحانه مع ما لهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله .فهم مع نعم الله عليهم قد بلغوا الحد الذي عند تلاوة آيات الله يخرون سجداً وبكياً ، وقد جمع سبحانه بين السجود والبكاء بالنسبة لهم ، للإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم ، فهم أصحاب قلوب رقيقة ، وعواطف جياشة بالخوف من الله تعالى والسجود لربهم .

وفي هذه الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيرا في القلوب ، فمن صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم يتأثرون تأثراً عظيماً عند سماعهم لكلام الله تعالى ، تأثراً يجعلهم يبكون ويسجدون وتقشعر جلودهم ، وتوجل قلوبهم ، وتلين نفوسهم ، ويبادرون إلى تطبيقه والعمل بمقتضاه .

والقرآن حينما يقرر هذه الحقيقة ، حقيقة رحمة الله تعالى الواسعة ، وفضله على عباده في إرسال الرسل وإنزال الكتب التي فيها الهدى والنور ، والشفاء والرحمة ، إنما يقرر ذلك ليطالبهم بمقتضياتها التعبدية التي توجب عليهم أن يشكروا الله على هذه الرحمة وعلى تلك النعمة بما يناسبها من التصديق بنبيه المرسل وبكتابه المنزل ، وتلاوته بتدبر وخشوع ، والعمل به وتبليغه للناس .

وقد وردت آيات كثيرة في تقرير هذا المعنى ، كقوله تعالى : { قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا } [الإسراء: 107-

109]. وقوله : { وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } [المائدة: 83]. وقوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ } [الأنفال: 2-3]. وقوله تعالى : { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ } [الزمر: 23].

فكل هذه الآيات فيها الدلالة على أنهم إذا سمعوا آيات ربهم تتلى تأثروا تأثراً عظيماً ، يحصل منه لبعضهم البكاء والسجود . ولبعضهم قشعريرة الجلد ولين القلوب والجلود ، مما يدفعهم إلى الحرص على التمسك به وإتباعه والعمل بما فيه . قال تعالى : { ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (154) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأنعام: 154-155]. والمراد { بآيات الرحمان } ما خصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة عليهم المتضمنة لتوحيده وحججه . وشرعه وتعاليمه ، وفي إضافة الآيات إلى اسمه { الرحمن } دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة. وهذا يوجب عليهم شكره تعالى ، قال ابن كثير – رحمه الله – : " أي : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَجه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعًا واستكانة، وحمدًا وشكرًا على ما هم فيه من النعم العظيمة "[191].

وجملة {إِذَا تتلى عَليهم آياتُ الرَّحْمانِ } مستأنفة دالة على شكرهم نعم الله عليهم وتقريبه إياهم بالخضوع له بالسجود عند تلاوة آياته وبالبكاء . والمراد به البكاء الناشيء عن انفعال النفس انفعالاً مختلطاً من التعظيم والخوف . وعندما قرأ عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – هذه الآية فسجد وقال : هذا السجود فأين البكاء "[192] .

لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المخلصون المتبعون لمراضي ربهم، المنيبون إليه، ترغيباً لنا في التأسي بطريقتهم ، كما في قوله تعالى { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ } [الأنعام: 90]. ذكر من أتى بعدهم ، وبدلوا ما أمروا به ، وفرطوا في عبادة الله واتبعوا شهواتهم فلم يخالفوا ما تميل إليه

---

[191]- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير 242/5

[192]- شعب الإيمان للبيهقي رقم (2059) ، وتفسير الطبري (73/16)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أنفسهم مما هو فساد ، وظاهر الكلام أن المراد من بعد هؤلاء الأنبياء خلف من أولادهم ، قيل هم اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الذين جاءوا بعدهم ، وفي الشعر للبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

ثم وصفهم بإضاعة الصلاة واتباع الشهوات فإضاعة الصلاة في مقابلة قوله : { خَرُّواْ سُجَّداً } واتباع الشهوات في مقابلة قوله : { وَبُكِيّاً } . فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها ، والسبب الداعي لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم فصارت هممهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله .

وقد كشف القرآن عن حقيقة هذا الخلف السيء من اليهود والنصارى والمشركين في مقابلة رحمة الله بإرسال نبي الرحمة بقوله : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: 107]. هو تكذيب النبي عليه الصلاة والسلام والإعراض عن دينه حسداً من عند أنفسهم ، قال تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا } [النساء: 54-55]. فالآية توبيخ لهم على حسدهم ، وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم . فقد حسدوا النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله منحه النبوة وهو رجل من العرب وليس منهم ، فكيف ينكرون إنعامه بالنبوة والنصر والملك لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق أن أنعم الله به على إبراهيم وذريته من النبوة والكتاب والملك . فإنعامه لم يزل مستمرًا على عباده المؤمنين. وذلك ليس ببدع ولا غريب على فضل الله . ولكن أحقادهم التي مرجعها إلى انطماس بصيرتهم ، وخبث نفوسهم ، منعتهم من الإيمان والتصديق به وبرسالته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : { مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [البقرة: 105].

ويجمع القرآن بين أهل الكتاب والمشركين في الكفر . وكلاهما كافر بالرسالة الأخيرة ؛ وكلاهما يضمر للمؤمنين الحقد والضغن ، ولا يود لهم الخير . وأعظم ما يكرهونه للمؤمنين هو هذا الدين . هو أن يختارهم الله لهذا الخير وينزل عليهم هذا القرآن ، ويحبوهم بهذه النعمة ، ويعهد إليهم بأمانة العقيدة في الأرض ، وهي الأمانة الكبرى في الوجود .

وهذه الآية تكشف السبب الذي دعا لامتناع اليهود من الإيمان بالقرآن لما قيل لهم { آمنوا بما أنزل الله } فقالوا : { نؤمن بما أنزل علينا }[193]. أي ليس الصارف لهم تمسكهم بما أنزل إليهم بل هو الحسد على ما أنزل على النبي والمسلمين من خير ، قال تعالى : { وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [آل عمران: 73-74] .

يسجل سبحانه من صفات اليهود اللازمة لهم إلى يوم القيامة . من المكر والخداع والحسد ، والكشف عن التعصب اليهودي وأساليب التمويه والتضليل ، والإعلام العالمي اليوم مظهر من مظاهر التضليل اليهودي . وهنا يرد تعالى على تلك البدعة اليهودية بإن الهدى هدى الله ، لا ما يحتكره اليهود من الضلال ويزعمون أنه الحق والهدى ، فمادة الهدى من الله تعالى ، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلا وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لخبث نياتهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم ، فلهذا قال تعالى : { والله يختص برحمته من يشاء } والرحمة هنا مثل الخير المنزل عليهم وذلك إدماج للامتنان عليهم بأن ما نزل عليهم هو رحمة بهم .

فالله يختص برحمته من علم أنه حقيق بها . وقوله : { والله ذو الفضل العظيم } تذييل لأن الفضل يشمل إعطاء الخير والمعاملة بالرحمة ، وتنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة فيتخلى عن المعاصي والخبائث ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه وفي الحديث الصحيح : " تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة "[194].

ومن ثم يتهدد السياق هؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين . يتهددهم بالضلال والهلاك ، بقوله : { فسوف يلقون غيا } والغي الشرود والضلال ، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك . ثم بين سبحانه أن هذا الوعيد فيمن لم يتب ، وأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فلهم الجنة لا يلحقهم ظلم .

---

[193] - البقرة : 91

[194]- رواه الحاكم في مستدركه برقم (6303) واحمد في مسنده برقم (2804)

وعليه فهذه الآية تقرر حقيقة فضل الله ورحمته بعباده من الهداية إلى دينه القويم وشرعه السديد ، واصطفاء خيرة الخلق لتبليغه وتطبيقه ، وكيف ينبغي مقابلة هذه النعمة من خلال بيان حال المومنين من الخضوع والخشوع لله تعالى ، وبيان حال النقيض لهم من ترك المأمور وارتكاب المحذور، ليكون ذلك أظهر للحجة ، وأدعى إلى التطبيق وعدم المخالفة [195].

[195]- راجع : تفسير الرازي 323/10، ، وتفسير القرطبي 111/11 ، وتفسير الألوسي 437/8، 18/12، وتفسير ابن عاشور 3/1،7/423،232/130، 8/494-495، وتفسير الظلال 5/101-102، وتفسير طنطاوي 958،179، 2273، 2788 ، وتفسير السعدي 182، 393، 496 -497، وتفسير الشنقيطي 3/4، وتفسير البقاعي 210/5 ، وأيسر التفاسير ،176/1

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– المبحث الثالث –

الاستدلال برحمة الله تعالى في مغفرته وحلمه

إن المنهج القرآني يتخذ من هذا الوجود وواقع الناس وحياتهم ، مجاله الأول لتجلية حقيقة هذه الرحمة الإلهية ؛ ليجعل منها دليلاً موحياً ومؤثراً ، من أجل تعبيد الناس لربهم وحده ، وإشعار قلوبهم وكيانهم كله حقيقة هذه العبودية ، وتذوق طعمها الحقيقي في استسلام الواثق المطمئن؛ الذي يستشعر أن كل ما حوله وكل من حوله من خلق الله ، يتجاوب وإياه!

إن المنهج القرآني لا يستخدم البرهان العقلي معزولاً عن الكيان الإنساني ، إنما يستهدف منهجه المحتوى الكلي للإنسان فكره وشعوره وجوارحه لتنصهر جميعها بحقائق الإيمان ، وحقائق الوجود ، لتشارك هذا الوجود وتتجاوب معه في العبودية لله وحده ، والاستسلام لأمره وحكمه عن طواعية ويسر ؛ ومن ثم الانسياق مع موكب الإيمان الشامل . قال تعالى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50) وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } [النحل: 47-51]. وإن شهود رحمة الله في مغفرته وعفوه لمن تاب واستغفر ، وقبول هذه التوبة إنما هو بكرمه وجوده ، وإلا فلو أخذ بمحض حقه كان عادلا محموداً ، وإنما عفوه بفضله لا بإستحقاق عليه ،

وهذا يوجب له اشتغالا بذكره وشكره ومحبته ، والإنابه إليه وابتهاجاً به ، وفرحاً بمعرفة اسمه الغفار ، ومشاهدة لهذه الصفة وتعبدا بمقتضاها ، وذلك أكمل في العبودية والمحبة والمعرفة .

وكذلك شهود حلم الله سبحانه وتعالى في إمهال راكب الخطيئة ولو شاء لعاجله بالعقوبة ولكنه الحليم الذي لا يعجل فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه الحليم ومشاهدة صفة الحلم والتعبد بهذا الإسم تحقيقاً لمقتضاه التعبدي[196] .

---

[196]- راجع : تفسير الظلال 227/2 ، ومدارج السالكين 206/1

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد استدل القرآن برحمة الله تعالى في مغفرته وحلمه بلازمها التعبدي ، والمتتبع لآيات القرآن يجد هذا المنهج واضحاً جلياً ، وسوف نستعرض هذا المنهج القرآني في تقرير حقيقة رحمته تعالى في مغفرته وسعة حلمه ، والاستدلال بها على وجوب تفرده بالألوهية وما يستلزمها من موجبات العبادة ، وذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام . وبيانها على النحو الآتي :

ــ المطلب الأول : رحمته تعالى بالعفو والمغفرة لعباده .

إن حقيقة رحمة الله تعالى والمتمثلة في مغفرة الذنوب والعفو عن السيئات ، تتجلى في كثير من الصور ، وفي كل صورة من صور الرحمة التي يتجلى بها تعالى على عباده يترتب عليهم مقابلتها بما يلائمها من مقتضيات تعبدية يلزمهم القيام بها بمقتضى العقل وموجب الشرع ، وقد استدل سبحانه وتعالى برحمته الواسعة في عفوه ومغفرته وتجاوزه عن سيئات عباده على وجوب العبودية لله وحده متمثلة في الطاعة المطلقة والتسليم . ثم الاعتراف بالضعف بعد ذلك والتوجس من التقصير ، الذي لا يمحو آثاره إلا الطمع في رحمة الله وفضله . ورجاء عفوه ومغفرته ، وهذه الرحمة الإلهية تقتضي منهم أن يقابلوها بما يلائمها بكل صورها واشكالها ، وهذه المقتضيات لرحمة الله في عفوه تعالى ومغفرته ، قد قررها القرآن في كثير من آياته ، وطالب الناس أن يتمثلوها في واقع حياتهم ممارسة إيمانية ، ومن هذه الصور والتجليات لرحمة الله تعالى وما يوافقها من مقتضيات تعبدية ، وردت كثير من النصوص في تقريرها ، ونذكر منها ما يلي :

1. **إن رحمة الله تعالى تتجلى ابتداءً في فتح باب التوبة وقبولها من عباده** ، قال تعالى : { وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: 25]. وقال تعالى : { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة: 104]. إن من رحمة الله تعالى بعباده أنه فتح لهم أبواب التوبة والمغفرة ليتخلصوا من ألم الذنب وحسرة الندم ، وليخففوا من ثقل الخطيئة وشدة وطئتها على النفس ، فنشر لهم بساط الوفاء ليطوي عنهم صفحة البعد والجفاء ، ويرجعوا إليه بالإنابة بعد طول الغربة والمتاهة ، ومد جسور الوصل حتى يعودوا إليه بعد الهجر ، وليجددوا صلتهم بالله بعدما أبلاها كثرة الذنوب ، فيصلحوا بعد الإساءة ، ويستقيموا بعد التفريط ، وعليه فإن مقتضى رحمته تعالى بقبول التوبة والصفح عن الذنوب ، هو وجوب التوبة إلى الله تعالى من كل ذنب أو تقصير والصدق فيها ، وقد جاءت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نصوص كثيرة في تأكيد هذه الحقيقة وتقريرها ، كما بين ذلك بقوله : { وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [النور: 31].

وقد ورد هذا الاستدلال على لسان الأنبياء ، فهذا شعيب يقول لقومه : { وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (90) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ } [النحل: 90-91]. كذلك نوح في قوله : { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا } [نوح: 10-11].

وهذه التوبة حتى تكون مقبولة عند الله تعالى لا بد أن تكون توبة صادقة ، كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } [التحريم: 8]. وهذه التوبة النصوح هي التوبة الصادقة ، وحتى تتحقق لا بد من توفر شروطها وهي :

أ. الإقلاع عن المعاصي ، لقوله تعالى : { وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} [البقرة: 279].

ب. الندم على فعلها ، كما في قوله تعالى : { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة: 118].

ج. أن يعزم أن لا يعود إليها ، في قوله : { فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة: 275].

د. التحلل من حقوق العباد[197] في قوله : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [البقرة: 178].

2.وتتجلى رحمة الله تعالى في سماحة هذا الدين في مراعاة ضعف الإنسان . الذي تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع . فهو سبحانه يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ولا يبادر إلى طرده من رحمته حين يظلم نفسه ويرتكب الفاحشة .

---

[197]- راجع : وتفسير القرطبي 92/5 ، تفسير أبي السعود 267/1 ، انظر : أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الانساني ، زكريا الشلول 398

إنما سماحة هذا الدين تفتح باب التوبة لمن يعود إليها . على شرط أن يتوب من ذنبه ، ويصلح ما أفسد من عمل ، وهذا هو مقتضى هذه الرحمة وتجلياتها ، قال تعالى : { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النعام:54].

وتتجلى رحمة الله تعالى بكتابة الرحمة على نفسه ممثلة في المغفرة لمن أذنب ثم أناب ، وفي تجاوزه عن سيئات عباده إذا عمل احدهم السوء بجهالة ثم تاب .

فحتى يظل العبد في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله . فعليه أن يبقى في إطار العبودية لله والاستسلام له ، بأن يذكر الله ويستغفر لذنبه ، ويندم عليه من غير إصرار ، وحسبه أن نداوة الإيمان وصلته بالله ما تزال باقية فيه ، وأنه يعرف أنه عبد ضعيف يخطئ وأن له رباً رحيم يغفر الذنوب ، فليبادر إذن بذكر الله ولا ينساه ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته . ، فإنه إن يعذر في عدم عصمة نفسه عن الخطأ ، فإنه لا يعذر في التمادي والمكابرة فيه ، وما دام أن رحمة الله تشمله فليس له حجة على الإصرار ، .فكان مقتضى هذه الرحمة بالإنسان ومراعاة ضعفه الإقلاع عن المعاصي والذنوب وعدم الإصرار عليها ، قال تعالى : { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء: 110]. وقال تعالى : { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [آل عمران: 135].

إن الله لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ، إنه يطمعه في المغفرة ويدله على الطريق ويأخذ بيده ليفيء إلى الحمى الآمن . وكل ما يتطلبه هو : ألا ينسى الله حين الذنب بالمسارعة إلى الاعتذار ، ويذكر رحمته بجبر ضعفه بعدم الإصرار . فإن الله هو الذي خلق الإنسان وهو يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة وبجانب الثقلة رفرفة وبجانب النزوة الحيوانية أشواقاً ربانية . فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود . ما دام يذكر الله ولا ينساه ولا يصر على الخطيئة! والإسلام لا يدعو إلى الترخص ولا يمجد العاثر الهابط إنما هو يقيل عثرة الضعف ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء كما يستجيش فيها الحياء! فالمغفرة من الله تخجل ولا تطمع ، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار . فأما الذين يستهترون ويصرون فرحمة الله لا تشملهم . لأنهم جمعوا مع ضعفهم لأهوائهم ، ضعفهم في عدم الاعتراف بالذنب ، فالاستغفار من المعصية ليست مثلبة بل هي منقبة يستحق صاحبها تلك المكرمة الربانية ، في قوله تعالى : { أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [آل عمران:136].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والإسلام بهذه الرحمة الإلهية للبشرية التي يعلم طاقتها . يفتح أمامها باب الرجاء أبداً ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها . ويجبر بهذه الرحمة ضعفها وقصورها ، فعلى الإنسان أن يرجع عن طريق الغواية ولا يركب موجة المكابرة والعناد . ويندم على ما فات ويصلح ما هو آت ، ويقود نفسه إلى الطاعات بخطام الرغبة ، ويمنعها عن المعاصي بزمام الرهبة . لينتقل بذلك من ذل المعصية إلى عز الطاعة[198] . قال تعالى : { وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة: 102].

3. وتتجلى رحمة الله بعبده كذلك أن جعل باب التوبة مفتوحاً له في كل لحظة . وكل وقت .

إذا نسي ثم تذكر؛ وإذا عثر ثم نهض؛ وإذا غوى ثم تاب . ما لم تطلع الشمس من مغربها أو يغرغر . فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا "[199] .

فقد حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها كما قال تعالى : { يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا } [الأنعام: 158]. وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ "[200] . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ قَالَ الرَّبُّ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي "[201] . قال تعالى : { إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: 17-18]. لقد نفى سبحانه وتعالى قبول التوبة من فريقين من الناس .

أولهما : الذين يرتكبون السيئات ، ويستمرون على ذلك بدون توبة أو ندم حتى إذا حضرهم الموت ، ورأوا أهواله ، قال قائلهم : إني تبت الآن ، ومن ذلك قوله تعالى : { فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا } [غافر: 85]. وقوله تعالى حكاية عن فرعون : { حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق

---

[198]- راجع : تفسير الظلال ، 121/1، 447-448 ، 485/2

[199]- صحيح مسلم رقم (2759)

[200]- سنن الترمذي رقم (3537)

[201]- رواه الإمام أحمد في مسنده ، رقم (11255)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ المسلمين آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً } [يونس: 90-91]. فلم يقبل الله توبته عند مشاهدة العذاب ، وقوله تعالى : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون: 99-100]. وقوله تعالى : { وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا } [المنافقون: 10-11]. فأخبر تعالى في هذه الآيات أن التوبة لا تقبل عند حضور الموت . وعدم قبول توبة هؤلاء في هذا الوقت سببه أهم نطقوا بها في حالة الاضطرار لا في حالة الاختيار ، ولأهم نطقوا بها في غير وقت التكليف .

وثانيهما : الذين يموتون وهم على غير دين الإسلام ، ففي الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب قالوا يا رسول الله وما الحجاب قال أن تموت النفس وهي مشركة " [202]. فبيَّن أنّ الكافر إذا مات كافراً لا تشمله رحمة الله ومغفرته . كما في قوله صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب لمّا حضرته الوفاة : " أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال فكان آخرَ شيءٍ كلَّمَهم بهِ على مِلّة عبد المطلب فقال النبيُّ : لَأستغفرنَّ له ما لم أُنه عَنْه ، فنَزلَتْ : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [التوبة: 113]. فالذين يصرون ولا يتوبون حتى تفلت الفرصة وتنتهى المهلة ، فأولئك ملاقون ما أوعد الله من قبل به ، قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [محمد: 34]. وعليه فإن باب التوبة مفتوح في كل حين وفي كل وقت لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها ، أو حتى يبلغ الإنسان الغرغرة ، فإذا تاب العبد وأناب قبل ذلك وجد الباب مفتوحاً له ، وقبل الله توبته ، وأقال عثرته . فمقتضى ذلك هو المسارعة إلى التوبة ، والمبادرة إليها قبل فوات الأوان كما في قوله تعالى : { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 133]. فقد أخبر سبحانه عباده أنه تواب رحيم ، وذكر لهم وقت التوبة وشرطها ، ورغبهم في تعجيلها لئلا يأتيهم الموت

202- مسند أحمد (21562)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وهم مصرون فلا تنفعهم التوبة ، قال تعالى : { وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [الزمر: 54].

فالعاقل من الناس هو الذى يبادر بالتوبة الصادقة عقب المعصية بلا تراخ ، ودون تأجيل أو تسويف لأنه لا يدرى متى يفاجئه الموت ، ولأن تأخيرها يؤدى إلى قسوة القلب ، وضعف النفس ، واستسلامها للأهواء والشهوات . وتفويتهم فرصة التوبة وعدم اغتنامها ، وقد وعد الله عباده الذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من قريب ، أن يقبل توبتهم ، ويأخذ بيدهم إلى الهداية والتوفيق ، ويطهر نفوسهم من أرجاس الذنوب ، وكان الله عليما بأحوال عباده وبما هم عليه من ضعف ، حكيما يضع الأمور في مواضعها حسبما تقتضيه مشيئته ورحمته بهم[203] .

4. وتتجلى رحمته تعالى أنه لم يجعل هذه التوبة طريقاً للهزل والعبث ، ومدخلاً إلى المعاصي والاسترسال في الذنوب ، بل جعلها في غاية الجدية والإيجابية حين ربطها بالعمل الصالح وجعله شرطاً لقبولها ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، فإنه تعالى من رحمته وفضله على من تاب ثم استقام أنه لم يقتصر على مجرد قبول التوبة، بل إنه يبدل سيئاته حسنات ، ويضاعف له ما شاء . قال تعالى : { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الفرقان: 68-70]. فأشار سبحانه إلى شروط التوبة الصادقة ، أي : ومن تاب عن المعاصي ، وداوم على العمل الصالح ليستدرك ما فاته منه ، فإنه في هذه الحالة يكون قد تاب ورجع إلى الله تعالى رجوعا صحيحا مقبولا ، بحيث يترتب عليه محو العقاب وإثبات الثواب .

فقد وضع قاعدة التوبة وشرطها : { ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً } . فالتوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية ، وتنتهي بالعمل الصالح الذي يثبت أن التوبة صحيحة وأنها جدية . وهو في الوقت ذاته ينشئ التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية . فالمعصية عمل وحركة ، يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة ، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذي تحسه بعد الإقلاع . وهذه لمحة في منهج التربية القرآني عجيبة ، تقوم على خبرة بالنفس الإنسانية عميقة . روى الطبراني : " عَنْ أَبِي طَوِيلٍ ، أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجَةً وَلا دَاجَةً إِلا أَتَاهَا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ:"فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟"قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ،

[203]- راجع تفسير الظلال 73/2 ، وتفسير الرازي 110/5، وتفسير ابن كثير 235/2، وتفسير ابن عاشور 363/3 ، وتفسير طنطاوي 892

وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ:"نَعَم , تَفعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللَّهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ"، قَالَ: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ:"نَعَمْ"، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى "[204].

وكذا ما رواه البخاري عنه في التفسير : " أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا فَأَتَوْا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً ، فَنَزَلَ : { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ } [الفرقان: 68]. وَنَزَلَتْ : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ } " [الزمر: 53] "[205].

وهكذا نجد رحمة الله تعالى تحيط بالعبد من كل جوانبه ، لكي تحمله على ولوج باب التوبة والطاعة ، وتوصد في وجهه باب الفسوق والعصيان .

وعليه فإن مقتضى رحمة الله تعالى في عفوه ومغفرته وفضله بإبدال السيئات إلى حسنات ، وربط التوبة بالعمل ، أنه ينبغي على الإنسان أن يتبع السيئة الحسنة ، ويصلح ما أفسد بأن يكثر من الأعمال الصالحة ، قال تعالى : { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } [هود: 114]. وقال تعالى : { إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النمل: 11]. و قال تعالى : { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [النحل: 119]. والمؤمنون بالله يتوجهون إلى ربهم بالطاعة والتسليم ، ويعرفون أنهم صائرون إليه ، فيطلبون مغفرته من كل ذنب أو تقصير بعد تحقيق السمع والطاعة ، من الإيمان والعمل الصالح ، قال تعالى : { وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [البقرة: 285-286].

ويتجلى في هذه الكلمات أثر الإيمان بالله في السمع والطاعة ، السمع لكل ما جاءهم من عند الله ، والطاعة لكل ما أمر به الله . فهو إفراد الله بالسيادة والتلقي منه في كل أمر . فلا إسلام بلا

---

[204]- رواه الطبراني في معجمه الكبير برقم (7235) وابي يعلى في مسنده برقم (3433) قال حسين سليم أسد : إسناده صحيح

[205]- صحيح البخاري رقم الحديث (4532)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

طاعة لله ، ولا إيمان من غير إنفاذ لنهجه وشريعته تعالى أو حين يتلقون تصوراتهم عن الخلق والسلوك والاجتماع والاقتصاد والسياسة من مصدر غير مصدره . ومع السمع والطاعة . الشعور بالتقصير والعجز عن توفية آلاء الله حق شكرها؛ وفرائض الله حق أدائها . والالتجاء إلى رحمة الله لتتدارك تقصيرهم وعجزهم بسماحتها : { غفرانك ربنا } . ولكن طلب الغفران إنما يجيء بعد تقديم الاستسلام وإعلان السمع والطاعة ابتداء بلا عناد أو نكران . وإنما يعقبه كذلك اليقين بأن المصير إلى الله . المصير إليه في الدنيا والآخرة . المصير إليه في كل أمر وكل عمل . فلا ملجأ من الله إلا إليه؛ ولا عاصم من قدره ، ولا مرد لقضائه ولا نجاة من عقابه إلا برحمته وغفرانه : { ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا } .

وهو دعاء يصور حال المؤمنين مع ربهم؛ وإدراكهم لضعفهم وعجزهم ، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه ، وإلى مدده وعونه؛ فدائرة الخطأ والنسيان هي التي تحكم تصرف المسلم حين ينتابه الضعف البشري الذي لا حيلة له فيه . وفي مجالها يتوجه إلى ربه يطلب العفو والسماح . وليس هو التبجح إذن بالخطيئة أو الإعراض ابتداء عن الأمر ، أو التعالي عن الطاعة والتسليم؛ أو الزيغ عن عمد وقصد . ليس في شيء من هذا يكون حال المؤمن مع ربه؛ وليس في شيء من هذا يطمع في عفوه أو سماحته . إلا أن يتوب ويرجع إلى الله وينيب . { ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا } .

وهو دعاء ينبعث من وراثة الأمة المسلمة لتراث الرسالة كله ، ومعرفتهم بما كان من سلوك الأمم قبلهم؛ وما حملهم الله من الآصار والأثقال عقوبة لهم على بعض ما كان منهم .

فقد كتب عليهم قتل أنفسهم تكفيراً عن عبادتهم للعجل . فالمؤمنون يدعون ربهم ألا يحمل عليهم أثقالاً كالتي حملها على الذين من قبلهم وقد بعث الله النبي الأمي يضع عن المؤمنين : { إصرهم والأغلال التي كانت عليهم } فجاءت هذه العقيدة سمحة ميسرة ، هينة لينة ، تنبع من الفطرة ، على أن الإصر الأكبر الذي رفعه الله عن كاهل الأمة المسلمة ، هو إصر العبودية للبشر . ممثلة في تشريع العبد للعبد . وفي خضوع العبد للعبد لذاته أو لطبقته أو لجنسه . فهذا هو الإصر الأكبر الذي أطلق الله عباده المؤمنين منه ، فردهم إلى عبادته وحده وطاعته وحده ، وتلقي الشريعة منه وحده ، وحرر بهذه العبودية لله الواحد الأحد أرواحهم وعقولهم وحياتهم كلها من العبودية للعبيد!

إن العبودية لله وحده – متمثلة في تلقي الشرائع والقوانين والقيم والموازين منه وحده – هي نقطة الانطلاق والتحرر البشري . الانطلاق والتحرر من سلطان الجبارين والطغاة ، ومن سلطان السدنة والكهنة ، ومن سلطان للأوهام والخرافات ، ومن سلطان العرف والعادة ، ومن سلطان الهوى والشهوة . ومن كل سلطان زائف يمثل الإصر الذي يلوي أعناق البشر ويخفض جباههم لغير الواحد القهار . ودعاء المؤمنين : { ولا تحمل علينا إصراً . . }. يمثل شعورهم بنعمة الانطلاق والتحرر من العبودية للعبيد؛ كما يمثل خوفهم من الارتداد إلى ذلك الدرك السحيق . { ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به } . وهو دعاء يشي بحقيقة الاستسلام .

فالمؤمنون لا ينوون نكولاً عن تكليف الله أياً كان . ولكنهم فقط يتوجهون إليه راجين أن يرحم ضعفهم فلا يكلفهم ما لا يطيقون . كي لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه . وإلا فهي الطاعة المطلقة والتسليم التام . إنه رجاء العبد الضعيف في سماحة المالك المتصرف . وطلب ما هو من شأن الله في معاملته لعباده من كرم وبر وود وتيسير . ثم الاعتراف بالضعف بعد ذلك والتوجس من التقصير ، الذي لا يمحو آثاره إلا فضل الله العفو الغفور :{ وأعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا } . فهذا هو الضمان الحقيقي لاجتياز الامتحان ، ونيل الرضوان . فالعبد مقصر مهما يحاول من الوفاء . ومن رحمة الله به أن يعامله بالعفو والمرحمة والغفران . عن عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَا يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ "[206].

وهذا هو قوام الأمر في حس المؤمن : عمل بكل ما في الوسع . وشعور مع ذلك بالتقصير والعجز . ورجاء بعد ذلك في الله لا ينقطع . وتطلع إلى العفو والمغفرة والسماح : { أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين } . وأخيراً يلصق المؤمنون ظهورهم إلى ركن الله ، وهم يهمون بالجهاد في سبيله ، لإحقاق الحق الذي أراده ، وتمكين دينه في الأرض ومنهجه ، إنه الختام الذي يلخص العقيدة . ويلخص تصور المؤمنين ، وحالهم مع ربهم في كل حين . قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة: 218]. وحتى تحقق هذه العقيدة توازنها ترغيباً وترهيباً ، فهي حين تفتح أبواب التوبة للمذنبين وترغبهم فيه بتبديل السيئات إلى حسنات فهي كذلك تحذرهم من العقاب الرهيب ، قال تعالى : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [الرعد: 6].

206- صحيح البخاري رقم (6098) والرواية للإمام أحمد في مسنده رقم (7473)

ذلك كي تستقيم نفس المؤمن وتتوازن . فيطمع في رحمة الله ومغفرته فلا ييأس منها أبداً . ويحذر عقاب الله ويخشاه فلا يغفل عنه أبداً . إنه التوازن طابع الإسلام الأصيل . فعلى المسلم حتى يقبل الله توبته وتشمله رحمته وعفوه ، أن يتبع توبته بالعمل الصالح والاستقامة عليه . قال تعالى : { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 160]. فهؤلاء يفتح القرآن لهم نافذة التوبة ويقودهم إلى رحمة الله ، حتى لا يقنطوا من عفوه . فمن شاء فليرجع صادق النية . وآية صدق توبته ، الإصلاح في العمل ، وإعلان الحق والاعتراف به والعمل بمقتضاه . ثم ليثق برحمة الله وقبوله للتوبة[207] .

5.وتتجلى رحمة الله تعالى في سعة رحمته التي تسع جميع الذنوب ، وكل معصية كائنة ما كانت ، كما في قوله تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر: 53]. وإنها الدعوة للأوبة . دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال . دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله .

إن الله رحيم بعباده . وهو يعلم ضعفهم وعجزهم . ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه . ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد . ويأخذ عليهم كل طريق . ويجلب عليهم بخيله ورجله . وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث! ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه . وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده . وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك؛ ويوقعه في المعصية فهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم . يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون؛ ويوسع له في الرحمة؛ ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط . وبعد أن يلج في المعصية ، ويسرف في الذنب ، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ، ولم يعد يقبل ولا يستقبل . في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط ، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف : { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم} فبعد أن أسرف في المعصية ، ولج في الذنب ، وأبق عن الحمى ، وشرد عن الطريق ، وليس بينه وبين رحمة الله إلا التوبة وحدها ، قال تعالى : { وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ } [الزمر: 54]. إن موجب هذه الرحمة الواسعة

[207]- راجع : تفسير الظلال 1/325-330، 3//206 ، 6/249 ، وتفسير طنطاوي 523، وتفسير الألوسي 3/404 ، وتفسير الرازي 4/84

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والمغفرة لجميع الذنوب على العباد ألا يقنطوا من رحمته تعالى مهما أسرفوا على أنفسهم من الذنوب ولا ييأسوا من سعة عفوه ومغفرته عز وجل[208] ، قال تعالى : { وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87]. إلى غير ذلك من الايات التي استدل بها القرآن على المقتضى التعبدي لرحمة الله وعفوه ، التي يضيق المقام بذكرها ، ولكن ذكرنا ما يحقق المقصود ويفى بالغرض ، وما لا يدرك كله لا يترك جله .

وأما ما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام من الاستدلال برحمة الله تعالى في عفوه ومغفرته على ما يلازمها من مقتضيات العبادة ، فقد ورد في القرآن الكريم جملة من الاستدلالات في هذا المجال ، نذكر منها على النحو الآتي :

*** الشاهد الأول:**

قال تعالى : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [الشعراء: 82-83].

إن الحجة التي قام بها إبراهيم وجهر فيها في ذلك الجمع من قومه ، إنما هي بوحى من الله كما قال تعالى : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ } [الأنعام: 83]. فقد جمعت كلمات إبراهيم عليه السلام احتجاجا على قومه، في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، فالمعبود هو الذي بيده النفع والضرّ ، وله القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفى، ولا تطعم ولا تسقى، ولا تميت، ولا تحيى، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب. وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين . والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض . والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد . وهى العناصر التي ينكرها قومه ، وينكرها المشركون . وكان آخر مقاله عليه السلام في الدعوة إلى الدين الحق متضمناً دعَاء بطلب المغفرة ، فقد ختم هذه الصفات الكريمة ، بما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب، بقوله : { والذي أطمَعُ أن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين } . أي : وهو وحده الذى أطمع أن يغفر

208- راجع تفسير الظلال ، 240/6 ، وتفسير ابن عاشور 365/13، وتفسير طنطاوي 3669

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لي ذنوبي يوم ألقاه لأنه لا يقدر على غفر الذنوب في الدنيا والآخرة، إلا هو ، وهو الفعال لما يشاء. فعن عائشة رضى الله عنها قالت : " يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه ؟ قال : لا ينفعه إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين "[209].

فهذه العبارة في حقيقتها اقرار بالإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر ، فهى إقرار لله باستحقاقه العبودية، وشعور بالتقصير في حقه تعالى، وافتقار إلى عفوه، وجمع هم النفس في طلب مرضاته، بالمسارعة لفعل الخيرات رهبة ورغبة فيما عنده تعالى . فإبراهيم عليه السلام الذي يعرف ربه ويحس بقربه . يعلمنا كيف ينبغي أن يكون شعور المؤمن ، وهو شعور التقوى ، وشعور الأدب ، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة ، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل . فهو لا يعتمد على عمله ، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئا ، إلا أنه يطمع في فضل ربه ، ويرجو في رحمته ، قال رَسُول اللهِ صَلى اللهَ عَلَيهِ وَسَلَمَ : " قارِبَوا وَسَدَدَوا وَاعلَمَوا انَهَ لنَ يَنجَوَ احَدَ مِنَكمَ بِعملِهِ قالوا يا رسول اللهِ ولا انت قال ولا انا إلا ان يتغمدنِي الله بِرحمةٍ مِنه وفضلٍ "[210].

فكان هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام تعبيرا عن أسمى درجات الأدب مع ربه سبحانه، لأنه يوجه طمعه فى المغفرة إليه وحده ، ويستعظم ما صدر منه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، ويعتبرها خطايا، ومعلوم أن إبراهيم كان حينئذ نبيا والأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها فالخطيئة منهم هي مخالفة مقتضى المقام النبوي ، فكان استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، ويدل عليه أنه أطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع، بقوله : { أَطْمَعُ } ولم يجزم القول بالمغفرة . فهو طمع العبيد في المولى بالإفضال لا على الاستحقاق ، مباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة وإنما طمع في ذلك لوعد الله بذلك . حيث أسند الخطيئة إليه فقال : { خطيئتي }. تواضعا لله تعالى واطراحا لأعماله وإشارة إلى أنه بالنسبة إلى الحضرة الأعظمية غير قادرة لها حق قدرها ، وهذا فيه تعليم للأمة في اجتناب المعاصي والحذر منها ، وطلب المغفرة مما يفرط منها . وأن تفوض رجاءها إلى الله تعالى وحده . وتعليق المغفرة بيوم الدين مع أن الخطيئة إنما تغفر في الدنيا لأن أثرها يتبين يومئذ ولأن في ذلك تهويلا لذلك اليوم . فهو يوم الحساب والجزاء ، ووقوع العذاب فيه إن لم تغفر الذنوب ، فكان هذا الكلام خبر يتضمن تعريضا بالدعاء بطلب

---

[209]- صحيح مسلم رقم (214) وصحيح ابن حبان (331)

[210] - أخرجه مسلم في صحيحه، رقم (2817)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المغفرة من الله في ذلك اليوم الرهيب . وفي هذه الجملة من التلطف بأبيه وقومه في الدعوة إلى الإيمان إن راموا الاهتداء . فقد أتى عليه السلام بجملة من صفات الله الفعلية التي تخص البشر والتي يستحق المتصف بها الألوهية ، وهو احتجاج على قومه ، أنه لا يصلح للإلهية إلا من يفعل هذه الأفعال ، وهو الله تعالى وحده، المتفرد بالتصرف في حياة البشر كلها [211] .

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 128].

إن حاصل دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح، وقبول الله ذلك منهما ، فتوسلا لذلك بالاعتذار إليه تعالى من التقصير بحقه ، وهو المستحق غاية التعظيم والعبادة ، وهذا يفهم من دلالة المقام ، الذي يشير إليه حالهما من القيام بالأمر لله تعالى من رفع قواعد البيت ، فطلب التوبة أثر الحسنة هو مطلب العارفين بالله المتصلين بالحسنات ، المنقطعين عن السيئات ، فالتوبة تختلف باختلاف التائبين فتوبة سائر المسلمين الندم والعزم على عدم العود ورد المظالم إذا أمكن ، ونية الرد إذا لم يمكن ، وتوبة الخواص الرجوع عن المكروهات من خواطر السوء ، والفتور في الأعمال ، والإتيان بالعبادة على غير وجه الكمال ، وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات ، والترقي في المقامات .

فإن كان إبراهيم وإسمعيل عليهما السلام طلبا التوبة لأنفسهما خاصة ، فالمراد بها ما هو من توبة القسم الأخير ،.ومعلوم أنه ليس أحد من خلق الله، إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة ، وحتى وهو في حالة طاعته لربه لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة ، تزكية للنفس ، وتهذيبا لها . وتواضعا لله ، ومعرفة بعظيم حقه ومستحقه على خلقه ، والرجوع إلى الله بالرجاء في قبوله لطاعتهما ، لما في ذلك براءة لهما من المنة عليه سبحانه ، لقوله تعالى : { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ

---

[211]- راجع : تفسير الطبري 264/19، وتفسير الرازي 484/11 ، وتفسير الألوسي 253/14، وتفسير ابن كثير 146/6، وتفسير الزمخشري 19/5، وتفسير البقاعي 72/6 ، وتفسير النسفي 474/2 ، وتفسير ابن عطية 137/5، وتفسير الخازن 53/5 ، وتفسير ابن عاشور 178/10 ، وتفسير الظلال 353/5 ، وتفسير طنطاوي 3167 ، وتفسير السعدي 592 ، وتفسير الميسر 383/6

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

صَادِقِينَ } [الحجرات: 17]. وهذا ما عبر عنه دعائهما عليهما السلام ، حيث كان رجائهما في قبول الله عملهما بطلب التوبة منه تعالى ، وتوسلا بذلك بأسمائه الحسنى وصفاته العليا سبحانه ، بقوله : { إنك أنت التواب الرحيم } . وقد أشكل الأمر على بعضهم ، إنهما طلبا التوبة ، بقوله : « وتُبْ علينا » وهم أنبياء معصومون ، وأجيب عن هذا الإشكال من وجوه :

أولها : قالا ذلك تحرزا عن المعاصي ، فإنه يجوز أن يأتي بصورة التوبة تشدّدا في الانصراف عن المعصية؛ لأن من تصور نفسه بصورة النَّادم العازم على التحرز والتشديد ، كان أقرب إلى ترك المعاصي .

ثانيها : تواضعاً وهضما لأنفسهما ، فأن العبد وإن اجتهد في طاعة ربه ، فإنه لا ينفكّ عن التَّقْصِير من بعض الوجوه : إما على سبيل السهو أو على سبيل ترك الأولى ، فكان هذا الدعاء لأجل ذلك .

ثالثها : إرشاداً وتعليماً لذريتهما ، فإنهما لما عرفا المَنَاسك ورفعا قواعد البيت وكان ذلك أحرى الأماكن بالإجابة دعوا الله بذلك الدعاء ليجعلا ذلك سنة وليقتدى من بعدهما في ذلك الدعاء ، وليتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصل من الذنوب وطلب التوبة من الله. لأن ذلك المكان هو موضع تنزل فيه رحمة الله ومغفرته على عباده .

رابعها : استتابة لذريتهما ، فإنه تعالى لما أعلم إبراهيم عليه السلام أن في ذريته من يكون ظالما عاصيا ، لا جرم سأل هاهنا أن يجعل بعض ذريّته أمة مسلمة ، ثم طلب منه أن يوفق أولئك العُصَاة للتوبة فقال : « وتُبْ علَيْنا » أي على المُذْنبين من ذريّتنا ، والذي يقوي هذا التأويل : ما حكى الله تعالى في سورة « إبراهيم » انه قال : { واجنبني وبَنِيَ ان نَعْبُدَ الاصنام رَبِّ إِنَّهُنَّ اضللن كثِيرا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غفورٌ رَحِيمٌ } [إبراهيم: 35-36]. فيحتمل ان يكون المعنى : ومن عصاني فإنك قادر على أن تتوب عليه إن تاب، وتغفر له ما سلف من ذنوبه.

خامسها : مقاما من مقامات العبودية لله تعالى ، التي يترقى بها للوصول إليه عز وجل ، فلكل مقام ما ينقصه وإن كان كاملا . فحسناتُ الأبرار سيئات المقربين ، إذ ما من مقام إلا وقبله ما فيه نقص ، فإذا ترقى عنه استغفر منه ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يستغفر في المجلس سبعين مرة . بقوله : " وَاللهِ إِنِّي لَاستَغْفِرُ اللهَ وَاتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ اكثرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّة "[212] . وهو الذي غفر

---

[212]- صحيح البخاري رقم(5948) وصحيح مسلم رقم (4870)

الله له ذنوبه جميعاً مصداقاً لقوله تعالى : { لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا } [الفتح: 2].

وقد كان صلى الله عليه وسلم مع هذه المغفرة من الله تعالى له ، أعبد الناس لربه ، وأشدهم خوفا منه ، وأكثرهم صلة به . فعن عائشة قالت : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه ، فقالت له عائشة : يا رسول الله ، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : " يا عائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا "[213]. ثم توسلا عليهما السلام في قبول دعائهما بصفتين له تعالى وهما : { التواب الرحيم } : قال بعضهم : إذا أراد الله من العبد أن يجيب دعاءه ، فليدع بأسماء الله المناسبة لذلك الدعاء ، فإن كان الدعاء للرحمة والمغفرة ، فليدع باسم الغفار والتواب والرحيم وما أشبهه ، فهاتان الصفتان مناسبتان لأنهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمة مسلمة ، وبأن يريهما مناسكهما ، وبأن يتوب عليهما .

فناسب ذكر التوبة عليهما ، أو الرحمة لهما . فكأنهما كالحجة لقولهما وتعليل لطمعهما في ذلك بأن عادته تعالى التطول والفضل فقال : { إنك أنت التواب } . أي : كثير القبول لتوبة المنيبين إليه ، وقبول توبتهم يقتضي عدم مؤاخذتهم بما يأتونه من سيئات ، ليعرفوا فضله عليهم وعظيم قدرته ثم أتبعه وصفاً هو كالتعليل له فقال : { الرحيم } . أي : بعد تخلصهم من عقوبة الخطيئة أو المعاتبة عليها ينتظرون من رحمة الله أن تحفهم بإحسان . لذلك لوحا إلى طلب الرحمة ، إذ الرحمة صفة من أثرها الإحسان ، فكأنهما قالا : تب علينا وارحمنا ، فهو العائد على عباده بالعفو والغفران، والمتفضل عليهم بالرحمة والإحسان ، فناسب تقديم ذكر التوبة على الرحمة ، لمجاورة الدعاء الأخير في قوله : { وتب علينا }.وتأخرت صفة الرحمة لعمومها ، لأن التوبة من الرحمة ، وقيل : لأن الرحمة وسيلة والتوبة مقصد والمقصد أشرف من الوسيلة ، ولكونها أنسب بالفواصل ، وهذا من أكمل آداب الدعاء وأرجاها للقبول عند الله تعالى وفيه أيضاً مزيد استدعاء للإجابة .

وعليه فإن تقرير حقيقة رحمة الله تعالى بعباده في العفو عنهم لتقصيرهم من الوفاء بحقه في العبودية ، ومغفرته لهم عن ذنوبهم والتجاوز عن سيئاتهم ، وذلك ليستدل بها على ما يقتضيها من حق العبادة لله تعالى وحده ، وبما يناسبها من موجباتها ، من وجوب التوبة إليه تعالى من كل ذنب أو تقصير بحقه تعالى ، وعدم الإصرار على الذنوب والمداومة عليها ، والمسارعة في التوبة والمبادرة

---

[213]- مسند احمد رقم (115/6) وصحيح مسلم برقم (2820)

إليها قبل فواتها ، وعدم القنوط من رحمته الواسعة سبحانه ، كما تقرر ذلك كله في كثير من نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ومن ذلك قوله تعالى : { أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [المائدة: 74]. وقوله تعالى : { وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } [هود: 90]. وقوله تعالى : { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 133]. وقوله تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر: 53]. وقوله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا"[214].

وقوله: " قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ"[215].

وقوله: " قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"[216].

إن من رحمة الله تعالى أنه فتح أبواب التوبة والمغفرة لعباده ليتخلصوا من ألم الذنب وحسرة الندم ، ولا يسترسلوا في المعاصي ، وليفتحوا مع الله صفحة جديدة بعد الإقلاع عن الذنب والولوج في الطاعة ، قال تعالى : { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة: 118]. وإن العبد حينما يلاحظ رحمة الله وعفوه عن عباده فإن هذا يلزمهم بالتوبة لله تعالى ، ويقطع عليهم عذر التمادي في الذنوب والإصرار عليها [217].

---

[214]- صحيح مسلم رقم (2759)

[215]- صحيح مسلم رقم (2675)

[216]- سنن الترمذي رقم (3540)

[217]- راجع : تفسير الطبري 81/3 ، وتفسير الألوسي 10/2 ، وتفسير الرازي 347/2 ، وتفسير القرطبي 125/2 ، وتفسير البقاعي 184/1 ، وتفسير اللباب 105/2، وتفسير الخازن 99/1 ، وتفسير أطفيش 148/1 ، وتفسير طنطاوي 208 ، 3904 ، وتفسير البحر المحيط 487/1 ، وتفسير السعدي 66

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ " [ابراهيم : 41].

إن ذكر إبراهيم ربه بصفة الربوبية في طلب المغفرة ، بقوله : { ربنا اغفر لي } ذات دلالة عظيمة . فهو رب الناس جميعاً ، فهو ربهم الذي يغفر ذنوبهم ويتوب عليهم ويتجاوز عن سيئاتهم ، وهو بذلك إلههم الذي يستحق وحده أن ترجى مغفرته ، وأن يتوجه إليه في الدعاء وطلب التوبة ليتوب عليهم ويكفر سيئاتهم .

والقرآن وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم والتركيز فيه على قضية الربوبية كان يلفتهم إلى ما هم فيه من مخالفة واضحة لمدلول هذا الدعاء! فإن الإقرار بالربوبية لله تعالى يستلزم الإقرار له بالألوهية ، كما في قوله تعالى : { وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } [الزمر: 38] .

وهذا هو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك وبين الإسلام والجاهلية في واقع الحياة . وهي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان . فإما أن يدين الناس لله وحده في القصد والطلب ، وفي كل تصرفاتهم وكل شؤون حياتهم ، وإما أن يدينوا لغيره . لأن الإقرار بالربوبية لله يقتضي أن تكون الدينونة له وحده في واقع الحياة الأرضية من الشعائر والشرائع .

وإن مقتضى الإقرار بالربوبية لله في كونه تعالى هو: { غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ } [غافر: 3]. يستلزم على العباد أن يتوجهوا إلى الله تعالى وحده في طلب عفوه ورجاء مغفرته عن كل ذنوبهم أو تقصيرهم ، قال تعالى : { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى } [طه: 82]. وقد استدل إبراهيم عليه السلام في كونه تعالى وحده من يغفر الذنوب ويعفو عن الخطايا ، ويستجيب الدعاء ، على وجوب التوجه إليه وحده سبحانه في الدعاء وطلب المغفرة ، ومن ذلك قوله تعالى : { قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا } [مريم: 48]. وقال تعالى : { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ

يفعلون (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: 72-77]. إلى قوله : {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [الشعراء: 82]. وما دام أن الله قد كتب على نفسه الرحمة والتي منها مغفرته تعالى للذنوب جميعاً، فإنه ينبغي على العباد أن يفردوه تعالى بما يناسب ذلك من العبادة والتي منها التوبة والمسارعة فيها، والاستغفار عن الذنوب وعدم الإصرار عليها ، والتوجه في ذلك له وحده بالدعاء في القصد والطلب ، والشفاعة وغير ذلك من المقتضيات التعبدية التي تلائمها ، لأنه هو وحده تعالى من يملك التوبة عن عباده ، وهو وحده من يسمع الدعاء ويستجيب له ، وهو الغني عنهم وهم الفقراء له ، قال تعالى : { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ } [الأنعام: 55-56]. وقال تعالى : { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [فاطر: 13-15].

فبعد أن قرر القرآن إفراده تعالى بالخلق والربوبية ، ببيان أن الله تعالى وحده هو الذي يغفر الذنوب وهذا من خصائص الربوبية ، طالبهم سبحانه بالتوجه إليه بطلب المغفرة وهذا من خصائص الألوهية ، كما جاء في الحديث القدسي : « يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم "[218]. فهذا صريح في كون المغفرة متعلقة بالربوبية وطلبها متعلقة بالألوهية . لأن الأول فعل الله تعالى لعباده والثاني فعل العباد لله عز وجل . وتوحيد الالهية يتضمن احد نوعي الدعاء فان الإله هو المستحق لان يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة . ولهذا جاءت الشريعة الكاملة فى العبادة باسم الله وفى السؤال بإسم الرب ولما كانت العبادة متعلقة باسمه الله تعالى جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم ، فيقول المصلى والذاكر : الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله ، وكذلك كلمات الأذان : الله اكبر الله اكبر ، والشهادتين ونحو ذلك . واما السؤال فكثيرا ما يجيء باسم الرب كقول موسى : { قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [القصص: 16]. وقوله : { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [الأعراف: 151]. وقول سليمان : { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي

[218]- صحيح مسلم رقم (2577)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي } [ص: 35]. وقول الخليل : { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [إبراهيم: 42]. وقول نوح : { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا } [نوح:28]. فهو سبحانه المستحق للتوحيد الربانى ، من إفراده وحده بالمغفرة ، وهذا يوجب له تعالى التوحيد الإلهي الذى هو إفراده وحده بالدعاء سواء دعاء العبادة : بالمحبة والإنابة والطاعة والإجلال والإكرام والخشية والرجاء ونحو ذلك من معانى تألهه وعبادته . أو دعاء المسئلة والإستعانة: بالتوكل عليه والإلتجاء اليه وطلب السؤال منه ونحو ذلك مما يفعل له سبحانه بمقتضى ربوبيته فهو الغفور الرحيم ، العفو الكريم . وهو من يرجى ويطلب ، ويقصد ويسأل .

وقد قدم إبراهيم عليه السلام نموذجاً للعبد الصالح الذاكر الشاكر المنيب إلى ربه ، فقد ختم عليه السلام مشهد دعاءه الخاشع . ومشهد تعداد النعم والشكر عليها . بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً ، يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع إنساناً إلا عمله؛ ثم مغفرة الله في تقصيره : { ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب } . وهذا فيه مسألتان :

المسألة الأولى : ان طلب المغفرة من الله إنما يكون لسابق ذنب قد سلف ، وقد ثبت عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له؟

والجواب : لقد طلب عليه السلام من الله سبحانه أن يغفر له ما وقع منه مما يستحق أن يغفره الله وإن لم يكن كبيرا لما هو معلوم من عصمة الأنبياء عن الكبائر ، أو أن يغفر له ما فعله ممالا ينبغى وكان الأولى تركه ولو كان غير معصية أو ما يعد فى حق الأنبياء ، ولا يعد فى حق غيرهم ، فحسنات الأبرار سيئآت المقربين ، أو أن يغفر له ما قصر فيه إذ لا يخلو مخلوق من تقصير فى حق الخالق ولو بلغ ما بلغ ، لأن الإنسان ولو اجتهد كل الاجتهاد فهو محل العجز الموجب للتقصير المفتقر للستر ، فأراد عليه السلام إظهار العجز والالتجاء إلى الله تضرعا وتعظيما لله تعالى وهضما لنفسه فقال مشيراً إلى ذلك : { ربنا } أي أيها المالك لأمورنا المدبر لنا { اغفر لي } والمقصود منه الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شيء إلا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته .

المسألة الثانية : كيف استغفر إبراهيم لأبيه وكان كافراً ؟ وهل يتعارض طلب المغفرة للكافرين والشفاعة لهم مع الولاء لله تعالى ؟

ـــ فأما الجواب عن استغفاره لأبيه كونه كافراً فمن وجوه :

الأول : أراد بوالديه آدم وحواء .

الثاني : أن المغفرة مشروطة بالإسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقد كان يرجو أن يُسلم قبل ذلك . وهو كقوله : { وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ } [الشعراء: 86]. وهو دعاء لأبيه بالإسلام ، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي ، وهذا المعنى يأباه قوله : { إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ } [الممتحنة: 4]. لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال فيه ، فكيف يستثني الاستغفار من القدوة به .

الثالث : كان هذا الدعاء قبل النهي ، فلعله لم يجد منه منعاً فظن كونه جائزاً . فهو من مجوّزات العقل لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف إذ لم يكن إبراهيم تلقى نهياً من الله عن الاستغفار للمشرك . وهذا ظاهر ما في قوله تعالى : { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ } [التوبة: 114]. فإن القطع على أن الله تعالى يعذب الكافر لا يعرف إلا بالسمع ، فلا جرم استغفر إبراهيم لأبيه لأنه لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر . والحاصل أن فعل إبراهيم عليه السلام يدل على أنه ليس منكراً في نفسه وإنما أصبح منكراً بالسمع ، ولذا تبرأ منه بعدما تبين له الأمر .

رابعا : إن طلب إبراهيم لوالده المغفرة كان قبل أن يموت كافراً ، فهو عليه السلام إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمان فلما أيس من ذلك بموته ترك الاستغفار ، بعد أن عرف أنه عدو لله ، كما في قوله تعالى : { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ } [التوبة: 114].

ـــ وأما الجواب عن منافاة الولاية لله تعالى مع الاستغفار للمشركين والشفاعة لهم .

فهذه الحقيقة جاءت حاسمة قاطعة ، فقد حرم تعالى الاستغفار لمن مات على الشرك لأن الله لا يغفر أن يشرك به ، وأوجب إظهار البراءة من الكفار والمنافقين من جميع الوجوه ، وإن كانوا فى غاية القرب من الإنسان ، وأمر بمقاطعتهم على أقصى الغايات ، والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب . كما في قوله تعالى : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [التوبة: 113]. فهذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم ، فإن الله قد نهى المؤمنين أن يستغفروا للمشركين . فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز ، وقال كثير من العلماء . بأنه لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين بالهداية ما داما حيين ، فأما من مات على الكفر فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى له . والآية على الصحيح نزلت فى أبي طالب ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن المسيب بن حزن قال : " **أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ أَيْ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ تَرْغَبُ**

عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ فَنَزَلَتْ : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } وَنَزَلَتْ : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } [القصص:56] [219]. وروى النسائي عن علي بن أبي طالب قال : " سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْتَغْفِرُ لِأَبَوَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَانِ فَقُلْتُ أَتَسْتَغْفِرُ لَهُمَا وَهُمَا مُشْرِكَانِ فَقَالَ أَوَ لَمْ يَسْتَغْفِرْ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَنَزَلَتْ : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ } [220].

فقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لعمه أبي طالب اقتداء بإبراهيم ، وأراد بعض المسلمين أن يستغفروا لبعض أقاربهم ، فأنزل الله تعالى : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ } [التوبة: 113]. ثم ذكر الله عذر ابراهيم فقال : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ } [التوبة: 114]. فلما مات أبو إبراهيم على الشرك لم ينفعه إستغفار ابراهيم مع عظم جاهه وقدره عند ربه ، فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم ومن اتبعه الا في قول ابراهيم لأبيه : { لأستغفرن لك } . كما في قوله تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ } [الممتحنة: 4]. وإن الاستغفار للمشركين مستثنى من الأسوة بإبراهيم ، وحاصل المعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه ، لأن استغفاره له إنما كان بسبب وعد صدر له بذلك ، فلما أصر أبو إبراهيم على كفره ، ومات مشركا بالله تبرأ إبراهيم ومن عمله . فإنتفاع العباد بالشفاعة والدعاء موقوف على شروط وله موانع فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والإستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاهاً فلا شفيع أعظم من محمد صلى الله عليه وسلم ثم الخليل ابراهيم عليه السلام ، ومع ذلك لم يقبل الله شفاعتهما للمشركين مع عظم قدرهما ، وقد صلى النبي عليه الصلاة والسلام على المنافقين ودعا لهم ، فقيل له : { وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ } [التوبة: 84]. وقيل له أولا : { إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [التوبة: 80]. فقال : " لو أعلم أني لو زدت على السبعين

---

[219]- صحيح البخاري : رقم (3671) وصحيح مسلم (24)

[220]- سنن النسائي رقم (2036) ، قال الشيخ الألباني : حسن

يغفر لهم لزدت "،فأنزل الله : { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ } [المنافقون: 6] [221].

وذلك لأن الشرك ضلال كبير وإفتراء على الله فإن الله لا يغفره ابداً ، لقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } [النساء: 48]. وقوله : { وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء: 116]. ولذلك فإن الله لا يقبل للمشرك استغفار أحد له مطلقاً ، ولا يأذن في الشفاعة له من أحد أبداً .

وقد صرح القرآن في أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى؛ وقرر أن القرابة ليست قرابة النسب ، إنما هي قرابة العقيدة . وهذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة . فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله ، ولا تقوم صلة بين بني البشر إلا على أساسها . فإذا قطعت هذه الصلة انبتت سائر الوشائج؛ وكانت البعدى التي لا تبقى معها صلة ولا وشيجة .

وأما الشفاعة للمؤمنين والإستغفار لهم فإن ذلك ثابت في كثير من النصوص، ومن ذلك قول نوح عليه السلام : { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [نوح: 28]. وقد أخبر سبحانه أن الملائكة يدعون للمؤمنين بالمغفرة ووقاية العذاب ودخول الجنة : { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ } [غافر: 7]. وقد أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك بقوله : { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ } [محمد: 19].

وفي دعاء إبراهيم عليه السلام للمؤمنين بالمغفرة في هذه الآية الكريمة : { ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب } . ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة ، والله لا يرد دعاء خليله فيما هو مأذون فيه من الشفاعة والاستغفار للمؤمنين ، وهذ بخلاف شفاعته واستغفاره لأبيه المشرك ، فإن الله عز وجل لم يقبلها منه ، وقد استثنى الإقتداء به في هذه المسألة فقط ، بقوله : { إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [الممتحنة: 4-5]. فاستثنى من المذكور ما لم يحتمله المقام كما احتمله ذلك المقام للنص القاطع.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

221- صحيح البخاري ، الحديث رقم (1366)

يعني لكم التأسي بإبراهيم عليه السلام مع هؤلاء الكفار القطيعة والهجران لا غير فلا تجاملوهم ولاتبدوا لهم الرأفة والرحمة كما أبدى إبراهيم عليه السلام في قوله {سأستغفر لك} لأن استغفاره له كان عن موعدة وعدها إياه ، ولأنه لم يتبين له حينئذ أنه لا يؤمن كما بدا لكم كفر هؤلاء وعداوتهم ، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه . ولكم كذلك أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا : { رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا } أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك .{ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا } أي : رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك المصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك .{ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا } أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا، { وَاغْفِرْ لَنَا } ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، { رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ } القاهر لكل شيء،{الْحَكِيمُ} الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا .

وعليه فإن إبراهيم عليه السلام يقرر في رسالته مبداء التوبة والمغفرة على أساس سعة رحمته تعالى في مغفرته لذنوب عباده كبيرها وصغيرها ، وعفوه عن سيئاتهم جميعها . مما يستوجب الاقلاع عن المعاصي ، والندم عليها ، والعزم على عدم الرجوع إليها ، والمبادرة إلى التوبة والمسارعة فيها ، كما في قوله تعالى : { وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"} [البقرة: 128]. وقد بين سبحانه في رسالة إبراهيم عليه السلام أن الاستغفار لا يؤدي إلى نتيجة إلا إذا كان المستغفر أو المستغفر له قد اهتدى إلى الدين الصحيح ، ورجع عن ذنبه ، وإن رحمة الله ومغفرته لا تشمل إلا المؤمنين ، وإن الكافرين بالله المعادين لدينه فقد يئسوا من رحمته تعالى ، لقوله : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [العنكبوت: 23]. فلما أشركوا بالله ناسب حرمانهم من رحمة الله تعالى ، ولما أنكروا الحشر وقالوا لا عذاب ناسب تعذيبهم تحقيقاً للأمر عليهم،أي أنهم استحقوا اليأس من الرحمة وإصابتهم بالعذاب الأليم لأجل كفرهم بالله وآياته وإنكارهم البعث .

وعلى هذا يكون الاستغفار أمراً مقرراً في دين إبراهيم وشريعته ، وهو لا يحضى بالقبول عند الله إلا إذا كان صاحبه مؤمناً بربه ، صادق النية ، بعيداً عن الكفر والنفاق ، وعلى المؤمن أن يبادر

بالتوبة إلى الله من كل ذنب ويستغفر من كل خطيئة ، لأنه يوقن أن الله تعالى غفور رحيم ، عفو كريم ، لهذا كان الذين اهتدوا بهدى إبراهيم عليه السلام يدعون ربهم ويستغفرونه [222] . ويقولون: { رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [لممتحنة : 5] .

*** الشاهد الرابع :**

قال تعالى : { نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } [الحجر: 49-50].

يتضمن هذا الدرس نماذج من رحمة الله وعذابه ، ممثلة في قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم . وهذا القصص يساق بعد مقدمة : { نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم } فيجيء بعضه مصداقاً لنبأ الرحمة ، ويجيء بعضه مصداقاً لنبأ العذاب ، فلما ذكر سبحانه ما يوجب الرغبة والرهبة من مفعولات الله من الجنة والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال: { نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته، ومغفرته سَعَوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته . وحتى لا يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبئهم { وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ } فإنهم إذا عرفوا أنه لا يعذب عذابه أحد ولا عذاب في الحقيقة إلا عذابه، حذروا وابتعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائما بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها. فقد ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، فههنا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[222]- راجع : تفسير الرازي 263/9،وتفسير الألوسي 3/12، 15/14،258/257، وتفسير فتح القدير 162/3 ، وتفسير القرطبي 273/8، وتفسير البقاعي 290/4 ، وتفسير اللباب 5/10، وتفسير الزمخشري 290/3، وتفسير الخازن 124/4 ، وتفسير الظلال 412/4 ، 99/5، 354 ، وتفسير طنطاوي 2053، 2442، 2784، 3167، 4167، وتفسير السعدي 353، 854، وتفسير الشنقيطي 487/3 ،وتفسير ابن عاشور 487/8، 181/10، 32/15، حجج القرآن ، لأبي الفضائل الرازي 39/1 , ابن تيمية ، مجموع الفتاوي 145/1، 456/2 ، 296/10 ، 243/10، اقتضاء الصراط 360/2 ، الفتاوي الكبرى 27/3، رسالة في التوبة 221/1،
د . محمد وصفي ، تاريخ الأنبياء والرسل، ص 119-120

وصفهم بكونهم عباداً له ، ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفوراً رحيماً ، فهذا يدل على أن كل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كونه الله غفوراً رحيماً ومن أنكر ذلك كان مستوجباً للعقاب الأليم . وفي الآية لطائف :

أحدها : أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله : { عِبَادِي } وهذا تشريف عظيم . ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله : { سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ } [الإسراء: 1].

ثانيها : أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة : أولها : قوله : { أَنّى } . وثانيها : قوله :{ أَنَا} . وثالثها : ادخال حرف الألف واللام على قوله : { الغفور الرحيم }وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ولما ذكر العذاب لم يقل أني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال : { وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم } .

ثالثها : أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة .

ورابعها : أنه لما قال : { نَبِىء عِبَادِي } كان معناه نبيء كل من كان معترفاً بعبوديتي ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع ، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى . وعن قتادة قال : بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه" أي قتلها.[223] .

فأنت ترى أن الله تعالى قد جمع فى هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبيان سنته سبحانه فى خلقه ، ولكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يقنط من رحمة الله ، ولا يقصر فى أداء ما كلفه سبحانه به . وقدم سبحانه نبأ الغفران والرحمة على نبأ العذاب والانتقام ، جريا على الأصل الذى ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت انتقامه .

وفى الآية توكيد الرحمة والمغفرة وتوسيعهما لأنه أخبر بهما عن نفسه ، وأكدها بوصفى المبالغة ، قال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً فَلَوْ يَعْلَمُ

223- رواه الطبري في تفسيره رقم (27/14) وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله(64،63) وقال الهيثمي في المجمع برقم (384/10): "إسناده حسن"

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ "[224].

وروى أنه صلى الله عليه وسلم مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال : " لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا » فأتاه جبريل ، فقال : إن الله ، قال لك : لم تقنط عبادي؟ قال:فرجع إليهم وقال:سددوا وأبشروا "[225]. فنزل[226] :{ نَبِّىءْ عبادى أَنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم }" .

ثم إنه تعالى لما ذكر الوعد والوعيد ذكر ما يحقق ذلك لما تضمنه من البشرى والإهلاك بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وأممهم ترغيباً وترهيباً ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء ، ومحذراً عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء ، فبدأ أولاً بقصة إبراهيم عليه السلام لما فيها من كرامة الله له وتعريضاً بالمشركين إذ لم يقتفوا آثاره في التوحيد بقوله سبحانه : {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } وذكر تعالى في الآية أن ضيف إبراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد الكبر . وبانجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضاً بأنه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال ، وكل ذلك يقوي ما ذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين ، وأن عذابه عذاب أليم في حق الكفار .

ثم برزت كلمة الرحمة في حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع المقدمة في هذا السياق : { قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر: 56]. وبرزت معها الحقيقة الكلية : أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . الضالون عن طريق الله ، الذين لا يستروحون روحه ، ولا يحسون رحمته ، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته . فأما القلب الندي بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد ، ومهما ادلهمت حوله الخطوب ، ومهما غام الجو وتلبد ، وغاب وجه الأمل في ظلال الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر . فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين . والمعنى أن الله تعالى طالب نبيه الحبيب أن يخبر عباده المؤمنين أنه سبحانه كثير المغفرة لذنوبهم ، وواسع الرحمة لمسيئهم ، وأن يخبرهم أيضًا أن عذابه هو العذاب الشديد ، فعليهم أن يقدموا القول الطيب ، والعمل الصالح ، لكى يظفروا بمغفرته ورحمته ، وينجو من عذابه ونقمته

[224]- صحيح البخاري رقم (6104)

[225]- صحيح ابن حبان رقم (358) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم

[226]- تفسير الطبري (27/14).

تعالى وجعل سبحانه قصة إبراهيم وما بعدها دليلاً واقعياً لرحمته وعذابه ، فقدم الأمر بإعلام الناس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصلية قبل الموعظة بجزئيات حوادث الانتقام من المعاندين وإنجاء من بينهم من المؤمنين لأن ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب . ليكون العبد راجياً لرحمته تعالى وخائفاً من عذابه ، وهذا هو ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن[227] . مصداقاً لقوله تعالى: { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } [الزمر: 9] .

ـ المطلب الثاني : رحمته تعالى بحلمه على عباده .

إن هذا الكون بجملة ما فيه هي آيات وأدلة على توحيد الله وشواهد على عظيم صفاته ، وقد شاءت رحمة الله تعالى وحلمه ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية المبثوثة في صفحات الوجود ، وألا يأخذه بعهد الفطرة الذي أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم ، إنما يرسل إليهم الرسل منذرين ومذكرين : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا } [الإسراء: 15]. وإنما يرسل تعالى رسله رحمة بالعباد ، فهو غني عنهم؛ وعن إيمانهم به وعبادتهم له . وقال تعالى : { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ } [الأنعام: 133].

يصرح سبحانه بغناه عن جميع خلقه من كل الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، وهو وحده صاحب الرحمة الواسعة العامة التي شملت جميع خلقه .وفي هذه الجملة تنبيه إلى أن ما سبق ذكره من إرسال الرسل وغيره ، ليس لنفعه سبحانه ، بل لترحمه على العباد ، وحلمه بهم في أنه يعذر العباد قبل أن يأخذهم بالعذاب . وأنه لو شاء لعاجلهم على ذنوبهم بالهلاك ، وهو القادر عليهم ، فلا ينبغي أن ينسى الناس أنهم باقون برحمة الله؛ وأن بقاءهم معلق بمشيئة الله؛ وأن ما في أيديهم من سلطان إنما خولهم الله إياه .فهو الجواد الكريم ، الذي يجود على عباده من فضله بسائر النعم والعطايا فما من نعمة يتنعمون بها إلا وهي منه سبحانه ، وهم مع ذلك يبارزوه بالمعاصي والآثام ، فأي حلم أعظم من هذا الحلم وأي كرم أوسع من هذا الكرم ، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ "[228] .

---

[227]- راجع : تفسير الرزي 318/9، وتفسير الألوسي23/10، وتفسير اللباب 49/10 ، وتفسير الظلال 442/4، وتفسير ابن عاشور 484/7 ، وتفسير طنطاوي 2475، وتفسير السعدي 431، وتفسير اطفيش 24/5 ، أيسر التفاسير 280/2

[228]- صحيح البخاري (6943) ومسلم رقم رقم (2804)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وصف الله تعالى بالصبر بمعنى الحلم ، فهو حليم يعطي عباده الرزق فلا يشكرون ، فلا يعجلهم بالعقاب ولا يبادرهم بالإيذاء؛ وهو معطيهم كل شيء ، ومعطيهم وجودهم ذاته قبل أن يعطيهم أي شيء مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهم ، فلولا حلمه وكرمه ومغفرته لما استقرت السموات والأرض في أماكنها وتأمل قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [فاطر: 41].

هذه الاية تقتضي الحلم والمغفرة فلولا تمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، لزالتا السموات والأرض عن اماكنهما بسبب شركهم بالله ، كما قال تعالى : { تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا } [مريم: 90-91]. وفي ذكر إمساك السماوات عن الزوال بعد الإطناب في محاجة المشركين وتفظيع غرورهم تعريض بالتهديد بأن ما يدْعون إليه من الفظاعة من شأنه أن يزلزل الأرضين ويسقط السماء كسفاً لولا حلمه تعالى على المشركين ومغفرته لمن تاب منهم ويدل على هذا قوله : { إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } ووصف الله تعالى بالحلم والمغفرة ، لما يشمله صفة الحليم : من حلمه على المؤمنين أن لا يزعجهم بفجائع عظيمة ، وعلى المشركين بتأخير مؤاخذتهم فإن التأخير من أثر الحلم ، وما تقتضيه صفة الغفور من أن في الإمهال إعذاراً للظالمين لعلهم يرجعون .

وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : { وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } [آل عمران: 155]. ونلاحظ أن الآيات التي وصفت الله بصفة الحلم قد قرنت صفة الحلم – في أغلب هذه الآيات – بصفة المغفرة أو العفو ، ويأتي هذا الاقتران في الغالب بعد إشارة سابقة إلى خطأ واقع ، أو تفريط في أمر محمود ، وهذا أمر يتفق مع الحلم ؛ لأنه تأخير عقوبة ، قال سبحانه : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } [فاطر: 45]. والله خلق هذا الخلق البشري وأنعم عليه بآلائه . وهذا المخلوق هو وحده الذي يفسد في الأرض ويظلم ، وينحرف عن الله ويشرك؛ ويطغى بعضه على بعض ، ويؤذي سواه من الخلق . والله بعد هذا كله يحلم عليه ويرأف به ، ويمهله وإن كان لا يهمله . فهي الحكمة تصاحب القوة ، وهي الرحمة تصاحب العدل . ولكن الناس يغترون بالإمهال ، فلا تستشعر قلوبهم رحمة الله وحكمته ، حتى يأخذهم عدله وقوته . عند الأجل المسمى الذي ضربه الله لحكمة ، وأمهلهم إليه لرحمة . لذلك نجد أيضًا أن عددًا من الآيات

التي وصفت الله بالحلم قد قرن فيها ذكر الحلم بالعلم ، كقوله تعالى : { وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ } [الحج: 59]. وهذا يفيد أن كمال الحلم يكون مع كمال العلم ، وهذا من أعظم أركان الحكمة.

ومعرفة العبد ربه سبحانه باسمه الحليم وإدراك الحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك يحدث له فرحا وابتهاجا به .

ومشاهدة هذه الصفة توجب الإنابة إليه وذلك تحقيقاً لمقتضاها التعبدي ، كما توجب عليه أيضاً شكراً له ومحبةً مضاعفة لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، لأن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك فعبودية التوبة بعد الذنب لون وهذا لون آخر ، ومشاهدة العبد صفة الحلم والتعبد بهذا الاسم أكمل في العبودية والمحبة ، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به ، ولكل اسم من أسمائه اثر من الآثار في الخلق والأمر لا بد من ترتبه عليه كترتب المرزوق والرزق على الرازق وترتب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم ، ونظائر ذلك في جميع الاسماء ، فلو لم يكن في عباده من يخطيء ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه لم يظهر اثر اسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب وما جرى مجراها وظهور اثر هذه الأسماء ومتعلقاتها في الخليقة كظهور آثار سائر الاسماء الحسنى ومتعلقاتها فكما إن اسمه الخالق يقتضي مخلوقا والمصور يقتضي مصورا ، فأسماؤه الغفار التواب تقتضي مغفورا له ما يغفره له وكذلك من يتوب ، وفي الحديث : " لَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ "[229].

إن مقتضى هذه الرحمة التي تتجلى بحلمه تعالى على عباده ، من إمهاله للكافرين والعصاة على ظلمهم ، وعدم معاجلتهم بالعقوبة توجب عليهم تحقيق العبودية لله بما يناسبها من مقتضيات ، والتي تتمثل بالمبادرة بالتوبة إلى الله تعالى والإنابة والتضرع إليه دون تأخير أو تسويف ، وقبل أن ينقضي الأجل ، فيندموا ويتوبوا حين لا ينفع الندم ولا تقبل التوبة ، وألا يغتروا بحلمه فيأمنوا من مكره ونزول عذابه ، فيتمادوا ويسرفوا في الذنوب والمعاصي . وأن يستحيوا الله تعالى فيما أمر على لسان أنبيائه ورسله ، وقد جاءت الآيات القرآنية لتبين هذه المقتضيات التعبدية لحلم الله تعالى ، نذكر منها .

1. المبادرة إلى التوبة دون تأخير أو تسويف ، قال تعالى : { قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النمل: 46]. قال تعالى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ

229- صحيح مسلم (2748)

بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [الرعد: 6]. قال تعالى : { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (17) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا } [الشورى: 17- 18].

2. عدم الاغترار بحلمه تعالى والأمن من مكره ، والإسراف في المعاصي ، قال تعالى : { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الاعراف: 97- 99]. وقال تعالى : { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [النحل: 45-46]. وقال تعالى : { يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [الحديد: 14].

3. الاستجابة لأمر الله تعالى ، وإتباع الرسل ، واغتنام المهلة قبل فوات الأوان قال تعالى : { اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ } [الشورى: 47]. وقال تعالى : { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } [الفرقان: 27- 29].

4. عدم الإسراف في الذنوب والمعاصي ، والتمادي في الظلم ، قال تعالى : { قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا } [مريم: 75]. وقال تعالى : { وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا } [الكهف: 58-59].

وهكذا كلما تجلي سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته على عباده فإنه يأمرهم بموجبها ومقتضاها التعبدي ، فأمرهم بالعدل والإحسان والبر والعفو الجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت ، ولما كان سبحانه يحب أسماءه وصفاته كان أحب الخلق إليه من اتصف بالصفات التي يحبها وأبغضهم إليه من اتصف بالصفات التي يكرهها ، وما يزال هذا القرآن

يذكر الناس بصفة الله سبحانه ليتأدبوا منها بما يطيقون؛ وما يزال أدب المسلم تطلعاً لصفة ربه ، وارتقاء في مصاعدها ، حتى ينال منها ما هو مقسوم له ، مما تطيقه طبيعته .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه رضوان الله عليهم بالتحلي بالحلم في تعاملهم ، ويحثهم عليه ومما يؤكد ذلك مدحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لصفة الحلم ، وتعظيمه لأمره، وأنه من الخصال التي يحبها الله تعالى، كما في قوله للأشج عبد القيس : « إن فيك خصلتين يحبهما اللّه : الحلم والأناة »[230].

فالأنبياء عليهم السلام قد كانوا على جانب عظيم من الحلم والتصبر، والعفو والشفقة على قومهم ودعائهم لهم بالهداية والغفران، وعذرهم في جناياقم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون ، وفي إصابة النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد أسوة للدعاة فيما ينالهم في سبيل اللّه من أذى في أجسامهم، أو اضطهاد لحرياقم، أو قضاء على حياقم ، ومن عظيم حلمه عدم دعائه على من آذاه من قومه ، وقد كان باستطاعته أن يدعو عليهم ، فيهلكهم اللّه ، ويدمرهم ، ولكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم حليم حكيم يهدف إلى الغاية العظمى ، وهي رجاء إسلامهم ، أو إسلام ذرياقم ، ولهذا قال : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون »[231]. وكذلك لما رأى مَلَك الجبال وقال له : " إن شئتَ أن أطبق عليهم الأَخشَبين " فقال : " لعل الله أن يُخرج من أصلابهم مَن يعبده "[232].

فإنه من رزق الحلم ترقى في درجاته . فيصل من قطعه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويحسن إلى من أساء إليه . ويخطئ من يظن أن الحلم عجز ، وأن العفو ضعف ، وأن الإعراض عن الجاهل خوف وخور . ولا يقول ذلك إلا من تأخذه العزة بالإثم . وعن أنس رضي الله عنه قال : « كنت ماشيًا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبي وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال الأعرابي : يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم ثم أمر له بعطاء "[233].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[230]- صحيح مسلم رقم (17)

[231]- صحيح البخاري رقم (3290) ومسلم رقم (1792)

[232]- صحيح البخاري رقم (3059)

[233]- صحيح البخاري رقم (2980)

وهكذا كان جميع الأنبياء والمرسلين ، كانوا من أعظم الناس حلمًا مع أقوامهم في دعوتهم إلى الله تعالى . فهذا إبراهيم أبو الأنبياء ، عليه السلام ، قد بلغ من الحلم مبلغًا عظيمًا حتى وصفه الله بقوله : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 114]. فقد كان عليه السلام حليمًا عمن ظلمه ، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له[234].

وسوف نستعرض من خلال قصة إبراهيم عليه السلام المنهج القرآني في الاستدلال بسعة حلمه تعالى على تفرد ألوهيته وما يقتضيها من مستحقات العبادة لله تعالى ، لأن من طبيعة المنهج القرآني أنه يصل إلى هدفه مباشرة ، فهو يعرض فكرته ببساطة وعمق ، وتأسيس وتأصيل ، ليحقق تأثيره الملزم وآثاره العملية ،

وهذا هو سر المنهج القرآني الذي صنع جيل النهضة والنصر ، والذي غير مسار التاريخ في زمن قياسي ، ولما خرج المسلمون فيما بعد عن هذا المنهج وتهوكوا بجدل الأفكار تهوك اليهود والنصارى ، انحسر امتدادهم الحضاري وهمدت نهضتهم . وأصبحت اليوم أطلالاً ومراثي للشعراء .

ولذلك فإن الواجب يحتم على المسلمين أن يجتهدوا في " استحياء مقومات العقيدة " من مصدره المعصوم : كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وتطبيقاته في عصر التنزيل من جيل الوحي وقبل الفتنة ، وإسقاط ذلك الحمل الثقيل والزائد عن كاهل الأمة عبر قرونه الطويلة الذي أعياها حمله ، ولم يزدها إلا تراجعاً وتخلفاً ، وإنه على تلك الأصوات التي تنادي بذلك على استحياء أن ترفع عقيرتها ، لأن الله لا يستحي من الحق ، والحق أحق أن يتبع ، مع التنويه أن ما ينطبق على العقيدة في ذلك لا ينطبق على الفقه قطعاً لاختلاف طبيعة كل منهما .

ولذلك فإنه من أبسط بديهيات التعامل مع القران حين قراءة منهجه هو " أن تصمت وتدع القرآن يتكلم " دون أن تشاغب عليه بما تحمل من أراء مسبقة وقاصرة ، فالعقيدة موجودة وثابتة ومقررة في القرآن والسنة ، فلا نحتاج إلى أن نبتدع أو نجتهد فيها ، وإنما المطلوب هو أن نبدع ونجتهد في استحياء مقوماتها ، وهذا هو مجال العمل والتكليف ، وما عليه الأجر والثواب ، وهذا ما نسعى إلى تحقيقه في هذه الدراسة ، ونرجو ثوابه .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[234]- راجع : تفسير الظلال 3/1، 4/288، 166، 5/149، 11/473، وتفسير الألوسي 414/16 ، وتفسير الرازي 490/12 ، وتفسير ابن عاشور 1/ 496 ، وتفسير السعدي 691 ، وتفسير القرطبي 373/1 ، ابن القيم : طريق الهجرتين 214،مفتاح دار السعادة 287، 290، مدارج السالكين 3/1، 319/206، المقصد الأسنى للغزالي 103، الحكمة في الدعوة إلى الله ، سعيد القحطاني ، 51، 43، 16،موسوعة الأخلاق الإسلامية للشرباصي 185/1، لاخلاق الاسلامية لحبنكة 332/3

وعليه فإن المقتضى التعبدي لرحمة الله وسعة حلمه وما ورد من الاستدلال عليها في قصة إبراهيم عليه السلام ، والتي جاء تقرير حقيقتها في جملة من الآيات ، يمكن أن نستعرضها على النحو الآتي :

الشاهد الأول :

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [البقرة: 126].

دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله بلدا آمنا، ويرزق أهله من أنواع الثمرات، لأن مكة لم يكن لها زرع ولا ثمر فاستجاب الله تعالى له وجعل مكة حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء ، وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيوع الإيمان بين سكان مكة ، لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم إنما هي خاصة بالمؤمنين تجنبوا ما يبعدهم عن الإيمان ، أو أنه خص المؤمنين بذلك تأدباً مع الله تعالى إذ سأله سؤالا أقرب إلى الإجابة ، ولعله استشعر من رد الله عليه سؤاله الإمامة في حق ذريته على الإطلاق إذ قال : " وَمِن ذُرِّيَّتِي " فقال : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } [البقرة: 124]. أنه سوف يرد سؤاله الرزق في حق أهل مكة على الإطلاق ، لأنه حسب أن غير المؤمنين ليسوا أهلا لإجراء رزق الله عليهم ،. لهذا خص ها هنا بدعائه المؤمنين دون الكافرين تأدبا بالسؤال الأول ، فلما قاس إبراهيم الرزق على الإمامة ، بين له تعالى الفرق بينهما ، لأن الاستخلاف استرعاء يختص بمن ينصح للمرعي ، وأبعد الناس عن النصيحة الظالم ، بخلاف الرزق فإنه قد يكون استدراجاً للمرزوق وإمهالاً له لتقوم عليه الحجة .

فنبه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر بخلاف الإمامة والتقدم أي : أن رزق الله يستوي فيه الجميع في الدنيا ليشمل المؤمن والكافر ، والعاصي والطائع ، بقوله : { قال ومن كفر فأمتعه قليلا } . وقد أفادت الآية الكريمة أن الله يرزق الكافر في الدنيا كما يرزق المؤمن وإذا كان إمتاع المؤمن بالرزق لأنه أهل لأن ينعم عليه بكل خير ، فإمتاع الكافر بالرزق له حكم منها :

1. الاستدراج للكافرين والعصاة وهو المشار إليه بقوله تعالى : { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [الأعراف:182-

183]. أي : نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم اخذوا ، أو كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة .

2. **تحقيق لسنة الابتلاء** : فلو خص الله المؤمنين بالتوسعة في الرزق وحرم منها الكافرين لكان هذا التخصيص سائقا للكافرين إلى الإيمان على وجه يشبه الإلجاء . وقد قضت حكمته تعالى أن يكون الإيمان اختيارياً حتى ينساق الإنسان من طريق النظر في أدلة عقلية يبصر بها أقوام ولا يبصر بها آخرون . قال تعالى : { كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } [الإسراء: 20].

3. **إقامة الحجة على العباد** : فقوله : { فامتعه قليلا } أي أمد له ليتناول من لذات الدنيا إثباتا للحجة عليه ، فهذا الإمتاع في الدنيا وتلك المهلة ، هي حجة على العباد كي يبادروا الى التوبة ويسارعوا فيها إلى الله قبل الفوات . و يشير حرف العطف (ثم) للتراخي الرتبي إشارة إلى كون مصيره إلى العذاب متأخراً عن تمتيعه بالمتاع القليل . أي : هناك مهلة تسبق حلول العذاب وهذا أحرى للعاقل أن يغتنمها فينزجر ويتوب .

4. **حلمه تعالى بعباده** : فمن حلم الله تعالى بعباده إمهال العصاة وعدم معاجلتهم بالعقوبة أو أخذهم بغتة وذلك ليُريَ سبحانه وتعالى عباده سعة حلمه وأن العفو والإحسان أحب إليه من الأخذ والانتقام وليعلموا شفقته وبره وكرمه ، ليكون سعة حلمه بهم أدعى لهم إلى التوبة من ذنوبهم والإقلاع عنها ، قال تعالى : { وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا } [الكهف: 58-59]. وقال تعالى : { قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النمل: 46]. فللعبد فى هذه الدنيا الفانية الإمهال أياما دون الإهمال ، إذ كل نفس تجزى بما كسبت والعاقل لا يفرح بشيء سوى الله تعالى فان ما خلا الله باطل وزائل والاغترار بالزائل الفاني ليس من قضية كمال العقل والفهم والعرفان ، فان الدنيا بكليتها قليلة وما يتمتع الكافر به منها قليل ، فقوله : { فأمتعه قليلا } أي : أمتعه تمتيعاً قليلاً . ووصف التمتع في الدنيا بالقلة ، لأنه صائر إلى نفاد وانقطاع . فان نعمه تعالى في الدنيا وان كانت كثيرة فإنها قليلة بإضافتها إلى نعمة الآخرة ، وكيف لا يقل ما يتناهى بالإضافة إلى ما لا يتناهى . فعلى العاقل أن لا يغتر بالدنيا وزخارفها فان للمطيع والعاصي نصيبا منها وليس ذلك من موجبات الرفعة في الآخرة ، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأما الكافر، فيتمتع فيها قليلا ثم مصيره إلى عذاب الله ، في قوله : { ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ } أي الجئة وأسوقه بعد متاعه في الدنيا إلى عذاب لا يمكنه الإنفكاك عنه، بحيث يتعذر عليه التخلص منه كما قال تعالى : { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } [القمر: 48]. فانه صريح بأنه لا مدخل لهم في لحوق عذاب الآخرة بهم ، فبعد خروج الإنسان من الدنيا بالموت تنتهي المهلة وتضيق الفسحة ولا يملك لنفسه الامتناع مما اضطر إليه ، فلا مفر ولا مهرب له من الله وعذابه فليس له إلا النار مكاناً ومستقراً ، وإنها مصير سيء للإقامة فيه بعد الذي كانوا فيه من متاع الدنيا . كما قال تعالى : { إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً } [الفرقان: 66]. وجملة { ثم اضطره إلى عذاب النار } احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضا الله فلذلك ذكر العذاب هنا [235].

* **الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ } [الزخرف: 26-29].

يخبر تعالى عن دين إبراهيم وكلمة التوحيد التي أورثها لذريته فلم تزل هذه الكلمة موجودة فيهم حتى دخلهم الترف والطغيان. فقال تعالى : { بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ } فهذه الآية الكريمة تبين أن الكلمة الباقية في عقب إبراهيم وهى كلمة التوحيد ، لم يتبعها جميع أفراد ذريته ، بل اتبعها قوم وكفر بها آخرون وأن هؤلاء الكافرين وعلى رأسهم كفار قريش لم يعاجلهم الله بالعقوبة ، بل متعهم بأن أمدهم بالنعم المتعددة هم وآباؤهم ، فلم يشكروه عليها ، واستمروا على ذلك ، حتى جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالحق ، فكذبوه و لم يؤمنوا به .

وجملة { مَتَّعتُ هؤلاء وآباءهم } مستأنفة استئنافاً بيانياً لسائل يسأل عما عاملهم الله به جزاء على تفريطهم في وصاية إبراهيم وهلا استأصلهم . فأجيب بأن الله أخذهم بحلمه ورحمته ومتعهم بالبقاء إلى أن يجيئهم رسول بالحق ، والحكمة في ذلك أن الله أراد أن يشرف هذا الفريق من عقب

[235]- راجع : تفسير الطبري 45/2 ، وتفسير الخازن97/1، وتفسير الزمخشري 131/1 ، وتفسير اللباب 99/2، وتفسير حقي 299/1-300 ، وتفسير طنطاوي 206 ، وتفسير ابن عاشور 478/1 ، وتفسير الظلال 88/1 ، وتفسير السعدي 66

إبراهيم بالانتشال من أوحال الشرك والضلال إلى مناهج الإيمان والإسلام وإتباع أفضل الرّسل وأفضل الشرائع ، فيجبرَ الأمّة من عَقِب إبراهيم ما فرطوا فيه من الإقتداء بأبيهم حتى يكمل لدعوته شرف الاستجابة . والمقصود من هذا زيادة الإمهال لهم لعلهم يتذكرون ، كما قال تعالى : {وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون } .

وبهذا الاستئناف انتهى التمتيع بما ظهر من المشركين من فظيع توغلهم في الإعراض عن الحق الذي جاءهم وهو : القرآن ، والرّسول المبين : محمد لأنه أوضَحَ الهُدى ونصبَ الأدلةَ على معاني دينه وأُخذوا بالعذاب تدريجياً إلى أن كان عذاب يوم بدر ويوم حنين ، وهدى الله للإسلام من بقي يومَ فتح مكة وأيامَ الوفود . وهذا في معنى قوله تعالى : { وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (47) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ } [هود: 47-48].

والمراد بالتمتيع هو المد في العمر والنعمة بإعطائهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب والنعم المتعددة ، وقصد به هنا التمتيع بالإمهال وعدم الاستئصال كما تدلّ عليه الغاية في قوله : { حتى جاءهم الحق ورسول مبين } . فاشتغلوا بهذه النعم عن شكر المنعم وطاعته ، حتى جاء الحق وهي غاية له في نفس الأمر ، لأن مجيء الرسول مما ينبه عن سنة الغفلة ويزجر عن الاشتغال بالملاذ ، لكنهم عكسوا فجعلوا ما هو سبب للتنصل سبباً للتوغل ، فهو على أسلوب قوله تعالى : { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا } إلى قوله سبحانه : { وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ } [البينة: 1-4]. لذلك جاء الإضراب هنا مناسباً لحالهم الشنيعة بقوله : { بَلْ مَتَّعْتُ هؤلاء وآباءهم } إضراب عن قوله جل شأنه { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } فكان إضرابه تعالى اعتراضاً عليهم في مقابلة نعمه الكثيرة بالجحود والكفران .

ومقابلة سعة حلمه في عدم معاجلتهم العقوبة بالإصرار والاستكبار ، كأنه قال : بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد ، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أعطيتهم نعماً أخرى غير الكلمة الباقية لأجل أن يشكروا منعمها ويوحدوه فلم يفعلوا ولم يرجعوا عن الشرك ، بل زاد طغيانهم لاغترارهم بحلمي وسعة رحمتي ، وأراد بذلك المبالغة في تعييرهم لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر والثبات على التوحيد لا أن يشركوا به ويجعلوا له أنداداً ، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يقبل

على نفسه فيقول أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك إليه ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء والاعتراض على فعله في مقابلة الإحسان لا الاعتراض على فعل الإحسان نفسه .

ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء و لم يتفكروا في الحجة ، اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا ، فأعرضوا عن الحق واشتغلوا بالتنعم وإتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد .

وعليه فإن حلم الله تعالى ورحمته الواسعة بعباده وإمهاله للعصاة وعدم تعجيل العذاب لهم ، ينبغي أن يقابلوه بما يلائمه من مقتضى العبودية ، بإن يرجعوا إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة والتضرع والخشية ، قال تعالى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ } [الرعد: 6]. وقال تعالى : { قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النمل: 46].

وأن يبادروا بإتباع الرسل وطاعتهم بما جاؤا به من شرائع الدين وأحكامه قبل فوات الأوان ، والندم حين لا ينفع الندم ، قال تعالى : { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } [الفرقان: 27-29]. وقال تعالى : { اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ } [الشورى: 47].

وعلى العاقل أن لا يسرف في الذنوب والمعاصي بسبب الاغترار بحلمه تعالى والأمن من مكره وعذابه ، مما يورث قسوة القلب وعدم الخشية من الله [236]. قال تعالى : { يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (15) أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد: 14-16]. وقال تعالى : { أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ

---

[236]- راجع تفسير الطبري 591/41 ، وتفسير ابن كثير 235/7، وتفسير الرازي 437/13، وتفسير الألوسي 349/18، وتفسير الجلالين353/9، وتفسير ابن عاشور 300/13، وتفسير السعدي 764-765، وتفسير الظلال351/6، وتفسير طنطاوي3793

الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ } [النحل: 45-47].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ } [ابراهيم: 41-43].

لما بين سبحانه دلائل التوحيد ثم حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه طلب من الله أن يصونه عن الشرك ، وطلب منه أن يوفقه للأعمال الصالحة وأن يخصه بالرحمة والمغفرة في يوم القيامة ذكر بعد ذلك حلمه تعالى من تأخير العذاب عن الظلمة، حيث أمهلهم و لم يعاجلهم بالعقوبة ، وأدرَّ عليهم الأرزاق ، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين ، وذلك كي يحضهم على المبادرة إلى التوبة والاستغفار والإنابة إليه قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم ، لا أن يكون ذلك سبباً في اغترارهم بحلمه والآمن من مكره ، فإن الله يمهل ولا يهمل ، فهو يملي للظالم ويمهله ، حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال تعالى : { وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود: 102]. وقال تعالى : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [النحل: 61].

والمقصود من ذلك هو وعيد للمشركين وإنذار لهم بأن لا يغتروا بسلامتهم وأمنهم تنبيهاً لهم على أن ذلك متاع قليل زائل ، فأكد ذلك الوعيد بهذه الآية : { وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } [إبراهيم: 42]. مع إدماج تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام على ما يتطاولون به من النعمة والدعة ، بعد أن عجبه من أفعال المشركين ، ومخالفتهم دين إبراهيم ، ليحضه على الصبر كما صبر إبراهيم ، ويثبته على ما هو عليه ، فاعلمه أنه تعالى مطلع على أحوالهم وأفعالهم لا يخفى عليه خافية ، وبأنه معاقبهم على ظلمهم قليله وكثيره لا محالة ، كما دل عليه التفريع في قوله : { فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [إبراهيم: 47]. وأن تأخير العذاب عنهم ليس غفلة منه سبحانه أو الرضا بأفعالهم ، بل سنة الله إمهال العصاة مدة . كما في معنى الآية : { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا } [

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المزمل: 11]. وذلك أن إمهالهم وتأخير عقوبتهم يشبه حالة الغافل عن أعمالهم ، أي : تحقق أن الله ليس بغافل عنهم .

وفي هذا رد في غاية الحسم لكل من توهم غفلته جهلاً بصفاته واغتراراً بإمهاله . ونفي الغفلة عن الله ليس جارياً على صريح معناه لأن ذلك لا يظنه مؤمن بل هو كناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين . ومنه جاء معنى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل إنه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم .

قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم . وتعزية للمظلوم ، والمعنى : لا تحسبن الله إذ أنظرهم وأجلهم للطفه وكرمه أنه غافل عنهم مهمل لهم، بترك عقابهم ، بل هو معاقبهم على القليل والكثير : { إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ } في وقوع العقاب ليوم هائل ، وهذا اليوم موصوف بصفات وهي :

الأولى : { تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } بمعنى رفع البصر بدون تحرك من شدة الخوف والفزع .

الثانية : { مُهْطِعِينَ } فإنهم مع شخوص أبصارهم يكونون مهطعين ، أي مسرعين نحو ذلك البلاء.

الثالثة : { مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ } والإقناع رفع الرأس والنظر في ذل وخشوع ، والمعنى أن المعتاد فيمن يشاهد البلاء أنه يطرق رأسه عنه لكي لا يراه ، فبين تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد وأنهم يرفعون رؤوسهم في ذل .

الرابعة : قوله : {لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ } والمراد من هذه الحالة دوام ذلك الشخوص ، وذلك يدل على دوام تلك الحيرة والدهشة في قلوبهم .

الخامسة : { وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ } الهواء الخلاء الذي لم تشغله الأجرام ثم جعل وصفاً فقيل : قلب فلان هواء إذا كان خالياً لا قوة فيه ، والمراد بيان أن قلوب الكفار خالية يوم القيامة عن جميع الخواطر والأفكار لعظم ما ينالهم من الحيرة ومن كل رجاء وأمل لما تحققوه من العقاب ومن كل سرور ، لكثرة ما فيه من الحزن ،

وأما وقت حصول هذه الصفات الخمسة فهو عند المحاسبة بدليل أنه تعالى إنما ذكر هذه الصفات عقيب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب . فهذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه ، والذي ينتظرهم بعد الإمهال هناك .

لذلك أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحذر الناس من أهوال هذا اليوم ، بأن يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح الذي ينفعهم ، من قبل أن يحل عذابه بالظالمين منهم ، لأنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك . فإن الله من رحمته بعباده وحلمه بهم أنه لم يعاجلهم بالعقوبة حتى يبادروا بالاستغفار والإنابة إليه تعالى قبل انقضاء الأجل وحلول العذاب .

فجاءت هذه الآية بعد طلب إبراهيم المغفرة لنفسه ولوالديه وللمؤمنين يوم القيامة ، ليحض العصاة على التوبة إلى الله والمسارعة فيها ، والإقلاع عن الذنوب وعدم الإصرار عليها ، قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب[237] .

ــ قال تعالى : { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [آل عمران: 133-136].

ــ وقال تعالى : { وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: 20-21].

ــ وقال تعالى : { اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ } [الشورى: 47] .

*** الشاهد الرابع :**

قال تعالى : { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [هود: 74-76].

237- راجع : وتفسير ابن كثير 415/4، وتفسير الرازي 265/9 ، وتفسير اللباب 6/10، وتفسير الألوسي 403/9 ، وتفسير الخازن 126/4، وتفسير حقي 354/6 ، وتفسير الظلال 413/4 ، وتفسير ابن عاشور 446/7، وتفسير السعدي 427، وتفسير طنطاوي 2442-2445

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنَّهُ لَمّا زال عنه الخوف وحصل له السُّرورُ بسبب مجيء البُشْرَى بحصول الولد ، وأخبروه بهلاك قوم لوط ، أخذتْه الشفقةُ عليهم ، وكان إبراهيم عليه السلام رجلاً رقيق القلب فجعلَ يجادل ويسأل الرحمة بهم ، رجاء أن ينظُر الله إليهم نظر رحمة . وقد دلت الآية على أن المجادلة وقعت في قوم لوط ودلت التفاسير على أنها وقعت في لوط نفسه والمؤمنين معه ولا تنافي بينهما ، فإنها من عموم الرحمة التي نشأ عليها الأنبياء عليهم السلام ، وتقريره من وجهين:

الوجه الأول : أن المراد من هذه المجادلة في قوم لوط في شمولهم رحمة الله هو تأخير العذاب عنهم ، فقد كان يميل إلى أن تلحقهم رحمة الله بتأخير العذاب عنهم رجاء أن يبادروا إلى الإيمان والتوبة عن المعاصي ، فحصلت المجادلة بهذا السبب في شأنهم ، وهو جدال الرحمة والمعاطفة وطلب النجاة للضعفاء الهالكين ، لأن كفرهم لا يرفع الرحمة في حقهم ويدل عليه حال نوح مع ابنه ، وحال نبينا عليه الصلاة والسلام مع قومه ، كما في قوله تعالى : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } [الكهف: 6]. وقوله : { فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } [فاطر: 8].

الوجه الثاني : أن المراد من هذه المجادلة في لوط ومن معه من المؤمنين ، في شمول رحمة الله لهم هو نجاتهم من هذا العذاب ، وكانت مجادلته عليه السلام لهم ما قصه الله سبحانه في قوله سبحانه في سورة العنكبوت : { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا } [العنكبوت: 31-32] فقوله عليه السلام : { إِنَّ فِيهَا لُوطاً } مجادلة وعد ذلك مجادلة لأن مآله على ما قيل : كيف تهلك قرية فيها من هو مؤمن غير مستحق للعذاب؟ ولذا أجابوه بقولهم : " نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ " [العنكبوت : 32] . فحاصل جداله لهم في لوط والمؤمنين قوله : إن أهلكتم القرية وفيها أحد من المؤمنين أهلكتم ذلك المؤمن بغير ذنب ، فأجابوه عن هذا بقولهم { لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ } فسكت عنهم واطمأنت نفسه.

ثم علل مجادلته بقوله: { إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } وهذا مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم ، أما الحليم فهو الصبور على الأذى ، الصفوح عن الجناية ، المقابل لها بالإحسان . غير عجول على الانتقام ممن أساء إليه ومن هذا حاله فإنه يحب من غيره هذه الطريقة ، وهذا كالدلالة على أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب ، ثم ضم إلى ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله : { أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } لأن من يستعمل الحلم في غيره فإنه يتأوه إذا شاهد وصول الشدائد إلى

الغير، فلما رأى مجيء الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة ، ووصفه أيضاً بأنه مُنيب ، لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم ، أو يقال : إن من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد فأن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى ، ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة والإنابة فوجب فيمن هذا شأنه يكون منيباً .

والمقصود من وصفه عليه السلام بهذه الصفات الدالة على الرأفة والرحمة والحلم ، بيان للدواعي التي حملت إبراهيم عليه السلام على المجادلة في شأن إهلاك قوم لوط .رجاء أن يرفع الله عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حملته على الاستغفار لأبيه وكما حملته على عدم الدعوة على العصاة من قومه ، بقوله : { فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [إبراهيم: 36]. لكن حلم إبراهيم وإنابته لم يرد قضاء الله العادل في شأن قوم لوط ولذا قالت الملائكة له : { يا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } . فقد أمروه بترك المجادلة فى طلب إمهال عقوبتهم والتماس الرحمة لهم لأنه قد جاء أمر الله بإيصال هذا العذاب إليهم ولا سبيل إلى دفعه عنهم لا بجدال ولا بغيره .

لقد جاء تعليل مجادلة إبراهيم في تأخير العذاب عن قوم لوط بحلمه عليه السلام ، وهي صفة الرحمن عز وجل ، ولكن حلم إبراهيم قاصر عن علم الغيب ، أما حلم الله تعالى فهو متعلق بطلاقة علمه لعالم الغيب والشهادة ، ولما كانت العلة من الحلم هو رجاء التوبة باغتنام الفرصة المعطاة للإنسان ، فإذا انتفت العلة انتفى الحكم ، بمعنى إذا حصل التحقق من عدم وجود التوبة والإنابة كان الحلم والإمهال لا يحقق مقصده وغايته ، وكان نزول العقاب هو الأليق في هذا المقام ، وبما أن الله يعلم الغيب من أن قوم لوط لن يتوبوا من ذنوبهم ، عاجلهم بعذابه دون تأخير ، بينما كان هذا العلم منتفياً عند إبراهيم لذلك طالب بتأخير العذاب عنهم ، مما جعل الملائكة تخبره أن هذا العذاب صادر من أمر الله الذي يعلم الغيب ويعلم أن قوم لوط لن يؤمنوا ولن يتوبوا ، وهذا ما جرى مع نوح عندما أخبره تعالى بعدم إيمان قومه ، بقوله : { وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } [هود: 37]. فقد كان نوح صبوراً حليماً على قومه في عنادهم وكفرهم ودليل ذلك هو مدة الدعوة الطويلة والمضنية التي تكبد مشاقها وهي ألف سنة إلا خمسين ، وذلك أملاً في نجاتهم باستجابتهم لدعوته ، ولكنه عندما أعلمه الله بعدم إيمان قومه دعا عليهم بالهلاك

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الماحق ، في قوله تعالى : { وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا } [نوح: 26-27].

وكذلك يتجلى هذا المعنى واضحاً في استغفار إبراهيم لوالده في قوله : { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } [مريم: 47]. ولكنه عندما علم أنه لا أمل يرجى في إيمانه تبرأ منه ، قال تعالى : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 114].

ويتجلى أيضاً في قوله : { فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [إبراهيم : 36] . فإن ذكر { الغفور الرحيم } هنا ليس المقصود به مغفرة الشرك كم ذهب إليه بعض المفسرين ، بل هي جاءت توسل برحمته في حلمه على العصاة بإمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة كي يتسنى لهم أن يتوبوا إلى الله تعالى ، لا أن يغفر لهم تلبسهم بالشرك ، وهو يعلم أن الشرك لا يغفره الله أبداً .

وهذا الإشفاق والحلم هي صفة الأنبياء والمرسلين جميعاً مع أقوامهم ، ومصدر هذه الصفة هو من تفضل الله عليهم بها وتوجيههم إليها ، تحقيقاً لمراده لأن الحلم والرحمة صفته تعالى ، فمن رحمة الله أن يتخلق رسله بهذه الصفة ، ويوجبها عليهم ، وما جرى مع يونس من تربية الله تعالى له يعد من هذا القبيل حينما تعجل مفارقة قومه وضاق بهم ، حيث إنه لم يفعله إلا غضباً لله تعالى وأنفة لدينه وبغضاً للكفر وأهله ، قال تعالى : { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنبياء: 87]. وكان الأولى له أن يصابر وينتظر الإذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم ، ولهذا قال تعالى : { فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ } [القلم: 48]. لأن الله تعالى أراد لمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل المنازل وأعلاها . فمن رحمته تعالى أنه بعثه رحمة مهداة للعالمين، قال تعالى : { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ } [آل عمران: 159]. وقال تعالى : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [التوبة: 128]. وقال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء: 107].

وقد تجسدت هذه الرحمة في سيرته العطرة في كثير من المواقف فها هو يوم الطائف يقابل إيذاء قومه بالحلم والرحمة في معرض رده على نصرة جبريل وملك الجبال له ، كما جاء في الحديث : "

إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا "[238] . وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : " لَمَّا قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ بِالْجِعِرَّانَةِ ازْدَحَمُوا عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى قَوْمِهِ فَضَرَبُوهُ وَشَجُّوهُ قَالَ فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ جَبْهَتِهِ وَيَقُولُ رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ جَبْهَتِهِ يَحْكِي الرَّجُلَ وَيَقُولُ رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ "[239] .

وعن عبد الله بن عبيد قال : " لما كسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشج في جبهته فجعلت الدماء تسيل على وجهه قيل : يا رسول الله ، ادع الله عليهم فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى لم يبعثني طعانا ولا لعانا ، ولكن بعثني داعية ورحمة ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون »[240].

إن هذه العناية الإلهية بالعباد والمتمثلة بحلمه تعالى في إمهال العصاة وعدم معاجلتهم بالهلاك تقتضي من العاقل أن يسارع بالتوبة والمغفرة قبل فوات الأوان ، وأن لا يغتر بما أمده الله به من نعم ، بل عليه أن يغتنم فرصة وجوده في هذه الدنيا بالطاعة والعمل الصالح[241] ، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [النافقون: 9-11].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[238]- صحيح البخاري رقم (3059)

[239]- ومسند احمد رقم(4057 ، 4366) تعليق شعيب الأرنؤوط : صحيح وهذا إسناد حسن رقم

[240]- شعب الإيمان رقم الحديث (1447)

[241]- راجع : تفسير ابن كثير 335/4، وتفسير اللباب130/6 ، وتفسير الشنقيطي 99/2، وتفسير ابن عجيبة 62/3، وتفسير القطان 229/2، وتفسير الألوسي 313/8، وتفسير ابن عاشور172/7 ، وتفسير الرازي 443/8 ، وتفسير حقي 470/5 ، وتفسير البقاعي 178/4-179، وتفسير طنطاوي 2233 ، وتفسير الزمخشري 105/3، وتفسير السعدي 385، وتفسير أيسر التفاسير 182/2

* الشاهد الخامس :

قال تعالى : { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } [الحج: 43-44].

في هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الذي عامله به قومه من التكذيب عومل به غيره من الرسل الكرام ، وذكر تعالى في هذه الآيات سبع أمم كل واحدة منهم كذبت رسولها . ومناسبة عَدّ قوم إبراهيم هنا في عداد الأقوام الذين أخذهم الله دون الآيات الأخرى التي ذُكر فيها من أُخذوا من الأقوام ، أنّ قوم إبراهيم أتمّ شبهاً بمشركي قُريش في أنهم كذبوا رسولهم وآذوه . وألجأوه إلى الخروج من موطنه : { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ }[الصافات:99]. فكان ذكر إلجاء قريش المؤمنين إلى الخروج من موطنهم في قوله : { الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ } [الحج: 40]. مناسبةٌ لذكر قوم إبراهيم . ثم بين تعالى حلمه في مقابلة تكذيبهم لرسله بقوله :{ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } والإملاءُ : ترك المتلبّس بالعِصيان دون تعجيل عقوبته وتأخيرها إلى وقت متأخر حتى يحسب أنه قد نَجا ثم يؤخذ بالعقوبة . أي : لم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم وأمليت لهم حتى انصرمت حبال آجالهم . ثم أخذت كل فريق من فرق المكذبين بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله بعذاب .

وقد بين تعالى نوع العذاب الذي عذب به كل أمة من تلك الأمم ، بعد الإملاء لها والإمهال ، فبين تعالى أنه أهلك عاد بقوله : { وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } [الحاقة: 6]. وبين أنه أهلك ثمود بقوله : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون } [فصلت: 17]. وبين أنه أهلك قوم إبراهيم بقوله : { قَدْ مَكَرَ الذين مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى الله بُنْيَانَهُمْ مِّنَ القواعد فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ } [النحل: 26]. وبين أنه أهلك قوم لوط بقوله : { فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ } [هود: 82]. وبين أنه أهلك أصحاب مدين بقوله : { وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ } [هود: 94-95]. وبين أنه أهلك الذين كذبوا موسى ، وهم فرعون وقومه بقوله : { فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ } [طه: 78].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومعلوم أن الآيات كثيرة في بيان ما أهلكت به هذه الأمم ، وكل ذلك توضيح معنى قوله : { فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ } فالدرس كله بيان لمظاهر قدرة الله تعالى في إهلاك الأمم والشعوب الظالمة بعد الإمهال والإعذار . فهي سنة مطردة في الرسالات كلها ، قبل الرسالة الأخيرة ، أن يجيء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون . فليس الرسول صلى الله عليه وسلم بدعا من الرسل حين يكذبه المشركون . والعاقبة معروفه ، والسنة مطردة . وفي جميع تلك الحالات أملى الله للكافرين حيناً من الزمان كما أملى لقريش ثم أخذهم أخذاً شديداً . وهنا سؤال للتهويل والتعجيب : { فكيف كان نكير؟ } . أي فأعْجَب من إنكاري عليهم بالعذاب ، لقد كان إنكاراً فظيعاً ، فهو نكير مخيف! نكير الطوفان والخسف والتدمير والهلاك والزلازل والعواصف والترويع ، ووجه التعجيب منه أنهم أبدلوا بالنعمة نقمة ، وبالكثرة قلة ، وبالحياة موتاً ، وبالعمارة خراباً ، فانظر أيها العاقل كيف كان إنكاري عليهم ؟ لقد كان إنكارا مخيفا مهلكا ، وذلك من أجل استحاشة الذكرى والعبرة والخشوع . فهو عبرة لغيرهم .

وكأنّ مناسبة اختيار النكير في هذه الآية دون العذاب ونحوه أنه وقع بعد التنويه بالنهي عن المنكر لينبه المسلمين على أن يبذلوا في تغيير المنكر منتهى استطاعتهم ، فإن الله عاقب على المنكر بأشد العقاب ، فعلى المؤمنين الائتساء بصنع الله ، وقد قال الحكماء : إنّ الحكمة هي التشبه بالخالق بقدر ما تبلغه القوة الإنسانية ، وفي هذا المجال تتسابق جياد الهمم .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الوعيد والتهديد الذين كذبوا الرسل عليهم السلام وأعرضوا عن دعوتهم . وتقرير لحقيقة أن الله أعطى الأنبياء جميع ما وعدهم به من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الأرض . وهذا الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم وللدعاة الصادقين ، في الصبر على المكذبين في سنة الله بإمهالهم ، فإنه تعالى إنما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضاء والتسليم ، وإن شق ذلك على القلب .

وهذا مع ما فيه من تحقيق التسلية والتثبيت للرسول عليه السلام وللمؤمنين، فهو أيضاً تربية على تحقيق صفة الحلم والرحمة التي أرادها الله لنبيه وعباده المؤمنين في مقابلة العصاة لعلهم يتوبون إلى الله تعالى ، ولأن الدعاة يصل إليهم من جهة من يدعونهم ما يزيدهم غماً في كل وقت، فأجرى الله عادته بأن يصبر نبيه وورثة رسالته حالاً بعد حال ، بذكر عاقبة هؤلاء المكذبين وبأي جنس من عذاب الاستئصال هلكوا . فهي سنة مطردة جارية في الأمم لا تتخلف ، وأما السبب في تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الأمة أن ذلك العذاب مشروط بأمرين :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أحدهما : أن عند الله حد من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه .

والثاني : أن الله لا يعذب قوماً حتى يعلم أن أحداً منهم لا يؤمن ،

فأما إذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله أن أحداً منهم لا يؤمن ، فحينئذ يأمر الأنبياء فيدعون على أممهم فيستجيب الله دعاءهم فيعذهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله : { حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [يوسف: 110-111]. وقوله لنوح : { أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } [هود: 36-37]. فليعتبر هؤلاء المكذبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا يغتروا بحلم الله بهم ، في تأخير العذاب فيأمنوا مكره وعقوبته . فإن الله حليم رحيم يمهل ويملي ، ولكنه شديد العذاب إذا إنتهى الأجل المحدد [242]، قال تعالى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [الرعد: 6]. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ، قَالَ : ثُمَّ قَرَأَ : { وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود: 102]. "[243].

---

[242]- راجع : تفسير الرازي 127/11، وتفسير الالوسي 27/13، وتفسير حقي 416/8، وتفسير الشنقيطي 274/5، وتفسير الظلال 203/5، وتفسير طنطاوي 2976 ، وتفسير السعدي 540، وتفسير ابن عاشور 285/9، وأيسر التفاسير 11/3

[243]- صحيح البخاري رقم (4409)وصحيح مسلم (2583)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- المبحث الرابع -

الاستدلال برحمة الله تعالى في حسابه وجزائه

لقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم عن العصمة من الخطأ ، لما ركب في طبيعتهم من القصور ، قال تعالى : { هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } [النجم: 32]. فالله تعالى أعلم بأحوال عباده كلها، وما جبلهم عليه من الضعف والخور عن كثير مما أمرهم به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض المحرمات ، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد من البشر معلوم من نشأتهم من الأرض، وتكوينهم في بطون أمهاتهم ، فلعلمه تعالى بأحوالهم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمدهم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمرهم بإحسانه، ويزيل عنهم الجرائم والمآثم، خصوصا إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإن الله تعالى أرحم الراحمين ، وقد كانت تجربة آدم أبو البشر بيان لهذه الحقيقة وقررها سبحانه بقوله : { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } [طه: 115].

وكذلك قصورهم عن الوفاء لله بحق العبودية ، أو أن تفي أعمالهم بحق الجنة . ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا . قال تعالى : { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد: 27]. والمؤمنون يقرون بهذا القصور : { وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [البقرة: 286].

والله العليم بعباده أراد لهم التخفيف والتيسير ، بقوله تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا } [النساء: 28]. فكتب سبحانه على نفسه الرحمة؛ وقبل منهم جهد المقل القاصر الضعيف؛ وكتب لهم به الجنة ، فضلاً منه ورحمة ، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم : " لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل "[244]. قال تعالى : { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

[244]- صحيح البخاري رقم (6098) ومسلم رقم (2816)

الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الأنعام: 54]. فلولا رحمة الله ما كفى عملهم ، بسبب ضعفهم وقصورهم ، فجبر سبحانه ذلك برحمته ولطفه على عباده [245].

ومن مظاهر رحمته تعالى بهم أنه يتعامل معهم في حسابه وجزاءه بالفضل والإحسان والمزيد ، ويظهر ذلك من عدة وجوه :

أولاً : مضاعفة الحسنات إلى أضعاف كثيرة .

ثانياً : عدم مضاعفة السيئات وإنما السيئة بمثلها .

ثالثا : محو السيئات بالتوبة أو تكفيرها بالصالحات والعقوبات .

رابعاً : تبديل السيئات إلى حسنات .

خامساً : عدم التعجيل في تسجيل السيئة على العبد .

*** وسوف نستعرض هذه المظاهر لرحمة الله تعالى في حسابه وجزائه بصورة موجزة وذلك على النحو التالي :**

أولاً : مضاعفة الحسنات .

وتتجلى رحمة الله تعالى في مضاعفته للأجر والثواب وزيادة الحسنات في عدة صور ، أبرزها :

1.حسنات بغير حساب . مثل :

أ. **الصوم** : قال صلى الله عليه وسلم : " كل عمل بن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله قال الله عز وجل إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به "[246].

ب. **الصبر** : قال تعالى : { إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزمر: 10].

2. حسنات جارية بعد موت صاحبها ، منها

أ. الولد الصالح .

ب. الصدقة الجارية .

ج. العلم النافع .

245- راجع تفسير الظلال ، 3/ 224

246- صحيح البخاري رقم (5583) وصحيح مسلم رقم (1151) ومسند أحمد رقم (9712)

وقد جمعها صلى الله عليه وسلم بقوله : " إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له "[247]. أي : أن عمل الميت ينقطع بموته وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها .

د. **السنة الحسنة بين الناس** ، قال عليه الصلاة ة السلام : " من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها و أجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء "[248]. وهذه الأمور هي من كسب الإنسان وآثاره التي تبقى بعد موته ، قال تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ } [يس: 12].

3.حسنات لا تغلق إلى يوم القيامة . منها :

أ. **الشهادة في سبيل الله** ، قال تعالى : { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 169-170].

ب. **الرباط في سبيل الله تعالى** ، وهو الإقامة على جهاد العَدوّ بالحرب وهذا العمل ثوابه مستمر إلى يوم القيام ، قال صلى الله عليه وسلم : " من مات مرابطا في سبيل الله أومن عذاب القبر ونما له أجره إلى يوم القيامة "[249]. وقال " كل الميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر "[250].

ج. **الهجرة إلى الله** ، قال تعالى : { وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء: 100].

د. **الموت في الإحرام بالحج أو العمرة** . فقد كان رجلا مع النبي صلى الله عليه وسلم فوقصته ناقته وهو محرم فمات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه ولا تمسوه بطيب ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبي "[251].

---

[247]- صحيح مسلم رقم (1631)

[248] - أخرجه مسلم في الصحيح رقم (1017)

[249]- صحيح ابن حبان رقم (4625)

[250]- سنن ابي داود قال الشيخ الألباني : صحيح رقم (2500)

[251]- صحيح البخاري رقم (1753) ومسلم رقم (1206)

4. حسنات تضاعف لفضيلة الوقت .

أ. شهر رمضان : قال صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر مبارك شهر فيه ليلة خير من ألف شهر جعل الله صيامه فريضة و قيام ليله تطوعا من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه و من أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه "[252].

ب. ليلة القدر : قال تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ } [القدر: 1-3]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه "[253].

ج. العشر الأوائل من ذي الحجة : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر فقالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء"[254].

د. الثلث الأخير من الليل : عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول من يدعوني فأستجيب له ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له "[255].

هـ. ما كان فرض الوقت : قال تعالى : { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ } [الحديد: 10-11].كما ورد عن عبد الله ابن مسعود أنه قال : " سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها "[256].

---

[252]- صحيح ابن خزيمة (1887)

[253]- أخرجه البخاري في صحيحه(35 ، 1802) ومسلم في صحيحه رقم رقم (760)

[254]- صحيح البخاري رقم (969). مسند أحمد رقم 161/2 (6505) الترمذي وسنن أبي داود رقم 161/2 (6505)
قال الشيخ الألباني: صحيح

[255]- صحيح مسلم (758)

[256]- صحيح البخاري رقم (504، 2630 ، 5625، 7096) وصحيح مسلم رقم (85)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

5. حسنات تضاعف لفضيلة الأماكن .

أ. **البيت الحرام** : قال عليه الصلاة والسلام : " صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه . إلا المسجد الحرام . وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه " [257].

ب. **المسجد النبوي** : عن أبي الدرداء : عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة و في مسجدي ألف صلاة و في مسجد بيت المقدس خمسمائة صلاة " [258].

ج. **المسجد الأقصى** : عن ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم قالت : " يا رسول الله أفتنا في بيت المقدس . قال : أرض المحشر والمنشر . ائتوه فصلوا فيه . فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره" [259].

د. **المساجد عامة** : قال عليه الصلاة والسلام " صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ وَحْدَهُ سَبْعًا وَعِشْرِينَ" [260].

وقد جمع هذه الفضائل حديث أنس بن مالك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلاة الرجل في بيته بصلاة وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمسمائة صلاة . وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة . وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة . وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة "[261].

6.حسنات تضاعف بصدق النية ، قال تعالى : { مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: 261]. وللإخلاص وقصد الامتثال تأثير في تضعيف الأجر والثواب ، فهذا أبو طلحة قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول : { لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } [آل عمران: 92]. وان

---

[257]- صحيح مسلم رقم (1394)سنن ابن ماجة رقم (1406) والرواية بلفظه

[258]- شعب الإيمان للبيهقي رقم (4140)

[259]- سنن ابن ماجة رقم (1407)

[260]- صحيح البخاري رقم (620)وصحيح مسلم رقم (649)

[261]- سنن ابن ماجة رقم (1413)

أحب أموالي إلي بيرحاء ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"بخٍ ذلك مال رابح ذلك مال رابح "[262].

قال تعالى : { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [البقرة:265].

وقال عليه الصلاة والسلام : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل "[263]. فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة والخالصة ينميها الله تعالى لأصحابها ويضاعفها لهم[264].

7. حسنات تضاعف للمناسبة والملائمة، قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : " فأي الصدقة أفضل ؟ قال : جهد المقل "[265]. وسؤاله أيضاً : " أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها "[266]. ومن ذلك موقف أبو بكر الحاسم من المرتدين الذي يكشف عن دقة فهمه للإسلام ، وتقديره السديد في اتخاذه الرأي المناسب الذي يمليه خطورة الموقف ، ولولا هذا الموقف الملائم والثبات عليه لتغير وجه التاريخ ولعادت الجاهلية تعيث في الأرض فساداً ، فلو لم يكن لأبي بكر سوى هذا الموقف لكفاه فضلاً وأجراً ، وقد بين عبد الله ابن مسعود ذلك بقوله : " لقد قمنا بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله منَّ علينا بأبي بكر، أجمعنا على أن لا نقاتل .. فعزم الله لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية "[267].

8. حسنات تضاعف بفضل الله تعالى ، فعن مجاهد أن أم سلمة قالت : " يا رسول الله أيغزوا الرجال ونحن لا نغزوا ولنا نصف الميراث ، فأنزل الله عز وجل : { وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا } [النساء: 32]. ونزلت : { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ " إلى قوله

---

[262]- صحيح البخاري رقم (1392)ومسلم رقم (998)

[263]- موطأ مالك رقم (1806)وصحيح البخاري رقم (1344) ومسلم رقم (1014)

[264]- تفسير ابن كثير 196/1

[265]- سنن ابي داود رقم (1449) قال الشيخ الألباني صحيح

[266]- صحيح البخاري رقم (504، 2630 ، 5625، 7096) ، وصحيح مسلم رقم (85)

[267]- الكامل في التاريخ لابن الأثير : 1/ 365 ، أبي بكر الصديق ، د.علي الصلابي ص207 ، 298

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

: " أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [الأحزاب: 35] [268]. وقوله صلى الله عليه وسلم: " أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ، قالوا : بلى يا رسول الله قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، فبلغت الأغنياء فقالوا مثل ذلك فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء "[269].

9.**حسنات تضاعف بالنسبة إلى أفضلية العمل عند الله** ، كما في قوله تعالى : { لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء: 95-96]. : وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أي العمل أفضل ؟ فقال : إيمان بالله ورسوله . قيل ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله . قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور "[270].وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : " يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة على ميقاتها . قلت ثم أي ؟ قال:ثم بر الوالدين.قلت ثم أي؟قال:الجهاد في سبيل الله "[271].

ثانياً : عدم مضاعفة السيئات.

فالسيئة الواحدة تكتب سيئة واحدة مثلها لا تزيد ، كقوله تعالى : { وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [الأنعام: 160]. وهذه المثلية من عدله تعالى فهو لا يظلم مثقال ذرة ، ولكنه لما ذكرها في مقابل مضاعفة الحسنات فهي بهذا تعد من باب رحمته وفضله لأنه لم يضاعفها كالحسنة . فكان موجب هذا أن تسبق حسناته سيئاته ، وأما من سبقت سيئاته بهذا

---

[268] - مسند اسحاق بن راهويه رقم (56) قال المحقق عبد الغفور البلوشي : صحيح على شرط مسلم

[269] - مسند الشاميين للطبراني رقم 3 /218

[270] - صحيح البخاري رقم (26 ، 1447)

[271] - صحيح البخاري (2630) ومسلم (85)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القيام، فهو ممن غلبت عليه شقوته ، كما في الحديث " الحسنة بعشر أمثالها وأزيد والسيئة واحدة وأغفر فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره "[272] .

ثالثاً : محو السيئات : وذلك من خلال :

1. **التوبة إلى الله تعالى والإنابة إليه ، قال تعالى :** { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الأنعام: 54].

2. **تكفير الذنوب والمعاصي وذلك .**

أ. **بأن يفعل الحسنات تكفيراً عما اقترفه من سيئات ، قال تعالى :** { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ } [هود: 114]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " جعلت الصلوات كفارات لما بينهن[273]؛ فإن الله قال: { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }. وقال صلى الله عليه وسلم : " اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن "[274] وقال صلى الله عليه وسلم : " الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مُكَفِّرَات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر "[275].

ب. **الصبر على ما يقع عليه من أقدار الله تعالى ، قال سبحانه :** { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى: 30]. قال قتادة في تفسيرها : " ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : لا يصيب ابن آدم خدش عود و لا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب و ما يعفو الله عنه أكثر "[276]. وفي الحديث : " مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ " [277]. ودخل على عمران بن حصين رضي الله عنه بعض أصحابه و قد ابتلي في جسده فقال له بعضهم : إنا لنبتئس لك لما نزل فيك قال : " فلا تبتئس لما ترى فإنما نزل بذنب و ما

---

[272]- الطبري 231/15، القرطبي 135/7

[273]- تفسير الطبري 513/15

[274]- سنن الترمذي (1987) ومسند احمد (61/1) رقم (312)

[275]- صحيح مسلم (233)

[276]- شعب الإيمان للبيهقي (9815)

[277]- صحيح البخاري (5317) صحيح مسلم (2573) مسند أحمد 303/2 (8014)

يعفو الله عنه أكثر ، ثم تلا هذه الآية : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى:30] . "[278].

رابعاً : تبديل السيئات إلى حسنات .

وهذا من عظيم فضله سبحانه وتعالى ، وذلك ليحث العصاة على التوبة ولا يبقى لهم عذر ولا ذريعة ، قال تعالى : { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان: 68-69]. ومعنى :{ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } أي : صير سيئاتهم حسنات لهم يوم القيامة .

فأن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. وينقلب حسنة في صحيفته، كما صحت الآثار بذلك[279]. فقد جاء شيخ كبير ، فقال : " يا رسول الله، رجل غدر وفجر ، ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطعها بيمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم ، فهل له من توبة؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أسلمتَ؟ " قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فإن الله غافر لك ما كنت كذلك، ومبدل سيئاتك حسنات ". فقال: يا رسول الله، وغَدَراتي وفَجَراتي؟ فقال: "وغَدَراتك وفَجَراتك" . فولّى الرجل يهلل ويكبر "[280].

خامساً : عدم التعجيل في تسجيل السيئة في صحيفة العبد .

فمن رحمة الله عز وجل أن العبد إذا فعل المعصية أنه يأمر الملائكة الموكلين بتسجيل الأعمال أن يترفقوا به عدة ساعات حتى يتوب من ذنبه هذا ، فإذا انقضت المدة ولم يتب كتبت عليه سيئة واحدة ، فإذا تذكرها بعد ذلك وتاب منها محيت عنه ،

278- المستدرك (3665) وتعليق الذهبي في التلخيص : صحيح

279- انظر تفسير ابن كثير 127/6

280- المعجم الكبير ، (7235) ومسند أبي يعلى (3433) والهيثمي في المجمع (32/1) والإمام أحمد في مسنده (384/4) قال حسين سليم أسد : إسناده صحيح وقال شعيب الأرنؤوط : صحيح بشواهده

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : " صاحب اليمين أمين على صاحب الشمال فإذا عمل العبد بحسنة كتبت بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال : صحاب اليمين أمسك فيمسك ست ساعات أو سبع ساعات فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيئا وإن لم يستغفر الله كتبت عليه سيئة واحدة "[281].

نلاحظ في الحديث أن ملك الحسنات هو المسئول عن ملك السيئات ، وفي هذا دلالة على أن رحمته تعالى تسبق غضبه ، وأنه غني عن خلقه منزه عن الرغبة في حب الانتقام ، فهو لا يتشفى بعقابهم ولا ينتفع به ، فإن عبده مهما جنى وأساء ، وكفر وظلم إذا تاب وأصلح فآمن وشكر . لا يعذبه أدنى عذاب إذ لا حاجة إلى تعذيب عباده[282] ، قال عز وجل : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } [النساء: 147].

هذا جملة من النصوص التي تبين من خلالها ميزان الحساب والجزاء في تعامله تعالى مع عباده على أساس الرحمة والفضل ، بحيث لا يهلك على الله إلا هالك ، كما جاء في الحديث الصحيح عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِيمٌ ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرَةً إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا هَالِكٌ "[283].

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام:

ـــ تارة يتركها لله عَزَّ وجل ، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى ، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: "فإنما تركها من جرائي"[284]. أي : من أجلي .

ـــ وتارة يتركها نسيانًا وذهولا عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينو خيرًا ولا فعل شرًا .

ـــ وتارة يتركها عجزا وكسلا بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا يتنزل منزلة فاعلها، كما جاء في الحديث، في الصحيحين: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في

281- شعب الإيمان للبيهقي (7051) مسند الشاميين للطبراني (526 ، 1228)

282- راجع تفسير السعدي 211، وأيسر التفاسير 311/1

283- صحيح البخاري برقم (6126 ، 7062) وصحيح مسلم برقم (131). ومسند أحمد (2519)

284- رواه مسلم في صحيحه برقم (129)

النار". قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: "إنه كان حريصًا على قتل صاحبه"[285].

وعنه صلوات الله عليه وسلامه : " يقول الله، عَزَّ وجل: من عَمِل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر. ومن عمل قُرَاب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئا جعلت له مثلها مغفرة. ومن اقترب إليّ شبرًا اقتربت إليه ذراعا، ومن اقترب إليّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلَة"[286].

إن هذه الربوبية المتفردة الرحيمة والمتمثلة بالرعاية والرفق واللطف بالعباد من كل الوجوه ، والمتمثلة بفضله تعالى بالحساب والجزاء ، حيث يضاعف الحسنات ويتجاوز عن السيئات ، فالحسنة عنده تعالى ودود ولود تنجب وتزيد إلى ما شاء الله ، وأما السيئة عقيم عاقر لا تنجب ولا تلد ، بل قد تضمحل وتموت ، وقد يخرج سبحانه من موتها هذا حسنة تنمو وتتكاثر ، وذلك حين تتبدل السيئة حسنة بفضله وكرمه ، ومن عظيم جوده أيضاً أنه جعل ملك الحسنات مسئول عن ملك السيئات ، فلا يأذن بكتابة السيئة إلا بعد عدة ساعات لعله يتوب صاحبها منها ، فإن لم يتب وكتبت عليه ثم تذكرها بعد مدة وتاب منها ، فإنه يأمر ملك السيئات فيمحوها . وإن نسي و لم يتب منها فإنها تكفر بفعل الحسنات أو بالصبر على ما قدره الله عليه من مصائب ، وذلك حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة .

وقد ذكرنا كثير من النصوص في تقرير حقيقة رحمته تعالى في التعامل مع عباده بميزان الفضل في الحساب ، فإن موجب تفرد ربوبيته عز وجل بهذا الفضل يقضي له تفرده بالألوهية، ويوجب على العباد القيام له تعالى بما يلائمها من مقتضياتها التعبدية .

وقد بينها القرآن وأكد عليها في كثير من آياته ، **ويمكن أن نشير إلى جملة من هذه المقتضيات على النحو الآتي:**

1. القيام بالأعمال الصالحة التي تستند إلى الإيمان بالله تعالى .

قال تعالى : { مَنْ عَمِل سَيِّئة فلا يُجزَى إلا مِثلهَا وَمَنْ عَمِل صَالِحًا مِنْ ذكرٍ أوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئِكَ يَدْخُلون الجَنَّة يُرْزَقون فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ } [غافر: 40]. يقرر سبحانه لعباده قاعدة الحساب ومبيناً كيف تحصل المجازاة في الآخرة ، مقدماً {عمل السيئة} لما هم عليه من السوء

285- صحيح البخاري برقم (31) وصحيح مسلم برقم (2888)

286- صحيح مسلم برقم (2687) ، ومسند أحمد (153/5) رقم (21398)

ومحذراً منه ليرجعوا عن فعله ، لأنهم محاسبون بمثله لا يزاد عليه مقدار ذرة استحقاقاً وعدلاً ، ولما بين العدل في العقاب ، بين الفضل في الثواب ، تنبيهاً على أن رحمته سبقت غضبه ، وعفوه غالب على عقابه ، وذلك لمن : { عمل صالحاً } ولما كان العمل لا يصح بدون الإيمان قال مبيناً شرطه : { وهو مؤمن } أي عمل صالحاً والحال أنه مؤمن ، وعليه فإن رحمة الله تعالى لا تجري بالعذاب أو بالرحمة جزافاً أو مصادفة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، إنما ينالها من يستحقها ولا يستحقها أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح كما قرر سبحانه ذلك في كثير من آياته ، منها قوله تعالى : { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كل شَيْءٍ فسَأكتُبُهَا لِلذِينَ يَتّقون وَيُؤْتون الزّكاة وَالذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُون } [الأعراف: 156].

فإن رحمة الله وسعت كل شيء ، ولكن اقتضت حكمته ومشيئته تعالى وعظيم فضله أن يخصها للمؤمنين العاملين العابدين ، كقوله تعالى : { وَالمُؤْمِنُون وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أوْلِيَاء بَعْضٍ يَأمُرُون بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْن عَنِ المُنْكرِ وَيُقِيمُون الصَّلاة وَيُؤْتُون الزّكاة وَيُطِيعُون اللهَ وَرَسُولهُ أولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: 71].

ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ ورحمة الله تشمل كذلك الجماعة القائمة على منهج الله في صلاحها وتعاونها وتضامنها . فلا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله . ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله ، وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم ، فهم مدفعون بدافع العقيدة الدينية التي ألفت بين قلوبهم ، وجمعتهم على التناصر والتراحم . وهم منعوتون بصفات الكمال التي يستحقون بها حسن المآل ، بقوله: { أولَئِكَ سيرحمهم الله } فإن الذين أمنوا وعملوا الصالحات فهم من يرحمهم الله وهم من : { يدخلون الجنة بغير حساب } . وذلك ليحرك الهمم بهذا إلى عمل الصالحات والإقبال على الطاعات وفعل القربات ، والإعراض عن المعاصي وترك المنكرات . فمن كان هذا حاله فهو الذي ينبغي الإقبال على خدمته لكونه الحكم العدل القادر على الجزاء والمساواة في الجزاء ، المحسن إلى عباده بمضاعفة الأجر والثواب على أعمالهم بغير تقدير وحساب .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فقد اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات ، رحمة من الله بعباده ، وتقديراً لضعفهم ، وللجواذب والموانع لهم عن طريق الخير والاستقامة ، فضاعف لهم الحسنات، وجعلها كفارة للسيئات. فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب ، رزقهم الله فيها بغير حساب [287].

2. إحسان العمل والمحافظة عليه من ضياع الأجر والثواب ، وذلك من خلال ما يلي :

أ. **إصابة العمل** وهو أن يكون موافقاً للشرع ، قال تعالى : { بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة: 112]. وقال تعالى : { وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [البقرة: 58-59].

ب. **الإخلاص** في العمل لله من غير نفاق ولا رياء ، قال تعالى : { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [البقرة: 265]. وقال تعالى : { مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: 261]. وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، وهو إحضار لصورة المضاعفة الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتنقاد النفس مذعنة للإنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، { والله يضاعف لمن يشاء } وهذه المضاعفة للصدقة يشترط فيها أن تكون لله وفي سبيله ، فقد جعل سبحانه مضاعفته للثواب متعلق بالبواعث النفسية من الإخلاص وقصد الامتثال لأمر الله ، ومحبة الخير للناس والإيثار على النفس وغير ذلك مما له علاقة بسلامة النفس في توجهاتها ، فهذا له أكبر تأثير في تضعيف الأجر وزيادته ، وهو فقه عظيم في رفع الدرجات والمنازل والمقامات غفل عنه كثير من الناس [288].

287- راجع : تفسير الألوسي 290/7 ، وتفسير البقاعي 491/3 ، 323/7 وتفسير الرازي 93/8، 338/13، وتفسير الظلال 48/4 ، 259/6

288- راجع : تفسير ابن كثير 196/1 ، وتفسير السعدي 112

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ج. اجتناب المنّ في العطاء والأذى ، قال تعالى : { قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى } [البقرة: 263-264].

3. الإكثار من الأعمال الصالحة والطاعات والنوافل والقربات لله .

ــ قال تعالى : { وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة:99].

ــ قال تعالى : { وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا }[النساء: 39 40]. الاستفهام للاستنكار للتحضيض والترغيب : أي : ما الذي يخشونه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإنفاق من رزق الله . والله عليم بهم بما أنفقوا وبما استقر في قلوبهم من بواعث ، والله لا يظلم مثقال ذرة فلا خشية من الجهل بإيمانهم وإنفاقهم . ولا خوف من الظلم في جزائهم . . بل هناك الفضل والزيادة بمضاعفة الحسنات ، والزيادة من فضل الله بلا حساب؟ .

فهي الرحمة إذن لمن يستحقون الرحمة؛ والفضل المطلق لمن كانوا يرجون الفضل ، بالإيمان والعمل ، وحتى بحساب الربح المادي والخسارة المادية ، فإن الإيمان هو الأضمن وهو الأربح . إنهم لا ينفقون من شيء إلا ويضاعف لهم الحسنة؛ ويزيدهم الله من فضله .

وهناك كثير من الآيات الواردة في بيان سعة جوده سبحانه وعظيم رحمته ، وكمال عدله وفضله وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم فلا ينقص أحدا من ثواب عمله شيئا مهما ضؤل هذا الشيء وحقر ، بل يوفيها به ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء: 47]. وقال تعالى مخبرًا عن لقمان أنه قال: { يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } [لقمان: 16]. وقال تعالى : { يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } [الزلزلة: 6-8].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فإذا أيقن السامع من أن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما فإن الحجة على المسيء أبلغ . والتبكيت له أعظم . وحسرته أشد ، وأما المحسن فعلمه بذلك كان له أنفع ، وفعله للخير أكثر ، وسروره بالعاقبة أكبر[289] .

4.المبادرة إلى الأعمال الصالحة والمسارعة إلى فعل الخيرات .

ـــ قال تعالى : { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } [آل عمران: 132-136]. فما دام أن الحال بهذا الفضل من الثواب العظيم والعطاء الجزيل على الفعل القليل فليس هناك حجة في التقصير وذريعة في النكوص بل هو أدعى إلى تسابق الهمم في بلوغ أقصى ما يمكن تحصيله من الدرجات الرفيعة والمنازل العالية مصداقاً لقوله : { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ } [الواقعة: 10-14].

5. الإستقامة على العمل الصالح ولزوم الطاعة .

ـــ قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ } [فصلت: 30-32].

إن الذيـــن جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم ، والاستقامة في الدين التي هي منتهى العمل ، أي: ثبتوا على الإقرار ومقتضياته وأراد سبحانه أن من قال : ربي الله تعالى فقد اعترف أنه عز وجل مالكه ومدبر أمره ومربيه وأنه عبد مربوب بين يدي مولاه فالثبات على مقتضاه أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا يتخطاه وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات،ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لمن طلب أمراً يعتصم به:"قل ربي الله تعالى ثم استقم "[290].

---

[289]- راجع : تفسير ابن كثير ، وتفسير الرزي 205/5،وتفسير الظلال 130/2-131، وتفسير طنطاوي 944، وتفسير سعدي 179

[290]- صحيح مسلم (38) وسنن ابن ماجة (3972)

ثم شرع تعالى في بيان للآثار الطيبة التي تترتب على هذا القول المؤيد بالثبات على طاعة الله ، فمن كان كذلك فإنه يستحق عند الله هذا الإنعام الكبير . صحبة الملائكة ، وولاءهم ، ومودتهم هذه التي تبدو فيما حكاه الله عنهم . وهم يقولون لأوليائهم المؤمنين : لا تخافوا . لا تحزنوا . أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ثم يصورون لهم الجنة التي يوعدون تصوير الصديق لصديقه ما يعلم أنه يسره علمه ورؤيته من حظه المرتقب : لكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . ويزيدونها لهم جمالا وكرامة : نزلا من غفور رحيم . فهي من عند الله أنزلكم إياها بمغفرته ورحمته . فأي نعيم بعد هذا النعيم؟ فالإيمان ولزوم العمل الصالح سبب لنيل الرحمة لهم وسُبُوغها عليهم . فمن ثبتوا على الإقرار ومقتضياته فإنهم يستحقون عظيم الأجر والثواب والإنعام الكبير من الله الواسع المغفرة والرحمة . ولهم الأمن في الحيوات الثلاث في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة[291] .

6. الطمع في ثواب الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح لا بالظنون والأماني الكواذب .

ــ قال تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف: 110].

ــ قال تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 123-125].

إن المتتبع للمنهج القرآني يجد أنه جعل الرجاء في طلب رحمة الله تعالى يقوم على أساس الإيمان والعمل الصالح ، لا بالأماني الكاذبة الخالية من العمل والتي مصدرها الشيطان والإستهواء النفسي ، فالرجاء بالمفهوم القرآني معقود بالعمل عقد الشرط بالجزاء لقوله تعالى : { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف: 110]. وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " الكيس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و العاجز من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله عز وجل "[292] .

---

[291] - راجع : تفسير ابن كثير 279/7للوسي 61/19 ، وتفسير الزمخشري 157/6، وتفسير طنطاوي 3739، وتفسير الظلال 295/6 ، أيسر التفاسير 71/4

[292]- المستدرك للحاكم (7639) تعليق الذهبي في التلخيص : صحيح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

7. فعل الخير مهما كان صغيراً ، وألا يحقرن من المعروف شيئاً .

ـــ قال تعالى : { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [التوبة: 120-121]. إن الله تعالى قد حض المؤمنين على طاعته وطاعة رسوله والاستجابة لأمره ، وذلك إن كل ما يلاقونه في طاعتهم من متاعب له ثوابه العظيم ، وأجره الجزيل ، فإن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيته وحركته وسكونه كلها حسنات وقربة له مكتوبة عند الله .

فإنه على الظمأ جزاء ، وعلى النصب جزاء ، وعلى الجوع جزاء . وعلى كل موطئ قدم جزاء . يكتب به له عمل صالح ، ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجراً . وإنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر . وعلى كل خطوة يسيرها في طاعة الله أجر . وإن الله ليجزل العطاء ويضاعف الأجر ، وما دام الأمر كذلك فعلى المسلم أن لا يستهين بالعمل إن كان صغيراً أو قليلاً ، فما دام هذا العمل لوجه الله تعالى موصولاً به ، فإن قيمته عند الله عظيمة وثوابه جزيل ، وعليه بذلك أن يجعل كل عمل في حياته عبادة ، بأن يقصد عند فعله له التقرب به إلى الله والامتثال لأمره ، لأنه بهذه النية يجعل الله كل عمل من تلك الأعمال عملاً صالحاً بفضله ، ويجعلها قربات باعتبار شرف الغاية منها وفي هذا ترغيب شديد وتشويق للنفوس في طاعة الله والاحتساب لما يجدونه من مشقة ، لما في ذلك من عظيم الثواب ورفعة الدرجات ، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير .

فمن يدرك هذه الحقيقة فعليه أن يستثمر وقته كله في طاعة الله وفي كل أحواله ، وألا يحقرن من المعروف شيئاً ، لأنه يتعامل مع رب جواد كريم ، لا يضيع عنده أجر عامل سواء كان صغيرا أو كبيرا فإنه يجازيه عليه أحسن الجزاء وأفضل الثواب . فإنه لا عذر لأحد في القعود والنكوص عن العمل ، فمن عجز عن الكثير فلا حجة له في القليل ، ومن لم يقدر على العظيم فلا يفوته اليسير ،

قال عليه الصلاة والسلام : " لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق "[293]. فلا يستصغرن المرء شيئا يقدمه بل يجود بما تيسر ولو كان قليلا[294].

8. اجتناب المعاصي والذنوب ، واتقاء محارم الله .

ــ قال تعالى : { إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا } [النساء: 31]. وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين ، وعدهم سبحانه أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات ، غفر لهم جميع الذنوب والسيئات ، حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل ذنباً، فضلا من الله ورحمة بعباده . وأدخلهم مدخلا كريما كثير الخير وهو الجنة المشتملة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فهي مكان طيب يجد من يحل فيه الكثير من كرم الله ورضاه[295].

ــ قال تعالى : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ } [النجم: 31-32].

يقرر سبحانه ربوبيته لكل شيء وهي مستلزمة لألوهيته . حيث يخبر تعالى أنه المتفرد بالملك والتصرف في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه ، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ثم ذكر شمول رحمته وعفوه لمن يفعلون الواجبات التي تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات من الذنوب العظيمة ، وأما الذنوب الصغار، التي لا يصر صاحبها عليها، ويلم بها على وجه الندرة ، فهذه ليس مخرجا للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: { إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ } تعليل لاستثناء اللمم ، وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة ، ليس لخلوه عن الذنب في ذاته ، بل لسعة رحمة الله ومغفرته . فلولا

293- صحيح مسلم (2626) ومسند أحمد (21559)

294- راجع : تفسير الألوسي 400/7، وتفسير السعدي 355، وتفسير طنطاوي 2061 ، وتفسير ابن عاشور 401/6، وتفسير الظلال 307/4

295- راجع : تفسير السعدي 176، وتفسير طنطاوي 926

مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة [296].

ـــ قال تعالى : { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الزمر: 34-35]. جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به فالذين جمعوا بين الأمرين هم المتقون ، فبين تعالى فضل التقوى والإحسان وجزائهما عند الله تعالى يوم القيامة . بأن لهم كل ما يشاءونه عند ربهم من حصولهم على ما يشتهونه جزاء ما أحسنوا فى أقوالهم وأفعالهم .

ثم بين جانبا من مظاهر تكريمه لهم ، ورحمته بهم وفضله عليهم بتكفير عنهم أسوأ الذنوب التي عملوها ، بأن يغفر لهم ذلك ولا يؤاخذهم عليه . وإذا غفر تعالى لهؤلاء المتقين أسوأ أعمالهم ، غفر لهم بفضله ورحمته ما هو دونه بالطريق الأولى . ثم يعطيهم ثواب أعمالهم في الدنيا جنات فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . حيث كفر سبحانه عنهم أسوأ أعمالهم ، وكافأهم على أعمالهم بما هو أحسن منها وهو الجنة .وهذا منتهى الفضل والإحسان من الله لعباده المتقين ، حيث عاملهم بالفضل و لم يعاملهم بالعدل [297].

9. الصبر على أمر الله وقضائه وتحمل مشاق التكاليف .

ـــ قال تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزمر: 10]. والمراد بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم ، وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله تعالى ، وقيل : نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حيث لم يتركوا دينهم لما اشتد بهم البلاء وصبروا وهاجروا ، وهو محمول على العموم شامل لجميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها ، ومراتب هذا الصبر متفاوتة وبقدرها يتفاوت الأجر والثواب .

وقوله : { بِغَيْرِ حسابٍ } كناية عن الوفرة والتعظيم لأن الشيء الكثير لا يُتصدى لعدّه ، والشيء العظيم لا يحاط بمقداره ، فإن الإحاطة بالمقدار ضرب من الحساب وذلك شأن ثواب

296- راجع : تفسير السعدي 821 ، وتفسير طنطاوي 4007 ، وتفسير ابن عاشور 189/14

297- راجع : تفسير الألوسي 473/17 ، وتفسير طنطاوي 3657 ، وتفسير السعدي 724

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآخرة الذي لا يخطر على قلب بشر . والمبالغة في كثرة الأجر لما فيه من مزيد الاعتناء بفضيلة الصبر ومحله عند اللّه، وأنه معين على كل الأمور ، والثواب هنا له صفات ثلاثة :

أحدها : أنها تكون دائمة الأجر بغير نهاية ،

وثانيها : أنها تكون منافع كاملة وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه ،

وثالثها : أن ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ينصب الله الموازين يوم القيامة ، فيؤتى أهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ، ويصب عليهم الأجر صباً » قال الله تعالى : { إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل "[298].

فعلى المسلم الصبر على المشقة في القيام بواجبات الدين وامتثال المأمورات واجتناب المنهيات وقد ذُيّل الأمر به بتعظيم أجر الصابرين ليكون إعلاماً للمخاطبين بأن أجرهم على ذلك عظيم لأنهم حينئذٍ من الصابرين الذين لا يدخل تحت حساب الحاسبين ، ترغيباً في ثوابه وتعويضاً عن عذاباته[299]. قال تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ } [القصص: 80].

إن قصة إبراهيم عليه السلام ساهمت في تقرير المنهج القرآني وكان لها دور في تجلية حقيقته ، ومن ذلك ما ورد فيها من الاستدلال برحمة الله تعالى في حسابه وجزائه على ما يلازمها من حق العبودية لله تعالى ، فما دام أن الله تعالى يتعامل مع عباده في حسابه بالفضل ، فيضاعف الحسنة إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بمثلها ويمحوها ، فوجب عليهم أن يقابلوا هذه الرحمة الإلهية بما يناسبها من مقتضيات العبادة من وجوب الإقلاع عن المعاصي ، والمبادرة إلى الطاعات وفعل الخيرات ، والإكثار من النوافل والقربات ، والطمع في عظيم ثوابه بالإيمان والإخلاص والعمل الصالح لا بالتمني والعجز والكسل ، وسوف نستعرض الآيات الواردة في تقرير ذلك ، على النحو الآتي :

298- سنن الترمذي (2402) المعجم الكبير للطبراني (12829) قال الشيخ الألباني : (حسن) انظر حديث رقم : (8177) في صحيح الجامع

299- راجع : تفسير الرازي 237/13 ،وتفسير الزمخشري 50/6 ، وتفسير الألوسي 436/17، وتفسير اللباب 410/13، وتفسير ابن عاشور 299/12، وتفسير السعدي 720

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الشاهد الأول :

قال تعالى : { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160) قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الانعام: 161].

بمناسبة الحديث عن الجزاء بين سبحانه لطفه في حكمه ، وفضله على عباده ، فقرر ما كتبه على نفسه من الرحمة في حسابه لعباده . فجعل مَن عمل صالحاً يضاعف له ثوابه إلى عشرة أمثاله فضلا وكرماً ، ومَن عمل عملا سيئاً لا يعاقب إلا بمقدار عصيانه ، عدلا منه تعالى واستحقاقاً ، وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة "[300].

وهذه الرحمة في الحساب على أساس المسامحة لا المشاحة حتى لا يهلك على الله إلا هالك ، كما روى أبو ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى قال الحسنة عشر أو أزيد والسيئة واحدة أو عفو فالويل لمن غلب آحاده أعشاره » [301].

وأنه تعالى لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: { وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ } . أي لا ينقص من ثواب طاعتهم ، ولا يزاد على عقاب سيئاتهم .

وبعد أن بين تعالى رحمته على عباده في تعامله معهم بميزان الحساب والجزاء على أساس الرحمة والفضل ، أعقب ذلك ببيان مصدر هذه الرحمة والسماحة وهو دين إبراهيم عليه السلام ، فمن مزيد فضله ورحمته تعالى أنه منّ على نبيه صلى الله عليه وسلم بالهداية إلى الحنيفية السمحة دين إبراهيم ، حيث أمره أن يخبر بنعمة الله عليه من الهداية إلى دينه ، ثم شرع في وصفه ومدحه بما فيه من اليسر والمحاسن تحبيباً فيه وحثاً عليه بقوله : { ديناً قيماً } أي الذي بلغ نهاية الكمال في الاعتدال والاستقامة ، وهو الدين القيم المتفق مع ملة إبراهيم والموصُوف بالحنيفيَّة السمحة ، كقوله

300- مسند أبي يعلى (170/6) وقال الهيثمي في المجمع (145/10): "رجاله رجال الصحيح

301- تفسير الطبري (231/15). والرازي (26/7)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عليه الصلاة والسلام : " أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ "[302]. وقوله أيضاً : "لتعلم يهودُ أن في ديننا فُسْحَةً، إني أرسلت بحَنيفيَّة سَمْحَة "[303].

ودين إبراهيم الذي هدى الله إليه نبيه عليه الصلاة والسلام ، هو دين يقوم على التوحيد الخالص وليس فيه شرك أو وثنية . لا كما يزعم المشركون وأهل الكتاب أن إبراهيم كان على دينهم . لذلك رد سبحانه على المُشْركين بوصف إبراهيم بقوله : {وما كان من المُشْركين} .

إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مائلا عن العقائد الباطلة إلى دين الحق فما كان يعبد مع الله آلهة أخرى في شأن من شئونه . فمن رحمة الله تعالى ولطفه أنه هدى المسلمين إلى هذا الدين الحنيف الذي يقوم على السماحة واليسر ورفع الحرج ، وهو الدين الذي اتبعه إبراهيم عليه السلام . كما في قوله : { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ } [الحج: 78].

وعليه فإن هذا الإعلان يوجب لله تعالى جملة من مقتضيات العبادة الملائمة والمناسبة لها . وهو الثقة بصلة الربوبية الراعية الهادية الموجهة من وجوب شكر الله على الهداية إلى الصراط المستقيم ، والاستجابة لأمره تعالى بإتباع دين الله القديم منذ إبراهيم . أبي هذه الأمة المسلمة [304]. كما في قوله تعالى : { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل:123]. وقوله : { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [البقرة: 130].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى } [النجم: 41].

302- البخاري في صحيحه : بَاب الدِّينُ يُسْرٌ 23/1 ، ومسند أحمد (236/1) رقم (2107)

303- مسند أحمد (116/6)

304- راجع : تفسير الرازي 28/7 ، وتفسير ابن كثير 380/3، وتفسير اللباب 253/7 ، وتفسير البقاعي 170/3، وتفسير الظلال 182/3، وتفسير طنطاوي 1579، وتفسير المنتخب 237/1

لقد قرر سبحانه حقيقة رحمته ولطفه بعباده في جميع كتبه ورسالاته على لسان رسله وأنبيائه ، ليعلموا أن لهم رباً رحيماً وكريماً ، يعفو عن الكثير ويعطي الجزيل ، يتجاوز عن السيئات ويضاعف في الحسنات ، ويتعامل مع عباده بالإحسان والفضل ، فمن أحسن أحسن إليه بكل خير ، لقوله : { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } [الرحمن: 60]. ومن وفّى وفّاه أجره وزيادة ، لقوله : { وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [الفتح: 10]. وهذه سنة الله الجارية بين عباده جميعاً لا تتخلف فضلاً منه وتكرماً .

وقد بيّن سبحانه مصداق ذلك في نموذج واقعي جرى مع خليله إبراهيم عليه السلام ، الذي وفّى بما أمره تعالى ، في قوله : { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } . فوفّاه الله أجره في الدنيا والآخرة ، في قوله : { ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى } ، إشارة إلى أن إبراهيم عليه السلام وفّى بالأمر فوفّاه الله بالأجر : كما في قوله : { وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } [البقرة: 40]. أي : أن إبراهيم عليه السلام وفّى بما جاء في الصحف من أوامر وتكاليف وأتمها على أحسن وجه ، فقام بجميع ما ابتلاه الله به، وما أمره من الشرائع وأصول الدين وفروعه ويشهد له قوله تعالى: { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } [البقرة: 124].

وقد أدى عليه السلام أمانة التبليغ لرسالة ربه كما أمره على التمام والكمال ، ويدل على ذلك قوله : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } فالإضراب والاستفهام للتعجب والإنكار على جهل ذلك الكافر المجادل بما عليه أن يعلمه ، والمراد نفي جهله بما هو معلوم ومأثور عند العرب وأهل الكتاب عن شريعة إبراهيم ، فإن مآثر شريعته تتابعت على ألسنة الرسل الأولين .

فإن كان هذا الجاهل لا يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فهلاّ تطلب ما أخبرت به الرسل من قبلُ ، طالما ذكَر هو وقومه أسماءهم وشرائعهم في الجملة ، وطالما سأل هو وقومه أهل الكتاب عن أخبار موسى ، فهلاّ سأل عمّا جاء عنهم في هذا الغرض الذي يسعى إليه وهو طلب النجاة من عذاب الله فينبئه العالمون بما هو مذكور في صحف موسى وإبراهيم من أمور الحساب والجزاء ، ففي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله : { أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى } أي : كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، كما قال : " وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى " [فاطر: 18] ، { وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلا مَا سَعَى } أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى :

فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل . إلا ما نص عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به "[305].

فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه ومن آثار عمله ، قال تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ } [يس: 12]. واستشكل بأنه ورد في الكتاب والسنة حصول الانتفاع بعمل الغير وهو ينافي ظاهر الآية ، قال بعض الصالحين في معنى هذه الآية : ليس له بالعدل إلا ما سعى ، وله بالفضل أن يجزيه ما شاء الله ، وبالتحقيق فإن الله تعالى يتعامل مع السيئة وصاحبها بميزان العدل ، فلا يزيد ولا يعاقب غير فاعلها ، وأما الحسنة وصاحبها فإنه يتعامل على أساس الفضل فيضاعفها إلى أضعاف كثيرة ، وقد يعم خيرها غير فاعلها ، كحديث : " هم القوم لا يشقى بهم جليسهم "[306]. وكقوله تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ } [الطور: 21]. فقد أعطى الله الأبناء درجة الأباء بفضله ، ولم يحمل الآباء شيئاً من أخطاء ذرياتهم بعدله ، لأن كل إنسان مرهون بعمله . وهذا الميزان في السيئات لا في الحسنات كما دلت عليه الآية . وهذا ما يتوافق مع عموم النصوص ودلالتها . وأما المراد بالسعي في قوله : { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى }.

وهو أن هذا العمل سوف يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فيراه مسجلا في صحيفته وفى ميزانه . كما قال تعالى : { وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون } [التوبة: 105]. فيُرى العبد يوم القيامة سعيه ويطلع عليه وفي هذا تشريف للمحسن وتوبيخ للمسيء .

وقوله : { ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى } أي : يجازيه الله تعالى على عمله الجزاء الأوفر والأكمل ، والتام الذي لا نقص فيه ولا بخس .

بل جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه، فيجازي المسيء من جنس عمله من غير زيادة عدلاً، ويجازي المحسن من جنس عمله وزيادة فضلاً.

وهذه قصة إبراهيم دليل قوي وشاهد حي على إحسان الله وكرمه وفضله ، فعندما وفّى عليه السلام بعهد الله وقام بأمره ، وفاه الله تعالى أجره في الدنيا والآخرة ، فاستحق بهذا أن يُقتدى به في

---

[305]- صحيح مسلم برقم (1631)

[306]- صحيح البخاري (6045) ومسلم (2689)

جميع أحواله وأفعاله وأقواله : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ } [الممتحنة: 5]. واستحق أن يكون للناس إماما متبعاً في سنته ودينه : { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 123]. واستحق الذرية الطيبة الصالحة : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ } [الانبياء: 72]. واستحق وراثة النبوة في ذريته : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [الأنعام: 84]. واستحق السمعة الحسنة والذكر الجميل : { وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } [مريم: 50]. فجمع الله له بذلك الوفاء خيري الدنيا والآخرة : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [العنكبوت: 27]. ولهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الإنسان وتصوره فحين يعلم الإنسان فضل الله العظيم وثوابه الجزيل على العمل القليل ، فإنه يسارع إلى ترك السيئات ، وفعل الحسنات ، والمواضبة على ذلك ، كما يتعلق قلبه بالله طمعا في ثوابه ورجاء فضله تعالى[307]. قال سبحانه : { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 90].

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل : 120-123].

وقال تعالى : { وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [العنكبوت: 27].

[307]- راجع : تفسير ابن كثير 465/7، وتفسير الألوسي20/20، وتفسير السعدي 821 ، وتفسير طنطاوي 4013 ، وتفسير ابن عاشور 196/14، وتفسير الظلال64/7 ، وتفسير الشنقيطي51/8 ، أيسر التفاسير 166/4 ، المنتخب 419/2

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد مدح الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام بجملة من الصفات الفاضلة . والمناقب الحميدة . الجامعة لمجامع الخير ، فوصفه بأنه الإمام الذي يقتدى به . والخاشع المطيع لله . والمائل عن الشرك إلى التوحيد ، والشاكر لنعم ربه عليه ، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة المعبرة عن مقام العبودية الحقة ، أن الله قد جزاه في الدنيا والآخرة أحسن الجزاء ، فقد اختاره واصطفاه للنبوة واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه ، وخيار عباده المقربين . وهذا الاجتباء وما بعده هو علة لما تقدم من ذكر صفات إبراهيم ، لأن الثّناء المتقدّم يثير سؤال سائل عن سبب فوز إبراهيم بهذه المحامد ، فيجاب بأن الله اجتباه لهذه الصفات الفاضلة ، كقوله تعالى : { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [سورة الأنعام: 124] . لذلك اختاره لحمل رسالته ، ووفقه لسلوك طريق الحق المستقيم الموصل للنعيم الدائم . وآثره على غيره بالبيان الأعظم والتوفيق الأكمل ، فكان ممن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . فقد جمع الله لخليله خيري الدنيا والآخرة ، كما في قوله تعالى : { رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [البقرة: 201]. فقوله : { وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } أي : وجمعنا له خير الدنيا من كل ما فيه راحة العيش من اطمئنان القلب ليحيا حياة طيبة ، كهدايته إلى الدين الحق ، ومنحه نعمة النبوة ، وإعطائه الذرية الصالحة ، والسيرة الحسنة ، والصحة ، والسلامة ، وطول العمر ، وسعة الرزق .

وقد أشار القرآن الكريم إلى جانب من هذه النعم ، كما في قوله تعالى : { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ } [الشعراء: 84]. وهو حسن الذكر بين الناس ، فإن الله حببه إلى كل الخلق فكل أهل الأديان يقرون به ويثنون عليه الثناء الجميل ، أما كفار قريش وسائر العرب فلا فخر لهم إلا به. وأما اليهود والنصارى والمسلمون فظاهر حتى إن المسلمين يثنون عليه في كل صلواتهم في الصلاة الإبراهيمية ، فذلل الله له ألسنة الخلق ، وجعله إماماً معظماً لجميع أهل الملل ، وجمع القلوب على محبته . ومن هذه النعم أيضاً ، قوله تعالى : { فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا } [مريم: 49-50]. وقال : { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } [العنكبوت: 27]. فأن الله أعطاه بسبب إخلاصه لله ، واعتزاله أهل الشرك : الذرية الطيبة رحمة من الله تعالى ، كما في قوله : { وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا } وقد جاء تعليل ذلك في معرض استنكار الملائكة من تعجب إبراهيم وزوجته حينما بشروهما بالولد ، في قوله تعالى : { قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ

حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود: 73]. وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها معللة ذلك برحمة الله وبركاته عليهم . أي : " إياكِ والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم " .

فكان فعله العظيم يستوجب منها أن تمجده بالحمد والتسبيح على عظيم إحسانه وكثرة جوده مكان التعجب . وهي إنما تعجبت بحسب العرف والعادة لا بحسب القدرة . ويظهر ذلك أيضاً في رد الملائكة على إبراهيم ، في قوله تعالى : { إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر: 56]. ومرادهم : أن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شئ ، وأنتم أهل البيت قد خصكم الله برحمته ، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم ، لذلك لا تستبعد فضله عليكم ، بل لا تزال راجيا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه ، فأجابهم إبراهيم بقوله: { وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلا الضَّالُّونَ } أي : لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ، ولكن استعظام نعمته تعالى علي المبني على سنة الله تعالى المعتادة فيما بين عباده لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته تعالى . ومراده عليه السلام نفي القنوط عن نفسه بأبلغ وجه أي ليس بي قنوط من رحمته تعالى وإنما منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة علي ، وفي التعرض لعنوان الربوبية والرحمة . وهذا تواضعاً منه عليه السلام وبعداً عن المنّة .

وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن مع فضل الله تعالى ونعمته عليه ، وهو أن يستكثره ويشكره ، ولا يظن أنه ناله باستحقاق وجدارة ، كقول ذلك الظالم لنفسه : { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا } [الكهف: 35-36]. أو كقول قارون : { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص: 78]. ولما كانت نعمة الدنيا لا تعتبر إلا مقرونة بنعمة الآخرة ، قال تعالى :{ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين } والصلاح : تمام الاستقامة في دين الحقّ . لذلك عبر بـــ « من » تعظيماً لمقام الصلاح وترغيباً فيه . واختير هذا الوصف إشارة إلى أن الله أكرمه بإجابة دعوته ، حسبما سأل بقوله : { ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين } [سورة الشعراء: 83]. أي : وإنه في الدار الآخرة لمندرج في عباد الله الصالحين ، الذين لهم المنازل العالية والقرب العظيم من الله تعالى . والذين كانت لهم جنات الفردوس نزلا . وقيل : أراد بهم الأنبياء عليهم السلام . أي : داخل في عدادهم كائن معهم في الدرجات العلى من الجنة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولما قرر سبحانه من عظمة إبراهيم وصفاته الفاضلة التي استحق بها تلك النعم الجليلة التي منحها الله إياها ، وهذه الصفات الأبراهيمية وما تبعها من منح ربانية هي بجملتها داعٍ قوي إلى إتباعه ، فصرح بالأمر بإتباعه تنبيهاً على زيادة عظمته بأمر متباعد في الرتبة على سائر النعوت التي أثنى عليه بها ، وذلك كونه صار مقتدي لأفضل ولد آدم ، مشيراً إلى ذلك بحرف التراخي { ثم } الدال على علو رتبته بعلو رتبة من أمر بإتباعه فيما مهده مما أمر به من التوحيد والطريق الواضح السهل ، فقال سبحانه : { ثم أوحينا } وأضاف الإيحاء له عز وجل ترغيباً في تلقي هذا الوحي أحسن التلقي باقتفاء ملة إبراهيم عليه السلام وإتباعه بغاية الجهد ونهاية الهمة .

وهكذا جمع الله تعالى بفضله وإحسانه ، لنبيه إبراهيم ، خيرى الدنيا والآخرة ، جزاء إيمانه العميق ، وعمله الصالح ، ووفائه في تبليغ رسالة ربه .

كما جاء أيضاً في قوله تعالى : { وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [العنكبوت: 26-27].

فبين سبحانه بعض النعم التي أنعم بها على نبيه إبراهيم ، بعد أن هاجر من العراق إلى بلاد الشام لتبليغ رسالة ربه إلى الناس ، والمراد آتيناه أجره بمقابلة هجرته إلينا ، فوهب الله له بذلك الذرية الصالحة ، وجعل بفضله ورحمته في ذريته النبوة والكتب السماوية ، وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذرِّيَّته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون .

فجمع اللّه له بين سعادة الدنيا والآخرة ، فكان له في الدنيا : الرزق الواسع ، والزوجة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، والذرية الصالِحة الوفيرة العدد الذين بهم قرت عينه ، وجعله الله قائماً بطاعة ربه وعبادته ، وجعله الله في الآخرة من ذوي الدرجات العالية . إن هذا الثواب العظيم الذي أعطاه الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة ، إنما هو جزاء قيامه لله تعالى بالعبودية الخالصة الحقة ، وصبره على تكاليف الدعوة ومشاقها ، فقد كانت حياته كلها عنوان العبودية الصادقة ، التي استحق بها الإمامة والأسوة عند الناس ، والدرجات العالية الرفيعة عند ربه عز وجل .

فالعاقل هو الذي يتأسى بخليل الرحمن في إيمانه بالله واستقامته على منهجه ، والدعوة لدينه وصبره على ذلك ، قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة: 218]. وقال تعال { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ } [فاطر: 28-30].

وقد ذكر سبحانه سبب دخول الطغاة والمفسدين للنار هو : { إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا } [النبأ: 27]. فهو تعليل لاستحقاقهم الجزاء ، فقد كانوا ينكرون الحساب فلا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، فلذلك أهملوا العمل ، فكانوا يقدمون على جميع المنكرات ولا يرغبون في شيء من الطاعات .

وهذا يبين أهمية الاعتقاد بحساب الله تعالى لعباده وأثره على سلوك الإنسان واستقامته في الحياة ، فإن المقتضى الإيماني لعقيدة الحساب والجزاء توجب فعل الصالحات وترك المنكرات [308].

* الشاهد الرابع :

قال تعالى : { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ } [الصافات: 103-113].

يطلعنا القرآن على الموقف العظيم الفريد في حياة إبراهيم . بل في حياة البشر أجمعين . ويطلع هذه الأمة المسلمة على المثل الموحي من حياة أبيها إبراهيم وهو شيخ كبير مقطوع من الأهل

308- راجع : تفسير ابن كثير 610/4 ، وتفسير الرازي 442/8 ، 484/9 ، وتفسير الألوسي10/ 28، 334 ، 264/15 ، وتفسيرالشنقيطي 91/3، وتفسير المنتخب 368/1، 464 ، وتفسير طنطاوي 2234، 2476 ، 2580-2581، 3307 ، وتفسير السعدي 433 ، 451 ، وتفسير ابن عاشور 154/8 ، 486/10، وتفسير البقاعي 12/5، وتفسير حومد 3249، وتفسير الميسر 7/ 149

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والقرابة . مهاجر من الأرض والوطن . يرزق في كبرته وهرمه بغلام . طالما تطلع إليه . فلما بلغ معه السعي وما كاد يأنس بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى في منامه أنه يذبحه . ولعل السر فى كونه مناما لا يقظة ، أن تكون المبادرة إلى الامتثال ، أدل على كمال الانقياد والإخلاص . فهو يدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية وليست وحياً صريحاً ، ولا أمراً مباشراً . ولكنها إشارة من ربه . وهذا يكفي ليلبي ويستجيب، ولكنه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب . كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك في كلماته لابنه { قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك . فانظر ماذا ترى } .

فهو إنما يعرض الأمر عليه حتى يأخذ الأمر طاعة وإسلاماً ، لا قهراً واضطراراً . لينال هو الآخر أجر الطاعة ، ويتذوق حلاوة التسليم! فما كان من أمر الغلام ، إلا أن يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه : { قَالَ ياأبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصابرين } وهو رد يدل على علو كعبه فى الثبات ، وفى احتمال البلاء ، وفى الاستسلام لقضاء الله وقدره . وفيه من سمو الأدب ، حيث قدم مشيئة الله ونسب الفضل إليه واستعان به سبحانه في أن يجعله من الصابرين على البلاء .

وهكذا هم الأنبياء في جميع مراحل حياتهم يلهمهم الله ما يجعلهم في أعلى درجات السمو النفسي ، واليقين القلبي . والكمال الخلقي . فإنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب ولكن في رضى ويقين : { فلما أسلما وتله للجبين } أي أسلما لأمر الله فاستسلام إبراهيم بالتهيُّؤ لذبح ابنه ، واستسلام الغلام بطاعة أبيه فيما بلغه عن ربه .

فهذا هو الإسلام في حقيقته .طاعة وتسليم وتنفيذ عن رضى وطمأنينة . وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد حققا الأمر والتكليف بعدما أسلما روحهما وعزمهما ومشاعرهما لكل ما أراده منهما ربهما ، وقاما بمباشرة مقدمات الذبح . ولم يكن باقياً إلا التنفيذ . وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما . فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا : { وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم } . قد صدقت الرؤيا : أي كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما لله ، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والتوفيق لما لم يوفق غيرهما لمثله ، وإظهار فضلهما مع ما اكتسبا في تضاعيفه من الثواب العظيم ، ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب .

فالله لا يريد أن يعذب عباده بالألم البدني والابتلاء ، بل يريد منهم الإسلام والتقوى والإحسان ، قال تعالى :{ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ } [الحج: 37]. إنه يريد أن لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد . ولو كانت هي النفس والحياة .

وهذا إبراهيم قد جاد بكل شيء . وبأعز شيء . وجاد به في رضى وفي طمأنينة وفي يقين . فلم يبق إلا اللحم والدم . وهذا ينوب عنه ذبح . أي ذبح من دم ولحم! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت . يفديها بكبش عظيم ليذبحه إبراهيم بدلاً من إسماعيل! . رحمة بهما . وإكراماً لهما ، وإعلاء لقدرهما .

إن هذا الحدث العظيم الذي يجسد حقيقة الإيمان . وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم ، الذي تتّبع ملته ، والذي ترث نسبه وعقيدته . ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم على الاستسلام الكامل لقدر الله في طاعة مطلقة ، وتلبي الأمر راضية خاضعة لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتردد في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه . دون أن تحاكمه للعقل أو تجعل له معه رأياً أو قياساً ، ودون أن تختار عليه عرفاً ولا تقليداً أو تقدم عليه هيئة ولا طريقة إلا كما يطلب هو إليها أن تختار أو تقدم!

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء؛ ولا أن يؤذيها بالبلاء ، إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية . مستسلمة لا تقدم بين يديه ، ولا تتألى عليه ، قال تعالى : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } [النساء: 147]. فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام . واحتسبها لها وفاء وأداء . وقبل منها وفدّاها . وأكرمها كما أكرم أباها . بقوله : { إنا كذلك نجزي المحسنين } . نجزيهم باختبارهم لمثل هذا البلاء . ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء . ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء . ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء!

فقوله : { إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى المحسنين } هو تعليل لما قبلها من إفراج تلك الشدة . أي : فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل ، لأن سنتنا قد اقتضت أن نجازى المحسنين الجزاء الذي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم . وهو مما يقتضيه رجائهم في وعْد الصادق من جزاءِ القادر العظيم ، في قوله تعالى : { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } [الرحمن: 60] . فهذا وعد بمراتب عظيمة من الفضل الرباني في مقابلة فعل الإحسان بثواب الإحسان .

فصار المعنى : إن ذلك الإحسان العظيم ، الذي أحسنته بتصديقك الرؤيا وبذل أعزّ الأشياء عليك وهو ابنك طاعة لربّك وقد كان إحسان ابنك كذلك عظيماً ببذل نفسه استجابة لأمر ربه ، فإننا نجزيكما جزاءً حسناً وعظيماً وذلك مكافأة على مقدار الإحسان وفق سنتنا المعهودة في المحسنين وأنتما مثلهم ومن أمثلهم .فحقق الله تعالى وعده فيهما كما حققه في جميع المحسنين ، فبذل إليهما سبحانه وتعالى جزاء إحسانهما من أحسن الخيرات والنعم التي تفضل وتكرم بها عليهما .

- **وقد ذكر سبحانه من مظاهر فضله وإحسانه وتكريمه لنبيه إبراهيم عليه السلام جملة من هذه المظاهر :**

ــ **قوله : { وتركنا عليه في الآخرين }** . فقد أبقى تعالى ذكره الحسن في الأمم التي ستأتي من بعده ، فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون . وهو أمة . وهو أبو الأنبياء . وهو أبو هذه الأمة المسلمة . وهي وارثة ملته . وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم . فجعلها الله له عقباً ونسباً إلى يوم الدين .

ــ **قوله : { سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ }** . فقد جعل الله تعالى التحية والسلام منه ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين ، كقوله : { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى } [النمل: 59]. سلام يسجل في كتابه الباقي . ويلهج به المؤمنون في صلاتهم بالثناء بتعاقب الأجيال والقرون

ــ **قوله : { كذلك نجزي المحسنين }** . ولِما يتضمنه لفظ الجزاء من معنى المكافأة ومماثلة المجزي عليه عُظم شأن الجزاء بتشبيهه بمشبه مشار إليه بإشارة البعيد المفيد بُعداً اعتبارياً وهو الرفعة وعُظم القدر في الشرف ، فاسم الإشارة يدل على عظمة الجزاء ، وأكّده بنسبة هذا الجزاء إليه تعالى لدفع توهم المبالغة ، أي هو فوق ما تعْهده في العظمة وما تُقدره العقول ، لأنه صادر من العظيم ، وفهم من ذكر المحسنين أن الجزاء إحسان بمثل الإحسان ، والمعنى أن إبراهيم وولده كانا محسنين في هذه الطاعة ، فكما جزينا هذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين . فنجزيهم على البلاء والوفاء ، ذكراً وسلاماً وتكريماً .

ـــ قوله : { إنه من عبادنا المؤمنين } . وهذه العبودية المضافة لله مقام عظيم وهي ثمرة الإيمان وحقيقته ، الذي كشف عنه البلاء المبيّن ، والذي حقق به مقام العبودية الصادقة في أعلى مراتبها تعبيراً واقعياً لإيمانه . وقد كان إبراهيم عليه اسلام في ذلك خير مثال يشبه به حال المحسنين من الفعل والجزاء .

ـــ قوله :{ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق } . ثم بين سبحانه مظهرا آخر من مظاهر فضله ونعمته على نبيه إبراهيم فيهب له إسحاق في شيخوخته . ويباركه ويبارك إسحاق . وفي تفسير هذه البركة وجهان:

الأول : أنه تعالى أخرج عدداً كبيراً من الأنبياء من نسلهما ، فكان جميع أنبياء بني إسرائيل من صلب إسحاق .

والثاني : أنه أبقى الثناء الحسن على إبراهيم وإسحاق إلى يوم القيامة ، لأن البركة عبارة عن الدوام والثبات .

ولما ذكر ما أعطاهما نقل الكلام إلى ذريتهما فقال : { ومن ذُريتهما مُحسنٌ وظالِمٌ لنفسهِ } للإشارة إلى أن ذريتهما ليس جميعها كحالهما بل هم مختلفون؛ فدخل تحت قوله : { مُحْسنٌ } الأنبياء والمؤمنين وتحت قوله : { ظَالِمٌ } الكافر والفاسق ، ونظيره قوله تعالى : { قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة: 124]. وفي ذلك تنبيه على أنه لا يلزم من كثرة فضائل الأب فضيلة الابن ، لئلا تصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود ، وأن مناط الفضل لا يجري على العِرق والعنصر وإنما هو خصال الذات وما اكتسب المرء من الصالحات ، وأما كرامة الآباء فتكملة للكمال وباعث على الاتّسام بفضائل الخِلال ، فكان في هذه التكملة إبطال غرور المشركين بأنهم من ذرية إبراهيم ، وأنهم الأوْلى بالمسجد الحرام . وإنّها مزية ، لكن لا يعادلها الدخول في الإسلام . قال أبو طالب في خطبة خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم "الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعلنا رحال حرمه وسَدنة بيته"[309]. فكان ذلك قبل الإسلام وقال الله تعالى لهم بعد الإسلام : { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ } [التوبة: 19]. وقال تعالى : { وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ } [الأنفال: 34]. وقال : { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 68].

309–تاريخ ابن خلدون 407/2، التحرير والتنوير لابن عاشور 151/12

وفي هذا دلالة على أن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب إنما هي وراثة الملة والمنهج : فمن اتبع فهو محسن . ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد .

وقد ضرب الله هذه القصة مثلاً لحال النبي صلى الله عليه وسلم في ثباته على إبطال الشرك وفيما لقي من المشركين وإيماءً إلى أنه يهاجر من أرض الشرك وأن الله يهديه في هجرته ويهب له أمّة عظيمة كما وهب إبراهيم أتباعاً ، فقال : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } [النحل: 120].

فإن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في هذا الموقف قد ضربا أروع الأمثال في صدق الإيمان ، وفى الاستسلام لأمر الله تعالى وفى الرضاء بقضائه . فكافأهما عز وجل على ذلك مكافأة جزيلة ، وثواباً عظيماً .

وبناء على ما تقدم فإن قوله تعالى : { إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } قاعدة إيمانية ثابتة مطردة لا تتخلف ، وهي سنة من سنن الله تعالى في تعامله مع عباده على أساس الرحمة والفضل والإحسان في الحساب والجزاء لمن أمن وعمل صالحاً وهو يرجو بذلك ثواب الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وهذه قصة إبراهيم من الشواهد والقواطع في تقرير هذه الحقيقة وتصويرها مثالاً حياً ، يوقظ الفكر والشعور ، ويحرك الهمم نحو أفضل الأعمال وأحسنها ، قال تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } [الأنعام: 82-84]. وقال تعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127].

إن هذه الرحمة الواسعة في الحساب والجزاء وتعامله سبحانه مع عباده بالفضل والإحسان ، فمن عمل حسناً ، فإنه يحسن إليه بالثواب والعطاء ، ويضاعف له في الأجر ، يقتضي من العباد اغتنام هذه المنحة الإلهية ، بإن يبادر بالإقلاع عن المعاصي ، ويسارع إلى فعل الخيرات ، والإكثار من الطاعات ، وأن يرجو ثواب الله بالإيمان والعمل الصالح لا بالتمني والعجز[310] .

[310]- راجع : تفسير الرازي 138/13-142، وتفسير الزمخشري ، وتفسير الألوسي 202/17-203 ، وتفسير ابن عاشور 142/12-151، وتفسير المنتخب 284/2 ، وأيسر التفاسير 381/3 ، وتفسير طنطاوي 3583 ، وتفسير السعدي 705- ص 707 ، وتفسير الظلال 188/6

قال تعالى : { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194)فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ } [آل عمران: 193-195]. وقال تعالى : { الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا } [الكهف: 46] .

– الفصل الخامس –

استدلال إبراهيم عليه السلام بعدالة الله تعالى المطلقة على ألوهيته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* تمهيد :

إن الله تعالى عدل قائم بالقسط لا يظلم مثقال ذرة ، فهو سبحانه عدل في كل ما يأمر وينهى ، عدل في كل ما يقضي ويقدر ، عدل في كل ما يجازي ويفصل ، فهو مع غاية عدله وتنزهه عن الظلم ، فهو أرحم الراحمين ، كما أنه أحكم الحاكمين ، فهو لا يضع الأشياء إلا في أليق المواضع لها [311].

وإن شواهد عدله تعالى متظافرة من قواطع العقل وتواتر النقل ، وحتى يعلم الناس أن لهذا الخلق ربا عادلاً أوجده بقدرته ومشيئته واختياره وأنه يختار فيه الأحسن والأفضل والأليق ، فإن الله تعالى علاوة على أنه يحادثهم بما يرون من الآيات الكونية المحكمة التي يقع عليها حسهم .

فقد خاطبهم تعالى على لسان رسله وفي كتبه ليقرر لهم حقيقة عدله، فكانت شواهد العقل والنقل تدلان دلالة قاطعة على تلك الحقيقة المطلقة ، فدلائل عدله تعالى ظاهره في كل شيء في هذا الوجود، شاهدة له بالعدل والقسط، فقد أقام سبحانه نظام الوجود وأجرى فيه سننه بميزان العدل .

فبهذا الميزان قامت السماوات والأرض وبه قام نظام الحياة ، قال تعالى : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } [النساء: 73]. وقال تعالى : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر: 49]. وقال تعالى : { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } [الرحمن: 7].

والإشارة القرآنية إلى مجال هذا الكون وإلى نظامه المحكم وفق ميزان دقيق مقدر يقصد بذلك تنبيه القلب الغافل ، وإنقاذه من بلادة الألفة ، وإيقاظه لعظمة هذا الكون وتناسقه وجماله ، وإلى قدرة اليد التي أبدعته وجلالها . قال تعالى : { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس: 38-40].

فإنه سبحانه حين يوجه النظر إلى هذا الفضاء الهائل الذي تسبح فيه الملايين من الأجرام الضخمة ، وتجري في الكون بسرعات مخيفة ، ولكنها في هذا الفضاء الهائل ذرات سابحة متباعدة ، لا تلتقي ، ولا تتصادم! إنما يقصد إبراز هذه الحقيقة ، حقيقة قدرته المطلقة ومشيئته النافذة وعدالته التامة . فهو سبحانه حينما يبين عظمته ، يبين إلى جوار هذه العظمة عدله التام ، ففي رفع هذه السماء

---

[311]- راجع : ابن تيمية ، في معنى كون الرب عادلاً 121-125 ، وابن القيم ، بدائع الفوائد 364/2

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الهائلة الوسيعة وضع الميزان {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } . وضعه ثابتاً راسخاً مستقراً . كي لا يختل تقويمها ، ولا يضطرب وزنها ، فهذا الميزان الدقيق الثابت يتجلى في خلق الكون كله ، قال تعالى : { وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ } [الحجر:19]. فلا مكان للفوضى والعبثية والعشوائية في نظام هذا الوجود ، فهو نظام محكم مقدر بحساب دقيق قال تعالى: { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ } [الرحمن: 5]. حيث تتجلى دقة التقدير ، في تنسيق التكوين والحركة ، بما يملأ القلب روعة ودهشة ، ففي هذا الفضاء الشاسع لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة ، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة .

وقد صاحب هذه الإشارة الكونية الدالة على عدله تعالى من خلال الحساب والتقدير في بناء الكون الكبير ، إشارة كونية أخرى دالة على صلة هذا الكون وارتباطه بخالقه ، وهي صلة العبودية الخالصة لربها في أعلى مراتب الخضوع . في قوله : { وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ } [الرحمن: 6]. وهي إشارة إلى إن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله ، ليبين سبحانه ذلك الارتباط الوثيق بين عدله تعالى واستحقاقه للعبودية ، لأن موجب تفرده تعالى بالعدالة التي يقوم عليها الوجود كله وصلح عليها أمره هو تفرده سبحانه بالألوهية وما يستلزمها ويلائمها من مقتضيات العبادة الخالصة له عز وجل . ونلاحظ ذلك بقوله تعالى : { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } [الرحمن: 7-9].

فإنه تعالى بعد تقرير حقيقة عدله كلفهم مباشرة بمقتضياتها ، فالله تعالى هو الذي وضع ميزان العدل لنظام الوجود الذي صلح به أمره ، وهو الذي وضع ميزان العدل لنظام البشر الذي لا تصلح حياتهم إلا به وحده ، فوجب عليهم بمقتضى ذلك الخضوع لميزانه العادل كي لا يختل نظام حياتهم ولا يضطرب ، فوضع ميزان العدل في نظام الكون وفي حياة البشر ، وضعه في الفطرة ووضعه في هذا المنهج الإلهي الذي جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن ، بقوله : { ألا تطغوا في الميزان } . وضع الميزان . ليستقر الوزن بالقسط ، بلا طغيان ولا خسران . ولا تتبع الجهل والغرض والهوى . لأن الخروج عن هذا الميزان الإلهي يعني الهلاك والدمار سواء لنظام الكون أو لحياة البشر .

وقد استدل تعالى على ذلك في قوله تعالى : { بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ

ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ } [المؤمنون: 70-71]. فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل ، كَما قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : " بالعدلِ قامتِ السمواتُ والأرضُ "[312].

فوضع سبحانه ميزان العدل وأمرَ بهِ بأنْ وفَّرَ كلَّ مستحقَ ما استحقَّهُ ووفّى كلَّ ذِي حقَ حقَّهُ حتى انتظمَ به أمرُ العالمِ واستقامَ[313]. فكانت هذه الآيات العقلية والنقلية مزيلة للشك وموجبة لليقين في إدراك حقيقة عدله تعالى ، فميزان العدل الذي يقوم عليه نظام الكون و الحياة لا يخفي على كل عاقل بصير متدبر .

*** وقد استدل القرآن الكريم بعدالة الله تعالى المطلقة على وجوب تفرده بالألوهية واستحقاقه وحده للعبودية . ومن هذه الآيات نذكر منها :**

1- قال تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ } [آل عمران: 18-19].

فحكم الله أنه وحده الإله المعبود لعلمه بذاته سبحانه، والملائكة بما عاينوا من عظيم قدرته، وأولو العلم بما شاهدوا من آثاره الدالة على كمال صفاته، وذكر دليل ألوهيته في كونه قائماً بالقسط والعدل والتي تقضي من العباد إتباع دينه سبحانه وتعالى القائم على الحق والعدل .

هذه هي الحقيقة الأولى التي يقوم عليها المعتقد الإيماني حقيقة التوحيد : توحيد الألوهية ، وتوحيد القوامة ، القوامة بالقسط . فإن شهادة الله تعالى : بأنه لا إله إلا هو ، مسوقة هنا ليساق بعدها ما هو من مستلزماتها؛ وهو أنه لا يقبل إذن من العباد إلا العبودية الخالصة له ، المتمثلة في الإسلام بمعنى الاستسلام - لا اعتقاداً وشعوراً فحسب - ولكن كذلك عملاً وطاعة واتباعاً للمنهج العملي الواقعي المتمثل في أحكام الكتاب .

وهذا رد على من يقولون في كل زمان : إنهم يؤمنون بالله ، ولكنهم يشركون معه غيره في الألوهية ، حين يتحاكمون إلى شريعة من صنع غيره ، وحين يطيعون من لا يتبع رسوله وكتابه؛ وحين يتلقون التصورات والقيم والموازين والأخلاق والآداب من غيره . فهذه كلها تناقض القول بأنهم يؤمنون بالله . ولا تستقيم مع شهادة الله : بأنه لا إله إلا هو . وأما شهادة الملائكة وشهادة أولي العلم ، فهي متمثلة في طاعتهم لأوامر الله وحدها ، والتلقي عن الله وحده ، والتسليم بكل ما

---

[312]- موطأ الإمام مالك رقم (830)

[313]- راجع : تفسير الظلال7/94-95، وتفسير طنطاوي ، وتفسير أبي السعود6/4/245 ، وتفسير السعدي 556

يجيئهم من عنده بدون تشكك ولا جدال ، متى ثبت لهم أنها من عنده . وشهادة الله سبحانه وشهادة الملائكة وأولي العلم بوحدانية الله يصاحبها شهادتهم بأنه تعالى قائم بالقسط . بوصفها حالة ملازمة للألوهية . فهي قوامة بالقسط .

وتدبير الله لهذا الكون ولحياة الناس متلبس دائماً بالقسط والعدل فلا يتحقق العدل المطلق في حياة الناس ، ولا تستقيم أمورهم استقامة أمور الكون ، التي يؤدي كل كائن معها دوره في تناسق مطلق مع دور كل كائن آخر . قال تعالى : { أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ } [المؤمنون:71]. لا يتحقق هذا إلا بتحكيم منهج الله الذي اختاره لحياة الناس ، وبينه في كتابه . وإلا فلا قسط ولا عدل ، ولا استقامة ولا تناسق ، ولا تلاؤم بين دورة الكون ودورة الإنسان . وهو الظلم إذن والتصادم والتشتت والضياع! والتاريخ شاهد كذلك على هذه الحقيقة ، فإن الفترات التاريخية التي حكم فيها كتاب الله وحدها هي التي ذاق فيها الناس طعم القسط ، واستقامت حياتهم استقامة دورة الفلك . وأنه حيثما حكم في حياة الناس منهج آخر من صنع البشر ، لازمه جهل البشر وقصورهم . كما لازمه الظلم والتناقض في صورة ظلم الفرد للجماعة . أو ظلم الجماعة للفرد . أو ظلم طبقة لطبقة . أو ظلم أمة لأمة . أو ظلم جيل لجيل .

وعدل الله وحده هو المبرأ من الميل لأي من هؤلاء . وهو إله جميع العباد . وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .{ لا إله إلا هو العزيز الحكيم } . يؤكد حقيقة وحدة الألوهية مرة أخرى في الآية الواحدة ، مصحوبة بصفة العزة وصفة الحكمة . والقدرة والحكمة لازمتان كلتاهما للقوامة بالقسط . فالقسط يقوم على وضع الأمور في مواضعها مع القدرة على إنفاذها . وصفات الله سبحانه تصور وتوحي بالفاعلية الإيجابية .

فلا سلبية في التصور الإسلامي لله . وهو أكمل تصور وأصدقه لأنه وصف الله لنفسه سبحانه . وقيمة هذه الفاعلية الإيجابية أنها تعلق القلب بالله وإرادته وفعله ، فتصبح العقيدة مؤثراً حياً دافعاً لا مجرد تصور فكري بارد! ويرتب على هذه الحقيقة التي عاد لتوكيدها مرتين في الآية الواحدة ، نتيجتها الطبيعية . ألوهية واحدة . فلا عبودية إلا لهذه الألوهية الواحدة :{ إن الدين عند الله الإسلام } . ألوهية واحدة واستسلام لهذه الألوهية لا يبقى معه شيء في نفوس العباد ولا في حياتهم خارجا عن سلطان الله .

فجهة واحدة هي صاحبة الحق في تعبيد الناس لها؛ وفي تطويعهم لأمرها؛ وفي إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها؛ وفي وضع القيم والموازين لهم وأمرهم باتباعها؛ وفي إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التي ترضاها . فهذا هو الإسلام الذي هو ليس مجرد دعوى ، وليس مجرد راية ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان؛ ولا حتى تصوراً يشتمل عليه القلب في سكون؛ ولا شعائر فردية يؤديها الأفراد في الصلاة والحج والصيام . لا . فهذا ليس بالإسلام الذي لا يرضى الله من الناس ديناً سواه . إنما الإسلام الاستسلام . الإسلام الطاعة والاتباع . الإسلام تحكيم كتاب الله في أمور العباد . ولكنهم إنما اختلفوا { بغياً بينهم } أي : اختلفوا حينما تخلوا عن قسط الله وعدله الذي تتضمنه عقيدته وشريعته وكتبه [314].

* كما نفى القرآن الألوهية عن غير الله تعالى في كونه سبحانه يأمر بالعدل ويهدي إليه في مقابل عجز الألهة التي تعبد من دون الله تعالى عن ذلك .

2- قال تعالى : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [النحل: 76].

فقد أبطل تعالى قول عبدة الأوثان والأصنام بهذا المثل ، وتقريره : أنه كما تقرر في أوائل العقول أن الأبكم العاجز لا يكون مساوياً في الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية ، فلان يحكم بأن الجماد لا يكون مساوياً لرب العالمين في المعبودية كان أولى ، وقد وصف الله تعالى الرجل الأول بصفات :

الصفة الأولى : الأبكم : وهو الأقطع اللسان وهو الذي لا يحسن الكلام . لأنه لا يعقل .

الصفة الثانية : قوله : { لا يقدر على شيء } وهو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل .

والصفة الثالثة : قوله : { كل على مولاه } أي هذا الأبكم العاجز غليظ وثقيل على مولاه .

الصفة الرابعة : قوله : { أينما يوجهه لا يأت بخير } أي أينما يرسله لا يأت بخير لأنه عاجز لا يحسن ولا يفهم . ثم قال تعالى : { هل يستوي هو } أي هذا الموصوف بهذه الصفات الأربع : { ومن يأمر بالعدل } واعلم أن الآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفاً بالنطق وإلا لم يكن آمراً ويجب أن يكون قادراً ، لأن الأمر مشعر بعلو المرتبة وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادراً ، ويجب أن يكون

---

[314]- راجع : تفسير النسفي 145/1 ، ظلال 348/1-350

عالماً حتى يمكنه التمييز بين العدل وبين الجور . فثبت أن وصفه بأنه يأمر بالعدل يتضمن وصفه بكونه قادراً عالماً ، وكونه آمراً يناقض كون الأول أبكم ، وكونه قادراً يناقض وصف الأول بأنه لا يقدر على شيء وبأنه كل على مولاه ، وكونه عالماً يناقض وصف الأول بأنه لا يأت بخير . ثم قال تعالى : { وهو على صراط مستقيم } معناه كونه عادلاً مبرأ عن الجور والعبث . إذا ثبت هذا فنقول : ظاهر في بديهة العقل أن الأول والثاني لا يستويان ، فكذا ههنا . وأما المراد بهذا المثل فهو مثل ضربه سبحانه لنفسه والآلهة التي تعبد من دونه لإبطال مشاركتها بالألوهية حيث احتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما مستدلاً على تباين الحال بينه تعالى وبين ما أشركوا به، بحيث يظهر لهم فساد معتقدهم، فكيف يمكن التسوية بين صنم أو حجر أو غيره مما يعبدون من دون الله وبين جنابه تعالى القادر العليم الآمر بالعدل والهادي إليه . فالأول مثَل الصنم الجامد الذي لا يفقه وهو محتاج إلى من يحرسه ، لأنه لا ينطق ألبتة وكذلك لا يقدر على شيء ، وأيضاً كل على عابديه لأنه لا ينفق عليهم وهم ينفقون عليه ، والثاني مثل لكماله تعالى في ذاته وإفاضته الخير على عباده ، فهو الذي يأمر بالعدل ويهدي إليه [315].

وقد استدل القرآن بعدالة الله المطلقة والشاملة ، والمتمثلة : بعدله تعالى في قضائه وقدره ، وعدله في دينه وشرعه ، وعدله في حسابه وجزائه على تفرد ألوهيته تعالى وعلى ما يلازمها من مقتضيات العبودية ، وسوف نعرض ذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ، في المباحث التالية.

[315]- راجع : تفسير الطبري 262/17، وتفسير الرازي 438/9 وتفسير أبي السعود 141/4، وتفسير البغوي 23/5، وتفسير الظلال 478/4 ، ابن عاشور 92/8

ـــ المبحث الأول ـــ

الاستدلال بعدالة الله تعالى في قضائه وقدره

إن الله تعالى متصف بالعدل المطلق ، ومنزه عن الظلم والعبث في كل ما يقضي به ويقدر ، وهو سبحانه حينما يقدر على عباده أمراً من أمور حياتهم ، فإنما يقدر ذلك وفق مقتضى حكمته وعلمه ورحمته وعدله ، وإن ما يقع على الناس من قدر الله خيره وشره فهو إما ابتلاءً لمقتضى حكمته تعالى ، كما في قوله : { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء: 35]. وإما جزاءً لمقتضى عدله تعالى كما في قوله : { إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } [الإسراء: 7]. فبين سبحانه ميزان عدله في قضائه وقدره التي يجريها في حياة الناس ، بان الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن فله جزاء الحسنى ، ومن أساء فجزاء سيئة مثلها . قال تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [فصلت: 46]. وقوله تعالى : { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } [الرحمن: 60]. وقوله تعالى : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (30) } [الشورى: 30]. وقوله تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: 53]. فهذا ميزان عدله تعالى يجريه بين عباده وفق سنن مقدرة ومقررة لا تتبدل ولا تتخلف .

فقد جعل سبحانه لكل عمل من خير أو شر مقتضيات لأثارهما اقتضاء لا بد منه ، فقدر سبحانه للمحسن آثار إحسانه ، من الحياة الطيبة ، وتفريج الهموم والمصائب ونحوه ، فقال تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: 97]. وقال تعالى عن يونس : { فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }[الصافات: 142-144].

كما قدر سبحانه للمسيء آثار سيئاته من ظنك العيش والهموم والأمراض ، والجدب والجوع والخوف ونحوه قال تعالى : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا } [طه: 124]. وقال تعالى : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [النحل: 112].

فإن عدل الله تعالى في قدره يظهر للناس في الحياة الدنيا في قوالب وصور تناسب أعمالهم ، قال تعالى : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ } [إبراهيم: 7].

وهذه العدالة الإلهية في الأقدار قد لا يبدو فيها بحسب الظاهر وجه الخير ، بل قد تظهر بخلاف ذلك ، فتظهر بصورة يبدو فيها الشر والقسوة ولكن في حقيقتها كلها خير ورحمة .

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح وهو في حقيقته كان يمثل قدر الله تعالى ، حيث تجري أحداث القصة لتكشف لنا أنه وراء كل حادثة علماً شاملاً ، وحكمة بالغة ، ورحمة واسعة ، وعدالة مطلقة ، وإن الإدراك البشري المحدود قاصر عن إدراك الحكمة من ورائها . وعاجز كذلك عن تأويل وجه الخير فيها وإن كانت تبدو بحسب الظاهر خلاف ذلك . إلى درجة أن موسى عليه السلام لم يستطع الصبر عليها أو السكوت عنها ، لأن طبيعة العقل البشري قاصر عن إدراك الحكمة الإلهية من وراء الأحداث ، وعاجز عن معرفة الغيب بذاته ، وحينما أطلعه العبد الصالح على أسرار الغيب المقدور ، وعلل له عن حقيقة المواقف الثلاث التي استنكرها بشدة ، ظهر لموسى ما وراء هذه الأحداث من حكمة بالغة ورحمة واسعة وعدل مطلق . بخلاف ما ظهر له فيها من شدة وقسوة وظلم ، كما في قوله : { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف: 79- 82].

إن العدل في قضاء الله تعالى وقدره متحقق في كل حدث في هذا الوجود ، وإن لم تدركه عقولنا القاصرة المحدودة بعالم الشهادة ، والمحجوب عنها عالم الغيب ، وكانت أحداث هذه القصة فيها دلالة واضحة على هذه الحقيقة . فقد كان خرق السفينة للمساكين إنما هو لدفع ضرر كبير بضرر أقل ، ووجه العدالة ظاهر في ذلك ، وهو حفظ حق المساكين من الملك المغتصب الظالم ، وأما قتل الغلام البريء من غير ذنب ، فإنما هو ليدفع بهذا البلاء ، بلاء أعظم منه . ووجه العدالة الذي يبدو من ذلك , هو جزاء إحسان الوالدين بمثله من الإحسان ، وهو أن لا يرهقهما بولد عاق شقي ، ويستبدلهما بولد بارٍ رضي ، وأما الغلام فكان قتله قبل سن التكليف رحمة له ، حيث أعفاه من ابتلاء التكليف وهو في علم الله لا يفلح فيه ، وأما بناء الجدار فقد يكون الأمر غير مقصود لذاته بل

لأمر غيره ، ووجه العدل في ذلك ، أن هذا الخير في بناء الجدار ليس لأجل أهل القرية البخلاء بل حتى يصل لغلامين كان أبوهما من أهل الصلاح والتقوى ، فاستحق بعدل الله وحكمته هذه الرحمة التي ليس بعدها رحمة . لقد ظهر في كل موقف من مواقف هذه القصة أن في ظاهرها ما يخالف وجه العدالة ، ولكنه في حقيقته هو عين العدالة والرحمة ، إلا أن العقل البشري قاصر عن إدراك الحكمة الإلهية من وراء الأحداث ، وعاجز عن كشف أستار الغيب ، ولكن المؤمن بالله يثق بعدالة ربه فيما يقع عليه من أحداث وإن لم يدرك وجه العدل فيها ، لأنه يعلم علم اليقين أن الله هو المقسط العدل ،وأنه لا يظلم مثقال ذرة [316].

وقد ورد في قصة إبراهيم عليه السلام الاستدلال بعدالة الله في قضائه وقدره على ما يلازمها من العبودية الخالصة لله تعالى ، ومن الآيات الواردة في ذلك نذكر منها على النحو الآتي :

*** الشاهد الأول :**

قال الله تعالى : { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } [العنكبوت: 31-32].

إن الآية قد جمعت بين رحمة الله تعالى وعدله ، رحمته بالبشرى لإبراهيم بالولد على الكبر ، وعدله بإنزال العذاب على الظالمين ، فكانت البشارة أثر الرحمة والإنذار بالإهلاك أثر الغضب ، ولأن رحمته تعالى سبقت غضبه ، قدم البشارة على الإنذار . وهذا التقدّم من لطف الله بإبراهيم لعلمه تعالى بحلمه ورقته .

ومن أجل استئناس إبراهيم لقبول هذا الخبر المحزن . بينوا له سبب هلاكهم ، في قوله : { إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين } وهو تعليل للإهلاك بإصرارهم على الظلم وتماديهم في فنون الفساد وأنواع المعاصي ، لأن العدل يقتضي أن لا يكون العقاب إلا على ذنب يقتضيه . لذلك حين ذكروا البشرى ما عللوا وقالوا إنا نبشرك لأنك رسول ، أو لأنك مؤمن أو لأنك عادل ، وحين ذكروا

[316]- راجع : ابن القيم ، بدائع الفوائد 2/364-365 ، ابن تيمية ،مجموع الفتاوي 8/73 ، في معنى كون الرب عادلاً 134-136 ، محمد بن أيوب الدمشقي ، الطب النبوي 83 ، 283 ، تفسير طنطاوي ، 2739-2741 ، أثر العقيدة ، زكريا الشلول 188-190

الإهلاك عللوا ، وقالوا : { إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظالمين } لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض ، والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم ، فكان عذابه تعالى لقوم لوط هو تحقيق لمبدأ العدل التي هي صفته تعالى وسنته في خلقه ، ولهذا جادل إبراهيم الملائكة معترضا حينما أخبروه بشمول العذاب لأهل القرية ، بما تقرر له من عدل الله تعالى في جريان سنته أن لا يعذب إلا من استحق العذاب بسبب ظلمه ، قال تعالى : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [التوبة: 70].

فكانت معارضته لهم بالمانع الموجب للهلاك وهو الظلم وهو أن لوطاً بين ظهرانيهم وهو لم يتصف بصفتهم ، فقوله { إن فيها لوطاً } خبر مستعمل في التذكير بسنة الله مع رسله من الإنجاء من العذاب الذي يحل بأقوامهم . فهو من التعريض للملائكة بتخصيص لوط ممن شملتهم القرية في حكم الإهلاك ، ولوط وإن لم يكن من أهل القرية بالأصالة إلا أن كونه بينهم يقتضي الخشية عليه من أن يشمله الإهلاك . ولهذا قال { إن فيها لوطاً } بحرف الظرفية ولم يقل : إن منها . وأن جواب الرسل المحكي بقوله تعالى : { قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ } تسليم لقوله عليه السلام في لوط مع ادعاء مزيد العلم به باعتبار الكيفية وأنهم ما كانوا غافلين عنه ، فهو جواب عما اقتضاه تعريضه بالتذكير بإنجاء لوط ، أي نحن أعلم منك باستحقاق لوط النجاة عند الله ، واستحقاق غيره العذاب فإن الملائكة لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون . قال تعالى : { قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } [الذاريات: 37].

فكان رد الملائكة مُطَمْئِناً لإبراهيم من علمهم بمن يستحق العذاب أو النجاة من أهلها. وتأكيداً على مبدأ العدل الإلهي في نجاة المؤمنين من عذاب الله تعالى وشمول رحمته لهم [317]. قال تعالى : { قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ } [الحجر: 58-60]. فكانت العاقبة التي تتفق مع عدل الله ووعده الوثيق : { فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } [الروم: 47].

---

[317]- راجع : تفسير الرازي 159/12، وتفسير الألوسي 270/15-271 ، وتفسير طنطاوي 3308 ، وتفسير ابن عاشور 489/10-490

* الشاهد الثاني :

قال الله تعالى : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة: 124].

فهذه الآية في بعدها العقدي يدور محورها في الإمامة ، واستحقاقها على أساس مبدأ العدل الإلهي ، فمن انتفى عنه الظلم وتحقق فيه العدل استحق الإمامة جزاء وفاقاً ، وهي حقيقة مقررة باقية ، وسنة مقدرة جارية .، وقد تجلت هذه الحقيقة في إبراهيم عليه السلام تطبيقاً وتحقيقاً ، فاخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام وهو المتفق على إمامته من كل الطوائف ، أن الله ابتلاه بكلمات أي . اختبره بما كلفه به من الأوامر والنواهي ، كما هي عادة الله وسنته في ابتلائه لعباده، قال تعالى : { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } [العنكبوت: 2-3]. وبهذا الابتلاء يتبين الكاذب الذي لا يثبت عند الامتحان من الصادق، الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره، ويزكو عمله، وكان من أجلّهم في هذا المقام، الخليل عليه السلام الذي أتم ما ابتلاه الله به وأكمله ووفاه، بقوله : { فأتمهن } وجيء بالفاء للدلالة على الفور والامتثال . وذلك من شدة العزم ، وقوة اليقين .

ولذا مدحه الله بقوله : { وإبراهيم الذي وفّى } [النجم: 37]. فبين تعالى ما منّ به على إبراهيم من الكرامة ورفعة المقام ، بعد أن ذكر أنه عامله معاملة المختبر له ، إذ كلفه بأمور شاقه فأحسن القيام بها ، فشكر الله له ذلك، فقال : { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا } فجعله الله رسولا يقتدي به الناس في أصول الدين ومكارم الأخلاق . وذكر الإمامة دون الرسالة ، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء ، وفي استحقاقه عليه السلام الإمامة للناس كافة بسبب وفاءه بعهد الله ، تبكيت للفرق الثلاثة العرب المشركين واليهود والنصارى ، الذين لم يوفوا تكاليف العهد ، إذ كلهم يدعي انتماءه لإبراهيم وأنه على ملته فها هو ذا إبراهيم موحد وهم مشركون ، عادل وهم ظالمون ، مُتّبعٌ للوحي الإلهي وهم به كافرون ولصاحبه مكذبون .

وفي التماس إبراهيم الإمامة لبعض ذريته وليس كلهم ، بقوله : {ومن ذريتي } لأنه يعلم حكمة الله في الابتلاء وهو لم يُستثنى منها ، ويعلم سنته في اختلاف عباده ، كما قال تعالى : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [يونس: 99].

ولا يزال الاختلاف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم . قال تعالى : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } [هود: 118-119]. ولأن العادة لم تجر بأن يكون أحد ممن يقتدى بهم يكون جميع نسله من الصالحين ، لذلك فلم يسأل ما هو غير مألوف عادة ، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء .

وقد رد الله تعالى على قول إبراهيم بقوله :{ قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } استجابة مطوية بإيجاز وبيان للفريق الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم والذي لا تتحقق فيه بالاقتصار على أحدهما لأن حكم أحد الضدين يثبت نقيضه للآخر على طريقة الإيجاز ، فهي تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته ليسوا أهلا لأن يكونوا أئمة يقتدي بهم ، وتشير إلى أن غير الظالمين منه قد تنالهم النبوة ، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء . قال تعالى : { وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعلى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ } وإنما لم يُذكر الصنف الذي تحقق فيه الدعوة لأن المقصد ذكر الصنف الآخر تعريضاً بأن الذين يزعمون يومئذ أنهم أولى الناس بإبراهيم وهم أهل الكتاب ومشركو العرب هم الذين يُحرمون من دعوته ، قال تعالى : { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 67- 68].

ومن دقة القرآن اختيار لفظ العهد لأن اليهود زعموا أن الله عهد لإبراهيم عهداً بأنه مع ذريته ، ففي ذكر لفظ العهد تعريض بهم ، وإن كان صريح الكلام لتوبيخ المشركين . والمراد بالظالمين ابتداء المشركون ، كقوله تعالى : { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: 13]. والظلم يشمل أيضاً عمل الكبائر كما وقع في قوله تعالى : { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ } [الصافات: 113]. وقد وصف القرآن اليهود بوصف الظالمين في قوله : { وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [المائدة: 45]. فالمراد بالظلم المعاصي الكبيرة وأعلاها الشرك بالله تعالى.

وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشركين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم والانهماك في المعاصي حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم . وإناطة الحكم بوصف الظالمين إيماء إلى علة نفي أن ينالهم عهد الله فيفهم من العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد .

وفي الآية { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } تقرير لمبدأ العدل على أساس الوفاء بالعهد ، فبين سبحانه وتعالى أن له معك عهداً ، ولك معه عهداً ، وبين أنك متى تفي بعهدك ، فإنه سبحانه يفي أيضاً

بعهده فقال : { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ } [البقرة: 40]. ثم بين في هذه الآية أن عهده لا يصل إلى الظالمين فقال : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } وحقيقة هذه المعاهدة : هو أن العهد المأخوذ على العبد ليس إلا عهد الخدمة والعبودية ، والعهد الذي التزمه الله تعالى من جهته ليس إلا عهد الرحمة والربوبية ، وإن موجب وفاء الله بعهده لعباده يقتضي منهم الوفاء بعهد الله ، والمتأمل في حال هذه المعاهدة لم يجد من نفسه إلا نقض هذا العهد ، ومن ربه إلا الوفاء بالعهد ، وبيان ذلك على النحو الآتي :

– **أولها** : إنعامه عليك إنعام الخلق والإيجاد والإحياء وإعطاء العقل . والمقصود من كل ذلك اشتغالك بالطاعة والخدمة والعبودية على ما قال : { وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ } [الذاريات: 56]. فهو سبحانه وفى بعهد الربوبية حيث خلقك وأحياك وأنعم عليك بوجوه النعم وجعلك عاقلاً مميزاً فإذا لم تشتغل بخدمته وطاعته وعبوديته فقد نقضت عهد عبوديتك مع أن الله تعالى وفى بعهد ربوبيته.

– **وثانيها** : أن عهد الربوبية يقتضي إعطاء التوفيق والهداية وعهد العبودية منك يقتضي الجد والاجتهاد في العمل ، ثم إنه وفى بعهد الربوبية فإنه ما ترك ذرة من الذرات إلا وجعلها هادية لك إلى سبيل الحق : { وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ } [الإسراء: 44]. وأنت ما وفيت البتة بعهد الطاعة والعبودية .

– **وثالثها** : أن نعمة الله بالإيمان أعظم النعم ، ثم مع أن هذه النعمة منه فإنه يشكرك عليها وقال : { فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا } [الإسراء: 19]. فإذا كان الله تعالى يشكرك على هذه النعمة فبأن تشكره على ما أعطى من التوفيق والهداية كان أولى ، ثم إنك ما أتيت إلا بالكفران على ما قال : { قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ } [عبس: 17]. فهو تعالى وفى بعهده ، وأنت نقضت عهدك.

– **ورابعها** : أنه أعطاك النعم العظيمة لتكون مقبلاً على حمده وأنت تحمد غيره ، فعهده معك أن يعطيك أصناف النعم وقد فعل وعهدك معه أن تصرف نعمه في سبيل مرضاته وأنت ما فعلت ذلك : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى أن رَّءاهُ استغنى } [العلق: 6-7]. ثم إنه سبحانه على تزايد غفلتنا وتقصيرنا يزيد في أنواع النعم والرحمة والكرم ، فكنا من أول عمرنا إلى آخره لا نزال نتزايد في درجات النقصان والتقصير واستحقاق الذم ، وهو سبحانه لا يزال يزيد في الإحسان واللطف والكرم ، واستحقاق الحمد والثناء ، فإنه كلما كان تقصيرنا أشد كان إنعامه علينا بعد ذلك أعظم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقعاً ، وكلما كان إنعامه علينا أكثر وقعاً ، كان تقصيرنا في شكره أقبح وأسوأ ، فلا تزال أفعالنا تزداد قبائح ، ومحاسن أفعاله على سبيل الدوام بحيث لا تفضي إلى الانقطاع .

وبالجملة فإن الله قد وفى بعهد الإحسان والربوبية ونحن نقضنا لعهد الإخلاص والعبودية ، لذلك قال : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها . ومن ظلم فقد جرد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها؛ بكل معنى من معانيها . وبهذه القاعدة الكبرى يقرر سبحانه أن الإمامة لمن يستحقونها بالإيمان والعمل الصالح ، وليست وراثة أصلاب وأنساب . فالقربى ليست وشيجة لحم ودم ، إنما هي وشيجة دين وعقيدة . ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلا دعوى الجاهلية ، التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح .

وهذا الذي قيل لإبراهيم { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } قاطع في تنحية اليهود والنصارى عن القيادة والإمامة ، بما ظلموا وفسقوا وعتوا عن أمر الله ، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم . وقاطع كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم اليوم بالمسلمين . بما ظلموا وفسقوا وبعدوا عن طريق الله ، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم . ودعواهم الإسلام ، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة ، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله .

فكان ما ذكره الله تعالى من أمر إبراهيم عليه السلام توجب على المشركين وعلى اليهود والنصارى قبول قول محمد صلى الله عليه وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه ، وبيانه من وجوه :

أحدها : أنه تعالى لما أمره ببعض التكاليف فلما وفى بها وخرج عن عهدتها لا جرم نال النبوة والإمامة وهذا مما ينبه اليهود والنصارى والمشركين على أن الخير لا يحصل في الدنيا والآخرة إلا بترك التمرد والعناد والانقياد لحكم الله تعالى وتكاليفه .

وثانيها : أنه تعالى حكى عنه أنه طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين ، فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل . مما يوجب على هؤلاء اليهود والنصارى والمشركين الذين يعترفون بفضله أن يتشبهوا به في ذلك ويسلكوا طريقته في ترك الحسد والحمية وكراهة الانقياد لمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذي جاءهم بالحنيفية السمحة التي كان عليها أبوهم إبراهيم عليه السلام .

اتسمت هذه الآية ببعدها العقدي في مجال عدل الله تعالى في سنته المقدرة والتي أجراها بين عباده ، وقد تجلت بمظاهر عدة ، تجلت في إعطاء إبراهيم عليه السلام الإمامة جزاء وفاءه بالعهد . وتجلت في وراثة هذه الإمامة لمن يستحق من ذرية إبراهيم وحرمانها ممن ظلم وجانب الحق . وتجلت كذلك في جعل العدل هو المقياس في استحقاق هذه الإمامة ، والخروج عن مقتضى العدل هو سبب الحرمان منها [318] .

وعليه فإن ما يصيب الإنسان من نعمة أو نقمة إنما هو بتقدير الله تعالى، وإنه ينبغي عليه أن يشكر الله في حال النعمة ويداوم على الطاعة تقييداً للنعم من الزوال ، لقوله تعالى : { لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم: 7]. وإن عليه في حال المصيبة أن يصبر على قدر الله عز وجل ، وأن يسعى إلى الإصلاح والتغيير فيما هو مأذون له بدفعه وتغيره .

ــ قال تعالى : { وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } [النساء: 78-79] .

ونلاحظ أن الله تعالى عندما خاطب المنافقين والكفار الذين لا يفقهون سنن الله ، ويردون الأسباب والتأثير في الاحداث لغيره تعالى ، أجمل القضية ولم يفصل ، وورد أمر التأثير في كل من الخير والشر إلى الله وقدره ؛ ولم يفرق بينهما من جهة التأثير . لأن التفرقة بينهما من هذه الجهة لا تصدر إلاّ عن عقل غير منضبط التفكير ، فلذلك قال : { فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً } ولكنه عندما وجه خطابه للمؤمنين الذين يفقهون سننه تعالى ، فصل فيها وبيّن ، وفرق بينهما من جهة ، ابتداءُ المتسبّب لِسبب الفعل ، وليسَ ابتداءَ المؤثّر في الأثر . فبين حقيقة التفصيل في إصابة الحسنة والسيئة من جهة تمحّض النسبة إلى الله تعالى أو اختلاطها بالانتساب إلى العبد ، فقال : { ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيّئة فمن نفسك } فلم يؤت فيه بكلمة (عند) ، إيماء إلى أنّ ابتداء مجيء الحسنة من الله ومجيء السيِّئة من نفس المخاطب والمعنى : { مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ } أى من نعمة وأمور حسنة تفرح بها { فَمِنَ الله } أى فبتوفيقه لك وتفضله عليك ، وإرشادك إلى الوسائل التى أوصلتك إلى ما يسرك . { وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ } أى من مصيبة أو غيرها مما يحزن { فَمِن نَّفْسِكَ } أى : فمن نفسك بسبب وقوعها فيما نهى الله عنه ،

---

[318]- راجع : تفسير ابن كثير 405/1 ، وتفسير الرازي 321/2-326، وتفسير ابن عاشور 464/1، وتفسير الظلال 84/1-86 ، وتفسير طنطاوي 302-303 ، وتفسير السعدي 65 ، وأيسر التفاسير للجزائري 53/1

وتركها للأسباب الموصلة إلى النجاح ، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر "[319] قال وقرأ : { وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ } [الشورى: 30].وعنه أيضاً : " ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيدكم . وما يعفو الله أكثر " . فالله تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله وبره[320]. قال تعالى : { مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز الحكيم } [فاطر: 2].

إن مقتضى هذه الحقيقة الإيمانية الإعتقادية من عدل الله تعالى في قضائه وقدره وسننه الجارية في خلقه ، توجب على العباد التعامل معها وفق مقتضاها التعبدي تحقيقاً وتطبيقاً في واقع حياتهم ، وليست مجرد معرفة جامدة أو مشاعر مستكنة في الضمير ، وقد كان إبراهيم الخليل خير مثال يقتدى ونموذج يحتذى في التعامل مع أوامر الله وأقداره ، باعتبارها صادرة ممن بلغ غاية العلم والحكمة ، ومنتهى العدل والرحمة ، فقام عليه السلام بواجبها التكليفي خير قيام ، ووفى بها أتم الوفاء . فقد ابتلاه بالنعم فشكر وابتلاه بالنقم فصبر ، فجزاه الله على شكره وصبره خير الجزاء ، فكان هذا الوفاء لعهد ربه هو ثمرة تلك المعرفة الإعتقادية لحقائق الإيمان .

فاعتقاد الإنسان بعدالة الله في أقداره النافذة وسننه الجارية ، تفرض عليه حسن التعامل معها بما يلائمها في حالتي السراء والضراء ، وذلك كما يلي :

أولاً : أما في حالة السراء .

فعليه أن يعلم أن ما أصابه من نعمة وخير هو بعدل الله تعالى ورحمته وفضله ، مما يستوجب أن يقابل نعمة الله عليه بالحمد والشكر لا بالجحود والبطر ، وان يستعين بها على طاعته ومرضاته لا في معصيته وسخطه . لأن النعم تقيد بشكرها وتزول بكفرانها .

وهذا إبراهيم عليه السلام وزوجته يقدمان صورة العبد الشكور في مقابلة نعمة الله ورحمته . قال تعالى : { قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود: 73]. وقوله

---

[319]- سنن الترمذي 2352

[320]- راجع : تفسير طنطاوي 1009، وتفسير ابن عاشور 3/479-480 ، وتفسير السعدي 188

تعالى : { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر : 54-56].

لقد كان جواب الملائكة على تعجب إبراهيم وزوجته واستبعادهما حصول الولد في هذه السن المتقدمة ، هو ردهما الأمر إلى الله وقضائه وهذا الأمر الذي قدره تعالى عليهما ، عللته الملائكة :

ـــ إلى مقتضى رحمته وفضله ، بقوله : { أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ} [الذاريات: 30].

ـــ وإلى مقتضى حكمته وعلمه ، بقوله : { قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } .

ـــ وإلى مقتضى عدله ورحمته ، بقوله : { بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ }.

وهذا التعليل من الملائكة في مجمله ينحصر في أن ما حصل لهما من أمر الله تعالى هو شمول رحمة الله تعالى لهما وعنايته بهما ، عدلاً واستحقاقاً ، ـــ وهو استحقاق فضل لا وجوب ـــ وذلك جزاء إحسانهما في عبادة الله وطاعته ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليهم فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليهم ، وهذا يوجب عليهم المداومة على حمد الله وتمجيده .

لذلك ذيل الآية بقوله :{إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } كونه المستحق للحمد والتمجيد لكثرة نعمه وإحسانه على عباده .

إن هذه الآيات تبين كيف ينبغي للعبد أن يتعامل مع نعمة الله التي قدرها له وفق سنن عدله في مجازاة المحسن على إحسانه ، ودخوله بذلك في رحمته وعنايته ، مما يستوجب عليه أن يقابلها بالحمد والثناء ، والشكر والطاعة ، وألا يجحد نعمة الله فيقابلها بالذنوب والمعاصي . قال تعالى : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } [سبأ: 15-17].

إن القرآن ساق هذه القصة للاعتبار من جزاء الله العادل في الإعراض عن دين الله ، والتحذير من كفر النعم بالإسراف فيها وصرفها في غير مرضاة واهبها عز وجل . فإنه متى حصل ذلك من فرد أو أمة ، نزلت بها النقم وسلبها الله النعم . وهذه الحال مشاهدة في الواقع متكررة في حدوثها بين الأفراد والشعوب [321]. ولذلك ينبغي مقابلة نعمة الله بالشكر لا بالجحود ، فمن عرف سنة الله

---

[321]- راجع : أيسر التفاسير للجزائري 318/3

وجريانها بين عباده فإنه يتوجب عليه أن يتعامل معها بما يلائمها في تحقيق الخير والفلاح ، والسعادة في الدارين . قال تعالى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف: 96].

وقد أدرك إبراهيم عليه السلام سنة الله تعالى التي أجراها في عباده ، فكان عليه السلام مثالاً للعبد الشاكر لنعم ربه ، فاستحق فوق فضل الله تعالى عليه وإحسانه إليه أن سجل له فضيلة العبد الشكور في قوله تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [النحل: 120-122].

وهذا مدح من الله تعالى لخليله إبراهيم في وصفه له بالشكر لأنعمه وجاء بصيغة {الأنعم} جمع القلة : للإيذان بأنه عليه السلام لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة ، وللتعريض بذريته الذين أشركوا وكفروا نعمة الله مُقابل قوله : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [سورة النحل: 112].

إن اعتقاد العبد بعدالة الله فيما يقدر له من نعمة وخير ، هي من أقوى المؤثرات النفسية والدوافع السلوكية نحو الاستقامة على منهج الله والثبات عليه ، وفي مواجهة قوى الظلم والطغيان ، ومكافحة الفساد والشر ، تحقيقاً لنصرة الحق والعدل ، ونيل العزة والكرامة . لأن مبدأ العدالة في الجزاء ، والعوض على ما يفوته من منافع وما يلاقيه من صعوبات وما يقدمه من تضحيات ، مصون له ومضمون بوعد الله الذي لا يخلف الميعاد . قال تعالى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [النور: 55].

وقد وعد الله المؤمنين بأعظم البشارات ، وقابل بين جزائهم وبين جزاء الكفار والمنافقين ، بما يحمل العاقل على أن يسلك طريق المؤمنين ، وعلى أن ينهج نهجهم ، ويتحلى بأوصافهم ليفوز بنعيم الله ورضاه ، وينجو من عذابه الذي توعد الله به المنافقين والكافرين بسبب إيثارهم الغيّ على الرشد . قال تعالى : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة: 70- 72].

ساق سبحانه من أخبار السابقين ما فيه الكفاية للعظة والاعتبار لو كانوا يعقلون ، فاخبر بما حل هم من عقوبات بسبب تكذيبهم لأنبيائهم . ومن بينهم قوم إبراهيم الذين سلب الله نعمه عنهم ، وأذل غرور زعيمهم الذي حاج إبراهيم في ربه ، فمن سنة الله أنه لا يعاقب إلا بذنب ، ولا يأخذ العصاة إلا بعد استمرارهم في طريق الغواية ، وإعراضهم عن نصح الناصحين ، وإرشاد المرشدين وأن هؤلاء الأقوام المهلكين السابقين ، قد أتتهم رسلهم بالحجج الواضحات الدالة على وحدانية الله وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، فكذبوا هؤلاء الرسل ، فعاقبهم الله على هذا التكذيب .

وما كان من سنته سبحانه ليظلمهم بإهلاكه إياهم؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ؛ وإن العذاب الذي أوصله الله إليهم ما كان ظلماً من الله لأنهم استحقوه بسبب أفعالهم القبيحة ومبالغتهم في تكذيب أنبيائهم ، فعرضوها بمقتضى ذلك للعذاب والدمار . لأن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر ، وتعميها النعمة فلا تنظر . عندئذ تجري فيهم سنة الله ، فيأخذهم وهم في نعمائهم يتقلبون ، فهي الغفلة والعمى والجهالة تصاحب القوة والنعمة والرخاء ، إلا من رحم الله من عباده المخلصين { أولئك سيرحمهم الله } .

والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها ، إنما تكون في هذه الأرض أولاً ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح . رحمة الله في اطمئنان القلب ، وفي الاتصال بالله ، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث . ورحمة الله في صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله . وإن تلك الصفات لهي التي وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض ليحققوها في وصايتهم الرشيدة على البشرية [322].

[322]- راجع : تفسير ابن كثير 147/4، وتفسير الرازي 92/8 ، 9/ 477 ، وتفسير الألوسي 323/10 وتفسير ابن عاشور 486/7 ، 155/8، وتفسير اللباب 52/10 ، وتفسير الظلال 49/4، وتفسير السعدي 432-433 ، وتفسير طنطاوي 1999، أثر العقيدة ، زكريا الشلول 189

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانياً : وأما في حالة الضراء .

فعليه أن يعلم أن ما أصابه من نقمة وضر هو بعدل الله ومقتضى حكمته تعالى . مما يوجب عليه الرضى والصبر عليها ، وأن يراجع نفسه باللوم والحساب والعتاب ، ثم يبحث عن مواطن الخلل والفساد والتقصير ، والمبادرة إلى تصحيحها وإصلاحها . لقوله تعالى : { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ } [الشورى: 30]. وقوله تعالى : { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ } [آل عمران: 165].

فإن ما يقع على الإنسان من مصائب فهو إما ابتلاء لمقتضى حكمته ، وإما جزاء لمقتضى عدله ، والمنهج الصواب في التعامل في الحالتين هو أن يتهم الإنسان نفسه لأنه ليس أحد يخلو من ذنب أو تقصير، وهي طريقة تستثمر تلك المصيبة لتكون منهج تصحيحي، يبدأ بنقد الذات وينتهي ببنائها .

إن القرآن في مجال إصلاح النفس وتزكيتها ، عمل على تنمية جانب النقد الذاتي ومحاسبة النفس ، فإذا أقرت النفس بذنوبها ، فإنه يفتح لصاحبها باب التوبة ليصوب طريقه نحو الاستقامة حتى لا يسترسل في طريق الضلال والغواية ، ومن فضل الله وحلمه أنه لم يعاجله بالعقوبة بل منحه فرصة للمراجعة والمحاسبة ، لأن إصلاح الإنسان هو الهدف الأسمى والأساس .

والمتتبع للمنهج القرآني يلاحظ هذه الحقيقة بوضوح ، وقد تجلت في قصة إبراهيم عليه السلام من خلال مجادلته للملائكة في تأخير نزول العذاب على قوم لوط ، وإعطائهم مزيد من الفرصة لعلهم يتوبون ويتضرعون إلى الله فيكون سبباً لنجاتهم من عذابه ، كما في قوله تعالى : { فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [هود: 74-76]. إن مجادلة إبراهيم عليه السلام للملائكة ومطالبته تأخير العذاب عن قوم لوط ، وإعطائهم مزيد من المهلة لعلهم يحاسبوا أنفسهم ويراجعوا أخطائهم ويتضرعوا إلى الله بالتوبة والإنابة فينجوا من عذاب الله وغضبه، هو في حقيقته تقرير لمبدأ محاسبة النفس ولومها، مصداقاً لقوله تعالى : { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } [القيامة: 2].

فإن المراجعة الذاتية للأخطاء هو أول خطوة نحو التغيير والإصلاح . ولا يفهم من رد الملائكة بإنزال العذاب عليهم وعدم إعطائهم مزيد من المهلة ، هو معارض لطلب إبراهيم وسببه ، فإن سنة الإمهال وإعطاء فرصة لمراجعة النفس ومحاسبتها ، هو من المقررات القاطعة والسنن الثابتة .

ولكن إبراهيم لا يعلم الغيب ، لذلك رد الملائكة نزول العذاب إلى أمر الله وقضاءه المبرم ، الذي يصدر عن علمه الشامل المطلق ، فلو علم الله فيهم خيراً لأمهلهم . ولكنه علم أنهم لن يتوبوا فلا موجب لتأخير العذاب عنهم ، كما جرى مع قوم نوح ، في قوله : { وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ } [هود: 36-37]. فسنة الله وحلمه في قوم نوح لم تتخلف، فقد تجلى فيهم حلم الله تعالى في أعظم صوره ، وكذلك صبر نبيه نوح فقد دعاهم عليه السلام نحو ألف سنة إلا خمسين وعندما لم يبقى موجب للإمهال نزل بهم عذاب الله تعالى .

فإن الله خلق الإنسان وأنعم عليه بآلائه وهو مع ذلك يفسد ويظلم ، وينحرف عن الله ويشرك به ؛ والله بعد هذا كله يحلم عليه ويرأف به ، ويمهله وإن كان لا يهمله .

فهي الحكمة تصاحب القوة ، وهي الرحمة تصاحب العدل . ولكن الناس يغترون بالإمهال ، حتى يأخذهم عدله وقوته . عند الأجل المسمى الذي ضربه الله لحكمة ، وأمهلهم إليه لرحمة . والله سبحانه يقدم لأعدائه عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فهو سبحانه يمهل ولا يهمل . ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

فهذه طريقته سبحانه وسنته التي قدرها بمشيئته . فالعاقل هو الذي يبادر ويغتنم الفرصة لرجوع إلى الله تعالى ، ويتعامل مع قدره تعالى فيما يقع عليه من مصائب بردها إلى مطلق الحكمة والعدالة الإلهية ، مما يقتضي منه أن يراجع نفسه فيما وقع منه من ذنب أو تقصير ثم يلوم نفسه ويحاسبها ويصوب أخطاءه[323] . قال تعالى : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم: 41].

وقد ذكر القرآن في قصصه كثير من النماذج الواقعية التي تمثلت فيها هذه الصورة ومن ذلك:

ـ قال تعالى : { فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ } [القلم: 30-32]. فبعد أن استفاقوا من غفلتهم من وقع المصيبة رجعوا على أنفسهم باللائمة على بطرهم وإهمال شكر النعمة التي سيقت إليهم ، وعلموا أنهم أُخذوا بسبب ذلك ، قال تعالى : { وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم

323- راجع : تفسير الظلال 473/4 ، 304/7

يرجعون } [الأعراف: 168]. ثم بعد التلاوم اعترفوا جميعاً بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة . عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم بدل الجنة الضائعة[324].

ـــ قال تعالى : { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنبياء: 87-88]. أرسل الله يونس إلى أهل نينوى بالعراق فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله ، فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وتركهم وهو غضبان قبل أن يأمره الله بذلك، وظن أن الله لايضيق عليه فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى: { لا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } فأقر لله تعالى بكمال الألوهية، ونزهه عن كل نقص، وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنايته. فأنجاه الله من الغم الذى كان فيه[325] .

ـــ قال تعالى : { وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا } [الكهف: 42]. قد عاجل الله الكافر ، وأحاطت المهلكات بثمار جنته ، وأهلكتها ، وأبادت أصولها ، فأصبح يقلب كفيه ندماً وتحسراً على ما أنفق فى عمارتها ، ثم عاجلها الخراب ، فتمنى أن لم يكن أشرك بربه أحدا . ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول[326] .

ـــ قال تعالى : { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران: 148]. قال صاحب الكشاف : قوله { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ } الخ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضما لها واستقصارا . والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن

---

[324]- أنظر : ابن عاشور 253/15 ، والظلال 301/7

[325]- تفسير السعدي 529 ، وتفسير طنطاوي 2927

[326]- تفسير المنتخب 495/1، وتفسير السعدي 478

الحرب والنصرة على العدو ، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع . وهو أقرب إلى الاستجابة "[327].

إن اعتقاد العبد بعدالة الله تعالى فيما يقدره عليه من مصائب وابتلاءات ، يجعله يتهم نفسه ويبحث عن مواطن الخلل والانحرافات في سلوكه ويعمل على إصلاحها وفق ما أمره الله تعالى . ولو استثمر الإنسان كل ما يقع عليه من مصائب في حياته ، في نقد نفسه والبحث عن عيوبها وأمراضها ثم العمل على تصويبها وعلاجها ، لكانت كافية لتزكية نفسه وارتقائها .

هذه هي المنهجية القرآنية التربوية ، التي تحسن توظيف المصيبة ، لتجعل منها طريقاً نحو التغيير والإصلاح ، والسمو والارتقاء للأفضل[328] . قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد: 11]. كما تجعل من بقاء النعم ودوامها طريقاً للثبات على الحق والاستقامة ، ومسلكاً للمحافظة على سلامة الفطرة من عوامل التدمير والسقوط والارتكاس ، قال تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: 53]. ومن حِكم الشيخ ابن عطاء الله الإسكندري «مَن لَم يشكر النعم فقد تَعَرَّض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيَّدها بعِقالها» .

[327]- تفسير الزمخشري 334/1

[328]- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ، لمحمد الرندي ، 90

– المبحث الثاني –

الاستدلال بعدالة الله تعالى في شرعه ودينه

إن شريعة الله تمثل منهجاً شاملاً متكاملاً للحياة البشرية؛ يتناول بالتنظيم والتوجيه والتطوير كل جوانب الحياة الإنسانية؛ في جميع حالاتها ، وفي كل صورها وأشكالها . وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني ، والحاجات الإنسانية ، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان؛ وبطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية . ومن ثم لا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة؛ ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنساني؛ ولا أي تصادم مدمر بين هذا النشاط والنواميس الكونية؛ إنما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق . الأمر الذي لا يتوافر أبداً لمنهج من صنع الإنسان الذي لا يعلم إلا ظاهراً من الأمر؛ وإلا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة؛ ولا يسلم منهج يبتدعه البشر وناشئ من آثار الجهل الإنساني؛ من التصادم المدمر في حركة النشاط الإنساني بين بعضه البعض . والهزات العنيفة الناشئة عن هذا التصادم .

وهو منهج قائم على العدل المطلق . أولاً : لأن الله يعلم حق العلم بم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق . وثانياً : لأنه سبحانه رب الجميع؛ فهو الذي يملك أن يعدل بين الجميع؛ وأن يجيء منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف ، كما أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط الأمر الذي لا يمكن أن يتوافر في أي منهج أو في أي شرع من صنع الإنسان ، ذي الشهوات والميول ، والضعف والهوى وفوق ما به من الجهل والقصور ، سواء كان المشرع فرداً ، أو طبقة ، أو أمة ، أو جيلاً من أجيال البشر . فلكل حالة من هذه الحالات أهواؤها وشهواتها وميولها ورغباتها؛ فوق أن لها جهلها وقصورها وعجزها عن الرؤية الكاملة لجوانب الأمر كله حتى في الحالة الواحدة في الجيل الواحد .

وهو منهج متناسق مع ناموس الكون كله . لأن صاحبه هو صاحب هذا الكون كله . صانع الكون وصانع الإنسان . فإذا شرع للإنسان شرع له كعنصر كوني ، له سيطرة على عناصر كونية مسخرة له بأمر خالقه؛ بشرط السير على هداه ، وبشرط معرفة هذه العناصر والقوانين التي تحكمها . ومن هنا يقع التناسق بين حركة الإنسان وحركة الكون الذي يعيش فيه؛ وتأخذ الشريعة التي تنظم حياته طابعاً كونياً ، ويتعامل بها لا مع نفسه فحسب ، ولا مع بني جنسه فحسب! ولكن

كذلك مع الأحياء والأشياء في هذا الكون العريض ، الذي يعيش فيه ، ولا يملك أن ينفذ منه ، ولا بدَّ له من التعامل معه وفق منهاج سليم قويم .

ثم إنه المنهج الوحيد الذي يتحرر فيه الإنسان من العبودية للإنسان . ففي كل منهج – غير المنهج الإسلامي – يتعبد الناس الناس . ويعبد الناس الناس .

وفي المنهج الإسلامي وحده يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك .تحقيقاً لقاعدة الإسلام الكبرى : « شهادة أن لا إله إلا الله » .بمعناها الذي عبر عنه ربعي بن عامر رسول قائد المسلمين إلى رستم قائد الفرس ، وهو يسأله : « ما الذي جاء بكم؟ ». فيقول : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » . وهو يعلم أن رستم وقومه لا يعبدون كسرى بوصفه إلهاً خالقاً للكون؛ ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة؛ ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع ، فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام وينفيه؛ فأخبره أن الله ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التي يعبد العباد فيها العباد ، ويقرون لهم بخصائص الألوهية من الحاكمية والتشريع (وهي الأديان) . إلى عبادة الله وحده وإلى عدل الإسلام .

إن أخص خصائص الألوهية هي الحاكمية ، وهي أخطر وأكبر قضايا العقيدة . إنها قضية الألوهية والعبودية . قضية العدل والصلاح . قضية الحرية والمساواة . وهي من أجل هذا كله كانت قضية الكفر أو الإيمان ، وقضية الجاهلية أو الإسلام .

والجاهلية ليست فترة تاريخية؛ إنما هي حاله توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام . وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر ، لا إلى منهج الله وشريعته للحياة[329] .

لقد أقام سبحانه شرائع دينه وأحكامه على العدل والقسط . العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم ، وتوزن به الحقوق ، وتوزن به الأعمال والتصرفات . قال تعالى : { الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان } [الشورى: 17]. والمراد بالكتاب : جميع الكتب السماوية التى أنزلها على أنبيائه . بما فيها من عقائد وشرائع ، والمراد بالحق كلّ ما هو صدق وصواب ومطابق ، وكل ما يَحــق ، أي يجب في باب الصلاح عملُه ويصح أن يفسر بالأغراض الصحيحة النافعة . فالله أنزل الكتــاب مشتملا على الحق والصدق واليقين ، فالباء في { بالحق } للملابسة ، أي هو وحده الذى أنــزل جميع الكتب السماوية لهداية الناس ومنفعتهم ، وقد أنزلها سبحانه ملتبسة بالحق مقترنة به بعيدة عن

---

[329]- أنظر : تفسير الظلال 2/ 367-369 ، 494

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباطل ، فكله آيات بينات، وأدلة واضحات، على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينيـة، فجـاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل .

والمراد بالميزان : العدل والقسط الذى تضمنته تعاليمه وشريعته تعالى وأمر الناس بإقامته بينهم فى أمور معاشهم .وتسمية العدل بالميزان من باب تسمية الشئ باسم آلته ، لأن الميزان آلة الإنصـاف والقسط بين الناس في معاملاتهم .فالميزان هنا مستعار للعدل والهدْي بقرينة قوله { أنــزل } فـإن الدّين هو المنزل والدّين يدعو إلى العدل والإنصاف في المجادلة في الدّين وفي إعطاء الحقوق ، فشـبه بالميزان في تساوي رجحان كفتيه ، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكـل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل، والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده ، وجعله حكما فيما يختلف فيـه أصحاب العقائد السالفة ، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم ؛ ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، وأنزل كذلك شريعته العادلة ليتحاكم إليها الناس فى قضاياهم ومعاملاتهم[330].

وقد بين سبحانه عدالته في حكمه وشرعه في جميع كتبه المنزلة على رسله ، واستدل بذلك على وجوب الاحتكام إلى شرائع دينه ، وعدم الخروج عنها إلى شرائع غيره ، لأن الخـروج عنـها إلى غيرها هو كفر بواح ، ومساواتها بشرائع غيره هو شرك صريح . وهذا يعد ظلم عظيم ، وفسـق كبير .

وقد جاءت الآيات في سورة المائدة واضحة في تقرير هذه الحقيقة الإيمانية ، والاستدلال بها على لوازمها التعبدية ، وبيان حقيقة الخروج عن هذه المستلزمات وحكمه بصورة حاسمة وقاطعة لا تقبل المماحكة والجدل ، وقد عرضها من خلال الأديان السماوية الثلاث : اليهودية والنصرانية والإسلام ، ممثلة في كتبهم المنزلة التوراة والإنجيل والقرآن .

1- قال تعالى : { وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِـالْمُؤْمِنِينَ } [المائدة: 42-43].

يخبر تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن جاءك هؤلاء اليهود متحاكمين إليك في قضاياهم ، فليكن حكمك بالعدل الذي أمرت به ، لأن الله تعالى يحب العادلين في أحكامهم . فقوله : { إِنَّ

[330]- راجع : تفسير الظلال 415/1 ، 319/6 ، وتفسير السعدي ، وتفسير ابن عاشور

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الله يُحِبُّ المقسطين }. وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه . قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } [النساء: 58].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا "[331]. ثم قال منكراً على اليهود مسالكهم الخبيثة ، ومعجباً كل عاقل من حالهم ، بقوله : { وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } فهي كبيرة مستنكرة لأنهم لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم، لعلهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم . فهم محجوجون من وجهين :

الأول : إن احتكامهم لغير شريعتهم منافي لإيمانهم ، والثاني : إن احتكامهم للرسول صلى الله عليه وسلم وشريعته منافي لكفرهم به . وفعلهم مستنكر من وجهين :

الأول: أنهم تولوا عن شريعتهم لأنها تخالف أهواءهم ،

والثاني : أنهم احتكموا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ثم تولوا عن حكمه لأنه لم يوافق أهوائهم.

فلا جرم ظهر جهلهم وعنادهم في هذه الواقعة من وجوه :

أحدها : عدولهم عن حكم كتابهم .

الثاني : رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل .

الثالث : إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه . ظنا منهم أنه سيحكم بينهم بما اتفقوا عليه مما يرضى أهواءهم وشهواتهم .

ولا يكتفي السياق بالاستنكار . ولكنه يقرر الحكم الإسلامي في مثل هذا الموقف ، في قوله : { وَمَآ أولئك بالمؤمنين }. ونفي الإيمان عنهم لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم. فما يمكن أن يجتمع الإيمان ، وعدم تحكيم شريعة الله ، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة ، وهذا كقوله تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء: 65]. إن القضية هي قضية الإقرار بألوهية الله وحده وقبول شريعته والرضى بحكمها ؛ أو رفض هذا الإقرار والتولي عن تحكيم شريعته في حياتهم وعدم الرضى بها .

[331]- رواه مسلم في صحيحه برقم (1827)

وبعد أن بيّن حكمه تعالى على المحكومين الذين لا يقبلون حكم شريعته ، بيّن حكمه على الحاكمين ، الذين لا يحكمون بما أنزل الله .ويبدأ بالتوراة ، قال تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة:44]. والمعنى إنا أنزلنا التوراة مشتملة على ما يهدي الناس إلى الحق من أحكام وتكاليف وعلى ما يضئ لهم حياتهم من عقائد ومواعظ وأخلاق فاضلة .

لقد جاء كل دين من عندالله ليكون منهج حياة ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها . ولم يجيء دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير؛ ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى في المحراب .

فالحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد؛ يملك السلطان على الضمائر والسرائر ، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك . فأما حين تتوزع السلطة ، وتتعدد مصادر التلقي . فتكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع . حينئذ تتمزق النفس البشرية بين منهجين مختلفين وبين سلطتين مختلفتين ، منهج الحق والعدل وسلطانه ، ومنهج الباطل والطغيان وسلطانه ، وحينئذ تفسد الحياة البشرية : كقوله تعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الأنبياء: 22]. وقوله : { وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ } [المؤمنون: 71]. وقوله : { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [الجاثية: 18]. فأنزل الله التوراة فيها هداية للناس إلى الحق ، يحكم بها بين اليهود أنبياءهم الذين أسلموا وجوههم لله ، وأخلصوا له العبادة والطاعة ، ويحكم أيضاً بينهم الربانيون والأحبار الذين هم خلفاء الأنبياء . وكان هذا الحكم منهم بالتوراة بين اليهود ، بسبب أنه تعالى حملهم أمانة حفظ كتابه ، وتنفيذ احكامه وشرائعه وتعاليمه . قال تعالى : { وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف: 159].

وقد علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه في كل زمان وفي كل أمة معارضة من الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث . ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه؛ ويرد الألوهية لله خالصة ، وذلك حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله . وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم

. ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة . وستواجهه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال . ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها . وستواجهه معارضة جهات شتى ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض.

علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات؛ وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة؛ وإن يصمدوا لها ، وإن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال . فهو يقول لهم :{ فلا تخشوا الناس واخشون } . فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله . فالله وحده هو الذي يستحق أن يخشوه والخشية لا تكون إلا لله .

كذلك علم سبحانه أن بعض المستحفظين على كتاب الله قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا؛ وهم يجدون أصحاب السلطان والمال والشهوات لا يريدون حكم الله ، فيملقون شهوات هؤلاء جميعاً ، طمعاً في عرض الحياة الدنيا كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وكما كان ذلك واقعاً في علماء بني إسرائيل . فقال لهم :{ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً } . وذلك لقاء السكوت ، أو لقاء التحريف ، أو لقاء الفتاوى المدخولة! يباع بها الدين ، وتشترى بها جهنم عن يقين ! إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن وتفريط المستحفظ وتدليس المستشهد . والذين يحملون عنوان : « رجال الدين » يخونون ويفرطون ويدلسون ، فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، لموافاة أهواء ذوي السلطان على حساب كتاب الله . { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون } .

بهذا الحسم الصارم الجازم . وبهذا التعميم ، بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان ، وينطلق حكماً عاماً ، على كل من لم يحكم بما أنزل الله ، في أي جيل ، ومن أي قبيل . والعلة هي أن الذي لا يحكم بما أنزل الله ، إنما يرفض ألوهية الله . فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية . ومن يحكم بغير ما أنزل الله ، يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب ، ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر . وما قيمة دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان ، والعمل ينطق بالكفر أفصح من اللسان؟!

وبعد بيان هذا الأصل القاعدي في دين الله كله ، يعود السياق ، لعرض نماذج من شريعة التوراة التي أنزلها الله ليحكموا بها ، في قوله تعالى : { وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [المائدة: 45].

وهذه الأحكام التي نزلت بها التوراة قد استبقيت في شريعة الإسلام ، وإن أول ما تقرره شريعة الله في القصاص ، هو مبدأ العدالة والمساواة في الدماء والمساواة في العقوبة لا تمييز . ولا عنصرية . ولا طبقية . ولا حاكم . ولا محكوم . كلهم سواء أمام شريعة الله .

إن هذا المبدأ العظيم الذي جاءت به شريعة الله هو الإعلان الحقيقي الكامل لميلاد الإنسان الذي يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة . أولاً في التحاكم إلى شريعة واحدة وقضاء واحد . وثانياً في المقاصة على أساس واحد وقيمة واحدة . والقصاص على هذا الأساس العظيم فوق ما يحمله من إعلان ميلاد الإنسان هو القضاء العادل الذي تستريح إليه الفطرة؛ وتلك شريعة الله العليم بخلقة؛ وبما يحيك في نفوسهم من مشاعر وخواطر ، وبما يتعمق قلوبهم ويرضيها؛ ويسكب فيها الاطمئنان والسلام من الأحكام .

وبعد عرض هذا الطرف من شريعة التوراة ، التي صارت طرفاً من شريعة القرآن ، يعقب بالحكم العام : { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون } . تذييل قصد به التحذير من مخالفة حكم الله . أي : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ، حيث تركوا الحكم العدل واتجهوا إلى الحكم الجائر الظالم . ثم يمضي السياق في بيان اطراد هذا الحكم العام فيما بعد التوراة .

2- قال تعالى : { وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [المائدة: 46-47].

فقد آتى الله عيسى بن مريم الإنجيل وقد وصفه تعالى بخمس صفات : أولها : أنه فيه (هدى) أي : فيه هداية للناس إلى الحق الذي متى اتبعوه سعدوا في دنياهم وآخرتهم . وثانيها : أنه فيه (نور) أي : ضياء يكشف لهم ما التبس عليهم من أمور دينية ودنيوية .وثالثها : كونه { مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراة } أي أن الإنجيل مؤيد ومقرر لما جاءت به التوراة من أحكام وآداب وشرائع أنزلها الله فيها . ورابعها : كونه : (هدى) أي : هو بذاته هدى فضلا على اشتماله عليه . وخامسها : كونه : { وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ } أي : تذكير لهم بما يرق له القلب ، وتصفو به النفس ، وتنزجر به

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القلوب عن غشيان المحرمات ، وقد جعله تعالى منهج حياة وشريعة حكم لأهل الإنجيل ، فهم مطالبين أن يتحاكموا إلى الشريعة التي أقرها وصدقها الإنجيل من شريعة التوراة :{ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه } .

فالقاعدة هي الحكم بما أنزل الله دون سواه . والنصارى واليهود كذلك لن يكونوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وحتى يقيموا الإسلام كذلك فكله شريعة واحدة ، وهم ملزمون بها ، وشريعة الله الأخيرة هي الشريعة المعتمدة : { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون } . والنص هنا كذلك على عمومه وإطلاقه . وصفة الفسق تضاف إلى صفتي الكفر والظلم من قبل . فهي صفات تنطبق جميعها على من لم يحكم بما أنزل الله من أي جيل ، ومن أي قبيل .

ـــ فهو كافر باعتباره رافضاً لألوهية الله سبحانه ممثلاً هذا في رفض شريعته واختصاصه بالتشريع لعباده ، وبادعائه هو حق الألوهية في التشريع للناس .

ـــ وهو ظالم بحمل الناس على غير شريعة ربهم ، الصالحة المصلحة لأحوالهم . فوق ظلمه لنفسه بإيرادها موارد التهلكة ، وتعريضها لعقاب الكفر . وبتعريض حياة الناس وهو معهم للفساد.

ـــ وهو فاسق لخروجه عن منهج الله وشريعته وإتباع غير طريقه وحكمه .

ويظهر للمتأمل نكتة التعبير بالكفر في الأولى وبوصف الظلم في الثانية،وبوصف الفسق في الثالثة. ففي الآية الأولى كان الكلام في التشريع ، وإنزال الكتاب مشتملا على الهدى والنور ، والتزام الأنبياء وحكماء العلماء بالعمل والحكم به . فكان من المناسب أن يختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له ، مؤثرا لغيره عليه . يكون كافرا به . وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها في أصل الكتاب الذي هو ركن الإيمان ، بل في عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء . فمن لم يحكم بحكم الله في ذلك يكون ظالما في حكمه . وأما الآية الثالثة فهي في بيان هداية الإنجيل وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب في إقامة الشريعة على الوجه الذي يطابق مراد الشارع وحكمته . فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا فهم الفاسقون بالمعصية ، والخروج عن محيط تأديب الشريعة .

وأخيراً يصل السياق إلى الرسالة الأخيرة؛ وإلى الشريعة الأخيرة . إنما الرسالة التي جاءت تعرض « الإسلام » ليكون دين البشرية كلها؛ ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعاً؛ ولتهيمن على كل ماكان قبلها وتكون هي المرجع النهائي؛ ولتقيم منهج الله العادل الذي تقوم عليه الحياة في شتى

شعبها ونشاطها؛ والشريعة التي تعيش الحياة في إطارها وتدور حول محورها؛ وتستمد منها تصورها الاعتقادي ، ونظامها الاجتماعي ، وآداب سلوكها الفردي والجماعي .

3- قال تعالى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [المائدة: 48].

يتمثل الحق في صدوره من جهة الألوهية ، وهي الجهه التي تملك حق تنزيل الشرائع ، وفرض القوانين . ويتمثل الحق في محتوياته ، وفي كل ما يعرض له من شئون العقيده والشريعه ، وفي كل ما يقصه من خبر ، وما يحمله من توجيه .{ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه } فهو المرجع الأخير في منهج الحياة وشرائع الناس ، ونظام حياقم ، بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل . فقد وصفه تعالى بأنه قد أنزله ملتبسا بالحق والصدق ، وأنه مؤيد ومقرر لما اشتملت عليه الكتب السماوية من الدعوة إلى الحق والخير ، وأنه أمين على تلك الكتب ، وحاكم عليها ، ومن ثم فكل اختلاف يجب أن يرد إلى هذا الكتاب ليفصل فيه . سواء كان هذا الاختلاف في التصور الاعتقادي بين أصحاب الديانات السماويه ، أو في الشريعه التي جاء هذا الكتاب بصورتها الأخيره . أو كان هذا الاختلاف بين المسلمين أنفسهم ، فالمرجع الذي يعودون إليه بآرائهم في شأن الحياه كله هو هذا الكتاب ، ولا قيمه لآراء الرجال ما لم يكن لها أصل تستند إليه من هذا المرجع الأخير . وتترتب على هذه الحقيقه مقتضياتها المباشره : { فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق } .

وقد علم الله أن معاذير كثيره يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله واتباع أهواء المحكومين والمتحاكمين . فحذر الله نبيه صلى الله عليه وسلم من اتباع أهواء المتحاكمين ، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه . فحسم سبحانه هذا الأمر ، وقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف ، قال تعالى : { إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا } [النساء: 105].

وبذلك أغلق مداخل الشيطان كلها؛ وبخاصة ما يبدو منها خيراً وتأليفاً للقلوب وتجميعاً للصفوف؛ بالتساهل في شيء من شريعة الله؛ في مقابل إرضاء الجميع! أو في مقابل ما يسمونه

وحدة الصفوف! وإنها لتعلة باطلة ، ومحاولة فاشلة ، أن يحاول أحد تجميعهم على حساب شريعة الله ، أو بتعبير آخر على حساب صلاح الحياة البشرية وفلاحها .

فالعدول أو التعديل في شريعة الله لا يعني شيئاً إلا الفساد في الأرض؛ وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم؛ وإلا انتفاء العدالة في حياة البشر؛ وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض ، واتخاذ بعضهم لبعض أرباباً من دون الله . وهو شر عظيم وفساد عظيم لا يجوز ارتكابه ، فهي محاولة عقيمة لا تكون؛ لأنها غير ما قدره الله في طبيعة البشر؛ ولأنها مضادة للحكمة التي من أجلها قدر ما قدر من اختلاف المناهج والمشارع ، والاتجاهات والمشارب .

وقد عرض الله عليهم الهدى؛ وتركهم يستبقون إلى فعل الخيرات وحضهم على المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. وجعل هذا ابتلاء لهم يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه ، وهم إليه راجعون ؛ ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة ، ويزيدها وضوحاً . قال تعالى : { وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (49) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [المائدة: 49-50].

فالتحذير هنا أشد وأدق؛ وهو تصوير للأمر على حقيقته . فهي فتنة يجب أن تحذر . والأمر في هذا المجال لا يعدو أن يكون حكماً بما أنزل الله كاملاً؛ أو أن يكون اتباعاً للهوى وفتنة يحذر الله منها .فإنه إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية . ولا وسط بين الطرفين ولا بديل . . حكم الله يقوم في الأرض ، وشريعة الله تنفذ في حياة الناس ، ومنهج الله يقود حياة البشر . . أو أنه حكم الجاهلية ، وشريعة الهوى ، ومنهج العبودية . . فأيهما يريدون؟ { أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ } .

إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص . فالجاهلية هي حكم البشر للبشر، ورفض ألوهية الله ، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله . إن الجاهلية – في ضوء هذا النص – ليست فترة من الزمان؛ ولكنها وضع من الأوضاع يأخذ صفة الجاهلية المناقضة للإسلام . والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية؛ والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ، فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى .

وهذا مفرق الطريق ، يقف الله الناس عليه . وهم بعد ذلك بالخيار! ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية؛ وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله .{ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟} .

إنها الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس . والاعتراف المطلق بهذه الأفضلية لشريعة الله ، ومن ثم فهي قضية الكفر والإيمان . فما يملك إنسان أن يدعي أن شريعة أحد من البشر ، تفضل أو تماثل شريعة الله ، في أية حالة أو في أي طور من أطوار الجماعة الإنسانية . ثم يدعي - بعد ذلك - أنه مؤمن بالله ، وأنه من المسلمين . فمن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم ، خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الادعاء العريض؟ فهل يستطيع أن يدعي أنه أعلم من الله بحال الناس ومصالحهم ، أو أنه أرحم بالناس من ربهم ، أو أنه أعدل من أحكم الحاكمين في تشريعه وحكمه لعباده أو في تدبير أمرهم . أو يدعي أن أحوالاً وحاجات جرت في حياة الناس ، وكان الله غير عالم بها وهو يشرع شريعته؛ أو كان عالماً بها ولكنه لم يشرع لها! ولا تستقيم مع هذا الادعاء دعوى الإيمان والإسلام . مهما قالها باللسان! فالموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز -بإيقانه- ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين -عقلا وشرعا- اتباعه. واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل[332] .

وقد استدل سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بعدالته في شرعه ودينه على لازمها من العبودية والتي تقتضي من العبد الانقياد للحق الذي أنزله تعالى على رسله وبينه في كتبه، واتباعه والأحتكام إليه في كل شؤون الحياة . فقد جاء شرعه تعالى مستوفياً لحاجة الإنسان كماً وكيفاً بما يحقق الكفاية والإستغناء عن غيره من الشرائع والقوانين الوضعية الناقصة والقاصرة .

1- قال تعالى : { أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام: 114-116].

332- راجع : تفسير الظلال 2/ 371،366-378 ، وتفسير السعدي 232-234، وتفسير طنطاوي 1263-1288

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنه سؤال من الرسول عليه الصلاة والسلام للاستنكار أن يبتغي حكما غير الله في شأن من الشؤون على الإطلاق . وتقرير لجهة الحاكمية في الأمر كله ، وإفرادها بهذا الحق الذي لا جدال فيه . ونفي أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالبا حكمه في أمر الحياة كله . فإن غير الله محكوم عليه لا حاكم. وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص، والعيب، والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكما، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

ثم يأتي تفصيل هذا الإنكار والملابسات التي تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً . فإن الله لم يترك شيئاً غامضاً؛ و لم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه في ما يعرض لهم من مشكلات الحياة : و { وَهُوَ الذي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب مُفَصَّلاً } وهي جملة حالية مؤكدة للإنكار أي : أفغير الله أطلب من يحكم بيني وبينكم ، والحال أنه تعالى هو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ومبيناً فيه الحلال والحرام ، والحق والباطل وغير ذلك من الأحكام وأصول الدين وفروعه ، وأسند الإنزال إليهم لاستمالتهم نحو المنزل واستدعائهم إلى قبول حكمه ، لأن من نزل الشيء من أجله ، من الواجب عليه أن يتقبل حكمه . فقد أنزله تعالى محتوياً على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة . كما أنه تضمن أحكاماً تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة . فكان في كتابه تعالى غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة . ثم إن هناك مِن حولهم ملابسة أخرى تجعل ابتغاء غير الله حكما في شأن من الشؤون أمراً مستنكرا غريبا . . فقال : { والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق } . فالحق محتواه؛ كما أن الحق متلبس بتنزيله من الله . وأهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق . ويعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذي يتلبس به ، ومن هذا الحق الذي يحتويه . ومن أجل علمهم بهذا كله يحاربون هذا الدين ، وأشد هذه الحرب وأنكاها ، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب؛ إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر . حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود .

ويمضي السياق في هذا الاتجاه؛ يقرر تفصيلها فقال: { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا } أي: صدقا في الأخبار، وعدلا في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ، فقد تمت كلمة الله الفاصلة صدقا فيما أخبر وقرر ، وعدلا فيما شرع وحكم ، فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو مبدأ ، أو قيمة أو ميزان . ولم يبق بعد ذلك قول لقائل في شريعة أو حكم ، أو عادة أو تقليد . . ولا معقب لحكمه ولا مجير عليه . حيث

حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منـــها ، فكانت كلمته تعالى وهو القرآن وما جاء به الرسول من عند ربه تماماً لكل قضايا العقيدة والشريعة حيث تحقق الصدق في أخبارها والعدل في أحكامها ، وهو تمام (كمي وكيفي) فكانـــت تمامـــاً كمياً باستيفائها كل قضايا الإيمان بما يحقق الكفاية لكل ما يحتاجه الإنسان من معتقد وحكـــم في حياته ، وتماماً كيفياً ببلوغها أعلى درجات الصدق والصحة اليقينية وهو المدلول المباشر لقوله : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا }. وبذلك يستغني الإنسان عن كل المصادر البشرية بكفاية الوحي له كماً وكيفاً بمعتقدٍ سليم وشريعة صحيحة .

وإلى جانب تقرير المبدأ الإسلامي الأول : مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده؛ وتجريد البشر من ادعاء هذا الحق أو مزاولته في أية صورة من الصور ، يقرر أن ما يرونه البشر إن هو إلا إتباع الظن الذي ينتهي بهم إلى الضلال . ويحذر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطيع النـــاس في شـــيء يشيرون به عليه من عند أنفسهم؛ مهما بلغت كثرتهم؛ فالجاهلية هي الجاهلية مهما كثـــر أتباعهـــا الضالون . والمنهج القرآني يتكئ كثيرا جدا على هذا المبدأ لتقريره في كل مناسبة . ذلك أن هـــذا المبدأ هو العقيدة ، وهو الدين ، وهو الإسلام[333] .

إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله وهم يزعمون أنهم مسلمون ، فهو زعم باطل لأنه يتناقض مع بديهيات الإيمان ، ويخالف شرط الإيمان وحد الإسلام ، فإن المنهج الإيماني ونظامه الأساسي ، يقوم على أساس السمع والطاعة لله ورسوله والاحتكام لشريعته ودينه.

2- قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [آل عمران: 23].

إنه سؤال التعجيب والتشهير من هذا الموقف المتناقض الغريب . موقف الذين أوتوا نصيباً مـــن الكتاب وهم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم في خلافاتهم ، وليحكم بينهم في شؤون حيـــاتهم ومعاشهم ، فلا يستجيب فريق منهم ويعرض عن تحكيم كتاب الله وشريعته . الأمر الذي يتناقض مع الإيمان بأي نصيب من كتاب الله؛ والذي لا يستقيم مع دعوى أنهم أهل كتاب . فكيف بمـــن

---

[333]- راجع : تفسير الظلال 129/3 ، وتفسير الرازي 450/6 ، وتفسير طنطاوي 1535، وتفسير السعدي 260، وتفسير ابن عاشور 89/5 ، مناهج البحث في العقيدة ، عبد الرحمن الزنيدي 313-314 ، وأثرالعقيدة ، زكريا الشلول 114

يقولون : إنهم مسلمون ، ثم يخرجون شريعة الله من حياتهم كلــها . ثم يظلـون يزعمـون أنهـم مسلمون! فهو زعم كاذب . يكذبه أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله .

3- قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْـكَ صُدُودًا } [النساء: 60-61].

إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت أي إلى غير شريعة الله لا يقبل منهم زعمهم أنهـم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله ، فإن المنهج الإيماني ونظامه الأساسي ، هو أن تطيع الله ورسوله فهذا شرط الإيمان وحد الإسلام ، قال تعالى : { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ } [آل عمران: 32].

إن هذا المنهج الإيماني معناه : السمع والطاعة للمنهج الذي يضعه له الله . فهو الخـالق العلـيم بالإنسان البصير والخبير به . وبما يصلحه من أحكام وشرائع تحقق له الخير والمصلحة ، وهو الحكيم العادل فيما يشرع ويقضي . فهو وحده الذي يضع له منهج بريء من جهـل الإنسـان وهـوى الإنسان ، منهج لا محاباة فيه لفرد ، ولا لشعب ، ولا لجيل من البشر علـى جيـل . لأن الله رب الجميع ولا تخالجه سبحانه عن ذلك شهوة المحاباة لأحد من البشر .

وحين يقرر سبحانه هذه القاعدة الكلية في شرط الإيمان وحد الإسلام ، وفي النظام الأساسـي للأمة المسلمة ، وفي منهج تشريعها وأصوله . يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هـذه القاعـدة؛ ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مؤمنون! وهم ينقضون شرط الإيمان وحـد الإسـلام . إذ يريـدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله . نجد شهادة من الله بعدم إيمان الذين { يريدون أن يتحـاكموا إلى الطاغوت } .

فقد اعتبر مجرد إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت خروجاً من الإيمان قبل الدخول فيه ابتداء . لأنهم يريدون أن يتحاكموا إلى منهج غير منهج الله ، منهج لا ضابط له ولا ميزان ومن ثم فهو طاغوت بادعائه خاصية من خواص الألوهية . وطاغوت بأنه لا يقف عند ميزان مضبوط أيضـاً! وهـم لا يفعلون هذا عن جهل ، ولا عن ظن . إنما هم يعلمون يقيناً ويعرفون تماماً ، أن هذا الطاغوت محرم التحاكم إليه : { وقد أمروا أن يكفروا به } فهم لا يدخلون في الإيمان؛ ولا يحسبون مؤمنين حتى

يحكموا الرسول صلى الله عليه وسلم في أقضيتهم . ثم يطيعوا حكمه ، وينفذوا قضاءه . طاعة الرضى ، وتنفيذ الارتياح القلبي؛ الذي هو التسليم ، لا عجزاً واضطراراً ، ولكن طمأنينة وارتضاء .

إن هذا هو المقتضى الفطري البديهي للإيمان ، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، فإذا زعم أنه آمن بالله وبالرسول وما أنزل إليه من ربه . ثم يصد ويأبى التحاكم إلى أمر الله وشرعه فهو يخالف البديهية الفطرية . ويكشف عن النفاق . وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان! وإلى هذه البديهية الفطرية يحاكم الله أولئك الذين يزعمون الإيمان بالله ورسوله . ثم لا يتحاكمون إلى منهج الله ورسوله . بل يصدون عن ذلك المنهج حين يدعون إليه صدوداً! وهكذا يحدد سبحانه تحديداً كاملاً دقيقاً حاسماً لشرط الإيمان وحد الإسلام ، لتبقى حقائق الإيمان خارج المماحكة والجدل ، ولتبقى الفواصل العقدية واضحة لا لبس فيها [334] .

بهذا الجلاء والوضوح تقررت حقائق الإيمان ومعالم الدين ولم تبقى في قضاياه حقيقة إلا وبينها المنهج القرآني بكل تفاصيلها وابعادها بصورة واضحة وحاسمة وقاطعة ، وقد كان للقصص القرآني عامة ولقصة إبراهيم خاصة دور بارز في تحقيق ذلك ، وسوف نستعرض الآيات التي في قصة إبراهيم والتي يستدل بها على تفرده تعالى بالألوهية واستحقاقه للعبودية بعدالته في شرعه ودينه ، وذلك على النحو الآتي :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } [مريم: 43].

يدعو إبراهيم أباه إلى إتباع الحق بألطف أسلوب ، مبيناً بأنه لا يقول هذا من نفسه ، إنما هو العلم الذي جاءه من طريق الوحي الإلهي فجعله يفقه ويعرف الحق وما يلزم الإنسان نحو ربه ؛ فهو ينصح أباه الذي لم يتلق هذا العلم ليتبعه في طريق الإيمان الذي هداه الله إليه . وقد جمع إبراهيم في خطابه لأبيه بين الأدب الجم ولإقناع الأتم والإلزام الحتم ، فقد أتاه بصيغة تقتضي منه وجوب الاقتداء به ، وبيّن له أن العلم الذي وصل إليه لم يصل لأبيه ولم يأته ، فينبغي عليه بمقتضى ذلك أن يتبع الحجة وينقاد لها . وقد حجّ إبراهيم أباه في هذه الآية بعدة حجج :

---

[334]- راجع : تفسير الظلال 352/1 ، 159/2 ، 164-168

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فحجه أولاً : بأن الذي جاءه به هو العلم ، وهذا العلم يستند إلى الدليل القاطع المطابق للواقع ، فاخرج بذلك الجهل والظن والشك والتقليد والفساد من معتقده وأثبته لوالده بطريق التعريض أدباً في الخطاب ، وفي أمره بأن يتبعه بما عنده من العلم دليل على أن أحقية العالم بأن يتبع مركوزة في غريزة العقول لم يزل البشر يتقصون مظان المعرفة والعلم لجلب ما ينفع واتقاء ما يضر ، قال تعالى : { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل: 43].

حجه ثانياً : بأن هذا العلم الذي معه ليس منه ولا من أحد من البشر ، وإنما هو علم صادر من الوحي المعصوم من عند الله تعالى ، فاخرج بذلك الاجتهاد والرأي ، والقصور والهوى ، قال تعالى : { وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } [النساء: 163-166]. ونقف أمام عظمة العدل الذي يرتب للناس حجة على الله لو لم يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين . هذا مع احتشاد كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون بالآيات الشواهد على الخالق ، ووحدانيته ، ومع هبة العقل الذي يملك أن يحصي الشواهد ويستنبط النتائج . ولكن الله سبحانه بفضله ورحمته قد أعفى الناس من حجية الكون ، وحجية الفطرة ، وحجية العقل ، وأرسل إليهم الرسل ليضبطوا بموازين الحق الإلهي الممثل في الرسالة ، هذه الأجهزة ، فتصح أحكامها حين تستقيم على ضوابط المنهج الإلهي . وعندئذ فقط يلزمها الإقرار والطاعة والإتباع ؛ أو تسقط حجتها وتستحق العقاب[335] .

حجه ثالثاً : بأنه يدعوه إلى الهدى الموصل للحق فاخرج بذلك الضلال والذي ورثوه عن آبائهم ، كما في دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه : { قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [الأنبياء: 54-56].

وحجه رابعاً : بأن طريق الهدى الذي يدعوه إليه إنما يقوم على العدل والاستقامة فاخرج بذلك الجور والاعوجاج عن الحق . كما في قوله : { فاتبعني أهدك صراطاً سوياً } والسوي : العدل

---

[335]- انظر : تفسير الظلال 289/2

وقال الراغب : السوا : المساواة والمعادلة ، ويقال فيما يصان عن الإفراط والتفريط من حيث القدر والكيفية . قال تعالى : { ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا } [مريم: 10]. وقال تعالى : { فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى } [طه: 135]. وقال الأزهري ، ومنه قوله تعالى : { تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ } [آل عمران: 64]. أي : عدل ، ويقال : سويت بينهما : عدلت ، وقوله : { مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى } [طه: 58]. أي : عدل ووسط ، ولمعنى المعادلة التي فيه استعمال العدل .

قال الشاعر : أبينا فلا نعطى السواء عدونا ... قياما بأعضاد السراء المعطف [336].

والمقصود من قوله: { أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } أي: مستقيما معتدلا لا عوج فيه ولا اضطراب ولا يضل سالكه ، موصلا إلى نيل المطلوب والنجاة من المرهوب ، وهو ما أُوحى إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعته في جميع الأحوال ، قال تعالى : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } [الأنعام:161- 163]. فهذا أمر من الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام ، أن يعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم : الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، وهو دين الإسلام الدين القيم المتفق مع ملة إبراهيم الذي كان مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق . لا كما يزعم المشركون وأهل الكتاب أن إبراهيم كان على دينهم .

وبهذه المحاجة أقام إبراهيم على أبيه الحجة وقطع عليه المحجة ، وألزمه بمقتضاها وهو وجوب إتباعه فيما يدعوه إليه ، قال تعالى : { اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 121-123].

فصحة المنهج وعدالته واستقامته موجب لإتباعه والتمسك به ، كقوله تعالى : { فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الزخرف: 43]. والصراط المستقيم مستعار للفعل الجاري على مقتضى العدل والحكمة لأنّ العدل يشبّه بالاستقامة والسواء[337] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[336] - هذا شطر بيت لعنترة وعجزه: قياما بأعضاد السراء المعطف ، وهو في ديوانه ص 52 والحجة للفارسي 1 / 246

[337] راجع : تاج العروس 8442 ، القاموس المحيط 1673، مفردات القرآن 744

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير ما ملخصه : وإنما وصفه الله بالاستقامة لأنه صواب لا خطأ فيه وقد أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وذلك في لغة العرب فمن ذلك قال جرير : { أمير المؤمنين على صراط . . إذا اعوج الموارد مستقيم } . ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج ، فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه ، .

ثم اختلفوا في تفسير الصراط فقيل كتاب الله ، وقيل الرسول ، وقيل الإسلام ، كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " ضرب الله مثلا صراطا مستقيما على كنفى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى الصرط داع يدعو يقول : يا أيها الناس اسلكوا الصراط جميعا ولا تعوجوا وداع يدعو على الصراط فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال : ويلك لا تفتحه فإنك إنه تفتحه تلجه ، فالصراط : الإسلام ، والستور : حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله و الداعى الذي على رأس الصراط كتاب الله والداعى من فوق واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم "[338].

ويرجع حاصل الأقوال إلى شيء واحد وهو : المتابعة لله ولرسله جميعاً ومن اتبعهم بإحسان ، لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به والانزجار عما زجره عنه وإتباع منهجه القويم ودينه القيم[339].

قال تعالى على لسان يوسف : { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [يوسف: 38-40].

---

[337]- راجع : تفسير ابن عاشور 482/8، وتفسير الألوسى 71/1 ، 498/11 ، وتفسير المنتخب 11/2، وتفسير الظلال 98/5 ، وتفسير السعدي 441، 494 ، وتفسير اطفيش 489/5 ، وتفسر البقاعى 205/5

[338]- سنن الترمذي رقم (2859) ، والمستدرك للحاكم رقم (245)

[339]- أنظر تفسير الطبرى 170/1 ، وتفسير ابن كثير 137/1

والصراط المستقيم هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط في كل الأخلاق وفي كل الأعمال ، وأكد ذلك بقوله تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: 143] .

إنها الأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل ، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد ، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي :

{ أمة وسطاً } في التصور والاعتقاد . لا تغلو في التجرد الروحى ولا في الارتكاس المادي . إنما تتبع الفطرة وتعطى لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد ، بلا تفريط ولا إفراط ، فى قصد وتناسق واعتدال .

{ أمة وسطاً } . في التفكير والشعور . لا تجمد على ما علمت . ولا تتبع كذلك كل ناعق ، إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول؛ ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب؛ وشعارها الدئم الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها ، في تثبت ويقين .

{ أمة وسطاً } . في التنظيم والتنسيق . فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ، ولا تكلهم كذلك إلى وحى الوجدان . إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب ، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب؛ وتزاوج بين هذا وذاك .

{ أمة وسطاً } . في الارتباطات والعلاقات . لا تلغى شخصية الفرد وتجعله يذوب في شخصية الجماعة أو الدولة؛ ولا تطلقه كذلك فرداً جشعاً . إنما تقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة والجماعة كافلة للفرد فى تناسق واتساق .

{ أمة وسطاً } . في المكان . فهى الأمة التى تتوسط أقطار الأرض ، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعاً ، وتشهد على الناس جميعاً؛ وتعطى ما عندها لأهل الأرض قاطبة؛ وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك؛ وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء .

{ أمة وسطاً } . في الزمان . تنهى عهد طفولة البشرية من قبلها؛ وتحرس عهد الرشد العقلى من بعدها . وتزواج بين تراثها الروحى من عهود الرسالات ، ورصيدها العقلى المستمر في النماء؛ وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك . إنها الأمة الوسط التى تشهد على الناس جميعاً فتقيم

بينهم العدل والقسط؛ وتضع لهم الموازين والقيم؛ وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد؛ وهى شهيدة على الناس ، وفي مقام الحكم العدل بينهم[340].

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها ، إلا أنها تخلت عن منهج الحق والعدل الذي اختاره الله لها ، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هى التى اختارها الله لها ، فتنكبت الطريق وتفرقت بها السبل ، قال تعالى : { أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [الملك: 22]. وهذا المثل لحال المؤمن والكافر يشير إلى الارتباط بين حالة الاعتدال للفرد ، والاهتداء لطريق العدل ، فالمشرك يتوجه بعبادته إلى آلهة كثيرة فتفرق به السبل ولا يهتدى إلى سبيل الحق والعدل ، وأما الموحد واثق بأنه على الحق سائر فيه[341]، كقوله تعالى : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام: 153]. وقوله : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [يوسف: 108].

*** الشاهد الثانى :**

قال الله تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد: 25-26].

لقد أرسل سبحانه الرسل بالمفصَّلات من البيان والدلائل، وأنزل معهم الكتاب بالأحكام والشرائع، والميزان بالعدل. ليعمل الناس بينهم بالعدل . ففى قوله : { لِيَقُومَ الناس بالقسط } علة لإنزال الكتاب والميزان والقيام بالقسط أى بالعدل يشمل التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان ، وفي أمور المعاد باحتذاء الكتاب وهو لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغى الاتصاف به معاشاً ومعاداً . ونظيره فى قوله : { الله الذى أَنْزَلَ الكتاب بالحق والميزان } [الشورى: 17]. وقال : { والسماء رَفَعَها وَوَضَعَ الميزان } [الرحمن: 7].

340- انظر : تفسير الظلال 1/100 - 101

341- راجع تفسير الظلال 99-101

فقد جاءت كل الرسالات لتقرّ في الأرض وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية ، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال؛ وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع . ميزاناً لا يحابي أحداً لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع . قال تعالى : { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [النور: 48-51]. فالميزان الذي أنزله الله على رسوله وفي رسالته هو الضمان الوحيد للبشرية من الاضطراب التي تحيق بها في معترك الأهواء والعواطف . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة . { ليقوم الناس بالقسط } . فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته ، لا يهتدي الناس إلى العدل ، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه ، فسرعان ما تضطرب بهم الجهالات والأهواء! هذا لمن أذعن للبينات لذات من أقامها أو للرغبة فيما عنده[342].

ولما كان الإعراض بعد الإبلاغ في الإيضاح موجباً للرد عن الفساد بأنواع الجهاد ، قال مهدداً وممتناً ترغيباً وترهيباً معبراً عن الخلق بالإنزال تشريفاً وتعظيماً : { وأنزلنا } أي خلقنا خلقاً عظيماً بما لنا من القدرة { الحديد }. لأن إقامة الكتاب وقيام العدل بين الناس يحتاج إلى قوة السيف والسلطان ، ليرد به على الأعداء ، ويزجر به الظلمة ، لأن الظلم من شيم النفوس ، وكما قيل : " إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " . قال تعالى : { وَأَنزَلْنَا الحديد فيه بأس شديد } ، وهذا إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف ليحصل القيام بالقسط ، وقوله تعالى : { ومنافع لِلنَّاس } أي في معايشهم ومصالحهم وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد إذ ما من صنعة إلا والحديد أو ما يعمل به آلتها للإيماء إلى أن القيام بالقسط كما يحتاج إلى الوازع وهو القائم بالسيف يحتاج إلى ما به قوام التعايش ليتحقق التمدن المحتاج إليه النوع ، وليتم القيام بالقسط ، ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب ، عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم لله ورسله ، فهو نصر لمنهجه ودعوته .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

342- أنظر : تفسير الظلال.

ولأن الله سبحانه لا يحتاج منهم إلى نصر ، فقال : { إن الله قويٌ عزيز } . اعتراض تـذييلي جيء به تحقيقاً للحق وتنبيهاً على أن تكليفهم الجهاد وتعريضهم للقتال ليس لحاجته سبحانه في إعلاء كلمته وإظهار دينه إلى نصرهم بل إنما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب وإلا فهو سبحانه غني بقدرته وعزته عنهم في كل ما يريد ، ولما انتهى من تقرير وحـدة الرسـالة في جوهرها وكتابها وميزانها عاد يقرر وحدتها في رجالها ، فهم من ذرية نوح وإبراهيم .{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وإبراهيم } نوع تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا } وتكرير القسم لإظهار مزيد الاعتناء بالأمر أي وبالله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم . { وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَـا النبوة والكتاب } بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب المتضمنة للعقائد والشرائع ، ليقيموا فيهم الحق والعدل ، ويفصلوا بين الناس اختلافهم في المعارف والعقائد بحقائق الإيمان ، وفي الأعمال والتصرفات بشرائع الإسلام ، قال تعالى : { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } . . . إلى قوله : { فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [الشورى: 13-15].

فقد أنزل سبحانه شرائع دينه على رسله وعهد إليهم بإقامتها بين عباده والذي أوحاه تعالى لنبيه محمد وما وصى به أولى العزم من الرسل من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، هو دين واحد قـائم على الإيمان والتوحيد ، والاستقامة على طاعة الله في أمره ونهيه ، وإقامة ذلك بـالحق والعـدل ، وعدم التفرق والاختلاف فيه ، وعدم التفريط به أو في شيء منه ، والخروج عن نهجهم هو خروج عن مقتضى العدل إلى الظلم والبغي . قال تعالى : { كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّـهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [البقرة: 213].

فأما الذرية التي جاءتها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة : { فمنهم مهتد وكـثير منهم فاسقون } ولما كان من زاغ بعد تذكيره بالكتب والرسل ، كان مستحقاً للمبالغة في الـذم ولو أنه واحد فكيف إذا كان كثيراً ، نبه بتغيير السياق على ذلك وعلى أن الأغلب الضلال فقال : { وكثير منهم فاسقون }. ولم يقل ومنهم ضال مع أنه أظهر في المقابلة لأن ما عليه النظم الكـريم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أبلغ في الذم لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول بالتمكن منه ، ومعرفته أبلغ من الضلال عنه ولإيذانه بغلبة أهل الضلال على غيرهم .

— وفي وجه المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد وجوه ، وقد ذكر الرازي منبهاً على جملة من وجوه المناسبات :

أحدها : وهو أن مدار التكليف على أمرين : فعل ما ينبغي ، وترك ما ينبغي ، وأما فعل ما ينبغي ، فإما أن يكون متعلقاً بالنفس وهو المعارف ، أو متعلقاً بالبدن وهو أعمال الجوارح ، فالكتاب هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال النفسانية ، حتى يتميز الحق من الباطل ، والحجة من الشبهة ، والميزان هو الذي يتوسل به إلى فعل ما ينبغي من الأفعال البدنية ، فإن معظم التكاليف الشاقة في الأعمال هو ما يرجع إلى معاملة الخلق ، والميزان هو الذي يتميز به العدل عن الظلم والزائد عن الناقص ، وأما الحديد ففيه بأس شديد ، وهو زاجر للخلق عما لا ينبغي ، والحاصل أن الكتاب إشارة إلى القوة النظرية ، والميزان إلى القوة العملية ، والحديد إلى دفع مالا ينبغي ، ولما كان أشرف الأقسام رعاية المصالح الروحانية ، ثم رعاية المصالح الجسمانية ، ثم الزجر عما لا ينبغي ، روعي هذا الترتيب في هذه الآية .

ثانيها : المعاملة إما مع الخالق وطريقها الكتاب أو مع الخلق ، وهم : إما الأحباب والمعاملة معهم بالسوية وهي بالميزان ، أو مع الأعداء والمعاملة معهم بالسيف والحديد .

ثالثها : الأقوام ثلاثة : أما السابقون وهم يعاملون الخلق بمقتضى الكتاب ، فينصفون ولا ينتصفون ، ويحترزون عن مواقع الشبهات ، وإما مقتصدون وهم الذين ينصفون وينتصفون ، فلا بد لهم من الميزان ، وإما ظالمون وهم الذين ينتصفون ولا ينصفون ولا بد لهم من الحديد والزجر .

رابعها : الإنسان ، إما أن يكون في مقام الحقيقة وهو مقام النفس المطمئنة ومقام المقربين ، فههنا لا يسكن إلا إلى الله ، ولا يعمل إلا بكتاب الله ، كما قال : { ألاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القلوب } [الرعد : 28] وإما أن يكون في مقام الطريقة وهو مقام النفس اللوامة ، ومقام أصحاب اليمين ، فلا بد له من الميزان في معرفة الأخلاق حتى يحترز عن طرفي الإفراط والتفريط ، ويبقى على الصراط المستقيم وإما أن يكون في مقام الشريعة وهو مقام النفس الأمارة ، وههنا لا بد له من حديد المجاهدة والرياضات الشاقة .

خامسها : الإنسان إما أن يكون صاحب المكاشفة والوصول فلا أنس له إلا بالكتاب ، أو صاحب الطلب والاستدلال فلا بد له من ميزان الدليل والحجة فلولا الكتاب لأصبح العقل حائراً

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب أي العدل الذي لا مزيد عليه لانتظام جميع أحوالهم أو صاحب العناد واللجاج ، فلا بد وأن ينفى من الأرض بالحديد.

سادسها : أن الدين هو إما الأصول وإما الفروع ، وبعبارة أخرى : إما المعارف وإما الأعمال ، فالأصول من الكتاب، وأما الفروع : فالمقصود الأفعال التي فيها عدلهم ومصلحتهم وذلك بالميزان فإنه إشارة إلى رعاية العدل ، والحديد لتأديب من ترك ذينك الطريقين.

وسابعها : الكتاب إشارة إلى ما ذكر الله في كتابه من الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف ، والميزان إشارة إلى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والإنصاف وهو شأن الملوك ، والحديد إشارة إلى أنهم لو تمردوا لوجب أن يحملوا عليهما بالسيف[343] .

فلم يدع سبحانه في هذه الآية لأحد عذراً بالرسل المؤيدين بالمعجزات ، والكتاب القائم بالعدل ، والعقل الذي عرفهما على التحقيق ، والسلاح الذي يرد أولي الجهل ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « بعثت بين يدي الساعة بالسيف » فبيان الشرائع بالكتاب ، وتقويم أبواب العدل بالميزان ، وتنفيذ هذه المعاني بالسيف ، فإن مصالح الدين من غير هيبة السلطان لا يمكن رعايتها ، فالملك والدين توأمان ، فالدين بلا ملك ضائع ، والملك من غير دين باطل ، والسلطان ظل الله في الأرض ، فظواهر الكتاب للعوام ، ووزن معارفه لأهل الحقائق بالميزان ، ومن خرج عن الطائفتين فله الحديد وهو السيف [344] .

إن المقتضى التعبدي لحقيقة عدالة الله تعالى في شرعه ودينه هو الأنقياد له والاحتكام إليه في كل شؤون الحياة ، وإقامة العدل في كل الأمور ، قال تعالى : { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) } [الرحمن:7-9].

وعليه أيضاً أن يجتنب الظلم والبغي والعدوان ، لأنه يتنافى مع قيم العدل والإنصاف ، وفي الصحيح يقول رب العزة : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا " [345].

---

[343]- انظر الرازي 6/6

[344]- راجع : تفسير الطبري 200/23 ، وتفسير الرازي 243/15، وتفسير الألوسي 241/20 ، وتفسير البقاعي 378/8 ، وتفسير الظلال 139/7-140

[345]- صحيح مسلم : رقم (2577)

فإذا كان رب العزة حرم على نفسه الظلم وهو منزه عنه ، فإنه من الأولى على الناس أن يبتعدوا عن الظلم غاية الابتعاد ، وأن يتحروا العدل في كل أقوالهم واعمالهم ، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء: 135]. وفى ندائه سبحانه لهم بقوله { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ } تنبيه إلى مقتضى إيمانهم وهو التزام العدالة فى كل أمورهم ، وتحريك لعاطفة الإِيمان فى قلوبهم بمقتضى وصفهم بهذه الصفة الجليلة . فإن الإيمان الحق يستلزم من المؤمن أن يعدل في أحكامه وأن يؤدي الشهادة على وجهها . والقيام بالقسط من أعظم الأمور وأدل على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نُصْب عينيه، ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به. وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: { فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا } أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلا والباطل حقا، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه وفق للحق وهدي إلى الصراط المستقيم[346] .

فالعدل واجب حتى مع الأعداء ، فلا ينبغي تركه بسبب العداوة والبغضاء ، فإن العدل مع الأعداء ومع غيرهم أقرب إلى اتقاء المعاصي ، وإلى صيانة النفس عن الوقوع في المهالك . قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة: 8]. فقد نهاهم أولاً أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ، ثم استأنف فصرّح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو أقرب إلى التقوى ، وأدخل في مناسبتها . وفيه تنبيه عظيم على أن وجود العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه ؟. فأمر تعالى عباده بأن لا يعاملوا أحداً إلاّ على

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[346]- أنظر تفسير السعدي 208 ، وتفسير طنطاوي 1099

سبيل العدل والانصاف ، وترك الميل والظلم والاعتساف ، وحذرهم أن يجازيهم بالعدل على تركهم القيام بالعدل ، كما وعدهم بالفضل إن قاموا به وأقاموه بينهم[347]

[347]- راجع : تفسير الرازي 6/6 ، وتفسير الزمخشري 7/2 ، وتفسير طنطاوي 1197، أيسر التفاسير للجزائري 679

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- المبحث الثالث -

الاستدلال بعدالة الله تعالى في حسابه وجزائه .

إن الله تعالى حكم عدل ومن مقتضى عدله وحكمته أنه لا يفرق بين متماثلين ولا يسوي بين مختلفين ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة فيضعها موضعها لما في ذلك من الحكمة والعدل ، وأما أهل البر والتقوى فلا يعاقبهم ألبتة ، قال تعالى : { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [القلم: 35- 36]. وقال تعالى : { أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ } [ص: 28]. وقال تعالى : { أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ } [الجاثية: 21].

إن عدالة الله تعالى في الحساب والجزاء فيما يتعلق باليوم الآخر تتجلى في عدة مظاهر وصور نذكر منها :

أولاً : إنشاء محكمة يتم فيها السؤال والحساب للفصل والقضاء في الحقوق ، لإقامة الحكم بالعدل ، ولتقرير مرتبة الإكرام والفضل ، تمهيداً لمقتضى الجزاء المقرر بموجب قانون الجزاء الرباني العادل ، قال تعالى : { وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (48) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف: 47-49]. فالحساب يوم القيامة وما فيه من موازين في غاية الدقة والضبط دليل على عدل الله تعالى وتنزهه عن الظلم ، فالجزاء الإلهي من ثواب أو عقاب إنما يكون بعد محاكمة عادلة من عرض الناس على ربهم واستعراض أعمالهم ، وسؤالهم ومناقشتهم ، وإقامة الحجج والبراهين عليهم ولهم ، قال تعالى : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء: 47].

ثانياً : إقامة البينات والشهود على كل فعل اقترفه الإنسان بحق الله وحق عباده ، قال تعالى : { وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ } [الزمر: 68-70].

ومن سائل الإثبات لإدانة المكلف :

1. **صحف الأعمال** : قال تعالى : { وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا } [الإسراء: 13-14].

2. **وشهادة الملائكة الموكلين** : قال تعالى : { أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ } [الزخرف: 80]. وقال تعالى : { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار: 10-12].

3. **وشهادة الأنبياء والمؤمنين** : قال تعالى : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [يونس : 47] . وقال تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: 123].

4. **وشهادة الأرض فيما عمل عليها** : قال تعالى: { وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا } [الزلزلة: 2-5].

5. **وشهادة الأعضاء والجوارح على صاحبها** : قال تعالى: { الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [يس :65] . قال تعالى: { حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [فصلت: 20].

6. **والإقرار** : **وهو اعتراف الإنسان على نفسه** . قال تعالى: { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ } [الملك: 10-11].

إن محاكم الدنيا لها عدالة بشرية محدودة ، ووسائل الإثبات ظاهرة معدودة ، ولكن محاكمة الآخرة التي قاضيها رب العالمين ، وأحكم الحاكمين ، فإن عدالتها مطلقة لا حدّ لها ، وبيناها شهادات الملائكة المطهرين ، والأنبياء المصطفين ، والأولياء الصالحين ، والصحف المدونة ، واعترافات المذنبين على أنفسهم ، وشهادات الأعضاء . إنه حساب في غاية الدقة ، وأدلة في أعلى

درجات الثبوت ، والحكم الصادر فيها منزه عن الظلم بعدالة مطلقة[348] . قال تعالى : { وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [يونس: 54].

ثالثاً : فردية التبعة . قال تعالى : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ } [فاطر: 18]. تربط كل إنسان بنفسه؛ فلا تنال نفس إلا ما كسبت؛ ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت . وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد . إنما يسأل كل عن عمله ، ويجزي كل بعمله . ورجعة كل إنسان إلى ربه بصحيفته الخاصة ، وما قيد فيها له أو عليه . قال تعالى : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [الزمر: 7]. وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عز وجل : { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [الشعراء: 214]. قال " يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا . . . ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا "[349]. وعن قتادة : " في قوله : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ } [التحريم: 11]. وكان أعتى أهل الأرض على الله وأبعده من الله فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه "[350].

رابعاً : دقة الحساب والجزاء . قال تعالى: { فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ } [الزلزلة: 7-8]. فليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه ، إنه الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها . والذرة كان معروفاً إلى عهد قريب أنها أصغر الأجسام . فالآن يعرف البشر بعد تحطيم الذرة أن هناك ما هو أصغر من الذرة ، وهو جزيئاتها التي لم تكن في حسبان أحد يومذاك! والذرة لا ترى بالعين المجردة أبداً ولا حتى بأعظم المجاهر في المعامل . فهذه أو ما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها! . عندئذ لا يحقر « الإنسان » شيئاً من عمله . خيراً كان أو شراً . ويرى كل ذنب يصدر منه عظيماً في وجدانه مهما كان قليلاً في مقابل ذلك الميزان الدقيق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[348]- راجع : العقيدة الإسلامية وأسسها ، عبد الرحمن حبنكة 565-566 ، العقيدة الإسلامية ، د. محمود عبيدات 584 ، أركان الإيمان ، محمد قطب 405 ، تعريف عام بدين الإسلام ، علي طنطاوي 110-111 أثر العقيد الإسلامية في السلوك ، زكريا الشلول 210

[349]- صحيح البخاري برقم (2602) ومسلم برقم (206)

[350]- الطبري 162/12

الذي ترجح به الذرة! ومن فقه ذلك لم يحقر ذنباً وإن دق لأنه يجتمع إلى أمثاله فيصير كبيراً كما قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها : « إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً " [351]. قال تعالى : { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [يونس: 61]. إنه شعور رهيب أن يشعر العبد أن الله بكل عظمته وجلاله شاهد أمره وحاضر شأنه . ويحصي عليه أعماله صغيرها وكبيرها ، خيرها وشرها ، ويقيد كل شيء له أو عليه . لا يند عنه مثقال ذرة ، ليتم الجزاء بناء على علم دقيق وعدل مطلق ، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء: 40]. إن الله لا يظلم مثقال ذرة .وإذن فهو العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه قيد شعرة . وفي ضرب المثل بمثقال الذرة لبيان مدى دقة الحساب والاستقصاء في عرض الأعمال والجزاء عليها [352]، كقوله تعالى : { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ } [الأنبياء: 47].

خامساً : الجزاء من جنس العمل ، يقرر سبحانه قاعدة الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق . في كثير من أياته ، قال تعالى : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } [النجم: 31]. أي : خلق سبحانه السموات والأرض وما فيهما بالحق والعدل ، ليجزى يوم القيامة ، الذين أساءوا في أعمالهم بما يستحقونه من عقاب ، وليجزى الذين أحسنوا في أعمالهم بما يستحقونه من ثواب .

وهذا التقرير لملكية الله وحده لما في السماوات وما في الأرض ، يمنح قضية الآخرة قوة وتأثيراً . فالذي جعل الآخرة وقدرها هو الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض وحده ، فهو القادر على الجزاء ، المختص به ، المالك لأسبابه . فمقتضى ملكه تعالى القائم على العدل ، أن يجازي عباده على أعمالهم بما يناسبها من الثواب والعقاب ، فقد اعتبر سبحانه الجزاء بالعدل هو العلة الباعثة لإيجاد ما في السموات والأرض ، ومن شأن هذه الملكية أن تحقق الجزاء الكامل العادل [353].

---

[351]- مسند الإمام أحمد رقم (24460)

[352]- راجع : تفسير الظلال 131/2 ، 167/4 ، 109/6، 85/8 ، وتفسير اللباب 422/16 ، وتفسير الألوسي 87/23 ، وتفسير الرازي 163/17، وتفسير البقاعي 492/9 ، وتفسير طنطاوي 435

[353]- الرازي 437/14، ابن عاشور 178/14 ، الظلال 7/ 61، طنطاوي 4008 ، السعدي 821

وقاعدة الجزاء من جنس العمل ، قاعدة مقررة في كتاب الله ، وسنة ثابتة مطردة في واقع الحياة ، يدركها كل عاقل متدبر بصير ، فعندما جاء النبي عليه الصلاة والسلام الوحي ، رجع إلى زوجته خديجة — رضي الله عنها — وهو يرجف فؤاده ، ولكنه حفظ رشاده ، فقال : « زملوني ، زملوني » ، ففعلوا ، حتى إذا ذهب عنه الروع أخبر خديجة الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسي » فقالت خديجة - رضي الله عنها - : ((كلا والله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقوي الضعيف ، وتعين على نوائب الحق)) وهكذا استدلت هذه المرأة العاقلة على أن من كان هذا شأنه في محبة الخير للناس فلن يخذله الله ؛ فسنة الله تقتضي بأن الجزاء من جنس العمل [354]. قال تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: 97].

فإنه تعالى قرر ميزان العدل في الجزاء ، بأن يجزي الذين أحسنوا في أعمالهم ثواب الحسنى ، ويجزى الذين أساءوا في أعمالهم جزاء سيئة مثلها ، قال تعالى : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (26) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [يونس: 26-27].

ويجزي سبحانه الذين أحسنوا بالمثوبة أو بالعاقبة الحسنى وهذا جزاء العدل ، كقوله تعالى : { هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ } [الرحمن: 61]. والاستفهام مستعمل في النفي ، ولذلك عقب بالاستثناء فأفاد حصر مجازاة الإحسان في أنها إحسان ، وهذا الحصر إخبار عن كونه الجزاء الحقَّ ومقتضى الحكمة والعدل ، أي ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب[355] ، وأما قوله : {وزيادة } إشارة إلى الكرم والفضل بعد العدل .كقوله تعالى : { لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [العنكبوت: 7]. أي يأخذ أحسن أعمالهم ويجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الأحسن .

فهذه رحمته يختص بها من يشاء من عباده . وهي لا تخرم قاعدة العدل ، فإذا كان جزاء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فإن جزاء الذين اجترحوا السيئات ، واقترفوا الموبقات ، سيئات مثل

---

[354]- قصة البشرية ، محمد الحمد ص21

[355]- ابن عاشور 314/14، والمنتخب 2/ 439

السيئات التي ارتكبوها والمقصود أهم كما كسبوا السيئات فى الدنيا ، فإن الله تعالى يجازيهم عليها فى الآخرة بما يستحقون من عذاب ومصير سيئ [356].

سادساً : لا يعاقب إلا بذنب . فإنه سبحانه لا يعذب أحدا إلا بذنبه بمقتضى الحكمة والعدل ، فأن ما يصيب الناس من مصائب الدنيا ، فهو جزاء أعمالهم التي لا يرضاها الله عز وجل ، قال سبحانه : { مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ } [النساء: 79]. وقال : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ } [الأنفال: 53].

فلا يسلبهم إلا إذا غيروا ما في أنفسهم بالمعاصي والذنوب ، فلا يجزى بالسيئات إلا من فعل السيئات ، ولا يوقع النقم ويسلب النعم إلا من أتى بالسيئات المقتضية لذلك ، كما فعل بمن خالف رسله من جميع الأمم فذكر تمثيلا عذاب آل فرعون والذين من قبلهم في زوال النعم عنهم لما كذبوا بآياته ، ولهذا قال : { فأهلكناهم بذنوبهم } .

وأما فيما يبتلى به المؤمنين من المصائب التي هي جزاء سيئاتهم فإن في ذلك من الحكمة والرحمة والعدل ما هو بيّن ظاهر لمن تأمله ولا يعاقب أحدا إلا بذنبه، قال تعالى: { وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } [الشورى: 30].

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر " [357].

وقال تعالى : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم: 40].

فإنه تعالى يربط الحساب والجزاء بنواميس الكون وسنة الله في حياة البشر ، بأفعال الناس ومدى التزامهم بأوامر الله تعالى ، وقد لا يعاقب الظالم في الدنيا ، ولكنه لن يفلت من العدالة الإلهية المطلقة في الآخرة ، الذي يرد عليه ظلمه ، ويؤاخذه بذنبه ، يقول تعالى : { إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

356- طنطاوي 2104

357- سنن الترمذي رقم (3252)

حقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [يونس: 4].

وهذا هو العدل المطلق لأن الذي يتولى القيام به هو الله تعالى المنزه عن الظلم ، فهو لا يعاقب إلا بذنب واستحقاق [358]. قال تعالى : { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } [آل عمران: 182].

إن الله تعالى يذكر الأسباب التي أدت بهم إلى هذا المصير السئ . وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بشؤم صنيعهم ، وانقيادهم للهوى والشيطان . أي : ذلك العذاب الذى نزل بكم – أيها الكافرون – سببه ما قدمته أيديكم من عمل سئ ، وفعل قبيح ، وقول منكر ، وجحود للحق . وأن الله تعالى ليس بذي ظلم لكم ولا لغيركم ، لأن حكمته سبحانه قد اقتضت ألا يعذب أحدا إلا بسبب ذنب ارتكبه ، وجرم اقترفه . فيكون هذا العقاب عدلا لا جورا ، فهو سبحانه لا يظلم عباده مثقال ذرة . وخصت الأيدى بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته ، ولأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدى ، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به والاتصال بذاته .

فالذي نزل بهم سببه ما قدمته أيديهم لا من شيء آخر ، وهذا فيه تقريع للمخاطبين وتبكيتهم في الاعتراف بتقصيراتهم بأنه لا سبب للعذاب إلا من قبلهم .

وأكد هذا المعنى بصيغة المبالغة " ظلام " تنزيهاً له سبحانه عن الظلم فلا ينسب عليه أصلاً ، فهو سبحانه لا يكتب على أحد ما لم يفعل ، ولا يزيد في عقابه المستحق ، ولا يعذب أحداً بجرم غيره [359] ، وفى الحديث القدسي " يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا " [360].

وحتى يتضح لنا طبيعة المنهج القرآني في تقرير حقيقة عدالة الله المطلقة والمتمثلة بعدالته في الحساب والجزاء والاستدلال بها على تفرده بالألوهية وما تقتضيه من لوازم العبودية الخالصة لله

---

[358]- ابن تيمية ، في كون الرب عادلاً 122-126 ، 135 -236 ، وتفسير ابن عاشور 130/13

[359]- راجع : تفسير ابن عاشور 217/10 ، وتفسير طنطاوي 815 ، 1846 ، وتفسير الألوسي 3/ 343 ، وتفسير الرازي 496/43

[360]- صحيح مسلم رقم (2577)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعالى. نبيّنها من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ، والتي كان لها دور بارز في تجلية هذا المنهج القرآني ، وذلك على النحو الآتي :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى } [النجم: 36-41].

إن هذه الآيات جاءت في معرض الرد على تلك المفاهيم الخاطئة والإنحرافات الفكرية المشوهة لعقيدة الآخرة وعلى الأخص في مفهوم الحساب والجزاء ، والتي تطعن في عدالة الله تعالى ، وهذه من موضوعات الغيب التي لا تخضع للرأي والاجتهاد ، ولا مجال للعقل أن يقحم نفسه فيها ، وإنما مجال المعرفة الغيبية هو الوحي الإلهي من النقل الخبري الصادق عن طريق الرسل الكرام ، الذين يعلمون الناس حقائق الغيب والإيمان ، ويبلغونهم أوامر الله تعالى ومراده . وكل تصور أو قول خارج عن هذا المجال ، بمجال الوحي المعصوم ، هو عبارة عن توهمات وتخرصات ،وكل ما ينشأ عنها هي تصورات خرافية ساذجة لا تستند إلا دليل ولا تنبثق عن علم .

ولذلك نجد القرآن قد جادلهم وفند شبهاتهم وأوهامهم ، ورد عليهم رداً حاسماً وقاطعاً ، حين أرجعهم إلى المصدر الصحيح والوحيد للمعرفة الغيبة ، وهو طريق النقل الموثوق من أنبياء الله ورسله ، وذكر منهم إبراهيم وموسى عليهما السلام ، أما إبراهيم فقد أجمع عليه أهل الكتاب ومشركي العرب ، وأما موسى فكتابه مرجع لليهود والنصارى ، وبتحديد المرجعية ومصدرها أقام سبحانه عليهم الحجة ، وبتعين أشخاصها الذين هم محل إتفاق وإجماع عند سائر الملل والنحل ، قطع عليهم المحجة ، وأغلق عليهم كل منفذ ومهرب ، و لم يبقى أمامهم إلا التسليم بالحق الأبلج أو يقروا على أنفسهم بالكفر البواح .

ونقف مع هذه الآيات الكريمة وهي تقيم الحجة على المعاندين ، وتبين قضايا الإيمان للطالبين ، وتقرر حقيقة عدالة الله تعالى في فصله وقضائه ، وفي حسابه وجزائه ، لتلزمهم بمقتضياتها التعبدية . قال تعالى : { أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى } [النجم: 33-35]. والاستفهام في قوله : {أَفَرَأَيْتَ} للتعجيب من حال هذا الإنسان ، الذى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أعرض عن الحق ، بعد أن عرف الطريق إليه . والفاء لتفريع الاستفهام التعجبي على ما قبلها في قوله : { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى } [النجم :31].

وقد سبق نزول هذه الآيات حادث أنبأ عن سوء الفهم لحقيقة الآخرة وما يكتنفها من حساب وجزاء لا يستقيم مع سنن الحياة وحقائق الوجود ، ويؤدي إلى تميع عنصر الإلتزام والتحلل من التكاليف ، مع أن فساده واضح لمن تدبر أدنى تدبر . ففرع على ذلك كله تعجيب من انحراف أفهامهم ، وذكر من ذلك حال هذا الذي تولى وأعطى قليلا وأكدا جاهلا بأن للإنسان ما سعى ، فروى الطبري والقرطبي عن مجاهد وابن زيد أن المراد به الوليد بن المغيرة قالوا : " كان يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويستمع إلى قراءته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظه فقارب أن يسلم فعاتبه رجل من المشركين ، وقال : لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار كان ينبغي أن تنصرهم فكيف يفعل بآبائك ؟ فقال : إني خشيت عذاب الله . فقال : اعطني شيئا وأنا أحمل عنك كل عذاب كان عليك ، فأعطاه ورجع إلى الشرك ، ولما سأله الزيادة بخل عنه وتعاسر وأكدى[361] .

فأنزل الله تعالى فيه هذه الآيات تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليماً وتحذيراً لكل من تبلغه فقال تعالى في أسلوب حمل فيه السامع على التعجب من حال الوليد تحقيرا لعقله وخطل رأيه . والاستفهام في { أعنده علم الغيب } للنفي والإنكار على توهمه أن استجار أحد ليتحمل عنه أوزاره وذنوبه يوم القيامة ينجيه من عذاب الله ، أي ما عنده علم الغيب . وهذا الخبر كناية عن خطئه وانطماس بصيرته فيما توهمه ، وفرع على هذا التعجيب قوله (فهو يرى) أي فهو يشاهد أمور الغيب بحيث عاقد غيره على الهروب من تبعاتها .

والمعنى : أنه آمن نفسه من تبعة التولي عن الإسلام ببذل شيء لمن تحمل عنه تبعة توليه كأنه يعلم الغيب ويشاهد أن ذلك يدفع عنه العقاب فقد كان فعله أحمق من نعامة لأنه ظن أن بذل المال في الدنيا ينجيه من عذاب الله في الآخرة ، وأن غيره يتكفل عنه بافتدائه من هذا العذاب ، توهماً منه أن الجرائم تقبل الحمالة في الآخرة ، وهو أشبه بحماقات أوروبا في عصر الظلام في القرون الوسطى حينما كانت تباع صكوك الغفران،وصكوك إقطاع أراضي في الجنة .

ثم بين سبحانه ما يجب على هذا المدعي الجاهل ومن على شاكلته أن يفعلوه ، وهو أن يعالج جهله بالعلم بطلبه عند أهل الخبرة والإختصاص فيخبروه بسخافة رأيه وما نطقت به الكتب

---

[361]- أنظر : تفسير الطبري 541/22، وتفسير القرطبي 98/17

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السماوية من الحق والعدل على لسان الرسل عليهم السلام ، بقوله : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ } { أم } لإضراب الانتقال إلى متعجَّب منه وإنكارٍ عليه آخَر وهو جهله بما عليه أن يعلمه الذين يخشون الله تعالى من عِلم ما جاء على ألسنة الرسل الأولين وخص منهم إبراهيم لأن مآثر شريعته مأثور بعضها عند العرب ، وموسى فإن شريعته معلومة عند اليهود ، فحضهم على طلب معرفة هذا الغرض الذي يسعى إليه وهو طلب النجاة من عذاب الله فينبئه العالمون عمّا جاء عنهم .

والمعنى : إذا كان هذا الإنسان المتولي عن الحق جاهلا بكل ما يجب العلم به من شئون الدين ، فهلا سأل العلماء عن صحف موسى وإبراهيم { الَّذِي وَفَّى } أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه .

- **وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره سبحانه :**

ـــ **بقوله: { أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى }** أي: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحمله عنها أحد، كما قال : { وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } [فاطر: 18]. ،فلا تحمل نفس حمل أخرى؛ لا تخفيفاً عن نفس ولا تثقيلاً على أخرى . فلا تملك نفس أن تتخفف من حملها ووزرها . ولا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس أخرى وزرها ليتخلص الثاني من عقابه . وأما نظيره في صحف موسى ففي التوراة «لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطيئته يقتل» . وحكى الله عن موسى قوله : { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا } [الأعراف: 155]. وحكي في التوراة عن إبراهيم أنه قال في شأن قوم لوط[362] : «أفتُهلك البارَّ مع الآثم» .

وهذا المحكي عنه في التوراة هو ما أخبر به القرآن عن حال إبراهيم عند هلاك قوم لوط ، في قوله تعالى : { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } [العنكبوت: 31- 32]. وجملة { إن أهلها كانوا ظالمين } تعليل للإهلاك وقصد به استئناس إبراهيم لقبول هذا الخبر المحزن ، وأيضاً لأن العدل يقتضي أن لا يكون العقاب إلا على ذنب يقتضيه . وقوله { إن فيها لوطاً } خبر مستعمل في التذكير بسنة الله مع رسله من الإنجاء من

---

[362]- راجع : تفسير الرازي 328/2 ، 444/14، وتفسير ابن كثير 463/7 ، وتفسير الآلوسي 17/20، وتفسير السعدي 821 ، وتفسير ابن عاشور 195/14، وتفسير الظلال 63/7-65 ، وتفسير طنطاوي 4011 ، أيسر التفاسير 166/4

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العذاب الذي يحل بأقوامهم . فهو من التعريض للملائكة بتخصيص لوط ممن شملتهم القرية في حكم الإهلاك ، أو معارضة للموجب للهلاك وهو الظلم بالمانع وهو أن لوطاً بين ظهرانيهم وهو لم يتصف بصفتهم ، وأن جواب الرسل المحكي بقوله تعالى : { قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ } فهو جواب عما اقتضاه تعريضه بالتذكير بإنجاء لوط ، أي نحن أعلم منك باستحقاق لوط النجاة عند الله ، واستحقاق غيره العذاب ، وكان جوابهم مُطَمْئِناً إبراهيم . وتسليم لقوله عليه السلام في لوط مع ادعاء مزيد العلم به باعتبار الكيفية وأنهم ما كانوا غافلين عنه[363] .

ــ **وقوله تعالى : { وأن لَّيسَ للإنسان إلاَّ مَا سعى }** معطوف على ما قبله ، لبيان عدم إثابة الإنسان بعمل غيره ، إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب سواه . فالمراد بالسعي في الآية . السعي الصالح ، والعمل الطيب ، لأنه قد جاء في مقابلة الحديث عن الأوزار والذنوب . ولام الاختصاص يرجح أن المراد ما سَعاه من الأعمال الصالحة ، وبذلك يكون ذكر هذا تتميماً لمعنى { ألا تزر وازرة وزر أخرى } ، احتراساً من أن يخطُر بالبال أن المدفوع عن غير فاعله هو الوزر ، وإنّ الخير ينال غيرَ فاعله .

وقد تأكد هذا المعنى في دعاء إبراهيم عليه السلام لذريته وفي جواب الله تعالى له ، من تقرير هذا المبدأ كما في قوله تعالى : { اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123) وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة: 123-124].

بعد أن ذكر تعالى اليهود بنعمه ، خوفهم من حُلول نقمه بهم يوم القيامة ، وحذرهم أنه لا يغني أحد عن أحد كما قال : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا } [لقمان: 33]. فهذه أبلغ المقامات أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئا ، وقوله : { وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ } أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [آل عمران: 91]. وقوله تعالى: { وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ } يعني عن الكافرين ، كما قال : { فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: 48]. فأخبر تعالى عن استحالة الفداء يوم القيامة ، وتعذر وجود شافع يشفع لمن مات على الشرك لا بإخراجه من النار ، ولا بتخفيف العذاب عنه . مما

[363]- راجع تفسير الرازي 240/6 ، وتفسير الألوسي 270/15 ، ابن عاشور 490/10

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يوجب عليهم اتقاء عذاب يوم القيامة ، بإن يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، بعد التخلي عن الشرك والعصيان . وفي الصحيح : " والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي ، إلا دخل النار " [364].

ثم ذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام تأكيد لما تقرر في قوله : { يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا } فإنه عليه السلام طلب الإمامة لأولاده فقال الله تعالى : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } فدل ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين ، فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل .

فكان تذكيرهم بابتلاء إبراهيم منفعة لهم في رد اعتقادهم الفاسد أن آباءهم شفعاؤهم يوم القيامة ، لأنه لم يقبل دعاء إبراهيم في الظلمة ، وفي الآية بيان رغبة إبراهيم في آن تكون الإمامة في ذريته وهي رغبة صالحة فجعلها الله تعالى في ذريته كما رغب واستثنى تعالى الظالمين فإنهم لا يستحقونها لأنهم حينما ادعوا أبوته لهم بالنسب نفوا أنفسهم عنه في أبوة الدين؛ وفي ذلك أتم ترغيب في التخلق بوفائه لا سيما للذين دعوا قبلها إلى الوفاء بالعهد ، وإشارة إلى أنهم إن شكروا أبقى رفعتهم كما أدام رفعته ، وإن ظلموا لم تنلهم دعوته بالأمامة ؛ فهي لا تكون إلا في أهل الخير والعدل والرحمة لا تكون في الجبابرة القساة ولا الظالمين العتاة .

فإن المقصود من تذكير بني إسرائيل بالنعم والتخويف ، تحريضهم على الإنصاف في تلقي الدعوة الإسلامية والتجرد من المكابرة والحسد. والمقصود من ذكر قصة إبراهيم موعظة المشركين ابتداء وبني إسرائيل تبعاً له ، لأن العرب أشد اختصاصاً بإبراهيم من حيث إنهم يزيدون على نسبهم إليه بكونهم حفظة حرمه ، ومنتمين قديماً للحنيفية ، فكان الواجب على من يعترف بفضله وأنه من أولاده ، ويزعم إتباع ملته، أن يكون حاله مثل ذلك من الاجتهاد والسعي لبلوغ تلك المنزلة ، لا أن يتكل على نسب أو واسطة أو غير ذلك مما لا يوصل للمطلوب [365].

وفي الحديث: " ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " [366] . فهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة للأنسان ليعمل ويسعى ، فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل . إلا ما نص عليه حديث

---

[364]- صحيح مسلم حديث رقم (153)

[365]- راجع : تفسير ابن كثير 256/1 ، 404 ، وتفسير الألوسي 492/1، طنطاوي 201-203، وتفسير عاشور 463/1-464 ، وتفسير البقاعي 174/1

[366]- سنن أبي داود (3643) وسنن الترمذي (2945) قال الشيخ الألباني : صحيح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له . أو صدقة جارية من بعده . أو علم ينتفع به "[367].

وهذه الثلاثة أمور في حقيقتها من عمل الإنسان وسعيه . وهذا الحديث لا يتعارض مع قوله : { وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى } . وقد توسع العلماء فى الجمع بينها وبين النصوص التي تفيد أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره واختلفوا في تأويلها وأفضلها قول الحسين فقال في معناها : " أنه ليس له إلا ما سعى عَدلاً ، ولي أن أجزيه بواحدة ألفاً فضلاً "[368].

ــ وقوله : { وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى } أي: يوم القيامة، كما قال تعالى : { وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون } [التوبة: 105]. كما في قوله تعالى : { وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف: 49]. ويجوز أن تجعل علامات على الأعمال يُعلن بها عنها كما في قوله تعالى : { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [الحديد: 12]. وحكمة رؤية الأعمال يوم الحساب ذلك تشريفاً للمحسن وتوبيخاً للمسئ .

ــ وقوله تعالى : { ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى } . أي: ، أي الأكمل التام الذي لا نقص فيه ، جزاء تقر بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه . والمعنى : أن الجزاء على الفعل من حسن أو سيء موافق للمجزيِّ عليه[369] ، قال تعالى : { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ } [النساء: 173]. وقال : { وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ } [هود: 109]. وقال : { وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ } [النور: 39]. وقال : { فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا } [الإسراء: 63]. فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرئ جزاء سعيه وافياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظلم .

---

[367]- صحيح مسلم (1631)

[368]- تفسير القرطبي 167/17

[369]- راجع : تفسير ابن كثير 463/7 ، وتفسير السعدي 821 ، وتفسير ابن عاشور 196/14، وتفسير الظلال 65/7 ، وتفسير طنطاوي 4012 ، أيسر التفاسير 166/4

وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتتحقق للإنسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسؤولاً مؤتمناً على نفسه؛ كريماً تتاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل وتتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء . عدالة مطلقة لا يميل بها الهوى ، ولا يقعد بها القصور ، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور .

وحقيقة فردية التبعة والجزاء ذات أثر حاسم في الشعور الأخلاقي ، وفي السلوك العملي سواء . فشعور كل فرد بأنه مجزيٌّ بعمله ، لا يؤاخذ بكسب غيره ، ولا يتخلص هو من كسبه ، عامل قوي في يقظته لمحاسبة نفسه قبل أن تحاسب! مع التخلي عن كل أمل خادع في أن ينفعه أحد بشيء ، أو أن يحمل عنه أحد شيئاً . كما أنه في الوقت ذاته عامل مطمئن ، فلا يقلق الفرد خيفة أن يؤخذ بجريرة غيره ؛ فيطيش وييئس من جدوى عمله الطيب ، بذلك يتسع صدر المؤمن ، ويرتفع شعوره؛ ويحتمل تبعات التكليف في غير ضعف ، وفي غير ضيق . فهو مجزيٌّ بعمله ، لا يصيبه من وزر المسيء شيء : { لا تجزي نفس عن نفس شيئاً } . فالتبعة فردية ، والحساب شخصي ، وكل نفس مسؤولة عن نفسها ، ولا تغني نفس عن نفس شيئاً .

وهذا هو المبدأ الإسلامي العظيم . مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان ، وعلى العدل المطلق من الله . وهو أقوم المبادئ التي تشعر الإنسان بكرامته ، والتي تستجيش اليقظة الدائمة في ضميره . وكلاهما عامل من عوامل التربية ، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التي يكرمه بها الإسلام .

فإن استقرار هذه الحقيقة في القلب من شأنها أن تجعل كل فرد وحدة إيجابية ، تجعله مدافعاً عن حق الله أمام كل إغراء ، وكل طغيان ، وكل إضلال ، وكل إفساد ، فهو مسؤول عن نفسه هذه وعن حق الله فيها ، وحق الله فيها هو طاعته في كل ما أمر به وفي كل ما نهى عنه ، وعبوديتها له وحده شعوراً وسلوكاً ، فإذا فرط في هذا الحق فما أحد بدافع عنه يوم القيامة ولا شافع له؛ وما أحد بحامل عنه شيئاً من وزره ولا ناصر له من الله يوم القيامة . ومن ثم يستأسد كل إنسان في الدفع عن نفسه والدفاع عن حق الله فيها ، ما دام هو الذي سيلقى جزاءه مفرداً وحيداً .

فمن المقتضيات الإيمانية لهذه الحقيقة أن ينهض كل فرد بواجبه الديني على المستوى الفردي والجماعي ، فهو مكلف بإصلاح نفسه أولاً وإصلاح غيره ثانياً ، فينهض بحق نفسه تزكية وتربية على الفضائل وفعل الخيرات ، وينهض بحق الجماعة عليه بأن يتكافل مع الجماعة في إحقاق الحق في المجتمع وإزهاق الباطل ، وكل أولئك يحسب له أو عليه في صحيفته يوم يلقى الله فرداً فيتلقى هنالك

جزاءه! قال تعالى : { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [فاطر: 18].

إن تقرير مبدأ فردية التبعة . وهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي في الجزاء ، والتي تثير في كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة . الخوف من عمله وكسبه . والطمأنينة من أن لا يحمل تبعة غيره . ولم يجعل خطيئة آدم الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته .

فليست هنالك خطيئة أبدية . وليست هنالك خطيئة موروثة ولا تزر وازرة وزر أخرى . وهذه الحقيقة في التصور الإسلامي تنقذ كاهل البشرية من أسطورة الخطيئة الموروثة التي تقوم عليها التصورات الكنسية في المسيحية؛ والتي يقوم عليها ركام هائل من الطقوس والتشكيلات فوق ما يقوم فوقها من الأساطير والخرافات . خطيئة آدم التي تلازم البشرية كاللعنة المصلتة على الرقاب! حتى يتمثل الإله في صورة ابن الإنسان (المسيح) ويصلب ويحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة؛ ومن ثم يكتب (الغفران) لمن يتحد بالمسيح الذي كفر بدمه عن خطيئة آدم التي ورثتها البشرية! إن الأمر في التصور الإسلامي أيسر من هذا بكثير . لقد نسي آدم وأخطأ ، بما ركب في فطرته ، قال تعالى : { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } [طه: 115]. ثم نهض من عثرته ، وأدركته رحمة ربه التي تدركه دائما عندما يثوب إليها ويلوذ بها : { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 37]. ولقد تاب واستغفر . ولقد قبل الله توبته وغفر له : { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } [طه: 121-122]. وبذلك انتهى أمر تلك الخطيئة الأولى . ولم يبق منها إلا رصيد التجربة الذي يعين الجنس البشري لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار .

فالبساطة والوضوح هي السمة البارزة لهذه العقيدة! فليست هناك خطيئة موروثة في الإسلام ، كالتي تتحدث عنها تصورات الكنيسة ، كما أنه ليست هناك كفارة غير الكفارة التي تؤديها النفس عن نفسها . وعندئذ تنطلق كل نفس حذرة مما تكسب . مطمئنة إلى أنها لا تحاسب إلا على ما تكسب . توازن عجيب ، في هذا التصور الفريد . هو إحدى خصائص التصور الإسلامي وأحد مقوماته ، التي تطمئن الفطرة ، وتحقق العدل الإلهي المطلق؛ المطلوب أن يحاكيه الإنسان في واقع حياته [370].

---

[370]- راجع : تفسير الظلال ، 42/1 ، 237 ، 236/2، 394، 207/3 ، 146/6، 402-404

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 123-125].

إن هذه الآيات الكريمة تقرر عدالة الله تعالى المطلقة في الحساب والجزاء ، مما يقتضي على العاقل أن يجتهد في طاعة الله واجتناب معاصيه ، ويقطع الطمع في النجاة بغير عمله ولا يركن إلى الأماني الخادعة والظنون الكاذبة ، التي تعتمد على المحسوبية والمحاباة من القرب والولاية عند الله إلى غير ذلك من الأوهام التي تطعن في عدالة الله سبحانه للتحلل من تكاليف الأعمال ومشاقها، والتنصل من أعباء الرسالة والالتزام بمقتضياها ، فرحمة الله وفضله وثوابه لا ينالها الإنسان بالتمني ولكن بالإيمان والعمل الصالح . وأن العقوبة أثر طبيعي للعمل السيئ .

والسياق يقرر قاعدة الإسلام الكبرى في العمل والجزاء . وإن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأماني . إنه يرجع إلى أصل ثابت ، وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابي . قانون تستوي أمامه الأمم جميعاً ، فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر ، وليس أحد تخرق له القاعدة ، وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون . إن صاحب السوء مجزي بالسوء؛ وصاحب الحسنة مجزي بالحسنة . ولا محاباة في هذا ولا مماراة ، ولا مجال فيها للأماني الكواذب بطرح التكاليف من المعادلة الإيمانية التي قررها تعالى في كتابه ، تحت أي حجة أو ذريعة .

وهذا ما جاءت تقرره هذه الآيه : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ .. } . وقد روى في سبب نزولها عن قتادة قوله : " ذُكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبيّنا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم! وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، نبيُّنا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله! فأنزل الله: : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب } ، فأفلج الله حُجَّة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان "[371].

[371]- تفسير الطبري 229/9 ، رقم (10493)

وعن مجاهد في قوله : {ليس بأمانيكم } قال : " قالت العرب : لن نبعث ولن نعذّب ، وقالت اليهود والنصارى[372] : { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى } [البقرة: 111]. أو قالوا : { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } [البقرة : 80].

والخطاب في هذه الآية على الراجح أنه موجه إلى جميع الفرق التي حدث بينها تنازع في شأن الدين الحق ، وفى شأن ما يترتب على ذلك من ثواب .وهذا ما ذهب إليه كثير من المفسرين من أن الآية الكريمة تخاطب الناس جميعا سواء أكانوا مؤمنين أم مشركين أم من أهل الكتاب . لأن الآية الكريمة تضع لهم جميعا قاعدة عامة وهى أن الوصول إلى ثواب الله ورضاه لا ينال بالأماني والأحلام وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح .

وقوله تعالى : { لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب }. لم يبين هنا شيئاً من أمانيهم ، ولا من أماني أهل الكتاب ، ولكن القرآن أشار إليها ، فمن أماني مشركي العرب الكاذبة ، أن لا يكون هناك حشر ولا نشر ولا ثواب ولا عقاب ، كقولهم : { إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [الأنعام: 29]. وقولهم : { وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } [سبأ: 35]. ومن أماني أهل الكتاب ، قولهم : { وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } [البقرة: 111]. وقولهم : { لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً } [البقرة: 80]. وقولهم : { وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ } [المائدة: 18]. فلا يعذبنا.

وكان اليهود ولا يزالون يقولون : إنهم شعب الله المختار ، ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس . وأن الله متجاوز عما يقع منهم . بما أنهم المسلمون ، فمن أمانيهم ارتكابهم الكبائر مع قولهم سيغفر لنا ، كحال عصاة اليهود في قوله تعالى : { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا } [الأعراف: 169]. أي يرجون المغفرة وهم مصرون على المعصية ، وليس الأمر كذلك ، فإنهم نسوا الوعيد وذكروا الوعد و لم يحققوا شروطه ، فإن الله وعد بالمغفرة لمن تاب وأصلح ، وليس لمن يستغفر وهو يصّر على المعصية ، ويريد أن يتحلل من التكاليف متعللاً برحمة الله ومغفرته ، فأؤلئك داخلون في الوعيد ، وقد علق سبحانه أمرهم لمشيئته ، كما قال : { وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء } [النساء: 116]. وهذه الآيات لا تنافي ما ذكره بعض العلماء في سبب نزول الآية . لأن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب .

---

[372]- تفسير الطبري 232/9 ، (10502)

وقد جمع الله أماني الفرق كلها ، بقوله : { ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب } . فجاء هذا النص صريح ليرد الناس كلهم إلى ميزان واحد وهو العمل ،وليس بمجرد الأماني : التي هي أحاديث النفس المجردة عن العمل ، وهذا عامّ في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟! فليس الجزاء تابعاً لأماني الناس ومشتهاهم ، بل هو أمر مقدّر من الله تعالى تقديراً بحسب الأعمال . والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال . وليس كل من ادعى شيئا حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال إنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال : { لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب } . أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني . بل العبرة بطاعة الله سبحانه ، وإتباع ما شرعه على ألسنة رسله .

ولهذا قال بعده { مَن يَعْمَلْ سوءا يُجْزَ بِهِ } . } وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل لأي ذنب كان من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضا لكل جزاء قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي.والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر ، فمن كان كافراً ومات من دون توبة جوزي بالخلود في النار . ومن كان مؤمناً وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار فما يصيبه من الهم والغم والأذى ونحو ذلك ، فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قيضها الله لطفا بعباده، ولما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة ، فقد كانوا يعرفون طبيعة النفس البشرية؛ ولم يتجاهلوا ما ينتاب نفوسهم من ضعف أحياناً ، ومن ثم ارتجفت نفوسهم ، وهم يواجهون بأن كل سوء يعملونه يجزون به ، وهذه كانت ميزتهم . أن يعيشوا الآخرة بمشاعرهم كأنهم فيها . وروي عن أبي هريرة قوله : " لما نزلت هذه الآية : { من يعمل سوءاً يجز به } شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سددوا وقاربوا فإن كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها "[373].

وأما الكبائر فهو داخل في الوعيد بعذاب الله دون الخلود . وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، كما دلت على ذلك النصوص. وقوله : { وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } تذيل قصد به تأكيد ما قبله من أن ثواب الله لا ينال إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وأن عقابه سيحل بمن يعمل السوء . ولإزالة بعض ما لعله

[373]- صحيح مسلم برقم (2574) وسنن الترمذي (3038)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله قد يكون له ولي أو ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه .

لقد كانت هذه حلقة في إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء . وهي ذات أهمية كبرى في استقامة المعتقد والسلوك . وقد هزت هذه الآية كيانهم ، ورجفت لها نفوسهم ، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جداً . ويعرفون صدق وعد الله حقاً . ويعيشون هذا الوعد ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا . ولما أبدى سبحانه جزاء المسيء تحذيراً ، أولاه أجر المحسن تبشيراً ، فقال : { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً } . أي : ومن يعمل من الأعمال الصالحات سواء أكان العامل ذكرا أم أنثى ما دام متحليا بصفة الإيمان ، ؛ فأولئك يدخلون الجنة جزاء عملهم؛ ولا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم ، ولو كان هذا الشئ { نقيراً } والنقير : هو النقطة التي تكون في ظهر النواة ويضرب هذا المثل في القلة . وفي هذه الآية نص صريح في اشتراط الإيمان لقبول العمل . وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الإيمان ، كما هو نص صريح على وحدة القاعدة في معاملة شقي النفس الواحدة من ذكر أو أنثى ، والتسوية في موقفهما من العمل والجزاء .

وهكذا يبيّن سبحانه فضله وعدله في عباده ، فهو سبحانه : { لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً } [النساء: 40].

لقد كانت هذه الآية حكماً فصلاً بين الفرق ، وتعليماً لهم أن ينظروا في توفّر حقيقة الإيمان الصحيح ، وتوفّر العمل الصالح معه ، ثم إنّ الله لوّح إلى فلج حجّة المسلمين بإشارة قوله : { وهو مؤمن } والمعنى أنّ الفوز في جانب المسلمين ، لا لأنّ أمانيّهم كذلك ، بل لأنّ أسباب الفوز والنجاة متوفّرة في دينهم .

لذلك عقّب هذه الآية بقوله: { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا } . إشادة منه تعالى وتفضيل للدين الإسلامي على سائر الأديان إذ هو قائم على أساس إسلام الوجه لله وكل الجوارح تابعة له تدور في فلك طاعة الله تعالى مع الإحسان الكامل وهو إتقان العبادة وأداؤها على نحو ما شرعها الله تعالى ، وإتباعه ملة إبراهيم الخليل في عبادة الله تعالى ، التي هي أحسن الملل . بشهادة الله تعالى .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وذلك أنه سبحانه لما كشف زور الذين يزعمون أنهم على دينه وبيّن فجورهم ، أنكر أن يكون أحد أحسن ديناً ممن اتبع ملة إبراهيم ، فإن الله تعالى لما شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الإنسان مؤمناً ، شرح هذا الإيمان وبين فضله من وجهين : **أحدهما** : أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى ، **والثاني** : وهو أنه الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكل واحد من هذين الوجهين سبب مستقل بالترغيب في دين الإسلام وبيان فضله على سائر الأديان وهيمنته عليها.

أما الوجه الأول: فأعلم أن دين الإسلام مبناه على أمرين : الاعتقاد والعمل : أما الاعتقاد ، بقوله : { أَسْلَمَ وَجْهَهُ } وذلك لأن الإسلام هو الانقياد والخضوع . والوجه أحسن أعضاء الإنسان ، فالإنسان إذا عرف بقلبه ربه وأقر بربوبيته وبعبودية نفسه فقد أسلم وجهه لله ، وأما العمل ، بقوله : { وَهُوَ مُحْسِنٌ } ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات ، فبهذه اللفظة المختصرة احتوى جميع المقاصد والأغراض .

وأما الوجه الثاني: في بيان فضيلة الإسلام : وهو أن محمداً عليه الصلاة والسلام إنما دعا الخلق إلى دين إبراهيم عليه السلام ، فلقد اشتهر عند كل الخلق أن إبراهيم عليه السلام ما كان يدعو إلا إلى الله تعالى كما قال : { إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } [الأنعام: 19].

ولما ثبت أن شرع محمد عليه الصلاة والسلام كان قريباً من شرع إبراهيم ثم إن شرع إبراهيم مقبول عند الجميع ، والكل يفتخر بالانتساب إليه ، وإذا ثبت هذا لزم أن يكون شرع محمد مقبولاً عند الكل . وأما في تعلق هذه الآية بما قبلها ، ففيه وجهان :

الأول : أن إبراهيم عليه السلام لما بلغ في علو الدرجة في الدين أن اتخذه الله خليلاً كان جديراً بأن يتبع خلقه وطريقته . قال تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ } [المممتحنة \: 5].

والثاني : أنه لما ذكر ملة إبراهيم ووصفه بكونه حنيفاً ثم قال عقيبه { واتخذ الله إبراهيم خَلِيلاً } أشعر هذا بأنه سبحانه إنما اتخذه خليلاً لأنه كان عالماً بذلك الشرع آتياً بتلك التكاليف ، ومما يؤكد هذا قوله : { وَإِذَا ابتلى إبراهيم رَبُّهُ بكلمات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا } [البقرة: 124]. وهذا يدل على أنه سبحانه إنما جعله إماماً للخلق لأنه أتم تلك الكلمات . وإذ ثبت هذا فنقول : لما دلت الآية على أن إبراهيم عليه السلام إنما كان بهذا المنصب العالي وهو كونه خليلاً لله

تعالى بسبب أنه كان عاملاً بتلك الشريعة كان هذا تنبيهاً على أن من عمل بهذا الشرع لا بدّ وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين ، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين ووجوب إتباعه [374] .

* الشاهد الثالث :

قال تعالى : { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160) قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [الأنعام: 160-165].

يبيّن سبحانه مظاهر فضله وعَدله على عباده في سياق الحديث عن الحساب والجزاء ، في قوله : { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } فضلاً منه وكرماً . { وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا } استحقاقاً وعدلاً ، وإنّما قال في جانب السيّئة فلا يُجزى إلاّ مثلها بصيغة الحصر لأجل ما في صيغته من تقديم جانب النّفي ، اهتماماً به ، لإظهار العدل الإلهي ، ولذلك أعقبه بقوله { وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } فلا ينقص من ثوابهم ولا يزاد على عقابهم ، لما بيّن سبحانه فضله على عباده بمضاعفة الحسنات وعدله بمكافأة السيئات بمثلها . حدد لهم معالم الطريق الذي ينبغي سلوكه لينالوا ثوابه ويجتنبوا عقابه . حيث أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يغلق باب المجادلة مع المعرضين بعد أن أقام عليهم الحجة بإثبات التوحيد وإبطال الشرك ، معلناً بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصا إمام الحنفاء إبراهيم عليه والسلام ، وأنّه ثابت على ما جاءهم به ، وأنّ إعراضهم لا يزلزله عن الحقّ .

وفي هذا إيذان بانتهاء السّورة لأنّ الواعظ والمناظر إذا أشبع الكلام في غرضه ، ثمّ أخذ يبين ما رَضِيه لِنفسه وما قَرّ عليه قَراره ، علم السّامع أنّه قد أخذ يطوي سجلّ المحاجّة ، ولذلك غيّر الأسلوب . فأمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول أشياء يعلن بها أصول دينه ، وتكرّر الأمر

---

[374]- راجع : تفسير الطبري 229/9، وتفسير الرازي 389/5 ، وتفسير البقاعي 270/2 ، وأيسر التفاسير 301/1 ، وتفسير ابن عاشور 41/4-43 ، وتفسير الشنقيطي 344/1 ، وتفسير طنطاوي 1079 ، وتفسير الظلال 243/2

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالقول ثلاث مرّات تنويهاً بالمقول بقوله : « قل إننى هداني ربي » . . « قل إن صلاتي ونسكى » . . « قل أغير الله أبغى ربا » . . وفي كل آية تقرر بصورة دقيقة عميقة حقيقة من حقائق التوحيد ومقتضياتها . توحيد الصراط والملة . توحيد المتجه والحركة . توحيد الإله والرب . توحيد العبودية والعبادة . مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسنته ومقوماته .

فناسب هذا الختام السياق العام لهذه السورة التى جادلت في إثبات التوحيد وتقريره ، ونفى الشرك وإبطاله . وناسب كذلك أن تأتى عقيب الحديث عن فضل الله تعالى وعدالته في الحساب والجزاء .

ومجيء هذه الآيات الجامعة لمباديء الإسلام العليا عقيب تقرير قاعدة العدالة الإلهية في الحساب والجزاء، هو في حقيقته دلالة على المقتضيات التعبدية لهذه القاعدة الإيمانية . والتى جاءت للإعلان عنها بكل حسم ووضوح ، وبصيغة التلقى والتبليغ معاً ، ومن هذه المقتضيات التعبدية التى أشارت إله هذه الآيات :

أولاً : إتباع الطريق المستقيم : وهو الدين الحق والمعتدل الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام والموافق لملة إبراهيم عليه السلام الذي تقر بفضله كل الأديان والملل . كما في قوله : { قل : إننى هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين } فهو الإعلان الذي يوحى بالشكر على الهداية إلى الصراط المستقيم ، الذي لا التواء فيه ولا عوج وهو دين الله القديم منذ إبراهيم أبي هذه الأمة المسلمة . أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ولغيرهم ممن أرسلت إليهم ، قل لهم جميعاً : لقد هداني خالقى ومُربّيَ إلى دين الإسلام الذي ارتضاه لعباده ، وهو الصراط المستقيم والدين القيم المتفق مع ملة إبراهيم الذى كان مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق { وَمَا كَانَ مِنَ المشركين } اعتراض مقرر لنزاهته عليه الصلاة والسلام عما عليه المبطلون ، وفي هذا تعريض بالمشركين من العرب وأهل الكتاب بزعمهم أن إبراهيم كان على دينهم . مما يقضى عليهم طرح ما هم عليه من الشرك والتمسك بالتوحيد الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام.

ثانياً : إخلاص العبادة لله تعالى وحده والإستسلام لأمره وحكمه : كما في قوله :{ قل : إن صلاتى ونسكى ومحياي ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين}. هو إعلان التجرد الكامل لله ، بكل خالجة فى القلب وبكل حركة فى الحياة . وبالصلاة والاعتكاف . وبالمحيا والممات . بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية . وقوله : { رب العالمين }

صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره ، لأنّ غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد . أي : فأنا متجرد تجرداً كاملا لخالقي ورازقي فهو سبحانه رب كل شيء . ولا شريك له في ملكه فكل شيء في هذا الوجود آية تدل على أنه واحد ، فكان كل شيء آمراً بالتوحيد بلسان حاله أو ناطق قاله .ولما دل على ذلك ببرهان العقل ، أتبعه بجازم النقل فقال { وبذلك أمرت } أي الأمر العالي من توجيه أموري إليه على وجه الإخلاص . أي : يعني أن هذا الدين لو لم يرد به أمر كان ينبغي للعاقل أن يدين به ولا يعدل عنه لشدة ظهوره وانتشار نوره بما قام عليه من الدلائل ودرج على اتباعه من الأفاضل والأماثل ، فكيف إذا برزت به الأوامر الإلهية ودعت إليه الدواعى الربانية { وأنا أول المسلمين } أي المنقادين لما يدعو إليه داعى الله في هذا الدين .

ثالثاً : الخضوع المطلق لحاكمية الله رب العالمين عقيدة وعبادة وشريعة : ورفض كل حاكمية لغيره سبحانه ، سواء في تلقى التصورات والقيم والموازين ، أو في التوجه في الشعائر التعبدية والشرائع والقوانين . كما في قوله : { قل أغير الله أبغي ربا ، وهو رب كل شيء } . والإستفهام على سبيل التعجب من حالهم ، والاستنكار لواقعهم . أي : أغير الله تريدوننى أن أطلب رباً فأشركه فى عبادته، والحال والشأن أنه سبحانه هو رب كل شيء ومليكه، وهو الخالق لكل شيء .

فجملة { وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ } حال في موضع العلة لإنكار ما هم عليه من ضلال . فإن مجرد الخلق هو موجب للعبادة واستحقاقها لله وحده ، فلا حقّ لغيره فى أن يعبده الخلائق ، وعبادة غيره ظلم عظيم ، وكفر بنعمة الربوبيّة ، وكلمة { رب كل شيء } تتقصى السماوات والأرض وما فيهن ومن فيهن؛ وتشمل كل مخلوق ؛ وتجمع كل حادث . ثم تظللها كلها بربوبية الله الشاملة لكل كائن في هذا الكون الهائل؛ وتجعلها تخضع كلها لحاكمية الله المطلقة عقيدة وعبادة وشريعة .

وهذه الدلائل والموحيات كلها حاضرة؛ وكلها شاهدة؛ وكلها هادية إلى أن الله وحده هو الرب الواحد المتفرد . فإن صريح العقل يشهد بأنه لا يجوز جعل المربوب شريكاً للرب وجعل المخلوق شريكاً للخالق . ثم إنه تعالى لما بين بهذا الدليل القاهر القاطع هذا التوحيد بين أنه لا يرجع إليه من كفرهم وشركهم ذم ولا عقاب ، فقال : { ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون } يروى أنهم كانوا يقولون للمسلمين : «اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم» وقد حاولوا منه ذلك غير مرّة سواء كانوا حاولوا ذلك منه بقرب نزول هذه الآية أم لم يحاولوه ، فهم دائمون على الرّغبة في موافقتهم على دينهم ، حكى ابن

عطيّة عن النقّاش أنّ الكفّار قالوا للنّبي صلى الله عليه وسلم « ارجعْ إلى ديننا واعْبُدْ آلهتنا ونحن نتكفّل لك بكلّ تباعة تتوقّعها في دنياك وآخرتك »[375] وأنّ هذه الآية نزلت في ذلك .

فرد عليهم مستنكراً رغبتهم أن يعترف بربوبية أصنامهم ، وتحملهم عنه تبعات ذلك بأن ما كسبته كل نفس من الخطايا محمولة عليها لا على غيرها حتى يصح قولكم ، فإنه سبحانه لما أنكر على من يجنح إلى غيره مع عموم بره وخيره ، أتبعه الترويع من قويم عدله في عظيم ضره بقوله : { ولا تكسب كل نفس إلا عليها } أي : لأنه سبحانه عدل حكيم فكيف أدعو غيره دعاء جلياً أو خفياً وذلك أعظم الذنوب! وعلى هذا يكون قوله سبحانه : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى } تأكيداً لما قبله . والمعنى : أغير الله أبغي ربا يحكمني ويصرف أمري ويهيمن عليَّ ويقومني ويوجهني ؟ وأنا مأخوذ بنيتي وعملي ، محاسب على ما أكتسبه من طاعة ومعصية ، ومجزي بذنبي لا يحمله عني أحد غيري ؟

إنه الختام لهذه السورة التي استهدفت قضية الحاكمية والشريعة؛ يجيء متناسقاً مع الإيقاعات الأولى في السورة ، تلك التي استهدفت قضية العقيدة والإيمان؛ ويجيء متناسقاً كذلك مع ما سبقها من تقرير قاعدة الحساب والجزاء على أساس الفضل والعدل ، والتنزه عن الجور والظلم ، فإن ذكر الحساب والجزاء في معرض ذكر المقتضيات التعبدية من قبل ومن بعد ، إنما هو تأكيد لحقيقة هذه المقتضيات وتقريرها . ثم بين تعالى أن رجوع هؤلاء المشركين إلى موضع لا حاكم فيه ولا آمر إلا الله تعالى ، في قوله : { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } . فرجوعهم إليه تعالى يوم القيامة ليفصل بينهم بتمييز الحق من الباطل ، ومجازاة كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر على حسب علمه . فهو سبحانه الذي استخلف الناس في الأرض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات في العقل والجسم والرزق؛ ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون . فإذا كان الأمر كذلك فلا يليق بعاقل أن يعرض نفسه بحمل شيء من غضب هذا الملك الذي لا شريك له وإليه المرجع مهما طال به العمر[376].

---

[375]- تفسير ابن عطية 4/3

[376]- راجع : تفسير الرازي 28/7، وتفسير الألوسي 90/6-92 ، وتفسير البقاعي 170/3 ، وتفسير القرطبي 152/7، وتفسير الزمخشري 198/2، وتفسير اللباب 253/7، وتفسير السعدي 282، وتفسير الظلال 181/3 ، وتفسير طنطاوي 1578

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعليه فإن المقتضى التعبدي لعدالة الله تعالى في حسابه وجزائه بحسب ما دلت عليه هذه الآيات في قصة إبراهيم عليه السلام ، وبما تظافرت عليه نصوص القرآن الكريم ، نجملها بما يلي :

1. الاجتهاد في طاعة الله تعالى بالأعمال الصالحة على أساس الإيمان بالله وتوحيده ، واجتناب المعاصي والذنوب مخافة الله وعذابه .

ـــ قال تعالى : { أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: 70-71].

ـــ قال تعالى : { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ } [ص: 27-29].

ـــ قال تعالى : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ } [يونس: 3-4].

ـــ قال تعالى : { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [المؤمنون: 60-62].

2. أن يقطع العبد الطمع في النجاة بغير عمله وكسبه ، ولا يتكل على الأماني الخادعة التي تنشأ بسبب الظنون الكاذبة ، من النسب والمحسوبية والواسطة وغير ذلك من التوهمات التي تطعن بعدالة الله في حسابه وجزائه ، وتخالف ما قرره على ألسنة رسله ، وما ذلك إلا لتنصل من التكاليف والواجبات وأعبائها ، وإعفاء النفس من كل الالتزامات والمسؤليات التي أناطها الله تعالى على عباده.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ قال تعالى : { اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123) وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة: 123-124].

ـــ قال تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة: 111-112].

ـــ قال تعالى : { وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة: 81-82].

ـــ قال تعالى : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [المائدة: 18].

وهكذا يقرر المنهج القرآني قاعدة العدل الإلهي في ترتيب الجزاء على العمل ، وهي القاعدة التي يستوي الناس فيها جميعاً ، فلا محسوبية عند الله ، ولا محاباة لطائفة أو جماعة أو فرد ، إنما هو الإيمان والعمل الصالح .

وأما الفرق بين الإيمان الصادق والأماني الكواذب من حيث حقيقته : فهو العمل الصالح ، ومن حيث مصدره : فالإيمان مصدره اليقين والثقة بوعد الله تعالى ، قال تعالى : { رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ } [آل عمران: 193-194]. وأما الأماني فإن مصدره الظنون الكاذبة ووعد الشيطان مصداقاً لقوله تعالى : { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } [النساء: 120].

وعليه فإنه في ضوء ما تقدم بيانه من عدل الله تعالى المطلق والشامل ، يتضح طبيعة المنهج القرآني في تقرير هذه الحقيقة والمطالبة بلازمها من العبودية لله تعالى وحده ، وهو يعرض عدالة الله تعالى

متجلية في نظام الوجود كله ، ومتجلية في قدره الذي يجريه بين عباده ، ومتجلية في شرائعه وكتبه المنزلة ، ومتجلية في حسابه وجزائه الذي يقضي به بين عباده ، ليستدل بذلك كله على ما يلازمها من مقتضياتها التعبدية التي توجب على العباد الإقرار لله تعالى بتفرده بالألوهية واستحقاقه وحده للعبودية ، ووجوب الخضوع لأمره في شرعه وحكمه ، والرضى في قضائه وقدره ، وتوجه الشعور نحو جزاءه العادل بالرغبة والرهبة ، طمعاً في ثوابه وخوفاً من عقابه ، وهو في ذلك كله يتلقى أمر الله تعالى وقضاءه وحكمه برضا وقبول وتسليم مطلق .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- الفصل السادس -

استدلال إبراهيم عليه السلام بإرادة الله تعالى النافذة على ألوهيته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* تمهيد :

إن المتأمل في هذا الكون بما فيه من تنوع وتباين واختلاف بين الأشياء والأحداث ، وبما فيه من خصائص مقدرة وأجزاء منظمة ، ونسب ومقادير موزونة ، وسنن محكمة . لتتوافق كلها في تحقيق منفعة مقصودة ، وهو صلاح الحياة على الأرض حتى تلائم الوجود الإنساني ، وهذا النظام والانتظام الحافظ لبقاء الوجود ، وهذا التوافق والتوازن الملائم لحياة البشر ، ليدل دلالة قاطعة على أن وراءها فاعل مريد قاصد مختار [377].

وقد نبه القرآن العقل إلى هذه العناية المقصودة والمشهودة في نظام الوجود والحياة من خلال كثير من الموافقات والتي يحكم العقل باستحالة صدورها إلا عن إرادة فاعلة حكيمة . قال تعالى : { وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (19) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (20) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (21) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ } [الحجر: 19-22]. وقال تعالى : { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [فاطر: 12].

إن إرادة التنويع في اختلاف البحرين واضحة؛ والإشارة إلى اختلافهما توحي بمعنى القصد والتدبير في هذه التفرقة وفي كل تفرقة أخرى . فحياة هذا الكون ونظامه منظور فيه إلى تناسقات وموازنات يقوم بعضها على بعض ولا يصنع هذا إلا الله خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . فإن هذا التنسيق الدقيق لا يجيء مصادفة واتفاقاً بحال من الأحوال . وكلما زادت المعرفة الإنسانية تكشفت لنا حِكم جديدة من هذا التنوع والاختلاف وظهر التقدير العجيب في تصميم هذا الكون الضخم ، ثم يلتقي البحران المختلفان في تسخيرهما للإنسان لينتفع بها ، وقد يسر الله له من الأسباب بما هو حقيق بالشكر [378].

---

[377] - راجع فاطمة اسماعيل، القرآن والنظر العقلي، ص 165-166، دكتور محمد ملكاوي، عقيدة التوحيد ، ص 147-148

[378] - راجع تفسير الظلال ، 143/6

وقال تعالى : { وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الرعد: 4]. فهذه الموجودات والأحداث من حيث هي موجودات وأحداث ممكنة، تدل على أن وراءها مُرجِّحٌ، رجح وجودها وحدوثها على العدم أو عدم وجود بدائلها [379]. قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا } [الفرقان: 45-46]. وقال تعالى : { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ } [الأعراف: 185]. والنظر بالقلب المفتوح والعين المبصرة في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم ، يكفي وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام ، وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه ، والإبداع الذي يشهد به .

والإعجاز الذي يدل على البارئ الواحد القدير . والنظر إلى ما خلق الله يدهش القلب ويحير الفكر ، ويلجيء العقل إلى البحث عن مصدر هذا كله ، وعن الإرادة التي أوجدت هذا الخلق على هذا النظام المقصود المشهور . لماذا كانت الخلائق على هذا النحو الذي كانت به؛ و لم تكن على أي نحو آخر من الإمكانيات التي لا حصر لها في الكينونة؟ لماذا سارت في هذا الطريق و لم تسر في أي طريق آخر من الطرق الممكنة الأخرى؟ لماذا استقامت على طريقها هذا ومن الذي يمسكها على نشأتها؟ ما سر هذه الوحدة السارية في طبيعتها إن لم يكن هذا هو الناموس الواحد ، الصادر عن الإرادة الواحدة ، التي يجري بها قدر مطرد مقصود؟ قال تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } [المؤمنون: 14]. وفي أطوار هذه النشأة ، وتتابعها هذا النظام ، وهذا الاطراد ، ما يشهد بوجود المنشئ أولاً ، وما يشهد بالقصد والإرادة والتدبير في تلك النشأة وفي اتجاهها أخيراً .

فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة ، ولا خبط عشواء بدون قصد ولا تدبير؛ ثم تسير هذه السيرة التي لا تنحرف ، ولا تخطئ ، ولا تتخلف؛ ولا تسير في طريق آخر من شتى الطرق التي يمكن عقلاً وتصوراً أن تسير فيها . إنما تسير النشأة الإنسانية في هذا الطريق دون سواه من شتى الطرق الممكنة بناء على قصد وتدبير من الإرادة الخالقة المدبرة في هذا الوجود . والخلق لا يقتضي إلا توجه

---

[379] – أنظر: الدكتور عبد المجيد النجار، الإيمان وأثره في الحياة ، ص 63.

الإرادة الإلهية المرموز له بلفظة : « كن » فتتم الكينونة « فيكون » . قال تعالى : { كَذَلِكِ اللَّـهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [آل عمران: 47].

إن الجسم الحي . لا بل الخلية الحية . لمعجزة لا ينقضي منها العجب . وجودها وتركيبها وتصرفها . وعمليات التحول الدائمة التي تتم فيها كل لحظة مع محافظتها على وجودها؛ وتضمنها كذلك لوسيلة التجدد في أنسال منها؛ ومعرفتها لوظيفتها ولامتداد هذه الوظيفة في أنسالها! . فمن ذا الذي ينظر إلى هذه الخلية الواحدة ، ثم يطمئن عقله وضميره إلى أن هذا الكون بلا إله ، أو أن هناك آلهة مع الله؟إن امتداد الحياة عن طريق الزوجية والنسل ليقوم شاهداً يهتف لكل قلب وكل عقل بتدبير الخالق الواحد المدبر . قال تعالى : { وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [الذاريات: 49]. إن إرادة الله هي التي تضمن هذا التوازن للحياة ، من وجود الذكر والأنثى دائماً في نسلها بالمقادير التي يتم بها هذا التزاوج ، وهي التي تمسك بعجلة التوازن دائماً في الأجيال جميعاً ، إن التوازن ملحوظ في ملكوت السماوات والأرض جميعاً . قال تعالى : { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ } [الرحمن: 7]. وقال تعالى : { وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ } [الحجر: 19].

إن هذا التوازن ملحوظ في بناء الذرة كما هو ملحوظ في بناء المجرة! وملحوظ بين الأحياء وبين الأشياء سواء . ولو اختل هذا التوازن شعرة ما ظل هذا الكون قائماً لحظة! فالله وحده الذي يمسك بعجله التوازن الكبرى في السماوات والأرض جميعاً . قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } [فاطر: 41]. والذين كانوا يخاطبون بهذا القرآن أول مرة ما كانوا يدركون بعلومهم مدى هذا التوازن والتناسق في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء .

ولكن الفطرة الإنسانية بذاتها تلتقي مع هذا الكون في أعماقها؛ وتتجاوب معه بلغة غير منطوقة إلا في هذه الأعماق . ويكفي أن ينظر الإنسان بالقلب المفتوح والعين المبصرة إلى هذا الكون حتى يتلقى إيقاعاته وإيحاءاته تلقياً موحياً هادياً . ويدرك إدراكاً مباشراً لوحدة الإرادة التي صدر عنها الوجود ، ووحدة الخالق صاحب الإرادة .

ومن مقتضيات هذه الحقيقة الدينونة لله وحده والانخلاع من الدينونة لسواه ، مع العمل الصالح والسلوك القويم ، والتوجه به إلى الله وحده [380]. فالله تعالى هو صاحب الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة في هذا الوجود ، فما شاء كان ، وما لم يشاء لم يكن ، فخلق كل شيء بإرادته ، وصدور

---

[380]- انظر : تفسير الظلال ، 331/3 ، 4/ 364 ، 226/5 ، 329

أمره ، قال تعالى : { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [النحل: 40]. وأجرى فيه قدره وتقديره وفق مشيئته واختياره ، قال تعالى : { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ } [القصص: 68]. وقال تعالى : { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا } [الفرقان: 2]. وكذلك كل حدث يقع في هذا الكون إنما يقع بإذنه ومشيئته ، قال تعالى : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [الحديد: 22]. قال تعالى : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } [التغابن: 11].

فكل موجود في هذا الكون ، وكل حادث يقع فيه إنما هو صادر من إرادة مطلقة حكيمة ، لا مكان فيه للمصادفة العمياء ، ولا للحتمية الألية ، وإنما هي سنن كونية تجري وفق مشيئة الله تعالى وقدره ، وهو وحده من يملك أن يعطلها أو يبدلها ويجري سنناً غيرها ، ومعجزات الرسل دليل حي على هذه الحقيقة ، فالنار من خاصيتها الإحراق ، فلما أراد سبحانه أن لا تجري هذه السنة خاصيتها ، عطلها و لم تحرق إبراهيم ، بل وأجرى سنة غيرها ، فأبدل سنة الإحراق لتكون برداً وسلاماً ، كما في قوله تعالى : { قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء: 69]. وهكذا سائر السنن والقوانين الكونية ، فهي ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هي تجري وفق قدر الله تعالى ومشيئته . وهذا ما قرره القرآن في كثير من آياته وأكد عليه ، حيث نفى عن هذه الظواهر وتلك الحوادث الواقعة في هذا الوجود الأسباب الظاهرة ليردها إلى مشيئة الله وقدره ، كما في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } [الواقعة : 63-74] . وقوله تعالى : { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال: 17].

فليست هذه الأسباب الظاهرة فاعلة بذاتها وإنما الفاعل الحقيقي لها هو الله تعالى ، وليست هذه السنن الجارية هي سنن حتمية لا تتخلف ، بل هي سنن تجري بأمر الله وتقديره . إن إرادة الله تعالى المطلقة ومشيئته الشاملة تمتد إلى الوجود كله ، لتشمل كل ظاهرة وكل حادثة ، وكل حركة فيه لا يند منها شيء ، وهي تجري بتقدير وحساب دقيق لا يملك العقل البشري إدراكها أو الإحاطة بها ، وهذه الأقدار لا يستطيع العقل إدراك الحكمة من ورائها ، أو إدراك وجه الخير أو الشر فيها ، قد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يبدو بحسب الظاهر فيها الخير وهي خلاف ذلك ، وقد يبدو فيها الشر وهي بخلاف ذلك ، كما في قصة موسى عليه السلام مع الخضر وهو في حقيقته يمثل قدر الله ، فقد جرى بينهما ثلاثة مواقف مختلفة ، وكل موقف له دلالة على طبيعة جريان قدر الله تعالى بين عباده ، حيث تجري أحداث القصة وهي في ظاهرها مستغربة أمام قصور علم البشر عن معرفة الغيب ، و إدراك الحكمة من ورائها . إلى درجة أن موسى عليه السلام لم يستطع الصبر عليها أو السكوت عنها بحسب ما أتفق مع الخضر ، لأن طبيعة العقل البشري قاصر عن تأويل وجه الخير فيها وإن كانت تبدو بحسب الظاهر خلاف ذلك ، قال تعالى : { فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف: 65-78].

وأمام هذا القصور البشري عن إدراك وجه الخير لهذه الأحداث وتأويلها ، يكشف الخضر لموسى ما وراء هذه المواقف الثلاث من قصد ، ليظهر لنا أنه وراء كل حادثة علماً شاملاً ، وحكمة بالغة ، ورحمة واسعة ، وعدالة مطلقة :

ففي الموقف الأول : يظهر في صورة يبدو وجه الشر والمصيبة في ظاهره ولكن في باطنه منتهى الخير والعدل ، ويتمثل ذلك في خرق الخضر للسفينة وهي للمساكين الذين حملوهم بغير أجر ، فيستنكر موسى عليه هذا الفعل المستهجن ، وأن يقابل إحسانهم بضده من الإساءة ، فكان تعليل ذلك موافقاً مع سنة الله وهو مقابلة الإحسان بالإحسان ، وإن كان ظاهرها يبدو بغير ذلك ، فقد دفع ضرر كبير بضرر أقل ، كما في قوله : { أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا } [الكهف: 79].

وأما الموقف الثاني : فيظهر في صورة شنيعة ومؤلمة يتفطر لها القلب ويعجز العقل عن إدراك وجه الخير والعدل فيها ، ويتمثل ذلك في قتل الخضر للغلام ، و لم يستطع موسى تأويل فعله بما يتلاءم مع صلاحه ، لأن العقل لا يتصور وجود مبرر لقتل غلام بريء من غير ذنب ، لذلك استنكر موسى فعله غاية الاستنكار ، فكان تعليل ذلك هو ما تقتضيه رحمة الله تعالى وعدله ، حيث دفع بهذا البلاء ، بلاء أعظم وأفدح . في قوله تعالى : { وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا } [الكهف: 80-81].

وأما الموقف الثالث : فيظهر بصورة في ظاهرها تخالف وجه العدالة ، ولكنه في حقيقته عين العدل والرحمة ، ويتمثل ذلك في بناء الخضر للجدار من غير مقابل ، في حين أن أهل هذه القرية لم يقوموا بحقهما بواجب الضيافة ، فلامه موسى لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة ، قوم بخلاء أشحاء لا يستحقون العون . ورجل يتعب نفسه في إقامة حائط مائل لهم. فمن الأجدر أن يطلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، خصوصا وهما جائعان لا يجدان مأوى لهما في تلك القرية . فكان التعليل هو تحقيقاً لرحمة الله وعدله ولكن يقصر العقل البشري عن إدراك الحكمة أو معرفة ما وراء الغيب ، لذلك فإن هذا الخير ليس لأجلهم بل حتى يصل لغلامين كان أبوهما من أهل الصلاح والتقوى ، فاستحق بعدل الله وحكمته هذه الرحمة التي ليس بعدها رحمة . قال تعالى : { وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف: 82].

إن الخضر في حقيقة أمره إنما هو يمثل قدر الله الذي يجري بين عباده وقد تجلى في تلك المواقف الثلاث التي لم يستطع موسى الصبر عليها أو السكوت عنها ، لأن العقل البشري قاصر عن إدراك الحكمة الإلهية من وراء الأحداث ، وعاجز عن كشف أستار الغيب ، والقدر من الغيب المستور الذي لا يطلع عليه الإنسان ولا يعلم خفاياه ، وحينما ينكشف للإنسان جزء صغير من أسرار الغيب المقدور ، فإنما هو في الحقيقة يكشف عن الحكمة البالغة والرحمة الواسعة والعدل المطلق لله تعالى . على الرغم مما قد يبدو للناس في ظاهره من شدة وقسوة ، أو كراهية الناس له . قال تعالى : { وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 216]. وبالمحصلة فإن ما يقدره تعالى على المؤمن من سراء أو ضراء فإنما هو خير له ، وذلك باعتبار المآل حين يتعامل مع قدر الله تعالى على أساس الإيمان والعمل الصالح ، كما

جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له "[381].

*** ولقد استدل القرآن بإرادة الله المطلقة على تفرده بالألوهية ونفيها عمن سواه :**

ـــ قال تعالى : { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [القصص: 68-72].

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب ، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ، فإن مرد الأمور جميعها إليه ، وانفراده باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص والأوامر والأزمان والأماكن ، وأن أحدا ليس له من الأمر والاختيار شيء ، ومن ذلك اختياره لهم من الرسل ما يعلم أنه يصلح له وما لهم فيه الخير ، وهذا في معنى قوله : { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام: 124]. وأن ليس ذلك لاختيار الناس ورغباتهم؛ حتى يقولوا : { لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف: 31].

فإن المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار، وأنه لا نظير له في ذلك؛ ولهذا قال: { سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } أي: تنزه تعالى بذاته تنزهاً خاصاً به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره أحد من الأصنام والأنداد، التي لا تخلق ولا تختار شيئًا.

فقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة؛ والله وحده هو الخالق المختار لا شريك له في خلقه ولا في اختياره . واستقرار هذه الحقيقة في الضمير من شأنه أن لا يسخط الناس شيئاً يحل بهم ، ولا أحزنهم شيء يفوقهم أو يفلت منهم . فليسوا هم الذين يختارون ، إنما الله هو الذي يختار . وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم وإرادتهم ونشاطهم . ولكن معناه أن يتقبلوا ما يقع بعد أن يبذلوا ما في وسعهم من التفكير والتدبير والاختيار بالرضى والتسليم والقبول . قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } [الأحزاب: 36].

[381]- صحيح مسلم (2999)

وهكذا يطوقهم بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته في هذا الوجود وإطلاعه على سرهم وعلانيتهم فلا تخفى عليه منهم خافية؛ وإليه مرجعهم فلا تشرد منهم شاردة . فكيف يشركون بالله بعد هذا وهم في قبضته لا يفلتون؟

ثم ينتقل بهم سبحانه من الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية بصفات ذاته إلى الاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته ، وفي ضمن هذا الاستدلال إدماج الامتنان على الناس وللتعريض بكفر المشركين جلائل نعمه . واختير للاستدلال على وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرر كل يوم مرتين ، والذي يعيش الناس فيه غافلين عن تدبير الله لهم ، واختياره لحياتهم ومعاشهم؛ فيوقظ مشاعرهم لظاهرتين كونيتين عظيمتين . ظاهرتي الليل والنهار ، وما وراءهما من أسرار الاختيار والشهادة بوحدانية الخالق المختار . والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة ، ويلفتهم إلى تملي الكون من حولهم ومشاهده العظيمة؛. فذكر لهم مشهد من مشاهد الكون ، والذي يستوي في إدراكه كل مميز ، والذي هو أجلى مظاهر التغير في هذا العالم فهو دليل الحدوث . والاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائماً ، لأن قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر كل يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقواهما وأنفعهما ، ولأن النعمة بتعاقبهما دوماً أشد من الأنعام بأفضلهما وأنفعهما لأنه لو كان دائماً لكان مسؤوماً ولحصلت منه طائفة من المنافع ، وفقدت منافع ضده . فالتنقل في النعم مرغوب فيه ولو كان تنقلاً إلى ما هو دون .

وسيق إليهم هذا الاستدلال بأسلوب تلقين النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم اهتماماً بهذا التذكير لهذا الاستدلال ولاشتماله على ضدين متعاقبين ، حتى لو كانت عقولهم قاصرة عن إدراك دلالة أحد الضدين لكان في الضد الآخر تنبيه لهم ، ولو قصروا عن حكمة كل واحد منهما كان في تعاقبهما ما يكفي للاستدلال .

فهذه الآيات، تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم اللّه عليه، ويستبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنة والقصد والإختيار فيها ، بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمرا، ولا يزال. وعمي قلبه عن الثناء على اللّه، بنعمه ، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت . فإن هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر . وأما من شاهد قدرته ومشيئته سبحانه ، وفعلها في الكون ونظام حركته المتغيرة وفق نظام دقيق مفروض لا تخرج عنه ولا تتخلف . وأدرك منفعة هذا النظام على استقرار حياته وما

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يجنيه من منافع . فإن ذلك يوجد شعور الامتنان لله على فضله ونعمه ، وإلى شكره والقيام له بحق العبودية .

ففي هذه الآيات يستدل سبحانه بمشيئته واختياره وتقديره على تفرد ألوهية وتنزهه عن الأنداد والشركاء، ومطالباً بلازمها من العبادة والحمد، والخضوع لأمره وحكمه سبحانه وتعالى، ثم يلفت النظر إلى آيتين من الواقع هما الليل والنهار لتدلان على إرادته المطلقة ليقيم الحجة بذلك على المشركين في استحقاقه وحده للعبادة [382].

*** كذلك ينفي القرآن ألوهية غير الله تعالى مستدلاً بإرادته المطلقة :**

ـــ قال تعالى : { لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [المائدة: 17]. كان أعظمَ ضلال النّصارى ادّعاؤهم إلهيّة عيسى عليه السلام ، فإبطال زعمهم ذلك هو أهمّ أحوال إخراجهم من الظلمات إلى النّور وهديهم إلى الصراط المستقيم .

فبيّن الله لرسوله الحجّة التي يحتج بها على بطلان معتقدهم الفاسد تبكيتاً وإلقاماً لهم الحجر ، بقوله : { فَمَن يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً}. أي : قل يا محمد لهؤلاء النصارى على سبيل الإنكار والتوبيخ والتجهيل لقولهم : من ذا الذي يقدر على دفع شيء من مراد الله ومقدوره . فإذا أراد سبحانه أن يهلك المسيح وأمه وسائر أهل الأرض. فمَن يملك من أمر الله وإرادته شيئاً يدفع به الهلاك عنهم ؟ لا شك أن أحد لن يستطيع أن يمنع إرادته تعالى لأنه هو المالك لأمر الوجود كله ، وما دام الأمر كذلك فدعوى أن الله هو المسيح ابن مريم ظاهرة البطلان ، لأن المسيح وأمه من مخلوقات الله التي هي قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها .

وحاشا للمخلوق الفاني أن يكون إلها وإنما الألوهية لله الخالق الباقي ، وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها في عموم المعطوف لزيادة تأكيد عجز المسيح ، وأنه هو وأمه عبدان من عباد الله لا

---

[382]- راجع : تفسير ابن كثير 251/6، وتفسير الألوسي 173/15-175، وتفسير ابن عاشور 428/10-429، وتفسير الظلال 440/5-441، وتفسير طنطاوي 3280-3281 ، وتفسير السعدي 622-623 ، تفسير البيضاوي، 461/4، دكتور عبد المجيد النجار، أثر الإيمان في الحياة، 63

يقدران على دفع الهلاك عنهما . وفي تعميم إرادة الإهلاك بقوله { وَمَن فِى الارض جَمِيعاً } مع حصول الغرض بقصرها على عيسى عليه الصلاة والسلام لتهويل الخطب وإظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره وملكوته تعالى لا يقدر أحد على دفع ما أريد به فضلاً عما أريد بغيره ، وللإيذان بأن المسيح مشاكل لمن في الأرض في كونه عرضة للهلاك كما أنه أسوة لهم في العجز وعدم استحقاق الألوهية . والتذييل بقوله : { ولله ملك السموات والأرض وما بينهما } تأكيد لاختصاص الألوهية به تعالى إثر بيان انتفائها عما سواه . وهو دليل آخر على نفي ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام لأنه لو كان إلهاً كان له ملك السموات والأرض وما بينهما ، وهو دليل كذلك على نفي كونه عليه الصلاة والسلام ابناً ببيان أنه مملوك لدخوله تحت العموم .

ومن المعلوم أن المملوكية تنافي البنوة . وقوله تعالى : { يَخْلُقُ مَا يَشَاء } جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعترى النصارى من شبه في أمر المسيح لولادته من غير أب ، وإحيائه الموتى ، وإبرائه الأكمه والأبرص ، كل ذلك بإذن الله ، فكان ذلك موجب ضلال من نسب له الألوهية .

وكذلك قوله : { والله على كلّ شيء قدير } . تذييل مقرر لمضمون ما قبله . أي : والله قدير على كل شيء ومالك لكل شيء ومهيمن على كل شيء لا يغلبه شيء طلبه ، ولا يعجزه أمر أراده وما عيسى وأمه إلا من مخلوقاته وعبيده ، فكيف يكون إلهاً يعبد، من كان عاجزاً عن دفع ما أراد به غيره من السوء، وغير قادر على صرف ما نزل به من الهلاك، بل الله المعبود الذي له ملك كل شيء وبيده تصريف كل من في السماء والأرض وما بينهما ، فهذه الآية الكريمة تحكي أقوال النصارى الباطلة في شأن عيسى عليه السلام وترد عليهم بما يزهق باطلهم ، ويثبت أن عيسى إنما هو عبد من عباد الله وأن العبادة إنما تكون لله الواحد القهار [383].

*** كذلك استدل القرآن على تفرد ألوهية الله تعالى بمشيئته النافذة في انتظام الوجود كله وعدم منازعته أحد في ملكه .**

ـــ قال تعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنبياء: 22]. هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله ، فهي مسوقة لإثبات

[383]- تفسير الطبري 2، 163، الرازي 18/6، وتفسير الألوسي 431/4، ابن عاشور 165/4، وتفسير طنطاوي 1213-1215

الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع وانفراده بالخلق إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين ، لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله هو خالق السماوات والأرض ، قال تعالى : { ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله } [الزمر: 38]. ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم . ووجه انتظام هذا الاستدلال آنه لو تعددت الألهة كما يزعم المشركون لتنازعت الإرادات ولتعددت النواميس طبقاً لتعدد الإرادات وانعدمت الوحدة ووقعت الاضطرابات، ونشأ عن ذلك الفساد في الكون، ولكن الواقع المشاهد غير ذلك إذ كل شيء في هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق ، وانتظام بديع الذي لا خلل فيه ولا اضطراب ، فالنتيجة العقلية هي امتناع تعدد الألهة وإن الكون كله صادر عن مشيئة واحدة . وفُرع على هذا الاستدلال إنشاءُ تنزيه الله تعالى عن المقالة التي أبطلها الدليل بقوله تعالى : { فسبحان الله ربّ العرش عما يصفون } أي عما يصفونه به من وجود الشريك . ووصفه هنا برب العرش تعريضاً بهم بـإلزامهم لازم قولهم بانفراده بالخلق أن يلزم انتفاء الشركاء له فيما دون ذلك . ووجوب إفراده بالعبادة[384].

ـــ قال تعالى : { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 91] . وقال تعالى { قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } [الإسراء: 42].

إن وحدة التكوين ووحدة الحركة في هذا الكون هما الظاهرتان اللتان اهتدى اليهما الإنسان . وهما إشارتان من بعيد إلى قانون الوحدة الشامل الكبير . فأدرك العقل البشري في لمسة واحدة ما وراء وحدة الإيقاع من وحدة المصدر ، ووحدة الإرادة والفاعلية في هذا الوجود . ومن ثم كان هنالك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني . ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني . ومن هذا التصور يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم ، الذي يتطابق مع حقيقة تصميم الكون وحقيقة حركته ، وحقيقة اتجاهه . ويدخل به الناس في السلم كافة . السلم مع هذا الكون ، والسلم مع فطرتهم وهي من فطرة هذا الكون ، والسلم مع بعضهم البعض في سعيهم ونشاطهم وغوهم ورقيهم المهيأ لهم في هذه الحياة الدنيا .

---

[384]- أنظر: تفسير ابن عاشور 140/9 ، وتفسير طنطاوي 2890، وفاطمة إسماعيل، القرآن والنظر العقلي، ص 172

فكان الإسلام هو أكمل تصور لحقيقة الوحدة ، وحدة الخالق الذي ليس كمثله شيء . ووحدة الإرادة التي يصدر عنها الوجود كله بكلمة : « كن » . ووحدة الوجود الصادر عن تلك الإرادة . ووحدة الناموس الذي يحكم هذا الوجود . ووحدة الحياة من الخلية الساذجة إلى الإنسان النـــاطق [385]
.

*وكذلك استدل القرآن على إرادة الله الكونية التي ينتظم فيها أمر الوجود كله بالخضوع والقهر لمشيئته تعالى على وجوب الخضوع لإرادته الشرعية من الانقياد لحكمه وشرعه ودينه قال تعالى : { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْــهِ يُرْجَعُــونَ } [آل عمران: 83]. وقال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَــنْ فِــي الْــأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } [الحج: 18].

* ولقد استدل القرآن بإرادة الله المطلقة ومشيئته النافذة من خلال إرادته الكونية وإرادته الشرعية على ما يلازمها من مقتضيات العبودية لله تعالى ، وسوف نعرضها من خلال قصة إبـــراهيم عليـــه السلام ، بالمباحث التالية .

---

[385]- أنظر : تفسير الظلال 1/260-261

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ المبحث الأول ـــ

الاستدلال بإرادة الله الكونية على ألوهيته

وهذه الإرادة الكونية تتعلق بكل ما يشاؤه الله ويقدره من الأشياء والأحياء والأحداث ، وهي جميعها خاضعة لمشيئته وقدره لا تتخلف عنها مطلقاً . ويمكن تقسيم هذا النوع إلى قسمين [386] :

ـــ القسم الأول : مشيئته وإرادته تعالى فيما يقتضيه نظام الوجود مباشرة :

وهي التي تتعلق في الخلق والإيجاد ، وتقدير السنن والقوانين والنواميس الكونية ، وهذه تخضع لإرادة الله تعالى ، ومرتبطة بالوجود المادي ارتباطاً حتمياً ، لا يتخلف عنها ولا ينفصل ، وتسير وفق نظام مخصوص مفروض عليها . وهذه السنن التي يجري فيها قدر الله تعالى ومشيئته بالنسبة للإنسان ، يمكن تقسيمها إلى نوعين : أحدهما : ما يفعل له . والثاني: ما ينفعل به .

– الأول : ما يفعل له .

وهذا النوع مسخر للإنسان ويفعل له من غير جهد منه ولا عمل : وذلك مثل تسخير الشمس والقمر والسماء والأرض والبحار والماء والهواء ، ونحو ذلك . كقوله تعالى : { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس: 37-40]. وقوله تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } [المؤمنون: 12-14]. وهذا النوع من سنن الله وأقداره التي يفعلها تعالى للإنسان ، هي من عطاء الربوبية الذي يستوي فيه الجميع بلا تميز بين مسلم وكافر ، لأنه رب العالمين الذي تكفل أسباب الحياة للناس جميعاً . والإنسان يسير مع الكون والحياة وفق نظام

---

[386]– راجع : هشام البدراني ، مفاهيم علماء النفس ، 151-152 ، مجد مكي ، البيان في أركان الإيمان ، 408 ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، ابتلاء الإرادة ، 37 ، محمد متولي شعراوي ، منهج الله في الكون ، 19-20

مخصوص مفروض عليه ويسير بحسبه سيراً جبرياً ، وهو لا يستطيع أن يتجرد منها أو ينفك عنها ، فهو محكوم لها طبيعياً وهي خارج إرادته . وهي مسخرة لمنفعة الإنسان ودوام حياته وبقائه ، وقد استدل القرآن بذلك على ما يلازمها من العبودية والتي تقتضي من العبد أن يتفكر فيها باعتبارها آثار دالة على كمال صفاته تعالى ، وإدراك الحكمة من ورائها ، والشعور بتلك العناية المقصودة ، مما يوجب عليه أن يشكر الله تعالى ويحمده على هذه النعم التي سخرها سبحانه لعباده ، وأن يحسن التعامل معها وفق ما أمره الله عز وجل ، كما أشار إليها في قوله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران: 190-191]. وقوله تعالى : { اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [الجاثية: 12-13].

- والثاني : ما ينفعل به .

وهي السنن التي قدرها الله تعالى للإنسان وتنفعل به . وهذه تتطلب منه أن يقوم بجهد وعمل ليحصل على نتائج عمله ، فإذا حرث الإنسان الأرض وبذرها بالحب ورعاها ، فإنها تعطيه ثمراً بإذن الله . قال تعالى : { وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ } [يس: 34-35]. وقال تعالى : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ } [الواقعة: 63-64].

وإذا تزوج ووطىء كان له ولد بإذن الله ، قال تعالى : { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا } [الأعراف: 189]. وقال تعالى : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ } [الواقعة: 58-59]. وإذا ركب البحر اصطاد سمكاً ، وذا غاص فيه استخرج حلية وزينة ، قال تعالى : { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل: 14].

وهكذا سائر السنن من هذا النوع ، فإن ارتقاء الإنسان في الحياة إنما يتم فيما ينفعل به لا فيما يفعل له ، وهذا الذي يميز الناس والأمم في التقدم والإرتقاء، فالذين لا يقومون بأي جهد مع الأشياء لا يتقدمون ويظلون متأخرين ، وهذه الأشياء أيضاً لا تفرق بين مسلم وكافر ، فلكل مجتهد نصيب فيها ، فالكافر الذي يستخدم أحدث الأساليب العلمية يجني ثمار التقدم ، والمؤمن الذي لا يأخذ بها يحرم من ثمارها . ولذلك فهو مأمور بأن يتفاعل وينفعل معها تعميراً وإصلاحاً ونماءً ، فقد حثّ سبحانه عباده المؤمنين أن يأخذوا بهذه السنن والعمل بمقتضاها ، ونهى عن تعطيلها ودعى إليها ، وطالبهم أن يؤدوا واجب نعمة هذه السنن والمسخرات وألزمهم بمقتضاها ، حيث استدل القرآن بها على لازمها من وجوب تعقل هذه السنن ، ومعرفة ما تخضع له من قواعد ثابتة من أجل الانتفاع بها في عمارة الأرض وإصلاحها ، والقيام بعهد الإستخلاف وفق عهد الله وشرطه ، قال تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } [الملك: 15]. قال تعالى : { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } [هود: 61]. وتحقيق هذه العمارة يتم بأمرين :

الأول : أن تبقى الصالح على صلاحه لا تفسده . قال تعالى : { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [الاعراف: 85].

والثاني : أن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه ، قال تعالى : { إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ } [هود: 88].

ــ القسم الثاني : مشيئة الله تعالى وإرادته فيما لا يقتضيه نظام الوجود مباشرة .

فهي لا تسير مع الكون ومع الحياة سيراً حتمياً ، وهي وإن كانت لا يقتضيها نظام الوجود إلا أنها لا تخرج عن دائرة الوجود وخاصيات الأشياء ،والإنتظام المفروض عليه في أشيائها ، ونسق حدوثها ، وهي التي يخضع لها البشر في تصرفاتهم وأفعالهم ، سواء هذه الأفعال تقع منهم أو عليهم ، وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج ، كالعز والذل ، والسعادة والشقاء ، والهدى والظلال ، والضر والنفع ، وبسط الرزق وقبضه ، والعذاب والمغفرة ، وإرسال الرحمة وإمساكها ، ونحو ذلك من الأمور المتعلقة بالناحية الإجتماعية في الدنيا ، وما يصيبهم في الأخرة من جزاء ، قال تعالى : { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ

مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران: 26]. وقال تعالى : { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يونس: 107].

ومعلوم أن هناك فرقاً بين السنن الكونية والسنن الإجتماعية ، فالأولى يقتضيها نظام الوجود مباشرة ، وتكون أسبابها واضحة بينة مضبوطة إذا عرفناها أمكننا الحكم بدقة على نتائجها وميقات هذه النتائج ، فالماء يتجمد بدرجة معينة ويصل للغليان بدرجة معينة وبعد كذا من الوقت ، وهكذا . . . ، والثانية لا يقتضيها نظام الوجود مباشرة ، فهي بمختلف أنواعها من سياسة وإقتصاد وحضارة عمرانية وما يعتريها من نهوض وهبوط ، وتقدم وتخلف ، ونصر وهزيمة . . إلخ أسباب دقيقة وكثيرة ومتشعبة ومتشابكة وقد يعسر على كثيرين الإحاطة بها تفصيلاً ، وقليلين هم الذين يعرفونها ، ويستطيعون الجزم بحصول نتائج معينة بناء على أسباب معينة ، وإن لم يمكنه الجزم بميعاد حصولها ، فنستطيع على سبيل المثال أن نحكم يقيناً بزوال نظام حكم إذا كان قائماً على الظلم ، وإن لم نستطيع تحديد وقت زواله على وجه الدقة كما هو حال تحديدنا لوقت الغروب والشروق . من أجل هذا الفرق بين الأحداث الكونية المادية وبين الأحداث البشرية يغفل الناس كثيراً عن سنة الله في الإجتماع البشري وفي سلوك الأفراد والأمم ، وقد بيّن القران هذه السنن الإلهية وبيّن قانونها من خلال آيات القصص وسيرة الأنبياء ، وأخبار الأمم السابقة. وعليه فإنه يمكن النظر إلى إرادة الله تعالى من وجهين :

– **الوجه الأول : إرادة الله تعالى فيما يقدره من سنن متعلقة بأفعال العباد** : كالهدى والظلال ، والعذاب والمغفرة ، كما في قوله تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: 53]. قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد: 11].

فاطلاق مشيئة الله تعالى وإرادته في الهدى والضلال ، كما في قوله تعالى : { فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } [فاطر: 8]. فقد قيدها سبحانه بفعل الإنسان نفسه في آيات أخرى ، كما في قوله تعالى : { فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [الصف: 5] . وقوله تعالى : { قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ } [الرعد: 27].

وكذلك إطلاق مشيئة الله تعالى في العذاب والمغفرة في قوله تعالى : { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ } [المائدة: 40]. فقد قيدها بفعل الإنسان نفسه في آيات أخرى ، كما في قوله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعالى : { لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الأحزاب: 73].

وهذا يقتضي من الإنسان أن يأخذ بسنن الله تعالى والأسباب الموصلة إلى نتائجها من الهدى والمغفرة ، قال تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت: 69]. وقال تعالى : { يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأحقاف: 31]. كما يقتضي منه أن يجتنب الأسباب الموصلة إلى الضلال وعذاب الله تعالى وسخطه ، كقوله تعالى : { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة: 80]. وهكذا ينبغي التعامل مع سائر السنن التي من هذا القبيل .

– **الوجه الثاني : إرادة الله تعالى فيما يقدره من سنن متعلقة بحكمته في الإبتلاء** : كالضر والنفع ، وبسط الرزق وقبضه ، والصحة والمرض ، كما في قوله تعالى : { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء : 35] . وقوله تعالى : { فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [الزمر : 49] . وقوله تعالى : { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ } [الشورى : 27] .

إن معرفة الإنسان سنة الله في الإبتلاء في كل ما يقع عليه من سراء أو ضراء ، يوجب عليه الرضى والتسليم بقدر الله تعالى . فإن كان خيراً شكر ، وإن كان شراً صبر ، وفي الحديث : " عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له " [387]. والرضى فيما يقدره تعالى على عبده من ضراء وفيما يبتليه من مصائب لا يعني الاستسلام لذلك وعدم المباشرة في التغيير ، والسعي في دفعه بما أمره الله ، أو أذن بدفعه . وقد جاءت كثير من الآيات في تأكيد هذه الحقائق وتقريرها . نذكر منها :

قال تعالى : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ } [الحديد : 22-23] . أي : فعلنا ما فعلنا من إثبات ما يصيبكم في كتاب من قبل

387- صحيح مسلم (2999)

خلقكم ، وأخبرناكم بذلك ، لكي لا تحزنوا على ما أصابكم من مصائب حزنا يؤدي بكم إلى الجزع ، وإلى عدم الرضا بقضاء الله وقدره . قال تعالى : { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران : 165-166] . وكذلك لكي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشرا وبطرا تفخرون بها على الناس . قال تعالى : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82)} [القصص :81-82] ولهذا قال تعالى : { والله لا يحب كل مختال فخور } أي : والله لا يحب أحداً من شأنه الاختيال بما آتاه من نعم دون أن يشكره عليها ، وإنما يحب تعالى من كان من عباده متواضعا حليما شاكرا لخالقه عز وجل . وقال عكرمة : " ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكرا والحزن صبرا " [388].

فالإيمان بقدر الله يسكب في قلب المؤمن ، كل معاني الثقة والرضا بقضائه تعالى في كل الأحوال . وليس معنى ذلك عدم مباشرة الأسباب التي شرعها الله ، لأن ما سجله الله في كتابه علينا قبل أن يخلقنا لا علم لنا به ، وهو سبحانه لا يحاسبنا على ما نجهله ، وإنما يحاسبنا على ما أمرنا به ، أو نهانا عنه ، وكما سجل سبحانه أحوالنا قبل أن يخلقنا ، فقد شرع الأسباب وأمرنا بمباشرتها ، وبين لنا في كثير من آياته ، أن جزاءنا من خير أو شر على حسب أعملنا [389].

وأما إن كان الإنسان مباشراً لفعل يتوقع فيه نزول قدر الله خيراً أو شراً ، فإن هذا يوجب عليه التوكل على الله وحده مع مباشرة الأسباب التي أمر الله بها عباده ، قال تعالى : { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } [الزمر : 38] . فالإيمان بقدر الله ومشيئته النافذة هي التي تجعل المؤمن يتوكل على الله وتمده بالثبات والصمود في المواقف الحاسمة كالقدوم لساحة الجهاد ، ومواجهة الطغاة والظلمة ، ومن ذلك قوله تعالى : { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [التوبة :51] . كما أنه يوجب على المؤمن

[388] - تفسير ابن كثير : 26/8

[389] - أنظر : تفسير ابن كثير 26/8 ، وتفسير طنطاوي 4100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أن لا يعزم على فعل في المستقبل إلا أن يقيد إرادته بمشيئة الله تعالى ، كقوله تعالى :{ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ } [الكهف : 23-24] .

إلى غير ذلك من الآيات التي تقرر حقيقة مشيئة الله تعالى ، في كل ما يجري من أحداث في حياة البشر وما يقتضي ذلك من كيفية التعامل معها وفق ما يرضي الله تعالى ، ويحقق العبودية له وحده سبحانه .

والمنهج القرآني يستدل بإرادة الله الكونية والإجتماعية على لازمها من العبادة والتي تقضي من العبد أمور منها:

أ- تعقل سنن الله تعالى من سننه الكونية والاجتماعية، وما تخضع له من قواعد ثابتة من أجل الأخذ بها للوصول إلى النتائج التي أمر الله تعالى بها ورضي عنها.

- قال تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ } [يونس : 5-6] .

- قال تعالى: { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)} [الرعد : 11] .

- قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) } [محمد:7] .

ب- الرضى والتسليم في كل ما يقع على الإنسان من أقدار الله تعالى، فإن كان خيراً رضي وشكر، وإن كان ضراً رضي وصبر، مع سعيه الحثيث في دفع كل ما أمر الله تعالى له بدفعه وأذن به.

- قال تعالى: { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68)} [القصص : 68] .

- قال تعالى: { قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [آل عمران : 38] .

ج ـ رد كل أمر يقع من أقدار الله تعالى إلى مقتضى حكمته وعدله ورحمته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ **أما ردها إلى مقتضى علمه وحكمته** قال تعالى: { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } [الإسراء : 30]

ـــ **أما ردها إلى مقتضى عدله** قال تعالى : { مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } [الإسراء : 17] .

ـــ **أما ردها إلى مقتضى رحمته** قال تعالى:{ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } [الكهف : 82] .

ـــ قال تعالى: { يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [آل عمران : 74] .

د. التوكل على الله في كل أمر يقصده بمباشرة الأسباب مع الاعتماد على الله والثقة به وتعليق أفعاله فيما يستقبل على إرادة الله ومشيئته.

- قال تعالى : { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا } [الكهف: 84- 85] .

- قال تعالى: { وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) } [يوسف: 67] .

- قال تعالى: { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } [الزمر : 38]

- قال تعالى: { لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ } [الفتح : 27] .

بناء على ما تقدم بيانه لطبيعة المنهج القرآني في تقرير إرادة الله تعالى الكونية يتضح لنا كيف استدل بذلك على ما ترتب عليها من مستلزمات تقضي تفرده تعالى بالألوهية والقيام له وحده بحق العبودية من التسليم بقضائه والرضى بقدره والتنفيذ لحكمه وطاعة أمره سبحانه وتعالى ، إلى غير ذلك من المقتضيات التعبدية التي ينبغي تحقيقها في واقع البشر وفي حياهم ومعاشهم .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* وسوف نستعرض دور قصة إبراهيم عليه السلام في هذا المجال الذي تتجلى فيه إرادة الله تعالى الكونية والقدرية على ما يلازمها من استحقاقه تعالى للعبادة وتفرده فيها ، وذلك على النحو الآتي:

أولاً : الاستدلال بالإرادة الكونية على الإرادة الشرعية .

يقوم هذا الاستدلال على أساس أنه من كان له الهيمنة والتصرف والإرادة المطلقة في هذا الوجود الذي لا يملك أن يتخلف عن أمره ومشيئته تعالى ، فهو من يستحق أن تكون له الهيمنة والسلطان على حياة البشر ونظام حياتهم ، وهذا الدليل استخدمه القرآن في كثير من آياته ، وقد استخدمه إبراهيم عليه السلام كذلك في محاجته وجداله في اثبات عقيدة التوحيد ، واستحقاقه سبحانه وتعالى للألوهية والعبودية ، ومن الشواهد على ذلك :

الشاهد :

في قوله تعالى : { فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [البقرة : 258] .

ففي هذه الآية استدلال بالإرادة الكونية على الإرادة الشرعية . فهي برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال ، فإن تفرده تعالى في الإرادة والتصرف في هذا الكون يوجب تفرده في الألوهية والعبودية والحاكمية والتشريع في حياة البشر . وإن الخروج عن هذه الحقيقة موجب للإستنكار والتعجب ، كما هو الحال في محاجة إبراهيم للملك المغرور الذي جادل إبراهيم عليه السلام أن يكون له إله غيره كقول فرعون لملئه : { مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي } [القصص : 38] وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره، وطول مدته في الملك؛ ولهذا قال: { أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} وكأنه سأل إبراهيم عمن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره .

ومن ثم عرّف إبراهيم ربه بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد أو يدعيها لنفسه فقال : { ربي الذي يحيي ويميت } أي: هو المنفرد بأنواع التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ، فهو من ثم الذي يحكم ويشرع . وما كان إبراهيم ليعني من الأحياء والإماتة إلا إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء . فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولكن الذي حاج إبراهيم في ربه رأى في كونه حاكماً لقومه وقادراً على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهراً من مظاهر الربوبية . فقال لإبراهيم : أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف في شأنهم ، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له ، وتسلم بحاكميته ، فحمله ذلك على أن زعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال : { أنا أحيي وأميت } . ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يصنع كصنع الله ، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه ، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن كونه حجة، عند ذلك لم يرد إبراهيم عليه السلام أن يسترسل في جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة . فعدل عن هذه السنة الكونية الخفية ، إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية؛ وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله : { ربي الذي يحيي ويميت }. إلى طريقة التحدي ، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله؛ ليريه أن الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض ، إنما هو مصرف هذا الكون كله . ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم : { قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب } . وإن هذا ما كان انتقالاً من دليل إلى دليل آخر بل الدليل واحد في الموضعين وهو أنا نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها فلا بد من قادر آخر يتولى إحداثها وهو الله سبحانه وتعالى ، ثم إن قولنا : نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها له أمثلة منها : الإحياء ، والإماتة ، ومنها السحاب ، والرعد ، والبرق ، ومنها حركات الأفلاك ، والكواكب ، فكان ما فعله إبراهيم من باب ما يكون الدليل واحد وهو وحدة التصرف والإرادة والمشيئة إلا أنه يقع الانتقال عند إيضاحه من مثال إلى مثال آخر ، وليس من باب ما يقع الانتقال من دليل إلى دليل آخر ، وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه، فلما قال له أمرا لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله { بهت الذي كفر } أي: تحير فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجته وسقطت شبهته . وكان التسليم أولى والإيمان أجدر . ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر . ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية ، ولم يلتزم القصد والعدل : { والله لا يهدي القوم الظالمين } . ويبقى هذا الجدل الذي عرضه تعالى مثلاً للضلال والعناد؛ وكذلك تبقى هذه الحقائق هي التي تؤلف قاعدة التصور الإيماني الناصع . لا تحتاج إلى علم غزير ، ولا إلى تفكير طويل . فالله أرحم بعباده أن يكلهم في مسألة الإيمان به والاهتداء إليه ، إلى العلم الذي قد يتأخر وقد يتعثر ، وإلى التفكير الذي قد لا يتهيأ للبدائيين . إنما

يكلهم في هذا الأمر الحيوي الذي لا تستغني عنه فطرتهم ، ولا تستقيم بدونه حياتهم ، ولا ينتظم مع فقدانه مجتمعهم . ولا يعرف الناس بدونه من أين يتلقون شريعتهم وقيمهم وآدابهم . . يكلهم في هذا الأمر إلى مجرد التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع ، والتي تفرض نفسها فرضاً على الفطرة ، فلا يحيد الإنسان عن إيحائها الملحيء إلا بعسر ومشقة [390].

ثانياً : السنن الكونية المادية :

وهي تخضع لإرادة الله تعالى ، ومرتبطة بالوجود المادي ارتباطاً حتمياً ، لا يتخلف عنها ولا ينفصل ، وتسير وفق نظام مخصوص مفروض عليها . وهذه السنن والأسباب ليست فاعلة بذاتها ، وإنما فاعليتها وجريانها بقدر الله تعالى ومشيئته ، ولكن الألف والعادة تجعل الإنسان المادي الملحد والمنقطع عن الله يحسب أن هذه السنن والأسباب تجري بحتمية آلية ، فكانت هذه المعجزات الخارقة للعادات التي يجريها الله على يد أنبيائه إنما هو ليصل الناس بربهم الحق ، حينما يدركوا أن وراء هذا الوجود ونظامه وسننه إرادة مطلقة ومشيئة نافذة ، وبهذا التصور والمعتقد تتجلى حقائق الوجود أمام الإنسان ، ويتعقل سنن الله الكونية ، ليتعامل معها بفاعلية وإيجابية وتوازن ، فلا يهمل الأسباب والسنن بل يأخذ بها ويباشرها ، ومن ثم لا يتعلق بها بل يكون توكله على الله تعالى وحده لأنه هو الذي قدرها وفرضها على عباده ، وهو الفاعل الحقيقي لها ، ومن الآيات التي جاءت تقرر هذه الحقائق العقدية في قصة إبراهيم عليه السلام ، نذكر منها :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء :68-70] .

لما غلبهم إبراهيم عليه السلام بالحجة القاهرة وعجزوا عن المحاجة وضاقت بهم الحيل ، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، وهذا ديدن المبطل المحجوج إذا بهت بالحجة وكانت له قدرة يفزع إلى المناصبة والانتقام ، كما فعل المشركون من قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عجزوا

[390]- راجع : تفسير ابن كثير 686/1 ، وتفسير الظلال 278/1-279، وتفسير طنطاوي 477 ، وتفسير الألوسي 328/2 ، وتفسير الرازي 464/3

عن المعارضة . واختار قوم إبراهيم أن يكون إهلاكه بالإحراق لأن النار أهول ما يعَاقب به وأفظعه . فقالوا: { حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًا ثم جعلوه في جَوْبَة من الأرض، وأضرموها نارًا، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، فلما ألقـوا إبراهيم عليه السلام فيها . أمر تعالى النار بقوله : { قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم } . وقد أظهر الله ذلك معجزة لإبراهيم إذ وَجّه إلى النار تعلّقَ الإرادة بسلب قوة الإحراق ، وأن تكون برداً وسلاماً وذِكر { سلاماً } بعد ذكر البرد احتراس من الأذى ، وإظهار عجيب صنع القدرة إذ صيّر النار برداً .

أما كيف وقعت هذه الخارقة؟ وكيف لم تحرق النار إبراهيم ، والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية؟ فالذي قال للنار : كوني حارقة . هو الذي قال لها : كوني برداً وسلاماً .

. و { كوني } هذه هي الكلمة التي تكون بها أكوان ، وتنشأ بها عوالم ، وتخلق بها نواميس : قال تعالى : { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس : 82] . وهي الكلمة الواحدة التي تنشئ مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول . مألوفاً للبشر أو غير مألوف ، وقعت هـذه الخارقة كما تقع كل خارقة في هذا الوجود! وكما وقعت خارقة الحياة الأولى . الخارقة التي ننسى كثيراً أنها وقعت ، وأننا لا ندري كيف وقعت! ولا ندري كذلك كيف جاءت إلا أنها جاءت من عند الله بالطريق التي أرادها الله .

إن الذي يفسر هذه الخارقة من إبطال مفعول النار فلم تحرق إبراهيم هو طلاقـة المشـيئة . . طلاقتها من التقيد بما نحسبه نحن قانوناً كلياً لازماً ملزماً لا سبيل إلى مخالفتـه أو الاسـتثناء منـه! وحسباننا هذا خطأ بالقياس إلى المشيئة المطلقة : خطأ منشؤه أننا نفرض تقديراتنا نحن ومقرراتنـا العقلية أو « العلمية! » على الله سبحانه! وهو خطأ يتمثل في أخطاء كثيرة .

إن تجربة إبراهيم عليه السلام تقدم التصور الإيماني الصحيح . وتقرر حقيقة طلاقة المشيئة ، وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي وعلى تنقيتها من كـل شـائبة وعلى تنحيه الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هي الفاعلة .ومن ثم إرجاع جميع الأسباب الظاهرة إلى السبب الأول . ورد الأمر إلى من بيده الملك وليصل الأمور مباشرة إلى مشيئة الله : { وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى } { وما النصر إلا من عند الله } { وما تشاءون إلا أن يشاء الله } وغيرها كثير ، وذلك لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب . بين قلب المؤمن وقدر الله . بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط . كما هي في عـالم الحقيقـة ، فالخسـف

والحاصب ، والبراكين والزلازل ، والعواصف ، وسائر القوى الكونية والظواهر الطبيعية ليس في أيدي البشر من أمرها شيء . إنما أمرها إلى الله . وكل ما يذكره البشر عنها فروض يحاولون بها تفسير حدوثها ، ولكنهم لا يتدخلون في إحداثها .

ومتى تخلص القلب من ضغط الأسباب الظاهرة ، لم يعد هناك محل فيه للتوكل على غير الله ابتداء ، وقدر الله هو الذي يحدث كل ما يحدث . وهو وحده الحقيقة المستيقنة ، والأسباب الظاهرة لا تنشئ إلا احتمالات ظنية! وهذه هي النقلة الضخمة التي ينقلها الاعتقاد الإسلامي للقلب وللعقل البشري حين يعمل على تنحية الأسباب الظاهرة كلها ، ويرد الأمر كله إلى مشيئة الله وحدها ، ليتجه قلب المؤمن بكليته إلى الله ، ويطلب عنده ما يرغب ، ويتقي عنده ما يرهب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود!

وتجربة إبراهيم أقوى شاهد على ذلك ، فقوة توكله على الله وإسقاطه فاعلية الأسباب من حسابه كانت سبب تلك المعجزة إذ قال إبراهيم حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال الله تعالى للنار : { كوني برداً وسلاماً على إبراهيم } فكانت ، وكفاه ما أهمه بصدق توكله عليه .

ويؤثر أن جبريل عرض له قبل أن يقع في النار فقال هل لك يا إبراهيم من حاجة ؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، حسبي الله ونعم الوكيل .

قال البخاري في صحيحه : " عن ابن عباس « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النَّار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا : { الذين قَالَ لَهُمُ النــاس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } [آل عمران : 173] . وعن ابن عباس قال : " كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار : « حسبي الله ونعم الوكيل » "[391].

وصاحب العقيدة يواجه أحداث الحياة بعزيمة وقوة ، ويتلقى قدر الله بصبر وثبات ، لأنه. يدرك سنن الله ، مطمئن إلى قدر الله ، ويعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه . وما كان تحويل النار برداً وسلاماً على إبراهيم إلا مثلاً تقع نظائره في صور شتى . فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات من شأنها أن تكون القاصمة القاضية ، وإن هي إلا لفتة صغيرة ، فإذا هي تحيي ولا تميت ، وتنعش ولا تخمد ، وتعود بالخير وهي الشر المستطير .

---

[391]- صحيح البخاري : رقم (4197) (4198)

إن { يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم } لتتكرر في حياة الأشخاص والجماعات والأمم؛ وفي حياة الأفكار والعقائد والدعوات . وإن هي إلا رمز للكلمة التي تبطل كل قول ، وتحبط كل كيد ، لأنها الكلمة العليا التي لا ترد!

فأمر الله تعالى النار أن تكون بردا وسلاما على إبراهيم عليه السلام فكانت كذلك ، وكانت آية دالة على قدرة الله .{ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون } . .الآية الأولى : هي تلك النجاة من النار . والآية الثانية هي عجز الطغيان عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة . والآية الثالثة هي أن الخارقة لا تهدي القلوب الجاحدة . ذلك لمن يريد أن يتدبر تاريخ الدعوات ، وتصريف القلـــوب ، وعوامل الهدى والضلال .

فإبراهيم في مواجهته للملك لم تخيفه قوة ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه لأنه كان متوكلا على ربه واثقا بنصره ، وإن ربه لن يخذله ولن يتركه . فقد تولت يد القدرة إدارة المعركة بين الإيمـــان والطغيان فلم يتكلف إبراهيم فيها شيئاً سوى اتباع الوحي. ذلك أن القوتين لم تكونا متكافئتين ولا متقاربتين في عالم الواقع . فإبراهيم ليس إلا شخص واحد مجرد من القوة ، والملك الطاغية وجنده يملكون قوة ضخمة . فلا سبيل إلى المواجهة المادية أصلاً . هنا تولت يد القدرة إدارة المعركة . بعد أن استعلن الإيمان في وجه الطغيان لا يخشاه ولا يرجوه؛ لا يرهب وعيده ولا يرغب في شيء مما في يده . عندما بلغت المعركة بين الإيمان والطغيان في عالم القلب إلى هذا الحد تولت يد القدرة رايـــة الحق لترفعها عالية ، وتنكس راية الباطل بلا جهد من أهل الإيمان .{ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَـــاهُمُ الْأَخْسَرِين } . لقد انتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال ، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود . والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول .

فلا يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير؛ وما يستعلي أصـــحاب الحـــق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن ، إن للحق والإيمان حقيقة متى تجســـمت في المشـــاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية . فأما إذا ظل الإيمان مظهراً لم يتجسم في القلب ، والحق شعاراً لا ينبع من الضمير ، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان ، لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها عند أهل الحق والإيمان [392].

[392]- راجع : تفسير ابن كثير 351/5 ، وتفسير الألوسي 12/ 124، وتفسير الظلال 246/1 ، 281 ، 474 ، 363/3 ، 129/5 -130 ، 460 274/7 ، 128/8 ، وتفسير ابن عاشور 9/ 182 ، وأيسر التفاسير للجزائري 2/ 479- 480

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشاهد الثاني :

قال تعالى :{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى } [الأعلى : 2] .

فالخلق لا بد له من التسوية ليحصل الاعتدال ، والتقدير لا بد له من الهداية ليحصل الكمال . فكل شيء خلقه سبحانه فقد سواه على إحكام واتساق ، و لم يأت به متفاوتا غير ملتئم ، وجعل الأشياء على مقادير مخصوصة في أجناسها ، وفي أنواعها ، وفي أفرادها . وفي صفاتها وأفعالها ، وبكيفية معينة . تقتضيها الحكمة ، ويقرها العقل السليم ، وفي هذا دلالة على أنه صادر عن قادر مريد ، وأنه صنعه عليم حكيم .

وقد فصل بعض العلماء الحديث عن مظاهر تقديره وهدايته سبحانه ، في قوله تعالى : { الذي خَلَقَ فسوى . والذي قَدَّرَ فهدى } أي : الذي خلق كل شيء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه ، والذي قدر لكل مخلوق وظيفته وطريقته وغايته ، فهداه إلى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه .

وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة فى كل شئ فى هذا الوجود ، ويشهد بها كل شيء في رحاب هذا الكون ، من الكبير إلى الصغير . كل شيء مسوى في صنعته ، كامل في خلقته . معد لأداء وظيفته . مقدر له غاية وجوده ، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق . وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق ، ميسرة لكي تؤدي في تجمعها دورها الجماعي؛ مثلما هي ميسرة فرادى لكي تؤدي دورها الفردي . فالذرة بمفردها كاملة التناسق ، شأنها شأن المجموعة الشمسية في تناسقها . والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها كلها ، شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة .

وبين الذرة المفردة والمجموعة الشمسية؛ كما بين الخلية الواحدة وأرقى الكائنات الحية ، درجات من التنظيمات والتركيبات كلها في مثل هذا الكمال الخلقي ، وفي مثل هذا التناسق الجماعي ، وفي مثل هذا التدبير والتقدير الذي يحكمها ويصرفها . والكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة . هذه الحقيقة يدركها القلب البشري جملة متى تفتحت منافذ القلب لتلقي إيقاعات الوجود . وتدبر الأشياء في رحابه بحس مفتوح . وهناك من رصيد الملاحظة والدراسة ما يشير إلى طرف من تلك الحقيقة الشاملة لكل ما في الوجود . فالطيور لها غريزة العودة إلى الوطن . دون أن تضل عنه مهما بعد ، والنحلة تهتدي إلى خليتها ، مهما طمست الريح في هبوبها على الأعشاب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والأشجار كل دليل يرى . وسمك " السلمون " الصغير ، يمضى سنوات في البحر ، ثم يعــود إلى مكان مولده . وكل الحيوانات تسمع الأصوات التي يكون كثير منها خارج دائــرة الاهتــزازات الخاصة بنا ، وذلك بدقة تفوق كثيراً حاسة السمع المحدودة عندنا . والنبات يســتخدام وكــلاء لمواصلة وجوده كالحشرات التي تحمل اللقح من زهرة إلى أخرى ، والرياح ، وكل شيء يطــير أو يمشي ، ليوزع بذوره . وكل خلية تنتج في أي مخلوق حي فإنها تكون جزءاً من اللحم . أو مــن ميناء الأسنان ، أو من السائل الشفاف في العين ، أو أن تدخل في تكوين الأنف أو الأذن . ثم على كل خلية أن تكيف نفسها من حيث الشكل وكل خاصية أخرى لازمة لتأدية مهمتها . وإن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب . وفي المكــان الصواب!

وهناك ملاحظات سجلها البشر في عوالم النبات والحشرات والطيور والحيــوان . ووراءهــا حشود من مثلها كثيرة . وهذه الحشود لا تزيد على أن تشير إلى جانب صغير من مدلول قوله تعالى : { الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى } . في هذا الوجود المشهود الذي لا نعرف عنــه إلا أقل من القليل . فكيف يتاح لهذه الموافقات التامة والتناسقات الكاملة والعمليات المعقدة أن تتم في هذا الوجود؟ لا شك أن هناك خالقاً قادراً قاصداً مختاراً عليماً حكيماً هو الذي فعل كل ذلك !

وحاصل المعنى أن هناك عهداً من الله على فطرة البشر أن توحده . وإن حقيقة التوحيد ليست مركوزة في فطرة الإنسان وحده؛ ولكنها كذلك مركوزة في فطرة هذا الوجود مــن حولــه ، إن ناموس التوحيد الذي يحكم هذا الوجود ، واضح الأثر في شكل الكون ، وتنسيقه ، وتناسق أجزائه ، وانتظام حركته ، واطراد قوانينه ، وتصرفه المطرد وفق هذه القوانين . ويوماً بعد يوم يكشــف البشر أطرافاً من ناموس الوحدة في طبيعة هذا الكون ، وطبيعة قوانينه التي تحكم تصرفاته بقدر من الله مطرد متجدد وفق مشيئة الله الطليقة في غير آلية حتمية .

والقرآن الكريم لا يدع مجالاً للشك في أن الناموس الذي يحكم هذا الكون هو ناموس الوحدة ، الذي أنشأته المشيئة الواحدة للخالق الواحد سبحانه . وهذا الناموس هو ميثاق معقود بين الفطــرة وخالقها . ميثاق مودع في كيانها ، مودع في كل خلية حية منذ نشأتها . وهو ميثاق اقــدم مــن الرسل والرسالات . وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد ، ذي المشــيئة الواحــدة ، المنشــئة للناموس الواحد الذي يحكمها ويصرفها . ولكن الله سبحانه رحمة منه بعباده ، لما يعلمه من أن في استعدادهم أن يضلوا إذا أُضلوا ، وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف ، قدر ألا يحاسبهم على

عهد الفطرة هذا؛ كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به؛ حتى يرسل إليهم الرسل ، ويفصل لهم الآيات ، لاستنقاذ فطرهم من الركام والتعطل والانحراف ، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات . ولو أن الفطر والعقول تكفي وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات؛ ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها . ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هي الرسالة الموحى بها من عند الله تعالى .

فالمقصود من هذه الآيات الكريمة ، الإرشاد إلى كمال قدرته ، وتنوع نعمه سبحانه حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وحتى يعود الكافرون إلى رشدهم بعد هذا البيان الواضح الحكيم .

والهداية المقصودة في الآية تشمل نوعين من الهداية هما : الهداية القدرية والشرعية ، وكل هداية لها مقتضياتها التعبدية التي تناسبها ، فأما الهداية الشرعية فتوجب طاعته والتسليم لأمره ، وأما الهداية القدرية الفطرية التسخيرية المفروضة على الخلق بنظام الوجود ، فمن مقتضياتها التعبدية التي توجب على العباد أن يؤدوا مستحقاتها ، هو تعقل سنن الله الكونية والاجتماعية، وما تخضع له من قواعد ثابتة من أجل الأخذ بها للوصول إلى النتائج التي أمر الله تعالى بها ورضي عنها .

وقد أشار القران إلى ذلك ، فمن السنن الكونية القدرية ، قوله تعالى : { وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 12-14] . ومن السنن الإجتماعية : قوله تعالى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [القصص : 58-60] . ، وقوله تعالى : { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران : 138] .

وكذلك من المقتضيات التعبدية الحمد والشكر والثناء على الله تعالى : كقوله تعالى : { وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } [الأعراف : 10] . وقوله تعالى : { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [فاطر : 12] . وكذلك الرضى والقبول بقدره تعالى لأنه يصدر عن علمه المطلق وحكمته البالغة التي لا يحيط بها المخلوق المحدود[393] ، قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة:30] . وقال تعالى : { وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [الذاريات : 28-30] .

ثالثاً : السنن الإجتماعية :

وهي إرادة الله تعالى فيما يقدره من سنن متعلقة بأفعال العباد ، كالهدى والضلال ، والعذاب والمغفرة ، كقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد : 11] . فقد قدر سبحانه سننه تبعاً لحالة المرء ، فإطلاق مشيئة الله تعالى وإرادته في الهدى والضلال ، وفي العذاب والمغفرة ، قد قيدها بفعل الإنسان نفسه ، وهذا يقتضي من الإنسان أن يأخذ بسنن الله تعالى والأسباب الموصلة إلى نتائجها من الهدى والمغفرة ، كما يقتضي منه أن يجتنب الأسباب الموصلة إلى الضلال وعذاب الله تعالى وسخطه ، وهكذا ينبغي التعامل مع سائر السنن التي من هذا القبيل . وإن إسقاط هذه السنن والأسباب وإهمالها وعدم مباشرتها والأخذ بها بحجة التوكل على الله تعالى ، هو مخالف لمنطق العقل والشرع ، لأن العقل يقضي بمباشرة هذه السنن والأسباب ، كما أن الشرع أوجب الأخذ بها فمن أعرض عنها فقد عصى أمر الله تعالى ، وإن فاعلية الأسباب هو من قدر الله وسنته فقد جعل الله لكل شيء سبباً ، وإن السبب إنما يستدعي مسببه بموجب سنة الله ونفاذها ، فترك الأسباب نقص في العقل وطعن في الشرع ، قال تعالى : { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (84) فَأَتْبَعَ سَبَبًا } [الكهف : 84-85] . ومعلوم أن كل سبب موقوف على توفر شروطه وانتفاء موانعه ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، وقد أمر تعالى الناس بالدعاء والاستغفار وبغيرهما من الأسباب المؤدية إلى مسبباتها من تفريج الكروب وغفران الذنوب وتحصيل المقاصد ، فإن الله قد جعل الدعاء ونحوه من العبادات أسباباً تنال بها مغفرته ورحمته وهداه

[393]- راجع : تفسير الظلال 318/3-319 ، 12/8-14 ، وتفسير طنطاوي 4478 ، وتفسير الألوسي 22/ 362 ، وتفسير الرازي 457/16

ونصره ، كما تقرر ذلك في كثير من نصوص القرآن ، وكذلك في قصة إبراهيم عليه السلام ، ومن ذلك :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [العنكبوت:21-22] .

لما ذكر إبراهيم عليه السلام النشأة الآخرة واستدل على الوحدانية المستلزمة للقدرة على المعاد بإبطال إلهية معبوداقم المستلزم لإبطال كل ما شاكلها ، أتبع ذكرها بذكر أهم ما تشتمل عليه وما أوجدت لأجله وهو الثواب والعقاب . من تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة ، وإثابة أهل الإنابة فضلاً ورحمة ، وابتدأ بذكر العقاب لأن الخطاب جار مع منكري البعث الذين حظهم فيه هو التعذيب . بقوله : { يُعَذِّبُ مَن يَشَاء } وهذا أبلغ في التخويف ، وذلك لأن الله أثبت بهذا إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع .

ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والإيعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد ، فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصي ، فإنه لا يدل على كمال مشيئته ، لأنه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه ، فهو سبحانه الحاكم المتصرف المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم . قال تعالى : { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [آل عمران : 129] . فهي المشيئة المطلقة المستندة إلى الملكية المطلقة وهو التصرف المطلق في شأن العباد بحكم هذه الملكية لما في السماوات وما في الأرض . وليس هنالك ظلم ولا محاباة للعباد في المغفرة أو في العذاب . إنما يقضي الأمر في هذا الشأن بالحكمة والعدل وبالرحمة والمغفرة .

فشأنه سبحانه الرحمة والمغفرة : { والله غفور رحيم } . والباب مفتوح أمام العباد لينالوا مغفرته ورحمته بالإنابة والعودة إليه ورد الأمر كله له وأداء الواجب المفروض وترك ما وراء ذلك لحكمته وقدره ومشيئته المطلقة من وراء الوسائل والأسباب . فالعذاب والرحمة يتبعان مشيئة الله؛ من حيث أنه بين طريق الهدى وطريق الضلال؛ وخلق للإنسان من الاستعداد ما يختار به هذا أو ذاك ، ويسر له الطريقين سواء ، وهو بعد ذلك ، وما يختار غير أن اتجاهه إلى الله ورغبته في هداه ،

ينتهيان به إلى عون الله له كما إن إعراضه عن دلائل الهدى وصده عنها يؤديان به إلى الانقطاع والضلال .

ومن ثم تكون الرحمة ويكون العذاب . وهما يجريان بمشيئة الله وفق سنة مقدرة ، فإن الأمور لا تمضي جزافاً بلا قصد ولا غاية ولا تدبير ، ومن غير حكمة ولا ابتلاء ، وقد بيّن سبحانه سنته التي جرت بها مشيئته وحققها قدره بين عباده ، قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (95) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف :94-96] .

هذا بيان لسنة الله بأن يأخذ المكذبين بالبأساء والضراء؛ لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله ، وتعرف حقيقة ألوهيته القاهرة . فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء ، كل ذلك للابتلاء . حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص ، وإلى الغفلة وقلة المبالاة ، أخذهم الله بغتة ، وهم سادرون في هذه الغفلة . لم يدركوا حكمة الله في الابتلاء بالضراء والسراء . ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لحلت عليهم البركات ، ولأفاض الله عليهم من رزقه في السماء والأرض .

والنص القرآني هنا لا يروي حادثة ، إنما يكشف عن سنة . ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر . ومن ثم يتكشف أن هناك ناموساً تجري عليه الأمور؛ وتتم وفقه الأحداث؛ ويتحرك به تاريخ الإنسان في هذه الأرض .

فإن التصور الإسلامي يقرر أن إرادة الإنسان وحركته عامل مهم في حركة تاريخه وفي تفسير هذا التاريخ أيضاً . ولكن إرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة وقدره الفاعل . ويتعاملان مع الوجود كله؛ ويتأثران ويؤثران في هذا الوجود أيضاً . فهناك زحمة من العوامل والعوالم المحركة للتاريخ الإنساني؛ وهناك سعة وعمق في مجال هذه الحركة؛ فليس عبثاً أن يأخذ الله عباده بالشدة في أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم ، إنما يريد من ذلك أن يوقظ الفطرة التي ما يزال فيها خير يرجى؛ وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالقهم القهار؛ يتضرعون إليه؛ ويطلبون رحمته وعفوه؛ قال تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } [الأعراف : 94] وبهذا التضرع يعلنون عن عبوديتهم لله تعالى وحده التي هي غاية الوجود الإنساني : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات : 56] . ثم إليه

الرجوع والحساب وعنده يكون الثواب والعقاب ، ولهذا قال : { وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } أي : ترجعون إلى الدار ، التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته ، فاكتسبوا في هذه الدار ، ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه، وهي المعاصي .

فالمؤمنون يعلمون حكمته تعالى في الإبتلاء ، فيتجهون إليه بالرجعة والالتجاء في طلب المغفرة والرحمة ، ولكن حين تنحرف الفطرة عن الإيمان بالله ، فإنها لا ترى يد الله في تصريف هذا الوجود؛ ولا ترى قدره الذي تنشأ به الأشياء والأحداث . وعندئذ تفقد إدراكها وحساسيتها بالنواميس الكونية الثابتة النافذة . فتفسر الحوادث تفسيرات منفصلة منعزلة . لا صلة بينها ولا قاعدة ولا ترابط؛ وتهيم مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة؛ لا تلتقي عند قاعدة ، ولا تجتمع وفق نظام ، وذلك كتعليل اصحاب الاشتراكية العلمية عن معاكسة الطبيعة لهم في نقص الثمرات والغلات!

وكما يقول الذين يمضون مع هذه « العلمية » المدعاة في تعليل هذه الأحداث . وهم ينكرون قدر الله . وفيهم من يدعي بعد استنكار غيب الله وقدر الله أنه « مسلم » وهو ينكر أصول الإيمان بالله!

وقد كشف القرآن عن سنن الله الثابتة في الوجود؛ وإلى قدر الله الذي يحقق هذه السنن ، ليحقق الوعي الإنساني على حقائق الوجود ، ويزيل الغفلة عن قدر الله وسننه ، ولذلك لم ينتبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله ، وبغيهم وظلمهم لعباد الله ، وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات في مصر التي تفيض بالخصب والعطاء ، ولا تنقص غلتها عن إعالة أهلها إلا لفسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلهم يتذكرون! فهم لم ينتبهوا لهذه الظاهرة التي شاءت رحمة الله بعباده أن تبرزها لأعينهم . ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقاً طبيعياً لهم! وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوا هذا إلى شؤم موسى ومن معه عليهم . كما في قوله تعالى : { فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 131] .

وهكذا مضى فرعون وآله يعللون الأحداث . الحسنة التي تصيبهم هي من حسن حظهم وهم يستحقونها . والسيئة التي تصيبهم هي بشؤم موسى ومن معه عليهم ، وهذا التشاؤم والتطير هو بعيد عن إدراك سنن الله وقدره . وأصل « التطير » في لغة العرب ما كان الجاهليون في وثنيتهم وشركهم يزاولونه . فقد كان الرجل منهم إذ اراد أمراً ، جاء إلى عش طائر فهيجه عنه ، فإذا طار

عن يمينه – وهو السانح – استبشر بذلك ومضى في الأمر الذي يريده . وإذا طار الطائر عن شماله – وهو البارح – تشاءم به ورجع عما عزم عليه! فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي؛ وأحل محله التفكير « العلمي الصحيح » وأرجع الأمور إلى سنن الله الثابتة في الوجود؛ وإلى قدر الله الذي يحقق هذه السنن في كل مرة تتحقق فيها؛ وأقام الأمور على أسس « علمية » يحسب فيها نية الإنسان وعمله وحركته وجهده؛ وتوضع في موضعها الصحيح ، في إطار المشيئة الإلهية الطليقة ، وقدره النافذ المحيط : { ألا إنما طائرهم عند الله؛ ولكن أكثرهم لا يعلمون } .

إن ما يقع لهم مصدره كله واحد . إنه من أمر الله . ومن هذا المصدر تصيبهم الحسنة للابتلاء . وتصيبهم السيئة للابتلاء : { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء : 35] . ويصيبهم النكال للجزاء . ولكن أكثرهم لا يعلمون . كالذين ينكرون غيب الله وقدره في هذه الأيام باسم « العقلية العلمية »! وكالذين ينسبون إلى الطبيعة المعاكسة باسم « الاشتراكية العلمية » كذلك . وكلهم جهال لا يعلمون! وأما المؤمنون فهم الذين يعلمون حكمة ابتلائه تعالى ، فيتجهون إلى الله بإعلان التوبة وطلب المغفرة والرحمة ، وبالتسليم لله والاعتراف بحكمته في الإبتلاء ، وهذا ما أعلنه موسى عليه السلام من إدراكه لطبيعة ما يقع؛ ومعرفته أنها الفتنة والابتلاء . في قوله : { إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (155) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ } [الأعراف : 156] .

ويقرر موسى عليه السلام هذا الأصل تمهيداً لطلب العون من الله على اجتياز الابتلاء ، فكان دعاؤه نموذجاً لأدب العبد الصالح في حق الرب الكريم؛ ثم يجيئه الجواب : { قال : عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء } . تقريراً لطلاقة المشيئة ، التي تضع الناموس اختياراً ، وتجريه اختياراً ، وإن كانت لا تجريه إلا بالعدل والحق على سبيل الاختيار أيضاً ، لأن العدل صفة من صفاته تعالى لا تتخلف في كل ما تجري به مشيئته، لأنه هكذا أراد .

فالعذاب يصيب به من يستحق عنده العذاب . أما رحمته فقد وسعت كل شيء؛ وهي تنال من يستحقها عنده كذلك ، ولا تجري مشيئته سبحانه بالعذاب أو بالرحمة جزافاً أو مصادفة .

ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة في كل مرة تجري فيها إنما يقع بقدر من الله خاص بهذه المرة . فهي لا تجري جرياناً آلياً لا تدخل لقدر الله فيه . وهذا ما يغفل عنه الذين لا يعلمون . وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين؛ فإنه لم يكن معنى هذا تقيد هذه

المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين . فحيثما اقتضت الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفاً لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر .

وهكذا ينبغي التعامل مع سنن الله والمتعلقة بأفعال العباد والمقدرة تبعاً لحالة المرء ، كالهدى والضلال ، والعذاب والمغفرة ، فإطلاق مشيئة الله في العذاب والمغفرة قيدها بفعل الإنسان ، فمن أطاع الله نال مغفرته ، ومن عصاه استحق عذابه ، فإن الله قد جعل طاعته وعبادته أسباباً تنال بها مغفرته ورحمته ، وجعل معصيته ومخالفة أمره موانعاً من تحصيلها بل حصول ضدها . وهذا يقتضي من الإنسان أن يأخذ بسنن الله تعالى والأسباب الموصلة إلى رحمة الله ومغفرته ، وأن يجتنب الأسباب الموصلة إلى عذاب الله تعالى وسخطه[394] .

* الشاهد الثاني :

قال تعالى :{ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } [الشورى : 13]

لما أرشد تعالى أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بالدين المتفق عليه بين الأنبياء جميعاً ، بيّن أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير ، لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة ، فان هذا موطن اعتراض وتكبر من المشركين ، فقد كبر عليهم أن يتنزل الوحي على محمد من بينهم؛ وكانوا يريدون أن يتنزل على رجل صاحب سلطان من كبرائهم . ولم تكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ، ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت في قريش . ما كان هذا كله يعدل في نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان! وكبر عليهم أن ينتهي سلطانهم الديني بانتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التي يقوم عليها هذا السلطان؛ وتعتمد عليها مصالحهم الاقتصادية والشخصية . فتشبثوا بالشرك وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذي دعاهم إليه الرسول الكريم . وكبر عليهم أن يقال : إن آباءهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية؛ فتشبثوا بالحماقة ، وأخذهم العزة بالإثم ، واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم ، على أن يوصم آباؤهم بأنهم ماتوا ضالين .

---

[394]- راجع : تفسير ابن كثير 6/ 271، وتفسير الألوسي 256/15، وتفسير السعدي 628 ، وتفسير ابن عاشور 480/10 ، وتفسير الظلال 443/1 ، 257/3 ، 280 ، 308 ، 460/5 ، وتفسير طنطاوي 3302

والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذي يصطفي ويختار من يشاء؛ وأنه كذلك يهدي إليه من يرغب في كنفه ، ويتوب إلى ظله من الشاردين ، ولا يلزمه مراعاة عوائد الناس في الزعامة والاصطفاء : { اللهُ يجتبى إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ ويهدى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ } . وهذا بيان لكمال قدرته تعالى ونفاذ مشيئته . أي : الله تعالى بإرادته وحكمته يصطفي ويختار لرسالته من يشاء من عباده ، ويخصصه سبحانه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع النعم ويهدي إليه عز وجل بالإرشاد والتوفيق من يقبل على عبادته ويرجع إلى طاعته : { وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ } هذا هو السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصدا وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلام } .

وهو كما روي في الخبر «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة »[395] . أي من أقبل إليّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي بأن أشرح له صدره وأسهل أمره فهو سبحانه يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتباء لرسالته وولايته ومنه أن اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم للرسالة . واجتبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها. وأن هذا الاجتباء والاصطفاء من الله تعالى ليس معزولاً عن أسبابه التي هي من سنن الله المقدرة بين عباده ، وهذه الأسباب هي المشار إليها في أول الآية ، من وجوب تطبيق ما شرع الله من الدين الذي أوحاه لرسله ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر الأنبياء واحداً بعد واحد وشريعة أثر شريعة حتى ختمه سبحانه بخير الملل على لسان أكرم الرسل .

فقد شرع سبحانه لنا ما شرع للأنبياء ديناً واحداً في الأصول لم يختلف على ألسنة الأنبياء وان اختلفت أعدادهم ، فأمر تعالى عباده أن يجعلوا هذا الدين قائماً أي دائماً مستمراً من غير خلاف فيه ولا اضطراب .وأن يحتكموا إليه في وقائع حياتهم ولا يخضعوا لنظام سواه . لأن هذا هو المقتضى التعبدي لحقيقة الإيمان . وهو يفتح الطريق لمن ينيب إليه ويثوب . في قوله : { يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} .فإن الله يقضي بالهدى لمن ينيب إليه؛ حيث جعل سبحانه مشيئته بالعباد تجري من خلال استجابتهم أو عدم استجابتهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان . فإن اتجاه الإنسان إلى طلب الهدى ، أو اتجاهه إلى الضلال ، كلاهما ينشأ من خلقته التي فطره الله عليها بمشيئته . فهذا الاتجاه وذاك

[395] - صحيح مسلم برقم (2687).

مخلوق ابتداء بمشيئة الله . والنتائج التي تترتب على هذا الاتجاه وذاك من الاهتداء والضلال إنما بنشئها الله بمشيئته كذلك .

فالمشيئة فاعلة ومطلقة . والحساب والجزاء إنما يقومان على اتجاه الإنسان . الذي يملكه ، وإن كان الاستعداد للاتجاه المزدوج هو في الأصل من مشيئة الله . فالأمر كله مرهون بمشيئة الله ، هو الذي شاء ألا يهديهم لأنهم لم يأخذوا بأسباب الهدى؛ وهو الذي شاء أن يدع لهم هذا القدر من الاختيار على سبيل الابتلاء؛ وهو الذي يهديهم إذا جاهدوا للهدى ، كما في قوله تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } [العنكبوت : 69] . وقوله تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا } [الشمس : 7-10] . وقوله : { قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (27) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } [الرعد : 27-28] . وقوله : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد : 11] .

وواضح من النصوص أن مشيئة الله في تغيير حال قوم إنما تجري وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القوم بأنفسهم ، وتغيير اتجاهها وسلوكها تغييراً شعورياً وعملياً . فإذا غير القوم ما بأنفسهم اتجاهاً وعملاً غير الله حالهم وفق ما غيروا هم من أنفسهم . فإن موحيات الإيمان كامنة في القلب ذاته؛ وفي الحق كذلك بذاته؛ وليست متعلقة بعوامل خارجية . فيجب أن تتجه المحاولة إذن إلى ذلك القلب لعلاجه من آفاته ومن معوقاته .

كذلك يضل الله من يبغي الضلال لنفسه ويعرض عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، ويغلق قلبه وسمعه وبصره دونها . وذلك كما في قوله تعالى : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } [العراف : 179] . وقوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا } [النساء : 168-169] . وقوله :{ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الرعد :33] .

وواضح من النصوص أن الاستجابة أو عدم الاستجابة بالنسبة للعباد راجعة إلى اتجاههم وحركتهم؛ وأن مشيئة الله بهم إنما تتحقق من خلال هذه الحركة وذلك الاتجاه . ومن مراجعة مجموعة النصوص التي تذكر الهدى والضلال ، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً يخلص لنا طريق واحد

بعيد عن ذلك الجدل الذي أثاره المتكلمون من الفرق الإسلامية ، والذي أثاره اللاهوت المسيحي والفلسفات المتعددة حول قضية القضاء والقدر عموماً . إن مشيئة الله سبحانه التي يجري بها قدره في الكائن الإنساني ، هي أن يخلق هذا الكائن باستعداد مزدوج للهدى والضلال . وذلك مع إيداع فطرته إدراك حقيقة الربوبية الواحدة والاتجاه إليها . ومع إعطائه العقل المميز للضلال والهدى . ومع إرسال الرسل بالبينات لإيقاظ الفطرة إذا تعطلت وهداية العقل إذا ضل . ولكن يبقى بعد ذلك كله ذلك الاستعداد المزدوج للهدى والضلال الذي خلق الإنسان به ، وفق مشيئة الله التي جرى بها قدره .

كذلك اقتضت هذه المشيئة أن يجري قدر الله بهداية من يجاهد للهدى . وأن يجري قدر الله كذلك بإضلال من لا يستخدم ما أودعه الله من عقل وما أعطاه من أجهزة الرؤية والسمع في إدراك الآيات المبثوثة في صفحات الكون ، وفي رسالات الرسل ، الموحية بالهدى . وفي كل الحالات تتحقق مشيئة الله ولا يتحقق سواها ، وفي إطار هذه الحقيقة الكبيرة تتقرر كلمة الفصل في العلاقة بين اتجاه « الإنسان » وحركته وبين تحديد مآله ومصيره؛ وتقرير أن مشيئة الله به إنما تتحقق من خلال حركته بنفسه ؛ وذلك مع تقرير أن كل حدث إنما يقع ويتحقق بقدر من الله خاص . وهذا هو التصور الإسلامي الذي تنشئه مجموعة النصوص القرآنية مقارنة متناسقة ، حين لا تؤخذ فرادى وفق أهواء الفرق والنحل ، وحين لا يوضع بعضها في مواجهة البعض الآخر ، على سبيل الاحتجاج والجدل! إن تصور الحقيقة التي تقررها هذا النصوص في القرآن الكريم التي تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله واتجاهات البشر؛ وما يصيبهم من الهدى والضلال ، وما ينالهم بعد ذلك من جزاء وثواب وعقاب .

إن تصور هذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني . وكذلك يقتضي التعامل مع « الواقع الفعلي » لا مع « القضايا الذهنية » . فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية في الكينونة البشرية وفي الوجود الواقع؛ وهذه الحقيقة يتراءى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره وبين إرادة الإنسان وعمله . في محيط لا يدركه المنطق الذهني كله . فإذا قيل : إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعا إلى الهدى أو الضلال . لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية . وإذا قيل : إن إرادة الإنسان هي التي تقرر مصيره كله . لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية كذلك! إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة - وغيبية كذلك - بين طلاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل ، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي . بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم . ولكن تصور الحقيقة « الفعلية »

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما هي في واقعها هذا لا يمكن أن يتم في حدود المنطق الذهني . وفي شكل القضايا الذهنية والعبارة البشرية عنها . إن نوع الحقيقة هو الذي يحدد منهج تناولها وأسلوب التعبير عنها . وهذه الحقيقة لا يصلح لها منهج المنطق الذهني ولا القضايا الجدلية .كذلك يحتاج تصور هذه الحقيقة كما هي في واقعها الفعلي إلى تذوق كامل في تجربة روحية وعقلية . وتبقى تكملة لا بد منها لجلاء هذا الموضوع الذي كثر فيه الجدل في جميع الملل . ذلك أن اتجاه الناس بأنفسهم لا يوقع بذاته مصائرهم . فهذه المصائر أحداث لا ينشئها إلا قدر الله؛ وكل حادث في هذا الكون إنما ينشأ ويقع ويتحقق بقدر من الله خاص؛ تتحقق به إرادته وتتم به مشيئته : { إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } [القمر : 49] .

وليست هنالك آلية في نظام الكون كله ، ولا حتمية أسباب تنشئ بذاتها آثاراً . فالسبب كالأثر كلاهما مخلوق بقدر. وكل ما يصنعه اتجاه الناس بأنفسهم هو أن تجري مشيئة الله بهم من خلال هذا الاتجاه ، أما جريان هذه المشيئة وآثاره الواقعية فإنما يتحقق بقدر من الله خاص بكل حادث : { وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ } [الرعد : 8] .

وهذا التصور يزيد من ضخامة التبعة الملقاة على هذا الكائن الإنساني؛ بقدر ما يجلو من كرامته في نظام الكون كله . فهو وحده المخلوق الذي تجري مشيئة الله به من خلال اتجاهه وحركته . فإن الإعتقاد بإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، يجعل العباد لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، وهذا هو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله؛ وإخلاص العبادة له دون سواه فما يمكن أن يجتمع في قلب واحد ، توحيد الله والتوكل على أحد معه سبحانه .

والذين يجدون في قلوهم الاتكال على أحد أو على سبب يجب أن يبحثوا ابتداء في قلوبهم عن الإيمان بالله! وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب . فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها؛ ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتكل عليها . إن الذي ينشئ النتائج - كما ينشئ الأسباب - هو قدر الله . ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن . فاتخاذ السبب عبادة بالطاعة . وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله . وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها؛ وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها . ولقد ظلت الجاهلية «

العلمية! » الحديثة تلج فيما تسميه « حتمية القوانين الطبيعية » . ذلك لتنفي « قدر الله » وتنفي « غيب الله » . حتى وقفت في النهاية عن طريق وسائلها وتجاربها ذاتها ، أمام غيب الله وقدر الله وقفة العاجز عن التنبؤ الحتمي! ولجأت إلى نظرية « الاحتمالات » في عالم المادة . فكل ما كان حتمياً صار احتمالياً . وبقي « الغيب » سراً مختوماً . وبقي قدر الله هو الحقيقة الوحيدة المستيقنة؛ وبقي قول الله تعالى : { لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا } [الطلاق : 1] . هو القانون الحتمي الوحيد ، الذي يتحدث بصدق عن طلاقة المشيئة الإلهية من وراء القوانين الكونية التي يدبر الله بها هذا الكون ، بقدره النافذ الطليق!

ومتى تخلص القلب من ضغط الأسباب الظاهرة ، لم يعد هناك محل فيه للتوكل على غير الله ابتداء ، وقدر الله هو الذي يحدث كل ما يحدث . وهو وحده الحقيقة المستيقنة . والأسباب الظاهرة لا تنشئ إلا احتمالات ظنية! . وهذه هي النقلة الضخمة التي ينقلها الاعتقاد الإسلامي للقلب البشري من الناحية العقلية؛ ومن الناحية الشعورية . في التعامل مع قدر الله؛ والتعامل مع الأسباب والقوى الظاهرية . وما يترتب على ذلك من نقلة بعيدة الأثر في مجالات السلوك الإنساني وواقع الحياة البشرية[396] .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى } [الأعلى : 8-12] .

بعد بيان الهداية العامة للناس جميعاً ، والهداية الخاصة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أشار سبحانه إلى أنه شرع له ديناً ميسراً هو الحنيفية السمحة السهلة ، التي جاء بها إمام الأنبياء إبراهيم ومن بعده من الرسل ، ومنهم موسى عليهم السلام جميعاً ، بقوله :{ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى } [الأعلى : 18-19] . فقد تضمنت هذه الآية وما قبلها بشارتين :

396- راجع : تفسير الرازي 423/13 ، وتفسير الألوسي 247/18-248، وتفسير الظلال 22/3 ، 122-125 ،142-143 ، 363 ، 380/4-381 ، 484/6 ، وتفسير ابن عاشور 98/13، وتفسير السعدي 755، وتفسير طنطاوي 3760

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

البشارة الأولى : أنه تعالى بشر نبيه صلى الله عليه وسلم بشارة كبيرة بأنه سيعلمه علمًا لا ينساه بإلهامه الذاكرة الواعية الحافظة لما يوحى إليه ، ليطمئن بكفالة ربه بهذا الأمر عنه ، وتطمئن أمته من ورائه إلى أصل هذه الدين . فهذا الدين من الله . والله كافله وحافظه في قلب نبيه . وهذا من رعايته سبحانه ، ومن كرامة هذا الدين عنده ، وعظمة هذا الأمر في ميزانه .

والبشارة الثانية : أنه تعالى بشره بتوفيقه صلى الله عليه وسلم إلى الشريعة اليسرى ، فى كل باب من أبواب الدين : علما وعملا ، واهتداء وهداية ، وإلى الأخلاق الكريمة وإلى الأخذ بما هو أرفق وأيسر في كل أحواله .

ومعنى التيسير في قوله : { ونيسرك } التسهيل والتخفيف ، وهو جعل العمل يسيرا على عامله بأن يهيئ الله للعامل الأسباب التي تهون له العسير ، وتقرب له البعيد . والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، ودالة على أن الله يجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر ، كقوله تعالى : { أَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل : 5-10] . فقوله : { فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى } أي : فسنهيئه للخصلة التى توصله إلى اليسر والراحة وصلاح البال ، بأن نوفقه لأداء الأعمال الصالحة التي تؤدى إلى السعادة . وقوله : { فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى } أي : فسنهيئه للخصلة التي توصله إلى العسر والمشقة والشدة ، بأن نجعله بسبب سوء اختياره ، يؤثر الغي على الرشد ، والباطل على الحق ، والبخل على السخاء ، فتكون عاقبته فرطا ، ونهايته الخسران والبوار . والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة . منها : ما أخرجه البخارى عن على بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال : " كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بقيع الغرقد فى جنازة ، فقال : " ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعدة من الجنة ، ومقعدة من النار " فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له "[397] ثم قرأ : { فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى . .}.

فكل أمر مرجعه في النهاية إلى إرادة الله المطلقة التي ينتهي إليها كل شيء . وهؤلاء البشر خرجوا من يد القدرة باستعداد مزدوج ، للهدى والضلال؛ فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئة التي خلقتهم بهذا الاستعداد المزدوج ، ويسرت لهم التصرف في هذا أو ذاك ، في حدود المشيئة الطليقة ، ووفق حكمة الله المكنونة . وتصور طلاقة المشيئة وانتهاء كل ما يقع في هذا الوجود إليها تصوراً كاملاً واسع المدلول ، يعفي العقول من الجدل الضيق حول ما يسمونه

---

[397] - صحيح البخاري (4666)

الجبر والإرادة . وهو الجدل الذي لا ينتهي إلى تصور صحيح ، بسبب أنه يتناول المسألة من زاوية ضيقة ، ويضعها في أشكال محددة نابعة من منطق الإنسان وتجاربه وتصوراته المحدودة! بينما هو يعالج قضية من قضايا الألوهية غير المحدودة!

فعلينا أن نعالج بقدر طاقتنا تصور حقيقة الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة . وأن نلتزم النهج الهادي ونتجنب النهوج المضللة . ولا ننشغل في جدل عقيم حول ما لم نوهب القدرة على إدراك كنهه من الغيب المكنون . ومن ثم ننظر فنرى كل ما أنفقه المتكلمون في مسألة القدر على النحو الذي تكلموا به جهداً ضائعاً لا طائل وراءه لأنه في غير ميدانه . إننا لا نعلم مشيئة الله المغيبة بنا ، ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذي كتبه على نفسه . وعلينا إذن أن ننفق طاقتنا في أداء ما كلفنا ، وأن ندع له هو غيب مشيئته فينا . والذي سيكون هو مشيئته ، وعندما يكون سنعرف أن هذه مشيئته لا قبل كونه! والذي سيكون وراءه حكمة يعرفها العليم بالكل المطلق . وهو الله وحده . وهذا هو طريق المؤمن في التصور ومنهجه في التفكر . فعلينا إذن أن ننفق طاقتنا في أداء ما كلفنا ، وأن ندع له هو غيب مشيئته فينا . وما كلفنا به تعالى فهو سهل ميسور .

فقد وصف تعالى هذه الشريعة بـ { اليسرى } أي : نجعلها سهلة لك فلا تشقّ عليك ، فلم يبق إلا حفظه من الموانع التي يشق معها تلقي اليسرى . فاشتمل الكلام على تيسيرين : تيسير ما كلف به النبي صلى الله عليه وسلم أي جعله يسيراً مع وفائه بالمقصود منه ، وتيسير النبي صلى الله عليه وسلم للقيام بما كلف به . فاللام في قوله : { لليسرى } للتعليل ، أي لأجل اليسرى ، فهذه الشريعة جاءت ميسرة موافقة للعقل وملائمة للفطرة ، ليكون ذلك أدعى لقبولها ، ويكون الأنقياد لها سهلاً ميسوراً من غير مشقة ولا عنت ولا حرج ، كما في قوله : " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ " [الحج : 78] .

فقد طمئن سبحانه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأنه يسره لتلقي أعباء الرسالة فلا تشق عليه ولا تحرجه تطميناً له إذ كان في أول أمر إرساله مشفقاً أن لا يفي بواجباها . أي أن الله جعله قابلاً لتلقّي الكمالات وعظائم تدبير الأمة التي من شأها أن تشق على القائمين بأمثالها . فكانت هذه الآية بشرى لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم وبشرى لأمته من ورائه . وتقرير لطبيعة هذا الدين ، وحقيقة هذه الدعوة ، ودورها في حياة البشر ، وموضعها في نظام الوجود . وإن هاتين الكلمتين : { ونيسرك لليسرى } ، لتشتملان على حقيقة من أضخم حقائق هذه العقيدة ، وحقائق هذا الوجود أيضاً . فهي تصل طبيعة هذا الرسول الرحيم : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 107] . بطبيعة هذا الدين الميسر : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ } [القمر: 17] . وبطعبية هذا الكون المأنوس والمسخر لمنفعة الإنسان بأمر الله ومشيئته وهو يسير إلى تحقيق ذلك بسهولة ويسر ، قال تعالى : { وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل:12-14] .

وإن الإنسان الذي ييسره الله لليسرى ليمضي في حياته كلها ميسراً مع هذا الوجود المتناسق ، ومع القدر الذي يصرف الأحداث والأشياء والأشخاص . فلا يصطدم إلا مع المنحرفين عن خط هذا الوجود الكبير ، فهو يمضي في حركة يسيرة لطيفة هينة لينة مع الوجود كله ومع الأحداث الجارية فيه .

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أمره . حيث أعطاه الله شريعة سمحة ، ومنحه أخلاقا كريمة ، من مظاهرها أنه صلى الله عليه وسلم : " ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما "[398] وأحاديثه التي تحض على اليسر والسماحة والرفق في تناول الأمور وفي أولها أمر العقيدة وتكاليفها كثيرة جداً . من هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة "[399] . ودعا أتباعه إلى الأخذ بمبدأ التيسير ، فقال : " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا "[400] . وفي التعامل قال أيضاً : " رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى "[401] . ومن اللمحات العميقة الدلالة كراهيته صلى الله عليه وسلم للعسر والصعوبة كقوله صلى الله عليه وسلم " إن أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم "[402] .

وسيرة الرسول الله صلى الله عليه وسلم كلها صفحات من السماحة واليسر والهوادة واللين في تناول الأمور جميعاً . وهذا مثل من علاجه للنفوس ، يكشف عن طريقته صلى الله عليه وسلم

398- صحيح البخاري (4666)

399- صحيح البخاري (39) وسنن النسائي (5034)

400- صحيح البخاري (69 ، 5774) وصحيح مسلم (1734)

401- صحيح البخاري : (1970)

402- صحيح البخاري (2325) وصحيح مسلم (2668)

وطبيعته : " جاءه أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه . قال له : « أحسنت إليك؟ » قال الأعرابي : لا . ولا أجملت! فغضب المسلمون ، وقاموا إليه؛ فأشار إليهم أن كفوا . ثم زاده شيئاً . ثم قال : « أحسنت إليك؟ » قال : نعم . فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيراً . فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإني أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هوناً ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار " [403].

فهكذا كان أخذه صلى الله عليه وسلم للنفوس الشاردة . بهذه البساطة ، وبهذا اليسر ، وبهذا الرفق وبهذا التوفيق . وسيرته كلها شواهد على التيسير لليسرى ، وهذه الشخصية الكريمة الحبيبة الميسرة لليسرى كانت كذلك لكي تحمل إلى البشرية هذه الدعوة . فتتحول الرسالة بهذا التيسير من عبء مثقل ، إلى عمل محبب ، ورياضة جميلة ، وفرح وانشراح .

فقد جاءت هذه الرسالة ميسرة في حدود الطاقة لا تكلف الناس حرجاً ولا مشقة . وحيثما سار الإنسان مع هذه العقيدة وجد اليسر ومراعاة الطاقة البشرية ، والحالات المختلفة للإنسان ، والتكاليف بعد ذلك كلها تنبثق من هذه العقيدة في تناسق مطلق لا عوج فيه ولا انحراف . وعلى الناس أن يأتوا منها بما في طوقهم بلا حرج ولا مشقة . فقد سرى هذا اليسر في روحها كما سرى في تكاليفها ، ومن ثم التقت طبيعة الرسول بطبيعة الرسالة ، والتقت حقيقة الداعي بحقيقة الدعوة . في هذه السمة الأصيلة البارزة .

وكذلك كانت الأمة التي جاءها الرسول الميسر بالرسالة الميسرة . فهي الأمة الوسط ، وهي الأمة المرحومة الحاملة للرحمة . الميسرة الحاملة لليسر . تتفق فطرتها هذه مع فطرة هذا الوجود الكبير . وهذا الوجود بتناسقه وانسياب حركته يمثل صنعة الله من اليسر والانسياب الذي لا تصادم فيه ولا احتكاك ، وكل منها ميسر لما خلق له ، سائر في طريقه بتناسق وانتظام ، كلها تسير بأمر الله تعالى في توافق مطلق بين طبيعة الوجود ، وطبيعة الرسالة ، وطبيعة الرسول ، وطبيعة الأمة المسلمة .تنبثق كلها من مشيئة واحدة ، تحركها يد القدرة المبدعة الحكيمة .

[403] - الشفا ، للقاضي عياض اليحصبي 100/1

وإن المقتضى التعبدي لهذه المشيئة الإلهية من التيسير لليسرى والتي تتجلى في إرسال محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للبشرية . حيث جاء ميسراً يضع عن كواهل الناس الأثقال والأغلال التي كتبت عليهم ، هو الإيمان به ، تصديقاً وإتباعاً وطاعةً ونصرةً . قال تعالى : { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (157)} [الأعراف : 157] . كما بيّن سبحانه المقتضى التعبدي في اصطفائه هذا الدين لهذه الأمة من وجوب المجاهدة في نصرة هذا الدين والقيام بتكاليفه والاعتصام به وعدم التفرقة والاختلاف عليه . قال تعالى : { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الحج : 78] .

ولما كمل الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وهيأه للأيسر ويسره غاية التيسير ، سبب عنه وجوب التذكير لكل أحد في كل حالة تكميلاً لغيره شفقة على خلق الله ، والناس بعد ذلك وشأنهم؛ تختلف مسالكهم وتختلف مصائرهم ،ويفعل الله بهم ما يشاء وفق ما يستجيبون لهذه الذكرى ، وبهذا التذكير ينقسم الناس إلى قسمين :

– **قسم يقبل الذكرى وينتفع بها** : بقوله : { سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى } أي : من في جبلته نوع خشية ، وهو السعيد لما قدر له في نفسه من السعادة العظمى لقبول الحنيفية السمحة فيذكر ما يعلم منها في نفسه فيتعظ ، فإن الخشية حاملة على كل خير ، فالقلب الحي يتوجس ويخشى ، مذ يعلم أن للوجود إلهاً خلق فسوى ، وقدر فهدى ، فلن يترك الناس سدى

، ولن يدعهم هملاً؛ وهو لا بد محاسبهم على الخير والشر ، ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى . فإذا ذُكر ذكر ، وإذا بُصر أبصر ، وإذا وعظ اعتبر .

– **وقسم لا يقبلها ولا ينتفع بها** : بقوله : { ويتجنبها الأشقى } . أي : لا يسمع الذكرى ولا يفيد منها الإنسان الشديد الشقاوة والتعاسة ، الذي أبى إلا الإصرار على كفره وعناده ، وخلا من خشية الله تعالى . وتتمثل شقوته في الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الصفيقة ، التي لا تحس حقائق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الوجود ، ولا تسمع شهادتها الصادقة ، ولا تتأثر بموحياتها العميقة . والذي يعيش قلقاً متكالباً على ما في الأرض كادحاً لهذا الشأن الصغير! وشقوته في الآخرة بعذابها الشديد المستمر بلا انقطاع .

والمقصود بالآية الكريمة ، تحريض النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده أمته على المداومة على دعوة الناس الهدى ودين الحق ، فإن هذا التذكير إن لم ينفع الناس جميعا ، فسينفع بعضهم ، فقد اقتضت سنة الله أن لا تخلو الأرض ممن يستمع إلى الحق ، ويستجيب له . قال تعالى : { كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ } [المدثر : 54-56] . وبعد أن يثبت القرآن مشيئتهم في اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية ، وعودة الأمور إليها في النهاية .

وهي الحقيقة التي يحرص القرآن على تقريرها في كل مناسبة لتصحيح التصور الإيماني من ناحية طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها الكامل الأخير ، وراء جميع الأحداث والأمور : { وما يذكرون إلا أن يشاء الله } . فكل ما يقع في هذا الوجود ، مشدود إلى المشيئة الكبرى ، يمضي في اتجاهها وفي داخل مجالها . فلا يقع أن يشاء أحد من خلقه ما يتعارض مع مشيئته ، ومشيئته تسيطر على أقدار الوجود كله ، وهي التي أنشأته وأنشأت نواميسه وسننه ، فهو يمضي بكل ما فيه وكل من فيه في إطار من تلك المشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد . والذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق . وفي الحديث : " إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك "[404].

فإذا علم الله تعالى من العبد صدق النية وجهه إلى الطاعات . والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به . فهذا من الغيب المحجوب عنه . ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه ، فهذا مما بينه له . فإذا صدقت نيته في النهوض بما كلف أعانه الله ووجهه وفق مشيئته الطليقة . والذي يريد القرآن أن يطبعه في حس المسلم هو طلاقة هذه المشيئة ، وإحاطتها بكل مشيئة ، حتى تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار ، المتصرف القهار ، فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره . ويكون التوجه إليها من العبد خالصاً ، والاستسلام لها ممحضاً .

فهذه هي حقيقة الإسلام القلبية التي لا يستقر في قلب بدونها وإذا استقرت فيه كيفته تكييفاً خاصاً من داخله ، وأنشأت فيه تصوراً خاصاً يحتكم إليه في كل أحداث الحياة . وهذا هو مجال

---

[404] - صحيح مسلم رقم الحديث (2654)

هذه الحقيقة الذي تجري فيه في مثل هذه النصوص . مع تقرير ما شاءه الله لهم من منحهم القـدرة على إدراك الحق والباطل ، والاتجاه إلى هذا أو ذاك وفق مشيئة الله ، العليم بحقيقة القلوب ، ومـا أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة ، وبيان الطريق ، وإرسال الرسل ، وتنزيل القرآن . . إلا أن هذا كله ينتهي إلى قدر الله ، الذي يلجأ إليه الملتجئ ، فيوفقه إلى الذكر والطاعة ، قال تعالى : { إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (27) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (28) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [التكوير : 27-29] .

وأمام هذا البيان الموحي الدقيق يذكرهم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد . وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم ، وقد منحهم الله هذا التيسير : { لمن شاء منكم أن يستقيم } .أن يستقيم على هدى الله ، في الطريق إليه ، بعد هذا البيان ، الذي يكشف كل شبهة ، وينفي كل ريبة ، ويسقط كـل عذر . ويوحي إلى القلب السليم بالطريق المستقيم . فمن لم يستقم فهو مسؤول عن انحرافه . فقد كان أمامه أن يستقيم .

والواقع أن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق من القوة والعمق والثقل بحيـث يصعب على القلب التفلت من ضغطها إلا بجهد متعمد . وبخاصة حين يسمع التوجيه إليها بأسلوب القرآن الموحي الموقظ . وما ينحرف عن طريق الله بعد ذلك إلا من يريد أن ينحرف . في غير عذر ولا مبرر! فإذا سجل عليهم إمكان الهدى ، ويسر الاستقامة ، عاد لتقرير الحقيقـة الكـبرى وراء مشيئتهم . حقيقة أن المشيئة الفاعلة من وراء كل شيء هي مشيئة الله سبحانه : { وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين } . وذلك كي لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى ، التي يرجع إليها كل أمر . فإعطاؤهم حرية الاختيار ، ويسر الاهتداء ، إنما يرجع إلى تلـك المشـيئة . المحيطة بكل شيء كان أو يكون!

وهذه النصوص التي يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق ، يراد بها تصحيح التصور الإيماني وشموله للحقيقة الكبيرة : حقيقة أن كل شيء في هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله . وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير . شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون ، والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون . فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان .

ولا بد من إقرار هذه الحقيقة في تصور المؤمنين ، ليدركوا ما هو الحق لذاتـــه . وليلتجئـــوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق ، ويرتبطون بها في كل ما يأخذون وما يـــدعون في الطريق!

وهذه في جملتها هي مشيئة الله بالإنسان . وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقـــدره العام . هذه النظرة المجملة إلى أقصى حد تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي :

فهي أولاً ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني ، حين تجعله أهلاً لاحتمال تبعة اتجاهـــه ، وتمنحـــه حرية الاختيار (في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار) فالحرية والتبعة يضعان هذا الكائن في مكان كريم ، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخليقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده ، وفضلها على كثير من العالمين .

وهي ثانياً تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره ، وتجعل أمره بين يديه (في إطار المشيئة الكبرى) فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى . وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خـــلال تصرفه هو بنفسه : { إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم } وهي تبعة ثقيلة لا يغفـــل صاحبها ولا يغفو!

وهي ثالثاً تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة ، ليظل على يقين أن هواه لم يخدعه ، ولم يضلله ، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة ، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه . وبذلك يظل قريباً من الله ، يهتدي بهديه ، ويستضيء بالنور الذي أمده به في متاهـــات الطريق! فإذا لم يعرف في قلبه حقيقة القدرة المسيطرة ، ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره ، فلا هدى ولا ذكر ، ولا توفيق إلى خير . وهذا هو المقصود ابتداء من تقرير طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها عقـــب الحديث عن كل وعد بجنة أو نار ، وهدى أو ضلال .

فأما أخذ هذا الإطلاق ، والانحراف به إلى جدل حول الجبر والاختيار ، فهو اقتطاع لجانب من تصور كلي وحقيقة مطلقة ، والتحيز بها في درب ضيق مغلق لا ينتهي إلى قول مريح . لأنها لم تجئ في السياق القرآني لمثل هذا التحيز في الدرب الضيق المغلق [405] .

---

[405]– راجع : تفسير ابن كثير 378/8 ، وتفسير الألوسي 369/22، وتفسير الرازي 466/16 ، وتفسير البقاعي 401/9 ، وتفسير ابن عاشور 219/16 ، وتفسير الظلال 394/7- 399 ، 422 ، 474 ، 19/8-20 ، 49 ، وتفسير طنطاوي 4486 ، وتفسير السعدي 920

* **الشاهد الرابع :**

قال تعالى :{ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } [الانعام :80] .

يخبر تعالى عن إبراهيم حينما خاصمه قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وشرعوا في مغالبته تارة بإيراد أدلة فاسدة واقعة في حضيض التقليد وأخرى بالتخويف والتهديد من إصابته بمكروه من جهة ألهتهم المزعومة ، فأنكر عليه السلام عليهم محاجتهم له كونه مهدياً من جهة الله تعالى ومؤيداً من عنده سبحانه مما يوجب عليهم الكف عن محاجته، بقوله : { أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِي } أي : كيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟! والحال أنه تعالى قد هداني إلى الحق وأنا على بينة منه ، وبعد أن قدم لهم الدليل العلمي على بطلان قولهم ، أتبعه بالدليل العملي حيث رد على تخويفهم له بألهتهم ، بتحديهم في إنفاذ ما خوفوه به ، بأنه لا يخشى أصنامهم ولا يقيم لها وزنا ولا يباليها ، لأن هذه الآلهة التي يعبدونها لا تؤثر شيئا ، فهي جمادات لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تقرب ولا تشفع ، فإن كان لها صنع، فكيدوني بها جميعا وعاجلوني بذلك . فإنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عزَّ وجل .

وهذا الحال شبيه بحال هود مع قومه حينما خوفوه بطش أصنامهم ، وهي كذلك نظير ما احتج به على قومه عاد ، كما في قوله تعالى : { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } [هود : 54-56] . فقد نفى عليه السلام قدرة آلهتهم على ضره بطريق برهاني ، فإن الأقوياء الأشداء إذا لم يقدروا مع اجتماعهم واحتشادهم على الضر كان عدم قدرة الجمادات عليه معلوماً من باب أولى ، وأياً مّا كان فذاك من أعظم المعجزات فإنه كان عليه السلام مفرداً بين جمع عتاة جبابرة عطاش إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة ، وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على ما هيجهم فلم يقدروا على مباشرة شيء مما كلفوه ، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً ، وفي ذلك دلالة على مزيد ثقته بالله سبحانه وكمال عنايته به وعصمته له ، وقد قرر ذلك بإظهار التوكل على من كفاه ضرهم في قوله : { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ } وفيه تعليل لنفي ضرهم بطريق برهاني يعني أنكم وإن لم تبقوا في القوس منزعاً وبذلتم في مضادتي مجهودكم لا

تقدرون على شيء مما تريدون بي فإني متوكل على الله تعالى واثق بكلاءته وهو مالكي ومالككم لا يصدر عنكم شيء ولا يصيبني أمر إلا بإرادته ، ثم إنه عليه السلام برهن على عدم قدرتهم على ضره مع توكله عليه سبحانه بقوله : { مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا } أي إلا هو مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه سبحانه ، وفي قوله : { إِنِّى تَوَكَّلْتُ } فيه من حسن التعليل ، وهو أن من توكل عليه لم يبال بهول ما ناله ، فكيف يخاف من لزم سدّة العبودية وتوكل عليه سبحانه , وهو رب الخلق جميعاً ، وفي قوله : { رَبِّى وَرَبِّكُمْ } فيه ما يدل على زيادة اختصاصه به وأنه رب الكل استحقاقاً وربه دونهم تشريفاً وإرفاقاً . وحفظاً ورعاية [406] .

وهكذا قد تبين بطلان معتقداتهم الزائفة تبياناً تاماً بالواقع المشهود ، حينما تحداهم إبراهيم عليه السلام أن يمسوه بسوء من جهة معبوداتهم الباطلة أو غيرها ، فعجزوا عن إنفاذ مرادهم ، ولم يستطيعوا نصرة آلهتهم ، فقد كانت إرادة الله فوق إرادتهم ، وقدرته فوق قدرتهم ، حيث جعل من النار التي أرادوا أن يضروه بها مصدر خير ونفع ، كما في قوله تعالى : { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء :68-70] .

لقد كان رد إبراهيم على تخويف قومه له ، بنفي الخوف منهم ومن آلهتهم مطلقاً ، ولكن إبراهيم في عمق إيمانه ، واستسلام وجدانه ، لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكناً إلى مشيئة الله الطليقة ، وإلى علم الله الشامل ، لأنه لمّا نفى أن يكون يخاف إضرار آلهتهم وكان ذلك قد يتوهّم منه السّامعون أنّه لا يخاف شيئاً استدرك عليه بما دلّ عليه الاستثناءُ بقوله : { إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً } وفي هذا الاستثناء وجوه : **أحدها** : إلا أن أذنب فيشاء إنزال العقوبة بي . **وثانيها** : إلا أن يشاء أن يبتليني بمحن الدنيا فيقطع عني بعض عادات نعمه . **وثالثها** : إلا أن يشاء ربي فأخاف ما تشركون به بأن يحييها ويمكنها من ضري ونفعي ويقدرها على إيصال الخير والشر إلي ، واللفظ يحتمل كل هذه الوجوه ، وفي هذا الاستدراك زيادة نكاية لقومه واستخفاف بآلهتهم ، إذ كونه لا يخافها في حين أنّه يخشى ربّه المستحقّ للخشية ، وهذا الاستثناء يدل على سمو أدبه عليه السلام مع ربه ، وعلى نهاية استسلامه لمشيئته ، فمع أنه مؤمن بخالقه كل الإيمان وكافر بتلك الآلهة كل الكفران ، إلا أنه ترك الأمر كله لمشيئة الله ، وعلق مستقبله على ما يريد الله فيه . فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته؛ ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئاً ، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته . ويعلم أنه لا

---

[406] - أنظر : تفسير الألوسي 279/8

يصيبه إلا ما شاءه الله ، ووسعه علمه الذي يسع كل شيء . وهو نظير جواب شعيب لتهديد قومه ، في قوله تعالى : { قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (88) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } [الأعراف : 88-89] .

إن شعيب عليه السلام يرفض ما يفرضه عليه الطواغيت ، من العودة في ملتهم؛ ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة؛ ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته . ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم . . فالأمر موكول إلى هذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون ، وربهم وسع كل شيء علماً . فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم . إنه الأدب مع الله ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره . ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه .

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق ، فهو يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان . ويعلم أن ربه هو الذي يفصل بالحق بين الإيمان والطغيان . ويتوكل على ربه وحده في خوض المعركة المفروضة عليه وعلى المؤمنين معه ، والتي ليس منها مفر . إلا بفتح من ربه ونصر . وفي قول إبراهيم عليه السلام { ربي } تعرض لعنوان الربوبية إشارة إلى أن مشيئته تلك إن وقعت غير خالية عن مصلحة تعود إليه بالتربية أو إظهار منه عليه الصلاة والسلام لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلام لأمره واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته تعالى . وحاصل الأمر أنه لا يبعد أن يحدث للإنسان في مستقبل عمره شيء من المكاره ، والحمقى من الناس يحملون ذلك على أنه إنما حدث ذلك المكروه بسبب أنه طعن في إلهية الأصنام ، فذكر إبراهيم عليه السلام ذلك حتى لو أنه حدث به شيء من المكاره لم يحمل على هذا السبب .

وقوله عليه السلام : { وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً } كأنه تعليل للاستثناء أي أحاط بكل شيء علماً فلا يبعد أن يكون في علمه إنزال المكروه بي من جهة تلك المعبودات الباطلة لسبب من الأسباب . وهذه الجملة الكريمة مستأنفة بيانياً ، لأنه قد يختلج في نفوسهم : كيف يشاء ربّك شيئاً تخافه وأنت تزعم أنّك قائم بمرضاته ومؤيد لدينه فما هذا إلاّ شكّ في أمرك ، فكان جوابه عليهم : { وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } أي : إنّما لم آمن إرادة الله بي ضرّا وإن كنت عبده وناصر دينه لأنّه أعلم بحكمة إلحاق الضرّ . أو النفع بمن يشاء من عباده . فهو علام الغيوب فلا يفعل إلا الصلاح والخير والحكمة ، فبتقدير : أن يحدث من مكاره الدنيا فذاك ، لأنه تعالى عرف وجه الصلاح والخير

فيه لا لأجل أنه عقوبة على الطعن في إلهية الأصنام . وهذا مقام أدب مع الله تعالى { فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون } [الأعراف : 99] .

وبناءً عليه فإنه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق وكيف يخاف آلهة عاجزة كائنة ما كانت هذه الآلهة ، والتي تتبدى أحياناً في صورة جبارين في الأرض بطاشين؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون! لذلك قال عليه السلام : { وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ } . فكيف يخاف من وجد الله؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف؟ وكل قوة غير قوة الله ، هي قوة هزيلة ضعيفة ، وكل سلطان غير سلطان الله لا يستحق الخوف منه، فضلاً عن أن يتنازل عن دينه أمامه ؟! إن هذا هو منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق الإيمان ، وحقائق هذا الوجود .

وهذا الإستفهام يبقى يتكرر على ألسنة المؤمنين في مواجهة الطغاة والمتكبرين ، في كل الأرض ، وفي كل زمان ، فكيف يخاف المؤمن الموحد بالله تعالى هذه الآلهة الزائفة العاجزة مهما كانت صورها وأشكالها ، ولا يخاف المشركون أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة ؟ أي: فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عَبَد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟

إن من عنده أدنى مسكة عقل يدرك من أحق بالأمن من الفريقين . ومن عنده أدنى حس فطري يقوده شعوره إلى التميز بينهما ، لذلك قال عليه السلام لهم : { أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ } والاستفهام إنكار لإعراضهم وعدم تذّكرهم مع وضوح دلائل التذكّر وموحيات الإعتبار . والمراد التذكّر في صفات آلهتهم المنافية لمقام الإلهية ، وفي صفات الإله الحقّ التي دلّت عليها مصنوعاته .بحيث يتبين لهم الفرق الكبير بينهما ، فيعتبروا أن هذه الآلهة باطلة، وينزجروا عن عبادتها ، إن سلامة التصور وصحة المفاهيم العقدية ، هي التي تحقق التوازن النفسي من الخوف والأمن ، والرغبة والرهبة ، من خلال ضبط تلك المشاعر التي تنتاب الإنسان وفق مقتضياتها المفهومية لحقائق الإيمان ، والتي تؤدي إلى استقامة السلوك الإنساني، وسلامة الممارسة الإيمانية في طريق العبادة الخالصة لله تعالى .

فإن هذا التصور الإيماني وهو الاعتقاد الجازم بأن الأمور كلها في هذه الحياة من الضر والنفع ، وبسط الرزق وقبضه ، والحياة والموت ، وغير ذلك من الوقائع والأحداث إنما تسير وفق مشيئة الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعالى وحده ، وإن هذه الأسباب إنما هي فاعلة بأمره ، وهي من قدره وسننه ، وليس لها فاعلية ذاتية كما يعتقد العلمانيون والماديون ، يوجب على المؤمن والعاقل الخشية من إرادة انتقامه عند معصيته سبحانه ، ورجاء ثوابه حين طاعته . والأمن إلى جنابه تعالى من قوى الأرض وتهديد الطغاة ، قال تعالى : { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } [الزمر : 38] . وقد جسد الرسول عليه السلام هو وصحابته الكرام هذا المعنى واقعياً فأنزل الله فيهم قوله تعالى : { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران :173] . فالتوكل في العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب ، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله . فهي حين ترد الأمر كله إلى الله لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الواقع . أما أن تتحقق تلك النتائج فعلاً أو لا تتحقق فليس داخلاً في التكليف ، لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله . « ولقد ترك الأعرابي ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل يصلي قائلاً : " توكلت على الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعقلها وتوكل " [407].

وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني . ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية ، والخلافة الأرضية بكل مقوّماتها ، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله . وأن لا وجود إلا وجوده . وأن لا فاعلية إلا فاعليته . ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومن هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات . منهج لعبادة الله وحده . وتتمثل هذه العبادة في التلقي عنه وحده العقيدة والتصور والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم ، والآداب والتقاليد . وتتمثل كذلك في الاتجاه إليه وحده في الرغبة والرهبة . وفي السراء والضراء . وفي النعماء والبأساء . وحين يخلص القلب من التعلق بغير الله فإنه يتحرر في فكره وشعوره وسلوكه من كل عبودية لغير الله . وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء . ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله . ومن ثم نفي فاعلية الأسباب . ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت ، وبه تأثرت . وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها

---

[407]- سنن الترمذي (2517) وصحيح ابن حبان (731) قال الشيخ الألباني : حسن

، تنسكب في القلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب ، ويتقي عنده ما يرهب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة [408].

الشاهد الخامس :

قد أكدت قصة إبراهيم ما قرره المنهج القرآني في رد كل أمر يقع من أقدار الله تعالى إلى مقتضى حكمته وعدله ورحمته . ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي :

أ – أما ردها إلى مقتضى رحمته ، وما يستوجب ذلك من الحمد والشكر على فضله :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود : 72-73] .

قالت زوجة إبراهيم بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها : إن هذا الذى بشرتموني به من حصول الولد لي في تلك السن المتقدمة { لَشَيْءٌ عَجِيبٌ } في مجرى العادة عند النساء . وقد رد عليها الملائكة بقولهم : { قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله }. فالاستفهام هنا المراد به إنكار تعجبها واستبعادها البشارة ، وإزالة أثر ذلك من نفسها إزالة تامة . و { أمر الله } هو أمر التكوين ، أي أتعجبين من قدرة الله على خرق العادات . وجوابهم جار على ثقتهم بأن خبرهم حق منبىء عن أمر الله . أي : لا ينبغى لك أن تستبعدي ذلك ، لأن الله أمر به ، وكل شيء خاضع لأمره ومشيئته ، فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن ، فهو سبحانه لا يعجزه شئ .

وجملة { رحمت الله وبركاته عليكم } تعليل لإنكار تعجبها ، لأن الإنكار في قوة النفي ، فصار المعنى : لا عجب من أمر الله لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة ، فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها وأنتم أهل لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندكم . ووجه تعليل نفي العجب بهذا أن

---

[408]- راجع : تفسير ابن كثير 293/3، وتفسير الرازي 355/6، وتفسير الألوسي 403/5، وتفسير ابن عاشور 5/5-6، وتفسير الظلال 324/3 ، 255 ، 261 ، وتفسير طنطاوي 1488،وتفسير السعدي 262

التعجب إمّا أن يكون من صدور هذا من عند الله وإما أن يكون في تخصيص الله به إبراهيم عليه السّلام وامرأته فكان قولهم { رحمت الله وبركاته عليكم } مفيداً تعليل انتفاء العجبين[409] . قال صاحب الكشاف : " وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت في بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب "[410].

وإلى ذلك أشارت الملائكة في قولهم { رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت } . أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمهم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليس بمكان عجب ، والكلام مستأنف علل به إنكارا التعجب . كأنه قيل : " إياك والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم " .

وجملة { إنّه حميد مجيد } تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأنّ الله يحمد من يطيعه ، وبأنّه مَجِيدٌ ، أي عظيم الشأن لاَ حَدّ لِنعَمِه فلا يعظم عليه أن يعطيها ولداً ، وفي اختيار وصف الحميد من بين الأسماء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم عليه السّلام وأهله . وهو تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل . فهو سبحانه مستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده وإحسانه إليهم[411] .

ب – أما ردها إلى مقتضى عدله سبحانه، مما يوجب طاعته ومحاسبة النفس على معصيته والإنابة إليه سبحانه .

*** الشاهد :**

قال تعالى :{ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [هود : 75-76] .

---

[409]- أنظر : تفسير طنطاوي 2234 ، وتفسير ابن عاشور 171/7

[410] – تفسير الزمخشري : 104/3 .

[411]- أنظر : تفسير طنطاوي 2234 ، وتفسير ابن عاشور 171/7

وقوله سبحانه { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ } بيان للدواعي التي حملت إبراهيم عليه السلام على مجادلة الملائكة في شأن إهلاك قوم لوط ، وهذه المجادلة التي كانت بين إبراهيم وبين الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط ، هي مجادلة في تنفيذ أمره تعالى ، ولكن حلم إبراهيم وإنابته لم يرد قضاء الله العادل في شأن قوم لوط ، ولذا قالت الملائكة له : { ياإبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هذآ } .

ثم علل الملائكة ذلك : {إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ } ولذا عطف على العلة مؤكداً إعلاماً بأنه أمر قد انبرم ومضى ، بقوله : { وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } . فجاءه الرد إنه قد نفذ فيهم القضاء العادل، وحقّت عليهم الكلمة بالهلاك جزاء كفرهم، وأن قدر الله تعالى المقضي بعذابهم غير مصروف ولا مدفوع عنهم وأنه لم يعد للجدال مجال ، فإن قضاء الله لا يرد عن القوم المجرمين وما حكم الله به لا بد واقع . فلما علم إبراهيم عليه السلام مراد الله فيهم ، قدمه على مراده و لم ينطق بعده ببنت شفة[412] .

ج – أما ردها إلى مقتضى علمه وحكمته مما يوجب الرضى والتسليم .

*** الشاهد :**

قال تعالى : { وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [الذاريات: 28–30] .

يحكي القرآن ما كان من امرأة إبراهيم بعد أن سمعت البشرى فأقبلت وهي تصيح في تعجب واستغراب فضربت بيدها على وجهها متعجبة وهي تقول: آألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إنّ هذا لشيءعجيب؟! وهذا عادة ما تفعله النساء إذا تعجبن من شيء . وهنا رد عليها الملائكة بما يزيل تعجبها واستغرابها واستبعادها لأن يكون لها ولد مع كبر سنها . { قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ } فإن الملائكة ما أخبروا إبراهيم إلا تبليغاً من الله وأن الله صادق وعده ، أي : الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب من أمر الله وقضائه ، وجملة { إنه هو الحكيم العليم } تعليل لجملة { كذلك قال ربك } أي : إن مشيئته نافذة ، وهي تصدر عن علم وحكمة ، فلما كان ذلك محط تعجبها ، عللوا إخبارهم انه هو الحكيم في تدبيره وتصريفه شؤون عباده فيضع الأشياء في أحق مواضعها ،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

412- راجع : تفسير البقاعي 179/4، وتفسير الخازن 470/3 ، وتفسير طنطاوي 2236، وتفسير ابن عاشور 172/7

فرتب عظمة هذا المولود على كل من عقمك وعجزك . العليم بما تستحقون من الكرامة لا يخفى عليه حالك من العجز والعقم ، فاقبلي البشرى واحمديه واشكريه ، فعلى العبد أن يفوض الأمر إليه ولا يعترض عليه ، لأن اختياره وإرادته سبحانه إنما تصدر عن علمه المطلق ، وحكمته البالغة.

وهكذا ينبغي على التعامل مع إرادة الله تعالى ، ومشيئته فيما يقضيه ويقدره من رده إلى مقتضى علمه وحكمته ، وإلى مقتضى فضله ورحمته ، وإلى مقتضى عدله وقسطه ، مما يقتضي على العاقل ويوجب على المؤمن الرضى والتسليم في كل ما يقع على الإنسان من أقدار الله تعالى، فإن كان خيراً شكر، وإن كان ضراً صبر ، مع سعيه الحثيث في دفع كل ما أمر الله تعالى له بدفعه وأذن به . فإن التسليم والرضى بقدر الله لا يعني القعود عن العمل وتعطيل قانون الأسباب ، كما أن الأخذ بالأسباب لا يعني التعلق فيها ، فهي ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هي فاعلة بأمر الله تعالى وقضائه وقدره ، فقد كان قانون الأسباب بالنسبة لإبراهيم وزوجه معطل ، فهو شيخ كبير وامرأته عقيم وعاقر ، لذلك فإن التعلق كان برب الأسباب ، الذي يعطي بهذه الأسباب أو بغيرها أو بضدها ، فهو فاعل الأسباب الجارية أو الأسباب الخارقة ، والله تعالى حينما يجري سننه الخارقة إنما يجريها كي تتكشف عرى الأسباب لتردها إلى الفاعل الحقيقي وهو الله تعالى ، وحينما يدرك الإنسان هذه الحقيقة تزول غشاوة القلب ليتعلق برب الأسباب ويبتغي عنده وحده ما يرجوه في تحقيق مراده ، ولا يتعلق قلبه بالأسباب .

إن الاعتقاد الإيماني بعظمة الله تعالى وقدرته وهيمنته وجريان الأمر بمشيئته لا ينفي الأسباب والسنن الربانية الجارية المفروضة على نظام الوجود بقدر من الله وقدرته ، فلا تفتنه الأسباب ولا يقعده التوكل ، فيأخذ بالأسباب من غير تعلق بها ، ويتعلق بالله من غير إهمال لها ، ويظهر هذا التوازن في قوله تعالى : { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال : 59] . بهذا التوازن في العقيدة يتحقق النصر ، فلا بد من اتخاذ أسباب النصر من عدد وعدة مع الاعتقاد أن النصر قدراً مقدوراً من عند الله ، فلا يحسب أنه يعجز الله بما عنده من قوة . وبهذا التوازن ينبغي التعامل مع سنن الله والأسباب التي قدرها سبحانه بين عباده . وبهذا التوازن في العقيدة استطاع الصحابة الكرام في وقت قصير أن يغيروا موازين القوى العالمية ، ويسودوا العالم كله .

ـــ المبحث الثاني ـــ

الاستدلال بإرادة الله الشرعية على ألوهيته

وهذه الإرادة الدينية الشرعية تتعلق بما يحبه الله ويرضاه ، من أحكام وشرائع وتوجيهات يضعها سبحانه لعباده ، قال تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة : 185] . وقال : { مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ } [المائدة : 6] . فمعلوم أن هناك فرقاً واضحاً بين الإرادة الكونية وبين الإرادة الشرعية : وهو أن الإرادة الكونية لا بد من وقوعها ، وهي شاملة للخير والشر والنفع والضر وكل شيء ، وليس من لوازمها المحبة . أما الإرادة الشرعية فإنها قد تقع وقد لا تقع ، وهي لا تكون إلا في الخير والنفع فقط ، وهي تستلزم المحبة والرضا . ومعلوم أن هناك فرق بين مشيئته تعالى وبين محبته ورضاه ، فإن الكفر والفسوق والعصيان وان وقع بمشيئته فهو لا يحبه ولا يرضاه بل يسخطه ويبغضه . وعليه فإن إرادة الله في كتابه نوعان :

ـــ **نوع بمعنى المشيئة لما خلق** : كقوله : { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام : 125] .

ـــ **ونوع بمعنى محبته ورضاه لما أمر به** : كقوله : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا } [النساء : 26-28] .

وقد دل الكتاب والسنة والعقل على أن الإرادة الكونية لا تستلزم الرضا والمحبة دائماً ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة : 205] . وقوله : { وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ } [الزمر : 7] . وقوله : { كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا } [الإسراء : 38]

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله كره لكم ثلاثا : قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال "[413]. ومن دعائه عليه الصلاة والسلام : " اللهم أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من

[413]- صحيح البخاري رقم الحديث (1407 ، 5630 ، 2277) وصحيح مسلم (593)

عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك "[414]. فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضى من صفة السخط وبفعل المعافاة من فعل العقوبة فالأول : الصفة والثاني : أثرها المرتب عليها ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره.
فدلت هذه الآيات والأحاديث أن من الأمور ما يكرهها الله ولا يحبها ولا يرضاها ، وهي داخلة ضمن مشيئته تعالى . وفي هذا دليل على الفرق بين مشيئة الله ومحبته[415].

* فإن قيل : كيف يريد الله أمرا ولا يرضاه ولا يحبه ؟ والجواب أن المراد نوعان : مراد لنفسه ومراد لغيره :

– **فأما المراد لنفسه** : فهو مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

– **وأما المراد لغيره** : فقد لا يكون مقصودا لما يريد ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده فيجتمع فيه الأمران : بغضه وإرادته ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما .

وهذا كالدواء الكريه إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه وقطع العضو المتأكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده . فالعاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته ، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية فهو سبحانه يكره الشيء ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره وكونه سببا إلى أمر هو أحب إليه من فوقه . ومن ذلك : أنه خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والإعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد وعملهم بما يغضب الرب سبحانه تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ووجودها أحب إليه من عدمها ، ومن هذه المحاب :

أ– أنه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات : فخلق هذا الذات التي هي أخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبرائيل التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها وهي مادة كل خير فتبارك خالق هذا وهذا ، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار والدواء والداء والحياة والموت والحسن والقبيح والخير ، والشر وذلك أدل دليل على كمال

414– صحيح مسلم رقم الحديث (486)

415– انظر : مجموع الفتاوى ، لابن تيمية ، 476/8 ، والبيان في أركان الإيمان ، لمحمد مكي 409

قدرته وعزته وملكه وسلطانه فإنه خلق هذه المتضادات وقابلها بعضها ببعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره ، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير ملكه.

ب- ظهور آثار أسمائه القهرية : مثل : القهار والمنتقم والعدل والضار والشديد العقاب والسريع العقاب وذي البطش الشديد والخافض والمذل فإن هذه الأسماء والأفعال كمال لا بد من وجود متعلقها ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء ،

ج- ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره : وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد . وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله : " لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم "[416].

د- ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة : فإنه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها فلا يضع الشيء في غير موضعه ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته فهو أعلم حيث يجعل رسالاته وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه وأعلم بمن لا يصلح لذلك فلو قدر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ولفاتت مصالح عديدة ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب ، وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر .

هـ- حصول العبودية المتنوعة : التي لولا خلق إبليس لما حصلت ، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاات لله سبحانه ، والمعاداة فيه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى ، وعبودية التوبة والاستغفار ، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه . إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها[417].

ومعلوم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع . ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها ، ولو فعلت ذلك

416- صحيح مسلم (2749)

417- أنظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الطبعة : الأولى ، 127/2

لما كانت مؤمنة بنبيها ، بل انقادت وسلمت وأذعنت ، وما عرفت من الحكمة عرفته ، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته ، ولا جعلت ذلك من شأنها ، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك ، كما في الإنجيل : " يا بني إسرائيل لا تقولوا : لم أمر ربنا ؟ ولكن قولوا : بم أمر ربنا " ؛ ولهذا كان سلف هذه الأمة . التي هي أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلوما - لا تسأل نبيها : لم أمر الله بكذا ؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولم قدر كذا ؟ ولم فعل كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام ، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم . فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به ، ثم العزم الجازم على امتثاله ، ثم المسارعة إليه والمبادرة به ، والحذر عن القواطع والموانع ، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ، ثم فعله لكونه مأمورا ، بحيث لا يتوقف فشفاء العي السؤال . ومن سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم ، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره . قال القرطبي ناقلاً عن ابن عبد البر : فمن سأل مستفهما راغبا في العلم ونفي الجهل عن نفسه، باحثا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه، فلا بأس به، فشفاء العي السؤال، ومن سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره، قال ابن العربي: الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الادلة، وإيضاح سبل النظر، وتحصيل مقدمات الاجتهاد، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد، فإذا عرضت نازلة أتيت من بابها، ونشدت في مظانها، والله يفتح في صوابها . وقال صلى الله عليه وسلم : " من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه "[418].

ولا شك في تكفير من رد حكم الكتاب ، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له ، بين له الصواب ليرجع إليه ، وهو سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل ، لكمال حكمته ورحمته وعدله ، لا بمجرد قهره وقدرته[419].

وعليه فإنه ينبغي رد أوامر الله تعالى من أحكام وتشريعات إلى مقتضى علمه وحكمته ، وفضله ورحمته ، وعدله سبحانه وتعالى . والتعامل مع هذه المقتضيات وفق ما يناسبها ويلائمها من العبادة . وقد تقرر ذلك في كثير من الآيات ، ونبين ذلك على النحو الآتي :

---

[418]- رواه مسلم في صحيحه برقم (1599) والترمذي في سننه (2317)

[419]- أنظر : شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، 2/143-145 ، وانظر تفسير القرطبي 333/6

أولاً : أما ردها إلى مقتضى علمه وحكمته :

فشرعه سبحانه صادر عن علم وخبرة بعباده لما فيه نفعهم وخيرهم ومصالحهم ، كقوله تعالى : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة : 216] . وهو في كل ما يشرع لعباده من أوامر ونواهي إنما هو لحكمة الابتلاء ، كما في قوله تعالى : { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [المائدة : 48] .

وقد جاءت قصة إبراهيم عليه السلام كذلك في تقرير هذه الحقيقة وتوكيدها ، ومن الآيات في ذلك نذكر منها :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الصافات :102- 105] .

بعد أن هاجر إبراهيم من الأرض والوطن . رزقه الله في كبرته وهرمه بغلام حليم . وما يكاد يبلغ معه السعي حتى يرى في منامه أنه يذبحه ، ورؤيا الأنبياء عليهم السلام حق ، فهي من باب الوحي . وأمر الله إبراهيم بذبح ولده أمرُ ابتلاء . والمقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه وإثبات علوّ مرتبته في طاعة ربّه فإن الولد عزيز على نفس الوالد ، والولد الوحيد الذي هو أمل الوالد في مستقبله أشدّ عزّة على نفسه لا محالة ، فبعد أن أقرّ الله عينه بولده الوحيد أمره بأن يذبحه فينعدم نسله ويخيب أمله ويزول أنسه ويتولى بيده إعدام أحب النفوس إليه وذلك أعظم الابتلاء ، فقابَل إبراهيم أمر ربه بالامتثال والقبول والرضى دون أن يعترض أو يتردد . ويبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب :{ قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك . فانظر ماذا ترى } . وجعل هذا الأمر العظيم في المنام دلالة على صدق أحوال الأنبياء نوماً

ويقظة ، وصدق عزائمهم وانقيادهم لجميع الأوامر في جميع الأحوال ، ولعل السر في كونه مناماً لا يقظة أن تكون المبادرة إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد والإخلاص . وروي أن الشيطان وسوس له في ذبحه فعرفه فرماه بسبع حصيات فصار ذلك شريعة في الجمار ، ومن ألطف ما في ذلك أنهم لما كانوا في نهاية التجرد عن علائق الشواغل جعلت آفعالهم شعائر وشرائع لعبادة الحج التي روحها التجرد للوفود إلى الله تعالى .

وأما الحكمة في مشاورة إبراهيم لابنه ، في قوله : { فانظر ماذا ترى } وذلك لأن الأمر لما تعلق بذات الغلام كان للغلام حظ في الامتثال وكان عرض إبراهيم هذا على ابنه عرض اختبار لمقدار طواعيته بإجابة أمر الله في ذاته لتحصل له بالرضى والامتثال مرتبة بذل نفسه في إرضاء الله وهو لا يرجو من ابنه إلا القبول لأنه أعلم بصلاح ابنه وليس إبراهيم مأموراً بذبح ابنه جبراً ، بل الأمر بالذبح تعلق بمأمورين : أحدهما بتلقي الوحي ، والآخرِ بتبليغ الرسول إليه ، فلو قدر عصيانه لكان حاله في ذلك حال ابن نوح الذي أبى أن يركب السفينة لما دعاه أبوه فاعتُبر كافراً .

ولكن إسماعيل يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه ، فكان جوابه لأبيه في غاية الأدب والإمتثال لأمر ربه ، بقوله : { يأبتِ افعل ما تُؤمرُ } . فعدل عن قوله : اذبحني ، إلى { افعل ما تؤمرُ } للجمع بين الإذن وتعليله ، أي أذنت لك أن تذبحني لأن الله أمرك بذلك ، ففيه تصديق أبيه وامتثال أمر الله فيه .

فهو يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب . ولكن في رضى ويقين . فالأمر في حسه هكذا ربه يريد فليكن ما يريد . فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه . يحس أن الرؤيا إشارة . وأن الإشارة أمر . وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب . ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال؛ والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة : قال : { سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصابرين }

فإنه بعد أن حثّه على فعل ما أُمر به وَعَده بالامتثال له وبأنه لا يجزع ولا يهلع بل يكون صابراً ، وفي ذلك تخفيف من عبء ما عسى أن يعرض لأبيه من الحزن لكونه يعامل ولده بما يكره . وهذا وعد قد وفّى به حين أمكن أباه من رقبته ، وهو الوعد الذي شكره الله عليه في الآية الأخرى في قوله : { واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد } [مريم : 54] ، ولما كان من أخلاق الكمل عدم القطع في المستقبلات لما يعلمون من قدرة الله تعالى على نقض العزائم بالحيلولة بين المرء وقلبه قال : { إن شاء الله } . وإنما علق ذلك بمشيئة الله تعالى الذي اختص بالإحاطة

بصفات الكمال على سبيل التبرك والتيمن ، واستعانةً به على تحقيق أمره تعالى ، فإنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله . وأكد وعده بهذا الأمر الذي لا يكاد يصدق مثله بقوله : { من الصابرين } من المبالغة في اتصافه بالصبر ، أي العريقين في الصبر البالغين فيه حد النهاية .

ثم قال تعالى : { فلما أسلما وتله للجبين } . أي : ألقيا بالفعل على غاية الإخلاص حين المباشرة بجميع قواهما في يد الأمر ، ولم يكن عند أحد منهما شيء من إباء ولا امتناع ولا حديث نفس في شيء من ذلك ، ويكب إبراهيم ابنه على جبينه استعداداً . والغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعاً . وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً .

فهذا هو الإسلام في حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم وتنفيذ . وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم . وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد حققا الأمر والتكليف . وجاوزا الابتلاء والامتحان بنجاح . وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقهما . فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا :{ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم }. وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم بمبادرته لامتثال الأمر دون تأخير .

قال المحققون : السبب في هذا التكليف كمال طاعة إبراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد ، لا جرم قال قد صدقت الرؤيا ، يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا وحققتها فعلاً . فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، وجملة { إنَّا كذلك نَجزي المحسنين } تعليل لما قبلها . أى : فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل ، لأن سنتنا قد اقتضت أن نجازى المسحنين الجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم . فإن إبراهيم قد بذل أعز شيء وهو ولده فلذة كبده طاعة لربّه في رضى وعن يقين . فبذل الله إليه من أحسن الخيرات ، ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت . يفديها بذبح عظيم ليذبحه بدلاً من إسماعيل : { وفديناه بذبح عظيم } .

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى ، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان . وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم ، الذي تتبع ملته ، والذي ترث نسبه وعقيدته . ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم

عليها ، ولتعرف أنها الاستسلام لأمر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه . ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم! فحين يوجد النص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر ، ويبطل التفكر؛ وتتعين الطاعة ، ويتحتم التنفيذ ، فهذا إبليس - لعنه الله - قد امتنع عن تنفيذ أمر الله تعالى وعصاه ، وجعل له رأياً مع النص . وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر . قال تعالى : { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } [الأعراف : 12] .

إن إبليس لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلا بإذنه وقدره . ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه و لم ينفذه بمنطق من عند نفسه : { قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين } . فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوه : { قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } [الأعراف : 13] . فإن علمه بالله لم ينفعه ، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه .

وكذلك كل من يتلقى أمر الله ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه؛ أو يرد حكم الله في قضية قضى فيها من قبل . إنه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد . فإبليس لم يكن ينقصه العلم ، و لم يكن ينقصه الاعتقاد . ومع ذلك فقد طرد من رحمة الله ، وحقت عليه اللعنة . لأنه رد أمر الله وحاكمه برأيه ، وإن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم والإستسلام لأمر الله تعالى . وفي المقابل فقد جعل الله من الأنبياء النموذج والمثال في طاعة الله والخضوع والانقياد لأمره وشرعه تعالى .

وفي قصة إبراهيم وإسماعيل مثال حي وواقعي على انقياد الأنبياء وتسليمهم لأمر الله ، حيث لم يتوقف انقيادهم على معرفة الحكمة من الأمر ، لأنهم يؤمنون بأن أمر الله لا يصدر إلا عن علم مطلق وحكمة بالغة ، فلم يجعلوا هذا من شأنهم فأمر الله عندهم أعظم من أن يسألوه عن ذلك ، لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان ، مصداقاً لقوله تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [البقرة : 285] .

فالمؤمنون يتوجهون إلى ربهم بالطاعة والتسليم ، ويتجلى أثر هذا الإيمان في السمع والطاعة ، السمع لكل ما جاءهم من عند الله ، والطاعة لكل ما أمر به الله . فهو إفراد الله بالسيادة ، والتلقي

منه في كل أمر . فلا إسلام بلا طاعة لأمر الله ، وإنفاذ لنهجه في الحياة . ولا إيمان حيث يعرض الناس عن أمر الله في الكبيرة والصغيرة من شؤون حياتهم؛ أو حيث لا ينفذون شريعته ، فما يمكن أن يجتمع الإيمان ، وعدم تحكيم شريعة الله ، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة .

والذين يزعمون أنهم مؤمنون ولا يحكمون شريعة الله في حياتهم ، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم . إنما يدعون دعوى كاذبة أنهم مؤمنون ، وقد رد عليهم النص القرآني رداً حاسماً وقاطعاً في قوله تعالى : { وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ } [المائدة : 43] . أي : وما أولئك الذين جاءوا يتحاكمون إليك من اليهود بالمؤمنين لا بكتابهم التوراة . لأنهم لو كانوا مؤمنين به لنفذوا أحكامه ، ولا بك يا محمد لأنهم لو كانوا مؤمنين بك استجابوا لك فيما تأمرهم به وتنهاهم عنه . فالقضية هي قضية الإقرار بألوهية الله وحده أو رفض هذا الإقرار . وأن قبول شريعة الله والرضى بحكمها هو مظهر الإقرار بألوهيته ؛ ورفضها والتولي عنها هو مظهر رفض هذا الإقرار . ذلك كان حكم الله على المحكومين الذين لا يقبلون حكم شريعة الله في حياتهم .

وقد جاء كل دين من عند الله ليتولى قيادة الحياة البشرية ، وتنظيمها ، وتوجيهها ، وصيانتها . ولم يجيء ليكون مجرد عقيدة في الضمير ولا مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب . فهذه وتلك على ضرورتهما لا يكفيان وحدهما ما لم يقم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عملياً في حياة الناس؛ ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان؛ ويؤاخذ الناس على مخالفتها ، ويؤخذون بالعقوبات . والحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من عند الله وحده[420].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة :124] .

420- راجع : تفسير الرازي 138/13-141 ، وتفسير الألوسي 200/17 ، وتفسير البقاعي 141/7، وتفسير ابن عاشور 141/12، وتفسير الظلال 325/1-332 ، 373/2-376 ، 197/3، 188/6-190، وتفسير طنطاوي 1272 ، 3581-3583

إن الله اختبر إبراهيم بكلمات أوحاها إليه وأمره أن يعمل بهن فأتمهن أي أداهن حق التأدية ، وقام بموجبهن حق القيام وعمل بهن من غير تفريط وتوان ولم ينتقص منهن شيئاً . وكان هذا الابتلاء بعد النبوة لأن التكليف لا يعلم إلا من جهة الوحي الإلهي . فقد أوحى إليه بالنبوة لتتهيأ نفسه لتلقي الشريعة فلما امتثل ما أمر به أوحى إليه بالرسالة وهي في قوله تعالى : { إني جاعلك للناس إماماً } . وقوله : { بِكَلِمَاتٍ } أي : بشرائع وأوامر ونواه ، فإن الكلمات تطلق ، ويراد بها الكلمات القدرية ، كقوله تعالى عن مريم عليها السلام : { وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ } [التحريم : 12] . وتطلق ويراد بها الشرعية ، كقوله تعالى: { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ " [الأنعام : 115] أي: كلماته الشرعية. وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمرًا أو نهيًا، ومن ذلك هذه الآية الكريمة : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ } والكلمات هنا هي : الكلام الذي أوحَى الله به إلى إبراهيم وهي أصول الحنيفية ، وهي قليلة العدد كثيرة الكلفة ، فلعل منها الأمر بذبح ولده ، وأمره بالاختتان ، وبالمهاجرة ، وأعظم ذلك أمْرُه بذبح ولده إسماعيل بوحي من الله إليه في الرؤيا ، وقد سمي ذلك بلاء في قوله تعالى : { إن هذا لهو البلاء المبين } [الصافات : 106] .

وقوله : { فأتمهن } أي: قام بهن كلهن ، والإتمام في الأصل إيقاع الفعل على الوجه الأتم ، وإتقانه والفور في الامتثال للأمر . وفي إجمال القرآن لتلك الكلمات التي امتحن الله بها إبراهيم ، وفي وصفه له بأنه أتمهن ، إشعار بأنها من الأعمال التي لا ينهض بها إلا ذو عزم قوي يتلقى أوامر ربه بحسن الطاعة وسرعة الامتثال . وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه فيستحق شهادته، كما قال تعالى: { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } [النجم : 37] . أي : وفى جميع ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل:120 -123]. وقال تعالى: { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : 161] ، وقال تعالى: { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران : 67 ، 68].

وهو مقام عظيم ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم . مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عز وجل ، عندئذ استحق إبراهيم تلك البشرى . أو تلك الثقة :{ قال : إني جاعلك للناس إماماً } . أي: . إماماً يتخذونه قدوة ، ويقودهم إلى الله ، ويقدمهم إلى الخير ، ويكونون له تبعاً ، وتكون له فيهم قيادة . عندئذ تدرك إبراهيم الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد .

وهذه الرغبة شعور فطري مركوز في أصل الفطرة لتحقيق تلك الغاية البعيدة المدى . فقال : { ومن ذريتي } ، فيكون قد سأل أن يكون في ذريته الإمامةُ بأنواعها من رسالةٍ ومُلك وقدوة على حسب التهيُّؤ فيهم ، وجاءه الرد من ربه الذي ابتلاه واصطفاه ، يخبره بالمانع من نيل هذا المقام فقال: { لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } والمراد بالظالمين ابتداء المشركون أي الذين ظلموا أنفسهم إذ أشركوا بالله قال تعالى : { إن الشرك لظلم عظيم } [لقمان : 13] والظلم يشمل أيضاً عمل المعاصي الكبائر كما وقع في قوله تعالى : { ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين } [الصافات : 113] .

وقد وصف القرآن اليهود بوصف الظالمين في قوله : { ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون } [المائدة : 45] فالمراد بالظلم المعاصي الكبيرة وأعلاها الشرك بالله تعالى . فهؤلاء محرومون من هذه الإمامة ، وإناطة الحكم بوصف الظالمين إيماء إلى علة نفي أن ينالهم عهد الله ، لمنافاة الظلم لهذا المقام، فإنه مقام آلته الصبر واليقين، ونتيجته أن يكون صاحبه على جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟ وهو بذلك يقرر قاعدة كبرى وهو أن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور ، وبالصلاح والإيمان ، وليست وراثة أصلاب وأنساب . فالقربى ليست وشيجة لحم ودم ، إنما هي وشيجة دين وعقيدة . ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلا دعوى الجاهلية ، التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصور الإيماني الصحيح .

فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة ، وهذا الذي قيل لإبراهيم ، وهذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع في تنحية اليهود عن القيادة والإمامة ، بما ظلموا ، وبما فسقوا ، وبما عتوا عن أمر الله ، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم إبراهيم . وقاطع كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم . بما ظلموا ، وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله ، وبما نبذوا من

شريعته وراء ظهورهم . ودعواهم الإسلام ، وهم ينحون شريعة الله ومنهجه عن الحياة ، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله .

إن التصور الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل . ولا يعترف بقربى ولا رحم إذا أنبتّت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل .

فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب! فالدين دين الله . وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صهر ، وإن الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين . إنما هي مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم . ليقرر بذلك وحدة دين الله ، واطراده على أيدي رسله جميعاً ، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس . وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء . وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة ، وهذا هو التصور الإيماني ، الذي ينبثق من خلال هذا البيان الرباني ، في كتاب الله الكريم [421].

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [يوسف : 6].

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ، فإنه يجتبيك ويختارك لأمور عظام في مستقبل الأيام ، حيث يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة ، وقد علم يعقوب عليه السّلام ذلك بتعبير الرؤيا ودلالتها على العِناية الربّانيّة ، وما فيها من شرف وعز وكبر شأن له في المستقبل ، فتلك إذا ضُمّت إلى ما هو عليه من الفضائل آلت إلى اجتباء الله إياه ، وذلك يؤذن بنبوته . وإنّما علم يعقوب عليه السّلام أنّ رفعة يوسف عليه السّلام في مستقبله رفعة إلهية لأنّه عَلِمَ أن نعم الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[421]- راجع : تفسير ابن كثير 405/1، وتفسير الخازن 92/1، وتفسير ابن عاشور 464/1-465 ، وتفسير الظلال 85/1 ، وتفسير طنطاوي 203

تعالى متناسبة ، فلمّا كان ما ابتداُه به من النعم اجتباءً وكمالاً نفسيّاً تعيّن أن يكون ما يلحق بها ، من نوعها . ثم إنّ ذلك الارتقاء النفساني الذي هو من الواردات الإلهية غايته أن يبلغ بصاحبه إلى النبوة أو الحكمة فلذلك علم يعقوب عليه السّلام أنّ الله سيعلّم يوسف عليه السّلام من تأويل الأحاديث ، وقد أشعر يعقوب عليه السّلام ابنه بما توسّمه من عناية الله به ليزداد إقبالاً على الكمال بقوله : { ويتمّ نعمته عليك } .

وقوله : { وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ } فيه وجوه : الأول : المراد منه تعبير الرؤيا ، وهو تأويل أحاديث الناس فيما يرونه في منامهم . وسماه تأويلاً لأنه يؤل أمره إلى ما رآه في المنام ، كما في قوله في آخر القصة : { وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ } [يوسف : 100] . وقد كان يوسف عليه السلام غاية في علم التعبير . والثاني : تأويل الأحاديث بيان ما تئول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمين ، كما أن الواحد من علماء زماننا يشتغل بتفسير القرآن وتأويله ، أو تأويل الأحاديث النبوية . والثالث : تأويل الأحاديث : إرجاع الحوادث إلى عللها وأسباها بإدراك حقائقها على التمام . وهو المعنى بالحكمة ، وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته .

وقوله : { وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى ءالِ يَعْقُوبَ } أي : بإرسالك والإيحاء إليك ؛ ولهذا قال: { كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ } . فههنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكيد هذا بأمور نذكر منها :

الأول : أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة كاملة خالية عن جهات النقصان . وما ذاك في حق البشر إلا بالنبوة ، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة ، فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر ليس إلا النبوة ،

والثاني : قوله : { كَمَا أَتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إبراهيم وإسحاق } ومعلوم أن النعمة التامة التي ها حصل امتياز إبراهيم وإسحق عن سائر البشر ليس إلا النبوة ، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة ، لأن النعمة التامة في حق البشر ليست إلا النبوة ، وكل ما سواها فهي ناقصة بالنسبة إليها ، أو هو ضميمة الملك إلى النبوءة والرسالة ، فيكون المراد إتمام نعمة الاجتباء الأخروي بنعمة المجد الدنيوي . ليجمع بين النبوة والرسالة والملك والرياسة . وفي قوله : { كما أتمها على أبويك من قبل } تذكير له بنعم سابقة ، وليس مما دلت عليه الرؤيا . أي : يتم نعمته عليك إتماما كائنا كإتمام نعمته على أبويك من قبل ، وهما إبراهيم وإسحاق بأن وهبهما سبحانه النبوة والرسالة

. وعبر عنهما بأنهما أبوان ليوسف ، مع أن إبراهيم جد أبيه ، وإسحاق جده ، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام وللمبالغة في إدخال السرور على قلبه .

ثم إنه لما بشر يعقوب عليه السلام ابنه يوسف بهذه الدرجات الثلاثة ختم الكلام بقوله : { إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } ولما كان ذلك لا يقدر عليه إلا بالعلم المحيط بجميع الأسباب ليقام منها ما يصلح ، والحكمة التي بها يحكم ذلك السبب عن أن يقاومه سبب غيره ، وكان السياق بالعلم أولى لما ذكر من علم التأويل ، قال : { إن ربك عليم } أي بليغ العلم ، فإن ربك عليم بمن يصطفيه لحمل رسالته ، وبمن هو أهل لنعمه وكرامته ، كما في قوله : { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام : 124] . وقوله : { حَكِيمٌ } أي بليغ الحكمة في صنعه وتصرفاته ، وهي وضع الأشياء في أتقن مواضعها . إشارة إلى أن الله تعالى مقدس عن السفه والعبث ، لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية .

وجملة { إنّ ربّك عليم حكيم } تذييل بتمجيد هذه النعم ، وأنها كائنة على وفق علمه وحكمته ، فعلمه محيط بالأشياء وبالنفوس الصالحة لهذه الفضائل ، لأنّه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق ، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة . وتصدير الجملة بـ { إنّ } للاهتمام لا للتّأكيد إذْ لاَ يشك يوسف عليه السّلام في علم الله وحكمته . والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل . والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف عليه السّلام وتأهّله لمثل تلك الفضائل .

وعليه فإنه ينبغي رد كل أمر من أوامر الله تعالى إلى مقتضى علمه وحكمته ، لأنها صادرة ممن له العلم المطلق والحكمة البالغة ، والاعتراض على أمر الله ، هو في حقيقته طعن بعلمه وحكمته سبحانه وتعالى ، وهذا يتنافى مع بديهيات الإيمان بالله وخروج من الدين وكفر صريح ، وضلال مبين [422]. قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب : 36] . وقال تعالى : { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [الشورى:21] .

---

[422]- راجع :تفسير ابن كثير 371/4 ، وتفسير الرازي 497/8 ، وتفسير البقاعي 226/4، وتفسير ابن عاشور 7/ 232، وتفسير طنطاوي 2278 ، وتفسير السعدي 393 ، وتفسير الظلال 292/4

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانياً : وأما ردها إلى مقتضى رحمته وفضله :

ويظهر هذا المعنى في قوله تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [البقرة : 185] . وقوله : { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ } [الأنعام : 87-89] . وقوله : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (23) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة : 23-24] .

ومن الآيات الواردة في قصة إبراهيم عليه السلام في تقرير هذه الحقيقة وتوكيدها ، نذكر بعض الشواهد على ذلك :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الحج : 78] .

يجمع سبحانه في أخر سورة الحج المنهاج الذي رسمه الله لهذه الأمة ، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها ، ويقرر مكانها الذي قدره لها ، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل ، متى استقامت على النهج الذي أراده لها الله . فإذا استعدت الأمة المسلمة بهذه العدة من الصلة بالله واستقامة الحياة ، فاستقام ضميرها واستقامت حياتها . نهضت بالتبعة الشاقة من الجهاد في سبيله ومن أجل إعلاء كلمته ، ونصر شريعته . كما في قوله : { وجاهدوا في الله حَقَّ جهاده } . وهو تعبير شامل جامع دقيق ، يصور تكليفاً ضخماً ، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد والجهاد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء ، وجهاد النفس ، وجهاد الشر والفساد . كلها سواء . ولما أمر سبحانه بهذه الأوامر ، أتبعها بما يجب شكره ، وهو كالتعليل لما قبله ، فقال : { هو اجتباكم } والاجتباء : الاصطفاء والاختيار ، ويحمل هذا الاجتباء على معنى التفضيل على الأمم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السابقة ، كما في قوله تعالى : { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } [آل عمران : 110] . أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع . فقد انتدبكم لتلقي دينه ونشره ونصره على معانديه . واختاركم لهذه الأمانة الضخمة من بين عباده .

وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة ، ولا يجعل هنالك مجالاً للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء! ، فهذا التكليف تشريف من الله تعالى لعباده ، فلما خصهم سبحانه بهذا التشريف فقد خصهم بأعظم التشريفات واختارهم لخدمته والاشتغال بطاعته ، ففيها تنبيه على المقتضى للجهاد . فجدير بمن اختاره الله واصطفاه أن يكون مطيعا له مجاهداً لنفسه بترك ما لا يرضاه ، ومجاهداً لأعدائه من أجل إعلاء كلمته تعالى .

وأعقب ذلك بتفضيل هذا الدّين المستتبع تفضيل أهله بأن جعله ديناً لا حرج فيه ، بقوله : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو أن التكليف وإن كان تشريفاً واجباً كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس؟ فأجاب الله تعالى عنه بقوله : { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ } وهو تكليف محفوف برحمة الله . ومن مظاهر رحمته أنه سبحانه لم يشرع في هذا الدين ما فيه مشقة بكم ، أو ضيق عليكم : وإنما جعل أمر هذا الدين ، مبنى على اليسر والتخفيف ورفع الحرج .

ومن قواعده التي تدل على ذلك : أن المشقة تجلب التيسير ، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب . لأنّ ذلك يسهل العمل به مع حصول مقصد الشريعة من العمل فيسعد أهله بسهولة امتثاله ، ومن الآيات التي تدل على أن هذا الدين مبنى على التيسير ورفع الحرج قوله تعالى : { يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسر } [البقرة : 185] . وقوله : { لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا } [البقرة : 286] . فإن الله لم يكلف عباده ما لا يطيقون ، وما ألزمهم بشيء فَشَقَ عليهم إلا جعل الله لهم فرجا ومخرجا من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال، عليه الصلاة والسلام : "بُعِثْتُ بالحنِيفِيَّة السَّمحة"[423] وقال أيضاً لمعاذ وأبي موسى، حين

[423]- رواه أحمد في مسنده (266/5)

بعثهما أميرَين إلى اليمن: "بَشِّرا ولا تنفرا، ويَسِّرا ولا تُعسِّرَا " [424]. وفي الحديث : " ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما " [425].

إن هذا الدين بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته . ملحوظ في تلبيته تلك الفطرة . وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء . فلا تبقى حبيسة كالبخار المكتوم . ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم . فهو دين مبني كله على التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج ، والخبير يلاحظ أن هناك فرقا كبيرا ، بين المشقة في الأحكام الشرعية ، وبين الحرج والعسر فيها ، فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعي ، إذ التكليف هو التزام ما فيه كلفة ومشقة ، أما المشقة الزائدة عن الحد التي تصل إلى حد الحرج ، فهي المرفوعة عن المكلفين . فقد فرض الله الصلاة على المكلف ، وأوجب عليه أداءها ، وهذا شيء لا حرج فيه . ثم هو إذا لم يستطيع الصلاة من قيام ، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء .

وهكذا جميع التكاليف الشرعية . والذين يجدون فيه ضيقا وحرجا ، هم الخارجون على تعاليمه . ورفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع ، وأما السراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين . وقوله: { مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم } والمِلّة : الدين والشريعة . أي : وسع عليكم في دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم .

واعلم أن المقصود من ذكر إبراهيم التنبيه على أن هذه التكاليف والشرائع هي شريعة إبراهيم عليه السلام . والعرب كانوا محبين لإبراهيم لأنهم من أولاده ، فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين ، وتحْضيض على الأخذ به وإتباعه ، كقوله تعالى : { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل :123] . وقد سمى الله هذه الأمة بالمسلمين من قبل وسماها كذلك القرآن ، في قوله : { هو سماكم المسلمين } .

فالإسلام هو دين محمد صلى الله عليه وسلم ومنهج حياته . والمسلمون متبعوه ومقلدوه في دينه ومنهج حياته . والإسلام بمعنى الاستسلام والطاعة والاتباع ، فلا دين يقبله الله إلا الإسلام . ولا إسلام بغير استسلام لله وطاعة لرسوله ، واتباع لمنهجه ، وتحكيم لكتابه في أمور الحياة . فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات . حتى انتهى بها المطاف إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وحتى سلمت إليها الأمانة ، وعهد إليها بالوصاية على البشرية .

---

[424]- رواه البخاري في صحيحه برقم (3038) ومسلم في صحيحه برقم (1732)

[425]- صحيح البخاري (3367) وصحيح مسلم (2327)

فاتصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها كما أرادها الله : { ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهدآء على الناس } فالرسول صلى الله عليه وسلم يشهد على هذه الأمة ، ويحدد نهجها واتجاهها ، ويقرر صوابها وخطأها . وهي تشهد على الناس بمثل هذا ، فهي القوّامة على البشرية بعد نبيها؛ وهي الوصية على الناس بموازين شريعتها ، وتربيتها وفكرتها عن الكون والحياة . ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج ، المختار من الله .

وأما أسباب هذا الاجتباء والاختيار وعلته فهو : { لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس } . وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة : 143] .

والمعنى : فعلنا ما فعلنا من اجتبائكم ، والتيسير عليكم ، وتسميتكم بالمسلمين ، ليكون الرسول صلى الله عليه وسلم شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أمر بتبليغه إليكم ، ولتكونوا أنتم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم رسالة ربهم ، فلما خصهم الله تعالى بهذه الكرامة كان موجب ذلك أن يعبدوا الله وحده ولا يردوا تكاليفه . لذلك قال : { فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} أي : قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، وأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك { فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ } التي هي زكاة قلوبكم ، وصلة ما بينكم وبين ربكم { وآتوا الزكاة } التي هي طهرة أبدانكم ، وصلة ما بينكم وبين إخوانكم { واعتصموا بالله } أي : التجئوا إليه ، واستعينوا به وتوكلوا عليه في كل أموركم ، ثم علل أهليته لاعتصامهم به بقوله : { هو مولاكم } أي المتولي لجميع أموركم ، فهو ينصركم على كل من يعاديكم ، بحيث تتمكنون من إظهار هذا الدين ؛ ثم علل الأمر بالاعتصام وتوحده بالولاية بقوله : { فنعم المولى ونعم النصير } لأنه إذا تولى أحداً كفاه كل ما أهمه ، وإذا نصر أحداً أعلاه على كل من خاصمه ، وفي الحديث ، " إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت "[426]. وهذا نتيجة التقوى ، وما قبله من أفعال الطاعة دليلها [427].

426- رواه أبي داود في سننه برقم (1425) قال الشيخ الألباني : صحيح

427- راجع : تفسير ابن كثير 455/5-456 ، وتفسير الألوسي 151/13-152 ، وتفسير القرطبي 101/12 ، وتفسير ابن عاشور 326/9-327 ، الرازي 158/11-160، وتفسير البقاعي 388/5-390 ، وتفسير الظلال 351/1 ، 219/5 ، وتفسير طنطاوي 2996 ، وتفسير السعدي 546

الشاهد الثاني :

قال تعالى : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } [الأنبياء : 72–73] .

ذكر سبحانه بعض مظاهر رحمته وفضله ونعمه التي أفاضها على إبراهيم عليه السلام وكيف قابلها بالوفاء بعهد العبودية لله تعالى وحده . ومن هذه النعم :

أحدها : قوله تعالى : { وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً } أنعم الله على إبراهيم، فوهب له ابنه إسحاق حين دعاه، ووهب له من إسحاق يعقوب زيادة على ذلك، وكلٌّ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعله الله صالحًا مطيعًا له .

النعمة الثانية : قوله تعالى : { وَكُلاًّ جَعَلْنَا صالحين } أي : جعلناهم أفراداً صالحين قائمين بحقوق الله ، وحقوق عباده ، وشرفناهم بالنبوة والرسالة .

النعمة الثالثة : قوله تعالى : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا } ولما ذكر أنه أعطاهم رتبة الصلاح في أنفسهم ، ذكر أنه أعطاهم رتبة الإصلاح لغيرهم ، فقال معظماً لإمامتهم : { وجعلناهم أئمة } أي أعلاماً ومقاصد يقتدى بهم في الدين بما أعطاهم من النبوة . أي يدعون إلينا من وفقناه للهداية { بأمرنا } أي كانوا هادين بأمر الله ، وهو الروح الذي هو العمل المؤسس على العلم بإخبار الوحي الإلهي ، فهم لا يأمرون بأهواء أنفسهم ، بل بأمر الله ودينه، وإتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماما حتى يدعو إلى أمر الله . لأن الدعوة إلى الحق والمنع عن الباطل لا يجوز إلا بأمر الله تعالى لأن الأمر لو لم يكن معتبراً لما كان في قوله بأمرنا فائدة . وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماما يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون ، قال تعالى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } [السجدة : 24] . وقال تعالى : { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [يوسف : 6]

النعمة الرابعة : قوله تعالى : { وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات } وفي قوله : { وأوحينا } يدل على أنه سبحانه خصهم بشرف النبوة ، أي : أوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات وهي شرائع الدين . ولعله عبر بالفعل دلالة على أنهم امتثلوا كل ما أوحي إليهم . ومما أوحينا إليهم كذلك قوله : {

وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكاة } وخصهما بالذكر لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ، ولأن من كملهما كما أمر كان قائما بدينه ، ومن ضيعهما كان لما سواهما أضيع ، ولأن الصلاة أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى، والزكاة أشرف العبادات المالية التي فيها الإحسان لخلقه .

واعلم أنه سبحانه وصفهم أولاً بالصلاح لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالإمامة . ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحي . وإذا كان الصلاح هو أول المراتب والنبوة أعلاها ، فإن المحروم عن أول المراتب أولى بأن يكون محروماً عن النهاية .

ثم إنه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال : { وَكَانُواْ لَنَا عابدين } كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية في الإحسان والإنعام فهم أيضاً وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة. أي : امتثلوا أمرنا فيما أمرناهم به وكانوا لنا مطعين خاشعين مديمين على العبادة في أكثر أوقاتهم ، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم ، فخصّهم بذكر ما كانوا متميزين به على بقية الناس من ملازمة العبادة لله تعالى وحده ، وهو ثناء عليهم بأجمل الصفات وأحسن الأحوال [428].

* الشاهد الثالث :

قال تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا } [النساء : 54-55] .

ينكر تعالى على اليهود حسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على النبوة والدولة ، وهذا الحسد من قبائح اليهود وأخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث ، وهو الذي حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله . وكذلك حَمَلهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريق الكافرين بالله من عبدة الأصنام على طريق المؤمنين ، بقولهم للذين كفروا تملقا لهم ومداهنة ، وبغضا للإيمان : { هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا } [النساء : 51]. والمراد من السياق ذم اليهود بالحسد كما سبق ذمهم بالبخل

---

[428]- راجع : وتفسير البقاعي 315/5 ، وتفسير ابن عاشور 184/9، وتفسير الظلال 164/5، وتفسير طنطاوي 2915، وتفسير السعدي 526

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

والجهل . فقد انتقل سبحانه من توبيخهم على ...م لأنفسهم بالباطل وعلى تفضيلهم عبادة الأوثان على عبادة الرحمن . إلى توبيخهم على البخل والأثرة ثم انتقل إلى تقريعهم على رذيلة الحسد التي استولت عليهم فأضلتهم وجعلتهم يتألمون لما يصيب النا... من خير ويتمنون زواله فقال تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَآ آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ } . فقد حسدوا ال... صلى الله عليه وسلم لأن الله منحه النبوة وهو رجل من العرب ليس منهم ، وحسدوا أتباعه لأنهم آمنوا ...ه وصدقوه والتفوا من حوله يؤازرونه ويفتدونه بأرواحهم وأموالهم .

ومعلوم أن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة ، فكلما كانت فضيلة الانسان أتم وأكمل كـ... حسد الحاسدين عليه أعظم ، ومعلوم أن النبوة أعظم المناصب في الدين ، ثم انه تعالى أعطاها لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وضم اليها انه جعله كل يوم أقوى دولة وأعظم شوكة وأكثر أنصاراً وأعواناً ، فهذا الدين أنشأهم نشأة أخرى ووهب لهم ميلاداً جديداً ، وجعل لهم وجوداً إنسانيا متميزاً؛ ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين ؛ كما وهبهم النظافة والطهر ، مع العز والتمكين . وكل ذلك مما يوجب الحسد العظيم من قبل اليهود . وذلك بسبب تفويت أطماعهم في السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين . يوم أن لم يكن لهم دين .

ولما بين تعالى أن كثرة نعمه على نبيه وأتباعه صارت سببا لحسد هؤلاء اليهود بين ما يدفع ذلك فقال : { فَقَدْ ءاتَيْنَا ءالَ إبراهيم الكتاب والحكمة وءاتيناهم مُّلْكاً عَظِيماً } وهذا توبيخ لهم على حسدهم ، وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم . والمعنى : إنكم بحسدكم للنبي صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله ، تكونون قد ظللتم وسرتم في طريق الشيطان ، لأنكم لو كنتم عقلاء لما فعلتم ذلك ، إذ أنتم تعلمون علم اليقين أنه حصل في أولاد ابراهيم جماعة كثيرون جمعوا بين النبوة والملك ، وأنتم لا تتعجبون من ذلك ولا تحسدونه ، فلم تتعجبون من حال محمد ولم تحسدونه على ما أتاه الله من فضله مع أنه من نسل إبراهيم عليه السلام ؟ . فالجملة الكريمة توبيخ لهم على أنانيتهم وحسدهم ، وإلزام لهم بما يعرفونه من واقع كتبهم ، وكشف للناس عن أن أحقادهم مرجعها إلى انطماس بصيرتهم ، وخبث نفوسهم . مع أنهم غارقون في فضل الله من عهد إبراهيم . الذي آتاه الله وآله النبوة وآتاهم الملك كذلك والسيادة . وهم لم يرعوا الفضل ولم يحتفظوا بالنعمة ، ولم يصونوا العهد القديم ، ومن يؤت هذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون!

فبين سبحانه عاقبة كل من المحسن والمسيء ، فقال : { فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وكفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً } . أي : فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن وصدق بما أعطاه الله

لآل إبراهيم من كتاب وحكمه ، ومنهم من كفر به وأعرض عنه و لم يتبع تعاليمه ، وسعى في صد الناس عنه . وفى هذه الآية الكريمة تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما لقيه من اليهود من أذى . والمعنى أن أولئك الأنبياء مع ما خصصتهم به من النبوة والملك جرت عادة أممهم فيهم أن بعضهم آمن به وبعضهم بقوا على الكفر ، فأنت يا محمد لا تتعجب مما عليه هؤلاء القوم ، فان أحوال جميع الأمم مع جميع الأنبياء هكذا كانت ، قال تعالى : { سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا } [الإسراء : 77] ، ليكون قد حصل الاحتجاج عليهم في الأمرين في إبطال مستند تكذيبهم؛ بإثباتِ أنّ إتيان النبوءة ليس ببدع ، وأن محمّدا من آل إبراهيم ، فليس إرساله بأعجب من إرسال موسى .

وفي تذكيرهم بأنّ هذه سنّة الأنبياء حتى لا يَعُدّوا تكذيبهم محمّدا صلى الله عليه وسلم ثلمة في نبوته ، إذ لا يعرف رسولا أجْمَعَ أهل دعوته على تصديقه من إبراهيم فَمن بعده . وذلك تسلية من الله ليكون أشد صبرا على ما ينال من قبلهم . ومن ثم يكون التهديد والوعيد بالسعير ، للّذين كفروا وصدوا عن سبيل الله حسداً ومكراً : { وكفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً } أي كفى بجهنم تسعر على من كفر بالله ، وجحد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم من أصناف الكفرة [429].

ثالثاً : وأما ردها إلى مقتضى عدله تعالى .

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ } [الحديد : 25] .

ومن الآيات في قصة إبراهيم عليه السلام التي جاءت لتقرير هذه الحقيقة ، نذكر من ذلك :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ

[429]- راجع : تفسير الرازي 238/5، وتفسير طنطاوي 971، وتفسير الظلال 155/2، وتفسير ابن عاشور 445/3 ، وتفسير السعدي 182، أيسر التفاسير 1/ 272

وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [الأنعام : 163- 164] .

يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يعلن أصول دينه وتكرّر الأمر بالقول ثلاث مرّات تنويهاً بالمقول . والمتدبر في هذه المقولات الثلاث يلاحظ طبيعة المنهج القرآني في الاستدلال لإثبات عقيدة التوحيد وتوكيدها في الضمير البشري ، حيث يستدل بهداية الله إلى طريق الحق والعدل . بقوله : { قُلْ : إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا . . } على ما يقتضيها من لوازمها التعبدية وهو وجوب إخلاص العبادة لله تعالى. بقوله : { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي . . لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ووجوب إخلاص التوكل عليه وحده تعالى . بقوله : { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا . . } وكثيرًا ما يقرن القرآن بين إخلاص العبادة لله والتوكل عليه ، كقوله تعالى : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } [الفاتحة : 5] . وقوله : { فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ } [هود : 123] . وقوله : { قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا } [الملك : 29] . وقوله : { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا } [المزمل : 9] . إلى غير ذلك من الآيات .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً : كاليهود والنصارى والمشركين ، قل لهم جميعاً : لقد هداني خالقي ومربّيّ إلى دين الإسلام الذي ارتضاه لعباده ، الذي هو الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الحنفاء وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، الذي كان مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق والعدل ، والذي ما كان أبدا من المشركين .

ومعنى كون الإسلام ملّةَ إبراهيم : أنّه جاء بالأصول التي هي شريعة إبراهيم وهي : التّوحيد ، ومسايرة الفطرة ، والشّكر ، والسّماحة ، وإعلان الحقّ والعدل ، ثم قل لهم : إن صلاتي التي أتوجه بها إلى ربي وعبادتي وتقربي إليه وما أعمله في حياتي من أعمال وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح .كل ذلك فأنا متجرد به تجرداً كاملا لخالقي ورازقي بكل خالجة في القلب ، وبكل حركة في هذه الحياة . فهو سبحانه رب كل شيء . ولا شريك له في ملكه ، بذلك القول الطيب ، وبذلك العمل الخالص أمرت وأنا أول المسلمين الممتثلين لأوامر الله والمنتهين عن نواهيه من هذه الأمة . وحاصل ما تضمّنه المعنى هو الإخلاص لله في العبادة على نعمة الهداية إلى الصّراط المستقيم ، فإنّه هداه ثمّ ألهمه الشّكر على الهداية بأن يجعل جميع طاعته وعبادته لله تعالى ، ثم خصص من ذلك

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أشرف العبادات فقال: { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي } أي: صلاتي وذبحي لله دون غيره ، وهذا كقوله تعالى : " فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ " [الكوثر : 2] أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، وذلك تعريضاً بالمشركين إذ كانوا يسجدون للأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص في عبادته لله تعالى وحده . فخصهما بالذكر لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله . وبقوله : { ومحياي ومماتي لله رب العالمين } تحقّق معنى الإسلام الذي اقتضاه قوله : { فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ } [آل عمران : 20] . وهو معنى الحنيفية الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السّلام في قوله : { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة : 131] .

فهذا هو التجرد الكامل لله ، بكل حركة في الحياة . بالشعائر التعبدية ، وبالحياة الواقعية ، وبالممات وما وراءه . عبادة خالصة : { لله رب العالمين } . واللاّم في { لله } للتعليل أي لأجل الله . وقوله : { رب العالمين } صفة تشير إلى سبب استحقاقه أن يكون عمل مخلوقاته له لا لغيره ، لأنّ غيره ليس له عليهم نعمة الإيجاد ، ولذلك أردف بجملة { لا شريك له } وهي حال من اسم الجلالة مصرّحة بما أفاده جمع التّوكيد مع لام الملك من إفادة القصر . والمقصود من الصّفة والحال الردّ على المشركين بأنّهم ما أخلصوا عملهم للذي خلقهم ، وبأنّهم أشركوا معه غيره في الإلهيّة .

وقوله : { وبذلك أمرت } أي : ليس هذا الإخلاص لله ابتداعا مني، وبدعا أتيته من تلقاء نفسي، بل ذلك كان بهدي من الله وأمرٍ منه ، وهذا كقوله تعالى : { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ } [الزمر : 11 ، 12] . فقوله : { أمرت } يعني أن هذا الدين لو لم يرد به أمر كان ينبغي للعاقل أن يدين به ولا يعدل عنه لشدة ظهوره بما قام عليه من الدلائل ودرج على اتباعه من الأفاضل ، فكيف إذا برزت به الأوامر الإلهية ودعت إليه الدواعي الربانية ، وقوله: { وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } أي المنقادين لما يدعو إليه داعي الله في هذا الدين ، وهذه الأولية على سبيل الإطلاق في الزمان والرتبة بالنسبة إلى أمته صلى الله عليه وسلم وفي الرتبة بالنسبة إلى من تقدمه من الأنبياء وغيرهم ، وهذا أيضاً من باب الإحسان في الدعاء بالتقدم إلى ما يدعو إليه وأن يحب للمدعو ما يحب لنفسه ليكون أنفى للتهمة وأدل على النصيحة فيكون أدعى للقبول . ثم قال لهم للمرة الثالثة على سبيل التعجب من حالهم ، والاستنكار لواقعهم : { أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا } فهو استئناف ثالث ، مفتتح بالأمر بالقول ، يتنزّل منزلة النّتيجة لما قبله ،

لأنّه لمّا عُلم أنّ الله هداه إلى صراط مستقيم ، وأنقذه من الشّرك ، وأمره بأن يمحّض عبادته وطاعته لربّه تعالى ، شكراً على الهداية ، أتبع ذلك بأن يُنكر أنْ يَعْبُد غير الله تعالى لأنّ واهب النّعم هـو مستحقّ الشّكر ، والعبادةُ جماع مراتب الشّكر ، وفي هذا رجوع إلى بيان ضلالهم إذ عَبدوا غيره. والاستفهام إنكار عليهم لأنّهم يرغبون أن يعترف بربوبية أصنامهم ، وقد حاولوا منه ذلك غير مرّة ، فهم دائمون على الرّغبة في موافقتهم على دينهم ، فقال لهم مستنكراً : { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ } هذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التي قبلها إخلاص العبادة له ، أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في العبادة والتوكل : أغير الله تعالى تريدونني أن أطلب رباً سواه فأشركه في عبادته ، والحال والشأن أنه سبحانه هو :{ رب كل شـيء } أي: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه يَرُبّني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري ، فهو رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر . فالجملة حال في موضع العلة لإنكار ما هم عليه من ضلال ، أي أنّ الله خالق كلّ شيء ومليكه وذلك باعترافهم ، لأنّهم لا يدّعون أنّ الأصنام خالقة لشيء ، كما قـال تعالى : { لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ } [الحج : 73] فلمّا كان الله خالق كلّ شيء وربّـه فلا حقّ لغيره في أن يعبده الخلائق ، وعبادة غيره ظلم عظيم ، وكفر بنعمة الربوبيّة ، فـإنّ مجـرد الخلق موجب للعبادة لأجل العبوديّة .

ثم إنه تعالى لما بين حقيقة التوحيد بالدليل القاطع وأنكر على من يجنح إلى غيره مع عموم بـره وخيره ، أتبعه الترويع من قويم عدله في عظيم ضره ، فقال : { وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ولا تزر وازرة وزر أخرى } وهذا إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدلـه، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كمـا قال : { أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (36) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى } [النجم : 36-41] . وقال تعالى : { وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } [فاطر : 18] ، وقال تعالى: { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ } [المدثر : 38] . ثم بـين سبحانه نهايتهم فقال : { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ } أي : رجوعكم بعد الموت يـوم القيامـة { فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } بتمييز الحق من الباطل ، ومجازاة كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر على حسب علمه .

فهذه الآيات استهدفت قضية العقيدة والإيمان ، وقضية الحاكمية والشريعة ؛ لتجعلها كلها لله وحده دون سواه . فهو الذي أنزل شرائعه بالحق والعدل ، لأنه يعلم بم يتحقق العدل المطلق وكيف يتحقق . وهو وحده من يملك أن يحقق بينهم العدل ويرفع عنهم الظلم ، لأنه خالق الإنسان ومدبر أمره والعالم بما يصلحه وينفعه ، ولأن واضع الأحكام والقوانين مبرأ من الهوى والجهل والقصور ، وهذا يستلزم أن يكون هو وحده المستحق للعبادة والتوكل ، وأن يكون دينه هو الدين المتبع على سائر الأديان ، وأن تكون شريعته هي التي تحكم نظام البشر وواقع حياتهم دون سائر الشرائع . لأن التوجه إلى غير الله في العبادة والتوكل ، والاحتكام إلى شريعة غير شريعته ، هو غاية الضلال والظلم ، وهو خروج عن مقتضى الحق والعدل .

فعلى العاقل أن لا يخرج عن مقتضى العقل ، وأن يهتدي بهدى الشرع ، ليفوز بنعيم الدنيا والآخرة [430]، وقد جاءت الآيات لتقرير هذه الحقيقة في كثير من المواضع نذكر منها : قال تعالى : { فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ } [البقرة : 213] . قال تعالى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } [المائدة : 48] . وقال تعالى : { فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (158) وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } [الأعراف : 159] . قال تعالى : { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } [ص : 26]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } [مريم : 43] .

---

[430]- راجع : تفسير ابن كثير 3/381-383 ، وتفسير الرازي 7/30 ، وتفسير البقاعي 3/172-173، وتفسير الألوسي 6/94 ، وتفسير ابن عاشور 5/211-217، وتفسير الظلال 3/182-183، وتفسير طنطاوي 1579-1580، وتفسير السعدي 282

ينصح إبراهيم أباه إلى إتباع الحق مبيناً بأنه العلم الذي جاءه من طريق الوحي الإلهي ، فينبغي عليه أن يتبع طريق الإيمان الذي هداه الله إليه ، وينقاد لمنطق الحق والعدل لأن طريق الهدى الذي يدعوه إليه إنما يقوم على العدل والاستقامة ، كما في قوله : { فاتبعني أهدك صراطاً سوياً } والسوي : العَدْلُ ، والمقصود : أهدك طريقاً مستقيما معتدلا موصلا إلى المطلوب ، وهو ما أُوحى الله به لعباده ، وبذلك أقام إبراهيم على أبيه الحجة وألزمه بمقتضاها ، فإن عدالة الشرع لا يكون إلا بصدوره من الوحي الإلهي المعصوم وهو موجب لإتباعه والانقياد لحكمه ، وقد أمر سبحانه بموجب هذا الدين القائم على الحق والعدل والاستقامة الذي هدى إليه إبراهيم عليه السلام أن يتبعوه وينقادوا لمنهجه القويم[431] ، كما في قوله تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل :120-123] .

وعليه فإن منهج الله قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني ، ومن ثم لا يفرط في شيء من أموره وإنما يقع التوازن والاعتدال . لأن الله يعلم حق العلم بما يتحقق العدل المطلق ولأنه سبحانه رب الجميع؛ فهو الذي يملك أن يعدل بين الجميع؛ وأن يجيء منهجه وشرعه مبرأ من الهوى والميل والضعف ، كما أنه مبرأ من الجهل والقصور والغلو والتفريط . وقد أقام سبحانه شرائع دينه على العدل الدقيق . قال تعالى : { الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان } [الشورى : 17] .

إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف . لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً . وكل خلقه أمامه سواء . فلا يظلم أحداً منهم لمصلحة أحد . وكل حكم غير حكمه هو مظنة الحيف . فالبشر لا يملكون أنفسهم وهم يشرعون ويحكمون أن يميلوا إلى مصالحهم . أفراداً كانوا أم طبقة أم دولة .

وحين يشرع فرد ويحكم فلا بد أن يلحظ في التشريع حماية نفسه وحماية مصالحه . وكذلك حين تشرع طبقة لطبقة ، وحين تشرع دولة لدولة . فأما حين يشرع الله فلا حماية ولا مصلحة . إنما هي العدالة المطلقة ، التي لا يطيقها تشريع غير تشريع الله ، ولا يحققها حكم غير حكمه . ومعلوم أن شريعة الله تواجه دائماً معارضة من أصحاب المصالح المادية لأن شريعة الله العادلة لن

---

[431]- راجع : تفسير ابن عاشور 482/8، وتفسير الألوسي 71/1 ، 498/11 ، وتفسير المنتخب 11/2، وتفسير الظلال 98/5 ، وتفسير السعدي 441، 494 ، وتفسير اطفيش 489/5 ، وتفسر البقاعي 205/5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تبقي على مصالحهم الظالمة ، والانحراف عن منهج الله القويم والعدول عن شريعته العادلة إلى أهواء البشر وأطماعهم ، يعني الفساد في الأرض ، وانتفاء العدالة في حياة البشر . من أجل ذلك كان الذين لا يرتضون حكم الله ورسوله هم الظالمون ، الذين لا يريدون للعدالة أن تستقر؛ ولا يحبون للحق أن يسود . وهذا الفريق من الناس لا يريد الحق ولا يطيق العدل . ومن ثم كانوا يعرضون عن التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأبون أن يجيئوا إليه . إلا أن تكون لهم مصلحة في أن يتحاكموا إلى شريعة الله أو يحكموا قانونه . قال تعالى : { وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } [النور: 48-52] .

إن الرضى بحكم الله ورسوله هو دليل الإيمان الحق . وهو المظهر الذي ينبئ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب . وهو الأدب الواجب مع الله ومع رسوله . وما يرفض حكم الله وحكم رسوله إلا سيئ الأدب مريض القلب ، وهذا المرض جدير بأن ينشئ مثل هذا الأثر في القلب ، الذي تختل به فطرته عن استقامتها ، فلا تتذوق حقيقة الإيمان ، ولا تسير على نهجه القويم . فتجعله يشك في صلاحية حكم الله لإقامة العدل! ويخاف أن يحيف الله ورسوله عليه في الحكم والقضاء! وهذا قطعاً ليس طريق المؤمنين . فالله خالق الجميع ورب الجميع . فكيف يحيف في حكمه على أحد من خلقه لحساب أحد ؟ فأما موقف المؤمنون إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم؛ فهو السمع والطاعة بلا تردد ولا جدال ولا انحراف . السمع والطاعة المستمدان من الثقة المطلقة في أن حكم الله ورسوله هو الحكم العادل وما عداه الهوى ، وأولئك هم المفلحون لأن الله هو الذي يدبر أمورهم ، وينظم علاقاتهم ، ويحكم بينهم بعلمه وعدله ؛ ولأنهم مستقيمون على منهج الله الذي لا عوج فيه ولا التواء [432] .

وقد استدل سبحانه بعدالته في شرعه ودينه على لازمها من العبودية والتي تقتضي من العبد أموراً منها . الانقياد للحق والعدل الذي أنزله تعالى ووجوب إتباعه والاحتكام إليه . قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ

[432]- راجع : تفسير الظلال 289/5

اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } [الأحزاب: 36] . وقال تعالى : { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [النساء : 65] .

فهذا شرط الإيمان وحدّ الإسلام . يقرره الله سبحانه بنفسه . ويقسم عليه بذاته . أنه لا يؤمن مؤمن ، حتى يحكم رسول الله في أمره كله . ثم يمضي راضياً بحكمه ، مسلماً بقضائه . ليس في صدره حرج منه ، ولا في نفسه تلجلج في قبوله ، فالحق إنما يتمثل في صدوره من جهة الوحي الإلهي ، وهي الجهة الوحيدة التي تملك حق تنزيل الشرائع ، وفرض القوانين . ويتمثل الحق في كل محتوياته من شئون العقيده والشريعه . ولا يجوز العدول عنها إلى غيرها بحال ، لأن ذلك منافي للإيمان وخروج عن الدين ، وهو إتباع للهوى والجهل والباطل ، قال تعالى : { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [الجاثية : 18] .
قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا } [النساء :60] . إن المقتضى الفطري البديهي للإيمان ، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، فإذا زعم أنه آمن بالله والرسول وما أنزل إليه . ثم دعي ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه؛ كانت التلبية الكاملة هي البديهية الفطرية . فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البديهية الفطرية . ويكشف عن النفاق . وينبئ عن كذب الزعم الذي زعمه من الإيمان . إن دين الله منهج حياة . جاء لينظم للناس حياتهم وأوضاعهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم . وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان يحقق المنهج ، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ . والله أرسل رسله ليطاعوا في تحقيق منهج الله الذي أراده لتصريف هذه الحياة . فتكون طاعتهم طاعة لله . ولم يرسل الرسل لمجرد التأثر الوجداني ، والشعائر التعبدية . فهذا وهم في فهم الدين؛ لا يستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل . وهي إقامة منهج معين للحياة . ومن هنا كان تاريخ الإسلام دعوة وبلاغاً . ونظاماً وحكماً . تقوم بقوة الشريعة والنظام [433].

لقد قرر سبحانه أن جهة الحاكمية في الأمر كله ، هي لله وحده ، كونه هو المتفرد بالعدالة المطلقة في جميع أحكامه وشرائعه ، قال تعالى : { أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

---

[433]- راجع : تفسير الظلال 167

(114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام : 114-116] . وهذا استنكار من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبتغي حكما غير الله في شأن من الشؤون على الإطلاق . ونفي أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالبا حكمه في أمر الحياة كله . ثم يقدم تفصيل لهذا الإنكار ، وللملابسات التي تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً . وهو أن الله لم يترك شيئاً غامضاً؛ و لم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه في ما يعرض لهم من مشكلات الحياة . لقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ولتتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته . ثم لقد نزل هذا الكتاب مفصلا ، محتويا على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة . وبهذا وذلك كان في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة . وأهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق . ومن أجل علمهم بهذا كله يحاربون هذا الدين حرباً لا هدأ . وأشد هذه الحرب وأنكاها هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب؛ إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود .

وكذلك من الأمور التي ينبغي الحذر منها وعدم الوقوع فيها هو عدم الاحتجاج والاعتذار بقدر الله تعالى عند اقتراف الأثام ومخالفة أوامر الله ، فقد حاول فريق من الناس المشاغبة على تطبيق أحكام الدين ، بالخلط بين إرادة الله الكونية التي لا يتخلف عنها شيء وبين إرادة الله التشريعية التي قدر الله تعالى فيها للإنسان إختيار وإرادة بمحض مشيئته تعالى ، كما في قوله تعالى : { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } [الأنعام : 149] . وقال تعالى : { وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الزخرف : 20] . وقضية الجبر والاختيار كثر فيها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي . و لم ينته الجدل فيها في أية فلسفة أو أي لاهوت إلى نتيجة مريحة . لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لا يناسب طبيعتها ، فتعقد تعقيداً لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة الواقعية . ولو أخذ الأمر بمنهج القرآن المباشر الميسر الجاد ، ما اشتد هذا الجدل ، وما سار في ذلك الطريق الذي سار فيه . وهذه القضية تبدو في واقعها العملي يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته! وحينما نواجه قول

المشركين هذا بالرد القرآني عليه ، نجد القضية أكثر وضوحاً وبساطة : فهم يحيلون شركهم هم وآباؤهم ، وتحريمهم ما حرموه مما لم يحرمه الله ، وادعاءهم أن هذا من شرع الله بغير علم ولا دليل. يحيلون هذا كله على مشيئة الله بهم . فلو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا .

والقرآن الكريم واجه هذه المقولة : بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله . إن احتجاج أولئك الجبريون بقدر الله في إحالة ما اقترفوه من شرك وآثام ، ما هو إلا كذب وإفتراء لا يستند إلى علم أو دليل ، بل هو الظن والتخرص . فإن الله لو شاء أن يهدي الناس جميعاً أو يقهرهم على الهدى لهداهم ،، ولو شاء أن يمنعهم من الشرك لمنعهم ، ولكن اقتضت حكمة الله تعالى ومشيئته أن يبتلي عباده بالإرادة وحرية الاختيار بين الهدى والضلال ، فمن أراد الهدى يسره إليه ، ومن أراد الضلال يسره إليه ، قال تعالى : { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل : 5-10] . فإن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . وإنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ، ليكيفوا أنفسهم على حسبها . وهم حين يحاولون هذا يقرر الله سبحانه أنه يهديهم إليه ، ويشرح صدورهم للإسلام ، وأما من يتجه منهم إلى الضلال فإنه يمده في غيه وفي عمايته . وبناء على هذا الاختيار الذي اختاره الإنسان يترتب عليه الحساب والجزاء ، والثواب والعقاب ، قال تعالى : { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (29) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا } [الكهف : 29-30] .

وقد يشاغب البعض بأن الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله فكيف ننكره ونكرهه ؟ والجواب : نحن غير مأمورين بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدره ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة ، ومعلوم لكل عاقل أن الاختلاف سنة كونية وقدر واقع لا محالة بمشيئة الله الكونية ، قال الله تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود : 118-119] . والقدر الكوني إن كان شرًا فيجب أن يسعى الإنسان للخروج منه ، وعدم الوقوع فيه ، كالكفر فهو قدر كوني حكم الله بوجوده كونًا ، ومع ذلك واجب على كل إنسان أن يجتنبه وكذلك المعاصي ، فلا يستسلم له العبد بل يقاومه فإن لم يزله خفف من آثاره وخرج بأقل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أضراره. فإن الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي لا موافقة القدر والمشيئة ولو كان موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين لله ، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون كلهم مطيعين ! وهذا غاية الجهل ، فالله عز وجل وهب خلقه مشيئة واختيارًا خاضعة لمشيئة الله مع علمه باختيارهم وكتابته له وتقدير كونه منهم .

وقد عمل المنهج القرآني على تصحيح مسار التفكير والنظر بين إرادة الله الكونية والشرعية ، وربط بينهما ربطاً وثيقاً مؤثراً ، وبناءً فكرياً سليماً ، فبدل من الاحتجاج بهما على التفلت من التكاليف الشرعية ، وتعطيل العمل وقانون الأسباب ، وجههما توجيهاً فاعلاً ومحركاً للسلوك الإنساني ، نحو العمل الإيجابي النافع والمثمر ، وذلك حينما استدل بإرادة الله الكونية التي ينتظم فيها أمر الوجود كله بالخضوع والقهر لمشيئته تعالى على وجوب الانقياد والخضوع لإرادته الشرعية ، قال تعالى : { أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } [آل عمران :83] . وقال تعالى : { لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الحشر : 20-21] .

وهكذا فقد جاء هذا الدين ليحقق واقعاً عملياً؛ تحدده أوامر ونواه واضحة . فالإحالة على المشيئة الغيبية دخول في متاهة ، يرتادها العقل بغير دليل ، ومضيعة للجهد الذي ينبغي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي المشهود [434].

وبناء على ما تقدم بيانه لطبيعة المنهج القرآني في تقرير إرادة الله تعالى المطلقة يتضح لنا كيف استدل بذلك على ما ترتب عليها من مستلزمات تقضي تفرده تعالى بالألوهية والقيام له وحده بحق العبودية من التسليم بقضائه والرضى بقدره والتنفيذ لحكمه وطاعة أمره سبحانه وتعالى .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[434]- راجع : تفسير الظلال 367/2 ، 375 ، 166/3-167 ، الاختلاف في العمل الإسلامي الأسباب والآثار ، ناصر بن سليمان العمر 21، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، 137/2، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، زكريا الشلول ، 187-188

- الفصل السابع -

استدلال إبراهيم عليه السلام بكماله تعالى في أسمائه وصفاته على ألوهيته .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* تمهيد :

إن الله تعالى متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص، وهذا الكون بما فيـه مـن إتقان وإحكام، آثار دالة وشواهد ناطقة على كماله المطلق في أسمائه وصفاته ، قال تعالى : { فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم : 50] . والعقل البشري لا يدرك من الكمال الإلهي المطلق إلا الشيء القليل وبمقدار ما يظهر له من آثارها المشهودة في الكون، فجاء الوحي الإلهي ليكمل للعقل معرفته بالله تعالى، فبين له من أسمائه الحسنى وصفاته العليا بمقدار ما يطيق وبالقدر الذي هيئ له القيام بوظيفته التعبديـة . فقد كانت عناية الإسلام الأولى موجهه إلى تحرير أمر العقيدة ، وتحديد التصور في أمر الله وصفاته ، وعلاقته بالخلائق ، على وجه القطع واليقين . ومن ثم كان التوحيد الخالص هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلام .

كذلك قال الإسلام كلمة الفصل بمثل هذا الوضوح في صفات الله وبخاصة مـا يتعلـق منـها بالربوبية المطلقة . فقد كان معظم الركام في ذلك التيه الذي تخبط فيه الفلسفات والعقائد كما تخبط فيه الأوهام والأساطير ، مما يتعلق بهذا الأمر الخطير ، العظيم الأثر في الضمير الإنساني . وفي السلوك البشري سواء . والذي يراجع الجهد المتطاول الذي بذله الإسلام لتقرير كلمة الفصـل في ذات الله وصفاته وعلاقته بمخلوقاته ، يدرك مدى الحاجة إلى كل هذا البيان المؤكد المكـرر الـذي تمثلـه النصوص القرآنية الكثيرة ، وإلى كل هذا التدقيق الذي يتتبع كل مسالك الضمير .

والذي يراجع التاريخ ويجد ذلك الركام الثقيل في ذلك التيه الشامل الذي كانت البشرية كلها تهيم فيه . يدرك ضرورة ذلك الجهد المتطاول ، كما يدرك عن مدى عظمة الدور الذي قامت بـه هذه العقيدة في تحرير الضمير البشري وإطلاقه من عناء التخبط بين شتى الأرباب وشتى الأوهـام والأساطير ، وإن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها ، كل هذا لا يتجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية من العقائد والتصورات ، والأساطير والفلسفات! وبخاصة موضوع الحقيقة الإلهية وعلاقتها بالعالم .

عندئذ تبدو العقيدة الإسلامية رحمة حقيقية للقلب والعقل ، رحمة بما فيها من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق ، وقرب وأنس ، وتجاوب مباشر وعميق مع الفطرة[435] .

والمتتبع للمنهج القرآني يلاحظ هذه الحقيقة واضحة جلية ، فهو حينما يتعامل مع أسماء الله الحسنى وصفاته العليا لا يجعلها موضع بحث وجدل فكري وإنما يلزم العقل بالتسليم المطلق لحقائق الوحي ، والإلتزام الكامل بمقتضياتها التعبدية ، لتحقق بذلك أثرها السلوكي المباشر في الواقع ودنيا الناس ، وليس كما هو الحال عند الفلاسفة وعلماء الكلام الذين أدخلوها في دائرة جدل الأفكار ، وأفرغوها من محتواها العملي ومقتضياتها التعبدية ، فهذه هي طريقة القرآن حيث يستخدم ما تقرر لدى العقل البشري من كمال الله تعالى وصفاته بآثارها المشهودة في الكون ، ليستدل بذلك على تفرده تعالى بسائر أنواع العبادات ، من الذكر والدعاء ، والحمد والثناء ، والقربات والطاعات ، وذلك على وجه التعظيم والإجلال، والخشوع والخشية، والإخلاص والمحبة، والرجاء والتوكل، ومصاحبة ذلك بالتسبيح والتقديس من تنزيه الله تعالى عن المشابهة والمماثلة، والأنداد والشركاء .

وقد ذكر القرآن كثيرا من هذه الاستدلالات على تلك الحقيقة وما يقتضيها من مستلزمات توجب إفراده تعالى بالعبادة ، ونذكر منها على النحو الآتي :

1- قال تعالى : { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [البقرة : 255] .

يخبر تعالى في هذه الآية الكريمة عن جلاله وكماله وعظيم سلطانه وأنه هو المعبود بحق ولا معبود بحق سواه . حيث بين سبحانه صفة الآمر بما هو عليه من الجلال والعظمة ، ونفوذ الأمر والعلو عن الصد والتنزه عن الكفر ، والتفرد بجميع الكمالات والهيبة المانعة بعد انكشافها هناك أتم انكشاف ، لأن تتوجه الهمم لغيره ، وأن تنطق بغير إذنه ، وأن يكون غير ما يريد ، ليكون ذلك أدعى إلى قبول

---

[435]- راجع جمعة أمين، منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام، دار الدعوة-الإسكندرية، ط3، 1993م، ص 257-260، محمد مكي، البيان في أركان الإيمان، ص 75، سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 1، 3-4 ، ص143، ج3، ص 332 ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ، زكريا الشلول

أمره والوقوف عند نهيه وزجره ، فهي آية جليلة الشأن ، عميقة الدلالة ، واسعة المجال ، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة لله تعالى ، فكل صفة من هذه الصفات التي تضمنتها هذه الآية تمثل قاعدة من قواعد التصور الإسلامي الكلية .

فقوله : { الله لا إله إلا هو } تقرير لمعنى الوحدانية التي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها ، فهي القاعدة التي يقوم عليها التصور الإسلامي؛ وعن هذا التصور ينشأ الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة . فلا يتجه الإنسان بالعبادة والطاعة إلا لله ، وعن هذا التصور تنشأ قاعدة الحاكمية لله وحده . فيكون الله وحده هو المشرع للعباد . وعن هذا التصور تنشأ قاعدة استمداد القيم كلها من الله؛ فلا اعتبار لقيمة من قيم الحياة كلها إذا لم تقبل في ميزان الله ، ولا شرعية لوضع أو تقليد أو تنظيم يخالف منهج الله . وهكذا إلى آخر ما ينبثق عن معنى الوحدانية من مشاعر في الضمير أو مناهج لحياة الناس في الأرض على السواء . فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى ، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه ، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبدا لربه ، ممتثلا أوامره مجتنبا نواهيه ، وكل ما سوى الله تعالى باطل ، فعبادة ما سواه باطلة ، لكون ما سوى الله مخلوقا ناقصا فقيرا من جميع الوجوه ، فلم يستحق شيئا من أنواع العبادة.

وقوله: { الحي القيوم } هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمنا ولزوما ، فالحي : أي الباقي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء لها . ومن ثم يتفرد سبحانه بالحياة الأزلية الأبدية التي لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية ، فهو من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات ، كالسمع والبصر والعلم والقدرة ، ونحو ذلك ، والمقصودُ إثبات الحياة وإبطالُ استحقاق آلهة المشركين وصف الإلهية لانتفاء الحياة ، عنهم كما قال إبراهيم عليه السلام { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ } [مريم : 42] .

والقيوم : هو القائم بنفسه المقيم لغيره على الدوام ، فلا قيام لشيء إلا مرتكناً إلى وجوده وتدبيره . وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري ، فهو دائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم ، والمعطى لهم ما به قوامهم . وحقيقة القيام على هذا الوجود بكلياته وجزئياته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

في كل وقت وفي كل حالة . حقيقة هائلة حين يحاول الإنسان تصورها في هذا الكون الهائل؛ وإن ما يتصوره منه هو يسير . وهو مع ذلك يحير العقول . فالتصور الإسلامي تصور إيجابي لا سلبي . يقوم على أساس أن الله عز وجل هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التي لا يشاركه فيها سواه ، وهو المعبود بحق وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو ذو الحياة الكاملة ، وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم . ومن ثم يظل ضمير المسلم وحياته ووجوده ووجود كل شيء من حوله مرتبطا بالله الواحد ؛ الذي يصرّف أمره وأمر كل شيء حوله ، وفق حكمة وتدبير ، فيلتزم الإنسان في حياته بالمنهج المرسوم القائم على الحكمة والتدبير؛ ويستمد منه قيمه وموازينه ، ويراقبه وهو يستخدم هذه القيم والموازين . ومن تمام حياته وقيوميته سبحانه أنه لا يغفل أبداً .

لذلك قال : { **لا تأخذه سنة ولا نوم** } . وهي جملة سلبية مؤكدة للوصف الإيجابي السابق ، فإن قيامه على كل نفس ما كسبت ، وعلى تدبير شئون خلقه يقتضي ألا تعرض له غفلة ، ولأن السنة والنوم من صفات الحوادث وهو سبحانه مخالف لها : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى : 11] . وهي تتضمن نفي السنة الخفيفة أو النوم المستغرق ، وتنزهه سبحانه عنهما إطلاقاً . والمراد أن الله تعالى لا تدركه آفة ولا يلحقه خلل بحال من الأحوال ، فجعلت هذه مثالاً أقيمت مقام جميع الآفات .

وقوله : { **له ما في السماوات وما في الأرض** } . تقرير لانفراده بالإلهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته ، وتعليل لاتّصافه بالقيّوميّة لأنّ من كانت جميع الموجودات مِلكاً له فهو حقيق بأن يكون قيّومها وألاّ يهملها . فهي تقرير الملكية الشاملة المطلقة لله تعالى التي لا يشاركه فيها أحد ، وهي مفهوم من مفاهيم الألوهية الواحدة التي لها أثر في إنشاء معنى الملكية وحقيقتها في دنيا الناس . فإذا تمحضت الملكية الحقيقية لله ، لم يكن للناس ملكية ابتداء لشيء . إنما كان لهم استخلاف من المالك الواحد الأصلي الذي يملك كل شيء . ومن ثم وجب أن يخضعوا في خلافتهم لشروط المالك المستخلف في هذه الملكية . وشروط المالك المستخلف قد بينها لهم في شريعته؛ فليس لهم أن يخرجوا عنها؛ وإلا بطلت ملكيتهم الناشئة عن عهد الاستخلاف ، ووقعت تصرفاتهم باطلة ، ووجب رد هذه التصرفات من المؤمنين بالله في الأرض . وهكذا نجد أثر التصور الإسلامي في التشريع الإسلامي ، وفي واقع الحياة العملية التي تقوم عليه . وحين يقول الله في القرآن الكريم : { له ما في السماوات

وما في الأرض } . فإنه لا يقرر مجرد حقيقة تصورية اعتقادية؛ إنما يضع قاعدة من قواعد الدستور للحياة البشرية ونوع الارتباطات التي تقوم فيها كذلك . على أن مجرد استقرار هـذه الحقيقـة في شعور الإنسان بحقيقة المالك . وخلو يده من ملكية أي شيء مما يقال : إنه يملكه ؛ ورد هذه الملكية لصاحبها الذي له ما في السماوات وما في الأرض . مجرد إحساسه بأن ما في يده عارية لأمد محدود ، ثم يستردها صاحبها الذي أعارها له في الأجل المرسوم . مجرد استحضار هذه الحقائق والمشاعر كفيل وحده بأن يطامن من حدة الشح والطمع والتكالب المسعور على الدنيا . وكفيل كذلك بأن يسكب في النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق في الوجدان والحرمان سواء .

وقوله : { من ذا الذي يشفع عنده ألا بإذنه } تقرير لشمول ملكه تعالى ، وتأكيد على تفرده بالإلهية فقال منكراً على من توهم أن شيئاً يخرج عن أمره فلا يكون مختصاً به : { من ذا الذي } وهذا استفهام معناه الإنكار والنفي ، أي : لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ورضاه ، لأنّ المخلوقـات كلها ملكُه ، فلا يشفع عنده إلا من أراد هُو أن يُظهر كرامته عنده فيأذَن له بأن يشفع فـيمن أراد هو العفوَ عنه . قال تعالى { وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْـدِ أن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَآءُ ويرضى } [النجم:26] .

والمقصود بيان كبرياء الله تعالى وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريـده دفعا على وجه الشفاعة والاستكانة والخضوع ، فضلا عن أن يستقل بدفعه عناداً أو مناصبة وعداوة . وفي ذلك تيئيس للكفار ، وإبطال لمعتقد المشركين لأنّهم كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم يقولون : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى } [الزمر : 3] وقولهم : { هَؤُلاء شفعاؤنا عِندَ الله } [يونس : 18] ثم بيّن تعالى أنهم لا يجدون هذا المطلوب . فقال : { وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ } [يونس : 18] فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة عنده لأحد إلا من استثناه الله تعالى بقوله { إِلاَّ بِإِذْنِهِ } ونظيره قوله تعالى : { يَوْمَ يَقُومُ الـروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً } [النبأ : 38] .

وهذه الحقيقة توضح مقام الألوهية ومقام العبودية . فالعبيد جميعاً يقفون في حضـرة الألوهيـة موقف العبودية؛ لا يتعدونه ولا يتجاوزونه ، يقفون في مقام العبد الخاشع الخاضع؛ الذي لا يقـدم بين يدي ربه؛ ولا يجرؤ على الشفاعة عنده ، إلا بعد أن يؤذن له ، فيخضع لـلإذن ويشـفع في حدوده . وهم يتفاضلون فيما بينهم ، ويتفاضلون في ميزان الله . ولكنهم يقفون عند الحد الذي لا

يتجاوزه عبد . إنه الإيحاء بالجلال والرهبة في ظل الألوهية الجليلة العلية . يزيد هذا الإيحاء عمقـاً صيغة الاستفهام الاستنكارية؛ التي توحي بأن هذا أمر لا يكون؛ وأنه مستنكر أن يكون . فمن هو هذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه؟ وفي ظل هذه الحقيقة تبدو سائر التصورات المنحرفة للذين جـاءوا من بعد الرسل فخلطوا بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فزعموا لله من يشاركه بـالبنوة أو الأنداد أو خلفاء من البشر يستمدون سلطانهم من قرابتهم له . وأنهم يشفعون عنده فيستجيب لهم حتماً . في ظل هذه الحقيقة تبدو تلك التصورات كلها مستنكرة مستبعدة لا تخطر على الـذهن؛ وهذه هي النصاعة التي يتميز بها التصور الإسلامي؛ فلا تدع مجالاً للغبش في الرؤية .

وقوله : { يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بمـا شـاء } . تأكيد لكمال سلطانه في هذا الوجود ، وبيان لشمول علمه الكامل المستقصي لكل شيء . وشطر الحقيقة الأول : بيان لكمال علم الله تعالى ، وحقيقة أن علم الله الشامل بما بين أيديهم وما خلفهم . من شأنه أن يحدث في النفس هزة الذي يقف عرياناً بكل ما في سريرته أمام الديان ؛ ومن شـأنه أن يسكب في القلب الاستسلام لمن يعرف ظاهر كل شيء وخافيه . وشطر الحقيقة الثاني : بيـان لنقصان علم سواه ، وحقيقة أن الناس لا يعلمون إلا ما شاء الله لهم أن يعلموه . جدير بأن يتدبره الناس طويلاً . وبخاصة في هذه الأيام التي يفتنون فيها بالعلم في جانب من جوانب الكون والحياة . فهو سبحانه الذي يعلم وحده كل شيء علماً مطلقاً شاملاً كاملاً . وهو من يتأذن فيكشف للعباد بقدر عن شيء من علمه ، ومع ذلك يفتن الإنسان بذلك القدر من العلم ، الذي أحاط بـه بعـد الأذن . يفتن فيحسب نفسه في الأرض إلهاً . فينسى الإذن الأول الذي منحه الإحاطة بهذا العلم . فلا يذكر ولا يشكر . بل يتبجح وقد يكفر فينكر أن لهذا الكون إلهاً .

ثم إنه لما بيّن كمال ملكه وحكمه في السموات وفي الأرض ، نبّه بما يدل على عظـيم قدرتـه وسعة ملكوته **فقال** : **{ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السموات والأرض }** وهو تقرير لما تضمّنته الجمل كلّها من عظمة الله تعالى وكبريائه وعلمِه وقدرته وبيان عظمة مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه . ثم بيّن أن نفاذ حكمه وملكه في الكل على نعت واحد ، وصورة واحدة ، **فقال** : **{ وَلاَ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا }** أي : لا يعجزه ولا يشق عليه حفظ السموات والأرض ورعايتهما ، بل هو سهل عليه يسـير ، لأنـه المتعالي عن النقص والعجز ، العظيم بجلاله وسلطانه . فنظم بما يدل على ذلك بقوله : { وهو العلي العظيم } . أي العلي بالإطلاق ، فهو من يعلو أن يحيط به وصف الواصفين لكمال صفاته تعالى .

فهو المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال والأضداد ، وعن إمارات النقص ودلالات الحدوث ، وهو العلي بالملك والسلطنة والقدرة والقهر ، وهو العلي بالقدر والشأن والمنزلة ، فلا أعلى منه أحد ، وكذا عظمته فهي عظمة الشأن وجلالة القدر ، وعظمة المهابة والقهر والكبرياء ، وفي هاتين الصفتين تقرير لحقيقة تفرده تعالى بالعلو والعظمة .

فما يتطاول أحد من العبيد إلى هذا المقام إلا ويرده الله إلى الخفض والهون . وهو يقول : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا } [القصص:83] . ويقول عن فرعون في معرض الهلاك : { إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ } [الدخان : 31] . فهو الذي تتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة ، فسبحان من له العظمة والكبرياء والقهر والغلبة لكل شيء ، فمهما يعلو الإنسان ويعظم ، فلا يتجاوز مقام العبودية لله العلي العظيم . وعندما تستقر هذه الحقيقة في نفس الإنسان ، فإنها تثوب به إلى مقام العبودية وتطامن من كبريائه وطغيانه؛ وترده إلى مخافة الله ومهابته؛ وإلى الشعور بجلاله وعظمته؛ وإلى الأدب في حقه والتحرج من الاستكبار على عباده . فهي اعتقاد وتصور . وهي كذلك عمل وسلوك .

وهذه الآية الكريمة كلها ناطقة بتوحيد ربوبيته تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته ، دالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه . فقد اشتملت على عدة جمل ، وكل جملة منها واردة على سبيل البيان لصفات الله الجليلة ، وألوهيته الحقه . فالأولى : بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه . والثانية : لكونه مالكاً لما يدبره . والثالثة : لكبرياء شأنه . والرابعة : لإحاطته بأحوال الخلق ، وعلمه بالمرتضى منهم المستوجب للشفاعة . والخامسة : لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها ، أو لجلاله وعظم قدره . ليصل السياق بهذه الآية إلى إيضاح قواعد التصور الإيماني في أدق جوانبها ، وإقامة الأدلة الساطعة على وحدانية الله تعالى وكمال صفاته والإستدلال بها على وجوب إفراده بالعباده [436].

---

[436]– راجع : تفسير ابن كثير 672/1، وتفسير الرازي 441/3، وتفسير البقاعي 409/1، وتفسير الألوسي 311/2، وتفسير الزمخشري 225/1، وتفسير الخازن 277/1، وتفسير طنطاوي 472، وتفسير ابن عاشور 428/2، وتفسير الظلال 265/1، وتفسير السعدي 110

2- قال تعالى : { **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** } [الفاتحة : 2-5] .

يخبر تعالى أن جميع أنواع المحامد من صفات الجلال والكمال هي له وحده دون من سواه؛ إذ هو رب كل شيء وخالقه ومالكه . وأن علينا أن نحمده ونثني عليه بذلك لاستحقاقه الحمد كلّه . وإن هذا الحمد يكون لمقتضٍ . وإلا فهو باطل وزور فالله تعالى لما حمد نفسه ذكر مقتضى الحمد وهو كونه ربّ العالمين والرحمن الرحيم ومالك يوم الدين . فهذه الأوصاف التي أجريت على الله تعالى دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه للحمد والثناء عليه ، بل لا يستحق ذلك على الحقيقة سواه ، فإن ترتب الحكم على الوصف مشعر بعليته له .

وبعد أن بين سبحانه لعباده موجبات حمده ، وأنه الجدير وحده بالحمد ، لأنه المربى الرحيم ، والمنعم الكريم ، أتبع ذلك ببيان أنه : { **مالك يَوْمِ الدين** } .وذلك حتى لا تكون تلك الأوصاف المتقدمة مخففاً عن المكلفين عِبءَ العصيان لما أمروا به ، ومثيراً لأطماعهم في العفو عن استخفافهم بذلك ، وأن يمتلكهم الطمع فيعتمدون على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكّدة فلا يخشون غائلة الإعراض عن التكاليف ، لذلك كان من مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنه صاحب الحُكم في يوم الجزاء لأنه سبب في الامتثال والاجتناب لحفظ مصالح العالم . والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها خير وسيلة لتربية الإنسان وغرس الإيمان العميق في قلبه ، لأنه إذا آمن بأن هناك يوما يظهر فيه إحسان المحسن وإساءة المسئ ، وأن زمام الحكم فى ذلك اليوم لله الواحد القهار ، فإنه في هذه الحالة سيقوى عنده خلق المراقبة لخالقه ، ويجتهد في السير على الطريق المستقيم .

وقوله : { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** } . جاءت هذه الآية لتقرر أن الذي يجدر بنا أن نعبده وأن نستعين به إنما هو الله الذي تجلت أوصافه ، ووضحت عظمته ، وثبتت هيمنته على هذا الكون . والمعنى : لك يا ربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين ، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك ، فنحن نخصك بطلب الإستعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها ، ولا نتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك ، فأنت المستحق للعبادة ، وأنت القدير على كل شيء ، والعليم ببواطن الأمور وظواهرها ، لا تخفى عليك طوية ، ولا تتوارى عنك نية .

وفي تقديم المعبود على العبادة بقوله : { **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** } ، لإفادة قصر العبادة عليه تعالى وحده ، وهو ما يقتضيه التوحيد الخالص . ويفيد هذا القصر فيهما التعريض بالمشركين الذين يعبدون غير

جمعية عبد القادر للعلوم الإسلامية

الله ويستعينون بغيره . وفي هذه الآية دليل على أن العبد لا يجوز له أن يصرف شيئًا من أنواع العبادة كالدعاء والاستغاثة والذبح والطواف إلا لله وحده، وفيها شفاء القلوب من داء التعلق بغير الله، ومن أمراض الرياء والعجب والكبرياء . وقدمت العبادة على الاستعانة ، لكون الأولى وسيلة إلى الثانية . وتقديم الوسائل سبب في تحصيل المطالب ، وليدل على أنهم لا يستقلون بإقامة العبادات ، بل إن عون الله هو الذي ييسر لهم أداءهم . ولم يذكر المستعان عليه من الأعمال ، ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الصالحة . وإنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن ، حقيق بالثناء وغاية للخضوع والاستعانة في المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : إياك يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة ، فلا عبادة إلا لله ، ولا استعانة إلا بالله . وهذا مفرق الطريق بين التحرر المطلق من كل عبودية ، وبين العبودية المطلقة للعبيد!

وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل . التحرر من عبودية الأوهام . والتحرر من عبودية النظم ، والتحرر من عبودية الأوضاع . وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد ، والله وحده هو الذي يُستعان ، فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص ، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات [437].

3- قال تعالى : { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [الحشر : 22-24] .

لما تكرر في هذه السورة ذكر اسم الله وصفاته . وكان ما تضمنته السورة دلائل على عظيم قدرة الله وبديع تصرفه وحكمته . عقب ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة زيادة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته . وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته ، وزيادةً في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته ، ولذلك ذُكر في هذه الآيات الخواتم للسورة من صفاته تعالى ما هو مختلف التعلق والآثار بالنسبة

437- راجع : تفسير ابن عاشور 40/1، أيسر التفاسير 1/1-2 ، وتفسير طنطاوي 5-7 ، وتفسير السعدي 39 ، وتفسير الظلال 5/1

للفريقين ، فكان لكل منهما حظ يليق به منها . وترجع هذه الصفات الحُسنى إلى ما يناسبها مما اشتملت عليه السورة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يتعلق بما يناسب أحوال المشركين وأحلافِهم اليهود المتألبين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين بالحرب والكيد والأذى ، وأنصارهم من المنافقين المخادعين للمسلمين . وإلى هذا القسم تنضوي صفة { لا إله إلا هو } وهذه الصفة هي الأصل في التهيؤ للتدبر والنظر في بقية الصفات ، فإن الإشراك أصل الضلالات ، والمشركون هم الذين يُغرون اليهود ، والمنافقون بين يهود ومشركين تستروا بإظهار الإسلام ، فالشرك هو الذي صدّ الناس عن الوصول إلى مسالك الهدى . وصفة { عالم الغيب } فإن من أصول الشرك إنكار الغيب الذي من آثاره إنكار البعث والجزاء ، وعلى الاسترسال في الغي وإعمال السيئات وإنكار الوحي والرسالة . وكذلك ذكر صفات { المَلِك ، والعزيز ، والجبار ، والمتكبر } ، لأنها تناسب ما أنزله ببني النضير من الرعب والخزي والبطشة .

القسم الثاني : متعلق بما اجْتناه المؤمنون من ثمرة النصر في قصة بني النضير ، وتلك صفات : { السلام المؤمن } لقوله : { فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ } [الحشر : 6] ، أي لم يتجشم المسلمون للغنى مشقة ولا أذى ولا قتالاً . وكذلك صفتا : { الرحمان الرحيم } [الحشر : 22] لمناسبتهما لإعطاء حظ في الفيء للضعفاء .

القسم الثالث : متعلق بما يشترك فيه الفريقان المذكوران في هذه السورة فيأخذ كل فريق حظه منها ، وهي صفات : «القدوس ، المهيمن ، الخالق ، البارىء ، المصور» .

فجاءت هذه الآيات الثلاث مشتملة على ثلاث قضايا أساسية هي محور دعوة الأديان كلها مع جميع الأمم ورسلهم وهي : توحيد الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته ، وتنزيهه عن النقص وإثبات الكمال المطلق له سبحانه ، والرد على مفتريات الأمم على الله تعالى : فاليهود قالوا : عزير ابن الله . والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وقالوا : ثالث ثلاثة وغير . والمشركون قالوا : { اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا } [مريم : 88] ، فكلهم ادعى الشريك مع الله .

وأما قضية التنزيه ، فاليهود قالوا : { إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ } [آل عمران : 181] ، وقالوا : { يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ } [المائدة : 64] . والمشركون قالوا : { وَمَا الرحمن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً } [الفرقان : 60] ، ونسبوا لله مال لا يرضاه أحدهم لنفسه.

قال تعالى : { أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ } [الزخرف: 16-17]. وهذا كما تراه أعظم افتراء على الله تعالى ، وقد سجله عليهم القرآن ، مبيناً جرم مقالتهم ، { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا } [مريم : 88 - 92] . فكانت تلك الآيات علاجاً في الجملة لتلك القضايا الثلاث ، توحيد الألوهية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى مع إقامة الأدلة عليها . فكانت هذه الصفات لله الدالة على كماله تعالى أدلة قاطعة على إثبات وحدانية الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته ، وأنه هو المستحق لأن يعبد وحده دون سواه .

وإن هذه الأسماء الحسنى لله واضحة الآثار في صميم هذا الوجود وفي حركته وظواهره ، ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر في هذا الكون ملحوظ ، واثر في حياة البشر ملموس . فهي توحي إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات . فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هي صفات سلبية أو منعزلة عن كيان هذا الوجود ، وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده . فبدأ بكلمة التوحيد **بقوله** : { **هو الله الذي لا إله إلا هو** } أي : هو المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له ، فإنه لا مجانس له ، ولا يليق ولا يصح ، أن يكافئه أو يدانيه شيء . فقرر عقيدة التوحيد : في الاعتقاد ، والعبادة ، والاتجاه ، والفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه . ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل في التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء . وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله . وبعد أن بدأ بكلمة التوحيد أعقبه بالدليل على إفراده تعالى بالألوهية بما لا يشاركه غيره فيه ، **بقوله تعالى** : { **عَالِمُ الغيب والشهادة** } أي : العليم علما تاما بما غاب عن أذهان الخلائق وعقولهم ، وبما هو حاضر ومشاهد أمام أعينهم . والتعريف فيهما للاستغراق الحقيقى ، لأنه لا يخفى عليه شيء فى هذا الكون .وهذا الدليل نص عليه على أنه دليل لوحدانية الله تعالى في مواضع أخرى منها قوله تعالى { إِنَّمَآ إلهكم الله الذي لا إله إلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } [طه : 98] ووسع كل شيء هنا تساوى عالم الغيب والشهادة ، ومنها قوله تعالى : { أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ } [النمل : 25 - 26] . وهذا قطعاً لا يشاركه فيه غيره ، كما قال تعالى : { وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ } [الأنعام : 59] . فكان من حقه على خلقه أن يعبدوه وحده . فحينما يستقر في الضمير حقيقة علم الله للظاهر والمستور . فإنه يستيقظ الشعور بمراقبة الله

جامعة الأزهر عبد الناصر للعلوم الإسلامية

في السر والعلانية ؛ ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقِب لله ، الذي لا يعيش وحده ، ولو كان فيه خلوة أو مناجاة ، ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذي لا يغفل بعده قلب ولا ينام . وفي ذكر الغيب إيماء إلى ضلال الذين قصَروا أنفسهم على المشاهدات وكفروا بالمغيبات من البعث والجزاء وإرسال الرسل ، أمّا ذكر علم الشهادة فتتميم على أن المشركين يتوهمون بأن الله لا يطلع على ما يخفونه . قال تعالى : { وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ } [فصلت : 22 - 23] .

وجاء بدليل ثان ، وهو قوله تعالى : { هُوَ الرحمن الرحيم } وقد جمع الدليلين العلم والرحمة معاً في قوله تعالى : { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً } [غافر : 7] . وقد نص عليه صراحة أيضاً كدليل على الوحدانية في قوله تعالى :{وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } [البقرة : 163] . فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة . ومن رحمته التي اختص بها في الدنيا قوله : { وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ } [الشورى : 28] وقوله : { فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم : 50] أي : بإنزاله الغيث وإنبات النبات مما لا يقدر عليه إلا هو فكان حقه على خلقه ان يعبدوه وحده ، وان يتجهوا إليه بالخوف والرجاء . وبذلك يستقر في الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله .

ثم جاءت كلمة التوحيد مرة أخرى ، بقوله : { هُوَ الله الذي لاَ إله إِلاَّ هُوَ } تأكيد لأمر التوحيد ولأنها القاعدة التي تقوم عليها سائر الصفات . وجاء بعدها من الصفات الجامعة ، في قوله : { الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر } . فهو :{ الملك } وهذا دليل على وحدانيته تعالى استدل به القرآن في كثير من نصوصه ، منها قوله تعالى : { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ } [الأعراف : 158] . فمن له ملك السماوات والأرض ، فهو من يملك التصرف في ملكه كما يشاء بالإحياء والإماتة وحده ، كما قال تعالى : { تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الذي خَلَقَ الموت والحياة } [الملك : 1 - 2] . وإذا توحدت الملكية الكاملة الشاملة ، لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتجهون إليه بالطاعة والعبادة . وهو : { القدوس } أي: المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله ، وهو اسم يشع بالقداسة المطلقة والطهارة المطلقة .

ويلقي في ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه ويطهره ، ليصبح صالحاً لتلقي فيوض الملك القدوس ، والتسبيح له والتقديس .

{ السلام } وهو اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة في جنبات الوجود ، وفي قلب المؤمن تجاه ربه . فهو آمن في جواره ، سالم في كنفه . وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان . وجنح إلى الموادعة والسلام. { المؤمن } أي: المصدق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات . واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقي فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله . فيؤمن بالله ورسله ، ويكون مصدر آمن وخير لغيره ، وهو : { المهيمن } وهذه الصفة لله سبحانه توحي بالسلطان والرقابة والفاعلية في الكون والناس .

وكذلك : { العزيز . الجبار . المتكبر } . فهي صفات توحي بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فهو : { الْعَزِيزُ } الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء، وهو : { الْجَبَّارُ } الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير، وهو : { الْمُتَكَبِّرِ } الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور . فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت الصفات قبلها في جانب الإطماع .وفي ذكر هذه الصفات تعريف المسلمين بربهم ليتبَصَّرُوا كمال صفاته ، وردّ على بطلان معتقد المشركين الذين أشركوا مع صاحب هذه الصفات العليا أصناماً ليس لواحد منها شيء من مثل هذه الصفات.

ولذلك ختمت طائفة منها بجملة { **سبحان الله عما يشركون** } . أي تنزه الملك الأعلى الذي اختص بجميع صفات الكمال تنزهاً لا تدرك العقول منه أكثر من أنه علا عن أوصاف الخلق فلا يدانيه شيء من نقص . وما نعرفه عن مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة فهذه لا يعرفها إلا الله وحده . ونحن لا ندرك منها إلا آثارها وفي حدود قدرتنا العقلية المحدودة .

ثم جاء بالدليل الأعظم **في قوله تعالى** : { **هُوَ الله الخالق البارىء المصور** } وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك.فهو وحده المتفرد بالخلق والإيجاد ، والإبداع والتصوير ، وقد نص على هذا الدليل في أكثر من موضع كما في قوله تعالى : { خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ } [لقمان : 10] ثم قال : {

هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ بَلِ الظالمون فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [لقمــان : 11] . ومعلوم أنها لم تخلق شيئاً كما قال تعالى موبخاً إياهم : { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [الأعراف : 191] .

وبين أنهما لا يستويان في قوله : { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ } [النحـل : 17] ، ثم بين نهاية ضعفها وعجزها في قوله تعالى : { واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً } [الفرقان : 3] وهذا غاية العجز . كما ضرب لذلك المثل بقوله : { إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب } [الحج : 73] . وهذا إبطال لإلهية ما لا يخلق . قال تعالى : { وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُـونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ } [النحل: 20]. وهكذا ترى صفة الخلق المتصف بها سبحانه وتعالى أعظـم دليل على وحدانية الله تعالى .

ومن هنا كان أول نداء في المصحف يوجه إلى الناس جميعاً بعبادة الله كان لاستحقاقه عبادتـه وحده ، لأنه متصف بصفة الخلق كما قال تعالى : { يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الـذي خَلَقَكُـمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة :21] . أي لأنهم ليسوا له بأنداد فيما اتصف به سبحانه فلا تشركوهم مع الله في عبادته .

ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث إشارة إلى تصرفه في البشر بالإيجاد على كيفيته البديعة ليـثير داعية شكرهم على ذلك . **وقوله تعالى {لَهُ الأسمآء الحسنى }** أي: له الأسماء الكثيرة التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو ، والمراد بالأسماء الصفات ، عبر عنها بالأسماء لأنه متصف بها على ألسنة خلقه ولكونها بالغة منتهى حقائقها بالنسبة لوصفه تعالى بها فصارت كالأعلام على ذاته تعـالى ، فكلها صفات كمال ، لا نقص في شيء منها ، ومن حسنها أن الله يحبها ، ويحب من عبـاده أن يدعوه ويسألوه بها . كما في قوله تعالى : { وَلِلَّهِ الأسمآء الحسنى فـادعوه بِهَـا } [الأعـراف : 180] أي اطلبوا منه بأسمائه ، فيطلب بكل اسم ما يليق به تقول : يا رحمن ارحمني ، يـا رزّاق ارزقني : يا هادي اهدني ، يا توّاب تب علي .. وهكذا .

ويلاحظ أن الله تعالى حينما يذكر أسمائه وصفاته يذكرها بإجمال ولا يفصل في بيانها ، وإنمـا يبينها من خلال آثارها في الكون ، بما هو مقرر بأصل الفطرة ومنطق العقل السليم ، وبهذا الإقرار يطالبهم بمقتضاه التعبدي. فهذه الأسماء الحسنى توحي بالحسن للقلوب وتفيضه عليها كي يتدبرها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها ، إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصف بها ، وأن يحاول التخلق بحسن صفاتها كالحلم والعفو والرأفة والرحمة والكرم ، ونحو ذلك ، والحذر من مثل الجبار والقهار ، ومراقبة مثل : الحسيب الرقيب ، وكذلك التعرض لمثل التواب والغفور بالتوبة وطلب المغفرة ، والهادي والرزاق بطلب الهداية والرزق ونحو ذلك .

والمتأمل البصير في اجتماع تلك الصفات معاً يجدها مترابطة متلازمة لأن العالم إذا لم يملك التصرف و لم يهيمن على شيء فلا فعالية لعلمه والملك الذي لا يعلم و لم يتقدس عن النقص لا هيمنة له على ملكه . فإذا اجتمع كل ذلك وتلك الصفات : العلم والملك والتقديس والهيمنة ، حصل الكمال والجلال ، ولا يكون ذلك إلا لله وحده العزيز الجبار المتكبر ، ولا يشركه احد في شيء من ذلك سبحانه وتعالى عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى . فكانت هذه الصفات لله تعالى في آخر هذا السورة حقاً أدلة على إثبات وحدانية الله تعالى ، وأنه المستحق لأن يعبد وحده لا إله إلا هو .

والواجب على الخلق تنزيهه عما لا يليق بجلاله ، **فقال سبحانه وتعالى { يسبح له ما في السموات والأرض }** فإن اتصافه تعالى بالصفات الحسنى يوجب على العقلاء تعظيمه بالتسبيح والتنزيه عن النقائص ، فمن تأمل الوجود مجملاً ومفصلاً ، علم تسبيح ذلك كله بنعوت الكمال وأوصاف الجلال والجمال ، ومن كماله أن له الأسماء الحسنى، والصفات العليا ، وأن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته ، **{ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }** فهو وحده العزيز الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ولا يوجد له مثل ، ويعز الوصول إليه ويشتد الحاجة إليه . الذي لا يريد شيئا إلا ويكون، ولا يكون شيئا إلا لحكمة ومصلحة . فالمعنى : أن ما ثبت له من صفات الخلق والإمداد والقهر تدل عليه شواهد المخلوقات وانتظام وجودها . فاعقب بعد ذلك بقوله :{ وهو العزيز الحكيم } لشدة مناسبة هاتان الصفتان لنظام الخلق .

وعليه فإن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله

العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه عاجز ناقص فقير، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا [438].

4- قال تعالى : { قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا } [الإسراء 110 -111]

أمر سبحانه عباده أن يدعوه بما شاؤوا من أسمائه ، فقد كان المشركون بسبب سخافات الجاهلية وأوهام الوثنية ينكرون تسمية الله بالرحمن ، ويستبعدون هذا الاسم من أسماء الله ، وروي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس : " سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات ليلة فجعل يبكي ويقول في سجوده : يا الله يا رحمن فقال أبو جهل : إن محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين! فأنزل الله تعالى هذه الآية "[439].

وقد بين سبحانه أنهم تجاهلوا اسم الرحمن في قوله : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ } [الفرقان : 60] . فبين لهم بعض أفعال الرحمن في قوله : { الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } [الرحمن : 1-4] فكانت جوابا لقولهم : { وما الرحمن } والكلام رد وتعليم بأن تعدد الأسماء لا يقتضي تعدد المسمى ، وشتان بين ذلك وبين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسميات ، والتوحيد والإشراك يتعلقان بالذوات لا بالأسماء . والتقدير : أي اسم من أسمائه تعالى تَدعون فلا حرج في دعائه بعدة أسماء . فكلها أسماؤه والمسمى واحد ، فما شئتم فادعوا ربكم بأي اسم أردتم مما أذن فيه ، فاهتفوا بهذا الاسم الدال على الجلال واستحقاق مسماه الدعاء لذاته ، أو بهذا الاسم الدال على الجمال واستحقاقه الدعاء لإنعامه ، فبأي أسمائه تدعوه فقد حصلتم على المقصود ، فإن المسمى واحد وإن تعددت أسماؤه الدالة على الشرف . فقال : { **فَلَهُ الأسْمَآء الحسنى** } للمبالغة في كمال أسمائه وللدلالة على أنه ما دامت أسماؤه كلها حسنة ، فكل واحد منها يحسن التوسل به لله في القصد تحقيق المطلوب . وبين هذا المعنى في غير هذا الموضع . كقوله : { وَللَّهِ الأسمآء الحسنى فادعوه بِهَا وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ

---

[438]- راجع : تفسير الرازي 314/15، وتفسير البقاعي 455/8، وتفسير عاشور 15/15-16، وتفسير طنطاوي 4157، وتفسير السعدي 854 ، وتفسير الظلال 172/7-173، وتفسير الشنقيطي 209/8-210

[439]- أخرجه الطبري في التفسير: 15 / 182، وانظر: أسباب النزول للواحدي ص (341) الدر المنثور: 5 / 348، القرطبي: 10 / 342

مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [الأعراف : 180] . ويأمر الله رسوله أن يتوسط في صلاته بين الجهر والخفوت : { ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا } لأن التوسط بين الأمرين يحصل المقصود من إسماع الناس القرآن وينتفي توهم قصد التطاول عليهم . كما أنه آليق بالوقوف في حضرة الله .

لما بيّن سبحانه أنه لا فرق بين أسمائه الحسنى ، وبيّن كذلك مقتضاها التعبدي من الذكر والدعاء ووجوب إفراده تعالى بالعبادة ، بيّن وجوب تخصيصه تعالى بالحمد لأنه أعظم مستحق لأن يحمد . وبيّن دواعي استحقاقه للحمد وتعظيمه لذلك ، فقال : { **وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل وكبرهُ تكْبِيراً** } فهو المستحق للحمد والثناء والمجد والتعظيم من جميع الوجوه، لما له الكمال المطلق ، والتنزه التام عن كل آفة ونقص ، فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال ثلاثة أنواع من الصفات :

الأول : من الصفات أنه { لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا } والسبب فيه أن كل من له ولد فهو محتاج إليه ليقوم مقامه بعد انقضائه ، وإنه يمسك جميع النعم لولده ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الإنعام في كل الأوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الإطلاق . وهذه الآية ردٌّ على اليهود في قولهم : { عُزَيْرٌ ابن الله } [التوبة : 30] ، وردٌّ على النصارى في قولهم : { المسيح ابن الله } [التوبة : 30] وعلى مشركي العرب في قولهم : المَلائِكَةُ بنَاتُ الله { وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا } [الإسراء: 40] . وبما أن الله سبحانه منزه عن الولد ، كان له وحده الحمد الكامل ، والثناء الجميل ، والعبادة الخالصة ، لذلك فقد بيّن سبحانه تنزهه عن الولد والصاحبة في كثير من آياته . كقوله تعالى : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } [الإخلاص : 1-3] ، وقوله : { وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً } [الجن : 3] ، وقوله : { بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [الأنعام : 101] ، وقوله : { وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أن يَتَّخِذَ وَلَداً } [مريم : 88-92] .

والثاني : من الصفات قوله: { وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك } والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقاً للحمد والشكر . فنفى سبحانه أن يكون له

شريك في ملكه كما في قوله : { وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ } [سبأ : 22] ، وقوله : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] ، وقوله : { تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الملك : 1] ، وقوله : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ } [آل عمران : 26] . وبما أنه تعالى هو المالك لكل شيء ليس له في هذا الكون من يزاحمه أو يشاركه في ملكه ، كان هو وحده المستحق للحمد والثناء والتعظيم ، وسائر أنواع العبادة ، قال تعالى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً } [الإسراء: 43] ، وقال : { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون : 91] .

والثالث : قوله : { وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل } والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولي من الذل لم يجب شكره لتجويز أن غيره حمله على ذلك الإنعام أو منعه منه ، وبما أن الله تعالى لم يكن له سبحانه ناصر ينصره من ذل أصابه أو نزل به ، لأنه تعالى هو أقوى الأقوياء ، وقاهر الجبابرة ، ومذل الطغاة ، وجب أن يكون له كامل الحمد والتعظيم والعبادة ، لذلك بيّن سبحانه أنه لا يذل فيحتاج إلى ولي يعزه . لأنه هو العزيز القهار ، الذي كل شيء تحت قهره وقدرته ، كما بيّن ذلك في مواضع كثيرة كقوله : { والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ } [يوسف : 21] ، وقوله : { إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة : 220] والعزيز : الغالب . وقوله : { وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ } [الأنعام : 18] . وللدلالة على ما تقدم بأنه تعالى هو الكامل وما عداه ناقص ، استحق التكبير وغاية التعظيم . لذلك قال : { وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً } } أي : عظمه تعظيمًا تامًا كاملاً ، يليق بجلاله عز وجل . والتكبير أبلغ لفظ للعرب في معنى التعظيم والإجلال . وأكد الأمر بالمصدر المنكر من غير تعيين لما يعظم به تعالى فقال : { تكبيراً } إشارة إلى أنه مما لا تسعه العبارة ولا تفي به القوة البشرية وإن بالغ العبد في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد ، فلم يبق إلا الوقوف بأقدام المذلة في حضيض القصور والاعتراف بالعجز عن القيام بحقه جل وعلا ، والقصور عن أن يدرك أحد كنه معرفته أو يجهله أحد من كل وجه ، بل احتجب سبحانه بكبريائه وجلاله فلا يعرف ، وتجلى بإكرامه وكماله فلا ينكر ، فكان صريح اتصافه بالحمد أنه تعالى متصف بجميع صفات الكمال ، وصريح وصفه بنفي ما ذكر أنه منزه عن شوائب النقص وأنه أكبر من كل ما يخطر للعباد المطبوعين على النقص المجبولين على غرائز العجز .

ويظهر تكبير الله وتعظيمه من خلال عدة معاني يمكن أن نحملها على النحو الآتي :

النوع لأول : تكبيره في ذاته : وهو أن يعتقد أنه المستحق للتعظيم لذاته ، لأن الكل مفتقر إليه ، وأنه غني عن كل ما سواه .

النوع الثاني : تكبيره في صفاته وذلك : أن يعتقد أن كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وأنه منزه عن كل صفات النقائص .

النوع الثالث : من تكبير الله تكبيره في أفعاله : وهو أن نعظمه على أن كل شيء يجري في سلطانه على وفق حكمته وإرادته .

النوع الرابع : تكبير الله في أحكامه : وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع وله الأمر والنهي والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه ، مما يوجب المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه ، والمسارعة إلى كل ما يرضيه .

النوع الخامس : تكبير الله في أسمائه : وهو أن لا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية المنزهة ، وتمجيده بأفعاله المقدسة، وتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له .

النوع السادس : من التكبير هو أن الإنسان بعد أن يبلغ في التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله ، ولسانه لا يفي بشكره ، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافياً بكنه مجده وعزته . وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم .

وعليه فإنه من كان له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته ، منزه عن النقائص ، فكان منزهاً عن الولد وعن الشريك ، ومنزهاً عن أن يكون له ولي يلي أمره ، كان ذلك مستوجباً لأعظم أنواع المحامد ، ومستحقاً لأجل أقسام الشكر .وهو وحده الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ، وأن يعظم غاية التعظيم[440] . وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أحب الكلام إلى الله لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت "[441].

---

[440]- راجع : تفسير ابن كثير 128/5، وتفسير الزمخشري 492/3، وتفسير البقاعي 115/5، وتفسير الخازن 291/4، وتفسير الرازي 149/10، وتفسير الشنقيطي 267/3، وتفسير الألوسي 137/11، وتفسير طنطاوي 2686، وتفسير ابن عاشور322/8-324 ، وتفسير السعدي 468، وتفسير الظلال 49/5

[441]- أخرجه مسلم في صحيحه برقم (2137)

إلى غير ذلك من الآيات التي يقرر فيها المنهج القرآني، كمال الله تعالى في أسمائه وصفاته، ليجعل من اختصاصه بهذه الأسماء والصفات دليلاً قاطعاً على تفرده سبحانه بالألوهية، فإن من استجمعت له هذه الأسماء والصفات بهذا الكمال المطلق وتنزه عن كل النقائص كان هو وحده المستحق للعبادة والتقديس .

وإنه ينبغي على العباد أن يتعاملوا مع أسماء الله وصفاته وفق منهجه وشرعه، فلا يسمى سبحانه بغير أسمائه ولا يوصف بغير صفاته، وأن نلتزم بها كما وردت بلسان الشرع[442]. قال تعالى : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأعراف : 180] . وقال تعالى : { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام : 100] .

وقد جاءت قصة إبراهيم عليه السلام موافقة ومؤكدة للمنهج القرآني في الاستدلال بكماله تعالى في أسمائه وصفاته على تفرده بالألهية ، واستحقاقه سبحانه وحده للعبودية الخالصة ، وسوف نستعرض ذلك من خلال المباحث التالية .

442- راجع : د. محمد هراس العقيدة القرآن والسنة، ص 50، جمعة أمين منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام، ص 259

– المبحث الأول –

الاستدلال بإثبات كماله تعالى في أسمائه وصفاته على ألوهيته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فإن لله الاسماء الحسنى الدالة على محاسن المعاني ، والصفات العليا الجامعة للكمالات كافة ، ولن يجتمع ذلك الكمال والإطلاق إلا لله تعالى وحده ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب ، فكل مخلوق لا يخلو من معايب ، وعن نقائص ، كونه مخلوقا عاجزا مسخرا مضطرا وهذا هو عين العيب والنقص ، فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا لله وحده ، الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه [443]. كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين : " لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " [444].

فمن كان له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته كلها ، وكان منزهاً عن كل العيوب والنقائص على الإطلاق ، فهو وحده الذي يستحق سائر أنواع العبادة من الحمد والثناء ، والإستعانة والدعاء ، والخوف والرجاء ، والذكر والشكر . فهذه من موجبات كماله في أسمائه وصفاته تعالى ، وقد وردت في قصة إبراهيم كثير من الاستدلالات بأسماء الله وصفاته على ألوهيته ، ويمكن أن نستعرض بعض من هذه الصفات وما يلازمها من مقتضيات العبادة .على النحو الآتي :

أولاً : كمال علمه تعالى

فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل : { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء: 85] . ومن الآيات الواردة في الاستدلال بكمال علمه تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام ، نذكر منها .

443- راجع : الألوسي 446/20 ، إحياء علوم الدين ص 303/4-304

444- صحيح مسلم (486)

* **الشاهد الأول :**

قال تعالى : { قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } [الأنعام : 80] .

لما أقام إبراهيم الدليل على بطلان عبادة غير الله تعالى وتبرأ من الشرك والمشركين حاجه قومه فى ذلك فقال منكراً عليهم ذلك : { أتحاجوني في الله وقد هدان } وجملة { وقد هدانِ } حال مؤكّدة للإنكار ، أي لا جدوى لمحاجّتكم إيّاي بعد أن هداني الله إلى الحقّ ، لأن من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه يدعو الناس إلى ما هو عليه.

وقوله : { ولا أخاف ما تشركون به } معطوف على جملة { وقد هَدَانِ } فتكون تأكيداً للإنكار . لأنّ عدم خوفه من آلهتهم قد ظهرت دلائله عليه . فقومُه إمّا عالمون به أو منزّلون منزلةَ من يعلم أنّ الله هَداه كناية على ظهور دلائل الهداية . وهذا يشير إلى أنّهم حاجّوه في التّوحيد وخوّفوه بطش آلهتهم ومسّهم إيّاه بسوء ، وقوله : { إلاّ أن يشاء ربِّي شيئاً } فإنّه لّما نفى أن يكون يخاف إضرار آلهتهم وكان ذلك قد يتوهّم منه السّامعون أنّه لا يخاف شيئاً استدرك عليه بما دلّ عليه الاستثناءُ المنقطع ، أي لكن أخاف مشيئة ربِّي شيئاً ممّا أخافه ، وفي هذا الاستدراك زيادة نكاية لقومه إذ كان لا يخاف آلهتهم في حين أنّه يخشى ربَّه المستحقّ للخشية إن كان قومه لا يعترفون بربّ غير آلهتهم .

وقوله : { وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } كان هذا جوابه لقومه ، فكأهم قد قالوا : كيف يشاء ربك شيئا تخافه وأنت تزعم أنّك قائم بمرضاته ومؤيد لدينه فما هذا إلاّ شكّ في أمرك ؟ فلذلك فُصلت ، أي إنّما لم آمن إرادة الله بي ضُرّا وإن كنت عبده وناصر دينه لأنّه أعلم بحكمة إلحاق الضرّ . أو النفع بمن يشاء من عباده . وهذا مقام أدب مع الله تعالى : { فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف : 99] . وذلك ثمرة شمول العلم فالمراد أني ما تركت الجزم لشك عندي ، وإنما تركته لعدم علمي بالعواقب إعلاماً بأن تلك رتبة لا تصلح إلاّ لله علام الغيوب ، الذي وسع علمه كل شيء وأحاط به ، وأدل دليل على هذا اتباعه له بإنكاره عليهم عدمَ الإبلاغ في التذكر مظهراً إلى أن في جبلاقم أصل التذكر المانع عن الشرك ، بقوله : { أفلا تتذكرون } والاستفهام إنكار لعدم تذكّرهم مع وضوح دلائل التذكّر في صفات آلهتهم المنافية لمقام الإلهية ، وفي صفات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإله الحقّ التي دلّت عليها مصنوعاته . والمعنى : أفلا تتذكرون فتميزوا بين الحق والباطل ، فتعلمون أن الله الذي له صفات الكمال ومنها علمه الشامل والمطلق ، أنه هو وحده المستحق للعبودية ، وليس آلهتكم العاجزة التي هي بمعزل عن القدرة على شيء ، وفي إيراد التذكر إشارة إلى أن هذا الأمر مركوز في العقول لا يتوقف إلا على التذكير [445].

* **الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [التوبة : 114-115]

بين سبحانه سنة من سننه العامة في خلقه ، وهي تدل على سعة رحمته ، ووافر عدله ، أنه لا يصف قوما بالضلال حتى يبين لهم ما يجب اتقاؤه من الأقوال والأفعال ثم لا يطيعون أمره ، ومعنى الآية يفيد أن الله لا يؤاخذ النبي صلى الله عليه وسلم ولا إبراهيم عليه السلام ولا المسلمين باستغفارهم لمن استغفروا له من قبل ورود النهي وظهور دليل اليأس من المغفرة ، لأن الله لا يؤاخذ قوماً هداهم إلى الحق فيكتبهم ضُلالاً بالمعاصي حتى يبين لهم أن ما عملوه معصية ، وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل العلم والبيان في ورود النهي عنه .

وفي هذا دليل على كمال رحمته تعالى ، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد، في أصول الدين وفروعه ، فإن اللّه تعالى إذا منَّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، وعن عبد الله بن معسود أنه كان يخطب أصحابه ويقول : أيها الناس : إني والله لا أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم ، وقد قال تعالى { وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ } .وقوله : { إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } تعليل لما سبق أي إن الله تعالى عليم بجميع الأشياء التي من جملتها حاجتهم إلى البيان فيبين لهم ، فلكمال علمه وعمومه علمّكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون ، فإن اللّه تعالى إذا منَّ على قوم بالهداية،

---

[445]- راجع : تفسير الألوسي 403/5، وتفسير الرازي 355/6، وتفسير البقاعي 77/3 ، وتفسير السعدي 263 ، وتفسير ابن عاشور 5/5 ، وتفسير طنطاوي 1488، وأيسر التفاسير 415/1

وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ولشدة الحاجة للرسل في بيان مراد الله ومعرفة أحكام دينه التي بها يكون صلاح الخلق واستقامة حياتهم ، فقد أرسل الله رسله وأنزل كتبه ، لذلك فقد سأل إبراهيم وإسماعيل ربهما أن يبعث في ذريتهما رسولاً منهم يعلمهم أمر دينهم ، كما في قوله تعالى : { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [البقرة : 129] .

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون من ذريتهما ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الأرجاس والأدناس . إن الدعوة المستجابة تستجاب ، ولكنها تتحقق في أوانها الذي يقدره الله بحكمته . غير أن الناس يستعجلون! وغير الواصلين يملون ويقنطون ، وجاء التذيل تعليلاً للإجابة بقوله : { إنك أنت العزيز الحكيم } والعزيز : هو القادر الذي لا يغلب على أمره ، والحكيم هو العالم الذي لا يجهل شيئاً ، والذي يدبر الأمور على وفق المصلحة ، ، ومن كان قادراً على كل ما يريد ، عليما بوجوه المصالح ، كان ما يفعله صواباً ومبرأ عن العبث والسفه ، ولولا كونه كذلك لما صح منه إجابة الدعاء ولا بعثة الرسل ، ولا إنزال الكتاب ، وهذا من فضل الله على عباده ، والذي يتوجب عليهم أن يستجيبوا لدعوة رسله ، ونصرة دينه ، وأن ذلك لا ينال إلا بمجاهدات ، ولا يتحقق إلا بجد تطهّره العزة وترتيب تبرمه الحكمة [446].

* الشاهد الثالث :

قال تعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127] .

ذكر سبحانه ما كان من أمر إبراهيم وإسماعيل وهما يقومان برفع قواعد الكعبة ويقولان : { ربنا تقبل منا } وفي تصدير الدعاء باسم الرب المضاف إليهما مظهر من مظاهر خضوعهما ، وإجلالهما لمقامه ، والخضوع له سبحانه وإجلال مقامه من أسنى الآداب التي تجعل الدعاء بمقربة من

---

[446]- راجع : تفسير البقاعي 184/1، وتفسير طنطاوي 204، وتفسير السعدي 66، تفسير ابن عاشور 484/1، وتفسير الظلال 89/1

الاستجابة . وفي طلب التقبل بصيغة التفعل إشعار بالاعتراف بالتقصير لحقارة العبد وإن اجتهد في جنب عظمة مولاه . ولما تضمن سؤال القبول للطاعة المشعر بالخوف من ردّها ، لعلم الناقد البصير بالتقصير ، توسلوا متضرعين إلى الله تعالى في قبولها وطلب الثواب عليها كونهم أتوا بتلك العبادة مخلصين لله ، والغاية المرتجاة من ورائها هي الرضى والقبول ، والرجاء في قبولها متعلق بأن الله سميع للدعاء . عليم بما وراءها من النية والشعور .

لذلك عقب هذا الدعاء بقوله : { إنك أنت السميع العليم } تعليل لاستدعاء التقبل ، والمراد السميع لدعائنا ، والعليم بنياتنا ، والمطلع على ما في قلبنا من الإخلاص لك وترك الالتفات إلى أحد سواك . لأن نفي السمعة والرياء عن الدعاء والعمل يفيد الإجابة والقبول ، لذلك ختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى { السميع العليم } ، ليؤكدا أن رجاءهما في استجابة دعائهما وثيق ، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول . لأن من كان سميعاً عليماً بنيات الداعين وصدق ضمائرهم ، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين في طاعته غير بعيد ، ويمكن أن يكون المراد من التقبل الرضا فقط دون الإثابة لأن غاية ما يقصده المخلصون من الخدم هو وقوع أفعالهم موضع القبول والرضا عند المخدوم ، وليس الثواب مما يخطر لهم ببال ، ولعل هذا هو الأنسب بحال الخليل وابنه إسمعيل عليهما السلام .

فإن هذا الدعاء يتضمن في ثناياه أدب النبوة ، وإيمان النبوة ، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود . وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء ، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم . ليتجهوا إلى الله تعالى في المسارعة بالإمتثال لأوامره بعزيمة وإخلاص ، قال تعالى : { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون : 60-61] . أي: يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط[447]. كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا وعن عائشة؛ أنها قالت : " يا رسول الله { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } هو الذي يسرق

[447]- راجع : تفسير ابن كثير 480/5، وتفسير الألوسي 6/2، وتفسير ابن عاشور 480/1، وتفسير البقاعي183/1 ، وتفسير الرازي 347/2، وتفسير الظلال 88/1، وتفسير طنطاوي 204

ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال : " لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، { أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ } " [448].

*** الشاهد الرابع :**

قال تعالى : { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } [إبراهيم : 39] .

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما طلب من الله تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم ، ذكر أنه لا يعلم عواقب الأحوال ونهايات الأمور في المستقبل ، وأنه تعالى هو العالم بها المحيط بأسرارها ، يعلم السر كما يعلم العلن علماً لا تفاوت فيه ، فقال : { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ } والمعنى : أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا وأرحم بنا من أنفسنا فلا حاجة لنا إلى الطلب لكن المقصود من فحوى كلامه عليه السلام أن إظهار هذه الحاجات وما هو من مباديها وتتمامًا ليس لكونها غير معلومة لك بل إنما هو لإظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار لما عندك والاستعجال لنيل أياديك ، وقد أشار السهروردي إلى أن ظهور الحال يغني عن السؤال بقوله :

ويمنعني الشكوى إلى الناس أنني ... عليل ومن أشكو إليه عليل

ويمنعني الشكوى إلى الله أنه ... عليم بما أشكوه قبل أقول

فقد أحال أمره إلى من هو أعلم به كي يدبره وييسره له وفق ما هو مقتضى علمه ورحمته . ثم قال : { وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَيْءٍ فَى الأرض وَلاَ فِى السماء } يعني وما يخفي على الذي هو عالم الغيب من شيء ، سواء أكان هذا الشئ فى الأرض أم فى السماء أم في غيرهما . وإنما ذكر السماء والأرض لأنهما المشاهدتان للناس ، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما فى هذا الكون .

ويقصد إبراهيم من ذكر شمول علمه تعالى أثناء دعائه ومناجاته لربه ، هو بيان صدق عبوديته لله وشكره على نعمه ، كونه مطلع على نوياه ، استجلاباً لأبواب رحمته ، وتوسلاً لإجابة دعائه ، وتحقيق مطلوبه ورجاءه ، ثم حمد الله سبحانه على بعض نعمه الواصلة إليه فقال : { الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء } والحمد هو الثناء باللسان على من

[448]- مسند الأمام أحمد (159/6) وسنن الترمذي برقم (3175)

صدرت منه النعمة ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء والحمد فهو صادر عنه سبحانه إذ هو الخالق لكل شئ . وإنما ذكر قوله { إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء } فهذا من تتمة الحمد والشكر لما فيه من وصفه تعالى بأن قبول الدعاء عادته سبحانه المستمرة تعليل على طريق التذييل للهبة المذكورة؛ وفيه إيذان بتضاعيف النعمة فيها .

فإن إبراهيم كان قد دعا ربه وسأله الولد بقوله : { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات: 100] فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل، شكر الله على ما أكرمه به ومن إجابة دعائه فعند ذلك حمد الله ، وذكر بعضهم أن موقع قوله : { الحمد للَّهِ } وتذييله موقع الاعتراض بين أدعيته عليه السلام في هذا المكان تأكيداً للطلب بتذكير ما عهد من الإجابة ، يتوسل إليه سبحانه بسابق نعمته تعالى في شأنه كأنه عليه السلام يقول اللهم استجب دعائي في حق ذريتي في هذا المقام فإنك لم تزل سميع الدعاء وقد دعوتك على الكبر أن تهب لي ولداً فأجبت دعائي .

فجملة { إن ربي لسميع الدعاء } تعليل لجملة { وهب } ، أي وهب ذلك لأنه سميع الدعاء. والسميع مستعمل في إجابة المطلوب ليدلّ على كثرة إجابته وأن ذلك شأنه ، فيفيد أنه تعالى متصف بالإجابة وصفاً ذاتياً . فأثنى عليه بأنه سميع الدعاء ، تمهيداً لإجابة دعوته هذه كما أجاب دعوتَه سلفاً . وأما وجه المناسبة بين قوله : { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى .. } وبين قوله : { الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى .. } وذلك أنه كان في قلبه أن يطلب من الله إعانتهما وإعانة ذريتهما بعد موته ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب ، بل قال : { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ } أي إنك تعلم ما في قلوبنا وضمائرنا ، فقوله : { الحمد للَّهِ الذى وَهَبَ لِى عَلَى الكبر إسماعيل وإسحاق إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدعاء } يدل ظاهراً على أنهما يبقيان بعد موته وأنه مشغول القلب بسببهما ، فكان هذا دعاء لهما بالخير والمعونة بعد موته على سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الإيضاح والتصريح ، لأنه عالم بالمقصود سواء صرح به أو لم يصرح . فقد بيّن إبراهيم عليه السلام في معرض دعائه لربه ، علم الله الذي يطلع على ما في قلوبهم من توجه وشكر ودعاء، وهذا يوجب إخلاص العبودية لله تعالى في كل حركة وعمل ، والتوجه إليه وحده في القصد والطلب والدعاء فهو من يملك أن يجيب من يرجوه .

لذلك علل إدلاله على المقام الأعظم بالسؤال بقوله : { إنك سميع الدعاء } أي مريده ومجيبه لأن من شأن من يسمع – ولم يمنع – أن يجب إذا كان قادراً كاملاً ، وقد ثبتت القدرة بالربوبية الكاملة التي لا تحصل إلا من الحي القيوم ، بخلاف الأصنام ونحوها مما عبد فإنها لا تسمع ، ولو

سمعت لم تقدر على الإجابة لعجزها . فأخبر عليه السلام بما لله سبحانه وتعالى من صفات الكمال ، وتوسل بها في تحصيل الإجابة ، وقد اقتدى زكريا عليه السلام بجده الأعلى إبراهيم عليه السلام إذ قال : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } [آل عمران:38] . وهذا الذي ينبغي التوسل به إلى الله في إجابة الدعاء وتحقيق المطلوب [449].

*** الشاهد الخامس :**

قال تعالى : { وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [الذاريات: 28-30] .

لقد ردّ الملائكة على امرأة إبراهيم ما يزيل تعجبها واستغرابها واستبعادها لأن يكون لها ولد مع كبر سنها : بإن هذا الحكم هو حكم ربك . وهذا القول الذى بشرناك به هو قوله سبحانه وقوله لا مرد له ثم عللوا أمر الله النافذ فيهما بهذين الإسمين الكريمين وهما : { الحكيم العليم } ، لذلك لا موقع لتعجب امرأة إبراهيم كون هذا الأمر صادر من الله الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، والذي يضع الأشياء في أحق مواضعها ، والعليم الذي وسع علمه كل شيء ، فهو عليم بأحوال خلقه لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، وهو كذلك لا يعجزه شيء، لأن إحاطة العلم مستلزم شمول القدرة .

وقد تكرر هذان الإسمان كذلك في قصة إبراهيم في معرض تعليل جريان مشيئته تعالى واختياره ، في قوله تعالى : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [الإنعام :83] . لأنّ قوله : { نرفع درجات من نشاء } يثير سؤالاً ، يقول : لماذا يرفع بعض النّاس دون بعض ، فأجيب بأنّ الله يعلم مستحقّ ذلك ومقدار استحقاقه ويخلق ذلك على حسب تعلّق علمه .

فالمعنى أنه إنما يرفع درجات من يشاء بمقتضى الحكمة والعلم ، لا بموجب الشهوة والمجازفة . فإن أفعال الله منزهة عن العبث والفساد والباطل . وقدم { حكيم } على { عليم } لأنّ هذا التّفضيل مَظهر للحكمة ثمّ عقّب ب { عليم } ليشير إلى أنّ ذلك الإحكام جار على وفق العلم . قال تعالى : { وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [الدخان : 32] فإن الله تعالى يصطفي

[449]- راجع : تفسير الرازي 262/9، وتفسير الألوسي 398/9 ، وتفسير الخازن 124/4، وتفسير ابن عاشور 444/7، وتفسير السعدي 427، وتفسير طنطاوي 2442

من عباده من يعلم إستحقاقه لذلك الفضل ، قال تعالى : { اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [آل عمران : 34] . فقد اصطفى سبحانه إبراهيم عليه السلام بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية في الدنيا والآخرة ، وآتاه تلك الحجة وهداه إليها ، لتكون دليلا على قومه في إرشادهم إلى امر دينهم ، ودحض باطلهم وإقامة الحجة عليهم بطريق النظر والاستدلال . فارتفع بها عليهم ، لأنه تعالى يعلم استحقاقه لهذا الفضل . وهذه سنة الله في عباده أنه يرفع بالعلم والحكمة اصحابها فوق العباد درجات. خصوصا العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماما للناس، بحسب حاله ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، قال تعالى { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة : 11] .

وعليه فبما أنه سبحانه لا تصدر أفعاله واحكامه وقضاءه إلا وفق مقتضى علمه وحكمته ، فإنه ينبغي على العباد التسليم لأمره والرضى بحكمه ، ومقابلة ما يجري عليهم من قدر الله ، بالشكر على السراء ، والصبر على الضراء ، ودفع ما أذن الله بدفعه ، وألا يهرب من التكاليف ويتحلل من الإلتزامات بحجة التذرع بالإقدار[450].

ثانياً : كمال قدرته تعالى .

فهو سبحانه من يستحق أن يعبد لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يستحق العبادة لذلك أحد سواه . فهو الجبار القاهر والعليم القادر, السموات مطويات بيمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته, وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته, إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة, وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعى بخلقها, ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها, فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه, كما قال في أعظم ملوك الأرض ذى القرنين إذ قال : { إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا } [الكهف :] . فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته, فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن كان يتصور أن يعبد قادر لكمال قدرته فلا

[450]- راجع : تفسير البقاعي 203/8، وتفسير الرازي 358/6 ، وتفسير حقي 475/3، وتفسير طنطاوي ، 1493، 3975 ، وتفسير السعدي 809 ، وتفسير ابن عاشور11/5، 105/14، أيسر التفاسير 415/1

يستحق العبادة بكمال القدرة سواه أصلاً . ومن الصفات التي استدل بها إبراهيم عليه السلام على كمال قدرته تعالى وما يستلزمها من مقتضيات تعبدية نذكر من ذلك .

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [العنكبوت : 26] .

أعلن إبراهيم عليه السلام لقومه أنه مهاجر من وطنه, وتارك لأهله وعشيرته واحبابه ، فهو لم يهاجر للنجاة . ولم يهاجر إلى أرض أو كسب أو تجارة . إنما هاجر إلى ربه . هاجر متقرباً له ملتجئاً إلى حماه . هاجر إليه بقلبه وعقيدته . هاجر إليه ليخلص له عبادته ويخلص له قلبه ويخلص له كيانه كله في مهجره ، بعيداً عن موطن الكفر والضلال . بعد أن لم يبق رجاء في أن يفيء القوم إلى الهدى والإيمان بحال .

هاجر مستجيباً لربه لأنه هو من أمره بمفارقتهم ، فخرج من أرضه وعشيرته منحازاً إلى ربه ، إلى أرض ليس بها أنيس ولا عشير ، ولا من ترجى نصرته ، ولا من تنفع مودته ، متوكلاً على الله معتمداً عليه وحده ، واثقاً بنصره وعونه سبحانه دون ما سواه .

وعلل ذلك بذكر إسمين من إسماء الله تعالى ، ولمناسبتهما لما كان يرجوه من ربه ، فتعلق قلبه بهما بما يناسب حاله ، لذلك جاء بجملة واقعة موقع التعليل لمضمون { إني مهاجر إلى ربي } بقوله : { إنه هو العزيز الحكيم } فهو العزيز الغالب على أمره فيمنع أعدائي عن إيذائي بعزته ، لأنه جدير بإعزاز من انقطع إليه ، وهو الحكيم في شرعه وتدبيره ، فلا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرني إلا بما فيه صلاحي لكمال حكمته . وإتباع وصف { العزيز } ب { الحكيم } لإفادة أن عزته محكمة واقعة موقعها المحمود عند العقلاء مثل نصر المظلوم ، ونصر الداعي إلى الحق . فلما كان منه هذا الظن بربه لم يخيب رجاءه فيه ، فكان التقدير : فأعززناه كما ظن بنا إعزازاً وفق مقتضى حكمتنا ، فوهبنا له بجليل قدرتنا شكراً على هجرته إسحاق ومن بعده يعقوب ، فكانت هذه أول هجرة لأجل الدين ، فعوضه تعالى عن هذا كله ذرية تمضي فيها رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت في ذريته . وهو عوض ضخم في الدنيا وفي الآخرة .

فهو سبحانه إذا أعز أحداً منعته حكمته من التعرض له بإذلال بفعل أو مقال ، كما هو الحال في صنيعه مع إبراهيم حين أراد قومه إذلاله لأنه خالفهم في دينهم ، وكشف لهم فساد معتقداتهم ، فانجاه من كيدهم وانتقم منهم . فمن كان هذا حاله من العزة والحكمة المطلقة ، فوجب على كل عاقل أن لا يرجو ولا يخاف إلا الله ، ولا يتوكل ولا يستعين بغيره . وهذا إبراهيم عليه السلام ومن معه خير مثال وشاهد على ذلك ، مصداقاً لقوله تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [الممتحنة : 5 -6] .

فأنت ترى أن إبراهيم عليه السلام والمؤمنين معه ، قد أعلنوا بكل شجاعة وشدة ، إيمانهم الكامل بالحق ، وبراءتهم وكراهيتهم واحتقارهم ، لكل من أشرك مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

وانهم لم يكتفوا بالتغيير القلبي للمنكر ، بل جاهروا بعداوتهم له ، وبالتنزه عن اقترافهم منه . وبتجافيهم عنه . ثم ذكر سبحانه بعد ذلك جانبا من تضرعهم إلى خالقهم مشيراً بذلك إلى سر قوتهم وثباتهم في مواجهة الباطل والصبر على تبعات ذلك ، لأن في هذا الدعاء تعبير حقيقي عن مكونات معتقدهم الإيماني ودلالة على مقتضياته التعبدية وآثاره الإيجابية والعملية في وقائع حياتهم ، فكان للمؤمنين فيهم أسوة حسنة ، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، بقولهم : { رَبَّنَا } اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك { وَإِلَيْكَ } رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك { رَبَّنَا } لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا، { وَاغْفِرْ لَنَا } ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات .

ثم عقبوا دعواتهم بقولهم : { رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم } تعليل للدعوات كلها فإن التوكل والإنابة والمصير تناسب صفة { العزيز } إذ مثله يعامِل بمثل ذلك ، وطلبَ أن لا يجعلهم فتنة باختلاف معانيه يناسب صفة { الحكيم } ، وكذلك طلب المغفرة لأنهم لما ابتهلوا إليه أن لا

يَجعلهم فتنة الكافرين وأن يغفر لهم رأوا أن حكمته تناسبها إجابة دعائهم لما فيه من صـــلاحهم في دينهم ودنياهم . أي : فأنت القاهر لكل شيء الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتـــك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا ، وأصلح عيوبنا . وأما من لا يرجو الله واليوم الآخر ويعرض عن هذا التأسي ، فوبال إعراضه عليه وحده ، فإن الله هو الغنى عن جميع خلقه ، الحميد لمن يمتثـــل أمره . { فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ } الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقـــه مطلقاً، فهو الغني عن المتولين لأن النهي عما نهوا عنه إنما هو لفائدتهم لا يفيد الله شيئاً فهو الغني عن كل شيء . وإتْباع { الغني } بوصف { الحميد } تتميم ، أي الحميد لمن يمتثل أمره ولا يعرض عنه .فهو الحميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله . وهو لذلك المقصـــود في طلب الحوائج والمستعان به لأن الجميع فقراء إليه محتاجون لغناه ، وهو المستحق للحمد من كل ما عداه ، فلا يعتد بغنى غيره ولا بحمده ، ومن كان كذلك موصوفاً بجميع صفات الكمال والجـــلال فهو حقيق بأن يرجى ويخشى ، ويقصد ويطلب وحده في كل أمر دون سواه [451].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْـــتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [العنكبوت : 22].

أمر الله رسوله أن يدعو الناس إلى السير في الأرض ليشاهدوا آثار خلقه للأشياء من عدم فيوقنوا أن إعادهما بعد زوالها ليس بأعجب من ابتداء صنعها ، فالخطاب القرآني يجعل الكون كله معرضـــاً لآيات الإيمان بالله ودلائل توحيده ، وصدق وعده ووعيده . ومشاهد الكون وظواهره حاضرة في كل لحظة تحت أعين الناس وإدراكهم ، فهم يرون كيف يبدئ الله الخلق . يرونه في النبتة النامية ، وفي البيضة والجنين ، إلى غير ذلك مما لا تملك قدرة البشر أن يخلقوه أو يدعوا أنهم خـــالقوه ، وإن هذه القدرة الإلهية في الخلق والإحياء تتجلى آثارها المعجزة في هذا الوجود بصورها الواقعية الظاهرة

[451]- راجع : تفسير الألوسي 263/15، وتفسير الرازي 154/12، وتفسير لبقاعي 241/6، 470/8، وتفسير ابن عاشور 486/10، 34/15 ، وتفسير الظلال 461/5 ، وتفسير طنطاوي 4166

لكل الناس ، ولكنها تفقد جدتها في نفوسهم بطول الألفة والتكرار ، فيردهم القرآن الكريم إلى تلك الآيات الباهرة بتوجيهه الموحي والمحيي للمشاهد والظواهر في القلوب والضمائر ، ويثير تطلعهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها ، ويجعل منها دلائله وبراهينه التي تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر ، فكان الأمر بالسير هو تحقيق لهذه الغاية من التدبر والتأمل والاعتبار ، لأن من شأن التنقل فى جنبات الأرض ، أنه يوقظ الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة ، ويبعث على التفكير والتدبر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظة ، فكما أنه قادر على ابتداء الخلق ، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى .

فلذلك كان الأمر بالسير لهذا الغرض من جوامع الحكمة ، ووسيلة جامعة لمختلف دلائل الإيمان . فهو يقرر قدرته المطلقة على الخلق والإحياء والبعث ليستدل بذلك على توحيد ألوهيته وعبادته ، فقوله : { إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } هو تعليل لما قبله ، أي : هو وحده سبحانه القادر على النشأة الأولى ، وعلى النشأة الآخرة ، لأن قدرته لا يعجزها شئ ولا يحول دون نفاذها حائل .فهو يبدأ الحياة ويعيدها بهذه القدرة المطلقة التي لا تتقيد بتصورات البشر القاصرة ، ومن قدرة الله على كل شيء أنه : { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ } ، وإليه وحده المآب؛ لا يعجزه أحد ، ولا يمتنع عليه أحد ، أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم. { وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } أي: ترجعون إلى الدار، التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، وبما أن الله هو المتفرد بالقدرة والتصرف في هذا الوجود ، وإليه المرجع والحساب ، وليس لإحد فيه من قوة يمتنع بها من الانقلاب إلى الله . كما في جواب عيسى لربه في معرض التبرؤ من شرك قومه به ، في قوله : { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [المائدة : 118] . وفي هذا تفويض مطلق في أمرهم إلى الله ؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده .

وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم؛ أي فأنت جدير بأن ترحمهم ولا اعتراض عليك في عذابهم لأنك { أنت العزيز الحكيم } لأن صفحك عمن تشاء من عبادك هو صفح القوي القاهر الغالب الذي لا يعجزه شيء . فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم ، فلا تفعل شيئاً إلا في أعلى درج الإحكام ، ولا يضع الأمور إلا في أليق مواضعها ، فمن مقتضى حكمته تعالى أنه يغفر لمن أتى بأسباب المغفرة ، ويعذب من أتى بأسباب العذاب .

فعلى العباد أن يكتسبوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وأن يبتعدوا من أسباب عذابه ، وهي المعاصي . ولا تغرهم قدرتهم فتخدعهم وتزين لهم النجاة من عذاب الله ،

فإنهم ليسوا بمعجزين الله في جميع أقطار العالم .فالكل هم عباد من خلق الله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فوق أن يملكوا لسواهم شيئاً ، ولما كان السياق لإثبات الإلهية التي تجب المبادرة إلى تفريغ الفكر وتوجيه كل الذهن إلى الاستدلال على الوحدانية المستلزمة للقدرة على المعاد بإبطال إلهية معبوداهم المستلزم لإبطال كل ما شاكلها ، وإنما ساق القرآن هذا الدليل الذي حاج به إبراهيم عليه السلام قومه ، تثبيتا وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعظاً لقومه وإقامة الحجة عليهم ، فالمعنى : أي قل يا محمد لهؤلاء الذين تقيدوا بما تقلدوا من مذاهب آبائهم من غير شبهة على صحته أصلاً ، أنه قد ثبت أن هذا كلام أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأنتم مصرحون بتقليد الآباء غير متحاشين من معرته ، فإذاً قلدوا أباكم الأعظم إبراهيم عليه والسلام في عبادة الله وحده لكونه أولى الناس بذلك ، ولأن تقليدكم له تقليد من هو قائم على الحق من غير شبهة أصلاً ، لأنه يعبد من بيده القوة جميعاً ، ولما أقام القرآن على ذلك من الأدلة التي لا مراء فيها قال : فإن لم تقتدوا بأبيكم إبراهيم عليه السلام ، فسيروا في الارض وتأملوا ما أقام فيها من الدليل القاطع والبرهان الساطع على تفرد الوهيته وعبادته، فهو سبحانه من له القدرة المطلقة وهو من له العبادة الخالصة [452].

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [الانبياء: 56] .

إن من أبرز الأدلة على ألوهية الله تعالى قدرته سبحانه على الخلق والإيجاد وقد استخدم إبراهيم عليه السلام هذا الدليل في إثبات وحدانية الله واستحقاقه للعبودية في دعوته لقومه ، وقد رد عليهم بهذه الآية رداً حاسماً ، بقوله : { بَل رَبُّكُم..} وهذا إضراب عما بنوا عليه مقالهم من اعتقاد كون تلك التماثيل أرباباً لهم كأنه قيل ليس الأمر كذلك بل ربكم ورب السموات والأرض ، هو الذى خلقهن وأنشأهن بما فيهن من مخلوقات بقدرته التي لا يعجزها شيء . فانتقل عن تضليلهم في عبادة الأصنام ونفي عدم استحقاقها لذلك إلى بيان الحق وتعيين المستحق للعبادة ، فكان وصفه تعالى بإيجادهن إثر وصفه سبحانه بربوبيته لهن تحقيقاً للحق ، وتنبيهاً على أن ما لا يكون كذلك بمعزل

---

[452]- راجع : تفسير الألوسي 253/15، وتفسير البقاعي 237/6، وتفسير ابن عاشور 478/10، وتفسير الظلال ، 460/2 ، 459/5، وتفسير السعدي 628، وتفسير طنطاوي ،1420 ، 3303

عن الربوبية التي هي منشأ استحقاق العبادة ، وقد استدل إبراهيم بذلك على ألوهيته تعالى ، فبعد أن أثبت لقومه بالدليل والبرهان العجز والنقص للآلهتهم ، أثبت عدم استحقاقها للعبادة ، وبيّن أن العبادة الحقة لا تكون إلا لمن له صفات الكمال المنزه عن صفات النقص ، وانه هو وحده من يجب اخلاص العبادة له ، كما في قوله تعالى : { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : 79] . أي : إني صرفت وجهي وقلبي فى المحبة والعبادة لله الذي أوجد وأنشأ السموات والأرض على غير مثال سابق . ومائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائفة كلها إلى الدين الحق ، وما أنا من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى لا في أقوالهم ولا في أفعالهم .

وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد تبرأ من الشرك ، وسفه المعبودات الباطلة وعابديها، وأذعن للتوحيد، وأقام على ذلك البراهين والأدلة القاطعة، وألزمهم بمقتضياتها التعبدية ، من ذكر الله باسمائه الحسنى وصفاته العليا ، كما في قوله تعالى : { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى } [الأعلى:1-5] .

يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحا، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم ، وتذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها، أي: أتقنها وأحسن خلقها، وقدرها تقديرًا، فهدى كل مخلوق إلى ما ينبغى له طبعا واختيارا ، ووجهه إلى الوظيفة التى خلقه من أجلها ، بأن أوجد فيه العقل والميول والإلهامات والغرائز والدوافع التى تعينه على أداء تلك الوظيفة .

وإن هذه الصفات التي تلي الأمر بالتسبيح لتحيل الوجود كله معبداً يتجاوب جنباته بتلك الأصداء؛ ومعرضاً تتجلى فيه آثار الصانع المبدع، والتسبيح هو التمجيد والتنزيه واستحضار معاني الصفات الحسنى لله ، والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور . وليست هي مجرد ترديد لفظ باللسان ولكنها تتذوق بالوجدان . وتوحي بالحياة مع الإشراقات المنبثقة من استحضار معاني الصفات ، والمراد : هو تنزيه أسماء الله الأعلى عن كل ما لا يليق بها ، فلا تطلق على غيره تعالى إذا كان خاصة به ، كلفظ الجلالة ، وكلفظ الرحمن ، ولا تذكر فى موضع لا يتناسب مع جلالها وعظمتها ، ولا تحرف عن المعانى التى وضعت لها كما يفعل الزائغون . فقد قال تعالى : { وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ في أَسْمَآئِهِ

سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [الأعراف : 180] . أي : ونزه ربك الأعلى ، عن الشريك والوالد والولد ، وعن الشبيه وكل ما لا يليق به .

وقد بيّن سبحانه سر الفلاح وحسن العاقبة ، في قوله : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى } [الأعلى : 14-15] وعبر سبحانه بالفلاح ليجمع فى هذا التعبير البليغ ، كل معاني الخير والنفع ، لأن الفلاح معناه : وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع . أي: قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق . { وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ } بلسانه وقلبه ، والذكر القلبي يكون باستحضار اسمه تعالى في القلب ، والمراد هو ذكر أسماء الله بالتعظم والإجلال ، على ما تقدم في قوله : { سبح اسم ربك الأعلى } [الأعلى : 1] . والله سبحانه يقرر أن هذا الذي تطهر وذكر اسم ربه ، فاستحضر في قلبه جلال الله فأوجب له ذلك العمل بما يرضي ، خصوصًا الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فإنه قد أفلح في دنياه ، فعاش موصولاً ، حي القلب ، شاعراً بحلاوة الذكر وإيناسه . وأفلح في أخراه ، فنجا من النار الكبرى ، وفاز بالنعيم والرضى . وقدم التزكّي على ذكر الله والصلاةِ لأنه أصل العمل بذلك كله فإنه إذا تطهرت النفس أشرقت فيها أنوار الهداية فعُمت منافعها وأكثرت من الإقبال على الخير ابتغاء رضوان الله وامتثالا لشرعه تعالى [453].

ــ ثالثاً : سعة رحمته تعالى .

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود:73]

أنكر الملائكة عليها تعجبها من أمثال هذه الخوارق لا سيما أنها كانت ناشئة في بيت النبوة ومحل الخوارق فكان حقها أن تسبح الله تعالى وتمجده وتحمده لا أن تتعجب من ألطاف الله سبحانه الخفية ولطائف صنعه الفائضة على عباده ، وهو الذي له الإحاطة بصفات الجلال والإكرام ، ثم

453- راجع : تفسير ابن كثير 381/8، وتفسير الألوسي 410/12، 376/22 ، ، وتفسير الرازي 31/11، وتفسير ابن عاشور 3/5 ، 176/9، وتفسير طنطاوي 1487،2910، 4486، وتفسير الظلال 160/5، 11/8، وتفسير السعدي 525، 926

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عللوا إنكارهم لتعجبها بقولهم : { رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت } ووجه تعليل نفي العجب بهذا أن التعجب إمّا أن يكون من صدور هذا من عند الله وإما أن يكون في تخصيص الله به إبراهيم عليه السّلام وامرأته فكان قولهم { رحمت الله وبركاته عليكم } مفيداً تعليل انتفاء العجبين ، فصار المعنى : لا عجب من أمر الله لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة ، فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها وأنتم أهل لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندكم . ثم أكدوا ذلك بقولهم : { إِنَّـهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ } وهو تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأنّ الله يحمد من يطيعه ، وبأنّه مَجِيدٌ ، أي عظيم الشأن لاَ حَدَّ لِنعَمِه ، وهو تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده.

فإنه { حميد } يعني : المحمود الذي يحمد على أفعاله كلها وهو المستحق لأن يحمد في السـراء والضراء والشدة والرخاء فهو محمود على كل حال ، وفي اختيار وصف الحميد من بـين الأسمـاء الحسنى كناية عن رضى الله تعالى على إبراهيم عليه السّلام وأهله .

{ مجيد } كثير الخير والاحسان الى عباده خصوصا فى ان جعل بيتها مهبط البركات ، وقيل معناه المنيع الذي لا يرام ، وأصل المجد : السعة وقيل الكرم والمجيد صيغة مبالغة منه . أي : واسع الكـرم على عباده ، فإذا كان من المعلوم أنه تعالى قادر على كل شيء، وأنه حميد مجيد ، فكيف يبقى هذا التعجب في نفس الأمر فثبت أن المقصود من ذكر هذه الكلمات إزالة التعجب . فلا شيء بالقياس إلى قدرة الله عجيب . فهو من له الأسماء الحسنى و الصفات العليا ، المستوجب لجميع المحامد والثناء ، المستحق وحده للتمجيد والتعظيم [454].

الشاهد الثاني :

قال تعالى : { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة : 128] .

ولما كان العبد وإن اجتهد في طاعة ربه فإنه لاينفك عن التقصير من بعض الوجوه : إما علـى سبيل السهو ، أو على سبيل ترك الأولى ، فكان هذا الدعاء طلبا للتوبة لأجل ذلك قالا : { وَتُبْ عَلَيْنَا } إنباء بطلب التوبة أثر الحسنة كما هو مطلب العارفين بالله المتصلين بالحسنات رجّعا بها إلى

[454]- راجع : تفسير الرازي 442/8 ، وتفسير الألوسي 307/8، وتفسير الخازن 469/3، وتفسير البقاعي 178/4 ، وتفسير ابن عاشور 171/7 ، وتفسير حقي 469/5، وتفسير طنطاوي 2234

من له الخلق والأمر ، والمراد بطلبهما للتوبة : التثبيت والدوام ، لأنهما معصومان لا ذنب لهما ، فإنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معانٍ يجب أن تكون أحسن مما هي عليه . وإنهما لما عرفا المناسك وبنيا البيت وأطاعا أرادا أن يسنا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة ، ثم عللا طمعهما في ذلك بأن عادته تعالى التطول والفضل فقال : { إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ } وتواب من صيغ المبالغة اطلق عليه تعالى للمبالغة في صدور الفعل منه وكثرة قبوله توبة المذنبين لكثرة من يتوب اليه ، فهو العائد على عباده بالفضل إلى موطن النجاة ، والمتفضل عليهم بالعفو والغفران ، ليعرفوا فضله عليهم وعظيم قدرته ، ثم أتبعه وصفاً هو كالتعليل له ومزيدُ استدعاء للإجابة فقال : { الرحيم } إذ الرحمة صفة من أثرها الإحسان ، فهو سبحانه الرحيم بهم، المستنقذ من يشاء منهم برحمته من هلكته ، المنجي من يريد نجاته منهم برأفته من سخطه ، وقد ختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى ، ليكون ذلك أرجى للقبول عند الله تعالى في استجابة دعائهما .

فإن العبد إذا أراد أن يُستجاب له فليدع الله عز وجل بما يناسبه من أسمائه وصفاته ، وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد طلبا قبول توبتهما صراحة في قولهما { وَتُبْ عَلَيْنَآ } وتوسلا إلى طلب التوبة والرحمة بذكر اسمين من أسمائه تعالى وهما : { التواب الرحيم } وفي ذلك بيان مشروعية التوسل إلى الله تعالى في قبول الدعاء وذلك بأسمائه تعالى وصفاته لا بحق فلان وجاه فلان كما هو شأن المبتدعة وأهل الضلال . فهو سبحانه يتوب على من تاب إليه وأناب، كقوله: { أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ } [التوبة: 104] وقوله : { وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا } [النساء : 11]، وقوله: { وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا } [الفرقان : 71] .

وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم [455].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[455]- راجع : تفسير الطبري، 550/1 ، 82/3، وتفسير ابن كثير 239/1 ، وتفسير الرازي 347/2 ، وتفسير الألوسي 9/2 ، وتفسير البقاعي 184/1 ، وتفسير ابو السعود 206/1 ، وتفسير ابن عطية 154/1 ، وتفسير حقي 307/1 ، ايسر التفاسير 55/1 ، وتفسير طنطاوي 204 ، وتفسير السعدي 66

* **الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم: 36] .

وفي هذه الآية تبدو سمة إبراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم؛ فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب؛ بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته . فالجملة الكريمة تدل على الأدب السامى ، والخلق العالي ، الذي كان يتحلى به إبراهيم في مخاطبته لربه حيث فوض الأمور إليه دون أن يقطع فيه برأي ، كما تدل على رقة قلبه وشفقته على العصاة من الوقوع فى العذاب الأليم . فهو أدب في مقام الدعاء ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه . وعن قتادة : اسمعوا إلى قول خليل الله إبراهيم :{ مَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } لا والله ما كانوا طعَّانين ولا لعَّانين ، وكان يقال: إنّ من أشرّ عباد الله كلّ طعان لعان ، قال نبيّ الله ابن مريم عليه السلام : { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [المائدة: 118] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم وعيسى عليهما السلام ورفع يديه ثم قال: اللَّهُمَّ أُمَّتِي ، اللَّهُمَّ أُمَّتِي ، وبكى ، فقال اللّه تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد ، وربك أعلم ، فاسأله ما يُبكيه؟ فأتاه جبرئيل فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، قال: فقال الله: يا جبرئيل اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءُك " [456].

وها هو صلى الله عليه وسلم في يوم أحد قد ضربه قومه فأدموه ، فيمسح الدم عن وجهه ويقول : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " [457]. ولأن الجو في الآية الكريمة يلقي ظلال المغفرة والرحمة ، فقد جاءت هاتان الصفتان المغفرة والرحمة مناسبتان مع سياقها ، فناسب ذكرهما في استدرار المغفرة على قومه ، أو الرحمة لهم . وناسب تقديم ذكر المغفرة على الرحمة ، لاختصاصها بمحو المعاصي . وتأخرت صفة الرحمة لعمومها ، فهو سبحانه {الغفور} أي بليغ الستر { رحيم } أي

---

[456]- رواه مسلم في صحيحه برقم (202) والطبري في تفسيره (151/13)

[457]- أنظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري 521/6 ، حديث رقم (3290)

بليغ الإكرام بعد ستر الذنوب؛ وأكد للإعلام بزيادة رغبته في العفو لأنه لا ينقص به شيء من عزته سبحانه ولا حكمته . وليس المقصود بهذه الآية الكريمة الدعاء بالمغفرة لمن عصى ، وإنما المقصود بها تفويض أمر العصاة إلى الله إن شاء غفر لهم ورحمهم ، وإن شاء عذبهم . والمعنى ومن عصاني أفوّض أمره إلى رحمتك وغفرانك . { فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } فأنت وحدك القادر على أن تغفِرَ له وترحَمه ابتداءً أو بعد توبتِه ، وفيه أن كل ذنبٍ فلّله تعالى أن يغفرَه حتى الشركُ خلا أن الوعيدَ قضى بالفرق بينه وبين غيره ، ذلك لأن مغفرة الشرك جائزة عقلاً كما تقرر في الأصول لكن الدليل السمعي منع منها ، وهو أن الله سبحانه لا يغفر الشرك . ولا تشمل رحمته المشركين مطلقا [458].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

458- راجع : تفسير الطبري 14/17، وتفسير الألوسي 389/9 ، وتفسير البقاعي 386/4 ، وتفسير أبو السعود 41/4 ، وتفسير البحر المحيط 12/2، 165/7، وتفسير ابن عاشور 439/7 ، وتفسير الظلال 411/4 ، وتفسير طنطاوي 2438

- المبحث الثاني -

الاستدلال بإثبات النقص لكل ما سواه تعالى على ألوهيته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد جادل إبراهيم عليه السلام قومه بمجادلة أقام بها الحجة عليهم ، وبين لهم بالبرهان أن آلهتهم لا تستحق العبادة لما يعتريها من العجز والنقص ، وأن الذي يستحق العبادة وحده هو الله الذي له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته ، ونبّه إبراهيم عليه السلام قومه على الخطأ في دينهم وأرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، وعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئا منها ليس بإله لقيام دليل العجز والنقص فيها ، حيث استدل بما يعتريها من عجز ونقص على نفي ألوهيتها وإثبات الألوهية لله وحده الذي له الكمال المطلق ، ومن الآيات التي وردت في بيان ذلك نذكر منها على النحو الآتي :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الانعام : 74-79]

فإن إبراهيم بفطرته السليمة بين لأبيه خطأه في عبادة الأصنام الأرضية وتنكر أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها هو وقومه آلهة ، فالإله الذي يعبد لا يمكن أن يكون صنماً من حجر ، أو وثناً من خشب فما هي بالتي تستحق أن تعبد؛ وما هي بالتي تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد! كما بين لقومه بطلان ألوهية الأفلاك السماوية لما فيها من عجز ونقص وصفات تتناقض مع صفات الربوبية وخصائص الألوهية ، فبين لقومه بطلان ما كانوا عليه

من فساد العقيدة وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الكواكب ، وعدم صلاحيتها للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين ، ولا تملك لنفسها تصرفا، وهي تغيب عن الأبصار ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، قَالَ أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه .

وقد بنى إبراهيم عليه السلام استدلاله في هذه الآيات على ألوهية الله تعالى وحاكميته وسلطانه ، من خلال إبطال ألوهية الأجرام السماوية الثلاث ، وذلك بعلة أفولها وغيابها في ثلاثة مراحل متدرجة وهي :

– **الأولى : قوله : {فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ }** . ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق المحبة التي هي أصل الإلهية والعبادة ، هو أنّ الأفول مغيب وابتعاد عن الناس ، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة والاطّلاع على أحوال عباده للقيام بمصاحهم وتدبير أمورهم ، فلمَّا أفلّ النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطّلاع على النَّاس والعلم باحوالهم ، وإنّ ما يغيب لا يستحقّ أنْ يُتّخذ إلهاً لأنّه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه . وناسب التعبير عنه هنا بقوله : { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } . لأن إنتفاء المحبة لهذه الأجرام مترتب على انتفاء القيومية عنها التي هي من خصائص الربوبية .

– **الثانية : قوله : { فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ }** . ووجه الاستدلال على بطلان كون القمر إلها هو نفي العلم عنه وإثبات الجهل له بأفوله وغيابه ، والغياب هنا غياب هداية ورشاد وهذا يتطلب علم شامل وكامل لكل شيء والذي يغيب لا يكون له مثل هذا العلم فلا يرجى منه هذه الهداية بحال ، ، لذلك ناسب عند أفوله ، قوله : { لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } وهو حين نفى ربوبيتها بالأفول فقد نفى ربوبيتها بعدم حصول الهداية منها ، ومن ثم أثبت الربوبية لخالقه وحصر حصول الهداية منه وحده تعالى ، كما في قوله : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ } [الشعراء :78] . إن إبراهيم عليه السلام ، يحدد المصدر الصحيح والوحيد لتلقي الأحكام والتشريعات هو الوحي الإلهي ، وهذا ما قصده في قوله : { لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } فبعدما أثبت الأفول والغياب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

للقمر ، أضاف الهداية إلى ربه ، وحصر تلقي هذه الهداية منه وحده ، فهو سبحانه وحده من يتحقق فيه العلم الشامل الذي به تحصل الهداية للإنسان لسلوك طريق الرشاد .

– **والثالثة : قوله : { فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ }** . ووجه الاستدلال بالغياب هنا غياب انتفاء الربوبية مطلقا لكل ما هو داخل في هذا الوجود ، بانتفاء أكبرها في السماء وهي الشمس بدليل أفوله ، كما نفى أكبرها في الأرض بدليل عدم نطقه ، بقوله :{ فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون } وبهذا ثبت عجزها وجهلها ، وانتفى بانتفاء أكبرها ، ربوبية هذه المخلوقات جميعاً ، فناسب التعبير عنها هنا ، بقوله : { يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } ثم أعلن أنه مفتقر إلى ربه الحق ، والذي عبر عنه بصدق التوجه لخالق هذا الوجود ومعرضاً عن كل معبود غيره ، بقوله: { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} .

ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية أنّ الأفول مغيب وابتعاد عن الناس ، فإن الإله المعبود لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده، ومدبرا له في جميع شئونه ، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟! وهل اتخاذه إلها إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟! فإن قيل : فَلِمَ كان أفولها دليلاً على أنه لا يجوز عبادتها ؟ قيل لأن تغيرها بالأفول دليل على أنها مُدَبَّرة محدثة ، وما كان بهذه الصفة استحال أن يكون إلهاً معبوداً ، وإنما احتج بالأفول دون البزوغ ، مع أنه تغير؛ لأن الأفول أظهر في الدلالة؛ لأنه انتقال مع اختفاء واحتجاب [459].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ

[459]- راجع : تفسير ابن كثير 3/290 -292 ، وتفسير الرازي 6/344، 9/184،وتفسير الزمخشري 2/137 ، وتفسير البقاعي 3/76 ، وتفسير الألوسي 5/397 ، وتفسير الماوردي 1/419 ، وتفسير الظلال 1/265، 3/117، 3/ 88 - 89 ، وتفسير طنطاوي 2389،469 ، 1484 ، وتفسير ابن عاشور 2/429 ، 4/500، 4/495- 5/1-10 ، وابن القيم ، طريق الهجرتين ص100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } [الصافات: 83-96] .

لقد قام إبراهيم عليه السلام بواجب الدعوة فنصح أباه وقومه حين وجدهم يعبدون أصناماً وأوثاناً ، مستنكراً عليهم وموبخا إياهم عبادة تلك الأصنام من دون الله تعالى كذباً واختلاقاً ، وهذه فعلة يمجها ويحتقرها كل عقل سليم . فإن ما عبدوه ليس من شأنه أن يعبد ، ولا أن يكون له عابدون! وليس لهم فيما عبدوه شبهة من حق . إنما هو الإفك المحض . والافتراء الذي لا شبهة فيه . وهذا الهبوط إلى هذا المستوى الذي تنكره الفطرة لأول وهلة ، هو نتيجة انحراف التصور عن الله ، وعدم إدراك لحقيقته سبحانه وتعالى ، لذلك قال : { فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين } والاستفهام للإنكار والتحذير فالآية تدل دلالة على واضحة على استنكاره لما كان عليه أبوه وقومه من عبادتهم لغير الله تعالى وعلى نفور فطرته السليمة لما هم عليه من باطل ، وهي تطلع على الأمر البين الذي يصدم الحس والعقل والضمير .كما إنها تحذير لهم من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا في السير في طريق الشرك بالله ، وعدم الأمن من عقابه بسبب سؤ ظنهم بالله . فقوله : { فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين } والمعنى : ما الذي ظننتم برب العالمين، من النقص حتى جعلتم الأصنام له أندادا وشركاء. أشككتم بمن هو حقيق بالعبادة حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية وعبدتم غيره ، وما الذي ظننتم بعقابه عز وجل حتى اجترأتم على الإفك عليه تعالى وعبدتم معه غيره ولم تخافوا غضبه وبطشه وانتقامه؟ وفي هذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم.

فإبراهيم عليه السلام اتبع في مقاومة الشرك وإعلان التوحيد ، طريق الحجة بالقول ولكن القوم ظنوا أنه يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم ، فأظهر عليه السلام ما يعلمون به أنه مجد في إظهار الحق فاتبع الدعوة بالقول الدعوة بالفعل ليقيم لهم أوضح الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة ، لأنها لم تستطع الدفاع عن نفسها ، وليحملهم على التفكير في أن الذي يجب أن يكون معبوداً ، إنما هو الله الخالق لكل شيء ، والقادر على كل شيء ، فبعد أن ترك القوم آلهتهم المدعاة وانصرفوا إلى عيدهم ، ذهب إبراهيم إليها مسرعاً وقال لها على سبيل التهكم والاستهزاء : { ألا تأكلون } أي : تلك الأطعمة التي قدمها لها الجاهلون على سبيل التبرك ، ثم استطرد في تهكمه زيادة في السخرية بتلك الأصنام ، بقوله : { مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ } ومخاطبة إبراهيم تلك الأصنام كما يخاطب من يعقل ، ليس مستعملاً في حقيقته ولكنه مستعمل في لازمه ، وهو تذكرٌ كذب

الذين ألّهوها والذين سَدَنوا لها وزعموا أنها تأكل الطعام الذي يضعونه بين يديها ويزعمون أنها تكلمهم وتخبرهم . وهو بذلك يكشف عن مدى تصورهم السخيف في تأليه تلك الأصنام التي لا يليق أن تعبد، وهي أنقص من الحيوانات، فهي جماد لا تقدر من الاستفادة مما قدمه لها عابدوها ، وتعجز عن النطق لتعبير عن مرادها ، كما هي عاجزة كذلك عن الدفاع عن نفسها ممن أراد بها ضراً ، ولتأكيد هذه الحقيقة الدالة على عجزها بصورة واقعية ، جعل يضربها بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذاذا، إلا كبيرا لهم، لعلهم إليه يرجعون. وحين رأوا آلهتهم بهذه الصورة . أقبلوا نحو إبراهيم يسرعون الخطا ولهم جلبة وضوضاء تدل على شدة غضبهم لما أصاب آلهتهم . وقالوا: { مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ } ولم يأبه إبراهيم لهياج قومه ، بل رد عليهم بمنطق الفطرة السليمة ، مستنكرا عليهم ، وموبخا ومؤنبا لهم : { أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ } أي : قال: أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها وتقطعونها من الحجارة أو من الخشب بأيديكم ، وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل ، ولتأكيد الإنكار والتوبيخ والاحتجاج على أنه لا ينبغي تلك العبادة . قال : { والله خلقكم وما تعملون } أي خلقكم وخلق الذي تعملونه أي من الأصنام كما هو الظاهر ، لأن المعبود الحق ينبغي أن يكون هو الصانع لا المصنوع ، والله تعالى هو الصانع الوحيد الذي يستحق أن يكون المعبود .

وقد احتج إبراهيم عليهم بأنّ العابد والمعبود جميعاً هم من خلق الله ، فكيف يعبد المخلوق المخلوق ، فضلا على أن العابد منهما هو الذي عمل صورة المعبود وشكله ، ولما كان المتفرد بالنعمة هو المستحق للعبادة ، وكان الإيجاد من أعظم النعم ، قال عليه السلام موبخاً إياهم على عبادة الأصنام أن الله هو وحده خلقهم وخلق ما يعملونه من الأصنام وأنه لا مدخل لها في الخلق . ومعلوم أنه لا يجوز لعاقل أن يشكر على النعمة إلا ربها ، لذا فإنها لا تستحق العبادة ، وإن المستحق للعبادة إنما هو المتفرد بجميع الخلق وهو الله تعالى وحده . وقد بين ذلك المعنى كذلك في قوله تعالى: { قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء: 57 – 70] .

وقد سلك عليه السلام في الجواب مسلكاً تعريضياً يؤدي به إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على انتفاء ألوهية الأصنام ، ليحملهم على التأمل في شأن آلهتهم وأنها لو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها ، وعلمت ما جرى لها ، فالتهكم في جوابه : { بل فعله كبيرهم هـذا } واضح فيه السخرية . والقوم وإن علموا أن الأصنام لم تكن تتكلم من قبل إلا أن إبراهيم أراد أن يقنعهم بأن حدثاً عظيماً مثل هذا يوجب أن ينطقوا بتعيين من فعلَه بهم . ليكشف لهم إن هذه التماثيل عاجزة ولا تدري من حطمها . فهي جماد لا تقدر ولا تعلم شيئاً . ولذلك قال { فاسـألوهم إن كـانوا ينطقون } تهكُّماً بهم وتعريضاً بأن ما لا ينطق ولا يعرب عن نفسه غير أهل للآلهية . وذلك أنهم تنبهوا بما أورده عليهم إبراهيم من أدلة على قبح طريقهم ، مما اضطرهم الدليل إلى أن تحققوا أنهم على محض الباطل ، وثابت عليهم عقولهم، وعلموا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عـن نفسـه ، فضلاً على أن لا يعلم من فعل به ذلك ، يستحيل أن يكون مستحقاً للعبادة ، فعلموا أنهـم علـى غرور وجهل في عبادة الأصنام ، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك ، فقالوا : أنتم الظالمون على الحقيقة بعبادة ما لا ينطق حيث عبدتم مالا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، حيث انقلبوا من الرشاد الطارئ إلى الضلال ، وتغيرت آراؤهم بعد أن كادوا يعترفون بحجة إبراهيم فرجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام ، وقلبوا في الحجة واحتجوا على إبراهيم بمـا هـو الحجة لإبراهيم عليهم ، فقالوا : { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ } فكانوا بما قالوا ظـانين أنـه ينفعهم ، فأقروا بهذه الحجة التي لحقتهم حين نفوا عنها القدرة على النطق .

كما أن اعترافهم بعدم نطق الآلهة المدعاة إنتكاس منهم إذ اعترفوا ببطلان تلك الآلهة ومع ذلك أصروا على باطلهم . بقولهم له : أنت تعلم أن هؤلاء الأصنام لا تنطق فما أردت بقولك هذا إلا التنصل من جريمتك . فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجة ، ووقفهم موبخـاً إياهم ومنكراً عليهم عبادتهم تماثيل لا تنفع بذاتها ولا تضر ، في قوله : { أف لكم } حيث أبدى لهم التضجر منهم ومن معبوداتهم ، ومن إصرارهم على الباطل بعد انقطاع العذر ووضوح الحـق ، وفَرَّع على الإنكار والتضجر استفهاماً إنكارياً عن عدم تدبرهم في الأدلة الواضـحة مـن العقـل والحس فقال : { أفلا تعقلون } .تنبيهاً على أن فساد ما هم عليه يدرك ببديهة العقل فقد كشف إبراهيم عليه السلام زيف ألوهية أصنامهم وإبطال عبوديتها من طريقين :

الأول : نفي القدرة عن آلهتهم وإثبات العجز لها : وذلك بتكسيره الأصنام ، وعجزها أن تدفع عن نفسها الأذى ، وكذلك عدم قدرتها على أكل الطعام الذي كانوا يحضروه إليها ، ليس تنزهاً وإنما عجزاً عن الإنتفاع به ، لأنها جماد ساكن لا يتحرك .

الثاني : نفي العلم عنها لعدم قدرتها عن النطق : لأن من لا يستطيع الإفهام فهو معدوم العلم ، وإن عدم استطاعة أصنامهم النفع والضر ملزوماً لعدم النطق . وبذلك أبطل ألوهيتها بإثبات العجز التام والجهل المطلق لها ، فلما ألزمهم الحجة وعجزوا عن الجواب ، لجأوا إلى القوة الغاشمة [460]: { قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ } .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} [الشعراء :69-73] .

استخدم إبراهيم عليه السلام في اثبات عقيدة التوحيد من خلال مسلك الإنكار والبطلان في نفي الشرك ، حيث عمل على إبطال إلهية الأصنام وانحطاط رتبتها عن استحقاقها للعبادة وذلك كونها :

1- لا تسمع دعاء من يدعوها ويرجوها .

2- عدم قدرتها على الضر والنفع .

ولما كان شأن الرب أن يُلجأ إليه في الحاجة وأن ينفع أو يضر ألقى إبراهيم عليهم استفهاماً عن حال هذه الأصنام هل تسمع دعاء الداعين وهل تنفع أو تضر تنبيهاً على دليل انتفاء الإلهية عنها ، فهي عاجزة عن سماع دعاء من يدعوها حتى تستجيب له ، ولو سمعت فهي غير قادرة على أن تنفع من يرجوها أو تدفع عنه الضر . وأمام هذه الحجة القاطعة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه

[460]- راجع : تفسير ابن كثير 24/7 ، وتفسير الرازي 34/11 ، 136/13 وتفسير الزمخشري 4/ 239 ، 475/5 ، وتفسير الألوسي 419/12 ، 247/10 ، وتفسير البقاعي 485/4 ، 311/5، 138/6 ، 135/7 ، وتفسير فتح القدير 63/5 ، 203/6، وتفسير البحر المحيط 170/8 ، وتفسيرابن عاشور 179/9، 92/8 ، 123/12، وتفسير السعدي 525، 705، وتفسير طنطاوي 2911 ، 3577 ، وتفسير الظلال 478/4 ، 6/5،186/162 ، وتفسير البيضاوي 363/3 ، 207/4، وتفسير اللباب 311/11 ، أيسر التفاسير 380/3

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحجة فطوَوا بساط المجادلة في صفات آلهتهم وانتقلوا إلى دليل التقليد تفادياً من كلفة النظر والاستدلال ، فقالوا : { وَجَدْنَا ءابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم الحليم إلا أن يعلن عداوته للأصنام بقوله : { أَفَرَءيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمُ الأَقدمون فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلا رب العالمين } والكلام إنكار وتوبيخ يتضمن بطلان آلهتهم وعبادتها ، وهكذا لم يمنعه أن أباه وقومه يعبدون ما يعبدون ، أن يفارقهم بعقيدته ، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم ، وأنه تعالى لما حكى عنه أنه استثنى رب العالمين ، حكى عنه أيضاً ما وصفه به مما يستحق العبادة لأجله ، وهو أن ربي هذا الذي بيده نفعي وضرّي، وله القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي، ولا ينفع ولا يضرّ. وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على قومه، في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يطيق نفعا ولا ضرّا [461].

* **الشاهد الرابع :**

قال تعالى : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم : 42-43]

ألقى إبراهيم عليه السلام على أبيه استفهاماً عن حال هذه الأصنام هل تسمع دعاء الداعين وهل تبصر من يطيعها ومن يعصيها ، وهل تكفي من يعبدها وتغنيه بجلب نفع أو دفع ضر ، تنبيهاً على دليل انتفاء الإلهية عنها . وعدم استحقاقها للعبادة ، فقد وصف إبراهيم الأوثان بصفات ثلاثة كل واحدة منها قادحة في الإلهية وذلك من ثلاثة أوجه

أحدها : { لا يسمع } فأقل ما يتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع يتوجه إليه بالعبادة والابتهال! وهذه الأصنام لا تسمع عبادها وهم يتوجهون إليها بالعبادة ، ويدعونها للنفع والضر . فإذا لم يسمع الوثنُ دعاءَ الدّاعي ، فأيُّ منفعةٍ في عبادته؟

وثانيها : { لا يبصر } وإذا لم يبصرْ الإله تقرُّبَ من يتقرَّب إليه ، ويعرف حال من هو في خدمته ، وحال من يدعوه ، فأيُّ منفعةٍ في ذلك التَّقرُّب وهذه العبادة وذلك الدعاء؟

---

[461]- راجع ، تفسير الطبري، 362/19-364 ، وتفسير ابن كثير ،145/6، وتفسير الرازي 482/11 ، وتفسير البقاعي 70/6 ، وتفسير الألوسي ، 241/14-251 ، وتفسير ابن عاشور ، 173/10-180 ، وتفسير طنطاوي ،3165-3167 ، وتفسيرالظلال ، 351/5-352 ، وتفسير السعدي ، 592

وثالثها : { لا يغني عنك شيئاً } أي : لا يكفيك شيئاً في جلب منفعة إليك ، وإذا نزل بك ضرّ لم يدفعه عنك .

وهذه الصفات الثلاثة التي وصف بها إبراهيم عليه السلام الأصنام وكل واحد منها قادح في الإلهية ، والمخلوق لو كان حياً مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضر لاستنكف العقل القويم من عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين لما يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة المطلقة فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان . بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان ، إلى جمادٍ لا يسمع ولا يبصر ، ولا يملك ضراً ولا نفعاً ، فعلى أي أساس استندت عبادتهم لها ، وهي لا تتصف بأي وصف من أوصاف الألوهية حتى تستحق هذه العبادة ، بل الإلهية ليست إلا لله تعالى وحده الذي يسمع من يدعوه ويجيب دعوة الداعي ، قال تعالى : { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ } [الرعد: 14]. وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا يستحقها إلا الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، فهو من يسمع ويجيب دعوة الداعي ويبصر حاله ويرعاه، وهو من له أوصاف الكمال فلا يستحق العبادة لذلك أحد سواه [462] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[462]- راجع : تفسير الطبري 203/18 ، وتفسير الالوسي 194/11 ، وتفسير الرازي 310/10 ، وتفسير عطية 367/4 ، وتفسير الخازن 347/4 ، وتفسير البقاعي 205/5 ، وتفسير طنطاوي 2782 ، وتفسير السعدي 494 ، وتفسير ابن عاشور 479/8 ، وتفسير الظلال 351/5 ، 98/5 ، وتفسير بيضاوي 56/4 ، وتفسير المنتخب 11/3

– المبحث الثالث –

الاستدلال بنفي المماثلة مع الله في أسمائه وصفاته على ألوهيته

إن الله تعالى هو المتصف بصفات الكمال المنزه عن صفات النقص ، فليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، ، وذاته لا يماثلها ذواتُ المخلوقات ، ويلزم من ذلك أن كل ما ثبت للمخلوقات في محسوس ذواتها فهو منتفٍ عن ذات الله تعالى .

ولما كان تعالى متفردًا في ذاته وصفاته استلزم ذلك أن يكون متفردًا في أفعاله ، فلا يشبهه أحد من خلقه في فعل من أفعاله . وهي تقوم على كمال القدرة وتمام العلم المحيط بكل شيء ، لذا نجد أن الله تعالى تحدى البشر بكمال قدرته بأن يأتوا بشيء من أفعاله ،حيث تحداهم بأن يخلقوا ذبابة وهي من أصغر مخلوقاته ، قال الله تعالى : { يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج:73-74] . كما تحداهم بكمال علمه بأن يأتوا ولو بأقصر سورة من القرآن ، قال تعالى : { وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة:23]. ولكن هيهات أن يقدر على شيء من ذلك أحد في اللاحق وقد عجز عنه السابقون ، فقد تحداهم سبحانه ليظهر بذلك عجزهم وينفي المماثلة بينه وبين خلقه من كل الوجوه ، وليستدل بذلك على تفرد الوهيته ووجوب عبادته .

وقد نفى سبحانه عن نفسه جل وعلا مماثلة خلقه ، بقوله : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى:11]. وقوله : { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الاخلاص: 4]. وقوله : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [سورة مريم : 65] . وهي تفيد نفي المماثلة والمشابهة بين الخالق والمخلوق ، وإثبات صفات الكمال والجلال لله وحده ، وقد أشار تعالى في آيات كثيرة إلى أن الكفار ساووا بين المخلوق والخالق – قبحهم الله تعالى – فأنكر تعالى ذلك عليهم ، وأبطله من خلال نفي المماثلة بينه وبين خلقه ، ومن ذلك قوله تعالى : { أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ

قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار } [الرعد : 16] . وقوله تعالى : { أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ } [النحل : 17] . وقوله تعالى : { ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ } [الروم : 28] . وقوله تعالى : { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَم لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

[النحل : 73-76] .

أفادت الآيات توبيخ من عبد الأصنام كونها لا تستحقّ العبادة ، فهي ليس بيدها نعمة ، ولا تستطيع رزقهم لعجزها. وكونهم أشركوا بالله وأثبتوا للأصنام صفات الإلهية وشبّهوها بالخالق على سبيل ضرب المثل ، فعارضهم تعالى بضرب مثل لنفي الشريك عنه ، فشبه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرف في نفسه ولا يملك مالا وشبه شأن الله تعالى في رزقه إياهم بحال الغني المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره .

ومعرفة الحالين المشبهتين يدل عليها المقام والمقصود نفي المماثلة بين الحالتين فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية ولذلك أعقب بجملة (هل يستوون) فبيّن غرض التشبيه بأنّ المثل مراد منه عدم تساوي الحالتين ليستدلّ به على نفي الشريك عن الله بعدم المساواة بين الله تعالى وبين آلهتهم المزعومة . والمقصود من ذلك أنه تبيّن من المثل اختصاص الله بالإنعام فوجب أن يختص بالشكر وأن أصنامهم لا تستحقّ أن تشكر .

وهذا ما قرره إبراهيم عليه السلام في قوله : { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا} ووجه الاستدلال في الآية وهو أن معبوداتهم لا تملك لهم رزقا مطلقاً فهي لا تستحق العبادة بالكلية ، لأن العبادة لا تكون إلا لمن يملك الرزق ويقدر عليه ، وبما أن المالك للرزق هو الله وحده ، فإن العبادة لا تكون إلا له وحده ، فهو من يملك الرزق وهو من يطلب ويقصد في تحصيله ، وهو من يستحق أن يعبد ويشكر لأنه المتفضل على عباده بالأرزاق والنعم ،

كما أن الله تعالى أبطل قول عبدة الأوثان بهذا المثل فيما تقرر في أوائل العقول أن الأبكم العاجز لا يكون مساوياً في الفضل والشرف للناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية ، فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساوياً لرب العالمين في المعبودية كان أولى . فذكر الله تعالى هذا المثل ليستدل به على وحدانيته من جانبين متقابلين، مع وضوح الفرق بينهما عند كل ذى قلب سليم:

لأن حاصل أوصاف الأول أنه غير مستحق لشئ ، وحاصل أوصاف الثانى أنه مستحق لكل فضل وخير . إذا ثبت هذا فنقول : ظاهر في بديهة العقل أن الأول والثاني لا يستويان فى عقل أي عاقل ، إذ أن أولهما أبكم عاجز خائب . . وثانيهما منطيق ، ناصح لغيره ، جامع لخصال الخير فى نفسه . ولما انكشف ضلالهم في تسويتهم الأوثان الذين لا علم لهم ولا قدرة ، بالله الذي له الإحاطة بكل شيء قدرة وعلماً ، جاء بعدهما بالاستفهام الإنكاري التوبيخى فقال : { هل يستوي} أي : كيف سويتم – أيها المشركون الضالون المكذبون – فى العبادة بين الله تعالى القدير العليم ، وبين تلك الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عن عابديها شيئا ، فهل يستوى في عرفكم أو في عرف أي عاقل . بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟ [463].

ـــ قال تعالى : { قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(35)وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } [يونس:35-36] .

وهذا استدلال بنقصان آلهتهم عن الإرشاد إلى الحق ، وبأن الله تعالى هو الهادي إلى الحق ، وقَصْر صفة الهداية إلى الحق على الله تعالى دون آلهتهم ، وقد أتبع الاستدلال على كمال الله ببدء الخلق وإعادته ، بالاستدلال على كماله بالهداية كما في قول إبراهيم عليه السلام { الذي خلقني فهو يهدين } [الشعراء : 78] .

ومعلوم أن الذي يهدي إلى الحق هو من له حق الإتباع وحق تقرير طريق الهداية . ومعلوم أن العقول عرضة للاضطراب والخطأ فاحتاجت النفوس إلى هدي يتلقى من الجانب المعصوم عن الخطإ وهو جانب الله تعالى ، فلذلك كان هو وحده من يملك أن يهدي إلى الحق ، وأما الأصنام المزعومة

[463]- راجع : تفسير الرازي 34/11 ، ، تفسير الألوسي 145/20 ، وتفسير الزمخشري 949/1 ، وتفسير البقاعي 485/4 ، وتفسير ابن عاشور 473/10 ، 8/ 90-91 ، 263/14 ، وتفسير البيضاوي 311/1 ، وتفسير الظلال 478/4 ، 6/5،186/162 ، تفسير السعدي 754 ، وتفسير طنطاوي 3758 ، ومختصر تفسير ابن كثير 39/3

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهي لاتهتدي ، فضلاً عن أن تهدي غيرها ، إن منطق البداهة يقضي أن من يعلم الحق هو من يهدي إليه وهو من يتبع ، وهذا يوجب أن نستمد كل حقائق الغيب من الله تعالى وحده [464].

ومن الآيات التي استدل بها تعالى على نفي المماثلة بين الخالق والمخلوق لإثبات تفرده تعالى بالألوهية واستحقاقه للعبودية ، والتي ورد فيها ذكر إبراهيم عليه السلام، نذكر منها كما يلي:

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء:97-98] .

إن المشركين وهم يعذبون في النار يعجبون من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم بالمعونة والنصر بحجارة لا تغني عنهم شيئاً . ولذلك أفادوا تمكن الضلال منهم ، وأكدوا ذلك بوصفهم الضلالَ بالواضح البيّن الذي لا خفاء فيه ، للمبالغة في إظهار ندمهم وتحسرهم وبيان خطئهم في رأيهم مع وضوح الحق كما ينبيء عنه تصديرهم قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب ، وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ تمشّى عليها هذا الضلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مُسكة من عقل .

والمعنى : قال العابدون لمعبوديهم على سبيل المخاصمة لهم ، والتبرؤ منهم : تالله لقد كنا في غاية الضلال الفاحش وقت أن كنا فى الدنيا نسويكم أيها الأصنام في استحقاق العبادة برب العالمين الذي له جميع الكمال في العبادة والمحبة والخوف والرجاء وندعوكم كما ندعوه ، في حين أنتم في الرتبة أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم . لا تضرون ولا تنفعون . وضمير الخطاب في { نسويكم } موجه إلى الأصنام ، وهو من توجيه المتندم الخطابَ إلى الشيء الذي لا يعقل وكان سبباً في الأمر الذي جرّ إليه الندامة بتنزيله منزلة من يعقل ويسمع . والمقصود من ذلك المبالغة في توبيخ نفسه . وجاء بصيغة المضارع في { نسويكم } لاستحضار الصورة الماضية العجيبة حين يتوجهون إلى الأصنام بالدعاء والنعوت الإلهية . فقد جعلوها مثله سبحانه في الاعتراف لها بالإلهية وهو ظاهر حال إشراكهم كما تقدم في قوله : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء : 77] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

464- راجع : تفسير ابن عاشور 6/ 478 ، وتفسير السعدي 364 ، وتفسير الظلال 4/ 144 وتفسير طنطاوي 2111 ، وتفسير البقاعي 68/4 ، وتفسير الرازي 277/8

وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم في التأسف ، حيث نفوا أن يكون لهم من يملك أن ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ونفوا أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ، ويتوجع لهم ، أو يخلصهم .ثم فرعوا على هذا التحسر والندامة تمنّي أن يعادوا إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم في الإيمان بالله وحده ربهم ومالكهم ويؤدوا له حق العبودية .

ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم ، قال تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ } [البقرة : 165] ، إنما ذموا بأن أشركوا وساووا بين الله وبين أندادهم في المحبة و لم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له وهذه التسوية المذكورة في قوله : { إذ نسويكم برب العالمين } وهذا أيضا هو العدل المذكور في قوله تعالى : { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام:1] . أي : يعدلون به غيره ، فيجعلون له نظيراً في العبادة التي هي المحبة والتعظيم ، فهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال ولا قالوا إن آلهتهم خلقت السموات والأرض وانها تحيي وتميت و إنما ساووهم به في المحبة والتعظيم والعبادة كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام وإنما كان ذلك هضما لحق الربوبيه وتنقصا لعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين[465] ، قال تعالى : { وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ" [الفتح:6] . وقال تعالى : " وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [فصلت:22-23] .

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً

[465]- راجع : تفسير الرازي 492/11 ، وتفسير النسفي 476/2 ، وتفسير الألوسي 270/14- 275 ، وتفسير البقاعي 74/6 ، وتفسير السعدي 594 ، وتفسير طنطاوي 3170 ، وتفسر الظلال 356/5 ، وتفسير ابن عاشور 10/ 188 ، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، ليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ص236

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } [يوسف : 38-40]

إن يوسف عليه السلام لما ادعى النبوة وتحدى بالمعجزة وهو علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة ، وأنه كان على شريعة إبراهيم عليه السلام . وأن أباه وجده وجد أبيه كانوا أنبياء الله ورسله ، وأيضاً فكما أن درجة إبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب كان أمراً مشهوراً في الدنيا ، فإذا ظهر أنه ولدهم عظموه ونظروا إليه بعين الإجلال ، فكان انقيادهم له أتم وأثر قلوبهم بكلامه أكمل . فهو إنما حاز هذه الكمالاتِ وفاز بتلك الكراماتِ بسبب أنه اتبع ملةَ آبائِه الكرامِ وهي ملة إبراهيم عليه السلام . ولم يتبع ملةَ قومٍ مشركين ،

وجملة { ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء } من كون التوحيد صار كالسجية لهم عرف بها أسلافه بين الأمم ، وعرّفهم بها لنفسه في هذه الفرصة . وبعد أن عرف يوسف صاحبيه في السجن بنفسه وبملته وبآبائه . شرع يقيم لهم الأدلة على صحة عقيدته ، وعلى فساد عقيدتهما ، فقال : { ياصاحبي السجن أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار } إذ فرض لهما إلهاً واحداً مستفرداً بالإلهية . وفرض لهما آلهة متفرقين كل إله يتصرف بما تحت سلطانه . ثم فرض لهما مفاضلة بين مجموع الحالين حال الإله المنفرد بالإلهية والأحوال المتفرقة للآلهة المتعددين ليصل بذلك إلى إقناعهما بأن حال المنفرد بالإلهية أعظم وأغنى ، فيرجعان عن اعتقاد تعدد الآلهة إلى الإيمان بالإله الواحد . ليستنزل بذلك طائر نظرهما واستدلالهما حتى ينجلي لهما فساد اعتقاد تعدد الآلهة ، إذ يتبين لهما أن أرباباً متفرقين لا يخلو حالهم من تطرق الفساد والخلل في تصرفهم ، كما يومىء إليه وصف التفرق بالنسبة للتعدد ووصف القهار بالنسبة للوحدانية .

وقد ذكر يوسف عليه السلام أنواعاً من الدلائل والحجج على فساد القول بعبادة الأصنام الكاذبة ويمكن أن نجملها بما يلي :

الحجة الأولى : قوله : { أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار } . وتقرير هذه الحجة أن نقول : إن الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو قوله : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا } [الأنبياء : 22]. فكثرة الآلهة توجب الفساد والخلل ، وكون الإله واحداً يقتضي حصول النظام وحسن الترتيب فلما قرر هذا المعنى في سائر الآيات قال ههنا : { أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } والمراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار .

والحجة الثانية : **أن هذه الأصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة** . فإن الإنسان إذا أراد كسرها وإبطالها قدر عليها فهي مقهورة لا تأثير لها ، ولا يتوقع حصول منفعة ولا مضرة من جهتها وإله العالم فعال قهار قادر يقدر على إيصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أن عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار ، فقوله : { ءَأَرْبَابٌ } إشارة إلى الكثرة فجعل في مقابلته كونه تعالى واحداً . وقوله : { مُّتَفَرِّقُونَ } إشارة إلى كونها مختلفة ، وفي قوله : { مُّتَفَرِّقُونَ } إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة وجعل في مقابلته كونه تعالى قهاراً فبهذا الطريق الذي شرحناه اشتملت هذه الآية على هذين النوعين الظاهرين .

والحجة الثالثة : **أن كونه تعالى واحداً يوجب عبادته** . لأنه لو كان له ثان لم نعلم من الذي خلقنا ورزقنا ودفع الشرور والآفات عنا ، فيقع الشك في أنا نعبد هذا أم ذاك ، وفيه إشارة إلى ما يدل على فساد القول بعبادة الأوثان وذلك لأن بتقدير أن تحصل المساعدة على كونها نافعة ضارة إلا أنها كثيرة فحينئذ لا نعلم أن نفعنا ودفع الضرر عنا حصل من هذا الصنم أو من ذلك الآخر أو حصل بمشاركتهما ومعاونتهما ، وحينئذ يقع الشك في أن المستحق للعبادة هو هذا أم ذاك أما إذا كان المعبود واحداً ارتفع هذا الشك وحصل اليقين في أنه لا يستحق للعبادة إلا هو ولا معبود للمخلوقات والكائنات إلا هو ، فهذا أيضاً وجه لطيف مستنبط من هذه الآية .

الحجة الرابعة : **أن هذه الأصنام عاجزة** . لا تملك لأحد نفعاً ولا ضراً لا تنفع ، وأما الله تعالى فهو قادر على جميع المقدورات فهو قهار على الإطلاق نافذ المشيئة والقدرة في كل الممكنات على الإطلاق فكان الاشتغال بعبادته هو الحق وعبادة من دونه هو الباطل . وعليه فإن هذه الأرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك { خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ } الذي له صفات الكمال { الْوَاحِدُ } في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك { الْقَهَّارُ } الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها. ولا شك أن هذا هو الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان ، وهو أن عبادة الله الواحد القهار ، هي العبادة الصحيحة التي توافق الفطرة السليمة والعقول القويمة . وبعد أن أثار لهما الشك في صحة إلهيّة آلهتهم المتعددين انتقل إلى إبطال وجود تلك الآلهة على الحقيقة بقوله : { ما تَعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان } ، يعني أن تلك الآلهة لا

تحقق لحقائقها في الوجود الخارجي بل هي توهّمات تخيّلوها . فسموها آلهة بزعمهم ، وهي لا شيء فيها من صفات الألوهية ، فليس لها من هذا الاسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة، ومرزوقة وليست رازقة ، وزائلة وليست باقية ، وما كان كذلك لا يستحق أن يكون إلها .

والمراد بالسلطان في قوله : { مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ } أي : ما أنزل الله بتسميتها أربابا كما سميتموها بزعمكم من برهان أو دليل يشعر بتسميتها بذلك ، وإنما أنتم الذين خلعتم عليها هذه الأسماء من غير سلطان . بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل الله بها سلطانا، لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها من معقول أو منقول . بل إن شواهد العالم تنفي إلهيتها.

وقوله : { إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ } إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم . بأنها لا حكم لها فيما زعموا أنه من حكمها وتصرفها . أي : ما الحكم في شأن العقائد والعبادات والمعاملات وفى صحتها أو عدم صحتها إلا الله وحده ، لأنه الخالق لكل شيء ، والعليم بكل شئ . فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم { أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ } انتقال من الأدلة الدالة على وحدانيته سبحانه إلى الأمر بإخلاص العبادة له وحده . أي : أمر الله عباده أن لا يجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو خالقهم ورازقهم ، وهو يحييهم ويميتهم .

فجملة { أَمَرَ أن لا تعبدوا إلا إياه } انتقال من أدلة إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية إلى التعليم بامتثال أمره ونهيه ، لأن ذلك نتيجة إثبات الإلهية والوحدانية له ، فهي بيان لجملة { إن الحكم إلا لله } من حيث ما فيها من معنى الحكم .

وقوله : { ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } أي: المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان، فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، لاستيلاء الشهوات والمطامع على نفوسهم .وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به ، أظهر الأشياء وأبينها [466].

---

[466]- راجع : تفسير الرازي 44/9، وتفسير الألوسي 21/9، وتفسير ابن عاشور 270/7، وتفسير السعدي 398 ، وتفسير طنطاوي 2309

ـ **تصويب الخطأ المنهجي في التعامل مع أسماء الله وصفاته :**

يكمن الخطأ المنهجي في التعامل مع أسماء الله وصفاته ، هو أن كثير من الباحثين في هذا المجال لم يفرقوا بين نوعين من الأبحاث المتعلقة بالله تعالى ، وهما [467]:

– **النوع الأول : البحث عن الله تعالى** . وهذا النوع من البحث هــو : حاجــة فطريــة، وضرورة عقلية، وفريضة شرعية، وهذه البحث لا بد أن يوصل إلى معرفة الله تعالى ومعرفة مراده، وذلك بالفطرة الباحثة عن بارئها، وبالمعقول الذي يدرك وجود الله تعالى وبعض صفاته بآثــاره الدالة عليه، وبالمنقول الذي به تكتمل المعرفة عن الله تعالى ومراده، لنحقق مطلوبه ونتال مرضاته سبحانه وتعالى .

– **النوع الثاني : البحث في الله تعالى**. أي البحث في ذاته وكنه أسمائه وصفاته ســبحانه، وهذا النوع من البحث هو : ممتنع عقلاً ومردود شرعاً [468]. ويمكن بيان ذلك على النحو الأتي :

أولاً : أما كونه ممتنع عقلاً :

فمعلوم بداهة أن المحدود لا يدرك المطلق، وأن العقل البشري محدود بمحدودية عناصر العملية الفكرية لديه :

1- فهو من حيث (التصور العقلي) : فإن العقل عاجز عــن إدراك ذات الله تعــالى ، لأن التصور متعلق بالمحسوسات أو ما يقاس عليها ، والله سبحانه لا يقع عليه الحس قال تعالى: { لَــا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } [الأنعام: 103] . وليس له شبيه ولا مثيل يقاس عليه، قال تعالى: { لَــيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى: 11.] .

وعليه فإنه تعالى إذا كان لا يدرك بالحس ولا يقاس على محسوس ، فإن إدراك ذات الله وكنه أسمائه وصفاته من حيث التصور مستحيل عقلاً ، وقد أكد سبحانه هذه النتيجة حيث قطع بأنه لا تحيط به العقول والعلوم [469]. كما في قوله تعالى : { وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } [طه: 110] .

---

467 - د. راجح الكردي، علاقة صفات الله تعالى بذاته، دار العدوي-عمان، ط1، 1980م، ص 13

468 - راجع: هشام البدراني، الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته، ص 149-159

469 - راجع: محمد متولي الشعراوي، عقيدة المسلم، ص 34-35.

2- أما من حيث (التصديق العقلي) : فإن العقل يدرك الله وأسماءه وصفاته بإثبات وجودها ونفي عدمها قطعاً ، وذلك بآثارها الدالة عليها، قال تعالى: { فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الروم: 50] .
فالعقل يدرك الله من حيث وجوده ، ويدرك صفاته من حيث وجودها ، أما حقيقته وحقيقة ذاته ، وحقيقة أسمائه وكنهه صفاته فإنها لا تدرك بالمعقول ، لأن العقل عاجز عن إدراك غير المحسوس أو غير المحسوس أثره مستقلاً بذاته ، وهي لا يمكن إدراكها إلا عن طريق الخبر الصادق المقطوع به ، فإذا ثبت الخبر وجب التسليم به كما جاءنا من غير أن نخوض فيه . علاوة على أن نجادل به. فمعلوم إن هناك فرقٌ واضحٌ بين (التصديق بالمعقول) الذي يتم عن طريق النظر والاستدلال، وهو قابل للمنازعة الفكرية، وبين (التصديق بالمنقول) الذي يتم عن طريق التسليم بصدق المخبر وثبوت السند، وهو غير قابل للمنازعة لأن العقل تلقاها بالتسليم لقبول مصدرها، وأسماء الله وصفاته نتلقاها نقلاً ونصدق بها عن طريق المنقول .

وعليه فإنه ينبغي على الإنسان أن يقف عند حدود قدراته العقلية والأخبار النقلية في أسماء الله وصفاته ولا يتجاوز حدود النصوص النقلية في بحث ذاتها وماهيتها، وإلا كان بحثه ضرباً من التجاوز على حدود المعقول والمنقول وإتباع للظنون والأوهام ، وهو ترف فلسفي وعبثية لا يقبله منطق العقل ، ولا يتفق مع نصوص الشرع [470] .

ثانياً : أما كونه مردود شرعاً :

فإن هناك جملة من الأدلة الشرعية التي تنهى عن البحث في ذات الله وكنه أسمائه وصفاته أو الخوض والجدل فيها، يمكن أن نجملها فيما يلي [471] :

1- أن هذا البحث لم يأذن به الله تعالى لا في كتاب ولا في سنة بل نهى عنه . بقوله تعالى : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180) } [الأعراف: 180] وقوله تعالى: { وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ

---

[470] - راجع: هشام البدراني، الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته، ص 165-166.]

[471] - راجع: هشام البدراني ، الحكم الشرعي في بحث أسماء الله ، ص 178-181.

وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } [الرعد: 13] . وقوله صلى الله عليه وسلم : " تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا "[472].

2- هذا البحث فوق القدرة البشرية ولم يكلفنا الله به . قال تعالى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة : 286] .

3- وهو تكلف وقد نهانا سبحانه وتعالى عنه. بقوله تعالى: { وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) } [ص: 86] .

4- وهو من الأبحاث التي لا علم لنا بها ولا سبيل إليها ولقد نهانا سبحانه أن نتجاوز حدود ما نعلم . بقوله تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا }[الإسراء: 36] . وقوله تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ }[الحج: 8] .أي " بلا عقل صحيح ولا نقل صريح بل هو مجرد الرأي والهوى "[473].

5- إن هذا البحث لا يوصل إلى علم أو حقيقة بل هو مجرد تخرص وظن واتباع للهوى ولقد نهينا عن ذلك . قال تعالى: { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم: 23].

6- إن الخوض في ذات الله وكنه أسمائه يعد جرأة على الله تعالى وعدم تقدير لعظمته وجلاله . قال تعالى: { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج: 74] . وقال تعالى: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } [الأنعام: 100] .

7- إن هذا البحث ابتداع وليس اتباع، ولقد أمرنا سبحانه أن نرد علمها إلى الله تعالى. لقوله عز وجل : { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} [آل عمران: 7] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[472] - هذا الحديث رواه السيوطي بروايات متعددة في الجامع الصغير، ج1، ص 132، ورواه أبو نعيم في الحلية برقم (328) ج6، ص 66-67، والديلمي في مأثور الخطاب رقم (2318)، والبيهقي في شعبة رقم (283) والمناوي، كنز الحقائق، ج 1، ص 107 على اختلاف ألفاظه ولقد علق العجلوني على أسانيد رواياته بقوله: "أسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسبه قوة، ومعناه صحيح، العجلوني، كشف الخفاء، ج1، ص 311، رقم (1005)

[473] - ابن كثير، تفسير ابن كثير ، ج 3، ص 209.

8- إن هذا البحث والخوض فيه يفتح باب الفتن ليكون ذريعة للذين في قلوبهم مرض للطعن والتشكيك . كما في قوله تعالى:{ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ } [آل عمران] ولقد حذرنا سبحانه من مخالفة أمره حتى لا نقع في الفتن قال تعالى: { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63] .

9- إن هذا البحث والخوض فيه يفضي إلى الاختلاف والنزاع بين المسلمين الذي يسبب الفرقة والضعف ولقد نهانا سبحانه عن كل الأسباب الموصلة إلى ذلك . قال تعالى: { وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [الأنفال: 46.] . وأمرنا سبحانه بالتمسك بدينه والإعتصام به قال تعالى: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } [آل عمران: 103].

هذه جملة من الأدلة العقلية والسمعية التي تنهى عن البحث في ذات الله وكنه أسمائه وصفاته، وكل واحد منها كافٍ للإمساك عن البحث والخوض فيها، ونحن قد آمنا بأسماء الله وصفاته عن طريق التسليم بالمنقول وليس عن طريق البحث في المعقول، فلا يعقل أن نحاكم أسماء الله وصفاته إلى عقولنا القاصرة المحدودة، فنتبع الظن والهوى، ونقع في التكلف والابتداع ، ونتجرأ على الله ونقول فيه ما لا نعلم، ونتلبس في الزيغ والظلال، ونفتح باب الفتنة والاختلاف والنزاع وتصيبنا الفرقة والضعف، ومعلوم أن كل هذا منهي عنه في دين الله في مفاد النص القرآني الذي جاء ينهى عن ذلك بصورة صريحة .

وعليه فإن المنهج الحق الذي ينبغي أن نتبعه في التعامل مع أسماء الله وصفاته هو الالتزام بالمنهج الإسلامي الذي بين لنا الطريقة الصحيحة في التعامل معها، وهو أن نؤمن بها ونثبتها كما جاءت من غير تحريف بزيادة أو نقصان، ولا تشبيه ولا تعطيل أو التحير بينهما من إثبات يوهم التشبيه، أو تأويل يوهم التعطيل، والواجب أن نثبتها ذكراً ونؤمن بها تسليماً من غير إعمال ذهن أو إجراء فكر، فلا نفسر ولا نؤول ولا نخوض فيها مع الخائضين، بل نسكت عنها ونمسك عن الجدل فيها، لأن هذا في حق الله ما لا نعلمه وما لا نستطيع إليه سبيلا، وهو تكلف قد نهينا عنه ولم نكلف به لا في كتاب ولا سنة ولا هو في معهود الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان [474].

---

[474]- راجع: هشام البدراني، الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته ، ص 177-195، جمعة أمين، منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام، ص 290-293، دكتور راجح الكردي، علاقة صفات الله تعالى بذاته، ص 209-212.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولقد علمنا عنهم أنهم أمسكوا عن الخوض فيها، فتركوا الخلاف والجدل وطلبوا العلم المؤدي للعمل، واتبعوا و لم يبتدعوا ، فليسعنا ما وسعهم، ولنقف عند قوله تعالى: { سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا } [البقرة: 32] وقوله تعالى: { آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا } [آل عمران: 7] - وقوله تعالى: { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } [الأعراف: 105] .

ويلاحظ المتأمل البصير أن المنهج القرآني لم يتعامل مع قضية أسماء الله وصفاته كما تعامل مع قضية التوحيد، حيث جادل في تقرير عقيدة التوحيد وعمل على توكيدها وإثباتها بالنظر والاستدلال العقلي، بينما لم يجادل في أسماء الله وصفاته، وإنما ذكرها على وجه العموم والإجمال والإيجاز والإختزال على محل التسليم بالمنقول بما يفيد المكلف العلم على وجه العبادة، و لم يلفت النظر إلى المجادلات الفكرية فيها كما هو الحال في تقرير عقيدة التوحيد، وإنما صرف الذهن عن الجدل والخوض في ذاتها وماهيتها إلى النظر في آثارها المادية المحسوسة والمشهودة في الأنفس والآفاق، كقوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) } [الفرقان: 60-61]. كذلك صرف الذهن عن المجادلة فيها إلى تحقيق أثرها التعبدي كقوله تعالى: { وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (109) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (110) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (111) } [الإسراء: 109-11] وقوله تعالى: { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأعراف: 180.] . حيث اكتفى بذكرها على محل الذكر والدعاء ومقتضيات العبادة[475].

وهكذا نجد أن المنهج القرآني حين يذكر أسماء الله وصفاته يوجه النظر نحو آثارها المشهودة في الكون على أثرها التعبدي في فكر السامع وشعوره لتدفع به نحو استقامة السلوك، وهو بهذه المنهجية يسعى إلى تصويب توجهات الفكر والشعور والسلوك في التعامل مع أسماء الله وصفاته وفق مقتضى العبودية . فقد ضبط المنهج القرآني توجهات الفكر وفق مقتضى الحكمة في تعامله مع أسماء الله وصفاته، حيث صرف الذهن عن النظر والتفكر في ذاتها وماهيتها لأنه لا سبيل إلى

[475] - راجع: هشام البدراني، الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته، ص 196-200

إدراكها بالمعقول وإنما التسليم بالمنقول، ووجه الفكر إلى النظر في آثارها المشهودة في الكون باعتبارها الدليل الموصل إلى معرفة كمال الله تعالى في أسمائه وصفاته وما يستلزم ذلك من التسبيح والتقديس لله تعالى بتنزيهه عن كل النقائص والعيوب، والشركاء والأنداد، والمشابهة والمماثلة، مع قطع الطمع في إدراك ذاته وكنه أسمائه وصفاته، وأن يقف عند حدود التسليم بالذكر من غير تحقيق في الماهية والكنه، وهذا لا يعني أن لا نفهم دلالة المعنى المراد من سياق النص كما يفهم في علم الدلالة، حيث ننظر إلى دلالة أسماء الله وصفاته في السياق جملة من غير تفصيل فلا نخرجها من النص ونتعامل معها فكرياً بالنظر إلى ذاتها وماهيتها، وإنما نقف عندها ذكراً وتقريراً كتقرير أي حقيقة، لأن هذا البحث من البحوث الدلالية في اللسان لفهم المراد، لا من البحوث النظرية لفهم الذات [476].

وأما ما جاء في القرآن من آيات تذكر لله تعالى، وجهاً ويداً، ونحو ذلك كما في قوله تعالى: { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } [الرحمن: 27] . فهذه نتعامل معها بالإيمان والتسليم والذكر والدعاء والحمد والثناء، ونفهم معناها في سياق النص جملة من غير تفصيل أو نظر في ذاتها، وهو أنه سبحانه وتعالى: حي باقٍ لا يفنى ولا يموت وإن كل ما عداه يفنى ويموت، فهذا هو المحكم الثابت، وهذا هو المراد المقصود، وهذا ما نعقله وندركه، وهذا ما يحقق فينا الأثر ونحقق به العبودية، فلا نتكلف ما لم نكلف به، ونغفل عن لوازمها التعبدية في حقنا، ونتبع المتشابة الذي لا علم لنا به، وما تقصر عنه العقول وقواميس اللغات، فنأتي إلى كلمة "وجه" ونخرجها من سياق النص، ونتعامل معها بالمعنى القاموسي، ثم نحاكمها بعقولنا القاصرة المحدودة فكرياً بالنظر إلى ذاتها وماهيتها بالتعليل والاستدلال والتفسير والتأويل ونلبس إيماننا بظلم، وعقولنا بالشبه، ونفوسنا بالفتن، ونجردها من معناها الفكري المرتبط بالعمل التعبدي على صعيد الشعور والسلوك، وننحرف عن منهج الله تعالى وما يترتب عليه من تبعات لقوله تعالى: { فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النور: 63] .

وبناء على ما تقدم فإن قضية أسماء الله وصفاته هي من أخطر قضايا العقيدة لما لها من تأثير عظيم في تغير المحتوى الكلي للإنسان في فكره وشعوره وسلوكه، وذلك حين يتعامل مع أثر أسماء الله وصفاته، ويتفاعل معها في كتاب الله المسطور والكون المنظور حتى تستحكم في منافذ نفسه،

[476] - راجع: هشام البدراني، الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته، ص 159-161، ص 173-185

لتتجه به نحو مراتب الكمال الإنساني المقدر له، وإن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا بالمنهج القرآني الذي تميز بأسلوبه الفريد والمؤثر، عن كل المناهج والمباحث الأخرى التي ثبت قصورها وعدم فاعليتــها على صعيد الفكر والواقع.[477]

[477]- راجع: هشام البدراني، الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته، ص 196-200 ، زكريا إبراهيم الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية ص 205

[الباب الثالث]

دور قصة إبراهيم عليه السلام

في بناء الأساس النفسي

لعقيدة التوحيد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* تمهيد :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن الأساس النفسي هو أحد ركني العقيدة، ومقوماتها الأساسية ، وهو الذي يعطي العقيدة عنصرها الإلزامي لتأخذ بعدها الديني كمظاهر لغريزة التدين المستقرة في فطرة الإنسان، وبعدها الروحي في صلتها بالله تعالى، لتكون هذه العواطف الناتجة عن غريزة التدين هي العواطف السائدة والمهيمنة على سائر العواطف الأخرى ، وإن من أبرز هذه العواطف الدينية هي عاطفة: المحبة، والخوف، والرجاء، وهذه العواطف هي طاقات شعورية وجدانية، فاعلة في النفس الإنسانية، إذا أحسن بناءها وتصويب توجهاتها الفطرية والشعورية إلى الله تعالى [1].

وإن المتأمل في المنهج القرآني وطريقته في بناء الأساس النفسي للعقيدة يجد أنه يبني هذه المشاعر الدينية من خلال تصحيح المسار الفكري للعقيدة أولاً ، ومن ثم يصوب من خلاله هذه العواطف ليحولها من الغريزة الفطرية العمياء المفرغة من محتواها الروحي والعقائدي إلى مشاعر دينية وروحية مرتبطة بالعقيدة الإسلامية، ليجعل منها طاقات محركة ودافعة للسلوك باتجاه الاستقامة . لتحقق بذلك فاعليتها وإيجابيتها في الواقع ودنيا الناس .

وهذه العواطف الثلاث من المحبة والخوف والرجاء تنتظم من خلالها سائر المشاعر الدينية وتنبثق عنها ، وأساس هذه المشاعر هي محبة الله ، قال تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } [الإسراء: 57]. فهذه الآية جمعت العواطف الثلاث من: محبة الله، والخوف من الله، والرجاء في الله ، يقول ابن تيمية: "وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليهما، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب " [2]. ويقول ابن القيم في ذلك: "فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاث التي عليها بناؤه : الحب، والخوف، والرجاء " [3].

وعليه فإننا سنتناول دور قصة إبراهيم عليه السلام في بناء الأساس النفسي لعقيدة التوحيد من خلال هذه العواطف الثلاث: المحبة، والخوف، والرجاء، والوقوف على طريقته في تكوين هذه

---

[1] - زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، ص261

[2] - ابن تيمية، التحفة العراقية، المطبعة السلفية-القاهرة، ط2، 1399هـ، ص 66.

[3] - ابن القيم، مدارج السالكين: ج2، ص35.

العواطف في عقيدة المسلم ، مما يسهم في الكشف عن طريقة تأسيس المعتقد الإيماني من الوجهة النفسية ، وكذلك الإطلاع على أثرها السلوكي من خلال الوقوف على سيرته المباركة التي ترجم فيها هذه المشاعر الدينية إلى حقائق واقعية ، كانت مثالاً يرنوا إليها كل من يريد الترفع عن ثقل الغرائز والأهواء ، ويتسامى إلى عالم القيم والمثل . حيث سنقدم هذا الفصل من خلال ثلاثة فصول وما يتفرع عنهما من مباحث ومطالب وذلك على النحو الآتي:

- **الفصل الأول : دور قصة إبراهيم في البناء النفسي لمحبة الله وأثرها السلوكي**

المبحث الأول : التأسيس الفكري لمحبة الله تعالى .

المبحث الثاني : التربية النفسية لمحبة الله تعالى .

- **الفصل الثاني : دور قصة إبراهيم في البناء النفسي لمخافة الله وأثرها السلوكي**

المبحث الأول : التأسيس الفكري لمخافة الله تعالى .

المبحث الثاني : التربية النفسية لمخافة الله تعالى .

- **الفصل الثالث : دور قصة إبراهيم في البناء النفسي لرجاء الله وأثرها السلوكي**

المبحث الأول : التأسيس الفكري لرجاء الله تعالى .

المبحث الثاني : التربية النفسية لرجاء الله تعالى .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– الفصل الأول –

دور قصة إبراهيم عليه السلام

في البنـــاء النفســـي

لمحبـــة الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* **تمهيد :**

إن المنهج القرآني في ضوء معرفته بطبيعة النفس الإنسانية وما ينتابها من ميول ورغبات يدخل إليها بما جبلت عليه الفطرة من محابها وأشواقها ليصوب توجهاتها من خلال ربطها بالعقيدة ، ليحفظ للإنسان تعقله، ويحقق صلاحه واستقامة سلوكه، وليقضي على منازع الهوى وبواعث التردد التي تنتاب نفسه ، وليحميه من الهبوط إلى الأرض والانسلاخ عن الدين . فإن هذه الميول الفطرية إن تركت حرة طليقة من ضوابط العقيدة وتكاليفها الملزمة فإنها حينئذ تصبح تحت تأثير الغريزة العمياء لتجعل من الإنسان عبدا لهواه منقادا لشهواته ضعيفا عن القيام بواجبه ومواجهة الفساد . قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف: 176]. إذا كان هذا حال العالم مع الهوى ، فكيف يكون حال الجاهل ، لذلك جاءت التوجهات القرآنية لتصويب توجهات الفطرة الشعورية وميولها النفسية من خلال ربطها بالمفاهيم العقدية ، ليكون العبد موصولاً بالله تعالى في فكره وشعوره وسلوكه، وتكون حياته كلها لله وفي الله. قال تعالى : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } [الكهف : 28].

وعليه فإن القرآن قد اهتم في تكوين محبة الله تعالى . لما لهذه العاطفة السامية من أثر بالغ في حياة المسلم ويمكن أن نبين منهج القرآن في بنائه النفسي لعاطفة محبة الله تعالى في ضوء قصة إبراهيم عليه السلام من خلال أمرين:

المبحث الأول: التأسيس الفكري لمحبة الله تعالى .

المبحث الثاني : التربية النفسية لمحبة الله تعالى .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– المبحث الأول –

التأسيس الفكري لمحبة الله تعالى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام دوراً بارزاً في تكوين محبة الله تعالى في قلب المسلم ، حيث عمل أولاً على التأسيس الفكري لمحبة الله تعالى في قلب المسلم ، ويمكن أن نتعرف على طريقته عليه السلام في ذلك من خلال قصته في القرآن الكريم حيث كشفت عن معالم منهجه في التأسيس الفكري لمحبة الله تعالى ، وذلك من خلال عدة مطالب :

المطلب الأول : ضبط المفهوم العقدي والشرعي لمحبة الله تعالى .

المطلب الثاني : التأصيل الفكري لمحبة الله العقائدي التوحيدي .

المطلب الثالث : بيان الأسباب الموجبة والداعية لمحبته تعالى .

– المطلب الأول : ضبط المفهوم العقدي والشرعي لمحبة الله تعالى .

أولاً. معنى المحبة لغة واصطلاحاً :

1. المحبة في اللغة .

الحب كلمة دائرة على ألسنة الناس ، رمزاً لتعلق القلوب وميلها إلى ما ترضاه وتستحسنه ، ويطلق في اللغة على صفاء المودة . فالمحبة **هي**: " نقيض البغض، والحب: الوداد والمحبة [4] " ، وهي تدور في اللغة على خمسة أشياء هي: الصفاء والبياض، والعلو والظهور، واللزوم والثبات، واللب والثمرة، الحفظ والإمساك، ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة، فهي صفاء المودة، وعلوها وظهورها من القلب لتعلقها بالمحبوب، وثبوت إرادة القلب للمحبوب ولزومها لزوماً لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبه وثمرته وهو القلب، ولاجتماع عزماته وإرادته وهمومه على محبوبه [5] .

---

[4] – ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص 742. مادة « حبب »

[5] – انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ج3، ص 9.

2. وأما في الاصطلاح .

فإن المحبة قد ورد فيها تعاريف كثيرة، ومتعددة عند العلماء ، نذكر منها :

* **قال الراغب** : والمحبة إرادة ما تراه خيرا أو تظنه خيرا . وهي على ثلاثة أوجه [6]:

1. محبة للذة: كمحبة الرجل المرأة، ومنه: { وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ } [الإنسان: 8]
2. محبة للنفع: كمحبة شيء ينتفع به، ومنه: { وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ } [الصف: 13] .
3. ومحبة للفضل ، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض من أجل العلم.

* **قال القاضي عياض**: وحقيقة المحبة: الميل إلى ما يوافق الإنسان ، وتكون موافقته له [7]:

1. إما لأستلذاذه بإدراكه كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة والأطعمة والأشربة اللذيذة وأشباهها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له .
2. أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة كحب الصالحين والعلماء ، وأهل المعروف المأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة ، فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء .
3. أو يكون حبه إياه لمرافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها .

وعلى ذلك فهذا الميل إما أن يكون حسيا أو عقليا أو قلبيا . وعلى هذه الجوانب الثلاثة- منفردة أو مجتمعة- يقوم الحب في القلب ، فما وافقها مال إليه القلب وأحبه ، وما خالفها نفر عنه وكرهه.

* **قال الغزالي** : " وإنما وقع الخلاف في حقيقتها ومعناها ، وليس للمحبة معنى غير الميل إلى اللذيذ الموافق " [8]. وقال في موضع آخر: " لا معنى للحب إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة " [9]. وأصل الحب قوة في القلب تحرك إرادة الإنسان لتحصيل المحبوبات أصلا ، ودفع المكروهات تبعا ، فتميل النفس إلى

---

[6] المفردات في غريب القرآن . لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني . تحقيق . محمد سيد كيلاني . طبع مطبعة مصطفى الحلبي . مصر 1962م ، مادة « حب » ص105 .

[7] - الشفا بتعريف حقوق المصطفى . للقاضي عياض اليحصبي طبع دار الكتب العلمية . بيروت ، 1399 ، هـ - 2 / 29 - 30 .

[8] - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 314.

[9] - المرجع السابق نفسه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشيء إن كان محبوباً وتنفر عنه إن كان مكروهاً [10]. ويتوقف تعلق النفس بالشيء حباً ، أو النفور عنه كرهاً على الإدراك الفطري أو الكسبي . فالحب إذن ثمرة الإدراك والمعرفة ، فكلما كانت المعرفة أتم كان الحب أقوى والعكس صحيح . لأجل هذا كان الناس متفاوتين في حبهم للأشياء والأشخاص تفاوتا بينا تبعا لتفاوت إدراكهم ومعرفتهم . وإذا كانت وسائل المعرفة والإدراك لدى المرء سليمة وصحيحة أحب الإنسان ما ينفعه ويصلحه ، وإلا أحب الضار يحسبه نافعا والفاسد يحسبه صالحاً [11].

وعليه فإنه بناء على ما تقدم من تعاريف للمحبة ، فإنه يمكن أن نعرف المحبة بأنها : « ميل النفس إلى ما يوافقها فطرة وتستحسنه عقلاً » والناظر إليها يجد أنها لا تخرج في مضمونها عن الميل إلى الشيء السار النافع ، فأما السار فهو ما تتلذذ به النفس طبعاً ، وأما النافع فهو ما تدركه عقلاً .

3. المحبة في النصوص الشرعية [12]:

أما في الشرع فقد ورد لفظ الحب في القرآن والسنة بكل جوانبه الطبعية والشرعية . فالجوانب الفطرية أو الطبعية مثل حب الآباء والأبناء والأزواج وحب المال وسائر الشهوات. قال تعالى : {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ } [آل عمران: 14]. وقال تعالى :{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا } [الفجر : 20]. وقال : { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } [العاديات: 8]. وقال : { كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ } [القيامة: 20].

وفي الحديث : " لا يزال قلب الكبير شابا في اثنتين : في حب الدنيا وطول الأمل "، وأخرج عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان حب المال وطول العمر " [13].

هذه هي المحبة الفطرية الجبلية كما وردت في النصوص الشرعية ، وأما المحبة الشرعية وهي حب الله ورسوله فالنصوص الواردة فيها كثيرة ، ويمكن بيانها على النحو الآتي :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

10 - انظر : رسالة العبودية ، ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية ، 10 / 192 .

11 - أنظر : عبد الرؤوف محمد عثمان ، محبة الرسول بين الإتباع والابتداع ، ص35

12 - أنظر : عبد الرؤوف محمد عثمان ، محبة الرسول بين الإتباع والابتداع ، ص35-57

13 - صحيح البخاري . كتاب الرقاق . 8 / 111

أ. حب الله عز وجل :

فقد جاء لفظ الحب في القرآن والسنة لبيان حب الله لعباده المؤمنين وذلك في مثل قوله تعالى : { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة: 54]. وقوله تعالى : { إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } [البقرة: 222]. وقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [الصف : 4].

وفي الحديث : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قال : من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه . وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه " [14]. كما ورد ما يثبت حب المؤمنين لربهم عز وجل وذلك كقوله تعالى: { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة: 54]. فالحب علاقة متبادلة بين الله تعالى وبين عباده المؤمنين . فإن الله سبحانه محبوب لذاته وهي أكمل محبة [15]. قال تعالى : { وَالَّـذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } [البقرة: 165]. وكذلك هو سبحانه يحب عباده المؤمنين . قال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران: 31]. وسأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم : " متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكني أحب الله ورسوله . قال : أنت مع من أحببت " [16]. فهذه المحبة هي روح كل مقام وأصل كما عمل ديني . فهي حقيقة الإسلام ، فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله ، فمن لا محبة في قلبه لله ورسوله فلا إيمان ولا إسلام له ألبتة [17].

ب. محبة الرسول صلى الله عليه وسلم :

إن مفهوم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم هو : أن يميل قلب المسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ميلا يتجلى فيه إيثاره صلى الله عليه وسلم على كل محبوب من نفس ووالد وولد والناس أجمعين وذلك لما خصه الله من كريم الخصال وعظيم الشمائل ، وما أجراه على يديه من صنوف الخير والبركات لأمته ، وما امتن الله على العباد ببعثته ورسالته إلى غير ذلك من الأسباب الموجبة لمحبته عقلا وشرعا . قال تعالى : { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

14 - صحيح البخاري . وصحيح مسلم 4 / 2033 .

15 - ابن تيمية . مجموع فتاوى 6 / 253-255

16 - صحيح البخاري . كتاب الأدب 8 / 49 ، وصحيح مسلم كتاب البر والصلة . 4 / 2033 .

17 - ابن تيمية ، مجموع الفتاوى 6 / 477 ، ابن القيم ، مدارج السالكين 3 / 18

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } [التوبة: 24].

ومن الأحاديث الدالة على وجوب المحبة ما أخرجه البخاري بسنده عن عبد الله بن هشام قال : " كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : يا رسول الله ، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي . قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا والذي نفسي بيده ، حتى أكون أحب إليك من نفسك ، قال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر " [18]. وفي الحديث " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار " [19].

4. العلاقة بين معنى المحبة والتأليه [20] .

إن اسم الباري سبحانه مأخوذ من : أَلِهَ يَأْلَهُ: إذا تحيَّرَ؛ لأن العقول تتحير في عظمته. وأصل وَلِهَ يَوْله وَلَهاً، وقد أَلِهْتُ على فلان: أي اشتد جزعي عليه؛ وقيل: هو مأخوذ من: أَلِهَ يَأْلَهُ إلى كذا، أي: لجأ إليه؛ لأنه سبحانه الْمَفْزَعُ الذي يُلْجَأُ إليه في كل أمر [21] ؛ إذ (الإله) في هذا السياق اللغوي هو: ما يَشُوقُ القلب، ويأخذ بمجامع الوجدان إلى درجة الانقياد له والخضوع. قال تعالى : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } [الجاثية: 23]. فإن (ألِه) هو من (وَلِه) ومنه اشتُق الاسم العلم: (الله)؛ لأن مدار كلا المادتين على معاني القلب؛ قال الراغب الأصفهاني: (أَلَه فلانٌ يأله: عَبَدَ، وقيل: أصله وِلاه؛ وتسميته بذلك؛ لكون كل مخلوق والِهاً نحوه، إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات، وإما بالتسخير والإرادة كبعض الناس ، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء : الله محبوب الأشياء كلها [22] .

وقال ابن منظور: الوله: الحزن. وقيل هو ذهاب العقل والتحيُّر من شدة الوجد، أو الحزن أو الخوف. والوله: ذهاب العقل لفقدان الحبيب يقال: وَلَهتْ إليه تَلِهُ أي تحن إليه. وناقة وَالِهٌ: إذا

---

[18] – صحيح البخاري . كتاب الإيمان والنذور . باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم 8 / 161 .

[19] – صحيح البخاري . كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان 1 / 10 .

[20] – د. فريد الأنصاري ، جمالية الدين في جمالية التوحيد ، مجلة البيان ، العدد 209 ،ص3

[21] – لسان العرب: مادة (أله)

[22] – المفردات في غريب القرآن: مادة (أله)

اشتد وجدها على ولدها. فأصلها قول العرب: «أَلِهَ الفَصيلُ يَألَهُ أَلَهاً» إذا ناح شوقاً إلى أمه [23].

ويلاحظ أن كلمة (إله) في أصل الاستعمال اللغوي كلمة قلبية، وجدانية، فهي من الألفاظ الدالة على أحوال القلب، كالحب، والبغض، والفرح، والحزن والأسى، والشوق، والرغبة، والرهبة...إلخ. وهكذا فإن مدار المادتين (أله) و (وله) هو على معان قلبية، ترجع في مجملها إلى التعلق الوجداني والامتلاء بالحب، فيكون قول المؤمن: «لا إله إلا الله» تعبيراً عما يجده في قلبه من تعلق بربه تعالى، أي لا محبوب إلا الله، ولا مرهوب إلا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلا قصد الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير الذي ناح شوقاً إلى أمه، إذا أحس بألم الفراق، ووحشة البعد. إن المسلم إذ (يشهد) أن لا إله إلا الله، يقر شاهداً على قلبه أنه لا يتعلق إلا بالله رغبة ورهبة وشوقاً ومحبة [24].

قال ابن القيم : " فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازل السير إلى الله؛ فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام: فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله؛ فمن لا محبة له لا إسلام له البتة. بل هي حقيقة شهادة: أن لا إله إلا الله؛ فإن (الإله): هو الذي يألهه العباد حباً وذلاً، وخوفاً ورجاء، وتعظيماً وطاعة له، بمعنى (مألوه): وهو الذي تألهه القلوب. أي تحبه وتذل له؛ فالمحبة: حقيقة العبودية " [25]. والعبد لا يكون إلا في باب الخدمة بين يدي مولاه، ينتظر الأمر والنهي بشوق المحب، ليبادر إلى التنفيذ دون سؤال : { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء: 23]. إنه الرب المحبوب الأعظم، المرغوب المرهوب، رب الكون والخلق أجمعين. وعلى هذا فإن العقيدة هي : ميثاق المحبة بين الله وعبده .

---

[23] - لسان العرب: مادة (وله).

[24] - أنظر : المصدر السابق

[25] - مدارج السالكين، لابن القيم : 3/ 26 .

ثانياً. المفهوم العقدي والشرعي لمحبة الله تعالى :

إن محبة الله تعالى هي قطب رحى الدين وعليه مداره، وهي أصل العقيدة وروح الشريعة، لا يتحقق الإيمان إلا بها علماً وحالاً وعملاً ولقد بين سبحانه مفهومها من خلال النصوص الشرعية، والتي يمكن أن نجملها على النحو الآتي :

1. إن محبة الله تعالى مصحوبة بالتعظيم والإجلال، ولذلك لا ينبغي أن تترك هذه المحبة لشطحات الوجدانيات والأهواء ، التي ضلّ بها كثير من الخلق ، وزلت بها أقدامهم ، حتى بلغ بهم الوجد والهوى أن رفعوا حجاب التعظيم والإجلال بينهم وبين الخالق سبحانه ، وتغزلوا به تغزل العاشق بمعشوقته ، وأصبحت لذة الوجد والوصل غايتهم ، يبحثون عنها بكل الوسائل فابتدعوا كثيراً من الطرق التي تثير لديهم هذا الوجد والهوى كي توصلهم لهذه الغاية ، وهذا في حقيقته يعدّ خروج عن الأدب مع الله وعن مقتضى الشرع ، وهو لا يليق بجلال الله وعظمته ، قال تعالى : { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج: 74]. وإن هذا التعبير عن محبة الله بهذه الطريقة مبني على سوء الظن بالله تعالى . وهذا الظن السيء بالله كان موضع استنكار من إبراهيم عليه السلام، في قوله : { فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الصافات: 83-87]. وهذا الاستنكار يعبر عن فطرة إبراهيم عليه السلام السليمة البريئة من سوء الاعتقاد بحق رب العالمين ، لأنه من الظنون تدخل الشبهات وتنفذ الشهوات ، قال تعالى : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم: 23]. وإن هذا الظن السيّء بكنهِ الربوبية مؤداه الجهل بصفات العظمة والإجلال لله تعالى وزوال هيبتها في القلب ، لأن سوء ظن العبد بربه يجعله يظن به خلاف كماله المقدس وما يناقض أسماؤه الحسنى وصفاته العليا ، لذلك فإن محبة الله إن تركت للظن والهوى و لم تنضبط بنصوص الشرع ، فإنها تؤدي بصاحبها إلى التيه والضلال ومعلوم أن محبة الله لا مثيل لها فهي فوق كل محبة وتقدير، ولا نسبة إلى سائر المحاب إليها [26]. وفي ذلك يقول ابن تيمية: " فالله هو المحبوب في المحبة والتعظيم المقصود المستقر الذي إليه المنتهى " [27]. وإن معرفة الله مقتضاها الحب والتعظيم والإجلال ، فإذا عرف العبد ربه حق المعرفة فإن قلبه يمتلئ حباً مصحوباً بالمهابة والتعظيم لجلال الله تعالى . فهذا إبراهيم عليه السلام من شدة هيبة الله في قلبه وتعظيمه له ومعرفته بقدر حق العبودية عليه يرجع على الله برجاء قبول طاعته بعد أدائها

---

[26] – انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 18.

[27] – ابن تيمية، قاعدة في المحبة، المطبعة السلفية-القاهرة، ط2، 1399هـ، ص 101.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حينما رفع قواعد البيت، كما في قوله : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127]. وهو عليه السلام مع قربه من الله لم يقبل منه تعالى إستغفاره لأبيه، في قوله : { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } [مريم: 47]. ووجه الاستدلال أن العلاقة بين الله تعالى وجميع خلقه قائمة على أساس الخضوع المطلق لعبوديته تعالى ، وأن القرب منه لا يلغي هذه العبودية بحال من الأحوال ، كما لا ينبغي أن تكون ذريعة للخروج عن مقتضى سنته وشرعه ، فاستغفار إبراهيم المدفوع بسلامة الفطرة لم يلغي سنة الله التي كشفها له تعالى بوحيه المنزل ، فوقف إبراهيم عليه السلام عند ذلك خاضعاً لأمر ربه موجها مشاعره وفق مقتضى قدره وشرعه ، مقدماً مراده على مراد نفسه . كما في قوله تعالى : { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 114]. وهذا الثناء الإلهي لإبراهيم يقطع كل توهم أنه كان مخالفاً لربه ، بل يجزم بإنه قد حقق صورة من العبودية في أعظم أشكالها ، ليكون هذا الموقف رداً على كل من تسول له نفسه أن يتخطى عتبات العبودية بغير وسائلها وطرقها .

2. إن محبة الله تعالى تقوم على التوحيد الخالص ، فهي محبة مشوبة بالتقديس والتنزيه عن المساواة و المشاركة والأنداد ، فلا ينبغي أن تكون المحبة لغيره تعالى ، بحيث لا يكون في قلب العبد أحد أحب إليه من الله ولا مساوياً ولا مشاركاً له في الحب، لأن هذه المحبة تعني الشراكة والمساواة ولقد أنكر الله تعالى على المشركين الذين أشركوا مع الله غيره في المحبة، قال تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } [البقرة: 165]. فأخبر سبحانه أن كل من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فقد جعله نداً لله وهذا شرك في المحبة والألوهية لا في الخلق والربوبية، وهذا ما عليه أكثر أهل الأرض حيث اتخذوا من دون الله أنداداً في المحبة والتعظيم، ولهذا وصفهم بالمشركين، كما وصف من أخلص له في هذه المحبة والعبادة بالمؤمنين حيث قال: { وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ }. ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة بل عبادة الله وحده هي أصل السعادة التي لا نجاة من العذاب إلا بها ، وعبادة إله آخر هو أصل الشقاء الموجب للعذاب[28].

[28] - أنظر : ابن تيمية ، قاعدة في المحبة ، ص11

وقد عبر إبراهيم عليه السلام عن توحيد المحبة لله تعالى . وذلك حينما أفلت الشمس ، في قوله تعالى : { فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) } [الأنعام: 78-79]. فقد تبرأ عليه السلام من المشركين ومعبوداتهم ، كونها لا تستحق العبادة ، وكانت البراءة من مودتهم هي الدليل في توحيد محبته لله تعالى ، حيث توجه إلى الله تعالى بكليته بالمودة والمولاة ، مبيناً علة هذه المحبة وأسباب استحقاقها في كونه هو وحده الذي فطر وخلق هذا الوجود ، فكان هو المستحق وحده لغاية الحب والذل والخضوع [29].

3. إن محبة الله تعالى هي أحد ركني عقيدة التوحيد ، حيث أن توحيد الله تعالى يقوم على ركنين أساسيين هما أصل الإيمان :

أ. التوحيد العلمي من قول القلب ، وهي الأقوال الدينية التي أخبر الله بها عن توحيد ربوبيته وأسمائه وصفاته، والأصل فيها هو التصديق العقلي الجازم ، أي: (تصديق القلب)

ب. التوحيد العملي من عمل القلب ، وهي الأعمال التي أمر الله بها في توحيد ألوهيته، والأصل فيها هو : (محبة القلب) فإن هذه المحبة هي أصل التوحيد العملي، وهو أصل التأليه والعبادة لله وحده كما أن أصل الشرك العملي هو الإشراك بالمحبة [30].

وعليه فإنه إذا كان أصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله كما إن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، فإن : [التصديق بالمحبة] هما أصل الإيمان ، وهما العقيدة أيضاً ، لأن العقيدة هي حالة من الانعقاد الوثيق بين التصديق الفكري والإذعان النفسي بحيث لا ينفصل أحدهما عن الآخر وإلا خرجت عن كونها عقيدة . وهذا ما جاء يؤكده إبراهيم الخليل في قوله : { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } [الأنعام: 76]. حيث قدم البرهان التوحيدي من ارتباط توحيد الربوبية بتوحيد الأولوهية، وهو أن الرب الحقيقي هو وحده من يستحق المحبة لا أحد سواه، فهذه المحبة لله هي توحيد الأولوهية من شهادة أن لا إله إلا الله، فإن المشركين لم ينكروا تفرد الله بالخلق والربوبية وإنما تفرده بالمحبة والتأليه والعبادة. فهذا ما جاء به الرسل يدعون اقوامهم إليه من محبة الله و تأليهه [31].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[29] - أنظر تفسير ابن كثير 288/3

[30] - راجع: ابن تيمية، قاعدة في المحبة، ص 49، 68 ، 87 .

[31] - راجع: المصدر السابق، ص 14.

4. إن محبة الله تعالى هي أصل كل محبة، فإن كل محبة منها تنبثق وعنها تنشأ، فمحبة الله توجب علينا أن نحب كل ما يحب الله من الخلق والشرائع ، ونبغض كل ما يبغضه منهما . وقد قدم إبراهيم عليه السلام نموذجاً فريداً في تحقيق مقتضيات محبته لله تعالى، حينما أعلن براءته من أبيه وقومه ومعاداتهم لأنهم أشركوا بالله ، قال تعالى : { أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: 75-77]. فكان عليه السلام بذلك قدوة حسنة ، ومثال يحتذى في محبته لربه وإعلان الولاء له والبراءة من أعدائه ، قال تعالى: { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ } [الممتحنة: 4]. فهذا حال إبراهيم عليه السلام ومن معه في المجاهدة لأعداء الله عز وجل ، والبراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم ، وأن هذه العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . فكانت هذه المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان ، إنها اعلان الولاية لله تعالى وحده ، والعداوة لكل معبود سواه ، وهذه العداوة لا بد أن تشمل كل ما يعبد من دون الله ، لأن توحيد المحبة لله لا تستقيم إلا بالمولاة لله ولدينه ولأوليائه ، وهي لا تتحقق من غير البراءة من الشرك والمشركين ، سواء كان عابدا أو معبودا . ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين . فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه : { لأستغفرن لك } . فذكر الله عذر إبراهيم في ذلك[32]، بقوله : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إن إبراهيم لأواه حليم } [التوبة: 114].

إن المقتضى التعبدي لهذه الحقيقة الإيمانية من محبة الله تعالى هو أن نحب الرسول والمسلمين والإسلام : أما محبة الرسول: فقوله عليه الصلاة والسلام:" وأحبوني بحب الله "[33]. وقوله صلى الله عليه وسلم: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين "[34].

---

32 - تفسير الظلال 181/7

33 - رواه الترمذي، سنن الترمذي، رقم الحديث"3789"ج5، ص 664، كتاب المناقب، قال الترمذي: حسن غريب وقال الألباني: ضعيف.

34 - رواه البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث "15" ج1، ص 14، كتاب الإيمان.

قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [الأحزاب: 56]. وهذا فيه تنبيه على كماله صلى الله عليه وسلم، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، مما يوجب محبته وتعظيمه وتوقيره والثناء عليه إكرامًا لفضله ورفعة درجته [35]. وهذا فيه أدل الدلالة على لزوم محبته عليه الصلاة والسلام . وأما محبة المسلمين، كقوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } [الحجرات: 10]. وقال تعالى : { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا } [الحشر: 10]. وقال : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح: 29]. وقوله صلى الله عليه وسلم: " لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا [36]". وأما محبة الإسلام كقوله تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ } [محمد: 9]. قال تعالى : { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } [الحجرات: 7].

وقد جمع كل هذه المحاب التي يحبها الله بقوله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن يحب الرجل لا يحبه إلا لله، وإن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار " [37]. وقوله أيضاً: " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً " [38]. كما أن مقتضى محبة الله وما يحبه الله أن يبغض ما يبغضه الله تعالى ولا يوالي أعدائه، ومن ذلك قوله تعالى: { وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [البقرة: 93].

ومن تمام محبة الله تعالى أن يحب لله وفي الله كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان [39]". وهذه المعاني يتضمنها قوله تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } [آل عمران: 31]. وهذا الذي ذكرناه هو المحبة الواجبة وأما المحبة المستحبة هي ما ندب الله إليه من الفضائل المندوبة والنوافل المحبوبة وهذا

---

35 - أنظر تفسير طنطاوي، ص 3447 ، وتفسير السعدي ، ص671

36 - رواه مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم "54ط ج1، ص 74، كتاب الإيمان.

37 - متفق عليه، انظر: صحيح البخاري، حديث رقم "16" ج1، ص14، كتاب الإيمان.

38 - رواه مسلم، صحيح مسلم، رقم حديث "34" ج1، ص62.

39 - رواه أبو داود، سنن أبي داود حديث"4681"ج4، ص220، كتاب السنة، قال الشيخ الألباني: صحيح .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حال السابقين المقربين الذين يتنافسون في حب الله تعالى [40]. كما في قوله تعالى : { وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ } [الواقعة: 10-14]. وقد تجسد هذا المعنى في بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة ، حينما أمره تعالى ببناءها ، فلم يكتفي ببناء القواعد كما أمره تعالى ، وإنما رفعها عن القدر المطلوب زيادة في التقرب لله ، وتعبيراً واقعياً لهذه المحبة في أبهى صورها ، كما في قوله تعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127].

5. إن المحبة بمفهومها القرآني تقوم بقلب العبد الصادق على جناحي الخوف والرجاء، وما تفرع عن ذلك من معاني الرَّغَبِ والرَّهَبِ، لا ما ذهبت إليه طوائف من الغلاة ممن أبطلوا منازل الإيمان من خوف ورجاء . فانتهى بهم الأمر إلى الانحراف عن جادة الصواب والحق ، فهذه دعوى مخالفة لنصوص الشرع ، فالقرآن العظيم والسنة النبوية واضحان في هذا غاية الوضوح ، ولا يزيغ عنهما إلا جاهل أو صاحب هوى، لأن المحب الحقيقي الصادق يخاف من الحرمان، ويخشى من العقوبة بقدر ما يرجو ويشتاق؛ فإذا جرد المحبة عن الخوف والرجاء كان من الكاذبين، كيف لا، ورب العالمين يقول عن صفوة من أنبيائه ورسله : { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 90]. وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له !. فمن رغب عن سنتي فليس مني " [41]. إن الانحراف عن هذه السبيل لا يكون إلا جهلاً بالدين وزيغاً عنه إلى الضلال [42].

وعليه فإن هذا هو مفهوم المحبة العقدي والشرعي الذي يدخل به العبد بعقد الإيمان مع الله تعالى . يقول ابن القيم عن هذه المحبة: "وهي أصل عقد الإيمان الذي لا يدخل فيها الداخل إلا بها، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها، فليشتغل بها العبد أو ليعرض عنها، ومن لم يتحقق بها علماً وحالاً وعملاً لم يتحقق بشهادة أن لا إله إلا الله، فإنها سرها وحقيقتها ومعناها [43] ". فهذه هي المحبة التي ينبغي للعبد أن يحققها في بنائه النفسي ، حتى تكون هذه المحبة مقبولة عند

---

[40] - راجع: المرجع السابق، ص 92

[41] - رواه البخاري في صحيحه (4776) ، مسلم برقم (1401)

[42] - د. فريد الأنصاري ، جمالية الدين في جمالية التوحيد ، مجلة البيان ، العدد 209 ،ص3

[43] - ابن القيم: طريق الهجرتين، ص 632.

الله ، وينال بها محبة الله ورضاه ، لينطبق عليه معنى قوله تعالى : { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ } [المائدة: 54].

والمتتبع لقصة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم يجدها قد جمعت هذه المعاني لمحبة الله تعالى بكل صورها ،، فكانت محبته لربه عز وجل محددة المفاهيم واضحة المعالم ، منضبطة في مسارها وتوجهاتها الشعورية وفق مراده تعالى . بل إن قصته كلها تجسيداً لهذه المحبة وعنواناً لها. فقد أسس عليه السلام المعتقد الإيماني ببعديه الفكري والنفسي ، وترجمه ممارسة سلوكية في واقع حياته العملية ، فكان لنا قدوة حسنة بنص القرآن في قوله تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ } [الممتحنة: 4].

ـــ المطلب الثاني : التأصيل الفكري للحب الإلهي العقائدي التوحيدي .

إن إبراهيم عليه السلام يؤسس محبة الله تعالى وفق تأصيل فكري ، لأن محبة الله تعالى هي الجامعة لكل المشاعر الدينية ، فمحبة الله تعالى ليست مجرد مشاعر جياشة ، وعواطف فياضة ، وإنما هي تمثل صلة العبد بربه ،فهي روح العلاقة مع الله تعالى وقطب رحى الدين، وأصل العقيدة، وروح الشريعة ، فإن كل محبة منها تنبثق وعنها تنشأ، وإن الإيمان لا يتحقق إلا بها علماً وحالاً وعملاً ، فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل .

وقد كان لإبراهيم عليه السلام دور بارز في تأسيس محبة الله في القلب وتأصيلها فكرياً كونها تستند إلى منطق العقل والفطرة ، ويمكن بيان ذلك الدور من خلال عرض بعض هذه الشواهد :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } [الإنعام: 76].

لقد استدل إبراهيم عليه السلام على عدم استحقاق المحبة التي هي أصل الإلهية والعبادة بالأفوال ، لأن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس ، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة والاطّلاع على أحول عباده للقيام بمصالحهم وتدبير أمورهم ، فكان عدم استحقاقها للألوهية بعلة غيابها وانتفاء

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قيامها بمصالح الخلق ورعايتهم ، وهذا ما قصده عليه السلام من الغياب في قوله : { فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } . هو غياب الرعاية والمتابعة والتي لا تتم من غير المتابعة بحال من يراد رعايته ، لحصول القيومية وهو مفقود هنا ، فناسب التعبير عنه هنا بقوله : { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } . لأن المحبة متولدة عنها .

فمعلوم أن القلوب مفطورة على حب من يحسن إليها ويقوم على مصالحها ، فإن انتفاء المحبة لهذه الأجرام مترتب على انتفاء القيومية عنها التي هي من خصائص الربوبية . فعمل إبراهيم عليه السلام على إبطالُ استحقاق آلهة المشركين وصف الإلهية لانتفاء القوامة عنهم ، وقد أورد تعالى على المشركين هذا الدليل في قوله تعالى : { أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ } [الرعد: 33]. والمعنى : إن الله هو المعبود بحق كونه قائم بتدبير شئون الخلق ورعايتهم ، فهو قائم على كل شيء وأن كل شيء قائم في وجوده على إرادة الله وتدبيره . ، فالعبد لا غنى له عن ربه ، فحاجته إليه ضرورة دائمة لا تنقطع ، ومن ثم يظل ضمير المسلم وحياته ووجوده ووجود كل شيء من حوله مرتبطا بالله الواحد؛ الذي يصرّف أمره وأمر كل شيء حوله ، وفق حكمته وتدبيره ، ومقتضى هذا أن يلتزم الإنسان بمنهج الله في حياته .

وإن تصور حقيقة القيام على هذا الوجود كله بالتدبير والرعاية . يبعث في النفس مشاعر المحبة والسكينة إلى جنابه التي تطمئن به القلوب. ولهذا قال إبراهيم عليه السلام : { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } . فربط عليه السلام بين الأفول وانتفاء المحبة لعدم حصول القيومية ، لأن المحبة : هي أصل التوحيد ، وأصل التأليه والعبادة ، وبما أن القيومية هي من اختصاصه تعالى وحده ، وأنه لا مدبّر غيره ، فإنه يقتضي اختصاصه بالإلهية والمحبة والعبادة وحده سبحانه وتعالى . وهذا هو المقصود من تقرير تلك القاعدة ، التي لم يكن المشركون في جاهليتهم يجحدونها . ولكنهم ما كانوا يسلمون بمقتضاها وهو الخضوع لله تعالى عن محبة ورضى ، وتسليم مطلق لشرعه ودينه ، ليكون الله وحده هو المشرع للعباد في كل شئون حياتهم [44].

وفي ذلك يقول ابن عاشور : " ووجه الاستدلال بالأفول على عدم استحقاق الإلهية أنّ الأفول مغيب وابتعاد عن الناس ، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده فلمَّا أفلَ النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطّلاع على النَّاس ، وقد بنَى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم

---

[44] - راجع : تفسير الرازي 344/6، 184/9، ، وتفسير الألوسي 397/5 ، وتفسير الظلال 265/1، 117/3، وتفسير طنطاوي 2389،469 ، وتفسير ابن عاشور 429/2 ، 500/4 ، وابن القيم ، طريق الهجرتين ، ص100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من كون أفول النجم مغيباً عن هذا العالم ، يعني أنّ ما يغيب لا يستحقّ أنْ يُتّخذ إلهاً لأنّه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه . وليس الاستدلال منظوراً فيه إلى التغيّر لأنّ قومه لم يكونوا يعلمون الملازمة بين التغيّر وانتفاء صفة الإلهية " [45].

إن استدلال إبراهيم بانتفاء المحبة بقوله: { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ }. إنما هو مترتب على انتفاء القيومية عنها التي هي من أولى خصائص الربوبية . لأنّ المغيب ابتعاد عن الناس ، وشأن الإله الحق المعبود لا بد أن يكون دائم المراقبة والاطّلاع على أحوال عباده للقيام بمصاحهم وتدبير أمورهم ، وهذا غير متحقق إلا في الله تعالى وحده الذي خلق الإنسان وأمده بجميع أسباب الحياة ، وقد أكد إبراهيم هذا المعني حينما أعلن البراءة من هذه المعبودات الزائفة ، في قوله تعالى : { فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } [الأنعام: 78]. لأنه بانتفاء ربوبية أكبر هذه الأجرام انتفت ربوبية المخلوقات جميعاً ، ومن ثم تعين انقطاع الرجاء من هذه المخلوقات في أن يصل من جهتها شيء من الرعاية أو الهداية مطلقا ، وعبر عن ذلك بالتبرؤ من المشركين ومعبوداتهم ، بقوله : { يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ }. وانتقل إلى من بيده الرعاية والهداية وحده ، وهو الله تعالى فتوجه إليه بالمحبة الخالصة ولولاء المطلق بقوله : { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام: 79]. وهذا توجه إلى من هو حقيق بها وهو خالق هذا الوجود كله ، المدبر لجميع شئونه، بعدما انتفى حصولها من المخلوقات جميعها، وهذا في حقيقته نفي الشرك وإثبات التوحيد ابتداءً بدلالة العقل فيما هو مشاهد معلوم [46]. وهو بذلك يؤسس منهج محبة الله تعالى وفق تأصيل فكري مركّز ومنتج ، ليجعل من هذه الأفكار مفاهيم راسخة في النفس ، بحيث تنضبط بها الميول النفسية لتكون موافقة لمقتضيات الإيمان من وجوب المحبة والامتنان والولاء لله تعالى، ومحققة للوازمها التعبدية وآثارها السلوكية . من الشكر لله قولاً وفعلاً ، وإن الخروج عن هذا المقتضى لغيره هو تنازل عن دواعي العقل ومبادئ الأخلاق ، لأنه يتناقض مع قيّم الحق والعدل .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[45]- التحرير والتنوير ، لأبن عاشور 1/5

[46]- ، راجع : راجع : تفسير ابن كثير 290/3 -292، وتفسير الرازي 344/6، 184/9 تفسير الألوسي 397/5 ، وتفسير طنطاوي 2389،469، وتفسير ابن عاشور 429/2، 500/4 وابن القيم ، طريق الهجرتين،ص100

* **الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [العنكبوت: 24-26].

يخبر تعالى عن جواب قوم إبراهيم رداً على دعوته المشتملة على الهدى والبيان التي خاطب بها قلوبهم وعقولهم:{ إلا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ } . وذلك لأنهم قام عليهم البرهان، وتوجهت عليهم الحجة، ؛ فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، فأضرموا النار، ثم عمدوا إلى إبراهيم فألقوه فيها و لم يكن إبراهيم عليه السلام يملك له دفعاً ، ولا يستطيع منه وقاية . وهو فرد أعزل لا حول له ولا طول . فهنا تتدخل القدرة الإلهية بالمعجزة الخارقة لمألوف البشر :{ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ } بقدرته وكمال عظمته من غير احتياج إلى تدريج ، وإنما بكلمة:{كن} فتحولت خاصية النار من ضره إلى منفعته : { قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء: 69-70]. ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماما. فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان. وكان في نجاته آيات لمن تهيأ قلبه للإيمان : { إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون } . فقد اشتملت قصته على دلائل واضحات على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته .

فجمع {الآيات} لأن في نجاة إبراهيم ، دلالات متعددة على قدرة الله تعالى لا دلالة واحدة :

الآية الأولى : نجاته من النار وتحويلها عليه إلى برد وسلام .

الآية الثانية : عجز المشركين جميعا عن إيذاء رجل واحد يريد الله له النجاة .

الآية الثالثة : إصرارهم على كفرهم على الرغم من هذه الآية الخارقة .

فدل هذا على أن القلوب الجاحدة تبقى على جحودها مع وجود المعجزات الدالة على صدق من جاء بها من عند الله تعالى . وبعد أن نجاه الله تعالى ونصره عليهم رغم اجتماعهم عليه بقوتهم وتناصرهم بالمودة فيما بينهم على ضره ناسب أن يحمل عليهم ويكشف لهم زيف قوتهم ووهن الصلة التي تربطهم بمعبوداتهم الباطلة ، وأنها لم تغني من الله شيئا ، كما في قوله تعالى : **{ مَثَلُ**

الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [العنكبوت: 41]. ولما تقدم سلبه النفع عن هذه الأوثان ، أشار هنا إلى ما يعقبه من الضر ، فقال: { إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا }.

يقول إبراهيم لقومه مقرّعا لهم وموبخا على سوء صنيعهم، في عبادتهم الأوثان : إنكم اتخذتم هذه الأوثان معبودات لكم من دون الله ، لا اعتقاداً واقتناعاً بأحقية هذه العبادة ؛ إنما اتخذتموها لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم، بعضكم لبعض في الحياة الدنيا؛ أي ما اتخذتم أوثاناً إلا لأجل مودّة بعضكم بعضاً . ووجه الحصر أنه لم تبق لهم شبهة في عبادة الأوثان بعد مشاهدة دلالة صدق الرسول الذي جاء بإبطالها، وفعل { اتخذتم } مراد به الاستمرار والبقاء على اتخاذها بعد وضوح حجة بطلان استحقاقها العبادة . فتمحض أن يكون سبب بقائهم على عبادة الأوثان هو مودة بعضهم بعضاً الداعية للموافقة وعدم المخالفة . وأشار إلى عظمة الخالق وعلو شأنه بقوله : { من دون الله } أي الذي كل شيء تحت قهره ، وقوله : { أوثاناً } إشارة إلى تكثرها الذي هو مناف لرتبة الإلهية؛ وأشار إلى ذلك النفع بقوله : { مودة } أي لأجل المودة . فيكون الذي دعاهم إلى اتخاذها بأن بعض من يودّونه عبدها فعبدوها موافقة له لمودتهم إياه ، وهذا كما يرى الإنسان من يوده يفعل شيئاً فيفعله مودّة له ، والمودة : المحبة . فهؤلاء القوم يحب بعضهم بعضاً فلا يخالفه وإن لاح له أنه على ضلال ، ويحبون الأوثان فلا يتركون عبادتها وإن ظهرت لبعضهم دلالة بطلان إلهيتها، قال تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ } [البقرة: 165]. فهم يتوادون ويجتمعون على عبادتها ويتفقون في أمرها بالتناصر والتعاضد كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم على حساب الحق والعقيدة! وإن هذا ليقع في الجماعات التي لا تأخذ العقيدة مأخذ الجد ، فيسترضي الصاحب صاحبه على حساب العقيدة؛ ويرى أمرها أهون من أن يخالف عليه صديقه! وهي الجد كل الجد . الجد الذي لا يقبل تهاوناً ولا استرخاء ولا استرضاء . قال تعالى : { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } [الفرقان: 27-28]. وقوله : {في الحياة الدنيا} وهذا دال على أن اجتماعهم لإغراض دنيوية رخيصة وتناصرهم والموادة بينهم لأجلها، وهذه هي العادة المستمرة في تجمع الفساق من أهل الدنيا وهذا ديدنهم ، وأن الحب في الله والاجتماع له عزيز جداً ، لما فيه من قطع علائق الدنيا وشهواتها التي زينت للناس ، بما فيها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من الإلباس ، وعظيم البأس. قال تعالى : { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } [التوبة: 24] .

ولذلك كشف اللثام عن حقيقة هذه الروابط المزيفة في الآخرة . فإذا المودة التي يخشون أن يمسوها بالخلاف على العقيدة ، والتي يبقون على عبادة الأوثان محافظة عليها، إذا هي يوم القيامة ستزول لأنها مودة باطلة ، ويتبرأ القادة من الأتباع ، والأتباع من القادة ، وتنعكس هذه الصداقة والمودة إلى عداء ولعن وانفصام ، قال تعالى: " كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا "[الأعراف: 38]، وقال تعالى : { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف: 67]. ففي ذلك اليوم يتنكر التابعون للمتبوعين ، ويكفر الأولياء بالأولياء ، ويتهم كل فريق صاحبه أنه أضله ، ويلعن كل غوي صاحبه الذي أغواه! فهذه المودة ، وهذه المعبودات التي اتخذوها أولياء من دون الله، لا تنفعهم، يوم القيامة، كقوله تعالى : { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا } [مريم:82]. والمراد نفي أن يكون فيها نفع أو ضر وأن العلة لاتخاذها رجاء النفع أو خوف الضر ، هي علة غير معتبرة كقولهم : { مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى } [الزمر: 3]. للإشارة إلى أن ذلك لكونه أمراً موهوماً لا حقيقة له مما لا ينبغي أن يكون علة باعثة وسبباً حاملاً لمن له أدنى عقل . فإن الأنداد التي كانوا يعبدونها في الدنيا تضل عنهم يوم القيامة، وينقطع ما كان بينهم وبينها من الصلات في الدنيا، وتزول تلك المودات والمسايرات والتقاليد إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات . كقوله تعالى : { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ } [التوبة: 94]. وقوله تعالى : { فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ } [هود: 101]. وقوله : { وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } [الأحقاف: 6]. وقوله تعالى : { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } [فاطر: 14]. ثم إن ذلك الكفر والتلاعن والتبرؤ لا يجدي شيئاً ، ولا يدفع عن أحد عذاباً ، لذلك قال: { وَمَأْوَاكُمُ النار } أي : هي منزلكم الذي تأوون إليه جميعاً العابدون والمعبودون . ثم أعرق في النفي فقال :{ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ }. أي: يخلصونكم من

هذه النار، أو يخففون عسيرها عنكم . وفي نفي الناصر تعريض بهم فإن النار التي أرادوا أن يحرقوا إبراهيم بها نجاه الله منها ، ونصره عليهم . فأما هذه النار فلا نجاة لهم ولا نصرة! وجيء بصيغة الجمع: {الناصرين} زيادة في النكاية بهم حينما تألبوا على إبراهيم وتجمعوا لنصرة أصنامهم نجاه الله منهم وعجزوا عن إيذائه وهم مجتمعون ، فحسنت المقابلة هنا بالجمع ، إظهاراً لقدرته تعالى في نصرته لأوليائه على قلة عددهم ، مع عجزهم هم عن الانفلات من عذابه على كثرتهم . وأنه جعل جزائهم من جنس فعلهم بحرمانهم من النصراء مطابقة بين الجزاء والحالة التي كانوا عليها .

وفي قوله : { فآمن له لوط } جملة معترضة في سياق الإخبار عن إبراهيم ، وأفادت الفاء مبادرة لوط بتصديق إبراهيم ، لأجل دعائه له مع ما رأى من الآيات المعجزات والدلائل الواضحات . وفي قوله : { قال إني مهاجر إلى ربي } فضمير (قال) عائد إلى إبراهيم لأنه المقصود في القصة . أي أعلن أنه مهاجر ديار قومه وذلك لأن الله أمره بمفارقة أهل الكفر ، ونقف أمام قولة: { إني مهاجر إلى ربي } . لنرى فيم هاجر . إنه لم يهاجر للنجاة . ولم يهاجر إلى أرض أو كسب أو تجارة . إنما هاجر إلى ربه محبة وتقرباً إليه، وملتجئاً إلى جنابه وحماه . هاجر إليه بقلبه وعقيدته قبل أن يهاجر بلحمه ودمه . هاجر إليه ليخلص له عبادته ويخلص له قلبه ويخلص له كيانه كله في مهجره ، بعيداً عن موطن الكفر والضلال . بعد أن لم يبق رجاء في أن يفيء القوم إلى الهدى والإيمان بحال ، فهو لم يهاجر من أجل منفعة دنيوية ، وإنما هاجر من أجل تبليغ أمر ربه ، وإعلاء كلمته . فترك أرضه وعشيرته على وجه الهجر لهم وانحاز إلى ربه ، أي إلى أرض ليس بها أنيس ولا عشير ، ولا من ترجى نصرته ، ولا من تنفع مودته ، فحينئذ يتبين الرضى بالله وحده ، والاعتماد عليه دون ما سواه . ثم علل ذلك بما يسليه عن فراق أرضه وأهل وده من ذوي رحمه وأنسابه وأولي قربه ، فقال مؤكداً تسكيناً لمن عساه يتبعه وتهويناً عليه لفراق ما ألفت النفوس من أنه لا عز إلا به من العشائر والأموال والمعارف : { إنه هو العزيز الحكيم } فهي جملة واقعة موقع التعليل لمضمون (إني مهاجر إلى ربي) لأن من كان عزيزا يعتز به جاره ونزيله ، أي الغالب على أمره ، فهو وحده تعالى الجدير بإعزاز من انقطع إليه ويمنع أعدائه عن إيذائه بعونه . { الحكيم } الذي لا يأمر إلا بما يوافق الحكمة ، ولا يفعل فعلا إلا وفيه مصلحة . فهو إذا أعز أحداً منعته حكمته من التعرض له بإذلال ، بفعل أو مقال ، كما نصر إبراهيم ونجاه من النار ، في حين أن قومه أرادوا إذلاله ، وكان حقيقاً بهم نفعه وإعزازه وهم ذوي عشيرته ورحمه. وأما إتباع وصف (العزيز) ب (الحكيم) لإفادة أن عزته محكمة واقعة موقعها المحمود

عند العقلاء مثل نصر المظلوم ونصر الداعي إلى الحق ويجوز أن يكون (الحكيم) بمعنى الحاكم فيكون زيادة تأكيد معنى (العزيز) ولما كان التقدير : فأعززناه كما ظن بنا إعزازاً ، وأحكمناه حتى استمر الخير في عقبه إلى يوم القيامة ، عطف عليه بقوله : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة } [العنكبوت: 27]. أي بجليل قدرتنا شكراً على هجرته من زوجته سارة التي جمعت إلى العقم في شبابها اليأس بكبرها، وأفرد إسحاق عليه السلام دون إسماعيل انسجاماً مع المقام ، فهو مقام تعداد نعمه عليه ، فلم يبتل فيه كما أبتلي بإسماعيل حينما أمره بذبحه ، ولأن المنة به أكبر وأعظم لكون أمه عجوزاً وعقيماً ، ولأن فيه إظهار لقدرة الله لما فيها من العجب . فقد عوض الله خليله إبراهيم عن وطنه وعن قومه وعن أهله عوضه عن هذا كله ذرية تمضي فيها رسالة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فكل الأنبياء وكل الدعوات بعده كانت في ذريته . وهو عوض ضخم في الدنيا وفي الآخرة . قال تعالى : { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [لعنكبوت: 27]. فجمع الله له أجرين على هجرته : { في الدنيا } بما خصّه به مما لا يقدر عليه غيره تعالى: من سعة الرزق ، ورغد العيش ، وكثرة الخدم ، والولد في الشيخوخة ، وكثرة النسل ، والثناء الحسن ، والمحبة من جميع الخلق ، وغير ذلك .{وفي الآخرة} كونه في زمرة الصالحين والتعريف للكمال أي من كمل الصالحين [47].

وعليه فإن هذه الآيات الكريمة الواردة في قصة إبراهيم عليه السلام تؤسس البناء الفكري لمحبة الله بموجب قدرته تعالى المطلقة . فقد أنجاه الله تعالى ونصره بقدرته التامة على أعداءه وهو فرد واحد وهم جمع كثير ، تألبوا على مناوأته عليه السلام. فإنهم ما ألبهم إلا تناصرهم وتوادهم في الكفر والباطل، وتلك شنشنة أهل الشرك قديماً وحديثاً، وهو ليس له ولي سوى الله تعالى الذي له القوة المهيمنة على الوجود كله ، فنجاه ونصره عليهم ، ولم تغني قوتهم من الله شيئاً . وهذا يعني أن العبد ينبغي أن تكون صلته بالله تعالى وحده ، وأن يقطع كل العلائق من قلبه مما سوى الله . فها هو عليه السلام يقدم لنا درساً في إخلاص المحبة لله تعالى فيهجر وطنه الذي ترعرع فيه، ويفارق قومه وعشيرته الذي عاش في أكنافهم ، ليس لمغانم الدنيا وحظوظها ، وإنما حباً لله تعالى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[47] - راجع : تفسير ابن كثير271/6 ،وتفسير الرازي 152/12 وتفسير الالوسي 260/15 وتفسير الظلال 460/5وتفسير طنطاوي 3305- 3306 وتفسير البقاعي 240/6 -241 وتفسير السعدي 629 وتفسير ابن عاشور 484/10، تفسير اللباب لابن عادل، 439/12، وتفسير ابن عجيبة،471/4، وتفسير الشنقيطي 49/3 ،

وطلباً لمرضاته ، وهو حينما يضرب في الأرض ويتغرب فيها، وقد ترك العزوة والنصير من أهله وقرابته ، إنما يستند إلى القدرة الإلهية المطلقة التي تحفظه وترعاه ، والتي يجد في كنفها الآمن والطمأنينة . فإن العبد إذا عرف جلال الله تعالى وعظمة قدرته فإن قلبه يتفطر لحبّه ويخشع لذكره فلا يخشى سواه ولا يرجو غيره . وسارع لطاعته ، وسابق في مرضاته. قال تعالى : { أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الزمر: 9].

ـ المطلب الثالث : بيان الأسباب الموجبة والداعية لمحبته تعالى.

لقد أودع الله تعالى في فطرة الإنسان الأسباب الموجبة لمحبته سبحانه ، فخاطبه من خلال هذه المحاب والمتعلقات لتكون طريقاً نافذاً إلى فطرته ليوقظ بها حواسه ويحرك فيها مكامن شعوره ليهيج في نفسه مشاعر الحب والوداد لتتجه بكليتها إلى الله تعالى وحده ، ولا يكون في قلبه أحد سواه . ومن هذه الأسباب[48] :

أولاً. الإيجاد والإمداد.

إن الإنسان بفطرته التي جبله الله عليها يحب ذاته ويحرص على دوامها، ويحب من أحسن إليه وأمده بالمعونة والنصرة، وقام على حوائجه وحظوظ نفسه، وهو لذلك يحب من كان سبباً في وجوده ، ومن يمده بأسباب البقاء والدوام ، فإذا عرف الإنسان أن الله هو من أنعم عليه بالإيجاد والإمداد ، وأن كل ما به من نعمة وفضل وإحسان هو منه وحده تعالى ، وأنه هو المحسن إليه من كل الوجوه، فإنه قطعاً سيحبه ويتعلق قلبه به، لأن النفوس مفطورة على محبة من هو سبب وجودها ودوامها ومحبة من أحسن إليها، وموجب هذا أن يحب العبد ربه ويعبده وحده لأنه هو خالقه وموجده ، وهو المحسن إليه وإلى كافة خلقه ، فالحب لغيره بهذه العلة من الجهل، لأن الله هو المتفضل بجوده وإحسانه على جميع خلقه ومن كل الوجوه .

وهذا ما أكده القرآن في كثير من آياته وقصصه لهذا المعنى . وقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام في القرآن دوراً بارزاً في غرس محبة الله تعالى في القلوب ، وذلك من خلال التأسيس الفكري لهذه المحبة ، عن طريق بيان موجبات محبته تعالى من الإيجاد والإمداد ، تصويباً للفطرة في

([48]) راجع: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 318-325.

مشاعرها النفسية لتتجه إلى الله على بصيرة ووعي ، وحتى لا يترك للوجدان أمر تقرير أخطر قضية مصيرية في حياة الإنسان ، وهي قضية لمن تكون الدينونة ، وكيف تكون ؟ فكانت قصة إبراهيم عليه السلام من أعظم القصص التي ينبغي أن يُعنى بها في مجال التربية للشخصية الإسلامية ، فهي غنية بالقضايا العقدية وما يتضمنها من معاني فكرية ونفسية ، وثرية بالقضايا السلوكية وما يتضمنها من معاني العبادة والأخلاق ، والدعوة والاستخلاف في الأرض . ونحن لا يمكن أن نحصي هذه الشواهد الكثيرة في القرآن لهذه المدرسة التوحيدية الحنيفية في هذه الدراسة ، ولكنها مجرد إشارة إلى أهمية دورها في المساهمة في بناء الإنسان الصالح والمصلح ، الذي هو أساس عملية التغيير والإصلاح ، والمقوم الأول للنهضة الحضارية .

ويكفي دليلاً على أهميتها هو أننا مأمورين بإتباع ملته عليه السلام . إبتداء من قدوتنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى : { ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل: 123]. ثم أمته من بعده ، كما في قوله تعالى : { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا } [آل عمران: 93]. ونقف مع القرآن الكريم في تجلية دور قصة إبراهيم في تكوين الجانب النفسي لمحبة الله تعالى عن طريق التأسيس الفكري للمعتقد الإيماني من خلال الكشف عن دواعي هذه المحبة ولوازمها والتي من أبرز هذه الدواعي هو (الإيجاد والإمداد) أو دليل الخلق ودليل العناية ، وهي طريقة القرآن كما _ بينا سابقاً ـــ في مخاطبة الفطرة الإنسانية من خلال محابها ومتعلقاتها وكل ما هو قريب منها في المجال الكوني ، لينفذ من هذه الموجبات والدواعي إلى غرس محبته تعالى في أعماق النفس وصميم القلب . ومن هذه الشواهد نذكر منها ما يلي :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء: 75-81].

إن إبراهيم عليه السلام يعلن البراءة لأبيه وقومه من جميع معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله ، وهذه البراءة منه عليه السلام يستصحبها نفي المحبة والموالاة ، وإعلان العداوة والبغضاء حتماً ،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فلم تمنعه وشيجة القربى أن يفارق أباه وقومه بعقيدتهم الفاسدة التي تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات ، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم وفي ذلك تعليم للمؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا لقوم؛ وأن الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هي قيمة الإيمان . وأن ما عداه تبع . وهذه العداوة والبراءة تشمل كل ما يعبد من دون الله لأن التوحيد لا يستقيم إلا بالمولاة وهي لا تتحقق من غير البراءة من الشرك والمشركين ، سواء كان عابدا أو معبودا . لأن الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها في طلب المنافع ودفع المضار صارت أسباباً لانقطاع الإنسان عن محبة ربه وعبادته جرت مجرى الأعداء ، فلا جرم أطلق إبراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو، وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على قومه، في أنه لا تصلح العبودية ولا تصح المحبة والتأليه إلا لرب العالمين مالك هذا الكون كله ، فكيف تعبدونها وتقدمون لها المودة وأنتم وهي من سائر ملكه تعالى؟ وهذا من إبراهيم استنكاراً وتأنيباً لقومه ليوقظهم من جهلهم ومن عماية التقليد لو كانوا يعقلون [49].

وقد علل إبراهيم عداوته لهم ولمعبوداتهم الباطلة لأنها لا تملك صفات الربوبية التي بها تستحق المحبة والتأليه وبأن عبادته إنما هي لمن يستحقها وهو الله تعالى وحده. لذلك استثنى إبراهيم {رب العالمين} من عدائه لما يعبدون هم وأباؤهم الأقدمون بقوله:{ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين}. لكن الله رب العالمين مالك الخلائق ومربيهم أجمعين ومدبر هذه الأكوان كلها والمتصرف فيها ، فإنه ليس بعدوي ، بل هو محبوبي ووليّي ومعبودي؛ لأنه الكل تحت ملكوته مفتقر إليه تعالى في ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعها. فهو وليي وصاحب الفضل علي في الدنيا والآخرة ، فلذا أعبده وحده . وذلك كونه موصوفا بصفات الربوبية الراعية للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض ، ثم شرع إبراهيم عليه السلام يصف معبوده بالصفات التي يكون المتصف بها يستحق المحبة والعبادة والتأليه وهي الأوصاف الفعلية التي تخص البشر بما هم به عالمون من أنه على الضد الأقصى من كل ما عليه أصنامهم، وهي :

1. قوله تعالى :{ الذي خلقني فهو يهدين } أي: فهو الذي أنشأني وهو أعلم بحالي ومآلي ، وهو من يهديني إلى نهجي الذي أسيره في حياتي . إن إبراهيم يعلن الاستسلام المطلق لربه في طمأنينة ويقين [50] فالذي خلق الإنسان هو الذي يختص بالمحبة والعبادة وحده [51].

---

[49]- راجع : تفسير الطبري 312/19 ، 532/4 ، 313/7 ، وتفسير الألوسي 26/9 ، وتفسير طنطاوي 3165 .

[50]- راجع : تفسير الطبري ، 19 / 363 ، وتفسير الظلال ، 3 / 353 ، وتفسير ابن عاشور216/5

2. وقوله :{ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } وهذا تعديد للنعمة في الرزق أي : هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسي كثيرا وهو الذى أنعم علىَّ بالطعام والشراب ، وأقدرنى على تناولهما والانتفاع بهما ، حفظاً لحياتى . كما في قوله تعالى : { سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى } [الأعلى: 1-5]. فهو المستحق للتنزيه لصفات ذاته ولصفات إنعامه على الناس بخلقهم في أحسن تقويم ، وهدايتهم ، ورزقهم ، ورزق أنعامهم ، فكان بيانه لمظاهر فضله وإحسانه، وتنوع نعمه وأرزاقه ، حتى يزداد المؤمنون في محبتهم لله، وحتى يعود الكافرون إلى رشدهم بعد هذا البيان الذي فيه دلالة على استحقاق الله تعالى للتنزيه والتأليه والمحبة، فهو القادر على إنبات العشب لا الأصنام التي عبدها المشركون . والقرآن يعرض هذه القضية في وضوح منطقي فالله هو صاحب الفضل والنعمة والرزق، وإن مقتضى هذا الاعتقاد أن لا يكون في قلب العبد شيء أحب إليه من الله ، وأن يتوجه له بالحمد والثناء والشكر، والذي يخرج عن ذلك إنما يخالف مقتضى سلامة العقل والفطرة. ويناقض بديهيات الإيمان [52].

وقد دعى إبراهيم قومه إلى عبادة الله وحده والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده، وتوحيده في الشكر فإنه وحده خالقهم ومن يملك أمر أرزاقهم ومعاشهم ، في قوله تعالى : { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [العنكبوت: 16-17]. وفي هذا توبيخ على شكر من لا يستحقّ الشكر ، فهم عبدوا ما لا يستحقّ العبادة ولا بيده نعمة ، ثم دعاهم إلى التوجه بالمحبة والعبادة لمن يملك ذلك على الحقيقة ، وهو الله تعالى وحده . فهو من يملك الرزق وهو من يطلب ويقصد ويرجى في تحصيله ، وهو من يستحق أن يعبد ويشكر لأنه المتفضل على عباده بالأرزاق والنعم ، فهو مالكهم ومالك أرزاقهم .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[51]- راجع : تفسير الطبري ، 19 / 363 ، وتفسير الظلال ، 3 / 353 ، وفتح القدير ، 5 / 315 .

[52]- راجع تفسير ، الرازي ، 462/16 ، وتفسير ابن عاشور ، 16 /212 ، طنطاوي ، 4487 ، أيسر التفاسير للجزائري 4 /390، ، وتفسير الظلال ، 8 / 11، وطريق الدعوة في ظلال القرآن ،أحمد فايز 181/2

3. وقوله: { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ }. وهذه من الأفعال التي متعلقها النفع والضر. فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية ، التي يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض. وهو يذكر ربه في مقام الإنعام والافضال، لأن مقصوده عليه السلام تعديد النعم ، ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله لمراعاة حسن الأدب معه تعالى[53] . ووصفه مما توجب المحبة لأجله ، وهو أن ربي هذا الذي بيده نفعي وضرّي، وله القدرة والسلطان علي ، هو من أتوجه له بالمحبة والعبادة ، لأنها لا تصلح إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يملك شيئاً منها مطلقاً .

4. وقوله: { والذي يميتني ثم يحيين } أي : الذي أخلص له المودة والمحبة والعبادة هو الذي بيده وحده محياي ومماتي ، المتفرد بالقدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، ، فهو وحده من يجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وتترك هذه المعبودات الباطلة، التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب والمقصود من ذلك هو لفت النظر إلى أن الألهة المزعومة التي يعبدها الناس من دون الله لا تستحق العبادة لأنها لا تملك شيئاً من خصائص الربوبية، وهذا الأمر ينطبق على كل مدع للألوهية، وكل من يزاول حق التشريع ، وكل من يفعل ذلك فإنما يجعل نفسه ندا لله تعالى ، والذين يتبعونه اتخذوه ندا لله ، وساووهم بالله تعالى ، ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم ، قال تعالى : { وَمِنَ الناس مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ الله أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله } [البقرة: 165]. إنما ذموا بأن أشركوا وساووا بين الله وبين أندادهم في المحبة والعبادة والطاعة ، كما قال الله تعالى في حق اليهود والنصارى : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ } [التوبة: 31]. فقال عدي بن حاتم : " يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم ! فقال عليه الصلاة والسلام : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟ قال : فقلت : بلى ! قال : فتلك عبادتهم[54] ". فقد اعتبر النبي طاعتهم لهم عبادة لأن مصدر الحاكمية و التشريع حق خالص لله تعالى ، وليس لأحد من خلقه أن ينازعه فيه ، لأنه يعد تأليا على الله سبحانه[55] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[53]- راجع ، تفسير الطبري، 19/362-364 ، وتفسير ابن كثير ،6/145، وتفسير الرازي 11/482، وتفسير الألوسي ، 14/241-251 ، وتفسير ابن عاشور ، 10/173-180 ،وتفسيرالظلال ، 5/351-352.

[54]- تفسير الطبري 6 / 353 ، والترمذي حديث رقم (3020)

[55]- راجع ، محمد قطب ، لا إله إلا الله ، ص 68 _ 69

فإبراهيم عليه السلام من خلال ذكره لنعم الله تعالى المتكاثرة عليه والتي جمع فيها أصول النعم الإلهية من المبدأ إلى الميعاد[56]. إنما يكشف عن حقيقة صلته الوثيقة بربه التي تقوم على الحب العظيم الناشئ من دواعي موجبة ووجيهة ، مستندة إلى حقائق مطلقة متصلة بكيانه وبالوجود من حوله ، فهذه المحبة هي من أعظم المشاعر النبيلة في هذا الوجود ، من فقدها ، فقد القيمة الحقيقية لوجوده . ولذلك فهو حريص على التأكيد على بيان موجباتها لقومه بكل الوسائل ، فقد سلك عليه السلام بذلك مسلك الاستدلال بالنعم الحسية لأن إثباتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وأكثر تأثيراً في نفوسهم ، وهذا هو مسلك القرآن في خطابه للعقل والفطرة لمعرفة فضل الله تعالى وإحسانه على عباده لتتجه القلوب إليه بالمحبة ومن ذلك ، قوله تعالى : { نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } [النجم: 63-74].

إن القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة ، قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ، فيتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر والتي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل . الزرع . والماء . والنار . والموت ! فتطلع على السر الهائل المكنون فيها . سر القدرة المبدعة، وسر الوحدانية المفردة، فمن هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشئ القرآن أضخم عقيدة دينية، ويتخذ منها مادة لبنائه النفسي لتتجه بميولها ومشاعرها إلى خالقها بالحب والامتنان والشكر والعرفان على هذه النعم المتكاثرة ، وذلك حينما يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم ، التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم بها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليجعل منها منهجاً للنظر والتفكير ، ويقظة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[56]- راجع : تفسير الطبري 19 /363 ، تفسير السعدي 592 ، تفسير طنطاوي 3167 ، تفسير ابن عاشور 177/10 ، تفسير الظلال 352/5-353

لظواهر هذا الوجود التي تتطالع الناس صباح مساء وهم غافلون ، ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها ، ويقظة في المشاعر والحواس . لتتجه له وحده بالمحبة ، والدينونة في العبادة والطاعة ، فبهذه المشاهدات الكونية التي تحمل في طياتها دلائل الإيمان؛ وبراهين العقيدة يبث القرآن في كيانهم محبة الله تعالى، أو يوقظها في فطرهم ليجعل من هذه المحبة حياة الأرواح والقلوب [57].

ونمضي إلى جولة أخرى مع القرآن في هذه الظواهر والمشاهدات الكونية المتعددة اللفتات . نمضي إلى مشهد الماء في هذه الأرض من زاوية معينة . زاوية تنويع الماء . فهذا عذب سائغ ، وهذا ملح مر . وكلاهما يفترقان ويلتقيان بتسخير الله في خدمة الإنسان، قال تعالى : { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [فاطر: 12]. إن هذه الرعاية المقصودة والعناية الموجهة للإنسان كافية لتملئ قلبه غاية الحب والامتنان لله تعالى ، والتي لا يملك أن يعبر عنها إلا أن يتجه له بالشكر والعرفان . هكذا يصنع القرآن محبة الله في القلوب . فهو لا يعد بهم في فلسفات معقدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد . لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة التوحيد من محبة الله تعالى، والدينونة له بالعبادة والخضوع ، فهو يخاطب فطرة كل إنسان بهذه المشاهدات البسيطة من بيئته لينفذ إلى كينونته ويملك بها قلبه ، قال تعالى : { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (24) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (25) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (26) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (27) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (28) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (29) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (30) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (31) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } [عبس: 24-32]. إن تصور الأمر على هذا النحو ليوقظ القلب إلى تدبر هذا الكون بحس جديد ، وأسلوب جديد . وإن القلب الذي يستشعر قدرة الله على كل شيء ورعايته له بمثل هذه الدقة في العناية، فإنه بالضرورة لن يكون في قلبه شيء أحب إليه من الله تعالى[58].

ثانياً. كمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى .

إن الإنسان بطبعه مفطور على حب الكمال وينزع إليه ، لأن النفس بطبعها تميل إلى الصفات الجميلة وكل من اتصف بها، فإن الجميل محبوب للقلب، والجميل المطلق في جميع صفاته وأسمائه

---

[57] - راجع : تفسير الظلال ، 5/154-156

[58] - راجع : تفسير الظلال ، 6/142

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هو الله وحده لا شريك له، وفي الحديث: "أن الله جميل يحب الجمال"[59] وقال تعالى : { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [النور: 35]. فالله تعالى في غاية الجمال ومنتهاه لا حد له ولا إدراك لمعرفته إلا بالعجز، يقول صلى الله عليه وسلم: " لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"[60] فكيف لا يكون هو المحبوب المطلق الذي هو منتهى الغايات والإرادات، وبجماله أبدع جميع الكائنات لتكون آثار جماله وكماله دالة للعقل على معرفته والقلوب على محبته، فالحب بهذا السبب من أقوى أسباب المحبة [61]. فإذا كان الله تعالى هو المتفرد بالكمال المطلق ، المنزه عن كل العيوب والنقائص على الإطلاق، فإن النفوس تميل إلى حبه تعالى بالضرورة ، فهو وحده الذي يستحق سائر أنواع العبادة من الحمد والثناء ، والاستعانة والدعاء ، والخوف والرجاء ، والذكر والشكر ، فهذا الكمال المطلق لله في أسمائه وصفاته هو من موجبات محبته سبحانه ، فلا يتصور الكمال إلا له وحده سبحانه ، ويمكن أن نستعرض بعض هذه الصفات التي هي موجبات محبته تعالى ، وهذه الصفات ترجع في جملتها إلى العلم، والقدرة ، فهو من له العلم الشامل ، والقدرة المطلقة ، وسنبين ذلك على النحو الآتي :

1. العلم الشامل :

تتجه القلوب بالمحبة لذي العلم وتتفاوت المحبة بهذه الصفة كلما كان صاحبها أعلم، فكيف إذا عرف الإنسان أن علم الله جمع علم الأولين والآخرين وكل علم هو منه، ولقد وصف سبحانه علوم عباده جميعاً بقوله : { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء: 85]. وأما علمه سبحانه فهو علم شامل مطلق لا نهاية له، قال تعالى : { وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [لقمان: 27]. فإن كان جمال العلم وشرفه محبوباً لكمال الموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى وحده وأن يحب كلامه الذي أنزله على رسوله قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ

59 – رواه مسلم، صحيح مسلم، وحديث رقم "91، ج1، ص 93 كتاب الإيمان".

60 – رواه مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث "486" ج1، ص 352، كتاب الصلاة.

61 – أنظر : زكريا الشلول ، أثر العقيد الإسلامية في السلوك، ص270-271

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس: 57-58]. وأن يحب نبيه صلى الله عليه وسلم الذي هو أعلم الأمة بربه وهو الذي بلغهم شرع الله وهديه قال تعالى : { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى } [النجم: 3-5].

ونقف مع قصة إبراهيم عليه السلام في تقرير هذه الحقيقة ، حقيقة كماله تعالى في شمول علمه وما يقتضيها من موجبات محبته تعالى وطاعته وحده وتلقي منه كل حقائق الإيمان .

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } [مريم: 42-43].

توجه إبراهيم إلى أبيه فدعاه إلى الهدى الذي هداه الله إليه وعلمه إياه ، وبين ضلاله واحتج على فساد عبادته من وجهين : الأول : نفى العلم عن آلهته وأثبت لها الجهل المطبق ، والذي يستحيل معه حصول الهداية منها مطلقاً ، مما يستلزم عدم عبادتها ، لأنه لا يستحق االعبادة إلا من له صفة الكمال في العلم وغاية الإحاطة ، وهو الإله الذي وسع علمه كل شيء ، لا هذه الأصنام العاجزة التي لا تسمع . ولا تبصر . ولا تغني شيئاً . وهذا تنبيهٌ على أن الإله المعبود يجبُ أن يكون عالماً بكُلِّ المعلومات ، محيط بكل الموجودات ، فهذا برهان على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلا وشرعا. وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم والحب للمعبود فلا يستحقها إلا من كان له أوصاف الكمال من العلم والقدرة ، وكان له غاية الإنعام من الهداية والرعاية ، وهذه المعبودات منتفي عنها ذلك مطلقاً. الثاني : أثبت العلم لله تعالى ، حيث تلقى منه الهداية إلى الحق ، وذلك أنه لما نبه أبيه على أن ما يعبده لا يستحق العبادة لنقصه مطلقاً ، نبهه على أن المستحق للعبادة والمحبة والإتباع هو ربه الذي هداه إلى الطريق المستقيم ، فدعاه إلى أن يتبعه ليهديه إلى ما يوصله إلى الحق والسعادة . وهكذا ربط إبراهيم عليه السلام بين العلم واستحقاق العبادة والمحبة ، وأنها لا تكون إلا لله الحكيم العليم الهادي إلى الحق وإلى كل ما فيه خير ونفع للإنسان [62] .

[62]- راجع : تفسير الرازي 310/10 ، وتفسير طنطاوي 2782 ، وتفسير السعدي 494 ، وتفسير ابن عاشور 479/8

* الشاهد الثاني :

قال تعالى : { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } [الأنعام: 80].

بعد أن أقام إبراهيم الدليل على بطلان عبادة غير الله تعالى وتبرأ من الشرك والمشركين حاجه قومه فى ذلك فقال منكراً عليهم ذلك : { أتحاجوني في الله وقد هدان } وصرح باسم الله المستجمع لصفات الكمال مضمناً منها صفة علمه التام ، لذلك أكد الإنكار بقوله:{وَقَدْ هَدَانِ } يعني : كيف أترك من يعلم كل شيء ومن بيده الهداية وألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟ فجملة:{ وقد هدانِ } حال مؤكّدة للإنكار، أي كيف لا أتجه إلى ربي والحال أنه قد وفقني لمعرفة وحدانيته وهداني إلى الدين الحق وعصمني أن أكون مثلكم في الضلالة، فلا جدوى لمحاجّتكم إيّاي بعد أن هداني الله إلى الحقّ ، فإبراهيم يقرر حقيقة مصدر الهدى ، وأنه لا يكون إلا من عند الله الذي له العلم الشامل، فلا هدى إلا هداه، وإن من هداه الله تعالى فقد وصل إلى أعلى درجات اليقين، وإن مقتضى هذه الحقيقة من الوجهة النفسية هو الميل إلى صاحب العلم الشامل والهدى التام ، فكان تقرير إبراهيم عليه السلام لهذه الحقيقة لتحقيق لازمها بمنطق العقل، وموجبها بمنطق الفطرة ، لأنه مغروس في النفوس الميل لجهة العلم وحب أهله، فكلما كانت رتبة العالم أعلى كان الميل نحوه أشد ، فإذا تقرر أن الله هو من له العلم التام الشامل ، فإن من موجبات الإيمان والهدى هو تعلق القلب به وحده وانقطاعه عما سواه تعالى.

وهذا ما أكده بقوله: { ولا أخاف ما تشركون به } فعلّة عدم خوفه من آلهتهم هو هداية الله تعالى له ، بقوله:{وقد هَدَانِ} وهذا يشير إلى أنّهم خوّفوه بطش آلهتهم ولكن هدى الله هو الحصانة التي تحفظ له تعقله وتوازنه النفسي من مثل هذه الخرافات والأساطير . فلا يستلب العقل ولا يتعلق القلب بغيره تعالى محبة وخوفاً ورجاءً ، كقوله تعالى : { قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الأنعام: 71]. لذلك لمّا نفى خوفه من جهة آلهتهم استدرك بقوله :{ إلاّ أن يشاء ربِّي شيئاً } فقلبه معلق بالله غير منصرف عنه بحال من الأحوال لأنه هو المستحق لأن يميل القلب إليه ويتعلق به ، وليس لهذه المعبودات الباطلة ، وهو يعلل تعلق قلبه بالله بالحب والخوف والرجاء إلى **مقتضى**

علمه وحكمته بقوله : { وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً }. أي: هو أعلم بحكمة إلحاق الضرّ . أو النفع بمن يشاء من عباده .

وهذا مقام أُدب مع الله وثمرة الإيمان والاعتقاد بشمول علمه تعالى ، فعلى العاقل أن لا يخالف تعاليم هدى علام الغيوب ، لأنه مطلع عليه فيحل عليه غضبه وعقوبته ، وليس كالآلهة التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تفهم شيئًا، ولا يرجى منها خير ولا هدى [63]. وحاصل المعنى : أني ما تركت الجزم لشك عندي ، وإنما تركته لعدم علمي بالعواقب إعلاماً بأن تلك رتبة لا تصلح إلاّ لله علام الغيوب ، الذي وسع علمه كل شيء وأحاط به . ثم أتبع ذلك بإنكاره عليهم عدم التذكر لهذه الحقائق الواضحة. بقوله : { أفلا تتذكرون } فالاستفهام إنكار لعدم تذّكرهم مع وضوح دلائل التذكّر في صفات آلهتهم المنافية لمقام الإلهية ، وفي صفات الإله الحقّ التي دلَّت عليها مصنوعاته . والمعنى : أفلا تتذكرون فتميزوا بين الحق والباطل ، فتعلمون أن الله الذي له صفات الكمال ومنها علمه الشامل والمطلق هو وحده المستحق للتأليه والمحبة ، وهو وحده من يطلب منه الهدى ، وليس آلهتكم العاجزة التي هي بمعزل عن القدرة على شيء ، وهذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى إقناع ، وإنما إلى مجرد تذكر ، فجاء بصيغة الاستنكار ليحثهم عليه لأنهم قد عطلوا عقولهم عن البديهيات المستقرة في النفوس[64] .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } [الأنعام: 77].

استدل إبراهيم عليه السلام بهذا الأفول على علم الله ، فقد ربط بين غياب القمر وتحصيل الهداية بقول: { فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } فالغياب هنا المقصود به هو غياب الهداية والإرشاد إلى الحق ، وهذا يتطلب علم شامل وكامل لكل شيء والذي يغيب لا يكون له مثل هذا العلم فلا يرجى منه هذه الهداية بحال . فهو سبحانه وحده من يتحقق فيه

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[63]- راجع : تفسير الطبري 488/11 ، وتفسير ابن كثير 293/3 ، وفتح القدير 437/2 ، وتفسير الرازي 356/6 ، وتفسير البقاعي 78/3 ، الألوسي 403/5 ، وتفسير طنطاوي 1488

[64]- راجع : تفسير الألوسي 403/5، وتفسير الرازي 355/6، وتفسير البقاعي 77/3 ، وتفسير السعدي 263 ، وتفسير ابن عاشور 5/5 ، وتفسير طنطاوي 1488، وأيسر التفاسير 415/1

هذا العلم الذي به تحصل الهداية للإنسان لسلوك طريق الرشاد . كما استدل عليه السلام بالآية التي قبلها بنفي الربوبية عن الكوكب بعلة أفوله ، ونفى بمقتضى ذلك عنه المحبة ، لأن غياب الكوكب يعني الجهل في معرفة حال من يعبده ، الذي تنتفي بانتفائه المتابعة والرعاية ، لأن الرعاية والمتابعة ، يتطلب علم تام بحال من يرعاه في جميع أحواله في سره وجهره ، وما ينفعه وما يصلحه ، لحصول القيومية وهو مفقود هنا ، فناسب التعبير عنه هنا بقوله : { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } . يقول ابن عاشور " ووجه الاستدلال بالأفوال على عدم استحقاق الإلهية أنّ الأفول مغيب وابتعاد عن الناس ، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده فلمَّا أفلّ النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطّلاع على النَّاس ، وقد بنَى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيباً عن هذا العالم ، يعني أنّ ما يغيب لا يستحقّ أنْ يُتَّخذ إلهاً لأنَّه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه [65] ". وإنما الذي يستحق المحبة والعبادة هو من يتحقق فيه هذا العلم الذي به تحصل القيومية للإنسان خاصة وللخلق عامة. وهذا غير متحقق إلا بالله تعالى وحده فهو عالم الغيب والشهادة الذي وسع علمه كل شيء ، فهو المحبوب المطاع، والمقصود المرتجى .

2. القدرة التامة .

إن الإنسان مخلوق ضعيف بطبعه فهو يتسم بالعجز والاحتياج الدائم ، فهو محتاج بفطرته إلى قوى كبرى يستند إليها ليسد عجزه الدائم واحتياجه المستمر لتبعث في نفسه الآمن والطمأنينة ، وهذا ما يفسر ظاهرة التدين وعراقتها في التاريخ الإنساني ، لأن حاجة الإنسان دائمة إلى قوى كبرى يستند إليها حتى إذا أحزبه أمر فزع إليها ، وكان ضلال أكثر البشرية هو في إشباع هذه الغريزة بأي طريقة من غير تصويبها بالمنهج السديد والتفكير السليم الموصول بالوحي الصادق ، فقد جاء الإسلام بحقائق الإيمان وعرفهم بخالقهم وبصفات عظمته وكمال قدرته ، لذلك فإن الإنسان إذا عرف عظمة الله تعالى وقدرته وجبروته، وخضوع كل المخلوقات لسطوته وسيطرته، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض والسماء، فإن هذا يجعله يحب الله تعالى غاية الحب ويطمئن إليه غاية الطمأنينة ، لأن طبيعة النفوس مفطورة على العجز والاحتياج، فإذا أحزبه أمر فزع إلى ربه كحال الطفل عندما يفزع لوالده، قال تعالى : { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}

[65]- التحرير والتنوير ، لأبن عاشور 1/5

[الأنعام: 17-18]. فالله تعالى هو القاهر فوق عباده، فلا قدرة ولا قادر في هذا الوجود إلا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فهذه الصفات من موجبات الحب لله تعالى فهو من له الكمال المطلق في قدرته وعظمته، وهي صفات لا يتصور العقل وجودها لغيره فلا تتم إلا له ولا يستحق الحب لذلك سواه . وقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام دور في تأكيد هذه الحقيقة وتقريرها ، وهي حقيقة كمال قدرته تعالى وما يقتضيها من موجبات محبته تعالى، ومستلزمات تفرد عبوديته، ومن الشواهد على ذلك نذكر منها:

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا } [مريم: 44-48].

لقد كان خطاب إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه في غاية الحسن شكلاً ومضموناً ؛ فرتّب كلامه في دعوته لأبيه فذكر أولاً ما يدلُّ على المنع من عبادة الأوثان ، ثُمَّ أمره بترك التقليد بإتّباع النّظر والاستدلال ، ثُمَّ نهاه عن طاعة الشّيطان مبيناً حقيقته ، ثم ختم الكلام بالوعيد الزّاجر عن مخالفة الرحمن ،ثم إنّه عليه السلام أورد هذا الكلام الحسن بأدب جمّ؛ ورفق تام ، متصدراً كلامه: « يا أبت » دليلٌ على شدَّة الحبِّ ، والرغبة في صونه عن العقاب ، وإرشاده إلى الصَّواب، وذلك يدلُّ على شدَّة إهتمامه بمصالحِه لقضاءِ حقِّ الأبوَّة عليه ولكن هذا الاعتبار ليس على حساب دين الله [66]، كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [التوبة: 23]. فعلى المؤمن أن يصوب مشاعره النفسية من المحبة وغيرها وفق ميزان الشرع ، وبما يحب ربنا ويرضى .

وإن هذه الآيات الواردة في قصة إبراهيم عليه السلام قد تضمنت جملة من المعاني المتعلقة بمحبة الله تعالى وفيها إشارات بليغة وحكم عظيمة ودلالات عقدية مهمة يستفاد منها في البناء النفسي

[66] - راجع : تفسير الرازي 316/10

للشخصية الإسلامية ، وهي تعرض هذه المعاني النفسية لمحبة الله تعالى من خلال ربطها بقضية القدرة الإلهية في إنزال العذاب بمن خالفه سبحانه . كما يظهر ذلك في ختام دعوته له بقوله: { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } ويمكن بيانها على النحو الآتي :

أ. **قوله : { لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ }**[67].

إن أصل العبادة هي المحبة وأن الشرك فيها أصل الشرك كما ذكره الله في قصة إبراهيم عليه السلام : { لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ } [الأنعام: 76]. ولهذا تبرأ إبراهيم من المشركين وممن أشركوا بالله في قوله : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: 75-77]. والمراد بعبادة الشيطان طاعته ، فهو الذي يغري بعبادة الأصنام من دون الله ، فإنه هو الداعي إلى ذلك، والراضي به، كما قال تعالى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ } [يس: 60]. وقال : { إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَانًا مَرِيدًا } [النساء: 117]. ولذلك فإن عبادة غير الله هي عبادة وطاعة للشيطان.وقد علل إبراهيم عليه السلام نهيه لأبيه : بإن الشيطان الذي أغراك بعبادة هذه الاصنام كان كثير العصيان للرحمن الذي شملتك رحمته وعمتك نعمته ، لينفره بهذه الصفة عن طاعته ، أي هو عاص.

وعليه فإن إبراهيم عليه السلام يرجع بالقضية إلى أصولها حينما يكشف عن حقيقة الصراع بين الشيطان وأبوهم آدم عليه السلام ، فهو حريص على غواية الإنسان وصده عن طاعة الرحمن ، لذلك فهو يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله ولياً للشيطان وتابعاً له، فيقوده ذلك إلى عذاب الله ونقمته إن أقام على حاله، لأن عذاب الله إذا وقع فلا يقد أحد على دفعه .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[67] - راجع : تفسير ابن كثير 234/5، وتفسير الرازي 315/10، وتفسير أبو حيان 2353/1 ، وتفسير ابن عجيبة 465/3، وتفسير طنطاوي 2782، وتفسير ابن عطية 367/4، وتفسير البقاعي 269/2

ب. قوله : { فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } [68].

والولي من الموالاة وهي المتابعة والمصادقة . فالولي ، الخالص المصاحب القريب بنسب أو مودة، والتابع ومن حالهما حال واحد وأمرهما جميع فكني بالولاية عن المقارنة في المصير . فإن الولي يرادف المولى فيصدق على كلا طرفي الولاء . أي: على السيد والعبد أو الناصر والمنصور . والمراد تفريع الثبات على حكم تلك الموالاة وبقاء آثارها من سخط الله تعالى وغضبه ، في أن تكون ولياً للشيطان وتابعاً له .وقد ذكروا في الولي وجوهاً :

أحدها : أنه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النار والولاية سبب للمعية وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز وإن لم يجز حمله الى الولاية الحقيقية لقوله تعالى : { الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف: 67]. وحكى عن الشيطان أنه يقول لهم : { إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ } [إبراهيم: 22].

ثانيها: أن يحمل العذاب على الخذلان أي إني أخاف أن يمسك خذلان الله فتصير موالياً للشيطان ويتبرأ الله منك على ما قال تعالى : { وَمَن يَتَّخِذِ الشيطان وَلِيّاً مِّن دُونِ الله فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً } [النساء: 119]. ولما كان اتخاذ الشيطان ولياً ملزوماً لمحادة الله سبحانه وتعالى المستجمع لصفات الكمال ومصائر العباد ترجع إليه كان ولاية غيره غاية الخسران .

وثالثها : ولياً أي تالياً للشيطان ، تليه كما يسمى المطر الذي يأتي تالياً ولياً أي قريناً تليه ويليك في العذاب فإن الولاية للشيطان بهذا المعنى إنما تترتب على مس العذاب العظيم . بل إن ولاية الشيطان أسوأ حالاً من العذاب نفسه وأعظم ، وذلك أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال : { وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة: 72]. فوجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم . فإبراهيم عليه السلام يربط لأبيه الحقائق بموجباتها المتقابلة ونتائجها المترتبة عليها ليستبين له الطريق ، فعبادة الشيطان هي معصية للرحمن ، ومعصية الرحمن هي ولاية للشيطان ، وهذا موجب لعذاب الله تعالى، فهو يربط بين الولاية والمحبة وبين قدرة الله تعالى عليه في إنزال العذاب. ليتعين تفرد الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[68] - راجع: تفسير الطبري 204/18 ، وتفسير الرازي 314/10 ، وتفسير الزمخشري 89/4 ، وتفسير القرطبي 111/11 ، وتفسير الألوسي 500/11 ، وتفسير الظلال 99/5 ، وتفسير طنطاوي 2783 . وتفسير الشنقيطي 20/ 136، وتفسير ابن عاشور 170/10 .

تعالى بهذه المحبة والولاية دون سواه ، لأن من كانت له القدرة المطلقة على عباده نفعاً وضراً فهو من ينبغي أن يتعلق القلب به لا بأحد غيره .

ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام يحذر أباه أن يغضب الله عليه فيعاقبه فيجعله ولياً للشيطان وتابعاً له على شركه وعصيانه ، فلا يكون له مولى ولا ناصرًا ولا مغيثًا إلا إبليس، وهو ليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء ، وقد وردت كثير من الآيات الدالة على أن الكفار هم أولياء الشيطان، من ذلك قوله تعالى : { فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ } [النساء: 76]. وقوله : { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } [آل عمران: 175]. أي يخوفكم أولياءه. وقوله :{ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [الأعراف: 30]. وكل من كان الشيطان يزين له الكفر والمعاصي فيتبعه في ذلك في الدنيا فلا ولي له في الآخرة إلا الشيطان. كما قال تعالى : { تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النحل: 63]. ومن كان لا ولي له يوم القيامة إلا الشيطان تحقق أنه لا ولي له ينفعه يوم القيامة. بل إن الشيطان يتنصل من أوليائه يوم القيامة تنصل العاجز الخائف الرعديد من عذاب الله تعالى : { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: 22].

وعليه فإن الولاية ينبغي أن تكون لله تعالى القادر على إنزال العذاب بمن عصاه وخالفه ، والبراءة من أعدائه وفي مقدمتهم الشيطان رمز الكفر والعصيان والضلال . فإن إحاطة عذاب الله تعالى به توجب على العاقل أن لا يتبع إلا الله وحده ، وأن لا يكون له ولي سواه ، وأن يكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ومن كل شيء .

ج. قوله : { أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي } [69] .

وأصل الرغبة: السعة في الشيء، يقال: الرغبة في الشيء : السعة في الإرادة قال تعالى: { وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا } [الأنبياء: 90]. فإذا قيل: رغب فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، قال تعالى : { إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } [التوبة: 59]. وإذ قيل: رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه، نحو

[69] - راجع: وتفسير الرازي 316/10 ، وتفسير الألوسي 500/11 ، طنطاوي 2783 ، تفسير الشوكاني ، 480/3 ،وتفسير البضاوي 27/8 ، وتفسير الشنقيطي 137/20 ، الأصفهاني مفردات ألفاظ القرآن 407/1 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: 130]. والرغيبة: العطاء الكثير؛ إما لكونه مرغوبا فيهن فتكون مشتقة من الرغبة؛ وإما لسعته، فتكون مشتقة من الرغبة بالأصل، قال عبدة بن الطبيب :

أوصيكم بتقى الإله فإنه . . . يعطي الرغائب من يشاء ويمنع [70].

فكان لهذا التعبير القرآني على لسان أبي إبراهيم في قوله: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي ﴾ يكشف عن دلالات عقدية مهمة في تأسيس المعتقد الإيماني من الوجهة النفسية . فقد كشف عن حقيقة مشاعر إبراهيم في بغضه لتلك الآلهة الباطلة المزعومة . كما يكشف عن حقيقة عقدية ، في أن الإيمان لا يستقيم من غير محبة الله تعالى، كما أنه لا يصح من غير بغض كل ما يناقض هذه المحبة. فقوله :﴿ أراغب أنت عن آلهتي ﴾ أي: أمعرض ومنصرف انت عنها وكاره لعبادتها ؟ والرغبة عن الشيء تركه عمداً ، وفي توجيه الإنكار إلى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كأنه الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها فقدم الخبر على المبتدأ للاهتمام . والاستفهام في قوله:﴿ أراغب﴾ للتقريع والتوبيخ والتعجيب ، فإن كان قوله : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آَلِهَتِي ﴾ على وجه الاستفهام فهو خذلان لأبي إبراهيم لأنه قد عرف حال ولده من بغض آلهتهم ، وقد تكرر منه المجادلة في النهي عن عبادتها مما يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة. وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الإعراض عن حجة لا فائدة فيها، وإنما التعجب كله من الإقدام على عبادتها. فإن الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها . فكأن أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل بتعجب فاسد غير مبني على دليل ، وإنما على شبهة منكرة ، ولا شك أن هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه . فدل النظم في هذه الآية على أن أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم تمكن الرغبة عن آلهتهم من نفسه وهو يهتم بأمر الرغبة عن الآلهة لأنها موضع التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد . وبإضافة الآلهة إلى نفسه فقط : ﴿ آَلِهَتِي ﴾ إشارة إلى مبالغته في تعظيمها فأصر على ادعاء إلهيتها جهلاً وتقليداً، والنداء في قوله:﴿يا إبراهيم﴾ تكملة لجملة الإنكار والتعجب لأن المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء

[70] – أنظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن ص407/1 ، المفضل الضبي، المفضليات ص 146، أبو الحسن البصري، الحماسة البصرية 283/1

فعله . فالمتكلم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه وإدراك سوء فعله . وهو بذلك يقابل قول إبراهيم الذي فيه رفق وتحبب:{ يا أبت} بالعنف والغلظة حيث لم يقل يا بنيّ بل قال {يا إبراهيم}.

وحاصل المعنى : قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والوعيد ، أتارك أنت يا إبراهيم عبادة آلهتي وكاره لعبادتها ومعرض عنها ، وكاره لتقرب الناس إليها ، ومنفرهم منها لئن لم تنته عن هذا المسلك ، { لَأَرْجُمَنَّكَ } بالحجارة وبالكلام القبيح {واهجرني} أي: ابعد عني بالمفارقة من الدار والبلد وهي كهجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أي: تباعد عني {ملياً} أي: دهراً طويلاً لكي لا أراك، وقيل: اهجرني بالقول ولا تخاطبني دهراً طويلاً لأجل ما صدر منك من هذا الكلام . وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتأسية فيما كان يلقى من الأذى ويقاسي من قومه من العناد ومن عمه أبي لهب من الشدائد بأعظم آبائه وأقربهم به شبهاً . بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى . وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب . وذلك شأن الإيمان مع الكفر؛ وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر . و لم يغضب إبراهيم الحليم . و لم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه :{ قال : سلام عليك . سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا}.
وجواب إبراهيم عليه السلام لأبيه يتضمن أمرين :

أحدهما : قال له مقابلاً لما كان منه من طيش الجهل بما يحق لمثله من رزانة العقل والعلم {سلام عليك} توديع ومتاركة أي: سلمت مني لا أصيبك بمكروه ما لم أؤمر فيك بشيء فإنه لم يؤمر بقتاله على كفره ، كقوله : { وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ } [القصص: 55]. وقوله : { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } [الفرقان: 63]. وهذا يدل على جواز متاركة المنصوح إذا ظهر منه اللجاج وعلى أنه يحسن مقابلة الإساءة بالإحسان ويجوز أن يكون دعاء له بالسلامة استمالة، ليكون سلام برّ ولطف . وهو جواب الحليم للسفيه .

ثانيهما : وعده بالاستغفار بقوله: { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً }. أي: سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولي الشيطان ، بل يرحمك فيرزقك الهدى . وقد عودني ربي أن يكرمني فيجيب دعائي . وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك ، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة . وأدعو ربي وحده ، راجياً بسبب دعائي لله ألا يجعلني شقياً.

إن إبراهيم عليه السلام قدم لقومه الدلائل العقلية الموجبة لمحبة الله تعالى ، فهي محبة تستند إلى أساس فكري سليم وليست محبة متروكة للوجدان وتوجهات الفطرة الغريزية ، بل هي منضبطة بتصويب المسار الفكري وفق أسسه الصحيحة ومسالكه المعتبرة ، بينما محبة أبيه وقومه ورغبتهم بهذه الآلهة الباطلة لا يستند إلى دليل ، بل مبني على شبهة فاسدة وهوى متبع . قال تعالى : { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم: 23]. بل هي فيها موجبات البغض والكراهية لأنها سبباً في الصد عن الحق ، ولأنها تنازع الله في خصائص ألوهيته من العبادة والتأليه والمحبة الخالصة . قال تعالى : { وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ } [النمل: 43]. وعليه فإن الإيمان لا يستقيم إلا بمحبة الله تعالى والرغبة في دينه ، وبما عنده من ثواب . كما لا يصح إلا بكراهية الكفر وأهله ، فلا يجتمع في القلب إيمان وكفر ، وإن من أخطر قضايا العصر الراهن هو قضية تميع الدين ، من خلال تميع الفواصل العقدية التي يتحدد بها ضوابط الإيمان ومفاصلته عن الكفر . فتجد المسلمين يزاولون الشرك في حياتهم وهم يحسبون أن ذلك لا يقدح بإيمانهم ما داموا يرددون كلمة الشهادة ، وإن في قصة إبراهيم فيها دلالة عقدية واضحة في تأكيد هذه الحقيقة التي كشفها القرآن في كثير من آياته . قال تعالى : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف: 106].

د. قوله : { إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } [71].

والحفي المبالغ في البر والالطاف ، يقال: حفيت بفلان وتحفيت به: إذا بالَغَ في إكْرامِه وأظْهَرَ السُّرُورَ والفَرَحَ به وقال الكسائي: حفي به وتحفى إذا بره , وقال الفراء : كان بي حفيا : أي عالما لطيفا يجيبني إذا دعوته. وفي المفردات : الإحفاء في السؤال: الإلحاح في المطالبة أو أكثَر السُّؤَالَ عن أحواله ، والحفي: العالم بالشيء، وبالجملة فإن معانيها تدور في خمسة أوجه : مقرباً ، أو مكرماً ، أو رحيماً ، أو عليماً ، أو متعهداً . فقوله تعالى : { إنه كان بي حَفِيًّا } أي : بليغاً في بره وإكرامه لي ، كثير الإحسان إلي ، رحيمًا بي في أموري ، عالماً لطيفاً بشأني، يستجيب لي إذا دعوتُه . وجملة { إنه كان بي حفيا }. تعليل لما يتضمنه الوعد بالاستغفار من رجاء المغفرة

---

71 – راجع : تفسير ابن كثير، 236/5، وتفسير القرطبي، 113/11، وتفسير طنطاوي، 2784،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

استجابة لدعوة إبراهيم بأن يوفق الله أبا إبراهيم للتوحيد ونبذ الإشراك والمعنى سأطلب لك المغفرة من الله فإنه كان بي كثير البر واللطف، مبالغا في العناية بي وإكرامي إن دعوته أجابني[72].

وقد وفّى إبراهيم بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه ، كما قال تعالى : { وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 114]. فالذي يرجوه إبراهيم لأبيه هو مجرد تجنيبه الشقاوة . وذلك من الأدب والتحرج الذي يستشعره . فهو لا يرى لنفسه فضلاً ، ولا يتطلع إلى أكثر من تجنيبه الشقاوة . إلا أن الدلالة العقدية التي يمكن أن نستخلصها من هذا المعنى هي حقيقة أنه ليس على الله عزيزاً مع المعصية مهما بلغت درجته عند الله ، فهذه العلاقة بين إبراهيم وربه القائمة على أساس العبودية المطلقة في أجمل معانيها ، والتي بلغ بها إلى درجة الخلّة، كما في قوله تعالى : { وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 125].

فإبراهيم عليه السلام ما بلغ هذه الدرجة في الدين من اتخاذه الله خليلاً إلا لأنه كان عالماً بذلك الشرع آتياً بتلك التكاليف، ومما يؤكد هذا قوله : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة: 124].

وهذا يدل على أنه سبحانه إنما جعله إماماً للخلق، لأنه أتم تلك الكلمات . وفي هذا دلالة على أنه نال هذا المنصب العالي بسبب عمله بتلك الشريعة ليكون ذلك تنبيهاً على أن من عمل بهذا الشرع بلغ أعظم الدرجات في الدين ، كما فيها قطع إطماع الكفرة في رحمة الله تعالى ، وسد أبواب آمالهم الفارغة عن نيلها. قال تعالى رداً على زعم أهل الكتاب : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ } [المائدة: 18]. وقال تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } [النساء: 123].

وبهذا المعنى يتضح ما نريد بيانه هنا ، وهو أن الله لا يدخل في رحمته إلا المؤمنين ، وليس هناك عزيز على الله مع المعصية ، فلا محسوبية في دين الله، ولا عهد عنده لمن أخلف وعده . فهذا إبراهيم عليه السلام مع علو درجته ومنصبه عند الله تعالى ،لم يقبل منه تعالى إستغفاره لأبيه، في

---

72 – الراغب الأصفهاني ، مفردات الفاظ القرآن ، 248/1 ، والماوردي، النكت والعيون 22/3، تيسير التفسير للقطان ، 397/2

قوله : {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } فقرب إبراهيم عليه السلام من ربه ، لم تلغي سنة الله تعالى بين خلقه . ولذلك فقد وقف إبراهيم عليه السلام عند مقتضى شرع الله وسنته ، في قوله تعالى : { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 114].
فخضع عليه السلام لأمر ربه موجها مشاعره وهواه وفق مقتضى دين الله . وفي هذا المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به [73] ".

هـــ. قوله : { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [74] .

إن إبراهيم عليه السلام عندما سمع من أبيه قوله: { واهجُرني مَلِيّاً } أجاب عن أمرين .

الجواب الأول:{ قال: سلام عليك . سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا }. فقد وعده التباعد منه ، وذلك لأن أباه لما أمره بالتباعد أظهر الانقياد لذلك الأمر. وفي قوله : { سلام عَلَيْكَ } سلام توادع ومتاركة ، على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة ، ، فلم يعارضه بسوء الرد، لانه لم يؤمر بقتاله على كفره . بل كان رده بهذه الطريقة فيه إشارة إلى أنه لا يسوءه ذلك الهجر في ذات الله تعالى ومرضاته . ومن حلم إبراهيم أن كانت متاركته أباه مثوبة بالإحسان في معاملته في آخر لحظة ، فقد أظهر حرصه على هداه فقال { سأستغفر لك ربي } أي أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر بأن يهديك إلى التوحيد فيغفر لك الشرك الماضي .

الجواب الثاني: قوله: { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ } الاعتزال للشيء هو التباعد عنه والمراد أني أفارقكم في المكان وأفارقكم في طريقتكم أيضاً وأبعد عنكم وأتشاغل بعبادة ربي الذي ينفع ويضر والذي خلقني وأنعم علي فإنكم بعبادة الأصنام سالكون طريقة الهلاك ، فواجب على مجانبتكم فإن إبراهيم عليه السلام عندما رأى أن هجرانه أباه غير مغن لأن بقية القوم على رأي أبيه من التصميم على الكفر والضلال ، فقرر اعتزالهم والابتعاد عنهم جميعا، ولذلك قال له: { واعتزلكم }. فأعلن إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه أنه مهاجر من وطنه وتارك أهله وعشيرته واحبابه ، مستجيباً لربه لأنه هو من أمره بمفارقتهم ، هجرهم متقرباً لله متوكلاً عليه وحده ،

[73] – انظر ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1408هـ، ص386، قال : (حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة للشيخ أبا الفتح بإسناد صحيح، وأخرجه النووي في الأربعين وقد صححه، وأخرجه ابن ابي عاصم في السنن ج1، ص12، وقال الألباني : إسناده ضعيف، والحديث معناه قوي وصحيح .

[74] – راجع تفسير الرازي 317/10، وتفسير الألوسي 3/12، وتفسير ابن عاشور 171/10 ، وتفسير اللباب لابن عادل 86/11،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملتجئاً إلى حماه واثقاً بنصره وعونه سبحانه دون ما سواه . وجملة (وأعتزلكم) عطف على جملة (سأستغفر لك ربي) أي يقع الاستغفار في المستقبل ويقع اعتزالي إياكم الآن لأن المضارع غالب في الحال . ليظهر لهم العزم على اعتزالهم وأنه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له إذا كان في ذات الله تعالى .وعبر عن الأصنام بطريق الموصولية بقوله: {وما تدعون من دون الله} للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلة اعتزاله إياهم وأصنامهم : بأن تلك الأصنام تعبد من دون الله وأن القوم يعبدونها فلذلك وجه اعتزاله إياهم وأصنامهم. تحقيقاً للمقتضى الإيماني ، فهي هجرة لله وحده ، وهجرة للعقيدة والدين . والدعاء : العبادة لأنها تستلزم دعاء المعبود . وهي التوجه بالافتقار لمن يقدر على النفع والضر ، وهي لا تقدر على شيء من ذلك ، فهي من خصائص الربوبية التي لا يقدر عليها غير الله تعالى ، وعلى هذا فلا ينبغي الدعاء إلا لله تعالى الذي بيده الضر والنفع وحده . لذلك زاد عليه السلام على الإعلان باعتزال أصنامهم الإعلان بأنه يدعوا الله :{ وأدعو ربي } احتراسا من أن يحسبوا أنه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم ولذا بين لهم أنه بعكس ذلك يدعوا الله الذي لا يعبدونه ، فهو محتاج له على وجه الافتقار لا غنى له عن ربه لحظة . وعبر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه: { ربي } للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى فهو ربه وحده من بينهم فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك . وقوله: { عسى أَلا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّى شَقِيًا } ففي تصدير كلامه بلفظ { عسى } دليل على أدبه مع خالقه تعالى . وإنما ذكر ذلك على سبيل التواضع كقوله : { والَذِيْ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِينِ } [الشعراء: 82]. وأما قوله: { شَقِيّاً } مع ما فيه من التواضع لله ففيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم على ما قرره أولاً في قوله : { لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً } [مريم: 42].

وقد طوي ذكر اعتزاله إياهم بعد أن ذكر عزمه عليه إيجازا في الكلام للعلم بأن مثله لا يعزم أمرا إلا نفذ عزمه . ومن ثم الاكتفاء بذكر ما ترتب عليه من جزاء الله على اختياره لربه على سائر المحاب والوشائج .

ومعلوم أنه ما خسر على الله أحد فإن إبراهيم عليه السلام لما اعتزلهم في دينهم وفي بلدهم واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره لم يضره ذلك ديناً ودنيا ، بل نفعه فعوضه أولاداً أنبياء ولا حالة في الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعل الله له رسولاً إلى خلقه ويلزم الخلق طاعته والانقياد

له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة . فبين سبحانه ما ترتب على اعتزاله للشرك والمشركين ، فقال : { فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً }[مريم: 49]. أي : فحين اعتزل إبراهيم أباه وقومه وآلهتهم الباطلة لأجل محبتنا . لم نضيعه ، وإنما أكرمناه وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه من أجل إعلاء كلمتنا ، لذلك رفعنا ذكره وجعلنا الناس يثنون عليه ويذكرونه بالذكر الجميل .

وعليه فإن المفاصلة في الدين والهجرة في سبيل الله تعالى هي التعبير الحقيقي لمحبة الله تعالى ، وهذه المحبة لها تبعات ضخمة والتي يقدمها أصحاب المبادئ تضحية للدين والعقيدة ، ولكنها مع كونها تبعة ضخمة إلا أن عاقبتها خير . فمن سنة الله تعالى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية . فإبراهيم عليه السلام بمواقفه الإيمانية قدم للأجيال من بعده دروساً في البراء والولاء ، وفي محبة الله تعالى وبغض أعدائه ، وقد ناسب لحال هجرته من مفارقة الوطن والمفاصلة في الدين . مقابلتها بقدرة الله تعالى في حفظه ونصرته وتأييده. وما ترتب عليها من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة [75].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [العنكبوت: 22].

إن هذه دعوة لكل عاقل ليتدبر في هذا الوجود ويجعل من السير في الأرض وسيلة لهذا التدبر ليشاهد آثار قدرته تعالى في هذا الوجود والمتمثلة بالخلق والإحياء ليدرك من خلالها قدرته تعالى على البعث وأن الإعادة ليس بأعجب من ابتداء صنعها .

75 – راجع تفسير الرازي 317/10، وتفسير الألوسي 3/12، وتفسير ابن عاشور ، وتفسير اللباب لابن عادل 86/11،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن هذا القدرة الإلهية في الخلق والإحياء تتجلى آثارها المعجزة في هذا الكون . ومشاهد الكون وظواهره معرضاً لآيات القدرة الإلهية، وإن مجرد التأمل في تلك الآيات الكونية فإنه سرعان ما يثير في النفس مشاعر الحب والتعظيم والإجلال لهذه القدرة الخلاقة المبدعة . فلذلك كان الغرض من الأمر بالسير هو لينفذ إلى القلب ويغرس فيه محبة الله تعالى ، لأن مشاهدة هذه القدرة الإلهية المبدعة هي من موجبات محبته سبحانه .

وهي طريقة القرآن في تثبيت حقائق الإيمان في النفوس . فهي لا تنشئها في الفراغ بل إن هذه المحبة تستند إلى حقائق قاطعة ، فهي لها دلائلها العقلية ودواعيها الفطرية وموجباتها الواقعية ، فهو لا يقرر هذه الحقائق لمجرد المعرفة النظرية وإنما لتحقيق مقتضياتها التعبدية . والتي من أبرزها تعلق القلب به سبحانه في الرغبة والرهبة ، فلا يكون في القلب أحب إليه من الله ، ولا خوفاً من سواه ولا رجاءً بغيره .

فقوله : { إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } هو تعليل لما قبله ، أي : هو وحده سبحانه القادر على أن يبدأ الحياة ويعيدها بهذه القدرة الطليقة ، ومن قدرة الله على كل شيء أنه : { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } ، فهو المنفرد في جزاء عباده في الآخرة من ثواب المطيعين وعقاب المسيئين ، وبما أن الله هو المتفرد بالقدرة والتصرف في هذا الوجود ، في الخلق والبعث والحساب والجزاء ، فمن الحماقة والجهل أن يتعلق القلب بغير الله تعالى ممن لا يقدر على شيء من ذلك . وقد جعل الله نبيه الخليل قدوة في التجرد من هذه الأسباب المادية ، والتعلق بالله تعالى وحده حباً وخوفاً ورجاءً . ، وجعل من السير في الأرض والتأمل في آيات الله الكونية لمشاهدة آثار قدرته تعالى، مادة تربوية للكينونة الإنسانية بجميع عناصرها الفكرية والنفسية والسلوكية لتحقق وظيفتها التعبدية بفاعلية تامة ، ليصبح الوجود كله معرضاً تتجلى فيه آثار الصانع المبدع، وتظهر فيها معاني صفات الكمال والقدرة لله ، لتبعث في النفس إشعاعاتها وفيوضاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور، وتوحي بالحياة مع هذه الإشراقات المنبثقة من استحضار معاني الصفات الإلهية، لتحيل الوجود كله في قلب المؤمن من خلال السير والنظر لآثار صفاته تعالى في جنباته إلى محراب عبادة أينما حلّ أو ارتحل [76].

[76]- راجع : تفسير الألوسي 253/15، وتفسير البقاعي 237/6، وتفسير ابن عاشور 478/10، وتفسير الظلال ، 460/2 ، 459/5، 160، 11/8، وتفسير السعدي 628، وتفسير طنطاوي، 1420 ، 3303

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– المبحث الثاني –

التربية النفسية لمحبة الله تعالى

إن التربية النفسية العقدية هي من أهم الأمور التي جاء الأنبياء والرسل لتحقيقها في بناء الفرد المؤمن لأن التربة النفسية هي ثمرة القناعة الفكرية وهي المحرك الأساسي للطاقة الحركية والدافعة للسلوك ، ونجد في العصر الراهن أن هناك كثير من النظريات التربوية التي تدعي اهتمامها بتربية الإنسان وتهذيبه مثل النظريات المثالية والوجودية والواقعية والبرجماتية وغيرها [77]، وهذه النظريات تكمن خطورتها أنها أصبحت تطرح كبديل للتربية الإسلامية بعجرها وبجرها [78]، ونحن لا نعارض في تبني كل فعالية صائبة والتقاط كل حكمة نافعة ، لقوله عليه الصلاة والسلام :"الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها [79] " . ولكن نأخذها بوصفها معلومات ثبتت صحتها وتتفق مع الرؤية الإسلامية وصالحة للممارسة والتطبيق ، وليس بوصفها منظومة فكرية متكاملة بديلة عن الطرح الإسلامي ، فهذا الأمر مرفوض من الوجهة العقدية الإسلامية ، لقوله عليه الصلاة والسلام : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ [80] " لأنه لا وجه للمقارنة بين نبع الحكمة الإلهي اليقيني الثابت . وبين اجتهادات الفكر البشري المحدود القاصر ، وتأويلاته النابعة من الظن والهوى . فهذه النظريات على اختلافها تقف عاجزة في إيجاد الإنسان الصالح والمصلح ، وعاجزة عن الجمع بين متطلباته المادية وأشواقه الروحية ، وبين دنياه وأخرته ، وهي في نفس الوقت لا تملك تقديم المثل الأعلى ورجل الأسوة والقدوة ، لتصبح جميع نظرياتها تائهة بين المثالية والواقعية، والنظرية والتطبيق عاجزة عن الجمع بينهما ، كما أنها تتسم بالسطحية والجزئية والوقتية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[77] – د.عبد الرحمن الأنصاري، معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العد 105-38،412/106

[78] – وهي: العيوب والمثالب، كقوله: أخبَرْتُهُ بِعُجَرِي وَبُجرِي، وهو مثل : يضرب لمن تخبره بجميع عيوبك ثقةً بِهِ .قال أبو عبيد : أصل العُجَر العروقُ المتعقدة والبُجَر : أن تكون تلك العروق في البطن خاصة . انظر مجمع الأمثال، أبو الفضل النيسابوري ترجمة (1258) ص138

[79] – أخرجه الترمذي في سننه برقم (2687) 51/5 ، وابن ماجة في سننه (4169) 1395/2

[80] – رواه مسلم في صحيحه برقم (1718) .

، فهي لا تحمل مهمة جدية أو مسؤولية عن الغير ، ولا تجعل عملية الاهتداء هدفا أساسياً من أهدافها ولا تنضبط به . ومن هنا ندرك الحاجة الملحة إلى التربية الإسلامية ، كمنظومة فكرية متكاملة فيها الكفاية في تقديم المنهج التربوي القويم لتكوين الشخصية الربانية الهادية والمهتدية ، والصالحة والمصلحة .

لذا ينبغي أن يكون الإسلام هو المصدر الأساسي الذي نستمد منه أصول التربية وأسسها ، وأهدافها ومناهجها. وهذا مقتضى الإيمان بالله تعالى ، فلا يستقيم إيماننا إلا بجعل الوحي الإلهي هو المنظومة الفكرية المتكاملة كمرجعية في تلقي أصول التربية ، قال تعالى : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام: 153]. لذلك فإنه لا سبيل للخروج من هذه الأزمات المتلاحقة ، ومعالجة حالة التردي والتخلف التي أصابت الأمة إلا بالرجوع إلى نبع الوحي الإلهي والمتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، لكي نستمد منهما أصول التربية الإسلامية بما تتضمنه من صحة المعتقد وسلامة التصور ، وحسن الممارسة والتطبيق ، لذلك فإن التربية الإسلامية أصبحت ضرورة واقعية علاوة على أنها فريضة شرعية ، وهذه المسؤولية أمانة دينية وتبعة ضخمة على عاتق هذه الأمة في تربية أبنائها على أصول هذه التربية الربانية وتحقيقاً لأهدافها العليا ، والتي بها فقط تتحقق النهضة والكرامة لهذه الأمة ، ويمكن أن تعيد سالف مجدها وعزتها ، وهي ليست موضع ظن أو شك لأنها صادرة من خالق الإنسان والعالم بما يصلحه وينفعه ، وهي ليست موضع تجربة واختبار لأنها طبقت وحققت ما هو أشبه بالمعجزات على مدى قرون عديدة ، لذلك فإن الغفلة عنها مع قواطع الأدلة لهو العماية والجهل ، وتنحيتها عن واقع الحياة لهو الكفر والضلال .

وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، أصول العملية التربوية و أسسها ومناهجها وأهدافها وهي حقائق قاطعة لا تقبل النقد ولا النقض ، ولا التبديل أ و التغيير بحال . كما قدم عليه السلام من الوسائل والأساليب التي تغني العملية التربوية ، وهي ما زالت متجددة ومتطورة عبر مسيرة التاريخ الإسلامي بما يناسب كل جيل وعصر ، فهذه الوسائل والأساليب باب مفتوح للتجديد والإبداع والتطوير بما يخدم العملية التربوية . ما دامت منضبطة بالإطار العام للدين الإسلامي .

وتظهر أهمية هذه التربية من خلال تذكير الله تعالى بنعمته على هذه الأمة أنه بعث فيهم من أنفسهم ومن جنسهم رسولاً يقوم بتعليمهم حقائق الإيمان ، وتربيتهم على تعاليم الإسلام ،

ويكون لهم قدوة حسنة في تطبيق مضامينها، كما في قوله تعالى : { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } [آل عمران: 164].

فالرسالة الإلهية تتناول التربية الإنسانية بجوانبها الثلاثة : من الوعي الفكري على حقائق الوجود والإيمان ، وتربية النفوس بالتزكية والتصفية ، والإقتداء بسنته عليه الصلاة والسلام وتطبيقها من الناحية العملية . وكل منهج لا يراعي هذه الجوانب الثلاثة : العقلي ، والنفسي ، والسلوكي ، فهو منهج محكوم عليه بالفشل مسبقاً . وإن الجانب النفسي هو عنصر أساسي ومهم في العملية التربوية ، وإن جلّ الجهود المبذولة في العملية التربوية تتركز في التربية النفسية .

والمنهج القرآني وإن اهتم في الجانب الفكري من حيث تأسيس المعتقد الإيماني للشخصية الإسلامية إلا أنه أولى عناية بالغة للجانب النفسي والذي لم يحظى منا بهذا القدر من الاهتمام في مجال العقيدة تأسيساً وتكويناً وتربية، بل لقد انحصرت قضايا العقيدة في مجال البحث العقلي البحت ، وحتى في هذا المجال لم نحسن التعامل معه بمنطق الرشد والحكمة، فقد أصبحت الدراسات العقدية مجرد مجادلات فكرية وصراعات مذهبية تتمحور حول القضايا الخلافية ، البعيدة عن واقع الإنسان وحياته ، وواقع الحياة البشرية وحاجاتها ، علماً أن هذه القضايا الخلافية ليس لها وجود في الفكر الإسلامي الأصيل ، ولا هي من قضايا العقيدة التي جاء بها القرآن الكريم ، ولا هي العقيدة التي ربى بها النبي عليه الصلاة والسلام جيل الصحابة ، وإنما هي من مخلفات التراث الإسلامي في عصر الأزمات ، ومن موروثات التاريخ الإسلامي التي تأثرنا بسلبياتها و لم ننتفع من إيجابياتها في هذا المجال ، والعجيب أنها أصبحت هي السائدة في مجال البحث والدراسة وفي مجال التعليم والتربية ، مما أدى إلى تغيب دور العقيدة القرآنية التي جسدها الرسول عليه الصلاة والسلام في سيرته العطرة، وربى عليها الصحابة الكرام ، والتي أنتجت هذه التربية القرآنية جيلاً منقطع النظير في التاريخ الإنساني ، وأدت إلى تحولات متباينة في موازين القوى لصالح الحق والخير ، وصوبت مسار التاريخ البشري . ونقلته نقلة حضارية نوعية ومتسارعة ، وهي لم تبلغ هذه النتائج الحاسمة والإيجابية إلا بهذه التربية القرآنية ، والتي من أبرز سماتها :

1. أنها تتسم بالبساطة من غير تعقيد ، وبالعمق من غير سطحية .
2. أنها تجمع بين النظرية والتطبيق ، والمثالية والواقعية بصورة منقطعة النظير .

3. أنها تجمع بتوازن بين حاجات الإنسان المادية وأشواقه الروحية دون أن يطغى أحدهما على الأخر .

4. أنها تهتم بالمحتوى الكلي للإنسان فكره وشعوره وسلوكه ، بصورة شاملة .

5. أنها تتكامل فيها سعادة الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة بتوازن تام دون أن يضر أحدهما بالآخر .

6. أنها وحدها التي تحقق الغاية من الوجود الإنساني ، حينما تجعل حياة الإنسان موصولة بخالقه في كل حركة من حركاته ، لتحولها من حركة عادية إلى عبادة خالصة لله تعالى . وهي بذلك ترد للإنسان قيمته الحقيقية . التي أهدرتها مناهج التربية الأخرى .

وعلى هذا فالتربية الإسلامية : تربية إيجابية، متوازنة، شاملة، متكاملة . فهي في حقيقتها تربية ربانية في مضامينها ومناهجها وتوجهاتها وغاياتها ، وهي تربية ثابتة من حيث الفكرة والطريقة ، متنوعة من حيث الأساليب والوسائل . وإن المنهج القرآني يتخذ من هذا الوجود وواقع الناس وحياتهم ، مجاله الأول في التربية ليجعل منها دليلاً موحياً ومؤثراً ، من أجل تعبيد الناس لربهم وحده ، وإشعار قلوبهم وكيانهم كله حقيقة هذه العبودية ، وتذوق طعمها الحقيقي في استسلام الواثق المطمئن؛ الذي يستشعر أن كل ما حوله وكل من حوله من خلق الله ، يتجاوب وإياه! فالمنهج القرآني لا يطرح قضايا العقيدة في صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية أو مجادلات كلامية ! فدين الله مصان من هذه المهاترات العبثية، ومعصوم من هذه الزلات البشرية ، فهو بجديته وإيجابيته يحفظ للإنسان طاقته وتعقله من الاستنزاف والتبديد ، ويحمي فطرته من عوامل العطب والتدمير ، ويصون حياته من العبث والهزل . لذلك فإن المنهج القرآني حين يعرض أهم قضية في الوجود وفي حياة الإنسان ، وهي عقيدة التوحيد لا يطرحها طرحاً فلسفياً أو كلامياً بمعيار عقلي نظري جاف ، وإنما بمنهج فكري مؤثر مرتبط بفطرة الإنسان ومشاعره الوجدانية ، فهو لا يستخدم البرهان العقلي معزولاً عن الجانب النفسي ، فهو يواءم بينهما في مزيج مؤتلف لا ينفصل أحدهما عن الآخر . ونلاحظ هذا في مجال التربية النفسية للمشاعر الدينية ومن أبرزها محبة الله تعالى .

فالقرآن عمل على تكوين هذه العاطفة الدينية من محبة الله تعالى تكويناً فكرياً من خلال ضبط مفهومها العقدي والشرعي ، والتأسيس الفكري لموجباتها الفطرية ، وبعد ذلك عمل على تربية النفس على هذه الحقيقة التي قررها بموجب العقل والفطرة ، فالقرآن حين يبين لنا حقيقة المحبة

ويضبط مفهومها العقدي، ويؤسس منهجها الفكري لا يقصد من ذلك مجرد المعرفة النظرية، وإنما يريد منا أن تتمثل هذه المحبة في حياتنا واقعاً معاشاً، وسلوكاً متجسداً في كل أقوالنا وأفعالنا، ولذلك فقد عمل على تكوين هذه العاطفة تكويناً قوياً ومؤثراً في نفس الإنسان حتى تملك عليه كل قلبه فلا تترك فيه مكاناً لغير محبة الله تعالى، فالقرآن كونه جاء نوراً وهدى ورحمة وشفاء للنفوس وحياة للقلوب لم يكتف بالتعريف بحقيقة المحبة لله وإنما عمل على صناعتها في قلوبنا وهيء لها أسباها وموجباها في نوازع الفطرة الكامنة في النفس الإنسانية أولاً، وهيء لها عقلاً مدركاً لأثار افعاله الدالة على جمال وجلال صفاته سبحانه وتعالى ثانياً، والتي متى وجدت فطرة سليمة خالية من الشواغل والأهواء، وعقلاً متبصراً بحقائق الأشياء، استقرت واستحكمت في شغاف القلب لا ترضى بغير حبه بدلاً، وكانت طاقة عظيمة تدفع به نحو كل الفضائل وتمنعه من كل الرذائل، ليكون عنواها استقامة السلوك على منهج الله تعالى . كما أن القرآن الكريم يؤسس محبة الله تعالى على أساس فكري قوى ومتين ، وأساس نفسي مؤثر وفاعل في السلوك ، لتكون هذه المحبة في رسوخها وثباها في القلب على مستوى التكاليف التي طالب الله بها عباده، والغايات التي أراد منهم تحقيقها، ولتكون محبة الله هي القوة الدافعة والزاد المستمر للمؤمن لأداء تكاليف ربه وتحقيق مراده في همة عالية وعزيمة قوية [81].

وعليه فإن القرآن يقرر حقيقة محبة الله تعالى بدلائلها الفكرية وموجباها النفسية ، من خلال آثار صفاته المشهودة في حياة الناس والتي تتجلى بمظاهرها المختلفة، وهذا التقرير القرآني لمحبة الله تعالى ليس للتقرير النظري ، وإنما ليطالبهم بمقتضى هذا الإقرار ، وليلزمهم بمقتضياها التعبدية ، من سلوك منهج الله تعالى كممارسة إيمانية ، وسلوك اعتقادي ، فالمحبة في المفهوم الإسلامي ليست مجرد مشاعر تتقصد فيها اللذة، والوجد ،والنشوة، والوصل ، ومحاولة الوصول إليها بشتى الطرق والوسائل ، ومن ثم التعبير عنها بترنح الرأس وهز الجسد كما هو حال بعض المسلمين ، فهذا المنهج غريب عن المنهج الإسلامي الأصيل وإنما هو وافد دخيل اقتبس من الديانات الأخرى كالبوذية التي تجعل من الوصول للإشراق الروحي غايتها ، كما أن طقوسها وطرقها للوصول للذة الوصل بالله لا تنسجم مع جلال الله تعالى وعظمته ، وهذه الطرق والطقوس هي في حقيقتها محاكاة لغيرها من الطرق، وهي ليست من الإسلام في شيء ، إن محبة الله تعالى أعظم من أن يعبر عنها بهذه الطريقة الساذجة ، لأن محبة الله ليست نافلة من النوافل ، ولا مجرد موقف نفسي أو

81 – أنظر زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شعور وجداني يترنح به الرأس وتهتز به الفرائض ، وتطرب له القلوب . بل هي فريضة واجبة ، وتبعة ضخمة ، ومسؤولية أشفقت منها السموات والأرض والجبال .

ومن ثم لن تنفع مدعي المحبة لله تعالى ترنحات رأسه وهو يهزه طرباً ونشوة علامة على العشق ، ولن يفيده انتفاضة جسده المنتشي بلذة الوصل! أيا ليت شعري ماذا سيجيب هذا المدعي للمحبة رب العزة وقد تعطلت شرائع الله وأحكام دينه، وعم الفساد والانحلال في بلاد الإسلام ، وانتشر الجهل والتخلف بين المسلمين ، واستبيحت المحارم والأعراض ، واستعمرت الأوطان واستعبد الإنسان ؟ لذلك كانت محبة الله تعالى في المفهوم القرآني منضبطة محددة واضحة ملزمة ، وأول التزاماتها هو تحقيق العبودية الشاملة لله تعالى ابتداءً من الذات ، ثم هو مطالب في تحقيقها في جميع العالم ، وفي كل الأرض . ليصبح دين الله وضعاً سائداً ونهجاً شاملاً لكل جوانب الحياة البشرية . فمحبة الله تبعة ضخمة ، ومسؤولية كونية ، مكلف بها الإنسان بصفته البشرية لا يخرج عنها أي إنسان كان . وهو محاسب أمام الله تعالى عليها .

لقد أدى تغيب الجانب النفسي في الدراسات العقدية وانفصالها عنها ، إلى أن يتكون هذا الجانب خارج الدراسات العقدية ، ومن ثم افتقدت إلى تأصيل الفكر وتأسيس المعتقد كما يلاحظ في تاريخ الفكر الإسلامي، وبهذا خرجت عن مسارها مفهوما ومضمونا ومنهجاً وغاية . وإن هذا التغيب للجانب النفسي في الدراسات العقدية يعني وجود حلقة مفقودة في التربية الإسلامية ، مما أدى إلى عدم فاعلتها وضعف أثرها في السلوك ، لأن الجانب النفسي كما تشير كثير من الدراسات أنه هو الدافع للسلوك والمحرك له ، وإن الإسلام لمعرفته هذه الحقيقة ربط الجانب النفسي بالعقيدة ربطاً محكماً لا ينفصل عنها ، وإن الحديث عن الأسباب التي أدت إلى فصل هذا الجانب عن العقيدة ، والآثار السلبية التي أحدثتها على صعيد الفكر والمعتقد ، وعلى صعيد الواقع لحياة الفرد المسلم والأمة الإسلامية، يحتاج إلى بحث ودراسة تحليلية مفصلة ومعمقة . ونحن إنما نشير إلى هذه الإشكالية لعلاقتها بمحبة الله تعالى ، والتي هي جزء من الجانب النفسي ، والذي ينبغي دراسة هذا الجانب بوصفه موضوع من موضوعات العقيدة الأساسية ،لأنه بغيرها تبقى العملية التربوية تدور في حلقة مفرغة ولن تحقق أثرها المطلوب في بناء المسلم ونهضة الأمة .

لقد بيّن إبراهيم عليه السلام أهمية العملية التربوية في حياة الإنسان وفق مصادرها المعتبرة، وعناصرها المتكاملة، ومراحلها المتدرجة، وغاياتها السامية ، كما هو واضح في قوله تعالى :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

{ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [البقرة: 129]. فهو عليه السلام يؤسس المنهج التربوي القويم في تكوين الشخصية الإسلامية بإبعاده الثلاثة: الفكرية، والنفسية، والسلوكية ، وهذا المنهج واضح في سيرته عليه السلام حيث نجد أنه يبدأ في تصحيح المسار الفكري وتكوينه أولاً . ثم يصوب من خلاله توجهات المشاعر النفسية للفطرة ويضبط ميولها وفق مقتضى الشرع المنبثق عن العقيدة وحقائق الإيمان ، ليسير السلوك بعد ذلك سيراً طبيعياً في إشباع حاجاته الفطرية بما يتوافق مع تلك المفاهيم والميول المكتسبة من نظام المعتقد الإلهي . كما في قوله تعالى له عليه السلام: { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [البقرة:131]

وفي مجال التربية النفسية لمحبة الله تعالى فقد بين إبراهيم عليه السلام محبة الله تعالى بمفهومها العقدي والشرعي وضبط مسارها ضبطاً محكماً، وأسس بناءها الفكري والنفسي ، وجسد معانيها واقعاً عملياً ملموساً ، وسجل القرآن قصته لتكون معلماً من معالم التوحيد وتعبيراً حقيقياً لمحبة الله تعالى ، كي ترنوا إليها النفوس ، وتستقيم بها حركتهم الإيمانية في واقع الحياة . حينما تقتدي بإمام الحنفاء وخليل الرحمن . لأن الإقتداء به هو إقتداء بنبينا الحبيب عليهما الصلاة والسلام . ويمكن ان نتعرف على طريقة التربية النفسية لمحبة الله تعالى ، من خلال قصة إبراهيم عليه السلام الواردة في القرآن الكريم ، والتي يمكن أن نبينها من خلال مطلبين هما :

المطلب الأول : التخلية من كل محبة سوى الله والتحلية بمحبته تعالى .

المطلب الثاني : دعوة إبراهيم لمشاهدة صفات جماله تعالى ومطالعة العبد إحسانه عليه .

ـــ المطلب الأول : التخلية والتحلية .

إن قصة إبراهيم عليه السلام شاهد على هذه الحقيقة الإيمانية من محبة الله تعالى، والتي عرضها القرآن الكريم ، ليوجه القلوب إلى محبة الله تعالى كدرس من دروس التربية العقدية من الوجهة النفسية ، والتي تعد التخلية والتحلية من أبرز الجوانب في تحقيق هذه التربية الإيمانية لمحبة الله تعالى، وإن التخلية من الشرك والتحلية بالتوحيد هي طريقة القرآن المكرورة في التربية العقدية ، فهو يبدأ بالتخلية أولاً، حيث يقتلع الشرك من جذوره بالإنكار والبطلان ، كقوله تعالى : { وَاتَّخَذُوا مِنْ

دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا } [الفرقان: 3]. ومن ثم التحلية بالتوحيد حيث يغرس شجرته الطيبة في القلب بالتقرير والإلزام [82] . كقوله تعالى :{ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } [يونس: 31]. وإن قصة إبراهيم عليه السلام جاءت موافقة للقرآن في منهجه وطريقته ومنها التخلية والتحلية ، لأن منهج التلقي لمحمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام يصدران من مشكاة واحدة ، فقد استخدم طريقة التخلية والتحلية في مجال التربية العقدية ، وقد جاءت هذه التربية واضحة في قصة إبراهيم كل الوضوح ، بل إن كثير من المواقف الإيمانية لإبراهيم والمجادلات الفكرية التي خاضها مع أبيه وقومه تضمنت هذه الحقيقة بصورة متكررة في كثير من قصصه التي سجلها القرآن الكريم ، ونذكر منها بعض الشواهد على هذه الحقيقة :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } [الشعراء: 83].

إن إبراهيم عليه السلام يؤسس محبة الله تعالى على أساس عقلي متين ، ويظهر ذلك من خلال دعوته لأبيه وقومه وهو يحثهم إلى استخدام عقولهم بالنظر والاستدلال إلى فساد معتقدهم في عبادتهم من لا يستحق العبادة ، وتركهم عبادة الله تعالى المتفرد بصفات الربوبية ، وهو قبل

[82]- راجع : تفسير السعدي ، 592 ، وتفسير البقاعي ، ج6 / 70 ، وتفسير الظلال ، 5 /352

دعوتهم للتوحيد يدعوهم إلى نبذ الشرك ، أي التخلية قبل التحلية على طريقة القرآن ، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي[83] :

1. **التخلية:** وهو الإنكار والبطلان في ما يناقض عقيدة التوحيد من الشرك ، حيث عمل على إبطال إلهية الأصنام وانحطاط رتبتها عن استحقاقها للعبادة وذلك كونها : عاجزة عن سماع دعاء من يدعوها حتى تستجيب له ، ولو سمعت فهي غير قادرة على أن تنفع من يرجوها أو تدفع عنه الضر .

2. **التحلية** : وهو التقرير والإلزام في إثبات عقيدة التوحيد ، حيث يأخذ عليهم إقرارهم بتوحيد الربوبية ليلزمهم بهذا الإقرار بتوحيد الألوهية ، فمن تفرد بخصائص الربوبية فهو من يستحق أن يتفرد بخصائص الألوهية ، وهو من يستحق جميع انوع العبادة دون سواه . لذلك بين عليه السلام صفة ربه ، حيث وصفه بما يستحق العبادة لأجله ، من الخلق ، الرزق الضر والنفع ، الإحياء ولإماتة ، البعث والحساب والجزاء . وهكذا لم يمنع إبراهيم عليه السلام أن أباه قومه على الشرك ، أن يفارقهم بعقيدته ، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم ، وكذلك يعلم القرآن المؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا لقوم؛ وأن الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هي قيمة الإيمان . وأن ما عداه تبع . كما أن العداوة لا بد أن تشمل كل ما يعبد من دون الله لأن التوحيد لا يستقيم إلا بالمولاة وهي لا تتحقق من غير البراءة من الشرك والمشركين ، سواء كان عابدا أو معبودا . فهذه التخلية مسبوقة بالتحلية ، ومصاحبة لها ، فإن إبراهيم في الوقت الذي يعلن عداوته لقومه ولمعبوداتهم الباطلة ، يجاهرهم بأن عبادته إنما هي لله تعالى وحده ، فقد استثنى إبراهيم عدائه لقومه ومعبوداتهم، بقوله: { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } وهذا الاستثناء ليس عريا عن أسبابه الوجيهة والتي شرع إبراهيم في بيانها وتعدادها لقومه ، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد نعم الله عليه ، إنما هو احتجاجا على قومه، في أنه لا تصلح الألوهة ، ولا ينبغي أن تكون العبادة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، وليس لمن لا يطيق شيئاً من ذلك [84] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[83] - راجع : تفسير السعدي ، 592 ، وتفسير البقاعي ، ج6 / 70 ، وتفسير الظلال ، 5 /352

[84] - راجع ، تفسير الطبري، 19/362-364 ، وتفسير ابن كثير ،6/145، وتفسير الرازي 11/482 وتفسيرالظلال ، 5/351-352 . وتفسيرطنطاوي 3165 ، وتفسير البقاعي 6/ 69، ابو السعود 6/248،

* ويمكن بيان الطرق التي تسهم في تخلية القلب من كل ما سوى الله تعالى ، والطرق التي توصل لتحلية القلب بمحبته تعالى ، وذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام وهي على النحو الآتي :

أولاً : الطرق الموصلة لتخلية القلب من غير محبة الله تعالى .

1. الزهد في الدنيا : ويتجلى ذلك في استجابة إبراهيم عليه السلام لأمر ربه في إسكان زوجته وولده في أرض قفراء لا عشب فيها ولا ماء ، قال تعالى : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم: 37].

2. الخوف من عذابه ورجاء ثوابه : ويتجلى هذا في دعائه عليه السلام ، قال تعالى : { وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } [الشعراء: 85-87].

3. ملازمة الصبر : ويتجلى هذا في أعظم المواقف عندما استجاب إبراهيم عليه السلام لأمر ربه في ذبح ولده إسماعيل ، واستسلما معاً لتنفيذ أمر الله تعالى ، في قوله : { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات: 102].

4. اجتناب المعاصي والذنوب: ويتجلى هذا المعنى في قوله تعالى : { إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36)} [إبراهيم: 35-36].

ثانياً : الطرق الموصلة لتحلية القلب بمحبة الله تعالى .

1. التوبة . قال تعالى : ويتجلى ذلك في قول إبراهيم عليه السلام وهو يدعو ربه عز وجل بقوله : { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ } [إبراهيم: 41].

2. ذكر الله تعالى . قال تعالى : { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } [إبراهيم: 39] .

3. الجهاد في سبيله . قال تعالى : { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } [الأنبياء: 51].

4. المسارعة لطاعته والتقرب إليه قال تعالى : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124) } [البقرة: 124]. وقال تعالى : { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } [الأنبياء: 73].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28) } [الزخرف: 26 – 28].

إن هذه البراءة من إبراهيم عليه السلام لقومه ومعبوداتهم الباطلة، وهذه الموالاة لله تعالى ، هي التفسير الحقيقي لكلمة التوحيد وهي : {لا إله إلا الله } وهذه الكلمة تقوم على النفي والإثبات ، أو التخلية والتحلية ، وبيان ذلك على النحو الآتي :

1. أما التخلية : فهو بنفي كل المعبودات غير الله في جميع أنواع العبادات، والبراءة منها ، كما في قوله: { إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ } وهذه التخليه أو البراءة هي جاريا مجرى { لا إله }.

2. وأما التحلية : فهو بإثبات الألوهية لله تعالى وحده وتفرده بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله ، كما في قوله: { إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ } وهذه التحلية أو الإستثناء جاريا مجرى { إلا الله } .

فكانت هذه التخلية والتحلية من البراء والولاء متضمنة لكلمة التوحيد نفياً وإثباتاً ، والتي قدم إبراهيم عليه السلام معناها بصورتها العملية تعبير لمنهجه التوحيدي وهو الحنيفية السمحة التي أمرنا سبحانه بإتباعها والإقتداء به عليه السلام ، لتبقى هذه الكلمة يتوارثها الأجيال من بعده ، لذلك فقد وصى بها إبراهيم عليه السلام بنيه ، لتكون هذه الكلمة باقية في ذريته ، كما في قوله تعالى : { وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 132]. لتبقى هذه الكلمة الإيمانية ممتدة عبر الأجيال ، فهذه الكلمة هي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دعوة جميع الأنبياء والمرسلين لقوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } [الأنبياء: 25]. وهي المحور الأساسي الذي يدور حوله القرآن كله ، وهي القضية الأساسية في حياة البشرية ، ومحور الصراع والتدافع بين الحق والباطل عبر التاريخ الإنساني . وعليه فأن عقيدة التوحيد لا تصح إلا برفض كل معبود سوى الله وتعالى ، ورد كل أمر أو منهج لا يصدر عنه سبحانه ، وعلى أساس هذه الحقيقة يتحدد الإيمان والكفر للناس وعليها يتقرر مصيرهم في الآخرة [85].

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : {وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 114].

إن إعلان إبراهيم البراءة من أبيه ليس لغرض سوى صحة معتقده وسلامة دينه ، فالقلب لا يجتمع فيه حب الله تعالى وحب أعدائه ، فالتخلية عن الكفر لا بد منه للتحلية بالإيمان ، والإسلام يجعل الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله ، ولا تقوم الصلة بين بني البشر إلا على أساسها . فإذا قطعت هذه الصلة انقطعت سائر الوشائج؛ وكانت البعدى التي لا تبقى معها صلة ولا وشيجة . لأن القرابة التي يقررها القرآن ليست قرابة النسب ، إنما هي قرابة العقيدة .

وموقف إبراهيم في إعلان البراءة من أبيه، هو الموقف الذي ينبغي أن يقفه كل مؤمن محب لربه ولدينه ، مصداقاً لقوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [التوبة:23]. بهذا الحسم وبهذا الوضوح يربي القرآن المؤمنين ويخاطبهم بهذه الصفة ، لأن الاستجابة الشعورية لمراد الله تعالى هي المقتضى الحقيقي لهذا الإيمان . هذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الحاسمة . التي تبدأ بتوجيه المؤمنين نحو مفاهيم العقيدة ، ليقوموا تصوراتهم وقيمهم على أساسها ، ويصوبوا مشاعرهم وفق

[85]- راجع تفسير الرازي 13 /472 ، وتفسير أضواء البيان ، لشنقيطي ، 7 /201-202 ، ومحمد قطب ، لا إله إلا الله ، 21ــــ 22 ، والألوسي 18 / 347 ، التوحيد ، محمد عبد الوهاب ، 92

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقتضياها الإيمانية ، وبعد البيان والتقرير لحقيقة الروابط العقدية ، يعدهم للمواجهة ، ثم المفاصلة مع المشركين[86] .

* الشاهد الرابع :

قال تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } [الممتحنة: 4].

بيّن سبحانه وتعالى موقف إبراهيم عليه السلام ومن معه كيف أعلنوا البراءة من قومهم بسبب تلبسهم بالشرك والكفر هم وبمعتقداهم ومعبوداهم الزائفة . وأعلنوا العداوة والبغضاء لهم بصورة دائمة لا تنقطع إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام. وهذه البراءة من الكفر هو لتصفية المؤمنين من رواسب الكفر وأرجاس الشرك لذلك كانت هذه المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان ضرورية للمسلم ، من الوجهة الشعورية لتحقيق الحصانة النفسية وصيانة لفطرته من التلبس بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية .

وهي كذلك حصانة للمسلم من تميّع هويته الإسلامية حتى لا تصبح مجرد دعوى شكلية فاقدة لكل مقومات الانتساب لهذا الدين . وبغير هذه المفاصلة سيبقى الغبش وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع . والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة . إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح .

هذا هو الإيمان بالله تعالى لا يستقيم مع الكفر والرضى به، فلا بد من التخلية من كل أنواع الشرك ومن الروابط التي تتعارض مع دعوى الإيمان ، ومن ثم يقبل الله منه إيمانه ، وهذه القاعدة الإيمانية من الهجرة والمفاصلة المنبثقة عن الولاء والبراء ، هو أول ما علمه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو في بداية طريق الدعوة : { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكافرون: 6]. إن

---

[86] - راجع : تفسير ابن كثير 4-224 و تفسير الرازي 8-146

الإيمان والكفر لا يلتقيان ، ولن يلتقيان وسيبقى هذا الصراع قائماً ودائراً إلى يوم القيامة ، ولكل منهما أتباعه وأنصاره ، لذلك كان من بديهيات الإيمان هو مفارقة الكفر ، وإعلان البراءة الكاملة منه من غير مداهنة ، والمفاصلة التامة التي لا تقبل بأنصاف الحلول ، ولا تسمح بالالتقاء في وسط الطريق ، ولا الرضى بالأمر الواقع ، ولا تتنازل عن الثوابت ، ولا توافق على الترقيع لتجعل من الدين هجين مختلط بين الإسلام والكفر . لقد كان قوله تعالى : {لكم دينكم ولي دين} حصانة لهذا الدين من الذوبان ، وحصانة للمسلم من عوامل التدمير والانصهار.

ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك ثغرة يتسلل منها إلى ساحة الشرك ليلتقي معهم تحقيقاً لمصالحه المادية ، واستجابة لأهوائه ، فقطع القرآن عليهم الطريق بحسم ووضوح ، مبيناً لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه : { لأستغفرن لك } . فذكر الله عذر إبراهيم في ذلك بقوله: { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إن إبراهيم لأواه حليم } [التوبة: 114].

فهذا هو الدين الذي يريده تعالى من عباده ، الدين القائم على التوحيد الخالص الذي لا يقبل الالتقاء مع الشرك في أي صورة من الصور ، وتحت أي مبرر وذريعة [87].

ـــ المطلب الثاني: مشاهدة صفات جماله تعالى ومطالعة العبد إحسانه عليه .

إن من تأمل العبد أسماء الله وصفاته وتعلق قلبه بها طرحه ذلك على باب المحبة ،وفتح له من المعارف والعلوم أمورا لا يعبر عنها ، وإن من عرف الله أورثه ذلك محبة له سبحانه وتعالى . وهذه المحبة عاطفة شرعية إيمانية وعبادة قلبية وهي محبة إجلال وتعظيم ،ومحبة طاعة وانقياد يبرهن بها العبد على صدق عبوديته لمولاه تعالى . فالمحبة هي ثمرة معرفة أسماء الله وصفاته واعتقاد جماله وكماله وجلاله ،والاعتراف بإحسانه وإنعامه [88]. فهذه هي طريقة القرآن الأساسية في تكوين البواعث على محبة الله تعالى في القلب .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[87] – راجع : تفسير الطبري 317/23 ، الرازي 322/15 ، وتفسير الظلال ، 7/ 181 ، وتفسيرالسعدي 854 ، وتفسير طنطاوي 4166 148، طريق الدعوة ، أحمد فايز 181/2-182

[88] – أنظر : عبد الرحمن بن محمد بن علي الهرفي ، أثر الأسماء والصفات في الإيمان، من موسوعة الدين النصيحة 67/2

ويمكن بيان ذلك من خلال قصة إبراهيم على النحو الآتي:

أولاً: مشاهدة صفات الجمال والإكرام لله تعالى .

ثانياً: مشاهدة العبد إحسان الله تعالى إليه .

أولاً: مشاهدة صفات جمال الله تعالى وإكرامه على خلقه [89].

إن مشاهدة القلب لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا تورث محبة الله تعالى، لأن من عرف الله بها أحبه لا محالة، لأن هذه المحبة هي ثمرة المعرفة بالله تعالى تقوى بقوتها وتضعف بضعفها وتنعدم بانعدامها وبهذه المعرفة يطلع الإنسان على صفات الله تعالى التي تورث في القلب المحبة الخالصة لله تعالى، ولقد دعا القرآن إلى توجيه العقل إلى مشاهدة هذه الصفات من خلال الكون المنظور والكتاب المسطور لأنهما نافذة العقل حتى يتعرف من خلالهما إلى الله تعالى، لتنعقد بهذه المعرفة محبته في القلب، فإن التفكر في أسماء الله تعالى وصفاته ، ومطالعة القلب لها ومشاهدتها ومعرفتها وتقلب النفس في رياض هذه الأسماء من أعظم الأسباب الجالبة للمحبة ، فعلى العبد التفكر في هذه الأسماء من خلال آثارها في الوجود والتأمل في معانيها، ولذلك تفاوت الخلق بمنازلهم ومراتبهم في محبة الله على حسب تفاوت مراتبهم في معرفة الله والعلم به، فأعرفهم بالله أحبهم له، ولهذا كان الخليلان محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام أعرف الناس بالله وأشدهما له حباً سبحانه وتعالى . وقد كان لقصة إبراهيم دوراً بارزاً في تكوين محبة الله تعالى من خلال مطالعة القلب لصفات جماله سبحانه وتعالى[90] . ومن الشواهد على ذلك نبينه كما يلي :

* الشاهد :

قال تعالى : { أَفَرَأَيْتُم مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } [الشعراء: 75–82].

[89] – راجع: ابن القيم، مدارج السالكين، ج3، ص 17، أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 334.

[90] – راجع : ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ، 90/2 . والفوائد ، ص 63- 64 .

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن هذه الآيات تبين طريقة إبراهيم عليه السلام في إثبات توحيد الله واستحقاقه للعبودية ،التي هي غاية الحب والذل لله تعالى ، وذلك من خلال مطالعته لصفات الله تعالى من القدرة المطلقة في الخلق والرزق والإحياء والإماتة والضرر والنفع والبعث والنشور والحساب بآثارها الواقعية التي تجعل القلوب تميل إليه وتحبه حباً عظيماً خالصاً من الشراكة والأنداد. إن إبراهيم يطالع هذه الصفات بآثارها المشهودة في واقع حياته . ومن ثم يستحضر هذه الصفات واحدة تلو الأخرى مبينا أنه من كان متصف بهذه الصفات كان هو وحده المستحق لهذه المحبة دون سواه . وهذه الصفات التي يطالعها عليه السلام هي صفات جمال لله تعالى توجب محبته وتبعث النفس لتميل إليه وتتعلق به سبحانه ، وهذه الصفات التي يطالعها إبراهيم عليه السلام جمع فيها جميع نعم الله تعالى وتجليات رحمته من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار الآخرة ، والتي تتجلى بما يلي :

1. مطالعة القلب لنعمة الخلق والإيجاد ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية ، كما في قوله: { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } . وإن هذه النعمة العظيمة التي كرم الله بها الإنسان وفضله على كثير من مخلوقاته ، تبعث النفس على محبته تعالى وذلك حين يستحضرها القلب من خلال التفكر في آيات الله المبثوثة في الكون والأحياء ، ومشاهدة آثارها في نفسه وفي الوجود من حوله .

2. مطالعة القلب لنعمة الله تعالى في إمداد الإنسان بالرزق الذي به دوام الحياة وبقاء نظام خلق الإنسان وهو الغذاء والماء ،كما في قوله تعالى : { وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } . فحين يشاهد الإنسان كيف يسوق الله الرزق لعباده من خلال تسخير قوى الكون كله ليوفر له أسباب الحياة ، ووسائل العيش بما يكفل بقاءه ويحفظ حياته ، فإن هذا من أقوى البواعث النفسية التي تجعل القلب لا يتعلق بالمحبة بغير الله تعالى وحده ، قال تعالى : { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [النحل: 14-18].

3. مطالعة القلب لنعمة الله تعالى في شفائه حين يصيبه المرض ، كما في قوله : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } . فإبراهيم في الصحة والمرض يطالع كفالة الله ورعايته له حينما يشفيه من مرضه ، فهو يذكر ربه في مقام الإنعام والأفضال ، إذ يطعمه ويسقيه ، ويشفيه . ولا يذكره في مقام

الابتلاء حين يبتليه . لأن الكل من الله تعالى ، وذلك لأن هذا هو الأدب مع الله ، وهذا هو الذي يبعث القلب على محبته ، والشعور بالامتنان لفضله .

4. مطالعة القلب لنعمة الله تعالى في الإحياء والإماتة في قوله: { والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ } . وذلك للإشارة إلى أن الموت بالنسبة للمؤمن طريق لا بد منه للسعادة الأبدية ، والحياة بعد الموت هو طريق الوصول إليها . وتتجلى هذه النعمة من الله تعالى بعباده الذين استقاموا على منهجه ، من نزول رحمته وفضله عليهم عند الموت وما بعده ، كما في قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ } [فصلت: 30-32]. لأن الموت لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب الأبدية التي يستحقر دونها الحياة الدنيوية .

5. مطالعة القلب لنعمة الله تعالى بتقدير المغفرة للذنوب التي تصدر من الخلق ، كما في قوله : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } . فإبراهيم عليه السلام يطالع رحمته تعالى في جبر الذنوب التي تصدر من البشر فيما قدره من رحمته بمغفرة الذنوب ومحوها ، فضلاً منه ورحمة بعباده .

ومن الملاحظ في تعديد إبراهيم عليه السلام لنعم الله تعالى وفضله وواسع رحمته عليه إنما يذكره بصفات جماله وإنعامه وإفضاله التي تتجلى في كل حركة وفي كل حاجة وغاية ، وإن شعوره بهذه الرحمة والعناية الإلهية ، تجعله يعيش بكيانه كله مع ربه ، ويتوجه إليه في حب وامتنان ، وشكر دائم واستسلام مطلق ؛ وهو يحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه . وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين . والإقرار بفضل الله ورحمته بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض . وفي البعث والحساب بعد الموت . وهي العناصر التي تغرس في القلب محبته سبحانه وتعالى .[91]

---

[91] - تفسير الطبري، 362/19-364 ، وتفسير ابن كثير ،145/6، وتفسير الرازي 482/11 ، وتفسير البقاعي 70/6 ، وتفسير الألوسي ، 241/14-251 ، وتفسير ابن عاشور ، 173/10-180 ، وتفسير طنطاوي ،3165-3167 ، وتفسيرالظلال ، 351/5-352 ، وتفسير السعدي ، 592 ، وايسر التفاسير ، الجزائري ، 108/3، ومنهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني ، د . منى بنت عبد الله ، 57-58

ثانياً : مطالعة العبد إحسان الله تعالى عليه وكرمه[92].

إن مشاهدة العبد لنعم الله وآلائه وبره وإحسانه له تورث محبة الله تعالى، وهي تعد، من أكثر دواعي المحبة لله تعالى، وهي تزيد من تعلق القلب به سبحانه، لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، ولقد قال صلى الله عليه وسلم: "أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه" [93] فمطالعة هذه النعم الظاهرة والباطنة تجلب المحبة وتقويها ، فإن مشاهدة بر الله وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى المحبة ، لأن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها ، فمن الأشياء الجالبة للمحبة هو أن تتفكر في نعم الله عز وجل، التي لا تعد ولا تحصى . فعندما نستشعر هذه النعم ونستحضرها ، فإننا نحب الله عز وجل، فلذلك كان التفكر بنعم الله على عباده، وبره بهم، وإحسانه إليهم، وحفظه لهم، يؤدي للمحبة ، لذلك فقد أمر سبحانه عباده بأن يذكروا نعمه عليهم ، لما في ذلك من استجلاب محبته ورسوخها في نفوسهم ، وثباتها في قلوبهم ، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } [فاطر: 3]. والمراد من ذكر النعمة : ذكرها باللسان وبالقلب ، وشكر الله تعالى عليها ، واستعمالها فيما خلقت له [94]. وقد جاءت قصة إبراهيم في تأكيد هذه الحقيقة ، نذكر من هذه الشواهد ما يلي :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ } [إبراهيم: 39].

إن مشاهدة إبراهيم عليه السلام نعمة الله تعالى عليه حيث رزقه الولد في سن لا يولد فيه لمثله، أشار إلى ذلك بتأكيد قوله : { إن ربي } أي المحسن إليّ مع كبر سني ويأسي عن الولد ، وإنما قيد الهبة بحال الكبر لأمرين :

---

[92] – راجع: ابن القيم، مدرج السالكين، ج 3، ص 17، وأبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 320.

[93] – رواه الترمذي، سنن الترمذي، رقم الحديث "3789" ج5، ص 664، كتاب المناقب، قال الترمذي: حسن غريب وقال الألباني: ضعيف.

[94] – انظر : تفسير طنطاوي ص3496

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الأمر الأول : استعظاماً للنعمة : لأنّ المنة فيها بهبة الولد أعظم من حيث أنّ الكبر مظنة اليأس من الولد ، فإنّ مجيء الشيء بعد الإياس أحلى في النفس وأبهج لها وفيه إشعار بأنه دعا ربه وسأل منه الولد فأجابه ووهب له سؤله حين ما وقع اليأس منه ليكون من أجل النعم وأجلاها .

الأمر الثاني : إظهاراً لشكرها : فلما تم ما دعا به من النزاهة عن رجاسة الشرك وتبين بتقديمه أن أهم المهمات البراءة منه ، أتبعه الحمد على ما رزق من النعم وما تبع ذلك من الإشارة إلى وجوب الشكر فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر نعمة ربه عليه فيشكره عليها : فقال : { الحمد لله } وهذا مقام الشكر الذي هو عامل من عوامل الإستجابة والمزيد من الفضل .

فإبراهيم في مطالعته لهذه القدرة الإلهية المطلقة التي لا يقيدها شيء ، وحقيقة المشيئة النافذة التي يستجيب لها كل شيء ، ولكن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري ، وتحدان من تصوراته . فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له؛ ويعجب كيف يكون! والمشيئة المطلقة ماضية في طريقها لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود؛ تبدع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود! والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم ، وهذا ما علل به الملائكة لامرأة إبراهيم تعجبها من هذه الخارقة ، في قوله تعالى : { فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } [الذاريات: 29-30]. فقول الملائكة:{ كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم } . أي : لا تتعجبى من أن يكون لك غلام في هذه السن ، فإن هذا الحكم هو حكم ربك . وحكمه تعالى لا مرد له ، لأنه سبحانه الحكيم في كل أقواله وأفعاله ، الحكيم في تدبيره وتصريفه شؤون عباده . الذي يضع الأشياء في أحق مواضعها . والعليم بأحوال خلقه ، العليم بما يصلح لهم وما لا يصلح فليفوض الأمر إليه ولا يعترض عليه ، فاقبلي البشرى واحمديه واشكريه على نعمته فهو العليم بما تستحقون من الكرامة والفضل . وقد استجاب إبراهيم حيث توجه لله بالحمد والثناء على ما خصهم برحمته وفضله وإحسانه ، وقد عاين إبراهيم عليه السلام من خلال رحمة الله بهم وفضله عليهم ، صفات جماله وإكرامه وإحسانه ، التي جعلت محبته تعالى في قلبه راسخة ثابتة . وهو يشاهد أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليهم . وهو حين يطالع هذه العناية الإلهية به وبأهل بيته ، يطالع معها صفاته التي كانت من أسباب تحصيل نعمه العظيمة ، وهو قوله { إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء } وليكون ذلك من تتمة الحمد والشكر لما فيه من وصفه تعالى بأن قبول الدعاء عادته المستمرة ، فجاءت تعليل على طريق التذييل للهبة المذكورة؛

} أي : وهب لي على الكبر هذين الولدين ، لأنه سميع الدعاء ، سمع دعائي وتقبله ، وأجاب طلبي دون أن يخيبني ، وفيه إيذان بتضاعيف النعمة فيها ، فإن إبراهيم كان قد دعا ربه وسأله الولد بقوله : { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات: 100]. فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل، شكر الله على ما أكرمه به ومن إجابة دعائه فعند ذلك حمد الله وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء ، تمهيداً لإجابة دعوته في حق ذريته في هذا المقام كما أجاب دعوتَه سلفاً . فأخبر عليه السلام بما لله سبحانه وتعالى من صفات الكمال ، توسلاً بها في تحصيل الإجابة ، وهذا الذي ينبغي التوسل به إلى الله في إجابة الدعاء وتحقيق المطلوب[95] . فقد بيّن إبراهيم عليه السلام في معرض دعائه لربه ، مشاهدته لعلم الله الذي يطلع على ما في قلبه من توجه وشكر ودعاء، فإن الله وحده من يسمع الدعاء ، ويعلم أسبابه وبواعثه النفسية ، ، وهو وحده من يستجيب ، ومشاهدة هذه الصفة توجب إخلاص المحبة والعبودية لله تعالى في كل حركة وعمل ، والتوجه إليه وحده في القصد والطلب والدعاء فهو من يملك أن يجيب دعاءه لا أحد سواه . وقد حادثت كثير من النصوص القرآنية التي تعمق هذه المحبة في النفس من خلال دعوة العبد إلى مشاهدة نعم الله المبثوثة في كل شيء والعمل على تذكرها والتفكر فيها، وعدها وإحصائها وعدم الغفلة عنها، نختار منها ما له تعلق بقصة إبراهيم عليه السلام ، في قوله تعالى : { وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [إبراهيم: 34-36]. فالقرآن يوجه القلب إلى مشاهدة نعم الله في كثير من آيات القرآن وما ذلك إلا لأنها من أكثر الدواعي والأسباب التي تجلب المحبة وتزيدها، ولقد أرشد تعالى نبيه إلى ذلك بقوله تعالى : { وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ } [الضحى: 11]. ومتى أثمرت هذه المطالعة لنعم الله محبته تعالى، فإن الإنسان يسارع إلى فعل الخيرات وترك المنكرات ليكون ذلك تعبيراً واقعياً لشكر الله تعالى على مزيد نعمه .

وبناء على ما تقدم فإن تكوين الأساس النفسي لعاطفة محبة الله تعالى يسير وفق منهج قرآني دقيق محكم منضبط بأصول العقيدة وضوابط الشريعة، حيث إن هذه العاطفة تعد من أوسع العواطف واشملها وأكثرها أثراً في تكوين المعتقد ودفع السلوك نحو الاستقامة، ليكون حافظاً

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[95]- راجع : تفسير الرازي 262/9، وتفسير الألوسي 398/9 ، وتفسير الخازن 124/4، وتفسير ابن عاشور 444/7، وتفسير السعدي 427، وتفسير طنطاوي 2442

لحدود الله مقيماً لشرعه ، فينجو بذلك من عذاب الله وسخطه ويفوز بنعيمه ورضاه، وينال شرف محبته ويحظى بمزيد كرمه من لذة النظر إلى وجهه الكريم التي هي غاية السعادة ومنتهاها التي لا يبلغها إلى المحب الصادق الصدوق. فمحبة الله تعالى لا تحقق فاعليتها وإيجابيتها إلا حين ترتبط بالله تعالى لتكون محبة متبادلة بين العبد وربه (يحبهم ويحبونه) فلو اقتصر الأمر على محبة الله لعبدنا الله بشرع هوانا ولكن حين تكون هذه المحبة متبادلة فإنه عندها يستوجب ربط هذه المحبة بغاية الغايات وهي مرضاة الله تعالى التي من خلالها ينفتح طريق البحث عن كيفية الوصول لهذه الغاية والتي لا تتحقق إلا بعبادته وفق شرعه، وحين ترتبط هذه المحبة بالغاية النهائية وهي مرضاة الله تعالى يتولد عن ذلك الخوف والرجاء وهو : خوف الاحتجاب ورجاء التجلي من حيث تعلقها بذات الله وخوف العذاب ورجاء التنعم من حيث تعلقها بمخلوقات الله، وهذا يطلب بالعبادة والانقياد لأمر الله المستلزمة محبته سبحانه وتعالى . حيث تسير المحبة بين جناحي الخوف والرجاء وهي تتقصد الغاية المثلى للارتقاء بها إلى مراد المحبوب تقدست أسمائه وتنزهت صفاته سبحانه وتعالى. وبهذه الثلاثة من المحبة والخوف والرجاء تتكامل عواطف النفس الإنسانية لتبلغ رشدها وفلاحها ، تربية وتزكية وتوجيهاً وإرشاداً [96] ، قال تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } [الإسراء: 57].

[96] – أنظر : زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ، ص282-283 .

– الفصل الثاني –

دور قصة إبراهيم عليه السلام

في البنـــاء النفســـي

لمخافة الله

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* **تمهيد** :

إن مخافة الله تعالى هي مظهر آخر من مظاهر غريزة التدين، وهي من المظاهر الضرورية التي تؤدي دورها الإيجابي في ردع الإنسان عن ارتكاب محارم الله تعالى وتمنعه من كثير من الانحرافات السلوكية، وإن تأثيرها على السلوك الإنساني لا يقل أهمية عن عاطفة محبة الله تعالى بل هي التي تحمي هذه المحبة من الضعف أو الانعدام ، مصداقاً لقوله تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ } [المائدة: 27-29]. [97] فلو تتبعنا القصص القرآني وتفكرنا بها كما أمرنا الله لوجدنا مصداق ذلك في كثير من الآيات التي أخبرنا الله بها . وعلى هذا فإن مخافة الله تثمر التقوى التي تقي المؤمن من الوقوع في سخط الله تعالى فتجعل بينه وبين سخطه وقاية من فعل طاعته واجتناب معصيته، فهي عاطفة وقائية حافظة لمحبة الله تعالى . وهي قوة مانعة من إتباع الشهوات والأهواء أو شياطين الأنس والجن، ومانعة من الانحرافات السلوكية التي يعزى أكثرها إلى انعدام الخوف من الله أو ضعفه .

إن المتأمل في طريقة القرآن في عرض عقيدة التوحيد، يجد أنه يربط بين الجانب الفكري والجانب النفسي برباط وثيق في بناء العقيدة، ولذلك نجد أنه لا يكتفي بمجرد تحديد المفهوم العقدي للخوف من الله من الناحية الفكرية وإنما يعمل على ربطها بالناحية النفسية، من خلال مطالبته بمقتضاها التعبدي والعملي، ولهذا نجده يسعى إلى بناء الأساس النفسي لعاطفة الخوف من الله تعالى لتحقق فاعليتها الإيجابية والعملية المؤثرة في السلوك والتي تدفع به باتجاه الاستقامة وتمنعه من الانحرافات السلوكية، وذلك حين تمنع الشهوات والأهواء من أن تتربع على عرش القلب، وتردع النفس الأمارة بالسوء من اقتراف الفواحش والمنكرات والوقوع في المحرمات، ليكون الخوف من الله هو الحارس اليقظ الذي يحفظ الإيمان من الضعف أو الانتفاء من القلب، ولذلك نجد أن القرآن قد اهتم اهتماماً بالغاً في تكوين هذه العاطفة التي تعد أحد الدعائم الضرورية للعقيدة والأداء الإيماني . وقد

[97]- انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 512-513.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كان لقصة إبراهيم عليه السلام دوراً بارزاً في تكوين مخافة الله في قلب المسلم لما لهذه العاطفة السامية من أثر بالغ في حياة المسلم . ويمكن بيان ذلك من خلال قصته عليه السلام في القرآن الكريم حيث كشفت عن معالم منهجه في البناء النفسي لعاطفة مخافة الله تعالى، وذلك من خلال مبحثين:

المبحث الأول: التأسيس الفكري لمخافة الله تعـــالى .

المبحث الثاني: : التربية النفسية لمخـــافة الله تعـــالى .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– المبحث الأول –

التأسيس الفكري لمخافة الله تعالى

ونقف مع القرآن الكريم في تجلية دور قصة إبراهيم في تكوين الجانب النفسي لمخافة الله تعالى عن طريق التأسيس الفكري للمعتقد الإيماني ، والتي يمكن أن نجملها على النحو الآتي:

– المطلب الأول : ضبط المفهوم العقدي والشرعي لمخافة الله تعالى .

أولاً. معنى الخوف لغة واصطلاحاً :

1. **الخوف في اللغة** : هو " الفزع أو توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو معلومة "[98] ونقيض الخوف هو الأمن والأمان[99] فالخوف من أسماء المعاني، فوجوده بانتفاء ضده فإذا عدم من القلب الأمن من كل وجه من أحوال الدنيا وأمور الآخرة؛ كان هذا خوفاً، وسمى العبد بفقد الأمن من جميع ذلك خائفاً، فهذا مستعمل في كلام العرب ومذهبهم، يقول أحدهم: أخاف من كذا إذا لم يأمنه، أو أخاف أن يكون كذا إذا تحقق علمه [100]. ومن المعاني المتقاربة للخوف: الخشية والرهبة والوجل والهيبة . وهي ألفاظ متقاربة غير مترادفة : فأما الخشية فهي أخص من الخوف، فهو خوف مقرون بمعرفة، فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، قال تعالى : { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر: 28]. وأما الرهبة فهي : إمعان الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيها، قال تعالى : { وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } [البقرة: 40]. وأما الوجل : فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته، قال تعالى : { الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ

---

[98]– ا الراغب الأصفهاني، المفردات، ص 160.

[99]– أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص163.

[100] – : أبو طالب المكي ، قوت القلوب ، 328/1

اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الحج: 35]. وأما الهيبة: فخوف مقارن للتعظيم والجلال وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة ، والإجلال: تعظيم مقرون بحب"[101].

2. **وأما الخوف في الاصطلاح** : يقول الغزالي : "أعلم ان الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال"[102]. فالخوف كما يقول أبو طالب المكي : اسم جامع لحقيقة الإيمان، وهو علم الوجود والإيقان، وهو سبب اجتناب كل نهي ومفتاح كل أمر، وليس شيء يحرق شهوات النفوس فيزيل آثار آفاتها إلا مقام الخوف[103]. وقال ابن القيم : الخوف هو الانخلاع من طمانينة الأمن بمطالعة الخبر ، يعني الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد"[104] . قال أبو القاسم الجنيد : " الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس وقيل : الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف ، وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام ، وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه وقيل : الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره "[105]وقال ابن القيم : الخوف ثلاث درجات[106].

الدرجة الأولى : خوف من العقوبة : وهو الذي يصح به الإيمان وهو خوف العامة، وهو يتولد من تصديقهم الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة، والخوف مسبوق بالشعور والعلم ، فيستحيل أن يخاف الإنسان مما لا شعور له به وهو له متعلقان :

الأول. نفس المكروه المحذور وقوعه.

الثاني. السبب و الطريق المفضي إليه، فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي إلى محذور كذا لم يخف من ذلك السبب، أما إذا عرف قدر الخوف، وتيقن إفضاء السبب إليه: حصل له الخوف.

الدرجة الثانية : وهوخوف المكر في جريان الأنفاس المستغرقة في اليقظة المشوبة بالحلاوة فإن من حصلت له اليقظة بلا غفلة واستغرقت أنفاسه فيها، استحلى ذلك وخاف المكر من سلب هذا الحضور واليقظة والحلاوة.

---

[101]- انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 512-513.
[102]- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص163 .
[103] - : أبو طالب المكي ، قوت القلوب ، 315/1
[104]- ابن القيم ، مدارج السالكين، ج1، ص 514.
[105] - المصدر السابق، ج1، ص 514-516.
[106]- انظر: المصدر السابق، ج1، ص 514-516.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدرجة الثالثة : وهي درجة الخاصة وليس في مقام أهل الخصوص وحشة ولا خوف، إلا هيبة الجلال، وهي أقصى درجة يشار إليها في غاية الخوف، وهذا خوف المحسن المقبل على الله وليس كخوف المنقطع المسيء الذي يخاف جنايته، وإنما هو خوف هيبة الجلال لعظمة الله فإنها مخافة متعلقة بذاته وصفاته أي بالخالق وليس بمخلوق وهذا أعلى من درجات خوف العامة، الذي يخاف من إساءته سوء العذاب [107].

هذا الخوف العام من حيث معناه ومفهومه الاصطلاحي، وأما الخوف بمعناه الخاص ، فهو الخوف من الله تعالى ، وهذا الخوف مرتبط بالعقيدة ومنضبط بنصوص الشريعة، ، وهذا الخوف بمعناه الخاص قد بينتّه النصوص الشرعية في القرآن والسنة النبوية ، وأعطته مفهوم عقدي وشرعي خاص بحيث تميزه عن الخوف العادي والعام .

ثانياً. المفهوم العقدي والشرعي لمخافة الله تعالى :

إن منزلة الخوف من الله هي من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، وهي فرض على كل أحد فالخوف من الله تعالى سوط يقود النفس إلى الطاعة ويحول بينها وبين محارم الله تعالى، فهو ليس مقصوداً لذاته بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل، ولهذا فهو يزول بزوال المخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والخوف يتعلق بالأفعال بخلاف المحبة التي متعلقها الذات والصفات، ولهذا تتضاعف محبة المؤمن لربه عندما يدخل دار النعيم، ولهذا كانت منزلة المحبة أعلى من الخوف[108].

ومخافة الله تعالى لها مفهومها العقدي والشرعي ، وقد بين سبحانه مفهومها من خلال النصوص الشرعية، والتي يمكن أن نجملها على النحو الآتي :

أولاً. أن الخوف من الله ليس المقصود به ذلك الخوف الطبيعي الذي يشعر به الإنسان من عدو أو سبع أو غيره، فهذا الخوف يجري طبيعياً في الإنسان وهو مظهر من مظاهر غريزة حب البقاء ، فهذا ليس بمذموم ، وقد وقع من الأنبياء ، كما في قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام عندما جاءته الملائكة : { فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ } [الذرايات: 28]. ووقع لموسى عليه السلام في قوله : { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى } [طه: 67]. وقوله : { فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ } [القصص: 21]. ووقع لداود عليه السلام في قوله : { إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ } [ص: 22]. إن هذا الخوف

[107]- انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ج1، ص 511.

[108]- انظر: المصدر السابق، ص 511-513.

الذي وقع من الأنبياء إنما هو الخوف الطبيعي بخلاف الخوف من الله تعالى الذي يشوبه معاني التقديس والتنزيه والتعظيم والإجلال المقرون بالمحبة لله تعالى وهو الذي يورث الانكسار والذل والخضوع والإشفاق والخشوع في القلب[109]، ومن ذلك قوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون: 57-60].

ثانياً. إن الخوف من الله تعالى هو متعلق بعقيدة التوحيد ، فلا يصح التوحيد من العبد حتى يكون خوفه خالصا لله وحده من غير شريك ، وقوله تعالى : { يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ } [البقرة: 40]. وتقديم المفعول يفيد الاختصاص ليكون الحاصل بالمنطوق هو الأمر برهبة الله تعالى وحده ، ويكون النهي عن رهبة غيره حاصلا بالمفهوم ، وحذف متعلق الرهبة للعموم ، أي ارهبوني في جميع ما تأتون ، وما تذرون ، حتى لا أنزل بكم من النقم مثل ما أنزلت بمن قبلكم ، فالآية الكريمة متضمنة للوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، ودالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وان المؤمن ينبغي أن لا يخاف إلا الله تعالى وحده[110]. فلا ينبغي أن يكون في قلب المؤمن مخافة لغير الله تعالى وإلا وقع في الخوف الشركي، وهو أن يخاف الإنسان الضر من غير الله تعالى وهو على النحو الآتي[111].

1. أن يجعل لله نداً في إيقاع الضر والنفع.

وهو أن يخاف الإنسان من غير الله تعالى من وثن أو طاغوت أو ميت أو غائب من جن أو إنس أن يصيبه بما يكره ، ويعتقد أن هذا الغير قادر على النفع والضر، وهذا النوع من الخوف لا يجوز أن يعلق بغير الله تعالى، لأنه من لوازم توحيد الألوهية، فالذي بيده النفع والضر هو الله وحده لا شريك له فمن جعل مع الله نداً يخاف منه هذا الخوف فقد أشرك بالله العظيم، وهو معتقد المشركين في أصنامهم وآلهتهم، حيث كانوا يخافون منها ويخوفون الناس بها ؛ كما قال الله عن قوم هود عليه السلام : إنهم قالوا له : { إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ } [هود: 54]. وقد خوف

---

[109] - راجع: الدكتورة منى بنت عبد الله، العقيدة في ضوء القصص القرآني، دار ابن حزم-بيروت، ط1، 1998م، ص 62.

[110] - أنظر : تفسير أبي السعود 95/1 ، تفسير طنطاوي 66 ، تفسير ابن عاشور 259/1.

[111] - راجع: المرجع السابق ، ص 59-61.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوثانهم؛ كما قال تعالى : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر: 36]. وكما حصل مع إبراهيم عليه السلام في هذا الشأن عندما خوفه قومه بآلهتهم أن تصيبه بسوء كما في قوله تعالى : { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا } [الأنعام: 81]. فإبراهيم عليه السلام قد رد على تخويفهم له بآلهتهم بأنها لا تضر ولا تنفع ، كما أنكر عليهم ذلك في قوله تعالى : { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء: 66-67]. وقد بين لهم أن المستحق للخوف هو الله تعالى لأن أمر الضر والنفع بيد الله وحده، قال تعالى : { وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا } [الأنعام: 80]. فالأمر في الضر والنفع هو بيد الله تعالى وأن الخوف من الله هو من لوازم هذا الاعتقاد التوحيدي ، وإن كل ما يناقضه هو خوف شركي يؤدي إلى الشرك بالله تعالى .

2. أن يعصي الله بترك مأمور مخافة الضر من الناس .

وهو أن يترك الإنسان مأمورات الله تعالى خوفاً من وقوع الضر عليه من الناس ، مثل ما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، وتبليغ رسالته للناس ودعوتهم إليها، وقد قدم إبراهيم القدوة الحسنة في مقاومة الشرك والطغيان ، فإنه كان عليه السلام بين جمع عتاة جبابرة عطاش إلى إراقة دمه ، وهو فرد وحده ، ولكن ذلك لم يثنيه عن القيام بواجب الدعوة إلى الله ، وتعامل معهم بمنطق الحزم والقوة ، وليس بمنطق الضعف والمداهنة ، لأنه على الحق والهدى ، وهم على الباطل والضلال ، لذا خاطبهم وهيجهم وحقرهم هم وآلهتهم ، وكشف زيف معبوداتهم حينما حطمها ليقيم لهم الدليل على أن هذه الأصنام لا يخشى منها ضراً ولا يرجى منها نفعاً ، ومن ثم فهي لا تصلح للعبودية ، وإنما الذي يجب أن يكون معبوداً ، إنما هو الذي بيده الضر والنفع وهو الله سبحانه ، وفي ذلك دلالة على مزيد ثقته بالله سبحانه وكمال عنايته به وعصمته له ، وعندما وصل إبراهيم في توبيخهم وتبكيتهم إلى هذا الحد أخذتهم العزة بالإثم ، فقالوا : { حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ } [الأنبياء: 67]. فجمعوا حطبًا كثيرًا جدًا ثم جعلوه في جَوْبة من الأرض، وأضرموها نارًا، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد نار قط مثلها، فلما ألقوا إبراهيم عليه السلام فيها . لم يتردد و لم يتراجع ، واستعان بالله تعالى متوكلاً عليه محتسباً إليه فهو صاحب القدرة المطلقة والمشيئة النافذة وعن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار: "حسبي الله ونعم الوكيل "[112] وقيل : " أتى جبريل عليه السلام إلى إبراهيم فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا وأما إلى الله فنعم! فقال له جبريل: فلم لا تسأله؟ فقال إبراهيم عليه السلام : حسبي من سؤالي علمه بحالي"[113] . والنتيجة أن الله نصر نبيه من كيدهم وأنجاه من النار المحرقة لتكون عليه بردا وسلاما بأمره وقدرته تعالى ، وفي هذا بيان أن الضر والنفع بيد الله وحده وليس بيد أحد من البشر ، فهذا المعتقد من شأنه أن يجعل من المسلم طاقة هائلة من الشجاعة والقوة والثبات على الحق ، بحيث لا يخشى في الله لومة لائم[114] .

وهذا ما كان من إبراهيم عليه السلام في مقارعة الباطل ، حينما واجه وحده كل قوى الفساد والطغيان وليس معه أحد ينصره غير الله تعالى ، فقد كانت ثقته بالله تعالى أنه لن يضيعه وانه سوف ينصره ، فهو حسبيه ووكيله الذي لجأ إليه في هذا الكرب العظيم ، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل "[115] .

وقال البخاري في صحيحه : عن ابن عباس « حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النَّار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا : { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران: 173].

وهذه الآية نزلت عقب غزوة أحد بعد أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين بمطاردة جيش المشركين إلى حمراء الأسد رغم إصابتهم بالجراح وقد أثنى الله تعالى في القرآن على مبادرتهم بالخروج استجابة لأمر الله ورسوله[116] ولم يخشوا في الله تعالى لومة لائم ، وسجل القرآن موقفهم البطولي والإيماني ليكون لمن بعدهم قدوة في الطاعة والاستجابة لأمر الله تعالى ، والاستبسال والاستشهاد في سبيله ، كما في قوله تعالى : { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

---

[112]- البخاري برقم ، 4197 ، 4198

[113]- القرطبي 303/11

[114]- راجع تفسير الطبري 459/18- 468 ، وتفسير الرازي 11/ 29 - 40 ، وتفسير الظلال 161/5-164 ، وتفسير الألوسي 411/12- 426 ، وتفسير ابن عاشور 174/9-183 ، الزمخشري ، 237/4- 244 وتفسير الشنقيطي،2910- 2914

[115] - الجامع الكبير للسيوطي رقم الحديث (2975) . وكنز العمال ، لعلاء الدين الهندي برقم (3417)

[116]- راجع: ابن هشام سيرة ابن هشام، ج 2، ص121 .

فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 172-175]. إن هذه الآيات جاءت حاسمة وقاطعة في بيان حقيقة الخوف الشركي المنافي لكمال التوحيد لأن المؤمن الموحد لا يخاف إلا الله، قال تعالى : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر: 36]. ولما كان اعتمادهم على الله سبباً لفلاحهم حكى سبحانه ما تم لهؤلاء المجاهدين الذين خرجوا للقاء أعدائهم من عاقبة حسنة وعود حميد فقال : { فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء واتبعوا رِضْوَانَ الله والله ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ }.

والمعنى : أن هؤلاء المجاهدين الصادقين خرجوا للقاء أعدائهم بدون وهن أو ضعف أو استكانة فلم يجدوهم ، فرجعوا إلى ديارهم مصحوبين بنعمة عظيمة من الله ، إذ خذل أعداءهم ، وسلمهم من شرورهم ، ومصحوبين بفضل جليل منه سبحانه حيث أغدق عليهم ربحا وفيرا في تجارتهم ، وأجراً جزيلا بسبب قوة إيمانهم ، وإخلاصهم في دينهم [117]. وهكذا جرى مع إبراهيم عليه السلام حينما تحداهم أن يمسوه بسوء من جهة معبوداتهم الباطلة أو غيرها ، فعجزوا عن إنفاذ مرادهم ، ولم يستطيعوا نصرة آلهتهم ، وتبين بطلان معتقداتهم الزائفة تبياناً تاماً بالواقع المشهود ، فقد كانت إرادة الله فوق إرادتهم ، وقدرته فوق قدرتهم ، حيث جعل من النار التي أرادوا أن يضروه بها مصدر خير ونفع ، كما في قوله تعالى : { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء: 68-70].

وعلى هذا فإن الخوف مما سوى الله، هو خروج عن مقتضى كمال التوحيد وهو إتباع للشيطان وموالاته، لأن الشيطان إنما يخوف من اتبعه وتولاه وليس له سلطان على الذين أخلصوا لله في التوحيد، ومنها توحيد الله في الخوف وأما قوله تعالى : { إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ }. أي: يخوفكم بأوليائه . قال الإمام ابن القيم : " ومن كيد عدو الله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، فكلما قوي إيمان العبد؛ زال منه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه؛ قوي خوفه منهم [118]. ويقول الشوكاني : " إنما كان ذلك تخويف الشيطان ولا يخاف الشيطان

[117] - أنظر تفسير طنطاوي ، ص804 .

[118] - ابن القيم : غاثة اللهفان من مصائد الشيطان

إلا ولي الشيطان "[119] وأما قوله تعالى : { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }. فهذا نهي من الله للمؤمنين أن يخافوا غيره ، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم عليه ؛ فإذا أخلصوا الخوف وجميع أنواع العبادة؛ أعطاهم ما يريدون وأمنهم مما يخافون ، وفي هذه الآية تأكيد على أن المؤمن لا يخاف أحداً إلا الله وإن الخوف من غيره إنما هو لعدم كمال توحيده بسبب إتباعه للشيطان في تخويفه من دون الله تعالى وهذا هو الخوف الشركي الذي نهى عنه تعالى : {فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ } [المائدة: 44]. وهذا أيضا هو الخوف المذكور في الحديث الذي رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : " لَا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ إِذَا رَأَى أَمْرَ اللَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالًا فَلَا يَقُولُ بِهِ فَيَلْقَى اللَّهَ وَقَدْ أَضَاعَ ذَلِكَ فَيَقُولُ مَا مَنَعَكَ فَيَقُولُ خَشِيتُ النَّاسَ فَيَقُولُ أَنَا كُنْتُ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى "[120].

فإن الإيمان يقتضي من الموحد لله تعالى أن لا يخشى إلا الله تعالى ، ولا يرجوا سواه ، لأن هذا هو مقتضى توحيده الإيماني . حيث جاءت الآيات صريحة في بيان هذا الخوف الشركي الذي يؤدي إلى الإشراك بالله تعالى، ومن ذلك مولاة من حاد الله من الكفار والمسارعة فيهم خشية من أن تصيبهم دائرة يدور بها الدهر عليهم من جدب أو غلبة وهذا من ضعف الاعتقاد الإيماني في توحيدهم لله كما هو حال المنافق عبد الله ابن أبي وأمثاله[121]. حيث يقول تعالى فيهم : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } [المائدة: 51-52]. إن المنافق هو الذي يخشى غير الله وهو الذي يوالي من حاد الله متعذرين ومبررين ذلك بالخشية من دوائر الدهر أن تصيبهم، وقد كتب معاوية إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن اكتبي إلي كتابا توصيني فيه ولا تكثري علي فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس والسلام عليك "[122]. ومن هذا الحديث

[119] – الشوكاني: فتح القدير، ج1، ص 402.

[120] – رواه ابن ماجة في سننه برقم (4008). رواه أبوداود الطيالسي في مسنده رقم (2206) بسند صحيح .

[121] – انظر: تفسير البيضاوي، ج2، ص 118. وتفسير الجلالين، ج1، ص 146.

[122] – رواه الترمذي في سننه برقم (2414) قال الشيخ الألباني : صحيح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يتبين أن الإنسان إذا كان يطلب بعمله إرضاء الله بما يسخط الناس؛ حصل على مصلحتين عظيمتين : رضى الله تعالى ورضى الناس، ومن كان بالعكس يطلب بعمله إرضاء الناس بما يسخط الله عز وجل، حصل له مضرتان : سخط الله وسخط الناس، فدل على أن إرضاء الله تعالى يجمع الخير كله، وأن إرضاء الناس بما يسخط الله يجمع الشر كله .

وإن المؤمن الموحد بالله تعالى فهو لا يخاف أحداً إلا الله ولا يخاف فيه لومة لائم ولا يضره من خالفه أو خذله مصداقاً لقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة: 54]. فالمؤمن لا يخشى إلا الله ولا يخشى سواه لأنه رضي بالله رباً وفهم حقائق دينه، واتبع نهج رسوله ، قال تعالى : { الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة: 3]

ثالثاً. إن مقتضى الخوف من الله تعالى وهو الخوف القائم على إخلاص التوحيد لله تعالى هو أن يخاف مما خوفه الله تعالى وتوعد به كل من عصاه ولقد جاءت الآيات لتربط بين مخافة الله تعالى والخوف من عذابه، قال تعالى : { الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (49) } [الأنبياء: 49]. وقال تعالى : { ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ } [إبراهيم: 14]. وقال تعالى : { وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ } [الرعد: 21]. إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن توحيد الخوف من الله ينبثق عنه الخوف من عذابه والإشفاق منه، لأن هذا من مقتضيات توحيد مخافة الله تعالى، وهذا الخوف من عذاب الله تعالى هو واجب شرعاً لا ينبغي لمؤمن أن يدعي انه لا يخاف من عذاب الله وإنما فقط يخاف منه وحده وهذا ظن خاطئ يؤثم من يعتقده فإن أكرم الخلق وهو رسول الله تعالى يقول بصريح النص القرآني: { قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأنعام: 15]. وكما جاء على لسان رسل الله وأنبيائه في الدعوة إلى الخوف من عذاب الله تعالى فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه : { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [الأعراف: 59]. وهذا إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه : { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } [مريم: 45]. وهذا الخوف من أعلى مراتب الإيمان، وهو الذي قال الله فيه: { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: 46]. وقال تعالى : { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى }[النازعات: 41].

ـ المطلب الثاني : التأصيل الفكري للخوف العقائدي التوحيدي .

إن إبراهيم عليه السلام يؤسس العقيدة على أسس عقلية ثابتة وواضحة ، بحيث يضبط توجهات الفطرة النفسية في مشاعرها نحو خالقها سبحانه وتعالى ، لذلك فهو يضع لحقيقة الخوف من الله تعالى تأصيلاً فكرياً ، ومن الشواهد التي تبين ذلك نبينه على النحو الآتي:

* الشاهد الأول :

قال تعالى : **{ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأنعام: 80-82].**

إن إبراهيم عليه السلام يعقد موازنة عقلية تقوم على الاستدلال الصحيح المؤدي إلى نتائجه المنطقية السليمة، منكراً على قومه تلك المعتقدات الفاسدة التي لا تستند إلى مقياس عقلي صحيح وإنما هي معتقدات فاسدة لا يؤيدها المنطق العقلي ولا الواقع المحسوس ، فهو عليه السلام يصوب توجهات الفطرة الشعورية في مخاوفها ، من خلال تصحيح المسار الفكري لمفاهيم العقيدة ابتداءً .

ومن هنا فقد عمل إبراهيم عليه السلام على التأصيل الفكري لمخافة الله تعالى في هذه الآيات . بحيث جمعت كل جملة من جملها بين الجانبين النفسي والفكري معاً ، لأن السلامة النفسية في التوجهات الشعورية ، إنما هو نتاج لصحة المعتقد الفكري ، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي:

أولاً. قوله تعالى : { أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } .

فقد تضمنت الجانب النفسي في قوله: {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ }. والجانب العقلي في قوله: { وَقَدْ هَدَانِ } ، { أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } . فقول إبراهيم عليه السلام : { أتحاجوني في الله وقد هدان } هو من أحسن الكلام ، أي أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده وعن عبادته وحده وتشككوني فيه وقد أرشدني وبين لي الحق حتى استبان لي كالعيان وبين لي بطلان الشرك وسوء

عاقبته وأن ا لهتكم لا تصلح للعبادة وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به وقد هداني إلى الحق وسبيل الرشاد فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم ومن العمى إلى الإبصار ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك ، وبعد أن قدم إبراهيم لهم الدليل على بطلان قولهم ، وبين أن الله قد هداه للحق ، وأنه هو مصدر الهدى وحده ، أتبعه بالرد على تخويفهم له بآلهتهم ، أنه لا يخشاها لأن هذه الآلهة التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وتحداهم عليه السلام أن يمسوه بسوء من جهة معبوداتهم الباطلة أو غيرها ، فعجزوا عن إنفاذ مرادهم ، لأن قدرة الله فوق قدرتهم : { وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء : 68-70]. لقد كان رد إبراهيم على تخويف قومه له ، بنفي الخوف منهم ومن ألهتهم مطلقاً ، لأنه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم الذي يعلم أنه لا ضار ولا نافع إلا الله . ومن ثم فهو لا يخشاهم ولا يخشى آلهتهم مهما كانت صورة هذه الآلهة ، سواء كانت في صورة جمادات أو في صورة بشر جبارين فهم أمام قدرة الله ضعاف لا حول لهم ولا قوة! جاء في الحديث عن ابن عباس قال: " كنت خلفت رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات: أحفظ الله يحفظك أحفظ الله تجده اتجاهك إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لا يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"[123]. فإن الإعتقاد الجازم بأن الأمور كلها في هذه الحياة إنما تسير وفق مشيئة الله تعالى وحده ، يقضي من العاقل أن لا يخشى إلا الله ولا يتوكل إلا عليه وحده ، إن هذا التصور ينبثق عنه منهج كامل لعبادة الله وحده ، وعلى ضوء هذا التفسير تنبثق آثاره الإيجابية في واقع الفرد والحياة الإنسانية. حيث يتحرر الإنسان من عبودية البشر ، وتشيع مبادئ الحق والعدل في دنيا الناس[124] .

وعليه فإن تصويب مشاعر الفطرة لتتجه إلى الله وحده في خوفها ، بحيث لا تخاف أحداً سواه إنما هو منبثق من تصحيح المسار الفكري لمفاهيم العقيدة ، التي مصدرها الوحي الإلهي . فهو المصدر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[123]- رواه الترمذي، سنن الترمذي، رقم الحديث "2516" ج1، ص 667 كتاب صفة القيامة والرقائق، وقال حديث: حسن صحيح، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

[124]- راجع : تفسير ابن كثير 293/3، وتفسير الرازي 355/6، وتفسير الظلال 324/3 ، 255 ، 261 .

الوحيد الذي يملك أن يقدم للإنسان التصور الصحيح عن حقائق الغيب والإيمان ، وقد بين إبراهيم عليه السلام ذلك في قوله: { وَقَدْ هَدَانِ } . فهو لا ما يخبرهم به ليس من عنده وإنما أخباره صادرة من عند العليم الخبير سبحانه وتعالى ، فهذا الكلام يدل على أن ما يخبرهم به ليس صادراً من عنده ، ولا هو من كلام البشر الذي يتكلفه أهل النظر والجدال والمقايسة والمعارضة بل هو من عند الله تعالى ، ولذلك خرج في صورة كلام خبري يشتمل على مبادئ الحجاج ومقاطعه مشيرا إلى مقدمات الدليل ونتائجه بأوضح عبارة وأفصحها وأقربها تناولا ، والغرض منه أن إبراهيم قال لقومه متعجبا مما دعوه إليه من الشرك أتحاجوني في الله وتطمعون أن تستنزلوني عن توحيده بعد أن هداني وتأكدت بصيرتي واستحكمت معرفتي بتوحيده بالهداية التي رزقنيها وقد علمتم أن من كانت هذه حاله في اعتقاده أمرا من الأمور عن بصيرة لا يعارضه فيها ريب ولا يتخالجه فيها شك فلا سبيل إلى استنزاله عنها . وأيضا فإن المحاجة والمجادلة بعد وضوح الشيء وظهوره نوع من العبث [125].

وفي إيراد التذكر دون غيره في قوله: { أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } . إشارة إلى أن أمر الإيمان بالله مركوز في أصل الفطرة ولا يتوقف الأمر إلا على التذكير ، كما قال تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } [الأعراف: 172]. إن قضية الإيمان بالله الواحد لا تحتاج من الرسل جميعاً إلا التذكير بحقيقة التوحيد ، والتحذير من عاقبة الشرك؛ ثم تحقق النذر بعد التذكير والتحذير . لأن هذه القضية مستقرة بأصل الفطرة التي فطر الله عليها البشر؛ وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم ، وذات تكوينهم؛ وهم بعد في عالم الذر!

إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري . فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته ، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة . أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى ، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير . إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى ، فلا حجة لهم في نقض الميثاق ، حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم ، ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف؛ وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل؛ وأن يبعث إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل [126].

[125] - ابن القيم : الصواعق المحرقة ، 486/2.

[126] - أنظر تفسير الظلال ، 414/3.

إن سلامة التصور وصحة المفاهيم العقدية ، هي التي تحقق التوازن النفسي من الخوف والأمن ، والرغبة والرهبة ، من خلال ضبط تلك المشاعر التي تنتاب الإنسان وفق مقتضياتها المفهومية لحقائق الإيمان ، وهذا ما أكده إبراهيم عليه السلام في تأصيله الفكري لحقيقة الخوف من الله وحده .

ثانياً. قوله تعالى : { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا } .

فقد تضمنت الجانب النفسي في قوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ } . والجانب العقلي في قوله: { مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا } . بعد أن قام إبراهيم عليه السلام بتوبيخ قومه على جهلهم وغفلتهم، وعدم تذكرهم، عاد لحجاجهم ، لعله يكسر من أغلال تقليدهم ويمزق غفلتهم، ويخفف من تبلد حسهم ، فيتبينوا الحق ويرجعوا إليه فتتم هدايتهم وينجو من غوايتهم . فها هو يخاطب عقولهم فيقول لهم في أسلوب الاستفهام التعجبي المثير للنفس، المحرك للضمير: كيف يسوغ لذي لب ، أن أخاف معبوداتكم الباطلة وهي مأمونة الخوف لأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في إلهيته وعبادته وهو القادر على الضر والنفع الذي بيده كل شيء .

وهذا من أحسن الحجاج حيث قلب الحجة وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله وبطلان مذهبه فإنهم خوفوه بآلهتهم وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها ومع هذا فلا يخافون أنهم أشركوا بالله في عبادتهم إياها[127] . دون أن يكون معكم على هذا الإشراك حجة أو برهان من العقل أو النقل . فإن الله لم ينزل كتابا من السماء و لم يرسل رسولا بعبادة شيء سواه كما قال تعالى : { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } [الزخرف: 45]. إنما أمر الله تعالى بعبادته وحده وخشيته دون سواه ، كما قال تعالى : { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ } [المائدة: 3]. قال تعالى : { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 175].

إن تخويف المشركين إبراهيم من آلهتهم أن تمسه بسوء، عادة جارية في الناس إلى اليوم ، فكثيراً ما يخوف المشركين من يكفر بطواغيتهم من إيقاع الضرر بهم ، من أجل استلاب عقولهم لتبقى في

---

[127] - ابن القيم ، إغاثة اللهفان ، 254/1

حالة التخلف والجهل ، وإرهاب نفوسهم ليسلبوها إرادة التغيير والإصلاح ، ومن ثم تعطيل طاقاتهم لمباشرة العمل أو السعي لتحقيق ذلك ، ولكن هذا التخويف لا يستجيب له إلا من لديه قابلية للاستعباد أو كان في قلبه رياسة للمخلوقين ، قال تعالى : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا } [آل عمران: 151]. والمعنى : بسبب إشراكهم بالله . لأن الإشراك بالله يوجب الرعب [128].

إن هذا الخوف الَّذِي يَقع فِي قلُوب النَّاس هو الشِّرك الَّذِي في قلوبهم ، وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد لبَعْضِ النَّاسِ : لَوْ صَحَحْت لَمْ تَخَفْ أَحَدًا [129]. وأما من عمّر الله قلبه بالإيمان والتوحيد فإنه لا يستجيب لهذا التخويف ، لأنه يعلم أن الضر والنفع بيد الله وحده ، لذا فهو يفرده بالإلهية والربوبية والعظمة والسلطان والحب والخوف والرجاء . أما قوله : { مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا } فالمقصود بالسلطان هو الحجة والبرهان ، والآية دالة على أن الشرك لا دليل عليه ، فوجب أن يكون القول به باطلا [130].

وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل . وقد صرح إبراهيم بذلك في محاجته لقومه . في قوله : { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: 72-77]. إن تعليل هذه الجناية من تقليد الآباء . هو تعطيل لعقولهم من تحري الصواب في قضية مصيرية في حياة الإنسان ، ومن ثم ينكر إبراهيم عليهم أن الأقدمية تعني الصحة ، بل إن الصدارة لا تكون إلا لمن معه الدليل والبرهان ، وهذا هو ما كان يمتلكه إبراهيم على قومه كما في قوله تعالى : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } [الأنعام: 83].

إن تأسيس المعتقد الإيماني لدى إبراهيم عليه السلام يقوم على الدليل ، فهو حينما يقرر حقيقة مشاعر الخوف وتوجهاتها يجعلها تستند إلى الدليل العقلي ، لذلك نجده يربط بين صحة توجهات الفطرة الشعورية في مخاوفها وبين صحة المعتقد القائم على الدليل والبرهان ، فمشاعر الخوف في العقيدة التوحيدية والملة الحنيفية غير متروك لغريزة العمياء تتجه في مشاعرها كيفما تشاء ، وإنما

---

128 - انظر : تفسير الرازي 413/4

129 - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 36/28 ، بغية المرتاد ، 374/1 .

130 - انظر تفسير الرازي ، 413/4

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هي تقوم على تأصيل فكري وأساس عقلي . يضبط مسار هذه المشاعر ، ويحدد وجهتها السليمة . لتؤدي دورها بإيجابية وفاعلية .

وعليه فإن هذا الخوف المحكوم بمنطق العقل، هو ذاته الذي جعل إبراهيم يواجه هذه الجموع الغفيرة مواجهة المؤمن الواثق المدرك لحقائق الإيمان ، وحقائق هذا الوجود . وهذا الاستفهام : {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ } هو منطق الإيمان والحكمة الذي يبقى يتكرر على ألسنة المؤمنين في مواجهة الطغاة والمتكبرين ، في كل الأرض ، وفي كل زمان ، فكيف يخاف المؤمن الموحد بالله تعالى هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخاف المشركون أنهم أشركوا بالله العظيم الذي له السلطان والهيمنة على الوجود كله ؟ إن خوف المؤمن خوف عقائدي توحيدي يستند إلى الدليل والبرهان ، وأما خوف المشركين فهو خوف لا يستند لبرهان أو دليل إنما هو الظن والوهم والهوى . قال تعالى : { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم: 23].

ثالثاً. قوله تعالى : { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } .

فقد تضمنت الجانب النفسي في قوله:{ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ } والجانب العقلي: { إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } فالاستفهام للإنكار التعجبي من إنكارهم عليه الأمن في موضع الأمن ، وعدم إنكارهم على أنفسهم الأمن في موضع الخوف وهو إشراكهم بالله العظيم ، فأي الفريقين أحق وأولى بالأمن من لحوق الضرر به ؟ فريق الموحدين أم فريق المشركين .

ومن هذه الموازنة العقلية التي حاج بها إبراهيم قومه قوله : من الأولى بأن يخاف ويعبد ، الله الذي بيده وحده الضر والنفع ؟ أم هذه الآلهة التي تعبدونها والتي لا تملك لنفسها ولا لكم ضراً ولا نفعاً ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها أو عنكم الضر ؟ فإذا ثبتت القدرة المطلقة لله ، وثبت العجز التام لهذه الأصنام ، فأي الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف إن كنتم تميزون الحق من الباطل؟ فاعلموا أن الأحق بالأمن هم الموحدون لله تعالى الذين عبدوه وحده ولم يخشوا غيره [131] وفي عدوله عن قوله " فأينا أحق بالأمن " إلى قوله { فأي الفريقين } . هي بيان أن هذه المقابلة عامة لكل موحد

[131] - راجع: محمد سليمان الأشقر، زبدة التفسير، ص 175، وللدكتورة منى بنت عبدالله، العقيدة في ضوء القصص القرآني: ص 59-60.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومشرك من حيث إن أحد الفريقين موحد والآخر مشرك ، لا خاصة به وبهم ، فهي متضمنة لعلة الأمن .

إن أسلوب الترجيح العقلي دليلٌ معتبرٌ في الشرع وقد تكرر استخدام القرآن له في كثير من آياته ، ليجعل العقل الذي هو مناط التكليف هو من يحكم في القضية ليقيم عليه الحجة ويقرّ بها ، ومن ثم يلزمه بمقتضى إقراره واعترافه ، ومن هذه الترجيحات العقلية الواردة في القرآن قوله تعالى : { وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ } [النساء: 104]. ومعناه: التحريض على القتال والتسلية لما أصاب من مكروهٍ بالتساوي في الألم ، والمزيةُ لكم عليهم بما ترجون من ثواب الله تعالى ، فأنتم أَوْلى بطلبهم وأحرى بالصبر على المكروه من جهتهم . فلا مساواة بين المؤمنين والكافرين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما قال أبو سفيان يوم أحد : اعل هبل ، يفخر بآلهته ويقول يوم بيوم ، فعلمهم أن يقولوا : { الله أعلى وأجل ، لا سواء : قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار } فقال : إن لنا العزى ، ولا عزى لكم ، فاخبرهم صلى الله عليه وسلم أن يقولوا: { الله مولانا ، ولا مولى لكم }[132] . ومنها قوله تعالى : { أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [يونس: 35]. ومنها أيضاً قوله تعالى : { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } [النمل: 59]. ومنها قوله تعالى : { أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [التوبة: 109]. ومنها قوله تعالى : { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } [يوسف: 39]. وذلك لما تقرر أن الاثنين لا بد من وجود الفساد منهما لوقوع الاختلاف بينهما[133] .

وهكذا يستخدم القرآن الترجيح العقلي ، لأنه يرفع من شأن العقل ، ويقدر دوره في عملية الاهتداء ، وفي تأسيس المعتقد وتأصيل الفكر ، ومنها دوره في هذا الجانب من التأصيل الفكري للخوف العقائدي التوحيدي ، حيث ختم الجملة بقوله:{ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } فهو يضع القضية في ميزان العلم ليفصل فيها ، فهي قضية مقررة مبتوتة من الوجهة العلمية لا تحتاج إلى من يفصل فيها . ولكنه وضعهم موضع الحَكَم في قضية معروف الحُكم فيها مسبقاً ، واشترط في تحكيمهم لهذه

[132] - صحيح البخاري: رقم (2874) ، صفي الرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص250

[133] - أنظر : ابن رجب الحنبلي استخراج الجدال من القرآن الكريم ص16

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القضية أن يكونوا من أهل العلم ، ليحضهم على الانتساب إليهم ، ويلزمهم بالنصفة، ويلجئهم إلى الحق، لما عرف ما في نفوسهم من التعنت ، وما في عقولهم من التحجر .

فإبراهيم عليه السلام يقيم قضية الخوف والأمن على أساس العلم واليقين ، فهو يثبت جهلهم بخوفهم مما لا يستحق الخوف ، ويثبت علمه كونه لا يخاف آلهتهم المزعومة وإنما يخاف ربه الذي بيده الضر والنفع ، لذلك فإن عقيدة التوحيد تستند إلى قواطع الأدلة كما في قوله تعالى : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } [الأنعام: 75]. والموقن هو العالم علماً لا يقبل الشكّ ، والمراد الإيقان في معرفة الله تعالى وصفاته بحيث يطالع حقائقها بآثارها المشهودة في الكون ليرى ببصيرته عظمة الربوبية وسلطانها القاهر المهيمن على هذا الوجود كله ، ليعلم أنه هو من يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة من الذل والخشية والمهابة والتقديس والتعظيم .. وسائر العبادات وأنواع القرابات [134]. لأن المقصود من إراءة الله إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليس هو مجرد المعرفة النظرية ، بل المقصود أن يراها فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقدسه وعلوه وعظمته وهيبته . فيتوجه له بالعبادة الخالصة إيجابا واستحقاقا.

إن إبراهيم يعمل على التأصيل الفكري لمشاعر الخوف من الله تعالى ، لأن صرف هذا الخوف لغيره تعالى هو من الخوف الشركي ، والذي يؤكد ذلك هو ما جاء بعد هذه المحاجة بين إبراهيم وقومه قوله تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأنعام: 82]. وفسره النبي صلى الله عليه وسلم هذا الظلم بـــ { الشرك }[135]. فناسب ذكرها بعد تلك المجادلة بين إبراهيم وقومه فيما يتعلق بالخوف الشركي ، وفي هذا إشارة إلى أن الخوف مما سوى الله تعالى هو من الظلم العظيم أي : هو الشرك .

رابعا.: قوله تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}.

فقد تضمنت الجانب النفسي في قوله:{ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} والجانب العقلي في قوله :{ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } . فبعد قوله: {فأي الفريقين أحق بالأمن } استأنف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[134]- راجع : تفسير ابن كثير 3/290 -292 ، وتفسير الظلال 3/ 88 -89 ، وتفسير السعدي 262 ، وتفسير طنطاوي 1484، وتفسير الألوسي 5/392 ، وتفسير الرازي 6/343 ، وتفسير ابن عاشور 4/495- 5/10

[135]- راجع: ابن كثير، تفسير ابن كثير؛ ج1، ص154، والطبري، تفسير الطبري، ج1، ص 254.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الجواب عن السؤال فحكم الله سبحانه بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب وأقرت به الفطر وانقادت له العقول بقوله : { الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ } . وهذا من تمام كلام إبراهيم في المحاجة ، والمعنى : أن الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين : أولهما : الإيمان وهو كمال القوة النظرية . وثانيهما : { وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ } وهو كمال القوة العملية ، أي : الذين آمنوا و لم يخلطوا إيمانهم بأي لون من ألوان الشرك أولئك المؤمنون الصادقون لهم الأمن دون غيرهم لأنهم مهتدون إلى الحق وغيرهم في ضلال مبين .

فتأمل هذا الكلام وعجيب موقعه في قطع الخصوم وإحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه وأرادوا حمله عليه وأخذه بمجامع الحجة التي لم تبق لطاعن مطعنا ولا سؤالا ولما كانت بهذه المثابة أشار سبحانه بذكرها وعظمها بالإشارة إليها وأضافها إلى نفسه تعظيما لشأنها فقال : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ } [الأنعام: 83]. فعلم السامع بإضافته إياها إلى نفسه أنه هو الذي فهمها خليله ولقنها إياه وعنه سبحانه أخذها الخليل وكفى بحجة يكون الله عز وجل ملقنها لخليله وحبيبه أن تكون قاطعة لمواد العناد قامعة لأهل الشرك والإلحاد[136].

فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل الذي لا حكم أصح منه ، فأخبر تعالى موضّحاً أنّ الأمن الحقيقي للذين آمنوا به واعتقدوا بوحدانيته وقيوميته على خلقه، و لم يشركوا به شيئاً، وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : " لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : وأينا لم يظلم نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان: 13]. "[137] . فحكم سبحانه للموحدين بالهدى والأمن وللمشركين بضد ذلك وهو الضلال والخوف[138] . ونقف مع إبراهيم عليه السلام في بيان هذه الحقيقة ، حقيقة الأمن والخوف وعلاقتها بعقيدة التوحيد .

---

[136] - أنظر: تفسير الرازي11/ 29-40، ابن القيم ، الصواعق المحرقة ، 486/2 ، إغاثة اللهفان ، 254/2

[137] - صحيح البخاري رقم (6538) وصحيح مسلم برقم (124) .

[138] - أنظر : ابن القيم ، إغاثة اللهفان ، 255/2

* إبراهيم عليه السلام يربط قضية {الأمن والخوف} بعقيدة التوحيد .

فإبراهيم عليه السلام يبين الميزان الصحيح من خلال ربط الأمن بالإيمان وتلازمهما معاً، وأنه لا أمن ولا أمان ولا طمأنينة ولا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان ، وان نصيب الإنسان أو الأمة من الأمن هو بمقدار صلته بالإيمان بالله تعالى ، وذلك أن هناك نوعين من الأمن هما :

الأول. الأمن على مستوى الفردي (عامل الأمن النفسي).

الثاني : الأمن على المستوى الجماعي (الأمة) .

أولاً : الأمن الفردي أو (عامل الأمن النفسي) :

لقد بيّن إبراهيم عليه السلام عن الارتباط الوثيق بين الأمن النفسي للفرد والإيمان ، وذلك في معرض ردّه على تهديد قومه من غضب آلهتهم بالأيذاء والبطش به بقوله تعالى : { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } وبعد أن قدم الميزان الصحيح لحقيقة الأمن بقوله : { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ } . بين أسباب الأمن وطرق تحصيله في قوله تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ }.

فالأمن في مفاد النص القرآني مرتبط بالإيمان ، وإن نصيب كل الإنسان من الأمن هو بمقدار صلته بالإيمان ،سواء كان مؤمناً أو فاسقاً أو منافقاً أو كافراً ، فكل واحد يكون نصيبه من الأمن هو بمقدار صلته بالإيمان أو بمقدار ارتباط العقيدة بسلوكه أو انفصالها عنه. حيث يتضح ذلك عندما ننظر إلي معنى الإيمان لغة : وهو : الثقة ، وإظهار الخضوع ، والأمن ضد الخوف ، ثم استعمل في التصديق ، فإنك إذا صدقت أحداً أمنته من التكذيب في ذلك التصديق [139].

فالإيمان هو التصديق المؤدي إلى الأمن والطمأنينة وهذا يعني أن الأمن لن يحصل ولن يتحقق إلا بوجود الإيمان ، وان الخوف لن يزول إلا بحياة الإيمان[140].

ومن خلال تطبيق هذه القاعدة نجد أن الإنسان لا ينال من الأمن والأمان والطمأنينة إلا بمقدار صلته بالإيمان أو بمقدار ارتباط العقيدة بسلوكه ، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي [141]:

---

[139] - ابو البقاء الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط2، 1998م، ج1، ص361.

[140] - صلاح الخالدي، في ظلال الإيمان، دار القلم- دمشق، ط3، 1994م، ص14.

[141] - أنظر : زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني، ص 44-46

1. فمن حقق جميع عناصر الإيمان وجمع بين العقيدة والسلوك معاً، فإن دائرة الأمن والأمان والطمأنينة تتسع لدية لتشمل كل حياته في الدنيا والآخرة. قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ } [فصلت: 30]. وقال تعالى : { وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } [طه: 112]. ومنها هذه الآية التي هي موضوع البحث ، في قوله : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } [الأنعام: 82].

2. وأما من حقق أصل الإيمان وهو العقيدة وتخلف في السلوك عن بعضه أو كله فإن دائرة الأمن والأمان والطمأنينة تضيق عليه في الدنيا والآخرة وذلك بمقدار تخلفه عن السلوك قال تعالى : { وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التوبة: 102]. يقول ابن كثير " هذا حال المذنبين الذين تأخروا عن العمل كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ولهم أعمال أخرى صالحة خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه "[142] . قال تعالى : { وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة: 106]. وهؤلاء هم من هذه الأمة انحرفوا في سلوكهم عن طريق الله تعالى فتوعدهم سبحانه وتعالى بعذاب النار إن لم يتوبوا إلى الله تعالى ويصلحوا إيمانهم بالعمل والطاعة[143]. قال تعالى : { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا } [مريم: 59-60]. وكذلك يبين الله سبحانه وتعالى حال العاصي وأثر المعصية السلبي على حياته وأمنه في الدنيا قال تعالى : { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة: 118].

3. وأما من حقق ظاهر الإيمان دون حقيقته وباطنه . فأدى أحكام الشرع سلوكاً بلا اعتقاد فهذا الصنف يحصل على ظاهر الأمن والأمان في إجراء أحكام الإسلام عليه في الدنيا فقط

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[142] -ابن كثير: تفسير ابن كثير، دار الفكر-بيروت، 1401هـ، ج2، ص386.

[143] - انظر ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج3، ص128.

ويشملهم قوله تعالى : { فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [التوبة: 11]. وأما الأمن النفسي الداخلي فهو محروم منه قال تعالى : { وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ } [المنافقون: 4]. وأما في الآخرة فإن الله قد توعدهم بعذاب شديد قال تعالى : { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } [التوبة: 101]. وأما قوله:{ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ }. قال ابن جريج والحسن البصري : عذاب الدنيا وعذاب القبر، وقال عبد الرحمن بن زيد أما عذاب الدنيا في الأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى : { فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة: 55]. ثم يردون إلى عذاب عظيم في النار[144] . ويقول سيد في الظلال : " والعذاب مرتين في الدنيا، عذاب القلق من انكشاف أمرهم وعذاب الموت والملائكة تسألهم . أو هو عذاب الحسرات بانتصار المسلمين ، وعذاب الخوف من انكشافهم " [145] . فالخوف والقلق ملازم للمنافقين، في الدنيا والآخرة فهم في الدرك الأسفل من النار قال تعالى : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } [النساء: 145].

4. وأما من لم يحقق الإيمان مطلقا لا عقيدة ولا سلوكاً فهذا قد حُرِم الأمن والأمان والطمأنينة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } [آل عمران: 151]. قال تعالى : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [النحل: 112]. فالذين لم تخالط عقيدة التوحيد قلوبهم ، ولم تملأ نفوسهم فلن يشعروا أبداً بذلك الاطمئنان والأمن النفسي ؛ فهُمْ في الدنيا وَجِلُونَ من سخط الله ، وفي الآخرة ينتظرهم عذاب من الله أليم ، ويظلون طول حياتهم يخافون من المستقبل المجهول ، ولا يعرفون معنى لوجودهم في هذا الكون الرحيب . والملايين الضالة في العالم المادي فقدت الأمن والاطمئنان عندما مسخت فطرتها ؛ ومهما لهثت وراء ذلك

---

[144] – ابن كثير، تفسير ابن كثير، ج2، ص386.

[145] – سيد قطب، في ظلال القرآن، ج4،ص298.

فلن تحصل عليه ؛ فذلك الأمن منحة ربانية للذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ؛ هكذا ترشدنا الآية القرآنية ؛ وذلك نوع من التحدي والإعجاز القرآني للبشر على مدى العصور ؛ فلو راجعنا نشرات منظمة الصحة العالمية وسجلات المصحات النفسية والعيادات النفسية في دول الغرب لوجدنا أمراً مذهلاً ؛ فجميع وسائل الترفيه والترف المادي لم تمنح الإنسان الغربي ذلك الأمن والاطمئنان النفسي الذي رُزِقه المسلم حتى ولو كان وراء القضبان [146].

إن من أعظم نعم الله على عباده أن يصبح الإنسان آمنا على نفسه مطمئنا على عرضه ، وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بقوله: " من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا " [147]. أي اجتمعت لديه أسباب النعيم العاجل ولم يفته من مسرات الحياة شيء .

وعليه فإن إبراهيم عليه السلام قد وضع ميزان الخوف القائم على التوحيد الخالص المنزه عن الشرك وذكر ما يقابله من ميزان الأمن القائم على الدليل والمستند إلى العلم ، بقوله : { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ثم بيَّن أصول الأمن وأعظم أسبابه ، وأن أساسها الإيمان بالله وعدم الظلم ولذلك قال : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ } فإن العبد إذا آمن بالله عز وجل والتجأ إليه وامتنع عن المظالم كان حريا بوقاية الله من شرور أعدائه كقول الشاعر:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم [148]

وقول آخر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن آمان [149]

---

[146] – د . محمد البرزنجي ، مدلولات الأمن الإسلامي ، مجلة البيان ، العدد 124 ص54

[147] – رواه الترمذي في سننه برقم (2346) قال الشيخ الألباني : حسن .

[148] – هذا البيت للبوصيري وهو من العصر العباسي عنوان القصيدة: أمِنْ تذكُّرِ جيرانٍ بذي سلمِ . أنظر تاج العروس للزبيدي، مادة وقى،ص8652 ودواوين الشعر العربي على مر العصور رقم القصيدة : 13776، 69/9 موقع أدب

[149] – للشاعر : الحاج حسين بيهم ، أنظر تاريخ الأدب، ص78 ، وفي خزانة الأدب : كان القاضي الفاضل ينشد كثيراً: الكامل: وإذا السعادة أحرستك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان ، 484/2 ، أنظر البلاغة الواضحة ص97 ، غرر الخصائص الواضحة 72/1،وحياة الحيوان الكبرى2/ 26 ، وصبح الأعشى227/1

وقد وعد الله تبارك وتعالى كل من عمل صالحا من ذكر أو أنثى بالحياة الطيبة والتي يكون الأمن من أبرز مظاهرها حيث يقول : { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . وأما من أعرض عن دينه وخالف منهجه فقد توعده بالخوف والشقاء الدائم في الدنيا والآخرة في قوله تعالى : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى } [طه: 125-126].

ثانياً. الأمن الجماعي (أمن الأمة الإسلامية) :

لقد وعد الله عباده إن هم قاموا بعبادته وطاعته بالأمن والسعادة ، والسلامة في الدنيا على أنفسهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم، والتمكين لهم في الأرض وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا، وفي ذلك يقول عز وجل : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النور: 55-56].

وأما في الآخرة فقد وعدهم بالأمن التام بدخولهم دار السلام آمنين مطمئنين. قال تعالى : { هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35) } [ق: 32-35]. وأما إن هم أعرضوا عن عبادته سبحانه وكفروا به فقد توعدهم بالخوف والجوع والمعيشة الضنك، والشقاء في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة. قال الله تعالى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف: 96]. وقال تعالى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ } [المائدة: 66-65]. وقال تعالى : { وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً } [الجن: 17-16].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد امتن الله تبارك وتعالى على أهل مكة في مواضع كثيرة في كتابه بنعمة الأمن ليوحدوه ويتركوا ما هم عليه من الشرك ، وليلفت الناس إلى عظمة هذه النعمة للمحافظة عليها بوجوب شكرها ، وينبههم إلى خطر فقدها بسبب الكفر والجحود، وجعل ذلك آية من آياته وبرهانا من براهين عظمته وقدرته وألوهيته وربوبيته حيث يقول : { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ } [قريش: 1-4]. وكما قال تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ } [العنكبوت: 67]. وكما قال عز وجل : { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ } [القصص: 57-58].

قال القرطبي في تفسير هذه الآية : { وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }. أي لا يعقلون : أي هم غافلون عن الاستدلال بأن من رزقهم وأمنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ، ويمنع الكفار عنهم في حال إسلامهم [150]. وقال صاحب الظلال : وهم ينسون الله ، ينسون أنه وحده الحافظ وأنه وحده الحامي ، وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله ، وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله ؛ ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ولو خالطها لتبدلت نظرتهم للقوى ، ولاختلف تفسيرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة . فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذي ارتضاه له . والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة ، ويأوي إلى ركن شديد ، في واقع الحياة [151].

ونلاحظ ارتباط الأمن بالإيمان من خلال البلد الحرام الذي جعله الله قبلة الموحدين ، والذي أسس بناءه إبراهيم عليه السلام لإقامة شعائر دين الله تعالى ، ويظهر هذا الربط بين الأمن والإيمان ، من خلال دعاء إبراهيم لربه أن يجعل دار ولده إسماعيل آمنة ، في قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ } [البقرة: 126]. فقد نبّه إبراهيم عليه السلام إلى أهمية نعمة الأمن في البلاد ، ودوره الكبير في

---

[150] - تفسير القرطبي ، 300/13.

[151] - أنظر تفسير الظلال 436/5، باختصار .

إقامة شعائر الدين وتحقيق العبودية لله ، كقوله : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم: 35-37]. وقوله : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ } [آل عمران:96-97]. وقد استجاب الله تبارك وتعالى دعاء إبراهيم عليه السلام فجعل دار إسماعيل عليه السلام حرما آمنا وجعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنا لإقامة شعائر دينه ، وفي ذلك يقول : { وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } [آل عمران: 125]. ووصفت مكة بأنها البلد الأمين حيث يقول : { وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ } [التين:1-3].

وفي هذا إشارة إلى أن تطبيق شريعة الله وإقامة دينه، والعمل بأحكامه وتحليل حلاله وتحريم حرامه يورث البلاد أمنا، ويهبها السعادة والاستقرار . وعنه صلى الله عليه وسلم قال: " فإني لا أخاف عليكم الفاقة فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة فيما بين يثرب والحيرة أكثر ما تخاف على مطيتها السرق " [152] .

وتتجلى مسألة الأمن النفسي في حياة الصحابة حتى في وقت الحروب والأزمات؛ ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : { ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران: 154]. نزلت هذه الآية في غزوة أحد بعد أن أصيب المسلمون بجراحات كثيرة ؛ وعقب هذه الإصابات المؤلمة وفي تلك اللحظة الحرجة كان الذين في قلوبهم مرض يتوجسون شراً ، ويرتعدون خوفاً من كرّة قريش مرة أخرى ، ولكن الذين اطمأنت قلوبهم بالإيمان ، ونعمت نفوسهم بالتوحيد رُزقوا أمناً عجيباً ؛ فالأمن الذي ملأ قلوبهم انعكس على جوارحهم ؛ فغطوا في نوم هادئ مريح . قال الطبري في

[152] - رواه الترمذي في سننه برقم (2953) والطبراني في معجمه الكبير (237) وأحمد في مسنده رقم(19400)

تفسيره لـــ (أمنة) وهي الأمان على أهل الإخلاص واليقين دون أهل النفاق والشك [153].. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أمّنهم يومئذٍ بنعاس تغشّاهم وإنما ينعس من يأمن [154]. وعن قتادة أنه قال: الطائفة الأخرى : المنافقون ليس لهم همّ إلا أنفسهم أجبن قوم وأرهبه وأخذله للحق يظنون بالله غير الحق ... إنما هم أهل شك وريبة في أمر الله [155]. فقال: [ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ] ظن أهل الشرك[156]. وفي هذه الآية قد ربط سبحانه الأمن والاطمئنان النفسي بالتوحيد وفقدان ذلك الأمن بالشرك .

كما أن الله تعالى بيّن لعباده أسباب الأمن كذلك بيّن لهم في محكم كتابه الأسباب السالبة للأمن الجالبة للخوف، فجعل منها محاربة دين الله وفي ذلك يقول : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [البقرة: 114]. كما هدد تبارك وتعالى من كفر بنعمة الله أن يبدله من بعد أمنه خوفا وأن يلبسه لباس الجوع وفي ذلك يقول : { وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [النحل: 112].

ولقد أشار نبي الله صالح صلى الله عليه وسلم إلى عظيم نعمة الأمن وطلب من قومه أن يشكروا الله عز وجل عليها، وأنذرهم بأنها ستسلب منهم إن لم يعترفوا لله عز وجل بها وفي ذلك يقول الله عز وجل حاكيا مقالة نبي الله صالح صلى الله عليه وسلم لقومه : { أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ } [الشعراء: 146-152]. فكان مصيرهم مثل مصير فرعون وجنوده ، حيث بدل الله أمنهم بالهلاك والعذاب بسبب كفرهم بالله ، كما في قوله

---

[153] - أنظر : تفسير الطبري ، 7/315-316

[154] - أخرج الطبري في الرواية رقم (8072)

[155] - أخرج الطبري الرواية برقم (8086)

[156] - أخرج الطبري الرواية برقم (8086) (8089 ، 8090)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعالى : { كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ } [الدخان: 25-29].

ولقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلا كذلك بلاد سبأ إذ كانوا يعيشون آمنين في بلاد لهم فيها آية جنتان عن يمين وشمال، فلما أعرضوا عن دين الله مزقهم كل ممزق وجعلهم أحاديث وفي ذلك يقول عز وجل : { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } [سبأ:15-19] .

وعليه فإن الأمن نعمة عظيمة من نعم الله على عباده. فهي ضرورة من ضرورات الحياة. ولكن الناس يتفاوتون ويتشتت سعيهم في طلبها، حيث أخطأ الكثير في تحصيلها ، ووفق الله عز وجل القليل من عباده إلى سبيل الوصول إليها . وإن المتأمل في الواقع المعاصر يشاهد بوضوح فقدان عنصر الأمن بكل أنواعه سواء الأمن النفسي أو الأمن الاجتماعي أو الأمن الاقتصادي أو الأمن السياسي وهذه الأمور بجملتها كافية لتهديد الأمن العالمي برمته ، وإن هذه المخاوف والمزعجات والمقلقات، وما يعج به العالم اليوم من القتل، والجوع، والأمراض النفسية والأسرية والاجتماعية ويرى الهلع على وجوه الكثير من الناس من جراء ما يهدد وجودهم وأعراضهم وأموالهم وقبل ذلك دينهم . إنما هو بسبب بعد الناس عن ربهم ، وهي نتيجة سنيّة من سننّ الله تعالى التي قدرها بين عباده ، وإن كل المحاولات لصرف الناس عن الأسباب الحقيقية لاختلال الأمن في حياة الأفراد والمجتمعات والدول ، وما صاحبها من حملات ماكرة ومضللة في وسائل الإعلام المختلفة وذلك بالتلاعب بالمصطلحات، والتلبيس على الناس في معنى الأمن ووسائله، ومعنى الإرهاب وطرائقه. ليصرفوا الناس عن الأسباب الحقيقية للمخاوف وذهاب الأمن ، ومن صور التلبيس في مفهوم الأمن اليوم :

1. قصره على أمن النفوس والأموال فحسب مع أنه أشمل من ذلك من حيث إن أعظم الأمن هو الأمن في الدين والعقيدة والأخلاق وحماية الناس من أن يُفتنوا في دينهم، وهذا المفهوم الشامل

قد غاب عن حياة كثير من الناس اليوم . حيث لم يضعوا للدين وحمايته أي اعتبار في تحقيق الأمن. مع أن الله قد بيّن في كتابه الكريم أن أي خلل في أمن الناس فمصدره الخلل في دينهم وإيمانهم، فبضعف الدين والإيمان، أو غيابه يحصل اختلال الأمن في بقية ضروريات الإنسان من نفس ومال وعقل وعرض. قال تعالى : { ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } [الروم: 41].

2. وكذلك من المفهوم القاصر للأمن الذي يحاول الكفار ترسيخه في أذهان الناس اليوم هو توجيه الأنظار إلى توفير الأمن على النفس والرزق في هذه الحياة الدنيا فحسب، ونسيان الأمن الحقيقي والسعادة الكبرى في الآخرة، وعدم الحرص على ذلك، وإغفال الأسباب التي توصل إلى الأمن يوم الفزع الأكبر، والفوز بدار الأمن والسلام، والتي أعدَّها الله لعباده المتقين، قال تعالى : { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ } [الحجر: 45 – 46]. وقال : { وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [يونس: 25].

إن الإسلام هو الوحيد الذي يطرح الأمن بهذا المفهوم الشامل ، وهو بهذا الطرح الشامل لمفهوم الأمن يكشف طرح أعداء الدين والإنسانية ، حينما يضعهم في ميزان أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام : { فأي الفريقين أحق بالأمن } . أهم دعاة التوحيد والإيمان والفضيلة؟ أم دعاة الشرك والكفر والفساد والرذيلة؟ وهذا الميزان منضبط بميزان دقيق في قوله : {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}.

إذن فكل من ناصب العداء لدين الله ، وسعى لصدِّ الناس عنه، وحرمهم من نعمة الأمن الحقيقية في ظلاله، وكان سبباً في حلول عقوبة الله عز وجل في الناس سواء في الدنيا أو في الآخرة، فهو العدو الحقيقي لأمن الناس، وسلامتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، سواء كان هذا الصد عسكرياً أو فكرياً أو أخلاقياً، وسواء كان هذا العداء على الدين والأخلاق، أو على الأنفس والأموال والأعراض . ومن ثم فإن كل محاولة لتحقيق الأمن خارج منهج الله فهي محاولة فاشلة ، وكل طريق للوصول إلى الأمن بغير طريق الله فهو طريق مسدود ، لأنها تعدّ خروج

وتغافل عن السنن الإلهية التي جعلها سبحانه وتعالى سنناً ثابتة لا تتغير ولا تتحول في الوصول للأمن والسعادة، فهي ليس لها طريق سوى طريق واحد ووحيد وهو طريق الله تعالى [157].

* **الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا } [العنكبوت: 16-17].

إن المتأمل في دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه في قوله:{ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }. يلاحظ أنه دعاهم إلى العبودية بمعناها الشامل ، ثم خصها بالتقوى التي من أبرز معانيها الخوف من الله تعالى ، ثم ربط كل من العبودية والتقوى بمنطق العقل والحكمة ، حينما ذكر الخيرية التي تتطلب ترجيح عقلي ، والعلم الذي به يكتسب الإنسان صفة العقل ، وهو طريقة القرآن وطريقة إبراهيم في تأسيس المعتقد الإيماني ، بمقوماته الفكرية والنفسية ، فهو حينما يطالبهم بتقوى الله الذي هو من العبادات القلبية المتعلقة بالجانب النفسي ، يسنده إلى منطق العقل من ترجيح الأفضلية بالموازنة العقلية ، واستناده للعلم بالأدلة العقلية ، ليجعل تلك البواعث النفسية لمخافة الله تعالى قائمة على تأصيل فكري وتأسيس عقائدي . ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي :

1. قوله : { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ } .

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم إمام الحنفاء: أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى ، في قوله: { اعبدوا الله واتقوه } وفي هذا إشارة إلى الدعوة لتوحيد الله ، لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره فقوله: { اعبدوا الله } إشارة إلى الإثبات ، وقوله: { واتقوه } إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ، ويمكن أن يقال : { اعبدوا الله } إشارة إلى الإتيان بالواجبات ، وقوله : { واتقوه } إشارة إلى

[157] – راجع : د . محمد البرزنجي ، مدلولات الأمن الإسلامي ، مجلة البيان ، العدد 124 ص55 ، عبد العزير بن ناصر الخليل ، أعداء الأمن كما وصفهم القرآن الكريم ، مجلة البيان ، العدد 238، ص 5 ، نعمة الأمن، عبد القادر شيبة الحمد ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، العدد الخامس، ج2 ص415-416

الامتناع عن المحرمات ويدخل في الأول الاعتراف بالله ، وفي الثاني الامتناع من الشرك [158] .
فإبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى أن يخلصوا لله تعالى العبادة والخوف [159]. فقوله: { اعبدوا الله } يعني : وحدوا الله عز وجل ، { واتقوه } يعني : اخشوه ولا تعصوه [160].

ومعلوم أن من أبرز معاني التقوى هو الخشية ، كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ } [النساء:1]. وهي وصية جميع الأنبياء لأقوامهم ، فهذا نوح يقولها لقومه : { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 106]. يعني ألا تخشون الله ، وكذلك قالها هود : { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 124]. وقالها صالح : { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 142]. وقالها لوط : { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 161]. وقالها شعيب : { إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 177]. وقالها إلياس : { وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ } [الصافات: 124].

فإن معنى التقوى في قول إبراهيم لقومه: { اعبدوا الله واتقوه } يعني : اخشوه وخافوه [161] .
وكذا قوله تعالى : { اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ } [آل عمران: 102]. أي : " خافوا الله الخوف الواجب بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات" [162]. وقوله تعالى : { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } [البقرة: 197].

والمعنى : وتزودوا لآخرتكم بالتقوى والائتمار بأوامر الله واجتناب نواهيه ، فإن ذلك خير الزاد ، واستشعروا خشية الله فيما تأتون وما تذرون كما هو مقتضى العقل والحكمة ، فلا تشوبوا أفعالكم بدواعي الهوى والغرض الدنيوى "[163]. وقوله تعالى : { وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا } [البقرة : 48]. أي: وخافوا يوم الحساب الشديد : يوم القيامة الذي لا تدفع فيه نفس عن نفس شيئاً [164]. إن هذا المعنى للتقوى وإن كان هو المعنى البارز في القرآن إلا أن له

---

[158] - أنظر : تفسير الرازي 141/12

[159] - راجع : تفسير ابن كثير 269/6، وتفسير القرطبي 299/18 .

[160] - نظر بحر العلوم لسمرقندي 339/3، وتفسير السعدي 628 ، وفتح القدير، لشوكاني ، 279/4

[161] - القرطبي 299/18، الرازي 141/12

[162] - تفسير المنتخب ، 103/1

[163] - المرجع السابق ، 50/1

[164] - المرجع السابق 11/1

معاني أخرى منها: الإيمان ، والتوبة، والطاعة، وترك المعصية، والإخلاص ، وقد وردت في القرآن على النحو الآتي [165]:

أ. أما الإيمان فقوله تعالى : { وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى } [الفتح: 26]. أي التوحيد، وقوله: { أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى } [الحجرات: 3]. وقوله : { قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ } [الشعراء: 11]. أي : ألا يؤمنون .

ب. وأما التوبة فقوله : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا } [الأعراف: 96]. أي : تابوا

ج. وأما الطاعة فقوله تعالى : { أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ } [النحل: 2]. وقوله : { أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ } [النحل: 52]. وقوله : { وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } [المؤمنون: 52].

د. وأما ترك المعصية فقوله تعالى : { وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ } [البقرة: 189]. أي : فلا تعصوه .

هـ. وأما الإخلاص فقوله تعالى : { فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } [الحج: 32]. أي: من إخلاص القلوب ، وكذا قوله : { وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ } [البقرة: 41].

إن مقام التقوى مقام شريف قال تعالى : { إِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: 128]. وقال : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } [الحجرات: 13]. فلما كان الخوف من الله أجل مقامات الدين وأشرفها وأفضلها[166]، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى، نبه إبراهيم عليه السلام على وجوب إخلاص الخوف لله، بقوله: { اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ } فالمقصود بالأمر بالتقوى هنا هو إخلاص الخوف والخشية لله تعالى وحده ، لأن هذا الخوف من أعظم مقامات الدين وأجلها؛ فمن صرفه لغير الله؛ فقد أشرك بالله الشرك الأكبر .

وهذا النوع من الخوف من أهم أنواع العبادة التي يجب إخلاصه لله وحده؛ قال تعالى :{ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ } [المائدة: 3]. وقوله : { وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ } [التوبة: 18]. قال ابن عطية : " يريد : خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، والمعنى: لم يخش من غير الله، لا من المعبودات، ولا من سائر المخلوقات، وإنما الخشية حقٌّ لله سبحانه وتعالى لا يجوز أن يُشرك معه فيها غيره، وهي عملٌ قلبي من العبادات القلبية. وهذا حصر للخشية لله سبحانه، فلا يخشى الإنسان غير الله عزّ وجلّ، ومن خشيَ غير الله خشية العبادة فقد

---

[165] - أنظر تفسير الرازي 12/141-142.

[166] - عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، حاشية كتاب التوحيد ص244

أشرك بالله. وهذا مثل قوله : { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: 175]. فمن شرط الإيمان: إخلاص الخوف لله وحده تعالى ، لأن الإيمان يقتضي أن تؤثروا خوف الله على خوف الناس، ولأن من عرف أن الخوف عبادة، وصرفه لغير الله شرك، لم يصرفه لغيره، وكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم.

2. قوله : { ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }.

إن لفظ { خَيْرٌ } يستعمل في معنيين : أحدهما : بمعنى هذا خير من ذاك . والثاني : بمعنى أنه في نفسه خير كقوله : { إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } [القصص: 24]. فقوله : { ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ } ، على الوجه الأول : إن عبادة الله وتقواه خير لكم من الشرك ولا خير في الشرك أبدا ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم [167]. وعلى الوجه الثاني : فإن توحيد الله تعالى وخشيته هو خير في نفسه فإن ترك عبادة الله وتقواه لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيرا للناس، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه [168].

فكان الخير كله في عبادة الله تعالى وتقواه لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلاً واعتباراً ، أما عقلاً فلا تعطيل لأنه تعالى واجب الوجود ولا يقبل العقل عدم وجوده ، وأما التشريك فباطل عقلاً لأنه يؤدي لفساد الكون لتنازع الإرادات ، وأما اعتباراً فلأن الشرف لن يكون إلا بقرب الإنسان من خالق السموات والأرض ، فأعلى درجاته أن يكون العبد قريب من ربه ، لكن هذه القربة تكون بالعبادة كما قال تعالى : { وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ } [العلق: 19]. وفي الحديث القدسي: " وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه "[169]. وأما التشريك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء خسيسة ، فإذن من يقول إن ربي لا يماثله شيء أعلى مرتبة ممن يقول سيدي صنم منحوت عاجز مثله، فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهذه الخيرية إنما تستند إلى الترجيح العقلي القائم على الدلائل اليقينية والاعتبارات الوجيهة [170].

---

[167] – فتح القدير لشوكاني ، 279/4

[168] – أنظر : تفسير الرازي، 36/8 , تفسير السعدي ، 628

[169] – صحيح البخاري: رقم الحديث(6137)

[170] – أنظر تفسير الرازي، 141/12

فجملة (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) تعليل للأمر بعبادة الله وخشيته ، وجيء بها لتحريضهم على النظر والتدبر في تمييز الحق من الباطل، وترجيح الحق عليه ، ولذلك قال تعالى : { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } لأن هذا الترجيح يحتاج إلى العلم والنظر لتحصيل المعرفة والدليل ، حيث جاءت الخيرية هنا مقرونة بالعلم ، لأنه هو المقصود فناسب ذكره كونه طريق تحصيله .

وقد يأتي مقروناً بالإيمان ، كما في قوله تعالى : { ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ } [الأعراف : 85]. والمعنى: ذلكم خير لكم أي عند الله إن كنتم مؤمنين أي بشرط الإيمان والتوحيد وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان ، فناسب ذكر الخيرية مع الإيمان لأن حصول الخير من الأشياء المشار إليها لا يكون إلا مع الإيمان لأنهم إذا فعلوها وهم مشركون لم يحصل منها الخير لأن مفاسد الشرك تفسد ما في الأفعال من الخير.[171]

وقد يأتي مقروناً بالتذكر ، كما في قوله تعالى: { ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النور: 27]. أي ذلكم الاستئذان خير لكم أي فيه خير لكم ونفع فإذا تدبرتم فيما مر معكم في الماضي علمتم ما فيه من خير لكم كما هو المرجو منكم.[172]

وقد يأتي مقروناً بالعندية ، كما في قوله تعالى : { ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ } [البقرة: 54]. فهذه الجملة تعليل لما قبلها ، جيء بها لتحريضهم على الامتثال والطاعة لما أمرهم به نبيهم ، واسم الإشارة { ذَلِكُمْ } يعود إلى التوبة والقتل المفهومين مما تقدم.[173] فالخير المقصود ليس في الفعل نفسه وهو قتل أنفسهم ، وإنما في امتثالهم لأمر ربهم فإنه خير لهم في الحال بالعفو والرضى عنهم وفي المآل عند رجوعهم إليه .

وقوله:{ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } أي: إن كنتم تعلمون أدلة اختصاص الله بالإلهية وتميزون ما هو خير مما هو شر أو كنتم أهل علم ونظر تنظرون في الأمور بنظر العلم دون نظر الجهل ، فإن ذلك كاف في الحكم بخيرية ما ذكر من العبادة والتقوى . وحاصل المعنى : أن هذا الأمر العظيم الذي هو إخلاصكم في عبادتكم لله وخشيتكم له وحده ، هو خير من شرككم وكذلك هو خير لكم في عاجل أمركم وعاجله ، هذا إن كانت فطرتكم سليمة صالحة لإدراك الحقائق من أدنى نظر ،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[171] – أنظر : البحر المحيط لابن حيان ، 392/5 تفسير ابن عاشور ،1/ 1586

[172] – أنظر : تفسير ابن كثير ، 35/6 ، وتفسير السعدي، 27/6

[173] – أنظر : تفسير طنطاوي ، ص90 .

وأما إن لم تدرك ذلك فأنتم في عداد الحيوانات العجم بل أضل ، فإنها تهتدي لما ينفعها فتقبل عليه ، وتسعى بجهدها إليه [174] .

فأنت تلاحظ أن إبراهيم عليه السلام قد بدأ دعوته لقومه يأمرهم بإخلاص العبادة لله تعالى وبالخوف من عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم ، ثم ثلث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع ، الذي يتنافى مع الجهل . وفي الخطوة الرابعة بين لهم فساد معتقدهم وبطلان معبوداتهم التي لا يستندون في عبادتها إلى برهان أو دليل ، لأنها أوثان لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ولا رزقاً ، ثم يوجههم إلى من يستحق أن يعبد ويقصد ويرجى ويخشى وهو الله خالقهم ومالكهم ورازقهم والقادر على نفعهم وضرهم ، ثم يختم دعوته لهم ببيان أنه لا مفر لهم من الله ولا مهرب ، فمن الخير أن يثوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين[175] .

وعليه فإن إبراهيم عليه السلام قد عمل على تأصيل الفكر وتأسيس المعتقد الإيماني لمخافة الله تعالى ، وذلك ليحول توجهات الفطرة في مخاوفها من الغريزة العمياء إلى الخوف العقائدي التوحيدي ، وينقلها من الحالة الشعورية الطبيعية والسلبية، إلى الحالة الشعورية التعبدية الإيجابية ، فإن الخوف حين يكون موصولاً بالله تعالى ومرتبطاً بالناحية الروحية ، فإنه يكون له في النفس حالة تأثيرية غلابة من شأنه أن يدفع بالإنسان نحو الفضائل ويزجره عن ارتكاب الرذائل.

ـــ المطلب الثالث: التصويب الفكري لتوجهات الفطرة الشعورية في مخاوفها.

إن من طبيعة الفطرة الإنسانية حبها لذاتها وحرصها على بقائها ودوامها، ومنها تنشأ كثير من مشاعر الخوف التي تشكل ضغوطاً نفسية عند الإنسان ليصبح عرضة للأوهام والوقوع فريسة للاستبداد والاستعباد، إلا أن هذا المخاوف يبددها الإسلام وذلك حين صحح مسار التفكير الإنساني وصوب معتقداتهم بعقيدة التوحيد التي تحرر الإنسان من الأوهام والاستغلال البشع من قبل الآخرين، لأن هذه المخاوف الزائفة تضعف الصلة بين الإنسان وربه وتكون عائقاً من القيام له بحق العبودية، كما إنها تؤثر على سلوك الإنسان سلباً وتبدد طاقته وتهدر قيمته الإنسانية، فعمل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[174] - أنظر تفسير الألوسي 249/15 ، وتفسير طنطاوي 3300 ، وفتح القدير لشوكاني 279/4

[175] - راجع : وتفسير الرازي ، 142/12 ، وفتح القدير ، 5 /434 ، تفسير الشنقيطي ، 46/3، وتفسير طنطاوي ، 3300 ، وأيسر التفاسير ،3 /196 وتفسير السعدي ، 628 ، وتفسير الظلال ، 5 /465

الإسلام على تحرير الإنسان من كل هذه المخاوف لتتجه إلى الله وحده ليكون خوفه وطاعته وعبوديته لربه، ومن هذه المخاوف التي عمل الإسلام على تحرير الإنسان منها هي :

أولاً. تحرير الإنسان من خوفه على الرزق .

لقد بيّنت العقيدة بوضوح حقيقة الرزق في كونه بيد الله تعالى وحده ،وأنه ليس بيد أحد من البشر ، لما لهذا المعتقد من أثر خطير على واقع الناس وحياتهم ، وقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام دور بارز في تجلية هذا المعتقد وتوكيده في الضمير ، ومن ذلك :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [العنكبوت: 17].

لقد نفى إبراهيم عليه السلام في معرض جداله لقومه أن تكون هذه الأوثان التي يعبدونها من دون الله تملك لهم نفعاً أو ضراً أو رزقاً أو شيئاً من ذلك ، وبيّن لهم أنه لا رازق إلا الله، فهو وحده من بيده الرزق ، وفي هذا البيان توبيخ لقومه على شكر من لا يستحقّ الشكر ، لأنهم عبدوا هذه الأصنام وهي لا تملك ما يأتيهم من الرزق لاحتياجها ، ولا تستطيع رزقهم لعجزها . فلا يصح أن يعبد إلا من يرزق الخلق . لأن أكلهم رزقه مع عبادتهم غيره جحود ظاهر وكفر صريح وظلم عظيم . لأن مقتضى حقيقة أن الرزق بيد الله تعالى هو أن لا يُطلب إلا من الله وحده ، كما في قوله: { فابتغوا عِندَ الله الرزق } والمعنى : وجهوا قلوبكم في طلب أرزاقكم إلى الله وحده فهو الذي عنده الرزق كله لا عند أحد سواه ، فلا يشغلكم ابتغاء الرزق بالأسباب الظاهرة عن عبادته ، فإنه هه السبب الحقيقي للرزق ، فابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة لا مجرد نافلة من القول ، فإنه وإن كان لا محالة من مباشرة الأسباب في تحصيل الرزق ، إلا أن الأمر مع ذلك بيده تعالى وحده ، إن شاء أنجح هذه الأسباب وإن شاء خيب . ومن ثم يحثهم عليه السلام على شكر واهب الأرزاق والمتفضل بالنعم ، وعلى عبادته تعالى وحده لكونه مستحقاً للعبادة والشكر فهو سابق خلقه بالنّعم وواصلهم بالرزق لا غنى لهم عنه في كل وقت، كم أن شكر نعمه تعالى سبب لبقائها والمزيد عليها. فإبراهيم بعد أن نفى عن آلهتهم القدرة على الرزق وأثبت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لهم عجزها عن نفع غيرها ورزقه ، وبيّن أن رازقهم هو الله وحده شرع في مطالبتهم بمقتضياتها التعبدية من عبادة الله وحده ، والإخلاص له في الشكر ، والتوجه له في طلب الرزق وتحصيله .

إن إبراهيم يؤكد على هذه الحقيقة لأنه يعلم أثرها الخطير في حياة الإنسان ودورها الكبير في استقامة سلوكه فإن الاعتقاد بأن الرزق بيد الله تعالى وحده ، كفيل أن يزيل من النفس كل المخاوف على الرزق، وأن يحرر الإنسان من عبودية البشر ، فلا يستطيعون استلاب عقله، وإرهاب نفسه، وتعطيل طاقته، لأن الانحراف في عقيدة الرزق كان له دور كبير في استغلال الناس في لقمة عيشهم ، ليساقوا كالنعاج من قبل الطغاة والمفسدين [176]. ولكن عقيدة الإسلام حفظت للإنسان كرامته وطاقته حين جعلته عبداً لله تعالى وحده ، لا يخاف على رزقه من أحد من الخلق ، لأنه يعتقد بكفالة الله لرزقه حينما أخبره بذلك، في قوله تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } [الذاريات: 56-58]. ثم يقسم الله على ذلك قسماً عظيماً فيقول تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} [الذاريات: 22-23]. وصدق القائل: (قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا)، فالمؤمن لا يخاف على رزقه لأنه قد تكفل الله به وضمنه له فهو يتوكل عليه ويطلبه منه وحده ، وهذ ما دعى به إبراهيم عليه السلام قومه في قوله: { فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ } [177].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانياً. تحرير الإنسان من خوفه أن يقع عليه الضر من الخلق .

لقد كشف إبراهيم عليه السلام هذه الحقيقة لأبيه وقومه وعمل على تقريرها وتأكيدها لهم ، ويظهر ذلك في مجادلاته معهم ، مما يعني أن هذه الطريقة التي كان يخاطبهم عليه السلام بها ، هي طريقة القرآن التي يخاطب الله بها عباده ويعلمها لأنبيائه ورسله ، وقد ذكر القرآن بعض هذه المجادلات بين إبراهيم وأبيه وقومه ليكشف عن هذا المنهج القرآني الذي يجب استخدامه في الدعوة إلى الله ، ونختار من هذه الشواهد ما يلي:

([176]) راجع: محمد بن لطفي الصباغ، الإنسان في القرآن الكريم، ص 62-65، محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ج1، ص 129-130، يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ص 151ـ نزار العاني، الشخصية الإنسانية، ص 191.

[177] - راجع : تفسير الرازي ، 142/12، وتفسير الألوسي 145/20، وتفسير الزمخشري 949/1 ، وتفسير طنطاوي ، 3300 ، وأيسر التفاسير ،3 /196 ،وتفسيرالظلال ، 5 /465

* الشاهد :

قال تعالى : { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء: 66-67].

إن إبراهيم حينما يقرر هذه الحقيقة ، حقيقة أنه لا ضار ولا نافع إلا الله وحده ، وإن هذه المعبودات الباطلة لا تملك شيئاً من ذلك ، إنما يريد أن يحرر نفوسهم من جميع المخاوف التي تنتاهم من جهة معبوداتهم الزائفة ، ومن قبل أحد من الخلق ، ليربط قلوبهم بالله تعالى في جلب ما ينفعهم ودفع ما يضرهم ، وقد قرر إبراهيم عليه السلام هذه الحقيقة لأبيه، في قوله : { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم: 42]. وكذلك قررها لقومه ، في قوله : { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)} [الشعراء: 73]. وهذا ما أكده سبحانه لهذه الحقيقة في كثير من آياته ، قال تعالى : { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنعام: 17]. وقال تعالى : { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا } [الفتح: 11].

إن هذا الاعتقاد من شأنه أن يجعل قلب المؤمن لا يخشى إلا الله ولا يرجو سواه في جلب نفع أو دفع ضّر ، ويتجلى هذا في توجه إبراهيم عليه السلام إلى ربه إن أصابه ضر ليكشفه عنه كما في قوله تعالى : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء: 80]. كما أن هذا الاعتقاد من شأنه أن يحرر الإنسان من الاستعباد للبشر ، ويبعث في نفسه العزة والكرامة ، فلا ينحني ولا يذل ولا يخضع إلا لله تعالى وحده ، وهذا ما كان من إبراهيم عليه السلام في مواجهته لقوى الكفر ، حيث واجههم من غير خوف أو وجل ، بل هدد آلهتهم بالكيد والكسر وهم جمع غفير وهو فرد وحده ، كما في قوله : { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } [الأنبياء: 57-58]. إن قوى الأرض لا تخيف أو لا ينبغي أن تخيف المؤمن الذي يوقن أن الضر والنفع بيد الله وحده ، وقد سجل سبحانه موقف المؤمنين في توكلهم على الله تعالى ، وعدم المبالاة بتهديدهم بالضر ، كما في قوله تعالى : { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [التوبة: 51]. فهذا هو قول المؤمن حينما يواجه قوى الكفر والطغيان وتهديداتهم ، فهو لا يخافهم ولا يبالي بهم ، لأن المؤمن الحق لا

يخاف إلا الله ولا يستعين إلا به ولا يسأل غيره قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس:" يا غلام إني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف "[178].

ثالثاً. تحرير الإنسان من خوف الموت .

لقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام دور بارز في تجلية حقيقة الموت والحياة وأنهما بيد الله تعالى وحده ، وأنه ليس لأحد من البشر القدرة على أمر الموت والحياة مهما بلغ من القوة والسلطان ، وقد كشف إبراهيم هذه الحقيقة وعمل على تقريرها وتأكيدها لقومه بمختلف الطرق والوسائل ، كما هو ظاهر في قصته في القرآن الكريم ، ومن هذه الشواهد نذكر منها:

*** الشاهد :**

قال تعالى : { وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين } [الشعراء: 81].

إن خوف الإنسان على حياته غريزة أصيلة فيه ، لذا فهو يحرص على بقائه ، وإن أي خلل في هذا التصور عن حقيقة الحياة والموت يؤدي إلى آثار سلبية وخطيرة في حياة الفرد والشعوب والأمم ، لذلك فقد حرص إبراهيم عليه السلام في تجلية هذه الحقيقة لقومه ، والكشف عن انحراف تصوراتهم العقدية ، حيث أعلن عداوته وبراءته لمعبوداتهم الباطلة وكشف عن عجزها التام وعدم قدرتها أن تملك له أو لغيره ضراً أو نفعاً أو حياة أو نشوراً ، ومقرراً أن العبودية الخالصة لا تكون إلا لله وحده المهيمن على هذا الوجود كله والمتصرف فيه بقدرته ومشيئته، فهو الذي بيده أمر حياته وموته ، قال تعالى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا } [النجم: 44]. فهو من أنشأ الموت والحياة ، وهو من قضى أسبابهما كما في قوله : { خَلَقَ الموت والحياة } [الملك: 2]. وإن هذه الأسباب الظاهرة للموت والحياة هو من قدرها وهو من يجريها بين عباده ، وهو من يجعلها

[178] – رواه الترمذي، سنن الترمذي، رقم "2516"، ج4ن ص667، كتاب صفة القيامة والرقائق، قال الترمذي: حسن صحيح وقال الألباني: صحيح.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تتخلف إن شاء كما جرى مع إبراهيم عليه السلام حينما واجه كفر قومه ولم يبالي بتهديدهم بقتله وبمباشرة ذلك بإلقائه في النار ، كما في قوله تعالى : { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء: 68-70]. لقد تخلفت النار عن إحراقه عليه السلام بل كانت عليه برداً وسلاماً ، لذلك فإن المؤمن لا يتعلق بهذه الأسباب الظاهرة ، وإنما يتعلق برب هذه الأسباب وهو الله تعالى ، لذلك لم يبالي إبراهيم حينما هددوه بالقتل وألقوه بالنار لأنه يعلم أن أمر الموت والحياة ليس بيدهم ولا بأمرهم ، وإنما هو بيد الله وحده . وهو الذي قرر لهم هذه الحقيقة في قوله : {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} . إن تأكيد إبراهيم على هذه الحقيقة لأنه يعلم أثر انحراف هذا المعتقد السلبي والخطير على حياة الإنسان وسلوكه ، لأن اعتقاد الإنسان أن حياته مرهونة بيد أحد من الخلق أو البشر كفيل بتدمير فطرته وكيانه لتجعل منه إنساناً ممسوخ الفطرة مهزوم الكيان ، فأي قيمة للإنسان حينما يكون مسلوب الإرادة التي منحه الله إياها ، مستجيباً لقوى الفساد ، يدور في فلكها يرجو منها دوام حياته وبقائه .

إن هذا الاعتقاد الفاسد يجعل الفطرة تنحرف في توجهاتها الشعورية بالخوف مما لا يملك حقيقة أمر أجلها ، وهذا يورث النفس الجبن والهوان والذل أمام مواقف الحياة المختلفة من العجز والقعود والانهزامية أمام قوى الطغيان ، وانعدام إرادة التغير والإصلاح للفساد في الأرض ، طلباً للسلامة من غير طرقها الصحيحة ، [179]. فإن الطغاة والمستبدين حينما يستلبون عقول الناس ويستعبدونهم بالتعريض والتلويح بالإيذاء والقتل ، لمن لا يخنع ولا يخضع لهم ، إنما يستخفون بهم بسبب فساد معتقدهم وجهلهم لحقائق الإيمان ، وخاصة جهلهم بحقيقة الموت والحياة ، وتعلقهم بالأسباب الظاهرة .

وهذا ما كشفه القرآن ، حيث بين سبب استلاب فرعون عقول قومه واسترهاب نفوسهم ، هو خروجهم عن منهج الله تعالى وفساد معتقدهم ، كما في قوله تعالى : { فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ } [الزخرف: 54]. . ولقد ذكر القرآن طريقة الطغاة الذين يستخدمون التهديد بالقتل لمعارضيهم ، وإرهاب نفوسهم ليستجيبوا لهم ، ولكن هذا السلاح لا يرهب المؤمن الموصول قلبه بالله تعالى ، لأنه سليم القلب والمعتقد ، وقد ذكر القرآن كثير من

---

[179]- راجع : تفسير الطبري 19 /363 ، تفسير السعدي 592 ، تفسير طنطاوي 3167 ، تفسير ابن عاشور 177/10 ، تفسير الظلال 352/5-353

هذه النماذج المؤمنة التي واجهت قوى الكفر والفساد ولم تخيفهم أسباب القوة المادية من قول كلمة الحق وتبليغ رسالة الله ، والتضحية والفداء بالروح والنفس في سبيلها ، ومن ذلك قصة الرجل المؤمن في سورة يس ، في قوله تعالى : { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ } [يس: 20-27]. إن مجيء الرجل من أقصى المدينة وسعيه الحثيث لتبليغ رسالة ربه يدل على صفاء نفسه ، وسلامه قلبه ، وعلو همته ، ومضاء عزيمته ، حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه ، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق ، ولم يرتض أن يقبع في بيته كما يفعل الكثيرون بل هرول نحو قومه ، ليقوم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويدافع عن الحق الذي آمن به دفاعا قويا دون أن يخشى أحد إلا الله .

إن سر هذه القوة النفسية ، إنما تكمن في صحة معتقده ويقينه بحقائق الإيمان التي استقرت في قلبه ومشاعره ووجدانه ، وقد كشف القرآن عنها من خلال دعوته لقومه في قوله : { إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونَ } أي : إن هذه الآلهة التي تعبدوها من دون الله لا تستطيع إنقاذي وتخليصي مما يصيبني من ضر إن أراد الرحمن أن ينزله بي . ولو اتخذت هذه الآلهة شريكا مع الله فى العبادة { إني إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } أي : لأكونن في ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء . ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال: { إني آمَنتُ بِرَبِّكُمْ } الذى خلقكم ورزقكم { فاسمعون } أي : فاسمعوا ما نطقت به ، واشهدوا لي بأني آمنت بربكم الذي خلقكم وخلقني ، وكفرت بهؤلاء الشركاء ، ولن أشرك معه في العبادة أحدا . مهما كانت النتائج . فهو يصارحهم ويشهدهم على هذه المصارحة ، بأنه قد آمن بما جاء به الرسل إيمانا لا يقبل الشك أو التردد ، ولا يثنيه عنه وعد أو وعيد أو إيذاء أو قتل .

ولكن هذه النصائح الغالية الحكيمة من الرجل الصالح لقومه ، لم تصادف أذنا واعية بل إن سياق القصة بعد ذلك ليوحي بأن قومه قتلوه [180] . فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال ، قتلوه ! وقال ابن إسحاق – فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب – : فلما قال ذلك وثبوا

[180] - راجع : تفسير طنطاوي ، ص 3531-3532

عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنع عنه. وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: "اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون". فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك، فقتلوه، -رحمه الله-[181]. فقد قال تعالى بعد أن حكى نصائح هذا الرجل لقومه ، { قِيلَ ادخل الجنة } أي : قالت الملائكة لهذا الرجل الصالح عند موته على سبيل البشارة : ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الطيب[182].

وكذلك تتجلى هذه الحقيقة الإيمانية في موقف سحرة فرعون حينما هددهم بالقتل بعدما أعلنوا إيماهم بالله وكفروا بفرعون ، في قوله : { قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى } [طه: 70]. إن هذا السلاح من التخويف بالقتل لم يؤثر فيهم لأن أثر العقيدة في نفوسهم كان أكثر وأعظم ، فما كان جوابهم لهذا التهديد إلا أن قالوا له : { قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى } [طه: 72-73]. وإنه من الملفت للنظر في هذه القصة هو سرعة تأثير العقيدة في نفوسهم ، فبمجرد استقرار هذه العقيدة في نفوسهم حتى ظهرت نتائجها بهذه الصورة العظيمة من التضحية بأرواحهم في سبيل الله تعالى ، والتطلع إلى ما عند الله من ثواب جزيل ، وهكذا هو فعل العقيدة في النفوس وهذا هو أثرها في تحرير الإنسان من الخوف على حياته من الخلق ، وتوجيه مخاوفه الوجهة الصحيحة إلى من بيده القدرة المطلقة والمشيئة النافذة وهو الله تعالى وحده، قال تعالى : { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ } [المائدة: 44].

وبذلك نجد أن العقيدة حينما تصوب توجهات الفطرة الشعورية في مخاوفها إلى الله وحده ، فإن العبودية تكون خالصة لله وحده تعالى[183]. فالمؤمن الذي يعتقد أن الموت بيد الله تعالى وحده

---

[181] - أنظر : تفسير الطبري 104/22 ، وتفسير ابن كثير 6/ 571 .

[182] - أنظر تفسير طنطاوي ، ص 3532

[183] راجع: محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ج1، ص 130-131، نزار العاني، الشخصية الإنسانية، ص 193-194. زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، 291-292

فإنه يتحرر من عقدة الخوف على أجله[184] لذلك فهو لا يجبن عند لقاء الأعداء ولا يخنع أمام الطغيان، ولا يذل لأحد إلا لله وحده .

إن هذا الاعتقاد هو الذي أحيا الأمة وهو سر نهضتها وعزتها وقوتها، وهو الذي دفع ذلك الموكب من الشهداء على مدار الأجيال أن يقدموا أرواحهم في سبيل الله تعالى قال تعالى : { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } [الأحزاب: 23]. وإن غياب هذا الاعتقاد وضعفه هو الذي يؤدي إلى الانحطاط والذل والهوان قال تعالى : { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [آل عمران: 168]. إن هذه النفوس الضعيفة المتخاذلة التي تخشى الموت وتخشى الناس، لم تعتقد حقيقة بإن الموت بيد الله تعالى وإن ساعة الأجل إذا قدمت لا مفر منها ولا مهرب قال تعالى : { فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ } [النساء: 77-78].

إن فساد المعتقد لحقيقة الموت والحياة هو في حقيقته تدمير للكيان الإنساني وللحياة الإنسانية لأنها تخدر إرادة التغيير نحو النهضة ، وتعطل قوى الخير نحو الإصلاح ، وتقف ضعيفة مهزولة أمام قوي الباطل والفساد ، لذلك فإن القرآن ينور الفكر ويثوره ، من خلال ترسيخ مفاهيم العقيدة في النفوس ، لتحول الإنسان إلى طاقة هائلة تعجز قوى الأرض كلها مجتمعة عن سلب إرادته أو مواجهته ، وما ذلك إلا أنه في معية الله تعالى : { كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء: 62]. { لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } [التوبة: 40]. إن أصحاب العقائد السليمة لا يذلوا ولا يخنعوا للباطل وأهله لأنهم يعلمون أن أمر الحياة والموت هو بيد الله وحده وليس لأحد من البشر أي سلطان فيه ، وهذه حقيقة إيمانية ثابتة جاءت النصوص قاطعة وحاسمة في تقريرها ، قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا } [آل عمران: 145] . وقال تعالى : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف: 34].

[184]- راجع: محمد الصباغ، الإنسان في القرآن الكريم، ص 66-68، ومحمد قطب \، منهج التربية الإسلامية، ج1، ص129، يوسف القرضاوي في الإيمان والحياة، ص 152-153.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ المبحث الثاني ـ

التربية النفسية لمخافة الله تعالى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن التربية النفسية تعتمد على الخوف والرجاء ، إذ هي الحث على الفضائل والكمالات ترجية بالمثوبة وحسن الجزاء على العمل الصالح ، والتنفير عن الرذائل والنقائص تخويفاً من العقوبة . ووقوع البلاء على العمل القبيح . والخوف والرجاء هما الجناحان اللذان يطير بهما المؤمن ليبلغ السعادة في الدارين الدنيا والآخرة [185] .

فكانت هذه التربية النفسية العقدية هي من أهم الأمور التي جاء الأنبياء والرسل لتحقيقها في بناء الفرد المؤمن ، لأن التربة النفسية هي ثمرة القناعة الفكرية وهي التي تدفع بالسلوك نحو العمل الصالح البناء المثمر . وإن لكل نوع من العواطف والمشاعر القلبية دور وتأثير في سلوك الإنسان ، وقد استثمر القرآن هذه المشاعر على اختلافها وتنوعها في النفس للوصول إلى أهدافه التربوية النبيلة ، وقد عمل على حسن توظيفها بحيث تؤدي كل منها وظيفتها التي ترتقي بالإنسان إلى أعلى مستوى من التأهيل البشري أو الكمال المقدر له ، لذلك فإن هذه المشاعر في التربية الإسلامية لا تسير خبط عشواء بل هي منضبطة في ضوء الحكمة القرآنية ، بحسب الموقف والحال ، فهي قد تتصاعد حتى تبلغ إلى درجة من الغضب الشديد كردة فعل طبيعي للموقف الذي تنتهك فيه حرمات الله تعالى وترتكب فيه معصيته ، كما في موقف موسى عليه السلام من عبادة قومه للعجل، ونقف مع وصف القرآن لطبيعة مشاعره عليه السلام من هذا الحدث الجلل ، في قوله تعالى : { وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ } [الأعراف: 150]. والتعبير القرآني يشخص حالة الغضب والانفعال الشديد الذي تسلط على موسى عليه السلام بسبب وقوع قومه بمعصية الشرك بالله تعالى ، وهذه هو

---

[185] - أنظر : محمد رشيد رضا ، التربية النفسية ، مجلة المنار العدد : 2 ، ص 185

الموقف الطبيعي في مقابلة هذه المعصية ، وهذا الموقف جاء منسجماً مع ردة الفعل الكوني لمعصية الله في قوله : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا } [مريم: 88-91]. وحينما أعلن قوم موسى عليه السلام التوبة سكت غضبه وأخذ الألواح التي كان قد ألقاها[186]. قال تعالى : { وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } [الأعراف: 154]. كذلك نجد هذه المشاعر التي سجلها القرآن لأولئك النفر الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي مشاعر الخوف من الحرمان من رحمة الله تعالى ، ووصف القرآن هذه المشاعر في قوله تعالى : { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة: 118]. وأمام هذه المشاعر التي تكابد ألم الذنب وحسرة الندم ، طلباً للتوبة ليتخلصوا من ذلك العذاب النفسي الذي يجدونه في نفوسهم ، تنفتح لهم أبواب رحمة الله تعالى ليتوبوا ولا يسترسلوا في المعاصي ، وليفتحوا مع الله صفحة جديدة بعد الإقلاع عن الذنب والولوج في الطاعة[187].

فالقرآن يقوم على استثمار المشاعر والعواطف الكامنة في الكينونة الإنسانية لتحقيق البناء النفسي للعقيدة ، فهو حين يشتد وعيده ومستوى التخويف والإنذار من عذاب الله تعالى في معرض الزجر عن كبائر الذنوب وتوعده بمرتكبيها ، فإنه لا يوصد باب الأمل والرجاء من رحمة الله تعالى ومغفرته لكي لا ينفذ اليأس إلى النفس ، بل نجد أن الترجيه تشتد وتتصاعد حتى لا يبقى أمام النفس إلا أن ترجع إلى الله بالتوبة والإنابة والإقبال عليه بالطاعة كما في قوله : { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا } [الفرقان: 68-71]. نلاحظ أن هذه الآيات في بدايتها يشتد فيها الوعيد والتخويف من ارتكاب الكبائر في

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[186] - أنظر : تفسير طنطاوي ص 1698

[187] - راجع : تفسير الطبري 81/3 ، وتفسير الألوسي 10/2 66

دخول النار ثم مضاعفة العذاب حتى يصل إلى الوعيد بالخلود في نار جهنم مع المهانة ليجتمع العذاب المادي والنفسي معاً ، ليبلغ الخوف شدته ، حتى تنزجر النفس عن المعاصي ولا تسترسل فيها ، وبعد أن يوصد الباب على العصاة في الخلود في نار جهنم ، تجده يفتح باب الأمل والرجاء للتائبين ليتعلقوا برحمته تعالى الواسعة ويسارعوا بالتوبة والمغفرة ، لذلك فإنك تجد رجوعاً عكسياً في نفس الآيات من اشتداد وتصعيد وتهيج للسائرين في طريق المعصية إلى فتح باب الأمل واتساعه للتائبين الذين يريدون الرجوع إلى الله ، ليجدوا أن الله يستقبلهم بالمغفرة والرحمة الواسعة ، بل وتجد أن هذا الأمل يشتد حتى يتسع مجاله إلى درجة تبديل هذه السيئات إلى حسنات: { فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } . هكذا على سبيل التعميم والإجمال، فالآيات الكريمة جاءت منسجمة مع طبيعة الحالة التي يتعامل معها سلباً وإيجاباً ، تمشياً مع مقتضى الحكمة القرآنية في ضوء تعاملها مع النفس الإنسانية تزكية وإصلاحاً [188].

إن القرآن بأسلوبه التربوي الحكيم قد عمل على البناء النفسي للعقيدة تربية وتأديباً، ووقاية وعلاجاً وتوجيهاً وإرشاداً وفقاً لما جبلت عليه الفطرة من مشاعر الخوف تزكية للنفس وتنمية لها على الفضائل، وتطهيرها من الرذائل وليقضي على منازع الخوف والجبن وبواعث التردد والتقهقر وأسباب التقاعس والهبوط أو الإخلاد إلى الأرض، وليبث فيها طاقة روحية هائلة تدفع بها إلى التفاني والتضحية والجهاد والاستشهاد في سبيل الله تعالى ، ودفاعاً عن القيم والمبادئ السامية والمثل العليا ، وسعياً لإنفاذ أمر الله تعالى في تحقيق المصالح الإنسانية العليا، والإصلاح العالمي المنشود [189].

إن القرآن الكريم ، قد عني بتأصيل المنهج التربوي للعقيدة ، من خلال المواءمة بين النظرية والتطبيق ، فقد فرق بين التعلم والتربية، فالتعليم يكون بنقل العلم بأي وسيلة من وسائل النقل، ولكن اكتساب المشاعر الدينية والفضائل الخلقية لا يكون بمجرد معرفتها ، وتعلمها، بل بوجوب التعود عليها وممارستها والتخلق بها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتق الشر يوقه " [190]. وعنه صلى الله

---

[188] - راجع : زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، ص358-359

[189] -راجع فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ج2، ص 518، ص 542

[190] - أخرجه الطبراني في الأوسط 3 / 320 (2684) وأبو نعيم في الحلية 5 / 174، والخطيب في تاريخه 5 / 201 ، ورواه الدارقطني في الأفراد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع 2328 .

عليه وسلم: " ومن يتصبر يصبره الله" [191]. وهكذا وضع النبي صلى الله عليه وسلم قاعدة تنص على أن العواطف والأخلاق قابلة للتغيير ، فالأحوال ولأخلاق والأعمال الحسنة إنما تنشأ عن التربية والتعود عليها, فهناك مجال للتغيير في الأخلاق والصفات الموروثة، ولذلك أمرنا تعالى بالممارسة والمجاهدة، ولو كانت هذه الصفات والأخلاق لا تتغير؛ لبطلت الوصايا والمواعظ، ولما قال الله عز وجل : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى } [الأعلى: 14]. وقال : { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا } [الشمس: 9]. ولذلك فإن التربية النفسية للمشاعر الدينية وتنميتها إنما تحصل بالاكتساب والممارسة ، وفي ذلك يقول أبو بكر : ابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا، تكلفوا ذلك فإن في ذلك النجاة لكم. وهذا الذي قاله أبو بكر هو وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأمته: "اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا" [192]. والمراد حث النفس وتعويدها على البكاء حتى يصير عادة وسجية لها، قال الشاعر:

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على ... حبّ الرضاع وإن تهمله ينفطم [193]

وعليه فإن تربية القلب على مخافة الله تعالى ، إنما تتحقق بغرس المفاهيم العقدية إبتداءً ومن ثم ممارستها عملياً ورياضة النفس عليها شيئاً فشيئاً حتى تصير عادة مستحكمة وهيئة راسخة في النفس ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة " [194]. والمعنى: أن من خاف ألزمه الخوف الطاعة والمبادرة للعمل الصالح ، وعلى قدر العلم بالله يكون الخوف منه تعالى وخشيته ، قال صلى الله عليه وسلم " وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ " [195]. وقال : " لَوْ

[191] – أخرجه البخاري : ك الزكاة برقم 1469 ، ومسلم : ك الزكاة برقم 1053 وغيرهما . رواه ابن حجر في فتح الباري 1\161 والهيثمي 1\128.

[192] – رواه ابن ماجه في سننه ، ج1/ص425 رقم الحديث (1337) قال الشيخ الألباني : ضعيف

[193] – هذا البيت من قصيدة للبوصيري ، في البردة: أنظر : علي الجارم و مصطفى أمين ، البلاغةُ الواضِحَةُ ، ص49

[194] – أخرجه الترمذي في سننه برقم (2450) وقال الشيخ الألباني : صحيح ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، (7851) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، وتعليق الذهبي في التلخيص : صحيح ، انظر: المستدرك مع تعليقات الذهبي في التلخيص ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط1، 1990م ، 343/4 ،

[195] - مسند أحمد: 24956قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم . ومسند عبد بن حميد برقم (1502) ، وأخرجه البخاري كتاب الإيمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أعلمكم بالله. 12/1

تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَلَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى "[196].

ـــ المطلب الأول : التخلية والتحلية .

إن التربية الإسلامية تبدأ من نزع الشرك الظاهر والخفي من النفوس فتتخلى بذلك من الظلم والرياء والفسوق والعصيان، ثم تستعد النفس بعد التخلية من كل شرك عن النفس بملء القلب بدين التوحيد الخالص، فالتوحيد تخلية وتحلية ، تخلية كل ماعدا الله، وتحلية بالألوهية المنزهة عن كل شرك[197].

إن قصة إبراهيم عليه السلام شاهد على هذه الحقيقة الإيمانية من مخافة الله تعالى، والتي عرضها القرآن الكريم ، ليوجه القلوب إلى خشيته الله تعالى ، وتربية النفس على هذا المعتقد الإيماني الضروري لتزكيتها وتنميتها على الفضائل وأحسن الأخلاق ، والتي تعد التخلية والتحلية من أبرز الجوانب في تحقيق هذه التربية الإيمانية ، ونذكر أهم الأمور التي ينبغي التخلي عنها كي تتحلى النفس بمخافة الله تعالى ، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي :

أولاً. التخلي عن الأمن من مكر الله تعالى .

إن الأمن من مكر الله تعالى هو من الأسباب المانعة من التحلي بمخافة الله تعالى ، وحتى يتم معالجة هذا الخلل العقدي لا بد من الكشف عن جذوره ومن ثم العمل على إزالته من منابته ومنشأ هذا الخلل يرجع إلى :

1. عدم تقدير عظمة الله وشدة مكره بأعدائه .
2. المبالغة في رجاء رحمة الله بغير عمل .

---

196 - رواه الحاكم في مستدركه (8726) . وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ، وتعليق الذهبي في التلخيص : على شرط البخاري ومسلم انظر: المستدرك مع تعليقات الذهبي في التلخيص ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، 623/4 ، والترمذي في سننه برقم (2312) ، وقال الشيخ الألباني : رواه البخاري باختصار والترمذي إلا أنه قال ما فيها موضع أربع أصابع ، والحاكم واللفظ له . وقال: صحيح الإسناد ، أنظر :صحيح الترغيب والترهيب – الألباني 174/3 (3380)

197 - د.عبد الرحمن الأنصاري ، عالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، 446/38

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام دور في معالجة هذا الخلل العقدي من الأمن من مكر الله تعالى ، من خلال الكشف عن مصدر هذا الخلل ومن ثم إزالته من جذوره ، ومن هذه الشواهد نذكر منها :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [العنكبوت: 20-23].

إن هذه الآيات تعالج قضية الأمن من مكر الله تعالى وذلك على النحو الأتي :

أ. معالجة عدم تقدير عظمة الله تعالى وشدة مكره وبطشه وانتقامه من أعداءه ومخالفيه . وذلك أن عدم تقدير عظمة الله تعالى من الأسباب التي تؤدي للأمن من مكر الله ومن ثم تمنع من تحقيق مخافة الله تعالى في القلب ، ومعالجة هذا المرض النفسي يتطلب مشاهدة قدرة الله وعظمته ، وهذا ما أشار إليه إبراهيم عليه السلام لقومه في قوله تعالى : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } . فإبراهيم عليه السلام يدعو قومه للنظر في الكون لتجلية حقيقة قدرة الله تعالى وذلك من خلال ما يلي :

1. دعاهم إلى السير في الأرض ، وتتبع صنع الله وآياته في الخلق والإنشاء ، في الجامد والحي ليعلموا أن الذي أنشأ قادر على الإعادة بلا عناء : { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ } ثم أشار إلى مقصود السير في الأرض وعلته وهو ليدركوا عظمة الله وقدرته سبحانه : { إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2. بعد تقرير حقيقة الآخرة والبعث رهبهم برجوعهم إلى الله وحسابه لهم على أعمالهم . في قوله تعالى : { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22)" فمن قدرة الله على كل شيء : تعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء ، وإليه وحده المآب؛ لا يعجزه أحد .

3. بين عدم انفلاتهم من قدرته وعذابه ، فهو سبحانه لا يمتنع عليه أحد ، ولهذا قال بعدها:

{ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ } يعني لا تفوتون الله فأنتم مقهورون له خاضعون لسلطانه لا يمكنكم الهرب منه ولا الخلاص . إن من شأن هذه الحقائق الإيمانية لقدرة الله تعالى أن تبعث في النفس الخوف من عظمة الله ، وقد بيّن سبحانه ذلك في قوله : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الزمر: 67]. وقوله تعالى : { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج: 74].

ب. معالجة المبالغة في الرجاء برحمة الله تعالى الواسعة من غير عمل ، قال تعالى : { فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (36) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (37) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ } [المعارج: 38]. فبين سبحانه وتعالى أن هذه الرحمة إنما يختصها الله تعالى لمن استوفى شروطها من الإيمان والعمل قال تعالى : { قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } [الأعراف: 156].

وقد جاءت قصة إبراهيم عليه السلام في تأكيد هذه الحقيقة في قوله تعالى : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } . فبين سبحانه أن الذين كفروا بالله وأشركوا بوحدانيته ، وكذّبوا برسله وكتبه ، وأنكروا البعث والحساب . هؤلاء ليس لهم مطمع في رحمة الله ، ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه ، وينقطع ما بينه وبين ربه . فأولئك لهم عذاب شديد مؤلم [198]. وقد بين سبحانه ذلك واضحاً في قصة إبراهيم عليه السلام واستغفاره لأبيه ، حيث أن استغفاره لأبيه لم ينفعه لأن رحمة الله ومغفرته لا تشمل إلا المؤمنين ، وإن الكافرين بالله المعادين لدينه فقد يئسوا من رحمته تعالى : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[198] - راجع : تفسير ابن عاشور 473/10- 476، وتفسير طنطاوي،3300 -3304 ، وتفسير الظلال 475/5

حَلِيمٌ } [التوبة: 114]. وعلى هذا يكون الاستغفار لا يحضى بالقبول عند الله إلا إذا كان صاحبه مؤمناً بربه ، صادق النية ، بعيداً عن الكفر والنفاق .

وقد جاء في قصة إبراهيم عليه السلام النهى عن الأمن من مكر الله تعالى وتدبيره الخفي بأعدائه وكل من خالف أمره وعصاه ، في قوله تعالى : { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } [إبراهيم: 42]. وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك في قوله : { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف: 97-99]. إن الأمن من مكر الله تعالى ينقّص التّوحيد، ويُنافي كماله، والمكر هو : "التدبير الخفيّ " [199]. ومعلوم أن مكر الله سبحانه هو: إيصال العقوبة إلى من يستحقّها من حيث لا يشعر . وهو عدلٌ منه سبحانه ، قال تعالى : { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ } [آل عمران: 54]. وقال تعالى : { وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } [النمل:50]. فالمكر في حق الله سبحانه وتعالى عدل وجزاء يحمد عليه ، أما المكر من المخلوقين فهو مذموم لأنه بغير حق . والمكر من الله نظير الاستهزاء : { اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [البقر: 15]. ونظير السخرية : { فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ } [التوبة: 79]. ونظير الكيد : { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا } [الطارق: 15-16] ، ونظير النسيان في مثل قوله : { نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ } [التوبة: 69]. فهذه أمور تُنسب إلى الله جل وعلا لأنها من باب المشاكلة ، والمقابلة والجزاء، فهي عدلٌ منه سبحانه ، حيث إنه ينزِّلها فيمن يستحقُّها، ؛ بخلاف هذه الصفات من المخلوقين فإنها مذمومة لأنها في غير محلها ولأنها ظلمٌ منهم للمخلوقين. قوله تعالى: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ} فهذه الآية في سياق ما ذكره الله عن الأمم الكافرة التي أحلّ الله بها عقوباته من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، الذين ذكرهم الله في سورة الأعراف، ثمّ قال : { وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } [الأعراف: 94]. ينزل الله بهم الشدائد من الجوع والخوف والقحط ليعلموا أن ما أصابهم من العقوبات إنما هو بسبب ذنوبهم؛ لعلهم يدعونه ويرجعون إلى الله ويتوبون إليه . فقوله: {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ} استنكار من الله على من يقع منه مثل ذلك. فإن الله

---

[199] - : عبد الرحمن الميداني ، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ، ص 479

ينكر على من يغترّ بالنعم وينسى العقوبة أن يأخذهم على غِرّة وهم آمنون منعَّمون، ثمّ ينقلهم من النعمة إلى النِّقْمة، ومن الصحة إلى الألم والمرض . {فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ} أي: لا يأمن عقوبة الله التي تنزل على خُفْية ومن غير تأهُب ومن غير توقع لها. {إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} الذين حقّتْ عليهم الخسارة التي لا ربْح معها أبداً ولا نجاة منها أبداً .

وعليه فإن الأمن من مكر الله يستلزم عدم الخوف من الله سبحانه وتعالى، كما يستلزم الاستمرار في المعاصي والزيادة فيها، ويستلزم ترك التوبة وعدم الرجوع إلى الله عزّ وجلّ. وهذه حالة الأشقياء من الخلق. والأمن من مكر الله ينافي التّوحيد؛ لأنه يدل على عدم الخوف من الله عزّ وجلّ [200]. لذلك فقد عمل القرآن على الكشف عن أسبابه ومن ثم العمل على إزالتها ، لأنه حينما تتخلى النفس عن الأمن من مكر الله تعالى فإنها بعد ذلك تتحلى بالخوف من الله تعالى ، ليؤدي هذا الخوف من الله فاعليته في حياة المسلم وأثره الإيجابي في سلوكه ليتجه به إلى العمل الصالح واجتناب المعاصي [201].

ثانياً. التخلي عن الأماني الباطلة والظنون الكاذبة .

إن مصدر كل شر وفتنة ومرض إنما هو ناشئ من الشهوات والشبهات ، قال تعالى : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ } [النجم: 23]. وحقيقة الأماني الباطلة هو مرض نفسي أصله الشهوات ، كما أن حقيقة الظنون الكاذبة خلل فكري أصله الشبهات ، وسوف نبين كيف ساهمت قصة إبراهيم عليه السلام في معالجة كل من الأماني الباطلة ، والظنون الكاذبة ، كونهما من الموانع التي تمنع من تحقيق مخافة الله تعالى في القلب ، وبيان ذلك على النحو الآتي :

أ. التخلي عن الأماني الباطلة .

إن مصدر الأماني الباطلة _ كما بينا سابقاً_ هو الشهوات ، فهي من الموانع التي تمنع مخافة الله تعالى من تحقيق فاعليتها في حياة المسلم ، وإن تعطيل هذه المشاعر الدينية من أداء دورها له آثار سلبية وسيئة في واقع الحياة ، وهذه الأماني هي حالة مرضية ، ونتاج سلبي ، يوجب معالجته ،

---

200 – أنظر : الشيخ صالح بن فوزان الفوزان ، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة، 1423هـ 2002م ، ص70 – 72

201 – راجع : زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ص **304**

واجتثاثه من جذوره من داخل النفس ، وقد بين سبحانه تعالى ذلك من خلال أهل الكتاب في معرض ذكر قصة إبراهيم ، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 123-125].

إن هذه الآيات الكريمة تقطع الطمع في نجاة الإنسان بغير عمله ، بحيث لا يركن إلى الأماني الباطلة ، التي تعتمد على المحسوبية والمحاباة إلى غير ذلك من الأوهام للتحلل من التكاليف والتنصل من أعباء الرسالة ، فرحمة الله لا ينالها الإنسان بالتمني ولكن بالإيمان والعمل الصالح . وهذا ما قررته الآية: { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ } . حيث جاءت للرد على أهل الكتاب الذين تفاخروا على المسلمين كونهم أسبق بالرسالة وأولى بالله منهم فأنزل الله: { لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب } ، فجاء هذا النص صريح ليرد الناس كلهم إلى ميزان واحد وهو العمل ،وليس بمجرد الأماني : فكانت حجة للمسلمين على من خاصمهم من أهل الأديان [202]. وأكد على ذلك بقوله: { وهو مؤمن } إي : أنّ الفوز في جانب المسلمين ، لا لأنّ أمانيّهم كذلك ، بل لأنّ أسباب الفوز في دينهم . لذلك عقّب هذه الآية بقوله : { وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا } . فهذا إشادة للدين الإسلامي على سائر الأديان ، لأنه قائم على أساس العبودية الكاملة لله تعالى من إسلام الوجه لله مع الإحسان الكامل ، وهو دين موافق لدين إبراهيم عليه السلام ومتبع لملته ، ومنكراً على أهل الكتاب زعمهم أنهم على دين إبراهيم ، لأن دينه من أحسن الأديان . فإن الله تعالى لما شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الإنسان مؤمناً ، شرح هذا الإيمان وبين فضله من وجهين : أحدهما : أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى ، والثاني : وهو أنه الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكل واحد من هذين الوجهين

[202]- أنظر : تفسير الطبري 229/9 ، رقم (10493)

سبب مستقل بالترغيب في دين الإسلام وبيان فضله على سائر الأديان وهيمنته عليها . وأما في تعلق هذه الآية{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً } بما قبلها ، هو أن إبراهيم عليه السلام بلغ علو الدرجة في الدين واتخذه الله خليلاً لأنه كان عالماً بالشريعة عاملاً بها ، وهذا فيه تعريض بأهل الكتاب لأنهم لم يقتدوا بطريقة إبراهيم علماً وعملاً ، وتعلقوا بالأماني الباطلة ، وطلبوا الفوز والنجاة بغير أسباها ، وفي هذا تنبيه إلى وجوب رجاء الله تعالى والطمع بثوابه بالإيمان والعمل الصالح ، لا بالأماني الكواذب ، وفيه حث على الإقتداء بإبراهيم عليه السلام وإتباع منهجه الموافق لدين الإسلام الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام [203]. لقد كانت هذه الآية حكماً فصلاً بين الفرق ، وقاعدة عامة لحقيقة الإيمان الصحيح ، وهي أن الوصول إلى ثواب الله ورضاه لا ينال بالأماني وإنما بالإيمان والعمل الصالح . وقد عمل القرآن على علاج هذه الأماني الباطلة من خلال بيان حقيقتها ، والكشف عن مصدرها ، ومن ثم اجتثاثها من جذورها ، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي :

أولاً . بيان حقيقتها .

فهي رجاء كاذب لأنه مبتور عن العمل الصالح ، وقد فرق القرآن بينه وبين الرجاء العقائدي فالتمني يكون مع الكسل، ولا يسلك صاحبه طريق الجد، والاجتهاد. والرجاء يكون مع بذل الجهد، وحسن التوكل . فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها، ويأخذ زرعها . والثاني: كحال من يشق أرضه، ويفلحها، ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع . فالرجاء لا يصح إلا مع عمل ، وأما ترك العمل، والتمادي في الذنوب؛ اعتماداً على رحمة الله، وحسن الظن به عز وجل فليس من الرجاء في شيء. بل هو جهل، وسفه، وغرور؛ فرحمة الله قريب من المحسنين لا من المفرطين المعاندين المُصِرِّين. وهذا شأنهم التمادي في الذنوب؛ اتكالاً على سعة رحمة الله ومغفرته، وقد تعلقو بنصوص الرجاء، واتّكلو عليها [204] . لذلك فقد وضع سبحانه ضابط لحسن الظن به و لم يترك الأمر للعابثين بدينه ، الذين يريدون أن يتحللوا من الالتزامات والتكاليف الشرعية التي طالبهم الله تعالى بها ، ومن ثم يميعوا دين الله لأن أهوائهم أعظم في نفوسهم من دينه تعالى ، لذا فإن حسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة فقط ، وأما على انعقاد أسباب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[203] - راجع : تفسير الطبري 229/9، وتفسير الرازي 389/5 ، وتفسير البقاعي 270/2 ، وأيسر التفاسير 301/1 ، وتفسير ابن عاشور 4/41-43 ، وتفسير الشنقيطي 344/1 ، وتفسير طنطاوي 1079 ، وتفسير الظلال 243/2

[204] - أنظر : ابن القيم ، مدارج السالكين ، 35/2

الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن . ومن ثم لا ينفع هذا المتمني على الله رحمته ومغفرته ، وهـذا مـا قطعت به النصوص في قوله تعالى : { وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (168) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (169) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } [الأعراف: 178-170]. وقال تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّـنْ هَـدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَـالِحًا فَأُولَئِـكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا } [مريم: 58-60].

وعليه فإن النصوص بينت بوضوح لا لُبس فيه بين التمني والرجاء ، فالرجاء صاحبه يقدم بين يديه سببا , بخلاف التمني فصاحبه يريد شيئا بلا سبب , وقال الحسن البصري: إن الإيمان لـيس بالتحلي ولا بالتمني , إن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل [205] . لذلك فإن قولـه تعـالى :{لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً } جاءت حاسمة وقاطعة في الرد على أولئك الذين يريدون تميع الدين والتحلل من تكاليفه والهروب من تحمل تبعاته. فالعبد إذا استغرق في الأماني بدون ضابطٍ من شرع وعجز عن تحقيـق الأمنية , حسد من فوقه , وتعالى على من تحته وربما وقع في البغي . كما حصل لأهل الكتاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قوله تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } [النساء: 54]. وقال تعالى : { بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِـنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ } [لبقرة: 90]. فالأماني تورث عدم

---

[205] - ابن أبي شيبة"المصنف"(35218/7)

الرضى والسخط على أقدار الله عز وجل عند من لا إيمان له , بخلاف المؤمن الذي يعلم أن تقدير الأمور من عند الله سبحانه , وأن العبد لا ينال من الدنيا إلا ما قُدر له [206].

والأماني تنقسم إلى محمود ومذموم. فما كان من أمر الآخرة فهو محمود ؛ لأن العبد لن يبلغ الجنة بعمله . فهو يتمنى فوق عمله بعد استيفاء الأسباب التي أمر الله بها , فطمع في رحمة الله ؛ فتمنى مالا يبلغه عمله , فإن العبد إذا تمنّ على الله فليستكثر , فإن الله لا يعجزه شيء ؛ فخزائن السماوات والأرض بيده ؛ وهو سبحانه وتعالى له الآخرة والأولى ؛ يؤتي العبد فوق ما يتمنى كما قال تعالى : { وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم: 34]. فأخلص عملك لله ثم تمنّ ممن بيده الآخرة والأولى , وتمنّ ممن الخلق جميعا فقراء إليه , وهو الغني , ففي الحديث القدسي يقول رب العزة : " يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر " [207]. وعنه صلى الله عليه وسلم : " يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ , وَقَالَ : أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ " عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ , وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ ؛ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ [208].

وما كان من الأماني في أمر الدنيا!فإن كان عونا على الآخرة فهو محمود , وإن كان من أمر الدنيا محض فهو سفه , ونقص في العقول فإن الدنيا والآخرة ضرتان إن انشغل بواحدة أضر بأختها , ثم لن يأتيه مما تمنى إلا ما قُدِّر له , قال تعالى : { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } [يونس: 24]. وتأمل في قوله تعالى :{حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا} أي وصلوا إلى قمة الغفلة عن

[206] – راجع : ابن القيم ، مدارج السالكين 2/35-36 ، فتحي الدريني ، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي ج2 / 509-570 ، د. الشاهد محمد البوشيخي : نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية المعرفة ، ص18 ، علي بن نايف الشحود ،التمني ، موسوعة البحوث والمقالات العلمية ص1-9

[207]– أخرجه مسلم في صحيحه برقم (6737)

[208] – (22) البخاري(7411)مسلم(993)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الله , واغتروا بما في أيديهم من أسباب , ونسوا موجدهم , وفرحوا بما عندهم , وبينما هم كذلك بهتهم أمر الله , كما قال تعالى: { أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ} فأذهبهم الله عز وجل , وأذهب ما بأيديهم . فالتمني المحمود هو التطلع إلى رضى الله والجنة مع أخذ الأسباب بما أمر الله به. قال تعالى : { وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً } [الإسراء: 19].

والأماني منها ما يتحقق ومنها ما لا يتحقق : فأما الأماني التي تتحقق : فهو إذا عجز الإنسان عن العمل مع أخذ أسبابه , ثم تمنى لو قدر على العمل أن يأتيه ؛ أعطاه الله أجره ؛ كما نص عليه حديث أنس رضي الله عنه : " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ : إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ ، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ "[209]. وكذلك حديث أبي كبشة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا , وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ : لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ , فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ " فهذه الأماني إن لم تتحقق في الدنيا , يأخذ صاحبها الأجر في الآخرة لصدق نيته .

وأما الأماني التي لا تتحقق : وهو تمني الرجوع إلى الدنيا مرة أخري ! ليدرك ما فاته في الحياة من عمل صالح , ومن قربة إلى الله , وهذا حاله كما وصفه سبحانه وتعالى : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [المؤمنون: 99-100]. وانظر إلى الجواب : { كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا} فلا تنفع الأماني ولا يفيد الندم .

فالعاقل كلما راودته أمنية عرضها على شرع الله ؛ فإن كانت لله فزينها بالإخلاص والعمل , وإن كانت لغير الله ؛ فأغلق عنها قلبه وعقله , وطرحها جانباً , لأنها من مصائد الشيطان ، وهوى النفس ، ولأنها تعطل سيره إلى الله . وتخرجه عن واقع حياته ، وتجعله يغفل عن حقائق الوجود وسننه الجارية ، ومن ثم كان الانشغال بها والاستجابة لها مهلكة عظيمة في الدين والدنيا. فربما يؤمل الإنسان بطول العمر ويتسلى بالأماني فإذا بحبل الأمل قد انصرم وبناء الأماني قد انهدم[210].

---

209 - رواه البخاري في صحيحه برقم (2839)

210 راجع : ابن القيم ، مدارج السالكين ، 35/2 د. الشاهد محمد البوشيخي ، نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية المعرفة ، ص18 ، علي بن نايف الشحود ،التمني ، موسوعة البحوث والمقالات العلمية ص1-9

ثانياً : الكشف عن مصدرها .

إن التمني هو من شيم المفلسين , ومن طباع البطالين , مما يرد من الخطرات والفكر, فإما وساوس شيطانية , وإما أماني باطلة , وخدع كاذبة , بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكارى , والمحشوشين , والموسوسين , فهذا هو الباطل بعينه ، فصاحبه لا نال لذةً في الدنيا , ولا نعيماً في الآخرة . وهذه الأماني ترجع إلى ثلاثة أمور :

1. الاغترار بوعد الشيطان . 2. الاستهواء النفسي . 3. الظنون الكاذبة .

1. **أما كون مصدرها هو اغترار الشيطان.** فقد بين سبحانه في كتابه حال الشيطان في غرس هذه الآفة في النفس ، في قوله تعالى : { وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } [النساء: 118-120]. وذلك لأن دخول الضرر والمرض في الشيء يكون على ثلاثة أوجه : التشوش، والنقصان، والبطلان، فادعى الشيطان لعنه الله إلقاء أكثر الخلق في مرض الدين وضرره ، هو قوله: { وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ } ثم إن هذا المرض لا بد أن يكون على أحد الأوجه الثلاثة وهي: التشوش والنقصان والبطلان، فأما التشوش فالإشارة إليه بقوله : { وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ } وذلك لأن صاحب الأماني يشغل عقله وفكره في استخراج المعاني الدقيقة والحيل والوسائل اللطيفة في تحصيل المطالب الشهوانية والغضبية، فهذا مرض روحاني من جنس التشوش، وأما النقصان فالإشارة إليه بقوله : { وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ }. وذلك لأن بتك الآذان نوع نقصان، وهذا لأن الإنسان إذا صار مستغرق العقل في طلب الدنيا، صار فاتر الرأي ضعيف الحزم في طلب الآخرة، وأما البطلان فالإشارة إليه بقوله: { وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ } وذلك لأن التغيير يوجب بطلان الصفة الحاصلة في المدة الأولى، ومن المعلوم أن من بقي مواظبًا على طلب اللذات العاجلة، معرضًا عن السعادات الروحانية، فلا يزال يزيد في قلبه الرغبة في الدنيا والنفرة عن الآخرة، ولا تزال تتزايد هذه الأحوال إلى أن يتغير القلب بالكلية فلا يخطر بباله ذكر الآخرة .

2. **وأما كون مصدرها الاستهواء النفسي.** فقد بين ذلك في قوله تعالى : { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [الحديد: 13-14]. فالأماني بحر المفاليس , وأن المتمني قاصر العقل , ضعيف الدين , ينظر إلى الحياة بمنظار قاصر ؛ فإذا عاين أهل الأماني الحقيقة ندموا على استغراقهم في الأماني وحرموا النور يوم القيامة , بخلاف أهل الإيمان ، وقد بيّن عليه الصلاة والسلام أصل هذه الأماني وأثرها السلبي على واقع الإنسان وحياته ، بقوله : «الكيس مَن دَان نَفْسَه وعمل لما بعد الموت، والعاجِز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» [211].

ومن خلال التأمل في هذا الحديث نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار إلى أسباب ضعف الخوف من الله وقصوره ، وهي ترجع إلى أمرين : 1. اتباع الهوى. 2. الأماني الباطلة. كما بين الحديث طريقة العلاج لهذه الأسباب التي تضعف أثر الخوف من الله وتؤدي إلى القصور والعجز من خلال الصورة الأخرى في الحديث وهي التي تمثل حالة التعقل والكياسة وهما أمران: 1. إدانة النفس ومخالفة أهوائها. 2. ذكر الميعاد وما فيه من وعيد . قال عمر: " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وطالبوها بالصدق في الأعمال قبل أن تطالبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا وتزينوا للعرض الأكبر " [212]. وعليه فإننا نلاحظ في ضوء هذا الحديث النبوي الشريف أن منشأ هذه الأسباب والعلل التي أدت إلى ضعف أثر الخوف من الله وأورثت القصور والعجز ترجع إلى:

- أسباب فكرية ناشئة عن: الظنون الكاذبة أو الغفلة والنسيان.
- أسباب نفسية ناشئة عن: إتباع الهوى أو الأماني الخادعة، أو الأمن من مكر الله .

وهذه طريقة القرآن في معالجة هذه الانحرافات العقدية حيث يكشف عن المؤثرات الفكرية والنفسية التي نشأ عنها هذا الانحراف ومن ثم يعمل على معالجتها من جذورها ، حيث يبدأ بتصحيح مسار التفكير الاعتقادي ،ثم يصوب من خلاله المشاعر النفسية ، لأن صحة المعتقد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[211] - رواه أحمد في مسنده ج4/ ص124 رقم (17164) واخرجه الترمذي في سننه برقم (2459) وقال هـذا حـديث حسن ، وقال الشيخ الألباني : ضعيف ، وقال : شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف لضعف أبي بكر بن أبي مريم وباقي رجـال الإسناد ثقات ،

[212] - أنظر : الجامع الصحيح سنن الترمذي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، تحقيق : أحمد محمد شـاكر وآخـرون 4/ 638 ، ح (2459)

يؤدي إلى سلامة الممارسة الإيمانية . ومثال ذلك : إن التفلت من التكاليف وعدم الالتزام بأحكام الله وشريعته، هو انحراف ناشئ عن انحراف فكري لمفهوم رحمة الله تعالى، ينشأ عنه انحراف نفسي من الرجاء الكاذب الذي هو ضرب من الأماني الخادعه ، والاغترار والأمن من مكر الله وبطشه وانتقامه، فعالج القرآن هذا بتصحيح الانحراف الفكري لمفهوم رحمة الله تعالى ، وهو أن رحمة الله اختصها للمتقين وإن عذابه توعد به العصاة، وأنه ليس عند الله عزيز مع المعصية. ليصوب توجهات المشاعر النفسية من الرجاء الصادق والخوف من الله وعدم الاغترار والأمن من عذاب الله، مم يؤدي إلى طاعة الله تعالى واجتناب معصيته ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة: 80-81]. وقوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [آل عمران: 23-24]. لاحظ كيف أشار القرآن إلى منشأ الخلل والانحراف السلوكي من التفلت من تطبيق شريعة الله، والذي يرجع في حقيقته إلى انحراف فكري من الظن الكاذب الذي أورث الأمن من عذاب الله وعدم الخوف من وعيده لقوله تعالى : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ } . وهذا الانحراف قد استشرى في الأمة مما أدى إلى تميع الالتزام الأخلاقي والتفلت من التكاليف، بسبب الظن الكاذب والأماني الخادعة في رجاء رحمة الله تعالى من غير الأخذ بأسبابه من العمل الجاد المثمر مصداقا لقوله عز وجل : { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأعراف: 169]. فرحمة الله خصها الله عزوجل للمتقين قال تعالى : { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ } [الأعراف: 156]. فبين سبحانه الطريق الصحيح لرجاء رحمته الله تعالى، وهو المقرون بالعمل الصالح ، وليس بدعوى الانتساب إلى الله والقرب منه كما هو الحال عند كثير من المسلمين الذين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اتبعوا طريق أهل الكتاب كما في قوله تعالى : { وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [لبقرة: 111-112]. فالانحراف العقدي منشأه انحراف فكري أو نفسي بالضرورة ، وقد عمل القرآن على علاجه من منابعه حيث عمل على تخلية القلب من هذه الأماني الكواذب ليقبل على الله راجياً خائفاً يدفعه الأمل والبشرى إلى سلوك طريقة الاستقامة ويحجزه الخوف والنذارة من سلوك طريق الانحراف ليكون مقبلاً على الطاعات مدبراً عن المعاصي [213].

3. **وأما كون مصدرها الظنون الكاذبة** . فهذا ما سوف نبينه في البحث الذي يليه .

ب. التخلي عن الظنون الكاذبة .

إن العقيدة يجب أن تكون حقائق يقينية ، وأن يكون التصديق بها تصديقاً جازماً منافيا للشك والظن والوهم مصداقا لقوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا } [الحجرات: 15]. وعلى هذا فلا بد أن يكون دليل العقيدة يقينياً أي دليلاً قطعياً ، لأن العقيدة قطع وجزم ويقين، وهذا لا يتحقق إلا بالدليل القطعي، ولهذا لا بد أن يكون قرآنا أو حديثاً متواتراً، وأما الظن فلا يوصل إلى اليقين والحق ، بل هو مجرد هواجس وتخمينات وأوهام، ولقد عالج القرآن ذلك على النحو الآتي :

1. **التثبت والتبين والتجرد في طلب الحق واليقين** . ومن الشواهد في قصة إبراهيم عليه السلام على ذلك ، نذكر منها :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } [الأنعام: 75].

والرؤية هنا المقصود بها الانكشاف والمعرفة . فتشمل المبصرات والمعقولات التي يستدل بها على الحق . أي : هو أن يرى ملكوت السموات والأرض فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى

---

[213] – راجع : زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، ص365-366

وقدسه وعلوه وعظمته . ومعلوم أن رؤية الربوبية إنما هي برؤية دلائلها وآثارها ، ليستدل بها ليكون من الموقنين، وهذه الإراءة قد تحصل وتصير سبباً لمزيد الضلال كما في حق فرعون قال تعالى : { وَلَقَدْ أريناه ءاياتنا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وأبى } [طه : 56] . وقد تصير سبباً لمزيد الهداية واليقين . فلما احتملت الإراءة هذين الاحتمالين قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : إنا أريناه هذه الآيات ليراها ولأجل أن يكون من الموقنين لا من الجاحدين . أي من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى ، والعلم به علما كاملا لا يقبل الشك بأنه على الحق وأن مخالفيه على الباطل . واليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل ، وهذا لا يقتضي سبق الشك كما هو حال إبراهيم عليه السلام ، والموقن هو العالم علما لا يقبل الشك وهو الإيقان . والمراد الإيقان في معرفة الله تعالى وصفاته . واعلم أن الإنسان في أول ما يستدل فإنه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجوه فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سبباً لحصول اليقين وذلك لوجوه : الأول : أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثر وقوة فلا تزال القوة تتزايد حتى تنتهي إلى الجزم . الثاني : أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكة فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد جار مجرى تكرار الدرس الواحد ، فمعلوم أن كثرة التكرار تفيد الحفظ المتأكد الذي لا يزول عن القلب . الثالث : أن القلب عند الاستدلال يحصل له نور من ذلك الاستدلال المستفاد من الدليل الأول ، فإذا حصل الاستدلال الثاني امتزج نوره بالحالة الأولى ، فيصير الإشراق واللمعان أتم . فالعبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى [214]. فإن الإنسان إذا تجرد في طلب الحقيقة ، وسار في خطواتها المنهجية ، فإنه يصل إلى المعرفة اليقينية بوحدانية الله تعالى ، وفي ذلك يقول سبحانه : { قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ } [سبأ: 46]. بمثل هذه الفطرة السليمة ، وهذه البصيرة المفتوحة؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق ، يصل الإنسان إلى الحق عن علم ويقين ، وهذا إبراهيم هو نموذج من هذه الحالة ، التي لا تخضع لمنطق العادة والكثرة والتقليد ، بل يستخدم هذه الطاقة العقلية التي أكرم الله بها الإنسان ، ليكتشف الآيات المبثوثة في صحائف الوجود ، فيتصل قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل

---

[214] – راجع : تفسير الطبري 475/3 ، وتفسير الرازي 6/ 342- 343 ، اللوسي5/ 393 ، وتفسير طنطاوي ، 1485 ، وتفسير ابن عاشور ،

الهدى في هذا الكون العجيب . ليصل إلى اليقين الذي لا يقبل الشك ، فهذا هو طريق الفطرة البديهي العميق . وعي لا يطمسه الركام . وبصر يلحظ ما في الكون من عجائب صنع الله . وتدبر يتبع المشاهد حتى تنطق له بسرها المكنون . وهداية من الله جزاء على الجهاد فيه . و كذلك سار إبراهيم في هذا الطريق فوجد الله . وجده في إدراكه ووعيه ، بعد ان كان يجده فحسب في فطرته وضميره . ووجد حقيقة الألوهية في الوعي والإدراك مطابقة لما استكن منها في الفطرة والضمير ، وهذه الطريقة انتقل إبراهيم عليه السلام من درجة الإنكار على عبادة الالهة الزائفة ، إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق [215]. وفي هذه الآية دليل على أن قضايا الإيمان والعقيدة لا بد أن تكون أدلتها قطعية وحقائقها يقينية ، بحيث تفيد العلم اليقيني المؤدي إلى التصديق الجازم المنافي للظن والوهم والشك، مصداقا لقوله تعالى : { ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: 2]. وأما الظن وما دونه فلا يصلح دليلا لليقين ويستحيل أن يحدث جزما . وقد بين إبراهيم مصدر ضلال قومه وهو أنه يستند إلى الوهم والكذب والباطل كما في قوله تعالى : { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا } [العنكبوت: 17]. وقوله : { أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ } [الصافات: 86]. كما بين سبحانه ذلك في كتابه بقوله تعالى : { وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [يونس: 66]. وعلى هذا لا بد أن يكون دليل العقيدة يقينيا أي دليلا قطعيا، لأن العقيدة قطع وجزم ويقين. وهذا لا يتحقق إلا بالدليل القطعي, سواء في المعقولات أو المنقولات . فالجزم في المعقولات يقتضي إقامة الدليل العقلي القاطع عن طريق الإدراك الحسي والعقلي ، بما ينتفي به الظن وما دونه ، فإذا تحقق الجزم بطريق المعقول وجب التصديق اليقيني ، وأما الجزم في المنقولات فهو يقتضي إقامة الدليل ألنقلي القاطع عن طريق الوحي الصادق بما ينتفي بهما الظن وما دونه ، فإذا تحقق الجزم بطريق المنقول وجب التصديق اليقيني المؤدي إلى التسليم المطلق بمقررات الوحي من غير منازعة [216].

2. **النهي والزجر عن إتباع الظن** . ومن الشواهد في قصة إبراهيم عليه السلام على ذلك ، نذكر منها :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[215] - راجع : تفسير الظلال ، 88/3

[216] - المرجع السابق، ص 89 ـ90

* **الشاهد :**

قال تعالى : { وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَئِفْكًا آَلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } [الصافات: 87].

يذكر سبحانه موكب الإيمان المتصل الحلقات من نوح إلى إبراهيم خليل الرحمن ، مبينا أهم الصفات التي ينبغي أن تتوفر فيمن ينتمي لهذا الموكب الإيماني ، وهو سلامة القلب ، فناسب ذكر هذه الصفة في إبراهيم عليه السلام إذ جاء ربه : { بقلب سليم } . أي : مخلص من الشرك والشك والالتفات إلى غير الرب تعالى . وقد جمع في هذه العبارة جوامع كمال النفس وهي مصدر محامد الأعمال . وفي الحديث " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب "[217]. وقد حكي عن إبراهيم قوله : { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء: 88-89]. فكان عماد ملة إبراهيم هو المتفرع عن قوله: (بقلب سليم) وذلك جماع مكارم الأخلاق ولذلك وصف إبراهيم بقوله تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ } [هود: 75]. فكان منزها عن كل خلق ذميم واعتقاد باطل .

وهذه الفطرة السليمة هي التي جعلت إبراهيم يقول لأبيه وقومه في استنكار شديد : { ماذا تعبدون } . سألهم عن جنس معبوداتهم ثم وبخهم على عبادة الأصنام فلو كان في قلبه أدنى التفاتة إلى غيره طمعاً أو خوفاً ما أمكنه أن يقول الذي قال بل كان في تلك الساعة سليم القلب ليس فيه نظر لغير الله تعالى . ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخا آخر فقال لهم : { أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ } والإفك أسوأ الكذب . أي أكذباً تريدون آلهة غير الله حيث جعلتموها بكذبكم بألسنتكم آلهة وهي أحجار وأصنام. وجعلت الآلهة نفس الإفك على سبيل المبالغة . أي : أتريدون إفكا آلهة دون الله؟ إن أرادتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم . فإن ما تعبدون ليس من شأنه أن يعبد ، ولا أن يكون له عابدون! وما يعبده الإنسان في شبهة من حق . إنما هو الإفك المحض . والافتراء الذي لا شبهة فيه . وما هذا إلا بسبب فساد التصور عن الله فهو الذي

217 - رواه البخاري في صحيحه برقم (52) ومسلم في صحيحه (1599)

يهبط وينحرف بالفطرة إلى هذا المستوى . لذلك فرع على استفهام الإنكار استفهام آخر وهو قوله: { فما ظنكم برب العالمين } فكان هذا الاستفهام متفرع عما قبله وهما للإنكار الأول والثاني . فالأول أنكر عليهم اتخاذهم آلهة دونه تعالى . والثاني أنكر عليهم سوء ظنهم بالله حتى عبدوا آلهة غيره . فهي كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة ، وهي تطلع على الأمر البين الذي يصدم الحس والعقل والضمير . وأريد بالظن الاعتقاد الخطأ . وسمي ظنا لأنه غير مطابق للواقع و لم يسمه علما لأن العلم لا يطلق إلا على الاعتقاد المطابق للواقع . وقد كثر إطلاق الظن على التصديق المخطئ والجهل المركب ، كما في قوله تعالى : { إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام: 116]. وقوله : { وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } [يونس: 36]. وقول النبي صلى الله عليه و سلم " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث "[218]. ولما كان الظن من أفعال القلب فتعديته إلى اسم الذات دون إتباع الاسم بوصف متعينة لتقدير وصف مناسب . وقد حذف المتعلق هنا لقصد التوسع في تقدير المحذوف بكل احتمال مناسب تكثيرا للمعاني ، ويجوز أن تعتبر من ذات رب العالمين أوصافه . ويجوز أن يعتبر منها الكنه والحقيقة . فاعتبار الوصف على الوجهين :

أحدهما : المعنى المشتق منه الرب وهو الربوبية وهي تبليغ الشيء إلى كماله تدريجا ورفقا فإن المخلوق محتاج إلى البقاء والإمداد وذلك يوجب أن يشكر الممد فلا يصد عن عبادة ربه فيكون التقدير : فما ظنكم أن له شركاء وهو المنفرد باستحقاق الشكر المتمثل في العبادة لأنه الذي أمدكم بإنعامه .

وثانيهما : أن يعتبر فيه معنى المالكية وهي أحد معنيي الرب وهو مستلزم لمعنى القهر والقدرة على المملوك فيكون التقدير : فما ظنكم ماذا يفعل بكم من عقاب على كفرانه وهو مالككم ومالك العالمين .

وأما جواز اعتبار حقيقة رب العالمين وكنهه . فالتقدير فيه : فما ظنكم بكنه الربوبية فإنكم جاهلون الصفات التي تقتضيها وفي مقدمتها الوحدانية . وحاصل المعنى : في قوله: { فما ظنكم برب العالمين } أنه استفهام توبيخ وتحذير وتوعد ، أريد به الإنكار والتوقيف على الخطأ . فهو إنكار ما يوجب ظنا فضلا عن قطع يصد عن عبادته . فإن ظنهم السيئ في جانب رب العالمين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[218] - صحيح البخاري رقم (4849) و صحيح مسلم (2563) .

هو جهل منكر . فنبههم بذلك على أنه ليس كمثله شيء . أي : فأي شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رباً للعالمين أشككتم فيه حتى تركتم عبادته سبحانه بالكلية أو أعلمتم أي شيء هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه سبحانه وتعالى . أو أي شيء ظنكم بعقابه عز وجل حتى اجترأتم على الإفك عليه تعالى ولم تخافوا عقابه ، إذ عبدتم غيره ، فالمقصد على المعنى الأول : تعظيم لله وتوبيخ لهم على الذي ظنوه برب العالمين، من النقص حتى جعلوا له أندادا وشركاء . وعلى الثاني : تهديد وتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا فى عبادتهم لغيره تعالى ، فإنه قد توعدهم أنه سوف يحاسبهم على ذلك حسابا عسيرا ، ويعذبهم عذابا أليما ، وما دام الأمر كذلك فخير لهم ترك عبادة هذه الآلهة الزائفة [219].

وعلى هذا فإنه لا يجوز إتباع الظن في العقيدة ، وقد جاءت الآيات في معرض الذم والنهي عن إتباع الظن ، قال تعالى : { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } [النجم: 23]. قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } [الحجرات: 12]. وقال تعالى : { وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } [النجم : 28]. وقد اعتبر سبحانه أن الضلال هو الكفر الحاصل من إتباع الظن، قال تعالى : { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام: 116]. وهذه الآيات التي تنهى عن إتباع الظن متعلق موضوعها في العقائد دون الأحكام الشرعية فهي مستثناة من عموم الآيات التي تنهي عن إتباع الظن .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[219] - تفسير الرازي 132/13، وتفسير القرطبي 92/15، وتفسير الألوسي 153/17، وتفسير النيسابوري 351/6، وتفسير الخازن 264/5، وتفسير البضاوي 17/1، وتفسير ظلال 185/6، وتفسير ابن عاشور 131/12-132، وتفسير التسهيل لعلوم التنزيل 428/2، وتفسير البحر المحيط 304/9 ، وتفسير السعدي 705، ايسر التفاسير 379/3، وتفسير طنطاوي 3577 .

3. **بيان آثاره السيئة وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة** . ومن الشواهد في قصة إبراهيم عليه السلام على ذلك ، نذكر منها :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } [الأنعام: 77].

وقال تعالى : { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنعام: 81].

لقد قدم إبراهيم عليه السلام الميزان الصحيح لحقيقة الأمن بقوله { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ } فبين أسبابه وطرق تحصيله في قوله تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ } [النعام: 82]. فمن أسباب الأمن هو الإيمان بالله تعالى ، وطريق تحصيله هو الهدى المنافي للضلال ، بقوله: { وَهُم مُّهْتَدُونَ } . وهذا الضلال حاصل من إتباع الظن، كما في قوله تعالى : { وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ } [الأنعام: 116]. وهذا ما أكد عليه إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: { فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } [الأنعام: 77]. وهو في هذه الآية أضاف الهداية إلى الله تعالى مما يدلُّ على أن الهداية ليست إلاَّ منه وحده ، فهو المصدر الحقيقي الذي يهدي للحق ، وكل طريق للهداية من عند غيره هو تيه وضلال .

فقد استدل إبراهيم على بطلان كون القمر إلهاً بنفي العلم عنه وإثبات الجهل له بأفوله وغيابه ، لأن الذي يغيب لا يرجى منه الهداية بحال ، لذلك ناسب عند أفوله، قوله:{ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } وهو حين نفى ربوبيتها بالأفول فقد نفى ربوبيتها بعدم حصول الهداية منها مطلقاً ، ومن ثم أثبت الربوبية لخالقه وحصر حصول الهداية منه وحده [220] . فمن الآثار السلبية للظن هو التيه والكفر والظلال والبعد عن الحق والهدى والإيمان ، ومن لم يحقق

---

[220]- راجع : تفسير الرازي 344/6 ، تفسير ابن عاشور 2/5 ، وتفسير طنطاوي 1484

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإيمان فهذا قد حُرِم الأمن والأمان والطمأنينة في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } [آل عمران: 151]. فهذا الرعب وفقدان الأمن هو بسبب شركهم بالله الذي لا يستند على دليل وإنما هو الظن والشك والوهم ، فهُمْ في الدنيا وَجِلُونَ من سخط الله ، وفي الآخرة ينتظرهم عذاب أليم ، وهذا كقول إبراهيم:{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} .

فإنه عليه السلام قد وضع ميزان الخوف القائم على التوحيد الخالص المنزه عن الشرك وذكر ما يقابله من ميزان الأمن القائم على الدليل والمستند إلى العلم ، ثم بيَّن أصول الأمن وأعظم أسبابه ، وأن أساسها الإيمان بالله وعدم الظلم ولذلك قال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} فإن العبد إذا آمن بالله عز وجل والتجأ إليه وامتنع عن المظالم كان حريا بوقاية الله وحفظه تعالى ، وأما من أعرض عن دينه وخالف منهجه فقد توعده بالخوف والشقاء الدائم في الدنيا والآخرة ، كقوله : { وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } [آل عمران : 154]. قال قتادة عن هذه الطائفة هم : " المنافقون ليس لهم همّ إلا أنفسهم أجبن قوم وأرهبه وأخذله للحق يظنون بالله غير الحق ... إنما هم أهل شك وريبة في أمر الله " [221]. فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : { ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ } ظن أهل الشرك[222].

وقد ذكر سبحانه مبلغ الجبن والخور في قلوب المنافقين والكفار ، لدرجة أن خشيتهم من المسلمين اشد من خشيتهم لله تعالى . كقوله تعالى : { لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ } [الحشر: 13-14]. فقوله : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ } تعليل لسبب جبنهم وخوفهم ، أي : أنتم أشد رهبة فى قلوبهم من الله بسبب أنهم قوم لا يفقهون الحق ، ولا يعلمون شيئا عن عظمة الله سبحانه وجلاله وقدرته .

---

221 - أخرج الطبري الرواية برقم (8086)

222 - أخرج الطبري الرواية برقم (8086) (8089 ، 8090)

فالآية تقرر حقيقة راسخة في نفوس المنافقين وأشباههم ، وإن كانوا يحاولون إخفاءها وسترها ، وهي أن خشيتهم من الناس أشد من خشيتهم من الله تعالى . ثم يقرر سبحانه حقيقة أخرى ، أيدتها التجارب والمشاهد الواقعية ، وهو أن هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين ، لا يقاتلون المسلمين مجتمعين كلهم في موطن من المواطن إلا في قرى محصنة بالخنادق وغيرها ، أو يقاتلونكم من وراء الجدران التي يتسترون بها ، لأنهم يعجزون عن مبارزتكم ، وعن مواجهتكم وجها لوجه ، لفرط رهبتهم منكم .

قال ابن كثير : " يعنى أنهم في جبنهم وهلعهم ، لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام ، بالمبارزة والمقاتلة ، بل إما في حصون ، أو من وراء جدر محاصرين ، فيقاتلونكم للدفع عنهم ضرورة "[223]. واسم الإشارة في قوله : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ } يعود إلى ما سبق ذكره ، من شدة عداوتهم فيما بينهم ، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم . أي : ذلك الذي ذكرناه لكم من شدة بأسهم فيما بينهم ، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم ، سببه أنهم قوم لا يعقلون الحق والهدى والرشاد . وإنما هم ينساقون وراء أهوائهم وظنونهم بدون إدراك للعواقب أو للفهم الصحيح[224]. وقد ذكر سبحانه من الآثار السيئة للظن في قوله تعالى : { وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ } [فصلت: 23]. والظن هو طريق الشبهات واتهام الأبرياء زوراً وبهتاناً قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } [الحجرات:6].

فقد ربط سبحانه في كتابه العزيز الأمن بالتوحيد وفقدانه بالشرك . ومن ثم فإن كل محاولة لتحقيق الأمن خارج منهج الله هي غفلة عن السنن التي جعلها تعالى الطريق للوصول للأمن والسعادة[225]. وهكذا نجد أن القرآن قد عالج الظنون الكاذبة من خلال الكشف عن أسبابها ، وتتبع جذورها واجتثاثها من أصولها، ثم عمل على بناء التصور الصحيح للعقيدة المبني على اليقين، ولنقف على نموذج من هذه الطريقة القرآنية في معالجة هذه الظنون عند اليهود والنصارى الذين يزعمون أنهم ينتسبون إلى دين إبراهيم عليه السلام وإلى ملته ، ومن هذه الظنون هو ظنهم أن

---

[223] - تفسير ابن كثير ، 74/8

[224] - راجع : تفسير طنطاوي ، 4151-4152

[225] - راجع : د . محمد البرزنجي ، مدلولات الأمن الإسلامي ، مجلة البيان ، العدد 124 ص55 ،

النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ثم ينتهي بهم المقام إلى نعيم الجنة حسب ظنهم . كما في قوله تعالى : { قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [آل عمران: 23-24]. فبين سبحانه أن هذا الإدعاء مبني على الظن والغرور ، قال تعالى : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } [البقرة: 78]. وإن الظن لا يستند إلى دليل وإنما هو مجرد غرور ومحض افتراء قال تعالى:{وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

وبين أصل هذا الظن والغرور أنه يستند إلى ظن آخر أيضا وهو إدعائهم أنهم أولياء الله وأحباؤه كما في قوله تعالى : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } [المائدة: 18]. وهكذا نجد أن القرآن قد تتبع جذور هذه الظنون ومنشئها وعمل على اجتثاثها ، وهذه الظنون في حقيقتها مثبطة للسلوك، ومميعة لعنصر الالتزام الأخلاقي، ومضعفة لمشاعر الخوف من الله تعالى، وهي من أكثر الأسباب المؤدية للخوف القاصر، ويظهر أثرها السلبي على السلوك كما في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [آل عمران: 23-24]. فبين سبحانه أن علة تعطيلهم لكتاب الله وعدم تحكيمه في واقع حياتهم هو هذا الظن الفاسد والغرور الكاذب، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} . ولذلك نجد أن القرآن كان رده حاسماً وقاطعاً في اجتثاث جذور هذه الظنون من أصولها، وإعادة المسار الفكري الصحيح للعقيدة، فقال تعالى : { وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة : 80-82].

هكذا اجتث القرآن أصل هذا الظن الكاذب وأسس العقيدة على أساس الإيمان والعمل الصالح وليس على دعوى القربة والولاية المزعومة التي تولد عنها ذلك الظن الكاذب ، كما في قوله تعالى : { وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ } [المائدة: 18]. هذه صورة لنموذج قرآني في معالجة مثل هذه الظنون الفاسدة التي تضعف مخافة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الله في النفس ويتولد عنها الأماني الباطلة والتي تثبط السلوك وتقعد الإنسان عن القيام بواجبه اتجاه الله تعالى وإقامة منهجه في الأرض . لذلك فإنه على العبد أن يقطع الطمع في النجاة بغير عمله وكسبه ، ولا يتكل على الأماني الخادعة التي تنشأ بسبب الظنون الكاذبة ، من النسب والمحسوبية والواسطة وغير ذلك من التوهمات التي تطعن بعدالة الله ، وتخالف ما قرره على ألسنة رسله ، وما ذلك إلا لتنصل من التكاليف والواجبات وأعبائها ، وإعفاء النفس من كل الالتزامات والمسؤوليات التي أناطها الله تعالى على عباده [226].

ثالثاً. التخلي عن إتباع الهوى وطاعة الشيطان .

إن هوى النفس وغواية الشيطان من أكبر العقبات التي تمنع من تحقيق مخافة الله تعالى في القلب، وقد بين القران طريق العلاج لكل منهما ، وسوف نستعرض ذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام كيفية العلاج والتخلص منهما من أجل تحقيق مخافة الله تعالى في القلب ، الانسلاخ عن الدين كقوله تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف: 175-176]. فالهوى قد يصل بالإنسان إلى :

1. التخلي عن إتباع الهوى .

إن المتأمل في أمراض النفس يجد أنها ترجع أكثرها إلى إتباع الهوى، فالهوى في الأصل هو ميل النفس الخاطئ[227] وهو من الموانع التي تمنع فاعلية الخوف من الله في النفس، فإتباع الهوى علامة على ضعف تأثير مخافة الله في النفس وعدم استحكامها في القلب، ولخطورة إتباع الهوى وما ينشئ عنه من فساد كما في قوله تعالى : { وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ } [المؤمنون: 71]. وقد يصل إتباع الهوى بالإنسان إلى حد التأليه ، كما في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[226] - أنظر : زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني ، ص 301-302

[227]- انظر: سعيد حوى، المستخلص في تزكية الأنفس، دار عمار-بيروت، ص299.

بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [الجاثية: 23]. وقد يكون كذلك سبباً في الردة والانسلاخ عن الدين ، كما في قوله تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } [الأعراف: 176]. وهو كذلك من أسباب الصدود عن الحق وعدم الاستجابة لداعي الإيمان ، كما في قوله تعالى : { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) } [القصص: 50]. والهوى من أكبر الدواعي للوقوع في المعاصي وارتكاب الجرائم ، كما في قوله تعالى : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ } [المائدة: 30]. فالهوى من أكثر الموانع التي تمنع مخافة الله تعالى من تحقيق أثرها في حياة المسلم ، مما يترك آثاره السلبية في واقع الحياة ، وقد بيّن القرآن طرق معالجة هوى النفس ، وسنبين ذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ، ومن أبرز الشواهد على ذلك ، نذكر منها :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا } [مريم: 58-59].

لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم عليه السلام وما منحه وأعطاه ، وبما قصة من قصص الأنبياء بعده بما خصهم به ، وأعقب ذلك بقوله تعالى { أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم } وكان ظاهر الكلام تخصيص هؤلاء بهذه المناصب العلية ، والدرجات الجليلة لا سيما وقد اتبع ذلك بقوله { فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً } وهذا مظنة إشفاق وخوف ومراجعة للذات ، أمام هذه الموازنة بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم سواء من مشركي العرب وبني إسرائيل : فإذا المفارقة صارخة والمسافة شاسعة والهوة عميقة والفارق بعيد بين السلف والخلف ، والسياق يقف في هذا الاستعراض عند المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية . فآدم يشمل الجميع ، ونوح

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يشمل من بعده ، وإبراهيم يشمل فرعي النبوة الكبيرين : ويعقوب يشمل شجرة بني إسرائيل . وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين .

إن السياق يستعرض أولئك الأنبياء والصالحين وهو يمتّن بما أنعم عليهم من النبوة والهداية والاجتباء ، ومن ثم بيان حالهم في مقابلة رحمة الله وفضله عليهم ، في أعلى صور العبادة ، وهما: السجود والبكاء ، كما في قوله: { خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، وهذا من عظم خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له سبحانه . أولئك الأتقياء الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله . خلف من بعدهم خلف ، بعيدون عن الله . { أضاعوا الصلاة } فتركوها وجحدوها { واتبعوا الشهوات } واستغرقوا فيها . فما أشد المفارقة ، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء . فلما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء المخلصون المتبعون لمراضي ربهم، المنيبون إليه، ترغيباً لنا في التأسي بطريقتهم ، ذكر من أتى بعدهم من اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الذين جاءوا بعدهم ، حيث بدلوا ما أمروا به ، وفرطوا في عبادة الله واتبعوا شهواتهم فلم يخالفوا ما تميل إليه أنفسهم ممّا هو فساد ، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها ، والسبب الداعي لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم فصارت هممهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله .

ومن ثم يتهدد السياق هؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين . يتهددهم بالضلال والهلاك : (فسوف يلقون غيا } قال ابن عباس : الغي واد في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره ، وقيل معنى غياً خسراناً وقيل هلاكاً وعذاباً ، فالغي الشرود والضلال ، وعاقبة ذلك الضياع والهلاك [228]. وفى الحديث " مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِى أُمَّةٍ قَبْلِى إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ "[229].

[228]- راجع : تفسير الطبري 217/18 ، وتفسير الرازي 323/10، ، وتفسير القرطبي 11/ 121 ، وتفسير الألوسي 437/8، 18/12، وتفسير ابن عاشور 494/8-495، وتفسير الظلال 98/5-102. وتفسير طنطاوي 2787، وتفسير البقاعي 237/5.

[229] - رواه مسلم في صحيحه ، (188) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن إتباع الهوى ومخالفة النبي صلى الله عليه وسلم تورث غضب الرحمن والهلاك في الدنيا والآخرة ، ولا نجاة للإنسان إلا بمتابعة الأنبياء والرسل والتقيد بما جاءوا به من عند الله تعالى .
وقيل إن متابعة سبعة أصناف أورثت سبعة أشياء[230].

الأول. إن متابعة النفس أورثت الخسران كما قال تعالى في قتل قابيل لأخيه هابيل : { فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [المائدة: 30]. وكذلك أورثت الندامة : { قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ } [المائدة: 31].

الثاني. إن متابعة الهوى أورثت البعد عن الله ، كما وصف تعالى ذلك العالم الذي اتبع هواه : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } [الأعراف: 175– 176]. يعنى في البعد والخساسة .

الثالث. إن متابعة الشهوات أورثت الكفر كما قال تعالى في الخلف الذين بدلوا العهد وأضاعوا ميراث النبوة : { فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا} [مريم: 59]. فهذه الهلاك بسبب إضاعة الصلاة وإتباع الشهوات .

الرابع. إن متابعة فرعون أورثت الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة كما قال تعالى : { فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ } [هود: 97-98]. وهذا الحال ينطبق على كل من عرف الحق من الباطل ، وتابع الباطل مؤثراً دنياه على أخرته .

الخامس. إن متابعة القادة الضالة أورثت الحسرة كما قال تعالى : { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } [البقرة: 166-167].

---

[230] – أنظر : تفسير حقي 473/4

السادس. إن متابعة الشيطان أورثت جهنم كما قال تعالى : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ } [الحجر: 42-43].

والسابع. إن طاعة الله تعالى ومتابعة أنبيائه ورسله تورث محبته ومخافته ورجائه سبحانه تعالى ، وبهذه الثلاثة يصل المرء إلى سعادة الدارين في الدنيا والآخرة ، والنجاة من كل ما سبق ذكره ، فهذه الثلاثة هي الحصن الحصين من الضلال والهلاك ، فأما محبته تعالى فإنها دافع قوي لطاعته تعالى ومتابعة رسله ، كما فيقوله تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [آل عمران: 31]. وأما مخافته تعالى فهي من اقوي الزواجر عن ارتكاب المعاصي ، فقد كانت مانعة من جريمة القتل كما في قوله : { لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } [المائدة: 28]. وأما رجائه تعالى فهي قوة دافعة للمسارعة إلى الفضائل والطاعات والمسابقة نحو الخيرات والمكرمات ، قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ } [فاطر: 29].

وعليه فإن إتباع الهوى بعامل الاستجابة للغريزة العمياء وشهواتها، يعد من أخطر المؤثرات على انحراف النفس والسلوك ، وهو من أشد العوامل التي تعمل على تدمير كيان الإنسان وفطرته ، لذلك فقد عمل المنهج القرآني على معالجة إتباع الهوى ، سنعرضها من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ، كما يلي[231]:

أ. التعريف بالله تعالى ومطالعة صفات جماله وجلاله مما يولد في النفس الحب والإجلال لله، ويمنع النفس عن إتباع الهوى ومخالفة أمر الله، ويبث في النفس الطمع في رضوانه ورحمته وثوابه، والخوف من سخطه وعقابه، قال تعالى : { يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } [الإسراء: 57]. مع الاستعانة بالله تعالى والالتجاء إليه بطلب العون والتوفيق والهدى قال تعالى : { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة: 5-6]. وقد تجلت هذه المعاني كلها في دعاء إبراهيم عليه السلام لرب عز وجل بقوله : { رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي

---

[231]- راجع: الدكتور محمد نوح، آفات على الطريق، ج1، ص 206. زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ص326-327 .

الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41) وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } [إبراهيم: 42].

ب. التذكير بعواقب إتباع الهوى لكي تستبصر النفس سوء العاقبة وتنزجر عن إتباع الشهوات ، قال تعالى : { وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } [البقرة: 130]. هذه هي ملة إبراهيم الإسلام الخالص الصريح . لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها . متبع لهواه ، قال تعالى : { وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) } [القمر: 3-4]. فدين إبراهيم هو الدين الذي أختاره لعباده ، وأمر الجميع بإتباعه ، وكل من اتبع غير ملته ودينه ، فدينه مرفوض عند الله تعالى ، وهو داخل في الوعيد ، لقوله : { وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة : 135-137].

ج. مجاهدة النفس وحملها قسراً على التخلص من أهوائها بسلوك طريق الصبر والطاعة ، فهذا ما قاله إسماعيل لأبيه عليهما السلام في تلقي أمر الله تعالى : { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } [الصافات: 102]. وهكذا حال المؤمن في مغالبة هوى النفس يستعين بالصبر والطاعات كقوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } [البقرة: 153].

د. الانقطاع عن مجالسة أصحاب الأهواء وأهل الدنيا والإقبال على أهل الطاعة الذين يذكرونه بالله كقول إبراهيم عليه السلام لقومه : { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا } [مريم: 48]. وهذا ما وصى به تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام

بقوله : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) } [الكهف: 28].

هـ. الرجاء في وعد الله لعباده الطائعين والاستبشار مما عنده من نعيم مقيم والخوف من وعيده وإنذاره بالعذاب الشديد ، ويظهر ذلك في دعاء إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [البقرة: 126]. وقوله تعالى : { فَأَمَّا مَنْ طَغَى (37) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (38) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (39) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } [النازعات: 37-41]. نلاحظ أنه تعالى ربط بين خوف العبد من مقام الله وبين نهي النفس عن الهوى في قوله تعالى: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى }. وفي ذلك إشارة إلى ما بينهما من علاقة وثيقة فإن الخوف من مقام الله يؤدي بالإنسان إلى مخالفة الهوى، كما أن نهي النفس عن الهوى ومنعها من شهواتها يؤدي إلى مخافة الله تعالى .

وهكذا نجد أن الله تعالى قد ذم إتباع الهوى ونهى عنه في قوله : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [القصص: 50]. وقد بين سبحانه الطريق الناجع لعلاج هوى النفس . هو بمخالفتها وعدم الاستجابة إليها، كما في قوله تعالى : { فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ } [ص: 26]. إن دعوة الناس للحكم بما أنزل الله تواجه دائماً معارضة من أصحاب المصالح المادية الظالمة . وتواجه معارضة من ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال . ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها .

لذلك فإن أصحاب المصالح والنفوذ ، وأصحاب الأهواء والشهوات لا يرضون أن يسود الخير والعدل ، ويعمّ الطهر والصلاح في الأرض . قال تعالى : { يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا } [النساء: 26-27]. لذلك فقد أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يتبع شرعه ، ولا يتبع أصحاب المصالح والأهواء ، كما في قوله : { ثُمَّ

جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [الجاثية : 18]. وأنه على المؤمنين أن لا يخشوا الناس وأن لا يخافوا على مصالحهم الدنيوية في الدعوة لتطبيق دين الله والعمل على إقامة شريعته ، قال تعالى : { فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } [المائدة :44]. فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله . فالله وحده هو الذي يستحق أن يخشوه والخشية لا تكون إلا لله . فلا تغريهم الشهوات والأطماع ؛ فيتملقون لأصحاب السلطان والمال والشهوات طمعاً في عرض الحياة الدنيا ، كما يحصل من بعض علماء الدنيا . لذلك قال لهم تعالى :{ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً } فإنه ليس أشنع من خيانة العلماء لدينهم [232] .

لذلك نجد أنه تعالى ربط بين خوف العبد من مقام الله وبين نهي النفس عن الهوى في قوله تعالى : { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } [النازعات: 40-41]. وفي ذلك إشارة إلى ما بينهما من علاقة وثيقة فإن الخوف من مقام الله يؤدي بالإنسان إلى مخالفة الهوى، كما أن نهي النفس عن الهوى ومنعها من شهواتها يؤدي إلى مخافة الله تعالى .

2. التخلي عن إتباع الشيطان والاغترار بوعده .

إن الحق والباطل بينهما صراع منذ أن خلق الله الإنسان ، فيوم أن كان آدم وحواء في الجنة كان الله عز وجل قد خلقهما للابتلاء والاختبار، ولذلك قال الله عز وجل : { فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى } [طه: 117]. ومنذ تلك اللحظة ابتلي الإنسان بكيد الشيطان وخصومته وصراعه معه، وما زال الشيطان يكيد لآدم وحواء حتى أهبطا إلى هذه الدنيا، وبعد إهباطهما وإهباط الشيطان يقول الله جل وعلا : { بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [البقرة: 36]. وهنا انتقل ميدان الصراع إلى هذه الأرض، وبدأت الخصومة. ولذلك بعد هبوط آدم وحواء إلى الأرض ظلت أجيال من الناس يتوارثون الهدى والخير والإيمان عن أبيهم آدم عليه السلام حتى أثّر فيهم كيد الشيطان، فانحرفوا عن التوحيد، واندرست معالمه، فاحتاج

---

[232] - راجع : تفسير الظلال 2/ 366-378 ، وتفسير السعدي 232 وتفسير طنطاوي 1263

الأمر إلى بعثة نبي يجدد الدين والتوحيد : { فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ } [البقرة: 213]. وبعد بعثة هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام صارت الخصومة بين الرسل وأتباعهم وبين أعداء الرسل من أتباع الشيطان، يضعون العراقيل في طريقه، ويعترضون عليه بمختلف الوسائل . ولذلك يقول تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ } [الأنعام: 113]. ولما كان الشيطان بهذا الخبث والمكر شرع الله لنا كل طريق للاستعاذة منه ومن شره، والوقاية منه ومن مكره. فوضع لنا الوسائل لمحاربة الشيطان وأتباعه ، ويمكن بيان دور قصة إبراهيم عليه السلام في ذلك من خلال ذكر أبرز الشواهد على ذلك .

*** الشاهد :**

قال تعالى : { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } [مريم: 44-45].

بعد أن بيّن إبراهيم عليه السلام لأبيه عما في عبادة الأصنام من نكارة وأن المصدر الذي يستمد منه حقائق الأيمان هو من عند الله تعالى . كشف له مصدر ضلاله وهو الشيطان ، وذلك من خلال ما يلي[233]:

أ. قوله: { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } .

نهى إبراهيم أباه عن عبادة الشيطان ، لأن عبادتها جهل وانحطاط في التفكير . ومعنى عبادته للشيطان طاعته له في الكفر والمعاصي . فذلك الشرك شرك طاعة ، كما قال تعالى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بني آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعبدوني هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [يس : 60-61]. والمراد بعبادة الشيطان عبادة الأصنام؛ عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحاً عن

233 - راجع : تفسير البقاعي 205/5 ، وتفسير ابن عاشور 483/8 ، وتفسير الرازي 10/313-315 ، وتفسير البقاعي 205/5 الألوسي 11/499-500 ، الشنقيطي 486/3 ، وتفسير الظلال 99/5 ، وتفسير طنطاوي 2782 ، وتفسير السعدي 494

فسادها وضلالها ، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر ، ولكن الذين يتبعونه لا يفطنون إلى حالهم ويتبعون وساوسه تحت ستار التمويه مثل قولهم { إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون } [الزخرف : 23].

فبين له ما في عبادة معبوده من الضر فإن الأصنام ليس لها دعوة أصلاً والله تعالى قد حرم عبادة غيره مطلقاً ، فتعين أن يكون الآمر بذلك الشيطان ، فكان هو المعبود بعبادتها في الحقيقة؛ فالشيطان هو الذي يغري بعبادة الأصنام من دون الله ، فالذي يعبدها كأنما يتعبد الشيطان والشيطان عاص للرحمن .

ب. قوله: { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } .

والجملة تعليل لموجب النهي وتأكيد للنهي عن عبادته وعبادة آثار وسوسته بأنه شديد العصيان للرب الواسع الرحمة . أي لا تطع الشيطان الذي أغراك بعبادة هذه الأصنام لأنه كان للرحمن كثير العصيان ، فهو لا يهدى الناس إلى طاعة الله ، وإنما يهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه . فنفره بهذه الصفة عن القبول منه ، لأنه أعظم الخصال المنفرة ، فالاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لأنه ملاكها ، وإن إبراهيم عليه السلام لإمعانه في الإخلاص لم يذكر من جنايات الشيطان إلا كونه عاصياً لله ولم يذكر معاداته لآدم عليه السلام كأن النظر في عظم ما ارتكبه من ذلك العصيان غمى فكره وأطبق على ذهنه ، وأيضاً فإن معصية الله تعالى لا تصدر إلا عن ضعيف الرأي ، ومن كان كذلك كان حقيقاً أن لا يلتفت إلى رأيه ولا يجعل لقوله وزن . وفي اختيار وصف الرحمان من بين صفات الله تعالى تنبيهاً على أن عبادة الأصنام توجب غضب الله فتفضي إلى الحرمان من رحمته ، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يتبع . وكذلك ذكر الوصف الموجب للإملاء للعاصي فقال : { للرحمن } المنعم بجميع النعم القادر على سلبها ، ولم يقل : للجبار لئلا يتوهم أنه ما أملى لعاصيه مع جبروته إلا للعجز عنه ، وفي ذكر الرحمن كذلك في هذا المقام ، زيادة تنفير من الشيطان ببيان أنه مستعص على من شملتك رحمته وعمتك نعمته . ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص وكل من هو عاص حقيق بأن تسترد منه النعم وينتقم منه ، وللإشارة إلى هذا المعنى جيء بالرحمن . وفيه أيضاً إشارة إلى كمال شناعة عصيانه لمقابلة رحمة الله بالجحود .

ج. قوله: { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ } .

لا جرم أنه لما قرر له أن عبادته الأصنام إتباع لأمر الشيطان عصيّ الرحمان انتقل إلى توقع حرمانه من رحمة الله بأن يحلّ به عذاب من الله ، وللإشارة إلى أن أصل حلول العذاب بمن يحلّ به هو الحرمان من الرحمة في تلك الحالة؛ عبر عن الجلالة بوصف الرحمٰن للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم إنما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته مَن شأنه سعة الرحمة . وتنبيه على سبق الرحمة الغضب وإن وصف الرحمانية لا ينافي العذاب ولا يدفع حلوله كما في قوله عز وجل : { مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيم } [الانفطار: 6]. وللدلالة على أنه ليس على وجه الانتقام بل ذلك أيضاً رحمة من الله تعالى على عباده ، ومن الرحمة كذلك تحذير إبراهيم أباه من سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأصنام ، فلما بين له أنه بذلك عاص للمنعم ، خوفه من إزالته لنعمته ، شفقة عليه من نزول عذاب الرحمن بسبب إصراره على عبادة غير الله ، وفي التعبير بالخوف الدال على الظن دون القطع تأدب مع الله تعالى بأن لا يُثبت أمراً فيما هو من تصرف الله ، وإبْقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلّص من ذلك العذاب بالإقلاع عن عبادة الأوثان .

د. قوله: { فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } .

فحذره من عاقبة أن يصير من أولياء الشيطان الذين لا يختلف البشر في مذمتهم وسوء عاقبتهم. والولي : الصاحب والتابع ومن حالهما حال واحدة وأمرهما جميع؛ فكني بالولاية عن المقارنة في المصير . أي قريناً تليه ويليك في العذاب فإن الولاية للشيطان بهذا المعنى إنما تترتب على مس العذاب العظيم . وأجيب عن كون المقام مقام إظهار مزيد الشفقة وهو يأبى ذلك بأن القسوة أحياناً من الشفقة أيضاً . والمراد تفريع الثبات على حكم تلك الموالاة وبقاء آثارها من سخط الله تعالى وغضبه . وبذلك يصبح قريناً للشيطان في العذاب بالنار ، لأنه انقاد له ، وخالف طريق الحق . فقوله : { فَتَكُونَ للشيطان وَلِيّاً } يقتضي أن تكون ولاية الشيطان أسوأ حالاً من العذاب نفسه وأعظم ، والسبب لذلك: أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال : { ورضوان مّنَ الله أَكْبَرُ ذلك هُوَ الفوز العظيم } [التوبة: 72]. فوجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم . والآية تدل على أن الكفار المعذبين يوم القيامة أولياء الشيطان . والآيات الدالة على أن الكفار أولياء الشيطان كثيرة ، من ذلك قوله تعالى : { فقاتلوا أَوْلِيَاءَ الشيطان } [النساء: 76]. وقوله : { إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } [آل عمران: 175]. أي يخوفكم أولياءه . وقوله : { إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله } [الأعراف: 30]. الآية إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم . وكل من كان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشيطان يزين له الكفر والمعاصي فيتبعه في ذلك في الدنيا فلا ولي له في الآخرة إلا الشيطان . كما قال تعالى : { تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النحل: 63]. ومن كان لا ولي له يوم القيامة إلا الشيطان تحقق أنه لا ولي له ينفعه يوم القيامة .

لقد كشف القرآن عن حقيقة الشيطان ، وبيّن طرق الوقاية من كيده والاغترار بوعده .

وقد ساهمت قصة إبراهيم عليه السلام في تأكيد هذه الحقيقة ، من أجل معالجة هذا المرض الخطير وهو إتباع الشيطان والذي يعد من أكبر الموانع التي تمنع من تحقيق مخافة الله تعالى دورها في تزكية الإنسان واستقامة سلوكه ، لقوله تعالى : { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } [النساء: 20]. و يمكن أن نجملها بالنقاط التالية :

1. إثبات وجود الشيطان . وأنه حقيقة لا خيال ، ليحذر الإنسان من شره . وقد تكرر ذكره في الآيتين ثلاث مرات : { لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } . { إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } . { فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } .

2. الكشف عن طبيعة الشيطان بما فيه من كبر وفسق وعصيان لله تعالى ، كما في قول إبراهيم عليه السلام لأبيه : {إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} . وقد بيّن سبحانه كفره وفسوقه في قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } [البقرة: 34]. وقوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا } [الكهف: 50].

3. بيان دعواه الباطلة من الأمر بالسوء والفحشاء والكفر ، كقوله تعالى : { إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 169].

4. الكشف عن حقيقة عداوة الشيطان للإنسان وأنها عداوة قديمه منذ خلق الله آدم أبو البشر، وإنه لا يفتر عن محاولاته المستمرة في إغواء الإنسان وإضلاله . ومن ذلك قوله تعالى : { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (76) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) } [ص: 71-83].

5. الكشف عن طرق الشيطان وخطواته التي يستدرج بها الإنسان إلى المعاصي وتحذير الإنسان منها وهي في مجملها مداخل عن طريق (العقل) من التلبيس والخداع والإضلال والنسيان ومداخل عن طريق (النفس) من التزين والوسوسة والتمني والاستفزاز إلى غير ذلك من الخطوات التي يتبعها لإغواء الإنسان وفتنته عن إتباع طريق الحق والاستقامة، ومن ذلك قوله تعالى : { وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } [النساء: 117-120].

6. دعا القرآن الإنسان إلى الالتجاء إلى الله تعالى من كيد الشيطان وحبائله والاستعاذة منه قال تعالى : { وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأعراف: 200].

7. النهي الشديد عن إتباع خطوات الشيطان وطاعته والأمر بمخالفته وعداوته وإتباع أمر الله كما في قول إبراهيم عليه السلام وهو ينهى أباه عن عبادة الشيطان في قوله تعالى : {لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ } . وقد نهى سبحانه عباده من إتباع خطوات الشيطان وطاعته بقوله تعالى : { وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [البقرة: 168]. وقوله تعالى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ } [يس: 60-61].

8. الوعيد الشديد بسوء العاقبة وعذاب الله تعالى ' وهذا ما حذر به إبراهيم أباه من عذاب الله وأن يكون من أتباع الشيطان وأوليائه ، كما في قوله :{ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} . وإن الشيطان ليتنصل من مسؤولية غوايتهم يوم القيامة ، ويتبراء من جميع أتباعه ، كما في قوله تعالى : { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [إبراهيم: 22].

رابعاً: التخلي عن الاغترار بالنعمة والظن بدوامها وعدم تحولها .

إن الإنسان يحيط به من نعم الله ما لا يستطيع إحصاءه ، قال تعالى : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا } [إبراهيم: 34]. وقال : { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } [النحل: 53]. فهي نعم كثيرة : نعمة الخلق والرزق والهداية والعافية وغير ذلك من أنواع النعم التي لا يحصيها الإنسان، وهذه النعم من طبيعتها أنها لا تدوم للإنسان في الدنيا ، فهو إما أن يزول عنها ، وإما أن تزول عنه ، وإن الاغترار بالنعم ومن ثم الظن بأنها ستدوم ولا تزول ، من شانه أن يورث القلب الكبر الذي لا ينفع معه الحجاج ، والقسوة الذي لا يؤثر فيه المواعظ ، ومن ثم يكون هذا المرض حجاباً يعطل العقل عن معرفة الحق وهو الله تعالى ، ويجمد وجدان النفس من الشعور به سبحانه محبة وخوفاً ورجاءً .

وقد بين القران كيفية العلاج لهذا المرض القلبي ، وسوف نستعرض ذلك من خلال أبرز الشواهد في قصة إبراهيم عليه السلام .

*** الشاهد :**

قال تعالى : { وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (42) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (43) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (44) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (45) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج: 43-46].

يخبر تعالى شارحاً سنته في الأخذ والإمهال لهؤلاء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم ، أنه لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل أمهلهم وأملى لهم ، مظهراً سبحانه وتعالى حلمه في مقابلة تكذيبهم لرسله بقوله :{ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } والإملاءُ : ترك المتلبّس بالعِصيان دون تعجيل عقوبته وتأخيرها إلى وقت متأخر حتى يحسب أنه قد نجا ثم يؤخذ بالعقوبة . أي : لم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم وأمليت لهم حتى انصرمت حبال آجالهم . ثم أخذت كل فريق من فرق المكذبين بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله بعذاب ، وقوله: { فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ } بالإظهار دون الإضمار ، لزيادة التشنيع عليهم والاستفهام في قوله: { فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ } للتهويل والتعجيب . أي : لقد كان إنكارا فظيعا حول حياتهم إلى موت ، وعمرانهم إلى خراب ، وغرورهم إلى ذلة وهوان .

وبعد هذا البيان المشتمل على سوء عاقبة هذه الأمم التي كذبت رسلها أتبع سبحانه ذلك ببيان مصير كثير من الأمم الظالمة فقال : { فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ } . والمعنى : وكثير من القرى أهلكناها بسبب ظلمهم وكفرهم ، فإذا ما نظرت إليها وجدتها خالية من أهلها ، وقد سقطت سقوفها على جدرانها . وكثير من الآبار التي كانت تتفجر بالماء عطلناها وصارت مهجورة ، وكثير من القصور الفخمة أخليناها من أهلها . وذلك لأنهم كذبوا رسلنا ، وجحدوا نعمنا ، فدمرناهم تدميرا . وجعلنا مساكنهم من بعدهم أثرا بعد عين . فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الوعيد والتهديد للكفار الذين كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأعرضوا عن دعوته . ثم ينتقل القرآن الكريم من هذا التهديد الشديد ، إلى التوبيخ والتقريع لهؤلاء المشركين ، الذين لا يعتبرون ولا يتعظون فيقول : { أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا } . والاستفهام للتوبيخ والإنكار ، لأن الشأن في هذه الرؤية أن تجعل صاحبها يعتبر ويتعظ ، متى كان عنده قلب يعقل ما يجب فهمه ، أو أذن تسمع ما يجب سماعه وتنفيذه ، ولكن هؤلاء الجاهلين يرون مصارع الغابرين فلا يعقلون ، ولا يعتبرون ، ويسمعون الأحاديث عن تلك الآبار المعطلة ، والقصور الخالية من سكانها ، والمنازل المهدمة ، فلا يتعظون .

والمعنى أنه تعالى بين أن القرية مع تكلف بنائهم لها واغتباطهم بها جعلت لأجل كفرهم بهذا الوصف ، وكذلك البئر التي كلفوها وصارت شربهم صارت معطلة بلا شارب ولا وارد ، والقصر الذي أحكموه بالجص وطولوه صار ظاهراً خالياً بلا ساكن ، وجعل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر .أما قوله : { وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظالمة } فالمراد وكم من قرية أخرت إهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم أخذتهم بأن أنزلت العذاب بهم .

وقد حذر الله تعالى عباده من الاغترار بالنعم والظن بدوامها من خلال ما قصه عليهم من قصص السابقين كقوله تعالى : { كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ

(26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (28) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ } [الدخان: 25-29]. أي كم ترك فرعون وجنوده الذين هلكوا معه في البحر من البساتين والعيون الجارية ، ومنازل حسنة ونعمه عظيمة كانوا فيها ناعمين مترفين ، هكذا كانت نعمتهم فسلبها منهم لكفرهم بالله وتعاليهم على شرائعه وأوليائه ، فاغتروا بهذه النعم وظنوا أنها لا تزول عنهم ولا يزولون عنها ، وهي سنة الله في سلب النعم وإنزال النقم بمن كفر نعم الله ولم يشكرها ، فعصى ربه وأطاع هواه واتبع الشهوات ، وأعرض عن ذكر الله واقبل على ذكر الدنيا ومفاتنها .

وهذا قارون مثال واضح على أولئك الذين يغترون بما عندهم من النعم الكثيرة ويظنون دوامها وعدم زوالها ، فقد آتاه الله أموالاً عظيمة، لكنه لم يشكر لله ويعترف بفضله بل كان يدعي أنه جمعها بعلمه وقوته : { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص: 78]. فكان يختال ويتكبر على الناس بها : { فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ } [القصص: 79]. فعاقبه الله بالخسف ليكون عبرة لمن خلفه : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ } [القصص: 81]. لقد استنكر سبحانه وتعالى على من يغترّ بالنعم وينسى العقوبة أن يأخذهم على غِرّة وهم آمنون منعّمون، ثمّ ينقلهم من النعمة إلى النِّقْمة، ومن الصحة إلى الألم والمرض، ومن الوجود إلى العدم. قال تعالى : { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (97) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (98) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف: 97- 99].

فليعتبر هؤلاء المكذبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا يغتروا بحلم الله بهم ، في تأخير العذاب فيأمنوا مكره وعقوبته ، فإن الله حليم رحيم يمهل ويملي ، ولكنه شديد العذاب إذا إنتهى الأجل المحدد [234]، قال تعالى : { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [الرعد: 6]. وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه أن النّبي صلى الله

---

[234]- راجع : تفسير الرازي 127/11، وتفسير الالوسي 27/13، وتفسير الشنقيطي 274/5، وتفسير الظلال 203/5، وتفسير طنطاوي 2976-2977 ، وتفسير السعدي 540، وتفسير ابن عاشور 285/9، وأيسر التفاسير 11/3

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عليه وسلم قال : " إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ، قَالَ : ثُمَّ قَرَأَ : { وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود: 102] "[235].

ولذلك فإن العاقل هو الذي يبادر بطاعة الله تعالى قبل حلول الأجل ، ويغتنم الوقت قبل فواته ، لأنه بعد انقضاء الأجل لا ينفع الندم ، فقال : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المنافقون: 9-11].

إن الأغترار بالنعمة وظنها كرامة من الله لا ابتلاء وامتحان هو عين الجهل والغرور الذي يقود بالإنسان إلى ركون قلبه واطمئنانه من مكر الله ، قال تعالى : { فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ } [الفجر: 15]. هذا الظن هو غفلة عن تعقل سنن الله حيث يقول تعالى : { وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } [الأنبياء: 35]. وقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا } [الفرقان: 20].

إن الإنسان سواء كان في نعمة أو مصيبة فإنه في دائرة سنة الابتلاء التي قدرها الله على عباده في الدنيا، وإن الظن بأن النعمة هي كرامة يأمن بها الإنسان من مكر الله وعذابه هو محض الغرور الذي نهى ا لله عنه ونفاه عن عباده المؤمنين ووصف به الكافرين كما في قصة صاحب الجنتين ومحاورته لصاحبه ، قال تعالى : { وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (36) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (41) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (42) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (43) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا } [الكهف: 35-44]. وهو كما قال تعالى أيضاً : { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ

235 - صحيح البخاري رقم (4409) وصحيح مسلم (2583)

رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } [فصلت: 50]. وليس الأمر كذلك فإن الله تعالى قدر سنة الابتلاء لعباده بين النعمة والنقمة ليبلوهم أيهم أحسن عملاً مصداقاً لقوله تعالى : { الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ } [الملك: 2]. وقوله تعالى : { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الكهف: 7] .

وهذه السنة الإلهية لا تتخلف حتى مع الأنبياء والمرسلين ، فقد ابتلى الله تعالى خليله إبراهيم ، كما في قوله تعالى : { وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة: 124]. إن إبراهيم عليه السلام وفى بما جاء في الصحف من أوامر وتكاليف وأتمها على أحسن وجه ، فقام بجميع ما ابتلاه الله به، وما أمره من الشرائع وأصول الدين وفروعه. وقد أدى عليه السلام أمانة التبليغ لرسالة ربه كما أمره على التمام والكمال ، فشهد له رب العزة بذلك في قوله : { وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى } [النجم: 37].

إن تعقل إبراهيم لسنن الله هو الذي أثمر سلامة الفهم وقوة الالتزام حتى بلغ هذه المرتبة الرفيعة والدرجة العالية عند ربه ، كما أن عدم تعقل سنن الله تعالى في الابتلاء نورث الاغترار بنعم الله والأمن من مكره فتمنع خشية الله ومخافته من تحققها في القلب ، وهذا في حقيقته جهل بسنن الله تعالى حيث حرمه الكبر من تبصرها واعتبارها قال تعالى : { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ } [الأعراف: 146].

خامساً: التخلي عن مشاهدة العبد لطاعاته ونسيان معاصيه .

إن شهود العبد لطاعاته وحسناته والغفلة عن ذنوبه ، التي تورث في النفس العجب والكبر والمنّ على الله ، وهذه الأشياء من الموانع التي تحجب القلب من الشعور بمخافة الله . ومن ثم تضر بإيمانه وعمله ، وفي ذلك يقول ابن القيم : " إن الله سبحانه إذا أراد بعبده خيرا أنساه رؤية طاعاته

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ورفعها من قلبه ولسانه فإذا ابتلي بالذنب جعله نصب عينيه ونسي طاعاته وجعل همه كله بذنبه فلا يزال ذنبه أمامه إن قام أو قعد أو غدا أو راح فيكون هذا عين الرحمة في حقه كما قال بعض السلف إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النار قالوا وكيف ذلك قال يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى وندم وتاب واستغفر وتضرع وأناب إلى الله وذل له وانكسر وعمل لها أعمالاً فتكون سبب الرحمة في حقه ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمنّ بها ويراها ويعتد بها على ربه وعلى الخلق ويتكبر بها ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار فعلامة السعادة إن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره "[236]. وسنقف على أبرز الشواهد من قصة إبراهيم في ذلك :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 127-128].

نلاحظ أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يستجيبان لأمر الله تعالى في رفع قواعد البيت لا ينظران إلى طاعتهما ولا يأخذهما العجب بعملهما بل كان نظرهما إلى عظمة الله الذي يتقربان إليه بهذه الطاعة ويظهر ذلك في دعائهما لله تعالى ، كيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذه الطاعة دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما: { ربنا تقبل منا } وفي تصدير الدعاء باسم الرب المضاف إليهما مظهر من مظاهر خضوعهما ، وإجلالهما لمقامه ، والخضوع له سبحانه وإجلال مقامه من أعظم الآداب التي تجعل الدعاء بمقربة من الاستجابة . وفي طلب التقبل بصيغة التفعل إشعار بالاعتراف بالتقصير لحقارة العبد وإن اجتهد في جنب عظمة مولاه . ولما فيه من البعد عن المنة ، والإشعار بالتكلف في القبول ، لأن غاية ما يقصده المخلصون أن تقع أفعالهم

---

236 - ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ، 297/1

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

موضع القبول ، وليس الثواب مما يخطر لهم ببال ، ولعل هذا هو الأنسب لحال الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام ، مصداقاً لقوله تعالى : { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ } [المؤمنون: 60-61]. وسألت عائشة رضي الله عنها الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقالت : " هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال : لا يا بنت الصديق! ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات"[237] .

وهكذا تستمر خشية المؤمن بالنظر إلى طاعاته السالفة يرجوا أن يكون قبلها الله تعالى بعفوه وكرمه ، و يخشى أن يكون ردت لخلل فيها ، أو لخلل في أساسها و هو الإيمان .هذه حال المؤمن في الطاعات ، فما عسى أن تكون حاله في المعاصي ؟ وقد قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } [الأعراف: 201].

فمن لم ينظر في حق الله عليه وتقصيره وعجزه عن القيام به فهو من أجهل الخلق بربه وبنفسه ولا تنفعه طاعاته ، والعبد يسير إلى الله سبحانه بين مشاهدة منته عليه ونعمته وحقوقه وبين رؤية عيب نفسه وعمله وتفريطه وإضاعته فهو يعلم أن ربه لو عذبه أشد العذاب لكان قد عدل فيه وأن أقضيته كلها عدل فيه وأن ما فيه من الخير فمجرد فضله ومنته وصدقته عليه .

ولهذا كان في حديث سيد الاستغفار : " أبوءُ لك بنعمتك عَلَيّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي "[238] . فلا يرى نفسه إلا مقصرا مذنبا في كل حال ، ولا يرى ربه إلا محسناً له من كل الوجوه . فهذه الحنيفية التي كان عليها إبراهيم عليه السلام وهي القيام بالأمر ومطالعة التقصير فيه : { ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم } . فإنه إذا بذل الطاعة لله وبالله صانه ذلك عن الشرك وإذا شهد تقصيره فيها ، فإنه يعريه من رداء العجب بعمله كما قال النبي: " لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد منه العجب "[239] . فمن تمام العبودية : شهود العبد تقصيره لحق الله ، وهو كلما

---

[237]- رواه الترمذي برقم (3175) وصححه الألباني

[238]- صحيح البخاري رقم الحديث (6306)

[239]- رواه البيهقي في شعب الإيمان 5 / 453 رقم 7255 . ورواه البزار كما في كشف الأستار كتاب الزهد 4 / 244 رقم 3633 بنحوه قال الهيثمي 10 / 269 رواه البزار وإسناده جيد

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كثرت طاعاته كثرت توبته واستغفاره ، فيخلع بذلك صولة الطاعة والإحسان من قلبه ليمتلئ خشية من الله تعالى .[240]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولما تضمن سؤال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام القبول للطاعة المشعر بالخوف من ردّها ، بسبب الشعور بالتقصير توسلا متضرعين إلى الله تعالى في قبول عملهما باسمين من أسمائه الحسنى بقوله : { إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم } وهو تعليل لاستدعاء القبول ، ونفي السمعة والرياء عن الدعاء والعمل الذي هو شرط القبول ، وليؤكدا أن رجاءهما في استجابة دعائهما وثيق ، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول . لأن من كان سمعياً عليماً بنيات الداعين وصدق ضمائرهم ، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين في طاعته غير بعيد . وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب ، إذ صدر منهما عمل وتضرع سؤال ، فهو السميع لضراعتهما وتسآلهما التقبل ، وهو العليم بنياهما في إخلاص عملهما ، لأن نفي السمعة والرياء عن الدعاء والعمل يفيد الإجابة والقبول ، لذلك ختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى { السميع العليم } ، ليؤكدا أن رجاءهما في استجابة دعائهما وثيق ، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول . لأن من كان سمعياً عليماً بنيات الداعين وصدق ضمائرهم ، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين في طاعته غير بعيد فإن هذا الدعاء يتضمن في ثناياه الشعور بعظمة الله وأن كل عمل في مقابل عظمته سبحانه فهو صغير ، وإنه مهما تقرب إليه العبد بالطاعات فهو بجانب فضله تعالى قليل . ومن هنا يبدو أثر الإيمان في القلب ، من التحرج مهما ينهض بالواجبات والتكاليف والتطلع إلى الكمال . لأنهم يشفقون من ربهم خشية وتقوى: لإحساسهم بالتقصير في جانب الله ، بعد أن بذلوا ما في طوقهم ، وهو في نظرهم قليل . لأن المؤمن يستشعر رقابة الله عليه . ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة . ومن ثم يستصغر كل عباداته ، ويستقل كل طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه . ومن ثم يشعر بالهيبة . ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه ، لم يوفه حقه عبادة وطاعة و لم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً . ومعلوم أنه ليس أحد من خلق الله، إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة ، وحتى وهو في حالة طاعته لربه لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة ، تزكية للنفس ، وتهذيبا لها . وتواضعا لله ، ومعرفة بعظيم حقه ومستحقه على خلقه .

[240] – أنظر : ابن القيم ، مدارج السالكين 447/2 ، وشفاء العليل . 115/1 ، طريق الهجرتين 276/1 .

وهذا ما عبر عنه دعائهما عليهما السلام ، حيث كان رجائهما في قبول الله عملهما بطلب التوبة منه تعالى ، وتوسلا بالاعتذار إليه تعالى من التقصير بحقه ، وهو المستحق غاية التعظيم والعبادة بأسمائه الحسنى وصفاته العليا سبحانه ، بقوله : { إنك أنت التواب الرحيم }.فهذه الدعاء فيه كمال الانكسار والتذلل والخضوع لله عز وجل، ولذلك صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " الدعاء هو العبادة "[241]. وكما في قول الله عز وجل : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر: 60]. فالدعاء وطلب التوبة أثر الحسنة هو مطلب العارفين بالله المتصلين بالحسنات ، المنقطعين عن السيئات ، فالرجوع إلى الله بالرجاء في قبوله لطاعتهما ، والتوبة على تقصيرهما في أداء حقه تعالى ، إنما هو براءة لهما من المنة عليه سبحانه ، لقوله تعالى : { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [الحجرات: 17]. وهذا الحال منهما عليهما السلام فيه تواضعاً وهضما لأنفسهما ، فأن العبد وإن اجتهد في طاعة ربه ، فإنه لا ينفكّ عن التَّقْصِير من بعض الوجوه ، وفيه كذلك إرشاداً وتعليماً لذريتهما ، ليجعلا ذلك سنة يقتدون بها من بعدهما [242].

إن مشاهدة العبد لطاعاته ونسيان معاصيه تورث غرور المرء بنفسه وإعجاب بعمله، وتمتلئ نفسه تيهاً وفخراً، ولكن آية من كتاب الله تكشف له الحقيقة وهو قوله تعالى : { وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ } [المدثر: 6]. ومعالجة هذا المرض القلبي يكون بضده وهو أن ينظر العبد إلى معاصيه وذنوبه. وتقصيره بحق الله تعالى لا إلى حسناته وأعماله الصالحة بل يخشى أن لا تقبل ، ولو قبلت منه فهي لا تبلغ به النجاة من النار والفوز بالجنة ، كما أرشد النبي إلى ذلك حين دعا المسلمين إلى التعويل بعد الفراغ من العمل على فضل الله ورحمته وليس على عملهم وإلا كان غروراً وضياعاً ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: " لن ينجي أحدا منكم عمله . قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة . سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا "[243].

---

241 – رواه الترمذي في سننه برقم (2969) قال الشيخ الألباني : صحيح

242 – راجع : تفسير الطبري 73/3 . وتفسير الرازي 347/2 . وتفسير الألوسي 6/2 . وتفسير طنطاوي 207 . وتفسير الظلال 88/1 ، 237/5 ، وتفسير ابن عاشور 481/1 ، وتفسير القرطبي 125/2، وتفسير البقاعي 184/1.

243 – رواه الشيخان: والحديث بلفظ البخاري، رقم الحديث "6098" ج5، ص2373، كتاب الرقائق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ولذلك فإن الناس لا يدخلون الجنة بأعمالهم، وإنما يدخلوها برحمة الله تعالى ، وكذلك المحاسبة هي أيضاً علاج فعال لمن ضعف خوفه من الله تعالى ، ولقد اقسم الله تعالى بصاحب النفس اللوامة فقال تعالى : { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } [القيامة: 2]. وإنه على العبد أن يرجع على نفسه. بالتقصير مهما بلغت طاعاته . فهذا نوح الذي عبد ربه ودعا إليه ألف إلى خمسين سنة يقول : { وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [هود: 47].

وهذا إبراهيم خليل الرحمن وأبو الأنبياء يقول : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } [الشعراء: 82]. وعلى هذا فإنه ينبغي على العبد أن لا ينظر إلى ما قدم من أعمال صالحة، حتى لا يورثه ذلك العجب والغرور والأمن من مكر ، لأن هذه الأمراض تمنع من خشية الله ، فإذا فقد العبد الخشية من قلبه فإنه ما يلبث أن يفارقه الإيمان أو يكاد، بل إن حال العارفين بعظمة الله هو المسارعة إلى الطاعة مع الخشية بعدم القبول ،

فقد وصف سبحانه عباده المؤمنين بخشيته وخوف وعيده مع صالح أعمالهم [244]، قال تعالى : { وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ } [الرعد: 21].

سادسا: التخلي عن الاقتصار على مشاهدة صفات جماله تعالى دون صفات جلاله .

إن من الأمور التي تورث العبد الغرور والأمن من عذاب الله تعالى وضعف مخافته في قلبه هو النظر إلى صفات جماله سبحانه والغفلة عن صفات جلاله تعالى ، والمتدبر في القرآن ومنهجه القويم يجد أنه يجمع بين صفات جماله وصفات جلاله ليكون العبد بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة . حتى لا يأمن مكر الله وعذابه من جهة . ولا يقنط من رحمته من جهة أخرى ، ولذلك نجد القرآن قد عالج هذا الأمر حيث سيبينه من خلال قصة إبراهيم . وذلك على النحو الآتي :

[244] - راجع : زكريا الشلوني ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ، ص332

* **الشاهد** :

قال تعالى : { وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الشعراء: 85-89].

إن هذا الدعاء هو بعض من جملة المطالب التي توجه بها إبراهيم في دعاءه لربه ، جمع فيها بين صفات جماله وجلاله سبحانه وتعالى ، فأما صفات جماله ففي قوله : { وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ...} . وأما صفات جلاله ففي قوله : { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ...}. ويمكن بيان ذلك على النحو التالي :

أ. قوله : { وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ } . فإبراهيم عليه السلام يتطلع صفات جماله فيطمع في ثواب الله تعالى وفضله ، ويرجو رحمته الواسعة أن تشمل المغفرة والده . والمعنى : واجعلني في الآخرة عندما ألقاك - يا ربى - للحساب ، من عبادك الذين أكرمتهم بدخول جنتك وبوراثتها فضلا منك وكرما . فهو يطلب من ربه سعادة الآخرة وهي جنة النعيم . وفي قوله : { واغفر لأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين } فإن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من طلب السعادات الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأشد الناس التصاقا به وهو أبوه . فقد وعده أن يستغفر له ، فوفى بوعده . فلما تبين له كفره وعدم إيمانه تبراء منه كما في قوله : { وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة : 114]. فقال : { واغفر لأَبِى } فسأل المغفرة لأبيه قبل سؤال أن لا يخزيه الله يوم القيامة لأنه إذا جيء بأبيه مع الضالّين لحقه انكسار ولو كان قد استجيب له بقية دعواته ، فكان هذا آخر شيء تخوف منه لحاق مهانة نفسية من جهة أصله لا من جهة ذاته . ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم عليه السلام من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد .

ب. قوله : { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} إن إبراهيم عليه السلام هنا يتطلع صفات جلاله تعالى فيدعو الله أن لا يخزيه ويهينه يوم البعث ، يوم يتجرد الناس من كل قوة إلا قوته ، ومن كل حول إلا حوله . فهو يشاهد عظمة الله تعالى تتجلى في ذلك اليوم ، فتنبعث في نفسه الشعور بهول ذلك اليوم ؛ ومدى حيائه من ربه ؛ وخشيته من

الخزي أمامه ، وخوفه من تقصيره وهو النبي الكريم . فيدرك أنه ليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص . إخلاص القلب كله لله ، وتجرده من كل شائبة ، وصفائه من الشهوات وخلوه من التعلق بغير الله . فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً { يوم لا ينفع مال ولا بنون } ؛ ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة ، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض؛ وهي لا تزن شيئاً في ميزان الآخرة . وهكذا نرى في قصة إبراهيم كيف صور سبحانه لعباده عاقبة حَالَي التقوى والغواية بذكر الجنة والنار ، بقوله : { وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ } [الشعراء: 90-91].

وبهذا الجمع بين رحمته وعذابه عز وجل ، يكون العبد راجياً وخائفاً من الله تعالى ، وراغباً وراهباً منه سبحانه . فهذا المشهد من قصة إبراهيم يجسد هذا المعنى من خلال يوم القيامة الذي يرجو إبراهيم فيه ثواب الله تعالى ويخشى عقابه ، وهو ينظر إليه ويراه كأنه حاضر ، ويرغب قومه بنعيم الآخرة ويحذرهم من أهوال يوم القيامة لعلهم يعتبروا [245].

فإن مشاهدة العبد لصفات الجمال لله تعالى من الرحمة والإحسان والإكرام دون أن يصاحبها مشاهدة صفات جلاله وعظمته، تورث في النفس إفراطاً في الرجاء المؤدي إلى الأمن من مكره ويحدث في النفس نوع من عدم التوازن الذي يؤدي بصاحبها إلى ضعف الالتزام لأمر الله تعالى إلى حد التفريط . ولذلك نجد أن القرآن ربط في كثير من آياته بين صفات جماله وجلاله سبحانه وتعالى ومن ذلك قوله تعالى : { غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ } [غافر: 3]. وقال تعالى : { إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ } [فصلت: 43].وطلب الله من عباده المؤمنين بالجمع بين صفات جماله وجلاله لتكون قلوبهم متجهة لله خوفاً ورجاءً كقوله تعالى : { وادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [الأعراف: 56]. كما مدح عباده المؤمنين حين جمعوا بينهما في قوله: { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 90]. إن هذا المنهج القرآني يشير إلى منهج العقيدة التي ينبغي أن يكون عليها حال المؤمن في النظر إلى صفات جماله تعالى وجلاله معاً ليكون بين الخوف والرجاء، ليحقق بذلك توازنه النفسي . فلا ينفرد به الخوف فيوصله للقنوط . ولا ينفرد به

---

[245] – راجع : تفسير الطبري 19/363 . وتفسير ابن كثير 6/149 ، وتفسير الرازي 11/485 - 493 . وتفسير الألوسي 14/252-256 ، وتفسير ابن عاشور 10/170 – 188 ، وتفسير السعدي 592-593 ، وتفسير ابن عطية 5/137 -139 ، وتفسير طنطاوي 3361 -3170 ، وتفسير الظلال 5/351-356

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرجاء فيوصله للأمن من مكره تعالى لأن محبة الله تعالى وعبوديته تستلزم بالضرورة أن يكون العبد خائفاً من الله راجياً له [246].

فإن الاقتصار إلى النظر لصفات جمال الله تعالى دون النظر لصفات جلاله فإنه تورث الإنسان الأماني الباطلة التي تعتمد على مغفرة الله ورحمته ، وتنسى عذابه ، ومعلوم أن مغفرة الله لا تنال إلا بأسبابها؛ لقوله : { إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [الأعراف: 56]. فالاعتماد على مغفرة الله ورحمته دون أن التعرض لهذه الرحمة وهذه المغفرة بفعل الأمر وترك النهي فهو طلب لرحمة الله ومغفرته بطريق غير صحيح .

ـــ المطلب الثاني : مشاهدة جلاله تعالى ، ومطالعة العبد لتقصيره .

إن الخوف من الله تعالى هي ثمرة معرفته سبحانه ، ولذلك فقد بين القرآن طريقة تحصيل هذه المعرفة من خلال مشاهدة آثار أسمائه وصفاته في آيات الكون المنظور ، كما في قوله تعالى : { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الذاريات: 20-21]. وكذلك من خلال آيات الكتاب المسطور ، كما في قوله تعالى : { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ } [الزمر: 23]. وقال تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [الأنفال: 2]. فالخوف من الله هي ثمرة المعرفة والعلم بالله تعالى لقوله عزوجل: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } [فاطر: 28]. وكلما قويت المعرفة بالله تعالى قويت مخافة الله في القلب وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: " فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية " [247] . فعلى قدر معرفة العبد لربه ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله تكون خشيته من الله تعالى خاصة معرفته بماله من صفات الجلال والجبروت والقهر والسلطان والغلبة والبطش والانتقام، فإن مشاهدة العبد لهذه الصفات و مطالعتها ومصاحبتها لتفكيره وتذكرها على الدوام فإنها تمنع من ارتكاب المعاصي والذنوب لأن الخوف من الله والخشية من جلاله أحرقت كل

---

[246] - راجع : زكريا الشلوني ، اثر العقيدة الإسلامية في السلوك . ص 333

[247] - رواه البخاري، صحيح البخاري رقم الحديث: "5750" ج5، ص 1263، كتاب الأدب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شهواته حتى خمدت وقمعت كل ملذاته حتى سكنت، فلا يبقى في قلبه إلا الله وحده. قال صلى الله عليه وسلم : " والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون " [248] . وهكذا فإن مطالعة العبد لصفات الله تعالى تورث خشيته ومخافته سبحانه ، وسنبين ذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ذلك النحو الآتي :

أولاً: مشاهدة صفات الجلال والعظمة لله تعالى .

ثانياً: مطالعة العبد لتقصيره مع الله تعالى وآفات نفسه .

أولاً. مشاهدة صفات الجلال والعظمة لله تعالى .

إن العبد حين يطالع صفات جلال الله تعالى وعظمته من السلطان والقهر والغلبة والكبرياء والعزة كما في قوله تعالى : { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [الزمر: 67]. وقوله تعالى : { وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [الجاثية: 37]. وقوله تعالى : { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ } [البروج: 12]. وقوله تعالى : { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ } [الأنعام: 18]. إلى غير ذلك من الآيات، فإن ذلك يبعث في النفس أقصى حالات الخوف من الله ، وعدم الأمن من مكره تعالى وتدبيره الخفي ، كيف لا وهو القائل: "هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي" [249]. وكيف لا يخاف العبد من ربه وهو الذي لعن إبليس وطرده من رحمته وقد كان من المقربين فقال له تعالى : { قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } [ص: 77-78]. وهو القائل لنبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم : { لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا } [الأسراء: 74-75]. إنها آية تبعث في النفس رهبة عظيمة فإن الله ليس لديه عزيز مع المعصية ،وهو القائل لعباده : { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } [آل عمران: 28]. وفي الحديث: " فإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة

---

[248] - أخرجه أحمد (173/5 ، رقم 21555) والترمذى (556/4 رقم 2312) وقال : حسن غريب . وابن ماجه (1402/2 رقم 4190) ، والحاكم (554/2 ، رقم 3883) وقال : صحيح الإسناد . وأبو الشيخ في العظمة (982/3 ، رقم 507)وفي رواية البخاري (354/1 ، رقم 997) ، ومسلم (618/2 ، رقم 901) " والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " .

[249] - رواه ابن حبان، صحيح ابن حبان: "338" ج2، ص 50، كتاب البر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار "[250]

فمن عرف الله بصفات جلاله وعظمته ، كان حظه من هذه المعرفة هو أن لا يخاف أحداً سوى الله . لأن من عرف الله حق المعرفة فلا يمكن أن يخشى غيره ، قال تعالى : { فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [التوبة: 13]. وقد بين القرآن طريقة تحقيق الخوف من الله تعالى في نفس المؤمن ، وسنبين ذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ، ومن الشواهد على ذلك :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [العنكبوت: 17-23].

بعد أن دعى إبراهيم عليه السلام قومه إلى عبادة الله تعالى وتقواه ، ونفرهم من عبادة الأوثان ، وبين لهم حقارتها وعجزها ، حذرهم من الاستمرار في تكذيبه ، حتى لا يقع عليهم عذاب الله عليهم وانتقامه منهم ، فهو القاهر فوق عباده ، المنتقم ممن عصاه ، وأن عليهم أن يتعظوا بمن قبلهم حين أنزل الله عليهم عذابه الشديد ، وجملة { إليه ترجعون } تعليل للأمر بالخوف منه تعالى وحده ، والخضوع لأمره والذل لعظمته سبحانه ، لأن هناك بعثاً وحساباً وثواباً وعقاباً ، فيثيب الطائع ويعذب العاصي ، فخافوا غضبه وانتقامه في ذلك اليوم ، واستعدوا للقائه تعالى بالعبادة والشكر ، قال تعالى : { وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} [الرعد: 21] . ولتأكيد هذه الحقيقة الإيمانية التي تبعث في النفس الخوف الشديد والرهبة العظيمة من الله تعالى ، فإن إبراهيم عليه السلام يدعو قومه للنظر في هذا

[250] أخرجه الشيخان: صحيح البخاري، رقم "7016" ج6، ص 2713 ، كتاب التوحيد، وصحيح مسلم رقم"2643" ج4، ص 2026، كتاب القدر.

الكون والسير في الأرض لمشاهدة آثار هذه القدرة الإلهية وعظمة الخالق سبحانه فإن من نظر في الكون نظر متأمل ، وسار في الأرض سير متدبر ، فلا بد أن يدرك عظمة هذه القدرة الإلهية وعظمة ذلك اليوم الرهيب وحقيقة وقوعه ، وهذه الدعوة للنظر والسير لمشاهدة صفات الله تعالى ومطالعة ما فيها من جبروت وعظمة تبعث في النفس الخوف الشديد والرهبة العظيمة ، والتي يمكن بيانها على النحو الآتي :

1. **مطالعة جلاله وعظمة صفاته في قوله : { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }** . إن هذه دعوة مفتوحة للعباد للنظر والسير في الأرض ، ليشاهدوا آثار خلقه للأشياء من عدم فيوقنوا أن إعادتها بعد زوالها ليس بأعجب من ابتداء صنعها ، فالخطاب القرآني يجعل الكون كله معرضاً لآيات الإيمان بالله ودلائل توحيده ، وصدق وعده ووعيده . ومشاهد الكون وظواهره حاضرة في كل لحظة تحت أعين الناس وإدراكهم ، وإن هذا القدرة الإلهية في الخلق والإحياء تتجلى آثارها المعجزة في هذا الوجود بصورتها الواقعية الظاهرة لكل الناس ، ولكنها تفقد جدتها في نفوسهم بطول الألفة والتكرار ، فيردهم القرآن الكريم إلى تلك الآيات الباهرة بتوجيهه الموحي والمحيي للمشاهد والظواهر في القلوب والضمائر ، ويثير تطلعهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها ، ويجعل منها دلائله وبراهينه التي تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر بالخوف من الله تعالى ووعيده ، والاعتبار بمن سبقهم من مصائر المكذبين ، فلذلك كان الأمر بالسير لتحقيق هذا الغرض من جوامع الحكمة ، ووسيلة جامعة لمختلف دلائل الإيمان . فقوله : { إِنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } هو تعليل لما قبله ، أي : هو وحده سبحانه القادر على النشأة الأولى ، وعلى النشأة الآخرة ، لأن قدرته لا يعجزها شئ ولا يحول دون نفاذها حائل .فهو يبدأ الحياة ويعيدها بهذه القدرة المطلقة التي لا تتقيد بتصورات البشر القاصرة ، وإن النظر في هذا الوجود وتكرار أمر الحياة والموت فيه في كل يوم وكل لحظة فيه دلالة واضحة على قدرة الله على البعث ، وإن مطالعة العبد لعظمة الله تعالى في ذلك اليوم ، يوم البعث والحساب والجزاء ، وقدرته سبحانه على الانتقام ممن كفر به وعصاه تكفي لتجعل القلب يصيبه الخوف والهلع ، مما سوف يلاقيه من انتقام الجبار ، وقد جاءت كثير من الآيات التي تدعو فيه العباد ليتقوا انتقام الله ويخشوه في ذلك اليوم العظيم ، نذكر منها :

ـــ **قال تعالى** : { أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [لقمان: 33]. إن مشاهدة العباد لعظمة الله تعالى في ذلك اليوم حيث يتجرد فيه البشر من كل الألقاب والنياشين ، ومن كل سلطان وصولجان ، ومن كل الوشائج والصلات ولو كان أقرب الأقربين ، وما هذا إلا لشدة ما فيه من الأهوال والعظائم مالا يقادر قدره أحد ، وهذا الهول الرعيب من شأنه أن يحملهم على أن يتقوا الله بالإيمان به وبعبادته وحده لا شريك له ، ومن شأنه أن يحملهم على أن يخشوا عذابه في ذلك اليوم ووعيده لهم ، لذلك فقد حذرهم سبحانه مما من شأنه أن يضعف أثر مخافته تعالى في نفوسهم ، وينسيهم هول ذلك اليوم الموعود بقوله : { فلا تغرنكم الحياة الدنيا } بملاذها وزخارفها وطول العمر فيها ، { ولا يغرنكم بالله الغرور } إي الشيطان من الإنس أو الجن ليحملكم على تأخير التوبة ومزاولة أنواع المعاصي بتزيينها لكم وترغيبكم فيها حتى يأتيكم الموت فجأة فتهلكوا [251].

ـــ **قال تعالى** : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } [الحج: 1-2]. يحذر سبحانه عباده من عقابه ، ويدعوهم ليتذكروا دائماً يوم القيامة ، لأن الاضطراب الذي يحدث فيه شديد مزعج ترتجف منه الخلائق . فإن مشاهدة يوم القيامة يبعث في النفس هوْلاً يبلغ من شدته أنه لو كانت هناك مرضعة ثديها في فم رضيعها لذهلت عنه وتركته . ولو كانت هناك امرأة ذات حمل أسقط جنينها في غير أوانه فزعاً ورعباً ، ومشاهدة حال الناس في ذلك اليوم من نظراتهم الذاهلة ، وخطواتهم المترنّحة فتظنهم سكارى وما هم من سكر ، ولكن الهول الذي شاهدوه ، والخوف من عذاب الله الشديد هو الذي أفقدهم توازنهم. فالعاقل هو الذي يحسب حساب ذلك اليوم ويتقي الله تعالى بالتقرب إليه بالأعمال الصالحة واجتناب المعاصي والذنوب [252].

فإن مشاهدة الله تعالى في ذلك اليوم الرهيب وهو يعاقب الظالمين وينتقم منهم ، يكفي ليجعل القلب يفزع إلى الله بالخوف من عظمته والرهبة من عذابه الشديد ، ولا يجد سبيل للخلاص من بطشه وانتقامه إلا بالتوسل إليه بأحسن الأعمال دفعاً لنقمه واستجلاباً لعفوه .

---

[251] – راجع : أيسر التفاسير للجزائري ، 258/3 .

[252] – راجع : تفسير المنتخب ، 2/ 58

فالعاقل هو الذي يحرص أن يكون عمله في الدنيا موافقًا لمطلوب الله وعين ما سوف يحاسب عليه في الآخرة ليكون عمله مقبولاً ومأجورًا . ومن ذلك :

ـــ **قوله تعالى** : { يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا } [الإنسان:7-11]. إن الخوف من عذاب الله في ذلك اليوم الرهيب هو الذي يدفع بالإنسان إلى طاعة الله تعالى وبذل النفس والمال من أجل أن يتقي غضب الجبار وعذابه الأليم وانتقامه الشديد ، لذلك فإن المؤمن لا يفعل الخير طمعاً في السمعة والشكر من البشر ، بل لأنه يخاف من ربّه يوماً اشتد عبوس مَن فيه ، وقطّبوا وجوههم وجباههم في ذلك اليوم ، كناية عن عظمته وهوله وشدته [253] .

ـــ **وقوله تعالى** : { الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا } [الفرقان: 26-29].

في هذا اليوم تبطل أملاك المالكين من الناس وتنقطع دعاواهم ، ويخلص الملك للرحمن وحده، ويكون يوماً شديداً عصيباً على الكافرين، لشدة الهول والعذاب الذي يقع عليهم فيه . وخص سبحانه ثبوت الملك له في هذا اليوم بالذكر مع أنه تعالى هو المالك لهذا الكون في هذا اليوم وفي غيره ، للرد على الكافرين الذين زعموا أن آلهتهم ستشفع لهم يوم القيامة ، ولبيان أن ملك غيره سبحانه في الدنيا . إنما هو ملك صوري زائل .

أما الملك الثابت الحقيقي فهو ملك الله الواحد القهار . قال ابن كثير : وفى الصحيح " أن الله يطوى السموات بيمينه ، ويأخذ الأرض بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك . أنا الديان . أين ملوك الأرض أين الجبارون . أين المتكبرون " [254].

---

[253] – المرجع السابق ، 33/3

[254] – صحيح مسلم برقم (2788) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وليس فيه: "أنا الديان". أنظر: تفسير ابن كثير 107/6

ثم صور سبحانه ما سيكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندامة ، تصويرا بليغا ، مؤثرا . ففي ذلك اليوم يعض الظالم يديه أسفاً وندماً ، وعض اليدين كناية عن شدة الحسرة والندامة والغيظ . وليس أحد أشد ندما يوم القيامة من الكافرين . قال تعالى : { وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا } [سبا: 33]. فعلى العاقل أن يذكر يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء ، يوم يعض الظالم على يديه من شدة غيظه وندمه وحسرته . ومتمنياً أنه اتبع الرسل وسلك طريق الجنة وتجنب طريق النار . ويندم على إِتِّبَاع مَنْ أضلوه من أصدقائه الذين ملّكهم قياده . فأبعده هذا الصديق المشئوم عن ذكر الله وذكر القرآن بعد أن يُسِّره الله له ، وهكذا يخذل الشيطان الإنسان حيث يصرفه عن الحق ، ويحرضه على الباطل ، ويسلمه إلى ما فيه هلكته [255].

2. مطالعة جلاله وعظمة صفاته في قوله : { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } .

إن مشاهدة صفات الله تعالى ومنها قدرته على تعذيبه لمن يشاء ورحمته لمن يشاء ، وإليه وحده المآب؛ لا يعجزه أحد ، ولا يمتنع عليه أحد ، فهو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو مع تفرده لا يفعل شيئاً إلا في أعلى درج الإحكام ، ولا يضع الأمور إلا في أليق مواضعها ، فمن مقتضى حكمته تعالى تعذيب أهل التكذيب عدلاً وحكمة ، وإثابة أهل الإنابة فضلاً ورحمة ، وقدم العقاب لأن هذا أبلغ في التخويف ، وأثبت في إنفاذ مشيئته إذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ، فهو سبحانه الحاكم المتصرف المطلق في شأن العباد بحكم ملكيته لهذا الوجود ، كله ، وإن مجرد التفكر بأن الله هو المتفرد بالقدرة والتصرف في هذا الوجود ، وإليه المرجع والحساب ، وليس لأحد فيه من قوة تمنعه من الانقلاب إلى الله . ولا الانفلات منه ، كفيل أن يجعل العباد في خوف مستمر من الله ما داموا في دار الابتلاء . لأنه غير مغفول عنهم، ولا معجزين اللّه في الأرض أو في السماء، فلا يغتروا بقدرتهم وما زينت لهم أنفسهم وخدعتهم ، من النجاة من أمر الله وقدره وعذابه ، فليسوا بمعجزين الله في جميع أقطار العالم . وليس لهم من ولي يتولاهم ولا نصير ينصرهم من الله تعالى.

[255] - راجع : تفسير طنطاوي 3124 . وتفسير المنتخب 112/2

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3. مطالعة جلاله وعظمة صفاته في قوله : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .

إن مطالعة هذه الحقيقة وهو تيئس الله عز وجل الكافرين من رحمته ، هي من أكثر البواعث التي تتصدر مشاعر القلب خشيةً ورهبةً ورعباً ، فإنه تعالى لما ذكر النشأة الآخرة وذكر ما يكون فيه وهو تعذيب المكذبين ، وإثابة الطائعين ، وذكر أنه ليس لمن قضى بتعذيبهم من مهرب من قدرته تعالى ولا ملجأ ، فلم يبقى لهم مطمع إلا رحمته ، ناسب هنا تيئّيسهم من رحمته تعالى ، حتى يقطع عليهم كل أمل من الخلاص إلا بالإنابة إلى الله والتوبة عن الكفر والمعاصي ، فالذين كفروا بدلائل الله على وحدانيته ، وكذّبوا برسله وكتبه ، وأنكروا البعث والحساب . هؤلاء ليس لهم مطمع في رحمة الله ذلك أنه لا ييأس الإنسان من رحمة الله إلا حين يكفر قلبه ، وينقطع ما بينه وبين ربه .

فهم استحقوا اليأس من الرحمة وإصابتهم بالعذاب الأليم لأجل كفرهم بالله وآياته وإنكارهم البعث . ولو كان لكافر نجاة ، أو أمل في رحمة الله ، لكان تقبل الله شفاعة نوح بولده ، واستغفار إبراهيم لأبيه . فقد ردّ سبحانه شفاعة نوح بقوله : { قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [هود: 47]. وقد بين سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن الاستغفار لا يحضى بالقبول عند الله إلا إذا كان صاحبه مؤمناً بربه ، بعيداً عن الكفر والنفاق ، قال تعالى : { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 114]. إن مطالعة هذه الحقيقة في كونه تعالى لا يغفر أن يشرك به ، كما صرح بذلك في قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } [النساء: 48]. من شأنه أن يسارع من عنده أدنى مسكة عقل أن يبادر بالتوبة من الكفر ومن كل خطيئة [256].

ثانياً. مطالعة العبد لتقصيره مع الله تعالى وآفات نفسه .

[256] – راجع تفسير الرازي : 147/12 ، وتفسير ابو السعود ، 254/5 ، وتفسيرالسعدي ، 628 ، وأيسر التفاسير للجزائري 3/ 198 ، وتفسير الظلال ، 459/5 ، وتفسير ابن عاشور 481/10 ، وتفسير الزمخشري 198/5

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1. مطالعة العبد لتقصيره .

لقد أقسم سبحانه بالنفس اللوامة في قوله تعالى : { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } [القيامة: 2]. وهي التي تلوم صاحبها على تقصيره ، فتلومه على فعل الشر ، وتلومه على عدم الاستكثار من الخير . لأن العبد مهما فعل من الأعمال فإنه لن يوفي الله عز وجل حقه. فلا بد من الشعور بالتقصير لسلامة القلب وصحة المعتقد ، فإن كل ما يأتي من العبد يوجب عذرا وأن كل ما يأتي من الحق يوجب شكرا ، وأن هذه الدرجة مبنية على قاعدتين :

القاعدة الأولى : أن يعلم العبد أنه ناقص وكل ما يأتي من الناقص ناقص فهو يوجب اعتذاره منه لا محالة فعلى العبد أن يعتذر إلى ربه من كل ما يأتي به من خير وشر أما الشر : فظاهر وأما الخير : فيعتذر من نقصانه ولا يراه صالحا لربه فهو مع إحسانه معتذر في إحسانه ، والحامل له على هذا الاعتذار أمران أحدهما : شهود تقصيره ونقصانه والثاني : صدق محبته فإن المحب الصادق يتقرب إلى محبوبه بغاية إمكانه وهو معتذر إليه مستحي منه ، أن يواجهه بما واجهه به وهو يرى أن قدره فوقه وأجل منه .

القاعدة الثانية : أن يستعظم العبد كل ما يصدر من الله سبحانه إليه ، والاعتراف بأنه يوجب الشكر عليه ، وأنه عاجز عن شكره تعالى . والمعنى : أن معاملة العبد للحق سبحانه بمقتضى الاعتذار من كل ما يصدر عنه ، والشكر له على ما يصدر منه [257]. فإن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله ويخلصه منها : شهود فضله ومنته وجوده سبحانه عليه ، في مقابل مطالعة تقصيره وآفات نفسه وجناياته [258]. فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج الى عفو الله ومغفرته فإن لم يداركه بذلك هلك وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم [259]. ولربما كان هذا الشعور بالتقصير خيراً للعبد من بعض الأعمال الصالحة التي يقوم بها . كما أن هذا الشعور بالتقصير يكون دافعاً إلى الاستغفار والتوبة والخوف من عقاب الله، والشعور بالحاجة له والفقر إليه، والتذلل له والمسكنة بين يديه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزلة. ألا إن سلعة الله غالية ألا

---

257 - ابن القيم ، مدارج السالكين ، 2/ 325

258 - المصدر السابق ، 2/ 447

259 - ابن القيم ، عدة الصابرين 121

إن سلعة الله الجنة " [260]. فالخوف والشعور بالتقصير يدفعان صاحبهما إلى المبادرة بالأعمال الصالحة وهذا ما كان عليه السلف الصالح، جمعوا إحساناً وخشية، أما المنافق فيجمع إساءة وأمناً، فالإنسان لا يزال بخير مادام يشعر بأنه مفرط مذنب ليكون ذلك دافعاً إلى الاستزادة من الصالحات، والإكثار من الاستغفار، ولعله بعد ذلك أن يحظى بالقبول عند الله تعالى [261]. ومن الشواهد في قصة إبراهيم عليه السلام على ذلك نذكر منها كما يلي :

*** الشاهد :**

قال تعالى: { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [البقرة: 127].

إن هذا الدعاء الذي توجه به إبراهيم وابنه عليهما السلام إلى الله وقت أن شرعا في رفع القواعد تنفيذا للأمر الذي تلقياه من ربهما بإعداد البيت وتطهيره للعبادة ، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العبادة دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، ويظهر في ثنايا الدعاء الشعور بعظمة الله ومشاهدة صفات جلاله ، و يمكن تجلية حقيقة هذه المشاهدة منهما عليهما السلام لصفات عظمته وجلاله تعالى أثناء تقربهما لله بالعبادة على النحو الآتي :

1. مشاهدة عظمته وجلاله تعالى: في قوله: { رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا } . تتجلى بما يلي :

أ. أنهما دعوا بذلك الدعاء وقت أن شرعا في رفع القواعد وأتوا بتلك العبادة مخلصين فيها لله تعالى ، لأن الدعاء وقت التلبس بالطاعة من مسوغات الاستجابة والقبول عند الله تعالى .

ب. فقولهما : {ربنا} تصدير الدعاء في ندائهما بذكر هذه الصفة الدالة على التربية والإصلاح لحال الداعي . هو مظهر من مظاهر خضوعهما ، وإجلالهما لمقامه تعالى ، وفيه تلطف واستعطاف والتي تجعل الدعاء بمقربة من الاستجابة .

ج . وقولهما : { تَقَبَّلْ مِنَّا } يبين أن غايتهما هو تقبل الله تعالى لطاعتهما له ،فهذه هي الغاية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[260] - أخرجه الترمذي في سننه برقم (2450) قال الشيخ اللباني : صحيح

[261] - ابن القيم / عدة الصابرين 121 . ومدارج السالكين 94/2

المرتجاة. والإشعار بالتكلف في القبول ، لأن غاية ما يقصده المخلصون أن تقع أفعالهم موضع القبول ، وليس الثواب مما يخطر لهم ببال ، وهما يطلبان ذلك على وجه الاستعطاف والترجي ، لا على وجه المنّة والعجب . لأنهما لا ينظران إلى طاعتهما بل إلى عظمة من يتقربان بها إليه ، وهذا يورث الشعور بالتقصير . ويظهر ذلك من اختيار صيغة التفعل الذي يفيد اعتراف بالتقصير في العمل ، ولما فيه من البعد عن المنة .

إن أثر هذا التصور الإيماني في حياة المؤمنين هو مزيد من الطاعة والالتزام ، والتحرج مهما ينهضون بالواجبات والتكاليف لإحساسهم بالتقصير في جانب الله ، لأن قلوبهم وجلة مشفقة من عظمة ربهم وهيبته وجلاله فمهما بذلوا ما في طوقهم فهو في نظرهم قليل . لأن المؤمن يستشعر رقابة الله عليه . ويحس آلاءه في كل نفس وكل نبضة . ومن ثم يستصغر كل عباداته ، ويستقل كل طاعاته ، إلى جانب آلاء الله ونعمائه .

ومن ثم يشعر بالهيبة ، ويشعر بالوجل ، ويشفق أن يلقى الله وهو مقصر في حقه ، لم يوفه حقه عبادة وطاعة و لم يقارب أياديه عليه معرفة وشكراً . وهؤلاء هم الذين يسارعون في الخيرات ، وهم الذين يسبقون لها فينالونها في الطليعة ، وهذا هو حال الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام ، مصداقاً لقوله تعالى : { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) } [المؤمنون: 60-61]. وقيل أن عائشة رضي الله عنها سألت الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقالت : " هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق! ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات"[262]. فهؤلاء يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل الله منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط[263]، لأن مشاهدة عظمة الله تعالى هي التي تورث هذه اليقظة ، وهذه الطاعة ، وهذه المشاعر من الخشية والخشوع والإخلاص .

2. مشاهدة عظمته وجلاله تعالى: في قوله: { إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم } . تتجلى بما يلي :

---

[262]- رواه الترمذي برقم (3175) وصححه الألباني

[263]- راجع : تفسير ابن كثير 480/5، وتفسير الألوسي 6/2، وتفسير ابن عاشور 480/1، وتفسير البقاعي183/1 ، وتفسير الرازي 347/2، وتفسير الظلال 88/1، وتفسير طنطاوي 204

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أ. إن في ختّم دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى بقوله : { إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم } هو تعليل لإخلاصهما لله تعالى ، وتعليل لاستدعاء القبول ، وليؤكدا أن رجاءهما في استجابة دعائهما وثيق ، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول . لأن من كان سميعاً عليماً بنيات الداعين وصدق ضمائرهم ، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين في طاعته غير بعيد . وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب ، إذ صدر منهما عمل وتضرع سؤال ، فهو السميع لضراعتهما وتسآلهما التقبل ، وهو العليم بنياتهما في إخلاص عملهما ، فكان هذا منهما تتميم للدعاء باستيفاء شروط القبول والرضى من الله . وهو صدق التوجه وإخلاص العمل ، بنفي السمعة والرياء الذي هو شرط القبول ، وهذا لا يطلع عليه إلا من كان سميع الدعاء ، فكان الرجاء في قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء . عليم بما وراءه من النية والشعور . وكأنه بهذا التعقيب في الدعاء يقول : يا ربنا تقبل منا طاعتنا إليك فأنت تسمع دعاءنا وتضرعنا ، وتعلم ما في قلبنا من الإخلاص وترك الالتفات إلى أحد سواك . وما مسألتنا إياك قبول عملنا في بناء بيتك الذي أمرتنا ببنائه إلا لأنك العليم بما في ضمائر نفوسنا من الإذعان لك في الطاعة، وما فيه لك من الرضا والمحبة، فجاءت الجملة بصيغة تفيد الحصر والمبالغة في كمال الوصفين له تعالى بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدم . وهذا يستلزم منا أن نخلص لله في أعمالنا ، ونراقبه في السر والعلن ، وان تتجه قلوبنا إليه وحده في القصد والطلب في الأمور كلها ، فلا نرجو سواه ولا نخشى غيره ولا نتوكل إلا عليه[264] .

ب. إن استحضارهما صفة علم الله تعالى بقولهما: { سميع الدعاء } . هو لشعورهما برقابة الله تعالى في دنيا الواقع وعالم الضمير ، فطهارة القلب ونظافة المشاعر هذه تجيء نتيجة مباشرة للشعور برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر . والمؤمن يحس وقع نظر الله سبحانه في طوية نفسه فيطهر قلبه وينظفه من كل الأرجاس والأدناس ، فلا يجعل فيه شرك ولا نفاق ولا رياء ، ولا يدخله خبث ولا حقد ولا حسد! والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان برب عليم رقيب ، سميع بصير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ

264- راجع : تفسير الطبري 73/3 ، وتفسير الرازي 347/2 ، وتفسير الألوسي 6/2 ، وتفسير طنطاوي 207 ، وتفسير الظلال 88/1 ، 237/5 ، وتفسير ابن عاشور 481/1 بيضاوي 156/1 البحر 8/2 السعدي 66

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [المجادلة: 7].

إن هذه الرقابة الإلهية ، تثير في شعور المؤمن يقظة تمنعه من مجرد التفكير في المعصية حتى داخل الضمير ، فهي تصونه في عالم الضمير قبل أن تصونه في عالم الواقع ، فالمؤمن يشعر أنه وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الجبار لا يتملص ولا يتفلت منها لحظة ، وتحت رقابته التي لا تفتر ولا تغفل عنه طرفة عين . وإنها لرقابة رهيبة تملأ الحس رهبة ويقظة . قال تعالى : { وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [يونس: 61].

إن الإنسان مكشوف لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره . وكل ما في نفسه من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، وكذلك قرب الله من الإنسان بعلمه قرب لا يشعر به الإنسان، إلا حينما يتصور هذه الحقيقة ويستحضرها القلب فأنه لا يجرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها . بل لا يجرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال القبول . وإن هذه الحقيقة وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم ويقظة لا تغفل عن المحاسبة .

إن مجرد استقرار هذه الحقيقة في معتقد الإنسان ، سرعان ما يتطهر باطنه وظاهره ، وتستقيم حياته في السر والعلن ، ويشعر بتبعة المسؤولية . وهي ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هي كذلك تبعة جماعية ، وتبعة تجاه الخير في ذاته ، وإزاء البشرية جميعاً أمام الله ، فهو كائن له قيمة وعليه تبعة في نظام هذا الوجود . وهذا التصور والشعور من شأنه أن يؤدي إلى استقامة الحياة البشرية أفرادا وجماعات حينما تراقب الله في كل أحوالها وتنضبط في سيرها بما يحبه تعالى ويرضاه[265] .

ونستشعر من قول إبراهيم عليه السلام : { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } [الشعراء: 89]. مدى شعوره بهول اليوم الآخر؛ ومدى حيائه من ربه ، وخشيته من الخزي أمامه، وخوفه من تقصيره وهو النبي الكريم . فيرجو من الله أن يستره ويتجاوز عن تقصيره ، ولا يهينه في ذلك اليوم الرهيب . إن هذا الشعور له أثر كبير في حياة المؤمن ، لأنه يرى نفسه مغموراً برحمة الله مع تقصيره وذنبه وخطئه ، ويتضح هذا المعنى كما في تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، في قولاه تعالى : { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا

---

[265]- راجع : تفسير الظلال ، 6/230-231 ، 7/16 ، 8/90،وتفسير ابن عاشور 14/59

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [البقرة : 286]. ويتجلى أثر الإيمان بالله في السمع والطاعة لكل ما أمر به الله . ومع السمع والطاعة . الشعور بالتقصير والعجز عن توفية آلاء الله شكرها؛ ومن ثم الالتجاء إلى رحمة الله لتتدارك تقصيرهم وعجزهم . وهو دعاء كذلك يصور حال المؤمنين مع ربهم؛ وإدراكهم لضعفهم وعجزهم ، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه ، وإلى مدده وعونه .

فحين ينظر المسلم بعين البصيرة إلى البون الشاسع بين فعله لله ، المحكوم بالضعف البشري الذي لا حيلة له فيه ، والذي يدور في دائرة الخطأ والنسيان ، وبين فعل الله تعالى له ، الذي لا يتصور العقل البشري نعمة موصولة إليه ، معزولة عنه تعالى ، كقوله : { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } [النحل: 53]. وهي نعمٌ متكاثرة غير محدودة ولا معدودة كقوله : { وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } [إبراهيم: 34]. إن مجرد هذه الموازنة بين حال العبد مع ربه ، وحال الله مع عبده ، كفيلة في تحقيق اليقظة في الضمير كي يستشعر العبد مدى قصوره بحق مولاه ، بحيث لا يكون منه مع كل طاعة سوى الاعتذار عن التقصير ، والخوف من حرمان القبول . وهذا النموذج القويم قد بينه تعالى في كتابه ليجعل منه مثالاً يحتذى ، كما في قوله تعالى : { أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [الزمر: 9]. إن الشعور بالضعف والتقصير في القيام بحق الله لما له من جلال وإكرام ، تجعل المرء يتوجه إلى ربه بطلب العفو والمجاوزة [266]. بقولهم:{ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا } .

وعليه فإن مشاهدة العبد لعظمة ربه وجلاله إن كان محسناً في عمله فإنه يرجع على الله بالتقصير والخوف من عدم القبول ، فإنه مهما قدم من الصالحات والفضائل فهو يخاف أن لا يقبل منه لأنه لم يؤدي حق الله تعالى عليه كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: 102]. وقيل أن تقوى الله حق تقاته: هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وذكر المفسرون: أنه لما نزلت هذه

[266] - راجع : تفسير الظلال 1/325-330، 3//206 ، 6/249 ، وتفسير طنطاوي 523،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الآية قالوا: يا رسول الله من يقوي على هذا؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل فاتقوا الله ما استطعتم، فكانت بياناً لهذه الآية، أي: اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم [267].

فإنه خوف المحسنين العارفين بعظمة الله وقدره أنهم مع حسن أعمالهم يخشون الله تعالى ويخافون أن لا يقبل منهم لأنهم لم يوفوه حقه قال تعالى : { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ } [الرعد: 20-21]. فحظ المحسن من الخوف حين يطالع عمله في مقابل معرفته بجلال قدر ربه عز وجل هو الخوف من عدم القبول ، لأنه يشعر بالتقصير في حق مولاه وخالقه تعالى [268].

2. مطالعة العبد إلى جناياته وشهوده لآفات عمله.

إن معرفة العبد لربه بماله من صفات الجبروت والقهر والبطش والانتقام ومطالعة لهذه الصفات في قلبه ، مع تذكره لآيات الوعيد الواردة في القرآن مع شهوده لجناياته وسوء أعماله وعيوب نفسه لا ريب أنه يتولد من ذلك خشيته من الله عز وجل حتى لا يكون شيء أخوف عنده من ربه بل لا يخاف أحداً سواه[269] . فمن كان مسيئاً في عمله فإنه يرجع على الله بالتوبة والإنابة والخوف من جنايته أن يحل عليه سخط الله وعذابه وان ينتقم منه، قال تعالى : { وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة: 118]. وإن حظ المسيء من الخوف حين يطالع سوء عمله وجنايته في مقابل معرفته بجلال ربه وعظمته ، هو الخوف من سخط مولاه ونزول عقابه وبطشه وانتقامه فأما الأول فيسارع في فعل الخيرات وأما الثاني فيسارع بالتوبة وإصلاح عمله ، فيكون الخوف من الله في هذه الحالة طريقاً إلى كل خير يحقق أثره الفعال والإيجابي، حيث يزيد فيه المحسن من إحسانه ويرتدع المسيء عن سيئاته، ويبادر إلى إصلاح ما أفسده من عمل قال تعالى : { فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [المائدة: 39].

---

[267] - تفسير القرطبي، ج4، ص 157.

[268] - انظر : زكريا الشلول، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ، ص298-299

([269]) انظر: أ. د.محمد خليل هراس، عقيدة القرآن والسنة، ص 62.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وعليه فإن مطالعة العبد لأعماله من فعل السيئات في مقابل مشاهدة صفات الجلال والعظمة والبطش والقهر والانتقام التي ينزلها الله بأعدائه وعلى كل من عصاه فإنها تورث الخوف من الله تعالى وعقابه[270]. ومن الشواهد في قصة إبراهيم عليه السلام على ذلك نذكر منها كما يلي :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } [الشعراء: 82].

إن إبراهيم عليه السلام يتوجه إلى الله تعالى يرجو رحمته ومغفرته ، وهو مطلوب كل عاقل أن يكون همّه هو الخلاص من العذاب والفوز بالثواب ، وهذا ما عبر عنه عليه السلام ، بقوله : { والذي أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين } . أي : وهو وحده الذي أطمع أن يغفر لي ذنوبي يوم ألقاه لأنه لا يقدر على غَفْر الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ، وهو الفعال لما يشاء . إن مشاهدة إبراهيم عليه السلام لمقام الكبرياء والعظمة لربه ، على وجه الاستعظام والإجلال في نفسه ، مع مشاهدة خطاياه بحقه هو الذي أثمر في قلبه أسمى درجات الأدب مع ربه سبحانه ، حين استعظم عليه السلام ما صدر منه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، ويعتبرها خطايا ، هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن تجتنب المعاصي ، وأن تكون منها على حذر وأن تفوض رجاءها إلى الله تعالى وحده . بأن توجه طمعها في المغفرة إليه وحده .

فإبراهيم عليه السلام في هذه الآية الكريمة يعلن افتقاره إلى عفو الله تعالى ، وطلب مغفرته ، وهو النبي الكريم الذي بلغ منزلة الخُلة والإمامة . فإبراهيم عليه السلام الذي يعرف عظمة ربه وجلال قدره ، يبين كيف ينبغي أن يكون شعور العبد مع ربه من الخوف والإشفاق والتقوى ، وهو الشعور الصحيح بقيمة عظمة الله وهي عظمة الربوبية التي تتجلى بقدرته المطلقة ، وملكه التام للوجود كله ، وهيمنته عليه وسلطانه المتفرد فيه ، في مقابل مشاهدة العبد لذنوبه وهي عظيمة في مقابل عظمة الله تعالى . ومعلوم أن إبراهيم كان حينئذ نبياً والأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها فالخطيئة منهم هي مخالفة مقتضى المقام النبوي ، فكان استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم

---

[270] - راجع: أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 177.

، وهضم لأنفسهم ، وعن المغيرة بن شعبة قال : " قام النبي صلى الله عليه و سلم حتى تورمت قدماه فقيل له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال (أفلا أكون عبدا شكورا) " [271] .

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي وكل ذلك عندي . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير " [272] . وقال عليه الصلاة والسلام : " والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة " [273] .

ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب المداومة على استغفار الله تعالى والتوبة إليه توبة صادقة نصوحا . لأنه إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قد أمره سبحانه بالاستغفار ، في قوله : { فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ } [محمد: 19]. فأولى بغيره أن يواظب على ذلك ، لأن الاستغفار بجانب أنه ذكر لله تعالى فهو أيضا شكر له على نعمه . وإجلال لعظمته وكبريائه سبحانه [274] .

فإن مشاهدة عظمة الله تعالى تورث في القلب يقظة يرى في ضوئها أنه لو عمل أعمال الثقلين من البر لاحتقرها بالنسبة إلى جنب عظمة الرب تعالى وما يستحقه بجلال وجهه وعظم سلطانه ، ثم يبرق له في نور اليقظة بارقة أخرى يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله وما تقدم له من الجنايات والإساءات وهتك الحرمات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه رأى أن حق المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه، فطامن قلبه وانكسرت نفسه وخشعت جوارحه وسار إلى الله ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه وآفات عمله قائلا : " أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " [275] . فلا يرى

---

[271] - صحيح البخاري (4556)

[272] - صحيح البخاري (6035) ومسلم (2719)

[273] - صحيح البخاري (5948) .

[274] - راجع : تفسير الطبري 264/19، وتفسير الرازي 484/11 ، وتفسير الألوسي 253/14، وتفسير ابن كثير 147/6 ، 7/ 317 ، 316/7 ، وتفسير طنطاوي 3167 ، 3892 ،

[275] - صحيح البخاري (5947) .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لنفسه حسنة ولا يراها أهلا لخير فيوجب له أمرين عظيمين : أحدها: استكثار ما من الله عليه ، والثاني استقلال ما منه من الطاعة كائنة ما كانت [276]. وهذه المشاهدة واليقظة توجب انكسار القلب بين يدي الرب كسرة تامة قد أحاطت به من جميع جهاته وألقته بين يدي ربه طريحا ذليلا خاشعا لم يجد من ينجيه من سطوته ولم يجد منه بدا ولا عنه غناء ولا منه مهربا وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه وقد علم إحاطته بتفاصيل جناياته هذا مع حبه له وشدة حاجته إليه وعلمه بقوته وعزته مع ضعفه وعجزه ، فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه وما أعظم جبره بها وما أقربها من ربه فليس شيء أحب إلى الله من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والإنطراح بين يديه ، فهذا كله من آثار تلك المشاهدة وهذه اليقظة وموجباتها ،وهي أول منازل النفس المطمئنة التي نشأ منها سفرها إلى الله والدار الآخرة [277].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

276 – أنظر: ابن القيم ، الروح ، 224-225 ، ومدراج السالكين 186/1

277 – المصدر السابق نفسه .

- الفصل الثالث -

دور قصة إبراهيم عليه السلام
في البنـــاء النفســـي

لرجاء الله تعالى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* تمهيد :

لقد عمل القرآن على البناء النفسي لرجاء الله في قلب المؤمن بوصفها مشاعر دينية مرتبطة بالعقيدة ، لأنه يستمد بواعثه من روح البشرى بوعد الله من الثواب والأجر العظيم ، ومن الطمع برحمة الله وفضله وإحسانه ، ومن الرجاء بقدرة الله وهيمنته وسلطانه في تحقيق العبد ما ينفعه ودفع ما يضره ، ومن افتقاره التام لله فهو لا غنى له عنه تعالى مطلقاً . وعليه فإن الرجاء في الله تعالى أصل عظيم لا تتحقق العبودية لله تعالى بدونه ، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره . لأن الإنسان لا يخلو من ذنب يرجو غفرانه ، وعيب يرجو إصلاحه ، وعمل صالح يرجو قبوله ، واستقامة يرجو حصولها ودوامها ، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله اليها، ودرجات في نعيم الخلد يرجو بلوغها ، ودركات في نار جهنم يرجو النجاة منها ، ولا ينفك أحد من السالكين إلى الله من هذه الأمور أو بعضها [278].

فتعلق القلب بالله في كل ما يرجو هو الذي يحرر الإنسان من العبودية والذل والخضوع للبشر، وتعده لمواجهة الصعاب ليتجاوز كل عقبة ويذلل كل عائق ، وتجعل للطاعة حلاوة تبعث في نفسه الاستبشار في ثواب الله وأجره العظيم قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة: 218].

فالرجاء في الله شعاع الأمل الذي يضيء له معالم الطريق ويهدية إلى سبيل النجاة ، وهو الحبل المتين الذي يتعلق به العبد حين تشتد به الأزمات والمحن، ليفزع إلى من بيده ملكوت كل شيء ويلجأ إلى من بيده مفاتيح الفرج قال تعالى : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } [البقرة: 214]. فرجاء الله هو فسحة الأمل الذي يبعث في نفس صاحبه التفاؤل والبشرى ويزيل عنه التشاؤم والقنوط، لأن الرجاء علاج فعال للنفس ووقاية لها من العلل والامراض [279]. وعليه فإن الرجاء أمر ضروري لا غنى للعبد عنه في تحقيق العبودية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[278] - أنظر ابن القيم ، مدارج السالكين، ج2، ص43.

[279] - راجع الدكتور فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي، ص 511-513، ص522-544 ، والدكتور يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة ، ص156-159، زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ص 306-307.

لله تعالى ، ولأهمية هذه العاطفة الدينية في سلامة المعتقد واستقامة السلوك ، ودورها البارز في تصويب توجهات مشاعر الفطرة إلى الله وحده في كل ما ترجوه من جلب نفع ودفع ضرر ، بحيث تحمي الفطرة من عوامل التدمير حينما تتحرر من التعلق بغير الله .

فقد عمل القرآن على تكوين عاطفة الرجاء في قلب العبد المؤمن لتحقق أثرها الايجابي والفاعل، في حياة المسلم .ويمكن أن نبين منهج القرآن في بناءه النفسي لعاطفة رجاء الله تعالى في ضوء قصة إبراهيم عليه السلام من خلال أمرين :

* المبحث الأول: التأسيس الفكري لرجاء الله تعالى

* المبحث الثاني : التربية النفسية لرجاء الله تعالى .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـــ المبحث الأول ـــ

التأسيس الفكري لرجاء الله تعالى

لقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام دوراً واضحاً في تكوين عاطفة الرجاء في الله تعالى لدى المسلم ، من الوجهة الفكرية ، حيث عمل على التأسيس الفكري لعقيدة الرجاء في الله تعالى . فقد كان عليه السلام في رجاءه لربه صور مضيئة في صفحات الإيمان التي سجلها القرآن لتبقى خالدة عبر مسيرة التاريخ الإنساني ، ومعلماً من معالم الهدى في أبهى صورها . فقصته عليه السلام قد جمعت معاني رجاء الله ، بحيث تحدد مفهومها ، وتضبط مسارها ، وتصوب توجهاتها الشعورية وفق مراده تعالى . وسوف أن نتعرف على طريقة إبراهيم عليه السلام في التأسيس الفكري والتأصيل العقدي للبناء النفسي لعاطفة رجاء الله تعالى في القلب، من خلال ما قصّه علينا القرآن عن إبراهيم عليه السلام ، والتي يمكن أن نجملها على النحو الآتي:

ــ المطلب الأول : ضبط المفهوم العقدي والشرعي لرجاء الله تعالى .

أولاً. معنى الرجاء لغة واصطلاحاً:

1. **أما معنى الرجاء لغة** : فهو نقيض اليأس، وهو يأتي بمعنى التوقع والأمل، وقد يأتي بمعنى الخوف الذي يكون فيه جحد كقوله تعالى : { مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا } [نوح: 13]. والمعنى لا تخافون لله عظمة [280]. فالرجاء والطمع :" هو توقع محبوب عن إمارة مظنونه أو معلومة – أي: أن الرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة " [281].

2. **وأما معنى الرجاء في الاصطلاح** : " هو تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل " [282] . وأما رجاء الله تعالى : " فهو الاستبشار بجود فضل الرب تبارك وتعالى ، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه،

---

[280] – انظر ابن منظور لسان العرب، ج64، ص309

[281] – انظر الراغب الأصفهاني، ص190

[282] – علي الجرجاني، التعريفات : ص146.

وقيل هو الثقه بجود الرب، والفرق بينه وبين التمني ، أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل "[283]. وأن ما يعنينا في هذه الدراسة هو الرجاء في الله تعالى بمفهومه العقدي المنضبط بنصوص الشريعة، التي أراد الله من عباده أن يحققوه في نفوسهم وأن يتمثل في واقع حياتهم .

ثانياً. المفهوم العقدي والشرعي لرجاء الله تعالى:

ان رجاء الله تعالى هو ثمرة المعرفة بالله تعالى، ومشاهدة أسمائه الحسنى وصفاته؛ من الجمال والجلال والكمال، والتي تبعث في نفس المؤمن الأمل والطمع فيما عند الله من ثواب وأجر ، والاستبشار برحمته الواسعة ومغفرته وعونه وتوفيقه ونصره وتأييده، وهي ثمرة الثقة بوعد الله تعالى والتصديق الجازم بوعده القادم، وسنته الجارية، وبحسب هذه المعرفة وقوتها يكون الرجاء في الله تعالى في القلب، وهذا الرجاء يرتبط مفهومه بالعقيدة وينضبط بنصوص الشريعة، ولقد بين سبحانه مفهومها من خلال النصوص الشرعية، والتي يمكن أن نجملها على النحو الآتي [284] :

أولاً : أن الرجاء عبادة لا تصرف لغير الله لقوله تعالى : { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف: 110].فمن كان يرجو) ويأمل (لقاء ربه) وموعوده وثوابه (فليعمل عملاً صالحاً) وهو الموافق لشرع الله (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) لا رياءً ولا سمعةً ولا يصرف العبادة لغير خالقه ، بل يجعل أعماله كلها خالصة لوجه الله, فمن جمع بين الإخلاص لله تعالى والموافقة لشرعه نال ما يرجو ويطلب, ومن عدمَ ذلك فإنه خاسر, وفاته القرب من مولاه, ونيل رضاه . وقد أمر الله بتعليق الرجاء به فقال : { مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا } [نوح: 13]. والمسلم يعلق آماله وأطماعه ورجاءه بالله قال تعالى : { إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } [النساء: 104]. وإن الطمع في رجاء الله يوجب التأسي بالأنبياء والرسل : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب: 21]. وقد توعد سبحانه من لا يرجو فضله [285] . قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ } [يونس: 7].

---

[283] – ابن القيم ن مدارج السالكين، ج2، ص35.

[284] – انظر : زكريا الشلول ، أثر العقيدة في السلوك الإنساني، 308-318

[285] – راجع : عبد المحسن بن محمد القاسم ، تيسير الوصول إلى الثلاثة الأصول . ط1 1427هـ

ثانياً. إن رجاء الله تعالى يستند إلى عقيدة التوحيد من الإيمان بالله تعالى والثقة بوعده وهو ثمرة اليقين الجازم بأن الله تعالى هو وحده الخالق المالك والقادر على الضر والنفع وأنه هو الفعال لما يريد، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذا ما بيّنه إبراهيم في قوله تعالى : { وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا } [الأنعام: 80]. فقد جادله قومه فى توحيد الله ، وخوفوه غضب آلهتهم ، فقال لهم : لا أخاف غضب آلهتكم التي تشركونها مع الله ، لكن إذا شاء ربى شيئاً من الضر وقع ذلك ، لأنه وحده القادر ، وقد أحاط علم ربي بالأشياء كلها ، ولا علم لآلهتكم بشيء منها . أتغفلون عن كل ذلك فلا تدركون أن العاجز الجاهل لا يستحق أن يعبد ولا يرجى في جلب نفع أو دفع ضر [286]

. وإنما الذي ينبغي التوجه له في العبادة والقصد والطلب هو من بيده كل شيء ، قال تعالى : { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا } [الإسراء: 54]. وقال تعالى : { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنعام: 17]. فالله تعالى وحده الذي بيده جلب النفع ودفع الضر فلا مانع لأمره ولا راد لقضائه قال تعالى : { قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } [الأحزاب: 17]. ولقد أنكر إبراهيم عليه السلام على أبيه وقومه عبادة تلك الأصنام التي لا يرجي منها نفعاً ولا ضراً ، قال تعالى : { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } [مريم: 42]. إن الله تعالى هو وحده المهيمن على الوجود كله ، وليس له شريك في ملكه فهو المتفرد فيه ، وهذا يستلزم ألا تكون العبادة إلا له، والرجاء لا يكون إلا فيما عنده قال تعالى : { وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا } [الفرقان: 3]. وقال تعالى : { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [المائدة: 76]. وهذا ما أكده النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : " وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك" [287]. وبهذا الجزم القاطع، تنتفي كل خلجة شعور برجاء غير الله تعالى، او الالتجاء لاحد سواه في جلب نفع او دفع ضر، لأن رجاء غير الله منافي لمقتضيات التوحيد ومناقض لمفهوم العقيدة .

---

[286] – أنظر: تفسير المنتخب ،لجنة من علماء الأزهر ، 217/1 .

[287] – رواه الترمذي ، سنن الترمذي، رقم الحديث " 2516" ج4، ص667، كتاب صفة القيامة والرقائق، قال الترمذي حسن صحيح وقال الألباني: صحيح.

ثالثاً : إن حقيقة الرجاء علاوة على أنه ثقة بوعد الله تعالى والتصديق الجازم باسمائه وصفاته إلى انه يمثل حقيقة الإفتقار والاحتياج إلى الله تعالى وحده قال تعالى : { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ } [فاطر :13-15]. إن مقتضى توحيد الله تعالى والاعتقاد به هو أن لا يرجو العبد في قضاء حوائجه إلا الله تعالى وحده، وأن يتوجه له وحده في الافتقار في القصد والطلب والسؤال والدعاء والاستعانة والاستعاذة والشفاعة والتوسل والتقرب، وإلا فهو الشرك في العبودية لغير الله، وهذا النوع من الشرك في الرجاء يقع فيه كثير من الناس مصداقاً لقوله تعالى : { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ } [يوسف: 106]. ومن هذا الشرك في القصد والطلب والرجاء لغير الله تعالى يتفرع عنه أنواع من الشرك مثل : شرك الدعاء ، وشرك التوسل والتزلف ، وشرك الشفاعة .

رابعاً : إن القرآن فرق تفريقاً حاسماً بين الرجاء والأماني من حيث المفهوم ، والمصدر، والحكم وهي على النحو الآتي [288].

1. أما من حيث المفهوم : فلقد حدد القرآن مفهوم الرجاء وجعله معقوداً بالعمل الصالح مرتبطاً به ارتباط الشرط بالجزاء قال تعالى : { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } [الكهف: 110]. وهذا يتضمن معنى إيجابياً قوامه الأمل والاستبشار المقترن بالعمل الجاد الصالح، قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة: 218]. أما الأماني فهي على النقيض تماماً فهي تعطيل للعمل الصالح، وتحلل من التكاليف ، وملهاة تصرف عن تعقل السنن الإلهية، فهي أماني خادعة وأوهام باطلة صارفة عن حقائق الوجود. قال تعالى : { ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر: 3].

وعليه فإن الرجاء بالمفهوم القرآني هو الرجاء الايجابي العامل النابع من عقيدة التوحيد الخالص مشوباً بالخشية، والمهابة من الله تعالى واستشعار عظمته، فالرجاء الحق هو الذي يقوم على أساس العمل الصالح المثمر البناء وإلا غدا خواء كالأماني الكواذب أو ملهاة تصرف الإنسان عن تعقل السنن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

288 – راجع: فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي، ج2، ص 509-570.

وحقائق الوجود، وانه ليس هناك رجاء يقبل فيستجاب عند الله تعالى من الوجهة القرآنية إذا كان منقطعاً عن العمل الجاد المتقن وإلا كان مفرغاً من محتواه العقائدي .

2. **أما من حيث المصدر**: فإن الرجاء مصدره نابع من العقيدة نفسها، من الإيمان بالله وتوحيده في أسمائه وصفاته وأفعاله استلزاماً حتمياً، إذ لا يتصور عقلاً إيمان صادق بالله دون الرجاء فيه أو حسن الظن به أو أمل مستبشر في رحمته وفضله وإحسانه، والطمع فيه على وجه الافتقار إليه في قضاء حوائجه ونصره وعونه وتأييده وإلا كان "الاستغناء عن الله المنافي لصدق الاعتقاد : { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى } [العلق: 6]. فقد جعل الله التضرع ــ والذي هو أبلغ من الرجاء في المعنى ــ علامة على صحة الاعتقاد وصدق العبودية بدليل قوله تعالى : { فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) [الأنعام: 42-43].

كما نلاحظ أن الله قد رتب نزول العذاب على عدم التضرع إليه ورجاءه في كشف الضر . فالرجاء في الله هو مظهر للعبودية الصادقة، وهو من صميم الإعتقاد بالله تعالى وحسن الظن به والافتقار إليه، قال تعالى : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ } [الأنفال: 9-10]. وعليه فإن الرجاء في الله هو مصدره العقيدة من التوحيد الخالص في المقام الأول علاوة على أنه يثمر عملاً إيجابياً منتجاً. أما الأماني فهي ضرب من الأوهام الكاذبة التي مصدرها غرور الشيطان والإستهواء النفسي واتباع الظنون، فأما كونه من غرور الشيطان ووعده وتسويله لقوله تعالى : { يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا } [النساء: 120]. وأما كون مصدره الإستهواء النفسي من إتباع الهوى قال تعالى : { ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر: 3]. لقوله صلى الله عليه وسلم: " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني" [289]. وأما كونه ظنونا كاذبة لقوله تعالى : { وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ } [البقرة: 78].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

289 – رواه الترمذي، سنن الترمذي، رقم الحديث"2459" ج4. ص 628، كتاب صفة القيامة والرقائق، قال الترمذي: حديث حسن، وقال الألباني: ضعيف.

3. **أما من حيث الحكم** : إن رجاء الله تعالى نابع من عقيدة التوحيد الخالص من الطمع برحمة الله تعالى مقترناً بالعمل الصالح ، فهو من حيث الوصف الشرعي فإن حكمه أنه "مفروض شرعاً " . فهو من اللوازم الحتمية للإيمان إذ لا يتصور خلو نفس المؤمن من الأمل المرجو في الله تعالى: مغفرةً، ورحمةً، ونصرةً، وعوناً، وإنعاماً . فإن خلت هذه البواعث والآمال من القلب فإن ذلك يرجع إلى عدة أمور:

الأول: ضعف الثقة بالله تعالى وبوعده ، وهذا ينافي صدق الإيمان ومقتضاه.

الثاني: الاستغناء عن الله وعدم الافتقار إليه وهذا طغيان يناقض مقتضى التوحيد الخالص .

الثالث: تمكن اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، وهذا قرين الكفر .

فهذا إبراهيم عليه السلام يقول : { قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر: 56]. وهذا ما قاله كذلك حفيده يعقوب ، في قوله تعالى : { وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87]. وهذه الأسباب يكفي كل واحد منها لدخول صاحبها في الكفر والخروج من الإسلام .

ومما تقدم يتضح الفرق الحاسم والواضح بين الأماني الباطلة والفاسدة والمظلة المبتورة عن العمل الصالح وبين الرجاء العقائدي الإيجابي المعقود بالعمل المثمر البناء مفهوماً ومصدراً وحكماً ، على ما قرره القرآن وأكد عليه لأن باب الرجاء ضل به كثير من الخلق، فكان مدخلاً للانحرافات العقدية التي تركت آثارها السلبية في حياة المسلم الذي بات يعيش على خدر الأماني الجوفاء، متعلقاً بأبواب الرجاء المبتور عن شرطه الأساس، من العمل الجاد الصالح، البناء المثمر ، وكذلك تركت آثارها السلبية على واقع الأمة الإسلامية من العقود عن القيام بأعباء رسالة الإسلام الخالدة ، فكان هذا الانحراف في التصور له من المفاسد الخطيرة التي يجب درؤها وبيان حرمتها بما جاء فيها من آيات هي في غاية الشدة والوعيد ، وبيان مفهوم رجاء الله العقدي والشرعي الذي ينبغي على العبد أن يحققه في بنائه النفسي ، وأن يؤدي المقتضى التعبدي لهذه الحقيقة الإيمانية بحيث يتمثل بها علماً وحالاً وعملاً[290].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

290 – راجع: المرجع السابق نفسه.

ــ المطلب الثاني : التأصيل الفكري للرجاء العقائدي التوحيدي .

إن إبراهيم عليه السلام يضع لرجاء الله تعالى تأصيلاً فكرياً ، ويؤسس الجانب النفسي للعقيدة على أسس عقلية ثابتة ، ليضبط بها التوجهات الشعورية للفطرة ويصلها بخالقها سبحانه وتعالى ، لتكون هذه الصلة بالله تعالى قائمة على أسس راسخة ومتينة ، ومن الشواهد التي تبين ذلك نذكره على النحو الآتي :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر: 54-56].

إن هذه الآيات في قصة إبراهيم عليه السلام تقرر حقيقة رحمة الله تعالى ، والذي يستلزم تعلق القلب بالله تعالى ورجاءه وحده ، وعدم القنوط من رحمته الواسعة ، وفي هذه القصة تجلت رحمة الله تعالى على إبراهيم وأهل بيته بإعطائهم الولد على خلاف السنن الجارية ، ومع انقطاع الأسباب المادية ، ومعلوم أن قدرة الله تعالى هي التي تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج ، وتغير الواقع كما تغير الموعود . وإن هذه الأسباب إنما تجري وفق مشيئته الله تعالى وهذا ما فعله الملائكة من أمر خبر البشرى لإبراهيم وزوجه ، وإزالة الدهشة والتعجب عن إبراهيم وزوجته برد الأمر كله لله تعالى ، وجريانه وفق مقتضى رحمته ، التي اختص بها سبحانه إبراهيم وأهل بيته :

ــ أما تعجب زوجة إبراهيم ، ففي قوله تعالى : { قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود: 73]. فقد عللت الملائكة إنكارهم على زوجة إبراهيم بما يزيل تعجبها لأن يكون لها ولد ، بشمول رحمة الله تعالى لهم ، والمعنى : لا عجب من أمر الله لأنّ إعطاءك الولد رحمة من الله وبركة ، فلا عجب في تعلّق قدرة الله بها وأنتم أهل لتلك الرحمة والبركة فلا عجب في وقوعها عندكم . ووجه تعليل نفي العجب بهذا أن التعجب إمّا أن يكون من صدور هذا من عند الله وإما أن يكون في تخصيص الله به إبراهيم عليه السّلام وامرأته ، فكان قولهم: { رحمت الله وبركاته عليكم } مفيداً تعليل انتفاء العجبين . ثم أكدوا ذلك بقولهم : { إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ } . وهو تذييل حسن لبيان أن مقتضى حالها هو وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اليأس من الحمل . فهو فاعل ما يستوجب به الحمد والتمجيد من عباده لكثرة نعمه وسعة كرمه وإحسانه عليهم [291] .

ـــ وأما تعجب إبراهيم ، ففي قوله : { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُون } . فقد استبعد إبراهيم عليه السلام في أول الأمر أن يرزق بولد وقد مسه الكبر وزوجته كذلك عجوز عقيم ، وأكد هذا التعجب بالاستفهام الثاني بقوله : { فَبِمَ تُبَشِّرُونِ } . وقد علم إبراهيم عليه السلام من البشارة أهم ملائكة صادقون فتعين أن الاستفهام للتعجب ، فرده الملائكة إلى اليقين ، بأهم بشّروه بالخَبَر الثابت الذي لا شك فيه :{ قالوا : بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين } . أي: من اليائسين ، فقد نهوه عن استبعاد ذلك ، فاستبعاده يفضي إلى القنوط من رحمة الله . ولما كان إبراهيم عليه السلام منزّهاً عن القنوط من رحمة الله جاءوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب ، فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين ، ولم يفرضوا أن يكون هو قانطاً لرفعة مقام نبوته عن ذلك . وقولهم : { فلا تكن من القانطين }. لا يدل على أنه كان كذلك ، بدليل أنه صرح في جوابه لهم بما يدل على أنه ليس كذلك فقال : { وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون } فقد كان استعجاب إبراهيم عليه السلام ودهشته هو وزوجه باعتبار العادة دون القدرة . وهو استفهام إنكار في معنى النفي ، ولذلك استثنى منه { إلا الضالون } . يعني أنه لم يصبيه القنوط من رحمة الله ، ولكنه تعجب بحسب العادة لا القدرة ، وقد نفى عن نفسه القنوط من رحمة الله بأبلغ وجه ، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً . وفي قوله: { وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون } . تأسيس للمعتقد الإيماني في انتفاء أخطر آفة من آفات الكفر ، وتقرير حقيقة كلية من كليات الإيمان : أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور :

أولها : أن يجهل كونه تعالى قادراً عليه .

ثانيها : أن يجهل كونه تعالى عالماً باحتياج ذلك العبد إليه .

وثالثها : أن يجهل كونه تعالى منزهاً عن البخل والحاجة والجهل .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

291- راجع : تفسير الرازي، 260/1، 443/8،وتفسير الالوسي،453/1،307/8،وتفسير البقاعي 178/4،وتفسير الظلال 253/4-254، وتفسير ابن عاشور، 324/4 ، 172/7 ، وتفسير السعدي 386 ، وتفسير طنطاوي ، 645، 2234، وتفسير اللباب، 136/9

فكل هذه الأمور سبب للضلال ، فلهذا المعنى قال : { وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون } . أي : الضالون عن طريق الله ، الذين لا يستشعرون رحمته وبره ورعايته . فأما المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، فإنهم لا ييأسون من روْح الله ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق . وإن المؤمن لفي روح من ظلال إيمانه ، وفي أنس من صلته بربه ، وفي طمأنينة من ثقته بمولاه ، وهو في أشد الكروب . فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيّأ لها أسبابها ، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يُحيل مثل ذلك فحقّه أن يأخذ في سببه ويعتمد على الله في تيسيره ، وأما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها . ويتعلقون بالأسباب لأنهم يعتقدون أنها فاعلة بذاتها ، لذلك فقد بث سبحانه روح الأمل والرجاء بسعة رحمته تعالى ، وتعلق القلب بها في كشف الضر وتفريج الكروب [292].

فهذا زكريا عليه السلام ، حينما شاهد الرزق عند مريم مع أنه لا يدخل عليها أحد سواه كان ذلك محل عجبه ، لذا حكى القرآن عنه : { كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران: 37]. لذلك فقد سألها عن مصدر هذا الرزق العظيم الذي لا يعرف سببه ومصدره . ولقد كانت إجابة مريم على زكريا تدل على قوة إيمانها ، وصفاء نفسها . فقد أجابته بقولها : { قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ } فهو الذي رزقني إياه وساقه إلي بقدرته النافذة . وقوله: { إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } جملة تعليلية . أي : إن الله تعالى ، يرزق من يشاء أن يرزقه رزقا واسعا عظيما لا يحده حد ، ولا تجرى عليه الأعداد التي تنتهي ، وقولها : { بغير حساب } يشعر بأنه عطاء متصل ، فلا يتحدد ولا يتعدد ، فهو رزق لا متعقب عليه ، لأن كل محسوب في الإبداء محاسب عليه في الإعادة ، فكان في الرزق بغير حساب بشرى برفع الحساب عنهم في المعاد وكفالة بالشكر عنه ، لأن أعظم الشكر لرزق الله سبحانه وتعالى معرفة العبد بأنه من الله تعالى ، إنما يشكر رزق الله من أخذه من الله سبحانه وتعالى فهو سبحانه لا يحاسبه محاسب ، ولا تنقص خزائنه من أي عطاء مهما كثر وعظم .

فهذه الآيات التي حكاها القرآن عن مريم وأمها نرى كيف يعمل الإيمان عمله في القلوب فينقيها ويصفيها ويحررها من رق العبودية لغير الله الواحد القهار وكيف أن الله تعالى ، يتقبل دعاء عباده

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

292- راجع : تفسير الرازي ، 9/ 320-321 ، وتفسير البحر المحيط لابو حيان ، 198/7 ، وتفسير الألوسي ، 115/9 ، 29/10 ، وتفسير السعدي ، 433، وتفسير طنطاوي ، 2475 ، وتفسير ابن عاشور ، 485/7-486 ، وتفسير الظلال ، 442/4-444 ، فتح المجيد ، لمحمد عبد الوهاب ، 346 ، القصص القرآني لصلاح الخالدي ، 424-426

الصالحين ، وينبتهم نباتا حسنا ، ويرعاهم برعايته ، يرزقهم من حيث لا يحتسبون . ولقد كان ما رآه زكريا عليه السلام من أحوال مريم من الأسباب التي جعلته وهو شيخ هرم ، يتضرع إلى الله أن يرزقه الذرية الصالحة ، وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال تعالى : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } [آل عمران: 38]. وقوله :{ هُنَالِكَ دَعَا } والمعنى : عندما عاين زكريا تلك الكرامات عند مريم المتبتلة العابدة يرزقها الله رزقاً خاصاً خارقاً للعادة من غير الأسباب المعتادة ، حركت في طوية نفسه الأمل في طلب الولد بعدما فاتته الأسباب الجارية ، وقوي في قلبه الرجاء بتحصيلها بالسنن الخارقة ، فاشتد رجاءه وهو يرى نفسه غير بعيد عن عناية الله وتحصيل كرامته ، ولا سيما وهو في زمن الفيض الإلهي ومكانه ، فالذي أكرم هذه الفتاة الطاهرة بالرزق في غير وقته ، قادر على إكرام الشيخ الكبير بالولد في غير أوانه ، فدعا الله تعالى بقلب سليم ، وبنفس صافية وبجوارح خاشعة ، أن يرزقه الذرية الصالحة .

وقد حكى القرآن دعاءه بأسلوبه المؤثر فقال : { قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدعآء } . الفائدة في قوله: { من لَّدُنْك } هو أن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة فلما طلب الولد مع فقدان تلك الأسباب كان المعنى : أريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من هذه الأسباب . أي : قال زكريا مناجيا ربه : يا رب أنت الذي خلقتني ، وأنت الذي لا يقف أمام قدرتك شيء ، وأنت الذي جعلتني أرى من أحوال مريم ما يشهد بقدرتك النافذة وفضلك العميم فهب لي يا خالقي من عندك ذرية صالحة تقر بها عيني ، وتكون خلفا من بعدى .

وقوله تعالى : { إِنَّكَ سَمِيعُ الدعاء } المراد أنه يجيب دعاءه ولا يخيب رجاءه ، وهذا متأكد بما قال تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام في سورة مريم : { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً } [مريم: 4].والمعنى : أنك عليم بدعائي علم من يسمع ، قريب الإجابة لمن يدعوك ، فإن أجبت لي سؤالي فبفضلك وإن لم تجبه ، فبعدلك وحكمتك . فأنت ترى في هذا الدعاء الذي صدر عن زكريا عليه السلام أسمى ألوان الأدب والخشوع والإنابة . فقد رفع أكف الضراعة في مكان مقدس طاهر ، وفي التعبير بقوله { دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ } إشارة إلى تسليمه لله وإلى شعوره بقدرة الله على كل شيء ، فهو الذي خلقه ورباه وتولاه برعايته في كل أدوار حياته . وفي قوله { هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ } إشعار بأنه يريد من خالقه عز وجل أن يعطيه هذه الذرية بلا سبب عادى ، ولكن بإرادته وقدرته لأنه لو كان الأمر في هذا العطاء يعود إلى الأسباب والمسببات العادية لكان الحصول على الذرية مستبعداً إذ هو قد

بلغ من الكبر عتيا وزوجته قد تجاوزت السن التي يحصل فيها الإنجاب في العادة . أي: هب لي من عندك لا من عندي ، لأن الأسباب عندي أصبحت مستبعدة . وفي تقييد الذرية بكونها طيبة ، إشارة إلى أن زكريا لقوة إيمانه ، ونقاء سريرته ، وحسن صلته بربه ، لا يريد ذرية فحسب وإنما يريد ذرية صالحة يرجى منها الخير في الدنيا والآخرة . وجملة { إِنَّكَ سَمِيعُ الدعآء } تعليلية ، أي إني ما التجأت إليك يا إلهي إلا لأنك مجيب للدعاء غير مخيب للرجاء . إن عدم التعلق بالأسباب ، يقوي الرجاء في الله تعالى فلا يعود القلب يرى غير فعله وفاعليته في هذا الوجود ، لأنه يعلم أن هذه الأسباب الظاهرة المرئية إنما هي بيد الله تعالى وفي قبضته ، وإدراك هذه الحقيقة تسكب في قلب المؤمن الطمأنينة ، وتجعله يتعلق بالله تعالى في القصد والطلب والرجاء، ليخرج الأسباب من قلبه ويجعل خطامها بيده يسوقها كما أمره تعالى [293].

لذلك فمن عرف سعة رحمة الله وفضله العظيم فإنه يتوجب عليه أن لا يقنط من رحمته الواسعة وعليه أن يتوجه إليه وحده بالقصد والطلب ، والدعاء والاستعانة ، فهو سميع الدعاء ، يسمع عبده حين يناجيه ، ويستجيب له حين يناديه ، فلا مجيب إلا الله وحده ، قال تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة: 186].

وأما الكفرة المخطئون فهم الذين يقنطون من رحمة الله تعالى ، ويضلون طريق معرفة الله تعالى فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى قاله أيضاً يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لبنيه في قوله : { يابني اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ الله إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون } [يوسف : 87]. أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه ، فقد جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين . إذ فيه إما التكذيب بالربوبية ، وإما الجهل بصفات الله تعالى . فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته ، وعن ابن مسعود قال : " أكبر الكبائر : الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله " [294]. فإن أريد باليأس إنكار سعة الرحمة للذنوب أو تفريج الكروب ، وبالأمن اعتقاد أنه لا مكر ، فكل منهما كفر اتفاقاً ، لأنه رد للقرآن العظيم ، وينافي حقيقة التوحيد ، وإن أريد استعظام الذنوب واستبعاد العفو عنها

---

[293] - راجع : تفسير الطبري ، وتفسير طنطاوي ، وتفسير ابن عاشور ، صلاح الخالدي ، القصص القرآني ، 112/4.

[294] - رواه عبد الرزاق في مصنفه برقم:(19701)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

استبعاداً يدخل في حد اليأس وغلبة الرجاء المدخل له في حد الأمن فهو كبيرة اتفاقاً ، وهو ينافي كمال التوحيد . وليس لأحد حجة في القنوط أو اليأس من روح الله تعالى [295].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } [الشعراء: 82].

إن إبراهيم عليه السلام يتوجه إلى الله تعالى يرجو رحمته ومغفرته وهو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب، بقوله : { والذي أَطْمَعُ أن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين } . أي : وهو وحده الذي أطمع أن يغفر لي ذنوبي يوم ألقاه لأنه لا يقدر على غَفْر الذنوب في الدنيا والآخرة، إلا هو ، وهو الفعال لما يشاء . وهذه العبارة في حقيقتها إقرار بالإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر ، فهي إقرار لله باستحقاقه العبودية، وشعور بالتقصير في حقه تعالى ، والافتقار إلى عفوه، وطلب مرضاته، بالمسارعة لفعل الخيرات رهبة ورغبة فيما عنده تعالى . فإبراهيم عليه السلام الذي يعرف ربه ويحس بقربه . يعلمنا كيف ينبغي أن يكون شعور المؤمن ، وهو شعور التقوى ، وشعور الأدب ، وشعور التحرج؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة ، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل . فهو لا يعتمد على عمله ، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً ، إلا أنه يطمع في فضل ربه ، ويرجو في رحمته ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " قَارِبُوا وَسَدِّدُوا وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْتَ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ " [296].

فكان هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام فيه حسن الأدب مع ربه سبحانه، لأنه يوجه طمعه في المغفرة إليه وحده ، ويستعظم ما صدر منه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، ويعتبرها خطايا، ومعلوم أن إبراهيم كان حينئذ نبياً والأنبياء معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها فالخطيئة منهم هي مخالفة مقتضى المقام النبوي ، فكان استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه (10) .فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: "يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟" [297]. ومن أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه أنه أطلق على رجاء المغفرة لفظ الطمع، بقوله

[295] – راجع تفسير طنطاوي ، ص 2344

296 – صحيح مسلم : رقم الحديث 7295.

297 – صحيح مسلم برقم 2820، مسند أحمد (155/6) .

: { أَطْمَعُ } ولم يجزم القول بالمغفرة . فهو طمع العبد في أفضال مولاه لا على الاستحقاق ، مباعدة لنفسه عن هاجس استحقاقه المغفرة وإنما طمع في ذلك لوعد الله بذلك . حيث أسند الخطيئة إليه فقال : { خطيئتي }. تواضعاً لله تعالى وطرحا لأعماله وإشارة إلى أنه بالنسبة إلى عظمة الله غير قادر على أن يقدرها حق قدرها ، وهذا فيه تعليم للأمة في تفويض رجاءها إلى الله تعالى وحده ، وأن لا تقنط من سعة رحمته سبحانه وتعالى ، فرحمة الله تسع جميع الذنوب [298] ، قال تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر: 53]. إن هذه دعوة للعصاة المسرفين إلى الأمل بعفو الله ورجا مغفرته . ودعوة لهم أن لا يقنطوا من رحمته تعالى ، فإن الله رحيم بعباده . وهو يعلم ضعفهم وعجزهم فيمد لعبده في العون؛ ويوسع له في الرحمة؛ ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيئ له جميع الوسائل ليقيم خطاه على الصراط .

فإن العبد حين يسرف في المعاصي ، ويكثر من الذنوب ، ويحسب أنه طرد من رحمة الله ، فإنه يسمع نداء الرحمة الإلهية : { قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم } . إن موجب هذه الرحمة الواسعة والمغفرة لجميع الذنوب على العباد ألا يقنطوا من رحمته تعالى مهما أسرفوا على أنفسهم من الذنوب ولا ييأسوا من سعة عفوه ومغفرته عز وجل[299] ، قال تعالى : { وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87]. وفي الحديث: " من أكبر الكبائر القنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله عز وجل ، والأمن لمكر الله " [300].

ـ المطلب الثالث : التصويب الفكري لتوجهات الفطرة الشعورية في رجائها .

إن الإنسان يتجه بفطرته إلى ما يحقق له النفع ويدفع عنه الضر ، وهذا الرجاء الفطري يسير وفق الناحية المفهومية لدى الإنسان في التعلق بمن يحقق له ذلك ، وحين ينحرف الإنسان في مسار تفكيره إلى وجهة غير خالقه ، ويعتقد أن هناك من يملك القدرة على النفع أو الضر أو الرزق أو له حول أو قوة غير الله ، فإن هذا الإعتقاد يؤدي به إلى انحراف توجهات فطرته الشعورية في رجاءها وعقد أمالها

298- راجع : تفسير الطبري 264/19، وتفسير ابن كثير 146/6، وتفسير ابن عاشور 178/10 .

299- راجع تفسير الظلال ، 240/6 ، وتفسير ابن عاشور 365/13، وتفسير طنطاوي 3669 .

300- المعجم الكبير، الطبراني 156/9 ، حديث رقم (8785)

على غيره الله سبحانه ، ولهذا فقد عمل القرآن ابتداءً على تصحيح مسار التفكير لمفاهيم العقيدة: بأن الخالق المالك لهذا الوجود هو وحده من يملك الضر والنفع والرزق والحياة والموت وإجابة الدعاء ...إلخ . لأنه إذا اعتقد القلب هذه المفاهيم الصحيحة عن الخالق ، فإنه بالضرورة سيتم تصويب توجهات الفطرة الشعورية لتتجه إلى الله تعالى وتتعلق به وحده . فلا تدعو ولا ترجو ولا تخشى إلا الله ولا تتوكل إلا عليه سبحانه. ولذلك فقد عمل القرآن على تصحيح مفاهيم العقيدة ليربط الإنسان شعوره بالله تعالى: حباً، وخوفاً، ورجاءً، لكي تتجه له وحده بالدعاء والقصد والطلب على وجه العجز والاحتياج والذل والافتقار .

ونقف مع القرآن الكريم في تجلية دور قصة إبراهيم في تكوين الجانب النفسي لرجاء الله تعالى عن طريق التأسيس الفكري للمعتقد الإيماني ليصوب بها توجهات الفطرة الشعورية في رجاءها لله وحده ، ويمكن بيان دورها في هذا المجال من خلال أبرز هذه المفاهيم العقدية التي عمل القرآن على تصحيحها وهي :

أولاً. لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى :

ونقف مع قصة إبراهيم عليه السلام في تقرير حقيقة لا ضار ولا نافع إلا الله تعالى وما يقتضيها من موجبات تعلق القلب بالله تعالى وحده ، فيما يرجوه من نفع وما يدفعه عنه من ضر . ومن هذه الشواهد نذكر منها ما يلي :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) " .. إلى قوله .. " وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء: 72–80].

إن من شأن الرب أن يُلجأ إليه في الحاجة فيسمع دعاء من يرجوه ويقدر على كشف ضره فيستجيب له ، لذلك فقد ألقى إبراهيم عليهم استفهاماً عن حال هذه الأصنام هل تسمع دعاء من يرجوها وهل تنفع أو تضر تنبيهاً على دليل انتفاء الإلهية عنها ، وبطلان عبادتها والتوجه إليها في القصد والطلب والرجاء ، كونها عاجزة عن سماع دعاء من يدعوها حتى تستجيب له ، ولو سمعت فهي غير قادرة على أن تنفع من يرجوها أو تدفع عنه الضر . ولما سقط عن فعلهم منطق العقل تشبثوا بالتقليد ليدفعوا به الحجة التي أقامها عليهم إبراهيم عليه السلام ، وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إلا أن يعلن براءته وعداوته لهم ولمعبوداتهم ، واستثنى رب العالمين لأنه هو الذي بيده نفعه وضرّه ، وهو من يقدر على دفع الضر عنه وكشفه عنه إذا دعاه وذكر من جملة ذلك أنه إذا أصابه مرض فإنه يستجيب لدعائه فيشفيه ، لأنه وحده من يقدر على ذلك ، لا الذي لا يسمع إذا دعي، ولا ينفع ولا يضرّ. وإنما كان هذا احتجاجا على قومه، في أنه لا ينبغي أن يتوجه الإنسان في دعائه وقصده وطلبه واستغاثته وكل متعلقات الرجاء إلا بالله تعالى وحده . لا لمن لا يقدر على أن ينفع أو يضر ، أو لا يستجيب لمن يقصده ويرجوه لعجزه وهوانه[301].

ومعلوم أن الراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر ، فإذا اعتقد أن هناك أحد من الخلق يملك ذلك أو يقدر عليه من دون الله ، فإن هذا سيؤدي به إلى انحراف توجهات فطرته الشعورية ، بحيث يتعلق قلبه بالرجاء والقصد والطلب في تحصيل منافعه ودفع مضاره بمن يعتقد فيه هذه القدرة على الضر والنفع .

وهذا في حقيقته شرك من باب الرجاء ، وهذا النوع من الشرك يقع فيه كثير من الناس، وله آثاره الخطيرة على المستوى الفردي والجماعي ، أما على المستوى الفردي فإنه يؤدي به الضلال عن الوجهة التي ينبغي أن يقصدها ، والانحراف عن الغاية التي خلق من أجلها ، وإلى التيه عن تعقل سنن الوجود وتعقلها ، وإلى رد الأسباب إلى غير حقيقتها ، وهذا فيه هدر لطاقته واستنزاف لجهده وضياع لحياته . وأما على المستوى الجماعي ، فإنه يؤدي إلى ضعف الأمة وانهيارها ، ومن ذلك حدوث خلل في نسيج الأمة الداخلي وعدم تماسكه ، وقد ذكر لنا القرآن مثلا لذلك كما في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } [المائدة: 51-52]. فإن المسارعة في الارتماء إلى أحضان أعداء الله وأعداء المسلمين وولايتهم وإتباعهم، هو انحراف سلوكي ناشيء عن انحراف فكري لمفهوم الضر والنفع، فينشأ عنه انحراف نفسي من الذل والخضوع والاستخذاء ، والخوف من الناس وخشيتهم ، لقد كشف القرآن عن جذور هذا المرض الخطير ، حيث رد أسبابه هو عدم الفقه لحقائق الإيمان ، قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ

---

[301]- راجع ، تفسير الطبري، 362/19-364 ، وتفسير ابن كثير ،145/6، وتفسير ابن عاشـور ، 173/10-180 ، وتفسير طنطاوي ،3165-3167 ، وتفسيرالظلال ، 351/5-352.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ } [الحشر: 13].

لقد عالج القرآن هذا بتصحيح مفهوم الضر والنفع، بأنه بيد الله تعالى وحده وإن الناس لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً، ليصوب بذلك توجهات المشاعر النفسية من العزة والاستعلاء بدين الله والشجاعة، وأن لا يخشى في الله لومة لائم، مما يؤدي إلى سلوك إيجابي وهو ولاية الله والمسلمين ونصرهم والاعتصام بدين الله تعالى وعدم ولاية أعداء الله والمسلمين وقتالهم عند الاقتضاء [302]، قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } [الأعراف: 194-197].

لذلك فإن معالجة هذا النوع من الشرك هو بتصحيح مفاهيم العقيدة عن حقيقة الضر والنفع ، وانه بيد الله تعالى وحده ، فلا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذنه قال تعالى : { قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا } [الفتح: 11]. فلا أحد من الخلق يملك ضراً أو نفعاً إلا بإذن الله ، قال تعالى : { فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ } [البقرة: 102].

إن علة اتخاذ الناس أولياء من دون الله هو رجاء جلب نفع أو دفع ضر، وهذا الانحراف في توجه الفطرة إنما هو نابع من انحراف التصور، وإنه حين يتم تصحيح العقيدة بأن الأمر كله بيد الله وحده وهو صاحب القدرة المطلقة والمشيئة النافذة، فإنه سرعان ما يصاحبه الشعور بالتوجه إلى الله وحده بالرجاء والإلتجاء والافتقار والتوكل، قال تعالى : { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } [الزمر: 38]. بهذا الوضوح والحسم تتحقق عقيدة التوحيد ، التي تفرد الله وحده في

---

[302] – راجع : زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ، ص366-367

الضر والنفع وتنفي مشاركة غيره في ذلك ، ليتم تصويب توجهات الفطرة لتتجه مشاعرها إلى الله وحده في الرجاء والقصد والطلب[303] .

* الشاهد الثاني :

قال تعالى : { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء: 66-67].

لقد أبدى إبراهيم عليه السلام لقومه التضجر منهم ومن معبوداتهم ، وفَرَّع على الإنكار والتضجر استفهاماً إنكارياً عن عدم تدبرهم في الأدلة الواضحة من العقل والحس فقال : { أفلا تعقلون } .تنبيهاً على أن فساد ما هم عليه يدركه العقل بالبداهة ، وقد كشف عليه السلام زيف ألوهية أصنامهم وإبطال عبوديتها في كونها عاجزة عن النفع والضر ، فهي لا تقدر أن تنفع من يعبدها أو أن تكشف عنه الضر ، فالخلق مجبولون على الضعف ، عاجزون عن جلب النفع لأنفسهم ودفع الضر عنهم ، وهم عن غيرهم أعجز, فما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه ، إلا خاب ظنه فيه[304]. ولا يجني من ورائهم سوى الذلة والمهانة, فإذا تعلق المرء بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة, أو يدفعوا عنه مضرة, فإنه يخذل من جهتهم, ولا يحصل مقصوده ، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه ، إما لعجزهم ، وإما لانصراف قلوبهم عنه ، وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه, واستغاث به مخلصاً له الدين ، أجاب دعاءه وأزال ضرره ، وفتح له أبواب الرحمة[305].

فالعاقل لا يعلق رجاءه وأمله بغير الله تعالى . لأنه لن يجني سوى العدم وذل المسألة والتفريط في دينه والوقوع في الشرك الذي هو أعظم الظلم عند الله ، قال تعالى : { وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (106) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يونس: 106-107]. إن توجه الإنسان بالطلب والقصد على وجه الذل والافتقار لغير الله تعالى في جلب

---

[303] – راجع: أحمد فايز، طريق الدعوة في ظلال القرآن، ج2، ص 106-113. أبو يوسف محمد زايد.عباد يجبهم الغفار من الكتاب والسنة والآثار ص124

[304] – ابن تيمية ، الفتاوى الكبرى، 5/ 233 .

[305] – ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، 650/10

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ما ينفعه أو دفع ما يضره، هو نوع من الشرك حتى لو كان صاحبه ينطق بالشهادة لأن هذا ينافي مقتضاها ومعناها التعبدي [306]. قال تعالى : { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } [يونس: 18]. لذلك فقد أنكر سبحانه التوجه بالدعاء لغيره ، ووصف الاعتماد على غيره والتوجه لسواه في طلب العون، بأنه عين الضلال ، كقوله تعالى : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ } [الاحقاف: 5]. لأن المتصف بصفات الربوبية هو وحده من يستحق ان يعبد ويقصد ويتوجه له بالدعاء والافتقار مقرونا بالثناء والتعظيم لأن الله هو وحده من له دعوة الحق ودعوة ما سواه كفر وضلال ، كقوله : { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ } [الرعد: 14]. ان الافتقار إلى الله والتوجه له بالدعاء هو مخ العبادة قال صلى الله عليه وسلم : "الدعاء مخ العبادة"[307] ولقد توعد الله تعالى الذين لا يدعونه ووصفهم بالكبر قال تعالى : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر : 60]. وفي الحديث : " الدعاء هو العبادة، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: وقال ربكم ادعوني استجب لكم " [308].

فيجب على العبد أن يعلق رجاءه بالله دون سواه ، لأنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب السيئات إلا الله قال تعالى : { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ } [يونس: 107]. { مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ } [فاطر: 2]. والرجاء مقرون بالتوكل، فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة، والتوكل لا يجوز إلا على الله، كما قال تعالى : { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [إبراهيم: 12]. وقال تعالى : { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران: 173].

---

(306) راجع عثمان جمعة ضميرية، مدخل لدراسة العقيدة الاسلامية، ص316-319.

(307) رواه الترمذي : سنن الترمذي، رقم الحديث " 3371" ج5، ص456، كتاب الدعوات، قال أبو عيسى الترمذي: حديث غريب من هذا الوجه لا تعرفه إلا من حديث بن لهيعة، وضعفه الألباني.

(308) رواه الترمذي ، سنن رقم الحديث (2969) ج5، ص211، كتاب تفسير القرآن، قال الترمذي : حسن صحيح وقال الألباني: صحيح.

ثانياً : لا رزاق إلا الله وحده[309].

لقد قرر إبراهيم عليه السلام حقيقة الرزق ، وأنه بيد الله تعالى وحده فلا رازق على الحقيقة سواه. وبين مقتضى هذه الحقيقة وهو وجوب توجه الإنسان إلى الله وحده في طلب الرزق . فلا يرجو أحداً غيره في ابتغاء الرزق لأنه هو وحده مالك الأرزاق كلها ، فهو من يعطي ويمنع ، وليس للمخاليق شيء من ذلك ، ومن الشواهد في قصته عليه السلام على هذه الحقيقة، نذكر من ذلك :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [العنكبوت: 17].

بعد أن أبطل إبراهيم عليه السلام الشرك لقومه ببيان عجز آلهتهم عن نفع غيرها ورزقه ، وقرر حقيقة أنه تعالى هو وحده من يملك الرزق لعباده ، طالبهم بالمقتضيات التعبدية لهذه الحقيقة والتي من أول هذه المقتضيات هو ابتغاء الرزق من عند الله تعالى وحده لأنه هو من يملكه دون سواه ، بقوله : { فابتغوا عِندَ الله الرزق } أي اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم إلى الله فهو الذي عنده الرزق كله ، فاسألوه من فضله ووحدوه دون غيره ، فلا يشغلكم ابتغاء الرزق بالأسباب الظاهرة عن عبادته ، لأنه إذا كان هو المالك الحقيقي له فهو من يجب أن يقصد ويرجى في تحصيله ، وهو من يجب أن يعبد ويشكر لأنه المتفضل عليهم بالرزق وهو مالكه وواهبه لهم ، بقوله : { وَاعْبُدُوهُ } أي : متوسلين إلى مطالبكم ورجائكم بعبادته وشكره سبحانه وتعالى[310] .

إن اعتقاد هذه الحقيقة ، حقيقة أنه تعالى هو من يملك الرزق وليس أحد غيره ، من شأنه أن يحرر الإنسان من التعلق بالمخلوقين ورجائهم في تحصيله ، وهذا له أثره الإيجابي في صون كرامته وتعقله ، وحفظ جهده وطاقته . كما إن غياب هذه الحقيقة والانحراف عنها له أثاره السلبية والخطيرة في حياة الفرد والأمة ، لذلك نجد أن القرآن بمنهجه التربوي القويم قد عمل على معالجة هذا الانحرافات السلوكية في قضية الرزق من خلال تتبع جذورها الداخلية في باطن الإنسان الفكرية والنفسية ، ومن

---

[309]-راجع: أحمد فايز، طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص 98-105.

[310]- راجع : تفسير الألوسي 145/20 ، 311 ، ومختصر تفسير ابن كثير 39/3

ثم اقتلاعها من أصولها ، وهذه هي طريقة القرآن في معالجة الانحرافات السلوكية حيث يكشف عن المؤثرات الفكرية والنفسية التي نشأ عنها هذا الانحراف السلوكي ويعمل على معالجته من جذوره، بتصحيح مسار التفكير ألاعتقادي ، لتصويب المشاعر النفسية، من أجل تحقيق استقامة السلوك. فالانحراف السلوكي هو أثر سلبي ناشيء عن مؤثر سلبي بالضرورة، ولا يمكن معالجته إلا بمعالجة مؤثراته وهذا المؤثر يكمن في الأساس الفكري والأساس النفسي، لأن السلوك الإنساني يتأثر بهما وينشأ عنهما، وان أي خلل فيهما يؤدي إلى خلل في السلوك . فحالة عدم الإجمال في طلب الرزق، والسعي في تحصيله بالطرق غير المشروعة ، هو انحراف سلوكي، ناشيء عن انحراف فكري لمفهوم الرزق، فينشأ عنه انحراف نفسي بالقلق والخوف على الرزق وابتغائه من عند غير الله ، وتحمل الذل والهوان في سبيل ذلك ، وهدر الجهد والطاقة المبذولة في غير طائل ، .

فجاء القرآن وعمل على معالجة هذا الانحراف بتصحيح الانحراف الفكري عن مفهوم الرزق، ليقرر أن الرزق بيد الله وحده وأنه لا أحد من الخلق يملك ذلك، فإذا تحققت القناعة المفهومية لهذه الحقيقة المقررة فإنه يتم من خلالها تصويب توجهات المشاعر النفسية من الاطمئنان وعدم القلق على الرزق ، وابتغائه ورجاءه عند من يملكه وهو الله تعالى ويتحرر بذلك من الاستعباد والذل والهوان لأحد من البشر، مما يؤدي إلى أثره الإيجابي في السلوك من الإجمال في طلب الرزق والسعي في تحصيله بالطرق المشروعة، والابتعاد عن كل وسيلة محرمة ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا } [الإسراء: 31].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } [الشعراء: 75- 79].

قرر إبراهيم عليه السلام أن الله هو المتفرد في الرزق ، لأن دخول هذه الضمائر في صدور هذه الجمل للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره ، فإذا تقرر تفرده بالرزق فيجب على الخلق أن يتوجهوا له وحده في رجاء الرزق وطلبه ، فلا يرجون غيره مما لا يقدر على شيء من ذلك . كما يشير عليه السلام إلى أن أمر رزقه مكفول من الله تعالى ، وذكر الطعام والشراب لأنه من أكثر أنواع الرزق ضرورة لبقاء الإنسان ودوامه . فإن الله تكفل برزق كل خلقه في قوله ، قال تعالى : { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [هود: 6].

وهذه الكفالة لا تعني أن هناك رزقا فردياً مقدراً لا يأتي بالسعي ولا يتأخر بالقعود . فمعلوم أن ابتغاء الرزق من غير الأخذ بالأسباب التي أمر الله بها هو تعطيل لسنن الله المقدرة الثابتة قال تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } [الملك: 15].كما أن هذا لا يعني أن الأسباب هي الفاعلة لتحقيق الرزق، فالرزق بيد الله هو الذي يقدره فيوسع أو يضيق، وفق مقتضى حكمته وعلمه بعباده قال تعالى : { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } [الإسراء: 30]. فالرزق مقسوم مقدر ولكنه غير معزول عن سنن الله التي أمر بالأخذ بها ولكن على أن لا يتعلق القلب بشيء منها، وحين يتضح تصور الرزق ، أنه بيد الله وحده فإنه تنتفي هذه الهواجس في النفس ويزول القلق على الرزق ويطمئن القلب ولا تتعلق بالأسباب ولا بالعباد بل بالله وحده .

ن هذا التصور من شأنه أن يعالج قضية الشرك في توجه القلب لغير الله تعالى ليصوب مشاعره في رجاء الله وحده في طلب الرزق قال تعالى : { أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ } [الملك: 21]. وقد ترجم إبراهيم عليه السلام هذه المعاني الإيمانية لحقيقة الرزق في واقع حياته ، حينما ترك زوجته وولده في أرض لا ماء ولا زرع استجابة لأمر ربه ، لإقامة شعائر دينه ، قال تعالى : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ } [إبراهيم: 37]. وهو لا يفعل ذلك إلا لإيمانه العميق بالله تعالى وثقته به وتوكله عليه سبحانه ، ولتجرده من التعلق بالأسباب ، لأنه يعلم أن هذه الأسباب ليست فاعلة بذاتها ، وإنما الفاعل الحقيقي هو الله تعالى ، ، لذلك فهو يتعلق برب الأسباب وخالقها ، لا بهذه الأسباب ،وهو مع ذلك لا ينقطع عن الأخذ بالأسباب لأنه يعلم أنها من سنن الله تعالى التي قدرها بين عباده ، وإن تعطيلها إثم كبير ، كما أن التعلق بها شرك عظيم ، لذلك تجده عليه السلام يطلب الرزق بأسبابه ووسائله المشروعة ، ويقصده عند من يملكه ويقدر عليه ، وهو الله تعالى ، ويتضح هذا المعنى في قوله تعالى : { فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم: 37]. أما طلبه الرزق من الله حيث توجه إليه بالدعاء في قوله : { وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ } . وأما ربطه بالأسباب ، فقد تضمنت الآية ذلك ، منها في قوله : { فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ }. وذلك عن طريق مجيئه إليهم مع الوافدين ، فإن دعاءه عليه السلام جاء جامعاً لمطالب الدين والدنيا ، لأن الناس يذهبون إلى البيت الحرام للتقرب إلى الله وليتبادلوا المنافع عن طريق التجارة وغيرها مع

السكان المجاورين للبيت الحرام [311]. ومنها في قوله : { مِنَ الثَّمَرَاتِ } . فهذا متضمن العمل عن طريق الزراعة ، لأنه من أسباب تحصيل الثمر ، ومنها في قوله : { لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } . لأن الشكر من أسباب دوام النعم وحفظها . ومن شكرها كذلك طلبها بالوسائل المشروعة . وهكذا نجد إبراهيم عليه السلام ، يعلمنا في سيرته العطرة كيف ينبغي أن نتعامل مع حقيقة الرزق بفاعلية وتوازن بين إيمان لا يضر بالدنيا ، ودنيا لا تضر بالإيمان .

ثالثاً : لا محيي ولا مميت إلا الله تعالى .

إن الله تعالى هو المتفرد بالربوبية من الخلق والرزق والضر والنفع والحياة والموت ، وإن هذا الاعتقاد يحرر الإنسان من العبودية لغير الله تعالى أو التعلق بأحد من البشر ، بحيث لا يرجو أحداً سوى الله تعالى ، ولا يتوكل إلا عليه . ومن الشواهد في قصة إبراهيم عليه السلام في تقرير هذه الحقيقة ، حقيقة أن أمر الحياة والموت بيد الله تعالى وحده ، وما يقتضيها من العبادة ، وهو أن لا يرجو الإنسان في أمر بقاءه ووجوده سوى الله تعالى ، نذكر منها :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء: 81].

يقرر إبراهيم عليه السلام حقيقة من حقائق الإيمان ، وهي حقيقة أن أمر الحياة والموت بيد الله تعالى وحده ، والتي لا يستقيم إيمان المرء دون رسوخها في المعتقد فكرياً ونفسياً ، وهو يذكر هذه الحقيقة مضافة إلى نفسه:{ والذي يميتني ثم يحيين } كونها أبلغ في الحجة والمفاصلة بينه وبين قومه ، ولما فيه من التعريض بهم لكفرهم بالله المتصف بصفات الربوبية الظاهرة في واقع حياتهم،ولجهلهم بحقائق الإيمان التي حرمتهم من الأمن في رحاب الله تعالى ، ولذلك كان هذا التقرير من إبراهيم في كونه تعالى هو وحده من يملك حياته وموته لا أحد سواه هي سر قوته في مواجهة نظام الكفر في كل مجالاته السياسية والمجتمعية ، والاجتماعية والأسرية ، لأنه لا يخشى على حياته من أحد من الخلق ، ولا يرجو في أمر بقائه سوى الله تعالى الذي هو وحده القادر أن يميته عند حضور أجله ثم يعيده إلى الحياة يوم البعث ، فهو يعلن ذلك لقومه من غير خوف ولا وجل بقوله : إن ربي الذي أخلص له

[311] - أنظر تفسير طنطاوي، 2439 ، وتفسير المنتخب ،422/1.

العبادة هو رب العالمين الموصوف بصفات العظمة والجلال فهو وحده من بيده نفعي وضرّي ، ومحياي ومماتي ، المتفرد بالقدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة،، هو وحده من يجب أن يرجى ويقصد في السؤال والطلب ، لأن الكل محتاج إليه على وجه الافتقار فلا غنى لأحد عنه بحال ، ومن كان هذا حاله فهو من تصلح له العبودية لا لمن يعجز عن ذلك كله .

إن استقرار هذه الحقيقة في ضمير المسلم له أثر عظيم في واقع حياته ، فهي تحرره من العبودية لغير الله ، وتحرره من عقدة الخوف على أجله ، فلا يجبن عند لقاء الأعداء ، ولا يخضع لقوى الفساد ، ولا يذل لأحد سوى الله ، لأنه لا يخاف على حياته من أحد ولا يرجو بقائه إلا من الله وحده . وهي كذلك لها أثر كبير في واقع الأمة الإسلامية ، فإن رسوخ هذه المفاهيم في بنيتها العقلية والنفسية هو الذي يحقق لها النهضة والعزة ، ويمكن استخراج كثير من الأمثلة والشواهد على هذه الحقيقة من خلال مسيرة الأمة عبر تاريخها الطويل .

وقد كشف القرآن عن بعض هذه الآثار الخطيرة لغياب المعتقد الصحيح عن حقيقة الموت ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: 168]. فالتقاعس عن الجهاد والفرار من الزحف والتخاذل عن نصرة دين الله، هو في حقيقته انحراف سلوكي ناشئ عن انحراف فكري عن مفهوم الموت ، وهذا الانحراف يؤثر سلبياً على النفس فينشأ عنه أمراض نفسية كالجبن وخشية الناس والخوف من الموت، وهذا الذي جعل ضعاف الإيمان بسبب فساد معتقدهم لحقيقة الموت وسببه أن يرجفوا بالمسلمين في عصر النبوة ، لأن هذه النفوس الضعيفة لم تعتقد حقيقة أن الموت بيد الله وحده ، وإن ساعة الأجل إذا جاءت فلا مفر منها ولا مهرب ، قال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: 78].

إن انحراف المفاهيم عن حقيقة الموت والحياة يؤدي بالضرورة إلى انحراف التوجهات النفسية والشعورية في الرجاء والخوف ، الذي هو السبب المباشر عن هذه الانحرافات السلوكية ، إن حب الحياة وكراهية الموت تتجه بالإنسان إلى ما يحقق رجائه في البقاء والعيش ، فيرجو النجاة بالجبن والتقاعس من حيث هو هلاك ، ويخاف الهلاك في المواجهة والإقدام من حيث هو نجاة . وما هذا إلا بسبب فساد المعتقد عن حقيقة الموت الذي أدى إلى هذا الانحراف السلوكي من الجبن والخوار في مواجهة الأعداء ، والهروب من ساحة القتال ، وهذا بدوره يؤدي إلى ضياع الأوطان والمقدسات ، وانتهاك الأعراض والحرمات ، لأنه حينما يعتقد الإنسان أن حياته مرهونة بيد أحد من الخلق أو البشر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فإنه ينشأ من فساد هذا الاعتقاد انحراف في وجهة الشعور بالخوف إلى من لا يملك أمر أجله ، فيتولد عنه سلوك سلبي أمام مواقف الحياة المختلفة من الانهزامية النفسية والمادية أمام قوى الطغيان والفساد ، لذلك فقد عالج القرآن هذا بالكشف عن جذور هذه المشكلة الفكرية والنفسية ، وعالجها بتصحيح مسار التفكير الاعتقادي لمفهوم الموت وإنه بيد الله تعالى وحده وإنه مقدر بمشيئة الله تعالى لا يتقدم ولا يتأخر ، ليصوب بذلك توجهات المشاعر النفسية من الاطمئنان على الأجل وعدم خشية الناس أو الخوف من الموت ، مما يؤدي إلى سلوك إيجابي وهو الإقدام على نصرة دين الله ، والجهاد في سبيله ، والثبات في القتال وعدم التقهقر في الموقف الحيوية الحاسمة ، وتبليغ رسالة الإسلام وتحمل أعبائها ، دون الخوف على حياته ، ومن ذلك قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ } [آل عمران: 156-157]. إن الله تعالى يقرر أنه هو الذي يملك أمر الحياة والموت ، ليحرر الإنسان من العبودية لغير الله تعالى ، لأنه لا يرجو بقاءه إلا من الله ، ولا يخشى على حياته من أحد سواه، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } [التوبة: 116].

هكذا يصحح القرآن التصور عن حقيقة الموت وأسبابه الظاهرة والمضمرة ورد الأمر فيهما إلى قدرة الله تعالى وتدبيره ومشيئته ليمضي الإنسان في أداء تكاليف ربه بثقة واطمئنان وعدم الخوف على مصيره لأنه يعلم أن الموت مقدر من الله لا يتأخر عن وقته ولا يتقدم[312]. قال تعالى : { فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ } [النحل: 61]. إن العقيدة كما يصورها القرآن تجعل من الموت أملاً وبشرى ورجاء فيما عند الله لقوله تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة: 218]. ومن رسوخ هذا المعتقد في نفوسهم فقد كان شعارهم : { اطلب الموت توهب لك الحياة } . وقد بين القرآن رسوخ هذا المعتقد وأثره الكبير في نفوسهم ، من خلال حوارهم مع من يسألهم عن طبيعة هذا الدين وحقيقة

---

312 - راجع : تفسير الطبري 19/ 363 ، تفسير السعدي 592 ، تفسير طنطاوي 3167 ، تفسير ابن عاشور 177/10 ، تفسير الظلال 352/5-353

هذا الإيمان الذي يؤمنون به ، كما في قوله تعالى : { وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ } [النحل: 30].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ } [البقرة: 258].

إن إبراهيم عليه السلام يُثوّر حقائق الإيمان ليجعل منها قذائف ينسف به الباطل ويجعله زهوقاً ، وذلك من خلال حقيقة من حقائق الإيمان وهي حقيقة الحياة والموت ، فقد جعلها عليه السلام محور الصراع في مواجهته مع ملك زمانه ، وذلك على النحو الآتي :

1. جعلها محور الصراع الفكري بين الحق والباطل ، كحقيقة من حقائق الإيمان الثابتة التي أثبتها بالجدل العقلي من خلال صراعه الفكري مع النمرود ، في أن الله هو وحده من يملك أمر الحياة والموت ، ومقتضى ذلك أنه هو المعبود الحق الذي لا تكون العبادة إلا له وحده ، وعندما ادعى النمرود لنفسه أمر الحياة والموت ، فطالبه إبراهيم بمقتضى دعواه التي لا يقدر على إثباتها من الوجهة العملية ، حيث ربط عليه السلام بين الدليل الأول والثاني ، وهو أن من يملك أمر الحياة والموت فهو من يتحكم بنظام الوجود كله ، فلما عجز عن إثبات دعواه انكشف كذبه وبهتانه ، وانتصر إبراهيم عليه السلام عليه بالحجة والبرهان ، ولما لم يبقى له سند عقلي يقيم حجته الواهية عدل عن منطق الحجة إلى منطق القوة .

2. جعلها محور الصراع السياسي ، في أن من يملك أمر الحياة والموت هو من يملك نظام الوجود ،وإنه من كان كذلك فهو من له الحق في الحاكمية والتشريع ، وهو من يجب أن يخضع الناس لنظام حكمه ومنهجه ، وكل من لا يملك شيئاً من ذلك فحكمه للناس باطل ولا سلطان له عليهم ، وليس له أن يخضع الناس لحكمه ونظامه ، كما لا يحق لأحد من البشر أن يتبعه تحت أي مبرر أو ذريعة . فإبراهيم حينما أثبت بطلان دعوى الملك في القدرة على الحياة والموت وأثبتها لله تعالى ، ألزمه بمقتضى هذه الحقيقة وهو أنه لا حق له في تعبيد الناس له وفق نظامه وسلطانه ، وهو بذلك أفقده الشرعية التي جعل الناس يدينون له بموجبها .

3. جعلها محور الصراع من الوجهة الواقعية ، فإن النمرود حينما ادعى قدرته على أمر الحياة والموت ، واجهه إبراهيم عليه السلام وتحداه و لم يخاف على حياته منه ، **ليجعل من هذا التحدي دليلاً**

عملياً في أن قضية الموت والحياة هي بيد الله تعالى وحده ، فهو يريد أن يثبت صدق ما قرره عملياً وليس مثل دعوى الملك الكاذبة ، وأمام هذا التحدي لم يجد النمرود وسيلة إلا سلاح القوى فيأمر بإلقاء إبراهيم في النار لأنه أعلن توحيد العبودية لله تعالى وتبراء من الشرك وكل مظاهره وصوره الفاسدة والقائمة في مجتمعه فقال : { حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ } [الأنبياء: 68]. فالتهديد بالقتل هو سلاح الطغاة والمفسدين في الأرض ، لكل من يعارضهم ويتحدى طغيانهم . ولكنه منطق ضعيف أمام حقائق الإيمان ، وسلاح هزيل سرعان ما يتهاوى في مواجهة المؤمنين الذين عرفوا أن الموت إنما هو بيد الله تعالى وحده ، وليس بيد أحد من الخلق .

فإن إبراهيم عليه السلام في مواجهته للملك بالتحدي لقوته وسلطانه ، إنما يكشف للناس أن الموت والحياة هما بيد الله تعالى وحده ، وليس لأحد من الخلق قدرة على شيء من ذلك ، وهو حينما أقدم على هذا التحدي لم يأخذ من الله ضماناً مسبقاً بالنجاة ، ولكنه يؤمن أن الأمر بيد الله ، فإذا وقع عليه الموت فهذا اختيار الله ومشيئته ، ولا يضيره أن يموت في سبيل الله تعالى ، بل هو شرف للمؤمن أن يجعله الله من الشهداء ويصطفيه بهذه المنزلة العظيمة .

فإبراهيم عليه السلام يصحح مسار التفكير العقدي عن حقيقة من حقائق الإيمان من الناحية النظرية وهو أن أمر الموت ليس بيد أحد من البشر وإنما هو بيد الله تعالى وحده . وموجب هذه الحقيقة هو أنه لا ينبغي أن يرجى في دوام الحياة وبقائها إلا الله تعالى ، ثم هو يقررها من الناحية العملية من خلال مواجهته السياسية لملك زمانه وتحدي طغيانه وسلطانه ، وهو عليه السلام بموقفه هذا يؤسس منهج الدعوة إلى الله تعالى وفق أسسها الصحيحة ، التي تجمع بين النظرية والتطبيق ، فهو حينما يقرر حقيقة الموت والحياة بيد الله وحده ، يثبت ذلك عملياً في مواجهة الباطل وتحديه . فهو مثال وقدوة للدعاة الربانين الذين يقدمون أرواحهم في سبيل نصرة دين الله تعالى ، لأنه يعلم علم اليقين أن حياته وموته بيد الله تعالى لا بيد شرذمة من الطغاة المهازيل ، لذلك لم يعز روحه عن تقديمها في سبيل الله في وقت اقتضى منه نصرة دينه تعالى.

4. جعلها موجب الصراع السنيّ في التدافع بين الحق الباطل ، لأن مجرد إسقاط أثر الإنسان ودوره في أمر الحياة والموت ، هو نصرة لجانب الحق وأهله لتدفع بهم إلى الإقدام والمواجهة لقوى الباطل ، وقد كانت مواجهة إبراهيم هو تحقيق لسنة التدافع التي قضاها الله تعالى بين عباده . وقد جعل الله من إبراهيم آية دالة على هذه الحقيقة عبر التاريخ الإنساني ، حينما لم تحرق النار إبراهيم عليه السلام ،ليجعل من هذه المعجزة دفعاً لقوى الحق في مواجهة الباطل والانتصار عليه . وهو في

ذات الوقت يقطع الحجة عن تخلف هذه السنة الإلهية في واقع الحياة ، تحت مبررات ذرائعية هي في حقيقتها هزيمة نفسية مرفوضة من الوجهة العقائدية ، التي قررت في نصوصها القطع في قضية الموت والحياة . وأن أمرهما بيد الله تعالى وحده ، وبهذه النصوص القاطعة سدت الشريعة الطريق على أولئك الذرائعيين والمهزومين كل منافذ التسلل والهروب من المواجهة . لأن غياب الحق عن ساحة الصراع ولو من الوجهة السياسية هو في حقيقته علامة مرضية في واقع الحياة البشرية .

إن حقيقة الموت والحياة في المنطق القرآني توجب نصرة دين الله تعالى كما فعل إبراهيم في مواجهته لقوى الفساد والكفر ، وكما جرى معه من نصرة الله تعالى له على عدوه تحقيقاً لسنته تعالى في نصرة من ينصره . قال تعالى : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [العنكبوت: 24]. لم تحرق النار إبراهيم عليه السلام لتكون آية دالة على قدرة الله :{ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون } فهي آية دالة على أن أمر الحياة والموت بيد الله وحده . وعلى عجز الطغيان عن قتل رجل واحد يريد الله له النجاة ، فقدمت تجربة إبراهيم عليه السلام التصور الإيماني الصحيح عن الموت والحياة ، وأسبابهما الظاهرة وحقيقتهما المضمرة ، ورد الأمر فيهما إلى القدرة المدبرة . والاطمئنان إلى قدر الله فيهما ، فتحرر بذلك عبودية الإنسان لربه من كل شوائب الشرك ، فلا يعتقد اعتقادا فاسداً يسلبه تعقله ، ولا يرجو رجاءً باطلاً يهدر كرامته وإنسانيته ، ويقطع الطمع في المثوبة والخوف من كل قوى الأرض مهما بلغت قوتها ، وهذا الموقف هو خاص بمن نور الله قلوبهم بحقائق الإيمان حينما أبان لهم تعالى حقيقة الموت والحياة بوضوح جلي ، فلم يعد لهذا التهديد بالقتل قيمة أمام حقيقة الإيمان ، ولم يعد لسلطان الأرض هيبة في قلب المؤمن ، لأنه لديه حصانة فكرية بمفاهيم العقيدة ، وحصانة نفسية بصلته بالله تعالى ، وحصانة سلوكية بمواجهة الباطل ومقاومته .

فحينما يعتقد الإنسان أن أمر الموت والحياة بيد الله وحده وتستقر هذه الحقيقة في الفكر والشعور فلا يخاف إلا الله ولا يرجو سواه ولا يتوكل إلا عليه ، عندها ينتصر الإيمان في نفوسنا ويتهيأ لينتصر في دنيا الناس وعالم الواقع [313] .

وعليه فإن إبراهيم عليه السلام من خلال الكشف عن حقيقة الموت والحياة ، وتقرير حقيقة أنها بيد الله تعالى وحده ، إنما ليقطع كل تعلق بغير الله تعالى ، ويقطع الطمع في رجاء بقائه ودوامه من أحد من الخلق ، وهذا المعتقد له أثره الكبير في تحرر الإنسان من عبودية البشر ، لينطلق في القيام بأعباء

---

[313] – راجع : تفسير الظلال 246/1، 281، 363/3 ، وتفسير ابن عاشور 9/ 182، وأيسر التفاسير 480/2

الرسالة وأداء تكاليفها دون أن يخشى على حياته أحد من الخلق ، لأنه لا يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا عليه .

رابعاً : لا مجيب إلا الله وحده:

إن الفطرة تتجه إلى من يجلب لها النفع ويدفع عنها الضر، وهي حين تتجه إلى غير الله الذي بيده النفع والضر، فإنها تنحرف عن فطرتها، فإذا وقع الإنسان في شدة أو كربة فإن هذه الفطرة تتعرى من أرجاس الشرك لتتجه بالرجاء إلى من يملك حقاً أن يكشف ما بها من ضر وهو الله وحده، قال تعالى : { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [الأنعام: 63]. وحتى تبقى الفطرة محافظة على أصالتها من التوحيد وإخلاص الدينونية لله تعالى، وصدق التوجه إليه في الرجاء والتضرع ، فقد بيّن سبحانه لعباده في كثير من آياته أنه لا مجيب إلا الله ، وأن له وحده دعوة الحق وما دونه كفر وضلال قال تعالى : { لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ } [الرعد: 14]. إن هذا الاعتقاد بأن لا مجيب إلا الله تعالى يحرر الإنسان من عبودية البشر ، ويجعل تعلقه بالله تعالى وحده [314]. وقد ساهمت قصة إبراهيم عليه السلام في تقرير هذه الحقيقة ، ومن الشواهد التي عرضها القرآن لقصته عليه السلام نذكر منها :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } [الشعراء: 69-73].

إن إبراهيم عليه السلام يبطل عبادة غير الله تعالى كون معبوداتهم لا تسمع دعاء من يدعوها ويرجوها . وعدم قدرتها على الضر والنفع ، ولما كان شأن الرب أن يُلجأ إليه في الحاجة وأن ينفع أو يضر ألقى إبراهيم عليهم استفهاماً عن حال هذه الأصنام هل تسمع دعاء الداعين وهل تنفع أو تضر تنبيهاً على دليل انتفاء الإلهية عنها ، فهي عاجزة عن سماع دعاء من يدعوها حتى تستجيب له ، ولو سمعت فهي غير قادرة على أن تنفع من يرجوها أو تدفع عنه الضر . ويعلن إبراهيم عدائه لأبيه وقومه

[314] - راجع: أحمد فايز، طريق الدعوة في ظلال القرآن، ص129-134.

ويتبراء منهم ومن آلهتهم ، ويستثني من هذه البراءة رب العالمين ، ووصفه به مما يستحق العبادة لأجله ، وهو أن ربي هذا الذي بيده نفعي وضرّي، وله القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي، ولا ينفع ولا يضرّ[315].

*** الشاهد الثاني :**

قال تعالى : { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا }[مريم: 42].

ألقى إبراهيم عليه السلام على أبيه استفهاماً عن حال هذه الأصنام هل تسمع دعاء الداعين وهل تبصر من يطيعها ومن يعصيها ، وهل تكفي من يعبدها وتغنيه بجلب نفع أو دفع ضر ، تنبيهاً على دليل انتفاء الإلهية عنها . وعدم استحقاقها للعبادة ، فقد وصف إبراهيم الأوثان بصفات كل واحدة منها قادحة في الإلهية أحدها: {لا يسمع}. فأقل ما يتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع يتوجه إليه بالعبادة والابتهال! وهذه الأصنام لا تسمع عبادها وهم يتوجهون إليها بالعبادة ، ويدعونها للنفع والضر . فإذا لم يسمع الوثنُ دعاءَ الدَّاعي ، فأيُّ منفعةٍ في عبادته؟ وثانيها : { لا يبصر } وإذا لم يبصرْ الإله تقرُّبَ من يتقرَّب إليه ، ويعرف حال من هو في خدمته ، وحال من يدعوه ، فأيُّ منفعةٍ في ذلك التَّقَرُّب وهذه العبادة وذلك الدعاء؟ وثالثها : { لا يغني عنك شيئاً } أي : لا يكفيك شيئاً في جلب منفعة إليك ، وإذا نزل بك ضرّ لم يدفعه عنك .

وهذه الصفات التي وصف بها إبراهيم معبوداتهم كل واحد منها قادح في الإلهية ، فكيف يعقل التوجه إليها وهي لا تسمع من يدعوها ، ولا تبصر حاله وحاجته ، ولا تملك ضراً ولا نفعاً ، فإذا كانت لا تتصف بأي وصف من أوصاف الربوبية فهي لا تستحق الألوهية ولا العبادة ، بل الإلهية ليست إلا لله تعالى وحده الذي يسمع من يدعوه ويجيب دعوة الداعي ، قال تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة: 186]. وذلك أن العبادة هي غاية التعظيم للمعبود فلا يستحقها إلا الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، فهو من يسمع ويجيب دعوة الداعي ويبصر حاله ويرعاه، وهو

315- راجع : تفسير الطبري، 362/19، وتفسير ابن كثير ،145/6، وتفسير الرازي 482/11، تفسير السعدي ، 592

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من له أوصاف الكمال فلا يستحق العبادة لذلك أحد سواه [316]. قال تعالى : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }. [غافر:60] .

* **الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء } [إبراهيم: 89].

إن هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام إنما جاء في سياق جملة من الأدعية توجه بها إلى ربه بالرجاء فيما عنده من فضل وخير ، وشاكراً له على نعمه الكثيرة التي منحه إياها ، وحامداً له إجابة دعائه وتحقيق رجاءه ، والمتدبر لهذه الأدعية التي توجه بها إبراهيم إلى ربه يلاحظ أن الله تعالى حكى جملاً مما قاله إبراهيم عليه السلام في أحايين مختلفة تشترك كلها فيما سيق له الكلام من كونه عليه السلام على الإيمان والعمل الصالح ، وتعلق قلبه بالله في تحقيق ما يرجوه ، فهي تكشف مدى شدة رجاءه بربه وأمله الكبير في إجابة دعائه ، وقد سبق أن دعاه ورجاه فلم يخيب رجاءه .

فكان تضمينه عليه السلام لدعاءه أن الله سميع وأنه من شأنه إجابة الدعاء ، تعريضاً بالأنداد في عدم استحقاقها للعبادة ، كونها لا تعلم شيئاً ولا تسمع من يدعوها ولا تستجيب له ، وإنما المستحق لذلك هو الله تعالى وحده ، لأنه لا مجيب سواه . فإبراهيم يقرر حقيقة علمه تعالى بعباده وإنه وحده من يسمع الدعاء ، ويعلم أسبابه وبواعثه النفسية ، وهو وحده من يستجيب لهم حين يتوجهون إليه بالرجاء والقصد الطلب والاستغاثة ، وهو كذلك مطلع على عباده بصير بأحوالهم وحاجاتهم ومناجاتهم وشكواهم وافتقارهم إليه ، فهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، وهو بذلك يعلم أهله وأتباعه هذه الحقيقة حتى لا يتوجهوا إلى غيره في الرجاء والدعاء ، والقصد والطلب .

وقد بين لهم عليه السلام كيفية التوجه في الدعاء إلى الله تعالى بأحسن الطرق لتحصيل الاستجابة وذلك باستجلاب فضله تعالى بالمحامد على ما رزقه من الولد بعد الكبر ، وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، والتوسل إليه في الاستجابة له بسابق نعمته عليه أن وهب له على الكبر هذين الولدين ، فإن إتيان الولد له في سن لا يولد فيه لمثله من الخوارق ، أشار إلى ذلك بتأكيد قوله: { إن ربي } أي المحسن إليّ مع كبر سني ويأسي عن الولد ، وإنما قيد الهبة بحال الكبر : استعظاماً للنعمة ، وإظهاراً

---

[316]- راجع : تفسيرالطبري 203/18 ، وتفسير الالوسي 194/11 ، وتفسير السعدي 494 ، وتفسير ابن عاشور 479/8 ، وتفسير الظلال 351/5 ، 98/5

لشكرها ، لأنّ المنة بهبة الولد في هذا السن أعظم ، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجلّ النعم وأحلاها في نفس الظافر ، ولأنّ الولادة في تلك السنّ العالية كانت آية لإبراهيم , وهو عليه السلام يعترف بنعّم الله عليه بتعدادها وشكرها ليحض على تعلق العباد به في كل ما يرجوه ، فإن من رجاه لم يخيب رجاءه .

فقوله: { إن ربي لسميع الدعاء } تعليل لجملة { وَهَبَ لِي عَلَى الكبر }. أي: وهب لي على الكبر هذين الولدين ، لأنه سميع الدعاء ، سمع دعائي وتقبله ، وأجاب طلبي دون أن يخيبني ، وجاء بصيغة المبالغة ليدلّ على كثرة إجابته وأن ذلك شأنه الدائم مع عباده . فالعبد حينما يعلم أنه لا مجيب إلا الله ، فإن قلبه يتعلق به وحده في كل ما يرجوه . ويتجرد من التعلق بالأسباب ، فهذا زكريا عليه السلام عندما رأى عند مريم من رزق الله الذي رَزَقها، وفضله الذي آتاها من غير تسبُّب أحد من الآدميين في ذلك لها ومعاينته عندَها الثمرة الرّطبة التي لا تكون في حين رؤيته إياها عندَها في الأرض ، فطمع بالولد، مع كبر سنه، من المرأة العاقر. فرجا أن يرزقه الله منها الولد، مع الحال التي هما بها، كما رزق مريم ، قال تعالى : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } [آل عمران: 38].

فقوله:{ هنالك دعا } . فمعناها: عند ذلك، أي: عند رؤية زكريا ما عند مريم من رزق لم يكن مثله مما جرت العاداتُ بوجوده في مثل ذلك الحين ، كما أن ولادة العاقر غيرُ الأمرِ الجاريةِ به العادات في الناس ، فعند ذلك رغب إلى الله جل ثناؤه في الولد، وسأله ذرّيةً طيبة [317].

إن مقتضى هذه الحقيقة في كونه تعالى مجيب الدعاء وأنه لا مجيب سواه ، هو أن يتوجه الإنسان إليه وحده تعالى بالحمد والثناء ، والطلب والدعاء ، والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة ، فهو السميع البصير ، الذي يسمع عبده حين يناجيه ، ويستجيب له حين يناديه .

---

[317] - أنظر : تفسير الطبري ، 360/6 ، وتفسير الألوسي 397/9 ، وتفسير ابن عاشور 443/7 ، وتفسير طنطاوي 2437، وتفسير السعدي 427

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وبناء على ما تقدم من بيان لدور قصة إبراهيم عليه السلام في تكوين البناء النفسي لعقيدة الرجاء من خلال التصويب الفكري لتوجهات الفطرة الشعورية في رجائها لتتجه بها إلى الله وحده وذلك حين صحح المسار الفكري للعقيدة، ليقرر أنه لا ضار ولا نافع إلا الله، ولا رازق غيره، ولا محي ولا مميت إلا هو سبحانه. فإذا ما استقرت هذه الحقائق في القلب فإن الإنسان لا يرى حقيقة في الوجود إلا الله ولا فاعلية للأسباب إلا بإذنه ولا حادث في الوجود إلا بأمره، فإنه عند ذلك سيكون رجاءه وتضرعه لله وحده ولا يتعلق قلبه بأحد من الخلق أو البشر .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ـ المبحث الثاني ـ

التربية النفسية لرجاء الله تعالى

إن المنهج القرآني التربوي يقوم بالتعريف بالله تعالى لتحصيل معاني القلب من المحبة والخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة ؛ تربيةً وتزكيةً ؛ لتحقيق المقتضى التعبدي للعقيدة ، ليجعل منها ممارسة سلوكية إيمانية . وليس بالاقتصار على طرح العقيدة وفق مقررات مفهومية على طريقة المناطقة والفلاسفة ، ومنهج المجادلات الكلامية ، فذلك منهج عقيم لم يزد الأمة إلا خبالاً ! وإنما باستثمار ذلك عقيدةً تربوية ، تملأ القلب علماً وورعاً ، وتنتج خلقاً قرآنياً في الفرد والمجتمع [318]. فالبناء القرآني التربوي للتوحيد هو الكفيل بتكوين الشخصية المسلمة الصالحة والمصلحة ، والفاعلة والمؤثرة في واقع الحياة ومجرى التاريخ ، ومن لم يراع ذلك كان عمله مخروماً ، وجهده مهدوراً [319].

فالقرآن قد أسس منهجه التربويّة قي توحيد الله من توجه القلب واللجوء إليه تعالى ، وقصده ورجاءه وحده في حال الشدة والرخاء، بالدعاء والمسألة والطلب والاستغاثة والاستعانة والاستعاذة والاستجارة والاستسقاء والاستنجاد والاستغفار وطلب النصرة، وتحقيق المرغوب ودفع المرهوب، وغفران الذنوب وهداية القلوب، وسدِّ الفاقات وسؤال قضاء الحاجات، ونيل المسرّات وتفريج الكربات وكشف الملمّات وإغاثة اللهفات، وإزالة الغُمة... إلى غير ذلك من أنواع الدعاء والمسألة؛ مما لا يقدر على إجابتِهِ إلا الله تعالى؛ جلباً لنفعٍ أو دفعاً لضرٍّ، وأن هذا من خالصِ حقِّ الله سبحانه وتعالى على العبد، وتوحيد من العبد لربِّهِ في الدعاء كسائر أنواع العبادة [320].

فإن القرآن بمنهجه التربوي القويم يعالج النفس الإنسانية في آمالها ورجاءها بما ينتابها من حرص على منافعها ونفور مما يضرها ، لينفذ منها إلى تصويب توجهاتها الشعورية باتجاه ربها الذي له القدرة المطلقة والهيمنة التامة على هذا الوجود كله، فلا ترجو سواه ولا تتعلق الآمال بغيره تعالى . فالقرآن

---

[318] – انظر : د. فريد الأنصاري ، بلاغ الرسالة القرآنية ، ص 50 – 58 .

[319] – د. فريد الأنصاري ، بعثة التجديد المقبلة في ظل الاحتياج العولمي ، مجلة البيان، العدد 192، ص 32

[320] – بكر أبو زيد ، تصحيح الدعاء ص 237. دار العاصمة الرياض. ط1. 1419 هـ.

حين طرح الرجاء بمفهومه العقائدي الإيجابي المعقود بالعمل الصالح ليجعل من العمل تعبيراً حياً واقعياً عن صحة المعتقد وسلامة التصور ، لأن الرجاء في الله تعالى والثقة بوعده يبعث في النفس طاقات روحية هائلة تدفع به إلى العمل المثمر البناء، وهي تستبشر بالأمل المرجو بثقة ويقين بوعد الله الحق . فالإنسان وفق المفهوم القرآني إنما يحيا للأمل والعمل أشرفه وأحسنه . وهذا الرجاء الذي طرحه القرآن هو ذاته الذي تجسد في واقع مدرك حي متمثل في جيل الصحابة الكرام حيث تجلت معانيه القرآنية نابضة حية من تفان وتضحيات وجهاد واستشهاد قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ } [فاطر: 28].

إن القرآن حين عالج النفس من كل نوازع الخوف والجبن عالجها ايضاً من بواعث التردد والتقهقر بما يبعث في النفس من طاقات روحية هائلة تدفع به إلى العمل المثمر البناء، وهي تستبشر بوعد الله تعالى[321] .

ولأهمية رجاء الله كعاطفة دينية وضرورتها في تحقيق العبودية لله تعالى ، وأثرها الإيجابي في حياة المسلم فقد عنى القرآن في بناءها في نفس المؤمن بناء محكماً وبطريقة مؤثرة فاعلة ، وفي مجال التربية النفسية لرجاء الله تعالى فقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام دور واضح في العملية التربوية في تكوين الشخصية الإسلامية من الوجهة النفسية ، ومن أهم الطرق في تكوين عاطفة رجاء الله يمكن بيانها على النحو الآتي:

ـــ المطلب الأول : التخلية والتحلية .

إن قصة إبراهيم عليه السلام عرضت الحقيقة الإيمانية من رجاء الله تعالى كدرس من دروس التربية العقدية من الوجهة النفسية ، والتي تعد التخلية والتحلية من أبرز الجوانب في تكوين هذه العاطفة الدينية من رجاء الله تعالى تربية وتنمية وتوجيهاً . وقد جاءت هذه التربية الإيمانية واضحة في قصة إبراهيم والتي عرضها القرآن الكريم ، ليوجه القلوب إلى الله تعالى وحده في كل ما ترجوه وتؤمله ، وهذا التحلي لا بد أن يسبقه التخلي عن كل العلائق المانعة من تحققها في القلب ، فإن رجاء الله تعالى لا يستقر في قلب يرجو غير الله أو قلب معلق بغيره سبحانه ، فلا بد من التخلي عن رجاء كل ما

[321] – راجع : زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك، ص 318-319

سوى الله ، وقطع كل العلائق المانعة من رجائه تعالى . حتى يتحقق التحلي وهو توحيد الله تعالى في الرجاء والقصد والطلب ، فلا يرجو سوى الله ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يعتمد على غيره ، ولا يتعلق قلبه إلا به وحده سبحانه وتعالى . ويمكن أن نجمل هذا الدور لقصة إبراهيم عليه السلام وذلك على النحو الآتي :

أولاً : التخلي عن رجاء المخلوقين والتحلي بالرجاء في رب العالمين .

إن التعلق بالمخلوقين في الرجاء والقصد والطلب هي من الموانع لتحقيق رجاء الله تعالى ، وقد عالج القرآن هذه الأسباب والعوائق وعمل على إزالتها من جذورها ، من مبدأ التخلية قبل التحلية ، ومن هذه الشواهد في قصة إبراهيم عليه السلام ، نذكر منها :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } [الأنبياء: 66-67].

فقوله:{ أفلا تعقلون } .تنبيهاً على أن فساد ما هم عليه يدرك ببديهة العقل فقد كشف إبراهيم عليه السلام زيف ألوهية أصنامهم وإبطال عبوديتها بنفي القدرة عن آلهتهم من النفع والضر وإثبات العجز التام لها [322]، وبمقتضى هذا ألزمهم الحجة بعدم التوجه لها في العبادة والقصد والطلب ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وإنما يجب التوجه لمن له القدرة التامة والمطلقة وهو الله تعالى الذي بيده وحده نفعهم وضرهم ، فهو من يرجى ويقصد في قضاء الحوائج وكشف الكروبات ، كما في قوله تعالى : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) } [الشعراء:80] . ولكن هذا التوجه من إبراهيم لربه قد سبقه التخلية من كل معبود سوى الله ، كما في قوله : { قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } [الشعراء: 75ـــ77].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[322] – راجع تفسير الطبري 18/459- 468 ، وتفسير الرازي 11/ 29 - 40

* الشاهد الثاني :

قال تعالى : { لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) } [الممتحنة: 3-4].

إن الإسلام يريد من الناس أن يكون الدين عندهم أعز عليهم من أرواحهم ومن جميع صلات القربى ، لأنها لن تغني عنهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : { فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ } [المؤمنون: 101]. وقوله : { يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس: 34-37]. لذلك ينبغي أن تكون الموالاة لله تعالى وليس للمشركين مهما كانت صلة القربى . فإن القرآن لما أبلغ في وعظهم ، وبينّ حقائق الإيمان وفواصله العقدية ، أعقب بقصة إبراهيم عليه السلام ، لانه من عادة القرآن التربية بقصص الماضين ، فناسب ذكر قصة إبراهيم ومن معه في التبرؤ من قومهم المشركين ، وكان لهم فيهم أرحام وقرابات ولهم فيهم رجاء بالقيام والمحاولات .

فالقرآن لا يكتفي بتقرير الحقائق وإنما يقدم لهم النموذج العملي متجسدا في الواقع ليكون لهم أسوة يقتدون بها ، فهذا إبراهيم يقرر في منهجه التوحيدي عقيدة البراء والولاء ، فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم والإيمان بالله وحده . وهي العداوة والبغضاء للكفر والكافرين ، والمحبة لله وللمؤمنين ، وهي المفاصلة العقدية التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان ، وهو التعلق بالله تعالى وحده في المحبة والخوف والرجاء ، وقطع العلائق لكل ما سواه ، فلا يرجو منهم ولاية ولا نصرة ، لآن الله هو حسيبه وكافيه ، قال تعالى : { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [المجادلة: 22]. إن هذه المفاصلة العقدية مع قومه من البراءة وإعلان العداوة ، ضرورية لصحة الاعتقاد وسلامة الإيمان ، لأنه بدون هذه الفواصل العقدية يؤدي إلى تميع هذا الدين وفساد العقيدة .

وهذا فيه دلالة واضحة على إن التخلي قبل التحلي ، فلا بد من ترك ضلال الكفر لتلقي هدى الإيمان.

فإبراهيم عليه السلام يقرر حقيقة الانفصال العقدي الذي لا يرجى معه اتصال ! والذي يوحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده ليس لأحد فيه شيء . وهذه المفاصلة في حقيقتها هو قطع كل رجاء من غير الله تعالى ، والتوجه له وحده في كل ما يرجوه ، وهي قطع كل وشيجة من وشائج الدنيا ، وكل أصرة من أواصر القربى ، وربط صلته بالله تعالى وحده ، وهو حين ينفصل عن هذه الوشائج والأواصر ويربط صلته بالله تعالى ، لا يشعر أنه في الميزان الضعيف أو الخاسر ، فهذا الشعور تعبير عن حالة الانهزام النفسي ، الذي يتنافى مع الإيمان الصحيح ، بل لا بد أن يشعر أنه في الميزان الأقوى والرابح ، لأنه من كان الله معه كفاه وأغناه عن كل الخلق ، إن هذا ما كان يعلمه الأنبياء لأتباعهم ، فهذا موسى عليه السلام الواثق بالله القوي بحوله يقول لقومه الخائفين من إدراك فرعون لهم : { فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء: 61-62]. وينصرهم الله وهم ضعاف قليلون ويهزم فرعون وجنوده وهم أقوياء كثيرون : { فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ } [الشعراء: 64-66]. وهذا النبي عليه الصلاة والسلام المتوكل على ربه الموقن بنصرته يقول لصاحبه الخائف عليه من بطش قومه لأنه يرى فيه سفينة النجاة للبشرية كلها : { إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } [التوبة: 40]. فيرد الله كيد المشركين في نحورهم ولم يصلوا لنبي عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى : { فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [التوبة: 40]. أي . فأنزل الله سكينته وطمأنينته وأمنه على رسوله وأيده وقواه بجنود من الملائكة وظيفتهم حراسته وصرف أبصار المشركين عنه . وفي هذا بيان لما أحاط الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من مظاهر الحفظ والرعاية . حيث أنزل عليه سكينته ، والمراد بالسكينة هنا : الطمأنينة التي استقرت في قلب النبي صلى الله عليه وسلم فجعلته لا يبالي بجموع المشركين المحيطين بالغار ، لأنه واثق بأنهم لن يصلوا إليه . لأن هذه الثقة بالله نابعة من رجائه الشديد بربه في تأييده ونصرته تعالى ، لأنه هو: {عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فهذا التذييل مقرر لمضمون ما قبله . أي : والله: { عَزِيزٌ } لا يغلبه غالب ، ولا يقهر قاهر ، ولا ينصر من عاقبه ناصر: { وَحَكِيمٌ } في تصريفه شأن خلقه ، لا قصور في تدبيره ، ولا نقص في أفعاله . ونلاحظ أن التعقيب

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بقوله : {عَزِيزٌ حَكِيمٌ} . جاء مناسباً بعد المفاصلة العقدية ، من هجرة الوطن الذي ألفه ويتعزز به ، ومفارقة الأهل والعشيرة التي يتقوى بهم ، ترك ذلك كله لأجل العقيدة والدين . وهذا الموقف لا يكون إلا من المؤمن الذي رسخ قلبه باليقين والثقة بوعده ، وامتلئ بالبشرى والأمل والرجاء بنصره وفضله وثوابه . وتحقق هذا الأمل في الواقع بنصرة الله تعالى لأنبيائه كما جرى مع موسى عليه السلام في نصرة الله له على فرعون وجنوده ، ونصر ة محمد عليه الصلاة والسلام على مشركي قريش ، وكذلك نصرة الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام على قومه وملك زمانه ، وعوضه الله حين هاجر وطنه وأهله خيرا منهم ، فرزقه ذرية صالحة وجعل منهم الأنبياء والمرسلين، وذلك تحقيقاً لوعده تعالى لكل محسن بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وفي تحقيق الله هذا الوعد لعباده المرسلين ، يفتح باب الرجاء والأمل للناس في التعلق بوعد الله تعالى باعتباره يقيناً لا ريب فيه ، والبشرى بما عنده من ثواب عظيم لمن اتبع دينه وسار على منهجه .

وعليه فإن هذه الحقيقة تقضي على العبد بوجوب رجاء الله تعالى في حصول كل ما يؤمله ، لأنه يعلم أن ما عند الله تعالى أوثق مما في يده . إن القلب حينما يتجرد من علائق الدنيا ووشائجها ويتجه لله تعالى وحده فلا يرجو سواه ولا يتوكل إلا عليه ، فإنه حينها تكون عبوديته خالصة لله من كل شوائب الشرك ، ويتحرر من عبودية البشر وسلطانهم ، وإن الحق لن ينتصر في الواقع ودنيا الناس ما لم ينتصر في قلوبنا على كل مخاوفنا ورجائنا وأهوائنا ، فلا يكون فيه خوف ولا رجاء ولا ميل إلا لله تعالى وحده ، وهذا لن يتم حتى تترسخ مفاهيم العقيدة في نفوسنا ، وعلامة رسوخها أن يتحول المرء من قوته الذاتية إلى قوة ربانية تقف في وجه قوى الفساد والطغيان في كل الأرض ، وهو لا يبالي ولا يحفل بهم ، فهو يراها هزيلة ضعيفة في مقابل قدرة الله تعالى . لأنه يراها بعين الله لا بعينه . قال صلى الله عليه السلام : " قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به " [323] . لقد كان النبي في تربيته الصحابة بالقرآن يركز على تصحيح المفاهيم العقدية ليصوب من خلالها توجهات المشاعر النفسية

[323] - رواه البخاري في صحيحه برقم (6137)

ليحولها من الغريزة العمياء إلى مشاعر دينية موصولة بالله تعالى ، تدفع به نحو فضائل الأعمال وأحسنها . وهو يرجو ثوابه وفضله العظيم [324].

ثانياً : التخلي عن اليأس والقنوط والتحلي بالطمع في رحمة الله الواسعة .

إن القنوط واليأس مانع من رجاء رحمة الله تعالى ، فلا يتحلى العبد بهذا الرجاء إلا بالتخلي عن موانعه وهو القنوط من رحمته تعالى ، وقد عرضت قصة إبراهيم عليه السلام هذا المعنى بجلاء ووضوح ، فمن ذلك:

*** الشاهد :**

قال تعالى : { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحج: 54-56].

عندما جاءت الملائكة إلى إبراهيم وزوجه بالبشرى التي تخرج عن السنن الجارية ومألوف البشر ، أخذتهما المفاجأة العنيفة ، حيث بشروه بالغلام في تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته ، والتي جرت العادة أن لا يكون معها إنجاب .لذلك استبعد إبراهيم عليه السلام في أول الأمر أن يرزق بولد وقد مسه الكبر وزوجته عجوز عقيم ، وأكد هذا التعجب بالاستفهام الثاني بقوله : { فَبِمَ تُبَشِّرُونِ } ، فرده الملائكة إلى اليقين ، بأنهم بشّروه بالحق ، ونهوه عن استبعاد رحمة القدير ، لأن استبعاد ذلك يفضي إلى القنوط من رحمة الله . ولما كان إبراهيم عليه السلام منزّهاً عن القنوط من رحمة الله جاءوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب ، فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين تحذيراً له مما يدخله في تلك الزمرة ، فقد كان استعجاب إبراهيم عليه السلام ودهشته هو وزوجه باعتبار العادة دون القدرة ولذلك : { قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إلاَّ الضآلون } . وهو استفهام إنكار في معنى النفي ، ولذلك استثنى منه { إلا الضالون } . يعني أنه لم يذهب عنه اجتناب القنوط من رحمة الله ، ولكنه امتلكه المعتاد من حال البشر فتعجب فلما نبّهه الملائكة أدنى تنبيه تذكّر ونفى عن نفسه القنوط من

---

[324] - راجع : تفسير الطبري 317/23 ، الرازي 322/15 ، وتفسير الألوسي 459/20 ، وتفسير البقـاعي 8/ 472 وتفسير الظلال 42/1 ، 327 ، 120/6 ، 7/ 53 ، 181 وتفسير طنطاوي 4166 وتفسير ابـن عاشـور 33/15 ، مجموع الفتاوي 1/ ، 148 ، طريق الدعوة ، أحمد فايز 181/2-182

رحمة الله بأبلغ وجه ، فهو عليه السلام ليس به قنوط من رحمته تعالى ، وليس حاله كحال الذين لا علم لهم بربهم ، وكمال اقتداره . لأن من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف سعة رحمة الله تعالى وعظيم قدرته . ولأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بالله وبصفات جماله وجلاله سبحانه ، وهذا الجهل مؤداه للضلال ، فلهذا المعنى قال : { وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ } . أي : الضالون عن معرفة الله ومنهجه ، فهم الذين يقنطون من رحمة الله تعالى ، ويضلون طريق معرفة الله تعالى فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى قاله يعقوب عليه السلام لبنيه في قوله :{ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87]. أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه ، فقد جعل اليأس من رحمة الله من صفة الكافرين . لأنه تكذيب بالربوبية ، أو جهل بصفاته تعالى . فإن الكافر يستبعد رحمته تعالى ، وأما المؤمن الذي رسخ قلبه بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد والخطوب ، لأن موجب هذه الرحمة الواسعة ألا يقنط العباد من رحمته تعالى ولا ييأسوا من سعة عفوه وفضله سبحانه وتعالى [325] .

ثالثاً : التخلي عن الأماني الباطلة والتحلي بالرجاء العقائدي المقترن بالعمل الصالح .

إن الأماني الكواذب مصدرها الشيطان والاستهواء النفسي وهي من الأسباب التي تؤدي إلى تميع الدين ، والتحلل من الواجبات ، والتنصل من المسؤوليات التي كلف الله بها عباده ، وهي مخالفة لمفهوم الرجاء العقائدي المقرون بالعمل الصالح مصدراً ومضموناً ، فهي رجاء كاذب لأنها لا توصل إلى رحمة الله ، فرحمته تعالى لا تُنال إلا بالإيمان والعمل الصالح لا بتلك الأماني الخادعة، قال تعالى : { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110]. وقد جاءت قصة إبراهيم عليه السلام لتؤكد هذه الحقيقة ، ومن ذلك :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ

[325]- راجع تفسير الظلال ، 240/6 ، وتفسير ابن عاشور 365/13، وتفسير طنطاوي 3669

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 123-125].

إن رحمة الله وفضله وثوابه لا ينالها الإنسان بالتمني ولكن بالإيمان والعمل الصالح . وإن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأماني . إنما يرجع إلى أصل ثابت ، وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابي . قانون تستوي أمامه الأمم جميعاً ، فصاحب السوء مجزي بالسوء؛ وصاحب الحسنة مجزي بالحسنة . ولا محاباة في هذا ولا مماراة ، ولا مجال فيها للأماني الكواذب بطرح العمل من المعادلة الإيمانية التي قررها تعالى في كتابه ، تحت أي حجة أو ذريعة .

وهذا ما جاءت تقرره هذه الآيه : { لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب }. نص صريح ليرد الناس كلهم إلى ميزان واحد وهو الإيمان المقترن بالعمل ،وليس مجرد الأماني : التي هي أحاديث النفس المجردة عن العمل ، فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا قال بعده { مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ } . } وهذا شامل لجميع العاملين، سواء أكانوا مؤمنين أم مشركين أم من أهل الكتاب .

لأن الآية الكريمة تضع لهم جميعا قاعدة عامة وهى أن رجاء ثواب الله ورضاه لا ينال بالأماني والأحلام وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح . ولما بين تعالى جزاء المسيء أولاه ببيان أجر المحسن ، ليجمع بين النذارة والبشارة ، فقال : { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً } . أي : ومن يعمل من الأعمال الصالحات سواء أكان العامل ذكرا أم أنثى ما دام متحليا بصفة الإيمان ، ؛ فأولئك يدخلون الجنة جزاء عملهم؛ ولا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم ، ولو كان هذا الشئ قليل .

فالقرآن يعمل على إنشاء التصور الإيماني الصحيح عن العمل والجزاء . ووحدة القاعدة في معاملة الناس ، وهذا التصور ذات أهمية كبرى في صحة المعتقد واستقامة السلوك . إن هذه الآية فصلت الخلاف بين الفرق ، ونبهتهم إلى أن ينظروا في تحقيق الإيمان الصحيح مقروناً بالعمل الصالح ، ولا يتعلقوا بالأماني الخادعة .

ثم هي حجة للمسلمين حينما قيّد العمل بقوله: { وهو مؤمن } لأنّ أسباب الفوز والنجاة متوفّرة في دينهم . لذلك عقّب هذه الآية بقوله: { **وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا** } . **وفي هذا تفضيل للدين الإسلامي على سائر الأديان**

إذ هو قائم على أساس إسلام الوجه لله مع إحسان العمل وهو إتقان العبادة وأداؤها ،إشارة إلى أن الإنسان إنما يحيا للأمل والعمل أحسنه وأجوده ، فهو عمل مصحوب بالرجاء فيما عند الله من ثواب ، ورجاء مقرون بأسبابه الموجبة لتحصيله على نحو ما شرعه الله تعالى ، وإتباعه ملة إبراهيم الخليل في عبادة الله تعالى ، التي هي خير مثال يحتذى وأفضل نموذج يتحتذى ، بشهادة الله تعالى . وذلك أنه سبحانه شرط حصول النجاة والفوز بالجنة بكون الإنسان مؤمناً ، ثم شرح هذا الإيمان وبيّنه من وجهين :

أحدهما : أنه الدين المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى ،

والثاني : وهو أن دين التوحيد الذي عليه محمد عليه الصلاة والسلام إنما هو الدين الحنيف الذي عليه إبراهيم ، ولما كان الكل يفتخر بالانتساب إليه ، لزم من هذا أن يكون شرع محمد مقبولاً عند الكل.

وقد جاءت قصة إبراهيم عليه السلام عقيب الرد على أماني أهل الكتاب الذين أرادوا تمييع الدين والتحلل من الالتزامات والتكاليف بزعمهم الولاية والقرب من الله تعالى ، ولما كان رجائهم لفضل الله بغير أسبابه المعتبرة ، وكانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم ، ناسب هنا ذكر قصة إبراهيم في معرض الرد على فساد تصورهم عن طبيعة الثواب والعقاب ، وبطلان رجائهم برحمة الله من غير عمل ، وذلك من وجهين :

الأول : أن إبراهيم عليه السلام لما بلغ علو الدرجة في الدين من قوة اليقين وشدة الالتزام ، اتخذه الله خليلاً ، بقوله:{ واتخذ الله إبراهيم خَلِيلاً }. وهذا كان عقيب وصفه بكونه حنيفاً وهذا يشعر بأنه سبحانه إنما اتخذه خليلاً لأنه كان عالماً بذلك الشرع آتياً بتلك التكاليف . لذلك كان جديراً بأن يتبع في طريقته . قال تعالى : { قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ } [المممتحنة: 5].

والثاني : أنه تعالى جعله إماماً للخلق لأنه أتم تلك الكلمات التي أمره بها . في قوله { وَإِذَا ابتلى إبراهيم رَبُّهُ بكلمات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا } [البقرة: 124].

وهذا يدل على أنه سبحانه إنما جعله إماماً وبلغ هذا المنصب العالي بسبب أنه كان عاملاً بتلك الشريعة قائما بها علماً وعملاً ، ليجعل من هذا تنبيهاً لتلك الطوائف التي انحرفت عن الحق وطلبت رحمة الله بغير أسبابه التي أوجبها تعالى على عباده ، وتصحيحاً لمفهوم الرجاء العقائدي الذي قرره تعالى في نصوص شريعته ، وتقريراً لسنته تعالى أنه من عمل بهذا الشرع لا بدّ وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين ، وذلك يفيد الترغيب في وجوب إتباع هذا الدين ، لأن الدين الإسلامي كما تقرر في هذه الآية مبناه على أمرين : الاعتقاد والعمل : أما الاعتقاد في قوله:{أَسْلَمَ وَجْهَهُ }فالإنسان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إذا عرف ربه وأقر له بالانقياد والخضوع فقد أسلم وجهه لله ، وأما العمل ، في قوله:{ وَهُوَ مُحْسِنٌ } يدخل فيه فعل الحسنات وترك السيئات فجميع مقاصد الدين وأغراضه بهذ اللفظة المختصرة [326].

رابعاً : التخلي عن الاعتماد على الأسباب والتحلي بالتوكل على الله ورجاءه وحده .

لا يقع شيء في هذا الوجود إلا بإذن الله تعالى ، وإن هذه الأسباب هي سنن الله التي قدرها في الوجود وأمر عباده بتعقلها والأخذ بها ولكن ليس باعتبارها فاعلة بذاتها وإنما بإذن الله وقدره ، قال تعالى : { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ } [النجم: 63-65]. فالأسباب لا تفعل فعلها إلا بإذنه، وإن التعلق بالأسباب ينافي عقيدة التوحيد ، كما أن عدم الأخذ بها ينافي لوازمه ، فترك الأسباب أثم كبير ، كما أن التعلق بها شرك عظيم ، وبهذا الوضوح والحسم يتم تصحيح العقيدة في التعامل مع قانون الأسباب ، بصورة متوازنة وفاعلة وفق مقرراتها العقدية والشرعية . وقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام دور في تجلية هذه الحقيقة وتوكيدها، نذكر من ذلك :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } [الأنبياء: 68-70].

إن الله تعالى هو صاحب الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة في هذا الوجود ، قال تعالى : { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [النحل: 40]. فكل شيء يقع في هذا الوجود إنما هو صادر من إرادة حكيمة ومشيئة نافذة ، لا مكان فيه للمصادفة العمياء ، ولا للحتمية الآلية ، وإنما هي سنن كونية تجري وفق مشيئة الله تعالى وقدره ، وهو وحده من يملك أن يعطلها أو يبدلها ويجري سنناً غيرها ، ومعجزة إبراهيم عليه السلام من أوضح الأدلة على ذلك ، فالنار من خاصيتها الإحراق ، فلما أراد سبحانه أن لا تجري هذه السنة خاصيتها ، عطلها و لم تحرق إبراهيم ، بل وأجرى سنة غيرها ، فأبدل سنة الإحراق لتكون برداً وسلاماً ، كما في قوله تعالى :{ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ } وهكذا سائر السنن والقوانين الكونية ، فهي ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هي تجري وفق قدر

[326]- راجع : تفسير الطبري 229/9، وتفسير الرازي 389/5 ، وتفسير البقاعي 270/2 ، وأيسر التفاسير 301/1 ، وتفسير ابن عاشور 4/41-43 ، وتفسير الشنقيطي 344/1 ، وتفسير طنطاوي 1079 ، وتفسير الظلال 243/2

الله تعالى ومشيئته . فهو الفاعل الحقيقي لها ، كما في قوله : { أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) } [الواقعة: 68-70].

فهذه السنن تجري بأمر الله وتقديره ، وفي أظهار تلك المعجزة لإبراهيم عليه السلام تنبيه للحس الذي تبلد بفعل الألف والعادة إلى تلك المعجزات المبثوثة في الكون ، وإيقاظ للعقل الذي أصابته الغفلة بفعل الأسباب إلى الفاعل الحقيقي وهو الله تعالى ، فمعجزة إبراهيم جاءت من أجل تصحيح التصور عن الأحداث التي تقع في هذا الوجود ، والكشف عمّا وراء هذه الأسباب الظاهرة ، وبيان حقيقتها المضمرة؛ ورد الأمر فيها إلى القدرة الإلهية المدبرة لهذا الوجود كله . ومن ثم تحقيق آثارها النفسية والعملية ، حيث تبعث في النفس الاطمئنان إلى قدر الله ، والتوكل عليه لا على تلك الأسباب ، كما جاء في قول يعقوب لأبنائه ، في قوله تعالى : { وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67)} [يوسف: 67].

إن ما جرى مع إبراهيم عليه السلام من تخلف الأسباب ، تجعل المسلم لا يعتمد على هذه الأسباب لأنه يعلم أنها ليست فاعلة بذاتها وإنما تؤدي فاعليتها بأمر الله تعالى ، ومن ثم لا يثق إلا برب الأسباب ولا يتوكل إلا على خالقها والفاعل الحقيقي لها ، قال تعالى : { قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [التوبة: 50-51].

إن معجزة إبراهيم تقدم لنا التصور الإيماني الصحيح لحقيقة الفاعلية في هذا الوجود ، وتجريدها من الأسباب الظاهرة وردها إلى الله تعالى وحده ، وذلك لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب ، فلا يخشى إلا الله ولا يرجو سواه ولا يتوكل إلا عليه ، إن هذا المعتقد من شأنه أن يحول الإنسان من كائن سلبي لا تأثير له في واقع الحياة ومجرى التاريخ إلى صانع للحياة ومغيير للتاريخ ، فهي تنقله من حالة كونه رد فعل للأحداث إلى فاعل أساسي فيها . وهذا ليس بدعاً من القول ، وإنما يكفي قراءة عابرة للتاريخ والوقوف على سننه الثابتة لتجد مصداق ذلك .

إن هذا المعتقد هو الذي يجعل الإنسان ينطلق في حمل التكاليف والواجبات من غير أن يعتمد على تلك الأسباب وإنما متوكلاً على الله تعالى وحده ، وهو الذي يجعله يسعى للإصلاح والتغيير في مجتمعه من غير هلع ولا جزع من أي قوة من قوى الأرض مهما بلغت ، لأنه يعلم يقيناً أنه لا شيء في هذا الوجود يند عن تلك القدرة الإلهية المطلقة والمشيئة النافذة ، قال تعالى : { قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ

نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (11) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } [إبراهيم: 11-12].

إن هذا التصور الصحيح لحقيقة الفاعلية في هذا الوجود لله تعالى ، هو الذي يحرر الإنسان من الحتمية السببية والعقلية المادية ، وحين يتحرر الإنسان من هذه المعطلات والمثبطات ، تنطلق تلك الطاقة الروحية الهائلة في الإنسان لتحقق آثارها الإيجابية في واقع الحياة الإنسانية . وتملك بها ناصية التاريخ لتصوغه وفق ما قدره الله لها ، لأننا نعلم من سنن التاريخ أنه لا يصنعه الجبناء المهزومين ، وأنما الرجال الذين تحلوا بالحكمة والإرادة ، والشجاعة والصبر ، وهذه الصفات هي من آثار هذه العقيدة العظيمة التي صاغت الرعيل الأول ، الذين كانوا قدراً من أقدار الله تعالى في صياغة التاريخ الإنساني ، فصنعوا فيه المجد والعزة ، والنهضة والحضارة ، وما زلنا نقتات من ثماره العظيمة مع ما نحن فيه من ضعف وتخلف .

وواقع الأمر أن البشر في كل ما يصدر منهم من أفعال وتأثير في الأحداث إنما هو بواسطة الاستعانة بالأسباب التي قدرها الله بين عباده إلا أن هذه الأسباب ليست واقعة بقدرتهم ، لأنه لا قدرة للبشر على خرق الأسباب وهي مفروضة عليهم من الله قسراً ، فأفعال البشر وتأثيرهم في الأحداث إنما هي محكومة بتلك الأسباب التي قدرها الله تعالى بين عباده ، فالمؤمن بالله يفرق بين السبب والمسبب ، ويعلم أنه تعالى هو المسبب والمريد والمقدر لهذه الأسباب والسنن في هذا الوجود ، والتي قدر الله تعالى فيها مسارات مختلفة منها الإيجابية والسلبية ، ورتب عل ذلك نتائج سننيّه من النهضة والانحطاط ، ونتائج جزائية من الثواب والعقاب ، ومن ثم يضبط المؤمن حركته في الحياة وفق منهج الله تعالى لينال السعادة في الدنيا والآخرة .

لقد كانت هذه المعجزة التي جرت لإبراهيم من عدم إحراق النار له ، انتصارا للحق على الباطل ، وانتصاراً للإيمان على الكفر ، وانتصاراً للحقيقة على الجهل ، وانتصاراً للنهضة على التخلف ، وانتصاراً للحرية على الاستعباد ، فهذه المعجزة التي خلدها القرآن في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطانه ، وذلك حينما يستعلي على هذه القوى الزائفة في الأرض ، فلا يتعلق قلبه بها من رجاء وخوف ، فلا يطمع منهم في مثوبة ولا يخاف من عقوبة .

إن المؤمن الذي تجرد قلبه من التعلق بهذه الأسباب ، هو وحده الذي يتوكل على الله تعالى ، ومن ثم هو وحده الذي يملك أن يقف في مواجهة الطغيان والفساد ، لأنه يعلم حقيقة قواهم الزائفة ،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ويعلم أن الفاعلية هي لله تعالى وحده ، وهذا المعتقد هو سر تلك الطاقة الروحية التي واجه بها إبراهيم عليه السلام قوى االفساد وحده ، والتي واجه بها النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه قوى الجاهلية ، والتي واجه بها خالد بن الوليد بجيشه القليل جحافل الروم ، فكانت معجزة عسكرية تدرس إلى يومنا هذا ، ولكن سر هذه القوى هي تلك الطاقة الروحية التي لا تتعلق بالأسباب وإنما برب الأسباب، وهذه الطاقة الروحية إنما تستمد قوتها من صلتها بالله تعالى وهي التي عبر عنها القرآن في قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } [الأنفال: 65-66]. لقد كان التكليف القتالي أضخم في أول الدعوة رغم قلة المسلمين عدداً وعدة ، ثم قلّ التكليف القتالي بعد أن أصبحت القوة المادية للمسلمين أكبر ، إن القرآن يكشف عن حقيقة المعادلة التي ترجح القوى الروحية على القوة المادية ، وفق ميزان رباني دقيق. وضعه رب الناس الذي خلقهم ، والذي يعلم حقيقة خلقه ، ويعلم حقيقة مكوناتهم النفسية والروحية والمادية . ويعلم كيف يتعامل معها بتوازن وبفاعلية وإيجابية .

فالقران في تعاليمه التربوية لا يلغي قانون الأسباب ، ولكنه لا يجعلها هي القوة الراجحة ولا هي القوة الحقيقة التي يعتمد عليها ، وهذا الدرس العقائدي تتضح معالمه في قصة حنين ، يوم ظن معظم المسلمين أنهم لن يغلبوا من قلة ، وقد ركنوا إلى قوتهم المادية بالعدد والعدة على عدوهم ، فانهزمت تلك القوة المادية و لم تثبت في ساحة المعركة في أول المواجهة ، وانكشف المسلمون عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وانتصرت القوة الروحية والإيمانية ، حيث ثبت قلة من المسلمين حول رسول الله ، وهم الذين لم تفتنهم تلك الكثرة وتلك القوة المادية ، وانتصروا بالمعركة بهذه الطاقة العظيمة الخلاقة الموصولة بالله تعالى ،والتي تستمد بواعثها من روح الأمل والبشرى بوعده تعالى ، والرجاء فيما عنده سبحانه .

فالمؤمن يأخذ بالأسباب ولكنه لا يعتمد عليها وإنما يعتمد على رب الأسباب وخالقها ، فهو يثق بالله وهي قوة تضاف إلى قوته المادية ، في مواجهته لقوى الباطل الذي يفتقد هذه القوى الروحية الموصولة بالله تعالى ، ومن ثم تترجح قوته على الباطل . ولكن أن يعتمد المؤمن على الله بغير هذه الأسباب هو تعطيل لسنن الله تعالى التي أجراها تعالى بين عباده ، وغفلة عن حقائق الوجود التي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قدرها سبحانه بين خلقه ، ومن ثم فإن الله لا يعين على العجز ، ولا ينفع أولئك البطالين المتواكلين اعتمادهم على الله مع عجزهم عن الأخذ بالسنن المفروضة والأسباب الواجبة .

إنه حين يصحح مسار التفكير للعقيدة بالمفاهيم الإسلامية ، وتصوب توجهات مشاعر الفطرة على أساسها ، حينها لم يعد أي قيمة أو أثر لتلك لقوة الغاشمة أمام هذه القوة الإيمانية التي تستمد قوها من الله ، فالمؤمن وهو حين يأخذ بتلك الأسباب لا تحجبه عن طلاقة المشيئة والقدرة الإلهية ، التي يعتمد عليها ويستعلي بها على القوى الأرضية كلها لتصبح عنده ضئيلة زهيدة .

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير الصحيح لحقائق الوجود وحقائق الإيمان ، وما تتركه من أثر إيجابي في مشاعر النفس واتجاهات السلوك ، حينما تتخلى عن التعلق بالأسباب ، وتتعلق برب هذه الأسباب ، فلا ترى حقيقة فاعلة في الوجود إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته ، بهذه التخلية فقط تتحقق التحلية بالتوكل على الله ورجائه سبحانه [327] . قال تعالى : { نَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } [المجادلة: 10].

* الشاهد الثاني :

قال تعالى : { وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30) } [الذاريات: 28-30]. وقال تعالى: { قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر: 54-56].

ومقتضى هذه الحقيقة هو أن لا يقنط الإنسان من هذه الرحمة الإلهية الواسعة ، وقصة إبراهيم تجسد هذا المعنى واقعياً ، فقد تجلت رحمة الله تعالى على إبراهيم وأهل بيته بإعطائهم الولد على خلاف السنن الجارية ، ومع انقطاع الأسباب المادية ، ومعلوم أن قدرة الله تعالى هي التي تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج ، وتغير الواقع كما تغير الموعود . وإن هذه الأسباب إنما تجري وفق أمر الله ومشيئته ، مما يوجب على المؤمن أن لا يتعلق في رجائه على هذه الأسباب ولا يركن إليها ولا يعتمد عليها ، وإنما يتعلق قلبه في كل ما يرجو ويأمل على الله تعالى وحده ، ويركن إليه ويعتمد عليه لا على أحد

---

[327] - راجع : تفسير الظلال 246/1 ، 281 ، 474 ، 363/3 ، 129/5 -130 ، 274/7 ، 128/8 ، وتفسير ابن عاشور 9/ 182 ، وأيسر التفاسير للجزائري 2/ 479- 480

سواه . وهذا ما فعله الملائكة حينما جاءوا إلى إبراهيم وزوجه بالبشرى التي تخرج عن السنن الجارية ومألوف البشر ، وأخذهما المفاجأة العنيفة والدهشة والتعجب من أمر البشرى ، فأزالوا الدهشة والتعجب عنهما برد الأمر إلى مشيئته تعالى ، فهو خالق الأسباب والفاعل لها على الحقيقة ، وهي محكومة له جارية بأمره لا تتخلف عن مشيئته مطلقاً . فلا غرابة أن يرزقهما الولد في تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته على خلاف ما جرت به العادة .

إن الألف والعادة تقيدان الإدراك البشري ، فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له؛ ولكن المشيئة الإلهية المطلقة لا تتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود؛ فهي ماضية في طريقها تبدع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود .

وجاءت هذه القصة لتؤكد هذه الحقيقة العقدية ، التي تنتقل بالإدراك البشري إلى عالم ما وراء المادة ، وما وراء الحس ، لتجعل منه إنساناً ربانياً لا يعتمد على هذه الأسباب المادية المخلوقة والمحكومة والمقيدة بهذه الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة ، فلا يعود يرجو إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ، إنها نقلة نوعية في الحس والشعور والإدراك ، فلا يحسها ولا يشعر بها ولا يدرك معانيها ، ولا يعيش حقيقتها إلا المؤمن الموصول بالله تعالى . فهو من يدرك هذه الرحمة الواسعة ، وهذه الحكمة البالغة فيما يجري ويقع في هذا الوجود من أحداث ووقائع . وهذا ما أخبرت به الملائكة إبراهيم وزوجته، حينما ردت أمر الله تعالى إلى مقتضى حكمته وعلمه ، في قوله:{ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } وكذلك ردّه إلى مقتضى فضله ورحمته ، في قوله : { رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود: 72-73]. ولم يكن تعجب إبراهيم وزوجته هو استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته جل جلاله ، فإن الأنبياء عليهم السلام أجل قدراً من ذلك ، وإنما هو استبعادها باعتبار العادة دون القدرة ، والتعجب من جريانها لهم دون غيرهم ، استعظاماً لنعمته سبحانه عليهم في كونه خصهم بها ، فكان قول الملائكة: { رحمت الله وبركاته عليكم } تعليل لانتفاء التعجب .

ثم أكدوا ذلك بقولهم: { إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ } لبيان المقتضى التعبدي في مقابلة نعمة الله عليهم وهو حمده وتمجيده تعالى لفعله ما يستوجب الحمد والتمجيد لكثرة نعمه وإحسانه عليهم . وعليه فإنه لا عجب من أمر الله . فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل . وعندما يشاء الله لحكمة يريدها يقع ما يخالف العادة ، والذين يقولون بالحتمية السببية لا يعرفون حقيقة طلاقة المشيئة الإلهية ، ومن العجيب أنهم يقيدون مشيئته المطلقة بما يعرفونه من نواميسه ، غافلين أنه هذه النواميس

الكونية إنما هي تجري بأمره وقدره . ومن ثم فهي محكومة لأمره مقيدة بمشيئته ، وليس هو محكوماً بها أو مقيداً لها . وهذا التصور من شانه أن يجعل المسلم يتوجه إلى الله تعالى وحده في كل ما يرجو ويؤمل ، لأنه هو المستحق لذلك وحده ، ومن أعظم الظلم أن يكون ذلك لأحد سواه[328] .

إن قصة إبراهيم عليه السلام جاءت لتقرير هذه الحقيقة الإيمانية ، لتحرر المسلم من التعلق بالأسباب أو بأحد من المخلوقين ، وتجعل صلته بالله تعالى مباشرة ، ليس بينه وبين ربه وسائط تحول دونه ، فإن أصابه مكروه فزع إليه تعالى مباشرة بلا واسطة من الخلق ، وإن بدت له حاجة قصد ربه وحد يرجو نوالها وتحقيقها من غير توسل بأحد من البشر ، فهو مقصوده ومرتجاه ومعبوده الذي لا يرجى سواه .

*** الشاهد الثالث :**

قال تعالى : { قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } [الأنعام: 80].

إن هذه الآية الكريمة تكشف عن حقيقة تعلق إبراهيم عليه السلام بربه عز وجل ، في الخوف والرجاء ، فهو لا يخاف سواه ، ولا يرجو إلا إياه ، وهو يتبرأ من كل حول غير حوله ومن كل قوة غير قوته ، وهو ينفي الفاعلية للأسباب ليردها إلى من بيده الأمر كله وهو الله رب العالمين ، وذلك حينما علق الأمر على مشيئته تعالى:{ إلا أن يشاء ربي شيئاً } . فهو بعد أن نفى عن آلهتهم القدرة على الضر والنفع ، وأثبته لله وحده ، علق قدرته على ذلك بمشيئته ، فإنَّه لمّا نفى خوفه من إضرار آلهتهم ، وقد يتوهَّم السّامعون منه أنَّه لا يخاف شيئاً استدرك عليه بالاستثناءُ . وفي هذا زيادة نكاية لقومه إذ كان لا يخاف آلهتهم ولا يرجوها في جلب نفع أو دفع ضرر ، في حين أنَّه يخشى ربَّه ويرجوه ، لأنه هو من يقدر على جلب النفع له ودفع الضر عنه ، وبعد إثباته قدرة الله على الضر والنفع وتعليقها على مشيئته ربط ذلك بعلمه تعالى الذي وسع كل شيء ، إشارة على أن العاقل ينبغي أن لا يرجو ولا يخاف إلا من كان قادراً على ضره في حال أنه مطلع عليه عالم باحواله ، لأن التعلق بغير من هذا حاله من العلم والقدرة والإرادة ، يعد في منتهى الحمق والجهالة .

328- راجع : تفسير الرازي، 260/1، 443/8،وتفسير الالوسي، 453/1،307/8،وتفسير البقاعي 178/4،وتفسير الظلال 253/4-254، وتفسير ابن عاشور، 324/4 ، 172/7 ، وتفسير السعدي 386 ، وتفسير طنطاوي ، 645. 2234، وتفسير اللباب، 136/9

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وقد كان بمقدور إبراهيم أن ينفي الخوف من قومه ومن ألهتهم مطلقاً ، ولكنه لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكناً إلى مشيئة الله الطليقة ، وإلى علم الله الشامل ، لأن إيمانه العميق يجعل قلبه موصولاً بالله من غير انقطاع ، لأنه لا غنى له عن ربه مطلقاً ، فهو في الوقت الذي يستعلي بإيمانه على هذه المعبودات الزائفة ويعلن غناه عنها ، فإنه يعلن افتقاره واحتياجه إلى ربه في كل أحيانه وأحواله ،وفي هذا الاستثناء دلالة على أدبه مع ربه ، واستسلامه لمشيئته ، وهذا حال الأنبياء والعارفين بالله تعالى ، فهذا شعيب يرد على تهديد قومه،في قوله تعالى : { قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا } [الأعراف: 89]. إن شعيب عليه السلام يرفض ما يفرضه عليه الطواغيت من العودة في ملتهم ، ولكنه لا يجزم بشيء عن مشيئة الله به وبهم . فالأمر موكول إلى مشيئته وعلمه . فهو لا يتأله على الله ولا يتأبى على شيء يقدره له أو عليه . ومن ثم فهو لا يرجو ولا يتوكل إلا عليه ، لأنه يعرف مصدر القوة ، وملجأ الأمان .

وفي قول إبراهيم :{ ربي } تعرض لعنوان الربوبية ، إشارة إلى أن التعلق بمشيئته الطليقة وقدرته التامة فيما يرجو ويؤمل ، واستسلاما لجريان حكمه وتقديره سبحانه كونه واثقاً أنه لا يقع منه إلا ما هو خير له لحكمته وعلمه تعالى . إن الاعتقاد بأن الأمور كلها في هذه الحياة إنما تسير وفق مشيئة الله تعالى وحده ، وإن هذه الأسباب إنما هي فاعلة بأمره ، وهي من قدره وسننه، وليس لها فاعلية ذاتية كما يعتقد الماديون والعلمانيون، إنما يوجب على المرء ألا يرجو الآمن على نفسه إلا من الله تعالى وحده ولا يتوكل على غيره ، وأن يتجرد من التعلق بالأسباب المادية والقوى الأرضية ، قال تعالى : { قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } [الزمر: 38].

فالتوكل في العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب ، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله تعالى وحده . ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع. أما أن تتحقق تلك النتائج فعلاً أو لا تتحقق فليس داخلاً في التكليف؛ لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله [329]. وعليه فإن العقيدة الإسلامية توازن بين التوكل على الله عز وجل وفعل الأسباب ، وفي ذلك يقول ابن القيم : " وهذا موضع انقسم فيه الناس طرفين ووسطًا. فأحد الطرفين عطّل الأسباب محافظة على التوكل. والثاني: عطّل التوكل محافظة على السبب، والوسط: علم أن

[329] - أنظر تفسير الظلال القرآن: 2758/5.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حقيقة التوكل لا تتم إلا بالقيام بالسبب، فتوكل على الله في نفس السبب. وأما من عطَّل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمنٍ؛ كمن عطل الحرث والبذر وتوكل في حصول الزرع ؛ فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمني . فحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلاً له قد فوض إليه، كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته، ونصحه وأمانته، وخبرته وحسن اختياره. والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال ، وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه؛ فأمره أن يحرث ويبذر ويسعى ويطلب رزقه في ضمان ذلك كما قدَّره سبحانه ودبره واقتضته حكمته، وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره، بل يجعل رجاءه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه، وأخبره أنه سبحانه المليء بالوكالة الوفي بالكفالة .

فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره، وقعد كسلان طالبًا للراحة مؤثرًا للدعة؛ وإن الكمال هو في الجمع بين الأمرين بحيث تنزل كل منهما منزلته؛ وهو الاعتماد على الله تعالى ثم الأخذ بالأسباب ، وهذا عين التوكل وحقيقته ، وهي حال الرسل والصحابة؛ فقد أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة لتكون سبباً للنجاة ، وأمر موسى أن يضرب بعصاه لينفلق البحر وينجوا هو ومن آمن معه ، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب اعتماداً على التوكل، بل كانوا أقوم الناس بالأمرين؛ فقد بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم، وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل، وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت اقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه وآله "[330].

إن مقتضى هذه الحقيقة هو أن لا يرجو العبد سواه، ولا يقصد إلا إياه، ولا يلوذ إلا بجنابه، ولا يطلب الحوائج إلا منه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه ، وأن لا يتعلق بالأسباب وإنما بمسببها، وأن يعتقد أنها لا تضر ولا تنفع إلا بإذنه، وأنه إذا شاء جعل نافعها ضارًا وضارها نافعًا ودواءها داءً وداءها دواءً . فالالتفات إلى الأسباب بالكلية شرك مناف للتوحيد ، وإنكار أن تكون أسبابًا بالكلية قدح في الشرع . والإعراض عنها نقصان في العقل. وتنزيلها منازلها، ومدافعة بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض، والقيام بها هو إثبات للتوحيد وإقامة للشرع وتحقيق للعبودية وذلك هو عين الحكمة والمعرفة[331] .

---

[330] – أنظر ابن القيم، الروح: ص 541، 542. بتصرف

[331] – ابن القيم ، مدارج السالكين : 1/440، 441 ط دار طيبة.

خامساً : التخلي عن الاستغناء عن الله والتحلي بالافتقار إليه تعالى .

إن الاستغناء عن الله تعالى وعدم الافتقار اليه ورجاءه فيما عنده هو عين الجحود والطغيان لقوله تعالى : { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7) } [العلق: 6]. لأن مقتضى توحيد الله في كونه تعالى هو الضار النافع الذي بيده ملكوت كل شيء الفعال لما يريد، هو أن يشعر العبد بالافتقار والاحتياج إليه ، وأنه لا غنى له عنه تعالى في كل أحواله . فلا يرجو أحداً سواه ، لأن العبد إذا قصد أحداً غير الله في الرجاء، فهو شرك لأنه ناتج عن الإعتقاد بأن هذا الذي توجه إليه يملك له ضراً أو نفعاً، وهم في الحقيقة لا يملكون شيئاً من ذلك ، قال تعالى : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (22) } [سبأ: 22].

وإنه من الحماقة أن يظن أحد من البشر أن الشرك مقتصر على تلك الصورة الساذجة التي عرفها المشركون القدامى، بل إن الشرك له صور وأشكال متعددة ، منها شرك الرجاء ، فإن العبد إن أشرك مع الله أحداً في الرجاء والدعاء والقصد والطلب فرجاءه شرك [332].

وإن القلب لن يشعر بالافتقار إلى الله تعالى ، ولن يتجه بكليته إليه ،حتى يخلو قلبه من كل شوائب الشرك ، وينقطع من كل العلائق والوسائط ولا يبقى في قلبه سوى الله وحده ، حينها يستقيم توجهه لله تعالى ويقبل منه تعالى رجاءه وقصد ، ويصح توحيده لله ويخلص في توجهه إليه . وقد كان لقصة إبراهيم دور في تجلية هذه الحقيقة نذكر منها :

*** الشاهد الأول :**

قال تعالى : { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } [الشعراء: 77-82].

إن الكفار لما عبدوا هذه الأصنام وعظموها وجعلوها في موضع الربوبية بحيث جرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرة ، ومن ثم توجهوا إليها بالرجاء في طلب المنافع ودفع المضار ، فصارت

---

332 - راجع أحمد فايز ، طريق الدعوة في ظلال القرآن ، ص106-132.

بذلك أسباباً لانقطاع الإنسان عن ربه ، فبين إبراهيم عليه السلام لقومه عجز معبوداتهم عن سماع من يدعوها أو الاستجابة له ، ثم أعلن أنه مفتقر إلى ربه الحق ومعرضاً عن كل معبود غيره ، لأن عبادة ما سواه باطلة ، لكون ما سوى الله مخلوقا ناقصا فقيرا من جميع الوجوه، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا . فلم يستحق شيئا من أنواع العبادة . لذلك فقد جاهر قومه بعداوتها والبراءة منها ، واستثنى رب العالمين مالك الخلائق ومربيهم أجمعين ومدبر هذه الأكوان كلها والمتصرف فيها ، ثم شرع يصف معبوده بما يستحق العبادة لأجله .

فجمع عليه السلام في هذه الآيات جملة من نعم الله تعالى على عباده ، وهي في حقيقتها تعبير عن افتقار العبد التام لربه من أول الخلق إلى آخر الأبد في الدار الآخرة، فهو لا غنى له عن ربه طرفة عين:

– فهو مفتقر له في وجوده: { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } . فهو مفتقر له في وجوده وهدايته للمصالح الدينية والدنيوية .

– وهو مفتقر إليه في دوامه وبقائه ، فهو بعد إيجاده يحتاج لربه في إمداده الرزق الذي به دوام حياته: { وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } . فهو مفتقر إليه في إمداده بكل أسباب الحياة ، ووسائل العيش بما يكفل بقاءه ويحفظ حياته ،

– وهو مفتقر إليه في كل حوائجه وأحواله فالمرء معرض أن تصيبه الأمراض والعلل ، وتقع عليه المصائب والمحن: { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } فإذا نزل بالإنسان مرض أو بلاء ، فالله وحده من يملك الشفاء ودفع البلاء . فالعبد دائم الافتقاره لربه سواء في السراء والضراء ، وهذا الافتقار لله هو عنوان العبودية له تعالى ، وقد جسد الأنبياء هذا المعنى في حياتهم ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ } [الأنبياء: 83-84]. وقوله تعالى : { وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 87-90]. وهذا موسى عليه السلام يعلن هذا المعنى بكل وضوح ، في قوله تعالى : { فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) } [القصص: 24].

- وهو مفتقر إليه في مماته وما يعقبها من حياة في الآخرة: { والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ } فالموت يعني التخلص عن آفات الدنيا وعقوباتها .

- وهو مفتقر إليه بعد هذا الموت لأنه هناك حياة خالدة يرجوا فيها عفوه وفضله، فهو أحوج ما يكون إلى ربه في تلك الحياة الأبدية : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } . فهو مفتقر لمغفرة ذنوبه ، والتجاوز عن سيئاته ، مفتقر إليه أن يرحمه عند حسابه وجزاءه .

فالعبد لا ينفك عن مقام الرجاء في افتقاره لربه من المبدأ إلى الميعاد ، فهو دائم الاحتياج لربه والافتقار إليه . لذلك أعلن إبراهيم عليه السلام أنه مفتقر لربه غاية الافتقار ، واستعجز نفسه عن الاستقلال عنه لحظة أو الاستغناء عنه طرفة عين ، فهو دائم الافتقار إلى نعمه ، دائم الاحتياج إلى أفضاله ، والمقصود من كلامه عليه السلام هو إظهار هذه الحاجات الضرورية التي لا غنى للإنسان عنها ، وهذا الافتقار هو من مظاهر العبودية ، يتوسل الإنسان حاجته من الله الغني بالتخشع لعظمته والتذلل لعزته في عرض افتقاره لما عنده .

وفي ذكر هذه النعم تنبيه إلى افتقار العبد لربه من كل الوجوه ، وأنه لا غنى له عن ربه بحال ، وهو يذكر كل نعمة وما يقابلها ، وقد يذكر النعمة مسبوقة بذكر ما يقابلها في حال فقدها : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } وذلك حتى يتدبر الإنسان نعم اللّه عليه، ويستبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لعظمة النعمة وموضع المنّة ، واستشعر مدى افتقاره لله تعالى ، فإن هذا الفهم وهذا الشعور يجعل الإنسان يتجه إلى شكر ربه والثناء عليه، والقيام له بحق العبودية على عظيم فضله وواسع نعمه . بخلاف من رأى أن هذا الأمر مستمرا له بحكم العادة ، فإن قلبه يعمى عن رؤية افتقاره إلى ربه وحاجته له في كل وقت وحين ، مما يقوده ذلك إلى الطغيان والجحود لنعمه وفضله تعالى عليه[333]. قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ } [الإنفطار: 6-8]. وقال تعالى : { قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) } [الكهف: 37-38].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[333] - راجع ، تفسير الطبري، 19/362-364 ، وتفسير ابن كثير ،6/145، وتفسير الرازي 11/482 ، وتفسير الألوسي ، 14/241-251 ، وتفسير ابن عاشور ، 10/173-180 ، وتفسير طنطاوي ،3165-3167 ،

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ } [البقرة: 126]. وقوله : { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } [إبراهيم: 37].

إن هذا التوجه من إبراهيم عليه السلام إلى ربه في طلب الرزق هو تحقيق للمعتقد الإيماني لمفهوم الرزق ، وتطبيق لما وقر في قلبه من يقين بأن الله وحده من يملك الرزق وهو من يقدر أن يعطيه ، لذلك فهو يتوجه له بالافتقار في طلبه وتحصيله . وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن مع فضل الله تعالى ونعمته عليه ، وهو أن يستكثره ويشكره ، ولا يظن أنه ناله باستحقاق وجدارة ، كقول قارون : { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } [القصص:78]. أو أن يستغني عن الله تعالى بالكفر والطغيان ، كقوله تعالى : { كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) } [العلق: 6]

وقد عالج القرآن هذا الانحراف بتصحيح المعتقد الإيماني عن مفهوم الرزق ، وأنه بيد الله وحده ومن ثم تصويب مشاعر الفطرة في توجهاتها إلى الله والشعور بالحاجة والافتقار إليه تعالى ، وأنه لا غنى للأنسان عن الله من كل الوجوه ، وأن الله هو الغني الحميد، كقوله قال تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) } [فاطر: 15]. وأن الذي يغني الإنسان إنما هو الله وحده ، كما في قوله تعالى : { وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى } [النجم: 48]. كما نهج إلى عدّ نعم الله وإحصاءها على بني آدم وذلك لبيان مدى حاجة الإنسان إلى خالقه وافتقاره إليه كقوله تعالى : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18)} [النحل: 18].

وفي الحديث القدسي: " يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وأخركم إنسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئا يا عبادي لو أن أولكم وأخركم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وأنسكم وجنكم قاموا على صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك

مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " [334].

كما وبين سبحانه فقر الإنسان لله وحاجته وقت الشدة فمنهم من يقر لله تعالى بالافتقار ويستقيم ومنهم من يستغني ويكفر قال تعالى : { وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ } [لقمان: 32]. فالإنسان مفتقر إلى الله تعالى في كل حاجاته وأحواله ومنها هذا الرزق الذي هو من أكثر القضايا لصوقاً بحياة الإنسان لأنه مرتبط ببقائه ارتباطاً وثيقاً ، وإن الإنسان ملزوم بالشكر لله تعالى على هذا الرزق ، فلا تحجبه الأسباب عن رؤية حقيقة أن الرزق بيد الله وحده [335].

ـــ المطلب الثاني : مشاهدة صفات جماله تعالى وعظيم ثوابه .

إن مشاهدة أسماء الله تعالى وصفاته ومطالعة آثارها في الوجود وفقه معانيها والتعبّد لله بها من أعظم أسباب تحقيق عبودية الله تعالى . يقول العز بن عبد السلام : " فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة والمحبة والتوكل وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات" [336]. وقال ابن القيم: " لكل صفة عبودية خاصةٌ هي من موجباتها ومقتضياتها ، أعني : من موجبات العلم بها والتحقيق بمعرفتها ؛ وهذا مُطَّرِدٌ في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح ؛ فعلم العبد بتفرد الربّ بالضر والنفع والعطاء والمنع ، والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطناً ، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً ، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة ، وأنه يعلم السرّ ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله . ومعرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة . فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات [337].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

334 – رواه مسلم: صحيح مسلم، رقم الحديث"2577"ج4، ص 1994 ، كتاب البر والصلة.

335 – راجع : زكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ، ص . 323-324

336 – شجرة المعارف والأحوال ، ص17 ، وانظر الفوائد ، ص 63، 64 .

337– ابن القيم ، مفتاح دار السعادة ، 90/2 ، باختصار .

وإن معرفة العبد لصفات الله وأسمائه تورث الرجاء في فضله ورحمته وكرمه تعالى ، وكلما قويت معرفته بربه ازداد طمعه ورجاءه فيه سبحانه ، لقوله تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } [الإسراء: 57]. وقد عمل القرآن على تكوين عاطفة الرجاء في الله تعالى وتحقيقها في القلب وذلك من خلال معرفة الله تعالى ومطالعة صفات جماله وما أعده لعباده من ثواب ، ويمكن بيانها من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ، وذلك على النحو الأتي :

أولاً : مشاهدة صفات الجمال والإكرام لله تعالى .

إن الرجاء من أقوى البواعث على محبة الله تعالى ، فالرجاء في الله وتعالى وما عنده رحمة وفضل ، وما وعد به الطائعين من ثواب يحرك القلب على طلب محبوبه، والذي يحركه شيئان: أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب ، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } [الأحزاب: 41-42]. والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه, قال الله تعالى : { فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الأعراف: 69]. وقال تعالى : { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } [النحل: 53]. وقال تعالى : { وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } [لقمان: 20]. وقال تعالى : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } [إبراهيم: 34].

فإذا شاهد العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض وما فيها من الأشجار والحيوان ، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره, فلابد أن يثير ذلك عنده باعثاً يحركه إلى التطلع إلى ما عند الله تعالى ، من خير وفضل وثواب . وإذا شاهد رحمته ومغفرته ، كما في قوله تعالى : { وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ } [النحل: 90]. وقوله : { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا } [نوح: 10]. فإن ذلك يبعث في نفسه الرجاء والطمع بكرمه وحلمه وعفوه . والشواهد في قصة إبراهيم عليه السلام في مطالعة صفات الجمال والإكرام لله تعالى كثيرة نذكر منها :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الشاهد :

قال تعالى : { رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 128].

إن مشاهدة رحمة الله تعالى هو الذي جعل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يتجهان ويرغبان إلى الله تعالى بطلب التوبة منه تعالى ، قال أبو جعفر: " أما التوبة : فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب. فتوبة العبد إلى ربه، أوبته مما يكرهه الله منه، بالندم عليه، والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الرب على عبده: عوده عليه بالعفو له عن جرمه، والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه، وتفضلا عليه " [338].

وأما الذنب بالنسبة إليهما عليه السلام فهو ترك ما هو الأولى ، فهذا هو الأليق بمنصب النبوة ، فالتوبة مقاماً من مقامات العبودية ،وكما قيل: فحسناتُ الأبرار سيئات المقربين ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يستغفر في المجلس سبعين مرة . بقوله : " واللَّه إِنِّي لَأَستغْفرُ اللَّه وأَتوبُ إِلَيْه في اليَومِ أَكثَر مِنْ سَبعينَ مَرة " [339]. وهذا موسى عليه السلام يقول : { رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [القصص: 16]. وقوله أيضاً : { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [الأعراف: 151]. وقول سليمان عليه السلام : { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي } [ص: 35]. وقول يونس عليه السلام : { لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الانبياء: 87]. وقول نوح عليه السلام : { رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا } [نوح: 28]. وقول الخليل عليه السلام: { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [إبراهيم: 42]. وقوله أيضاً : { وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } [الشعراء: 82].

إن شعور إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام برحمة الله تعالى الواسعة دفعهما إلى طلب التوبة ، بقوله : { وتب علينا } . فعلة طلب هذه التوبة هو كونه تعالى هو التواب الرحيم ، فهما عليهما السلام قد توسلا في قبول دعائهما بأسمائه الحسنى وصفاته العليا سبحانه ، بقوله : { إنك أنت التواب

[338] - تفسير الطبري 3/ 81

[339] - صحيح البخاري رقم(5948) وصحيح مسلم رقم (4870)

الرحيم }. فناسب ذكرهما لأهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمة مسلمة ، وبأن يريهما مناسكهما ، وبأن يتوب عليهما . فكان رجائهما بالتوسل بهاتين الصفتين من صفات الله تعالى ، مزيد استدعاء وتعليل لطمعهما برحمته تعالى ، لأن من عادته سبحانه التفضل على عباده بالعفو والمغفرة ، وتظهر هذه العلة بوضوح في قوله تعالى عن الثلاثة الذين تخلفّوا عن غزوة تبوك ، في قوله تعالى : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [التوبة: 118].

ففي قوله : { إنك أنت التواب } . أي : كثير القبول لتوبة المنيبين إليه ، وقبول توبتهم يقتضي عدم مؤاخذتهم بما يأتونه من سيئات ، ليعرفوا فضله عليهم وعظيم قدرته ثم أتبعه وصفاً هو كالتعليل له فقال : { الرحيم } . أي : بعد تخلصهم من عقوبة الخطيئة أو المعاتبة عليها ينتظرون من رحمة الله أن تحفهم بإحسان . لذلك لوحا إلى طلب الرحمة ، إذ الرحمة صفة من أثرها الإحسان ، فكأنهما قالا : تب علينا وارحمنا ، فهو العائد على عباده بالعفو والغفران، والمتفضل عليهم بالرحمة والإحسان ، وفي ذكر الرحيم عقيب ذكر التواب ، يدل على أن قبول التوبة لأجل محض الرحمة والكرم ، لا لأجل الوجوب ، وهذا من أكمل آداب الدعاء وأرجاها للقبول عند الله تعالى .

وعليه فإن مشاهدة العبد صفات الله تعالى كونه تواباً رحيماً ، ومشاهدة رحمته بعباده في العفو عنهم لتقصيرهم من الوفاء بحقه في العبودية، ومغفرته لهم عن ذنوبهم والتجاوز عن سيئاتهم ، ومشاهدة أنه سبحانه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة ، وأن ذلك شأن من شؤونه وعادة من عوائده المستمرة ، وأنه هو المتفضل على عباده بالعفو والغفران ، المستنقذ من يشاء منهم برحمته ، المنجي من يريد نجاته منهم برأفته .توجب على العباد ألا يقنطوا من رحمته تعالى مهما أسرفوا على أنفسهم من الذنوب ، كما في قوله تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر: 53].

وأن لا ييأسوا من سعة عفوه ومغفرته عز وجل[340]. كما في قوله تعالى : { وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87].

وعدم الإصرار على الذنوب والمداومة عليها ، والمسارعة في التوبة والمبادرة إليها قبل فواها ، كقوله تعالى : { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 133]. وقال تعالى في الحديث القدسي : " يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت

---

[340]- راجع تفسير الظلال ، 240/6 ، وتفسير ابن عاشور 365/13، وتفسير طنطاوي 3669

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لك على ما كان فيك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيك بقرابها مغفرة "[341]. إن العبد حينما يلاحظ رحمة الله وعفوه عن عباده فإن هذا يجعله يتوجه إلى الله تعالى بالرجاء في طلب رحمته ومغفرته[342]. إن في قول إبراهيم وابنه عليهما السلام :{ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }. إنما يقرران مبدأ التوبة والمغفرة على أساس سعة رحمته تعالى في مغفرته لذنوب عباده كبيرها وصغيرها ، وعفوه عن سيئاتهم جميعها . مما يستوجب الإقلاع عن المعاصي ، والندم عليها ، والعزم على عدم الرجوع إليها ، والمبادرة إلى التوبة والمسارعة فيها .

ثانياً: مطالعة العبد لثواب الله تعالى وأجره العظيم .

أن مطالعة العبد لثواب الله تعالى لمن أمن به وأطاعه هو الذي يبعث في النفس الرجاء والأمل المستبشر بوعد الله ، واليقين بإنجاز ما وعد لعباده المؤمنين المتقين ومطالعة هذا الثواب والأجر العظيم هو من أقوى عناصر الالتزام الخلقي والانقياد لطاعة الله ، قال تعالى : { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة: 25].

وهذا الاستبشار بوعد الله وفضله باعث قوي ومؤثر في أداء التكاليف والقيام بأعباء الرسالة والتفاني في التضحية والاستشهاد في سبيل الله قال تعالى : { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران: 146-148].[343] وقال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ } [فاطر: 29-30].

[341]- سنن الترمذي رقم (3540)

[342]- راجع : تفسير الطبري 81/3 ، وتفسير الألوسي 10/2 ، وتفسير الرازي 347/2 ، وتفسير القرطبي 125/2 ، وتفسير البقاعي 184/1 ، وتفسير اللباب 105/2، وتفسير الخازن 99/1 ، وتفسير أطفيش 148/1 ، وتفسير ضنطاوي 208 ، 3904 ، وتفسير البحر المحيط 487/1 ، وتفسير السعدي 66

([343]) آل عمران: 146-148.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الرابع : قوله : { واغفر لأبى إنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين }. لما فرغ من طلب السعادات الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأشد الناس التصاقاً به ، فسأل المغفرة لأبيه قبل سؤال أن لا يخزيه الله يوم القيامة لأنه إذا جيء بأبيه مع الضالّين لحقه انكسار من جهته .

الخامس : قوله : { وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ } وهذا المطلب يدل على مدى شعوره بهول اليوم الآخر .كما في قوله:{ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم } . وفي هذا دلالة على إخلاص قلبه كله لله ، وخلوه من التعلق بغيره تعالى ، وتجرده من كل غرض وشهوة ومرض [344]، وقد أكرمه تعالى بهذا الوصف حيث قال : { إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الصافات: 84].

وهكذا نرى في قصة إبراهيم عليه السلام أن الرجاء في الله تعالى وبما عنده من ثواب من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه , فرجاء العبد ثواب الله هو الذي حمله على استسلامه لربه ورضاه بمواقع حكمه فيه ، وما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه ويقيله عثرته ويعفو عنه ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ويتجاوز عن سيئاته, فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد لربه ، ولا يتصور هذا بدون الرجاء البتة, فالرجاء حياة الطلب ، وهو سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله ، وكلما قوي رجاء العبد وطمعه في فضل الله ورحمته وتيسير أموره قويت عبوديته لله تعالى . فمن تمام العبودية وتحقيقها هو الشعور بالافتقار إلى الله تعالى والتوجه إليه بالرجاء والطلب . كما في قوله تعالى : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر: 60]. وعلى هذا فإنه على قدر معرفة العبد لله ومطالعته صفاته من الجمال والإكرام والإنعام والرحمة والفضل والإحسان، فحين تتمثل هذه الصفات في ذهنه وتعمل على مطالعتها لتصاحبه في كل أحواله ويتذكرها باستمرار فإنها تقوى في نفسه رجاء الله والطمع في رحمته وفضله، لتحمله على المسارعة إلى فعل الخيرات والقيام بالطاعات والمسابقة في النوافل والقربات . لينال من الله ما يأمل ويرجو عظيم الأجر والثواب ، قال تعالى : { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 90].

344- راجع : تفسير الطبري 363/19 ، وتفسير ابن كثير 149/6 ، وتفسير الرازي 485/11 -493 ، وتفسير الألوسي 256-252/14

الرابع : قوله : { واغفر لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين }. لما فرغ من طلب السعادات الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأشد الناس التصاقاً به ، فسأل المغفرة لأبيه قبل سؤال أن لا يخزيه الله يوم القيامة لأنه إذا جيء بأبيه مع الضالّين لحقه انكسار من جهته .

الخامس : قوله : { وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ } وهذا المطلب يدل على مدى شعوره بهول اليوم الآخر .كما في قوله:{ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم } . وفي هذا دلالة على إخلاص قلبه كله لله ، وخلوه من التعلق بغيره تعالى ، وتجرده من كل غرض وشهوة ومرض[344] ، وقد أكرمه تعالى بهذا الوصف حيث قال : { إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [الصافات: 84].

وهكذا نرى في قصة إبراهيم عليه السلام أن الرجاء في الله تعالى وبما عنده من ثواب من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه , فرجاء العبد ثواب الله هو الذي حمله على استسلامه لربه ورضاه بمواقع حكمه فيه ، وما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه ويقيله عثرته ويعفو عنه ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها ويتجاوز عن سيئاته, فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد لربه ، ولا يتصور هذا بدون الرجاء البتة, فالرجاء حياة الطلب ، وهو سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله ، وكلما قوي رجاء العبد وطمعه في فضل الله ورحمته وتيسير أموره قويت عبوديته لله تعالى . فمن تمام العبودية وتحقيقها هو الشعور بالافتقار إلى الله تعالى والتوجه إليه بالرجاء والطلب ، كما في قوله تعالى : { وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر: 60]. وعلى هذا فإنه على قدر معرفة العبد لله ومطالعته صفاته من الجمال والإكرام والإنعام والرحمة والفضل والإحسان، فحين تتمثل هذه الصفات في ذهنه وتعمل على مطالعتها لتصاحبه في كل أحواله ويتذكرها باستمرار فإنها تقوى في نفسه رجاء الله والطمع في رحمته وفضله، لتحمله على المسارعة إلى فعل الخيرات والقيام بالطاعات والمسابقة في النوافل والقربات ، لينال من الله ما يأمل ويرجو عظيم الأجر والثواب ، قال تعالى : { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 90].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[344]- راجع : تفسير الطبري 363/19 ، وتفسير ابن كثير 149/6 ، وتفسير الرازي 485/11 -493 ، وتفسير الألوسي 256-252/14

ـــ المطلب الثالث : تحقيق التوازن النفسي بين الرجاء والخوف .

إن المنهج القرآني في ضوء معرفته بالنفس وما ينتابها من مشاعر الخوف والرجاء ، قد سلك في بناء الأساس النفسي للعقيدة سبيلاً قاصداً وسطاً بين التخويف والترجيه أو "الترغيب أو الترهيب" في معالجته للنفس الإنسانية ليحقق بذلك التوازن النفسي لدى المؤمن بحيث لا يتركه في مقام التخويف فريسة سهلة للجبن والخوار والانزواء واليأس كما لا يتركه في مقام الترجيه عرضه للأماني السادرة الجوفاء والإغراق في الوهم والإمعان في الاغترار لأن كل منهما تطرف يفقد النفس توازنها وفاعليتها الإيجابية ويهدر طاقتها بما لا تستقيم معه أمر النفس المؤمنة وبما يتناقض مع مقتضيات الرسالة الإلهية التي جاءت لإقامة الحق والعدل والخير، فكان تحقيق التوازن النفسي عند المؤمن أمر ضرورياً يقتضيه إصلاح الفرد المسلم والمجتمع الإنساني[345].

لذلك فقد عالج القرآن بأسلوبه التربوي النفس الإنسانية بما يكفل لها التكامل والتوازن النفسي ويحفظ سلامتها من الأمراض والعلل ووقايتها منها ، ليحفظ للنفس فاعليتها الإيجابية ويستثمر طاقاتها باتجاه سلوك طريق الاستقامة من القيام بالفضائل واجتناب الرذائل ليخرج بهذه التربية القرآنية أمة الخيرية والوسطية مصداقاً لقوله تعالى : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ } [آل عمران: 110].

فكانت التهيئة القرآنية في بناء النفس المؤمنة بما يكفل تكاملها وتوازنها يتفق مع مضمون الرسالة الإلهية وغايتها ، ومنسجماً مع معطيات الإسلام الحضارية فيما تقدمه للعالم من قيم رفيعة، ومثل عليا، ومبادئ سامية . وما يترتب على هذا العطاء من تبعات تقتضي التضحية والمجاهدة والمصابرة في المواقف الحيوية الحاسمة والفاصلة بما لا يدع مجالا لنوازع الخوف والجبن أن تنفذ إلى نفس المؤمن أو يدخل إليها بواعث التردد والتقهقر أو التقاعس والهبوط والإخلاد إلى الأرض[346]. قال تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } [الأعراف: 176]. وعليه فإنه لأجل تحقيق هذا التكامل والتوازن النفسي فقد اتخذ المنهج القرآني من الفطرة وما ينتابها من الخوف والرجاء ، والرغبة

---

345 - راجع: فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ج2، ص 509-511

346 - المرجع السابق ، ج2، ص 509-513.

والرهبة ، أسلوباً تربوياً لتحقيق التوازن النفسي لدى المؤمن، ولقد كان لقصة إبراهيم عليه السلام دوراً بارزاً في تحقيق هذا الهدف ، ومن الشواهد على ذلك نذكر منها :

*** الشاهد :**

قال تعالى : { نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (51) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (52) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (53) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (54) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (55) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (56) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (57) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (58) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (59) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ } [الحجر: 49-60].

لقد جمع سبحانه في هذه الآيات بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد ، لبيان سنته تعالى في خلقه ، ولكي تكون حياة المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء ، فلا يبلغ به الخوف إلى درجة القنوط من رحمة الله ، ولا يبلغ به الرجاء إلى درجة القصور في أداء ما كلفه به سبحانه . فهذه الآيات قد جمعت بين رحمة الله وعذابه ، ممثلة في قصص إبراهيم وبشارته على الكبر بغلام عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم .

وهذا القصص يساق بعد مقدمة : { نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم } فيجيء بعضه مصداقاً لنبأ الرحمة ، في قوله: { نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم }. ويجيء بعضه مصداقاً لنبأ العذاب ، في قوله: {وأن عذابي هو العذاب الأليم }.

فلما ذكر سبحانه ما يوجب الرغبة والرهبة فيما عند الله من نعيم الجنة وعذاب النار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصاف جماله وجلاله تعالى فقال: { نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته، ومغفرته سعَوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته . وحتى لا يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن من مكره وبطشه وانتقامه ، فنبئهم { وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ } فإن العباد إذا شاهدوا صفات جلاله وقهره وإنزال عذابه بأعدائه ، عرفوا أنه لا عذاب في الحقيقة إلا عذابه ، حذروا وابتعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد

ينبغي أن يكون قلبه دائما بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها . ومن أجل تحقيق التوازن النفسي لا بد من أمرين:

الأمر الأول : الجمع بين الخوف والرجاء [347].

إن الخوف من الله سبحانه يجب أن يكون مقرونا بالرجاء والمحبة؛ بحيث لا يكون خوفا باعثا على القنوط من رحمة الله؛ فالمؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، بحيث لا يذهب مع الخوف فقط حتى يقنط من رحمة الله، ولا يذهب مع الرجاء فقط حتى يأمن من مكر الله؛ لأن القنوط من رحمة الله والأمن من مكره ينافيان التوحيد : قال تعالى : { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف: 99]. وقال تعالى : { إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87]. وقال : { وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحج: 56].

فلا ينبغي للمؤمن أن يعتمد على الخوف فقط حتى يقنط من رحمة الله، ولا على الرجاء فقط حتى يأمن من عذاب الله، بل يكون خائفا راجيا؛ يخاف ذنوبه، ويعمل بطاعة الله، ويرجو رحمته؛ كما قال تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا} [السراء: 57].

والخوف والرجاء إذا اجتمعا؛ دفعا العبد إلى العمل وفعل الأسباب النافعة؛ فإنه مع الرجاء يعمل الطاعات رجاء ثوابها، ومع الخوف يترك المعاصي خوف عقابها . أما إذا يئس من رحمة الله؛ فإنه يتوقف عن العمل الصالح، وإذا أمن من عذاب الله وعقوبته؛ فإنه يندفع إلى فعل المعاصي . وقد وصف الله الذين أهملوا جانب الخوف واندفعوا في المعاصي، وأمنوا من العقوبة بأنهم الخاسرون، فقال تعالى : { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف: 97].

والمعنى : أن الله لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل المتمادين في الكفر والمعاصي؛ ذكر أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه، ومكر الله هو أنه إذا عصاه العبد وأغضبه؛ أنعم عليه بأشياء يظن العبد أنها من رضى الله عنه، وهي استدراج له؛ فهؤلاء الكفرة أمنوا

347 - راجع : وزكريا الشلول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ، ص 352-355

مكر الله بهم لما استدرجهم بالسراء والنعم وعصوا رسلهم وتمادوا في المعاصي حتى أهلكهم الله . وحذر من جاء بعدهم أن يفعل مثل فعلهم فيصيبه ما أصابهم [348] . فقال سبحانه : { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ } [الأعراف: 100]. فالواجبُ الجمعُ بين الخوفِ والرّجاء، وأكملُ أحوالِ العبد في عبادتِه لربّه العبادةُ بالمحبّة لله تعالى مع اعتدالِ الخوفِ والرجاء، وهذه حالُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلامُ والمؤمِنين الذين هُم عَلَى طريقَتِهم ، قال تعالى : { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 90]. وقَالَ تَعَالَى : { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ } [السجدة: 16].

فإذا عَلِم المسلِمُ شمولَ رَحمةِ الله وعَظيمَ كرَمِه وتجاوزَه عن الذنوب العِظام وسعةَ جنّته وجَزيلَ ثوابه انبسطَت نفسُه واستَرسَلت في الرّجاء والطمَع فيما عند الله من الخير العظيم، وإذَا علِم عظيمَ عِقاب الله وشِدّةَ بطشه وأخذه وعَسيرَ حسابه وأهوالَ القيامةِ وفظاعةَ النّار وأنواع العَذاب في النار كفَّت نفسُه وانقمَعت وحذِرت وخافت، ولهذا جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسولَ الله قال: " لو يَعلمُ المؤمِنُ ما عند الله منَ العقوبةِ ما طَمع بجنّته أحد، ولو يعلَم الكافرُ ما عند الله من الرحمةِ ما قنط من جنَّتهِ " [349].

وقد جمع الله بين المغفرةِ والعذابِ كثيرًا فقال تَعالى : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } [الرعد: 6]. ونَقل الغزاليّ عن مكحول الدّمشقيّ قال: "من عبدَ الله بالخوفِ وَحدَه فهو حَروريّ [350]، ومَن عَبَدَه بالرّجاء فهو مُرجئ، ومَن عبده بالمحبّة فهو زِنديق، ومن عبَد الله بالخوفِ والرّجاء والمحبّة فهو موحِّد سنيّ " [351].

ويفصل سيد قطب القول في التوازن بين موجبات الخوف والرهبة وموجبات الأنس والرجاء ، فيقول : " والتوازن في علاقة العبد بربه بين موحيات الخوف والرهبة والاستهوال، وموحيات الأمن والطمأنينة والأنس؛ فصفات الله الفاعلة في الكون، وفي حياة الناس والأحياء، تجمع بين هذا الإيحاء

---

[348] - راجع: تفسير ابن كثير ، 450/3 ، وتفسير الألوسي ، 278/6.

[349] - صحيح مسلم: كتاب التوبة (2755).

[350] - حَروريّ [350] ـــ أي: خارجيّ

[351] - أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين 166/4.

وذاك في توازن تام. ويقرأ المسلم في كتاب الله الكريم من صفات ربه ما يخلع القلوب ويزلزل الفرائص، ويهز الكيان، من مثل قوله تعالى : { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ } [البقرة: 235]. وقوله : { سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } [القلم: 44-45]. وقوله : { وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } [آل عمران: 4]. وقوله : { وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } [هود: 102]. وقوله : { وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً } [المزمل: 11-14]. وصور العذاب في مشاهد القيامة رعيبة رعيبة . ويقرأ المسلم كذلك من صفات ربه ما يملأ قلبه طمأنينة وراحة، وروحه أنسًا وقربًا، ونفسه رجاء وأملا: من مثل قوله تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } [البقرة: 186]. وقوله : { أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ } [النمل: 62]. وقوله : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً } [مريم: 96]. وقوله : { وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ } [البروج:14]. وقوله: {وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} [البقرة: 207]. وقوله : { وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً } [الكهف:23]. وصور النعيم في مشاهد القيامة رخية رخية! ومن هذا وذاك يقع التوازن في الضمير بين الخوف والطمع، والرهبة والأنس، والفزع والطمأنينة، ويسير الإنسان في حياته، يقطع الطريق إلى الله، ثابت الخطو، مفتوح العين، حي القلب، موصول الأمل، حذرًا من المزالق، صاعدًا أبدًا إلى الأفق الوضيء. لا يستهتر ولا يستهين، ولا يغفل ولا ينسى. وهو في الوقت ذاته شاعر برعاية الله وعونه، ورحمة الله وفضله؛ وأن الله لا يريد به السوء، ولا يود له العنت، ولا يوقعه في الخطيئة ليتشفى بالانتقام منه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

وحين نوازن بين هذا التصور وتصور الإغريق لكبير آلهتهم: القاسي الحسود الشهوان العربيد، المضغن الحقود. أو تصور الإسرائيليين المنحرف لإلههم الغيور المتعصب، البطاش المتهور. أو تصور أرسطو لإلهه المترفع الذي لا يُعني نفسه بأمر الخلق على الإطلاق؛ ولا يفكر إلا في ذاته، لأنها أشرف الذوات، ولا يليق بالإله أن يفكر إلا في أشرف ذات! أو تصور الماديين لإلههم «الطبيعة» الصماء

العمياء الخرساء! عندئذ تبدو قيمة هذا الجانب المتوازن في التصور الإسلامي، وأثره الواقعي في حياة البشر، وأثره كذلك في منهج حياهم وأخلاقهم ونظامهم العملي " [352].

ولذلك فالمسلم السوي العدل هو الذي لا ييأس ولا يقنّط الناس من رحمة الله تعالى، كما أنه لا يأمن ولا يؤمّن الناس من مكر الله تعالى؛ قال الله عز وجل : { إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87]. وقال في موضع آخر : { أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ } [الأعراف:99].

وهذا التوازن المنضبط يسير العبد إلى ربه عز وجل محبًا له، خائفًا منه ومن عقابه، طامعًا وراجيًا في ثواب ربه سبحانه، محسنًا الظن به عز وجل. ولذا نجد أن من هذا شأنه يسعى بالعمل والكدح في فعل ما يحبه الله عز وجل، وترك ما يسخطه حبًا لله تعالى، وخوفًا من عقابه، ورجاء ثوابه. أما إذا تغلب جانب على آخر فإن النتيجة ترك العمل أو ضعفه، وإساءة الظن بالله تعالى. وإنه لمن الخطأ أن يزعم بعض الناس أنه لا يخاف عذاب الله تعالى ولا يرجو نعيمه ، كمقولة : (ما عبدتك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك ولكن حبًا لك). فهذا الزعم هو خروج عن منهج التوازن في الخوف والرجاء ، ومخالف لمنهج القرآن وسنة الأنبياء والمرسلين ، وفي مقابل هؤلاء أناس ضعفت محبتهم لله تعالى، وتعبدوا لله تعالى بالخوف والرجاء فقط، ولولا ذلك لم يعبدوا ربهم، وهؤلاء أيضاً جانبوا العدل والوسط .

وإن منهج الهدى والصواب هو الذي يجمع بين الخوف والرجاء ويوازن بينهما دون أن يستقل أحدهما بالأخر ، وهو منهج أهل الحق الذين جعلوا أصل عبادتهم محبة الله عز وجل. وجعلوا الخوف سائقهم، والرجاء حاديهم؛ فتعبدوا لله تعالى بمحبته وخوفه ورجائه[353]. وفي هذا يقول ابن تيمية: " فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته. فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه "[354]. وقال أيضاً: " ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده

[352] – سيد قطب . خصائص التصور الإسلامي . ص 160-162

[353] – أنظر : عبدالعزيز بن ناصر الجليل ، «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» موسوعة البحوث والمقالات العلمية، جمع وإعداد ، علي بن نايف الشحود24 ص-25

[354] – ابن تيمية ، مجموع الفتاوى: 21/1.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالرجاء والخوف والمحبة فهو مؤمن " [355].

ولقد ذكر أبو بكر في وصيته لعمر -رضي الله عنهما- طبيعة هذا المنهج القرآني الذي يقوم على الجمع بين الخوف والرجاء أو الترغيب والترهيب في قوله: " وقال أبو بكر الصدِّيق لعُمَر بن الخطّاب رضي الله عنهما عند مَوته حين استخلَفه: أُوصيك بتقوى الله، إن للّه عملاً بالليل لا يَقْبَله بالنهار، وعملا بالنهار لا يَقبَله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تُؤَدَّى الفرائض، وإنما ثَقُلَتْ موازين مَن ثقُلت موازينهم يومَ القيامة باتباعهم الحقّ وثقَلِه عليهم، وحُقّ لميزانٍ لا يُوضعِ فيه إلا الحقُّ أن يكون ثقيلا، وإنما خَفّت موازينُ من خَفّت موازينهم يومَ القيامة باْتباعهم الباطل في الدُّنيا وخِفّته عليهم، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً، وإن الله ذَكَر أهلَ الجنَّة فَذكَرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوَزَ عن سيئاتهم؛ فإذا سمعتَ بهم قُلْت: إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء؛ وذكرَ أهل النار بأقبح أعمالهم، وأمسك عن حَسَناتهم، فإذا سمعتَ بهم قلتَ: أنا خيرٌ من هؤلاء، وذكر آية الرّحمة مع آية العذاب ليكونَ العبدُ راغباً راهباً لا يتمنى على الله غيرَ الحق. فإذا حفظت وصيَّتي فلا يكون غائبٌ أحبَّ إليك من الموت، وهو آتيك؟ وإن ضَيّعْت وصيَّتي فلا يكون غائبٌ أكرَه إليك من الموت، ولن تُعْجزه " [356].

فأبو بكر -رضي الله عنه- في وصيته هذه يكشف عن طبيعة المنهج القرآني من الجمع بين التخويف والترجية أو الترغيب والترهيب وبين الغاية من هذا الجمع وهو تحقيق التوازن النفسي للمؤمن ليكون بين الخوف والرجاء كما وبين آثار الجمع بينهما في حياة المؤمن سلباً وإيجاباً.

وعليه فإن الجمع بين الخوف والرجاء والترغيب والترهيب أمر ضروري لتحقيق التوازن النفسي للمؤمن ولقد ذكر الشاطبي حقيقة هذا الجمع في القرآن بقوله: "إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس وكذلك الترجيه مع التخويف وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار وبالعكس:لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجيه وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً فهو راجع إلى الترجيه والتخويف" [357]. ومن الأمثلة في قصة إبراهيم نذكر منها ما يلي :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[355] - المصدر السابق نفسه .

[356] - ابن عبد البر، العقد الفريد 1/ 302 . أنظر : محمد الغزالي "مع الله" . ص 443

[357] - الشاطبي، الموافقات، ج3، ص 358

1. قال تعالى : { لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا } [النساء: 123-125].

لما ذكر الجزاء على السيئات، وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا -وهو الأجود له- وإما في الآخرة ، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذُكْرانهم وإناثهم، بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير، وهو: النقرة التي في ظهر نواة التمرة، وقد تقدم الكلام على الفتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة، وهذا النقير وهما في نواة التمرة، وكذا القطمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة، الثلاثة في القرآن [358].

إن القرآن حين يطمع الإنسان ويغريه بنعيم الآخرة ويحذره من عذابها، لا يجعل هذا الإطماع والتخويف أو الإغراء والتحذير مقطوعاً عن أسبابه وعرياً عن العمل بل ربط بين السبب ونتائجه وذلك حين يربط بين نوع العمل والجزاء المترتب عليه في الآخرة. فمن أحسن كان جزاءه الحسنى ومن أساء كان جزاؤه بمثل فعله .

فإن الربط بين الأسباب والنتائج هو أسلوب القرآن في معالجة النفس وتكوين مشاعر الرغبة والرهبة فهذا الربط يحقق آثاره الإيجابية من الناحية النفسية في تصويب مشاعر النفس وتوجيهها فهذا الربط يحقق الرغبة في نعيم الآخرة حين ينظر إلى الثواب العظيم على عمله الصالح . كما يحقق الرهبة من عذاب الآخرة حين ينظر إلى العقاب الشديد على عمله السيئ ومن جهة أخرى فهو يحقق الرغبة إلى القيام بالفضائل والرهبة من اجتناب الرذائل، حين ينظر إلى العواقب والنتائج المترتبة على فعله الحسن وفعله القبيح. وهذا الربط أيضاً يحقق آثاره الإيجابية من الناحية العملية وذلك حين يرتبط الثواب بالعمل الصالح والعقاب بالعمل السيئ، فيدفع به إلى سلوك طريق الاستقامة والعمل الصالح واجتناب السيئات والمعاصي [359].

2. قال تعالى : { مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160) قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام: 160-161]. وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، فإنه

[358] - انظر : تفسير ابن كثير ، 421/2.

[359] زكريا الشلول، أثر العقيدة ، ص350-351.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مَن عمل صالحاً يضاعف له ثوابه إلى عشرة أمثاله فضلا وكرماً ، ومَن عمل عملا سيئاً لا يعاقب إلا بمقدار عصيانه ، عدلا منه تعالى ، وليس هناك ظلم بنقص ثواب أو زيادة عقاب [360]. وهكذا فإن سماع ثواب الله تعالى ولطفه وإحسانه وفضله المترتب على فعل الخيرات يولد في النفس الرغبة في عظيم الثواب وبالعمل الصالح الموصل إليه، وكذلك فإن سماع عقاب الله تعالى وبطشه وعذابه الشديد المترتب على فعل الشرور يولد في النفس الرهبة من عذاب الله الشديد ومن العمل السيئ الذي يوصل إليه. فإن هذا الربط بين الجزاء والعمل يحقق مشاعر الرغبة والرهبة في نفس المؤمن وينميها. فتجعله يرغب في طاعة الله طمعاً في ثوابه ويرهب من معصيته حذراً من عقابه [361].

3. قال تعالى : { وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ } [هود: 69-76].

4. قال تعالى : { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } [مريم: 45]. أن إبراهيم عليه السلام لما قرر لأبيه أن عبادته الأصنام إتباع لأمر الشيطان ومعصية للرحمان انتقل إلى توقع حرمانه من رحمة الله بأن يحلّ به عذاب من الله ، فحذره من عاقبة أن يصير من أولياء الشيطان الذين لا يختلف البشر في مذمتهم وسوء عاقبتهم ، ولكنهم يندمجون فيهم عن ضلال بمآل حالهم . وللإشارة إلى أن أصل حلول العذاب بمن يحلّ به هو الحرمان من الرحمة في تلك الحالة؛ عبر عن الجلالة بوصف الرحمان للإشارة إلى أن حلول العذاب ممن شأنه أن يرحم إنما يكون لفظاعة جرمه إلى حد أن يحرمه من رحمته مَن شأنه سعة الرحمة [362].

5. قال تعالى : { وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[360] - راجع : تفسير ابن كثير 378/3 ، والمنتخب 237/1

[361] - زكريا الشلول، أثر العقيدة ، ص351

[362] - راجع : تفسير الرازي **313/10-315** ، وتفسير طنطاوي 2782 ، وتفسير السعدي **494**

إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ } [الشعراء: 84-91]. بيّن إبراهيم عليه السلام لقومه عاقبة أهل التقوى وعاقبة أهل الغواية ، فالذين امتثلوا أوامر ربهم واجتنبوا زواجره واتقوا سخطه وعقابه في ذلك اليوم ، قربت لهم الجنة ودخلوها بسلام ، والذين أسرفوا في معاصي الله وتجرأوا على محارمه وكذبوا رسله وردوا ما جاءوهم به من الحق ، برزت لهم الجحيم واستعدت بجميع ما فيها من العذاب ، وألقوا في النار هم وما كانوا يعبدون من دون الله . فهو عليه السلام يرغب قومه بنعيم الآخرة ويحذرهم من أهوال يوم القيامة لعلهم يعتبروا [363].

6. قال تعالى : { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (31) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } [العنكبوت: 31-32]. إن الآية قد جمعت بين رحمة الله تعالى وعدله ، رحمته بالبشرى لإبراهيم بالولد على الكبر ، وعدله بإنزال العذاب على الظالمين ، فكانت البشارة أثر الرحمة والإنذار بالإهلاك أثر الغضب ، ولأن رحمته تعالى سبقت غضبه ، قدم البشارة على الإنذار . وهذا التقديم من لطف الله بإبراهيم لعلمه تعالى بحلمه ورقته [364].

7. قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [البقرة: 126]. جمع الله تعالى في هذه الآية بين حلمه تعالى بعباده في إمهال العصاة وعدم معاجلتهم بالعقوبة أو أخذهم بغتة وذلك ليُريَ سبحانه وتعالى عباده سعة حلمه وأن العفو والإحسان أحب إليه من الأخذ والانتقام وليعلموا أن هذا الحلم والإمهال لا يعني الإهمال والترك ، فإن الله إذا أخذ الظالم لم يفلته قال تعالى : { وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (58) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا } [الكهف: 58-59]. فعلى العاقل أن لا يغتر بحلمه تعالى فبعد خروج الإنسان من الدنيا بالموت تنتهي المهلة وتضيق الفسحة ولا يملك لنفسه الامتناع مما اضطر إليه ، فلا مفر ولا مهرب له من الله

---

[363] - راجع : تفسير الطبري 363/19 ، وتفسير ابن كثير 149/6، وتفسير طنطاوي 3361 -3170

[364] - تفسير الرازي ، 159/12 ، وتفسير طنطاوي 3308

وعذابه . وجملة { ثم اضطره إلى عذاب النار } احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضا الله فلذلك ذكر العذاب هنا[365] .

8. قال تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا } [النساء: 55-57]. فالجملة الكريمة توبيخ لليهود على أنانيتهم وحسدهم ، وإلزام لهم بما يعرفونه من واقع كتبهم ، وكشف للناس عن أن أحقادهم مرجعها إلى انطماس بصيرتهم ، وخبث نفوسهم . ثم بين سبحانه عاقبة كل من المحسن والمسيء فقال : { فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وكفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً } . أي : فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن وصدق بما أعطاه الله لآل إبراهيم من كتاب وحكمه ، ومنهم من كفر به وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه . فالضمير في { بِهِ } و { عَنْهُ } يعود إلى ما أوتى آل إبراهيم . ويرى بعضهم أن الضمير يعود إلى إبراهيم عليه السلام . فيكون المعنى : فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ومن أعرض عنه ولم يتبع تعاليمه . وفى هذه الآية الكريمة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما لقيه من اليهود من أذى . فكأنه سبحانه يقول له : إن هؤلاء الحاسدين لك قد اختلفوا على من هم منهم ، وأنت يا محمد لست منهم ، فكيف تنتظر منهم أن يسالموك أو يتبعوك؟ وقوله { وكفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً } بيان لما أعده سبحانه للكافرين من عذاب . أي : وكفى بجهنم نارا مسعرة أى : موقدة إيقادا شديداً يعذبون بها على كفرهم وعنادهم وصدودهم عن الحق . فبين سبحانه سوء عاقبة كل كافر ، وحسن عاقبة كل مؤمن ، حيث يجمع ما بين رحمته وعذابه ، ليكون قلب المؤمن دائراً بين الخوف والرجاء[366] .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[365]- راجع : تفسير الطبري 45/2 ، وتفسير حقي 299/1-300 ، وتفسير طنطاوي 206 ، وتفسير ابن عاشور 478/1 ،

[366] - أنظر : تفسير طنطاوي ، 971

الأمر الثاني : تغليب أحدهما بحسب المواطن ومقتضى الأحوال [367].

إن المنهج القرآني حين يجمع بين الخوف والرجاء ليحقق التوازن النفسي لا يعني ذلك تساويهما بنفس المقدار فقد يقتضي المقام تغليب أحد الطرفين وذلك دون أن يذهب أحدهما بالآخر فإن اجتماع كل من الترغيب والترهيب في النفس أمر ضروري لا غناء عنه في تحقيق التوازن النفسي وإنما قد يتطلب تغليب التخويف على الترجيه أو العكس بحسب المواطن أو مقتضى الحال، وفي ذلك يقول الشاطبي: " وقد يغلب أحد الطرفين-أي الترغيب والترهيب- بحسب المواطن ومقتضيات الأحوال فيرد التخويف ويتسع مجاله لكنه لا يخلو من الترجيه ... ومواطن الاغترار يطلب فيها التخويف أكثر من طلب الترجيه لأن درء المفاسد أكثر، وترد الترجيه أيضاً ويتسع مجالها وذلك في مواطن القنوط ومظنته" [368].

ونلاحظ في قوله { نَبِّىء عِبَادِي أَنِّي أنا الغفور الرحيم وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم } . تقديم الترجية على التخويف لأن المقام مقام بشارة ، وإن لم يخلو من التخويف ، فمعلوم أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم ، فههنا وصفهم بكونهم عباداً له ،بقوله:{ نَبِّىء عِبَادِي } ثم أثبت عقيب ذكر هذا الوصف الحكم بكونه غفوراً رحيماً ، بقوله: { أَنِّي أنا الغفور الرحيم }. فهذا يدل على أن كل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كونه الله غفوراً رحيماً ومن أنكر ذلك كان مستوجباً للعقاب الأليم . وفي الآية لطائف :

أحدها : أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله : { عِبَادِي } وهذا تشريف عظيم . ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله : {سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ } [الإسراء : 1] .

ثانيها : أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة : أولها : قوله : { أَنِّي } . وثانيها : قوله :{ أَنَاْ} . وثالثها : إدخال حرف الألف واللام على قوله : { الغفور الرحيم }وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة والمغفرة ولما ذكر العذاب لم يقل أني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال : { وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم } .

---

[367] - راجع : وزكريا الشنول ، أثر العقيدة الإسلامية في السلوك ، ص 356-360

[368] - أبي اسحاق الشاطبي الموافقات في أصول الشريعة، ج3، ص 360-361

ثالثها : أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة .

رابعها : أنه لما قال : { نَبِّىءْ عِبَادِي } كان معناه نبيء كل من كان معترفاً بعبوديتي ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع ، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى . وعن قتادة قال : بلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم قدر عقابه لبخع نفسه" أي قتلها.[369] .

خامسها : وقدم سبحانه نبأ الغفران والرحمة على نبأ العذاب والانتقام ، جريا على الأصل الذي ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت انتقامه . وفى الآية توكيد الرحمة والمغفرة وتوسيعهما لأنه أخبر بهما عن نفسه ، وأكدها بوصفي المبالغة ، قال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنْ الْجَنَّةِ وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنْ النَّارِ "[370] .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم مر بنفر من أصحابه وهم يضحكون فقال : " لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا » فأتاه جبريل ، فقال : إن الله ، قال لك : لم تقنط عبادي ؟ ، قال:فرجع إليهم وقال:سددوا وأبشروا "[371]. فنزل [372] :{ نَبِّىءْ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم } .

ثم إنه تعالى لما ذكر الوعد والوعيد ذكر ما يحقق ذلك لما تضمنه من البشرى والإهلاك بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وأممهم ترغيباً وترهيباً ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء ، ومحذراً عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء ، فبدأ أولاً بقصة إبراهيم عليه السلام لما فيها من كرامة الله له وتعريضاً بالمشركين إذ لم يقتفوا آثاره في التوحيد بقوله سبحانه : {وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ } وذكر تعالى في الآية أن ضيف إبراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد

---

[369]- رواه الطبري في تفسيره رقم (27/14) وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله(64،63) وقال الهيثمي في المجمع برقم (384/10): "إسناده حسن"

[370]- صحيح البخاري رقم (6104)

[371]- صحيح ابن حبان رقم (358) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم

[372]- تفسير الطبري 27/14.

الكبر . وبانجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضاً بأنه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال ، وكل ذلك يقوي ما ذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين ، وأن عذابه عذاب أليم في حق الكفار .

ثم برزت كلمة الرحمة في حكاية قول إبراهيم تنسيقا مع المقدمة في هذا السياق : { قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ } [الحجر: 56]. وبرزت معها الحقيقة الكلية : أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون . الضالون عن طريق الله ، الذين لا يستروحون روحه ، ولا يحسون رحمته ، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته . فأما القلب الندي بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد ، ومهما ادلهمت حوله الخطوب ، ومهما غام الجو وتلبد ، وغاب وجه الأمل في ظلال الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر . فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين . والمعنى أن الله تعالى طالب نبيه الحبيب أن يخبر عباده المؤمنين أنه سبحانه كثير المغفرة لذنوبهم ، وواسع الرحمة لمسيئهم ، وأن يخبرهم أيضًا أن عذابه هو العذاب الشديد ، فعليهم أن يقدموا القول الطيب ، والعمل الصالح ، لكى يظفروا بمغفرته ورحمته ، وينجو من عذابه ونقمته تعالى وجعل سبحانه قصة إبراهيم وما بعدها دليلاً واقعياً لرحمته وعذابه ، فقدم الأمر بإعلام الناس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصلية قبل الموعظة بجزئيات حوادث الانتقام من المعاندين وإنجاء من بينهم من المؤمنين لأن ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب . ليكون العبد راجياً لرحمته تعالى وخائفاً من عذابه ، وهذا هو ما يجب أن يكون عليه حال المؤمن[373] مصداقاً لقوله تعالى : { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } [الزمر: 9].

وعليه فإن المنهج القرآني يجمع بين "التخويف والترجية أو الترغيب والترهيب" ليحقق التوازن النفسي . وقد يقتضي المقام تغليب أحد الطرفين بحسب المواطن أو مقتضى الحال، فالمنهج القرآني بأسلوبه التربوي في معالجته لنفس المؤمنة وتحقيق التوازن النفسي بين الخوف والرجاء يسير في ضوء الحكمة، حين يراعي مقتضى الحال ويغلب أحدهما على الآخر فالإنسان الذي أصابه اليأس أو يتوقع أن يتسرب إليه فإن هذا حاله، يفتقر إلى بث روح الأمل والترجيه في نفسه أكثر من الخوف الذي بات يهدده القنوط، وحتى لا يصبح هذا الانسان فريسة لليأس ويسترسل في المعاصي والذنوب ويتمادى في الشرور نجد أن الحكمة القرآنية تتعامل مع هذه الحالة بفتح باب الأمل والرجاء ويزف له

---

[373] - راجع : تفسير الرزي 318/9. وتفسير الأنوسي23/10، وتفسير اللباب 49/10 ، وتفسير الظلال 442/4، وتفسير ابن عاشور 484/7 ، وتفسير طنطاوي 2475.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

البشرى كما في قوله تعالى : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر: 53]. ونجد أن الترجيه في هذا الموطن يشتد ويزداد حتى يغلق منافذ اليأس ومظناته من أن تتسرب إلى نفسه والعمل على استئصالها إن دخلت إليه، ويقول الشاطبي: " فهذا موطن خوف يخاف منه القنوط فجيء فيها بالترجية غالبة "[374] ولقد ورد في سبب نزول هذه الآية: "إن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل : { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الفرقان: 68] ... ونزل : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ }.

وهكذا نجد أن " الترجيه والتخويف في مفاد النص القرآني يشتدان في مواطن اليأس ومظانه، ومحتملات وقوعه ، ولكن الترجيه في مثل هذا المقام أغلب استجابة لمقتضى الحال " . فالآية بما فيها من الأمل والرجاء واتساع مجالها، تبعث في النفس إشراقة الترجية وقاية للنفس الإنسانية أن تتردى في مهوى القنوط القاتل، أو تسترسل فيه بعد الوقوع فكان، وقاية وعلاجاً، ترى ذلك واضحاً في "البشرى" التي يفتح فيها أبواب الأمل والرجاء على مصرعيه لمن هم في مثل هذا الحال على ما يوحي إليه سبب النزول بأنه سبحانه: { يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } . هكذا على سبيل التعميم في الذنوب والتأكيد في المغفرة، على أنك لترى التخويف يقارن هذه الترجيه في الآية نفسها جمعاً بينهما ولكن على نحو أخف من الترجيه حيث يشتد التخويف من اليأس في قوله : { إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } [يوسف: 87]. مما يجعل التخويف في هذا المقام عاملاً مساعداً للترجيه لزيادة بث روح الأمل والرجاء في النفس لمنع اليأس من أن يتسرب إليها، ويدفع بها إلى الإنابة والرجوع إلى الله بالإقبال على طاعته واجتناب معصيته .

ويشير إلى هذا المعنى الآية التي تليها مباشرة في قوله تعالى : { وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ } [الزمر: 54]. وفي هذه الآية تخويف شديد جاء مقارناً للترجيه في الآية السابقة على وجه أقوى ما تكون فيه الترجيه، وهكذا نجد أن مقام اليأس يعالجه

---

[374] - الشاطبي، الموافقات ، ج3، ص 361

القرآن بأسلوب التبشير والترجيه إحياء للأمل في غفران الذنوب شريطة الإنابة إلى الله تعالى ووقاية للنفس من القنوط وليحملها على عدم الاسترسال في الذنوب والمعاصي ليبعث فيها روح الأمل والرجاء مما يعينها على استئناف حياتها الآملة العاملة من جديد [375]. ولقد جاء في الحديث الشريف ما يؤكد هذا المعنى عن أبي سعيد -رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ثم خرج يسأل فأتى راهباً فسأله فقال له هل من توبة؟ قال: لا! فقتله، فجعل يسأل فقال: " له رجل: ءإتت قرية كذا وكذا فأدركه الموت، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه تقربي وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وقال قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشبر فغفر له " [376].

إن هذا الحديث يكشف أن النفس المذنبة التي أرادت التوبة في حين انغلق أمامها الأمل والرجاء في التوبة استرسلت في المعاصي والتمادي في القتل وإنه حين انفتح لها باب التوبة أقبلت على الله تائبة لتبدأ حياتها من جديد في طاعة الله وطلب مرضاته وإن المتدبر في القرآن يجد أن شدة الترجية تزداد وتشتد وتتصعد حتى تبلغ مستوى شدة اليأس استئصالاً لجذوره ودواعيه من النفس وشفاءً من آثاره إن وقع [377]. وفي الحديث الذي أخرجه الطبراني عن ابن عباس إشارة إلى هذا المعنى فعن ابن عباس قال: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وحشي قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام فأرسل إليه كيف تدعوني؟ وأنت تزعم أن من قتل أو زنى أو أشرك : { وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا } [الفرقان: 68-69]. وأنا صنعت ذلك، فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل الله : { إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا } [الفرقان: 70]. فقال وحشي: هذا شرط شديد (وآمن وعمل صالحاً) فلعلي لا أقدر على هذا فأنزل : { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء: 116]. فقال وحشي: هذا أرى بعده مشيئة فلا أدري أيغفر لي أم لا . فهل غير هذا؟ فأنزل الله : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [الزمر: 53]. قال

---

[375] - راجع المصدر السابق، ج2، ص 536

[376] - اخرجه البخاري في صحيحه رقم الحديث: "3283" ، ص 1280، كتاب الانبياء

[377] - راجع: المصدر السابق، ج2، ص 541

وحشي: هذه نعم! فأسلم"[378]. إن هذا الحديث وإن كان في إسناده ضعف إلا أن ما نريد الاستفادة منه في هذا الحديث هو هذه الآيات التي وردت فيه بصورتها المتدرجة والتي أشارت إلى تصاعد مستوى الترجية فيها وزيادته واتساع الأمل بحسب درجات اليأس وحالاته بحيث لا يترك حجة لمتعذر أو متذرع، بما تحفظ الإنسان من الوقوع في اليأس والقنوط، حتى لا يسترسل في المعاصي والذنوب وحتى يفتح بالتوبة صفحة جديدة مع الله تعالى .

فالقرآن حتى حين يشتد وعيده ومستوى التخويف والإنذار من عذاب الله تعالى في معرض الزجر عن كبائر الذنوب وتوعده بمرتكبيها فإنه لا يوصد باب الأمل والرجاء في رحمة الله تعالى ومغفرته لكي لا ينفذ اليأس إلى النفس بل نجد أن الترجيه تشتد وتتصاعد حتى لا يبقى أمام النفس إلا أن ترجع إلى الله بالتوبة والإنابة والإقبال عليه بالطاعة كما في قوله : { وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الفرقان: 68-70].

نلاحظ أن هذه الآيات في بدايتها يشتد فيها الوعيد والتخويف من ارتكاب الكبائر حتى يصل إلى الوعيد بالخلود في نار جهنم ليبلغ الخوف شدته، ثم ينفتح باب الأمل والرجاء بالتوبة والمغفرة ويشتد حتى يتسع مجاله إلى درجة تبديل هذه السيئات إلى حسنات. وأما التخويف فانه كذلك يتسع مجاله في القرآن ويشتد ولكنه لا يخلو من الترجيه .

ولقد ذكر الشاطبي مثالاً على ذلك وهي : "سورة الأنعام" حيث يقول: "فيرد التخويف ويتسع مجاله ولكنه لا يخلو من الترجيه كما في سورة الانعام فإنها جاءت مقررة للخلق"[379]. ومنكرة على من كفر بالله، واخترع من تلقاء نفسه ما لا سلطاناً له عليه، وصد عن سبيله وأنكر ما لا ينكر ولّد فيه وخاصم، وهذا المعنى يقتضي تأكيد التخويف وإطالة التأنيب والتعنيف فكثرت مقدماته ولواحقه ولم يخل مع ذلك من طرف الترجيه لأنهم بذلك مدعون إلى الحق"[380].

[378] - جلال الدين السيوطي لباب المنقول في أسباب النزول، ص 185-186، قال السيوطي أخرجه الطبراني بسند فيه ضعيف عن ابن عباس -رضي الله عنه-.

[379] - لعلّ الأصل(للحق) انظر الشاطبي، الموافقات، عنى بضبطه وترقيمه ووضع تراجمه محمد عبدالله دراز، ج3، ص360.

[380] - الشاطبي، الموافقات، ج3، ص 360-361

وعلى هذا فإن نفس المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء لأن حقيقة الإيمان دائرة بينهما [381]. ولقد دل القرآن على هذا في آيات منها قوله تعالى : { يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا } [السجدة: 16]. وقوله تعالى : { وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا } [الأسراء: 57]. وقوله تعالى : { وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: 90]. وهذا في الأحوال العادية، أما إن كان الغالب على النفس هو الأمن من مكر الله تعالى والاغترار والتمني، فإن الأصلح لها هو الخوف، وأما إن كان الغالب عليها هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالأصلح لهذه النفس هو الرجاء، وكذلك إذا كان الغالب على العبد المعصية فإن الخوف في حقه هو الأصلح .

ومعلوم أن الخوف والرجاء دواءان تداوى بهما النفوس، فأصلحهما للنفس بحسب الداء الموجود . وعلى الجملة فإن أكثر الخلق غلب عليهم جانب الإخلال وغلبة الذنوب والمعاصي، فكان جانب التخويف في حقهم أغلب وأصلح لهم وذلك في مظانه الخاصة لا على الإطلاق ، فإنه إن لم يكن هناك مظنة هذا ولا هذا أتى بالأمر معتدلا، فإن العبد التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح له أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا [382]. وفي ذلك يقول الشاطبي ما نصه: "وهذا على الجملة فإن غلب عليه طرف الانحلال والمخالفة فجانب الخوف عليه أقرب، وإن غلب عليه طرف التشديد والاحتياط فجانب الرجاء إليه أقرب، وبهذا كان عليه الصلاة والسلام يؤدب أصحابه ولما غلب على قوم جانب الخوف قيل لهم : { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ } [لزمر: 53]. وغلب على قوم جانب الإهمال في بعض فخوفوا وعوتبوا" [383]. كقوله تعالى : { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد: 16]. ثم يقول: "فإذا ثبت هذا من ترتيب القرآن ومعاني آياته فعلى المكلف العمل وفق هذا التأديب" [384].

وعلى هذا فإن القرآن بأسلوبه التربوي الحكيم الذي يقوم على (الترغيب والترهيب) أو التخويف والترجيه، فيما يتعلق بوعد الله في الآخرة، قد عالج النفس المؤمنة تربية وتأديباً، ووقاية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

381 – انظر: المصدر السابق، ج3، ص 365

382 – انظر: ابو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 173، والشاطبي موافقات، ج3، ص 361

383 – الشاطبي : الموافقات ، ج 3، ص 366.

384 – المصدر السابق نفسه .

وعلاجاً وتوجيهاً وإرشاداً وفقاً لما جبلت عليه الفطرة من مشاعر الخوف والرجاء، ليحقق بذلك التكامل والتوازن للنفس الإنسانية تزكية وتنمية لها على الفضائل، وتطهيرها من الرذائل وليقضي على منازع الخوف والجبن وبواعث التردد والتقهقر وأسباب التقاعس والهبوط أو الإخلاد إلى الأرض، وليبث فيها طاقة روحية هائلة تدفع بها إلى التفاني والتضحية والجهاد والاستشهاد في سبيل الله تعالى ودفاعاً عن القيم والمبادئ السامية والمثل العليا وسعياً لإنفاذ أمر الله تعالى في تحقيق المصالح الإنسانية العليا، والإصلاح العالمي[385].

وهكذا نجد القرآن يعالج النفس الإنسانية بهذا الأسلوب التربوي، من الترجية والتخويف تأديباً وتزكية، وتحقيقاً للتوازن النفسي، وفقاً لما جبلت عليه الفطرة من الرجاء المشوب بالخشية، ليحفظ لها معدنها الأصيل من عوامل التدمير، ويعدّها لمواجهة الصعاب وتحمل مشاق التكاليف[386]، فلا يجعل اليأس ينفذ إليها او الخوف يسرف فيها وان الرجاء أو الأمل يعد دواء فعالاً لأحد رجلين كما يقول الغزالي: " رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة، وأما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة" حتى آضر بنفسه وأهله، وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال "[387].

ولهذا نجد أن الترجية – في مفاد النص القرآني- تتشدد في مواطن اليأس ومظانه، ومحتملات وقوعه، فيمثل هذا المقام استجابة لمقتضى الحال[388]. فإن اليأس الذي تسرب إليه القنوط يشتد افتقاره إلى روح الأمل وإشراقة الرجاء، وإلى إعادة اعتباره مؤمناً منيباً صادقاً، أكثر من افتقاره إلى التخويف فكان فتح باب الرجاء لمثل هذا وقاية للنفس أن تتردى في مهوى القنوط القاتل، أو الاسترسال بعد الوقوع فيه إلى مزيد من ارتكاب الذنوب والفساد، ليكون الرجاء له علاجاً ووقاية معاً[389].

---

[385] – راجع فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ج2، ص 518، ص 542

[386] – انظر: الدكتور فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ج2، ص 542

[387] – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج4، ص 153.

[388] – انظر: الدكتور فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر ج2، ص 538.

[389] – انظر: المرجع السابق، ج2، ص 538-539.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمـــــة :

الحمد لله رب العالمين في البدء والختام على توفيقه وعونه على إتمام هذه الرسالة، والصـــلاة والسلام على من ختم برسالته الأديان محمد صلى الله عليه الصلاة والسلام وصحبه والتــابعين بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

وفي ختام هذه الدراسة أود أسجل باختصار ما توصلت إليه من نتائج وتوصيات على النحو الآتي:

أولاً: النتائج:

1- إن العقيدة هي: ارتباط المفاهيم الفكرية بالميول النفسية، وعليه فـإن الأســاس الفكــري والأساس النفسي هما مقومات العقيدة، وهما مقومات الشخصية.

2- إنه حتى تحقق العقيدة الإسلامية فاعليتها ، فإنه يقتضي بناء الأساس الفكــري والأســاس النفسي بمفاهيم العقيدة الإسلامية وفق منهج الوحي الإلهي.

3- إن عقيدة التوحيد هي من أبرز جوانب العقيدة المؤثرة في حياة الإنسان، لذلك فقد عني بها القرآن عناية واضحة وأعطاها مساحة واسعة في كثير من آياته.

4- إن تناول العقيدة من المنهج القرآني مباشرة هو وحده الكفيل بإعادة الفاعلية للعقيدة ، لأنه يخاطب العقل والعاطفة معاً، ويهتم بالجانب العملي في تناول العقيدة دون الاقتصار على الجانب النظري، كما أنه يطرح العقيدة بالأدلة القطعية الثابتة ليصونها من الاجتهادات والظنون.

5- إن معرفة دور القصص القرآني من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ، في تكوين العقيــدة بمقوماتها : الفكرية والنفسية ، يساعدنا في مجال التربية في تكوين الشخصية الإسلامية الصالحة والمصلحة، ، إن هذه الطريقة من شأنها الكشف عن طبيعة المنهج القرآني في تكوين العقيدة ليس على أساس نظري بل من خلال الممارسة العملية لخير نموذج بشري ممثلاً بالأنبيــاء والمرســلين والأولياء الصالحين .

6- إن قصة إبراهيم عليه السلام قصة غنّية بالقضايا العقدية ، وفيها الكفاية في بنــاء العقيــدة للشخصية الإسلامية ، وخاصة العقيدة التوحيدية ، وهذه الدراسة قدمت هذه الحقيقــة مــن خلال بيان دور قصة إبراهيم في تكوين العقيدة . وقد كان التحدي الكبير في هذه الدراسة هو تغطية قصة إبراهيم لقضايا العقيدة وموضوعاتها بصورة متكاملة ، فأثبتت هذه الدراسة هــذه الحقيقة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

7- وفي ضوء هذه النتائج فقد أسهمت هذه الدراسة في تحقيق الأمور التالية:

أ. أسهمت الدراسة في إثراء الجانب الفكري في بناء العقيدة وإبراز الجانب النفسي في تأسيس المعتقد الإيماني وذلك من خلال ما يلي :

- تبنت مفهوم للفكر لضبط التعامل الصحيح مع العقيدة .
- قدمت تصوراً متكاملاً لحقيقة النفس الإنسانية . وبينت دورها في تكوين العقيدة .
- ربطت الجانب النفسي بالجانب الفكري في بناء العقيدة لتحقق فاعليتها .
- قدمت دراسة تحليلية وتفصيلية لعملية تأسيس المعتقد الإيماني .

ب. أسهمت الدراسة في تفعيل دور القرآن في بناء العقيدة وكشفت عن معالم منهجه في البناء والتكوين للشخصية الإسلامية. وهو منهج يتسم بالبساطة من غير تعقيد، وبالعمق البعيد عن السطحية . وهذا ما عجزت عن تقديمه كافة المناهج البشرية على اختلافها.

ج. أسهمت الدراسة في بيان دور القصة القرآنية في تكوين العقيدة الإسلامية . وذلك من خلال قصة إبراهيم عليه السلام .

د. أسهمت الدراسة في التركيز على أبرز جوانب العقيدة وهي: عقيدة التوحيد ، وبيان كيفية بناءها فكرياً ونفسياً في ضوء المنهج القرآني من خلال القصص القرآني ، واختيار قصة إبراهيم نموذجاً لتحقيق ذلك .

هـ. أسهمت هذه الدراسة في ربط العقيدة الإسلامية بأوضاع البشر وحياتهم العملية والخروج من دائرة الترف الفكري الذي أهدر طاقة الأمة في جدل الأفكار بعيداً عن مشكلاتها الحقيقية والواقعية..

و. أسهمت هذه الدراسة في طرح العقيدة الإسلامية بعيداً عن الخلافات المذهبية والتنظيرات الفلسفية والمجادلات الكلامية.

ز. أسهمت هذه الدراسة في طرح رؤية منهجية في البناء العقدي للشخصية الإسلامية فكرياً ونفسياً من خلال القصة القرآنية ، لتسهم في الكشف عن العقيدة الأرقمية ، التي كان يربي بها الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام .

ثانياً: التوصيات :

1- تفعيل دور الدراسات الأكاديمية والأبحاث العلمية في معالجة حالة التردي لواقع الأمة ، وذلك بتقديم رؤية علمية ومنهجية وموضوعية في عملية البناء العقدي للشخصية الإسلامية ، في ضوء المنهج القراني .

2- تفعيل دور القرآن في بناء العقيدة . والرجوع إليه في معالجة كافة المشكلات والأزمات التي تعترض الأمة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3- ربط الجانب النفسي بالعقيدة ، والاهتمام به في عملية تأسيس المعتقد الإيماني . باعتباره عنصراً أساسياً من عناصر العقيدة . مما يؤدي إلى إعادة الفاعلية للعقيدة .

4- ربط العقيدة الإسلامية بالواقع العملي ، بحيث تشمل كل جوانب الحياة الإنسانية . والبعد عن الاختلافات في قضايا العقيدة .

5- التركيز على القصص القرآني في تكوين العقيده ، لما فيه من عنصر التشويق ، وطرح العقيدة بصورة عملية ، مما يساعد على الخروج من دائرة الاختلافات والجادلات الفكرية في قضايا العقيدة . وربطها بالجانب العملي تحقيقاً للممارسة الإيمانية .

6- مزيد من الدراسة لقصة إبراهيم عليه السلام ، والكشف عن الجوانب العقدية الغنية فيها ، لتسهم في عملية التربية العقدية للشخصية الإسلامية .

وفي نهاية المطاف لا يسعني إلا أن أعتذر عن أي خطأ أو تقصير وقع في هذه الدراسة، وأن النقص سمة البشر والكمال لا يكون إلا لله وحده، ولا أجد لنفسي عذراً في ذلك إلا أنني بذلت غاية جهدي، وحاولت قدر المستطاع أن أقدم في هذه الرسالة ما أخدم به الإسلام والمسلمين، وأسأل الله تعالى أن يتقبل عملي هذا عنده، وأن ينفع به المسلمين وطلبة العلم والحق. وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ويكتب لنا أجره يوم الدين، وأن يغفر لي ولوالدي ولسائر المؤمنين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع

* أولاً: المصـــادر:

* القرآن الكريم

1- إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (809 - 885 هـــ = 1406 - 1480 م).: **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** . دار الكتـاب الإسـلامي القاهرة ، . الطبعة (2) ، 1413هـــ .

2- إبراهيم بن موسى اللخمي أبي أسحاق الشاطبي (579هـــ/1183م) **الاعتصـام**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1997م.

3- ....، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.

4- أحمد بن الحسين البيهقي (ت 458هـــ/1066م) **السنن الكبرى**، دار المعرفة، بـيروت، ط، 1356هــ.

5- ....، **شعب الإيمان**، تحقيق محمد بسيوني، دار الكتب العلمية، بـيروت، ط1، 1990م.

6- أحمد بن حنبل (ت 241هــ/855م) **المسند**، تحقيق أحمد شاكر دار الحديث القـاهرة، 1995م.

7- إسماعيل حقي بن الشيخ مصطفى الاستانبولي (1063-1137) : **روح البيان في تفسير القران** . بولاق سنة 1276هــ .

8-أحمد بن شعيب النسائي (ت 303هــ/915م) **السنن** ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط2، 1986م.

9- أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية أبو العباس (ت 728هـــ/1327) **اقتضاء الصراط**، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط2.

10-.................،**الإيمان**، تحقيق حسني يوسف الغزال، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1984.

11- ....، **التحفة العراقية**، المطبعة السلفية، ط2، 1399هــ .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

12- ....، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق محمد رشاد، دار الكنوز الأدبية، ط2، 1391هـ .

13-............، رسالة كون الرب عادلاً، تحقيق محمد رشاد، مصر .

14- ....، الزهد والورع والعبادة، دار مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1405هـ.

15-....... ،الصفدية، تحقيق د.محمد رشاد، دار ابن حزم، بيروت، ط2، 1406هـ.

16- ....، العقيدة الواسطية، الرئاسة العامة لإدارة البحوث والإفتاء، الرياض.

17-...........، قاعدة في المحبة، المطبعة السلفية، القاهرة، ط 1386هـ.

18-................، مجموع الفتاوي ، دار الرحمة، القاهرة.

19-..........، منهاج السنة، تحقيق محمد رشاد، مؤسسة قرطبة، الرياض، ط1، 1406هـ. 20- أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت430هـ/1039) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المكتبة السلفية.

21- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت852هـ/1449م) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار الجيل، بيروت، 1991م.

22- أحمد بن فارس (ت385هـ/1004م) معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد، دار الفكر، بيروت، 1979م.

23- أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت770هـ/1368م) المصباح المنير، المطبعة العلمية، بيروت.

24- أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي . أبو الفضائل (ت-638) حجج القران ، تحقيق : أحمد عمر المحمصاني : دار الرائد العربي - بيروت ، الطبعة الثانية ، 1982 .

25- إسماعيل حماد الجوهري (ت 393هـ/1002م) الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.

26- إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت774هـ/1373م) تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ط1، 1401هـ.

27- إسماعيل بن محمد العجلوني الجرّاحي (ت 1162هـ/1749) كشف الخفاء، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة الجامعة الأردنية مركز إيداع الرسائل الجامعية

28- أيوب بن موسى الكفوي أبو البقاء (ت 1094هـ/1682م) **الكليات**، مؤسسة الرسالة، ط2، 1998م.

29- حافظ بن أحمد الحكمي (ت 377هـ/958) **معارج القبول** بشرح مسلم الوصول إلى علم الأصول، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، 1990م.

30- الحارث بن أسد بن عبدالله المحاسبي (ت 243هـ/857) **فهم القرآن ومعانيه**، تحقيق : حسين القوتلي : دار الكندي , دار الفكر – بيروت ، الطبعة الثانية ، 1398.

31- الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت502هـ/1110م) **غريب ألفاظ القرآن**، دار الفكر، بيروت.

32- ....، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق صفوان داوودي دار القلم، دمشق، ط2، 1997م.

33- الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء، البغوي أبو محمد (436 - 510هـ، 1045 - 1117م) : **معالم التنزيل** ، المحقق : حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش ، الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة : الرابعة ، 1417 هـ - 1997 م .

34- سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله (ت-161هـ) **تفسير الثوري**: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، 1403

35- سعد الدين التفتازاني (ت597هـ/1201م) **شرح التلويح على التوضيح**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1996م.

36- سليمان بن أحمد اللخمي الطبراني (ت 360هـ/982) **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي السلفي، وزارة الأوقاف العراقية، بغداد.

37- .... **التفسير الكبير** ، تحقيق هشام البدراني ، دار الكتاب الثقافي ، اربد ، 2007م .

38- سليمان بن الأشعث (ت275هـ/889م) **سنن أبي داود**، دار الجنان، بيروت، ط1، 1988م.

39- عبد الله بن أحمد النسفي (ت 791هـ/1310م) **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، تحقيق مروان الشعار، دار النفائس، بيروت، 1996م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

40- عبد الله بن محمد البيضاوي (ت791هـ/1356) **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق عبد القادر عرفان، دار الفكر، بيروت، ط 1996م.

41- عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن ابن تمام بن عطية المحاربي ، أبو محمد الأندلسي المعروف بابن عطية (481-541هـ، 1088 - 1146م). **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق وتعليق جماعة من العلماء، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بدولة قطر، ط 1 1398هـ / 1977م.

42- عبد الرحمن بن أحمد الآيجي (ت 756هـ/1355م) **المواقف**، دار الجيل، بيروت، ط 1970م.

43- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (**849 - 911 هـ، 1445 - 1505م**). **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1987م.

44- ....، وعبد الرحمن بن أبي بكر المحلي، **تفسير الجلالين**، دار الحديث، القاهرة.

45- ....، **صون المنطق والكلام**، دار الفكر، بيروت.

46- ....، **لباب النقول في أسباب النزول**، دار إحياء العلوم، بيروت، ط3، 1980.

47- عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي أبو الفرج (ت 795هـ/1383م) **جامع العلوم والحكم**، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1408هـ.

48- ....، **استخراج الجدال من القرآن الكريم**: تحقيق د . زاهر عواض الألمعي .

49- عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت 597هـ/1201م) **صفوة الصفوة**، دار الفكر، بيروت، ط1، 1991م.

50- عبد العظيم بن عبد القوي، المنذري (ت 656هـ/1258م) **الترغيب والترهيب**، دار الفكر، بيروت، 1981م.

51- عبد القاهر بن ظاهر البغدادي (ت 429هـ/1038م) **الفرق بين الفرق**، تحقيق محمد محي الدين، دار المعرفة، بيروت، ط3.

52- عزالدين أبي الحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الأثير،(ت-630هـ) **الكامل في التاريخ** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط4 ، سنة 1403 هـ .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

53- علي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807هـ/1405م) **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، دار الكتاب، بيروت، 1967م.

54- علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (المتوفى : 975هـ) . **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال** : المحقق : بكري حياني - صفوة السقا : مؤسسة الرسالة الطبعة : الطبعة الخامسة ،1401هـ/1981م .

55- علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت 656هـ/1258م) **أسباب النزول**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1983م.

56- علي بن إسماعيل الأشعري (ت 324هـ/936) **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1985م .

57- علي بن عمر الدارقطني (ت 285هـ/995م) **سنن الدارقطني**، عالم الكتب، بيروت.

58- علي بن علي بن محمد بن أبي العزالحنفي (ت 792هـ/1389م) **شرح العقيد الطحاوية**، تحقيق عبدالله عبد المحسن وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1988. 59- علي القاري، (ت 1014هـ/1606م) **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

60- علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي. أبو الحسن الملقب بالخازن (678 - 741هـ، 1280 - 1341م) : **لباب التأويل في معاني التنزيل** . الموسوعة العربية العالمية .

61- علي بن محمد بن علي الجرجاني، (ت 816هـ/1413م) **التعريفات**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405هـ.

62- علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي ، أبو الحسن (364 -450هـ ، 974- 1058م) : **النكت والعيون** . مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت . دار الكتب العلمية . بيروت . 1992 م .

63- عمر بن علي بن عادل الدمشقي أبو حفص ابن عادل (885 هـ) : **اللباب في علوم الكتاب** . دار الكتب العلمية ، بيروت ط1 ،

64- للقاضي عياض اليحصبي ، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1399 ، هـ

65- القاسم بن سلام الهروي أبو عبيد (ت 224هـ/952م) **كتاب الإيمان**، تحقيق محمد ناصرالدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

66- مالك بن أنس (ت 179هـ/755م) **الموطأ**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، القاهرة.

67- المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (ت606هـ/1265م) **النهاية في غريب الحديث**، تحقيق محمود الطناجي، دار الفكر، القاهرة، ط2، 1979م.

68- محمد بن إبراهيم بن عباد النفزي الرندي الشاذلي (ت- 792) **غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية** ، ط دار الكتب الحديثة القاهرة 1970 م .

69- محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية (ت 751هـ/1350م) **أعلام الموقعين**، دار الجيل، بيروت، ط2، 1973م.

70- ....، **إغاثة اللهفان**، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1975م .

71 ....، **التبيان في أقسام القرآن**، تحقيق محمد رشاد، دار الفكر، المدينة المنورة، ط1، 1403هـ.

72- ....، **الجواب الكافي**، دار الكتب العلمية، بيروت.

73- ....، **روضة المحبين**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

74- ....، **زاد المهاجر**، تحقيق مكتبة المدني، جدة.

75- ....، **شفاء العليل**، دار الفكر، بيروت، ط 1978م.

76- ....، **طريق الهجرتين**، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، ط2، 1994م.

77- ....، **عدة الصابرين**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.

78- ....، **الفوائد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1973 .

79- ....، **كتاب الصلاة وحكم تاركها**، تحقيق بسام الجابي، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1996م.

80- ....، **مدارج السالكين**، تحقيق محمد طاهر الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1973م .

81- محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي (ت 721هـ/1321م) **مختار الصحاح**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 1995م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

82- محمد أمين بن محمد البرديسي (ت 204هـ/819م) **تكملة شرح الصدور**. (مخطوط).

83- محمد بن إدريس الشافعي (ت 204هـ/819م) تحقيق أحمد شاكر، **الرسالة**، القاهرة، 1939م.

84- محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي أبو عبد الله (ت 671هـ/1272م) **التذكرة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985م.

85- ....، **الجامع لأحكام القرآن**، مؤسسة مناهل الفرقان، بيروت، ط2.

86- محمد بن أحمد السفاريني (ت 1118هـ/1702م) **لوامع الأنوار البهية**، المكتب الإسلامي، بيروت.

87- محمد بن أحمد ابن رشد (ت595هـ/1198م) **مناهج الأدلة في عقائد الملة**، تحقيق محمود قاسم، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط2، 1964م.

88- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت 256هـ/870م) **الجامع الصحيح**، تحقيق مصطفى البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط3، 1987م.

89- محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر (ت 310هـ/920م) **تاريخ الأمم والملوك**، المطبعة الحسينية، القاهرة، 1990م.

90-..................، **جامع البيان عن تأويل آية القرآن**، دار الفكر، بيروت، ط1992م.

91- محمد جمال الدين القاسمي (ت:1332هـ) **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت ط(2) 1398هـ.

92- محمد بن الحاج حميد أبو البقاء الحسيني الكفوي (ت 1094هـ) : **الكليات** معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط2، 1998م .

93- محمد بن حبان البستي أبو حاتم، (ت 354هـ/965) **صحيح ابن حبان**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1993م.

94- محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم (ت 405هـ/1014م) **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م .

95- محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت548هـ/1153م) **الملل والنحل**، تحقيق عبد العزيز الوكيل، دار الفكر، بيروت.

96- محمد بن عبد الملك بن هشام، (213هـ/828م) **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة البابي، القاهرة، ط 1936م.

97- محمد بن عمر بن حسين فخر الرازي (ت606هـ/1207م) **التفسير الكبير**، دار الفكر، بيروت، ط1، 1990م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

98- محمد بن علي أبو طالب المكي (ت- 386هـ) . **قـوت القلـوب** ، ط دار صـادر بيروت. 99- محمد بن علي التهانوي (ت 1158هـ/1745م) **كشـاف اصـطلاحات الفنون**، تحقيق د.لطفي عبد البديع وزميله، طبعة المؤسسة العربية العامـة، سلسـلة تراثنـا، 1963م.

100- محمد بن عبد الرؤوف المناوي (ت1031هـ/1622م) **التوقيف علـى مهمـات التعاريف**، دار الفكر، بيروت، ط1، 1405هـ.

101- محمد بن علي الشوكاني، (ت1250هـ/1834م) **إرشاد الفحول إلى تحقيق علـم الأصول**، تحقيق أبو مصعب محمد سعيد، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1992م.

102-............، **فتح القدير**، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، القاهرة، 1997م.

103- محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي (ت 597هـ/909م) **سنن الترمذي**، تحقيـق أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

104- ....، **نوادر الأصول في أحاديث الرسول**، تحقيق د.عبد الـرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط1.

105- محمد المحلى الشافعي، **توضيح المشكلات**، المشهور بشرح المحلى على الورقات، تحقيق هشام البدراني، دار الكتاب الثقافي، اربد، 2003.

106- محمد بن مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي (ت 1205هـ/1785م) **تاج العروس من جواهر القاموس**، وزارة الأوقاف، الكويت.

107- محمد بن مكرم بن منظور (ت 711هـ/1311م) **لسـان العـرب**، دار صـادر، بيروت، ط1، 1993م.

108- محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (ت 505هـ/1111م) **إحياء علوم الدين**، وبذيلة كتاب المغني عن حمل الأسفار للعراقي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1989م.

109- ....، **الاقتصاد في الاعتقاد**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1989م.

110- ....، **روضة الطالبين وعمدة السالكين**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1405هـ.

111- ....، **الروضة الندية من فرائد اللآلـي**، دار الكتـب العلميـة، بيروت، ط1، 1994م.

112- ....، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، تحقيق بسام عبد الوهاب جابي، الجفان والجابي، قبرص، ط1، 1987م .

113- محمد بن محمد الغزي (ت 1061هـ/1651م) **إتقان ما يحسن من الأخبـار**، دار الفاروق الحديثة، ط1، 1415هـ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

114- محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت 951هـ/1544م) **تفسير أبي السعود**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1994م.

115- محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة (ت 275هـ) **سنن ابن ماجة**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

116- محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت 817هـ/1414م) **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.

117- محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان : الشهير بأبي حيان الأندلسي (654 - 745هـ، 1256 - 1344م). **تفسير البحر المحيط** ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية 1403 هـ .

118- محمود بن عمر جارالله الزمخشري (ت 538هـ/1133م) **أساس البلاغة**، دار الكتب المصرية، القاهرة.

119- ....، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م.

120- محمود الآلوسي شهاب الدين أبو الفضل (ت 1270هـ/1744م) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق علي عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994م .

121- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت 261هـ/874م) **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1995م.

122- نصر بن محمد بن أحمد السّمرقندي، أبوالليث (375هـ- 985م) : **بحر العلوم** . تحقيق : عَلِيّ مُحَمَّد معوض . وآخرون . ط1 . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان . 1413 هـ . 1993 م .

123- منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي أبو المظفر السمعاني (ت-489هـ) **الإنتصار الأصحاب الحديث** : تحقيق : محمد بن حسين بن حسن الجيزاني . مكتبة أضواء المنار - المدينة المنورة الطبعة الأولى ، 1996م .

124- يحي بن شرف النووي أبو زكريا (ت 676هـ/1277م) **شرح النووي على صحيح مسلم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1967م .

* ثانياً : المراجع :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

125- إبراهيم محمد البريكان، **مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية**، دار ابن عفان، القاهرة، ط5، 1997م.

126- إبراهيم بن عبدالله العربي ، **توجيهات تربوية من قصة إبراهيم عليه السلام** ، دار المعارج ط1، 1420هـ .

127- إبراهيم مصطفى ـ **أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار** ، **المعجم الوسيط**، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، المكتبة العلمية، ظهران، (د.ت).

128- أبو اليزيد العجمي، **حقيقة الإنسان**، ط1994م.

129- أحمد أمين، **فجر الإسلام**، مكتبة النهضة المصرية، ط11، 1975م.

130- أحمد بن عبد العزيز محمد الحليي، **المسؤلية الأخلاقية**، مكتبة الرشيد، الرياض، ط1، 1996م.

131- أحمد عبد الحكيم السايح، **السلوك عند الحكيم الترمذي**، دار السلام، القاهرة، ط1، 1988م.

132- أحمد عبد الرحيم السايح وزميلته، **دراسات في التصوف والأخلاق**، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1991م.

133- أحمد عطيات، **الطريق**، دار البيارق، عمان، ط2، 1996م.

134- أحمد عمر عمر هاشم، **الإسلام وبناء الشخصية**، دار المنار، القاهرة.

135- أحمد فايز، **طريق الدعوة في ظلال القرآن**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط12، 1987م.

136-..................، **اليوم الآخر في ظلال القرآن**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 1998م.

137- ....، **قصص الرحمن في الظلال القرآن** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1425هـ 1995م.

138- أحمد نوفل، **سورة يوسف**: دراسة تحليلية، ص 60 ـ 66. دار الفرقان. عمان 1409هـ ـ 1989م.

139- إسلام محمود دربالة : **القصص في القرآن الكريم** ، الناشر دار الآفاق.

140- بكر أبو زيد ، **تصحيح الدعاء** . دار العاصمة الرياض. ط1. 1419 هـ.

141- تقي الدين النبهاني ، **الشخصية الاسلامية** ، تحقيق هشام البدراني ، دار الكتاب الثقافي، اربد ، 2005 م .

142- ....، تقي الدين النبهاني ، **التفكير**، ط1، 1973م .

143- ....، **تبصرة الأفهام** ، تحقيق هشام البدراني، ، دار الكتاب الثقافي، اربد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

144- تيسير خميس العمر، **حرية الاعتقاد في ظل الإسلام**، دار الفكر، دمشق، ط1، 1998م

145- جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري : **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الخامسة، 1424هـ/2003م .

146- ....، **عقيدة المؤمن**، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط 1999م.

147- جمعة أمين، **منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام**، دار الدعوة، الإسكندرية، ط3، 1993م.

148- زكريا إبراهيم الشلول ، **أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني** ، ، دار الكتاب الثقافي ، اربد ، ط1 ، 2005م

149- زكريا عبد الرزاق المصري، **أهمية التوحيد وخطر الشرك**، مؤسسة الرسالة، ببيروت، ط1، 1994م.

150- سعيد حوى ، **المستخلص في تزكية الأنفس** ، دار عمار، بيروت .

151- سعيد يوسف أبو عزيز ، **قصص القرآن** ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ط2 ، 2004م.

152- سيد سابق ، **العقيدة الإسلامية**، منشورات، مكتبة التحرير، (د.ن) ط1 ، 1989م.

153- سميح عاطف الزين، **الإسلام وثقافة الإنسان**، دار الكتاب، بيروت.

154- ....، **علم النفس**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1991م.

155- سيد عبد الحميد مرسي، **الشخصية السوية**، دار التوفيق، القاهرة، ط1 ، 1985م.

156- ....، **الفرد والمجتمع في الإسلام**، مكتبة وهبة، القاهرة.

157- ....، **ونفس وما سواها**، مكتبة وهبة، القاهرة.

158- سيد عبد العاطي، **علو الهمة في محبة الله ورسوله**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م

159- سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي**، دار الشروق، بيروت، ط7، 1982م.

160- ....، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت.

161- ....، **مقومات التصور الإسلامي**، دار الشروق، بيروت.

162- ....، **التصوير الفني في القرآن** ، دار الشروق، بيروت.

163- الشيخ صالح بن فوزان الفوزان : **إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد** . مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة، 1423هـ 2002م

164- صفي الرحمن المباركفوري ، **الرحيق المختوم** . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان (ط 1 / 1405 هـ) .

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

165- صلاح الخالدي ، **القصص القرآني**، دار القلم، دمشق، 1998م/ ط1.

166- ....، **في ظلال الإيمان**، دار القلم، دمشق، ط3، 1994م.

167- ....، **مناهج المفسرين**، دار العقل، عمان.

168- طه حسين . **الشعر الجاهلي** . ط1 . دار المعارف بمصر . 1924 م .

169- طه جابر العلواني، **خواطر في الأزمة الفكرية**، الدار العالمية للكتاب، الرياض، ط 1995م.

170- عابد توفيق زين العابدين، **النفس الإنسانية**، دار التضامن، بيروت.

171- عباس محمود العقاد، **الإنسان في القرآن الكريم**، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

172- عبد الله بن حمدان الدهماني، **محددات السلوك الإنساني والتنظيمي**، مسقط، ط1، 1999م.

173- عبد الله عزام، **العقيدة وأثرها في بناء الجيل**، دار ابن حزم، بيروت، ط3، 1996م.

174- عبد الجواد المحص، **أباطيل الخصوم حول القصص القرآني**، الدار المصرية. الإسكندرية 1420هـ ــ 2000م.

175- عبد الحميد بن باديس ، **العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية** تحقيق : محمد الصالح رمضان: دار الفتح – الشارقة ، الطبعة الأولى ، 1995م .

176- د.عبد الحميد سليمان ، **التربية في القرآن الكريم**.ط1.دار الرياض.جدة. 1411هـ

177- عبد الحميد السايح، **عقيدة المسلم وما يتصل بها**، منشورات وزارة الأوقاف، عمان.

178- عبد الحميد كشك ، **في رحاب قصص الأنبياء والرسل** ، مكتبة الصحافة ، العباسية .

179- عبد الخالق عطار، **النفوس المؤمنة المطمئنة الزكية**. (د.ن) ، (د،ت).

180- د.عبد الراضي محمد عبد المحسن ، **الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم** .

181- نجيب العقيقي، **المستشرقون** . دار المعارف بمصر ، ط4، 1985 ــ 1987 م :

182- عبد الرحمن حبنكة الميداني، **ابتلاء الإرادة**، دار القلم، دمشق، ط1، 1995م.

183- ....، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، ط4. 1996م.

184-..............، **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دار القلم، دمشق، ط9، 2000م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

185- ....، **البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها** ، دار القلم، دمشق ط2.

186- عبد الرحمن الزنيدي، **مناهج البحث في العقيدة الإسلامية**، دار اشبيليا، الرياض، ط1، 1998م.

187- عبد الرحمن عيسوي، **دراسات سيكولوجية**، الإسكندرية، منشأ المعارف، ط 1970م.

188- عبد الرحمن الغامدي، **دور الأسرة المسلمة في تربية أولادها**، (د.ن)، الرياض.

189- عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن

وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية الطبعة : الأولى ، 1422هـ - 2002 م .

190- عبد القادر هاشم، **الدراسات الإنسانية في ميزان الرؤية الإسلامية**، دار الثقافة، الدوحة، ط1، 1984م.

191- ....، **في فلسفة الدراسات الاجتماعية، التربوية**، دار اليازوري، عمان، ط1، 1999م.

192- عبد العلي الجسماني، **القرآن وعلم النفس "الإدراك الإنساني" الدار العربية للعلوم**، بيروت، ط1، 1997م.

193- عبد الكريم الخطيب ، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه** ، دار الفكر العربي , القاهرة .

194- عبد الكريم العثمان، **الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص**، مكتبة وهبي، القاهرة، ط2، 1981م.

195- عبد المجيد سيد أحمد وزميله، **السلوك الإنساني بين الجبرية والإرادية**، دار الفكر العربي، ط1، 2001م.

196- ....، **الشخصية الإنسانية والهدى الإسلامي**، دار غريب، القاهرة، 1996م.

197- عبد المجيد النجار، **الإيمان وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي**، بيروت، ط1، 2001م.

198- عبد المحسن بن محمد القاسم ، **تيسير الوصول إلى الثلاثة الأصول** . ط1 1427هـ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

199- عبد الرءوف محمد عثمان , **محبة الرسول بين الاتباع والابتداع** : رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع والترجمة - الرياض الطبعة : الأولى : 1414هـ

200- عثمان جمعة ضميرية، **مدخل الدراسة العقيدة الإسلامية**، مكتبة السوادي، جدة، ط2، 1996م.

201- د.عدنان علي رضا النحوي ، **البعد الإنساني للأمة المسلمة الواحدة**، موسوعة البحوث والمقالات العلمية جمع وإعداد، علي بن نايف الشحود .

202- عز الدين البدراني، **مناهج الأدلة في بحث أسماء الله وصفاته**، دار الكتاب الثقافي، إربد، ط1، 2002م.

203- ....، **منهاج الإيمان في الإسلام**، دار المتنبي، إربد، ط1، 2002م.

204- عفيف طبارة، **روح الدين الإسلامي**، درا العلم، بيروت، ط2، 1982م.

205- علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي : **شرح الطحاوية في العقيدة السلفية**: تحقيق أحمد محمد شاكر ، الطبعة : الأولى : وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودي : 1418هـ .

206- - علي محمد محمد الصلابي ، **السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث**، دار الكتاب الثقافي . اربد ، ط ،1 2005م

207- ....، **أبي بكر الصديق** ، دار الكتاب الثقافي ، أربد ، الطبعة الأولى ، 2005م

208- علي محمد المصراتي، **من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين**، دار البيان، عمان، ط1، 1997م.

209- علي بن نايف الشحود ، **البناء العقدي في العهد المكي** (1-2) موسوعة البحوث والمقالات العلمية

210- عماد زهير حافظ، ، **القصص القرآني بين الآباء والأبناء** ، دار القلم - دمشق: 1410هـ .

211- عمر أحمد عمر، **منهج التربية في القرآن والسنة**، دار المعرفة، بيروت.

212- عمر البطاينة : **منهج الدعوة في القصة القرآنية** ، دار الكتاب الثقافي ، اربد .

213- عمر الأشقر، **زبدة التفاسير**، دار النفائس، عمان.

214- ....، **العقيدة في الله**، دار النفائس، عمان.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

215-غالب بن علي عواجي، **الحياة الآخرة، دار لينة للنشر والتوزيع**، مصر، دمنهور، ط1، 1997م.

216- فاطمة إسماعيل، **القرآن والنظر العقلي**، المعهد العالمي لفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 1993م.

217- فتحي الدريني، **دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر**، دار قتيبة، دمشق، ط1، 1988م.

218- د فضل حسن عباس ، **القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته** ، ، دار الفرقان ، عمان ، ط 1 ، 1407/ 1987م .

219- فؤاد الجميعي وزملائه، **مبادئ العلوم السلوكية**، (د.ن)، ط1994م.

220- فؤاد العقيلي، **دراسات في العقيدة الإسلامية**، دار النهضة، القاهرة.

221- فواز سالم عفيفي، **السلوك الاجتماعي**، وكالة المطبوعات، الكويت.

222- كامل محمد عويضة، **السلوك الإنساني**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996م.

223- ماجد عرسان الكيلاني، **أهداف التربية الإسلامية**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط2، 1997م.

224- مجد مكي، **البيان في أركان الإيمان**، دار نور المكتبات، جدة، ط1، 1999م.

225- د. محب الدين بن عبد السبحان واعظ ، **التربية القرآنية وأثرها على الفرد والمجتمع** ، 1427هـ

226- محمد بن أحمد الشربيني القاهري الشافعي المعروف بالخطيب: (ت :977 هـ) **تفسير السراج المنير** - مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، سنة 1990م

227- محمد أمين المصري، **من هدي سورة الأنفال**، (د.ن)، (د.ت).

228- محمد أبو زهرة، **المعجزة الكبرى**، دار الفكر العربي، بيروت.

229- محمد أديب صالح، **لمحات في أصول الحديث**، المكتب الإسلامي، ط3.

230- محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن** - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الأولى - 1996

231- محمد باقر الصدر ، فلسفتنا ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الخامسة عشرة ، 1410هـ-1989م .

232- محمد باقر الحكيم: **تكرار القصة في القرآن الكريم** ، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، جمع وإعداد:علي الشحود.

233- محمد بسام رشدي الزين، **المعجم المفهرس**، بمعاني القرآن العظيم، دار الفكر، دمشق، ط3، 1996م.

234- د. محمد تهامي نقرة، ، **سيكولوجية القصة في القرآن** ، الشركة التونسية للتوزيع، ص 124،

235- محمد خير فاطمة، **تربية عقيدة الناشئ**، دار الخير، دمشق، ط1، 1998م.

236- د . محمد حسن محمد سبتان ، **تقويم أساليب تعليم القرآن الكريم وعلومه في وسائل الإعلام** .

237- محمد حسين عبد الله، **مفاهيم إسلامية**، دار البيارق، بيروت، ط1، 1994م.

238- محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1342هـ.

239- محمد رمضان البوطي، **كبرى اليقينات الكونية**، دار الفكر، دمشق، ط8، 1982م.

240- د.محمد بن السريّع ، **خصائص القصص القرآني**، المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام ، جمع وإعداد علي بن نايف الشحود

241- د . محمد السيد طنطاوي ، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1406 هـ - 1985م .

242- محمد بن سليمان الأشقر : **زبدة التفسير** من فتح القدير". وزارة الأوقاف - الكويت / ط الثانية 1408هـ .

243- محمد بن يوسف إطْفَيّش المعزي من علماء الأباضية (ت- 1332هـ) . **شرح النيل وشفاء العليل للشيخ** : ، الطبعة الثالثة ، السعودية ، مكتبة الإرشاد 1985م .

244- محمد السيد يوسف، **منهج القرآن في إصلاح المجتمع**، دار السلام، مصر، ط1، 2002م.

245- محمد بن صالح العثيمين، **مجموع فتاوي ورسائل**، المكتبة السلفية، الرياض.

246- محمد الشيخ عايد طبيشات، **الإنسان في القرآن الكريم**، طبعه وأخرجه محمد غانم. إربد.

247- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ، **التحرير و التنوير** ، الدار التونسية للنشر .

248- محمد عبده، رسالة التوحيد، دار إحياء العلوم، بيروت، ط3، 1979م.

249- محمد عبد الهادي المصري، **حقيقة الإيمان عند أهل السنة**. دار الإعلام الدولي. القاهرة، ط2، 1993م.

250- محمد أبو العلا، **العلوم السلوكية**، مكتبة عين شمس، القاهرة، 1997م.

251-محمد الغزالي، **عقيدة المسلم**، دار القلم، دمشق، ط2، 1979م.

252- ....، **مع الله**، المكتبة الإسلامية، القاهرة، ط5، 1981م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

253- محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس** لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر ، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1991م .
254- محمد قطب، **دراسات قرآنية**، دار الشروق، بيروت، ط2، 1980م.
255 ....، **منهج التربية الإسلامية**، دار الشروق، بيروت، ط7، 1993م.
256 ....، **أركان الإيمان** ، دار الشروق ، بيروت ، ط3 ,
257- محمد قطب ، **القصة في القرآن** ، دار قباء ، القاهرة ، 2002م .
258- مذكر محمد عارف. **الصدق في القرآن الكريم**، مكتبة الرشيد، الرياض،1416هـ .
259- محمد كامل المحامي، **محبة الله في القرآن الكريم**، المكتب العالمي، بيروت، 1988م.
260- محمد لطفي الصباغ، **الإنسان في القرآن الكريم**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992م.
261- محمد متولي شعراوي، **عقيدة المسلم**، دار القلم، بيروت، 2000م.
262- ....، **اليوم الآخر**، دار القلم، بيروت، 2000م.
263- ....، **منهج الله في الكون**، دار القلم، بيروت، 2000م.
264- الدكتور محمد مطني: **سورة القصص دراسة تحليلية** .
265- محمد محمد اسماعيل، **ايقاظ الفكر**، تحقيق هشام البدراني، دار السلام، الزرقاء، 2005.
266- محمد ملكاوي، **عقيدة التوحيد**، دار ابن تيمية، الرياض، ط1، 1985م .
267- محمد ناصر الدين الألباني: **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ، المكتب الإسلامي. ط الثانية 1399هـ .
268- ....، **صحيح الترغيب والترهيب** : **مكتبة المعارف** ، **الرياض**. **ط 5** .
269- محمد نوح، **آفات على الطريق**، دار اليقين، المنصورة، ط1، 1988م.
270- محمد خليل هراس، **عقيدة القرآن والسنة**، مؤسسة مكة للطباعة والإعلام. (د.ت).
271- ....، **دعوة التوحيد** ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 1424هـ- 2004م .
272- محمد وصفي ، **تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي** ، دار الفضيلة ، القاهرة ، 2001م .
273- محمود الخالدي، **التفكير**، دار الرسالة الحديثة، عمان، ط1، 1985م.
274- محمود قاسم عبيدات، **قضية الإيمان والتكفير**، دار البشير، عمان، ط1، 1996م.
275- مصطفى سعيد الخن وزميله. **العقيدة الإسلامية**، دار القلم الطيب، بيروت، ط1، 1996م.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

276د. مصطفى عليان ، **بناء الشخصية في القصة القرآنية** ، دار البشير- بيروت ، 1992م .
277- مقداد يالجن، **جوانب التربية الإسلامية الأساسية**، دار الريحانة، بيروت، ط1، 1986م.
278- منى بنت عبد الله، **العقيدة في ضوء القصص القرآني**، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1998م.
279- موريس بوكاي . **علم الجيولوجيا والقرآن الكريم** . ترجمة : رشوان غالب . الطبعة الثانية . الدار الأكاديمية . قطر . 1412 هـ .
280- ....، **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم في ضوء المعارف الحديثة**، ترجمة دار المعارف . القاهرة 1979م .
281- هشام البدراني،**الحكم الشرعي في بحث أسماء الله وصفاته**، دار البيارق، عمان، ط1، 1998م.
282- ....، **مفاهيم علماء النفس**، دار البيارق، عمان، ط1، 1980م.
283- يحيى هاشم، **العقيدة الإسلامية بين الفلسفة والعلم**، (د.ن)، (د.ت).
284- يوسف القرضاوي، **الإيمان والحياة**، مكتبة وهبة، القاهرة، ط9.
285- يوسف محمود، **النفس والروح**، دار الحكمة، الدوحة، ط3، 1993م.

* الدوريات والرسائل العلمية:-

286- إبراهيم الهزاع ، **رحلة طويلة**، مجلة البيان، العدد (4) جمادي الآخرة- 1407هـ
287- الشيخ أحمد عبد الرحيم السايح ، الحضارة الإسلامية، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (39) . 1390هـ .
288- د جمال أحمد بادي ، **أسس ترشيد رد الفعل الدعوي في ضوء القرآن والسنة**، مجلة البيان ، العدد (201) . جمادي الأول – 1425هـ .
289- الشيخ حسن السيد متولي ، **وذكّر فإن الذّكرى تنفع المؤمنين**، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (15) .
290- د. حمدي شعيب ، **قطوف تربوية حول قصة أصحاب القرية**، مجلة البيان ، العدد (193) . شعبان ن 1424هـ .
291- د. سالم بن محمد القرني ، **الرضا بالقضاء** ، مجلة جامعة أم القرى العدد (21) 1421 هـ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

292- الدكتور السيد رزق الطويل ، **النسيان والذكر في القرآن الكريم**، مجلة البحوث الإسلامية ، العدد (13) رجب-شوال 1405 هـ .

293- زيد الرماني ، **الدلالات الاقتصادية من قصة يوسف عليه السلام** ، مجلة النور ، عدد (96)

294- د . محمد البرزنجي ، **مدلولات الأمن الإسلامي** ، مجلة البيان ، العدد (124) ، ذوالحجة – 1418 .

295- محمد رشيد رضا ، **التربية النفسية** ، مجلة المنار العدد : (2) . 10 محرم - 1317هـ

296- عبد الحكيم بن محمد بلال ، **نظرات في أصول التجديد** - فن الوعظ أهميته وضوابطه- مجلة البيان عدد(98) . شوال- 1416

297- د.عبد الرحمن الأنصاري، **معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه** ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد (105)

298- عبد العزيز التميمي ، **عوامل النصر في القرآن الكريم**، مجلة البيان، العدد (202) . جمادي الآخرة – 1425 هـ .

299- عبد العزيز بن ناصر الجليل ، **أعداء الأمن كما وصفهم القرآن الكريم** ، مجلة البيان ، العدد (238) . جمادي الاخرة – 1428 هـ .

300- عبد القادر شيبة الحمد ، **نعمة الأمن**، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، العدد (5) رجب 90 13هـ .

301- عبد المجيد النجار، **في فقه التدين منهجا وتنزيلا**، سلسلة كتاب (الأمة) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد (20).

302- عودة الله منيع القيسي. **صحة الحدث التاريخي و القصص القرآني**. مجلة منار الإسلام. العدد الثامن شعبان 1403هـ مايو- يوليو 1 983 م.

303- د. فريد الأنصاري ، **بعثة التجديد المقبلة في ظل الاجتياح العولمي** . مجلة البيان، العدد (192) . شعبان 1424 هـ .

304- .... **جمالية الدين في جمالية التوحيد** ، مجلة البيان ، العدد (209) . المحرم – 1426.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

305- د. محمد بن سعد الشويعر ، **التبشير في منطقة الخليج والجزيـــرة العربيـــة**، ، مجلـــة البحوث الإسلامية العدد (9) ربيع الأول- جمادي الثانية ، 1404هـــ .

306- د . مصطفى السيد ، **مقدمة في بناء الرواية (1-2)**، **خواطر عن القصة في القرآن الكريم** , ، مجلة البيان ، (33) . ربيع الآخر – 1411هـــ .

307- نجوى محمد الدمياطي، ، **شذرات وقطوف**، مجلة البيان ، العدد (29) . ذو القعدة – 1410هـــ .

308- همام سعيد، **الفكر المنهجي عند المحدثين**، سلسلة كتـــاب (الأمـــة) وزارة الأوقـــاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد (16)

*** مواقع على شبكة الإنترنت :**

1- كتب موقع الموسوعة الشاملة www.islamport.com :

2- موسوعة الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

جمعهـــا وقـــدم لهـــا ورتبـــها:علـــي بـــن نـــايف الشـــحود :

http://www.altawhed.com/Detail.asp?InNewsItemID=18316
5 .

3- موسوعة فقه الابتلاء : جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود

http://www.alminbar.net

4- الكتاب : موسوعة الدين النصيحة 1-5 : قام بجمعها وترتيبها الباحث في القرآن والسنة علي بن نايف الشحود : http://www.islamadvice.com/

5- : موسوعة البحوث والمقالات العلمية ، حوالي خمسة آلاف وتسعمائة مقال وبحث: جمع وإعداد الباحث في القرآن والسنة علي بن نايف الشحود :

6- الكتاب : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة .

: الندوة العالمية للشباب الإسلامي ،إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني

: موقع الكاشف : http://www.alkashf.net/mthahb

7- عبد الوهاب المسيري : موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية

مصدر الكتاب : موقع صيد الفوائد : www.saaid.net

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

8- د. وسيم فتح الله ، أساليب التربية والدعوة والتوجيه من خلال سورة إبـــراهيم، موقـــع الإسلام : http://www.al-islam.com

9- محمد بن إبراهيم بن حسان ، سلسلة التربية لماذا ، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية ، http://www.islamweb.net .

10- http://www.alwarraq.com

11- http://www.al-islam.com

12- /http://www.islamadvice.com

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
- الإهداء .	
- الشكر والتقدير	
- مقدمة .	
[الباب الأول]: مفهوم العقيدة الإسلامية والقصص القرآني والعلاقة بينهما .	1
الفصل الأول : العقيدة الإسلامية	2
المبحث الأول : مفهوم العقيدة الإسلامية	3
المبحث الثاني : مقومات العقيدة الإسلامية [الأساسين: الفكري والنفسي]	19
المبحث الثالث : طريقة تأسيس المعتقد الإيماني .	66
الفصل الثاني: القصص القرآني :	119
المبحث الأول : مفهوم القصص القرآني	123
المبحث الثاني : أهداف القصص القرآني	130
المبحث الثالث : خصائص القصص القرآني	176
[الباب الثاني]: دور قصة إبراهيم في تكوين الأساس الفكري لعقيدة التوحيد	225
الفصل الأول : استدلال إبراهيم بقدرة الله تعالى على إلوهيته	245
المبحث الأول : دليل الخلق	249
المبحث الثاني : دليل الرزق	260
المبحث الثالث : دليل الضر والنفع	266
المبحث الرابع : دليل الإحياء والإماتة	283
المبحث الخامس: دليل البعث والحساب والجزاء	303
الفصل الثاني : استدلال إبراهيم بملك الله تعالى على إلوهيته	322
المبحث الأول: الاستدلال بملكه التام لجميع الخلائق	330
المبحث الثاني: الاستدلال بملكه ليوم الدين	343
الفصل الثالث : استدلال إبراهيم بعلم الله تعالى علي إلوهيته	355
المبحث الاول: الاستدلال بعلمه تعالى لعالم الغيب والشهادة	363

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الموضـــــوع	رقم الصفحة
المبحث الثاني: الاستدلال بعلمه تعالى بالإنسان سره وجهره	388
المبحث الثالث: الاستدلال بعلمه تعالى بما يصلح الإنسان وينفعه	401
الفصل الرابـــــع : استدلال إبراهيم برحمة الله تعالى على إلوهيته	457
المبحث الأول: الاستدلال برحمته في قضائه وقدره	462
المبحث الثاني: الاستدلال برحمته تعالى في تشريعه وحكمه	484
المبحث الثالث: الاستدلال برحمته تعالى في مغفرته وحلمه	523
المبحث الرابع : الاستدلال برحمته تعالى في ميزان الحساب	571
الفصل الخامس: استدلال إبراهيم بعدالة الله تعالى على إلوهيته	606
المبحث الأول: الاستدلال بعدالته تعالى في قضائه وقدره	613
المبحث الثاني: الاستدلال بعدالته تعالى في شرعه ودينه	630
المبحث الثالث: الاستدلال بعدالته تعالى في حسابه وجزائه	656
الفصل السادس: استدلال إبراهيم بإرادة الله تعالى على إلوهيته	683
المبحث الأول: الاستدلال بإرادته تعالى الكونية القدرية	696
المبحث الثاني: الاستدلال بإرادته تعالى الشرعية التكليفية	741
الفصـــل السابـــع : استدلال إبراهيم بكمال الله تعالى على إلوهيته	773
المبحث الأول: الاستدلال بإثبات كماله تعالى في أسمائه وصفاته على ألوهيته	794
المبحث الثاني: الاستدلال بإثبات النقص لكل ما سواه تعالى على ألوهيته .	814
المبحث الثالث: الاستدلال بنفي المماثلة مع الله في أسمائه وصفاته على ألوهيته	823
[الباب الثالث] : دور قصة إبراهيم في تكوين الأساس النفسي لعقيدة التوحيد	838
الفصـــــــل الأول : محبة الله تعالى	841
المبحث الأول: التأسيس الفكري لمحبة الله تعالى	843
المبحث الثاني: التربية النفسية لمحبة الله تعالى	887
الفصـــل الثـــاني : مخافة الله تعالى	908
المبحث الأول: التأسيس الفكري لمخافة الله تعالى	911
المبحث الثاني: التربية النفسية لمخافة الله تعالى	953
الفصـــل الثـــالث : رجاء الله تعالى	1023

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الموضـــوع	رقم الصفحـــة
المبحث الأول: التأسيس الفكري لرجاء الله تعالى	1026
المبحث الثاني: التربية النفسية لرجاء الله تعالى	1058
الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات..	1109
قائمة المصادر والمراجع .	1112

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

RESUME EN LANGUE FRANCAISE

Louange à Allah , et paix et bénédiction sur le dernier des messagers et prophètes et tous ceux qui le suivront jusqu'au jour du jugement dernier :

Le titre de l'étude est « **Le Rôle du récit Coranique dans l'élaboration de la foi du musulman – Histoire d'Ibrahim (la paix soit sur lui) Modèle et Exemple** » son objectif est de découvrir la dimension confessionnelle dans le récit coranique, à travers l'Histoire d'Ibrahim (la Paix soit sur lui), la présente étude se compose d'une introduction, trois chapitres et une conclusion :

- **L'Introduction :** comprend l'importance du sujet de recherche, les justificatifs de choix, les moralités de l'étude, la problématique de la recherche, les hypothèses, la méthodologie de recherche, les sources de la recherche et la structure organisationnelle de la recherche.

- **Le Premier Chapitre :** sous le titre de **« Foi Islamique et Récits Coraniques »**

Ce chapitre se compose de deux sections : la première traite du Concept Linguistique et Terminologique de la Foi, et dans laquelle j'ai montré que le concept de la foi est basé sur deux fondements : intellectuel et psychologique. J'ai montré la réalité du fondement intellectuel : en décortiquant le concept de la pensée et ses degrés et méthodes, pour ajuster le bon comportement envers la foi, et éclaircir le degré et la méthode qui mènent à la réalité de la foi, et j'ai montré son rôle principal dans l'élaboration de la foi, après j'ai montré la réalité du fondement psychologique : où j'ai présenté

le concept de la personne humaine, au travers duquel j'ai montré une conception de la réalité de la personne humaine. J'ai montré ses états et son rôle principal dans l'élaboration de la foi. Ensuite j'ai montré la méthode de constitution de la croyance de la foi selon la voie intellectuelle et la voie psychologique, à travers une étude analytique et détaillé du processus de constitution de la croyance de la foi, en analysant les facteurs de la foi un par un, et en montrant le rôle de chaque facteur dans l'élaboration de la croyance de la foi, ce qui sert le processus éducatif dans l'édification idéologique de la personnalité islamique, en sortant de l'état de généralisation et de globalisation de l'une des plus importantes et dangereuses problématiques de la vie humaine, et en sortant la foi de l'état de schisme et d'émotivité à un état d'édification et d'efficacité. La deuxième section traite du : Concept Linguistique et Terminologique du récit Coranique , j'ai montré les objectifs majeurs du récit coranique : qui est l'édification de la personnalité et la nation islamique, et l'appel à la voie d'Allah selon ses concepts divines. J'a i aussi montré les particularités artistiques, thématiques et objectives du récit coranique.

- **Le Deuxième Chapitre** : sous le titre de **« Le Rôle du Récit d'Ibrahim dans l'Edification du Fondement Intellectuel de la Foi Monothéiste »** J'ai montré à travers : (comportement de l'adoption et de l'engagement), et c'est la méthode du Coran dans l'édification du fondement intellectuel de la foi monothéiste, ce monothéisme étant utilisé comme avant-propos connu et réalité établie et affaire adoptée, convenue et acceptée, afin de l'utiliser comme raisonnement pour justifier l'unicité divine, cela se concrétise à travers la puissance divine absolue, son royaume intégral, son savoir plénier, sa vaste miséricorde, sa volonté exécutable, sa justice absolue, ses parfaites qualités et noms, ainsi pour justifier la divinité d'Allah et son droit d'être glorifié et servi. J'ai exposé tout cela dans sept sections, la première section :

raisonnement d'Ibrahim par la capacité d'Allah de créer, donner, avantager et endommager, faire vivre et prendre son âme, résurrection, justice et salut. La deuxième section : dans laquelle j'ai montré le raisonnement d'Ibrahim par la propriété d'Allah de toutes les créatures et du jour du dernier jugement. La troisième section : le raisonnement d'Ibrahim par la savoir d'Allah sur le monde de l'inconnu, et du savoir d'Allah sur le secret et l'apparent de l'homme, ce qui en est bon et ce qui est mauvais. La quatrième section : j'ai montré dans cette section le raisonnement d'Ibrahim par la miséricorde d'Allah dans sa providence et son destin, par sa miséricorde dans sa charia et son pouvoir, son salut et son indulgence et sa justice. La cinquième : où j'ai montré le raisonnement d'Ibrahim par la justice d'Allah dans sa providence et son destin, dans sa charia et sa religion, sa justice et son jugement. La sixième section : où j'ai montré le raisonnement d'Ibrahim par la volonté d'Allah sur l'univers et le destin, et sa volonté de légiférer et de mandater. La septième section : où j'ai montré la raisonnement d'Ibrahim par la parfaite divinité d'Allah à travers : affirmation dans ses noms et ses qualités, et l'affirmation de l'imperfection de toute autre créature, et de rejeter toute ressemblance à Allah dans ses noms ou ses qualités.

- **Le Troisième Chapitre :** sous le titre de **« Histoire d'Ibrahim dans l'Edification du Fondement psychologique de la Foi Monothéiste »** j'ai ainsi lié le côté psychologique au côté intellectuel dans l'édification de la foi, car l'absence du côté psychologique dans l'édification de la foi avait un impact direct sur la concrétisation du rôle de la foi et son effet dans la vie et la réalité du musulman, et j'ai exposé le rôle du récit d'Ibrahim dans l'édification psychologique dans trois sections : Dans la première section j'ai montré le rôle du récit d'Ibrahim dans l'édification psychologique pour l'amour d'Allah. Dans la deuxième section j'ai montré le rôle du récit d'Ibrahim dans l'édification psychologique pour la crainte d'Allah. Et dans la troisième section : j'ai montré le

rôle du récit d'Ibrahim dans l'édification psychologique pour espérer Allah, j'ai montré dans chaque section la méthode d'édification psychologique pour l'amour, la crainte et l'espérance d'Allah à travers la constitution intellectuelle en premier . puis l'éducation psychologique.

- **La Conclusion :** dans laquelle j'ai montré les résultats et les recommandations tirées de cette étude.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص باللغة العربية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ومن سار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين، أما بعد :

هذه الدراسة بعنوان: (**دور القصص القرآني في تكوين عقيدة المسلم – قصة إبراهيم عليه السلام النموذج والمثال**) وقد هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن البعد العقدي في القصة القرآنية، من خلال قصة إبراهيم عليه السلام ، وقد اشتملت هذه الدراسة على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة :

ـ **أما المقدمة:** فجاء فيها أهمية موضوع البحث، ومبررات اختياره، وأدبيات الدراسة، ومشكلة البحث، والفرضيات، ومنهجية البحث، ومصادر البحث، والهيكل التنظيمي للبحث .

ـ **وأما الباب الأول** : فهو بعنوان (**العقيدة الإسلامية والقصص القرآني**) . وهذا الباب يتكون من فصلين : تناولت في الفصل الأول : المفهوم اللغوي والاصطلاحي للعقيدة ، وبينت فيه أن مفهوم العقيدة يقوم على أساسين : فكري ونفسي . ثم بينت حقيقة الأساس الفكري : حيث بينت مفهوم التفكير ومراتبه وطرقه، وذلك من أجل ضبط التعامل الصحيح مع العقيدة ، وبيان المرتبة والطريقة الموصلة للحقيقة الإيمانية ، وبينت دوره الأساسي في تكوين العقيدة ، وبعد ذلك بينت حقيقة الأساس النفسي : فقدمت مفهوما للنفس الإنسانية، بينت من خلاله تصوراً لحقيقة النفس الإنسانية . وبينت أحوالها ودورها الأساسي في تكوين العقيدة . ثم بينت طريقة تأسيس المعتقد الإيماني من الوجهتين الفكرية والنفسية ، وقدمت ذلك من خلال دراسة تحليلية وتفصيلية لعملية تأسيس المعتقد الإيماني ، وذلك بتحليل جميع عناصر العقيدة عنصراً عنصراً ، وبيان دور كل عنصر في تكوين المعتقد الإيماني ، مما يخدم العملية التربوية في البناء العقدي للشخصية الإسلامية ، وخروجاً من حالة التعميم والإجمال في أخطر وأهم قضية في حياة الإنسان ، وكذلك خروجاً بالعقيدة من حالة الاختلاف والانفعالية إلى حالة البناء والفاعلية . وأما في الفصل الثاني : فقد تناولت فيه المفهوم اللغوي والاصطلاحي للقصص القرآني ، ثم بينت أبرز

أهداف القصة القرآنية : وهو بناء الشخصية والأمة الإسلامية . والدعوة إلى الله وفقه سننه تعالى . كما بينت الخصائص الذاتية والفنية والغرضية والموضوعية للقصة القرآنية .

ـــ **وأما الباب الثاني** : فهو بعنوان (**دور قصة إبراهيم في تكوين الأساس الفكري لعقيدة التوحيد**) وقد بينت ذلك من خلال : (**مسلك التقرير والإلزام**) . وهي طريقة القرآن في بناء الأساس الفكري لعقيدة التوحيد ، حيث يستخدم توحيد الربوبية كمقدمة معلومة وحقيقة ثابتة وقضية مقررة ومتفق عليها ومسلم بها ، للاستدلال بها على لازمها من توحيد الألوهية، وقد بينت ذلك من خلال ربوبيته تعالى والمتمثلة بقدرته المطلقة. وملكه التام . وعلمه الشامل . ورحمته الواسعة . ومشيئته النافذة . وعدالته المطلقة . وكماله في أسمائه وصفاته. للاستدلال بها على استحقاقه تعالى للألوهية وحقه في العبودية . وقد عرضت ذلك من خلال سبعة فصول ، أما الفصل الأول: فبينت فيه استدلال إبراهيم بقدرة الله تعالى عل الخلق، والرزق، والضر والنفع، والإحياء والإماتة، والبعث والحساب والجزاء ، وأما الثاني : فبينت فيه استدلال إبراهيم بملكه التام لجميع الخلائق وبملكه ليوم الدين . وأما الثالث : فبينت فيه استدلال إبراهيم بعلمه تعالى لعالم الغيب والشهادة، وبعلمه تعالى بالإنسان سره وجهره، وبعلمه تعالى بما يصلح الإنسان وينفعه . وأما الرابع : فبينت فيه استدلال إبراهيم برحمة الله تعالى في قضائه وقدره ، وبرحمته تعالى في تشريعه وحكمه ، وبرحمته تعالى في حلمه ومغفرته ، وبرحمته تعالى في ميزان الحساب و الجزاء . وأما الخامس : فبينت فيه استدلال إبراهيم بعدالته تعالى في قضائه وقدره ، وبعدالته تعالى في شرعه ودينه ، وبعدالته تعالى في حسابه وجزائه , وأما السادس : فبينت فيه استدلال إبراهيم بإرادته تعالى الكونية القدرية، وبإرادته تعالى الشرعية التكليفية ، وأما السابع : فبينت فيه استدلال إبراهيم بكمال الله تعالى على إلوهيته من خلال : إثبات كماله تعالى في أسمائه وصفاته، وإثبات النقص لكل ما سواه تعالى، وبنفي المماثلة مع الله في أسمائه وصفاته.

ـــ **وأما الباب الثالث** : فهو بعنوان (**دور قصة إبراهيم في تكوين الأساس النفسي لعقيدة التوحيد**) فربطت بذلك الجانب النفسي بالجانب الفكري في بناء العقيدة ، لأن تغيب الجانب النفسي في البناء العقدي كان له سبب مباشر في عدم تحقيق العقيدة دورها وفاعليتها في حياة المسلم وواقعه ، وقد عرضت دور قصة إبراهيم في البناء النفسي من خلال ثلاثة فصول : أما

الفصل الأول : فبينت فيه دور قصة إبراهيم في البناء النفسي لمحبة الله تعالى . وأما الثاني: فبينت فيه دور قصة إبراهيم في البناء النفسي لمخافة الله تعالى. وأما الثالث : فبينت فيه دور قصة إبراهيم في البناء النفسي لرجاء الله تعالى ، وقد بينت في كل فصل طريقة البناء النفسي لمحبة الله ومخافته ورجائه من خلال التأسيس الفكري ابتدأً ، ثم التربية النفسية . وفي الخاتمة: بينت أهم النتائج والتوصيات التي وصلت إليها هذه الدراسة .

والله ولي التوفيق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية